تفسير القرآن الكريم

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

عبدالرحمن بن ناصر السعدي

المختصر

اختصار وتبويب

نبيل رضا المهايني

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

مقدمة المؤلف الشيخ السعدي

رحمة الله تعالى وغفر له

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى أنزل على عبده الفرقان الفارق بين الحلال والحرام، والسعداء والأشقياء، والحق والباطل.
وجعله برحمته هدىً للناس عموماً وللمتقين خصوصاً، من ضلال الكفر والمعاصي والجهل، إلى نور الإيمان والتقوى والعلم.
وأنزله شفاء للصدور من أمراض الشبهات والشهوات
ويحصل به اليقين والعلم في المطالب العاليات،
وشفاء للأبدان من أمراضها وعللها وآلامها وسقمها.
وأخبر أنه لا ريب فيه ولا شك بوجه من الوجوه، وذلك لاشتماله على الحق العظيم، في أخباره، وأوامره، ونواهيه،
وأنزله مباركاً، فيه الخير الكثير، والعلم الغزير، والأسرار البديعة، والمطالب الرفيعة، فكل بركة وسعادة تنال في الدنيا والآخرة، فسببها الاهتداء به واتباعه،
وأخبر أنه مصدق ومهيمن على الكتب السابقة، فما يشهد له فهو الحق، وما رده فهو المردود، لأنه تضمنها وزاد عليها، وقال تعالى فيه: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ فهو هاد لدار السلام، مبين لطريق الوصول إليها، وحاثٌّ عليها، كاشف عن الطريق الموصلة إلى دارا لآلام ومحذُر منها،
وقال تعالى مخبراً عنه: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ فبين آياته أكمل تبيين وأتقنها أي إتقان، وفصلها بتبيين الحق من الباطل والرشد من الضلال، تفصيلاً كاشفاً للبس، لكونه صادراً من حكيم خبير، فلا يخبر إلا بالصدق والحق واليقين، ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان والبر، ولا ينهى إلا عن المضار الدينية والدنيوية.
وأقسم تعالى بالقرآن ووصفه بأنه "مجيد" والمجد: سعةُ الأوصاف وعظمتها، وذلك لسعة معانى القرآن وعظمتها.
ووصفه بأنه "ذو الذكر" أي يتذكر به العلوم الإلهية والأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة، ويتعظ به من يخشى.
وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فأنزله بهذا اللسان لنعقله ونتفهمه، وأمرنا بتدبره، والتفكير فيه، والاستنباط لعلومه، وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح لكل خير، محصل للعلوم والأسرار. فلله الحمد والشكر والثناء، الذى جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة ونوراً، وتبصرة وتذكرة، وبركة وهدى وبشرى للمسلمين.
فإذا علم هذا، علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه والاهتداء بها. وكان حقيقاً بالعبد أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك.
وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مُطَوِّل خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مُقَصِّر يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية.

وكان الذى ينبغي في ذلك، أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه، فينظر في سياق الكلام، وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر، ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصاً إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها فمن وفق للك لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه وكثرة التفكير في ألفاظه ومعانيه ولوازمها، وما تتضمنه، وما تدل عليه منطوقاً ومفهوماً، فإذا بذل وسعه في ذلك، فالرب أكرم من عبده، فلابد أن يفتح عليه من علومه أموراً لا تدخل تحت كسبه.

ولما منَّ الباري عليَّ وعلى إخواني بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللائقة [بنا] أحببت أن أرسم من تفسير كتاب الله ما تيسر، وما من به الله علينا، ليكون تذكرة للمحصلين، وآلة للمستبصرين، ومعونة للسالكين ولأقيده خوفَ الضياع، ولم يكن قصدي في ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود ولم أشتغل في حل الألفاظ والعقود، للمعنى الذى ذكرت، ولأن المفسرين قد كفوا مَنْ بعدهم، فجزاهم الله عن المسلمين خيراً.

والله أرجو، وعليه أعتمد، أن ييسر ما قصدت، ويذلل ما أردت، فإنه إن لم ييسره الله، فلا سبيل إلى حصوله، وإن لم يعن عليه، فلا طريق إلى نيل العبد مأموله.

وأسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به النفع العميم، إنه جواد كريم. اللهم صلِ على محمد وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

توضيح

حول كتاب المختصر

نبيل رضا المهايني

بسم الله الرحمن الرحيم

تعرفت أوّل ما تعرّفت إلى هذا التفسير الجليل يوم دلّني عليه قريبي المرحوم بإذن الله تعالى نضال جمال المهايني، في طبعة "دار الرسالة". وقد أحببت الكتاب من يومها فأقبلت على قراءته ثمّ على إهداء نسخ منه للأصدقاء. وكنت أتمنّى أن تتاح لي فرصة القيام باختصاره. ولم يكن هذا أمراً في متناول اليد، نظراً لضخامة العمل وقلّة حيلتي في شأن من هذا النوع. انتشر بعدها استعمال الانترنت، وظهرت مواقع كثيرة تعنى بنشر القرآن الكريم وتفاسيره. حينها وجدت هذا الكتاب منشوراً على عدّة مواقع أهمّها موقع (آيات) وموقع (عماد الدين). بدأت وقتها رحلتي الثانية مع هذا التفسير الجليل، وشرعت باختصار التفسير، كما ورد في هذين الموقعين. وكنت ألجأ بين الحين والآخر إلى مطابقة ما آخذه من هذا الموقع أو ذاك (ويبدو أنّهما أخذا عن مصدر واحد) على نصوص الكتاب المطبوع في الإصدار المذكور.

لم تكن عملية الاختصار سهلة، فسرعان ما وجدت أنّها ليست أمر اختصار نصٍ وحسب، بل برزت أمور أخرى، شكليّة في أكثرها، وكان لابدّ من إيجاد حلول مناسبة لها.

وسأذكر فيما يلي بعض

1. رأيت من المناسب القيام بترتيب تفسير الآيات الكريمة بحسب تسلسل ورودها في النصّ القرآني. أي أنّي قمت بترتيب الآيات في مقاطع التفسير كما هي في الأصل القرآني مع إضافة الناقص وحذف المتكرر، وذلك كي يسير التفسير بحسب ترتيب النص القرآني.
2. قمت بإضافة كلمات الآيات الكريمة التي جرى تجاوزها أو جرى إيرادها مفسّرة بشكل مختلف عن النص القرآني. أي أنّي أضفتها كما هي في الأصل القرآني، مع وضعها بالطبع ضمن قوسين، وباللون الأحمر.
3. وجدت أنّ الاستشهاد ببعض الآيات الكريمة ووضعها ضمن سياق النصّ يسبّب بعض الالتباس وعرقلة التتابع، فقمت باستبعادها من هذا المختصر من أجل تسليط الضوء على الآيات المعنيّة.
4. قمت بإضافة وذكر كثير من الآيات الكريمة حيث اكتفى الشيخ بذكر مطلعها وكتب (إلى آخر القصة).
5. قمت بوضع الشرح الضروري لكن غير الأساسي على الهامش في أسفل الصفحة مع وضع إشارة مرجعيّة.
6. قمت في كثير من الأحيان بوضع العبر والاستنتاجات التي أوردها الشيخ في هامش مرقّم.
7. وجدت بعض الأخطاء في تشكيل كلام الآيات الكريمة الواردة في سياق التفسير، والأخطاء خاصّة بالنصّ الالكتروني وليس في الكتاب المطبوع. وقد حصرت بعض الأخطاء في جدول خاص.

والله من وراء القصد.

تفسير القرآن الكريم

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

عبدالرحمن بن ناصر السعدي

المختصر

اختصار وتبويب

نبيل رضا المهايني

مختصر تفسير سورة الفاتحة

عدد آياتها 7

وهي مكية

﴿ 1 – 7 ﴾ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ أبتدئ بكل اسم لله تعالى المألوه المعبود ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء وعمّت كل حي. كتب رحمةً مطلقة للمتقين ﴿الرَّحِيمِ ﴾ ومن عداهم فلهم نصيب منها ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ له الحمد الكامل بجميع الوجوه ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يتفرّد بالخلق والتدبير والنعم. غناه كامل وفقر العالمين إليه تامّ. ولعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب. فإن مطالبهم كلها داخلة تحت هذا المعنى الخاص للربوبيّة ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ الله هو مالك يوم الدين، يوم القيامة. في ذلك اليوم يظهر للخلق تمام الظهور كمال ملك الله وعدله وحكمته، وانقطاع أملاك الخلائق. فلذلك خصه بالذكر. وإلّا، فهو المالك ليوم الدين ولغيره من الأيام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة. لأنّ في تقديم المعمول دلالة على الحصر ونفيه عما عداه. والعبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة. أمّا الاستعانة فهي الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك. وذكر الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيها من باب تقديم العام على الخاص، واهتماما بتقديم حقه تعالى على حق عبده. ولأنّ العبد يحتاج في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ دلّنا وأرشدنا ووفقنا للصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله، وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به. والهداية في الصراط تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علما وعملا. فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴿غَيْرِ﴾ صراط ﴿ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم ﴿وَلَا﴾ صراط ﴿ الضَّالِّينَ﴾ الذين تركوا الحق على جهل وضلال، كالنصارى ونحوهم.

2

مختصر تفسير سورة البقرة

عدد آياتها 286

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 – 5 ﴾ ﴿ الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

﴿ الم ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ هذا الكتاب العظيم الذي هو الكتاب على الحقيقة فـ ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولا شك بوجه من الوجوه ﴿ هُدًى﴾ تحصل به الهداية إلى سلوك

الطرق النافعة به. وقد حُذف المعمول لأنه هدى لجميع مصالح العباد. وهو ﴿ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لأنّهم هم المنتفعون بالآيات القرآنية ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ فلاشأن للإيمان بالأشياء المشاهدة بالحسّ، ففي هذا يشترك المسلم والكافر. إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به، لخبر الله وخبر رسوله ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ ظاهراً، بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وباطناً بحضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها ﴿ وَمِمَّا﴾ تدلّ على التبعيض، لأن المراد منهم ليس إلا جزءا غير ضار لهم ولا مثقل ﴿ رَزَقْنَاهُمْ﴾ الأموال التي بين أيديكم هي رزق من الله ﴿ يُنْفِقُونَ﴾ النفقات الواجبة كالزكاة، وعلى من تجب النفقة عليهم، والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير[1] ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن والسنة. فالمتقون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول ﴿ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يشمل الإيمان بالرسل وبالكتب السابقة خصوصا التوراة والإنجيل والزبور ﴿ وَبِالْآخِرَةِ﴾ لما يكون بعد الموت، وخصه بالذكر بعد العموم، لأنّ الإيمان باليوم الآخر هو من أركان الإيمان ﴿ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ واليقين هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك، الموجب للعمل ﴿ أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿ عَلَى ﴾ للدلالة على الاستعلاء[2] ﴿ هُدًى﴾ وضعها في صيغة المنكر للتعظيم ﴿ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ وأيّ هداية أعظم

[1] وكثيرا ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبيده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان.

[2] بينما تستعمل *في* عند الكلام عن الضلالة. كما في قوله تعالى: وَإِنَّا وَإِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. لأن صاحب الهدى مستعل بالهدى، مرتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه محتقر.

من تلك الصفات المذكورة! ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، حصر الفلاح فيهم؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم.

﴿ 6 - 7 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا تفيدهم الدعوة. وكأن في هذا قطعا لطمع الرسول صلى الله عليه وسلم في إيمانهم. وقد ذكر هنا صفات الكفّار المظهرين لكفرهم بعد أن ذكر قبلها صفات المؤمنين حقّاً ﴿خَتَمَ﴾ طبع ﴿اللَّهُ﴾ بطابع لا يدخل معه الإيمان ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فلا يعون ما ينفعهم ﴿ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ ولا يسمعون ما يفيدهم ﴿ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ عليها غشاء وغطاء وأكنة تمنعها عن النظر إلى ما ينفعهم. لقد سدّت عليهم طرق العلم والخير وأبواب الإيمان بسبب كفرهم بعد ما تبين لهم الحق، وهذا عقاب عاجل ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هو العقاب الآجل، أي عذاب النار الدائم.

﴿ 8 - 10 ﴾ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ بعد وصف المؤمنين ثمّ الكفّار، جاء دور المنافقين[3] الذين ظاهرهم الإسلام والخير وباطنهم الكفر والشر. يقول هؤلاء بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فأكذبهم الله بقوله ﴿ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان الحقيقي هو ما تواطأ عليه القلب واللسان ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ المخادعة هي أن يظهر المخادع شيئا ويبطن خلافه لكي يتمكن من مقصوده ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ فعاد خداعهم على أنفسهم ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ لكنّهم لا يشعرون بذلك من جهلهم وحماقتهم ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ من أمراض الشبهات المتمثّلة في الكفر والشك والنفاق والبدع ﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ يبتليهم الله بسبب ذنوبهم السابقة بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها. وعقوبة المعصية معصيةٌ بعدها ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ .

﴿ 11 - 12 ﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إذا نهي هؤلاء المنافقون عن العمل بالكفر والمعاصي وإظهار الإيمان أمام المؤمنين ثمّ موالاة للكافرين ﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ فجمعوا بين الإفساد في الأرض وقلب الحقائق ﴿ أَلَا

[3] والنفاق هو في العقيدة وفي السلوك، كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: " آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان " وفي رواية: " وإذا خاصم فجر ". وأما النفاق الاعتقادي المخرج عن دائرة الإسلام، فهو الذي وصف الله به المنافقين في هذه السورة وغيرها. وقد ظهر هذا النفاق بعد وقعة بدر. فبعد أن أظهر الله المؤمنين وأعزهم، ذلّ من في المدينة ممن لم يسلم، فأظهر بعضهم الإسلام خوفا ومخادعة. لكنّ الله لطف بالمؤمنين فجلا أحوال هؤلاء ووصفهم بأوصاف يتميزون بها، لئلا يغتر بهم المؤمنون.

﴿ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ فإنه لا أعظم فسادا[4] ممن صد عن سبيل الله وخادع الله وأولياءه وزعم أن هذا إصلاح ﴿ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ولكن لا يعلمون علما ينفعهم.

﴿ 13 ﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ للمنافقين ﴿ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾ أي كإيمان الصحابة رضي الله عنهم. وهو الإيمان بالقلب واللسان ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ فهم يزعمون أن سفههم أوجب لهم الإيمان وترك الأوطان، فردّ الله ذلك عليهم ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ على الحقيقة ﴿ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لأن حقيقة السفه جهل الإنسان بمصالح نفسه، وسعيه فيما يضرها، وهذه الصفة منطبقة عليهم.

﴿ 14 - 15 ﴾ ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا ﴾ بألسنتهم ﴿ آمَنَّا ﴾ وهذا ليس في قلوبهم ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ ﴾ أي رؤسائهم وكبرائهم في الشر ﴿ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ في الحقيقة و ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ بالمؤمنين ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ وهذا جزاء لهم على استهزائهم بعباده ﴿ وَيَمُدُّهُمْ ﴾ يزيدهم ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ فجورهم وكفرهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ حائرون مترددون، وهذا من استهزائه تعالى بهم.

﴿ 16 ﴾ ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

﴿ أولَئِكَ ﴾ المنافقون الموصوفون بتلك الصفات ﴿ الَّذِينَ اشْتَرَوُا ﴾ سلعة ﴿ الضَّلَالَةَ﴾ وهي غاية الشر ﴿ بِالْهُدَى﴾ ودفعوا ثمنها الهدى وهو غاية الصلاح ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ﴾ خسروا فيها أعظم خسارة ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ تحقّق ضلالهم ولم يحصل لهم من الهداية شيء.

﴿ 17 - 20 ﴾ ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

---

[4] وإنما كان العمل بالمعاصي في الأرض إفسادا لأنه يتضمن فساد ما على وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار والنبات بما يحصل فيها من الآفات بسبب المعاصي. ولأن الإصلاح في الأرض أن تعمر بطاعة الله والإيمان به. لهذا خلق الله الخلق وأسكنهم في الأرض وأدر لهم الأرزاق ليستعينوا بها على طاعته وعبادته. فإذا عمل فيها بضده كان سعيا فيها بالفساد فيها وإخرابا لها عما خلقت له.

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي﴾ كان في ظلمة وحاجة إلى النار شديدة ﴿ اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ من غيره ﴿ فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ﴾ وقرّت بها عينه ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ ﴾ وبقي في الظلمة العظيمة ﴿ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ فكذلك هؤلاء المنافقون استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين فانتفعوا بها بأن حُقنت دماؤهم وسلمت أموالهم وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا. لكن هجم عليهم الموت فسلبهم الانتفاع بذلك النور، وحصل لهم كلّ عذاب في ظلمة القبر وبعد ذلك ظلمة نار جهنّم ﴿ صُمٌّ ﴾ عن سماع الخير ﴿ بُكْمٌ ﴾ عن النطق به ﴿ عُمْيٌ ﴾ عن رؤية الحق ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه فلا يرجعون إليه ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ ينزل بكثرةٍ من السماء ﴿ فِيهِ ظُلُمَاتٌ ﴾ من الليل والسحاب والمطر ﴿ وَرَعْدٌ ﴾ يسمع من السحاب ﴿ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ هكذا حال المنافقين إذا سمعوا القرآن أعرضوا كما يفعل صاحب الصيّب عندما يسمع الرعد فيجعل أصابعه في أذنيه طلباً للسلامة ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ وأنّى للمنافقين السلامة، والله تعالى محيط بهم قدرةً وعلماً ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ ﴾ في تلك الظلمات ﴿ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ وقفوا ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ الحسية بعدما ابتلاهم بالصمم والبكم والعمى المعنوي[5]، وسد عليهم طرق الإيمان ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه شيء[6].

﴿ 21 – 22 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ هذا أمر عام لكلّ الناس أمرهم تعالى بما خلقهم له أي عبادته وحده ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بذلك سخطه وعذابه ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ تستقرون عليها وتنتفعون بكلّ مافيها وماعليها ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ لمسكنكم أودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من السحاب ﴿ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ به ترتزقون وتعيشون ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ نظراء وأشباهاً

---

[5] جاء في تفسير الطبري (نقلاً عن موقعAYAT)
يَخطفُ أبصَارهم: يذهب بها ويستلبُها من شدة ضيائه. جعل شدة شُعاع نُور البرق كضوء إقرارهم بألسنتهم بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من عند الله.
كلما أضاء لهم : كلما أضاء لهم الإيمان ورأوا فيه ما يُعجبهم في عاجل دنياهم من إصابةِ الغنائم في المغازي والسلامةِ في الأبدان والأهل والأولاد - فذلك إضاءتُه لهم، لأنهم إنما يُظهرون بألسنتهم ما يُظهرونه من الإقرار ابتغاءَ ذلك.
مشوا فيه: كلما رأوا في الإيمان ما يُعجبهم في عاجل دنياهم ثبتوا عليه وأقاموا فيه كما يمشي السائر في ظُلمة الليل إذا برقت فيها بارقةٌ أبصرَ طريقه فيها.
وإذا أظلم عليهم: ذهب ضوءُ البرق عنه، ولم يعد المنافقون يَرَوْا في الإسلام ما يعجبهم في دنياهم - عند ابتلاء الله مؤمني عباده بالضرَّاء، وتمحيصه إياهم بالشدائد والبلاء، أقاموا على نفاقهم وَثبتوا على ضلالتهم.
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ: هذا وعيد من الله للمنافقين فلو شاء لأذْهب عنهم السمع والبصر عقوبةً لهم على نفاقهم وكفرهم، ومخوِّفَهم بعقوبته، ليتقوا بأسَه ويُسارعوا إليه بالتوبة.
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ: حذَّر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنه بهم مُحيطٌ، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قَديرٌ.

وجاء في تفسير "التفهيم" للمودودي بالانكليزية (نقلاً عن موقعAYAT) : إنّ المثال الأوّل هو عن المنافقين الذين أسلموا رياء وللحفاظ على مصالحهم. والمثال الثاني يتعلّق بضعيفي الإيمان:، فالمطر الشديد هو تمثيل للإيمان أما الغيوم الحالكة والرعد والبرق فهي كناية عن الفتن والمصاعب التي تصيب المؤمنين. و يشير القسم الأخير من الآية إلى حالة المنافقين الذهنية الذين يمضون قدما عندما تكون الظروف مؤاتية لهم، لكن سرعان مايتراجعون عندما تظهر العقبات أمامهم. وتبيّن الآية أنّ الله الذي حرم الفئة الأولى من المنافقين من نور الإدراك قادرٌ أيضاًعندما يشاء على حرمان المنافقين الآخرين من سمعهم وأبصارهم. لكنّ الله لايحرم أحداً منها مادام راغباً في رؤية الحقيقة وسماعها.

6 وفي هذه الآية ردٌّ على القدريّة القائلين بأن أفعالهم غير داخلة في قدرة الله تعالى، لأن أفعالهم من جملة الأشياء الداخلة في قوله: إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

من المخلوقين تعبدونهم كما تعبدون الله ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنّ الله ليس له شريك، ولا نظير. وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه.

﴿ 23 - 24 ﴾ ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ في شكٍّ ﴿ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ وقلتم أنه تقوّله وافتراه ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في طلب الحق. وأما المعاند الذي يعرف الحق ويتركه، وكذلك الشاكّ غير الصادق في طلب الحق فهذا لا يمكن رجوعه ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ وإن لم تأتوا بسورة من مثله ولن تأتوا بسورة من مثله ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ فعليكم اتباعه واتقاء النار ﴿ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ ليست كنار الدنيا التي تتقد بالحطب ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ بالله ورسله، وهذه الآية[7] ونحوها يسمونها آيات التحدي، وهو تعجيز الخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

﴿ 25 ﴾ ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بقلوبهم ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ بجوارحهم، لتصلح أحوال العبد وأمور دينه ودنياه، فيكون بذلك من الصالحين، بشّرهم ﴿ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ ﴾ يجتن بها داخلها، وينعم فيها ساكنها ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أنهار الماء واللبن والعسل والخمر، يفجّرونها كيف شاءوا ويصرفونها أين أرادوا ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي هذا من جنسه، وعلى وصفه، كلها متشابهة في الحسن واللذة ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ في الاسم، مختلف الطعوم. أو متشابها في اللون، مختلفا في الاسم. وقيل أيضاً يشبه بعضه بعضا في الحسن واللذة، ولعل هذا الصحيح ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ بكمال الجمال وبجميع أنواع التطهير في الأخلاق[8] ﴿ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

﴿ 26 - 27 ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

[7] وهذه الآية ونحوها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة وخلافا للمعتزلة والخوارج، أنّ الجنة والنار مخلوقتان. وفيها أيضا، أن الموحّدين وإن ارتكبوا بعض الكبائر لا يخلدون في النار. لأنّ النار أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ، ولا يخلد فيها عصاة الموحّدين. وفيها دلالة على أن العذاب مستحق بأسبابه، وهو الكفر، وأنواع المعاصي على اختلافها.

8 ذكر في هذه الآية الكريمة المبشِّر والمبشَّر والمبشَّرُ به والسبب الموصل لهذه البشارة. فالمبشِّر: هو الرسول صلى الله عليه وسلم ومن قام مقامه من أمته، والمبشَّر: هم المؤمنون العاملون الصالحات، والمبشَّر به: هي الجنات الموصوفات بتلك الصفات، والسبب الموصل لذلك، هو الإيمان والعمل الصالح، فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة، إلا بهما. وأعظم بشرى حاصلة للإنسان هي توفيقه للإيمان والعمل الصالح. هذه أولّ البشارة وأصلها، ثمّ البشرى عند الموت، فالنعيم المقيم، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا ﴾ أيَّ مثل كان ﴿ بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ وكأن في هذا جواباً لمن أنكر ضرب الأمثال في الأشياء الحقيرة. لكنّ هذا هو من تعليم الله لعباده ورحمته بهم. فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر. ولهذا قال ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فيتفهمونها، ويتفكرون فيها فيزداد بذلك علمهم وإيمانهم ﴿ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ وما اشتملت عليه حق، وإن خفي عليهم وجه الحق فيها علموا بأنّ الله لم يضربها عبثا، بل لحكمة بالغة ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ فيعترضون ويتحيرون، فيزدادون كفراً إلى كفرهم ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ فهذه حال المؤمنين والكافرين عند نزول الآيات القرآنية ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ الذين اقتضت حكمته تعالى إضلالهم لعدم صلاحيتهم للهدى ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ فلا يبالون بالمواثيق ويتركون أوامر الله ويرتكبون نواهيه وينقضون العهود التي بينهم وبين الخلق ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ ما بيننا وبينه بالإيمان به، وما بيننا وبين رسوله بالإيمان به ومحبته، وما بيننا وبين الوالدين والأقارب والأصحاب وسائر الخلق والقيام بحقوقهم التي أمر الله أن نصلها فَـ ﴿ أُولَئِكَ﴾ من هذه صفته ﴿ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿ 28 ﴾ ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ هذا استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ والإنكار. أي كيف يحصل منكم الكفر بالله الذي خلقكم ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ من العدم وأنعم عليكم بأصناف النعم ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عند استكمال آجالكم ويجازيكم في القبور ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ بعد البعث والنشور ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازيكم الجزاء الأوفى.

﴿ 29 ﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ﴾ برّاً بكم ورحمة ﴿ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ للانتفاع والاستمتاع والاعتبار[9]﴿ ثُمَّ اسْتَوَى ﴾ قَصَد ﴿ إِلَى ﴾ خلق ﴿ السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ فخلقها وأحكمها وأتقنها[10]﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يعلم السر وأخفى. وكثيرا ما يقرن بين خلقه للخلق وإثبات علمه لأنّ خلقه للمخلوقات أدلّ دليل على علمه وحكمته وقدرته.

---

[9] وفي هذه الآية العظيمة دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة، لأنها سيقت في معرض الامتنان. يخرج بذلك الخبائث لأنّ الله خلق الأشياء لنفعنا، فيخرج من ذلك ما فيه ضرر. فالله منعنا من الخبائث من تمام نعمته وتنزيها لنا.

[10] ترد كلمة اسْتَوَى في القرآن على ثلاثة معاني: فتارة ، فيكون معناها، الكمال والتمام، كما في قوله عن موسى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ﴾ وتارة تكون بمعنى " علا " و " ارتفع " وذلك إذا عديت بـ " على " كما في قوله تعالى: ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ وتارة تكون بمعنى " قصد " كما إذا عديت بـ " إلى " كما في هذه الآية، أي: لما خلق تعالى الأرض، قصد إلى خلق السماوات ﴿ فسواهن سبع سماوات ﴾ فخلقها وأحكمها، وأتقنها.

﴿ 30 - 34 ﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ هذا شروع في ذكر فضل آدم عليه السلام أبي البشر أنّ الله حين أراد خلقه أخبر الملائكة بذلك، وأن الله مستخلفه في الأرض ﴿ قَالُوا ﴾ فقالت الملائكة عليهم السلام ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ بالمعاصي ﴿ وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ وهذا تخصيص بعد تعميم، لبيان شدة مفسدة القتل. لأنّ الخليفة المجعول في الأرض سيحدث منه ذلك بحسب ظنهم ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك. وأخبروا أنّهم قائمون بعبادة الله على وجه خال من المفسدة ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ نقدسك، فتكون اللام مفيدة للتخصيص والإخلاص. ويحتمل أن يكون المعنى ونقدس لك أنفسنا، أي نطهرها بالأخلاق الجميلة ﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ ﴾ من هذا الخليفة ﴿ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ لأنّ كلامكم بحسب ما ظننتم، وأنا عالم بالظواهر والسرائر. ثم لما كان في قول الملائكة عليهم السلام إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، أراد الله تعالى، أن يبين لهم من فضل آدم وكمال حكمة الله وعلمه ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ علّمه الاسم والمسمى والألفاظ والمعاني ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ ﴾ أي المسميّات ﴿ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾ امتحانا لهم، هل يعرفونها أم لا ﴿ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في قولكم وظنّكم أنّكم أفضل من هذا الخليفة ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾ ننزّهك من الاعتراض منا عليك، ومخالفة أمرك ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ إياه ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ ﴾ أحاط علماً بكل شيء و﴿ الْحَكِيمُ ﴾ وضع كلّ شيء في موضعه اللائق به. فحينئذ﴿ قَالَ ﴾ الله ﴿ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ أي أسماء المسميات التي عرضها الله على الملائكة فعجزوا عنها ﴿ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ تبين للملائكة فضل آدم عليهم وحكمة الباري وعلمه في استخلاف هذا الخليفة ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فإذا كان عالما بالغيب الذي هو كلّ ما غاب عنا ولانستطيع مشاهدته فالشهادة من باب أولى ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ أي تظهرون ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ في نفوسكم ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ أمرهم تعالى ﴿ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ إكراماً له وعبوديةً لله تعالى ﴿ فَسَجَدُوا ﴾ فامتثلوا أمر الله وبادروا كلّهم بالسجود ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ امتنع عن السجود ﴿ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ واستكبر عن أمر الله وعلى آدم نتيجة الكفر الذي هو منطو عليه. فتبينت حينئذ عداوته لله ولآدم وكفره واستكباره[11].

[11] وفي هذه الآيات من العبر والآيات: 1- إثبات الكلام لله تعالى وأنه لم يزل متكلما يقول ما شاء ويتكلم بما شاء وأنه عليم حكيم. 2- أنّ العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض المخلوقات والمأمورات فالواجب عليه التسليم واتهام عقله والإقرار لله بالحكمة. 3- اعتناء الله بشأن الملائكة وإحسانه بهم بتعليمهم ما جهلوا وتنبيههم على ما لم يعلموه. 4- فضيلة العلم من وجوه منها: - أنّ الله تعرّف لملائكته بعلمه وحكمته. - أنّ الله عرّفهم فضل آدم بالعلم الذي هو أفضل صفة تكون في العبد. - أنّ الله أمرهم

﴿ 35 – 36 ﴾ ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ لمّا خلق الله آدم وفضّله أتمّ نعمته عليه بأن خلق منه زوجة ليسكن إليها وأمرهما بسكنى الجنة ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ واسعاً هنيئاً ﴿ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ من أصناف الثمار والفواكه ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ من أنواع شجر الجنة، الله أعلم بها. نهاهما عنها امتحاناً وابتلاء أو لحكمة غير معلومة لنا ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ دلّ على أن النهي للتحريم لأنّه رتّب عليه الظلم ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ فلم يزل عدوّهما يوسوس لهما ويزين لهما تناول ما نهيا عنه حتّى حملهما على الزلل بتزيينه لهما ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ من النعيم والرغد ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا ﴾ إلى دار التعب والنصب والمجاهدة ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أي أن يكون آدم وذريته أعداء لإبليس وذريته. وفي ضمن هذا تحذير بني آدم من الشيطان وضرورة اتّخاذه عدوّاً لأنّه يدعو إلى سعير جهنّم ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ أي مسكن وقرار ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ انقضاء آجالكم، فمدّة هذه الحياة مؤقتة عارضة.

﴿ 37 ﴾ ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ ﴾ أي تلقّف وتلقّن وألهمه الله ﴿ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ يعترف فيها بأنّه ظلم نفسه، فاعترف بذنبه وسأل الله مغفرته ﴿فَتَابَ﴾ الله ﴿ عَلَيْهِ ﴾ ورحمه ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ ﴾ لمن تاب إليه وأناب ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بعباده. ومن رحمته بهم أن يوفقهم للتوبة فيتوبوا، ثمّ يقبل توبتهم إذا اجتمعت شروطها، فيعفو عنهم ويصفح.

﴿ 38 – 39 ﴾ ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ كرّر الإهباط ليرتّب عليه ما ذكر وهو قوله ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ رسول وكتاب يهديكم لما يقرّبكم منّي﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ ﴾ بأن آمن برسلي وكتبي واهتدى بهم ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من مكروه مقبل ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ من مكروه مضى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ملازمون لها ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ لا يخرجون منها ولا يفتر عنهم العذاب[12].

بالسجود لآدم إكراما له لما ظهر من فضل علمه. – أنّه إذا عجز الغير عمّا امتحنوا به ثم عرفه صاحب الفضيلة فهو أكمل مما عرفه ابتداء. - الاعتبار بحال أبوي الإنس والجن وبيان فضل آدم وأفضال الله عليه وعداوة إبليس له.

[12] وفي هذه الآيات وما أشبهها، انقسام الخلق من جنّ وإنس إلى أهل سعادة وأهل شقاوة. وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك. وأنّ الجنّ كالإنس في الثواب والعقاب كما أنّهم مثلهم في الأمر والنهي.

﴿ 40 – 43 ﴾ ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ الذين بالمدينة وما حولها ومن أتى من بعدهم. أمرهم بأمر عام ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ وهذا يشمل سائر النعم التي سيذكر في هذه السورة بعضها. والمطلوب ذكرها بالقلب اعترافا وباللسان ثناء وبالجوارح باستعمالها فيما يحبه ويرضيه ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي ﴾ وهو ما عهده إليهم من الإيمان به وبرسله وإقامة شرعه من صلاة وزكاة ﴿ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ وهو المجازاة على ذلك ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ الرهبة منه تعالى وخشيته وحده هي التي تقود إلى الوفاء بعهده ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ ﴾ وهو القرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾ موافقا لما معكم من الكتب، وتكذيبكم له تكذيب لما معكم ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ وهذا أبلغ من قوله ولا تكفروا به، فيكون عليهم إثمهم وإثم من يقتدي بهم ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ من المناصب والمآكل التي يتوهمون انقطاعها إن آمنوا بالله ورسوله، فاشتروها بآيات الله واستحبوها وآثروها ﴿ وَإِيَّايَ ﴾ لا غيري ﴿ فَاتَّقُونِ ﴾ فتوجب تقواه تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا ﴾ لا تخلطوا ﴿ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ ﴾ نهاهم عن خلط الحق بالباطل وكتمان الحق ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فمن فعل هذا مع علمه بذلك فهو من دعاة جهنم ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ ظاهرا وباطنا ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ لمستحقيها ﴿ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ صلّوا مع المصلين[13].

﴿ 44 ﴾ ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾ أي بالإيمان والخير ﴿ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ تتركونها عن أمرها بذلك ﴿ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يحث العقل صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه[14].

﴿ 45 – 48 ﴾ ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾

---

[13] وفيه أمر بالجماعة للصلاة ووجوبها. وإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسل الله وآيات الله فقد جمعتم بين الأعمال الظاهرة والباطنة: بين الإخلاص للمعبود والإحسان إلى عبيده، وبين العبادات القلبية البدنية والمالية. وفيه أنّ الركوع ركن من أركان الصلاة لأنه عبّر عن الصلاة بالركوع. والتعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته فيها.

[14] فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر فلم يتركه، دل على عدم عقله وجهله. وإذا كان عالما بذلك تقوم عليه الحجة. وقد سمّي العقل عقلا لأنّه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضرّه. وهذه الآية، وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامة للجميع. وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما يأمر به فعليه أن يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهي دلّت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، لأنّ ترك أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر، والكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما. كما أنّ النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قولُه فعلَه.

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ أمرهم الله أن يستعينوا في أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه[15] وكذلك بالصلاة التي يستعان بها ﴿ وَإِنَّهَا ﴾ وهي ﴿ لَكَبِيرَةٌ ﴾ شاقة ﴿ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ الذين يخشون الله فإنها سهلة عليهم خفيفة ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ ﴾ يستيقنون ﴿ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ ﴾ فيجازيهم بأعمالهم ﴿ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ فهذا الذي خفف عليهم العبادات وأوجب لهم التسلي في المصيبات ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ كرر على بني إسرائيل التذكير بنعمته، وعظاً لهم، وتحذيراً وحثّاً ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا ﴾ خوّفهم بيوم القيامة الذي ﴿ لَا تَجْزِي ﴾ في تحصيل المنافع ولا تغني ﴿ نَفْسٌ ﴾ ولو كانت من الأنفس الكريمة كالأنبياء والصالحين ﴿ عَنْ نَفْسٍ ﴾ ولو كانت من العشيرة الأقربين ﴿ شَيْئًا ﴾ لا كبيرا ولا صغيرا ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا ﴾ أي النفس ﴿ شَفَاعَةٌ ﴾ لأحد بدون إذن الله ورضاه عن المشفوع له ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ أي فداء ولا يقبل منهم ذلك ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ في دفع المضار فلايدفع عنهم المكروه أحد من الخلق بوجه من الوجوه.

﴿ 49 - 57 ﴾ ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ ﴾ هذا شروع في تعداد نعمه على بني إسرائيل على وجه التفصيل ﴿ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ وملئه وجنوده وكانوا قبل ذلك ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ يولونهم ويستعملونهم ﴿ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ أي أشده بأن كانوا ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ خشية نموكم ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ فلا يقتلونهن. فأنتم بين قتيل ومذلل في غاية الإهانة ﴿ وَفِي ذَلِكُم ﴾ أي في ذلك الإنجاء من فرعون ﴿ بَلَاءٌ ﴾ أي إحسان ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ فهذا مما يوجب عليكم الشكر والقيام بأوامره ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ ثمّ منّ الله عليهم بالنجاة التامة وإغراق عدوهم وهم ينظرون لتقر أعينهم. ثم ذكر منته عليهم ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ لينزل عليهم التوراة ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ ﴾ لم يصبروا قبل استكمال الميعاد فعبدوا العجل ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ بعد ذهابه ﴿ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ عالمون بظلمكم، فهو أعظم جرماً وأكبر إثماً ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ ثم إنه أمركم بالتوبة على لسان نبيه موسى بأن يقتل بعضكم بعضا فعفا الله عنكم بسبب ذلك ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الله ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ وهذا غاية الظلم والجراءة على الله وعلى رسوله ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ إما الموت أو الغشية

[15] وهو الصبر على طاعة الله حتى يؤديها، والصبر عن معصية الله حتى يتركها، والصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها.

العظيمة ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ وقوع ذلك، أي كلٌّ ينظر إلى صاحبه ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾ في التيه والبرية الخالية من الظلال وسعة الأرزاق ﴿ وَ ﴾ بأن ﴿ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ ﴾ وهو اسم جامع لكل رزق حسن يحصل بلا تعب، ومنه الزنجبيل والكمأة والخبز وغير ذلك ﴿ وَالسَّلْوَى ﴾ طائر صغير يقال له السماني طيب اللحم، فكان ينزل عليهم من المن والسلوى ما يكفيهم ويقيتهم ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ لكنّهم لم يشكروا هذه النعمة واستمروا على قساوة القلوب وكثرة الذنوب ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ يعني بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ فيعود ضرره عليهم.

﴿ 58 – 59 ﴾ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ وهذا أيضا من نعمته عليهم بعد معصيتهم إياه، فأمرهم بدخول قرية تكون لهم وطناً ومسكناً ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ ويحصل لهم فيها الرزق الرغد ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ وأن يكون دخولهم على وجه خاضعين لله فيه بالفعل ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ أي أن يحطّ عنهم خطاياهم ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ بسؤالهم إياه مغفرته ﴿ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ بأعمالهم جزاء عاجلا وآجلا ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ منهم، وليس كلّهم ﴿ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ فقالوا بدل حطة: حبة في حنطة، استهانة بأمر الله. ولهذا دخلوا يزحفون على أدبارهم، ولما كان هذا الطغيان أكبر سبب لوقوع عقوبة الله بهم، قال ﴿ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ منهم ﴿ رِجْزًا ﴾ عذابا ﴿ مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ بسبب فسقهم وبغيهم.

﴿ 60 ﴾ ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى ﴾ طلب ﴿ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ ماء يشربون منه ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ إما حجر مخصوص معلوم، وإما اسم جنس ﴿ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ وقبائل بني إسرائيل اثنتا عشرة قبيلة ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ ﴾ منهم ﴿ مَشْرَبَهُمْ ﴾ محلهم الذي يشربون عليه من هذه الأعين ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ ﴾ الذي آتاكم من غير سعي ولا تعب ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ أي تخربوا على وجه الإفساد.

﴿ 61 ﴾ ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى ﴾ واذكروا إذ قلتم لموسى على وجه التملل لنعم الله والاحتقار لها ﴿ لَنْ نَصْبِرَ عَلَى ﴾ جنس من ﴿ طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ وإن كان ما تقدم أنواعا، لكنها لا تتغير ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا ﴾ نباتها الذي ليس بشجر يقوم على ساقه ﴿ وَقِثَّائِهَا ﴾ الخيار ﴿ وَفُومِهَا ﴾ الثوم ﴿ وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ وهو معروف ﴿ قَالَ ﴾ لهم موسى ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى ﴾ الأطعمة المذكورة ﴿ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ المنّ والسلوى ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ فإنّ هذه الأطعمة موجودة في مصر. فجازاهم من جنس عملهم ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ﴾ التي تشاهد على ظاهر أبدانهم ﴿ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ بقلوبهم ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ رجعوا بسخطه عليهم ﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي استحقوا به غضبه ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ الدالات على الحق ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ زيادة شناعة، وإلا فمن المعلوم أن قتل النبي لا يكون بحق ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا ﴾ بأن ارتكبوا معاصي الله ﴿ وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ على عباد الله[16].

﴿62 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ ﴾ أخبر الله أنّ المؤمنين من هذه الأمة واليهود[17] والنصارى والصابئين وهم من جملة فرق النصارى ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ وصدقوا رسلهم ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ العظيم ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ والأمن ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

﴿ 63-64 ﴾ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

﴿ وَإِذْ ﴾ واذكروا إذ ﴿ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ﴾ وهو العهد الثقيل المؤكد بالتخويف لهم، برفع الطور فوقهم وقيل لهم ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ ﴾ من التوراة ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أي بجد واجتهاد وصبر على أوامر الله ﴿ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ ﴾ أي ما في كتابكم بأن تتلوه وتتعلموه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ عذاب الله وسخطه، أو لتكونوا من أهل التقوى ﴿ ثُمَّ ﴾ بعد هذا

[16] واعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأمة بني إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن، وهذه الأفعال المذكورة خوطبوا بها وهي فعل أسلافهم، ونسبت لهم لفوائد عديدة، منها: أنهم كانوا يتمدحون ويزكون أنفسهم، ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به، فبين الله من أحوال سلفهم التي قد تقررت عندهم، ما يبين به لكل أحد منهم أنهم ليسوا من أهل الصبر ومكارم الأخلاق، ومعالي الأعمال، فإذا كانت هذه حالة سلفهم، مع أن المظنة أنهم أولى وأرفع حالة ممن بعدهم فكيف الظن بالمخاطبين؟ ومنها: أنّ نعمة الله على المتقدمين منهم، نعمة واصلة إلى المتأخرين، والنعمة على الآباء، نعمة على الأبناء، فخوطبوا بها، لأنها نعم تشملهم وتعمهم. ومنها: أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم، مما يدل على أن الأمة المجتمعة على دين تتكافل وتتساعد على مصالحها، حتى كان متقدمهم ومتأخرهم في وقت واحد، وكان الحادث من بعضهم حادثا من الجميع. لأن ما يعمله بعضهم من الخير يعود بمصلحة الجميع، وما يعمله من الشر يعود بضرر الجميع. ومنها: أن أفعالهم أكثرها لم ينكروها، والراضي بالمعصية شريك للعاصي، إلى غير ذلك من الحِكَم التي لا يعلمها إلا الله.

[17] ثمّ - والله أعلم - أنّه لما ذكر بني إسرائيل وذمّهم، وذكر معاصيهم وقبائحهم، ربما وقع في بعض النفوس أنّ الذمّ يشملهم كلّهم. فأراد الباري تعالى أن يبيّن من لم يلحقه الذمّ منهم بوصفه. ولما كان أيضاً ذكر بني إسرائيل خاصة يوهم الاختصاص بهم. ذكر تعالى حكما عاما يشمل الطوائف كلها، ليتضح الحق، ويزول التوهم والإشكال، فسبحان من أودع في كتابه ما يبهر عقول العالمين.

التأكيد البليغ ﴿ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ وأعرضتم ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ وكان ذلك موجبا لأن يحل بكم أعظم العقوبات، ولكن ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

﴿ 65-66 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾ الذين ذكر الله قصتهم مبسوطة في سورة الأعراف. فأوجب لهم هذا الذنب العظيم غضب الله عليهم ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا﴾ وجعلهم ﴿ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ حقيرين ذليلين ﴿ فَجَعَلْنَاهَا ﴾ وجعل الله هذه العقوبة ﴿ نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا ﴾ عقوبة لمن حضرها من الأمم وبّلَغهُ خبرُها ﴿ وَمَا خَلْفَهَا ﴾ أي من بعدهم. هذا لتقوم على العباد حجة الله وليرتدعوا عن معاصيه ﴿ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وأما من عداهم فلا ينتفعون بالآيات.

﴿ 67 - 74 ﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ واذكروا ما جرى لكم مع موسى، حين قتلتم قتيلا وتدافعتم واختلفتم في قاتله، حتى تفاقم الأمر بينكم وكاد لولا تبيين الله لكم يحدث بينكم شرّ كبير. فقال لكم موسى في تبيين القاتل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ ولكنهم أبوا إلا الاعتراض فـ ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ فـ ﴿ قَالَ ﴾ نبي الله ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ الذين يستهزئون بالناس. فلما علموا أن ذلك صدق ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾ أي ما سنّها ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ ﴾ كبيرة ﴿ وَلَا بِكْرٌ ﴾ صغيرة ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ واتركوا التشديد والتعنت ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ﴾ شديد ﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ من حسنها ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ فلم نهتد إلى ما تريد ﴿ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ. قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ ﴾ مذللة بالعمل ﴿ تُثِيرُ الْأَرْضَ ﴾ بالحراثة ﴿ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ ﴾ ليست بساقية ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ من العيوب أو من العمل ﴿ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾ لا لون فيها غير لونها

الموصوف المتقدم ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ بالبيان الواضح. وهذا من جهلهم، وإلّا فقد جاءهم بالحق أوّل مرة. ولكنهم شددوا بكثرة الأسئلة فشدد الله عليهم. ولو لم يقولوا إن شاء الله لم يهتدوا أيضاً إليها ﴿ فَذَبَحُوهَا ﴾ أي البقرة التي وصفت بتلك الصفات ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ بسبب التعنت الذي جرى منهم[18] ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ. فَقُلْنَا ﴾ لهم لما ذبحوها ﴿ اضْرِبُوهُ ﴾ اضربوا القتيل ﴿ بِبَعْضِهَا ﴾ ببعضٍ منها، إمّا معين أو أي عضو منها، فليس في تعيينه فائدة. فضربوه ببعضها فأحياه الله ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى ﴾ وأخرج ما كانوا يكتمون فأخبر بقاتله ﴿ وَيُرِيكُمْ ﴾ في إحيائه وهم يشاهدون ذلك ﴿ آيَاتِهِ ﴾ لتكون دليلاً لهم على إحياء الله الموتى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فتنزجرون عن ما يضركم ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ اشتدت وغلظت، فلم تؤثر فيها الموعظة ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ من بعد ما أنعم عليكم بالنعم العظيمة وأراكم الآيات ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ أي إنها لا تقصر عن قساوة الأحجار، ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ فبهذه الأمور فضلت قلوبكم. ثم توعدهم تعالى أشد الوعيد ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بل هو عالم بها حافظ لصغيرها وكبيرها، وسيجازيكم على ذلك أتمّ الجزاء وأوفاه[19].

﴿ 75 - 78 ﴾ ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ *أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ هذا قطعٌ لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ فيضعون له معاني ما أرادها الله ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ وعلموه ليوهموا الناس أنها من عند الله ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك. هذه حالهم في كتابهم، يصدون به الناس عن سبيل الله، فكيف يرجى منهم إيمان لكم؟ ثم ذكر حال منافقي أهل الكتاب ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ فأظهروا لهم الإيمان قولا بألسنتهم، ما ليس في قلوبهم ﴿ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ ولم يكن عندهم أحد من غير أهل دينهم ﴿ قَالُوا ﴾ بعضهم لبعض ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي أتظهرون لهم الإيمان وتخبروهم أنكم مثلهم، فيكون ذلك حجة لهم عليكم؟

---

[18] جاء في تفسير ابن كثير (المنقول عن موقع AYAT): يعني أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة ، والأجوبة ، والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذم لهم ، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت ، فلهذا ما كادوا يذبحونها.

[19] وا علم أن كثيرا من المفسرين رحمهم الله، قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيرا لكتاب الله، محتجين بقوله صلى الله عليه وسلم: " حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ". والذي أرى أنه وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه تكون مفردة غير مقرونة، ولا منزلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيرا لكتاب الله قطعا إذا لم تصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك أن مرتبتها كما قال صلى الله عليه وسلم: " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم " فإذا كانت مرتبتها أن تكون مشكوكا فيها، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به والقطع بألفاظه ومعانيه، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة، التي يغلب على الظن كذبها أو كذب أكثرها، معاني لكتاب الله، مقطوعا بها ولا يستريب بهذا أحد، ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل، والله الموفق.

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أفلا يكون لكم عقل ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ فيظهر لعباده ما أسرّوه ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ أي من أهل الكتاب ﴿ أُمِّيُّونَ ﴾ أي عوامّ ليسوا من أهل العلم والمعرفة ﴿ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾ وليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط، وليس عندهم خبر بما عند الأولين ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم.

﴿ 79 ﴾ ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ توعد تعالى المحرّفين للكتاب ﴿ ثُمَّ يَقُولُونَ﴾ بعد تحريفه ﴿ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ وهذا إظهار الباطل وكتم الحق مع العلم بذلك ﴿ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ والدنيا كلّها من أولّها إلى آخرها ثمن قليل ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي من التحريف والباطل ﴿ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ من الأموال. والويل هو شدة العذاب والحسرة. وهذه الأمور كثيرة جدا في أهل الأهواء جملة كالرافضة، وتفصيلا مثل كثير من المنتسبين إلى الفقهاء.

﴿ 80 – 82 ﴾ ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾ ذكر أفعالهم القبيحة، وهم مع هذا يشهدون أنهم لن تمسهم النار إلا أياما قليلة ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا أيها الرسول ﴿ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ﴾ لكنّ حالهم تنبئ أنهم لم يتخذوا عند الله عهدا لنكولهم عن طاعة الله ونقضهم المواثيق ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وهذا يبيّن أنّهم قائلون عليه ما لا يعلمون ﴿ بَلَى ﴾ أي ليس الأمر كما ذكرتم، ولكن ﴿ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾ وقد جاء نكرةً في سياق الشرط ليعمّ الشركَ فما دونه. والدليل على أن المقصود هنا هو الشرك قوله ﴿ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ أي أحاطت بعاملها فلم تدع له منفذا. وهذا لا يكون إلّا بالشرك، لأنّ من معه الإيمان لا تحيط به خطيئته ﴿ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وقد احتج بها الخوارج على كفر صاحب المعصية. وهي حجة عليهم كما ترى لأنّها ظاهرة في الشرك ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ولا تكون الأعمال صالحة إلا بشرطين: أن تكون خالصة لوجه الله، متبعاً بها سنة رسوله ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ فحاصل هاتين الآيتين أنّ أهل النجاة والفوز هم أهل الإيمان والعمل الصالح، والهالكون أهل النار هم المشركون بالله الكافرون به.

﴿ 83 ﴾ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴾

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ لأنّهم بسبب قسوتهم يستعصون ولايقبلون الأمور إلا بالأيمان الغليظة ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ هذا أمر بعبادة الله وحده، ونهى عن الشرك به ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ أي أحسنوا بالوالدين إحساناً بالقول والفعل، وفي هذا نهيٌ عن عدم الإحسان والإساءة لأنّ الأمر بالشيء نهي عن ضده ﴿ وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ ﴾ وكذا يقال في صلة الأقارب واليتامى والمساكين ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ ثم أمر بالإحسان إلى الناس عموما، بالقول، ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وتعليمهم العلم وبذل السلام والبشاشة ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ فهي متضمنة للإخلاص للمعبود ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ متضمنة للإحسان إلى العبيد ﴿ ثُمَّ ﴾ بعد هذا الأمر لكم بهذه الأوامر الحسنة ﴿ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ على وجه الإعراض ورغبة عن هذه الأوامر، فنعوذ بالله من الخذلان ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ ﴾ هذا استثناء، لئلا يوهم أنهم تولوا كلهم ﴿ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ .

﴿ 84 - 86 ﴾ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾ أن[20] لا يسفك بعضهم دم بعض ﴿ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ ولا يخرج بعضهم بعضا ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ ﴾ وإذا وجدوا أسيرا منهم، وجب عليهم فداؤه ﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ وقد فرضت عليهم الأمور الثلاثة كلها، فعملوا بالأخير وتركوا الأولين، فأنكر الله عليهم ذلك فقال ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ ﴾ وهو فداء الأسير ﴿ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ وهو القتل والإخراج. وفيها أكبر دليل على أن الإيمان يقتضي فعل الأوامر واجتناب النواهي، وأن المأمورات من الإيمان ﴿ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وقد وقع ذلك فأخزاهم الله ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾ أعظمه ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ توهموا أنهم إن لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم عار،

[20] كان إذا اقتتل الأوس والخزرج في الجاهلية أعان اليهودي من فرق اليهود بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع حليفه من الأوس والخزرج على مقاتليه الذين تعينهم الفرقة الأخرى من اليهود، فيقتل اليهودي اليهودي، ويخرجه من دياره إذا حصل جلاء ونهب، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين فدى بعضهم بعضا.

فاختاروا النار على العار. فلهذا قال ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ ﴾ بل هو باق على شدته ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ أي يدفع عنهم مكروه.

﴿ 87 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ يمتن تعالى على بني إسرائيل أن أرسل لهم كليمه موسى وآتاه التوراة ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ﴾ الذين يحكمون بالتوراة ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ ما يؤمن على مثله البشر ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ قواه الله بروح القدس. قال أكثر المفسرين: إنه جبريل عليه السلام، وقيل: إنه الإيمان الذي يؤيد الله به عباده ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ ثم مع هذه النعم التي لا يقدر قدرها، لما أتوكم ﴿ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن الإيمان بهم ﴿ فَفَرِيقًا ﴾ منهم ﴿ كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ وآثرتم الدنيا على الآخرة، وفيها من التوبيخ والتشديد ما لا يخفى.

﴿ 88 ﴾ ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ عليها غلاف وأغطية، فلا تفقه ما تقول لهم. وهذا بزعمهم عذر لعدم العلم، وهذا كذب منهم ﴿ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أي أنهم مطرودون ملعونون، بسبب كفرهم ﴿ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فقليلا المؤمن منهم، أو قليلا إيمانهم، وكفرهم هو الكثير.

﴿ 89 - 90 ﴾ ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ على يد أفضل الخلق وخاتم الأنبياء ﴿ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ﴾ من التوراة وقد علموا به وتيقنوه ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ حتى إنهم كانوا إذا وقع بينهم وبين المشركين في الجاهلية حروب، استنصروا بهذا النبي وتوعدوهم بخروجه، وأنهم يقاتلون المشركين معه ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا ﴾ أي هذا الكتاب والنبي ﴿ كَفَرُوا بِهِ ﴾ بغيا وحسدا ﴿ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ لكثرة كفرهم وتوالى شكهم وشركهم ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ﴾ فلعنهم الله وغضب عليهم غضبا بعد غضب لكثرة كفرهم وتوالى شكهم وشركهم ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ مؤلم موجع وهو صلي الجحيم. فبئس الحال حالهم.

﴿ 91 – 93 ﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ وإذا أمر اليهود بالإيمان بما أنزل الله على رسوله، وهو القرآن استكبروا وعتوا و ﴿ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ أي بما سواه من الكتب. مع أن الواجب أن يؤمنوا بما أنزل الله مطلقا، سواء أنزل عليهم، أو على غيرهم ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ من عند ربهم، فالكفر به بعد ذلك كفر بالله ثم قال ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾ موافقا له في كل ما دلّ عليه من الحق ومهيمنا عليه ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالأدلة الواضحات المبينة للحق ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ بعد مجيئه ﴿ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ في ذلك، ليس لكم عذر ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ﴾ سماع قبول وطاعة واستجابة ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ أي صارت هذه حالتهم ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ بسبب كفرهم ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فإن كان هذا إيمانا على زعمكم، فبئس الإيمان الداعي صاحبه إلى الطغيان، والكفر برسل الله وكثرة العصيان. لأنّ الإيمان الصحيح يأمر صاحبه بكل خير وينهاه عن كل شر.

﴿ 94 – 96 ﴾ ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ لهم على وجه تصحيح دعواهم ﴿ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ ﴾ يعني الجنة ﴿ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ ﴾ كما زعمتم أنّه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة، فإن كنتم صادقين بهذه الدعوى ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فيباهلوا على ما هم عليه بتمني الموت الذي يوصلهم إلى الجنّة التي هي خالصة لهم ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من الكفر والمعاصي، فالموت أكره شيء إليهم ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ. وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ ذكر شدة محبتهم للدنيا فقال ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الحرص ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ﴾ والحال أنهم لو عمروا العمر المذكور لم يغن عنهم شيئا ولا دفع عنهم من العذاب شيئا ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ تهديد لهم على المجازاة بأعمالهم.

﴿ 97 – 98 ﴾ ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ﴾ زعم اليهود أنّ الذي منعهم من الإيمان بك أنّ وليّك جبريل عليه السلام، ولو كان غيره من ملائكة الله لآمنوا بك وصدقوا. فقل لهم إن هذا الزعم منكم تناقض وتهافت وتكبر على الله ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ أي جبريل عليه السلام ﴿ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وهو الذي ينزل على الأنبياء قبلك ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب غير مخالف لها ولا مناقض ﴿ وَهُدًى ﴾ وفيه الهداية التامة من أنواع الضلالات ﴿ وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ والبشارة بالخير الدنيوي والأخروي لمن آمن به ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ فإن العداوة لجبريل الموصوف بذلك هي أيضاً كفر بالله وآياته وعداوة لله ولرسله وملائكته.

﴿ 99 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ تحصل بها الهداية لمن استهدى، وإقامة الحجة على من عاند ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾ لا يمتنع من قبولها إلا من فسق عن أمر الله، وخرج عن طاعة الله واستكبر غاية التكبر.

﴿ 100 ﴾ ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ أَوَكُلَّمَا ﴾ تفيد التكرار ﴿ عَاهَدُوا عَهْدًا ﴾ فكلما وجد العهد ﴿ نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ﴾ ترتب عليه النقض ﴿ بَلْ ﴾ السبب أن ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فعدم إيمانهم هو الذي أوجب لهم نقض العهود.

﴿ 101 – 103 ﴾ ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ ﴾ بالكتاب العظيم ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ بالحق ﴿ مُصَدِّقٌ ﴾ موافق ﴿ لِمَا مَعَهُمْ ﴾ وكانوا يزعمون أنهم متمسكون بكتابهم ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ الذي أنزل إليهم، أي طرحوه رغبة عنه ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وهذا أبلغ في الإعراض. ولما نبذ هؤلاء اليهود كتاب الله ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ ﴾ وتختلق من السحر ﴿ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ حيث أخرجت الشياطين للناس السحر، وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله وبه حصل له الملك العظيم. وهم كذبة في ذلك، فلم يستعمله سليمان، بل نزهه الصادق

في قيله ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ بتعلم السحر ولم يتعلمه ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ بذلك ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ من إضلالهم وحرصهم على إغواء بني آدم، وكذلك اتبع اليهود السحر ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ ﴾ من أرض العراق ﴿ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ أنزل عليهما السحر امتحانا وابتلاء من الله لعباده فيعلمانهم السحر ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى ﴾ ينصحاه و ﴿ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي لا تتعلم السحر، فإن كفر فينهيانه عن السحر، ويخبرانه عن مرتبته[21]. ثم ذكر مفاسد السحر فقال ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ ومحبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما. وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وأنه يضر بإذن[22] الله، أي بإرادة الله ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ علم السحر مضرة محضة، ليس فيه منفعة لا دينية ولا دنيوية ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا ﴾ أي اليهود ﴿ لَمَنِ اشْتَرَاهُ ﴾ أي رغب في السحر رغبة المشتري في السلعة ﴿ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ أي نصيب، بل هو موجب للعقوبة، فلم يكن فعلهم إياه جهلا، ولكنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ علما يثمر العمل ما فعلوه ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ 104 - 105 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ * مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ كان المسلمون يقولون حين خطابهم للرسول عند تعلمهم أمر الدين رَاعِنَا أي راع أحوالنا، فيقصدون بها معنى صحيحا. فانتهز اليهود الفرصة فصاروا يخاطبون الرسول بذلك ويقصدون المعنى الفاسد. فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة سدا لهذا الباب. ففيه النهي عن الجائز إذا كان وسيلة إلى محرم. وأمرهم بلفظةٍ لا تحتمل إلا الحسن ﴿ وَقُولُوا انْظُرْنَا ﴾ فإنها كافية يحصل بها المقصود من غير محذور ﴿ وَاسْمَعُوا ﴾ لم يذكر المسموع، ليعم ما أمر باستماعه، فيدخل فيه سماع القرآن وسماع السنة ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ثم توعد الكافرين بالعذاب المؤلم الموجع ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ ﴾ وأخبر عن عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين، أنهم ما يودون ﴿ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ ﴾ لا قليلا ولا كثيرا ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ حسدا وبغضا لكم ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يختصكم بفضله ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ ومن فضله عليكم إنزال الكتاب على رسولكم، ليزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة. فله الحمد والمنة.

---

21 فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس والإضلال، ونسبته وترويجه إلى من برأه الله منه وهو سليمان عليه السلام، وتعليم الملكين امتحانا مع نصحهما لئلا يكون لهم حجة. فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين، والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين.

22 والإذن نوعان: إذن قدري، وهو المتعلق بمشيئة الله، كما في هذه الآية، وإذن شرعي كما في قوله تعالى في الآية السابقة: فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ أي أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير، فإنها تابعة للقضاء والقدر وليست مستقلة في التأثير. ولم يخالف في هذا الأصل من فرق الأمة غير القدرية في أفعال العباد، زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين.

﴿ 106 - 107 ﴾ ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ النسخ هو النقل. فحقيقة النسخ نقل المكلفين من حكم مشروع إلى حكم آخر، أو إلى إسقاطه. وكان اليهود ينكرون النسخ، ويزعمون أنه لا يجوز، وهو مذكور عندهم في التوراة. فأخبر الله أنه ما ينسخ من آية ﴿ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ العباد فنزيلها من قلوبهم ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴾ وأنفع لكم ﴿ أَوْ مِثْلِهَا ﴾ فدلّ على أن النسخ لا يكون لأقل مصلحة لكم من الأول وأخبر أن من قدح في النسخ فقد قدح في ملكه وقدرته ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ والعبد مدبر مسخر تحت أوامر ربه الدينية والقدرية ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ فيتولاهم في تحصيل منافعهم ﴿ وَلَا نَصِيرٍ﴾ وينصرهم في دفع مضارهم.

﴿ 108 - 110 ﴾ ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ ﴾ ينهى الله المؤمنين أو اليهود بأن يسألوا رسولهم ﴿ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴾ سؤال الاسترشاد والتعلم محمود قد أمر الله به، أمّا أسئلة التعنت والاعتراض فهي مذمومة، قد تصل بصاحبها إلى الكفر ﴿ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ ثم أخبر ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ فأمرهم الله بمقابلة من أساء إليهم ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ ثم بعد ذلك أتى الله بأمره إياهم بالجهاد، فشفى الله أنفس المؤمنين منهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ثم أمرهم الله ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ ووعدهم أنهم مهما فعلوا ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ ﴾ فإنه لا يضيع عند الله، بل ﴿ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ وافرا موفرا قد حفظه ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

﴿ 111 - 112 ﴾ ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

﴿ وَقَالُوا ﴾ أي اليهود ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا ﴾ وقالت النصارى ﴿ أَوْ نَصَارَى ﴾ فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ وهذا مجرد أماني غير مقبولة، إلا بحجة وبرهان فأتوا بها ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. بَلَى ﴾ ليس بأمانيكم ودعاويكم، ولكن ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ أخلص لله أعماله، متوجها إليه بقلبه ﴿ وَهُوَ ﴾ مع

إخلاصه ﴿ مُحْسِنٌ ﴾ في عبادة ربه ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ فأولئك هم أهل الجنة وحدهم ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ويفهم منها أن من ليس كذلك، فهو من أهل النار الهالكين، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود.

﴿ 113 ﴾ ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والحسد إلى أن بعضهم ضلّل بعضاً وكفّر بعضهم بعضاً ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ كما فعل الأميّون من مشركي العرب وغيرهم. فكلّ فرقة تضلل الفرقة الأخرى ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ويحكم الله في الآخرة بين المختلفين بحكمه العدل، فإنه لا فوز ولا نجاة إلا لمن صدق جميع الأنبياء والمرسلين، وامتثل أوامر ربه.

﴿ 114 ﴾ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ فلا أحد أظلم وأشد جرماً ممّن منع مساجد الله عن ذكر الله فيها وغيرها من الطاعات ﴿ وَسَعَى ﴾ أي اجتهد ﴿ فِي خَرَابِهَا ﴾ الحسي كهدمها وتخريبها وتقذيرها، والخراب المعنوي كمنع الذاكرين لاسم الله فيها ﴿ أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا ﴾ فجازاهم الله بأن منعهم دخولها شرعا وقدرا ﴿ إِلَّا خَائِفِينَ ﴾ . واستدلّ العلماء بالآية الكريمة على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد ﴿ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ فضيحة ﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

﴿ 115 ﴾ ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ فإذا كان مالكا لها كان مالكا لكل الجهات ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا ﴾ وجوهكم من الجهات[23] ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ فيه إثبات الوجه لله تعالى، على الوجه اللائق به تعالى، وأن لله وجها لا تشبهه الوجوه، وهو تعالى واسع الفضل والصفات عظيمها، عليم بسرائركم ونياتكم. فمن سعته وعلمه، وسع لكم الأمر، وقبل منكم المأمور، فله الحمد والشكر.

[23] إذا كان توليكم إياها بأمره، إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس، أو تؤمرون بالصلاة في السفر على الراحلة ونحوها، فإن القبلة حيثما توجه العبد أو تشتبه القبلة، فيتحرى الصلاة إليها، ثم يتبين له الخطأ، أو يكون معذورا بصلب أو مرض ونحو ذلك، فهذه الأمور، إما أن يكون العبد فيها معذورا أو مأمورا. وبكل حال فما استقبل جهة من الجهات خارجة عن ملك ربه.

﴿ 116 – 117 ﴾ ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

﴿ وَقَالُوا ﴾ أي اليهود والنصارى والمشركون، وكل من قال ذلك ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ فنسبوه إلى ما لا يليق بجلاله ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أي تنزه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله ﴿ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ جميعهم ملكه وعبيده ﴿ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ مسخرون تحت تدبيره. قنوت الخلق تحت تدبير الخالق وقنوت العبادة. وإذا كان كل الخلق عبيده وهو غني عنهم، فكيف يكون منهم أحد ولدا له. والولد لا بد أن يكون من جنس والده، لأنه جزء منه. هو تعالى ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خالقهما على وجه قد أتقنهما وأحسنهما على غير مثال سبق ﴿ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فلا يستعصى عليه، ولا يمتنع منه.

﴿ 118 – 119 ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ ﴾ قال الجهلة من أهل الكتاب وغيرهم هلا يكلمنا كما كلم الرسل ﴿ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ من آيات التعنت لا آيات الاسترشاد يقترحونها بعقولهم الفاسدة ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ولم يكن قصدهم تبين الحق ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ فكل موقن عرف من آيات الله الباهرة ما حصل له به اليقين ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا ﴾ لمن أطاعك ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ لمن عصاك ﴿ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ لست مسئولا عنهم، إنما عليك البلاغ، وعلينا الحساب.

﴿ 120 ﴾ ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى ﴾ يخبر تعالى رسوله أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصارى ﴿ حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ إلا باتباعه دينهم، فـ ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ إِنَّ هُدَى اللَّهِ ﴾ الذي أرسلت به ﴿ هُوَ الْهُدَى ﴾ وأما ما أنتم عليه، فهو الهوى بدليل قوله ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ فهذا فيه النهي العظيم عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبه بهم فيما يختص به دينهم. والخطاب وإن كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإن أمته داخلة في ذلك.

﴿ 121–123 ﴾ ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ ومنَّ عليهم به منة مطلقة، أنهم ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ أي يتبعونه حق اتباعه. والتلاوة: الاتباع ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ثم عاد تعالى يذكِّر بني إسرائيل نعمه عليهم وإحسانه: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ الذين بالمدينة وما حولها ومن أتى من بعدهم. أمرهم بأمر عام ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ وهذا يشمل سائر النعم ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ كرر على بني إسرائيل التذكير بنعمته، وعظاً لهم وتحذيراً وحثّاً ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا ﴾ خوّفهم بيوم القيامة الذي ﴿ لَا تَجْزِي ﴾ فيه في تحصيل المنافع، ولا تغني ﴿ نَفْسٌ ﴾ ولو كانت من الأنفس الكريمة كالأنبياء والصالحين ﴿ عَنْ نَفْسٍ ﴾ ولو كانت من العشيرة الأقربين ﴿ شَيْئًا ﴾ لا كبيرا ولا صغيرا ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا ﴾ أي النفس ﴿ شَفَاعَةٌ ﴾ لأحد بدون إذن الله ورضاه عن المشفوع له ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ أي فداء ولا يقبل منهم ذلك ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ في دفع المضار فلايدفع عنهم المكروه أحد من الخلق بوجه من الوجوه.

﴿ 124 - 125 ﴾ ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ * وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾ أي بأوامر ونواهي ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ فأتمّ ما ابتلاه الله به، وأكمله ووفاه. فشكر الله له ذلك و ﴿ قَالَ ﴾ له ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ يقتدون بك في الهدى، فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام ﴿ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ فطلب ذلك لذريته لتعلو درجته ودرجة ذريته، فأخبره الرحيم اللطيف بالمانع من نيل هذا المقام و ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ لا ينال الإمامة في الدين من ظلم نفسه وحطّ قدرها ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ ﴾ أي مرجعا يثوبون ويترددون إليه ﴿ وَأَمْنًا ﴾ يأمن به كل أحد حتى الوحش وحتى الجمادات كالأشجار. ولهذا كانوا في الجاهلية على شركهم يحترمونه أشدّ الاحترام. فلما جاء الإسلام، زاده حرمة وتعظيما ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ يحتمل أن يكون المراد بذلك ركعتا الطواف. ويستحب أن تكونا حسب جمهور المفسرين خلف مقام إبراهيم الموجود الآن مقابل باب الكعبة. ويحتمل أن يكون المقام مفردا مضافا، فيكون معنى قوله: مُصَلًّى معبداً أي اقتدوا به في شعائر الحج، ولعل هذا المعنى أولى، لدخول المعنى الأول فيه واحتمال اللفظ له ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ أي أوحينا إليهما وأمرناهما ﴿ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ ﴾ بتطهير بيت الله من الشرك والرجس والأقذار ليكون ﴿ لِلطَّائِفِينَ ﴾ فيه ﴿ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ أي المصلين، وقد قدّم الطواف لاختصاصه بالمسجد الحرام، ثم الاعتكاف لأنّ من شرطه المسجد مطلقا، ثمّ الصلاة مع أنها أفضل لهذا المعنى[24].

---

[24] وأضاف الباري الْبَيْتَ إليه لفوائد منها: أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره، لكونه بيت الله، فيبذلان جهدهما في ذلك. ومنها أنّ الإضافة تقتضي التشريف والإكرام ففي ضمنها أمرُ عباده بتعظيمه وتكريمه. ومنها أنّ هذه الإضافة هي السبب الجاذب للقلوب إليه.

﴿ 126 ﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ ﴾ دعا ﴿ إِبْرَاهِيمُ ﴾ لهذا البيت ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ أن يجعله الله بلدا آمنا ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ﴾ أنواع ﴿ الثَّمَرَاتِ ﴾ ثم قيّد عليه السلام هذا الدعاء للمؤمنين تأدبا مع الله ﴿ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إذ كان دعاؤه الأول فيه الإطلاق، فجاء الجواب فيه مقيّدا بغير الظالم. فلما دعا لهم بالرزق وقيّده بالمؤمن، وكان رزق الله شاملا للمؤمن والكافر والعاصي والطائع ﴿ قَالَ ﴾ تعالى ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ﴾ فيتمتع فيها قليلاً ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُ ﴾ ألجئه وأخرجه مكرها ﴿ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

﴿ 127 - 129 ﴾ ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ ﴾ في حالة من الخوف والرجاء ﴿ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ ﴾ الأساس ﴿ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ ودعوا الله﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أن يتقبل منهما عملهما ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا ﴾ ودعوا لأنفسهما وذريتهما بالإسلام ﴿ وَأَرِنَا ﴾ علمنا على وجه الإراءة والمشاهدة ليكون أبلغ ﴿ مَنَاسِكَنَا ﴾ أعمال الحج كلها. ويحتمل أن يكون المراد الدين كله والعبادات كلها، كما يدل عليه عموم اللفظ. لأنّ النسك: التعبد ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ لأن العبد مهما كان لا بد أن يعتريه التقصير، ويحتاج إلى التوبة ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ ﴾ أي في ذريتنا ﴿ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ لينقادوا له ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ﴾ لفظا وحفظا وتحفيظا ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ معنىً ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ بالتربية على الأعمال الصالحة ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ ﴾ القاهر لكل شيء ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها.

﴿ 130 - 134 ﴾ ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ ﴾ أي ما يرغب، أو يزهد وينصرف ﴿ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ بعد ما عرف من فضله ﴿ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ جهلها وامتهنها ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ اخترناه ووفقناه للأعمال التي صار بها من المصطفين الأخيار ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ الذين لهم أعلى الدرجات ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ ﴾ امتثالاً لربّه ﴾

أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إخلاصا وتوحيدا ومحبة وإنابة، فكان التوحيد لله نعته ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ﴾ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴿ وَيَعْقُوبُ ﴾ حتى وصلت ليعقوب فوصى بها بنيه ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ﴾ اختاره وتخيره لكم فقوموا به، واتصفوا بشرائعه ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ فلا يأتيكم الموت إلا وأنتم عليه. ولما كان اليهود يزعمون أنهم على ملة إبراهيم ومن بعده يعقوب، قال تعالى منكرا عليهم: ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ ﴾ أي حضورا ﴿ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴾ أي مقدماته وأسبابه ﴿ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ ﴾ على وجه الاختبار ولتقر عينه في حياته بامتثالهم ما وصاهم به ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ﴾ فأجابوه بما قرت به عينه ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ فلا نشرك به شيئا، ولا نعدل به أحدا ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ فجمعوا بين التوحيد والعمل. وبما أنّهم لم يحضروا يعقوب لأنهم لم يوجدوا بعد، فقد أخبر الله عنه أنه وصى بنيه بالحنيفية لا باليهودية ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ مضت ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ لا يؤخذ أحد بذنب أحد ولا ينفع أحدا إلا إيمانه وتقواه. فاشتغالكم بهم وادعاؤكم، أنكم على ملتهم، أمر فارغ لا حقيقة له. بل الواجب عليكم أن تنظروا حالتكم التي أنتم عليها، هل تصلح للنجاة أم لا ﴿ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ 135 ﴾ ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾ زعموا أنهم هم المهتدون وغيرهم ضال فـ ﴿ قُلْ ﴾ جواباً شافيا ﴿ بَلْ ﴾ نتبع ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أي مقبلا على الله، معرضا عما سواه، قائما بالتوحيد ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ تاركا للشرك والتنديد. فهذا الذي في اتباعه الهداية، وفي الإعراض عن ملته الكفر والغواية.

﴿ 136 ﴾ ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

هذه الآية الكريمة، قد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به[25] ﴿ قُولُوا ﴾ بألسنتكم، متواطئة عليها قلوبكم، إشارة إلى الإعلان بالعقيدة والصدع بها والدعوة لها ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ أي[26] بأنه موجود، واحد أحد ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ﴾ يشمل القرآن والسنة ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ﴾ فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء، والإيمان بالأنبياء عموما، وخصوصا ما نص عليه في الآية وما عرف منهم بالتفصيل، وجب الإيمان به مفصلا ﴿ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ ﴾ عطية الدين هي العطية الحقيقية المتصلة

[25] واعلم أن الإيمان الذي هو تصديق القلب التام بهذه الأصول، وإقراره المتضمن لأعمال القلوب والجوارح. وهو بهذا الاعتبار يدخل فيه الإسلام، وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها. فهي من الإيمان وأثر من آثاره. فحيث أطلق الإيمان، دخل فيه ما ذكر.
وكذلك إذا أطلق الإسلام دخل فيه الإيمان. فإذا قرن بينهما، كان الإيمان اسما لما في القلب من الإقرار والتصديق، والإسلام اسما للأعمال الظاهرة. وكذلك إذا جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة.

[26] آمَنَّا الفعل منسوبا إلى جميع الأمة بِاللَّهِ وعلى الأمة الاعتصام بحبل الله جميعا. وفيه دلالة على جواز بل على وجوب إضافة الإنسان إلى نفسه الإيمان على وجه التقييد.

بالسعادة الدنيوية والأخروية ﴿ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ الأنبياء مبلغون عن الله، ووسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شيء. وكونه من ربّهم يبين الفرق بين الأنبياء وبين من يدعي النبوة ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ هذه خاصيّة المسلمين التي انفردوا بها عن كلّ من يدعي أنّه على دين ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ خاضعون لعظمته، منقادون لعبادته، بباطننا وظاهرنا، مخلصون له العبادة بدليل تقديم المعمول وهو لَهُ على العامل وهو مُسْلِمُونَ.

﴿ 137 ﴾ ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

﴿ فَإِنْ آمَنُوا ﴾ أي أهل الكتاب ﴿ بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ يا معشر المؤمنين وأسلموا لله وحده، ولم يفرقوا بين أحد من رسل الله ﴿ فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ للصراط المستقيم، و"الهدى" هو العلم بالحق والعمل به ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ المشاقّ هو الذي يكون في شقّ والله ورسوله في شقّ. ويلزم من المشاقة العداوة البليغة وأذية الرسول ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ فلهذا وعد الله رسوله أن يكفيه إياهم، لأنه ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لجميع الأصوات ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما بين أيديهم وما خلفهم، بالغيب والشهادة، بالظواهر والبواطن.

﴿ 138 ﴾ ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾

أي الزموا ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾ وهو دينه، وقوموا به قياما تاما ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ أي لا أحسن صبغة من صبغته. فكيف ترى في عبد آمن بربه إيمانا صحيحا، وصفه الصدق في قوله وفعله والصبر والإحسان، ثمّ قسه بعبد كفر بربه فاتصف بالصفات القبيحة، فإنه يتبين لك أنه لا أحسن صبغة من صبغة الله ﴿ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ وصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار، ليدل على اتصافهم بذلك وكونه صار صبغة لهم[27].

﴿ 139 ﴾ ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ ﴾ كان أهل الكتاب يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين ﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ فإذا كان رب الجميع واحدا ﴿ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ وكل منا له عمله، فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده[28].

---

[27] و"العبادة" اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال التي شرعها الله على لسان رسوله. و"الإخلاص" أن يقصد العبد وجه الله وحده في تلك الأعمال. فتقديم المعمول، يؤذن بالحصر.

[28] المحاجّة هي المجادلة بين اثنين فأكثر، تتعلق بالمسائل الخلافية. ففي هذه الآية، إرشاد لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين.

﴿ 140 ﴾ ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ زعموا أيضاً أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين. فرد الله عليهم ﴿ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ لم يحتج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق، لانجلائه لكل أحد، حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك وكتموا هذا العلم وهذه الشهادة ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ فهي شهادة عندهم، مودعة من الله لا من الخلق، فكتموها وأظهروا ضدها ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بل قد أحصى أعمالهم، وعدها وادخر لهم جزاء ها.

﴿ 141 ﴾ ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ مضت ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ لا يؤخذ أحد بذنب أحد ولا ينفع أحدا إلا إيمانه وتقواه ﴿ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وأن المعول عليه ما اتصف به الإنسان لا عمل أسلافه وآبائه. فالنفع الحقيقي بالأعمال لا بالانتساب المجرد للرجال.

الجزء الثاني 2

﴿ 142 - 143 ﴾ ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ وقد أخبرهم[29] أن السفهاء من الناس أي الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم بل يضيعونها ويبيعونها بأبخس ثمن، وهم اليهود والنصارى ومن أشبههم من المعترضين على أحكام الله وشرائعه، لا بد أن يقولوا ﴿ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ وهي استقبال بيت المقدس. فأيُّ شيء صرفهم عنه؟ وهذا اعتراض على حكم الله وشرعه فسلّاهم، وأخبر بوقوعه ممن اتصف بالسفه قليل العقل والديانة. فلا تبالوا بهم. وقد كان في قوله السُّفَهَاءُ ما يغني عن رد قولهم. فـ ﴿ قُلْ ﴾ لهم مجيبا ﴿ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ فإذا كان المشرق والمغرب ملكا لله، فلاتخرج جهة من الجهات عن ملكه. وهو يهدي من

[29] كان المسلمون مأمورين باستقبال بيت المقدس، مدة مقامهم بمكة. ثم بعد الهجرة إلى المدينة، نحو سنة ونصف - لما لله تعالى في ذلك من الحكم التي سيشير إلى بعضها - وكانت حكمته تقتضي، أمرهم باستقبال الكعبة.

يشاء إلى صراط مستقيم، ومنه هدايتكم إلى هذه القبلة التي هي من ملة أبيكم إبراهيم ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أي عدلا خيارا. وما عدا الوسط، فأطراف داخلة تحت الخطر. فجعل الله هذه الأمة وسطا في كل أمور الدين ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ من سائر أهل الأديان ﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ فاستشهدت الأنبياء بهذه الأمة، وزكاها نبيها ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا ﴾ وهي استقبال بيت المقدس أولا ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ ﴾ علما يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها. ولكن هذا العلم لا يعلق عليه ثوابا ولا عقابا لتمام عدله. أي شرعنا تلك القبلة لنعلم ونمتحن ﴿ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ ﴾ ويؤمن به فيتبعه ﴿ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ وأعرض عن الحق ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ﴾ صرفك عنها ﴿ لَكَبِيرَةً ﴾ شاقة ﴿ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ فعرفوا بذلك نعمة الله عليهم وشكروا، حيث وجههم إلى هذا البيت العظيم ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ ﴾ ما ينبغي له ولا يليق به تعالى ﴿ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ وفي هذا بشارة عظيمة لمن مَنَّ الله عليهم بالإسلام والإيمان أنه مستحيل أن يضيع إيمانهم وبأنّه تعالى سيحفظه عليهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ شديد الرحمة بهم عظيمها. فمن رأفته ورحمته بهم أن يتم عليهم نعمته التي ابتدأهم بها.

﴿ 144 ﴾ ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ أي كثرة تردده في جميع جهاته، شوقا وانتظارا لنزول الوحي باستقبال الكعبة. وقال: "وَجْهِكَ" ولم يقل "بصرك" لزيادة اهتمامه، ولأن تقليب الوجه مستلزم لتقليب البصر ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ ﴾ أي نوجهك لولايتنا إياك ﴿ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ تحبها، وهي الكعبة. وفي هذا بيان لفضله وشرفه صلى الله عليه وسلم ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ والوجه ما أقبل من بدن الإنسان ﴿ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ﴾ من بر وبحر وشرق وغرب جنوب وشمال ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ جهته. فيها اشتراط استقبال الكعبة للصلوات كلها فرضها ونفلها. وأنه إن أمكن استقبال عينها وإلا فيكفي شطرها وجهتها. وأن الالتفات بالبدن مبطل للصلاة ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ وأنهم يعترضون عنادا وبغيا ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ سيجازيهم على أعمالهم. وفيها وعيد للمعترضين، وتسلية للمؤمنين.

﴿ 145 ﴾ ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ ﴾ أي بكل برهان ودليل يوضح قولك ويبين ما تدعو إليه ﴿ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ أي ما تبعوك لأن اتباع القبلة دليل على اتباعه، ولأن السبب هو شأن القبلة، وإنما كان الأمر كذلك لأنهم معاندون عرفوا الحق وتركوه ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ أبلغ من قوله "وَلَا تَتَّبِعْ" لأن ذلك يتضمن أنه صلى الله عليه

وسلم اتصف بمخالفتهم، فلا يمكن وقوع ذلك منه ﴿ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ فإن اختلافهم فيما بينهم حاصل. وبعضهم غير تابع قبلة بعض فليس بغريب منهم مع ذلك أن لا يتبعوا قبلتك يا محمد ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ ولم يقل "دينهم" لأن ما هم عليه مجرد أهوية نفس ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ بأنك على الحق، وهم على الباطل ﴿ إِنَّكَ ﴾ إن اتبعتهم، وهذا احتراز لئلا تنفصل هذه الجملة عما قبلها ولو في الأفهام ﴿ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي داخل فيهم ومندرج في جملتهم. وهذا، وإن كان الخطاب له صلى الله عليه وسلم، فإن أمته داخلة في ذلك. وأيضا، فإذا كان هو صلى الله عليه وسلم لو فعل ذلك – وحاشاه – صار ظالما مع علو مرتبته، وكثرة حسناته فغيره من باب أولى وأحرى.

﴿ 146 - 147 ﴾ ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ بحيث لا يشتبهون عليهم بغيرهم. فمعرفتهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وصلت إلى حد لا يشكون فيه ولا يمترون ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ ﴾ وهم أكثرهم ﴿ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ مايفعلون. وفي هذا تسلية للرسول والمؤمنين وتحذير له من شرهم وشبههم ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي هذا الحق الذي هو أحق أن يسمى حقا من كل شيء، لصدوره من ربك ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ فلا يحصل لك أدنى شك وريبة فيه.

﴿ 148 ﴾ ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ كل أهل دين له وجهة يتوجه إليها في عبادته ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَمَا تَكُونُوا ﴾ وهذا يتضمن فعلها وتكميلها والمبادرة إليها، فليس الشأن في استقبال القبلة ولكن في امتثال طاعة الله والتقرب إليه ﴿ يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات فهو السابق في الآخرة إلى الجنات. فالسابقون أعلى الخلق درجة.

﴿ 149 - 150 ﴾ ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾ في أسفارك وغيرها، وهذا للعموم ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أي جهته ﴿ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أكده بـ "إن" واللام، لئلا يقع لأحد فيه أدنى شبهة ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أعمالكم غير مغفول عنها، بل مجازون عليها أتم الجزاء إن خيرا فخير، وإن شرا فشر ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ثم خاطب الأمة عموما ﴿ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ أي شرعنا لكم استقبال الكعبة المشرفة، لينقطع عنكم احتجاج الناس من أهل الكتاب والمشركين. فباستقبال الكعبة[30] قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركين، وانقطعت حججهم عليه ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ أي من احتج منهم بحجة هو ظالم فيها وليس لها مستند إلا اتباع الهوى والظلم. فهذا لا سبيل إلى إقناعه والاحتجاج عليه ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ ﴾ لأن حجتهم باطلة مخذولة ومخذول صاحبها ﴿ وَاخْشَوْنِي ﴾ أمر تعالى بخشيته التي هي أصل كل خير. وكلما شرع لهم شريعة فهي نعمة عظيمة ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ وأصل النعمة الهداية لدينه، بإرسال رسوله، وإنزال كتابه ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي تعلمون الحق، وتعملون به.

﴿ 151 - 152 ﴾ ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ ﴾ أبلغ النعم إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم، تعرفون نسبه وصدقه، وأمانته وكماله ونصحه ﴿ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ﴾ القرآنية وغيرها، المبينة للحق من الباطل ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾ يطهر أخلاقكم ونفوسكم ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ ﴾ القرآن، ألفاظه ومعانيه ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ هي السنة أو معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها ﴿ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ فكل علم أو عمل نالته هذه الأمة فعلى يده صلى الله عليه وسلم، وبسببه كان ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ فأمر تعالى بذكره، ووعد عليه أفضل جزاء: وهو ذكره لمن ذكره ﴿ وَاشْكُرُوا لِي ﴾ على ما أنعمت عليكم بهذه النعم، والشكر يكون بالقلب إقرارا بالنعم واعترافا، وباللسان ذكرا وثناء، وبالجوارح طاعة لله وانقيادا لأمره ﴿ وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ المراد بالكفر هاهنا ما يقابل الشكر، فهو كفر النعم وجحدها، ويحتمل أن يكون المعنى عاما، أعظمه الكفر بالله، ثم أنواع المعاصي.

﴿ 153 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا ﴾ على أموركم الدينية والدنيوية ﴿ بِالصَّبْرِ ﴾ على طاعة الله حتى تؤديها، وعن معصية الله حتى تتركها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها ﴿ وَالصَّلَاةِ ﴾ لأن الصلاة هي عماد الدين، والصلة بين العبد وبين ربه. فإذا كانت صلاة العبد كاملة استشعر دخوله على ربه. والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴿

[30] وكان صرف المسلمين إلى الكعبة، مما حصلت فيه فتنة كبيرة. وقد بسطها الله تعالى وبينها أكمل بيان في هذه الآيات. فلقد أمر بها ثلاث مرات مع كفاية المرة الواحدة. ومنها: أن المعهود أن الأمر إما أن يكون للرسول فتدخل فيه الأمة تبعا، أو للأمة عموما. وفي هذه الآية أمر فيها الرسول بالخصوص فَوَلِّ وَجْهَكَ والأمة عموما فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ. ومنها: أنه رد فيه جميع الاحتجاجات الباطلة وأبطلها شبهة شبهة. ومنها: أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول قبلة أهل الكتاب. ومنها قوله وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فمجرد إخبار الصادق العظيم كاف شاف، ولكن مع هذا قال وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ. ومنها: أنه أخبر - وهو العالم بالخفيات - أن أهل الكتاب متقرر عندهم، صحة هذا الأمر، ولكنهم يكتمون هذه الشهادة مع العلم. ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة نعمة عظيمة، وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته لم يزل يتزايد،

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ مع من كان الصبر لهم خلقا، وصفة. فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله، لكفى بها فضلا وشرفا.

﴿ 154 ﴾ ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ﴾ ذكر نموذجا مما يستعان بالصبر عليه، وهو الجهاد في سبيله. فأخبر تعالى أن من قُتل بأن قاتل في سبيل الله لا لغير ذلك من الأغراض يحصل على حياة برزخية أعظم وأكمل من الحياة الدنيا ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ وفي الآية دليل على نعيم البرزخ وعذابه.

﴿ 155 - 157 ﴾ ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ لا بد أن يبتلي عباده بالمحن ليتبين الصادق من الكاذب﴿ بِشَيْءٍ﴾ يسير ﴿ مِنَ الْخَوْفِ ﴾ من الأعداء ﴿ وَالْجُوعِ ﴾ لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله أو الجوع لهلكوا ﴿ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ ﴾ يشمل جميع النقص المعتري للأموال ﴿ وَالْأَنْفُسِ ﴾ أي ذهاب الأحباب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يحبه ﴿ وَالثَّمَرَاتِ ﴾ بمختلف الآفات ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ ﴾ وهي كل ما يؤلم القلب أو البدن أو كليهما ﴿ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ ﴾ أي مملوكون لله، فإذا ابتلانا بشيء فقد تصرف أرحم الراحمين بمماليكه وأموالهم ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بالصبر المذكور ﴿ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أي ثناء وتنويه بحالهم ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ عظيمة. ومن رحمته إياهم أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ الذين عرفوا الحق. وهو في هذا الموضع علمهم بأنهم لله وأنهم إليه راجعون.

﴿ 158 ﴾ ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ ﴾ وهما معروفان ﴿ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ أي أعلام دينه الظاهرة التي تعبد الله بها عباده. وقد أمر الله بتعظيم شعائره فهذا من تقوى القلوب ﴿ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ هذا دفع لوهم من توهم وتحرج من المسلمين عن الطواف بينهما[31] لكونهما في الجاهلية تعبد عندهما الأصنام ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ ﴾ فعل طاعة مخلصا بها لله تعالى ﴿ خَيْرًا ﴾ من حج وعمرة وطواف وصلاة وصوم وغير ذلك ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ

[31] فنفى تعالى الجناح لدفع هذا الوهم، لا لأنه غير لازم. ودل تقييد نفي الجناح فيمن تطوف بهما في الحج والعمرة، أنه لا يتطوع بالسعي مفردا إلا مع انضمامه لحج أو عمرة، بخلاف الطواف بالبيت، فإنه يشرع مع العمرة والحج، وهو عبادة مفردة. فأما السعي والوقوف بعرفة ومزدلفة ورمي الجمار فإنها تتبع النسك. فلو فعلت غير تابعة للنسك كانت بدعة.

﴿ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ الشاكر والشكور من أسماء الله تعالى الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر.

﴿ 159 - 162 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ﴾ هذه الآية وإن كانت نازلة في أهل الكتاب وما كتموا من شأن الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ﴿ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ الدالات على الحق المظهرات له ﴿ وَالْهُدَى ﴾ وهو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم.74 فمن نبذ ذلك ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ﴾ وجمع بين كتم ما أنزل الله والغش لعباد الله ﴿ فأولئك يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ ﴾ أي يبعدهم ويطردهم عن قربه ورحمته ﴿ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ وهم جميع الخليقة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ أي رجعوا عما هم عليه من الذنوب ندما وإقلاعا، وعزما على عدم المعاودة ﴿ وَأَصْلَحُوا ﴾ ما فسد من أعمالهم، فلا يكفي ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن ﴿ وَبَيَّنُوا ﴾ إذ لا يكفي ذلك في الكاتم حتى يبين ما كتمه ﴿ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ فمن أتى بسبب التوبة تاب الله عليه ﴿ وَأَنَا التَّوَّابُ ﴾ الرجاع على عباده بالعفو والصفح بعد الذنب ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ الذي اتصف بالرحمة العظيمة التي وسعت كل شيء ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ ولم يتب عن قريب ﴿ فأولئك عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ لأنه لما صار كفرهم وصفا ثابتا صارت اللعنة عليهم وصفا ثابتا لا تزول ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي في اللعنة، أو في العذاب ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ ﴾ بل عذابهم دائم شديد مستمر ﴿ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ أي يمهلون، لأن وقت الإمهال وهو الدنيا

قد مضى.

﴿ 163 ﴾ ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾

﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ متوحد منفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ المتصف بالرحمة العظيمة، التي لا يماثلها رحمة أحد، فقد وسعت كل شيء وعمت كل حي.

﴿ 164 ﴾ ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ ﴾ في ارتفاعها واتساعها وإتقانها، وما جعل الله فيها وتنظيمها لمصالح العباد ﴿ وَ﴾ في خلق ﴿ الْأَرْضِ ﴾ مهادا للخلق، يمكنهم القرار عليها والانتفاع بما عليها ما يدل على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير ﴿ وَ ﴾ في ﴿ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ وهو تعاقبهما على الدوام، واختلافهما في الحر والبرد والطول والقصر ﴿ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ ﴾ وهي السفن والمراكب ونحوها، مما ألهم الله عباده صنعتها ﴿ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ بما تقوم به مصالحهم وتنتظم معايشهم ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ ﴾ وهو المطر النازل من السحاب ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فأظهرت من أنواع الأقوات ما هو من ضرورات الخلائق، أليس ذلك دليلا على إحياء الموتى ومجازاتهم بأعمالهم ﴿ وَبَثَّ فِيهَا ﴾ أي في الأرض ﴿ مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ أي نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة ﴿ وَ﴾ في ﴿ تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ﴾ باردة وحارة، وجنوبا وشمالا، وشرقا ودبورا وبين ذلك ﴿ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ على خفته ولطافته يحمل الماء الكثير، فيسوقه الله إلى حيث شاء، فيحيي به البلاد والعباد ﴿ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ لمن لهم عقول يعملونها فيما خلقت له، فعلى حسب ما منّ الله على عبده من العقل، ينتفع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتدبُّره.

﴿ 165 - 167 ﴾ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾

﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ مع هذا البيان التام ﴿ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ ﴾ نظراء ومثلاء يساويهم في الله بالعبادة والمحبة ﴿ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ أما المؤمنون فيعلمون علما يقينا أن الله هو المستحق للمحبة الكاملة والذل التام ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها. فلهذا توعدهم الله بقوله ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالانقياد لغير رب العباد وظلموا الخلق بصدهم عن سبيل الله ﴿ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ﴾ يوم القيامة عيانا بأبصارهم ﴿ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ لعلموا علما جازما أن القوة والقدرة لله كلها وليس لأندادهم فيها من القوة شيء ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ وتبرأ المتبوعون من التابعين، وتقطعت بينهم الوصل التي كانت في الدنيا، لأنها كانت لغير الله ومتعلقة بالباطل ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ وحينئذ يتمنى التابعون أن يردوا إلى الدنيا فيتبرأوا من متبوعيهم. وهيهات فقد فات الأمر. ومع هذا فهم كذبة، فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنما هو قول يقولونه.

﴿ 168 – 170 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ *وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ كلهم، مؤمنهم وكافرهم ﴿ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ ﴾ امتن عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض ﴿ حَلَالًا ﴾ أي محللا لكم تناوله، ليس بغصب ولا سرقة، ولا محصلا بمعاملة محرمة أو على وجه محرم، أو معينا على محرم ﴿ طَيِّبًا ﴾ ليس بخبيث كالميتة والدم ولحم الخنزير والخبائث كلها. ففي هذه الآية، دليل على أن الأصل في الأعيان الإباحة، أكلا وانتفاعا[32] ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ طرقه التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي من كفر وفسوق وظلم. ويدخل في ذلك تحريم السوائب والحام ونحو ذلك، ويدخل فيه أيضاً تناول المأكولات المحرمة ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة، فلا يريد بأمركم إلا غشكم، وأن تكونوا من أصحاب السعير ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ ﴾ أي الشر الذي يسوء صاحبه، فيدخل في ذلك، جميع المعاصي ﴿ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ لأن الفحشاء من المعاصي ما تناهى قبحه كالزنا وشرب الخمر والقتل والقذف والبخل ونحو ذلك ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فمن وصف الله بغير ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو نفى عنه ما أثبته لنفسه أو أثبت له ما نفاه عن نفسه، فقد قال على الله بلا علم. ومن قال إن الله أحل كذا، أو حرم كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا، بغير بصيرة، فقد قال على الله بلا علم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ للمشركين ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ رغبوا عن ذلك و ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ وزهدوا في الإيمان بالأنبياء ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ ﴾ أجهل الناس وأشدهم ضلالا ﴿ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

﴿ 171 ﴾ ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ عند دعاء الداعي لهم إلى الإيمان ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ ﴾ كمثل البهائم التي ينعق لها راعيها، وليس لها علم بما يقول لأنهم لا يسمعون ﴿ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ أي مجرد الصوت الذي تقوم به عليهم الحجة، ولكنهم لا يفقهونه فقها ينفعهم ﴿ صُمٌّ ﴾ لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول ﴿ بُكْمٌ ﴾ لا ينطقون بما فيه خير لهم ﴿ عُمْيٌ ﴾ لا ينظرون نظر اعتبار ﴿ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ليس لهم عقل صحيح، بل هم أسفه السفهاء وأجهل الجهلاء.

---

[32] المحرم نوعان: إما محرم لذاته، وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب، وإما محرم لما عرض له، وهو المحرم لتعلق حق الله، أو حق عباده به، وهو ضد الحلال. وفيه دليل على أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب، يأثم تاركه لظاهر الأمر.

﴿ 172 – 173 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بعد الأمر العام هذا أمر للمؤمنين خاصة. فهم المنتفعون بالأوامر والنواهي بسبب إيمانهم ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ ﴾ على إنعامه وذلك باستعمالها بطاعته. فالشكر في هذه الآية هو العمل الصالح ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أي من لم يشكر الله لم يعبده وحده. ومن شكره فقد عبده، وأتى بما أمر به. ويدل أيضا على أن أكل الطيب سبب للعمل الصالح وقبوله ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾ ثم ذكر تحريم الخبائث، وهي ما مات بغير تذكية شرعية. واستثنى الشارع ميتة الجراد وسمك البحر فإنه حلال طيب ﴿ وَالدَّمَ ﴾ المسفوح، كما قيد في الآية الأخرى ﴿ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾ أي ذبح لغير الله، كالذي يذبح للأصنام والأوثان من الأحجار والقبور ونحوها. وهذا بيان لأجناس الخبائث. ومع هذا ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ ﴾ أي ألجئ إلى المحرم بسبب جوع وعدم أو إكراه، وهو ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ أي غير طالب للمحرم مع قدرته على الحلال أو مع عدم جوعه ﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ أي متجاوز الحد في تناول ما أبيح له اضطرارا، فأكل بقدر الضرورة ولم يزد عليها ﴿ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ ويأثم إن ترك الأكل حتى مات، فيكون قاتلا لنفسه ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فالإنسان قد لا يستقصي تمام الاستقصاء، لهذا أخبر تعالى أنه يغفر خطأ هذا الإنسان خصوصا وقد غلبته الضرورة. وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة: "الضرورات تبيح المحظورات".

﴿ 174 – 176 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ هذا وعيد شديد لمن كتم ما أنزل الله على رسله من العلم ﴿ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فمن تعوض عنه بالحطام الدنيوي، ونبذ أمر الله، فأولئك ﴿ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾ فكان جزاؤهم من جنس عملهم ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ بل قد سخط عليهم وأعرض عنهم، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ أي لا يطهرهم من الأخلاق الرذيلة، ولم يزكهم لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ لا يصلح لهم إلا النار، فكيف يصبرون عليها؟ ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي مجازاته بالعدل ومنعه أسباب الهداية ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ ومن الحق مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. ويوجد هنا ما يدل أيضاً على أن الله أنزله لهداية خلقه، فمن صرفه عن مقصوده، فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ ﴾ وحرفوه وصرفوه على أهوائهم ومراداتهم ﴿ لَفِي شِقَاقٍ ﴾ أي محادة ﴿ بَعِيدٍ ﴾ عن الحق.

﴿ 177 ﴾ ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ أي ليس هذا هو البر المقصود من العباد ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ بأنه إله واحد، موصوف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص ﴿ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ وهو كل ما أخبر الله به في كتابه، أو أخبر به الرسول، مما يكون بعد الموت ﴿ وَالْمَلَائِكَةِ ﴾ الذين وصفهم الله لنا في كتابه، ووصفهم رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَالْكِتَابِ ﴾ أي جنس الكتب التي أنزلها الله على رسله وأعظمها القرآن ﴿ وَالنَّبِيّينَ ﴾ عموما، خصوصا خاتمهم وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَآتَى ﴾ أعطى ﴿ الْمَالَ ﴾ قليلا كان أو كثيرا ﴿ عَلَى حُبِّهِ ﴾ أي حب المال، فإذا كانت الصدقة عن قلة كانت أفضل. وكذلك إخراج ما يحبه من ماله ﴿ ذَوِي الْقُرْبَى ﴾ أي تعاهد الأقارب بالإحسان المالي والقولي، على حسب قربهم وحاجتهم ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ الذين لا كاسب لهم، وليس لهم قوة يستغنون بها ﴿ وَالْمَسَاكِينَ ﴾ الذين أسكنتهم الحاجة وأذلهم الفقر ﴿ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ الغريب المنقطع به في غير بلده، فحث الله عباده على إعطائه من المال ما يعينه على سفره ﴿ وَالسَّائِلِينَ ﴾ الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج توجب السؤال. كمن ابتلي بأرش جناية، أو ضريبة عليه من ولاة الأمور، أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة كالمساجد والمدارس والقناطر ونحو ذلك، فهذا له حق وإن كان غنيا ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ فيدخل فيه العتق والإعانة عليه ﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ قد تقدم مرارا، أن الله تعالى يقرن بين الصلاة والزكاة، لكونهما أفضل العبادات ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ والعهد يدخل في ذلك حقوق الله كلها، وحقوق العباد والحقوق التي التزمها العبد كالأيمان والنذور، ونحو ذلك ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ ﴾ أي الفقر لأن الفقير يحتاج إلى الصبر ﴿ وَالضَّرَّاءِ ﴾ أي المرض على اختلاف أنواعه فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك ﴿ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ أي وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم ﴿ أُولَئِكَ ﴾ المتصفون بما ذكر من العقائد الحسنة، والأعمال التي هي آثار الإيمان، هم ﴿ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ في إيمانهم، لأن أعمالهم صدقت إيمانهم ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ لأنهم تركوا المحظور وفعلوا المأمور، فهؤلاء هم الأبرار الصادقون المتقون.

﴿ 178 - 179 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ ﴾ فرض ﴿ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ أي المساواة فيه. وأن يقتل القاتل على الصفة التي قتل عليها المقتول، إقامة للعدل والقسط بين العباد. وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين فيه دليل على أنه يجب

عليهم كلهم، حتى أولياء القاتل وحتى القاتل بنفسه إعانة ولي المقتول[33] إذا طلب القصاص وتمكينه من القاتل ﴿ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ [34] ترقيق وحث على العفو إلى الدية. وأحسن من ذلك العفو مجانا ﴿شَيْءٌ ﴾ أي عفا ولي المقتول أو بعض الأولياء عن القاتل إلى الدية، فإنه يسقط القصاص، وتجب الدية. فإذا عفا عنه وجب على ولي المقتول أن يتبع القاتل ﴿ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ من غير أن يشق عليه، ولا يحمله ما لا يطيق، بل يحسن الاقتضاء والطلب، ولا يحرجه ﴿ وَ﴾ على القاتل ﴿ أَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ من غير مطل ولا نقص، ولا إساءة فعلية أو قولية ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أي بعد العفو ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة. وأما قتله وعدمه فيؤخذ مما تقدم لأنه قتل مكافئا له، فيجب قتله بذلك. وأما من فسر العذاب الأليم بالقتل، فإن الآية تدل على أنه يتعين قتله، ولا يجوز العفو عنه، وبذلك قال بعض العلماء والصحيح الأول، لأن جنايته لا تزيد على جناية غيره ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ أي تنحقن بذلك الدماء، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل، لا يكاد يصدر منه القتل. وإذا رئي القاتل مقتولا انذعر بذلك غيره وانزجر ﴿ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ولما كان هذا الحكم لا يعرف حقيقته إلا أهل العقول الكاملة خصهم بالخطاب دون غيرهم. ناداهم بذلك رب الأرباب، وكفى بذلك فضلا وشرفا لقوم يعقلون ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ فمن عرف ربه أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله، ويعظم معاصيه فيتركها فيستحق بذلك أن يكون من المتقين.

﴿ 180 - 182 ﴾ ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ ﴾ فرض الله عليكم يا معشر المؤمنين ﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ أي أسبابه، كالمرض المشرف على الهلاك، وحضور أسباب المهالك ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ من المال، فـ ﴿ الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ عليه أن يوصي لوالديه وأقرب الناس إليه بالمعروف. على قدر حاله من غير سرف، ولا اقتصار على الأبعد دون الأقرب، بل يرتبهم على القرب والحاجة، ولهذا أتى فيه بأفعل التفضيل ﴿ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ دل على وجوب ذلك. لأن الحق هو: الثابت، وقد جعله الله من موجبات التقوى[35] ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ ﴾ أي الإيصاء للمذكورين أو غيرهم ﴿

---

[33] يدخل بمنطقوقها، الذكر بالذكر والأنثى بالأنثى والأنثى بالذكر والذكر بالأنثى. فيكون منطوقها مقدما على مفهوم قوله: وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى مع دلالة السنة. على أن الذكر يقتل بالأنثى، وخرج من عموم هذا الأبوان وإن علوا، فلا يقتلان بالولد، لورود السنة بذلك. مع أن في قوله: الْقِصَاصُ ما يدل على أنه ليس من العدل، أن يقتل الوالد بولده، ولأن في قلب الوالد من الشفقة والرحمة، ما يمنعه من القتل لولده إلا بسبب اختلال في عقله، أو أذية شديدة جدا من الولد له. وخرج من العموم أيضا، الكافر بالسنة، مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصة. وأيضا فليس من العدل أن يقتل ولي الله بعدوه، والعبد بالعبد، ذكرا كان أو أنثى، تساوت قيمتهما أو اختلفت، ودل بمفهومها على أن الحر، لا يقتل بالعبد، لكونه غير مساو له، والأنثى بالأنثى، أخذ بمفهومها بعض أهل العلم فلم يجز قتل الرجل بالمرأة، وتقدم وجه ذلك. وفي هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود في القتل، وأن الدية بدل عنه، فلهذا قال: فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ أي: عفا ولي المقتول عن القاتل إلى الدية، أو عفا بعض الأولياء، فإنه يسقط القصاص، وتجب الدية، وتكون الخيرة في القود واختيار الدية إلى الولي.

[34] وفي قوله: أَخِيهِ دليل على أن القاتل لا يكفر. لأن المراد بالأخوة هنا أخوة الإيمان، فلم يخرج بالقتل منها. ومن باب أولى أن سائر المعاصي التي هي دون الكفر، لا يكفر بها فاعلها، وإنما ينقص بذلك إيمانه.

[35] واعلم أن جمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة بآية المواريث. وبعضهم يرى أنها في الوالدين والأقربين غير الوارثين، مع أنه لم يدل على التخصيص بذلك دليل، والأحسن في هذا أن يقال: إن هذه الوصية للوالدين والأقربين مجملة، ردها الله تعالى إلى العرف الجاري. ثم إن الله تعالى قدر للوالدين الوارثين وغيرهما من الأقارب الوارثين هذا المعروف في آيات المواريث، بعد أن كان مجملا، وبقي

﴿ بَعْدَمَا سَمِعَهُ ﴾ بعدما عقله وعرف طرقه وتنفيذه ﴿ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ﴾ الإثم على المبدل المغير، وإلا فالموصي وقع أجره على الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ يسمع سائر الأصوات، ومنه سماعه لمقالة الموصي ووصيته ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنيته، وعليم بعمل الموصى إليه. ﴿ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا ﴾ الميل بها خطأ ﴿ أَوْ إِثْمًا ﴾ التعمد لذلك، فينبغي لمن حضر وقت الوصية أن ينصحه بما هو الأحسن والأعدل وأن ينهاه عن الجور والجنف فإن لم يفعل ذلك ﴿ فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ ﴾ بين الموصى إليهم، فينبغي له أن يصلح ويتوصل إلى العدل بينهم على وجه التراضي والمصالحة، ووعظهم بتبرئة ذمة ميتهم ﴿ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ فهذا قد فعل معروفا عظيما، وليس عليهم إثم ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ يغفر جميع الزلات، غفور لميتهم الجائر في وصيته، إذا احتسبوا بمسامحة بعضهم بعضا لأجل براءة ذمته ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بعباده، حيث شرع لهم كل أمر به يتراحمون ويتعاطفون. فدلت هذه الآيات على الحث على الوصية، وعلى بيان من هي له، وعلى وعيد المبدل للوصية العادلة، والترغيب في الإصلاح في الوصية الجائرة.

﴿ 183 - 185 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ يخبر تعالى بما منَّ به على عباده، بأنه فرض عليهم الصيام ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ من الأمم السابقة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى ﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ﴾ قليلة في غاية السهولة. ثم سهل تسهيلا آخر ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ ﴾ وذلك للمشقة، في الغالب، رخص الله لهما في الفطر ﴿ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ أمرهما أن يقضياه في أيام أخر إذا زال المرض، وانقضى السفر. وفيه دليل على أنه يقضي عدد أيام رمضان، كاملا كان أو ناقصا. وعلى أنه يجوز أن يقضي أياما قصيرة باردة، عن أيام طويلة حارة كالعكس ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ﴾ أي يطيقون الصيام ويتكلفونه ويشق عليهم مشقة غير محتملة ﴿ فِدْيَةٌ ﴾ عن كل يوم يفطرونه ﴿ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾ وهذا في ابتداء فرض الصيام عندما كانوا غير معتادين للصيام. وقد درجهم الرب الحكيم بأسهل طريق. فخيَّر المطيق للصوم بين أن يصوم وهو أفضل أو يطعم ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ثم بعد ذلك، جعل الصيام

الحكم فيمن لم يرثوا من الوالدين الممنوعين من الإرث وغيرهما ممن حجب بشخص أو وصف، فإن الإنسان مأمور بالوصية لهؤلاء وهم أحق الناس ببره، وهذا القول تتفق عليه الأمة، ويحصل به الجمع بين القولين المتقدمين، لأن كلا من القائلين بهما كل منهم لحظ ملحظا، واختلف المورد. فبهذا الجمع، يحصل الاتفاق، والجمع بين الآيات، لأنه مهما أمكن الجمع كان أحسن من ادعاء النسخ، الذي لم يدل عليه دليل صحيح.

حتما على المطيق وغير المطيق، يفطر ويقضيه في أيام أخر. وقيل: وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ويشق عليهم كالشيخ الكبير، فدية عن كل يوم طَعَامُ مِسْكِينٍ وهذا هو الصحيح. ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ شهر رمضان الذي حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم، وهو القرآن الكريم ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ فحقيق به أن يكون موسما للعباد مفروضا فيه الصيام ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ هذا فيه تعيين الصيام على القادر الصحيح الحاضر ﴿ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ ولما كان النسخ للتخيير، بين الصيام والفداء خاصة، أعاد الرخصة للمريض والمسافر، لئلا يتوهم أن الرخصة أيضا منسوخة فقال ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ فييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير ﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ ﴾ وهذا – والله أعلم – لئلا يتوهم متوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود منه ببعضه، دفع هذا الوهم بالأمر بتكميل عدته ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾ ويدخل في ذلك التكبير عند رؤية هلال شوال إلى فراغ خطبة العيد ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ويشكر الله تعالى عند إتمامه على توفيقه وتسهيله وتبيينه لعباده.

﴿ 186 ﴾ ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ فقد سأل النبيَّ صلى الله عليه وسلم بعضُ أصحابه فقالوا: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزل أنه تعالى الرقيب الشهيد المطلع على السر وأخفى ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ قريب أيضا من داعيه بالإجابة. فمن دعا ربه بقلب حاضر ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة. وخصوصا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره والإيمان به ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ يحصل لهم الرشد الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة.

﴿ 187 ﴾ ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ أباح في ليالي الصيام كلها الأكل والشرب والجماع، سواء نام أو لم ينم[36] ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ بترك بعض ما أمروا به ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ بأن وسع لكم أمرا كان موجبا للإثم وعفا عنكم ما سلف من التخون ﴿ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ ﴾ بعد هذه الرخصة

[36] كان في أول فرض الصيام يحرم على المسلمين في الليل بعد النوم الأكل والشرب والجماع. فحصلت المشقة لبعضهم، فخفف الله تعالى عنهم ذلك.

والسعة من الله ﴿ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي انووا في مباشرتكم لزوجاتكم التقرب إلى الله تعالى والمقصود الأعظم من الوطء، وهو حصول الذرية وإعفاف فرجه وفرج زوجته، وحصول مقاصد النكاح ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ هذا غاية للأكل والشرب والجماع. وفيه أنه إذا أكل ونحوه شاكا في طلوع الفجر فلا بأس عليه. وفيه: دليل على استحباب السحور للأمر، وأنه يستحب تأخيره أخذا من معنى رخصة الله وتسهيله على العباد. وفيه أيضا دليل على أنه يجوز أن يدركه الفجر وهو جنب من الجماع قبل أن يغتسل ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ إذا طلع الفجر أمسكوا عن المفطرات إلى غروب الشمس ﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾ إباحة الوطء في ليالي الصيام لاتحل للمعتكف. ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف، وهو لزوم المسجد لطاعة الله تعالى وانقطاعا إليه ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ تلك المحرمات هي من حدود الله التي نها عنها ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ وهذا أبلغ من قول "فلا تفعلوها" لأن القربان يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة إليه وكل سبب يدعو إليه. وأما الأوامر فيقول الله فيها: تلك حدود الله فلا تعتدوها فينهى عن مجاوزتها ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ ﴾ فإن الإنسان قد يفعل المحرم على وجه الجهل بأنه محرم، ولو علم تحريمه لم يفعله، فإذا بين الله للناس آياته، لم يبق لهم عذر ولا حجة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ فكان ذلك سببا للتقوى.

﴿ 188 ﴾ ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ ولا تأخذوا أموال غيركم[37] أضافها إليهم لأنه ينبغي للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ﴿ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴾ فمن أدلى إلى الحاكم بحجة باطلة وحكم له بذلك، فإنه لا يحل له ﴿ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ ﴾ ويكون آكلا لمال غيره بالباطل والإثم ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وهو عالم بذلك، فيكون أبلغ في عقوبته، وعلى هذا فالوكيل إذا علم أن موكله مبطل في دعواه، لم يحل له أن يخاصم عن الخائن كما قال تعالى: وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا.

﴿ 189 ﴾ ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ﴾ وهي جمع هلال ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ ليعرف الناس مواقيت عباداتهم من الصيام وأوقات الزكاة والكفارات ﴿ وَالْحَجِّ ﴾ وأوقات الحج ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ﴾ كان الأنصار

[37] المحرم أكلها بالباطل، قيده تعالى بذلك. ويدخل في ذلك أكلها على وجه الغصب والسرقة والخيانة في وديعة أو عارية، أو نحو ذلك. ويدخل فيه أيضا، أخذها على وجه المعاوضة. بمعاوضة محرمة: كعقود الربا، والقمار كلها، فإنها من أكل المال بالباطل، لأنه ليس في مقابلة عوض مباح، ويدخل في ذلك أخذها بسبب غش في البيع والشراء والإجارة، ونحوها، ويدخل في ذلك استعمال الأجراء وأكل أجرتهم. وكذلك أخذهم أجرة على عمل لم يقوموا بواجبه، ويدخل في ذلك أخذ الأجرة على العبادات والقربات التي لا تصح حتى يقصد بها وجه الله تعالى. ويدخل في ذلك الأخذ من الزكوات والصدقات، والأوقاف، والوصايا، لمن ليس له حق منها، أو فوق حقه. فكل هذا ونحوه، من أكل المال بالباطل، فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه.

وغيرهم من العرب إذا أحرموا لم يدخلوا البيوت من أبوابها، تعبدا بذلك وظنا أنه بر ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ﴾ فأخبر الله أنه ليس ببر وأمرهم ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ لما فيه من السهولة عليهم. ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي على الإنسان أن يأتي كل أمر من الأمور من الطريق السهل القريب، الذي قد جعل له موصلا ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ هذا هو البر الذي أمر الله به، وهو لزوم تقواه على الدوام بامتثال أوامره.

﴿ 190 - 193 ﴾ ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ لما قوي المسلمون للقتال بعد الهجرة إلى المدينة أمرهم الله به، بعد ما كانوا مأمورين بكف أيديهم ﴿ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ المستعدون لقتالكم، وهم الرجال المكلفون، غير الشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ والنهي عن الاعتداء يشمل قتل من لا يقاتل من النساء والأطفال والرهبان والمجانين ونحوهم ومقاتلة من تقبل منهم الجزية إذا بذلوها، والتمثيل بالقتلى وقتل الحيوانات وقطع الأشجار ونحوها ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ هذا أمر بقتالهم، أينما وجدوا في كل وقت وفي كل زمان قتال مدافعة ومهاجمة. ثم استثنى من هذا العموم ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ وأنه لا يجوز إلا أن يبدأوا بالقتال ﴿ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ﴾ جزاء لهم على اعتدائهم ﴿ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ. فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ولما كان القتال عند المسجد الحرام، يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام، أمر تعالى ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ لأن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك، والصد عن دينه، أشد من مفسدة القتل، فليس عليكم - أيها المسلمون - حرج في قتالهم. ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة، وهي: أنه يرتكب أخف المفسدتين، لدفع أعلاهما ﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا ﴾ عن قتالكم عند المسجد الحرام ﴿ فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ فليس المقصود سفك دماء الكفار وأخذ أموالهم، ولكن المقصود به أن يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ تعالى. فإذا حصل هذا المقصود، فلا قتل ولا قتال إلا من ظلم منهم، فإنه يستحق المعاقبة بقدر ظلمه.

﴿ 194 ﴾ ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴾ يحتمل أن يكون المراد به ما وقع من صد المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عام الحديبية، عن الدخول لمكة، وقاضوهم على دخولها من قابل. وكان الصد والقضاء في شهر حرام، وهو ذو القعدة، فيكون هذا بهذا. ويحتمل أن يكون المعنى: إنكم إن قاتلتموهم في الشهر الحرام فقد قاتلوكم فيه،

وهم المعتدون، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾ من باب عطف العام على الخاص، فمن تجرأ على ما أمر الشرع باحترامه فإنه يقتص منه ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ هذا تفسير لصفة المقاصة وأنها هي المماثلة في مقابلة المعتدي ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أمر تعالى بلزوم تقواه التي هي الوقوف عند حدوده وعدم تجاوزها ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالعون والتوفيق.

﴿ 195 ﴾ ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وهو إخراج الأموال في الطرق الموصلة إلى الله، وهي كل طرق الخير، من صدقة وإنفاق في الجهاد في سبيل الله. وفي ترك الإنفاق في سبيل الله إبطال للجهاد، وتسليط للأعداء، فيكون قوله تعالى ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ كالتعليل لذلك. والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى تسلط الأعداء، ودخول تحت شيء فيه خطر. ومن الإلقاء باليد إلى التهلكة الإقامة على معاصي الله، واليأس من التوبة، ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض التي في تركها هلاك للروح والدين، فهذا ونحوه ممن ألقى بيده إلى التهلكة ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعا من أنواع الإحسان، أمر بجميع أنواع الإحسان، لم يقيده بشيء.

﴿ 196 ﴾ ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ ولما فرغ تعالى من ذكر أحكام الصيام فالجهاد، ذكر أحكام الحج. ويستدل بها وجوب الحج والعمرة وفرضيتهما، ووجوب إتمامهما بأركانهما وواجباتهما وبإتقانهما وإحسانهما وبإخلاصهما لله تعالى ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ ﴾ أي منعتم من الوصول إلى البيت لتكميلهما، بمرض أو ضلالة أو عدو ونحو ذلك من أنواع الحصر، الذي هو المنع ﴿ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ أي فاذبحوا ما استيسر من الهدي وهو سبع بدنة أو سبع بقرة أو شاة يذبحها المحصر. فإن لم يجد الهدي فليصم بدله عشرة أيام كما في المتمتع ثم يحل ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ ﴾ فمن محظورات الإحرام إزالة الشعر من الرأس أو من البدن، بحلق أو غيره. والمقصود من ذلك حصول الشعث والمنع من الترفه بإزالته. وقاس كثير من العلماء على إزالة الشعر تقليم الأظفار بجامع الترفه ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ ويستمر المنع مما ذكر حتى يبلغ الهدي محله وهو يوم النحر ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ ﴾ فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من مرض أو قروح أو قمل ونحو ذلك فإنه يحل له أن يحلق رأسه، ولكن ﴿ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ يكون عليه فدية من صيام ثلاثة أيام، أو صدقة على ستة مساكين أو نسك ما

يجزئ في أضحية، فهو مخير[38] ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ ﴾ بأن قدرتم على البيت من غير مانع عدو وغيره ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ﴾ بأن توصل بها إليه، وانتفع بتمتعه بعد الفراغ منها ﴿ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ أي فعليه ما تيسر من الهدي وهو ما يجزئ في أضحية. وهذا دم نسك مقابلة لحصول النسكين له في سفرة واحدة، ولإنعام الله عليه بحصول الانتفاع بالمتعة بعد فراغ العمرة، وقبل الشروع في الحج. ومثلها القِران لحصول النسكين له. ويدل مفهوم الآية على أن المفرد للحج ليس عليه هدي. ودلت الآية على جواز بل فضيلة المتعة، وعلى جواز فعلها في أشهر الحج ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ﴾ الهدي أو ثمنه ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ ﴾ أول جوازها من حين الإحرام بالعمرة، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر، أيام رمي الجمار، والمبيت بـ "منى". ولكن الأفضل منها، أن يصوم السابع والثامن والتاسع ﴿ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ أي فرغتم من أعمال الحج ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ فيجوز فعلها في مكة وفي الطريق وعند وصوله إلى أهله ﴿ ذَلِكَ ﴾ المذكور من وجوب الهدي على المتمتع ﴿ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ بأن كان عند مسافة قصر فأكثر، أو بعيدا عنه عرفات، فهذا الذي يجب عليه الهدي، لحصول النسكين له في سفر واحد. وأما من كان أهله من حاضري المسجد الحرام، فليس عليه هدي لعدم الموجب لذلك ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في جميع أموركم، وبامتثال هذه المأمورات المذكورة ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لمن عصاه، وأما من لم يخف العقاب، ولم يرج الثواب، اقتحم المحارم، وتجرأ على ترك الواجبات.

﴿ 197 ﴾ ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

﴿ الْحَجُّ ﴾ واقع في ﴿ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ بحيث لا تحتاج إلى تخصيص، كما احتاج الصيام إلى تعيين شهره، وكما بين تعالى أوقات الصلوات الخمس. وأما الحج فقد كان من ملة إبراهيم وهي مستمرة في ذريته معروفة بينهم. والمراد بالأشهر المعلومات عند جمهور العلماء شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة ﴿ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ ﴾ أحرم به لأن الشروع فيه يصيره فرضا، ولو كان نفلا[39] ﴿ فَلَا ﴾ يجب أن تعظموا الإحرام بالحج ﴿ رَفَثَ ﴾ الجماع ومقدماته الفعلية والقولية ﴿ وَلَا فُسُوقَ ﴾ جميع المعاصي ﴿ وَلَا جِدَالَ ﴾ المماراة والمنازعة والمخاصمة ﴿ فِي الْحَجِّ. وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا ﴾ لهذا السفر المبارك ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ وهو زاد إلى دار القرار ﴿ وَاتَّقُونِ ﴾ أي ربكم الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول ﴿ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ يا أهل العقول الرزينة.

﴿ 198 - 202 ﴾ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

---

[38] والنسك أفضل، فالصدقة، فالصيام. ومثل هذا، كل ما كان في معنى ذلك، من تقليم الأظفار، أو تغطية الرأس، أو لبس المخيط، أو الطيب، فإنه يجوز عند الضرورة، مع وجوب الفدية المذكورة لأن القصد من الجميع، إزالة ما به يترفه.

[39] واستدل بهذه الآية الشافعي ومن تابعه، على أنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره، قلت لو قيل: إن فيها دلالة لقول الجمهور، بصحة الإحرام [بالحج] قبل أشهره لكان قريبا، فإن قوله: فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ دليل على أن الفرض قد يقع في الأشهر المذكورة وقد لا يقع فيها، وإلا لم يقيده.

غَفُورٌ رَحِيمٌ * فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ لاحرج في ابتغاء فضل الله بالتكسب في مواسم الحج وغيره على أن لا يشغل صاحبه عن المقصود وهو الحج ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ ﴾ أمر﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ وهو المزدلفة ﴿ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾ منّ عليكم بالهداية ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾ كما بعد الضلال، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا ﴾ من مزدلفة ﴿ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ من إبراهيم عليه السلام إلى الآن، وذلك لرمي الجمار وذبح الهدايا والطواف والسعي والمبيت بـ"منى" ليالي التشريق وتكميل باقي المناسك ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أمر تعالى عند الفراغ من آخر المناسك المذكورات باستغفاره والإكثار من ذكره. وهكذا ينبغي للعبد كلما فرغ من عبادة، أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾[40] ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق وأن الجميع يسألونه مطالبهم ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا ﴾ أي يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهواته ﴿ وَمَا لَهُ ﴾ وليس له ﴿ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ من نصيب، لرغبته عنها ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ومنهم من يدعو الله لمصلحة الدارين، ويفتقر إليه في مهمات دينه ودنياه ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ وكل من هؤلاء وهؤلاء لهم نصيب من كسبهم وعملهم، وسيجازيهم تعالى على حسب أعمالهم[41].

﴿ 203 ﴾ ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ﴾ وهي أيام التشريق الثلاثة بعد العيد، لمزيتها وشرفها، وكون بقية أحكام المناسك تفعل بها، ولكون الناس أضيافا لله فيها، ولهذا حرم صيامها[42] ﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ أي خرج من "منى" ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثاني ﴿ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ ﴾ بأن بات بها ليلة الثالث ورمى من الغد ﴿ فَلَا إِثْمَ

---

[40] جاء في تفسير الطبري المنقول عن موقع (AYAT): فإذا فرَغتم من حَجكم فذبحتم نَسائككم، فاذكروا الله.. وكان القوم في جاهليتهم بعد فراغهم من حجهم ومناسكهم يجتمعون فيتفاخرون بمآثر آبائهم، فأمرهم الله في الإسلام أن يكون ذكرُهم بالثناء والشكر والتعظيم لربهم دون غيره، وأن يُلزموا أنفسهم من الإكثار من ذكره، نظيرَ ما كانوا ألزموا أنفسهم في جاهليتهم من ذكر آبائهم.

[41] وفي هذه الآية دليل على أن الله يجيب دعوة كل داع، مسلما أو كافرا، أو فاسقا، ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه، دليلا على محبته له وقربه منه، إلا في مطالب الآخرة ومهمات الدين. والحسنة المطلوبة في الدنيا يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد، من رزق هنيء واسع حلال، وزوجة صالحة، وولد تقر به العين، وراحة، وعلم نافع، وعمل صالح، ونحو ذلك، من المطالب المحبوبة والمباحة. وحسنة الآخرة، هي السلامة من العقوبات، في القبر، والموقف، والنار، وحصول رضا الله، والفوز بالنعيم المقيم، والقرب من الرب الرحيم، فصار هذا الدعاء، أجمع دعاء وأكمله، وأولاه بالإيثار، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من الدعاء به، والحث عليه.

[42] فللذكر فيها مزية ليست لغيرها، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أيام التشريق، أيام أكل وشرب، وذكر الله". ويدخل في ذكر الله فيها، ذكره عند رمي الجمار، وعند الذبح، والذكر المقيد عقب الفرائض، بل قال بعض العلماء: إنه يستحب فيها التكبير المطلق، كالعشر، وليس ببعيد.

عَلَيْهِ ﴾ وهذا تخفيف من الله تعالى على عباده، في إباحة كلا الأمرين. ولكن من المعلوم أنه إذا أبيح كلا الأمرين، فالمتأخر أفضل، لأنه أكثر عبادة، وقد قيده بقوله ﴿ لِمَنِ اتَّقَى ﴾ الله في جميع أموره، وأحوال الحج. فمن اتقى الله في كل شيء، حصل له نفي الحرج في كل شيء، ومن اتقاه في شيء دون شيء، كان الجزاء من جنس العمل ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بامتثال أوامره واجتناب معاصيه ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ فمجازيكم بأعمالكم.

﴿ 204 - 206 ﴾ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ إذا تكلم راق كلامه للسامع ﴿ وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ﴾ وأن ما في قلبه موافق لما نطق به وهو كاذب في ذلك، لأن قوله يخالف فعله ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ إذا خاصمته وجدت فيه من اللدد والتعصب وما يترتب على ذلك ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى ﴾ هذا الذي يعجبك قوله إذا حضر عندك ﴿ سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾ أي يجتهد على أعمال المعاصي، التي هي إفساد في الأرض ﴿ وَيُهْلِكَ ﴾ بسبب ذلك ﴿ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴾ فالزروع والثمار والمواشي تتلف وتنقص وتقل بركتها بسبب العمل في المعاصي ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ بل يبغض المفسدَ في الأرض وإن قال بلسانه قولا حسنا[43] ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ إذا أُمِر بتقوى الله ﴿ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ﴾ تكبر وأنف فيجمع بين العمل بالمعاصي والكبر على الناصحين ﴿ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ﴾ دار العاصين والمتكبرين ﴿ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ والمسكن، لا يخفف عنهم العذاب ولا يرجون الثواب.

﴿ 207 ﴾ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ﴾ باعوا أنفسهم وأرخصوها وبذلوها ﴿ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ﴾ ورجاء لثوابه ﴿ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ رأفته الموجبة لتحصيل ما طلبوا.

﴿ 208 - 209 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أمر من الله تعالى للمؤمنين ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ في جميع شرائع الدين. ولا يتركوا منها شيئا والواجب أن يكون الهوى تبعا للدين ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ فالدخول في السلم كافة لا يمكن إلا بمخالفة طرق الشيطان ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء، وما به الضرر عليكم ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ

[43] ففي هذه الآية دليل على أن الأقوال التي تصدر من الأشخاص، ليست دليلا على صدق ولا كذب، ولا بر ولا فجور حتى يوجد العمل المصدق لها، المزكي لها. وأنه ينبغي اختبار أحوال الشهود، والمحق والمبطل من الناس بسبر أعمالهم وأن لا يغتر بتمويههم وتزكيتهم أنفسهم

﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ على علم ويقين، وفي هذا وعيد وتخويف ما يوجب ترك الزلل ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ إذا عصاه العاصي قهره بقوته ﴿ حَكِيمٌ ﴾ وعذبه بمقتضى حكمته.

﴿ 210 ﴾ ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ فهل ينتظر الساعون في الفساد في الأرض ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ ﴾ وذلك أن الله تعالى يطوي السماوات والأرض وتنثر الكواكب وتكور الشمس والقمر، وينزل الباري تبارك وتعالى ﴿ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ وتنزل الملائكة الكرام فتحيط بالخلائق ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ ليفصل بين عباده بالقضاء العدل[44].

﴿ 211 ﴾ ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[45]

﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ﴾ تدل على الحق، وعلى صدق الرسل، فتيقنوها وعرفوها، فلم يقوموا بشكر هذه النعمة ﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ ﴾ سمى الله تعالى كفر النعمة تبديلا لها، لأن من أنعم الله عليه نعمة دينية أو دنيوية فلم يشكرها ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ اضمحلت عنه وذهبت، وتبدلت بالكفر والمعاصي، فصار الكفر بدل النعمة.

﴿ 212 ﴾ ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

---

[44] يعقب السعدي على هذه الآية قائلاً: " وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، المثبتين للصفات الاختيارية، كالاستواء، والنزول، والمجيء، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى، عن نفسه، أو أخبر بها عنه رسوله صلى الله عليه وسلم، فيثبتونها على وجه يليق بجلال الله وعظمته، من غير تشبيه ولا تحريف. خلافا للمعطلة على اختلاف أنواعهم، من الجهمية، والمعتزلة، والأشعرية ونحوهم، ممن ينفي هذه الصفات، ويتأول لأجلها الآيات بتأويلات ما أنزل الله عليها من سلطان، بل حقيقتها القدح في بيان الله وبيان رسوله. والزعم بأن كلامهم هو الذي تحصل به الهداية في هذا الباب، فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي، بل ولا دليل عقلي. أما النقلي: فقد اعترفوا أن الظاهر الصريح الوارد في الكتاب والسنة يدل على مذهب أهل السنة والجماعة. أما دلالاتها بحسب مذهبهم الباطل فتحتاج لإخراج النصوص عن ظاهرها ولأن يزاد فيها وينقص، وهذا لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان. وأما العقل: فليس في العقل ما يدل على نفي هذه الصفات. بل يدل العقل على أن الفاعل هو أكمل من الذي لا يقدر على الفعل. وأن فعله تعالى المتعلق بنفسه والمتعلق بخلقه هو كمال. فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه، قيل لهم: الكلام على الصفات، يتبع الكلام على الذات. فكما أن لله ذاتا لا تشبهها الذوات، فلله صفات لا تشبهها الصفات. فصفاته تبع لذاته، وصفات خلقه، تبع لذواتهم، فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه بوجه. ويقال أيضا، لمن أثبت بعض الصفات، ونفى بعضا، أو أثبت الأسماء دون الصفات: إما أن تثبت الجميع كما أثبته الله لنفسه، وأثبته رسوله، وإما أن تنفي الجميع، وتكون منكرا لرب العالمين. وأما إثباتك بعض ذلك، ونفيك لبعضه، فهذا تناقض، ففرق بين ما أثبته، وما نفيته، ولن تجد إلى الفرق سبيلا، فإن قلت: ما أثبته لا يقتضي تشبيها، قال لك أهل السنة: والإثبات لما نفيته لا يقتضي تشبيها، فإن قلت: لا أعقل من الذي نفيته إلا التشبيه، قال لك النفاة: ونحن لا نعقل من الذي أثبته إلا التشبيه، فما أجبت به النفاة، أجابك به أهل السنة، لما نفيته. والحاصل أن من نفى شيئا وأثبت شيئا مما دل الكتاب والسنة على إثباته، فهو متناقض، لا يثبت له دليل شرعي ولا عقلي، بل قد خالف المعقول والمنقول.

[45] تفسير الأيات من 211 إلى 215 مأخوذ عن موقع AYAT

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالله وبآياته ورسله ﴿ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ فزينت في أعينهم وقلوبهم، واطمأنوا بها وصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها ﴿ وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ واحتقروا المؤمنين، واستهزأوا بهم وقالوا: أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا؟ وهذا من ضعف عقولهم ونظرهم القاصر ﴿ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ فالتفضيل الحقيقي في الدار الباقية، فيكون المتقون في أعلى الدرجات. والكفار تحتهم في أسفل الدركات ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فالرزق الدنيوي يحصل للمؤمن والكافر، وأما رزق القلوب من العلم والإيمان ومحبة الله وخشيته ورجائه فلا يعطيها إلا من يحب.

﴿ 213 ﴾ ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ كان الناس مجتمعين على الهدى، وذلك عشرة قرون بعد نوح عليه السلام. فلما اختلفوا في الدين كفر فريق منهم وبقي الفريق الآخر على الدين، وحصل النزاع ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ ﴾ ليفصلوا بين الخلائق ويقيموا الحجة عليهم. وقيل بل كانوا مجتمعين على الكفر والضلال والشقاء، ليس لهم نور ولا إيمان، فرحمهم الله تعالى بإرسال الرسل إليهم ﴿ مُبَشِّرِينَ ﴾ من أطاع الله بثمرات الطاعات، والفوز برضوان الله والجنة ﴿ وَمُنْذِرِينَ ﴾ من عصى الله، بثمرات المعصية، وسخط الله والنار ﴿ وَأَنزلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ وهو الإخبارات الصادقة، والأوامر العادلة ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع. والواجب عند النزاعات أن يرد الاختلاف إلى الله وإلى رسوله ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ بغى بعضهم على بعض فاختلفوا في الكتاب الذي ينبغي أن يكونوا أولى الناس بالاجتماع عليه، وذلك من بعد ما علموه وتيقنوه بالآيات البينات ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ من هذه الأمة ﴿ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ ﴾ فكل ما اختلف فيه أهل الكتاب وأخطأوا فيه الحق والصواب هدى الله للحق فيه هذه الأمة ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ تعالى وتيسيره لهم ورحمته ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ فعمَّ الخلق تعالى بالدعوة إلى الصراط المستقيم عدلا منه تعالى وإقامة حجة على الخلق. وهدى بفضله ورحمته وإعانته ولطفه من شاء من عباده.

﴿ 214 ﴾ ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ يخبر تبارك وتعالى أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة كما فعل بمن قبلهم. فهي سنته الجارية التي لا تتغير ولا تتبدل: أن من قام بدينه وشرعه، لا بد أن يبتليه. فإن صبر على أمر الله، ولم يبال بالمكاره فهو الصادق ﴿ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ﴾ وقد جرى على الأمم الأقدمين ما

ذكر الله عنهم ﴿ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ ﴾ الفقر ﴿ وَالضَّرَّاءُ ﴾ الأمراض في أبدانهم ﴿ وَزُلْزِلُوا ﴾ بأنواع المخاوف حتى استبطأوا نصر الله مع يقينهم به ﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ لكن الفرج عند الشدة ﴿ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ .

﴿ 215 ﴾ ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾ وهذا يعم السؤال عن المنفق والمنفق عليه ﴿ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي مال قليل أو كثير ﴿ فَلِلْوَالِدَيْنِ ﴾ أولى الناس به وأحقهم بالتقديم أعظمهم حقا عليك ﴿ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ على حسب القرب والحاجة. فالإنفاق عليهم صدقة وصلة ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم ﴿ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ وهم أهل الحاجات الذين أسكنتهم الحاجة، فينفق عليهم لدفع حاجاتهم وإغنائهم ﴿ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعان على سفره بالنفقة التي توصله إلى مقصده. عمم تعالى بعدها فقال ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ ﴾ من صدقة على هؤلاء وغيرهم، بل ومن جميع أنواع الطاعات والقربات، لأنها تدخل في اسم الخير﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ فيجازيكم عليه، ويحفظه لكم، كل على حسب نيته وإخلاصه.

﴿216 ﴾ ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾ لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وكثر المسلمون وقووا، أمرهم الله تعالى بالقتال ﴿ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾ مكروه للنفوس لما فيه من التعب والمشقة ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ ومع هذا فهو خير محض﴿ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ مثلما القعود عن الجهاد شر ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ والله تعالى أرحم بالعبد من نفسه، وأقدر على مصلحة عبده منه، وأعلم بمصلحته منه فاللائق بكم أن تتمشوا مع أقداره، سواء سرتكم أو ساءتكم.

﴿ 217 ﴾ ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ الجمهور على أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ بالأمر بقتال المشركين حيثما وجدوا. وقال بعض المفسرين: إنه لم ينسخ، لأن المطلق محمول على المقيد ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ وهذه الآية مقيدة لعموم الأمر بالقتال مطلقا؛ ولأن أكبر مزايا الأشهر الحرم تحريم قتال الابتداء فيها، وأما قتال

الدفع فإنه يجوز في الأشهر الحرم، كما يجوز في البلد الحرام. ولما كانت هذه الآية نازلة بسبب ما حصل، لسرية عبد الله بن جحش، وقتلهم عمرو بن الحضرمي، وأخذهم أموالهم، وكان ذلك – على ما قيل – في شهر رجب، عيّرهم المشركون ظلماً بالقتال بالأشهر الحرم. مع أن فيهم من القبائح ما بعضه أعظم مما عيروا به المسلمين. قال تعالى في بيان ما فيهم: ﴿ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي صد المشركين من يريد الإيمان بالله وبرسوله، وفتنتهم من آمن به، وسعيهم في ردهم عن دينهم ﴿ وَكُفْرٌ بِهِ ﴾ الحاصل في الشهر الحرام، والبلد الحرام، الذي هو بمجرده، كاف في الشر، فكيف وقد كان في شهر حرام وبلد حرام ﴿ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ ﴾ أي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، لأنهم أحق به من المشركين. فأخرجوهم مِنْهُ ولم يمكنوهم من الوصول إليه. فهذه الأمور كل واحد منها ﴿ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ في الشهر الحرام، فكيف وقد اجتمعت فيهم. فعلم أنهم فسقة ظلمة في تعييرهم المؤمنين ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ يقاتلون المؤمنين﴿ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ ليرجعوهم عن دينهم ويكونوا كفارا بعد إيمانهم[46] ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ ﴾ من ارتد عن الإسلام بأن اختار عليه الكفر واستمر على ذلك حتى مات كافرا ﴿ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ لعدم وجود شرطها وهو الإسلام ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ودلت الآية بمفهومها، أن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام، أنه يرجع إليه عمله الذي قبل ردته، وكذلك من تاب من المعاصي، فإنها تعود إليه أعماله المتقدمة.

﴿ 218 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ هذه الأعمال الثلاثة هي عنوان السعادة. فأما الإيمان إذا كان مع العبد قبلت أعمال الخير منه، وأما الهجرة فهي تقرب إلى الله ونصرة لدينه، وأما الجهاد فهو ذروة الأعمال الصالحة، وجزاؤه، أفضل الجزاء، وهو السبب الأكبر لتوسيع دائرة الإسلام وأمن المسلمين ﴿ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ﴾ وفي هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ لمن تاب توبة نصوحا ﴿ رَحِيمٌ ﴾ وسعت رحمته كل شيء.

﴿ 219 - 220 ﴾ ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ يا أيها الرسول ﴿ عَنِ ﴾ أحكام ﴿ الْخَمْرِ ﴾ كل مسكر خامر العقل وغطاه، من أي نوع كان ﴿ وَالْمَيْسِرِ ﴾ كل المغالبات التي يكون فيها عوض من الطرفين. وقد كانا مستعملين في الجاهلية وأول الإسلام. فأمر

[46] وهذا الوصف عام لكل الكفار وخصوصا أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين بذلوا الجمعيات ونشروا الدعاة وبثوا الأطباء وبنوا المدارس، لجذب الأمم وتشكيكهم في دينهم. ولكن المرجو من الله تعالى، الذي مَنّ على المؤمنين بالإسلام، واختار لهم دينه القيم، وأكمل لهم دينه، أن يتم عليهم نعمته بالقيام به أتم القيام، وأن يخذل كل من أراد أن يطفئ نوره، ويجعل كيدهم في نحورهم، وينصر دينه، ويعلي كلمته. وتكون هذه الآية صادقة على هؤلاء الموجودين من الكفار، كما صدقت على من قبلهم.

الله تعالى نبيه، أن يبين لهم منافعهما ومضارهما، ليكون ذلك مقدمة لتحريمهما. فـ ﴿ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ ومضار ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ من كسب المال بالتجارة بالخمر، وتحصيله بالقمار والطرب للنفوس ﴿ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ أكبر مما يظنونه من نفعهما ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ ﴾ عن مقدار ﴿ مَاذَا يُنْفِقُونَ ﴾ من أموالهم ﴿ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ فأمرهم أن ينفقوا العفو، وهو المتيسر من أموالهم الذي لا تتعلق به حاجتهم وضرورتهم، كل له قدرة على إنفاق ما عفا من ماله ولو شق تمرة ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ﴾ الدالات على الحق ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ. فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ فتستعملوا أفكاركم في أسرار شرعه، وتعرفوا أن أوامره فيها مصالح الدنيا والآخرة. ولكي تتفكروا في الدنيا، وسرعة انقضائها فترفضوها، وفي الآخرة وبقائها، وأنها دار الجزاء فتعمروها ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى ﴾ لما نزل قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا شق ذلك على المسلمين، وعزلوا طعامهم عن طعام اليتامى، خوفا على أنفسهم من تناولها، ولو في هذه الحالة التي جرت العادة بالمشاركة فيها، وسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ﴾ فأخبرهم تعالى أن المقصود إصلاح أموال اليتامى بحفظها وصيانتها، والاتجار فيها ﴿ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ ﴾ في طعام أو غيره على وجه لا يضر باليتامى ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ ومن شأن الأخ مخالطة أخيه ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ﴾ فذلك الذي عليه حرج وأثم ﴿ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ شق عليكم بعدم الرخصة بذلك، فحرجتم ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ له القوة الكاملة، والقهر لكل شيء ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته الكاملة، عرفناها أم لم نعرفها.

﴿ 221 ﴾ ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا ﴾ النساء ﴿ الْمُشْرِكَاتِ ﴾ ما دمن على شركهن ﴿ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ لأن المؤمنة ولو بلغت من الدمامة ما بلغت خير من المشركة ولو بلغت من الحسن ما بلغت، وهذه عامة في جميع النساء المشركات، مع إباحة نساء أهل الكتاب ﴿ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ وهذا عام لا تخصيص فيه ﴿ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ في أقوالهم، أو أفعالهم، وأحوالهم، والخطر هو الشقاء الأبدي ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو ﴾ عباده ﴿ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ﴾ وذلك بالدعوة إلى أسبابها من الأعمال الصالحة ﴿ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ ﴾ أي أحكامه وحكمها ﴿ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿ 222 - 223 ﴾ ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ﴾ وهل تكون المرأة بحالها بعد الحيض، كما كانت قبل ذلك، أم تجتنب مطلقا كما يفعله اليهود؟ ﴿ قُلْ ﴾ الحيض ﴿ هُوَ أَذًى ﴾ فمن الحكمة أن يمنع الله تعالى عباده عن الأذى وحده ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ مكان الحيض وهو الوطء في الفرج خاصة، فهذا هو المحرم إجماعا. وتخصيص الاعتزال في المحيض يدل على أن مباشرة الحائض وملامستها في غير الوطء في الفرج جائز، لكن قوله ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾ يدل على أن المباشرة فيما قرب من الفرج، وذلك فيما بين السرة والركبة ينبغي تركه. وحد هذا الاعتزال وعدم القربان للحُيَّض حَتَّى يَطْهُرْنَ أي ينقطع دمهن، فإذا انقطع الدم زال الشرط الأول وبقي الثاني، فلهذا قال ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾ أي اغتسلن ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ أي في القبل لا في الدبر، لأنه محل الحرث. وفيه دليل على وجوب الاغتسال للحائض وأن انقطاع الدم شرط لصحته ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ من ذنوبهم على الدوام ﴿ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ المتنزهين عن الآثام. وهذا يشمل التطهر الحسي من الأنجاس والأحداث، والتطهر المعنوي عن الأخلاق والصفات والأفعال الرذيلة. ففيه مشروعية الطهارة مطلقا، ولهذا كانت الطهارة مطلقا شرطا لصحة الصلاة والطواف وجواز مس المصحف ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ مقبلة ومدبرة غير أنه لا يكون إلا في القبل، لكونه موضع الحرث، وهو الموضع الذي يكون منه الولد. وفيه دليل على تحريم الوطء في الدبر، لأن الله لم يبح إتيان المرأة إلا في الموضع الذي منه الحرث، وقد تكاثرت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في تحريم ذلك، ولعن فاعله ﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ من التقرب إلى الله بفعل الخيرات، ومن ذلك أن يباشر الرجل امرأته، ويجامعها على وجه القربة والاحتساب ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في جميع أحوالكم ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ﴾ ومجازيكم على أعمالكم الصالحة وغيرها ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ لم يذكر المبشر به ليدل على العموم، وأن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

﴿ 224 ﴾ ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾ أمر الله تعالى بحفظ الأيمان في كل شيء، ولكنه استثنى من ذلك ﴿ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ إذا كان البر باليمين يتضمن ترك ما هو أحب إليه، فنهى عباده أن يجعلوا أيمانهم عرضة، أي مانعة وحائلة عن أن يبروا ويفعلوا خيرا، أو يتقوا شرا، أو يصلحوا بين الناس، فمن حلف على ترك واجب، وجب حنثه وحرم إقامته على يمينه، ومن حلف على ترك مستحب استحب له الحنث، ومن حلف على فعل محرم وجب الحنث، أو على فعل مكروه استحب الحنث، وأما المباح فينبغي فيه حفظ اليمين عن الحنث. ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة، أنه "إذا تزاحمت المصالح، قدم أهمها" ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لجميع الأصوات ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بالمقاصد والنيات، ومنه سماعه لأقوال الحالفين، وعلمه بمقاصدهم هل هي خير أم شر.

﴿ 225 ﴾ ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ بما يجري على ألسنتكم من الأيمان اللاغية، التي يتكلم بها العبد، من غير قصد منه ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ وإنما المؤاخذة على ما قصده القلب. وفي هذا دليل على اعتبار المقاصد في الأقوال، كما هي معتبرة في الأفعال ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ لمن تاب إليه ﴿ حَلِيمٌ ﴾ بمن عصاه، حيث لم يعاجله بالعقوبة، بل حلم عنه وستر.

﴿ 226 - 227 ﴾ ﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ ﴾ يحلفون على ترك الوطء ﴿ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ وهذا من الأيمان الخاصة بالزوجة في أمر خاص وهو حلف الزوج على ترك وطء زوجته مطلقا، أو مقيدا بأقل من أربعة أشهر أو أكثر. فمن آلى من زوجته لدون أربعة أشهر، فهذا مثل سائر الأيمان إن حنث كفر، وإن أتم يمينه فلا شيء عليه، وليس لزوجته عليه سبيل. وإن كان أبدا، أو مدة تزيد على أربعة أشهر، ضربت له مدة أربعة أشهر من يمينه، إذا طلبت زوجته ذلك، لأنه حق لها، فإذا تمت أمر بالفيئة وهو الوطء، فإن وطئ، فلا شيء عليه إلا كفارة اليمين، وإن امتنع، أجبر على الطلاق، فإن امتنع، طلق عليه الحاكم. ولكن الفيئة والرجوع إلى زوجته، أحب إلى الله تعالى، ولهذا قال ﴿ فَإِنْ فَاءُوا ﴾ أي رجعوا إلى ما حلفوا على تركه، وهو الوطء ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ يغفر لهم ما حصل منهم من الحلف، بسبب رجوعهم ﴿ رَحِيمٌ ﴾ حيث جعل لأيمانهم كفارة وتحلة، ولم يجعلها لازمة لهم غير قابلة للانفكاك، ورحيم بهم أيضا، حيث فاءوا إلى زوجاتهم ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ ﴾ أي امتنعوا من الفيئة، فكان ذلك دليلا على رغبتهم عنهن، وعدم إرادتهم لأزواجهم، وهذا لا يكون إلا عزما على الطلاق، فإن حصل هذا الحق الواجب منه مباشرة، وإلا أجبره الحاكم عليه أو قام به ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فيه وعيد وتهديد، لمن يحلف هذا الحلف، ويقصد بذلك المضارة والمشاقة. ويستدل بهذه الآية على أن الإيلاء، خاص بالزوجة، لقوله: مِنْ نِسَائِهِمْ وعلى وجوب الوطء في كل أربعة أشهر مرة، لأنه بعد الأربعة، يجبر إما على الوطء أو على الطلاق، ولا يكون ذلك إلا لتركه واجبا.

﴿ 228 ﴾ ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ ﴾ اللاتي طلقهن أزواجهن ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ﴾ ينتظرن ويعتددن مدة ﴿ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ حيض، أو أطهار على اختلاف العلماء في المراد بذلك. والصحيح أن القرء، الحيض. ولهذه العدة عِدّةُ حِكَمٍ، منها: العلم ببراءة الرحم: فإذا تكررت عليها ثلاثة أقراء علم أنه ليس في رحمها حمل ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ﴾ وحرم عليهن كتمان الحمل لأن ذلك يفضي إلى مفاسد كثيرة مثل إلحاق الولد بغير من هو له، وفي هذا

قطع الرحم والإرث، واحتجاب محارمه وأقاربه عنه، وربما تزوج ذوات محارمه[47]. ﴿ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وفي الأية دليل على قبول ما تخبر المرأة عن نفسها من الأمر الذي لا يطلع عليه غيرها، كالحيض والحمل ونحوه ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي لأزواجهن ما دامت متربصة في تلك العدة، أن يردوهن إلى نكاحهن ﴿ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ﴾ أي رغبة وألفة ومودة[48]. ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي وللنساء على بعولتهن من الحقوق واللوازم مثل الذي عليهن لأزواجهن من الحقوق اللازمة والمستحبة. ومرجع الحقوق بين الزوجين يرجع إلى المعروف، وهو العادة الجارية في ذلك البلد وذلك الزمان من مثلها لمثله، الكل يرجع إلى المعروف، فهذا موجب العقد المطلق. وأما مع الشرط، فعلى شرطهما، إلا شرطا أحل حراما، أو حرم حلالا ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ أي رفعة ورياسة، وزيادة حق عليها[49] ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ له العزة القاهرة والسلطان العظيم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في تصرفه.

﴿ 229 ﴾ ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

﴿ الطَّلَاقُ ﴾ الذي تحصل به الرجعة[50]﴿ مَرَّتَانِ ﴾ ليتمكن الزوج إن لم يرد المضارة من ارتجاعها. وأما ما فوقها فإما متجرئ على المحرم، أو ليس له رغبة في إمساكها بل قصده المضارة. ﴿ فَ ﴾ لهذا أمر تعالى الزوج ﴿ إِمْسَاكٌ ﴾ أن يمسك زوجته ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي عشرة حسنة ﴿ أَوْ تَسْرِيحٌ ﴾ يسرحها ويفارقها ﴿ بِإِحْسَانٍ ﴾ ومن الإحسان، أن لا يأخذ على فراقه لها شيئا من مالها، لأنه ظلم ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ وهي المخالعة بالمعروف، بأن كرهت الزوجة زوجها، لخلقه أو خلقه أو نقص دينه، وخافت أن لا تطيع الله فيه ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ لأنه عوض لتحصيل مقصودها

---

[47] ومن توابع إلحاقه بغير أبيه ثبوت توابع ذلك كالإرث منه وله، وجعل أقارب الملحق به أقارب له. ولو لم يكن في ذلك إلا عقد النكاح الباطل والإصرار على الكبيرة العظيمة، وهي الزنا لكفى بذلك شرا. وأما كتمان الحيض بأن استعجلت وأخبرت به وهي كاذبة، ففيه من انقطاع حق الزوج عنها، وإباحتها لغيره وما يتفرع عن ذلك من الشر، كما ذكرنا. وإن كذبت وأخبرت بعدم وجود الحيض، من أجل أن تطول العدة، فتأخذ منه نفقة غير واجبة عليه. وهذا محرم عليها من جهتين: من كونها لا تستحقه، ومن كونها نسبته إلى حكم الشرع وهي كاذبة. وربما راجعها بعد انقضاء العدة، فيكون ذلك سفاحا، لكونها أجنبية عنه. فلهذا قال تعالى: وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ

[48] ومفهوم الآية أنهم إن لم يريدوا الإصلاح، فليسوا بأحق بردهن، فلا يحل لهم أن يراجعوهن، لقصد المضارة لها، وتطويل العدة عليها. لكن هل يملك ذلك مع هذا القصد؟ فيه قولان: الجمهورعلى أنه يملك ذلك، مع التحريم. لكن الصحيح هو أنه لا يملك ذلك إذا لم يرد الإصلاح، كما هو ظاهر الآية الكريمة. وهذه حكمة أخرى في هذا التربص: فلربما ندم زوجها على فراقه لها، فجعلت له هذه المدة، ليتروى بها ويقطع نظره. وهذا يدل على محبته تعالى للألفة بين الزوجين، وكراهته للفراق، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أبغض الحلال إلى الله الطلاق" وهذا خاص في الطلاق الرجعي. أما الطلاق البائن، فلا يحقّ للبعل إرجاعها. لكن لا بد من عقد جديد مجتمع الشروط إن تراضيا على التراجع.

[49] ويخرج من عموم هذه الآية:

1) الحوامل: فعدتهن وضع الحمل.
2) اللاتي لم يدخل بهن: فليس لهن عدة.
3) الإماء: فعدتهن حيضتان، كما هو قول الصحابة رضي الله عنهم، وسياق الآيات يدل على أن المراد بها الحرة.

[50] كان الرجل في الجاهلية وأول الإسلام يطلق زوجته بلا نهاية. فإذا أراد مضارتها طلقها، ثم يراجعها عندما تشارف على انقضاء عدتها. ثم طلقها وصنع بها مثل ذلك أبدا. فيحصل عليها من الضرر ما الله به عليم.

من الفرقة، وفي هذا مشروعية الخلع، إذا وجدت هذه الحكمة ﴿ تِلْكَ ﴾ أي ما تقدم من الأحكام الشرعية ﴿ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أي أحكامه التي شرعها لكم ﴿ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ وأي ظلم أعظم ممن اقتحم الحلال، وتعدى منه إلى الحرام.

﴿ 230 - 231 ﴾ ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا ﴾ الطلقة الثالثة ﴿ فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ نكاحا شرعيا يدخل فيه العقد والوطء، وهذا بالاتفاق. ويشترط أن يكون نكاح الثاني نكاح رغبة. فإن قصد به تحليلها للأول فليس بنكاح، ولا يفيد التحليل. ولا يفيد وطء السيد، لأنه ليس بزوج ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا ﴾ فإذا تزوجها الثاني راغبا ووطئها ثمّ طلقها ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ أي الزوج الأول والزوجة ﴿ أَنْ يَتَرَاجَعَا ﴾ وأن يجددا عقدا جديدا بينهما، لإضافته التراجع إليهما، فدل على اعتبار التراضي هذا ﴿ إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ إذا ندما على عشرتهما السابقة الموجبة للفراق، ويقوم كل منهما بحق صاحبه[51] ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أي شرائعه التي حددها ﴿ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ لأنهم هم المنتفعون بها، النافعون لغيرهم ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ طلاقا رجعيا بواحدة أو اثنتين ﴿ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ قاربن انقضاء عدتهن ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي إما أن تراجعوهن، ونيتكم القيام بحقوقهن، أو تتركوهن بلا رجعة ولا إضرار ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا ﴾ أي مضارة بهن ﴿ لِتَعْتَدُوا ﴾ في فعلكم هذا الحلال إلى الحرام. فالحلال الإمساك بمعروف والحرام المضارة ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ ولو كان الحق يعود للمخلوق فالضرر عائد إلى من أراد الضرار ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ﴾ أي لعبا بها وهو التجرؤ عليها، وعدم الامتثال لواجبها، مثل استعمال المضارة في الإمساك أو الفراق أو كثرة الطلاق أو جمع الثلاث ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ باللسان ثناء وحمدا، وبالقلب اعترافا وإقرارا، وبالأركان بصرفها في طاعة الله ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ أي السنة وقيل أسرار الشريعة ﴿ يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ أي بما أنزل عليكم. وهذا مما يقوي أن المراد بالحكمة أسرار الشريعة ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في جميع أموركم ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فلهذا بيّن لكم هذه الأحكام، جارية مع المصالح في كل زمان ومكان.

[51] ومفهوم الآية الكريمة: أن عليهما جناحا إن لم يظنا أن يقيما حدود الله، بأن غلب على ظنهما أن الحال السابقة ستبقى والعشرة السيئة لن تزول.

﴿ 232 ﴾ ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ هذا خطاب لأولياء المرأة المطلقة دون الثلاث إذا خرجت من العدة، وأراد زوجها أن ينكحها ورضيت بذلك ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ فلا يجوز لوليها، من أب وغيره أن يعضلها أي يمنعها من التزوج به ﴿ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فإيمانه يمنعه من العضل ﴿ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ وأطيب مما يظن الولي ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فامتثلوا أمر من هو عالم بمصالحكم.

﴿ 233 ﴾ ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ ﴾ هذا خبر بمعنى الأمر، ولما كان الحول يطلق على الكامل وعلى معظم الحول قال ﴿ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ فإذا تم للرضيع حولان، فقد تم رضاعه [52]﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ ﴾ أي الأب ﴿ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ فإن على الأب نفقتها وهي الأجرة للرضاع وكسوتها. ودل هذا على أنها إذا كانت في حباله لا يجب لها أجرة غير النفقة والكسوة وكل بحسب حاله ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ فلا يكلف الفقير أن ينفق نفقة الغني، ولا من لم يجد شيئا بالنفقة حتى يجد ﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا ﴾ أي لا يحل أن تضار الوالدة بسبب ولدها، إما أن تمنع من إرضاعه، أو لا تعطى ما يجب لها من النفقة، والكسوة أو الأجرة ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ﴾ بأن تمتنع من إرضاعه على وجه المضارة له، أو تطلب زيادة عن الواجب، ونحو ذلك من أنواع الضرر. ودل قوله مَوْلُودٌ لَهُ أن الولد لأبيه، فلذلك جاز له الأخذ من ماله، رضي أو لم يرض، بخلاف الأم ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ أي على وارث الطفل إذا عدم الأب، وكان الطفل ليس له مال، مثل ما على الأب من النفقة للمرضع والكسوة. فدل على وجوب نفقة الأقارب المعسرين، على القريب الوارث الموسر ﴿ فَإِنْ أَرَادَا ﴾ أي الأبوان ﴿ فِصَالًا ﴾ أي فطام الصبي قبل الحولين ﴿ عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا ﴾ بأن يكونا راضيين ﴿ وَتَشَاوُرٍ ﴾ فيما بينهما، هل هو مصلحة للصبي أم لا؟ فإن كان مصلحة ورضيا ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ في فطامه قبل الحولين. فدلت الآية بمفهومها أنه لا يجوز فطامه إن رضي أحدهما دون الآخر، أو لم يكن مصلحة للطفل ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا

---

[52] وصار اللبن بعد ذلك بمنزلة سائر الأغذية، فلهذا كان الرضاع بعد الحولين غير معتبر، لا يحرم. ويؤخذ من هذا النص، ومن قوله تعالى: وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وأنه يمكن وجود الولد بها.

أَوْلَادَكُمْ ﴾ أي تطلبوا لهم المراضع غير أمهاتهم على غير وجه المضارة ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي للمرضعات ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فمجازيكم على ذلك بالخير والشر.

﴿ 234 ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾ عندما يتوفى الزوج ﴿ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ أي الزوجات ﴿ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ مكثت زوجته متربصة أربعة أشهر وعشرة أيام وجوبا، وذلك ليتبين الحمل في مدة الأربعة ويتحرك في ابتدائه في الشهر الخامس. وهذا القول العام مخصوص بالحوامل فإن عدتهن بوضع الحمل وكذلك الأمة عدتها على النصف من عدة الحرة، شهران وخمسة أيام ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي انقضت عدتهن ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ ﴾ أي من مراجعتها للزينة والطيب، وهذا دليل على أن الولي ينظر على المرأة، ويمنعها مما لا يجوز فعله ويجبرها على ما يجب ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ على وجه غير محرم ولا مكروه. وفي هذا وجوب الإحداد مدة العدة، على المتوفى عنها زوجها دون غيرها من المطلقات والمفارقات، وهو مجمع عليه بين العلماء ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بأعمالكم ظاهرها وباطنها.

﴿ 235 ﴾ ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾ هذا حكم المعتدة من وفاة، أو المبانة في الحياة، فيحرم على غير مبينها أن يصرح لها في الخطبة، وهو المراد بقوله ﴿ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ وأما التعريض، فقد أسقط تعالى فيه الجناح. والفرق بينهما: أن التصريح لا يحتمل غير النكاح، فلهذا حرم خوفا من استعجالها وكذبها في انقضاء عدتها رغبة في النكاح. ففيه دلالة على منع وسائل المحرم، وقضاء لحق زوجها الأول، بعدم مواعدتها لغيره مدة عدتها. وأما التعريض وهو الذي يحتمل النكاح وغيره، فهو جائز للبائن كأن يقول لها: إني أريد التزوج، وإني أحب أن تشاوريني عند انقضاء عدتك، ونحو ذلك، فهذا جائز لأنه ليس بمنزلة الصريح، وفي النفوس داع قوي إليه. وكذلك إضمار الإنسان في نفسه أن يتزوج من هي في عدتها إذا انقضت، ولهذا قال: أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ هذا التفصيل كله في مقدمات العقد ﴿ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ ﴾ وأما عقد النكاح فلا يحل ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾ أي تنقضي العدة ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ فانووا الخير، ولا تنووا الشر ﴿ فَاحْذَرُوهُ ﴾ خوفا من عقابه ورجاء

لثوابه ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لمن صدرت منه الذنوب، فتاب منها، ورجع إلى ربه ﴿ حَلِيمٌ ﴾ حيث لم يعاجل العاصين على معاصيهم، مع قدرته عليهم.

﴿ 236 ﴾ ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ يا معشر الأزواج جناح وإثم ﴿ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ بتطليق النساء ﴿ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ قبل المسيس ﴿ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ وفرض المهر ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ بأن تعطوهن شيئا من المال جبرا لخواطرهن ﴿ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ ﴾ المعسر ﴿ قَدَرُهُ ﴾ وهذا يرجع إلى العرف، وأنه يختلف باختلاف الأحوال ولهذا قال ﴿ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ﴾ فهذا حق واجب ﴿ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ ليس لهم أن يبخسوهن. فكما تسببوا لتشوفهن واشتياقهن وتعلق قلوبهن، ثم لم يعطوهن ما رغبن فيه، فعليهم في مقابلة ذلك المتعة. فهذا حكم المطلقات قبل المسيس وقبل فرض المهر.

﴿ 237 ﴾ ﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ إذا طلقتم النساء قبل المسيس وبعد فرض المهر ﴿ فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ فللمطلقات من المهر المفروض نصفه، ولكم نصفه ﴿ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ ﴾ هذا هو الواجب ما لم يدخله عفو ومسامحة، بأن تعفو عن نصفها لزوجها، إذا كان يصح عفوها ﴿ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾ وهو الزوج على الصحيح لأنه الذي بيده حل عقدته، ولأن الولي لا يصح أن يعفو عن ما وجب للمرأة لكونه غير مالك ولا وكيل ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ وأن من عفا كان أقرب لتقواه، لكونه إحسانا موجبا لشرح الصدر ﴿ وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ ولكون الإنسان لا ينبغي أن ينسى الفضل الذي هو أعلى درجات المعاملة، فإن الله مجاز المحسنين بالفضل والكرم ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

﴿ 238 - 239 ﴾ ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ ﴾ عمومًا ﴿ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ وهي العصر خصوصًا والمحافظة عليها أداؤها بوقتها وشروطها وأركانها وخشوعها ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ ذليلين خاشعين، ففيه الأمر بالقيام والقنوت والنهي عن الكلام، والأمر بالخشوع، هذا مع الأمن والطمأنينة ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ لم يذكر ما يخاف منه ليشمل أنواع المخاوف، أي إن خفتم بصلاتكم على تلك الصفة ﴿ فَرِجَالًا ﴾ فصلوها ماشين على أقدامكم ﴿ أَوْ رُكْبَانًا ﴾ على الخيل والإبل وغيرها، ويلزم على ذلك أن يكونوا مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، وفي هذا زيادة التأكيد على المحافظة على وقتها حيث

أمر بذلك ولو مع الإخلال بكثير من الأركان والشروط، وأنه لا يجوز تأخيرها عن وقتها ولو في هذه الحالة الشديدة، فصلاتها على تلك الصورة أحسن وأفضل بل أوجب من صلاتها مطمئنا خارج الوقت ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ ﴾ أي زال الخوف عنكم ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الذكر ومنه الصلاة على كمالها وتمامها ﴿كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ فإنها نعمة عظيمة ومنة جسيمة، تقتضي مقابلتها بالذكر والشكر ليبقي نعمته عليكم ويزيدكم عليها.

﴿ 240 ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾ الأزواج الذين يموتون ويتركون خلفهم أزواجا فعليهم أن يوصوا ﴿ وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ يوصون أن يلزمن بيوتهم مدة سنة لا يخرجن منها ﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ ﴾ من أنفسهن ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أيها الأولياء ﴿ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي من مراجعة الزينة والطيب ونحو ذلك. وأكثر المفسرين أن هذه الآية منسوخة بما قبلها وهي قوله: وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا. وقيل لم تنسخها بل الآية الأولى دلت على أن أربعة أشهر وعشر واجبة، وما زاد على ذلك فهي مستحبة ينبغي فعلها تكميلا لحق الزوج، ومراعاة للزوجة. والدليل على أن ذلك مستحب أنه هنا نفى الجناح عن الأولياء إن خرجن قبل تكميل الحول، فلو كان لزوم المسكن واجبا لم ينف الحرج عنهم.

﴿ 241 - 242 ﴾ ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ لكل مطلقة متاع بالمعروف ﴿ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ حقا على كل متق، جبرا لخاطرها وأداء لبعض حقوقها، وهذه المتعة واجبة على من طلقت قبل المسيس، والفرض سنة في حق غيرها كما تقدم، هذا أحسن ما قيل فيها، وقيل إن المتعة واجبة على كل مطلقة احتجاجا بعموم هذه الآية، ولكن القاعدة أن المطلق محمول على المقيّد، وتقدم أن الله فرض المتعة للمطلقة قبل الفرض والمسيس خاصة ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أي حدوده، وحلاله وحرامه والأحكام النافعة لكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فتعرفونها وتعرفون المقصود منها.

﴿ 243 - 245 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ يقص تعالى علينا قصة الذين خرجوا من ديارهم على كثرتهم واتفاق مقاصدهم يقصدون السلامة من الموت من وباء أو غيره. ولكن لا يغني حذر عن قدر ﴿ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ﴾ فماتوا ﴿ ثُمَّ ﴾ إن الله تعالى ﴿ أَحْيَاهُمْ ﴾ إما بدعوة نبي أو بغير ذلك، رحمة بهم ولطفا وحلما،

وبيانا لآياته لخلقه بإحياء الموتى، ولهذا قال ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيم ﴿ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ فلا تزيدهم النعمة شكرا، بل ربما استعانوا بنعم الله على معاصيه﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ولو ظننتم أن في القعود حياتكم وبقاءكم فليس الأمر كذلك. ولهذا ذكر القصة السابقة توطئة لهذا الأمر. ولما كان القتال فى سبيل الله لا يتم إلا بالنفقة وبذل الأموال في ذلك أمر تعالى بالإنفاق في سبيله ورغب فيه وسماه قرضا ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ فينفق ما تيسر من أمواله في طرق الخيرات، خصوصا في الجهاد، والحسن هو الحلال المقصود به وجه الله تعالى ﴿ فَيُضَاعِفَه لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، بحسب حالة المنفق، ونيته ونفع نفقته والحاجة إليها ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ﴾ أي يوسع الرزق على من يشاء ويقبضه عمن يشاء. فالإمساك لا يبسط الرزق، والإنفاق لا يقبضه ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

﴿ 246 –248 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ ﴾ الأشراف والرؤساء ﴿ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ وخص الملأ بالذكر لأنهم في العادة هم الذين يبحثون عن مصالحهم فيتبعهم غيرهم على ما يرونه ﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا ﴾ عيّن لنا ﴿ مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ولعلهم في ذلك الوقت ليس لهم رئيس يجمعهم، كما جرت عادة القبائل أصحاب البيوت، كل بيت لا يرضى أن يكون من البيت الآخر رئيس، فالتمسوا من نبيهم تعيين ملك يرضي الطرفين ويكون تعيينه خاصا لعوائدهم، وكانت أنبياء بني إسرائيل تسوسهم، كلما مات نبي خلفه نبي آخر، فلما قالوا لنبيهم تلك المقالة ﴿ قَالَ ﴾ لهم نبيهم ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾ أي لعلكم تطلبون شيئا وهو إذا كتب عليكم لا تقومون به. فعرض عليهم العافية فلم يقبلوها، واعتمدوا على عزمهم ونيتهم، فـ ﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾ أي شيء يمنعنا من القتال وقد ألجأنا إليه، بأن أخرجنا من أوطاننا وسبيت ذرارينا، فهذا موجب لكوننا نقاتل ولو لم يكتب علينا، فكيف مع أنه فرض علينا وقد حصل ما حصل، ولهذا لما لم تكن نياتهم حسنة ولم يقوَ توكلهم على ربهم ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا ﴾ فجبنوا عن قتال الأعداء وضعفوا عن المصادمة واستولى على أكثرهم الخور والجبن ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ عصمهم الله وثبتهم وقوى قلوبهم ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ. وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ ﴾ مجيبا لطلبهم ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ فكان هذا تعيينا من الله الواجب عليهم فيه

القبول والانقياد وترك الاعتراض، ولكن أبوا إلا أن يعترضوا و ﴿ قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ﴾ أي كيف يكون ملكا وهو فقير ودوننا في الشرف والنسب ونحن أحق بالملك منه. ف ﴿ قَالَ ﴾ لهم نبيهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ أي فضله عليكم بقوة الرأي والجسم اللذين بهما تتم أمور الملك ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ فلزمكم الانقياد لذلك ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴾ الفضل لا يخص برحمته وبره العام أحدا عن أحد ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يستحق الفضل فيضعه فيه، فأزال بهذا الكلام ما في قلوبهم من كل ريب وشك وشبهة لتبيينه أن أسباب الملك متوفرة فيه ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ ﴾ الذي قد فقدوه زمانا طويلا ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وفي ذلك التابوت سكينة تسكن بها قلوبهم ﴿ وَ ﴾ فيه ﴿ بَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ فأتت به الملائكة حاملة له وهم يرونه عيانا ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ 249-252 ﴾ ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ ﴾ لما تملّك طالوت ببني إسرائيل واستقر له الملك تجهزوا لقتال عدوهم، فلما فصل طالوت بجنود بني إسرائيل وكانوا عددا كثيرا امتحنهم بأمر الله ليتبين الثابت المطمئن ممن ليس كذلك ﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ فهو عاص ولا يتبعنا لعدم صبره وثباته ولمعصيته ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ ﴾ أي لم يشرب منه ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ فلا جناح عليه في ذلك ولعل الله أن يجعل فيها بركة فتكفيه. وفي هذا الابتلاء ما يدل على أن الماء قد قل عليهم ليتحقق الامتحان، فعصى أكثرهم ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ ﴾ ونكصوا عن قتال عدوهم، وكان في عدم صبرهم عن الماء ساعة واحدة دليل على عدم صبرهم على القتال ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ ﴾ أي النهر ﴿ هُوَ ﴾ أي طالوت ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ وهم الذين أطاعوا أمر الله ولم يشربوا من النهر الشرب المنهي عنه ﴿ قَالُوا ﴾ كثير منهم ﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ لكثرتهم وعَددهم وعُددهم ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ ﴾ وهم أهل الإيمان الثابت ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي بإرادته ومشيئته فالأمر لله تعالى ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بالنصر والتوفيق ولهذا ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا ﴾ جميعهم ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ قو قلوبنا ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ عن التزلزل والفرار ﴿ وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ من هاهنا نعلم أن جالوت وجنوده كانوا كفارا، فاستجاب الله لهم ذلك الدعاء لإتيانهم بالأسباب

الموجبة لذلك، ونصرهم عليهم ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ ﴾ عليه السلام، وكان مع جنود طالوت ﴿ جَالُوتَ ﴾ قتل ملك الكفار بيده لشجاعته وقوته وصبره ﴿ وَآتَاهُ اللَّهُ ﴾ آتى الله داود ﴿ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ منَّ عليه بتملكه على بني إسرائيل مع الحكمة ﴿ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ من العلوم الشرعية والسياسية، فجمع الله له الملك والنبوة ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ أي لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله تكالب الكفار لفسدت الأرض باستيلاء الكفار عليها ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ حيث شرع لهم الجهاد الذي فيه سعادتهم والمدافعة عنهم ومكنهم من الأرض بأسباب يعلمونها، وأسباب لا يعلمونها ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ أي بالصدق الذي لا ريب فيها ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فهذه شهادة من الله لرسوله برسالته التي من جملة أدلتها ما قصه الله عليه من أخبار الأمم السالفين.

الجزء الثالث 3

﴿ 253 ﴾ ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ بما خصهم بإيحائه وإرسالهم إلى الناس، وأودع فيهم أوصافاً حميدة، فـ ﴿ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ كموسى بن عمران ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ ﴾ على سائرهم ﴿ دَرَجَاتٍ ﴾ كنبينا صلى الله عليه وسلم ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ الدالات على نبوته وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ أي بالإيمان واليقين، وقيل أيده بجبريل عليه السلام يلازمه في أحواله ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ الموجبة للاجتماع على الإيمان ﴿ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ﴾ فكان موجب هذا الاختلاف التفرق والمعاداة والمقاتلة ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا ﴾ فدل ذلك على أن مشيئة الله نافذة غالبة للأسباب، وإنما تنفع الأسباب مع عدم معارضة المشيئة ﴿ وَلَكِنَّ ﴾ فإذا وجدت اضمحل كل سبب لأن ﴿ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ فإرادته غالبة ومشيئته نافذة.

﴿ 254 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ وهذا من لطف الله بعباده أن أمرهم بتقديم شيء مما رزقهم الله، من صدقة واجبة ومستحبة، ليكون لهم ذخرا وأجرا موفرا في يوم يحتاج فيه العاملون إلى مثقال ذرة من الخير ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ ﴾ يفتدي به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منه ﴿ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ﴾ فهو يوم

الخزي على الظالمين ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ وهذا من باب الحصر، أي الذين ثبت لهم الظلم التام، فأعظم أنواع الظلم الكفر بالله.

﴿ 255 ﴾ ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي[53] لا معبود بحق سواه كما أخبر تعالى عن نفسه الكريمة وهو ﴿ الْحَيُّ ﴾ له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدرة ﴿ الْقَيُّومُ ﴾ قام بنفسه وقام بغيره، وبجميع ما يشاء من الاستواء والنزول والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء وسائر أنواع التدبير. ولهذا قال بعض المحققين إنهما الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب وإذا سئل به أعطى. ومن تمام حياته وقيوميته أنه ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ﴾ نعاس ﴿ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي هو المالك الخالق الرازق المدبر وغيره لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ فالشفاعة كلها لله تعالى، ولا يبتدئ الشافع قبل الإذن ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي ما مضى من جميع الأمور ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي ما يستقبل منها ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ فعلمه تعالى محيط بتفاصيل الأمور ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالى، بل هنا ما هو أعظم منه وهو العرش، وما لا يعلمه إلا هو، وفي عظمة هذه المخلوقات تحير الأفكار، فكيف بعظمة خالقها ومبدعها، والذي أودع فيها من الحكم والأسرار ما أودع، والذي قد أمسك السماوات والأرض أن تزولا من غير تعب ولا نصب، فلهذا قال ﴿ وَلَا يَئُودُهُ ﴾ أي يثقله ﴿ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ ﴾ بذاته فوق عرشه، العلي بقهره لجميع المخلوقات، العلي بقدره لكمال صفاته ﴿ الْعَظِيمُ ﴾ الذي تتضائل عند عظمته جبروت الجبابرة. فسبحان من له العظمة العظيمة والكبرياء الجسيمة والقهر والغلبة لكل شيء. فقد اشتملت هذه الآية على توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وعلى إحاطة ملكه وإحاطة علمه وسعة سلطانه وجلاله ومجده، وعظمته وكبريائه وعلوه على جميع مخلوقاته، فهذه الآية بمفردها عقيدة في أسماء الله وصفاته، متضمنة لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلا.

﴿ 256 - 257 ﴾ ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

---

[53] هذه الآية الكريمة أعظم آيات القرآن وأفضلها وأجلها، فلهذا كثرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها وجعلها وردا للإنسان في أوقاته صباحا ومساء وعند نومه وأدبار الصلوات المكتوبات.

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ لعدم الحاجة إلى الإكراه عليه و﴿ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ ففيها أن حقيقة الدين توجب اتباعه على كل منصف قصده اتباع الحق[54] ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ﴾ فيترك عبادة ما سوى الله وطاعة الشيطان ﴿ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ ﴾ إيمانا تاما أوجب له عبادة ربه وطاعته ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ بالدين القويم الذي رسخت أركانه، وهي عروة ﴿ لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾ وأما من كفر بالله وآمن بالطاغوت، فقد استمسك بكل باطل مآله إلى الجحيم ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فيجازي بحسب ما علمه منهم من الخير والشر ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وقد تولوه لا يشركون به أحدا، ﴿ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ فأخرجهم من ظلمات الكفر وسلمهم من ظلمات القبر والحشر والقيامة إلى النعيم المقيم ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ تولوا الشيطان وحزبه فسلطهم عليهم عقوبة لهم ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

﴿ 258 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ أي إلى جرائته وعناده ومحاجته فيما لا يقبل التشكيك، وما حمله على ذلك إلا ﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ رأى نفسه مترئسا على رعيته، فحمله ذلك على أن حاج إبراهيم في ربوبية الله فزعم أنه يفعل كما يفعل الله ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ هو المنفرد بأنواع التصرف، وخص منه الإحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التدابير، ولأن الإحياء مبدأ الحياة الدنيا والإماتة مبدأ ما يكون في الآخرة. فـ ﴿ قَالَ ﴾ ذلك المحاج ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ ولم يقل أنا الذي أحيي وأميت، لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرف، وإنما زعم أنه يفعل كفعل الله ويصنع صنعه، فزعم أنه يقتل شخصا فيكون قد أماته، ويستبقي شخصا فيكون قد أحياه. فلما رآه إبراهيم يغالط في مجادلته اطرد معه في الدليل فـ ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ ﴾ أي عيانا يقر به كل أحد حتى ذلك الكافر ﴿ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ قال له أمرا لا قوة له في شبهة تشوش دليله ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ أي تحير وانقطعت حجته، وهذه حالة المبطل المعاند الذي يريد أن يقاوم الحق ويغالبه ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ بل يبقيهم على كفرهم وضلالهم، وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك.

﴿ 259 ﴾ ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ

[54] ولا تدل الآية الكريمة على ترك قتال الكفار المحاربين، وإنما يؤخذ فرض القتال من نصوص أخر. ولكن يستدل في الآية الكريمة على قبول الجزية من غير أهل الكتاب، كما هو قول كثير من العلماء.

وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ باد أهلها وسقطت حيطانها فوقف عليها ذلك الرجل متعجبا ﴿ قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ استبعادا لذلك وجهلا بقدرة الله تعالى. فلما أراد الله به خيرا أراه آية في نفسه وفي حماره، وكان معه طعام وشراب ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ استقصارا لتلك المدة التي مات فيها لكونه قد زالت معرفته وحواسه وكان عهد حاله قبل موته ﴿ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ أي لم يتغير بل بقي على حاله على تطاول السنين، ففيه أكبر دليل على قدرته حيث أبقاه وحفظه عن التغير والفساد، مع أن الطعام والشراب من أسرع الأشياء فسادا ﴿ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ ﴾ وكان قد مات وانتثرت عظامه ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ على قدرة الله وبعثه الأموات من قبورهم، لتكون أنموذجا مشاهدا بالأبصار، فيعلموا بذلك صحة ما أخبرت به الرسل ﴿ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ﴾ أي نركب بعضها ببعض ﴿ ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ فنظر إليها عيانا كما وصفها الله تعالى ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ﴾ ذلك وعلم قدرة الله تعالى ﴿ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿260 ﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ أخبر تعالى عن خليله إبراهيم أنه سأله أن يريه ببصره كيف يحيي الموتى، لأنه قد تيقن ذلك بخبر الله تعالى، ولكنه أحب أن يشاهده عيانا ليحصل له مرتبة عين اليقين، فلهذا ﴿ قَالَ ﴾ الله له ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ بتوارد الأدلة اليقينية مما يزداد به الإيمان، فـ ﴿ قَالَ ﴾ له ربه ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ أي ضمهن ليكون ذلك بمرأى منك ومشاهدة ﴿ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ﴾ أي مزقهن، اخلط أجزاءهن بعضها ببعض واجعل على كل جبل من الجبال التي في القرب جزءاً ﴿ ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ أي تحصل لهن حياة كاملة، ويأتينك في هذه القوة وسرعة الطيران. ففعل إبراهيم عليه السلام ذلك وحصل له ما أراد. ثم قال ﴿ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ ذو قوة عظيمة سخر بها المخلوقات ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أفعاله تعالى تابعة لحكمته، لا يفعل شيئا عبثا.

﴿ 261 ﴾ ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ في طاعته ومرضاته، وأولاها إنفاقها في الجهاد في سبيله ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ﴾ وهذا إحضار لصورة المضاعفة بهذا المثل ليشاهدها العبد ببصره

بعد بصيرته ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ ﴾ هذه المضاعفة ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ أي بحسب المنفق وإخلاصه وصدقه وبحسب النفقة وحلها ونفعها ووقوعها موقعها، ويحتمل أن يكون وَاللَّهُ يُضَاعِفُ أكثر من هذه المضاعفة لِمَنْ يَشَاءُ فيعطيهم أجرهم بغير حساب ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴾ الفضل والعطاء ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها، فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته.

﴿ 262 ﴾ ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي ﴾ طاعة و ﴿ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا ﴾ من المن بها على المنفق عليه ﴿ مَنًّا ﴾ بالقلب أو باللسان، بأن يعدد عليه إحسانه ويطلب منه مقابلته ﴿ وَلَا أَذًى ﴾ له قولاً أو فعلاً. فهؤلاء ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ اللائق بهم ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ لأنهم عملوا عملا خالصا لله تعالى ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ تعرفه القلوب ولا تنكره، ويدخل فيه رد السائل بالقول الجميل والدعاء له ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ لمن أساء إليك بترك مؤاخذته والعفو عنه، والعفو عما يصدر من السائل مما لا ينبغي ﴿ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ﴾ لأن القول المعروف إحسان قولي، والمغفرة إحسان أيضا بترك المؤاخذة، وكلاهما إحسان ما فيه مفسد، فهما أفضل من الإحسان بالصدقة التي يتبعها أذى بمنّ أو غيره ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ ﴾ عنها، ومع هذا فهو ﴿ حَلِيمٌ ﴾ على من عصاه لا يعاجله بعقوبة مع قدرته عليه.

﴿ 264 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ ويستدل بهذا على أن الأعمال السيئة تبطل الأعمال الحسنة. فكما أن الحسنات يذهبن السيئات فالسيئات تبطل ما قابلها من الحسنات ﴿ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي أنتم وإن قصدتم بذلك وجه الله في ابتداء الأمر، فإن المنة والأذى مبطلان لأعمالكم، فتصير أعمالكم بمنزلة الذي يعمل لمراءاة الناس ولا يريد به الله والدار الآخرة ﴿ فَمَثَلُهُ ﴾ المطابق لحاله ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ﴾ وهو الحجر الأملس الشديد ﴿ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ ﴾ أي مطر غزير ﴿ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾ ليس عليه شيء من التراب. فكذلك المرائي قلبه قاس بمنزلة الصفوان، وصدقته ونحوها من أعماله بمنزلة التراب الذي على الصفوان إذا انكشفت حقيقة حاله زال ذلك التراب وتبين أن أن قلبه غير صالح لنبات الزرع. فلهذا ﴿ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ من أعمالهم ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

﴿265 ﴾ ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ﴾ قصدهم بذلك رضى ربهم والفوز بقربه ﴿ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي صدر الإنفاق على وجه منشرحة له النفس سخية به، لا على وجه التردد فمثل نفقة هؤلاء[55] ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ ﴾ من الاجتنان وهو الستر، لستر أشجارها ما فيها. وهذه الجنة ﴿ بِرَبْوَةٍ ﴾ على محل مرتفع فـ ﴿ أَصَابَهَا ﴾ أي تلك الجنة التي بربوة ﴿ وَابِلٌ ﴾ وهو المطر الغزير ﴿ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ فتضاعفت ثمراتها ﴿ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ أي مطر قليل يكفيها لطيب منبتها. فهذه حالة المنفقين أهل النفقات الكثيرة والقليلة كل على حسب حاله، وكل ينمى له ما أنفق أتم تنمية وأكملها ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيعلم عمل كل عامل ومصدر ذلك العمل.

﴿ 266 ﴾ ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرته ﴿ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ ﴾ فضعف عن العمل وزاد حرصه ﴿ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ ﴾ ما فيهم معاونة له، بل هم كلّ عليه، ونفقته ونفقتهم من تلك الجنة ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ ﴾ وهو الريح القوية التي تستدير ثم ترتفع في الجو ﴿ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾ تلك الجنة. كذلك من عمل عملا لوجه الله ثم عمل أعمالا تفسده فكانت بمنزلة الإعصار الذي فيه نار. والعبد أحوج ما يكون لعمله إذا مات وكان بحالة لا يقدر معها على العمل، فيجد عمله الذي يؤمل نفعه هباء منثورا، ووجد الله عنده فوفاه حسابه، والله سريع الحساب ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ فلهذا أمر تعالى بالتفكر وحثَّ عليه .

﴿ 267 - 268 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالنفقة من طيبات ما يسر لهم من المكاسب ﴿ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ فكما منَّ عليكم بتسهيل تحصيله فأنفقوا منه شكرا لله وأداء لبعض حقوق إخوانكم عليكم، وتطهيرا لأموالكم ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ واقصدوا في تلك النفقة الطيب الذي تحبونه لأنفسكم ولا تيمموا الرديء الذي لا ترغبونه ﴿ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ ولا تأخذونه إلا أن

---

[55] ويمكن أن يكون المعنى استمراراً لما بدأه الشيخ السعدي وقال عن التراب الذي يزول عن الحجر القاسي، أي أن التراب هنا يثبت عند تعرضه للمطر الغزير ثم ينبت ضعفين من النبات. (م)

تتساهلوا فيه وعلى وجه الإغماض ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ ﴾ عنكم، ونفع صدقاتكم وأعمالكم عائد إليكم ﴿ حَمِيدٌ ﴾ على ما يأمركم به من الخصال السديدة، فعليكم أن تمتثلوا أوامره ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ أمركم بالإمساك، ويخوفكم بالفقر والحاجة إذا أنفقتم ﴿ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ ﴾ لذنوبكم وتطهيرا لعيوبكم ﴿ وَفَضْلًا ﴾ وإحسانا إليكم في الدنيا والآخرة ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴾ الفضل عظيم الإحسان ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما يصدر منكم من النفقات قليلها[56].

﴿ 269 ﴾ ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ ﴾ وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ وكان ذلك يحصل لمن آتاه الله الحكمة ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ وأي خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتهما ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ الذين أجابوا دعوة الرسل فتذكروا ما ينفعهم ففعلوه، وما يضرهم فتركوه.

﴿ 270 ﴾ ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾

﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ﴾ وهذا فيه المجازاة على النفقات التي أمر الله بها والنذور التي ألزمها المكلف نفسه. وإن الله تعالى يعلمها فلا يخفى عليه منها شيء. ويعلم ما صدرت عنه، فمن قصد بها رضى المخلوقات فإنه ظالم قد وضع الشيء في غير موضعه، ولم ينفعه أحد من الخلق ولم ينصره ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾.

﴿ 271 ﴾ ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ ﴾ فتظهروها وتكون علانية والقصد بها وجه الله ﴿ فَنِعِمَّا ﴾ ﴿ هِيَ ﴾ أي فنعم الشيء هِيَ لحصول المقصود بها ﴿ وَإِنْ تُخْفُوهَا ﴾ أي تسروها، وفي هذا أن صدقة السر على الفقير أفضل من صدقة العلانية.

---

[56] تضمنت هاتان الآيتان أمورا عظيمة منها:
- ✓ الحث على الإنفاق،
- ✓ بيان الأسباب الموجبة لذلك، ومنها:
  - وجوب الزكاة من النقدين
  - عروض التجارة كلها، لأنها داخلة في قوله: مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ
  - وجوب الزكاة في الخارج من الأرض من الحبوب والثمار والمعادن،
  - الزكاة على صاحب الزرع والثمر، لا على صاحب الأرض: لقوله وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ فمن أخرجت له وجبت عليه
- ✓ كما لاتجب الزكاة على:
  - الأموال المعدة للاقتناء من العقارات والأواني ونحوها.
  - الديون والغصوب ونحوهما إذا كانت مجهولة، أو عند من لا يقدر ربها على استخراجها منه.

لأن الله أوجب النفقة من الأموال التي يحصل فيها النماء الخارج من الأرض، وأموال التجارة مواساة من نمائها، وأما الأموال التي غير معدة لذلك ولا مقدورا عليها فليس فيها هذا المعنى. ومنها: أن الرديء ينهى عن إخراجه ولا يجزئ في الزكاة.

لكن إن كان في إظهارها إظهار شعائر الدين وحصول الاقتداء فهو أفضل من الإسرار ﴿ وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ ينبغي للمتصدق أن يتحرى بصدقته المحتاجين، ولا يعطي محتاجا وغيره أحوج منه ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ ففيه دفع العقاب ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ من خير وشر، قليل وكثير.

﴿ 272 - 274 ﴾ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ * لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ هدي الخلق، وإنما عليك البلاغ المبين ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ففيها دلالة على أن النفقة كما تكون على المسلم تكون على الكافر ولو لم يهتد، فلهذا قال ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ ﴾ أي قليل أو كثير على أي شخص كان من مسلم وكافر ﴿ فَلِأَنْفُسِكُمْ ﴾ أي نفعه راجع إليكم ﴿ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ هذا إخبار عن نفقات المؤمنين الصادرة عن إيمانهم أنها لا تكون إلا لوجه الله تعالى، لأن إيمانهم يمنعهم عن المقاصد الردية ويوجب لهم الإخلاص لله ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ يوم القيامة تستوفون أجوركم ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ تنقصون من أعمالكم شيئا ولا مثقال ذرة، كما لا يزاد في سيئاتكم. ثم ذكر مصرف النفقات الذين هم أولى الناس بها فوصفهم بست صفات 1- ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قصروا أنفسهم على طاعة الله من جهاد وغيره، مستعدون لذلك محبوسون له 2- ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ﴾ سفرا للتكسب، وهم عاجزون عن الأسفار لطلب الرزق 3- ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ وهذا بيان لصدق صبرهم وحسن تعففهم 4- ﴿ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ فمجرد ما يراهم الفطن المتفرس يعرفهم بعلامتهم 5- ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ أي لا يسألونهم سؤال إلحاح، بل إن صدر منهم سؤال لم يلحوا على من سألوا ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ أما النفقة من حيث هي على أي شخص كان، فهي خير وإحسان وبر يثاب عليها صاحبها ويؤجر. ثم ذكر حالة المتصدقين في جميع الأوقات على جميع الأحوال ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ﴾ في سبيل الله أي طاعته وطريق مرضاته ﴿ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ عظيم ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ الرحيم ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ إذا خاف المقصرون ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ إذا حزن المفرطون.

﴿ 275 - 281 ﴾ ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا ﴾ يخبر تعالى عن أكلة الربا وسوء مآلهم ﴿ لَا يَقُومُونَ ﴾ من قبورهم ليوم نشورهم ﴿ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ أي يصرعه الشيطان بالجنون. ويحتمل أن يكون أنه لما انسلبت عقولهم في طلب المكاسب الربوية ضعفت آراؤهم، وصاروا يشبهون المجانين في هيئتهم وحركاتهم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ وهذا لا يكون إلا من جاهل أو متجاهل. قال الله تعالى رادا عليهم ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ ﴾ لما فيه من عموم المصلحة ﴿ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ لما فيه من الظلم وسوء العاقبة[57] ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ ﴾ وتذكير وترهيب عن تعاطي الربا ﴿ مِنْ رَبِّهِ ﴾ رحمة من الله بالموعوظ ﴿ فَانْتَهَى ﴾ عن فعله ﴿ فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾ أي ما تقدم من المعاملات التي فعلها قبل أن تبلغه الموعظة جزاء لقبوله للنصيحة. دل مفهوم الآية أن من لم ينته جوزي بالأول والآخر ﴿ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ في مجازاته وفيما يستقبل من أموره ﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ إلى تعاطي الربا ولم تنفعه الموعظة ﴿ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون.[58] يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا ﴾ أي يذهبه ويذهب بركته ذاتا ووصفا، وإن أنفق منه لم يؤجر عليه بل يكون زادا له إلى النار ﴿ وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ أي ينميها وينزل البركة في المال الذي أخرجت منه وينمي أجر صاحبها ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ ﴾ لنعم الله، لا يؤدي ما أوجب عليه من الصدقات، ولا يسلم من شره عباد الله ﴿ أَثِيمٍ ﴾ فعل ما هو سبب لعقوبته ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ ذكر حالة المؤمنين وخاطبهم بالإيمان ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أمرهم أن يتقوه ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ أي المعاملات الحاضرة الموجودة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ يقبلون موعظة ربهم وينقادون لأمره ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ ﴾ عن الربا ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ ﴾ أي أنزلوا عليها ﴿ لَا تَظْلِمُونَ ﴾ من عاملتموه بأخذ الزيادة التي هي الربا ﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ بنقص رءوس أموالكم ﴿ وَإِنْ كَانَ ﴾ المدين ﴿ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ لا يجد وفاء ﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾ وهذا واجب عليه أن ينظره حتى يجد ما يوفي به ﴿ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إما بإسقاطها أو بعضها ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ وهذه الآية من آخر

---

[57] والربا نوعان:

- ربا نسيئة كبيع الربا بما يشاركه في العلة نسيئة، ومنه جعل ما في الذمة رأس مال، سلم،
- وربا فضل، وهو بيع ما يجري فيه الربا بجنسه متفاضلا،

وكلاهما محرم بالكتاب والسنة، والإجماع على ربا النسيئة، وشذ من أباح ربا الفضل وخالف النصوص المستفيضة. بل الربا من كبائر الذنوب وموبقاتها

[58] اختلف العلماء رحمهم الله في نصوص الوعيد التي ظاهرها تخليد أهل الكبائر من الذنوب التي دون الشرك بالله، والأحسن فيها أن يقال هذه الأمور التي رتب الله عليها الخلود في النار موجبات ومقتضيات لذلك. ولكن الموجب إن لم يوجد ما يمنعه ترتب عليه مقتضاه، وقد علم بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن التوحيد والإيمان مانع من الخلود في النار، فلولا ما مع الإنسان من التوحيد لصار عمله صالحا للخلود فيها بقطع النظر عن كفره.

ما نزل من القرآن، وجعلت خاتمة لهذه الأحكام والأوامر والنواهي، لأن فيها الوعد على الخير، والوعيد على فعل الشر.

﴿ 282 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

هذه آية الدين، وهي أطول آيات القرآن ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ ﴾ تجوز جميع أنواع المداينات من سلم وغيره، لأن الله أخبر عن المداينة إخبار مقرر لها ذاكرا أحكامها ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ لا بد للسلم من أجل، وأنه لا بد أن يكون معينا معلوما فلا يصح حالا ولا إلى أجل مجهول ﴿ فَاكْتُبُوهُ ﴾ الأمر بكتابة جميع عقود المداينات إما وجوبا وإما استحبابا لشدة الحاجة إلى كتابتها، لأنها بدون الكتابة يدخلها الغلط والنسيان والمشاجرة شر عظيم ﴿ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾ أمر الكاتب أن يكتب، وأن يكون عدلا في نفسه لأجل اعتبار كتابته، لأن الفاسق لا يعتبر قوله ولا كتابته.

أنه يجب عليه العدل بينهما، فلا يميل لأحدهما لقرابة أو صداقة أو غير ذلك.

أن يكون الكاتب عارفا بكتابة الوثائق وما يلزم فيها كل واحد منهما، وما يحصل به التوثق.

أنه إذا وجدت وثيقة بخط المعروف بالعدالة المذكورة يعمل بها، ولو كان هو والشهود قد ماتوا

﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ﴾ أي لا يمتنع من منَّ الله عليه بتعليمه الكتابة أن يكتب بين المتداينين ﴿ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ﴾ أمر الكاتب أن لا يكتب إلا ما أملاه من عليه الحق. ﴿ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ أمره أن يبين جميع الحق الذي عليه ولا يبخس منه شيئا.

أن إقرار الإنسان على نفسه مقبول، فإذا كتب إقراره بذلك ثبت موجبه ومضمونه، ولو ادعى بعد ذلك غلطا أو سهوا.

أن من عليه حقا من الحقوق التي البينة على مقدارها وصفتها من كثرة وقلة وتعجيل وتأجيل،

أن قوله هو المقبول دون قول من له الحق. لأنه تعالى لم ينهه عن بخس الحق الذي عليه،

إلا أن قوله مقبول على ما يقوله من مقدار الحق وصفته،

أنه يحرم على من عليه حق من الحقوق أن يبخس وينقص شيئا من مقداره، أو طيبه وحسنه، أو أجله أو غير ذلك من توابعه ولواحقه،

﴿ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ﴾ أن من لا يقدر على إملاء الحق لصغره أو سفهه أو خرسه، أو نحو ذلك، فإنه ينوب وليه منابه في الإملاء والإقرار،

أنه يلزم الولي من العدل ما يلزم من عليه الحق من العدل، وعدم البخس لقوله بِالْعَدْلِ

أنه يشترط عدالة الولي، لأن الإملاء بالعدل المذكور لا يكون من فاسق،

ثبوت الولاية في الأموال،

أن الحق يكون على الصغير والسفيه والمجنون والضعيف، لا على وليهم،

أن إقرار الصغير والسفيه والمجنون والمعتوه ونحوهم وتصرفهم غير صحيح، لأن الله جعل الإملاء لوليهم، ولم يجعل لهم منه شيئا لطفا بهم ورحمة، خوفا من تلاف أموالهم،

صحة تصرف الولي في مال من ذكر،

فيه مشروعية كون الإنسان يتعلم الأمور التي يتوثق بها المتداينون كل واحد من صاحبه، لأن المقصود من ذلك التوثق والعدل، وما لا يتم المشروع إلا به فهو مشروع،

أن تعلم الكتابة مشروع، بل هو فرض كفاية، لأن الله أمر بكتابة الديون وغيرها، ولا يحصل ذلك إلا بالتعلم،

أنه مأمور بالإشهاد على العقود، وذلك على وجه الندب، لأن المقصود من ذلك الإرشاد إلى ما يحفظ الحقوق، فهو عائد لمصلحة المكلفين، نعم إن كان المتصرف ولي يتيم أو وقف ونحو ذلك مما يجب حفظه تعين أن يكون الإشهاد الذي به يحفظ الحق واجبا،

﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾ أن نصاب الشهادة في الأموال ونحوها رجلان أو رجل وامرأتان، ودلت السنة أيضا أنه يقبل الشاهد مع يمين المدعي،

أن شهادة الصبيان غير مقبولة لمفهوم لفظ الرجل،

أن شهادة النساء منفردات في الأموال ونحوها لا تقبل، لأن الله لم يقبلهن إلا مع الرجل، وقد يقال إن الله أقام المرأتين مقام رجل للحكمة التي ذكرها وهي موجودة سواء كن مع رجل أو منفردات والله أعلم.

أن شهادة العبد البالغ مقبولة كشهادة الحر لعموم قوله: وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ والعبد البالغ من رجالنا،

أن شهادة الكفار ذكورا كانوا أو نساء غير مقبولة، لأنهم ليسوا منا، ولأن مبنى الشهادة على العدالة وهو غير عدل،

فيه فضيلة الرجل على المرأة، وأن الواحد في مقابلة المرأتين لقوة حفظه ونقص حفظها،

أن من نسي شهادته ثم ذكرها فذكر فشهادته مقبولة لقوله: فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى

يؤخذ من المعنى أن الشاهد إذا خاف نسيان شهادته في الحقوق الواجبة وجب عليه كتابتها، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب،

﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ أنه يجب على الشاهد إذا دعي للشهادة وهو غير معذور، لا يجوز له أن يأبى. ومن لم يتصف بصفة الشهداء المقبولة شهادتهم، لم يجب عليه الإجابة لعدم الفائدة بها ولأنه ليس من الشهداء ﴿ وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا ﴾ النهي عن السآمة والضجر من كتابة الديون كلها من صغير وكبير وصفة الأجل وجميع ما احتوى عليه العقد من الشروط والقيود. وفي الآية بيان الحكمة في مشروعية الكتابة والإشهاد في العقود، فإنها متضمنة للعدل، والشهادة المقترنة بالكتابة تكون أقوم وأكمل وأبعد من الشك والتنازع. يؤخذ من ذلك أن من اشتبه وشك في شهادته لم يجز له الإقدام عليها بل لا بد من اليقين. ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ﴾ فيه الرخصة في ترك الكتابة إذا كانت التجارة حاضرا بحاضر لعدم شدة الحاجة إلى الكتابة. لكنه وإن رخص في ترك الكتابة في التجارة الحاضرة، فإنه يشرع الإشهاد ﴿ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ وهذا نهي عن مضارة الكاتب بأن يدعى وقت اشتغال وحصول مشقة عليه، ونهي عن مضارة الشهيد أيضا بأن يدعى إلى تحمل الشهادة أو أدائها في مرض أو شغل يشق عليه، أو غير ذلك. هذا على جعل قوله: وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ مبنيا للمجهول. وأما على جعلها مبنيا للفاعل ففيه نهي الشاهد والكاتب أن يضارا صاحب الحق بالامتناع أو طلب أجرة شاقة ونحو ذلك ﴿ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ﴾ ارتكاب هذه المحرمات من خصال الفسق. علما أن الأوصاف كالفسق والإيمان ونحو ذلك تتجزأ في الإنسان، فتكون فيه مادة فسق وغيرها، وكذلك مادة إيمان وكفر لقوله: فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ولم يقل فأنتم فاسقون أو فُسَّاق[59] ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ هذه الأحكام مما يستنبط من هذه الآية الكريمة على حسب الحال الحاضرة والفهم القاصر، ولله في كلامه حكم وأسرار يخص بها من يشاء من عباده.

﴿ 283 ﴾ ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ ﴾ إن كنتم مسافرين ﴿ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا ﴾ يكتب بينكم ويحصل به التوثق ﴿ فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ ﴾ يقبضها صاحب الحق[60] وتكون وثيقة عنده حتى يأتيه حقه ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ أما إذا كان صاحب

[59] وحقه أن يتقدم على ما هنا لتقدم موضعه- اشتراط العدالة في الشاهد لقوله: مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ. فأن العدالة يشترط فيها العرف في كل مكان وزمان، فكل من كان مرضيا معتبرا عند الناس قبلت شهادته، ويؤخذ منها عدم قبول شهادة المجهول حتى يزكى.

[60] ودل هذا على أن الرهن غير المقبوضة لا يحصل منها التوثق. ودل أيضا على أن الراهن والمرتهن لو اختلفا في قدر ما رهنت به، كان القول قول المرتهن. ووجه ذلك أن الله جعل الرهن عوضا عن الكتابة في توثق صاحب الحق. فلولا أن قول المرتهن مقبول في قدر الذي رهنت به لم يحصل المعنى المقصود. ولما كان المقصود بالرهن التوثق جاز حضرا وسفرا. وإنما نص الله على السفر، لأنه في مظنة الحاجة إليه لعدم الكاتب فيه.

الحق آمنا من غريمه وأحب أن يعامله من دون رهن ﴿ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ﴾ فعلى من عليه الحق أن يؤدي إليه كاملا غير ظالم له ﴿ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ في أداء الحق، ويجازي من أحسن به الظن بالإحسان ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾ لأن الحق مبني عليها لا يثبت بدونها ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ فكتمها من أعظم الذنوب ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ 284 ﴾ ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الجميع خلقهم ورزقهم ودبرهم لمصالحهم الدينية والدنيوية وهو ربهم ومالكهم الذي يتصرف فيهم بحكمته وعدله وإحسانه ﴿ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ وقد أمرهم ونهاهم وسيحاسبهم على ما أسروه وأعلنوه ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ لمن أتى بأسباب المغفرة ﴿ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ بذنبه الذي لم يحصل له ما يكفره ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزه شيء، بل كل الخلق طوع قهره ومشيئته وتقديره وجزائه.

﴿ 285 ﴾ ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴾ يخبر تعالى عن إيمان الرسول ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ وهذا يتضمن الإيمان:

بجميع ما أخبر الله به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله من صفات كماله ونعوت جلاله على وجه الإجمال والتفصيل، وتنزيهه عن التمثيل والتعطيل وعن جميع صفات النقص.

ويتضمن الإيمان بالملائكة الذين نصت عليهم الشرائع جملة وتفصيلا.

وعلى الإيمان بجميع الرسل والكتب، أي بكل ما أخبرت به الرسل وتضمنته الكتب من الأخبار والأوامر والنواهي، ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ وأنهم لا يفرقون بين أحد من رسله، بل يؤمنون بجميعهم، لأنهم وسائط بين الله وبين عباده. فالكفر ببعضهم كفر بجميعهم بل كفر بالله.

﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا ﴾ ما أمرتنا به ونهيتنا ﴿ وَأَطَعْنَا ﴾ لك في ذلك. ولم يكونوا ممن قالوا سمعنا وعصينا. ولما كان العبد لا بد أن يحصل منه تقصير في حقوق الله تعالى وهو محتاج إلى مغفرته على الدوام، قالوا ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ نسألك مغفرة لما صدر منا من التقصير والذنوب، ومحو ما اتصفنا به من العيوب ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ أي المرجع لجميع الخلائق فتجزيهم بما عملوا من خير وشر.

﴿ 286 ﴾ ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ لما نزل قوله تعالى وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله شق ذلك على المسلمين لما توهموا أن ما يقع في القلب من الأمور اللازمة والعارضة المستقرة وغيرها مؤاخذون به. فأخبرهم بهذه الآية أنه لا يكلف نفسا إلا وسعها أي أمرا تسعه طاقتها، ولا يكلفها ويشق عليها. فأصل الأوامر والنواهي ليست من الأمور التي تشق على النفوس، بل هي غذاء للأرواح ودواء للأبدان، وحمية عن الضرر ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ ثم أخبر تعالى أن لكل نفس ما كسبت من الخير، وعليها ما اكتسبت من الشر. فلا تزر وازرة وزر أخرى ولا تذهب حسنات العبد لغيره. وفي الإتيان بـ "كسب" في الخير الدال على أن عمل الخير يحصل للإنسان بأدنى سعي منه بل بمجرد نية القلب، وأتى بـ "اكتسب" في عمل الشر للدلالة على أن عمل الشر لا يكتب على الإنسان حتى يعمله ويحصل سعيه. ولما كان الإنسان عرضة للتقصير والخطأ والنسيان، وأخبر أنه لا يكلفنا إلا ما نطيق وتسعه قوتنا، أخبر عن دعاء المؤمنين بذلك، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله قال: "قد فعلت" إجابة لهذا الدعاء ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ النسيان هو ذهول القلب عن ما أمر به فيتركه نسيانا. والخطأ هو أن يقصد شيئا يجوز له قصده ثم يقع فعله على ما لا يجوز له فعله: فهذان قد عفا الله عن هذه الأمة[61] ما يقع بهما رحمة بهم وإحسانا ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا ﴾ أي تكاليف مشقة ﴿ كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ وقد فعل تعالى فإن الله خفف عن هذه الأمة في الأوامر من الطهارات وأحوال العبادات ما لم يخففه على غيرها ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ وقد فعل وله الحمد ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ﴾ فالعفو والمغفرة يحصل بهما دفع المكاره والشرور، والرحمة يحصل بها صلاح الأمور ﴿ أَنْتَ مَوْلَانَا ﴾ أي ربنا ومليكنا وإلهنا الذي لم تزل ولايتك إيانا منذ أوجدتنا وأنشأتنا، ثم أنعمت علينا بنعمة الإسلام العظيمة التي جميع النعم تبع لها ﴿ فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ الذين كفروا بك وبرسلك وقاوموا أهل دينك، فانصرنا عليهم بأن تمكن لنا في الأرض وتخذلهم وترزقنا الإيمان والأعمال التي يحصل بها النصر.

والحمد لله رب العالمين

تم تفسير سورة البقرة بعون الله وتوفيقه

وصلى الله على محمد وسلم.

---

[61] فعلى هذا من صلى في ثوب مغصوب، أو نجس، أو قد نسي نجاسة على بدنه، أو تكلم في الصلاة ناسيا، أو فعل مفطرا ناسيا، أو فعل محظورا من محظورات الإحرام التي ليس فيها إتلاف ناسيا، فإنه معفو عنه. وكذلك لا يحنث من فعل المحلوف عليه ناسيا، وكذلك لو أخطأ فأتلف نفسا أو مالا فليس عليه إثم. وإنما الضمان مرتب على مجرد الإتلاف، وكذلك المواضع التي تجب فيها التسمية إذا تركها الإنسان ناسيا لم يضر.

3

مختصر تفسير سورة آل عمران[1]

عدد آياتها 200

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 6 ﴾ ﴿ الم * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ الم ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ الذي لا ينبغي التأله والتعبد إلا لوجهه، هو الإله الحق المتصف بصفات الألوهية التي مرجعها إلى الحياة والقيومية، فـ ﴿ الْحَيُّ ﴾ من له الحياة العظيمة الكاملة المستلزمة لجميع صفات السمع والبصر والقدرة والقوة والعظمة والبقاء والدوام والعز ﴿ الْقَيُّومُ ﴾ الذي قام بنفسه فاستغنى عن جميع مخلوقاته. وقام بغيره فافتقرت إليه جميع مخلوقاته في الإيجاد والإعداد والإمداد ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ﴾ على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ ليقوم الخلق بعبادة ربهم ويتعلموا كتابه ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب السابقة، فهو المزكي لها وكفر أهل الكتاب به ينقض إيمانهم بكتبهم ﴿ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ ﴾ على موسى ﴿ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ على عيسى ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي قبل إنزال القرآن ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ أنزل الله القرآن والتوراة والإنجيل هدى للناس من الضلال ﴿ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ أي الحجج والبينات والبراهين القاطعات الدالة على جميع المقاصد والمطالب. وكذلك فصل وفسر ما يحتاج إليه الخلق فلم يبق لأحد عذر ولا حجة لمن لم يؤمن به وبآياته ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ بعد ما بينها ووضحها وأزاح العلل ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ لا يقدر قدره ولا يدرك وصفه ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ قوي لا يعجزه شيء ﴿ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ ممن عصاه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ وهذا فيه تقرير إحاطة علمه بالمعلومات كلها، جليها وخفيها، ظاهرها وباطنها. ومن جملة ذلك الأجنة في البطون ﴿ هُوَ الَّذِي

[1] نزل صدرها إلى بضع وثمانين آية في مخاصمة النصارى وإبطال مذهبهم ودعوتهم إلى الدخول في الدين الحق دين الإسلام كما نزل صدر البقرة في محاجة اليهود كما تقدم.

يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ من كامل الخلق وناقصه، وحسن وقبيح، وذكر وأنثى ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تضمنت هذه الآيات تقرير إلهية الله وتعينها، وإبطال إلهية ما سواه.

﴿ 7 – 9 ﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ * رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ القرآن ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ﴾ واضحات الدلالة، ليس فيها شبهة ولا إشكال ﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ أصله الذي يرجع إليه كل متشابه، وهي معظمه وأكثره ﴿ وَ ﴾ منه آيات ﴿ أُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ يلتبس معناها على كثير من الأذهان لكون دلالتها مجملة، أو يتبادر إلى بعض الأفهام غير المراد منها. فالواجب في هذا أن يرد المتشابه إلى المحكم والخفي إلى الجلي. ولكن الناس انقسموا إلى فرقتين ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ أي ميل عن الاستقامة بأن فسدت مقاصدهم ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ أي يذهبون إلى المتشابه ويعكسون الأمر فيحملون المحكم على المتشابه ﴿ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ﴾ لأن المتشابه تحصل به الفتنة بسبب الاشتباه الواقع فيه ﴿ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ فإذا أريد بالتأويل علم حقيقة الشيء وكنهه كان الصواب الوقوف على: إِلَّا اللَّهُ. لأن المتشابه الذي استأثر الله بعلم كنهه وحقيقته مثل حقائق صفات الله وكيفيتها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله[2]. وبعضهم يعطف عليها ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ إذا أريد بالتأويل التفسير والكشف والإيضاح. فيكون الله قد أخبر أن تفسير المتشابه وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلا هو تعالى والراسخون في العلم يعلمون أيضا. فيؤمنون بها ويردونها للمحكم و﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ ﴾ من المحكم والمتشابه ﴿ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ ﴾ أي يتعظ بمواعظ الله ويقبل نصحه وتعليمه ﴿ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أهل العقول الرزينة[3]، فيتذكرون ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ وهذا دعاء الراسخين في العلم، أي اجعلنا مستقيمين هادين مهتدين، فثبتنا على هدايتك وعافنا مما ابتليت به الزائغين ﴿ وَهَبْ

---

[2] ولا يجوز التعرض للوقوف عليها، لأنه تعرضٌ لما لا يمكن معرفته. وكما قال الإمام مالك فإن الصفة معلومة، وكيفيتها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عنها بدعة. أما أهل الزيغ فيتبعون هذه الأمور المشتبهات تعرضا لما لا يعني، وتكلفا لما لا سبيل لهم إلى علمه، لأنه لا يعلمها إلا الله.

[3] وقد أثنى الله تعالى على الراسخين في العلم بسبع صفات هي عنوان سعادة العبد:
1) العلم الذي هو الطريق الموصل إلى الله، المبين لأحكامه وشرائعه،
2) الرسوخ في العلم وليس مجرد العلم. فإن الراسخ في العلم يقتضي أن يكون عالما محققا، علمه الله ظاهر العلم وباطنه.
3) الإيمان بجميع كتابه وردّ لمتشابهه إلى محكمه، بقوله يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا
4) يسألون الله العفو والعافية مما ابتلي به الزائغون المنحرفون،
5) اعترافهم بمنة الله عليهم بالهداية وذلك قوله رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا
6) سألوه رحمته المتضمنة حصول كل خير واندفاع كل شر، وتوسلوا إليه باسمه الوهاب،
7) إيمانهم وإيقانهم بيوم القيامة وخوفهم منه، وهذا هو الموجب للعمل الرادع عن الزلل.

﴿ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ عظيمة توفقنا بها للخيرات وتعصمنا بها من المنكرات ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ واسع العطايا كثير الإحسان ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ فمجازيهم بأعمالهم حسنها وسيئها ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ .

﴿ 10 - 13 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ به وبرسله ﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ قد استحقوا العقاب وشدة العذاب، وليس للأولاد والأموال قدر عند الله ﴿ وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ حطبها، الملازمون لها دائما أبدا ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ كما جرى لفرعون ومن قبله ومن بعدهم من الفراعنة العتاة الطغاة ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ وجحدوا ما جاءت به الرسل وعاندوا ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ عدلا منه لا ظلما ﴿ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ على من أتى بأسباب العقاب وهو الكفر ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ ﴾ وفي هذا إشارة للمؤمنين بالنصر والغلبة وتحذير لكفار المشركين واليهود والنصارى، وهذا هو الذي مهدوه لأنفسهم ﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ مهادهم وبئس الجزاء جزاؤهم ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ عبرة عظيمة ﴿ فِي فِئَتَيْنِ ﴾ وهذا يوم بدر ﴿ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ﴿ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾ كفار قريش الذين خرجوا من ديارهم بطرا وفخرا ورئاء الناس، ويصدون عن سبيل الله. فجمع الله بين الطائفتين في بدر، وكان المشركون أضعاف المؤمنين ﴿ يَرَوْنَهُمْ ﴾ يرى المؤمنون الكافرين﴿ مِثْلَيْهِمْ ﴾ أي يزيدون زيادة كثيرة تبلغ المضاعفة وتزيد عليها وأكد هذا بقوله ﴿ رَأْيَ الْعَيْنِ ﴾ فنصر الله المؤمنين ﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ لأن الله ناصر من نصره، وخاذل من كفر به ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أصحاب البصائر النافذة والعقول الكاملة[4].

﴿ 14 - 17 ﴾ ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾

---

[4] وإلا فلو نظر الناظر إلى مجرد الأسباب الظاهرة لجزم بأن غلبة هذه الفئة القليلة لتلك الفئة الكثيرة من أنواع المحالات، ولكن وراء هذا السبب المشاهد بالأبصار سبب أعظم منه لا يدركه إلا أهل البصائر والإيمان بالله والتوكل على الله والثقة بكفايته، وهو نصره وإعزازه لعباده المؤمنين على أعدائه الكافرين.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ يخبر تعالى أنه زين للناس حب الشهوات الدنيوية ﴿ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ وخص هذه الأمور المذكورة لأنها أعظم شهوات الدنيا وغيرها تبع لها. وانقسموا بحسب الواقع إلى قسمين: **1)**- من جعلها المقصود، فصارت أفكارهم وأعمالهم لها فشغلتهم عما خلقوا لأجله، فأصبحت زادا لهم إلى دار الشقاء والعذاب **2)**- من عرف المقصود منها وأن الله جعلها ابتلاء وامتحانا لعباده فجعلوها وسيلة لهم وطريقا يتزودن منها لآخرتهم وصارت لهم زادا إلى ربهم[5] ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ ﴾ وتمام ذلك أن الله تعالى أخبر بعدها ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ عن مصير المتقين في ﴿ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ في الجنات العاليات، مع الخلود الدائم الذي به تمام النعيم ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ الذي هو أكبر نعيم ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ عالم بما فيهم من الأوصاف الحسنة والأوصاف القبيحة، وما هو اللائق بأحوالهم ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا ﴾ من دعائهم أن توسلوا بمنة الله عليهم بتوفيقهم للإيمان ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ أن يغفر لهم ذنوبهم ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ويقيهم شر آثارها وهو عذاب النار. والجنة التي ذكر الله وصفها ونعتها بأكمل نعت وصف أيضا المستحقين لها وهم الذين اتقوه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه إنهم من ﴿ الصَّابِرِينَ ﴾ أنفسهم على ما يحبه الله من طاعته، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ ﴾ في إيمانهم وأقوالهم وأحوالهم ﴿ وَالْمُنْفِقِينَ ﴾ مما رزقهم الله بأنواع النفقات ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ يرون أنفسهم مذنبين مقصرين فيستغفرون ربهم. ويتوقعون أوقات الإجابة وهي السحر.

﴿ **18 – 20** ﴾ ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

﴿ شَهِدَ اللَّهُ ﴾ في الآية شهادته تعالى فيما أقامه من الحجج والبراهين القاطعة على ﴿ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ففي هذا برهان قاطع على وجوب التوحيد وبطلان الشرك ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ شهدوا بذلك ﴿ وَأُولُو الْعِلْمِ ﴾ فهم المرجع في جميع الأمور الدينية[6] خصوصا في أعظم الأمور وأشرفها وهو التوحيد. فوجب على الخلق التزام هذا الأمر

---

[5] وفي هذه الآية تسلية للفقراء الذين لا قدرة لهم على هذه الشهوات التي يقدر عليها الأغنياء وتحذير للمغترين بها وتزهيد لأهل العقول النيرة بها.

1) [6] وفي هذه الآية دليل كذلك على شرف العلم. إذ خص الله أهل العلم بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس.
2) قرن الله شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وكفى بذلك فضلا.
3) جعل أهل العلم أولي العلم بأن أضافهم إلى العلم. إذ هم القائمون به المتصفون بصفته.
4) جعلهم تعالى شهداء وحجة على الناس، وألزمهم بالعمل بالأمر المشهود به. فيكونون هم سبب ذلك وينالهم أجر العالملين بذلك.
5) إشهاده تعالى أهل العلم يتضمن ذلك تزكيتهم وأنهم أمناء على ما استرعاهم عليه.

المشهود عليه والعمل به. ولما قرر توحيده قرر عدله ﴿ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ أي لم يزل متصفا بالقسط في أفعاله وتدبيره بين عباده. فهو على صراط مستقيم في ما أمر به ونهى عنه، وفيما خلقه وقدره. ثم أعاد تقرير توحيده ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّـهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، وخصوصا من ترك الحق بعد معرفته، فهذا مستحق للوعيد الشديد والعقاب الأليم. ثم أمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ ﴾ عند محاجة النصارى وغيرهم ممن يفضل غير دين الإسلام عليه ﴿ قد أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ أي أنا ومن اتبعني قد أقررنا وشهدنا وأسلمنا وجوهنا لربنا، وتركنا ما سوى دين الإسلام وجزمنا ببطلانه ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ من النصارى واليهود ﴿ وَالْأُمِّيِّينَ ﴾ مشركي العرب وغيرهم ﴿ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا ﴾ أي بمثل ما أمنتم به ﴿ فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ كما اهتديتم وصاروا إخوانكم، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ عن الإسلام ورضوا بالأديان التي تخالفه ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ فقد وجب أجرك على ربك، وقامت عليهم الحجة، ولم يبق بعد هذا إلا مجازاتهم بالعقاب على جرمهم، فلهذا قال ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ .

﴿ 21 – 22 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ التي تدل دلالة قاطعة على الحق ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ ﴾ أنبياء الله ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ وقد أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم وتعزيرهم وتوقيرهم ونصرهم ﴿ وَ ﴾ هم ﴿ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ﴾ وينهونهم عن المنكر ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ لذلك استحقوا العذاب المؤلم البالغ في الشدة للأبدان والقلوب والأرواح ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ كما بطلت أعمالهم بما كسبت أيديهم ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ من عذاب الله ولا يدفع عنهم من نقمته مثقال ذرة. وهذه الحالة صفة اليهود ونحوهم.

﴿ 23 – 25 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ ﴾ يخبر تعالى عن حال أهل الكتاب الذين أنعم الله عليهم بكتابه، فكان يجب أن يكونوا أقوم الناس به وأسرعهم انقيادا لأحكامه لكنهم كانوا ﴿ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ ﴾ بأبدانهم ﴿ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ بقلوبهم، وهذا غاية الذم. وفي ضمنها التحذير لنا أن نفعل كفعلهم، فيصيبنا من الذم والعقاب ما أصابهم. والسبب الذي غر أهل الكتاب بتجرئهم على معاصي الله ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ منتهم أنفسهم وغرتهم أن مآلهم إلى الجنة،

وكذبوا في ذلك. فلهذا قال تعالى ﴿ فَكَيْفَ ﴾ يكون حالهم ﴿ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وقد تقدم من أعمالهم ما يبين أنهم من أشد الناس عذابا ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ﴾ لأن ذلك اليوم يوم توفية النفوس ما كسبت ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ومجازاتها بالعدل لا بالظلم.

26 – 27 ﴾ ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ أنت الملك المالك لجميع الممالك، فصفة الملك المطلق لك، والمملكة كلها علويها وسفليها لك والتصريف والتدبير كله لك ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾ فحصول الملك ونزعه تبع لمشيئة الله تعالى[7] ﴿ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾ بطاعتك ﴿ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾ بمعصيتك ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يمتنع عليك أمر من الأمور، والأشياء كلها طوع مشيئتك وقدرتك ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ أي تدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فينشأ عن ذلك من الفصول والضياء والنور والشمس والظل والسكون والانتشار، ما هو من أكبر الأدلة على قدرة الله وعظمته وحكمته ورحمته ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ كالفرخ من البيضة، وكالشجر من النوى، وكالزرع من بذره، وكالمؤمن من الكافر ﴿ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ كالبيضة من الطائر وكالنوى من الشجر، وكالحب من الزرع، وكالكافر من المؤمن. وهذا أعظم دليل على قدرة الله. فخلقه تعالى الأضداد، والضد من ضده بيان أنها مقهورة ﴿ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ترزق من تشاء رزقا واسعا من حيث لا يحتسب.

﴾ 28 – 30 ﴾ ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ * قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهذا نهي من الله تعالى للمؤمنين عن موالاة الكافرين بالمحبة والنصرة والاستعانة بهم على أمر من أمور المسلمين. وتوعد على ذلك فقال ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ

---

[7] وفيه الإشارة إلى أن الله تعالى سينزع الملك من الأكاسرة والقياصرة ومن تبعهم ويؤتيه أمة محمد، وقد فعل ولله الحمد. فحصول الملك ونزعه تبع لمشيئة الله تعالى، ولا ينافي ذلك ما أجرى الله به سنته من الأسباب الكونية والدينية التي هي سبب بقاء الملك وحصوله وسبب زواله، فإنها كلها بمشيئة الله. كما أن ائتلاف قلوب المؤمنين وثباتهم وعدم تنازعهم سبب للنصر على الأعداء، وأنت إذا استقرأت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال ملكها ترك الدين والتفرق الذي أطمع فيهم الأعداء وجعل بأسهم بينهم

اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ أي فقد انقطع عن الله، وليس له في دين الله نصيب[8] ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ أي تخافوهم على أنفسكم فيحل لكم أن تفعلوا ما تعصمون به دماءكم من التقية باللسان وإظهار ما به تحصل التقية ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ رأفة بنا ورحمة لئلا يطول علينا الأمد فتقسو قلوبنا. وليجمع لنا بين الترغيب الموجب للرجاء والعمل الصالح، والترهيب الموجب للخوف وترك الذنوب ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي مرجع العباد، فإياكم أن تفعلوا من الأعمال القباح ما تستحقون به العقوبة، واعملوا ما به يحصل الأجر والمثوبة ﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أخبر عن سعة علمه لما في النفوس خصوصا، ولما في السماء والأرض عموما[9] ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أخبر عن كمال قدرته، بما في ذلك المجازاة على الأعمال يوم القيامة، يومئذ توفى النفوس بأعمالها، و ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ ﴾ الخير اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله من الأعمال الصالحة صغيرها وكبيرها ﴿ مُحْضَرًا ﴾ كاملا موفرا لم ينقص مثقال ذرة ﴿ وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ ﴾ كما أن السوء اسم جامع لكل ما يسخط الله من الأعمال السيئة صغيرها وكبيرها ﴿ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ مسافة بعيدة، لعظم أسفها وشدة حزنها[10]﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ ثم أعاد تعالى تحذيرنا نفسه رأفة بنا ورحمة لئلا يطول علينا الأمد فتقسو قلوبنا، وليجمع لنا بين الترغيب الموجب للرجاء والعمل الصالح، والترهيب الموجب للخوف وترك الذنوب ﴿ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ فنسأله أن يمن علينا بالحذر منه على الدوام، حتى لا نفعل ما يسخطه ويغضبه.

﴿ 31 ﴾ ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ ﴾ أي ادعيتم هذه المرتبة العالية، فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لابد من الصدق فيها ﴿ فَاتَّبِعُونِي ﴾ وعلامة الصدق اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله ﴿ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ ورحمكم وسددكم في جميع حركاتكم وسكناتكم[11]﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

﴿ 32 ﴾ ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾

---

[8] وفي هذه الآية دليل على ضرورة الابتعاد عن الكفار وعن معاشرتهم وصداقتهم. وأنه لا يجوز أن يولى كافر ولاية من ولايات المسلمين، ولا يستعان به على الأمور التي هي مصالح لعموم المسلمين.

[9] ففيه إرشاد إلى تطهير القلوب واستحضار علم الله كل وقت فيستحي العبد من ربه أن يرى قلبه محلا لكل فكر رديء، بل يشغل أفكاره فيما يقرب إلى الله من تدبر آية من كتاب، أو سنة من أحاديث رسول الله، أو تصور وبحث في علم ينفعه، أو تفكر في مخلوقات الله ونعمه، أو نصح لعباد الله،

[10] فليحذر العبد من أعمال السوء التي لا بد أن يحزن عليها أشد الحزن، وليتركها وقت الإمكان . فوالله لترك كل شهوة ولذة وان عسر تركها على النفس في هذه الدار أيسر من معاناة تلك الشدائد واحتمال تلك الفضائح، ولكن العبد من ظلمه وجهله لا ينظر إلا الأمر الحاضر، فليس له عقل كامل يلحظ به عواقب الأمور فيقدم على ما ينفعه عاجلا وآجلا، ويحجم عن ما يضره عاجلا وآجلا.

[11] وبهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحبهم لله، وما نقص من ذلك نقص.

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ وهذا أمر من الله تعالى لعباده بطاعته وطاعة رسوله التي يدخل بها الإيمان والتوحيد، وفروع ذلك من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ فإن أعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم أشد العقوبة.

﴿ 33 - 37 ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ ﴾ فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأمر الملائكة بالسجود له وأسكنه جنته وأعطاه من العلم والفضل ما فاق به سائر المخلوقات ﴿ وَنُوحًا ﴾ فجعله أول رسول إلى أهل الأرض، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته، ونجاه ومن معه في الفلك المشحون ﴿ وَآلَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ اختصه بخلته، وجعله أسوة يقتدي به من بعده، وجعل في ذريته النبوة والكتاب. ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بعثوا من بعده لأنهم من ذريته، ومنهم سيد ولد آدم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَآلَ عِمْرَانَ ﴾ والد مريم بنت عمران، أو والد موسى بن عمران عليه السلام ﴿ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ فهذه البيوت التي ذكرها الله هي صفوته من العالمين، وتسلسل الصلاح والتوفيق ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ أي حصل التناسب والتشابه بينهم في الخلق والأخلاق الجميلة ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يعلم من يستحق الاصطفاء فيصطفيه[12] ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ ﴾ والدة مريم لما حملت ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ جعلتُ ما في بطني خالصا لوجهك، محررا لخدمتك وخدمة بيتك ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّي ﴾ هذا العمل المبارك ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ تسمع دعائي وتعلم نيتي وقصدي. هذا وهي في البطن قبل وضعها ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى ﴾ كأنها تشوفت أن يكون ذكرا ليكون أقدر على الخدمة وأعظم موقعا، ففي كلامها عذر من ربها ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ فعلمه متعلق بها قبل أن تعلم أمها ما هي ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ فيه دلالة على تفضيل الذكر على الأنثى، وعلى التسمية وقت الولادة، وعلى أن للأم تسمية الولد إذا لم يكره الأب ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ دعت لها ولذريتها أن يعيذهم الله من الشيطان الرجيم ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ فجعلها نذيرة مقبولة، وأجارها وذريتها من الشيطان ﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ في بدنها وخلقها وأخلاقها ﴿ وَ ﴾ لأن الله تعالى ﴿ كَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ من رفقه بها ليربيها فنشأت في عبادة ربها ولزمت محرابها أي مصلاها فكان ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ ساقه الله إليها، وكرامة أكرمها الله بها ﴿ قَالَ ﴾ لها زكريا ﴿ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ فضلا وإحسانا ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ

---

[12] ومن الفائدة والحكمة في قصّه علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن نحبهم ونقتدي بهم، ونسأل الله أن يوفقنا لما وفقهم.

﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ومن غير حسبان من العبد ولا كسب. وفي هذه الآية دليل على إثبات كرامات الأولياء الخارقة للعادة كما قد تواترت الأخبار بذلك، خلافا لمن نفى ذلك. فلما رأى زكريا عليه السلام ما منّ الله به على مريم، وما أكرمها به من رزقه، طمعت نفسه بالولد.

﴿ 38 – 41 ﴾ ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ طاهرة الأخلاق ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ فاستجاب له دعاءه ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ﴾ يتعبد لربه ويتضرع ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ أي مصدقا بعيسى[13] عليه السلام، لأنه كان بكلمة الله ﴿ وَسَيِّدًا ﴾ أي يحصل له من الصفات الجميلة ما يكون به سيدا يرجع إليه في الأمور ﴿ وَحَصُورًا ﴾ أي ممنوعا من إتيان النساء، فليس في قلبه لهن شهوة، اشتغالا بخدمة ربه وطاعته ﴿ وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فأي بشارة أعظم من هذا الولد الذي حصلت البشارة بوجوده، وبكمال صفاته، وبكونه نبيا من الصالحين! ف ﴿ قَالَ ﴾ زكريا من شدة فرحه ﴿ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ وكل واحد من الأمرين مانع من وجود الولد، فكيف وقد اجتمعا؟ ف ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى أن هذا خارق للعادة ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ فكما أنه تعالى قدر وجود الأولاد بالأسباب التي منها التناسل، فإذا أراد أن يوجدهم من غير ما سبب فعل. لأنه لا يستعصي عليه شيء. ف ﴿ قَالَ ﴾ زكريا عليه السلام استعجالا لهذا الأمر ﴿ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ علامة على وجود الولد ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ أي ينحبس لسانك عن كلامهم من غير آفة ولا سوء، فلا تقدر إلا على الإشارة والرمز. وهذا آية عظيمة وفيه مناسبة عجيبة: فكما أنه يمنع نفوذ الأسباب مع وجودها، فإنه يوجدها بدون أسبابها، ليدل ذلك أن الأسباب كلها مندرجة في قضائه وقدره، فامتنع من الكلام ثلاثة أيام. وأمره الله أن يشكره ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ أي أول النهار وآخره.

﴿ 42 – 44 ﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ * ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

---

[13] أي أن الله بشر سيدنا زكريا عليه السلام بابن له هو سيدنا يحيى عليه السلام الذي سيكون مصدقاً لكلمة الله سيدنا عيسى عليه السلام، والله أعلم.(م)

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ ﴾ ينوه تعالى بفضيلة مريم وعلو قدرها، وأن الملائكة خاطبتها بذلك فقالت ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ﴾ اختارك بما يرجع إلى الصفات الحميدة والأفعال السديدة ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ من الآفات المنقصة ﴿ وَاصْطَفَاكِ ﴾ بما يرجع إلى تفضيلها ﴿ عَلَى ﴾ سائر ﴿ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ إما على عالمي زمانها، أو مطلقا. وإن شاركها أفراد من النساء في ذلك كخديجة وعائشة وفاطمة، لم يناف الاصطفاء المذكور. فلهذا قالت لها الملائكة ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ ﴾ القنوت دوام الطاعة في خضوع وخشوع ﴿ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ خص السجود والركوع لفضلهما ودلالتهما على غاية الخضوع لله. ففعلت مريم ما أمرت به شكرا لله تعالى وطاعة. ولما أخبر الله نبيه بما أخبر به عن مريم، وكان هذا من الأمور الغيبية التي لا تعلم إلا بالوحي، قال ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أي عندهم ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ لما ذهبت بها أمها إلى من لهم الأمر على بيت المقدس، فتخاصموا أيهم يكفل مريم، واقترعوا عليها بأن ألقوا أقلامهم في النهر، فأيهم لم يجر قلمه مع الماء فله كفالتها. فوقع ذلك لزكريا نبيهم وأفضلهم ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ فلما أَخْبَرْتَهُمْ يا محمد بهذه الأخبار التي لا علم لك ولا لقومك بها دل على أنك صادق وأنك رسول الله حقا. فوجب عليهم الانقياد لك وامتثال أوامرك.

﴿ 45 - 58 ﴾ ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ ﴾ بأعظم بشارة ﴿ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ﴾ لأنه كان بالكلمة من الله، وحالته خارجة عن الأسباب ﴿ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ وجعله الله من آياته وعجائب مخلوقاته، فأرسل الله جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ في جيب درعها فولجت فيها تلك النفخة الذكية من ذلك الملك الزكي، فأنشأ الله منها تلك الروح الزكية، فكان روحانيا نشأ من مادة روحانية. فلهذا سمى روح الله ﴿ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا ﴾ جعله الله أحد أولي

العزم من المرسلين أصحاب الشرائع الكبار والأتباع. ونشر الله له من الذكر ما ملأ ما بين المشرق والمغرب ﴿ وَ ﴾ في ﴿ الْآخِرَةِ ﴾ وجيها عند الله يشفع أسوة إخوانه من النبيين والمرسلين ﴿ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ إلى الله، بل هو عليه السلام من سادات المقربين ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ وهذا غير التكليم المعتاد. بل المراد يكلم الناس بما فيه صلاحهم وفلاحهم، وهو تكليم المرسلين. ففي هذا إرساله ودعوته الخلق إلى ربهم. وفي تكليمهم في المهد آية عظيمة من آيات الله ينتفع بها المؤمنون، وتكون حجة على المعاندين، أنه رسول رب العالمين، وأنه عبد الله، وليكون نعمة وبراءة لوالدته مما رميت به ﴿ وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ يمن عليه بالصلاح ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ والولد في العادة لا يكون إلا من مس البشر، وهذا استغراب منها، لا شك في قدرة الله تعالى ﴿ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فأخبرها أن هذا أمر خارق للعادة، خلقه من يقول لكل أمر أراده: كن فيكون. فمن تيقن ذلك زال عنه الاستغراب والتعجب. ومن حكمة الباري تعالى أن تدرج بأخبار العباد من الغريب إلى ما هو أغرب منه، فذكر وجود يحيى بن زكريا بين أبوين أحدهما كبير والآخر عاقر، ثم ذكر أغرب من ذلك وأعجب، وهو وجود عيسى عليه السلام من أم بلا أب ليدل عباده أنه الفعال لما يريد وأنه ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ ﴾ يحتمل أن يكون المراد جنس الكتاب، فيكون ذكر التوراة والإنجيل تخصيصا لهما، لشرفهما وفضلهما واحتوائهما على الأحكام والشرائع. ويحتمل أن يكون المراد: الكتابة، لأن الكتابة من أعظم نعم الله على عباده. ولهذا امتن تعالى على عباده بتعليمهم بالقلم في أول سورة أنزلها، سورة "اقرأ" ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أسرار الشرع، ووضع الأشياء مواضعها ﴿ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ فيكون ذلك امتنانا على عيسى عليه السلام بتعليمه الكتابة والعلم والحكمة، وهذا هو الكمال للإنسان في نفسه ﴿ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وهذا كمال آخر على ما أعطاه الله من الفضائل، إذ أرسله إلى هذا الشعب الفاضل الذين هم أفضل العالمين في زمانهم يدعوهم إلى الله ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وأقام له من الآيات ما دلهم أنه رسول الله حقا ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ طيرا أصوره على شكل الطير ﴿ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي طيرا له روح تطير بإذن الله ﴿ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ ﴾ وهو الذي يولد أعمى ﴿ وَالْأَبْرَصَ ﴾ بإذن الله ﴿ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فكل واحدة من هذه الأمور آية عظيمة بمفردها، فكيف بها إذا اجتمعت وصدق بعضها بعضا؟ فإنها موجبة للإيقان وداعية للإيمان ﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ أي أتيت بجنس ما جاءت به التوراة وما جاء به موسى عليه السلام ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ فدل ذلك على أن أكثر أحكام التوراة لم ينسخها الإنجيل بل كان متمما لها ومقررا ﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ تدل على صدقي ووجوب اتباعي، وهي ما تقدم من الآيات ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فإن طاعة الرسول طاعة لله ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ الذي نألهه بالحب والخوف والرجاء والدعاء والاستعانة وجميع أنواع العبادة ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾ فليكن هو معبودنا. وفي هذا رد على النصارى القائلين بأن عيسى إله أو ابن الله، وهذا إقراره عليه السلام بأنه عبد مدبر مخلوق ﴿ هَذَا ﴾ أي عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله ﴿ صِرَاطٌ

﴿ مُسْتَقِيمٌ ﴾ موصل إلى الله وإلى جنته، وما عدا ذلك فهي طرق موصلة إلى الجحيم ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ أي رأى منهم عدم الانقياد له، وقالوا هذا سحر مبين، وهموا بقتله وسعوا في ذلك ﴿ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ من يعاونني ويقوم معي بنصرة دين الله ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ وهم الأنصار ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ أي انتدبوا معه وقاموا بذلك. وقالوا ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ بتوحيد الله وتصديق رسوله مع القيام بذلك. فلما قاموا مع عيسى بنصر دين الله وإقامة شرعه آمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فاقتتلت الطائفتان فأيد الله الذين آمنوا بنصره على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴿ وَمَكَرُوا ﴾ أي الكفار بإرادة قتل نبي الله وإطفاء نوره ﴿ وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ بهم جزاء لهم على مكرهم ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ رد الله كيدهم في نحورهم، فانقلبوا خاسرين ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فرفع الله عبده ورسوله عيسى إليه، وألقي شبهه على غيره. فأخذوا من ألقي شبهه عليه فقتلوه وصلبوه. وباءوا بالإثم العظيم بنيتهم أنه رسول الله ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وتقدم أن الله أيد المؤمنين منهم على الكافرين[14]. وإنما يحصل في بعض الأزمان إدالة الكفار على المسلمين، حكمة من الله وعقوبة على تركهم لاتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي مصير الخلائق كلها ﴿ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ كل يدعي أن الحق معه وأنه المصيب وغيره مخطئ، وهذا مجرد دعاوى تحتاج إلى برهان ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالله وآياته ورسله ﴿ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أما عذاب الدنيا، فهو ما أصابهم الله به من القوارع والعقوبات المشاهدة والقتل والذل، وغير ذلك مما هو نموذج من عذاب الآخرة، أي عذاب النار وغضب الجبار ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ ينصرونهم من عذاب الله ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله وما أمر الله بالإيمان به ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ القلبية والقولية والبدنية قصدوا بها رضا رب العالمين ﴿ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ في الدنيا ثوابا لأعمالهم، وإنما توفية الأجور يوم القيامة حيث يجدون ما قدموه من الخيرات محضرا ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ بل يبغضهم ويحل عليهم عذابه ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ وهذا منة عظيمة على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وعلى أمته، حيث أنزل عليهم هذا الذكر الحكيم، المحكم.[15]

﴿ 59 – 60 ﴾ ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ لأن خلقه كذلك من آيات الله الدالة على تفرد الله بالخلق والتدبير، فآدم عليه السلام ﴿ خَلَقَهُ ﴾ الله ﴿ مِنْ تُرَابٍ ﴾ لا من أب ولا أم ﴿ ثُمَّ ﴾ هذا الذي أخبرناك به من شأن المسيح عليه السلام

---

[14]ثم إن النصارى المنتسبين لعيسى عليه السلام لم يزالوا قاهرين لليهود لكون النصارى أقرب إلى اتباع عيسى من اليهود. حتى بعث الله نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فكان المسلمون هم المتبعين لعيسى حقيقة، فأيدهم الله ونصرهم على اليهود والنصارى وسائر الكفار.

[15] المتقن، المفصل للأحكام والحلال والحرام وإخبار الأنبياء الأقدمين، وما أجرى الله على أيديهم من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، فهذا القرآن يقص علينا كل ما ينفعنا من الأخبار والأحكام، فيحصل فيها العلم والعبرة وتثبيت الفؤاد ما هو من أعظم رحمة رب العباد.

﴿ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وهذا هو ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ أي الشاكين في شيء مما أخبرك به ربك[16].

﴿ 61 – 63 ﴾ ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ *إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾

﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ ﴾ وجادلك ﴿ فِيهِ ﴾ في عيسى عليه السلام وزعم أنه فوق منزلة العبودية، بل فوق منزلته ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ بأنه عبد الله ورسوله، وبيّنتَ لمن جادلك ما عندك من الأدلة الدالة على أنه عبد أنعم الله عليه، فلم يبق في مجادلته فائدة تستفيدها ولا يستفيدها هو. لأن الحق قد تبين ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ لذلك أمر الله نبيه أن ينتقل إلى مباهلته وملاعنته[17]وأخبر تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ الذي قصه الله على عباده ﴿ لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ وكل قصص يقص عليهم مما يخالفه ويناقضه فهو باطل ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ فهو المألوه المعبود حقا الذي لا تنبغي العبادة إلا له ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي قهر كل شيء وخضع له كل شيء ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة التامة في ابتلاء المؤمنين بالكافرين ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

﴿ 64 ﴾ ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي هلموا نجتمع عليها وهي الكلمة التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون. ولم يخالفها إلا المعاندون والضالون. ليست مختصة بأحدنا دون الآخر، بل مشتركة بيننا وبينكم ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ فنفرد الله بالعبادة ونخصه بالحب والخوف والرجاء ولا نشرك به نبيا ولا ملكا ولا وليا ولا صنما ولا وثنا ولا حيوانا ولا جمادا ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ بل تكون الطاعة كلها لله ولرسله، فلا نطيع المخلوقين في معصية الخالق، لأن ذلك جعل للمخلوقين في منزلة الربوبية ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ فهم معاندون متبعون أهواءهم ﴿ فَقُولُوا اشْهَدُوا ﴾ فاشهدوهم ﴿ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ولعل الفائدة

---

[16] وفي هذه الآية وما بعدها دليل على قاعدة شريفة وهو أن ما قامت الأدلة على أنه حق وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها، فإنه يجب أن يجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شبهة تورد عليه فهي فاسدة، سواء قدر العبد على حلها أم لا، فلا يوجب له عجزه عن حلها القدح فيما علمه، لأن ما خالف الحق فهو باطل، قال تعالى { فماذا بعد الحق إلا الضلال } وبهذه القاعدة الشرعية تنحل عن الإنسان إشكالات كثيرة يوردها المتكلمون ويرتبها المنطقيون، إن حلها الإنسان فهو تبرع منه، وإلا فوظيفته أن يبين الحق بأدلته ويدعو إليه.

[17] بأن يدعون الله ويبتهلون إليه أن يجعل لعنته وعقوبته على الكاذب من الفريقين، هو مع أحب الناس إليه من الأولاد والأبناء والنساء. فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك فتولوا وأعرضوا ونكلوا، وعلموا أنهم إن لاعنوه رجعوا إلى أهليهم وأولادهم فلم يجدوا أهلا ولا مالا وعوجلوا بالعقوبة. فرضوا بدينهم مع جزمهم ببطلانه، وهذا غاية الفساد والعناد.

في ذلك أنكم إذا قلتم لهم ذلك وأنتم أهل العلم على الحقيقة، كان ذلك زيادة على إقامة الحجة عليهم كما استشهد تعالى بأهل العلم حجة على المعاندين. وأيضا فإنكم إذا أسلمتم أنتم وآمنتم فلا يعبأ الله بعدم إسلام غيركم لعدم زكائهم ولخبث طويتهم. وأيضا فإن في ورود الشبهات على العقيدة الإيمانية مما يوجب للمؤمن أن يجدد إيمانه ويعلن بإسلامه، إخبارا بيقينه وشكرا لنعمة ربه.

﴿ 65 - 68 ﴾ ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ فقد ادعى اليهود أنه كان يهوديا، والنصارى أنه نصراني ﴿ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فكيف ينسبون إبراهيم إليهم وهو قبلهم متقدم عليهم ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ إذا جادلوا في أحكام التوراة والإنجيل فأخطأوا أم أصابوا فليس لهم المحاجة في شأن إبراهيم ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ برأ الله تعالى خليله من اليهود والنصارى والمشركين، وجعله حنيفا مسلما ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وجعل أولى الناس به من آمن به من أمته، وهذا النبي وهو محمد صلى الله على وسلم ومن آمن معه، فهم الذين اتبعوه وهم أولى به من غيرهم[18].

﴿ 69 - 74 ﴾ ﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ *يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ يحذر تعالى عباده المؤمنين عن مكر هذه الطائفة الخبيثة من أهل الكتاب، وأنهم يودون أن يضلوكم. ولكن من لطف الله أنه لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾ فسعيهم في إضلال المؤمنين زيادة في ضلال أنفسهم وزيادة عذاب لهم ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أنهم يسعون في ضرر أنفسهم وأنهم لا يضرونكم شيئا ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ مع علمكم بأن ما أنتم عليه باطل، وأن ما جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق ﴿ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أي ما الذي دعاكم إلى الكفر بآيات الله مع

---

[18] وقد اشتملت هذه الآيات على النهي عن المحاجة والمجادلة بغير علم، وفيها أيضا حث على علم التاريخ، وأنه طريق لرد كثير من الأقوال الباطلة والدعاوى التي تخالف ما علم من التاريخ.

علمكم بأن ما جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق الذي تشهدون به ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وبخهم على لبس الحق بالباطل وعلى كتمان الحق، لأنهم بهذين الأمرين يضلون من انتسب إليهم[19]. ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ ﴾ أي ادخلوا في دينهم على وجه المكر والكيد أول النهار، فإذا كان آخر النهار فاخرجوا منه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن دينهم، فيقولون لو كان صحيحا لما خرج منه أهل العلم والكتاب ﴿ وَ ﴾ قال بعضهم لبعض ﴿ لَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ أي لا تثقوا ولا تطمئنوا ولا تصدقوا إلا من تبع دينكم. واكتموا أمركم ﴿ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ﴾ إذا أخبرتم غيركم وغير من هو على دينكم حصل لهم من العلم ما حصل لكم فصاروا مثلكم ﴿ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾ فرد الله عليهم ﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴾ فالله هو الذي يحسن على عباده بأنواع الإحسان ﴿ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ممن أتى بأسبابه ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴾ الفضل كثير الإحسان ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يصلح للإحسان فيعطيه ومن لا يستحقه فيحرمه ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي برحمته المطلقة التي تكون في الدنيا متصلة بالآخرة وهي نعمة الدين ومتمماته ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ وصل فضله وإحسانه إلى ما وصل إليه علمه، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما.

﴿ 75 – 77 ﴾ ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ ذكر خيانتهم في الدين ومكرهم وكتمهم الحق فأخبر أن منهم الخائن والأمين وأن منهم ﴿ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ ﴾ وهو المال الكثير ﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ وهو على أداء ما دونه من باب أولى ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ وهو على عدم أداء ما فوقه من باب أولى وأحرى ﴿ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ ولا إثم في عدم أداء أموالهم إليهم فجمعوا بين أكل الحرام واعتقاد حله ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا أعظم إثما من القول على الله بلا علم ﴿ بَلَى ﴾ بل عليكم في ذلك أعظم الحرج وأشد الإثم و ﴿ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ ﴾ الذي بين العبد وبين ربه والذي بينه وبين العباد ﴿ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ في اتقاء المعاصي بين العبد وبين ربه، وبينه وبين الخلق فمن كان كذلك فإنه من المتقين الذين يحبهم الله تعالى، سواء كانوا من الأميين أو غيرهم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ويدخل في ذلك كل من أخذ شيئا من الدنيا في مقابلة ما تركه من حق الله أو حق عباده، وكذلك من حلف على يمين يقتطع

---

[19] فإن العلماء إذا لبسوا الحق بالباطل فلم يميزوا بينهما، بل أبقوا الأمر مبهما وكتموا الحق الذي يجب عليهم إظهاره، ترتب على ذلك من خفاء الحق وظهور الباطل ما ترتب.

بها مال معصوم ﴿ أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ أي لا نصيب لهم من الخير ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ بل ﴿ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ غضبا عليهم وسخطا، لتقديمهم هوى أنفسهم على رضا ربهم ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ لا يطهرهم من ذنوبهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ موجع للقلوب والأبدان، وهو عذاب السخط والحجاب وعذاب جهنم، نسأل الله العافية.

﴿ 78 ﴾ ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ ﴾ يميلونه ويحرفونه عن المقصود به، وهذا يشمل اللي والتحريف لألفاظه ومعانيه، وأفهموا غير المراد من الكتاب، تعريضا ﴿ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أي يلوون ألسنتهم ويوهمونكم أنه هو المراد من كتاب الله ﴿ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ وليس هو المراد. وإما تصريحا ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ وهذا أعظم جرما ممن يقول على الله بلا علم. هؤلاء يقولون على الله الكذب فيجمعون بين نفي المعنى الحق، وإثبات المعنى الباطل، وتنزيل اللفظ الدال على الحق على المعنى الفاسد، مع علمهم بذلك.

﴿ 79 – 80 ﴾ ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ وهذه الآية نزلت ردا لمن قال من أهل الكتاب للنبي صلى الله عليه وسلم لما أمرهم بالإيمان به ودعاهم إلى طاعته: أتريد يا محمد أن نعبدك مع الله، فقوله مَا كَانَ لِبَشَرٍ أي يمتنع ويستحيل على بشر منّ الله عليه بإنزال الكتاب وتعليمه ﴿ أن يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ فهذا من أمحل المحال صدوره من أحد من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ ولكن يأمرهم بأن يكونوا ربانيين، أي علماء حكماء حلماء معلمين للناس ومربيهم، عاملين بذلك. والباء في قوله بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ ...هي باء السببية: بسبب تعليمكم لغيركم المتضمن لعلمكم ودرسكم لكتاب الله وسنة نبيه، التي بدرسها يرسخ العلم ويبقى، تكونون ربانيين ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾ وهذا تعميم بعد تخصيص أي لا يأمركم بعبادة نفسه ولا بعبادة أحد من الخلق من الملائكة والنبيين وغيرهم ﴿ أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ هذا ما لا يكون ولا يتصور أن يصدر من أحد منّ الله عليه بالنبوة، فمن قدح في أحد منهم بشيء من ذلك فقد ارتكب إثما عظيما وكفرا وخيما.

﴿ 81 – 82 ﴾ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ﴾ يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق النبيين وعهدهم المؤكد ﴿ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ ﴾ بسبب ما أعطاهم من كتاب الله المنزل ﴿ وَحِكْمَةٍ ﴾ فاصلة بين الحق والباطل والهدى والضلال ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ ﴾ إنه إن بعث الله رسولا مصدقا لما معهم ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾ أن يؤمنوا به ويصدقوه ويأخذوا ذلك على أممهم. فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أوجب الله عليهم أن يؤمن بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضا لأن جميع ما عندهم هو من عند الله. وقد علم أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو خاتمهم. فهذه الآية الكريمة من أعظم الدلائل على علو مرتبته وجلالة قدره، وأنه أفضل الأنبياء وسيدهم صلى الله عليه وسلم ﴿ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي ﴾ لما قررهم تعالى ﴿ قَالُوا أَقْرَرْنَا ﴾ أي قبلنا ما أمرتنا به ﴿ قَالَ ﴾ الله لهم ﴿ فَاشْهَدُوا ﴾ على أنفسكم وعلى أممكم بذلك، قال ﴿ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ. فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ العهد والميثاق المؤكد بالشهادة من الله ومن رسله ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ فعلى هذا كل من ادعى أنه من أتباع الأنبياء كاليهود والنصارى ومن تبعهم، فقد تولوا عن هذا الميثاق الغليظ، واستحقوا الفسق الموجب للخلود في النار إن لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

﴿ 83 ﴾ ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ أيطلب الطالبون ويرغب الراغبون في غير دين الله؟ لا يحسن هذا ولا يليق، لأنه لا أحسن دينا من دين الله ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا ﴾ فالمؤمنون المسلمون منقادون بتسخيره مستسلمون طوعا واختيارا لعبادة ربهم ﴿ وَكَرْهًا ﴾ وينقاد كرها بقية الخلق ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ وإليه مرجع الخلائق كلها، فيحكم بينهم ويجازيهم بحكمه الدائر بين الفضل والعدل.

﴿ 84 ﴾ ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ قولوا بألسنتكم[20] متواطئة عليها قلوبكم، إشارة إلى الإعلان بالعقيدة والصدع بها والدعوة لها ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ أي بأنه موجود، واحد أحد ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾ يشمل القرآن والسنة ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ﴾ فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء، والإيمان بالأنبياء عموما، وخصوصا ما نص عليه في الآية وما عرف منهم بالتفصيل، وجب الإيمان به مفصلا ﴿ وَالنَّبِيُّونَ

[20] هذه الآية الكريمة، قد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به.

﴿ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ الأنبياء مبلغون عن الله، ووسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شيء. وكونه من ربّهم يبين الفرق بين الأنبياء وبين من يدعي النبوة ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ هذه خاصيّة المسلمين التي انفردوا بها عن كلّ من يدعي أنّه على دين ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ خاضعون لعظمته، منقادون لعبادته، بباطننا وظاهرنا، مخلصون له العبادة بدليل تقديم المعمول وهو لَهُ على العامل وهو مُسْلِمُونَ.

﴿ 85 ﴾ ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾ من يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده ﴿ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ فعمله مردود غير مقبول ﴿ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ لأن دين الإسلام هو المتضمن للاستسلام لله إخلاصا وانقيادا لرسله، وكل دين سواه فباطل.

﴿ 86 - 88 ﴾ ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾ من الأمر البعيد أن يهدي الله قوما اختاروا الكفر والضلال بعدما آمنوا ﴿ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ ﴾ بما جاءهم به من الآيات البينات ﴿ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ والبراهين القاطعات ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ فهؤلاء لا يوفقون للهداية فهم ظلموا وتركوا الحق بعدما عرفوه، واتبعوا الباطل مع علمهم ببطلانه ﴿ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أي لا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا لحظة، لا بإزالته أو إزالة بعض شدته ﴿ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ أي يمهلون، لأن زمن الإمهال قد مضى.

﴿ 90 - 91 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾ يخبر تعالى أنه لا تقبل توبة من كفر بعد إيمانه ﴿ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا ﴾ إلى كفرهم بتماديهم في الغي والضلال ﴿ لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ لا يوفقون لتوبة تقبل بل يمدهم الله في طغيانهم يعمهون ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾ حصر الضلال في هذا الصنف. وهؤلاء الكفرة إذا استمروا على كفرهم إلى الممات تعين هلاكهم وشقاؤهم الأبدي ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ وهؤلاء الكفرة إذا استمروا على كفرهم إلى الممات تعين هلاكهم وشقاؤهم الأبدي، ولم ينفعهم شيء ﴿ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ ﴾ فلو أنفق أحدهم ملء الأرض ذهبا ليفتدي به من عذاب الله ما نفعه ذلك ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ بل لا يزالون

في العذاب الأليم، لا شافع لهم ولا ناصر ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله فأيسوا من كل خير، وجزموا على الخلود الدائم في العقاب والسخط، فعياذا بالله من حالهم.

﴿ 92 ﴾ ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

﴿ لَنْ تَنَالُوا ﴾ وتدركوا وتبلغوا ﴿ الْبِرَّ ﴾ وهو كل خير من أنواع الطاعات والمثوبات الموصل لصاحبه إلى الجنة ﴿ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ فبذلتم الأموال في مرضاته، دل ذلك على إيمانكم الصادق وبر قلوبكم. ودلت الآية أن العبد بحسب إنفاقه للمحبوبات يكون بره. لكن الإنفاق على أي وجه يثاب عليه العبد، سواء كان قليلا أو كثيرا، محبوبا للنفس أم لا. فلايتوهم المرء أنّ إنفاقاً غير هذا المقيّد غير نافع. لهذا احترز تعالى عن هذا الوهم بقوله ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ فلا يضيق عليكم، بل يثيبكم عليه على حسب نياتكم ونفعه.

الجزء الرابع 4

﴿ 93 - 95 ﴾ ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ فمن تمام الإنصاف في المجادلة[21] إلزامهم بما في كتابهم التوراة من أن جميع أنواع الأطعمة محللة لبني إسرائيل ﴿ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ ﴾ وهو يعقوب عليه السلام ﴿ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ من غير أن يحرمه الله تعالى. فعندما أصابه عرق النسا نذر لئن شفاه الله تعالى ليحرمن أحب الأطعمة عليه. فحرم فيما يذكرون لحوم الإبل وألبانها وتبعه بنوه على ذلك ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ﴾ ثم نزل في التوراة أشياء من المحرمات غير ما حرم إسرائيل مما كان حلالا لهم طيبا ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وأمر الله رسوله إن أنكروا ذلك أن يأمرهم بإحضار التوراة، لكنهم استمروا على الظلم والعناد. فلهذا قال تعالى ﴿ فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ وأي ظلم أعظم من ظلم من يدعى إلى تحكيم كتابه فيمتنع من ذلك عنادا وتكبرا وتجبرا؟ وهذا من أعظم الأدلة على صحة نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وصدق من أخبره من الأمور التي لا يعلمها إلا بإخبار ربه له بها ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ﴾ فيما أخبر به وحكم. وهذا أمر من الله لرسوله ولمن يتبعه أن يقولوا بألسنتهم: صدق الله معتقدين بذلك في قلوبهم، مقيمين هذه الشهادة على من أنكرها ﴿ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ ﴾ أبيهم ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ عليه السلام ﴿ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ بترك الشرك والتوحيد.

---

[21] وهذا رد على اليهود بزعمهم الباطل أن النسخ غير جائز، فكفروا بعيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم لأنهما أتيا بما يخالف بعض أحكام التوراة بالتحليل والتحريم.

﴿ 96 – 97 ﴾ ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ يخبر تعالى عن شرف هذا البيت الحرام، وأنه أول بيت وضعه الله للناس يتعبدون فيه لربهم ﴿ مُبَارَكًا ﴾ فيه البركة الكثيرة في المنافع الدينية والدنيوية ﴿ وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ هدى العلم بما يكتسبونه من علم بالحق، وهدى العمل بما جعل الله فيه من أنواع التعبدات المختصة به ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ كالأدلة على توحيده ورحمته وحكمته وعظمته وجلاله وكمال علمه وسعة جوده، وما مَنَّ به على أوليائه وأنبيائه. فمن الآيات ﴿ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ يحتمل أن المراد به المقام المعروف[22] وقيل إن الآية فيه ما أودعه الله في القلوب من تعظيمه وتكريمه وتشريفه واحترامه. ويحتمل أن المراد بمقام إبراهيم أنه مفرد مضاف يراد به مقاماته في مواضع المناسك كلها[23]. ومن الآيات البينات فيها أن من دخله كان آمنا شرعا وقدرا[24] ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ مَنْ فهي بدل. وقد استهوى طائفة من الناس القول بأنها فاعل بالمصدر ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ أي يجب لله على الناس الحج، فهو حق واجب لله، هذا كما تقول: لله عليك الصلاة والزكاة والصيام[25]. ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ الله تعالى هو الغني الحميد ولا حاجة به إلى حج أحد، وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته له وسخطه عليه وإعراضه بوجهه عنه ما هو أعظم التهديد وأبلغه. ثم أكد ذلك بذكر اسم العالمين عموما، ولم يقل: فإن الله غني عنه، لأنه إذا كان غنيا عن العالمين كلهم فله الغنى الكامل التام من كل وجه بكل اعتبار.

﴿ 98 – 101 ﴾ ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ

---

22 وهو الحجر الذي كان يقوم عليه الخليل لبنيان الكعبة لما ارتفع البنيان، وكان ملصقا في جدار الكعبة، فلما كان عمر رضي الله عنه وضعه في مكانه الموجود فيه الآن. والآية فيه: قيل أثر قدمي إبراهيم، قد أثرت في الصخرة وبقي ذلك الأثر إلى أوائل هذه الأمة، وهذا من خوارق العادات.

23 فيكون على هذا جميع أجزاء الحج ومفرداته آيات بينات، كالطواف والسعي ومواضعها، والوقوف بعرفة ومزدلفة، والرمي، وسائر الشعائر. والآية في ذلك ما جعله الله في القلوب من تعظيمها واحترامها وبذل نفائس النفوس والأموال في الوصول إليها وتحمل كل مشقة لأجلها.

24 فالشرع قد أمر الله رسوله إبراهيم ثم رسوله محمد باحترامه وتأمين من دخله، وأن لا يهاج. حتى إن التحريم في ذلك شمل صيودها وأشجارها ونباتها. وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء أن من جنى جناية خارج الحرم ثم لجأ إليه أنه يأمن ولا يقام عليه الحد حتى يخرج منه. وأما تأمينها قدرا فلأن الله تعالى بقضائه وقدره وضع في النفوس حتى نفوس المشركين به الكافرين بربهم احترامه، حتى إن الواحد منهم مع شدة حميتهم ونعرتهم وعدم احتمالهم للضيم يجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهيجه، ومن جعله حرما أن كل من أراده بسوء فلا بد أن يعاقبه عقوبة عاجلة، كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم.

25 وتأمل سر البدل في الآية المقتضي لذكر الإسناد مرتين، مرة بإسناده إلى عموم الناس، ومرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين، وهذا من فوائد البدل تقوية المعنى وتأكيده بتكرر الإسناد ولهذا كان في نية تكرار العامل وإعادته.

ثم تأمل ما في الآية من الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال، وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وخلتين، اعتناء به وتأكيد لشأنه، ثم تأمل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت وعظم شأنه بما تدعوا النفوس إلى قصده وحجه وان لم يطلب ذلك منها، فقال: ﴿ إن أول بيت ﴾ إلخ، فوصفه بخمس صفات: أحدها كونه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض، الثاني: أنه مبارك، والبركة كثرة الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيرا ولا أدوم ولا أنفع للخلائق، الثالث: أنه هدى، ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة، حتى كأنه نفس الهدى، الرابع ما تضمن من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية، الخامس: الأمن الحاصل لداخله، وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس على حجه وإن شطت بالزائرين الديار وتناءت بهم الأقطار، ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات، وهذا يدل على الاعتناء منه سبحانه لهذا البيت العظيم، والتنويه بذكره، والتعظيم لشأنه، والرفعة من قدره، ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله ﴿ وطهر بيتي ﴾لكفى بهذه الإضافة فضلا وشرفا، وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه، وسلبت نفوسهم حباله وشوقا إلى رؤيته، فهذه المثابة للمحبين يثوبون إليه ولا يقضون منه وطرا أبدا، كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حبا وإليه اشتياقا، فلا الوصال يشفيهم ولا البعاد يسليهم.

تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴾ يوبخ تعالى أهل الكتاب على كفرهم بآيات الله التي أنزلها على رسله ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ جمعوا بين الكفر بها وصد من آمن بالله عنها وتحريفها وتعويجها عما جعلت له ﴿ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ﴾ بذلك عالمون بأن ما فعلوه أعظم الكفر الموجب لأعظم العقوبة ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بل محيط بأعمالكم ونياتكم ومكركم السيء، فمجازيكم عليه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ وذلك لحسدهم وبغيهم عليكم وشدة حرصهم على ردكم عن دينكم ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ بين أظهركم يتلو عليكم الآيات البينات التي توجب الجزم بمقتضاها وعدم الشك فيما دلت عليه ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ ﴾ فتوكل عليه وامتنع بقوته ورحمته عن كل شر واستعان به على كل خير ﴿ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ موصل له إلى غاية المرغوب، لأنه جمع بين اتباع الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله وبين الاعتصام بالله.

﴿ 102 - 103 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ وأن يستمروا على ذلك ويثبتوا عليه ويستقيموا إلى الممات ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ فإن من عاش على شيء مات عليه. فمن كان في حال صحته ونشاطه وإمكانه مداوما لتقوى ربه وطاعته، منيبا إليه على الدوام، ثبته الله عند موته ورزقه حسن الخاتمة ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، فإن في اجتماع المسلمين وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً ﴾ يقتل بعضكم بعضا، ويأخذ بعضكم مال بعض ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾ استحقيتم النار ولم يبق بينكم وبينها إلا أن تموتوا فتدخلوها ﴿ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ بما مَنَّ عليكم من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أي يوضحها ويفسرها، ويبين لكم الحق من الباطل، والهدى من الضلال ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ بمعرفة الحق والعمل به.

﴿ 104 - 105 ﴾ ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ ﴾ أيها المؤمنون الذين مَنَّ الله عليهم بالإيمان ﴿ أُمَّةٌ ﴾ أي جماعة ﴿ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه[26] ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بالمطلوب ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾ ثم نهاهم عن التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ الموجبة لعدم التفرق والاختلاف ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

﴿ 106 - 108 ﴾ ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾

﴿ يَوْمَ ﴾ القيامة ﴿ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ وجوه أهل السعادة والخير والاعتصام بحبل الله ﴿ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ أهل الشقاوة والشر والفرقة والاختلاف ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ فيقال لهم على وجه التوبيخ والتقريع ﴿ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ كيف آثرتم الكفر والضلال على الإيمان والهدى؟ ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ فليس يليق بكم إلا النار ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ فيهنئون أكمل تهنئة ويبشرون أعظم بشارة ﴿ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ والجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ نقصها ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ لأن أوامره ونواهيه مشتملة على الحكمة والرحمة وثوابها وعقابها ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ نفى إرادته ظلمهم فلا ينقص أحدا شيئا من حسناته، ولا يزيد في ظلم الظالمين بل يجازيهم بأعمالهم فقط.

﴿ 109 ﴾ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

﴿ وَلِلَّهِ ﴾ هو المالك لـ ﴿ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ خلقهم ورزقهم ويتصرف فيهم بقدره وقضائه، وفي شرعه وأمره ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ وإليه يرجعون يوم القيامة فيجازيهم بأعمالهم حسنها وسيئها.

﴿ 110 - 112 ﴾ ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ * لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ * ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾

---

[26] وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه. ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين والوعاظ والمجاهدون في سبيل الله والمتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم بالشرع.

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ يمدح تعالى هذه الأمة ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أمة امتثلت أمر ربها واستحقت الفضل على سائر الأمم ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ وفي هذا من دعوته بلطف الخطاب ما يدعوهم إلى الإيمان ﴿ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ولكن لم يؤمن منهم إلا قليل ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ الخارجون عن طاعة الله ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾ ولكن من لطف الله بعباده المؤمنين أن غاية ما يصلون إليه من الأذى هي أذية الكلام ﴿ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ فلو قاتلوا المؤمنين لولوا الأدبار فرارا ثم تستمر هزيمتهم ويدوم ذلهم ﴿ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ في وقت من الأوقات ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا ﴾ ولهذا أخبر تعالى أنه عاقبهم بالذلة في بواطنهم والمسكنة على ظواهرهم، فلا يستقرون ولا يطمئنون ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ ﴾ عهد ﴿ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ فلا يكون اليهود إلا تحت أحكام المسلمين وعهدهم، تؤخذ منهم الجزية ويستذلون، أو تحت أحكام النصارى ﴿ وَبَاءُوا ﴾ مع ذلك ﴿ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ وهذا أعظم العقوبات ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ التي أنزلها الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم الموجبة لليقين والإيمان، فكفروا بها بغيا وعنادا ﴿ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ يقابلون أنبياء الله الذين يحسنون إليهم أعظم إحسان بأشر مقابلة، وهو القتل ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ وذلك كله بسبب عصيانهم واعتدائهم، فهو الذي جرأهم على الكفر بالله وقتل أنبياء الله.

﴿ 113 - 115 ﴾ ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾ لا يستوون عنده، بل بينهم من الفرق ما لا يمكن وصفه ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ مستقيمة على دين الله، قائمة بما ألزمها الله به من المأمورات ﴿ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ وهذا بيان لصلاتهم في أوقات الليل وطول تهجدهم وتلاوتهم لكتاب ربهم والركوع والسجود له ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إيمانا يوجب لهم الإيمان بكل نبي أرسله، وكل كتاب أنزله الله، وخص الإيمان باليوم الآخر لأن الإيمان الحقيقي باليوم الآخر يحث المؤمن به على ما يقربه إلى الله ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ فحصل منهم تكميل أنفسهم بالإيمان ولوازمه، وتكميل غيرهم بأمرهم بكل خير، ونهيهم عن كل شر ﴿ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ يبادرون إليها ويفعلونها في أول وقت إمكانها، وذلك من شدة رغبتهم في الخير ﴿ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ الذين يدخلهم الله في رحمته ويتغمدهم بغفرانه وينيلهم من فضله وإحسانه ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا ﴾ مهما فعلوا ﴿ مِنْ خَيْرٍ ﴾ قليلا كان أو كثيرا ﴿ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ﴾ لن يحرموه ويفوتوا أجره، بل يثيبهم الله على ذلك أكمل ثواب ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ فالأعمال ثوابها تبع لما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والتقوى.

﴿ 116 - 117 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ لا تدفع عنهم شيئا من عذاب الله، ولا تجدي عليهم شيئا من ثواب الله ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ثم ضرب مثلا لما ينفقه الكفار من أموالهم التي يصدون بها عن سبيل الله ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ كمن زرع زرعا يرجو نتيجته ويؤمل إدراك ريعه ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ برد شديد محرق ﴿ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ فأهلكت زرعه، ولم يحصل له إلا التعب والعناء وزيادة الأسف، فكذلك هؤلاء الكفار ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ﴾ بإبطال أعمالهم ﴿ وَلَكِنْ كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ حيث كفروا بآيات الله وكذبوا رسوله وحرصوا على إطفاء نور الله.

﴿ 118 - 120 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ ﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يتخذوا بطانة من المنافقين من أهل الكتاب وغيرهم يظهرونهم على سرائرهم أو يولونهم بعض الأعمال الإسلامية وذلك أنهم هم الأعداء الذين امتلأت قلوبهم من العداوة والبغضاء ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾ لا يقصرون في حصول الضرر عليكم والمشقة وعمل الأسباب التي فيها ضرركم ومساعدة الأعداء عليكم ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ فظهرت عليها ﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ مما يسمع منهم. قال الله للمؤمنين ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ﴾ أي التي فيها مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فتعرفونها وتفرقون بين الصديق والعدو. قال الله مهيجا للمؤمنين على الحذر من هؤلاء المنافقين من أهل الكتاب، ومبينا شدة عداوتهم ﴿ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ أي الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا ﴾ وهم لا يؤمنون بكتابكم ﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ ﴾ وهي أطراف الأصابع ﴿ مِنَ ﴾ شدة ﴿ الْغَيْظِ ﴾ عليكم ﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ وهذا فيه بشارة للمؤمنين أن هؤلاء لا يقدرون على تنفيذه، بل لا يزالون معذبين به حتى يموتوا فيتنقلوا من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة ﴿ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ ﴾ كالنصر على الأعداء وحصول الفتح والغنائم ﴿ تَسُؤْهُمْ ﴾ أي تغمهم وتحزنهم ﴿ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ فإذا أتيتم بالأسباب التي وعد

الله عليها النصر – وهي الصبر والتقوى– لم يضركم مكرهم، بل يجعل الله مكرهم في نحورهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ لأنه محيط بهم علمه وقدرته فلا منفذ لهم عن ذلك ولا يخفى عليهم منهم شيء.

﴿ 121 – 122 ﴾ ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ في وقعة "أُحد". والغدو هاهنا مطلق الخروج، لأن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يخرجوا إلا بعدما صلوا الجمعة ﴿ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ أي تنزلهم وترتبهم كل في مقعده اللائق به، وفيها أعظم مدح للنبي صلى الله عليه وسلم حيث هو الذي يباشر تدبيرهم وإقامتهم في مقاعد القتال بنفسه صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لجميع المسموعات، ومنه أنه يسمع ما يقول المؤمنون والمنافقون كل يتكلم بحسب ما في قلبه ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنيات العبيد، فيجازيهم عليها أتم الجزاء. وأيضا فالله سميع عليم بكم يؤيدكم بنصره، ومن لطفه بهم وإحسانه إليهم أنه ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ ﴾ من المؤمنين ﴿ أَنْ تَفْشَلَا ﴾ وهم بنو سلمة وبنو حارثة، لكن الله تعالى ثبتهما نعمة عليهما وعلى سائر المؤمنين ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ أي بولايته الخاصة، فمن توليه لهما أنهما لما همّا بهذه المعصية العظيمة وهي الفشل والفرار عن رسول الله عصمهما لما معهما من الإيمان ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ففيها الأمر بالتوكل الذي هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة بالله.

﴿ 123 – 126 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ وهذا امتنان منه على عباده المؤمنين، وتذكير لهم بما نصرهم به يوم بدر[27] وهم أذلة في قلة عَددهم وعُددهم مع كثرة عدد عدوهم وعُدده ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ لأن من اتقى ربه فقد شكره، ومن ترك التقوى فلم يشكره ﴿ إِذْ تَقُولُ ﴾ يا محمد ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يوم بدر مبشرا لهم بالنصر ﴿ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا ﴾ أي من مقصدهم هذا، وهو وقعة بدر ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ أي معلمين بعلامة الشجعان. فشرط الله

[27]وكانت وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة. خرج النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة بثلاث مئة وبضعة عشر من أصحابه، ولم يكن معهم إلا سبعون بعيرا وفرسان لطلب عير لقريش قدمت من الشام، فسمع به المشركون فتجهزوا من مكة لفكاك عيرهم، وخرجوا في زهاء ألف مقاتل مع العدة الكاملة والسلاح العام والخيل الكثيرة، فالتقوا هم والمسلمون في ماء يقال له "بدر" بين مكة والمدينة فاقتتلوا، ونصر الله المسلمين نصرا عظيما، فقتلوا من المشركين سبعين قتيلا من صناديد المشركين وشجعانهم، وأسروا سبعين، واحتووا على معسكرهم. ستأتي - إن شاء الله - القصة في سورة الأنفال، فإن ذلك موضعها.

لإمدادهم ثلاثة شروط: الصبر والتقوى وإتيان المشركين من فورهم هذا[28] ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ ﴾ أي إمداده لكم بالملائكة ﴿ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ ﴾ تستبشرون بها وتفرحون ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾ فلا تعتمدوا على ما معكم من الأسباب، بل الأسباب فيها طمأنينة لقلوبكم ﴿ وَمَا النَّصْرُ ﴾ الحقيقي ﴿ إِلَّا ﴾ مشيئة الله لنصر من يشاء من عباده ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾ فلا يمتنع عليه مخلوق. بل الخلق كلهم أذلاء مدبرون تحت تدبيره وقهره ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة في إدالة الكفار في بعض الأوقات على المسلمين إدالة غير مستقرة.

﴿ 127 ﴾ ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي جانبا منهم وركنا من أركانهم، بقتل أو أسر أو استيلاء على بلد أو غنيمة مال فيقوى بذلك المؤمنون ويذل الكافرون ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾ بأن يطمع الكفار بقوتهم وكثرتهم في المسلمين، ويمنوا أنفسهم ويبذلوا قواهم وأموالهم في ذلك، لكن الله ينصر المؤمنين عليهم ﴿ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾ ويرجعون بخسارة وغم وحسرة.

﴿ 128 - 129 ﴾ ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ وإنما الأمر لله تعالى[29] فلا تدع عليهم بل أمرهم راجع إلى ربهم وحكمته ورحمته ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ وقد تاب الله على هؤلاء المعينين وغيرهم، فهداهم للإسلام رضي الله عنهم[30]. وتأمل كيف لما ذكر تعالى توبته عليهم أسند الفعل إليه، ولم يذكر منهم سببا موجبا لذلك، ليدل ذلك على أن النعمة محض فضله على عبده، من غير سبق سبب من العبد ولا وسيلة ﴿ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ولما ذكر العذاب ذكر معه ظلمهم، ورتبه على العذاب بالفاء المفيدة للسببية ليدل ذلك على كمال عدل الله وحكمته، حيث وضع العقوبة موضعها، ولم يظلم عبده بل العبد هو الذي ظلم نفسه ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الكل ملك لله مخلوقون مدبرون، فليس لهم مثقال ذرة من الملك، بل يدورون بين مغفرته وتعذيبه فـ ﴿ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ بأن يهديه للإسلام فيغفر شركه ويمن عليه بترك العصيان فيغفر له ذنبه ﴿ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ بأن يكله إلى نفسه الجاهلة الظالمة المقتضية لعمل الشر فيعمل الشر ويعذبه على ذلك ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وقد ختم الآية باسمين كليهما يدل على الرحمة، ففيها أعظم بشارة بأن رحمته غلبت غضبه، ومغفرته غلبت مؤاخذته. فله تعالى رحمة

---

28 فهذا الوعد بإنزال الملائكة المذكورين وإمدادهم بهم. وأما وعد النصر وقمع كيد الأعداء فشرط الله له الشرطين الأولين كما تقدم في قوله: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا﴾

29 لما جرى يوم "أحد" ما جرى، وجرى على النبي صلى الله عليه وسلم مصائب، رفع الله بها درجته، فشج رأسه وكسرت رباعيته، قال "كيف يفلح قوم شجوا نبيهم" وجعل يدعو على رؤساء من المشركين مثل أبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، أنزل الله تعالى على رسوله نهيا له عن الدعاء عليهم باللعنة والطرد عن رحمة الله لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ إنما عليك البلاغ وإرشاد الخلق والحرص على مصالحهم.

30 وفي هذه الآية مما يدل على أن اختيار الله غالب على اختيار العباد. وأن العبد وإن ارتفعت درجته وعلا قدره قد يختار شيئا وتكون الخيرة والمصلحة في غيره، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس له من الأمر شيء فغيره من باب أولى ففيها أعظم رد على من تعلق بالأنبياء أو غيرهم من الصالحين وغيرهم، وأن هذا شرك في العبادة، نقص في العقل، يتركون من الأمر كله له ويدعون من لا يملك من الأمر مثقال ذرة، إن هذا لهو الضلال البعيد.

وإحسان سيرحم بها عباده لا تخطر ببال بشر، ولا يدرك لها وصف، فنسأله تعالى أن يتغمدنا ويدخلنا برحمته في عباده الصالحين.

تم السفر الأول من هذا التفسير المبارك بيسر من الله وإعانة، فله الحمد والشكر والثناء،

وأسأله المزيد من فضله وكرمه وإحسانه.

ويليه المجلد الثاني

وذلك في تسع وعشرين من شهر ربيع الأول من سنة 1343 ثلاث وأربعين وثلاث مئة وألف من الهجرة النبوية

وصلى الله على محمد وسلم تسليما كثيرا

بقلم جامعه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي

غفر الله له ولوالديه وإخوانه المسلمين،

والحمد لله رب العالمين.

تم المجلد الأول بحمد الله

المجلد الثاني

من تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن

لجامعه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ 130 – 136 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ كل ما في القرآن من قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، يدل على أن الإيمان هو السبب الداعي والموجب لامتثال ذلك الأمر، واجتناب ذلك النهي [31] ﴿ لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾ هذا تنبيه [32] على شدة شناعة الربا بكثرته، وتنبيه لحكمة تحريمه بأن الله منع منه لما فيه من الظلم. وذلك أن الله أوجب إنظار المعسر، وبقاء ما في ذمته من غير زيادة، فإلزامه بما فوق ذلك ظلم متضاعف، فيتعين على المؤمن المتقي تركه وعدم قربانه، لأن تركه من موجبات التقوى ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ والفلاح متوقف على التقوى ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ بترك ما يوجب دخولها من الكفر والمعاصي ﴿ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ فترك المعاصي ينجي من النار ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ بفعل الأوامر امتثالا، واجتناب النواهي. وأفعال الخير والطاعة توجب رضا الرحمن ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ فطاعة الله وطاعة رسوله من أسباب حصول الرحمة ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أمرهم تعالى بالمسارعة إلى مغفرته وإدراك جنته ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ فكيف بطولها ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ أعدها الله ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فهم أهلها وأعمال التقوى هي الموصلة إليها ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ في حال عسرهم ويسرهم ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ إذا حصل لهم أذية توجب غيظهم يكظمون ما في القلوب من الغيظ ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ وعن كل من أساء إليك بقول أو فعل. والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسيء ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وهي حالة أعم من غيرها، وأحسن وأعلى وأجل[33] ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أي صدر منهم أعمال سيئة كبيرة أو ما دون ذلك ﴿

---

31 لأن الإيمان هو التصديق الكامل بما يجب التصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، فنهاهم عن أكل الربا أضعافا مضاعفة، وذلك هو ما اعتاده أهل الجاهلية، ومن لا يبالي بالأوامر الشرعية.
ولعل الحكمة -والله أعلم- في إدخال هذه الآيات أثناء قصة "أحد" أنه قد تقدم أن الله تعالى وعد عباده المؤمنين، أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم على أعدائهم، وخذل الأعداء عنهم. فكأن النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى، التي يحصل بها النصر والفلاح والسعادة. ويدل على ما قلنا أن الله ذكر لفظ "التقوى" في هذه الآيات ثلاث مرات: مرة مطلقة وهي قوله: أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ومرتين مقيدتين، فقال: وَاتَّقُوا اللَّهَ... وَاتَّقُوا النَّارَ.

32 من أنه إذا حل الدين، على المعسر ولم يحصل منه شيء، قالوا له: إما أن تقضي ما عليك من الدين، وإما أن نزيد في المدة، ويزيد ما في ذمتك، فيضطر الفقير ويستدفع غريمه ويلتزم ذلك، اغتناما لراحته الحاضرة، ، فيزداد -بذلك- ما في ذمته أضعافا مضاعفة، من غير نفع وانتفاع.

33 والإحسان هو في عبادة الخالق وفسره النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك". وهو أيضاً إحسان إلى المخلوق بإيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم.

ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾ وما توعد به العاصين ووعد به المتقين ﴿ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ فسألوه المغفرة لذنوبهم والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ تزيل عنهم كل محذور ﴿ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ فيها من النعيم المقيم ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ لا يحولون عنها ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ عملوا لله قليلا[34] فأجروا كثيرا.

﴿ 137 – 138 ﴾ ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ وهذه الآيات الكريمات، وما بعدها في قصة "أحد" يعزي تعالى عباده المؤمنين ويسليهم، ويخبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة امتحنوا، وابتلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين بأنواع العقوبات الدنيوية وتبين لكل أحد خسارهم ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴾ أي دلالة ظاهرة تبين للناس الحق من الباطل، وما أوقع الله بالمكذبين ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ لأنهم هم المنتفعون بالآيات فتهديهم إلى سبيل الرشاد، وتعظهم وتزجرهم عن طريق الغي، وأما باقي الناس فهي بيان لهم، تقوم به عليهم الحجة من الله، ليهلك من هلك عن بينة. ويحتمل أن الإشارة في قوله: ﴿هذا بيان للناس﴾ للقرآن العظيم، والذكر الحكيم، وأنه بيان للناس عموما، وهدى وموعظة للمتقين خصوصا، وكلا المعنيين حق.

﴿ 139 – 143 ﴾ ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾

﴿ وَلَا تَهِنُوا ﴾ وتضعفوا في أبدانكم أيها المؤمنون ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ في قلوبكم عندما أصابتكم المصيبة، فإن الحزن والوهن زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوكم عليكم. وذكر تعالى أنه لا ينبغي ولا يليق بهم الوهن والحزن ﴿ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ الأعلون في الإيمان ورجاء نصر الله وثوابه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فالمؤمن المتيقن ما وعده الله من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي منه ذلك ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ﴾ فأنتم وإياهم قد تساويتم في القرح، ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ ومن الحكم في ذلك أن هذه الدار

---

[34] وهذه الآيات الكريمات من أدلة أهل السنة والجماعة، على أن الأعمال تدخل في الإيمان، خلافا للمرجئة. ووجه الدلالة نظير هذه الآيات من قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله﴾ فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسله، وهنا قال: ﴿أعدت للمتقين﴾ ثم وصف المتقين بهذه الأعمال المالية والبدنية، فدل على أن هؤلاء المتقين الموصوفين بهذه الصفات هم أولئك المؤمنون.

يعطي الله منها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فيداول الله الأيام بين الناس ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ هذا أيضا من الحكم أنه يبتلي الله عباده بالهزيمة والابتلاء، ليتبين المؤمن من المنافق ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ الشهادة عند الله من أرفع المنازل، ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ الذين ظلموا أنفسهم وتقاعدوا عن القتال في سبيله. وكأن هذا ذم للمنافقين وأنهم مبغضون لله ولهذا ثبطهم عن القتال في سبيله ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ من ذنوبهم وعيوبهم. يدل ذلك على أن الشهادة والقتال في سبيل الله يكفر الذنوب ويزيل العيوب ﴿ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي ليكون سببا لمحقهم واستئصالهم بالعقوبة فإنهم إذا انتصروا بغوا ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ هذا استفهام إنكاري، أي لا تظنوا أن تدخلوا الجنة من دون احتمال المكاره في سبيل الله وابتغاء مرضاته ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ ﴾ وذلك أن كثيرا من الصحابة رضي الله عنهم ممن فاته بدر يتمنون أن يحضرهم الله مشهدا يبذلون فيه جهدهم. قال الله تعالى لهم ﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ ﴾ أي رأيتم ما تمنيتم بأعينكم ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ فما بالكم وترك الصبر؟ وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكره تمني الشهادة، ووجه الدلالة أن الله تعالى أقرهم على أمنيتهم ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها، والله أعلم.

﴿ 144 - 145 ﴾ ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ ليس ببدع من الرسل ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ من جنس الرسل الذين قبله، وظيفتهم تبليغ رسالات ربهم وتنفيذ أوامره، ليسوا بمخلدين ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ بترك ما جاءكم من إيمان أو جهاد، أو غير ذلك ﴿ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ﴾ إنما يضر نفسه، وإلا فالله تعالى غني عنه، وسيقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين. فلما وبخ تعالى من انقلب على عقبيه، مدح من ثبت مع رسوله، وامتثل أمر ربه ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال[35] ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾ النفوس جميعها متعلقة بآجالها، بإذن الله وقدره وقضائه. فمن حتَّم عليه بالقدر أن يموت مات ولو بغير سبب. ومن أراد بقاءه فلو أتى من الأسباب كل سبب، لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ ولم يذكر جزاءهم ليدل ذلك على كثرته وعظمته، وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر، قلة وكثرة وحسنا.

[35] وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس، فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم. وفي هذه الآية أيضا أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم هم سادات الشاكرين.

﴿ 146 - 148 ﴾ ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ ﴾ أي وكم من نبي ﴿ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ أي جماعات كثيرون من أتباعهم ربتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة، فأصابهم قتل وجراح وغير ذلك ﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ ما ضعفت قلوبهم، ولا وهنت أبدانهم، ولا استكانوا وذلوا لعدوهم، بل صبروا وثبتوا ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ. وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ ﴾ في تلك المواطن الصعبة ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ﴾ والإسراف هو مجاوزة الحد إلى ما حرم، علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان، وأن التخلي منها من أسباب النصر، فسألوا ربهم مغفرتها ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ ثم إنهم اعتمدوا على الله وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقاة الأعداء الكافرين وأن ينصرهم عليهم، فجمعوا بين الصبر وترك ضده والتوبة والاستغفار والاستنصار بربهم ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾ من النصر والظفر والغنيمة ﴿ وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ﴾ وهو الفوز برضا ربهم، والنعيم المقيم، الذي قد سلم من جميع المنكدات ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ في عبادة الخالق ومعاملة الخلق، ومن الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء، كفعل هؤلاء الموصوفين.

﴿ 149 - 151 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ * سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وهذا نهي من الله للمؤمنين أن يطيعوا الكافرين من المنافقين والمشركين، فإنهم إن أطاعوهم ﴿ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ قصدهم ردهم إلى الكفر الذي عاقبته الخيبة والخسران ﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم، ففيه إخبار لهم بذلك، وبشارة بأنه سيتولى أمورهم بلطفه، ويعصمهم من أنواع الشرور. وفي ضمن ذلك الحث لهم على اتخاذه وحده وليا وناصرا من دون كل أحد ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ وهو الخوف العظيم الذي يمنعهم من كثير من مقاصدهم[36]. وقد تقدم أن نصر الله لعباده المؤمنين لا يخرج عن أحد أمرين: إما أن يقطع طرفا من الذين كفروا، أو يكبتهم فينقلبوا خائبين، وهذا من الثاني. ثم ذكر السبب الموجب لإلقاء الرعب في قلوب الكافرين ﴿ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ أي ذلك بسبب ما اتخذوا من دونه من الأنداد والأصنام، وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ

---

[36] وقد فعل تعالى. وذلك أن المشركين بعدما انصرفوا من وقعة "أحد" - تشاوروا بينهم، وقالوا: كيف ننصرف، بعد أن قتلنا منهم من قتلنا، وهزمناهم ولما نستأصلهم؟ فهموا بذلك، فألقى الله الرعب في قلوبهم، فانصرفوا خائبين،

﴾ أي مستقرهم الذي يأوون إليه وليس لهم عنها خروج ﴿ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ بسبب ظلمهم وعدوانهم صارت النار مثواهم.

﴿ 152 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ بالنصر ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ فنصركم عليهم، حتى ولّوكم أكتافهم، وطفقتم فيهم قتلا ﴿ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾ ثم صرتم عونا لأعدائكم عليكم وحصل منكم الفشل وهو الضعف والخور ﴿ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ الذي فيه ترك أمر الله بالائتلاف وعدم الاختلاف. فاختلفتم. فمن قائل قائلاً نقيم في مركزنا الذي جعلنا فيه النبي صلى الله عليه وسلم. ومن قائل ما مقامنا فيه وقد انهزم العدو ﴿ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ﴾ فعصيتم الرسول، وتركتم أمره من بعد ما أراكم الله ما تحبون وهو انخذال أعدائكم ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ﴾ وهم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ وهم الذين لزموا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبتوا حيث أمروا ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ ﴾ فصار الوجه لعدوكم، بعدما وجدت هذه الأمور منكم ﴿ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ ابتلاء من الله لكم وامتحانا، ليتبين المؤمن من الكافر، والطائع من العاصي، وليكفر الله عنكم بهذه المصيبة ما صدر منكم ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ ﴾ عظيم ﴿ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث منَّ عليهم بالإسلام وعفا عنهم سيئاتهم، وأثابهم على مصيباتهم.

﴿ 153 - 154 ﴾ ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور ﴾

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ ﴾ أي تجدّون في الهرب، يذكرهم تعالى حالهم في وقت انهزامهم عن القتال ويعاتبهم على ذلك ﴿ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ ﴾ أي لا يلوي أحد منكم على أحد ولا ينظر إليه، بل ليس لكم هم إلا الفرار والنجاء عن القتال ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ﴾ أي مما يلي القوم، وليس عليكم خطر كبير. يقول: "إليَّ عباد الله" فلم تلتفتوا إليه، ولا عرجتم عليه. فالفرار نفسه موجب للوم، ودعوة الرسول الموجبة لتقديمه على النفس، أعظم لوما بتخلفكم عنها ﴿ فَأَثَابَكُمْ ﴾ أي جازاكم على فعلكم ﴿ غَمًّا بِغَمٍّ ﴾ أي غما يتبع غما، بفوات النصر وفوات الغنيمة، وغم بانهزامكم،

وغم أنساكم كل غم، وهو سماعكم أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد قتل. ولكن الله بلطفه وحسن نظره لعباده جعل اجتماع هذه الأمور لعباده المؤمنين خيرا لهم ﴿ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ من النصر والظفر ﴿ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴾ من الهزيمة والقتل والجراح، إذا تحققتم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقتل هانت عليكم تلك المصيبات، واغتبطتم بوجوده المسلي عن كل مصيبة ومحنة، فلله ما في ضمن البلايا والمحن من الأسرار والحكم، وكل هذا صادر عن علمه وكمال خبرته بأعمالكم، وظواهركم وبواطنكم ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ويحتمل أن المعنى هو أنه قدَّر ذلك الغم والمصيبة عليكم لكي تتوطن نفوسكم، وتمرنوا على الصبر على المصيبات، ويخف عليكم تحمل المشقات ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ ﴾ الذي أصابكم ﴿ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ ﴾ ولا شك أن هذا رحمة بهم وتثبيت لقلوبهم، لأن الخائف لا يأتيه النعاس، فإذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس. وهذه الطائفة التي أنعم الله عليها بالنعاس هم المؤمنون الذين ليس لهم هم إلا إقامة دين الله، ورضا الله ورسوله ومصلحة إخوانهم المسلمين ﴿ وَطَائِفَةٌ ﴾ أخرى ﴿ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ فليس لهم همّ في غيرها، لنفاقهم أو ضعف إيمانهم، فلهذا لم يصبهم من النعاس ﴿ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وهذا استفهام إنكاري، أي ما لنا من النصر والظهور شيء، فأساءوا الظن بربهم وبدينه ونبيه، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن هذه الهزيمة هي الفيصلة والقاضية على دين الله. قال الله في جوابهم ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ فجميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وعاقبة النصر والظفر لأوليائه وأهل طاعته، وإن جرى عليهم ما جرى ﴿ يُخْفُونَ ﴾ يعني المنافقين ﴿ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ ثم بين الأمر الذي يخفونه ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ أي لو كان لنا في هذه الواقعة رأي ومشورة ﴿ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا ﴾ وهذا إنكار منهم وتكذيب بقدر الله، وتسفيه منهم لرأي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورأي أصحابه، وتزكية منهم لأنفسهم، فرد الله عليهم بقوله ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ التي هي أبعد شيء عن مظان القتل ﴿ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ فالأسباب وإن عظمت إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئا، بل لا بد أن يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ ﴾ أي يختبر ما فيها من نفاق وإيمان وضعف إيمان ﴿ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ من وساوس الشيطان، وما تأثر عنها من الصفات غير الحميدة ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي بما فيها وما أكنته، فاقتضى علمه وحكمته أن قدر من الأسباب، ما به تظهر مخبآت الصدور وسرائر الأمور.

﴿ 155 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ يخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم "أحد" وما الذي أوجب لهم الفرار ﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ من تسويل الشيطان الذي تسلط عليهم ﴿ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ ببعض ذنوبهم، لأنها مركبه ومدخله، فلو اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم من سلطان ﴿ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ بعدما فعلوا

ما يوجب المؤاخذة، وإلا فلو واخذهم لاستأصلهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ للمذنبين الخطائين بما يوفقهم له من التوبة والاستغفار، والمصائب المكفرة ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعاجل من عصاه، بل يستأني به، ويدعوه إلى الإنابة إليه والإقبال عليه. ثم إن تاب وأناب قبل منه، وصيره كأنه لم يجر منه ذنب، فلله الحمد على إحسانه.

﴿ 156 - 158 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يشابهوا الكافرين في كل شيء، وفي هذا الأمر الخاص ﴿ وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ وهو أنهم يقولون لإخوانهم في الدين أو في النسب ﴿ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي سافروا للتجارة ﴿ أَوْ كَانُوا غُزًّى ﴾ أي غزاة، ثم جرى عليهم قتل أو موت يعارضون القدر ويقولون ﴿ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ وهذا كذب منهم ﴿ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ فتزداد مصيبتهم ﴿ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ هو المنفرد بذلك ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيكم بأعمالكم وتكذيبكم ﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ ﴾ وهو مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون ﴿ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ ﴾ لأنه سبب مفض وموصل إلى مغفرة الله ورحمته وهو ﴿ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ مما يجمع أهل الدنيا من دنياهم، وأن الخلق أيضا إذا ماتوا أو قتلوا بأي حالة كانت، فإنما مرجعهم إلى الله، ومآلهم إليه، فيجازي كلا بعمله.

﴿ 159 ﴾ ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ برحمة الله لك ولأصحابك منَّ الله عليك أن ألنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك وترققت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامتثلوا أمرك ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا ﴾ سيئ الخلق ﴿ غَلِيظَ الْقَلْبِ ﴾ قاسيه ﴿ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ لأن هذا ينفرهم[37] ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾ ما صدر منهم من التقصير في حقه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ في التقصير في حق الله، فيجمع بين العفو والإحسان ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ أي الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر[38] ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ ﴾ أي على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه، إن كان يحتاج إلى استشارة ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ اعتمد على حول الله وقوته، متبرئا من حولك وقوتك ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ عليه.

---

[37] فالأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟

[38] والمشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله. وفيها تسميحا لخواطرهم، وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث. وفي الاستشارة تنور الأفكار، بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول. والمشاور لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ أو لم يتم له مطلوب، فليس بملوم

﴿ 160 ﴾ ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ ﴾ إن يمددكم الله بنصره ومعونته ﴿ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ ولو اجتمع عليكم من في أقطارها وما عندهم من العدد والعُدد ﴿ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ ﴾ ويكلكم إلى أنفسكم ﴿ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ فلا بد أن تنخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ على الله توكلوا لا على غيره، فالاعتماد عليه توحيد محصل للمقصود، والاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه، بل ضار.

﴿ 161 ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ﴾ الغلول هو الكتمان من الغنيمة، والخيانة في كل مال يتولاه الإنسان. وهو محرم إجماعا، بل هو من الكبائر. فأخبر الله تعالى أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يغل. وقد صان الله تعالى أنبياءه عن كل ما يدنسهم ويقدح فيهم، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقا وأطهرهم نفوسا ﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي يأت به حامله على ظهره، حيوانا كان أو متاعا، أو غير ذلك، ليعذب به يوم القيامة ﴿ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ﴾ كل يوفى أجره ووزره على مقدار كسبه. وتأمل حسن هذا الاحتراز في هذه الآية الكريمة، فكان الاقتصار على عقوبة الغال يوهم أن غيره من أنواع العاملين قد لا يوفون، لذلك أتى بلفظ عام جامع له ولغيره ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ لا يزاد في سيئاتهم، ولا يهضمون شيئا من حسناتهم،

﴿ 162 - 163 ﴾ ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ ﴾ يخبر تعالى أنه لا يستوي من كان قصده رضوان ربه، والعمل على ما يرضيه ﴿ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ كمن ليس كذلك، مكب على المعاصي مسخط لربه، هذان لا يستويان في حكم الله ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ كل هؤلاء متفاوتون في درجاتهم ومنازلهم بحسب تفاوتهم في أعمالهم ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ لا يخفى عليه منها شيء، بل قد علمها، وأثبتها في اللوح المحفوظ، ووكل ملائكته الأمناء الكرام، أن يكتبوها ويحفظوها.

﴿ 164 ﴾ ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا ﴾ بهذا الرسول الكريم الذي أنقذهم الله به من الضلالة وهو ﴿ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ من قومهم يعرفون نسبه وحاله ولسانه ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ من الشرك والمعاصي والرذائل

وسائر مساوئ الأخلاق ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾ إما جنس الكتاب الذي هو القرآن، أو المراد بالكتاب هنا الكتابة، فيكون قد امتن عليهم، بتعليم الكتاب والكتابة، التي بها تدرك العلوم وتحفظ ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ هي السنة، أو وضع الأشياء مواضعها ومعرفة أسرار الشريعة. فجمع لهم بين تعليم الأحكام وما به تنفذ الأحكام ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ بعثة هذا الرسول ﴿ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم ولا ما يزكي النفوس ويطهرها.

﴿ 165 - 168 ﴾ ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ ﴾ هذا تسلية من الله تعالى لعباده المؤمنين حين أصابهم ما أصابهم يوم "أحد" فقال الله إنكم ﴿ قَدْ أَصَبْتُمْ ﴾ من المشركين ﴿ مِثْلَيْهَا ﴾ يوم بدر فقتلتم سبعين من كبارهم وأسرتم سبعين، فليهن الأمر ولتخف المصيبة عليكم، مع أنكم لا تستوون أنتم وهم، فإن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار ﴿ قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ﴾ أي من أين أصابنا ما أصابنا وهزمنا؟ ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ حين تنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعودوا على أنفسكم باللوم، واحذروا من الأسباب المردية ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فإياكم وسوء الظن بالله، فإنه قادر على نصركم، ولكن له أتم الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ ﴾ في "أحد" من القتل والهزيمة ﴿ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ أي جمع المسلمين وجمع المشركين ﴿ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وقضائه وقدره، لا مرد له ولا بد من وقوعه ﴿ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أن الأمر القدري إذا نفذ لم يبق إلا التسليم له، وأنه قدره لحكم عظيمة وفوائد جسيمة ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ لما أمروا بالقتال ذبا عن دين الله، وحماية له وطلبا لمرضاة الله ﴿ أَوِ ادْفَعُوا ﴾ عن محارمكم وبلدكم، فأبوا ذلك واعتذروا بأن ﴿ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ ﴾ أي لو نعلم أنه سيصير بينكم وبينهم قتال لاتبعناكم، وهم كذبة في هذا. قد علموا وتيقنوا وعلم كل أحد أن هؤلاء المشركين أقبلوا في جيش عظيم قاصدين المؤمنين في بلدهم. كما خرج المسلمون من المدينة وبرزوا لهم ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي في تلك الحال التي تركوا فيها الخروج مع المؤمنين ﴿ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ وهذه خاصة المنافقين، يظهرون بكلامهم وفعالهم ما يبطنون ضده في قلوبهم وسرائرهم. ويستدل بهذه الآية على قاعدة "ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما، وفعل أدنى المصلحتين، للعجز عن أعلاهما" لأن المنافقين أمروا أن يقاتلوا للدين، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن العيال والأوطان ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ فيبديه لعباده المؤمنين، ويعاقبهم عليه ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ أي جمعوا بين التخلف عن الجهاد، وبين الاعتراض

والتكذيب بقضاء الله وقدره، قال الله ردًّا عليهم ﴿ قُلْ فَادْرَءُوا ﴾ أي ادفعوا ﴿ عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ ﴾ إنهم لو أطاعوكم ما قتلوا، لا تقدرون على ذلك ولا تستطيعونه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

﴿ 169 - 171 ﴾ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي في جهاد أعداء الدين، قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله ﴿ أَمْوَاتًا ﴾ أي لا يخطر ببالك وحسبانك أنهم ماتوا ﴿ بَلْ ﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون، فهم ﴿ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ في دار كرامته. ولفظ عِنْدَ رَبِّهِمْ يقتضي علو درجتهم، وقربهم من ربهم ﴿ يُرْزَقُونَ ﴾ من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه إلا من أنعم به عليهم ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ مغتبطين بذلك ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ يبشر بعضهم بعضا، بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنهم سينالون ما نالوا ﴿ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ ﴾ أي يهنىء بعضهم بعضا، بأعظم مهنأ به، وهو نعمة ربهم وفضله وإحسانه ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بل ينميه ويشكره، ويزيده من فضله، ما لا يصل إليه سعيهم[39].

﴿ 172 - 175 ﴾ ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من "أحد" إلى المدينة، وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة، ندب أصحابه إلى الخروج، فخرجوا على ما بهم من الجراح استجابة لله ولرسوله، وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى "حمراء الأسد" ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ﴾ وجاءهم من جاءهم وقال لهم ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ وهموا باستئصالكم ﴿ فَاخْشَوْهُمْ ﴾ تخويفا لهم وترهيبا ﴿ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ﴾ فلم يزدهم ذلك إلا إيمانا بالله واتكالا عليه ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ أي كافينا كل ما أهمنا ﴿ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ المفوض إليه تدبير عباده، والقائم بمصالحهم ﴿ فَانْقَلَبُوا ﴾ رجعوا ﴿ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ وجاء الخبر للمشركين أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم، وندم

[39] وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضا، وتبشير بعضهم بعضا.

من تخلف منهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم، واستمروا راجعين إلى مكة ﴿ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ ورجع المؤمنون بنعمة من الله وفضل، حيث مَنَّ عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة والاتكال على ربهم، ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ أي إن ترهيب من رهب من المشركين، وقال: إنهم جمعوا لكم، داع من دعاة الشيطان، يخوف أولياءه الذين عدم إيمانهم، أو ضعف ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان، فإن نواصيهم بيد الله، لا يتصرفون إلا بقدره، بل خافوا الله الذي ينصر أولياءه الخائفين منه المستجيبين لدعوته.

﴿ 176 - 177 ﴾ ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصا على الخلق، وكان يحزن إذا لم يهتدوا ﴿ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ﴾ فالله ناصر دينه ومؤيد رسوله، فلا تحفل بهم، إنما يسعون في ضرر أنفسهم ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ﴾ بفوات الإيمان في الدنيا، وحصول العذاب الأليم في الأخرى ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ثم أخبر ﴿ إِنَّ ﴾ هؤلاء ﴿ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ﴾ بل ضرر فعلهم يعود على أنفسهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

﴿ 178 ﴾ ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ﴾ ولا يظن ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بربهم وحاربوا رسوله أننا تركناهم في هذه الدنيا ﴿ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ﴾ وأن عدم استئصالنا لهم، وإملاءنا لهم ﴿ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ﴾ ومحبة منا لهم. كلا ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ وإنما ذلك لشر يريده الله بهم، وزيادة عذاب وعقوبة إلى عذابهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ فالله تعالى يملي للظالم، حتى يزداد طغيانه، ويترادف كفرانه، حتى إذا أخذه أخذه أخذ عزيز مقتدر.

﴿ 179 ﴾ ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ ما كان في حكمة الله أن يترك المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط وعدم التميز ﴿ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ والمؤمن من المنافق ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ الذي يعلمه من عباده، فاقتضت حكمته الباهرة أن يبتلي عباده، ويفتنهم بما به يتميز الخبيث من الطيب، من أنواع الابتلاء والامتحان، فأرسل الله رسله ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ وأمر بطاعتهم ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ والانقياد لهم، والإيمان بهم ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ووعدهم على الإيمان والتقوى الأجر العظيم.

﴿ 180 ﴾ ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ﴾ ولا يظن ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ يمنعون ما عندهم ﴿ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ من المال والجاه والعلم، وغير ذلك مما منحهم الله فبخلوا بذلك وأمسكوه ﴿ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ وظنوا أنه خير لهم ﴿ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ﴾ في دينهم ودنياهم ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي يجعل ما بخلوا به طوقا في أعناقهم يعذبون[40] به ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ هو تعالى مالك الملك، وترد جميع الأملاك إلى مالكها ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فإذا كان خبيرا بأعمالكم جميعها لم يتخلف من في قلبه مثقال ذرة من إيمان عن الإنفاق.

﴿ 181 - 182 ﴾ ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ يخبر تعالى عن قول الذين قالوا أقبح المقالة، فأخبر أنه قد سمع ما قالوه ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ﴾ وأنه سيكتبه ويحفظه مع أفعالهم الشنيعة ﴿ وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ النافذ من البدن إلى الأفئدة ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ من المخازي والقبائح التي أوجبت استحقاقهم العذاب ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ وأن عذابهم ليس ظلما من الله لهم فإنه منزه عن ذلك[41].

﴿ 183 - 184 ﴾ ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾

﴿ الَّذِينَ قَالُوا ﴾ يخبر تعالى عن حال المفترين القائلين ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا ﴾ أي أوصى ﴿ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ﴾ فجمعوا بين الكذب على الله، وحصر آية الرسل بما قالوه من هذا الإفك المبين. ومع هذا فقد قالوا إفكا لم يلتزموه، وباطلا لم يعملوا به، ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم ﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ الدالات على صدقهم ﴿ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ ﴾ بأن أتاكم بقربان تأكله النار ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في دعوى الإيمان برسول يأتي بقربان تأكله النار، فقد تبين بهذا كذبهم، وعنادهم وتناقضهم. ثم سلَّى رسوله صلى

[40] كما ورد في الحديث الصحيح، "إن البخيل يمثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع، له زبيبتان، يأخذ بلهزمتيه يقول: أنا مالك، أنا كنزك" وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداق ذلك هذه الآية.

[41] وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في قوم من اليهود، تكلموا بذلك، وذكروا منهم "فنحاص بن عازوراء" من رؤساء علماء اليهود في المدينة، وأنه لما سمع قول الله تعالى: ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ﴾ ﴿ وأقرضوا الله قرضا حسنا ﴾ قال: -على وجه التكبر والتجرهم- هذه المقالة قبحه الله، فذكرها الله عنهم، وأخبر أنه ليس ببدع من شنائعهم، بل قد سبق لهم من الشنائع ما هو نظير ذلك، وهو: ﴿ قتلهم الأنبياء بغير حق ﴾ هذا القيد يراد به، أنهم تجرأوا على قتلهم مع علمهم بشناعته، لا جهلا وضلالا، بل تمردا وعنادا.

الله عليه وسلم ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ فهذه عادة الظالمين، ودأبهم الكفر بالله وتكذيب رسل الله رغم أنهم ﴿ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي الحجج والبراهين ﴿ وَالزُّبُرِ ﴾ أي الكتب المزبورة المنزلة من السماء، التي لا يمكن أن يأتي بها غير الرسل ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ للأحكام الشرعية، وللأخبار الصادقة.

﴿ 185 ﴾ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ هذه الآية الكريمة فيها التزهيد في الدنيا بفنائها وعدم بقائها ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ التي توفى فيها النفوس ما عملت في هذه الدار من خير وشر ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ ﴾ أي أخرج ﴿ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ أي حصل له الفوز العظيم من العذاب الأليم، والوصول إلى جنات النعيم. ومفهوم الآية، أن من لم يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فإنه لم يفز، بل قد شقي الشقاء الأبدي[42]﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ تفتن بزخرفها وتغر بمحاسنها، ثم هي منتقلة ومنتقل عنها إلى دار القرار.

﴿ 186 ﴾ ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ ﴾ يخبر تعالى ويخاطب المؤمنين أنهم سيبتلون في أموالهم من النفقات الواجبة والمستحبة، ومن التعريض لإتلافها في سبيل الله ﴿ وَ ﴾ في ﴿ أَنْفُسِكُمْ ﴾ من التكليف بأعباء التكاليف الثقيلة على كثير من الناس كالجهاد في سبيل الله، والتعرض فيه للتعب والقتل والأسر والجراح، وكالأمراض التي تصيبه في نفسه أو فيمن يحب ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾ من الطعن فيكم، وفي دينكم وكتابكم ورسولكم[43] ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا ﴾ على ما نالكم في أموالكم وأنفسكم من الابتلاء والامتحان وعلى أذية الظالمين ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ الله في ذلك الصبر بأن تنووا به وجه الله والتقرب إليه، ولم تتعدوا في صبركم الحد الشرعي من الصبر في موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال، بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله ﴿ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ أي من الأمور التي لا يوفق لها إلا أهل العزائم والهمم العالية.

---

[42] وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه، وأن العاملين يجزون فيه بعض الجزاء مما عملوه، ويقدم لهم أنموذج مما أسلفوه، يفهم هذا من قوله: وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أي توفية الأعمال التامة إنما يكون يوم القيامة، وأما ما دون ذلك فيكون في البرزخ. بل قد يكون قبل ذلك في الدنيا كقوله تعالى: {ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر}.

[43] وفي إخباره لعباده المؤمنين بذلك، عدة فوائد: منها: أن حكمته تعالى تقتضي ذلك، ليتميز المؤمن الصادق من غيره. وليعلي درجاتهم، ويكفر من سيئاتهم، وليزداد بذلك إيمانهم. وهو أخبرهم بذلك لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك، والصبر عليه إذا وقع؛ لأنهم قد استعدوا لوقوعه، فيهون عليهم حمله، وتخف عليهم مؤنته، ويلجأون إلى الصبر والتقوى.

﴿ 187 - 188 ﴾ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ * لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ ﴾ العهد الثقيل المؤكد، أخذه الله تعالى على ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ كل من أعطاه الله الكتب وعلمه العلم﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ ما يحتاجون إليه مما علمه الله ﴿ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ فإن كل من عنده علم يجب عليه أن يبينه، ويوضح الحق من الباطل. فأما الموفقون فقاموا بهذا أتم القيام وعلموا الناس مما علمهم الله. وأما الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ومن شابههم ﴿ فَنَبَذُوهُ ﴾ هذه العهود والمواثيق ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ فلم يعبأوا بها، فكتموا الحق وأظهروا الباطل، تجرؤا على محارم الله وتهاونا بحقوق الله وحقوق الخلق ﴿ وَاشْتَرَوْا بِهِ ﴾ بذلك الكتمان ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ وهو ما يحصل لهم إن حصل من بعض الرياسات والأموال الحقيرة من سفلتهم المتبعين أهواءهم ﴿ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ لأنه أخس العوض، فلم يختاروا الدنيء الخسيس ويتركوا العالي النفيس إلا لسوء حظهم وهوانهم ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا ﴾ من القبائح والباطل القولي والفعلي ﴿ وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ أي بالخير الذي لم يفعلوه، والحق الذي لم يقولوه، فجمعوا بين فعل الشر وقوله، والفرح بذلك ومحبة أن يحمدوا على فعل الخير الذي ما فعلوه ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ أي بمحل نجوة منه وسلامة، بل قد استحقوه، وسيصيرون إليه[44] ولهذا قال ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

﴿ 189 ﴾ ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ﴾ هو المالك ﴿ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وما فيهما، من سائر أصناف الخلق، المتصرف فيهم بكمال القدرة، وبديع الصنعة ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فلا يمتنع عليه منهم أحد ولا يعجزه أحد.

﴿ 190 - 194 ﴾ ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾

---

[44] ويدخل في هذه الآية الكريمة أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم من العلم، ولم ينقادوا للرسول، وزعموا أنهم هم المحقون في حالهم ومقالهم، وكذلك كل من ابتدع بدعة قولية أو فعلية، وفرح بها، ودعا إليها، وزعم أنه محق وغيره مبطل، كما هو الواقع من أهل البدع. ودلت الآية بمفهومها على أن من أحب أن يحمد ويثنى عليه بما فعله من الخير واتباع الحق، إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسمعة، أنه غير مذموم، بل هذا من الأمور المطلوبة، التي أخبر الله أنه يجزي بها المحسنين له الأعمال والأقوال، وأنه جازى بها خواص خلقه.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ وفي ضمن ذلك حث العباد على التفكر فيها والتبصر بآياتها وتدبر خلقها ﴿ لَآيَاتٍ[45] لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ خص الله بالآيات أولي الألباب، وهم أهل العقول لأنهم هم المنتفعون بها، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ ﴾ في جميع أحوالهم ﴿ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب، ويدخل في ذلك الصلاة قائما، فإن لم يستطع فقاعدا، فإن لم يستطع فعلى جنب ﴿ وَ ﴾ أنهم ﴿ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ليستدلوا بها على المقصود منها، ودل هذا على أن التفكر عبادة من صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا بها عرفوا أن الله لم يخلقها عبثا، فيقولون ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ ﴾ عن كل ما لا يليق بجلالك، بل خلقتها بالحق وللحق، مشتملة على الحق ﴿ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ بأن تعصمنا من السيئات، وتوفقنا للأعمال الصالحات، لننال بذلك النجاة من النار. ويتضمن ذلك سؤال الجنة، لأنهم إذا وقاهم الله عذاب النار حصلت لهم الجنة، ولكن لما قام الخوف بقلوبهم، دعوا الله بأهم الأمور عندهم ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ لحصوله على السخط من الله ومن ملائكته وأوليائه ووقوع الفضيحة التي لا نجاة منها ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ ينقذونهم من عذابه، وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم، يدعو الناس ﴿ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾ أي أجبناه مبادرة، وسارعنا إليه، وفي هذا إخبار منهم بمنة الله عليهم، وتبجح بنعمته، وتوسل إليه بذلك ﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ﴾ أن يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات، والذي من عليهم بالإيمان، سيمن عليهم بالأمان التام ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ يتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل الخير وترك الشر، والثبات إلى الممات ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ ولما ذكروا توفيق الله إياهم للإيمان، وتوسلهم به إلى تمام النعمة، سألوه الثواب على ذلك، وأن ينجز لهم ما وعدهم به على ألسنة رسله من النصر والظهور في الدنيا ومن الفوز برضوان الله وجنته في الآخرة، فإنه تعالى لا يخلف الميعاد.

﴿ 195 ﴾ ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أجاب الله دعاءهم، دعاء العبادة ودعاء الطلب ﴿ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ﴾ فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملا موفرا ﴿ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ أي كلكم على حد سواء في الثواب والعقاب ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا ﴾ فجمعوا بين الإيمان والهجرة، ومفارقة

[45] وأبهم قوله: لَآيَاتٍ ولم يقل: "على المطلب الفلاني" إشارة لكثرتها وعمومها. وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية. فأما تفصيل ما اشتملت عليه، فلا يمكن لمخلوق أن يحصره، ويحيط ببعضه. وفي الجملة فما فيها يدل على عظمة خالقها وعظمة سلطانه وشمول قدرته وعلى حكمة الله ووضعه الأشياء مواضعها وسعة علمه ورحمة الله وعموم فضله ووجوب شكره.

المحبوبات من الأوطان والأموال طلبا لمرضاة ربهم، وجاهدوا في سبيل الله ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ الذي يعطي عبده الثواب الجزيل على العمل القليل ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ فمن أراد ذلك، فليطلبه من الله بطاعته والتقرب إليه بما يقدر عليه العبد.

﴿ 196 - 198 ﴾ ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ وهذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا وتنعمهم فيها وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات وأنواع العز والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ ليس له ثبوت ولا بقاء ﴿ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ بل يتمتعون به قليلا، ويعذبون عليه طويلا ﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ﴾ المؤمنون به، فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونعيمها ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ فلو قدر أنهم في دار الدنيا، قد حصل لهم كل بؤس وشدة وعناء ومشقة لكان هذا بالنسبة إلى النعيم المقيم والبهجة نزرا يسيرا، ولهذا قال تعالى ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ وهم الذين برت قلوبهم، فبرت أقوالهم وأفعالهم، فأثابهم البر الرحيم من بره أجرا عظيما وفوزا دائما.

﴿ 199 - 200 ﴾ ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ طائفة موفقة للخير ﴿ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ وهذا الإيمان النافع لا كمن يؤمن ببعض الرسل والكتب، ويكفر ببعض. ولهذا - لما كان إيمانهم عاما حقيقيا - صار نافعا ﴿ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ فأحدث لهم خشية الله، وخضوعهم لجلاله الموجب للانقياد لأوامره ونواهيه ﴿ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فلا يقدمون الدنيا على الدين كما فعل أهل الانحراف الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمنا قليلا ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ فأثابهم الله على ذلك بأن وعدهم الأجر الجزيل ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ وأخبرهم بقربه وأنه سريع الحساب، فلا يستبطؤون ما وعدهم الله، لأن ما هو آت محقق حصوله، فهو قريب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ حض المؤمنين على ما يوصلهم إلى السعادة والنجاح ﴿ اصْبِرُوا ﴾ بحبس النفس على ما تكرهه من ترك المعاصي، ومن الصبر على المصائب وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس ﴿ وَصَابِرُوا ﴾ أي الملازمة والاستمرار على ذلك، ومقاومة الأعداء ﴿ وَرَابِطُوا ﴾ المرابطة هي لزوم المحل الذي يخاف من وصول العدو منه، وأن يراقبوا أعداءهم ويمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فعلم من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح

بدون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات، فلم يفلح من أفلح إلا بها، ولم يفت أحدا الفلاح إلا بالإخلال بها أو ببعضها.

والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا به

تم تفسير "سورة آل عمران"

والحمد لله على نعمته

ونسأله تمام النعمة

4

مختصر تفسير سورة النساء

عدد آياتها 176

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا ﴾ افتتح تعالى هذه السورة بالأمر بتقواه، فهو ﴿ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ليناسبها، فيسكن إليها. وفي هذا تنبيه على مراعاة حق الأزواج والزوجات والقيام به، لكون الزوجات مخلوقات من الأزواج، فبينهم وبينهن أقرب نسب وأشد اتصال ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ في أقطار الأرض مع رجوعهم إلى أصل واحد، ليعطف بعضهم على بعض ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ وكذلك من الموجب الداعي لتقواه تساؤلكم به وتعظيمكم، حتى إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم ومآربكم، توسلتم بها بالسؤال بالله. وقرن الأمر بتقواه بالأمر ببر الأرحام والنهي عن قطيعتها ليؤكد هذا الحق، وأنه كما يلزم القيام بحق الله، كذلك يجب القيام بحقوق الخلق، خصوصا الأقربين منهم، بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر به ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ وكذلك الإخبار بأنه رقيب، أي مطلع على العباد في جميع أحوالهم، مما يوجب مراقبته بلزوم تقواه[1].

﴿ 2 ﴾ ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾

﴿ وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ ﴾ هذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق في هذه السورة. وهم اليتامى الذين فقدوا آباءهم الكافلين لهم وهم صغار ضعاف لا يقومون بمصالحهم. فأمر الرءوف الرحيم عباده أن يحسنوا إليهم وأن لا يقربوا أموالهم إلا بالتي هي أحسن وأن يؤتوهم أموالهم إذا بلغوا ورشدوا كاملة ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ ﴾ الذي هو أكل مال اليتيم بغير حق ﴿ بِالطَّيِّبِ ﴾ وهو الحلال الذي ما فيه حرج ولا تبعة ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ﴾ أي مع

[1] وتأمل كيف افتتح هذه السورة بالأمر بالتقوى، وصلة الأرحام والأزواج عموما، ثم بعد ذلك فصل هذه الأمور أتم تفصيل، من أول السورة إلى آخرها. فكأنها مبنية على هذه الأمور المذكورة، مفصلة لما أجمل منها، موضحة لما أبهم.

أموالكم، ففيه تنبيه لقبح أكل مالهم بهذه الحالة، التي قد استغنى بها الإنسان بما جعل الله له من الرزق في ماله ﴿ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ إثمًا عظيمًا[2].

﴿ 3 - 4 ﴾ ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا * وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا ﴾ ألا تعدلوا ﴿ فِي الْيَتَامَى ﴾ من النساء اللاتي تحت حجوركم وولايتكم وخفتم أن لا تقوموا بحقهن لعدم محبتكم إياهن ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ فاعدلوا إلى غيرهن مما وقع عليهن اختياركم[3] ومن أحسن ما يختار من ذلك صفة الدين ﴿ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ أي من أحب أن يأخذ اثنتين فليفعل، أو ثلاثا فليفعل، أو أربعا فليفعل، ولا يزيد عليها، لأن الآية سيقت لبيان الامتنان، فلا يجوز الزيادة على غير ما سمى الله تعالى إجماعا[4] ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ ومع هذا فإنما يباح له ذلك إذا أمن على نفسه الجور والظلم، ووثق بالقيام بحقوقهن. فإن خاف شيئا من هذا فليقتصر على واحدة ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ فإنه لا يجب عليه القسم في ملك اليمين ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي الاقتصار على واحدة أو ما ملكت اليمين ﴿ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾ أي تظلموا[5] ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ ﴾ أي مهورهن ﴿ نِحْلَةً ﴾ عن طيب نفس، فلا تمطلوهن أو تبخسوا منه شيئا[6]﴿ فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ ﴾ أي من الصداق ﴿ نَفْسًا ﴾ بأن سمحن لكم عن رضا واختيار بإسقاط شيء منه، أو تأخيره أو المعاوضة عنه ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ أي لا حرج عليكم في ذلك ولا تبعة[7].

﴿ 5 ﴾ ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾ السفهاء جمع "سفيه" وهو من لا يحسن التصرف في المال، إما لعدم عقله كالمجنون والمعتوه، ونحوهما، وإما لعدم رشده كالصغير وغير الرشيد. فنهى الله الأولياء أن يؤتوا هؤلاء أموالهم خشية إفسادها وإتلافها﴿ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ لأن الله جعل الأموال قياما لعباده في مصالح دينهم ودنياهم، وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها وحفظها. فأمر الولي أن لا يؤتيهم إياها ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ﴾ بل يرزقهم

---

[2] ومن استبدال الخبيث بالطيب أن يأخذ الولي من مال اليتيم النفيس، ويجعل بدله من ماله الخسيس. وفيه الولاية على اليتيم، لأن مِنْ لازم إيتاء اليتيم ماله، ثبوت ولاية المؤتي على ماله. وفيه الأمر بإصلاح مال اليتيم، لأن تمام إيتائه ماله حفظه والقيام به بما يصلحه وينميه وعدم تعريضه للمخاوف والأخطار.

3 وفي هذه الآية - أنه ينبغي للإنسان أن يختار قبل النكاح، بل وقد أباح له الشارع النظر إلى مَنْ يريد تزوجها ليكون على بصيرة من أمره. وفي الآية أيضاً دليل على أن نكاح الخبيثة غير مأمور به، بل منهي عنه كالمشركة، وكالفاجرة.
4 وذلك لأن الرجل قد لا تندفع شهوته بالواحدة، فأبيح له واحدة بعد واحدة، حتى يبلغ أربعا، لأن في الأربع غنية لكل أحد، إلا ما ندر
5 وفي هذا أن تعرض العبد للأمر الذي يخاف منه الجور والظلم، وعدم القيام بالواجب -ولو كان مباحًا- أنه لا ينبغي له أن يتعرض، له بل يلزم السعة والعافية، فإن العافية خير ما أعطي العبد
6 وفيه: أن المهر يدفع إلى المرأة إذا كانت مكلفة، وأنـها تملكه بالعقد، لأنه أضافه إليها، والإضافة تقتضي التمليك.
7 وفيه دليل على أن للمرأة التصرف في مالها - ولو بالتبرع - إذا كانت رشيدة، فإن لم تكن كذلك فليس لعطيتها حكم، وأنه ليس لوليها من الصداق شيء، غير ما طابت به.

منها ويكسوهم، ويبذل منها ما يتعلق بضروراتهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية ﴿ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ بأن يعدوهم إذا طلبوها أنهم سيدفعونها لهم بعد رشدهم، ونحو ذلك، ويلطفوا لهم في الأقوال جبرًا لخواطرهم[8].

﴿ 6 ﴾ ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى ﴾ الابتلاء هو الاختبار والامتحان، وذلك بأن يدفع لليتيم المقارب للرشد، الممكن رشده، شيئا من ماله، ويتصرف فيه التصرف اللائق بحاله، فيتبين بذلك رشده من سفهه ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ﴾ وبقي على سفهه واستمر غير محسن للتصرف لم يدفع إليه ماله، ولو بلغ عمرا كثيرا ﴿ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا ﴾ فإن تبين رشده وصلاحه في ماله ﴿ فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ كاملة موفرة ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا ﴾ مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه الله لكم من أموالكم، إلى الحرام الذي حرمه الله عليكم من أموالهم ﴿ وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ﴾ أي ولا تأكلوها في حال صغرهم التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها، تبادرون بذلك أن يكبروا، فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها. وهذا من الأمور الواقعة من كثير من الأولياء، الذين ليس عندهم خوف من الله، ولا رحمة ومحبة للمولى عليهم، يرون هذه الحال حال فرصة فيغتنمونها ويتعجلون ما حرم الله عليهم، فنهى الله تعالى عن هذه الحالة بخصوصها ﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾.

﴿ 7 ﴾ ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ ﴾ أي قسط وحصة ﴿ مِمَّا تَرَكَ ﴾ أي خلّف ﴿ الْوَالِدَانِ ﴾ الأب والأم ﴿ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾ عموم بعد خصوص. وكان العرب في الجاهلية من جبروتهم لا يورثون الضعفاء كالنساء والصبيان، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء، فأراد الرب الرحيم الحكيم أن يشرع لعباده شرعًا يستوي فيه رجالهم ونساؤهم، وأقوياؤهم وضعفاؤهم. وقدم بين يدي ذلك أمرا مجملا لتتوطّن على ذلك النفوس ﴿ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ﴾ ولئلا يتوهم أحد أن النساء والولدان ليس لهم نصيب إلا من المال الكثير ﴿ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾ أي قد قدره العليم الحكيم. وسيأتي –إن شاء الله– تقدير ذلك. فتبارك الله أحسن الحاكمين.

---

[8] وفي إضافته تعالى الأموال إلى الأولياء، إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا في أموال السفهاء ما يفعلونه في أموالهم، من الحفظ والتصرف وعدم التعريض للأخطار. وفي الآية دليل على أن نفقة المجنون والصغير والسفيه في مالهم، إذا كان لهم مال، لقوله: وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وفيه دليل على أن قول الولي مقبول فيما يدعيه من النفقة الممكنة والكسوة؛ لأن الله جعله مؤتمنا على مالهم فلزم قبول قول الأمين.

﴿ 8 ﴾ ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ ﴾ أي قسمة المواريث ﴿ أُولُو الْقُرْبَى ﴾ أي الأقارب غير الوارثين، بقرينة قوله الْقِسْمَةَ لأن الوارثين من المقسوم عليهم ﴿ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ ﴾ المستحقون من الفقراء ﴿ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ﴾ أعطوهم ما تيسر من هذا المال، واجبروا خواطرهم بما لا يضركم وهو نافعهم. ويؤخذ من المعنى أن كل من له تطلع وتشوف إلى ما حضر بين يدي الإنسان ينبغي له أن يعطيه منه ما تيسر[9] فإن لم يمكن ذلك لكونه حق سفهاء ﴿ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ يردوهم ردًّا جميلا، بقول حسن غير فاحش ولا قبيح.

﴿ 9 - 10 ﴾ ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ﴾ إن هذا خطاب لمن يحضر مَنْ حضره الموت وأجنف في وصيته، يأمره بالعدل في وصيته والمساواة فيها. وأنهم يأمرون من يريد الوصية على أولاده بما يحبون معاملة أولادهم بعدهم. وقيل: إن المراد بذلك أولياء السفهاء من المجانين والصغار والضعاف أن يعاملوهم في مصالحهم الدينية والدنيوية بما يحبون أن يعامل به مَنْ بعدهم من ذريتهم الضعاف ﴿ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في ولايتهم لغيرهم ﴿ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ يعاملونهم بما فيه تقوى الله، من عدم إهانتهم والقيام عليهم وإلزامهم لتقوى الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا ﴾ زجرهم عن أكل أموال اليتامى، وتوعد على ذلك أشد العذاب، وهذا القيد يخرج به ما تقدم، من جواز الأكل للفقير بالمعروف، ومن جواز خلط طعامهم بطعام اليتامى. فمَنْ أكلها ظلمًا فـ ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ وهم الذين أدخلوها في بطونهم ﴿ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ أي نارًا محرقة متوقدة. وهذا أعظم وعيد ورد في الذنوب، يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقبحها، وأنها موجبة لدخول النار، فدل ذلك أنها من أكبر الكبائر. نسأل الله العافية.

﴿ 11 - 12 ﴾ ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ

---

[9] كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا جاء أحدَكم خادمُه بطعامه فليجلسه معه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله لقمة أو لقمتين" أو كما قال. وكان الصحابة رضي الله عنهم -إذا بدأت باكورة أشجارهم- أتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فبرَّك عليها، ونظر إلى أصغر وليد عنده فأعطاه ذلك، علما منه بشدة تشوفه لذلك، وهذا كله مع إمكان الإعطاء.

فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ فأولادكم[10] يا معشر الوالِدِين عندكم ودائع قد وصاكم الله عليهم[11]لتقوموا بمصالحهم الدينية والدنيوية ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾ بالنسبة للأولاد للصلب والأولاد للابن إن لم يكن معهم صاحب فرض، أو ما أبقت الفروض يقتسمونه كذلك. وقد أجمع العلماء على ذلك، وأنه – مع وجود أولاد الصلب – فالميراث لهم. وليس لأولاد الابن شيء، حيث كان أولاد الصلب ذكورًا وإناثا، هذا مع اجتماع الذكور والإناث. وهنا حالتان: انفراد الذكور، وسيأتي حكمها. وانفراد الإناث، وقد ذكره بقوله ﴿ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ ﴾ أي بنات صلب أو بنات ابن، ثلاثا فأكثر ﴿ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً ﴾ أي بنتا أو بنت ابن ﴿ فَلَهَا النِّصْفُ ﴾ وهذا إجماع. بقي أن يقال: من أين يستفاد أن للابنتين الثنتين الثلثين بعد الإجماع على ذلك؟ فالجواب أنه يستفاد من قوله: وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ فمفهوم ذلك أنه إن زادت على الواحدة، انتقل الفرض عن النصف، ولا ثَمَّ بعده إلا الثلثان. وأيضا فقوله: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ إذا خلَّف ابنًا وبنتًا، فإن الابن له الثلثان، وقد أخبر الله أنه مثل حظ الأنثيين، فدل ذلك على أن للبنتين الثلثين. وأيضًا فإن البنت إذا أخذت الثلث مع أخيها – وهو أزيد ضررًا عليها من أختها، فأخذها له مع أختها من باب أولى وأحرى. وأيضا فإن قوله تعالى في الأختين: فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ نص في الأختين الثنتين. فإذا كان الأختان الثنتان – مع بُعدهما – يأخذان الثلثين فالابنتان –مع قربهما– من باب أولى وأحرى. وقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم ابنتي سعد الثلثين كما في الصحيح. بقي أن يقال: فما الفائدة في قوله: فَوْقَ اثْنَتَيْنِ؟ قيل: الفائدة في ذلك –والله أعلم– أنه ليعلم أن الفرض الذي هو الثلثان لا يزيد بزيادتهن على الثنتين بل من الثنتين فصاعدًا. ودلت الآية الكريمة أنه إذا وجد بنت صلب واحدة، وبنت ابن أو بنات ابن، فإن لبنت الصلب النصف، ويبقى من الثلثين اللذين فرضهما الله للبنات أو بنات الابن السدس، فيعطى بنت الابن، أو بنات الابن، ولهذا يسمى هذا السدس تكملة الثلثين. ومثل ذلك بنت الابن، مع بنات الابن اللاتي أنزل منها. وتدل الآية أنه متى استغرق البنات أو بنات الابن الثلثين، أنه يسقط مَنْ دونهن مِنْ بنات الابن لأن الله لم يفرض لهن إلا الثلثين، وقد تم. فلو لم يسقطن لزم من ذلك أن يفرض لهن أزيَد من الثلثين، وهو خلاف النص. وكل هذه الأحكام مجمع عليها بين العلماء ولله الحمد. ودل قوله: مِمَّا تَرَكَ أن الوارثين يرثون كل ما خلف الميت من عقار وأثاث وذهب وفضة وغير ذلك، حتى الدية التي لم تجب إلا بعد موته، وحتى الديون التي في الذمم. ثم ذكر ميراث الأبوين فقال: ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ ﴾ أي أبوه وأمه ﴿ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ أي ولد صلب أو ولد ابن

[10] هذه الآيات والآية في آخر السورة هن آيات عن المواريث. فإنها مع حديث عبد الله بن عباس الثابت في صحيح البخاري "ألحِقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر" - مشتملات على جل أحكام الفرائض، بل على جميعها كما سترى ذلك، إلا ميراث الجدات فإنه غير مذكور في ذلك. لكنه قد ثبت في السنن عن المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى الجدة السدس، مع إجماع العلماء على ذلك.

[11] وهذا مما يدل على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالدين، حيث أوصى الوالدين مع كمال شفقتهم عليهم.

ذكرًا كان أو أنثى، واحدًا أو متعددًا. فأما الأُم فلا تزيد على السدس مع أحد من الأولاد. وأما الأب فمع الذكور منهم، لا يستحق أزيد من السدس، فإن كان الولد أنثى أو إناثا ولم يبق بعد الفرض شيء – كأبوين وابنتين – لم يبق له تعصيب. وإن بقي بعد فرض البنت أو البنات شيء أخذ الأب السدس فرضًا، والباقي تعصيبًا، لأننا ألحقنا الفروض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر، وهو أولى من الأخ والعم وغيرهما. ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ﴾ أي والباقي للأب لأنه أضاف المال إلى الأب والأُم إضافة واحدة، ثم قدّر نصيب الأُم، فدل ذلك على أن الباقي للأب. وعلم من ذلك أن الأب مع عدم الأولاد لا فرض له، بل يرث تعصيبا المال كله، أو ما أبقت الفروض، لكن لو وجد مع الأبوين أحد الزوجين – ويعبر عنهما بالعمريتين – فإن الزوج أو الزوجة يأخذ فرضه، ثم تأخذ الأُم ثلث الباقي والأب الباقي. وقد دل على ذلك قوله: وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ أي ثلث ما ورثه الأبوان. وهو في هاتين الصورتين إما سدس في زوج وأم وأب، وإما ربع في زوجة وأم وأب. فلم تدل الآية على إرث الأُم ثلثَ المال كاملا مع عدم الأولاد حتى يقال: إن هاتين الصورتين قد استثنيتا من هذا. ويوضح ذلك أن الذي يأخذه الزوج أو الزوجة بمنزلة ما يأخذه الغرماء، فيكون من رأس المال، والباقي بين الأبوين. ولأنا لو أعطينا الأُم ثلث المال، لزم زيادتها على الأب في مسألة الزوج، أو أخذ الأب في مسألة الزوجة زيادة عنها نصفَ السدس، وهذا لا نظير له، فإن المعهود مساواتها للأب، أو أخذه ضعفَ ما تأخذه الأم. ﴿ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ﴾ أشقاء، أو لأب، أو لأم، ذكورًا كانوا أو إناثًا، وارثين أو محجوبين بالأب أو الجد. لكن قد يقال: ليس ظاهرُ قوله: فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ شاملا لغير الوارثين بدليل عدم تناولها للمحجوب بالنصف، فعلى هذا لا يحجبها عن الثلث من الإخوة إلا الإخوة الوارثون. ويؤيده أن الحكمة في حجبهم لها عن الثلث لأجل أن يتوفر لهم شيء من المال، وهو معدوم، والله أعلم. ولكن بشرط كونهم اثنين فأكثر، ويشكل على ذلك إتيان لفظ "الإخوة" بلفظ الجمع. وأجيب عن ذلك بأن المقصود مجرد التعدد، لا الجمع، ويصدق ذلك باثنين. وقد يطلق الجمع ويراد به الاثنان، كما في قوله تعالى عن داود وسليمان ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ وقال في الإخوة للأُم: وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ فأطلق لفظ الجمع والمراد به اثنان فأكثر بالإجماع. فعلى هذا لو خلف أمًّا وأبًا وإخوة، كان للأُم السدس، والباقي للأب فحجبوها عن الثلث، مع حجب الأب إياهم إلا على الاحتمال الآخر فإن للأم الثلث والباقي للأب. ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ أي هذه الفروض والأنصباء والمواريث إنما ترد وتستحق بعد نزع الديون التي على الميت لله أو للآدميين، وبعد الوصايا التي قد أوصى الميت بها بعد موته، فالباقي عن ذلك هو التركة الذي يستحقه الورثة. وقدم الوصية مع أنها مؤخرة عن الدين للاهتمام بشأنها، لكون إخراجها شاقًّا على الورثة، وإلا فالديون مقدمة عليها، وتكون من رأس المال. وأما الوصية فإنها تصح من الثلث فأقل للأجنبي الذي هو غير وارث. وأما غير ذلك فلا ينفذ إلا بإجازة الورثة، قال تعالى: ﴿ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ فلو ردَّ تقدير الإرث إلى عقولكم واختياركم لحصل من الضرر ما الله به عليم، لنقص العقول وعدم معرفتها بما هو اللائق الأحسن، في كل زمان ومكان. فلا يدرون أيُّ الأولادِ أو الوالِدين أنفع لهم، وأقرب

لحصول مقاصدهم الدينية والدنيوية ﴿ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أي فرضها الله الذي قد أحاط بكل شيء علمًا، وأحكم ما شرعه وقدَّر ما قدَّره على أحسن تقدير لا تستطيع العقول أن تقترح مثل أحكامه الصالحة الموافقة لكل زمان ومكان وحال. ﴿ وَلَكُمْ ﴾ أيها الأزواج ﴿ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُنْ لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ ويدخل في مسمى الولد المشروط وجوده أو عدمه، ولد الصلب أو ولد الابن الذكر والأُنثى، الواحد والمتعدد، الذي من الزوج أو من غيره، ويخرج عنه ولد البنات إجماعًا ﴿ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً ﴾ أي ليس للميت والد ولا ولد، أي لا أب ولا جد ولا ابن ولا ابن ابن ولا بنت ولا بنت ابن وإن نزلوا. وهذه هي الكلالة كما فسرها بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد حصل على ذلك الاتفاق ولله الحمد ﴿ أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ﴾ أي من أم، كما هي في بعض القراءات. وأجمع العلماء على أن المراد بالإخوة هنا الإخوة للأُم ﴿ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ﴾ أي من الأخ والأخت ﴿ السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ﴾ أي من واحد ﴿ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ﴾ أي لا يزيدون على الثلث ولو زادوا عن اثنين. ودل قوله: فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ أن ذَكَرهم وأنثاهم سواء، لأن لفظ "التشريك" يقتضي التسوية. ودل لفظ الْكَلَالَةِ على أن الفروع وإن نزلوا، والأصولَ الذكور وإن علوا، يُسقطون أولاد الأُم، لأن الله لم يورثهم إلا في الكلالة، فلو لم يكن يورث كلالة، لم يرثوا منه شيئًا اتفاقًا. ودل قوله: فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ أن الإخوة الأشقاء يَسقُطون في المسألة المسماة بالحمارية، وهى: زوج، وأم، وإخوة لأم، وإخوة أشقاء. للزوج النصف، وللأم السدس، وللأخوة لأم الثلث، ويسقط الأشقاء، لأن الله أضاف الثلث للإخوة من الأُم، فلو شاركهم الأشقاء لكان جمعا لما فرَّق الله حكمه. وأيضا فإن الإخوة للأم أصحاب فروض، والأشقاء عصبات. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: – "ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر" – وأهل الفروض هم الذين قدَّر الله أنصباءهم، ففي هذه المسألة لا يبقى بعدهم شيء، فيَسْقُط الأشقاء، وهذا هو الصواب في ذلك. وأما ميراث الإخوة والأخوات الأشقاء أو لأب، فمذكور في قوله: يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ، الآية. فالأخت الواحدة شقيقة أو لأب لها النصف، والثنتان لهما الثلثان، والشقيقة الواحدة مع الأخت للأب أو الأخوات تأخذ النصف، والباقي من الثلثين للأخت أو الأخوات لأب وهو السدس تكملة الثلثين. وإذ استغرقت الشقيقات الثلثين سقط الأخوات للأب كما تقدم في البنات وبنات الابن. وإن كان الإخوة رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين. فإن قيل: فهل يستفاد حكم ميراث القاتل، والرقيق، والمخالف في الدين، والمبعض، والخنثى، والجد مع الإخوة لغير أم، والعول، والرد، وذوي الأرحام، وبقية العصبة، والأخوات لغير أم مع البنات أو بنات الابن من القرآن أم لا؟ قيل: نعم، فيه تنبيهات وإشارات دقيقة يعسر فهمها على غير المتأمل تدل على جميع المذكورات. فأما (القاتل والمخالف في الدين) فيعرف أنهما غير وارثين من بيان الحكمة الإلهية في توزيع المال على الورثة بحسب قربهم ونفعهم الديني والدنيوي. وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة بقوله: لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا وقد عُلم أن القاتل قد سعى لمورثه بأعظم الضرر، فلا ينتهض ما فيه من موجب الإرث أن يقاوم ضرر القتل الذي هو ضد النفع الذي رتب عليه الإرث. فعُلم من ذلك أن

القتل أكبر مانع يمنع الميراث، ويقطع الرحم الذي قال الله فيه: وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مع أنه قد استقرت القاعدة الشرعية أن "من استعجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه". وبهذا ونحوه يعرف أن المخالف لدين الموروث لا إرث له، وذلك أنه قد تعارض الموجب الذي هو اتصال النسب الموجب للإرث، والمانعُ الذي هو المخالفة في الدين الموجبة للمباينة من كل وجه، فقوي المانع ومنع موجب الإرث الذي هو النسب، فلم يعمل الموجب لقيام المانع. يوضح ذلك أن الله تعالى قد جعل حقوق المسلمين أولى من حقوق الأقارب الكفار الدنيوية، فإذا مات المسلم انتقل ماله إلى من هو أولى وأحق به. فيكون قوله تعالى: وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إذا اتفقت أديانهم، وأما مع تباينهم فالأخوة الدينية مقدمة على الأخوة النسبية المجردة. ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ أي هذه الفروض والأنصباء والمواريث إنما ترد وتستحق بعد نزع الديون التي على الميت وبعد الوصايا التي قد أوصى الميت بها بعد موته، ذلك كما تقدم.

قال ابن القيم في "جلاء الأفهام": وتأمل هذا المعنى في آية المواريث، وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ الزوجة دون المرأة، كما في قوله تعالى: وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إيذانا بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضية للتشاكل والتناسب، والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما ولا تناسب، فلا يقع بينهما التوارث. وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين [انتهى].

وأما (الرقيق) فإنه لا يرث ولا يورث، أما كونه لا يورث فواضح، لأنه ليس له مال يورث عنه، بل كل ما معه فهو لسيده. وأما كونه لا يرث فلأنه لا يملك، فإنه لو ملك لكان لسيده، وهو أجنبي من الميت فيكون مثل قوله تعالى: ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾ ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ ﴾ ﴿ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ ﴾ ونحوها لمن يتأتى منه التملك، وأما الرقيق فلا يتأتى منه ذلك، فعلم أنه لا ميراث له. وأما مَنْ بعضه حر وبعضه رقيق فإنه تتبعض أحكامه. فما فيه من الحرية يستحق بها ما رتبه الله في المواريث، لكون ما فيه من الحرية قابلا للتملك، وما فيه من الرق فليس بقابل لذلك، فإذا يكون المبعض، يرث ويورث، ويحجب بقدر ما فيه من الحرية. وإذا كان العبد يكون محمودا مذموما، مثابا ومعاقبا، بقدر ما فيه من موجبات ذلك، فهذا كذلك. وأما (الخنثى) فلا يخلو إما أن يكون واضحا ذكوريته أو أنوثيته، أو مشكلا. فإن كان واضحا فالأمر فيه واضح: إن كان ذكرا فله حكم الذكور، ويشمله النص الوارد فيهم. وإن كان أنثى فله حكم الإناث، ويشملها النص الوارد فيهن. وإن كان مشكلا، فإن كان الذكر والأنثى لا يختلف إرثهما -كالإخوة للأم- فالأمر فيه واضح، وإن كان يختلف إرثه بتقدير ذكوريته وبتقدير أنوثيته، ولم يبق لنا طريق إلى العلم بذلك، لم نعطه أكثر التقديرين، لاحتمال ظلم من معه من الورثة، ولم نعطه الأقل، لاحتمال ظلمنا له. فوجب التوسط بين الأمرين، وسلوكُ أعدل الطريقين، قال تعالى: اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وليس لنا طريق إلى العدل في مثل هذا أكثر من هذا الطريق المذكور. وَلَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا - فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ. وأما ميراث الجد مع الإخوة الأشقاء أو لأب، وهل يرثون معه أم لا؟ فقد دل كتاب الله على قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه،

وأن الجد يحجب الإخوة أشقاء أو لأب أو لأم، كما يحجبهم الأب. وبيان ذلك: أن الجد أب في غير موضع من القرآن كقوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ الآية. وقال يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، فسمى الله الجد وجد الأب أبا، فدل ذلك على أن الجد بمنزلة الأب، يرث ما يرثه الأب، ويحجب من يحجبه. وإذا كان العلماء قد أجمعوا على أن الجد حكمه حكم الأب عند عدمه في ميراثه مع الأولاد وغيرهم من بني الإخوة والأعمام وبنيهم، وسائر أحكام المواريث، فينبغي أيضا أن يكون حكمُه حكمَه في حجب الإخوة لغير أم. وإذا كان ابن الابن بمنزلة ابن الصلب فلم لا يكون الجد بمنزلة الأب؟ وإذا كان جد الأب مع ابن الأخ قد اتفق العلماء على أنه يحجبه. فلم لا يحجب جد الميت أخاه؟ فليس مع مَنْ يورّث الإخوةَ مع الجد، نص ولا إشارة ولا تنبيه ولا قياس صحيح. وأما مسائل (العول) فإنه يستفاد حكمها من القرآن، وذلك أن الله تعالى قد فرض وقدر لأهل المواريث أنصباء، وهم بين حالتين: إما أن يحجب بعضهم بعضًا أو لا. فإن حجب بعضهم بعضا، فالمحجوب ساقط لا يزاحِم ولا يستحق شيئا، وإن لم يحجب بعضهم بعضا فلا يخلو، إما أن لا تستغرق الفروض التركة، أو تستغرقها من غير زيادة ولا نقص، أو تزيد الفروض على التركة، ففي الحالتين الأوليين كل يأخذ فرضه كاملا. وفي الحالة الأخيرة وهي ما إذا زادت الفروض على التركة فلا يخلو من حالين: 1) - إما أن ننقص بعضَ الورثة عن فرضه الذي فرضه الله له، ونكمل للباقين منهم فروضهم، وهذا ترجيح بغير مرجح، وليس نقصان أحدهم بأولى من الآخر، فتعينت الحال الثانية، وهي: 2) - أننا نعطي كل واحد منهم نصيبه بقدر الإمكان، ونحاصص بينهم كديون الغرماء الزائدة على مال الغريم، ولا طريق موصل إلى ذلك إلا بالعول، فعلم من هذا أن العول في الفرائض قد بينه الله في كتابه. وبعكس هذه الطريقة بعينها يعلم الرد فإن أهل الفروض إذا لم تستغرق فروضُهم التركةَ وبقي شيء ليس له مستحق من عاصب قريب ولا بعيد، فإن رده على أحدهم ترجيح بغير مرجح، وإعطاؤه غيرَهم ممن ليس بقريب للميت جنف وميل، ومعارضة لقوله: وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ فتعين أن يُرَدَّ على أهل الفروض بقدر فروضهم. ولما كان الزوجان ليسا من القرابة، لم يستحقا زيادة على فرضهم المقدر [هذا عند من لا يورِّث الزوجين بالرد، وهم جمهور القائلين بالرد، فعلى هذا تكون علة الرد كونه صاحب فرض قريبا، وعلى القول الآخر، أن الزوجين كغيرهما من ذوي الفروض يُرَدُّ عليهما؛ فكما ينقصان بالعول فإنهما يزادان بالرد كغيرهما، فالعلة على هذا كونه وارثا صاحب فرض، فهذا هو الظاهر من دلالة الكتاب والسنة، والقياس الصحيح، والله أعلم].

وبهذا يعلم أيضا ميراث ذوي الأرحام فإن الميت إذا لم يخلف صاحب فرض ولا عاصبا، وبقي الأمر دائرا بين كون ماله يكون لبيت المال لمنافع الأجانب، وبين كون ماله يرجع إلى أقاربه المدلين بالورثة المجمع عليهم، ويدل على ذلك قوله تعالى: وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ فصرفه لغيرهم ترك لمن هو أولى من غيره، فتعين

توريث ذوي الأرحام. وإذا تعين توريثهم، فقد علم أنه ليس لهم نصيب مقدر بأعيانهم في كتاب الله. وأن بينهم وبين الميت وسائط، صاروا بسببها من الأقارب. فينزلون منزلة من أدلوا به من تلك الوسائط. والله أعلم.

وأما ميراث بقية العصبة كالبنوة والأخوة وبنيهم، والأعمام وبنيهم إلخ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولي رجل ذكر" وقال تعالى: وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ فإذا ألحقنا الفروض بأهلها ولم يبق شيء، لم يستحق العاصب شيئًا، وإن بقي شيء أخذه أولي العصبة، وبحسب جهاتهم ودرجاتهم. فإن جهات العصوبة خمس: البنوة، ثم الأبوة، ثم الأخوة وبنوهم، ثم العمومة وبنوهم، ثم الولاء، فيقدم منهم الأقرب جهة. فإن كانوا في جهة واحدة فالأقرب منزلة، فإن كانوا في منزلة واحدة فالأقوى، وهو الشقيق، فإن تساووا من كل وجه اشتركوا. والله أعلم. وأما كون الأخوات لغير أم مع البنات أو بنات الابن عصبات، يأخذن ما فضل عن فروضهن، فلأنه ليس في القرآن ما يدل على أن الأخوات يسقطن بالبنات. فإذا كان الأمر كذلك، وبقي شيء بعد أخذ البنات فرضهن، فإنه يعطى للأخوات ولا يعدل عنهن إلى عصبة أبعد منهن، كابن الأخ والعم، ومن هو أبعد منهم. والله أعلم.

﴿ 13 - 14 ﴾ ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾

﴿ تِلْكَ ﴾ التفاصيل التي ذكرها في المواريث ﴿ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ التي يجب الوقوف معها وعدم مجاوزتها، ولا القصور عنها، وفي ذلك دليل على أن الوصية للوارث منسوخة بتقديره تعالى أنصباء الوارثين. ثم قوله تعالى تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فالوصية للوارث بزيادة على حقه يدخل في هذا التعدي، مع قوله صلى الله عليه وسلم: "لا وصية لوارث" ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ بامتثال أمرهما الذي أعظمه طاعتهما في التوحيد، ثم الأوامر على اختلاف درجاتها واجتناب نهيهما الذي أعظمه الشرك بالله، ثم المعاصي على اختلاف طبقاتها ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ فمن أدى الأوامر واجتنب النواهي فلا بد له من دخول الجنة والنجاة من النار ﴿ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذي حصل به النجاة من سخطه وعذابه والفوز بثوابه ورضوانه ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ ويدخل في اسم المعصية الكفر فما دونه من المعاصي، فلا يكون فيها شبهة للخوارج القائلين بكفر أهل المعاصي فإن الله تعالى رتب دخول الجنة على طاعته وطاعة رسوله. ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله، فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب. ومن عصى الله ورسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك فما دونه، دخل النار وخلد فيها، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية. وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد، غير مخلدين في النار، فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها.

﴿ 15 – 16 ﴾ ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا * وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾

﴿ وَاللَّاتِي ﴾ النساء اللاتي ﴿ يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ ﴾ أي الزنا ووصفها بالفاحشة لشناعتها وقبحها ﴿ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ﴾ أي من رجالكم المؤمنين العدول ﴿ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ ﴾ أي احبسوهن عن الخروج الموجب للريبة ﴿ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ ﴾ أي هذا منتهى الحبس ﴿ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ أي طريقا غير الحبس في البيوت. وهذه الآية ليست منسوخة وإنما هي مغياة إلى ذلك الوقت. فكان الأمر في أول الإسلام كذلك حتى جعل الله لهن سبيلا، وهو رجم المحصن وجلد غير المحصن ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا ﴾ أي الفاحشة ﴿ مِنْكُمْ ﴾ من الرجال والنساء ﴿ فَآذُوهُمَا ﴾ بالقول والتوبيخ والتعيير والضرب الرادع عن هذه الفاحشة، فعلى هذا يكون الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذون، والنساء يحبسن ويؤذين. فالحبس غايته إلى الموت، والأذية نهايتها إلى التوبة والإصلاح، ولهذا قال ﴿ فَإِنْ تَابَا ﴾ أي رجعا عن الذنب الذي فعلاه وندما عليه، وعزما على أن لا يعودا ﴿ وَأَصْلَحَا ﴾ العمل الدال على صدق التوبة ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ﴾ أي عن أذاهما ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا ﴾ كثير التوبة على المذنبين الخطائين ﴿ رَحِيمًا ﴾ عظيم الرحمة والإحسان، وفّقهم للتوبة وقبلها منهم، وسامحهم عن ما صدر منهم. ويؤخذ من هاتين الآيتين أن بينة الزنا، لا بد أن تكون أربعة رجال مؤمنين، ومن باب أولى وأحرى اشتراط عدالتهم؛ لأن الله تعالى شدد في أمر هذه الفاحشة سترًا لعباده، حتى إنه لا يقبل فيها النساء منفردات، ولا مع الرجال، ولا ما دون أربعة. ولا بد من التصريح بالشهادة، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة، وتومئ إليه هذه الآية لما قال: فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ لم يكتف بذلك حتى قال: فَإِنْ شَهِدُوا أي: لا بد من شهادة صريحة عن أمر يشاهد عيانًا، من غير تعريض ولا كناية. ويؤخذ منهما أن الأذية بالقول والفعل والحبس، قد شرعه الله تعزيرًا لجنس المعصية الذي يحصل به الزجر.

﴿ 17 – 18 ﴾ ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ ﴾ توبة الله على عباده نوعان: توفيق منه للتوبة، ثمّ قبولها من التائبين ﴿ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ أي جهالة منه بعاقبتها وإيجابها لسخط الله وعقابه. وجهل منه بنظر الله ومراقبته له. وجهل منه بما تئول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه. فكل عاص لله، فهو جاهل بهذا الاعتبار وإن كان عالما بالتحريم. بل العلم بالتحريم شرط لكونها معصية معاقبا عليها ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ يحتمل أن يكون المعنى: ثم يتوبون قبل معاينة الموت، فإن الله يقبل توبة العبد إذا تاب قبل معاينة الموت والعذاب قطعا. ويحتمل أن يكون المعنى: أن

من بادر إلى الإقلاع من حين صدور الذنب وأناب إلى الله وندم عليه فإن الله يتوب عليه ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ وأما بعد حضور الموت فلا يُقبل من العاصين توبة ولا من الكفار رجوع ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي المعاصي فيما دون الكفر ﴿ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وذلك أن التوبة في هذه الحال توبة اضطرار لا تنفع صاحبها، إنما تنفع توبة الاختيار.

﴿ 19 - 21 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا * وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ﴾ كانوا في الجاهلية إذا مات أحدهم عن زوجته، رأى قريبُه كأخيه وابن عمه ونحوهما أنه أحق بزوجته من كل أحد، وحماها عن غيره، أحبت أو كرهت. فإن أحبها تزوجها على صداق يحبه دونها، وإن لم يرضها عضلها فلا يزوجها إلا من يختاره هو، وربما امتنع من تزويجها حتى تبذل له شيئًا من ميراث قريبه أو من صداقها، وكان الرجل أيضا يعضل زوجته التي يكرهها ليذهب ببعض ما آتاها، فنهى الله المؤمنين عن جميع هذه الأحوال إلا حالتين: إذا رضيت واختارت نكاح قريب زوجها الأول ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ كالزنا والكلام الفاحش وأذيتها لزوجها فإنه في هذه الحال يجوز له أن يعضلها، عقوبة لها على فعلها لتفتدي منه إذا كان عضلا بالعدل ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية، من الصحبة الجميلة، وكف الأذى وبذل الإحسان، وحسن المعاملة، والنفقة والكسوة ونحوهما، فيجب على الزوج لزوجته المعروف من مثله لمثلها في ذلك الزمان والمكان، وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ أي ينبغي لكم -أيها الأزواج- أن تمسكوا زوجاتكم مع الكراهة لهن، فإن في ذلك خيرًا كثيرًا. من ذلك امتثال أمر الله، وقبولُ وصيته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة. ومنها أن إجباره نفسَه -مع عدم محبته لها- فيه مجاهدة النفس، والتخلق بالأخلاق الجميلة. وربما أن الكراهة تزول وتخلفها المحبة، كما هو الواقع في ذلك. وربما رزق منها ولدا صالحا نفع والديه في الدنيا والآخرة. وهذا كله مع الإمكان في الإمساك وعدم المحذور. فإن كان لا بد من الفراق، وليس للإمساك محل، فليس الإمساك بلازم. ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ ﴾ أي تطليقَ زوجة وتزوجَ أخرى، فلا جناح عليكم في ذلك ولا حرج. ﴿ وَ ﴾ لكن إذا ﴿ آتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ ﴾ أي المفارقة أو التي تزوجها ﴿ قِنْطَارًا ﴾ مالا كثيرا[12] ﴿ فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾ بل وفروه لهن ولا تمطلوا بهن ﴿ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ فإن هذا لا يحل ولو تحيلتم عليه بأنواع الحيل، فإن

[12]وفي هذه الآية دلالة على عدم تحريم كثرة المهر، مع أن الأفضل واللائق الاقتداءُ بالنبي صلى الله عليه وسلم في تخفيف المهر. ووجه الدلالة أن الله أخبر عن أمر يقع منهم، ولم ينكره عليهم، فدل على عدم تحريمه. لكن قد ينهي عن كثرة الصداق إذا تضمن مفسدة دينية وعدم مصلحة.

إثمه واضح. وقد بين تعالى حكمة ذلك بقوله ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ دخل بها وأفضى إليها وباشرها المباشرة التي كانت حراما قبل ذلك ﴿ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ وكذلك أخذ الله على الأزواج ميثاقا غليظا بالعقد، والقيام بحقوقها.

﴿ 22 ﴾ ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ لا تتزوجوا من النساء ما تزوجهن آباؤكم أي الأب وإن علا ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ أي أمرا قبيحا يفحش ويعظم قبحه ﴿ وَمَقْتًا ﴾ من الله لكم ومن الخلق بل يمقت بسبب ذلك الابن أباه والأب ابنه، مع الأمر ببره ﴿ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ أي بئس الطريق طريقا لمن سلكه لأن هذا من عوائد الجاهلية، التي جاء الإسلام بالتنزه عنها والبراءة منها.

﴿ 23 ﴾ ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ هذه الآيات الكريمات مشتملات على المحرمات بالنسب، والمحرمات بالرضاع، والمحرمات بالصهر، والمحرمات بالجمع، وعلى المحللات من النساء. فأما المحرمات في النسب فهن السبع اللاتي ذكرهن الله: الأم يدخل فيها كل من لها عليك ولادة، وإن بعدت. ويدخل في البنت كل من لك عليها ولادة. والأخوات الشقيقات، أو لأب أو لأم. والعمّة كلّ أخت لأبيك أو لجدك وإن علا. والخالة كلّ أخت لأمك، أو جدتك وإن علت وارثة أم لا. وبنات الأخ وبنات الأخت وإن نزلت. فهؤلاء هن المحرمات من النسب بإجماع العلماء كما هو نص الآية الكريمة وما عداهن فيدخل في قوله: وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ وذلك كبنت العمة والعم وبنت الخال والخالة. وأما المحرمات بالرضاع فقد ذكر الله منهن الأم والأخت. وفي ذلك تحريم الأم مع أن اللبن ليس لها، إنما هو لصاحب اللبن، دل بتنبيهه على أن صاحب اللبن يكون أبا للمرتضع فإذا ثبتت الأبوة والأمومة ثبت ما هو فرع عنهما كإخوتهما وأصولهم وفروعهم. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب" فينتشر التحريم من جهة المرضعة ومن له اللبن كما ينتشر في الأقارب، وفي الطفل المرتضع إلى ذريته فقط. لكن بشرط أن يكون الرضاع خمس رضعات في الحولين كما بينت السنة. ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ وأما المحرمات بالصهر فهن أربع. حلائل الآباء وإن علوا. وحلائل الأبناء وإن نزلوا. وارثين أو محجوبين. وأمهات الزوجة وإن

علون، فهؤلاء الثلاث يحرمن بمجرد العقد. والرابعة: الربيبة وهي بنت زوجته وإن نزلت. فهذه لا تحرم حتى يدخل بزوجته كما قال هنا وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ الآية. وقد قال الجمهور: إن قوله: اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ قيد خرج مخرج الغالب لا مفهوم له، فإن الربيبة تحرم ولو لم تكن في حجره ولكن للتقييد بذلك فائدتان: 1) فيه التنبيه على الحكمة في تحريم الربيبة وأنها كانت بمنزلة البنت فمن المستقبح إباحتها. 2)- فيه دلالة على جواز الخلوة بالربيبة وأنها بمنزلة من هي في حجره من بناته ونحوهن، والله أعلم ﴿ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ وأما المحرمات بالجمع فقد ذكر الله الجمع بين الأختين وحرمه وحرم النبي صلى الله عليه وسلم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، فكل امرأتين بينهما رحم محرم لو قدر إحداهما ذكرًا والأخرى أنثى حرمت عليه فإنه يحرم الجمع بينهما، وذلك لما في ذلك من أسباب التقاطع بين الأرحام.

الجزء الخامس 5

﴿ 24 ﴾ ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

﴿ وَ ﴾ من المحرمات في النكاح ﴿ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ أي ذوات الأزواج. فإنه يحرم نكاحهن ما دمن في ذمة الزوج حتى تطلق وتنقضي عدتها ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أي بالسبي، فإذا سبيت الكافرة ذات الزوج حلت للمسلمين بعد أن تستبرأ. وأما إذا بيعت الأمة المزوجة أو وهبت فإنه لا ينفسخ نكاحها لأن المالك الثاني نزل منزلة الأول ولقصة بريرة حين خيرها النبي صلى الله عليه وسلم ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ الزموه واهتدوا به فإن فيه الشفاء والنور وفيه تفصيل الحلال من الحرام ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ ﴾ كلُّ ما لم يذكر في هذه الآية فإنه حلال طيب. فالحرام محصور والحلال ليس له حد ولا حصر لطفًا من الله ورحمة وتيسيرًا للعباد ﴿ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ ﴾ أي تطلبوا من وقع عليه نظركم واختياركم من اللاتي أباحهن الله لكم حالة كونكم ﴿ مُحْصِنِينَ ﴾ أي مستعفين عن الزنا، ومعفين نساءكم ﴿ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ والسفح سفح الماء في الحلال والحرام، فإن الفاعل لذلك لا يحصن زوجته لكونه وضع شهوته في الحرام فتضعف داعيته للحلال فلا يبقى محصنا لزوجته. وفيها دلالة على أنه لا يزوج غير العفيف لقوله تعالى: الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ ﴾ أي ممن تزوجتموها ﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي الأجور في مقابلة الاستمتاع. ولهذا إذا دخل الزوج بزوجته تقرر عليه صداقها ﴿ فَرِيضَةً ﴾ أي إتيانكم إياهن أجورهن فرض فرضه الله عليكم، ليس بمنزلة التبرع الذي إن شاء أمضاه وإن شاء رده. أو معنى قوله فريضة أي مقدرة قد قدرتموها فوجبت عليكم، فلا تنقصوا منها شيئًا ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا

تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ﴾ أي بزيادة من الزوج أو إسقاط من الزوجة عن رضا وطيب نفس[13] ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾ كامل العلم واسعه ﴿ حَكِيمًا ﴾ كامل الحكمة، فمن علمه وحكمته شرع لكم هذه الشرائع وحد لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام.

﴿ 25 ﴾ ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أي ومن لم يستطع الطول الذي هو المهر لنكاح المحصنات أي الحرائر المؤمنات وخاف على نفسه العَنَت أي الزنا والمشقة الكثيرة ﴿ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ فيجوز له نكاح الإماء المملوكات المؤمنات ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ وهذا بحسب ما يظهر، وإلا فالله أعلم بالمؤمن الصادق من غيره، فأمور الدنيا مبنية على ظواهر الأمور وأحكام الآخرة مبنية على ما في البواطن ﴿ فَانْكِحُوهُنَّ ﴾ أي المملوكات ﴿ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ أي سيدهن واحدا أو متعددا ﴿ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي ولو كن إماء، فإنه كما يجب المهر للحرة فكذلك يجب للأمة. ولكن لا يجوز نكاح الإماء إلا إذا كن ﴿ مُحْصَنَاتٍ ﴾ أي عفيفات عن الزنا ﴿ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ ﴾ أي زانيات علانية ﴿ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ أي أخلاء في السر. فالحاصل أنه لا يجوز للحر المسلم نكاح أمة إلا بأربعة شروط ذكرها الله: 1)- الإيمان بهن 1) - والعفة ظاهرا وباطنا، 3)- وعدم استطاعة طول الحرة، 4) - وخوف العنت، فإذا تمت هذه الشروط جاز له نكاحهن ﴿ فَإِذَا أُحْصِنَّ ﴾ أي تزوجن أو أسلمن ﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ ﴾ أي الحرائر ﴿ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ وهو الجَلد فيكون عليهن خمسون جَلدة. وأما الرجم فليس على الإماء رجم لأنه لا يتنصف، فعلى القول الأول إذا لم يتزوجن فليس عليهن حد، إنما عليهن تعزير يردعهن عن فعل الفاحشة. وعلى القول الثاني: إن الإماء غير المسلمات، إذا فعلن فاحشة أيضا عزرن ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ ومع هذا فالصبر عن نكاحهن أفضل لما فيه من تعريض الأولاد للرق، ولما فيه من الدناءة والعيب. وهذا إذا أمكن الصبر، فإن لم يمكن الصبر عن المحرم إلا بنكاحهن وجب ذلك. وختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لكون هذه الأحكام رحمةً بالعباد وكرمًا وإحسانًا إليهم فلم يضيق عليهم، بل وسع غاية السعة. ولعل في ذكر المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أن الحدود كفارات، يغفر الله بها ذنوب عباده كما ورد بذلك الحديث. وحكم العبد الذكر في الحد المذكور حكم الأمة لعدم الفارق بينهما.

[13] هذا قول كثير من المفسرين، وقال كثير منهم: إنها نزلت في متعة النساء التي كانت حلالا في أول الإسلام ثم حرمها النبي صلى الله عليه وسلم وأنه يؤمر بتوقيتها وأجرها، ثم إذا انقضى الأمد الذي بينهما فتراضيا بعد الفريضة فلا حرج عليهما، والله أعلم.

﴿ 26 – 28 ﴾ ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ جميع ما تحتاجون إلى بيانه من الحق والباطل والحلال والحرام ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ ووضح لكم وبين بيانا كما بين لمن قبلكم من النبيين وأتباعهم وهداكم هداية عظيمة في العلم والعمل ﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ إذا أذنبوا فتح لهم أبواب الرحمة وأوزع قلوبهم الإنابة إليه، ثم يتوب عليهم بقبول ما وفقهم له ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ فمن علمه أن علمكم ما لم تكونوا تعلمون، ومنها هذه الأشياء والحدود ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أي كامل الحكمة، يتوب على من اقتضت حكمته ورحمته التوبة عليه، ويخذل من لا يصلح للتوبة ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي توبة تلم شعثكم ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ ﴾ أي يميلون معها حيث مالت ويقدمونها على ما فيه رضا محبوبهم، من أصناف الكفرة والعاصين، فهؤلاء يريدون ﴿ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ فتنحرفوا عن الصراط المستقيم إلى صراط المغضوب عليهم والضالين ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ﴾ أي بسهولة ما أمركم به وما نهاكم عنه، ثم مع حصول المشقة في بعض الشرائع أباح لكم ما تقتضيه حاجتكم ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ وذلك لرحمته التامة وعلمه وحكمته بضعف الإنسان من جميع الوجوه، ضعف البنية والإرادة والعزيمة والإيمان والصبر.

﴿ 29 – 30 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ وهذا يشمل أكلها بالغصوب والسرقات وبالقمار والمكاسب الرديئة. بل لعله يدخل في ذلك أكل مال نفسك على وجه البطر والإسراف، لأن هذا من الباطل وليس من الحق ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ ثم أباح لهم أكلها بالتجارات والمكاسب الخالية من الموانع، المشتملة على الشروط من التراضي وغيره ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضًا، ولا يقتل الإنسان نفسه. ويدخل في ذلك الإلقاءُ بالنفس إلى التهلكة، وفعلُ الأخطار المفضية إلى التلف والهلاك ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ ومن رحمته أن صان نفوسكم وأموالكم، ونهاكم عن إضاعتها وإتلافها، ورتب على ذلك ما رتبه من الحدود[14] ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ أي أكل الأموال بالباطل وقتل النفوس ﴿ عُدْوَانًا وَظُلْمًا ﴾ أي لا جهلا ونسيانا ﴿ فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ﴾ عظيمة كما يفيده التنكير ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾.

---

[14] وتأمل هذا الإيجاز والجمع في قوله: لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ - وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ كيف شمل أموال غيرك ومال نفسك وقتل نفسك وقتل غيرك بعبارة أخصر من قوله: "لا يأكل بعضكم مال بعض" و "لا يقتل بعضكم بعضًا" مع قصور هذه العبارة على مال الغير ونفس الغير فقط. مع أن إضافة الأموال والأنفس إلى عموم المؤمنين فيه دلالة على أن المؤمنين في توادهم وتراحمهم ومصالحهم كالجسد الواحد، حيث كان الإيمان يجمعهم على مصالحهم الدينية والدنيوية. ولما نهى عن أكل الأموال بالباطل أباح لهم ما فيه مصلحتهم من أنواع المكاسب والتجارات، وشرط التراضي - مع كونها تجارة - لدلالة أنه يشترط أن يكون العقد غير عقد ربا لأن الربا ليس من التجارة، بل مخالف لمقصودها، وأنه لا بد أن يرضى كل من المتعاقدين ويأتي به اختيارًا. ومن تمام الرضا أن يكون المعقود عليه معلوما، لأنه إذا لم يكن كذلك لا يتصور الرضا مقدورًا على تسليمه، لأن غير المقدور عليه شبيه ببيع القمار، فبيع الغرر بجميع أنواعه خال من الرضا فلا ينفذ عقده. وفيها أنه تنعقد العقود بما دل عليها من قول أو فعل، لأن الله شرط الرضا فبأي طريق حصل الرضا انعقد به العقد.

﴿ 31 ﴾ ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴾

﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ الكبيرة هي ما فيه حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، أو نفي إيمان، أو ترتيب لعنة، أو غضب عليه. ويدخل في اجتناب الكبائر فعل الفرائض التي يكون تاركها مرتكبا كبيرة. وقد وعد الله عباده المؤمنين أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات ﴿ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ غفر لهم جميع الذنوب والسيئات وأدخلهم مدخلا كريما كثير الخير وهو الجنة.

﴿ 32 ﴾ ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ينهى تعالى المؤمنين عن أن يتمنى بعضهم ما فضل الله به غيره من الأمور الممكنة وغير الممكنة. أي تمني نعمة الله على غيرك أن تكون لك ويسلب إياها، ففي هذا سخط على قدر الله وإخلاد إلى الكسل والأماني الباطلة ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ فلا تتمنى النساء خصائص الرجال التي بها فضلهم على النساء، ولا صاحب الفقر والنقص حالة الغنى والكمال تمنيا مجردا لأن هذا هو الحسد بعينه. وإنما المحمود أمران: أن يسعى العبد على حسب قدرته بما ينفعه من مصالحه الدينية والدنيوية ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي من جميع مصالحكم في الدين والدنيا، فهذا كمال العبد وعنوان سعادته ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ فيعطي من يعلمه أهلا لذلك، ويمنع من يعلمه غير مستحق.

﴿ 33 ﴾ ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾

﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ من الناس ﴿ جَعَلْنَا مَوَالِيَ ﴾ يتولونه ويتولاهم بالتعزز والنصرة والمعاونة على الأمور ﴿ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾ هؤلاء الموالي من القرابة وهذا يشمل سائر الأقارب من الأصول والفروع والحواشي ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي والذين حالفتموهم بما عقدتم معهم من عقد المحالفة على النصرة والمساعدة والاشتراك بالأموال وغير ذلك. وكل هذا من نعم الله على عباده، حيث كان الموالي يتعاونون بما لا يقدر عليه بعضهم مفردا ﴿ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ أي آتوا الموالي نصيبهم الذي يجب القيام به من النصرة والمعاونة والمساعدة على غير معصية الله، والميراث للأقارب الأدنين من الموالي ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ مطلعا على كل شيء بعلمه لجميع الأمور، وبصره لحركات عباده، وسمعه لجميع أصواتهم.

﴿ 34 ﴾ ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ بإلزامهن بحقوق الله تعالى، من المحافظة على فرائضه وكفهن عن المفاسد، وبالإنفاق عليهن والكسوة والمسكن، هذا ﴿ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أي بسبب فضل الرجال على النساء في كثير من الوجوه ﴿ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ وحذف المفعول ليدل على عموم النفقة. فعلم من هذا كله أن الرجل كالوالي، ووظيفته أن يقوم بما استرعاه الله به ووظيفتها القيام بطاعة ربها وطاعة زوجها ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ ﴾ مطيعات لله تعالى ﴿ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ مطيعات لأزواجهن حتى في الغيب تحفظ بعلها بنفسها وماله ﴿ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾ بأن تعصيه بالقول أو الفعل فإنه يؤدبها بالأسهل فالأسهل ﴿ فَعِظُوهُنَّ ﴾ ببيان حكم الله في طاعة الزوج ومعصيته والترغيب في الطاعة والترهيب من معصيته، فإن انتهت فذلك المطلوب ﴿ وَ ﴾ إلا ﴿ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ﴾ فيهجرها الزوج بأن لا يضاجعها ولا يجامعها بمقدار ما يحصل به المقصود ﴿ وَاضْرِبُوهُنَّ ﴾ وإلا ضربها ضربًا غير مبرح ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ ﴾ فإن حصل المقصود بواحد من هذه الأمور وأطعنكم ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ فقد حصل لكم ما تحبون فاتركوا معاتبتها على الأمور الماضية، والتنقيب عن العيوب التي يضر ذكرها ويحدث بسببه الشر ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا ﴾ له العلو المطلق علو الذات وعلو القدر وعلو القهر الكبير الذي لا أكبر منه ﴿ كَبِيرًا ﴾ كبير الذات والصفات.

﴿ 35 ﴾ ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾ بين الزوجين والمباعدة والمجانبة حتى يكون كل منهما في شق ﴿ فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ﴾ أي رجلين مكلفين مسلمين عدلين عاقلين يعرفان ما بين الزوجين[15] ويعرفان الجمع والتفريق. فإن لم يستطع أحد الزوجين ذلك، قّنعا الزوج الآخر بالرضا. فإن وصلت الحال إلى أن التفريق بينهما أصلح فرقا بينهما. ولا يشترط رضا الزوج، فالحكم يحكم ولو لم يرض المحكوم عليه ﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ أي بسبب الرأي الميمون والكلام الذي يجذب القلوب ويؤلف بين القرينين ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ عالمًا بجميع الظواهر والبواطن، مطلعا على خفايا الأمور وأسرارها. فمن علمه وخبره أن شرع لكم هذه الأحكام والشرائع.

﴿ 36 - 38 ﴾ ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا * الَّذِينَ

---

15 وهذا مستفاد من لفظ "الحكم" لأنه لا يصلح حكما إلا من اتصف بتلك الصفات. فينظران ما ينقم كل منهما على صاحبه، ثم يلزمان كلا منهما ما يجب.

يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ بالدخول تحت رق عبوديته والانقياد لأوامره ونواهيه، محبة وذلا وإخلاصا له، في جميع العبادات الظاهرة والباطنة ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ لا ملكا ولا نبيا ولا وليا ولا غيرهم من المخلوقين. بل لابد من إخلاص العبادة لمن له الكمال المطلق وله التدبير الكامل الذي لا يعينه عليه أحد ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ بطاعة أمرهما واجتناب نهيهما والإنفاق عليهما وإكرام من له تعلق بهما[16] ﴿ وَبِذِي الْقُرْبَى ﴾ أيضا إحسانا، ويشمل ذلك جميع الأقارب قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ الذين فقدوا آباءهم وهم صغار، فلهم حق على المسلمين، سواء كانوا أقارب أو غيرهم بكفالتهم وبرهم وجبر خواطرهم وتربيتهم ﴿ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ وهم الذين أسكنتهم الحاجة والفقر فلم يحصلوا على كفايتهم ولا كفاية من يمونون. فأمر الله تعالى بالإحسان إليهم والحض على ذلك ﴿ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ الجار القريب، له حقان حق الجوار وحق القرابة ﴿ وَالْجَارِ الْجُنُبِ ﴾ الذي ليس له قرابة، وكلما كان الجار أقرب بابًا كان آكد حقًّا، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة والدعوة واللطافة بالأقوال والأفعال وعدم أذيته بقول أو فعل ﴿ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ﴾ قيل الرفيق في السفر، وقيل الزوجة، وقيل الصاحب مطلقا، ولعله أولى. فإنه يشمل الصاحب في الحضر والسفر ويشمل الزوجة. فعلى الصاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه، من مساعدته على أمور دينه ودنياه، وأن يحب له ما يحب لنفسه ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ الغريب الذي احتاج في بلد الغربة أو لم يحتج، فله حق على المسلمين لشدة حاجته وكونه في غير وطنه بتبليغه إلى مقصوده أو بعض مقصوده ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ من الآدميين والبهائم بالقيام بكفايتهم وعدم تحميلهم ما يشق عليهم وإعانتهم على ما يتحملون، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم. فمن قام بهذه المأمورات فهو الخاضع لربه، المتواضع لعباد الله، المنقاد لأمر الله وشرعه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا ﴾ ومن لم يقم بذلك فإنه متكبر على عباد الله معجب بنفسه ﴿ فَخُورًا ﴾ يثني على نفسه ويمدحها على وجه الفخر والبطر على عباد الله. ولهذا ذمهم بقوله ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ أي يمنعون ما عليهم من الحقوق الواجبة ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ بأقوالهم وأفعالهم ﴿ وَيَكْتُمُونَ ﴾ العلم الذي يهتدي به الضالون ﴿ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ فجمعوا بين البخل بالمال والبخل بالعلم، وبين السعي في خسارة أنفسهم وخسارة غيرهم، وهذه هي صفات الكافرين ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ أهانهم بالعذاب الأليم والخزي الدائم كما تكبروا على عباد الله ومنعوا حقوقه وتسببوا في منع غيرهم من البخل وعدم الاهتداء، فعياذًا بك اللهم من كل سوء ﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ﴾ ثم أخبر عن النفقة الصادرة عن رياء وسمعة وعدم إيمان به ﴿ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ أي ليروهم ويمدحوهم ويعظموهم ﴿ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي ليس إنفاقهم صادرا عن إخلاص وإيمان

[16] وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا بهما. وللإحسان ضدان، الإساءةُ وعدمُ الإحسان. وكلاهما منهي عنه.

بالله ورجاء ثوابه. فهذا من خطوات الشيطان وأعماله صدرت منهم بسبب مقارنته لهم وأزهم إليها ﴿ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ أي بئس المقارن والصاحب الذي يريد إهلاك من قارنه ويسعى فيه أشد السعي.

﴿ 39 ﴾ ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي شيء عليهم وأي حرج ومشقة تلحقهم لو حصل منهم الإيمان بالله الذي هو الإخلاص ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ﴾ من أموالهم التي رزقهم الله وأنعم بها عليهم فجمعوا بين الإخلاص والإنفاق ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ ولما كان الإخلاص سرًّا بين العبد وبين ربه، لا يطلع عليه إلا الله أخبر تعالى بعلمه بجميع الأحوال.

﴿ 40 – 42 ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا * فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ من حسنات عبده أو يزيدها في سيئاته ﴿ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ﴾ إلى عشرة أمثالها، إلى أكثر من ذلك، بحسب حالها ونفعها وحال صاحبها، إخلاصا ومحبة وكمالا ﴿ وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ زيادة على ثواب العمل بنفسه من التوفيق لأعمال أخر، وإعطاء البر الكثير والخير الغزير ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ كيف تكون تلك الأحوال، وكيف يكون ذلك الحكم الذي حكم به كاملُ العلم والعدل والحكمة، بشهادة أزكى الخلق وهم الرسل على أممهم مع إقرار المحكوم عليه؟ فهذا والله الحكم الذي هو أعم الأحكام وأعدلها وأعظمها ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ ﴾ أي جمعوا بين الكفر ومعصيةِ الرسول ﴿ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ ﴾ فتبتلعهم ويكونون ترابا وعدما ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ بل يقرون له بما عملوا، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون[17].

﴿ 43 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يقربوا الصلاة وهم سكارى ﴿ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ وهذا شامل لقربان المسجد ولنفس الصلاة، فإنه لا يجوز للسكران صلاة ولا عبادة. لاختلاط

[17] فأما ما ورد من أن الكفار يكتمون كفرهم وجحودهم، فإن ذلك يكون في بعض مواضع القيامة، حين يظنون أن جحودهم ينفعهم من عذاب الله، فإذا عرفوا الحقائق وشهدت عليهم جوارحهم حينئذ ينجلي الأمر، ولا يبقى للكتمان موضع، ولا نفع.

عقله وعدم علمه بما يقول[18] ﴿ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ ﴾ لا تقربوا الصلاة حالة كون أحدكم جنبا ويحل للجنب المرور في المسجد فقط ولا يمكث فيه ﴿ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ﴾ أي فإذا اغتسلتم فهو غاية المنع من قربان الصلاة للجنب ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى ﴾ فأباح التيمم للمريض مطلقًا مع وجود الماء وعدمه. والعلة المرض الذي يشق معه استعمال الماء ﴿ أَوْ عَلَى سَفَرٍ ﴾ فإذا فقد المسافر الماء أو وجد ما يتعلق بحاجته من شرب ونحوه، جاز له التيمم ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ﴾ إذا أحدث الإنسان ببول أو غائط ﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ فإنه يباح له التيمم حضرًا وسفرًا إذا لم يجد الماء[19] ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً[20] فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا[21] فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ الوجه جميعه واليدان إلى الكوعين، ويستحب أن يكون ذلك بضربة واحدة. وتيمم الجنب كتيمم غيره، بالوجه واليدين. وفي الآية وجوب تعميم مسح الوجه واليدين، وأنه يجوز التيمم ولو لم يضق الوقت، وأنه لا يخاطب بطلب الماء إلا بعد وجود سبب الوجوب والله أعلم ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين، بتيسير ما أمرهم به، وتسهيله غاية التسهيل.

﴿ 44 - 46 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا * مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ ﴾ هذا ذم لمن أُوتوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ وفي ضمنه تحذير عباده عن الاغترار بهم، فأخبر أنهم ﴿ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ ﴾ أي يحبونها محبة عظيمة ويؤثرونها إيثار من يبذل المال الكثير في طلب ما يحبه ﴿ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ لأنهم حريصون على إضلالكم غاية الحرص ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ. وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا ﴾ يتولى أحوال عباده ويلطف بهم في جميع أمورهم ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ ينصرهم على أعدائهم ويبين لهم ما يحذرون منهم ويعينهم عليهم ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ أي اليهود وهم علماء الضلال منهم ﴿

18 وهذه الآية الكريمة منسوخة بتحريم الخمر مطلقا. أي أنّه تعالى نهاهم عن الخمر عند حضور الصلاة ثم حرمه على الإطلاق في جميع الأوقات في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ الآية. ومع هذا فإنه يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة. ويؤخذ من المعنى منع الدخول في الصلاة في حال النعاس المفرط، الذي لا يشعر صاحبه بما يقول ويفعل. بل لعل فيه إشارة إلى أنه ينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره، كمدافعة الأخبثين والتوق لطعام ونحوه كما ورد في ذلك الحديث الصحيح.

19 واختلف المفسرون في معنى قوله: أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ هل المراد بذلك: الجماع فتكون الآية نصا في جواز التيمم للجنب، كما تكاثرت بذلك الأحاديث الصحيحة؟ أو المراد بذلك مجرد اللمس باليد، ويقيد ذلك بما إذا كان مظنة خروج المذي، وهو المس الذي يكون لشهوة فتكون الآية دالة على نقض الوضوء بذلك؟

20 واستدل الفقهاء بقوله: فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً بوجوب طلب الماء عند دخول الوقت، لأنه لا يقال: "لم يجد" لمن لم يطلب، بل لا يكون ذلك إلا بعد الطلب.

واستدل بذلك أيضا على أن الماء المتغير بشيء من الطاهرات يجوز بل يتعين التطهر به لدخوله في قوله: فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً وهذا ماء. ونوزع في ذلك أنه ماء غير مطلق وفي ذلك نظر.

21 وهو كل ما تصاعد على وجه الأرض سواء كان له غبار أم لا، ويحتمل أن يختص ذلك بذي الغبار لأن الله قال: فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ وما لا غبار له لا يمسح به

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ إما بتغيير اللفظ أو المعنى، أو بهما جميعا.[22] وأما حالهم في العمل والانقياد فإنهم ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ أي سمعنا قولك وعصينا أمرك، وهذا غاية الكفر والعناد. وكذلك يخاطبون الرسول صلى الله عليه وسلم بأقبح خطاب وأبعده عن الأدب ﴿ وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ قصدهم اسمع منا غير مسمع ما تحب، بل مسمع ما تكره ﴿ وَرَاعِنَا ﴾ قصدهم بذلك الرعونة، بالعيب القبيح. ويظنون أن اللفظ – لما كان محتملا لغير ما أرادوا من الأمور– أنه يروج على الله وعلى رسوله. فتوصلوا بذلك اللفظِ الذي يلوون به ألسنتهم إلى الطعن في الدين والعيب للرسول، ويصرحون بذلك فيما بينهم، فلهذا قال ﴿ لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ﴾ ثم أرشدهم إلى ما هو خير لهم من ذلك فقال ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾ وذلك لما تضمنه هذا الكلام من حسن الخطاب والأدب اللائق في مخاطبة الرسول، وحسن التلطف في طلبهم العلم بسماع سؤالهم، والاعتناء بأمرهم. ولكن لما كانت طبائعهم غير زكية، أعرضوا عن ذلك وطردهم الله بكفرهم وعنادهم ﴿ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

﴿ 47 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ يأمر تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾ من القرآن العظيم المهيمن على غيره من الكتب السابقة التي قد صدقها، فإنهم إن لم يؤمنوا بهذا القرآن فإنهم لم يؤمنوا بما في أيديهم من الكتب، لأن كتب الله يصدق بعضها بعضا ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا ﴾ جوزوا من جنس ذلك بطمس وجوههم كما طمسوا الحق، وردها على أدبارها، بأن تجعل في أقفائهم وهذا أشنع ما يكون ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ﴾ بأن يطردهم من رحمته ويعاقبهم بجعلهم قردة، كما فعل بإخوانهم الذين اعتدوا في السبت ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾.

﴿ 48 ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ أحدا من المخلوقين ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾ ما دون الشرك من الذنوب صغائرها وكبائرها ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ وذلك عند مشيئته مغفرة ذلك، إذا اقتضت حكمتُه مغفرتَه. فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لمغفرتها أسبابا كثيرة[23] وهذا بخلاف الشرك فإن المشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ أي افترى جرما كبيرا، حتم على صاحبه الخلود بالعذاب.

---

[22] فمن تحريفهم تنزيل الصفات التي ذكرت في كتبهم التي لا تنطبق ولا تصدق إلا على محمد صلى الله عليه وسلم على أنه غير مراد بها، ولا مقصود بها بل أريد بها غيره، وكتمانهم ذلك. فهذا حالهم في العلم أشر حال.

[23] كالحسنات الماحية والمصائب المكفرة في الدنيا، والبرزخ ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وبشفاعة الشافعين. ومن فوق ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد.

﴿ 49 – 50 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ من اليهود والنصارى، ومن نحا نحوهم من كل من زكى نفسه بأمر ليس فيه ﴿ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾ بالإيمان والعمل الصالح والتخلي عن الأخلاق الرذيلة ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ وهذا لتحقيق العموم أي لا يظلمون شيئا ولا مقدار الفتيل الذي في شق النواة أو الذي يفتل من وسخ اليد وغيرها ﴿ انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ لأن مضمون تزكيتهم لأنفسهم الإخبار بأن الله جعل ما هم عليه حقا وما عليه المؤمنون المسلمون باطلا. ولهذا قال ﴿ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴾ أي ظاهرا بينا موجبا للعقوبة والعذاب الأليم.

﴿ 51 – 57 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا * أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ ﴾ وهذا من قبائح اليهود وحسدهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، أن أخلاقهم الرذيلة وطبعهم الخبيث، حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله. فدخل في ذلك السحر والكهانة، وعباده غير الله، وطاعة الشيطان ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ تملقا لهم ومداهنة وبغضا للإيمان ﴿ هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ أي طريقا. وصاحب هذا القول إما من أجهل الناس وأضعفهم عقلا، وإما من أعظمهم عنادا وتمردا ومراغمة للحق ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أي طردهم عن رحمته وأحل عليهم نقمته ﴿ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾ يتولاه ويحفظه عن المكاره ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ ﴾ فيفضِّلون من شاءوا على من شاءوا بمجرد أهوائهم، فيكونون شركاء لله في تدبير المملكة، فلو كانوا كذلك لشحوا وبخلوا أشد البخل ﴿ فَإِذًا ﴾ أي لو كان لهم نصيب من الملك ﴿ لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ أي شيئًا ولا قليلا ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي هل الحامل لهم على قولهم كونهم شركاءَ لله فيفضلون من شاءوا؟ أم الحامل لهم على ذلك الحسدُ للرسول وللمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ وذلك ما أنعم الله به على إبراهيم وذريته من النبوة والكتاب والملك. فكيف ينكرون إنعامه بالنبوة والنصر والملك لمحمد صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق وأعظمهم معرفة بالله وأخشاهم له ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ ﴾ أي بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ ﴾ عنادًا وبغيًا وحسدًا ﴿ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ تسعر على من كفر بالله، وجحد نبوة أنبيائه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا

﴿ سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ﴾ شديدة الحرارة ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ ﴾ احترقت ﴿ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ كما تكرر منهم الكفر والعناد كرر عليهم العذاب جزاء وِفاقا ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا ﴾ له العزة العظيمة ﴿ حَكِيمًا ﴾ والحكمة في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله وما أوجب الإيمانَ به ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ من الواجبات والمستحبات ﴿ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ من الأخلاق الرذيلة، والخلْق الذميم، ومما يكون من نساء الدنيا من كل دنس وعيب ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾.

﴿ 58 - 59 ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ ﴾ الأمانات كل ما ائتمن عليه الإنسان وأمر بالقيام به. فأمر الله عباده بأدائها كاملة لا منقوصة ولا ممطولا بها، ويدخل في ذلك أمانات الولايات والأموال والأسرار؛ والمأمورات التي لا يطلع عليها إلا الله. ﴿ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ دلالة على أنها لا تدفع وتؤدى لغير المؤتمِن، ووكيلُه بمنزلته؛ فلو دفعها لغير ربها لم يكن مؤديا لها ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبر والفاجر، والولي والعدو. والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به هو ما شرعه الله على لسان رسوله من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به ﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيه، لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما، لأن شارعها السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية، ويعلم بمصالح العباد ما لا يعلمون ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ وذلك بامتثال أمرهما الواجب والمستحب واجتناب نهيهما ﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ وهم الولاة على الناس، من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم، ولكن بشرط ألا يأمروا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[24] ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ أمر برد كل ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه إلى كتاب الله وسنة رسوله، لأن عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت، كما ذكر في الآية بعدها ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي الرد إلى الله ورسوله ﴿ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ فإن حكم الله ورسوله أحسن الأحكام وأعدلها وأصلحها للناس في أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم.

[24] ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم وذكره مع طاعة الرسول، فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية.

﴿ 60 – 63 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يعجب تعالى عباده من حالة المنافقين ﴿ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ بما جاء به الرسول ﴿ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ وبما قبله، ومع هذا ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾ وكل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت ﴿ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ وهذا من إضلال الشيطان إياهم ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ عن الحق ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ لهؤلاء المنافقين ﴿ تَعَالَوْا ﴾ أقبلوا ﴿ إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ﴾ على حكم الله وحكم رسوله ﴿ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ رأيتهم لسوء نواياهم ﴿ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ يعرضون عنك – يا محمد – إعراضا شديدا[25] ﴿ فَكَيْفَ ﴾ يكون حال هؤلاء الضالين ﴿ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من المعاصي ومنها تحكيم الطاغوت ﴿ ثُمَّ جَاءُوكَ ﴾ معتذرين لما صدر منهم و﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ أي ما قصدنا في ذلك إلا الإحسان إلى المتخاصمين والتوفيق بينهم، وهم كَذَبة في ذلك. فإن الإحسان كل الإحسان تحكيم الله ورسوله ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ من النفاق والقصد السيئ ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ولا تبال بهم ولا تقابلهم على ما فعلوه واقترفوه ﴿ وَعِظْهُمْ ﴾ أي بين لهم حكم الله تعالى مع الترغيب في الانقياد لله، والترهيب من تركه ﴿ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ أي انصحهم سرا بينك وبينهم، فإنه أنجح لحصول المقصود، وبالغ في زجرهم وقمعهم عمَّا كانوا عليه[26].

﴿ 64 – 65 ﴾ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ ﴾ الغاية من إرسال الرسل أن يكونوا مطاعين ينقاد لهم المرسلُ إليهم في جميع ما أمروا به ونهوا عنه، وفي هذا إثبات عصمة الرسل فيما يبلغونه عن الله، وفيما يأمرون به وينهون عنه ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ الطاعة من المطيع صادرة بقضاء الله وقدره ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ ﴾ معترفين بذنوبهم باخعين بها ﴿ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ أي لتاب عليهم بمغفرته ورحمهم بقبول التوبة

---

[25] نقل تفسير هذه الآية عن تفسير الوسيط للطنطاوي منقولا عن موقع AYAT وذلك لعدم وجوده في تفسير الشيخ السعدي رحمه الله.
[26] وفي هذا دليل على أن مقترف المعاصي وإن أعرض عنه فإنه ينصح سرًا، ويبالغ في وعظه بما يظن حصول المقصود به.

والتوفيق لها والثواب عليها[27]﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله فيما شجر بينهم، أي في كل شيء يحصل فيه اختلاف، بخلاف مسائل الإجماع، فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب والسنة ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج من قلوبهم والضيق، وحتى يسلموا لحكمه تسليمًا بانشراح صدر، وطمأنينة نفس[28].

﴿ 66 - 68 ﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ يخبر تعالى أنه لو كتب على عباده الأوامر الشاقة من قتل النفوس ﴿ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ لم يفعله ﴿ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ﴾ والنادر، فليحمدوا ربهم وليشكروه على تيسير ما أمرهم به من الأوامر التي لا يشق فعلها[29] ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ ﴾ أي ما وُظِّف عليهم في كل وقت بحسبه، فبذلوا هممهم ووفروا نفوسهم للقيام به وتكميله، ولم تطمح نفوسهم لما لم يصلوا إليه ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم من أفعال الخير التي أمروا بها ﴿ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ على الدين عند الموت وفي القبر[30] ﴿ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ في العاجل والآجل الذي يكون للروح والقلب والبدن ﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ وهذا عموم بعد خصوص، فمن هُدِيَ إلى صراط مستقيم، فقد وُفِّقَ لكل خير واندفع عنه كل شر وضير.

﴿ 69 - 70 ﴾ ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾

﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ كل مَنْ أطاع الله ورسوله على حسب حاله وقدر الواجب عليه ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ النعمة العظيمة التي تقتضي الكمال والسعادة ﴿ مِنَ النَّبِيِّينَ ﴾ الذين فضلهم الله بوحيه، واختصهم بتفضيلهم بإرسالهم إلى الخلق، ودعوتهم إلى الله تعالى ﴿ وَالصِّدِّيقِينَ ﴾ الذين علموا الحق وصدقوه بيقينهم، وبالقيام به قولا وعملا وحالا ودعوة إلى الله ﴿ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله فقتلوا ﴿ وَالصَّالِحِينَ ﴾ الذين صلح ظاهرهم وباطنهم فصلحت أعمالهم، فكل من أطاع الله تعالى كان مع هؤلاء في صحبتهم ﴿ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ بالاجتماع بهم في جنات النعيم والأُنس بقربهم في جوار رب العالمين ﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ ﴾ الذي نالوه ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ فهو الذي وفقهم لذلك، وأعانهم عليه، وأعطاهم من الثواب ما لا تبلغه أعمالهم ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾

[27] وهذا المجيء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مختص بحياته؛ لأن السياق يدل على ذلك لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه شيء بل ذلك شرك
[28] فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان. فمَن استكمل هذه المراتب وكملها، فقد استكمل مراتب الدين كلها. أمّا من ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر. ومَن تركه، مع التزامه فله حكم أمثاله من العاصين.
[29] وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي أن يلحظ العبد ضد ما هو فيه من المكروهات، لتخف عليه العبادات، ويزداد حمدًا وشكرًا لربه.
[30] وأيضا فإن العبد القائم بما أمر به، لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية حتى يألفها ويشتاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات

يعلم أحوال عباده ومن يستحق منهم الثواب الجزيل، بما قام به من الأعمال الصالحة التي تواطأ عليها القلب والجوارح.

﴿ 71 - 74 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا * وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا * فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ حذرهم من أعدائهم الكافرين[31]﴿ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ ﴾ أي متفرقين بأن تنفر سرية أو جيش، ويقيم غيرهم ﴿ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا ﴾ تبعاً للمصلحة والراحة للمسلمين في دينهم ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ ﴾ يتثاقل عن الجهاد في سبيل الله ضعفا وجبنا. وقيل معناه ليبطئن غيرَه أي يزهده عن القتال، وهؤلاء هم المنافقون، ولكن الأول أولى ﴿ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ ﴾ هزيمة وقتل، وظفر الأعداء عليكم في بعض الأحوال لما لله في ذلك من الحكم ﴿ قَالَ ﴾ ذلك المتخلف ﴿ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ رأى من ضعف عقله وإيمانه أن التقاعد عن الجهاد الذي فيه تلك المصيبة نعمة ﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ أي نصر وغنيمة ﴿ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ يتمنى أنه حاضر لينال من المغانم، كأنه ليس منكم يا معشر المؤمنين ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية التي من مقتضاها أن المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم ودفع مضارهم. فلهذا أمر هؤلاء بالإخلاص والخروج في سبيله فقال لهم ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وهذا أحد الأقوال في هذه الآية وهو أصحها. وقيل إن معناه فليقاتل في سبيل الله المؤمنون الصادقون ﴿ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ أي يبيعون الدنيا رغبة عنها بالآخرة رغبة فيها. وأما المتثاقلون فلا يعبأ بهم خرجوا أو قعدوا. وقيل إن معنى الآية فليقاتل المقاتل والمجاهد للكفار الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، فيكون على هذا الوجه "الذين" في محل نصب على المفعولية ﴿ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ بأن يكون جهادا قد أمر الله به ورسوله، ويكون العبد مخلصا لله فيه قاصدا وجه الله ﴿ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ زيادة في إيمانه ودينه، وغنيمة وثناء حسنا. وثواب المجاهدين في سبيل الله الجنة.

﴿ 75 ﴾ ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾ الذين نالهم أعظم الظلم من أعدائهم ﴿ الَّذِينَ ﴾ يدعون الله و﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك

[31] وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب، التي بها يستعان على قتالهم ويستدفع مكرهم وقوتهم، وتعلم الصناعات التي تعين على ذلك، وما به يعرف مداخلهم، ومخارجهم، ومكرهم، والنفير في سبيل الله

وظلموا المؤمنين بالأذى والصد عن سبيل الله ﴿ وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ فصار جهادكم على هذا الوجه من باب الذب عن عيلاتكم وأولادكم ومحارمكم. والجهاد الذي فيه استنقاذ المستضعفين منكم أعظم أجرًا وأكبر فائدة، لأنه من باب دفع الأعداء.

﴿ 76 ﴾ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ هذا إخبار من الله بأن المؤمنين يقاتلون في سبيله ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾ الذي هو الشيطان ﴿ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ والكيد سلوك الطرق الخفية في ضرر العدو. فالشيطان وإن بلغ مَكْرُهُ مهما بلغ فإنه في غاية الضعف، الذي لا يقوم لأدنى شيء من الحق ولا لكيد الله لعباده المؤمنين.

﴿ 77 – 80 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا * أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا * مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ كان المسلمون –إذ كانوا بمكة– مأمورين بالصلاة والزكاة أي مواساة الفقراء، لا الزكاة المعروفة ذات النصب والشروط فإنها لم تفرض إلا بالمدينة، ولم يؤمروا بعد بجهاد الأعداء. وكان بعض المؤمنين يودون أن لو فرض عليهم القتال ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ ﴾ في وقته المناسب عندما هاجروا إلى المدينة وقوي الإسلام ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ﴾ وفي هذا تضجرهم واعتراضهم على الله. وكان عليهم التسليم لأمر الله والصبر على أوامره. وقالوا ﴿ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ أي هلَّا أخرت فرض القتال مدة متأخرة عن الوقت الحاضر. وهذه الحال كثيرًا ما تعرض لمن هو غير رزين واستعجل في الأمور قبل وقتها، فالغالب عليه أنه لا يصبر عليها وقت حلولها ولا ينوء بحملها. ثم إن الله وعظهم عن هذه الحال التي فيها التخلف عن القتال ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ أي التمتع بلذات الدنيا وراحتها قليل، وتحمّل الأثقال في طاعة الله والمشقة لا يطول لبثها، فكيف إذا وازنت بين الدنيا والآخرة ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ ﴾ في ذاتها ولذّاتها وزمانها ﴿ لِمَنِ اتَّقَى ﴾ الشرك وسائر المحرمات ﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ أي فسعيكم للدار الآخرة ستجدونه كاملاً موفرًا غير منقوص منه شيئًا ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ ﴾ أي

في أي زمان وأي مكان، ولا يغني حذر عن قدر، والقاعد لا يدفع عنه قعوده شيئًا ﴿ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾ قصور منيعة ومنازل رفيعة ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ ﴾ أي الذين لا يعلمون، المعرضين عما جاءت به الرسل، المعارضين لهم ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ إذا جاءتهم حسنة من خصب وكثرة أموال وتوفر أولاد وصحة ﴿ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي جدب وفقر ومرض وموت أولاد وأحباب ﴿ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ يا محمد، تطيروا برسول الله صلى الله عليه وسلم كما تطير أمثالهم برسل الله. قال الله في جوابهم ﴿ قُلْ كُلٌّ ﴾ من الحسنة والسيئة والخير والشر ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أي بقضائه وقدره وخلقه ﴿ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ﴾ الصادر منهم تلك المقالة الباطلة ﴿ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ لا يفهمون حديثا بالكلية أو لا يفهمون منه إلا فهمًا ضعيفًا ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ ﴾ في الدين والدنيا ﴿ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ هو الذي مَنَّ بها ويسرها بتيسير أسبابها ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ ﴾ في الدين والدنيا ﴿ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ أي بذنوبك وكسبك، وما يعفو الله عنه أكثر ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ على أنك رسول الله حقا ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ ﴾ في أوامره ونواهيه ﴿ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ لكونه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر الله وشرعه ووحيه وتنزيله، وفي هذا عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الله أمر بطاعته مطلقا[32]. فمَنْ أطاع الرسول له من الثواب والخير ما رتب على طاعة الله ﴿ وَمَنْ تَوَلَّى ﴾ عن طاعة الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ تحفظ أعمالهم وأحوالهم، بل أرسلناك مبلغا ومبينا وناصحا.

﴿ 81 ﴾ ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ﴾ أي يظهرون الطاعة إذا كانوا عندك ﴿ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ ﴾ أي خرجوا وخلوا ﴿ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ﴾ بيتوا ودبروا غير طاعتك، لأن التبييت تدبير الأمر ليلا على وجه يستقر عليه الرأي ﴿ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ أي يحفظه عليهم وسيجازيهم عليه أتم الجزاء، ففيه وعيد لهم ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ ثم أمر رسوله بمقابلتهم بالإعراض وعدم التعنيف، فإنهم لا يضرونه شيئا إذا توكل على الله واستعان به في نصر دينه، وإقامة شرعه.

﴿ 82 ﴾ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ يأمر تعالى بتدبر كتابه والتأمل في معانيه. وكلما ازداد العبد تأملا فيه ازداد علما وعملا وبصيرة ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ أي فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلاً.

---

[32] وهذا تأكيد لحقوق ثلاثة مشتركة:

- حق لله تعالى لا يكون لأحد من الخلق، وهو عبادة الله والرغبة إليه، وتوابع ذلك.
- وقسم مختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير والنصرة.
- وقسم مشترك، وهو الإيمان بالله ورسوله ومحبتهما وطاعتهما.

﴿ 83 ﴾ ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ﴾ هذا تأديب من الله لعباده وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ ﴾ بل يردونه ﴿ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ وأهلِ الرأي. فإن رأوا في إذاعته مصلحة للمؤمنين وتحرزا من أعدائهم فعلوا ذلك. وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة أو مضرته تزيد على مصلحته لم يذيعوه، ولهذا قال ﴿ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ أي يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ أي في توفيقكم وتأديبكم، وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴿ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ لأن الإنسان بطبعه ظالم جاهل، فإذا لجأ إلى ربه واجتهد في ذلك، لطف به ربه ووفقه لكل خير، وعصمه من الشيطان الرجيم.

﴿ 84 ﴾ ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴾

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ هذه الحالة أفضل أحوال العبد، أن يجتهد في نفسه على امتثال أمر الله من الجهاد وغيره. وليس لك قدرة على غير نفسك، فلن تكلف بفعل غيرك ﴿ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ويحرض غيره عليه، وهذا يشمل كل أمر يحصل به تقوية المؤمنين وضعف الأعداء وفشلهم ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي بقتالكم في سبيل الله، وتحريض بعضكم بعضًا ﴿ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا ﴾ أي قوة وعزة ﴿ وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴾ بالمذنب في نفسه، وتنكيلا لغيره.

﴿ 85 ﴾ ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا }

﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً ﴾ المراد بالشفاعة هنا المعاونة على أمر من الأمور، فمن شفع غيره وقام معه على أمر من أمور الخير، ومنه الشفاعة للمظلومين لمن ظلمهم ﴿ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا ﴾ كان له نصيب من شفاعته بحسب سعيه وعمله ونفعه ﴿ وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ﴾ ومَنْ عاون غيره على أمر من الشر كان عليه كفل من الإثم بحسب ما قام به وعاون عليه ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ﴾ شاهدًا حفيظًا حسيبًا على هذه الأعمال، فيجازي كُلًّا ما يستحقه.

﴿ 86 ﴾ ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا ﴾ التحية هي اللفظ الصادر من أحد المتلاقيين على وجه الإكرام والدعاء، وما يقترن بذلك اللفظ من البشاشة ونحوها. وأعلى أنواع التحية ما ورد به الشرع، من السلام ابتداء وردًا. فأمر تعالى المؤمنين أنهم إذا حُيّوا بأي تحية كانت، أن يردوها بأحسن منها لفظا وبشاشة ﴿ أَوْ رُدُّوهَا ﴾ أو مثلها في ذلك. ومفهوم ذلك النهي عن عدم الرد بالكلية أو ردها بدونها[33]. ثم أوعد تعالى وتوعد على فعل الحسنات والسيئات بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ فيحفظ على العباد أعمالهم، ثم يجازيهم بما اقتضاه فضله وعدله وحكمه المحمود.

﴿ 87 ﴾ ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ يخبر تعالى عن انفراده بالوحدانية وأنه لا معبود ولا مألوه إلا هو، لكماله في ذاته وأوصافه ولكونه المنفرد بالخلق والتدبير، والنعم الظاهرة والباطنة. وذلك يستلزم الأمر بعبادته والتقرب إليه بجميع أنواع العبودية. ولذلك أقسم على وقوع محل الجزاء وهو يوم القيامة، فقال: ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ أولكم وآخركم في مقام واحد ﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ لا شك ولا شبهة بوجه من الوجوه ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ وفي القسَم إخبار بأن حديثه وأخباره وأقواله في أعلى مراتب الصدق، بل أعلاها. فكل ما قيل في العقائد والعلوم والأعمال مما يناقض ما أخبر الله به، فهو باطل لمناقضته للخبر الصادق اليقين، فلا يمكن أن يكون حقًّا.

﴿ 88 - 91 ﴾ ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا * وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا * سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ المراد بالمنافقين المذكورين في هذه الآيات المنافقون المظهرون إسلامهم، ولم يهاجروا مع كفرهم. وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيهم اشتباه، فأخبرهم الله تعالى ﴿ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ أنه لا ينبغي لكم أن تشتبهوا فيهم بل

[33] ويؤخذ من الآية الكريمة الحث على ابتداء السلام والتحية من وجهين أحدهما: 1- أن الله أمر بردها بأحسن منها أو مثلها، وذلك يستلزم أن التحية مطلوبة شرعًا. 2- ما يستفاد من أفعل التفضيل وهو "أحسن" الدال على مشاركة التحية وردها بالحسن. ويستثنى من عموم الآية الكريمة من حيًّا بحال غير مأمور بها، كـ "على مشتغل بقراءة، أو استماع خطبة، أو مصلٍ ونحو ذلك" فإنه لا يطلب إجابة تحيته، وكذلك يستثنى من ذلك من أمر الشارع بهجره وعدم تحيته، وهو العاصي غير التائب الذي يرتدع بالهجر، فإنه يهجر ولا يُحيّا، ولا تُرد تحيته، وذلك معارضة المصلحة الكبرى. ويدخل في رد التحية كل تحية اعتادها الناس وهي غير محظورة شرعًا، فإنه مأمور بردّها وبأحسن منها،

أمرهم واضح غير مشكل، إنهم منافقون قد تكرر كفرهم ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾ وودوا أن تكونوا مثلهم. فإذا تحققتم ذلك منهم ﴿ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ وهذا يستلزم عدم محبتهم لأن الولاية فرع المحبة. ويستلزم أيضا بغضهم وعداوتهم لأن النهي عن الشيء أمر بضده ﴿ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وهذا الأمر موقت بهجرتهم فإذا هاجروا جرى عليهم ما جرى على المسلمين، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يجري أحكام الإسلام لكل مَنْ كان معه وهاجر إليه، وسواء كان مؤمنا حقيقة أو ظاهر الإيمان ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ وأنهم إن لم يهاجروا وتولوا ﴿ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ في أي وقت وأي محل[34] كان ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فِرَق: فرقتين أمر بتركهم ﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾ بترك القتال، فيكون له حكمهم في حقن الدم والمال ﴿ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ﴾ أي بقوا لا تسمح أنفسهم بقتالكم، ولا بقتال قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين، فهؤلاء أيضا أمر بتركهم، وذكر الحكمة في ذلك في قوله ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ﴾ فاحمدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك ﴿ فَـ ﴾ هؤلاء ﴿ إِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ وهناك قوم ﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ ﴾ يريدون مصلحة أنفسهم بقطع النظر عن احترامكم ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ ﴾ خوفا منكم ﴿ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ﴾ وهؤلاء تركوا قتال المؤمنين خوفا لا احتراما، ولو وجدوا فرصة في قتال المؤمنين فإنهم مستعدون لانتهازها ﴿ فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ﴾ أي المسالمة والموادعة ﴿ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ ﴾ فهؤلاء إن لم يتبين منهم ويتضح اتضاحًا عظيمًا اعتزال المؤمنين وترك قتالهم ﴿ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ ﴾ فإنهم يقاتلون ﴿ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ أي حجة بينة واضحة، لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسالمة، فلا يلوموا إلا أنفسهم.

﴿ 92 – 93 ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا ﴾ أي يستحيل أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن متعمدا. وإنما يصدر ذلك إما من كافر أو من فاسق قد نقص إيمانه. وعلم أن القتل من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله. لكن تعالى استثنى قتل الخطأ فقال ﴿ إِلَّا خَطَأً ﴾ فإن المخطئ الذي لا يقصد القتل غير آثم، ولا مجترئ على محارم الله، ولكنه لما كان قد فعل فعلاً شنيعًا وإن لم يقصده أمر تعالى بالكفارة والديّة ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً ﴾ سواء كان القاتل ذكرًا أو أنثى حرًّا أو

[34] وهذا من جملة الأدلة الدالة على نسخ القتال في الأشهر الحرم، كما هو قول جمهور العلماء، والمنازعون يقولون: هذه نصوص مطلقة، محمولة على تقييد التحريم في الأشهر الحرم.

عبدًا، صغيرًا أو كبيرًا، عاقلاً أو مجنونًا، مسلمًا أو كافرًا، كما يفيده لفظ "مَنْ" الدالة على العموم وهذا من أسرار الإتيان بـ "مَنْ" في هذا الموضع، فإن سياق الكلام يقتضي أن يقول: فإن قتله، ولكن هذا لفظ لا يشمل ما تشمله "مَنْ". وسواء كان المقتول ذكرًا أو أنثى، صغيرًا أو كبيرًا، كما يفيده التنكير في سياق الشرط ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ كفارة لذلك تكون في ماله[35] ﴿ وَدِيَةٌ ﴾ وهي تجب على عاقلة القاتل في الخطأ وشبه العمد ﴿ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ جبرًا لقلوبهم، والمراد بأهله هنا هم ورثته. وللدية تفاصيل كثيرة مذكورة في كتب الفقه ﴿ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ﴾ أي يتصدق ورثة القتيل بالعفو عن الدية، فإنها تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة في كل وقت ﴿ فَإِنْ كَانَ ﴾ المقتول ﴿ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ ﴾ أي من كفار حربيين ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ أي وليس عليكم لأهله دية، لعدم احترامهم في دمائهم وأموالهم ﴿ وَإِنْ كَانَ ﴾ المقتول ﴿ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ﴾ الرقبة ولا ثمنها، بأن كان معسرا بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء يفي بالرقبة ﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ لا يفطر بينهما من غير عذر، فإن أفطر لعذر فإن العذر لا يقطع التتابع، كالمرض والحيض ونحوهما. وإن كان لغير عذر انقطع التتابع ووجب عليه استئناف الصوم ﴿ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ ﴾ أي هذه الكفارات التي أوجبها الله على القاتل توبة من الله على عباده ورحمة بهم، وتكفير لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز، كما هو واقع كثيرًا للقاتل خطأ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عليمًا ﴾ أي كامل العلم ﴿ حَكِيمًا ﴾ كامل الحكمة، ومن علمه وحكمته أن أوجب على القاتل كفارة مناسبة لما صدر منه ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ لم يرد في أنواع الكبائر أعظم من وعيد القاتل عمدا، بل ولا مثله. وهذا الوعيد له حكم أمثاله من نصوص الوعيد على بعض الكبائر والمعاصي بالخلود في النار، أو حرمان الجنة. وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في تأويلها مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج والمعتزلة الذين يخلدونهم في النار ولو كانوا موحدين. فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها، والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين. ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات، اعتبارًا بمقتضي العقاب ومانعه، وإعمالا لأرجحها.

﴿ 94 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

---

35 ويشمل ذلك الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والصحيح والمعيب، في قول بعض العلماء. ولكن الحكمة تقتضي أن لا يجزئ عتق المعيب في الكفارة؛ لأن المقصود بالعتق نفع العتيق، وملكه منافع نفسه، فإذا كان يضيع بعتقه، وبقاؤه في الرق أنفع له فإنه لا يجزئ عتقه، مع أن في قوله: تحرير رقبة ما يدل على ذلك؛ فإن التحرير: تخليص من استحقت منافعه لغيره أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع لم يتصور وجود التحرير. فتأمل ذلك فإنه واضح.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ إذا خرجوا جهادًا في سبيله وابتغاء مرضاته ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ فإن المستعجل للأمور في بدايتها يؤدي إلى ما لا ينبغي، كما جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله في الآية لمَّا لم يتثبتوا وقتلوا من سلم عليهم، وكان معه غنيمة له أو مال غيره، ظنًّا أنه يستكفي بذلك قتلَهم ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ أي فلا يحملنكم العرض الفاني القليل على ارتكاب ما لا ينبغي فيفوتكم ما عند الله من الثواب الجزيل الباقي، فما عند الله خير وأبقى ﴿ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ فكما هداكم بعد ضلالكم، وكما أن الهداية حصلت لكم شيئًا فشيئًا فكذلك غيركم، ولهذا أعاد الأمر بالتبين ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ أمر بالتبين والتثبت في كل الأحوال التي يقع فيها نوع اشتباه، حتى يتضح الأمر ويتبين الرشد والصواب ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فيجازي كُلًّا ما عمله ونواه، بحسب ما علمه من أحوال عباده ونياتهم.

﴿ 95 - 96 ﴾ ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ لا يستوي من جاهد من المؤمنين بنفسه وماله ومن لم يخرج للجهاد ولم يقاتل أعداء الله ﴿ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ كالمريض والأعمى والأعرج والذي لا يجد ما يتجهز به ﴿ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ ففيه الحث على الخروج للجهاد، والترغيب في ذلك، والترهيب من التكاسل والقعود عنه من غير عذر. ومن كان عازمًا على الخروج في سبيل الله لولا وجود المانع يتمنى ذلك ويُحَدِّث به نفسه، فإنه بمنزلة من خرج للجهاد، لأن النية الجازمة إذا اقترن بها مقدورها من القول أو الفعل ينزل صاحبها منزلة الفاعل ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ صرَّح تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدين بالدرجة، أي الرفعة ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ إذا فضَّل تعالى شيئا على شيء، وكل منهما له فضل، احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين لئلا يتوهم أحد ذم المفضل عليه ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وتأمل حسن هذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها، فإنه نفى التسوية أولا بين المجاهد وغيره، ثم صرَّح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات. وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح، أو النزول من حالة إلى ما دونها، عند القدح والذم - أحسن لفظا وأوقع في النفس ﴿ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ﴾ والدرجات التي فصلها النبي صلى الله عليه وسلم بالحديث الثابت عنه في "الصحيحين" أن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادرَيْن عن اسميه الكريمين الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ختم هذا الآية بهما.

﴿ 97 - 99 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات، فإن الملائكة الذين يقبضون روحه يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم: ﴿ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ﴾ أي على أي حال كنتم؟ وبأي شيء تميزتم عن المشركين؟ بل كثرتم سوادهم، وربما ظاهرتموهم على المؤمنين ﴿ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي ضعفاء مقهورين مظلومين ليس لنا قدرة على الهجرة، وهم غير صادقين في ذلك لأن الله وبخهم وتوعدهم، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها واستثنى المستضعفين حقيقة ولهذا ﴿ قَالُوا ﴾ أي قالت لهم الملائكة ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ وهذا استفهام تقرير، أي حيثما العبد في محل لا يتمكن فيه من إظهار دينه، فإن له متسعًا وفسحة من الأرض يتمكن فيها من عبادة الله. قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم ﴿ فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ وفي الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات، وتركها من المحرمات، بل من الكبائر[36]﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ ثم استثنى المستضعفين على الحقيقة، الذين لا قدرة لهم على الهجرة بوجه من الوجوه. فهؤلاء قال الله فيهم ﴿ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ و "عسى" ونحوها واجب وقوعها من الله تعالى بمقتضى كرمه وإحسانه، وفي الترجية بالثواب لمن عمل بعض الأعمال فائدة، وهو أنه قد لا يوفيه حق توفيته، ولا يعمله على الوجه اللائق الذي ينبغي، بل يكون مقصرًا فلا يستحق ذلك الثواب[37] والله أعلم.

﴿ 100 ﴾ ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ من هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته ﴿ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ فالمراغم مشتمل على مصالح الدين واسم جامع لكل ما يحصل به إغاظة لأعداء الله من قول وفعل. والسعة تشتمل مصالح الدنيا. وذلك أن كثيرًا من الناس يتوهم أن في الهجرة ذلا بعد العز وشدة بعد الرخاء. والأمر ليس كذلك، فإن المؤمن ما دام بين أظهر المشركين هو بصدد أن يفتن عن دينه، خصوصا إن كان مستضعفًا. فإذا هاجر في سبيل الله تمكن من إقامة دين الله وجهاد أعداء الله ومراغمتهم ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ قاصدا ربه ورضاه،

---

[36] وفي الآية دليل على أن كل مَن توفي فقد استكمل واستوفى ما قدر له من الرزق والأجل والعمل، وذلك مأخوذ من لفظ "التوفي" فإنه يدل على ذلك، لأنه لو بقي عليه شيء من ذلك لم يكن متوفيًا. وفيه الإيمان بالملائكة ومدحهم، لأن الله ساق ذلك الخطاب لهم على وجه التقرير والاستحسان منهم، وموافقته لمحله

[37] وفي الآية الكريمة دليل على أن من عجز عن المأمور من واجب وغيره فإنه معذور. ولكن لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده وانسدت عليه أبواب الحيل لقوله: لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً. وفي الآية تنبيه على أن الدليل في الحج والعمرة ونحوهما مما يحتاج إلى سفر من شروط الاستطاعة.

ومحبة لرسوله ونصرًا لدين الله ﴿ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوتُ ﴾ بقتل أو غيره ﴿ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ وحصل له أجر المهاجر الذي أدرك مقصوده، بضمان الله تعالى وذلك لأنه نوى وجزم ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ﴾ يغفر للمؤمنين ما اقترفوه من الخطيئات، خصوصا التائبين المنيبين إلى ربهم ﴿ رَحِيمًا ﴾ بجميع الخلق رحمة أوجدتهم وعافتهم ورزقتهم، وبالمؤمنين حيث وفقهم للإيمان ويسر لهم أسباب السعادة والفلاح.

﴿ 101 - 102 ﴾ ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا * وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾

هاتان الآيتان أصل في رخصة القصر، وصلاة الخوف ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي في السفر[38]﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ أي لا حرج ولا إثم عليكم في ذلك، ولا ينافي ذلك كون القصر هو الأفضل[39]. وقال أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ليدل على أن القصر محدود مضبوط، مرجوع فيه إلى ما تقرر من فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه[40]. وإن الفجر والمغرب لا يقصران وإنما الذي يقصر الصلاة الرباعية من أربع إلى ركعتين. فإذا تقرر أن القصر في السفر رخصة، فاعلم أن المفسرين قد اختلفوا في هذا القيد، وهو قوله ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ الذي يدل ظاهره أن القصر لا يجوز إلا بوجود الأمرين كليهما: السفر مع الخوف. ويرجع حاصل اختلافهم إلى أنه هل المراد بقوله: أَنْ تَقْصُرُوا قصر العدد فقط؟ أو قصر العدد والصفة؟ وقد أشكل هذا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حتى سأل عنه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ما لنا نقصر الصلاة وقد أمِنَّا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته" أو كما قال. فعلى هذا يكون هذا القيد أتى به نظرا لغالب الحال التي كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عليها، فإن غالب أسفاره أسفار جهاد. وفيه فائدة أخرى وهي بيان الحكمة والمصلحة في مشروعية رخصة القصر، فبيَّن في هذه الآية منتهى ما يتصور من المشقة المناسبة للرخصة، وهي اجتماع السفر والخوف. ولا يستلزم ذلك أن لا يقصر مع السفر وحده، الذي هو مظنة المشقة. وأما على الوجه الثاني، وهو أن المراد بالقصر: قصر العدد والصفة فإن القيد على بابه، فإذا وجد السفر والخوف، جاز قصر العدد، وقصر الصفة، وإذا وجد السفر وحده جاز

---

38 وظاهر الآية أنه يقتضي الترخص في أي سفر كان ولو كان سفر معصية، كما هو مذهب أبي حنيفة رحمه الله، وخالف في ذلك الجمهور، وهم الأئمة الثلاثة وغيرهم، فلم يجوزوا الترخص في سفر المعصية، تخصيصا للآية بالمعنى والمناسبة، فإن الرخصة سهولة من الله لعباده إذا سافروا أن يقصروا ويفطروا، والعاصي بسفره لا يناسب حاله التخفيف.

39 ويدل على أفضلية القصر على الإتمام أمران: 1- ملازمة النبي صلى الله عليه وسلم على القصر في جميع أسفاره. 2 - أن هذا من باب التوسعة والترخيص والرحمة بالعباد، والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته.

40 ولم يقل أن تقصروا الصلاة، فيظن أنه لو قصر معظم الصلاة وجعلها ركعة واحدة لأجزأ. فإتيانه بقوله ﴿ من ﴾ تفيد التبعيض ليعلم بذلك أن القصر لبعض الصلوات المفروضات لا جميعها،

قصر العدد فقط، أو الخوف وحده جاز قصر الصفة ولذلك أتى بصفة صلاة الخوف بعدها بقوله ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾ أي صليت بهم صلاة تقيمها، فعلمهم ما ينبغي لك ولهم فعله ﴿ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ وطائفة قائمة بإزاء العدو ﴿ فَإِذَا سَجَدُوا ﴾ يدل على أن هذه الطائفة أي الذين معك تكمل جميع صلاتها قبل ذهابهم إلى موضع الحارسين. وعبر عن الصلاة بالسجود ليدل على فضل السجود، بل هو أعظم أركانها ﴿ فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ ﴾ أي من وراء الطائفة الأولى ﴿ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا ﴾ وهم الطائفة الذين قاموا إزاء العدو ﴿ فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ ودل ذلك على أن الإمام لا يسلم بل يبقى بعد انصراف الطائفة الأولى[41] منتظرا للطائفة الثانية، فإذا حضروا صلى بهم ما بقي من صلاته ثم جلس ينتظرهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم وهذا أحد الوجوه في صلاة الخوف[42] فإنها صحت عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه كثيرة كلها جائزة. وأمر تعالى بأخذ السلاح والحذر في صلاة الخوف، وهذا وإن كان فيه حركة واشتغال عن بعض أحوال الصلاة فإن فيه مصلحة راجحة وهو الجمع بين الصلاة والجهاد، والحذر من الأعداء الحريصين غاية الحرص على الإيقاع بالمسلمين والميل عليهم وعلى أمتعتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ ثم إن الله عذر من له عذر من مرض أو مطر أن يضع سلاحه، ولكن مع أخذ الحذر ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ إذ أمر الله المؤمنين بقتلهم وقتالهم حيثما ثقفوهم.

﴿ 103 ﴾ ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ ﴾ فإذا فرغتم من صلاتكم، صلاة الخوف وغيرها ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ﴾ في جميع أحوالكم وهيئاتكم، ولكن خصت صلاة الخوف بذلك لفوائد أن الخوف يوجب قلق القلب ما هو مظنة لضعفه وضعف البدن عن مقاومة العدو، والذكر لله والإكثار منه من أعظم مقويات القلب. ومنها أن الذكر لله تعالى مع الصبر والثبات سبب للفلاح والظفر بالأعداء﴿ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ إذا أمنتم من الخوف واطمأنت قلوبكم

[41] دليل على أن الطائفة الأولى قد صلوا، وأن جميع صلاة الطائفة الثانية تكون مع الإمام حقيقة في ركعتهم الأولى، وحكما في ركعتهم الأخيرة، فيستلزم ذلك انتظار الإمام إياهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم، وهذا ظاهر للمتأمل.

[42] وهذه الآية تدل على أن صلاة الجماعة فرض عين من وجهين: **1-** أن الله تعالى أمر بها في هذه الحالة الشديدة، وقت اشتداد الخوف من الأعداء وحذر مهاجمتهم، فإذا أوجبها في هذه الحالة الشديدة فإيجابها في حالة الطمأنينة والأمن من باب أَوْلَى وأحرى. **2-** أن المصلين صلاة الخوف يتركون فيها كثيرا من الشروط واللوازم، ويعفى فيها عن كثير من الأفعال المبطلة في غيرها، وما ذاك إلا لتأكد وجوب الجماعة، لأنه لا تعارض بين واجب ومستحب، فلولا وجوب الجماعة لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها. وتدل الآية الكريمة على أن الأولى والأفضل أن يصلوا بإمام واحد. ولو تضمن ذلك الإخلال بشيء لا يخل به لو صلوها بعدة أئمة، وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين واتفاقهم وعدم تفرق كلمتهم، وليكون ذلك أوقع هيبة في قلوب أعدائهم،

وأبدانكم فأتموا صلاتكم على الوجه الأكمل ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ أي مفروضا في وقته، وأن لها وقتا لا تصح إلا به[43].

﴿ 104 }﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ﴾ لا تضعفوا ولا تكسلوا في ابتغاء في جهادهم والمرابطة على ذلك ﴿ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾ ثم ذكر ما يقوي قلوب المؤمنين من أن ما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذلك يصيب أعداءكم أيضاً. فليس من الشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم ﴿ وَ ﴾ أنكم ﴿ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ وهذا يوجب للمؤمن المصدق زيادة القوة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ كامل العلم ﴿ حَكِيمًا ﴾ كامل الحكمة.

﴿ 105 - 113 ﴾ ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا * وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ محفوظًا في إنزاله من الشياطين، أن يتطرق إليه منهم باطل، بل نزل بالحق، ومشتملاً أيضا على الحق، فأخباره صدق، وأوامره ونواهيه عدل[44] ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ لا بهواك بل بما علّمك الله وألهمك. وفي هذا دليل على عصمته صلى الله عليه وسلم فيما يُبَلّغ عن الله من جميع الأحكام وغيرها، وأنه يشترط في الحاكم العلم والعدل لقوله: بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ولم يقل: بما رأيت. ورتب أيضا الحكم بين الناس على معرفة الكتاب ﴿ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ أي لا تخاصم عن مَن عرفت خيانته[45] ﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴾ مما صدر منك إن صدر ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ يغفر الذنب العظيم لمن استغفره، وتاب إليه وأناب ويوفقه للعمل الصالح بعد

---

43 ودل قوله: عَلَى الْمُؤْمِنِينَ على أن الصلاة ميزان الإيمان وعلى حسب إيمان العبد تكون صلاته وتتم وتكمل، ويدل ذلك على أن الكفار وإن كانوا ملتزمين لأحكام المسلمين كأهل الذمة - أنهم لا يخاطبون بفروع الدين كالصلاة، ولا يؤمرون بها، بل ولا تصح منهم ما داموا على كفرهم، وإن كانوا يعاقبون عليها وعلى سائر الأحكام في الآخرة.

44 ويحتمل أن هذه الآية في الحكم بين الناس يشمل الحكم بينهم في الدماء والأعراض والأموال وسائر الحقوق وفي العقائد وفي جميع مسائل الأحكام

45 ففي هذا دليل على تحريم الخصومة في باطل، والنيابة عن المبطل في الخصومات الدينية والحقوق الدنيوية. ويدل مفهوم الآية على جواز الدخول في نيابة الخصومة لمن لم يعرف منه ظلم

ذلك الموجِب لثوابه وزوال عقابه ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ "الاختيان" و "الخيانة" بمعنى الجناية والظلم والإثم، وهذا يشمل النهي عن المجادلة عن من أذنب وتوجه عليه عقوبة من حد أو تعزير، فإنه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة، أو بدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ أي كثير الخيانة والإثم، وإذا انتفى الحب ثبت ضده وهو البُغْض، وهذا كالتعليل للنهي المتقدم ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ﴾ وهذا من ضعف الإيمان ونقصان اليقين، أن تكون مخافة الخلق عندهم أعظم من مخافة الله، فيحرصون بالطرق المباحة والمحرمة على عدم الفضيحة عند الناس، وهم مع ذلك لم يراقبوا رب الأرض والسماوات المطلع على سرائرهم وضمائرهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ أي قد أحاط بذلك علما، ومع هذا لم يعاجلهم بالعقوبة بل عرض عليهم التوبة وحذرهم من الإصرار على ذنبهم الموجب للعقوبة البليغة ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ أي هبكم جادلتم عنهم في هذه الحياة الدنيا، ودفع عنهم جدالُكم بعض ما تحذرون من العار والفضيحة عند الخَلْق، فماذا يغني عنهم وينفعهم؟ ومن يجادل الله عنهم يوم القيامة حين تتوجه عليهم الحجة[46]؟ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا ﴾ لكونه سيئًا غير حسن ولكونه يسوء عامله بعقوبته ﴿ أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ﴾ وهذا يشمل ظلمها بالشرك فما دونه[47] ﴿ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴾ استغفارا تاما يستلزم الإقرار بالذنب والندم عليه والإقلاع والعزم على أن لا يعود ﴿ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا. وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ فمن كسب إثماً أو سيئة فإن عقوبتها الدنيوية والأخروية على نفسه، لا تتعداها إلى غيرها. لكن إذا ظهرت السيئات فلم تنكر عمت عقوبتها وشمل إثمها، فلا تخرج أيضا عن حكم هذه الآية الكريمة، لأن من ترك الإنكار الواجب فقد كسب سيئة. وفي هذا بيان عدل الله وحكمته، أنه لا يعاقب أحدا بذنب أحد، ولا يعاقب أحدا أكثر من العقوبة الناشئة عن ذنبه، ولهذا قال ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أي له العلم الكامل والحكمة التامة ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً ﴾ أي ذنبا كبيرا ﴿ أَوْ إِثْمًا ﴾ ما دون ذلك ﴿ ثُمَّ يَرْمِ بِهِ ﴾ أي يتهم بذنبه ﴿ بَرِيئًا ﴾ من ذلك الذنب، وإن كان مذنبا ﴿ فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا ﴾ للبريء ﴿ وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ ظاهرًا بينًا، وهذا يدل على أن ذلك من كبائر الذنوب وموبقاتها[48] ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ ﴾ ذكر المفسرون أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات أن أهل بيت سرقوا في المدينة، فلما اطلع على سرقتهم خافوا الفضيحة، وأخذوا سرقتهم فرموها ببيت من هو بريء من ذلك. واستعان السارق بقومه أن يأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويطلبوا منه أن يبرئ صاحبهم على رؤوس

---

[46] وفي هذه الآية إرشاد إلى المقابلة بين ما يتوهم من مصالح الدنيا المترتبة على ترك أوامر الله أو فعل مناهيه، وبين ما يفوت من ثواب الآخرة أو يحصل من عقوباتها. وكذلك إذا دعته نفسه إلى ما تشتهيه من الشهوات المحرمة قال لها: هبك فعلت ما اشتهيت فإن لذته تنقضي ويعقبها من الهموم والغموم والحسرات، وفوات الثواب وحصول العقاب - ما بعضه يكفي العاقل في الإحجام عنها.

[47] ولكن عند اقتران أحدهما بالآخر قد يفسر كل واحد منهما بما يناسبه، فيفسر عمل السوء هنا بالظلم الذي يسوء الناس، وهو ظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. ويفسر ظلم النفس بالظلم والمعاصي التي بين الله وبين عبده، وسمي ظلم النفس "ظلما" لأن نفس العبد ليست ملكا له يتصرف فيها بما يشاء، وإنما هي ملك لله تعالى قد جعلها أمانة عند العبد وأمره أن يقيمها على طريق العدل.

[48] فإنه قد جمع عدة مفاسد: كسب الخطيئة والإثم، ثم رَمْي مَن لم يفعلها بفعلها، ثم الكذب الشنيع بتبرئة نفسه واتهام البريء، ثم ما يترتب على ذلك من العقوبة الدنيوية، تندفع عمن وجبت عليه، وتقام على من لا يستحقها، وما يترتب على ذلك من كلام الناس في البريء وغير ذلك من المفاسد.

الناس، وقالوا: إنه لم يسرق وإنما الذي سرق من وجدت السرقة ببيته وهو البريء. فهَمَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبرئ صاحبهم، فأنزل الله هذه الآيات تذكيرا وتبيينا لتلك الواقعة وتحذيرا للرسول صلى الله عليه وسلم من المخاصمة عن الخائنين، فإن المخاصمة عن المبطل من الضلال. وأخبر أن كيدهم ومكرهم يعود على أنفسهم، كحالة كل ماكر، فقال ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ولم يحصل لهم إلا الخيبة والإثم ﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ. وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ القرآن العظيم ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ وهي إما السُّنَّة التي قد قال فيها بعض السلف: إن السُّنَّة تنزل عليه كما ينزل القرآن. وإما معرفة أسرار الشريعة الزائدة على معرفة أحكامها، وتنزيل الأشياء منازلها وترتيب كل شيء بحسبه ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ وهذا يشمل جميع ما علمه الله تعالى. فإنه صلى الله عليه وسلم لم يزل يوحي الله إليه ويعلمه ويكمله حتى ارتقى مقاما من العلم وكان أعلم الخلق على الإطلاق وأجمعهم لصفات الكمال، وأكملهم فيها ﴿ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ ففضله على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أعظم من فضله على كل مخلوق.

﴿ 114 ﴾ ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ ﴾ لا خير في كثير مما لا فائدة فيه كفضول الكلام المباح، وإما شر ومضرة محضة كالكلام المحرم بجميع أنواعه. ثم استثنى تعالى فقال ﴿ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ ﴾ من مال أو علم أو أي نفع كان، بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة كالتسبيح والتحميد ونحوه ﴿ أَوْ مَعْرُوفٍ ﴾ وهو الإحسان والطاعة وكل ما عرف في الشرع والعقل حسنه[49] ﴿ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ في الدماء والأموال والأعراض، بل وفي الأديان والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة. ولكن كمال الأجر وتمامه بحسب النية والإخلاص ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ فلهذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى ويخلص العمل لله في كل وقت وفي كل جزء من أجزاء الخير ليتم له الأجر، سواء تم مقصوده أم لا لأن النية حصلت واقترن بها ما يمكن من العمل.

﴿ 115 - 116 ﴾ ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ ﴾ ومن يخالف الرسول صلى الله عليه وسلم ويعانده فيما جاء به ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى ﴾ بالدلائل القرآنية والبراهين النبوية ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وسَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ مفرد مضاف يشمل

[49] وإذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهي عن المنكر دخل فيه النهي عن المنكر، وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف، وأيضا لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر. وأما عند الاقتران فيفسر المعروف بفعل المأمور، والمنكر بترك المنهي

سائر ما المؤمنون عليه من العقائد والأعمال ﴿ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ﴾ نتركه وما اختاره لنفسه، ونخذله فلا نوفقه للخير، لكونه رأى الحق وعلمه وتركه ﴿ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ﴾ نعذبه فيها عذابا عظيما ﴿ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ أي مرجعا له ومآلا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ لتضمنه القدح في رب العالمين وفي وحدانيته ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ إن شاء الله غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب عليه وعاقب بعدله وحكمته ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾.

﴿ 117 - 121 ﴾ ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾

﴿ إِنْ يَدْعُونَ ﴾ ما يدعو هؤلاء المشركون ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ من دون الله ﴿ إِلَّا إِنَاثًا ﴾ أي أوثانا وأصناما مسميات بأسماء الإناث كالعزى ومناة ونحوهما ﴿ وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴾ وبالحقيقة ما عبدوا غير الشيطان الذي يريد إهلاكهم، فكما أبعده الله من رحمته يسعى في إبعاد العباد عن رحمة الله. ولهذا أخبر الله عن سعيه في إغواء العباد، وتزيين الشر لهم ﴿ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾ ذكره بقوله ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ ﴾ عن الصراط المستقيم ضلالا في العلم وفي العمل ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ زين لهم ما هم فيه من الضلال وهذا زيادة شر إلى شرهم حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة وحسبوا أنها موجبة للجنة، واعتبر ذلك باليهود والنصارى ونحوهم ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ ﴾ بتقطيع آذانها، وذلك كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام فنبه ببعض ذلك على جميعه، وهذا نوع من الإضلال يقتضي تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، ويلتحق بذلك من الاعتقادات الفاسدة والأحكام الجائرة ما هو من أكبر الإضلال ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ وهذا يتناول تغيير الخلقة الظاهرة بالوشم، والوشر والنمص والتفلج للحسن، ونحو ذلك مما أغواهم به الشيطان فغيروا خلقة الرحمن[50]. ويتناول أيضا تغيير الخلقة الباطنة، فإن الله تعالى خلق عباده حنفاء مفطورين على قبول الحق وإيثاره، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشر والشرك والكفر والفسوق والعصيان ﴿ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وهذا الذي جرى عليهم من توليهم عن ربهم لعدوهم المريد لهم الشر من كل وجه ﴿ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴾ فخسروا الدنيا والآخرة ﴿ يَعِدُهُمْ ﴾ الشيطان الذي يسعى في إضلالهم ﴿ وَيُمَنِّيهِمْ ﴾ والوعد يشمل حتى الوعيد فإنه يعدهم إذا أنفقوا في سبيل الله افتقروا، ويخوفهم إذا جاهدوا بالقتل وغيره وعند إيثار مرضاة الله حتى يكسلوا عن فعل الخير ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ يمنيهم الأماني الباطلة التي هي عند التحقيق كالسراب. ومن انقاد

[50] وذلك يتضمن التسخط من خلقته والقدح في حكمته، واعتقاد أن ما يصنعون بأيديهم أحسن من خلقة الرحمن، وعدم الرضا بتقديره وتدبيره،

للشيطان وأعرض عن ربه ﴿ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي مستقرهم النار ﴿ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ أي مخلصا ولا ملجأ بل هم خالدون فيها.

﴿ 122 ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقَدَر خيره وشره ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ الناشئة عن الإيمان. وهذا يشمل سائر المأمورات من واجب ومستحب ﴿ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾.

﴿ 123 - 124﴾ ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾

﴿ لَيْسَ ﴾ الأمر والنجاة والتزكية ﴿ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ والأماني أحاديث النفس المجردة عن العمل، وهذا عامّ في كل أمر، فكيف بأمر الإيمان والسعادة الأبدية! فالأعمال تصدق الدعوى أو تكذبها ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا ﴾ وهذا شامل لأي ذنب كان من صغائر الذنوب وكبائرها ﴿ يُجْزَ بِهِ ﴾ وشامل أيضا لكل جزاء قليل أو كثير، دنيوي أو أخروي ﴿ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا ﴾ يحصل له المطلوب ﴿ وَلَا نَصِيرًا ﴾ يدفع عنه المرهوب ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ ﴾ دخل في ذلك سائر الأعمال القلبية والبدنية، ودخل أيضا كل عامل من إنس أو جن ﴿ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ وهذا شرط لجميع الأعمال، لا تكون صالحة ولا تقبل ولا يترتب عليها الثواب ولا يندفع بها العقاب إلا بالإيمان ﴿ فَأُولَئِكَ ﴾ الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ﴾ المشتملة على ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ لا قليلا ولا كثيرا مما عملوه من الخير.

﴿ 125﴾ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ لا أحد أحسن من دين من جمع بين إسلام الوجه لله الدال على استسلام القلب وإخلاصه، وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله ﴿ وَهُوَ ﴾ مع هذا الإخلاص والاستسلام ﴿ مُحْسِنٌ ﴾ متبع لشريعة الله ﴿ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي دينه وشرعه ﴿ حَنِيفًا ﴾ مائلا عن الشرك إلى التوحيد، وعن التوجه للخلق إلى الإقبال على الخالق ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ والخُلة أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليلين محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأما المحبة من الله فهي لعموم المؤمنين، وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلا لأنه وفَّى بما أُمر به وقام بما ابْتُلي به، فجعله الله إماما للناس، واتخذه خليلا، ونوه بذكره في العالمين.

﴿ 126﴾ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ﴾

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الجميع ملكه وعبيده، فهم المملوكون وهو المالك المتفرد بتدبيرهم ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ﴾ أحاط علمه بجميع المعلومات ودانت له جميع الأشياء.

﴿127﴾ ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ ﴾ الاستفتاء طلب السائل من المسئول بيان الحكم الشرعي في المسئول عنه. فأخبر عن المؤمنين أنهم يستفتون الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ فِي ﴾ حكم ﴿ النِّسَاءِ ﴾ فتولى الله هذه الفتوى بنفسه: ﴿ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ فاعملوا على ما أفتاكم به في جميع شئون النساء، من القيام بحقوقهن وترك ظلمهن عموما وخصوصا. وهذا أمر عام يشمل جميع ما شرع الله أمرا ونهيا في حق النساء الزوجات وغيرهن، الصغار والكبار. ثم خص -بعد التعميم- الوصية بالضعاف من اليتامى والولدان اهتماما بهم وزجرا عن التفريط في حقوقهم ﴿ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ ﴾ أي ويفتيكم أيضا بما يتلى عليكم في الكتاب في شأن اليتامى من النساء ﴿ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ﴾ وهذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة في ذلك الوقت، فإن اليتيمة إذا كانت تحت ولاية الرجل بخسها حقها وظلمها، إما بأكل مالها الذي لها أو بعضه، أو منعها من التزوج لينتفع بمالها، خوفا من استخراجه من يده إنْ زوَّجها، أو يأخذ من مهرها الذي تتزوج به بشرط أو غيره، هذا إذا كان راغبا عنها، أو يرغب فيها وهي ذات جمال ومال ولا يقسط في مهرها، بل يعطيها دون ما تستحق، فكل هذا ظلم يدخل تحت هذا النص ولهذا قال: ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ أي ترغبون عن نكاحهن أو في نكاحهن كما ذكرنا ﴿ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ ﴾ أي ويفتيكم في المستضعفين من الولدان الصغار، أن تعطوهم حقهم من الميراث وغيره وأن لا تستولوا على أموالهم على وجه الظلم والاستبداد ﴿ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ ﴾ أي بالعدل التام، وهذا يشمل القيام عليهم بإلزامهم أمر الله وفي مصالحهم الدنيوية بتنمية أموالهم وطلب الأحظ لهم فيها، وأن لا يقربوها إلا بالتي هي أحسن ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ ﴾ لليتامى ولغيرهم سواء كان الخير متعديا أو لازما ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾ أي قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير، قلة وكثرة، حسنا وضده، فيجازي كُلًّا بحسب عمله.

﴿128﴾ ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾ إذا خافت المرأة نشوز زوجها أي ترفعه عنها وعدم رغبته فيها وإعراضه عنها ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ فالأحسن في هذه الحالة ﴿ أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾ فإذا اتفقا على هذه الحالة فلا جناح ولا بأس عليها ولا على الزوج ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ وهي خير من الفرقة، ويؤخذ من عموم هذا اللفظ

والمعنى أن الصلح بين مَن بينهما حق أو منازعة في جميع الأشياء أنه خير. وهو جائز في جميع الأشياء إلا إذا أحلّ حراما أو حرّم حلالا ﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ أي جبلت النفوس طبعا على الشح وهو عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له. فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخُلُق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده وهو السماحة، وهو بذل الحق الذي عليك والاقتناع ببعض الحق الذي لك ﴿ وَإِنْ تُحْسِنُوا ﴾ أي تحسنوا في عبادة الخالق بأن يعبد العبد ربه كأنه يراه وتحسنوا إلى المخلوقين بجميع الطرق ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ الله بفعل جميع المأمورات وترك جميع المحظورات أو تحسنوا بفعل المأمور، وتتقوا بترك المحظور ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ قد أحاط به علما وخبرا، بظاهره وباطنه، فيحفظه لكم، ويجازيكم عليه أتم الجزاء.

﴿ 129﴾ ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا}

﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ يخبر تعالى أن الأزواج لا يستطيعون وليس في قدرتهم العدل التام بين النساء، وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والداعي على السواء، والميل في القلب إليهن على السواء، ثم العمل بمقتضى ذلك. وهذا متعذر غير ممكن، فلذلك عفا الله عما لا يستطاع، ونهى عما هو ممكن بقوله ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ أي لا تميلوا ميلا كثيرا بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل. فالنفقة والكسوة والقسم ونحوها عليكم أن تعدلوا بينهن فيها، بخلاف الحب والوطء ونحو ذلك، فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح وتستعد للتزوج، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها ﴿ وَإِنْ تُصْلِحُوا﴾ ما بينكم وبين زوجاتكم، بإجبار أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس، احتسابا وقياما بحق الزوجة، وتصلحوا أيضا فيما بينكم وبين الناس، وتصلحوا أيضا بين الناس فيما تنازعوا فيه ﴿ وَتَتَّقُوا الله ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ يغفر ما صدر منكم من الذنوب والتقصير في الحق الواجب، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتموهن.

﴿ 130﴾ ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾

﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا ﴾ إذا تعذر الاتفاق فإنه لا بأس بالفراق بطلاق أو فسخ أو خلع أو غير ذلك، وعندها ﴿ يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا ﴾ من الزوجين ﴿ مِنْ سَعَتِهِ ﴾ من فضله وإحسانه الواسع الشامل. فيغني الزوج بزوجة خير له منها، ويغنيها من فضله، ولعل الله يرزقها زوجا خيرا منه ﴿ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا ﴾ أي كثير الفضل واسع الرحمة، وصلت رحمته وإحسانه إلى حيث وصل إليه علمه ﴿ حَكِيمًا ﴾ يعطي بحكمة، ويمنع لحكمة.

﴿ 131 ، 132﴾ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم الواسع المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير، وتصرفه بأنواع التصريف ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فوصى الأولين والآخرين أهل الكتب السابقة واللاحقة بالتقوى ﴿ وَإِنْ تَكْفُرُوا ﴾ بأن تتركوا تقوى الله، وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ فإنكم لا تضرون بذلك إلا أنفسكم، ولا تضرون الله شيئا ولا تنقصون ملكه، وله عبيد خير منكم وأعظم وأكثر، مطيعون له خاضعون لأمره ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا ﴾ له الجود الكامل والإحسان الشامل ﴿ حَمِيدًا ﴾ مستحق لكل حمد ومحبة وثناء وإكرام. وما أحسن اقتران هذين الاسمين الكريمين فإنه غني محمود، فله كمال من غناه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ كرر إحاطة ملكه لما في السماوات وما في الأرض، وأنه على كل شيء وكيل، أي عالم قائم بتدبير الأشياء على وجه الحكمة، فإن الوكالة تستلزم العلم بما هو وكيل عليه، والقوة والقدرة على تنفيذه وتدبيره.

﴿ 133 - 134﴾ ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا * مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾

﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ غيركم هم أطوع لله منكم وخير منكم، وفي هذا تهديد للناس على إقامتهم على كفرهم وإعراضهم عن ربهم ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴾ لا يعبأ بهم شيئا إن لم يطيعوه، ولكنه يمهل ويملي ولا يهمل ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ ثم أخبر أن مَن كانت همته وإرادته دنية غير متجاوزة ثواب الدنيا، فلا يحصل له من ثواب الدنيا سوى ما كتب الله له منها، فإنه تعالى هو المالك لكل شيء الذي عنده ثواب الدنيا والآخرة، فليطلبا منه ويستعان به عليهما ﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ وله الحكمة تعالى في توفيق من يوفقه، وخذلان من يخذله وفي عطائه ومنعه.

﴿ 135﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا ﴿ قَوَّامِينَ ﴾ والقوَّام صيغة مبالغة، أي كونوا في كل أحوالكم قائمين ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ وهو العدل في حقوق الله ﴿ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ فلا يستعان بنعمه على معصيته، بل

تصرف في طاعته. وفي حقوق عباده بأن تؤدي جميع الحقوق التي عليك[51] ﴿ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا ﴾ أي فلا تراعوا الغني لغناه، ولا الفقير بزعمكم رحمة له، بل اشهدوا بالحق على من كان ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق، فمن سلم من هوى نفسه وفق للحق وهدي إلى الصراط المستقيم ﴿ وَإِنْ تَلْوُوا ﴾ أي لي اللسان عن الحق في الشهادات وغيرها، وتحريف النطق عن الصواب المقصود من كل وجه، أو من بعض الوجوه، ويدخل في ذلك تحريف الشهادة وعدم تكميلها، أو تأويل الشاهد على أمر آخر، فإن هذا من اللي لأنه الانحراف عن الحق ﴿ أَوْ تُعْرِضُوا ﴾ أي تتركوا القسط المنوط بكم، كترك الشاهد لشهادته، وترك الحاكم لحكمه الذي يجب عليه القيام به ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ محيط بما فعلتم، يعلم أعمالكم خفيها وجليها، وفي هذا تهديد شديد للذي يلوي أو يعرض. ومن باب أولى وأحرى الذي يحكم بالباطل أو يشهد بالزور، لأنه أعظم جرما، لأن الأولين تركا الحق، وهذا ترك الحق وقام بالباطل.

﴿136﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أمر المؤمنين بالإيمان بما يقتضي أمرهم بما يصحح إيمانهم من الإخلاص والصدق، وتجنب المفسدات والتوبة من جميع المنقصات. ويقتضي أيضا الأمر بتدارك ماينقص المؤمن من علوم الإيمان وأعماله. وأمر هنا بالإيمان به وبرسوله ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ وبالقرآن ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ وبالكتب المتقدمة، فهذا كله من الإيمان الواجب الذي لا يكون العبد مؤمنا إلا به ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ وأي ضلال أبعد من ضلال من ترك طريق الهدى المستقيم؟ واعلم أن الكفر بشيء من هذه المذكورات كالكفر بجميعها، لتلازمها وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض.

﴿137﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا ﴾ فمن تكرر منه الكفر بعد الإيمان فاهتدى ثم ضل، وأبصر ثم عمي، وآمن ثم كفر واستمر على كفره وازداد منه ﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ فإنه بعيد من التوفيق والهداية لأقوم الطريق، وبعيد من المغفرة لكونه أتى بأعظم مانع يمنعه من حصولها. فإن كفره يكون عقوبة وطبعًا لا يزول[52].

---

[51] وأن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به. ومن أعظم أنواع القسط ألا يحكم لأحد المتنازعين لانتسابه أو ميله لأحدهما، بل يجعل وجهته العدل بينهما. ومن القسط أداء الشهادة التي عندك على أي وجه كان، حتى على الأحباب بل على النفس.

[52] ودلت الآية: أنهم إن لم يزدادوا كفرا بل رجعوا إلى الإيمان، وتركوا ما هم عليه من الكفران، فإن الله يغفر لهم، ولو تكررت منهم الردة. وإذا كان هذا الحكم في الكفر فغيره من المعاصي التي دونه من باب أولى أن العبد لو تكررت منه ثم عاد إلى التوبة، عاد الله له بالمغفرة.

﴿ 138 – 139﴾ ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾

﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ ﴾ الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، والبشارة تستعمل في الخير وتستعمل في الشر بقيد ﴿ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ بَشِّرهم بأقبح بشارة وأسوئها، وهو العذاب الأليم ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وذلك بسبب محبتهم الكفار وموالاتهم ونصرتهم، وتركهم لموالاة المؤمنين، فأي شيء حملهم على ذلك؟ ﴿ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ ﴾ بعد أن ساء ظنهم بالله وضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ونواصي العباد بيده، ومشيئته نافذة فيهم. وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين[53].

﴿ 140 – 141﴾ ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا *الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ ﴾ بيَّن الله لكم فيما أنزل عليكم حكمه الشرعي عند حضور مجالس الكفر والمعاصي ﴿ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ أي يستهان بها، ويدخل في ذلك مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله ونصر كفرهم، وكذلك المبتدعون على اختلاف أنواعهم، فإن احتجاجهم على باطلهم يتضمن الاستهانة بآيات الله لأنها لا تدل إلا على حق، ولا تستلزم إلا صدقا، بل وكذلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق التي يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه. ومنتهى هذا النهي: ﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ أي غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا ﴾ إن قعدتم معهم في الحال المذكورة ﴿ مِثْلُهُمْ ﴾ لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها. والحاصل أن من حضر مجلسا يعصى الله به، فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم مع القدرة، أو القيام مع عدمها ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ كما اجتمعوا على الكفر والموالاة ولا ينفع الكافرين مجرد كونهم في الظاهر مع المؤمنين ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ﴾ أي ينتظرون الحالة التي تصيرون عليها، وتنتهون إليها من خير أو شر، قد أعدوا لكل حالة جوابا بحسب نفاقهم ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ فيظهرون أنهم مع المؤمنين ظاهرا وباطنا ليسلموا من القدح والطعن عليهم، وليشركوهم في الغنيمة والفيء ولينتصروا بهم ﴿ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ ﴾ ولم يقل فتح؛ لأنه لا يحصل لهم فتح، يكون مبدأ لنصرتهم المستمرة، بل غاية ما يكون أن يكون لهم نصيب غير مستقر، حكمة من الله. فإذا كان ذلك ﴿ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي نستولي عليكم ﴿ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي يتصنعون عندهم بكف أيديهم

---

[53] وفي هذه الآية الترهيب العظيم من موالاة الكافرين؛ وترك موالاة المؤمنين، وأن ذلك من صفات المنافقين، وأن الإيمان يقتضي محبة المؤمنين وموالاتهم، وبغض الكافرين وعداوتهم.

عنهم مع القدرة، ومنعهم من المؤمنين بجميع وجوه المنع في تفنيدهم وتزهيدهم في القتال، ومظاهرة الأعداء عليهم ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ فيجازي المؤمنين ظاهرا وباطنا بالجنة، ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ أي تسلطا واستيلاء عليهم، بل لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم.

﴿ 142 - 143 ﴾ ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا * مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ ظنوا أنه يروج على الله ولا يعلمه ولا يبديه لعباده، والحال أن الله خادعهم ﴿ وَ ﴾ من صفاتهم أنهم ﴿ إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ التي هي أكبر الطاعات العملية ﴿ قَامُوا كُسَالَى ﴾ متثاقلين لها متبرمين من فعلها. والكسل لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم ﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ ﴾ يقصدون رؤية الناس وتعظيمهم واحترامهم ولا يخلصون لله ﴿ وَ ﴾ لهذا ﴿ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ لامتلاء قلوبهم من الرياء ﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾ مترددين بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين. فلا من المؤمنين ظاهرا وباطنا، ولا من الكافرين ظاهرا وباطنا. أعطوا باطنهم للكافرين وظاهرهم للمؤمنين، وهذا أعظم ضلال يقدر ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ لن تجد طريقا لهدايته لأنه انغلق عنه باب الرحمة.

﴿ 144 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ نهى عباده المؤمنين أن يتصفوا بهذه الحالة القبيحة وأن يشابهوا المنافقين ﴿ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ فسلوكها بعد هذا موجب للعقاب. وفي هذه الآية دليل على أن الله لا يُعَذِّب أحدا قبل قيام الحجة عليه، وفيه التحذير من المعاصي؛ فإن فاعلها يجعل لله عليه سلطانا مبينا.

﴿ 145 - 147 ﴾ ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ يخبر تعالى عن مآل المنافقين أنهم في أسفل الدركات من العذاب. فهم تحت سائر الكفار لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ وليس لهم منقذ من عذابه. وهذا عام لكل منافق ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ مَنَّ الله عليهم بالتوبة ﴿ وَأَصْلَحُوا ﴾ الظواهر والبواطن ﴿ وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ ﴾ والتجأوا إليه في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم ﴿ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ الذي هو

الإسلام والإيمان والإحسان لِلَّهِ. فمن اتصف بهذه الصفات ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ لا يعلم كنهه إلا الله[54] ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ ﴾ بخضوع القلب واعترافه بنعمة الله، وثناء اللسان على المشكور، وعمل الجوارح بطاعته وأن لا يستعين بنعمه على معاصيه ﴿ وَآمَنْتُمْ ﴾ فإذا أنبتم إليه، فأي شيء يفعل بعذابكم؟ فإنه لا يتشفى بعذابكم، ولا ينتفع بعقابكم، بل العاصي لا يضر إلا نفسه، كما أن عمل المطيع لنفسه ﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾.

الجزء السادس 6

﴿148 - 149﴾ ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا * إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء كالشتم والقذف والسب ونحو ذلك فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي يبغضه الله[55]﴿ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ ﴾ فإنه يجوز له أن يدعو على من ظلمه ويجهر بالسوء لمن جهر له به، من غير أن يكذب عليه ولا يزيد على مظلمته، ومع ذلك فعفوه وعدم مقابلته أولى ﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا ﴾ يسمع أقوالكم، فاحذروا أن تتكلموا بما يغضب ربكم فيعاقبكم على ذلك ﴿ عَلِيمًا ﴾ بنياتكم ومصدر أقوالكم، ففيه أيضا ترغيب على القول الحسن ﴿ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ وهذا يشمل كل خير قوليّ وفعليّ، ظاهر وباطن، من واجب ومستحب ﴿ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ ﴾ أي عمن ساءكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم، فمن عفا لله عفا الله عنه، ومن أحسن أحسن الله إليه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ يعفو عن زلات عباده وذنوبهم العظيمة فيسدل عليهم ستره، ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته[56].

﴿ 150 - 152 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

---

[54] وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: وَأَصْلَحُوا لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما خصوصا في هذا المقام الحرج الذي يمكن من القلوب النفاق. وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: وسوف يؤتيهم أجرا عظيما، مع أن السياق فيهم. بل قال: وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا لأن هذه القاعدة الشريفة -لم يزل الله يبدئ فيها ويعيد، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يرتب عليه ثوابًا أو عقابا وكان ذلك مشتركًا بينه وبين الجنس الداخل فيه، رتب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها، ولئلا يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي، فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالتائب من المنافقين مع المؤمنين وله ثوابهم.

[55] ويدل مفهومها أنه يحب الحسن من القول كالذكر والكلام الطيب اللين

[56] وفي هذه الآية إرشاد إلى التفقه في معاني أسماء الله وصفاته، وأن الخلق والأمر صادر عنها، وهي مقتضية له، ولهذا يعلل الأحكام بالأسماء الحسنى، كما في هذه الآية.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ هنا قسمان قد وضحا لكل أحد: مؤمنٌ بالله وبرسله كلِّهم وكتبه، وكافرٌ بذلك كله. وبقي قسم ثالث: وهو الذي يزعم أنه يؤمن ببعض الرسل دون بعض، ويريدون التفريق بين الله وبين رسله. فإن من تولى الله حقيقة تولى جميع رسله ومن كفر برسول فقد كفر بجميع الرسل، بل بالرسول الذي يزعم أنه به مؤمن ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ وذلك لئلا يتوهم أن مرتبتهم متوسطة بين الإيمان والكفر: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ كما تكبروا عن الإيمان بالله، أهانهم بالعذاب الأليم المخزي ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ وهذا يتضمن الإيمان بكل ما أخبر الله به عن نفسه وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام ﴿ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ أي من رسله، بل آمنوا بهم كلهم ﴿ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ كُلٌّ على حسب حاله جزاء إيمانهم وما ترتب عليه من عمل صالح ولعل هذا هو السر في إضافة الأجور إليهم ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ يغفر السيئات ويتقبل الحسنات.

﴿ 153 - 161 ﴾ ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا * وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا * فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

﴿ يَسْأَلُكَ ﴾ سأل ﴿ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ جملة واحدة أي أن ينزل عليهم القرآن كما نزلت التوراة والإنجيل ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ ﴾ وأخبر أنه سبق لهم من المقدمات القبيحة مع الرسول الذي يزعمون أنهم آمنوا به ما هو أعظم ﴿ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ بسؤالهم له رؤية الله عيانا ﴿ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ ﴾ واتخاذهم العجل إلهًا يعبدونه ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ ورأوا بأبصارهم ما لم يره غيرهم، ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم وهو التوراة ﴿ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا. وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ ﴾ حتى رفع الطور من فوق رءوسهم وهددوا أنهم إن لم يؤمنوا أسقط عليهم، فقبلوا ذلك على وجه الإغماض والإيمان الشبيه بالإيمان الضروري ﴿ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية التي أمروا بدخولها سجدا مستغفرين، فخالفوا القول والفعل ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ ﴾ ومن اعتداء من اعتدى منهم في السبت فعاقبهم الله عقوبة شنيعة ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا

غَلِيظًا﴾ فنبذوه وراء ظهورهم ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ وكفروا بآيات الله وقتلوا رسله بغير حق ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ وادعائهم أن قلوبهم غلف لا تفقه ما تقول لهم ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ كذلك ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَ ﴾ الحال أنهم ﴿ مَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ غيره، فقتلوا غيره وصلبوه ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ يحتمل أن الضمير هنا في قوله قَبْلَ مَوْتِهِ يعود إلى أهل الكتاب. فيكون على هذا كل كتابي يحضره الموت ويعاين الأمر حقيقة، فإنه يؤمن بعيسى عليه السلام ولكنه إيمان لا ينفع، إيمان اضطرار، فيكون مضمون هذا التهديد لهم والوعيد أن لا يستمروا على هذه الحال التي سيندمون عليها قبل مماتهم، فكيف يكون حالهم يوم حشرهم وقيامهم؟ ويحتمل أن الضمير في قوله قَبْلَ مَوْتِهِ راجع إلى عيسى عليه السلام، فيكون المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام قبل موت المسيح، وذلك يكون عند اقتراب الساعة وظهور علاماتها الكبار[57] ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ ثم أخبر تعالى أنه ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي على أهل الكتاب، تحريم عقوبة بسبب ظلمهم[58] ﴿ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ كانت حلالا عليهم ﴿ وَبِصَدِّهِمْ ﴾ الناس ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ عن الحق ﴿ كَثِيرًا ﴾ ودعوهم إلى ما هم عليه من الضلال والغي ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا ﴾ والسحت ﴿ وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ﴾ مع نهي الله لهم عنه والتشديد فيه ﴿ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فالذين فعلوا هذه الأفاعيل لا يستنكر عليهم أن يسألوا الرسول محمدا أن ينزل عليهم كتابا من السماء، وهذه الطريقة من أحسن الطرق لمحاجة الخصم المبطل.

﴿ 162 ﴾ ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ ﴾ الذين ثبت العلم في قلوبهم ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ ورسخ الإيقان في أفئدتهم ﴿ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ وأثمر لهم الأعمال الصالحة فصاروا من ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فخافوا الوعيد ورجوا الوعد ﴿ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ لأنهم جمعوا بين العلم والإيمان والعمل الصالح، والإيمان بالكتب والرسل السابقة واللاحقة.

---

[57] فإنه تكاثرت الأحاديث الصحيحة في نزوله عليه السلام في آخر هذه الأمة. يقتل الدجال، ويضع الجزية، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين. ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيدا، يشهد عليهم بأعمالهم، وهل هي موافقة لشرع الله أم لا؟ وحينئذ لا يشهد إلا ببطلان كل ما هم عليه، مما هو مخالف لشريعة القرآن وَلِمَا دعاهم إليه محمد صلى الله عليه وسلم، علمنا بذلك، لِعِلْمِنَا بكمال عدالة المسيح عليه السلام وصدقه، وأنه لا يشهد إلا بالحق، إلا أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق وما عداه فهو ضلال وباطل.

[58] وأما التحريم الذي على هذه الأمة فإنه تحريم تنزيه لهم عن الخبائث التي تضرهم في دينهم ودنياهم.

﴿ 163 – 165 ﴾ ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ﴿ كَمَا أَوْحَيْنَا ﴾ ما أوحى ﴿ إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ وهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[59] ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ ثم ذكر تخصيص بعضهم ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ وهو الكتاب المعروف المزبور الذي خص الله به داود عليه السلام لفضله وشرفه ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ وهذا يدل على كثرتهم ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ وأنه كلم موسى تكليما أي مشافهة منه إليه لا بواسطة ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ ﴾ لمن أطاع الله واتبعهم، بالسعادة الدنيوية والأخروية ﴿ وَمُنْذِرِينَ ﴾ من عصى الله وخالفهم بشقاوة الدارين ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ فلم يبق للخَلْق على الله حجة لإرساله الرسل تترى يبينون لهم أمر دينهم ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ وهذا من كمال عزته تعالى وحكمته وفضله وإحسانه.

﴿ 166 ﴾ ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾

﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾ أخبر هنا بشهادته تعالى على رسالته وصحة ما جاء به، وأنه ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ يحتمل أن يكون المراد أنزله مشتملا على علمه، أي فيه علوم وأحكام وأخبار من علم الله تعالى. ويحتمل أن يكون المراد: أنزله صادرا عن علمه، فيكون المعنى: إذا كان تعالى أنزل هذا القرآن فمن أجابه وصدقه كان وليه، ومن كذبه وعاداه كان عدوه ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾.

﴿ 167 – 169 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ جمعوا بين الكفر وصدِّهم الناس عن سبيل الله، وهؤلاء هم أئمة الكفر ودعاة الضلال ﴿ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ وأي ضلال أعظم من ضلال من ضل بنفسه وأضل غيره ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا ﴾ وهذا الظلم هو زيادة على كفرهم، وإلا فالكفر عند إطلاق الظلم يدخل فيه. والمراد بالظلم هنا أعمال الكفر والاستغراق فيه، فهؤلاء بعيدون من المغفرة والهداية للصراط المستقيم، ولهذا قال ﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ

[59] وفي هذا عدة فوائد: 1- أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس ببدع من الرسل، بل أرسل الله قبله من المرسلين العدد الكثير والجم الغفير فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل والعناد. 2- أنه أوحى إليه كما أوحى إليهم من الأصول والعدل الذي اتفقوا عليه، وأن بعضهم يصدق بعضا ويوافق بعضهم بعضا. 3 - أنه من جنس هؤلاء الرسل، فليعتبره المعتبر بإخوانه المرسلين، فدعوته دعوتهم؛ وأخلاقهم متفقة؛ ومصدرهم واحد؛ وغايتهم واحدة، فلم يقرنه بالمجهولين؛ ولا بالكذابين ولا بالملوك الظالمين. 4- أن في ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم من التنويه بهم، والثناء الصادق عليهم، وشرح أحوالهم مما يزداد به المؤمن إيمانا بهم ومحبة لهم، واقتداء بهديهم.

طَرِيقًا. إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ وإنما تعذرت المغفرة لهم والهداية لأنهم استمروا في طغيانهم، وازدادوا في كفرانهم فطبع على قلوبهم وانسدت عليهم طرق الهداية بما كسبوا ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ لا يبالي الله بهم ولا يعبأ، لأنهم لا يصلحون للخير، ولا يليق بهم إلا الحالة التي اختاروها لأنفسهم.

﴿ 170 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يأمر تعالى جميع الناس أن يؤمنوا بعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم. والسبب الموجب هو أنه جاءهم بالحق. فمجيئه حق، وما جاء به من الشرع حق ﴿ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾ وكلما ازداد العبد بصيرة بهذا، ازداد إيمانه ويقينه ﴿ وَإِنْ تَكْفُرُوا ﴾ فالله تعالى غني عنه لا تضره معصية العاصين ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي الجميع خلقه وملكه، وتحت تدبيره وتصريفه ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بمن يستحق الهداية والغواية وبكل شيء ﴿ حَكِيمًا ﴾ في خلقه وأمره وفي وضع الهداية والغواية موضعهما.

﴿ 171 ﴾ ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين وهو مجاوزة الحد والقدر المشروع إلى ما ليس بمشروع[60] ﴿ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ وهذا الكلام يتضمن ثلاثة أشياء: أمرين منهي عنهما، وهما قول الكذب على الله، والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه ورسله، والثالث: مأمور به وهو قول الحق في هذه الأمور ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ أي غاية المسيح عليه السلام ومنتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي درجة الرسالة التي هي أعلى الدرجات وأجلّ المثوبات ﴿ وَ ﴾ أنه ﴿ كَلِمَتُهُ ﴾ التي ﴿ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾ أي كلمة تكلم الله بها فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما كان بها، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم. وكذلك قوله ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ أي من الأرواح التي خلقها وكملها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل الله روحه جبريل عليه السلام فنفخ في فرج مريم عليها السلام، فحملت بإذن الله بعيسى عليه السلام. فلما بيّن حقيقة عيسى عليه السلام قال ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ﴾ أمر أهل الكتاب بالإيمان به وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة أحدهم عيسى، والثاني مريم، فهذه مقالة النصارى قبحهم الله ﴿ انْتَهُوا ﴾ فأمرهم أن ينتهوا ﴿ خَيْرًا لَكُمْ ﴾ وأخبر أن ذلك خير لهم ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ هو المنفرد بالألوهية، لا تنبغي العبادة إلا له ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أي تنزه وتقدس ﴿ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ فالكل مملوكون له مفتقرون

[60] وذلك كقول النصارى في غلوهم بعيسى عليه السلام، ورفعه عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله، فكما أن التقصير والتفريط من المنهيات، فالغلو كذلك

إليه، فمحال أن يكون له شريك أو ولد ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ولما أخبر أنه المالك للعالم العلوي والسفلي أخبر أنه قائم بمصالحهم الدنيوية والأخروية وحافظها، ومجازيهم عليها تعالى ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾.

﴿ 172 - 173 ﴾ ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ ﴾ لا يمتنع ﴿ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ ﴾ لا هو ﴿ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ فنزههم عن الاستنكاف. ولا يظن أن رفع عيسى أو غيره من الخلق فوق مرتبته التي أنزله الله فيها وترفعه عن العبادة كمالا، بل هو النقص بعينه، ولهذا قال: ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ أي فسيحشر الخلق كلهم إليه، المستنكفين والمستكبرين وعباده المؤمنين، فيحكم بينهم بحكمه العدل، وجزائه الفصل ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي جمعوا بين الإيمان المأمور به وعمل الصالحات من واجبات ومستحبات ﴿ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أي الأجور التي رتبها على الأعمال كُلٌّ بحسب إيمانه وعمله ﴿ وَيَزِيدُهُم مِن فَضْلِهِ ﴾ من الثواب الذي لم تنله أعمالهم ولم تصل إليه أفعالهم، ولم يخطر على قلوبهم. ودخل في ذلك كل ما في الجنة، بل كل خير ديني ودنيوي رتب على الإيمان والعمل الصالح ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا ﴾ عن عبادة الله تعالى ﴿ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وهو سخط الله وغضبه، والنار الموقدة التي تطلع على الأفئدة ﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا ﴾ من الخلق يتولاهم فيحصل لهم المطلوب ﴿ وَلَا نَصِيرًا ﴾ يدفع عنهم المرهوب، فقد تخلى عنهم أرحم الراحمين، وما حكم به تعالى فلا رادّ لحكمه ولا مغيّر لقضائه.

﴿ 174 - 175 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ يمتن تعالى على سائر الناس بما أوصل إليهم من البراهين القاطعة ﴿ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ تبينه وتوضحه وتبين ضده. وفي قوله: مِن رَّبِّكُمْ ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ وهو هذا القرآن العظيم، فالناس في ظلمة إن لم يستضيئوا بأنواره. ولكن انقسم الناس قسمين ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ ﴾ واعترفوا بوجوده واتصافه بكل وصف كامل، وتنزيهه من كل نقص وعيب ﴿ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ﴾ أي لجأوا إلى الله واعتمدوا عليه وتبرأوا من حولهم وقوتهم ﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ﴾ وسيتغمدهم بالرحمة الخاصة، فيوفقهم للخيرات ويجزل لهم المثوبات ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ أي يوفقهم لمعرفة الحق والعمل به. وواضح هنا أن من لم يؤمن بالله ويعتصم به ويتمسك بكتابه، منعهم من رحمته، وحرمهم من فضله عقوبة لهم.

﴿ 176﴾ ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ أخبر تعالى أن الناس استفتوا رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ وهي الميت يموت وليس له ولد صلب ولا ولد ابن ولا أب ولا جد ﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ لا ذكر ولا أنثى، لا ولد صلب ولا ولد ابن وكذلك ليس له والد ﴿ وَلَهُ أُخْتٌ ﴾ أي شقيقة أو لأب، لا لأم، فإنه قد تقدم حكمها ﴿ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾ أي نصف متروكات أخيها، وذلك من بعد الدين والوصية كما تقدم ﴿ وَهُوَ ﴾ أي أخوها الشقيق أو الذي للأب ﴿ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ﴾ ولم يقدر له إرثا لأنه عاصب فيأخذ مالها كله، إن لم يكن صاحب فرض ولا عاصب يشاركه، أو ما أبقت الفروض ﴿ فَإِن كَانَتَا ﴾ أي الأختان ﴿ اثْنَتَيْنِ ﴾ فما فوق ﴿ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً ﴾ أي اجتمع الذكور من الإخوة لغير أم مع الإناث ﴿ فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ فيسقط فرض الإناث ويعصبهن إخوتهن ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ﴾ أي يبين لكم أحكامه التي تحتاجونها لئلا تضلوا عن الصراط المستقيم بسبب جهلكم وعدم علمكم ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي عالم بالغيب والشهادة والأمور الماضية والمستقبلة، ويعلم حاجتكم إلى بيانه وتعليمه، فيعلمكم من علمه الذي ينفعكم على الدوام في جميع الأزمنة والأمكنة.

آخر مختصر تفسير سورة النساء

فلله الحمد والشكر

5

مختصر تفسير سورة المائدة

عدد آياتها 120

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود، أي بإكمالها وإتمامها وعدم نقضها ونقصها. وهذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربه، بينه وبين الرسول، بينه وبين الخلق، بل والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم بالتناصر على الحق وعدم التقاطع. فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ ﴾ أي لأجلكم، رحمة بكم ﴿ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ ﴾ من الإبل والبقر والغنم، بل ربما دخل في ذلك الوحشي منها، والظباء وحمر الوحش ونحوها من الصيود. واستدل بعض الصحابة بهذه الآية على إباحة الجنين الذي يموت في بطن أمه بعدما تذبح ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ تحريمه منها فهي وإن كانت من بهيمة الأنعام فإنها محرمة. ولما كانت الإباحة عامة في جميع الأحوال والأوقات، استثنى منها الصيد في حال الإحرام ﴿ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ متجرئون على قتله في حال الإحرام، وفي الحرم، فإن ذلك لا يحل لكم إذا كان صيدا من الحيوان المأكول المتوحش ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ فمهما أراده تعالى حكم به حكما موافقا لحكمته. وأحل لكم بهيمة الأنعام رحمة بكم، وحرم عليكم ما استثنى منها من ذوات العوارض، من الميتة ونحوها، صونا لكم واحتراما، ومن صيد الإحرام احتراما للإحرام وإعظاما.

﴿ 2 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ أي محرماته التي أمركم بتعظيمها، وعدم فعلها، واعتقاد حلها ﴿ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ أي لا تنتهكوه بالقتال فيه وغيره من أنواع الظلم. والجمهور من العلماء على أن القتال في الأشهر

الحرم منسوخ بالآيات التي فيها الأمر بقتال الكفار مطلقا، والوعيد في التخلف عن قتالهم مطلقا[1] ﴿ وَلَا الْهَدْيَ ﴾ ولا تحلوا الهدي من نعم وغيرها الذي يهدى إلى بيت الله في حج أو عمرة أو غيرهما، فلا تصدوه عن الوصول إلى محله، ولا تأخذوه بسرقة أو غيرها، ولا تقصروا به، أو تحملوه ما لا يطيق، خوفا من تلفه قبل وصوله إلى محله، بل عظموه وعظموا من جاء به ﴿ وَلَا الْقَلَائِدَ ﴾ وهو الهدي الذي يفتل له قلائد أو عرى، فيجعل في أعناقه إظهارا لشعائر الله، وليعرف أنه هدي فيحترم. ولهذا كان تقليد الهدي من السنن والشعائر المسنونة ﴿ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾ أي قاصدين له ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ بالتجارة والمكاسب المباحة ﴿ وَرِضْوَانًا ﴾ بحجه وعمرته والطواف به والصلاة وغيرها من أنواع العبادات، فلا تتعرضوا له بسوء بل أكرموه[2] ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ ﴾ بالحج والعمرة وخرجتم من الحرم ﴿ فَاصْطَادُوا ﴾ حل لكم الاصطياد وزال ذلك التحريم. والأمر بعد التحريم يرد الأشياء إلى ما كانت عليه من قبل ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ ﴾ لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم ﴿ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ واعتداؤهم عليكم حيث صدوكم عن المسجد ﴿ أَن تَعْتَدُوا ﴾ على الاعتداء عليهم طلبا للاشتفاء منهم، فإن العبد عليه أن يلتزم أمر الله ويسلك طريق العدل، ولو جُنِي عليه أو ظلم واعتدي عليه، فلا يحل له أن يكذب على من كذب عليه، أو يخون من خانه ﴿ وَتَعَاوَنُوا ﴾ ليعن بعضكم بعضا ﴿ عَلَى الْبِرِّ ﴾ وهو اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه ﴿ وَالتَّقْوَى ﴾ ولترك كل ما يكرهه الله من حقوق الله وحقوق الآدميين ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ ﴾ وهو التجرؤ على المعاصي التي يأثم صاحبها ﴿ وَالْعُدْوَانِ ﴾ وهو التعدي على الخَلْق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، فكل معصية وظلم يجب على العبد كف نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ على من عصاه وتجرأ على محارمه، فاحذروا المحارم لئلا يحل بكم عقابه العاجل والآجل.

﴿ 3 ﴾ ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

---

[1] وبأن النبي صلى الله عليه وسلم قاتل أهل الطائف في ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم. وقال آخرون: لا يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، وأما استدامته وتكميله إذا كان أوله في غيرها، فإنه يجوز. وحملوا قتال النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الطائف على ذلك، لأن أول قتالهم في "حنين" في "شوال". وكل هذا في القتال الذي ليس المقصود منه الدفع. فأما قتال الدفع إذا ابتدأ الكفار المسلمين بالقتال، فإنه يجوز للمسلمين القتال، دفعا عن أنفسهم في الشهر الحرام وغيره بإجماع العلماء.

[2] وعظموا الوافدين الزائرين لبيت ربكم. ودخل في هذا الأمرُ تأمين الطرق الموصلة إلى بيت الله وجعل القاصدين له مطمئنين مستريحين، غير خائفين على أنفسهم من القتل فما دونه، ولا على أموالهم من المكس والنهب ونحو ذلك. وهذه الآية الكريمة مخصوصة للذين آمنوا لأنه لا يُمَكَّن للمشرك الدخول إلى الحرم. كما ان التخصيص في هذه الآية يدل على أن من قصده ليلحد فيه بالمعاصي، فإن من تمام احترام الحرم صده.

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ﴾ هذا الذي حرمه الله في قوله "أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ". فأخبر أنه حرم[3] ﴿ الْمَيْتَةَ ﴾ أي ما فُقِدَت حياتُهُ بغير ذكاة شرعية[4]. ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسمك، فإنه حلال ﴿ وَالدَّمُ ﴾ المسفوح، كما قيد في الآية الأخرى ﴿ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ﴾ وذلك شامل لجميع أجزائه، وإنما نص الله عليه من بين سائر الخبائث من السباع، لأن طائفة من النصارى يزعمون أن الله أحله لهم ﴿ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ أي ذُكر عليه اسم غير الله تعالى، من الأصنام والأولياء والكواكب وغير ذلك من المخلوقين. فكما أن ذكر الله تعالى يطيب الذبيحة، فذكر اسم غيره عليها يفيدها خبثا معنويا، لأنه شرك بالله تعالى ﴿ وَالْمُنْخَنِقَةُ ﴾ أي الميتة بخنق، بيد أو حبل، أو إدخالها رأسها بشيء ضيق فتعجز عن إخراجه حتى تموت ﴿ وَالْمَوْقُوذَةُ ﴾ أي الميتة بسبب الضرب بعصا أو حصى أو خشبة أو هدم شيء عليها بقصد أو بغير قصد ﴿ وَالْمُتَرَدِّيَةُ ﴾ أي الساقطة من علو كجبل، جدار، سطح ونحوه، فتموت بذلك ﴿ وَالنَّطِيحَةُ ﴾ وهي التي تنطحها غيرها فتموت ﴿ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ ﴾ من ذئب أو أسد أو نمر، أو من الطيور التي تفترس الصيود، فإنها إذا ماتت بسبب أكل السبع، فإنها لا تحل. وقوله: ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ راجع لهذه المسائل من منخنقة وموقوذة ومتردية ونطيحة وأكيلة سبع، إذا ذكيت وفيها حياة مستقرة لتتحقق الذكاة فيها ﴿ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ﴾ كان إذا هَمَّ أحدهم بأمر ما أجال القداح ثم أخرج واحدا منها، فإن خرج المكتوب عليه "افعل" مضى في أمره، وإن ظهر "لا تفعل" لم يفعل، وإن ظهر الذي لا شيء عليه، أعادها حتى يخرج أحد القدحين فيعمل به. فحرمه الله عليهم، الذي في هذه الصورة وما يشبهه، وعوضهم عنه بالاستخارة لربهم في جميع أمورهم ﴿ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ أي خروج عن طاعته إلى طاعة الشيطان والإشارة لكل ما تقدم من المحرمات التي حرمها الله صيانة لعباده ﴿ الْيَوْمَ ﴾ يوم عرفة ﴿ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ ﴾ من المؤمنين، أن يرجعوا إلى دينهم ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ ﴾ فلا تخشوا المشركين ﴿ وَاخْشَوْنِ ﴾ واخشوا الله الذي نصركم عليهم وخذلهم. فلما رأوا عز الإسلام وانتصاره وظهوره يئسوا كل اليأس. ولهذا في هذه السنة التي حج فيها النبي صلى الله عليه وسلم سنة عشر حجة الوداع – لم يحج فيها مشرك، ولم يطف بالبيت عريان ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ بتمام النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة. فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة، من علم الكلام وغيره، فهو جاهل ﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ الظاهرة والباطنة ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ اخترته واصطفيته لكم دينا. كما ارتضيتكم له، فقوموا به شكرا لربكم ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ ﴾ أي ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من المحرمات السابقة ﴿ فِي مَخْمَصَةٍ ﴾ أي مجاعة ﴿ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ ﴾ أي مائل ﴿ لِإِثْمٍ ﴾ بأن لا يأكل حتى يضطر، ولا يزيد في الأكل على كفايته ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث أباح له الأكل في هذه الحال، ورحمه بما يقيم به بنيته من غير نقص يلحقه في دينه.

[3] واعلم أن الله تبارك وتعالى لا يحرّم ما يحرّم إلا صيانة لعباده، وحماية لهم من الضرر الموجود في المحرمات، وقد يبين للعباد ذلك وقد لا يبين.

[4] ، فإنها تحرم لضررها، وهو احتقان الدم في جوفها ولحمها المضر بآكلها. وكثيرا ما تموت بعلّة تكون سببا لهلاكها، فتضر بالآكل.

﴿ 4 ﴾ ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ﴾ من الأطعمة؟ ﴿ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ وهي كل ما فيه نفع أو لذة، من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل، إلا ما استثناه الشارع، كالسباع والخبائث منها. ولهذا دلت الآية بمفهومها على تحريم الخبائث ﴿ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ ﴾ أي أحل لكم ما علمتم من الجوارح وهي ما يصيد بنابه أو بمخلبه ﴿ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ﴾ أنه يشترط أن تكون معلمة، بما يعد في العرف تعليما، بأن يسترسل إذا أرسل وينزجر إذا زجر وإذا أمسك لم يأكل ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي أمسكن من الصيد لأجلكم. وما أكل منه الجارح فإنه لا يعلم أنه أمسكه على صاحبه، ولعله أن يكون أمسكه على نفسه. اشتراط أن يجرحه الكلب أو الطير ونحوهما، لقوله: مِنَ الْجَوَارِحِ مع ما تقدم من تحريم المنخنقة. فلو خنقه الكلب أو غيره، أو قتله بثقله لم يبح[5] ﴿ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ حث تعالى على تقواه ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ وحذر من إتيان الحساب في يوم القيامة، وأن ذلك أمر قد دنا واقترب.

﴿ 5 ﴾ ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ كرر تعالى إحلال الطيبات لبيان الامتنان ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ حلال لكم يا معشر المسلمين ذبائح اليهود والنصارى دون باقي الكفار فإن ذبائحهم لا تحل للمسلمين. وذلك لأن أهل الكتاب ينتسبون إلى الأنبياء والكتب[6]، وقد اتفق الرسل كلهم على تحريم الذبح لغير الله لأنه شرك ﴿ وَطَعَامُكُمْ ﴾ أيها المسلمون ﴿ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ أي يحل لكم أن تطعموهم إياه ﴿ وَ ﴾ أحل لكم ﴿ الْمُحْصَنَاتُ ﴾ أي الحرائر العفيفات ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ ﴾ والحرائر العفيفات ﴿ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أي من اليهود والنصارى. وهذا مخصص لقوله تعالى وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ، ومفهوم الآية أن الأرقاء من المؤمنات لا يباح نكاحهن للأحرار، وهو كذلك. وأما الكتابيات فعلى كل حال لا يبحن، ولا يجوز نكاحهن للأحرار مطلقا، لقوله تعالى: مِن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وأما المسلمات إذا كن رقيقات فإنه لا يجوز للأحرار نكاحهن إلا بشرطين: عدم الطول وخوف

---

[5] جواز اقتناء كلب الصيد، كما ورد في الحديث الصحيح، مع أن اقتناء الكلب محرم، لأن من لازم إباحة صيده وتعليمه جواز اقتنائه.
- طهارة ما أصابه فم الكلب من الصيد، لأن الله أباحه ولم يذكر له غسلا، فدل على طهارته.
- فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح، وأنه إن لم يسم الله متعمدا، لم يبح ما قتل الجارح.
- أنه يجوز أكل ما صاده الجارح، سواء قتله الجارح أم لا. وأنه إن أدركه صاحبه، وفيه حياة مستقرة فإنه لا يباح إلا بها.

[6] فاليهود والنصارى يتدينون بتحريم الذبح لغير الله، فلذلك أبيحت ذبائحهم دون غيرهم. والدليل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم، أن الطعام الذي ليس من الذبائح كالحبوب والثمار ليس لأهل الكتاب فيه خصوصية، بل يباح ذلك ولو كان من طعام غيرهم. وأيضا فإنه أضاف الطعام إليهم. فدل ذلك، على أنه كان طعاما، بسبب ذبحهم. ولا يقال: إن ذلك للتمليك، وأن المراد: الطعام الذي يملكون. لأن هذا، لا يباح على وجه الغصب، ولا من المسلمين.

العنت. وأما الفاجرات غير العفيفات عن الزنا فلا يباح نكاحهن، سواء كن مسلمات أو كتابيات. وقوله ﴿ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي أبحنا لكم نكاحهن إذا أعطيتموهن مهورهن. وأمر بإيتائها إذا كانت رشيدة تصلح للإيتاء، وإلا أعطاه الزوج لوليها. وإضافة الأجور إليهن دليل على أن المرأة تملك جميع مهرها، وليس لأحد منه شيء، إلا ما سمحت به لزوجها أو وليها أو غيرهما ﴿ مُحْصِنِينَ ﴾ أي حالة كونكم –أيها الأزواج– محصنين لنسائكم، بسبب حفظكم لفروجكم عن غيرهن ﴿ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ أي زانين مع كل أحد ﴿ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ وهو الزنا مع العشيقات. لأن الزناة في الجاهلية، منهم من يزني مع من كان، فهذا المسافح. ومنهم من يزني مع خدنه ومحبه. فأخبر الله تعالى أن ذلك كله ينافي العفة، وأن شرط التزوج أن يكون الرجل عفيفا عن الزنا ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ أي ومن كفر بالله تعالى، وما يجب الإيمان به من كتبه ورسله أو شيء من الشرائع فقد حبط عمله، بشرط أن يموت على كفره ﴿ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة.

﴿ 6 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[7] اعملوا بمقتضى إيمانكم بما شرعناه لكم. وأمر بالقيام بالصلاة لقوله ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ وبهذا أمر بالنية للصلاة، أي بقصدها ونيتها. واشتراط الطهارة لصحة الصلاة، لأن الله أمر بها عند القيام إليها، والأصل في الأمر الوجوب. وأن الطهارة لا تجب بدخول الوقت، وإنما تجب عند إرادة الصلاة. وأن كل ما يطلق عليه اسم الصلاة، من الفرض والنفل، وفرض الكفاية، وصلاة الجنازة، تشترط له الطهارة، حتى السجود المجرد عند كثير من العلماء، كسجود التلاوة والشكر ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ أمر بغسل الوجه، وهو ما تحصل به المواجهة من منابت شعر الرأس المعتاد، إلى ما انحدر من اللحيين والذقن طولا. ومن الأذن إلى الأذن عرضا. ويدخل فيه المضمضة والاستنشاق، بالسنة، ويدخل فيه الشعور التي فيه. لكن إن كانت خفيفة فلا بد من إيصال الماء إلى البشرة، وإن كانت كثيفة اكتفي بظاهرها. ثمّ الأمر بغسل اليدين، وأن حدهما إلى المرفقين و"إلى" كما قال جمهور المفسرين بمعنى "مع". ولأن الواجب لا يتم إلا بغسل جميع المرفق ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ الأمر بمسح الرأس جميعه، لأن الباء ليست للتبعيض، وإنما هي للملاصقة، وأنه يعم المسح بجميع الرأس. أنه يكفي المسح كيفما كان، بيديه أو إحداهما، أو خرقة أو خشبة أو نحوهما، لأن الله أطلق المسح ولم يقيده بصفة،

[7] هذه آية عظيمة قد اشتملت على أحكام كثيرة، نذكر منها ما يسره الله وسهله. والعمل بهذه المذكورات من لوازم الإيمان الذي لا يتم إلا به، لأنه صدرها بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إلى آخرها

فدل ذلك على إطلاقه. وأن الواجب المسح. فلو غسل رأسه ولم يمر يده عليه لم يكف، لأنه لم يأت بما أمر الله به ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ الأمر بغسل الرجلين إلى الكعبين، ويقال فيهما ما يقال في اليدين. وفيها الرد على الرافضة، على قراءة الجمهور بالنصب، وأنه لا يجوز مسحهما ما دامتا مكشوفتين. وفيه الإشارة إلى مسح الخفين، على قراءة الجر في وأرجلكم. وتكون كل من القراءتين، محمولة على معنى، فعلى قراءة النصب فيها، غسلهما إن كانتا مكشوفتين، وعلى قراءة الجر فيها، مسحهما إذا كانتا مستورتين بالخف. وفيه الأمر بالترتيب في الوضوء، لأن الله تعالى ذكرها مرتبة. ولأنه أدخل ممسوحا -وهو الرأس- بين مغسولين، ولا يعلم لذلك فائدة غير الترتيب. وأن الترتيب مخصوص بالأعضاء الأربعة المسميات في هذه الآية. وأما الترتيب بين المضمضة والاستنشاق والوجه، أو بين اليمنى واليسرى من اليدين والرجلين، فإن ذلك غير واجب، بل يستحب تقديم المضمضة والاستنشاق على غسل الوجه، وتقديم اليمنى على اليسرى من اليدين والرجلين، وتقديم مسح الرأس على مسح الأذنين. ثمّ الأمر بتجديد الوضوء عند كل صلاة، لتوجد صورة المأمور به ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾ الأمر بالغسل من الجنابة. وأنه يجب تعميم الغسل للبدن، لأن الله أضاف التطهر للبدن، ولم يخصصه بشيء دون شيء. والأمر بغسل ظاهر الشعر وباطنه في الجنابة. وأنه يندرج الحدث الأصغر في الحدث الأكبر، ويكفي من هما عليه أن ينوي، ثم يعمم بدنه، لأن الله لم يذكر إلا التطهر، ولم يذكر أنه يعيد الوضوء. وأن الجنب يصدق على من أنزل المني يقظة أو مناما، أو جامع ولو لم ينزل. ومن ذكر أنه احتلم ولم يجد بللا، فإنه لا غسل عليه، لأنه لم تتحقق منه الجنابة ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ ذكر مِنَّة الله تعالى على العباد، بمشروعية التيمم. وأن من أسباب جواز التيمم وجود المرض الذي يضره غسله بالماء، فيجوز له التيمم. وكذلك السفر والإتيان من البول والغائط إذا عدم الماء، ويجوزه العدم للماء ولو كان في الحضر. وأن الخارج من السبيلين من بول وغائط، ينقض الوضوء. وقد استدل بها من قال: لا ينقض الوضوء إلا هذان الأمران، فلا ينتقض بلمس الفرج ولا بغيره. واستحباب التكنية عما يستقذر التلفظ به لقوله تعالى: أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنكُم مِّنَ الْغَائِطِ. وأن لمس المرأة بلذة وشهوة ناقض للوضوء. واشتراط عدم الماء لصحة التيمم. وأن مع وجود الماء ولو في الصلاة، يبطل التيمم لأن الله إنما أباحه مع عدم الماء. وأنه إذا دخل الوقت وليس معه ماء، فإنه يلزمه طلبه في رحله وفيما قرب منه، لأنه لا يقال "لم يجد" لمن لم يطلب. وأن من وجد ماء لا يكفي بعض طهارته، فإنه يلزمه استعماله، ثم يتيمم بعد ذلك. وأن الماء المتغير بالطاهرات، مقدم على التيمم، أي: يكون طهورا، لأن الماء المتغير ماء، فيدخل في قوله: فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً. وأنه لا بد من نية التيمم لقوله: فَتَيَمَّمُوا أي: اقصدوا. وأنه يكفي التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض من تراب وغيره. فيكون على هذا، قوله ﴿ فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾ إما من باب التغليب، وأن الغالب أن يكون له غبار يمسح منه ويعلق بالوجه واليدين، وإما أن يكون إرشادا للأفضل، وأنه إذا أمكن التراب الذي فيه غبار فهو أولى. وأنه لا يصح التيمم بالتراب النجس، لأنه لا يكون طيبا بل خبيثا. وأنه يمسح في التيمم الوجه واليدان فقط، دون بقية الأعضاء. وأن قوله: بِوُجُوهِكُمْ شامل لجميع الوجه

وأنه يعممه بالمسح، إلا أنه معفو عن إدخال التراب في الفم والأنف، وفيما تحت الشعور، ولو خفيفة. وأن اليدين تمسحان إلى الكوعين فقط، لأن اليدين عند الإطلاق كذلك. فلو كان يشترط إيصال المسح إلى الذراعين لقيده الله بذلك، كما قيده في الوضوء. وأن الآية عامة في جواز التيمم، لجميع الأحداث كلها، الحدث الأكبر والأصغر، بل ولنجاسة البدن، لأن الله جعلها بدلا عن طهارة الماء، وأطلق في الآية فلم يقيد. وقد يقال أن نجاسة البدن لا تدخل في حكم التيمم لأن السياق في الأحداث وهو قول جمهور العلماء. وأن محل التيمم في الحدث الأصغر والأكبر واحد، وهو الوجه واليدان. وأنه لو نوى مَنْ عليه حدثان التيمم عنهما، فإنه يجزئ أخذا من عموم الآية وإطلاقها. وأنه يكفي المسح بأي شيء كان، بيده أو غيرها، لأن الله قال فامسحوا ولم يذكر الممسوح به، فدل على جوازه بكل شيء. واشتراط الترتيب في طهارة التيمم، كما يشترط ذلك في الوضوء، ولأن الله بدأ بمسح الوجه قبل مسح اليدين ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أن الله تعالى لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر، وإنما هو رحمة منه بعباده ليطهرهم، وليتم نعمته عليهم. وأن طهارة الظاهر بالماء والتراب، تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد، والتوبة النصوح. وأن طهارة التيمم، وإن لم يكن فيها نظافة وطهارة تدرك بالحس والمشاهدة، فإن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال أمر الله تعالى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أنه ينبغي للعبد أن يتدبر الحِكَم والأسرار في شرائع الله، في الطهارة وغيرها ليزداد معرفة وعلما، ويزداد شكرا لله ومحبة له.

﴿ 7 ﴾ ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ يأمر تعالى عباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية، بقلوبهم وألسنتهم ﴿ وَمِيثَاقه ﴾ أي واذكروا ميثاقه ﴿ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ ﴾ أي عهده الذي أخذه عليكم، والمراد بذلك أنهم بإيمانهم بالله ورسوله قد التزموا طاعتهما، ولهذا قال ﴿ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا ﴾ ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية، سمع فهم وإذعان وانقياد ﴿ وَأَطَعْنا ﴾ ما أمرتنا به بالامتثال، وما نهيتنا عنه بالاجتناب. وهذا شامل لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة. وأن المؤمنين يذكرون في ذلك عهد الله وميثاقه عليهم ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في جميع أحوالكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور ﴾ أي بما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار والخواطر. فاحذروا أن يطلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه.

﴿ 8 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قوموا بلازم إيمانكم و ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ ﴾ بأن تنشط للقيام بالقسط حركاتكم الظاهرة والباطنة وأن يكون ذلك القيام لله وحده لا لغرض من الأغراض الدنيوية ﴿ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ وأن تكونوا قاصدين

للقسط، الذي هو العدل وقوموا بذلك على القريب والبعيد، والصديق والعدو ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ أي لا يحملنكم ﴿ شَنَآنُ ﴾ بغض ﴿ قَوْمٍ ﴾ ولو كان كافرا أو مبتدعا ﴿ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق، لأنه حق لا لأنه قاله، ولا يرد الحق لأجل قوله، فإن هذا ظلم للحق ﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ أي كلما حرصتم على العدل واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوى ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فمجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها صغيرها وكبيرها جزاء عاجلا وآجلا.

﴿ 9 - 10 ﴾ ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

﴿ وَعَدَ اللَّهُ ﴾ الذي لا يخلف الميعاد وهو أصدق القائلين ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ المؤمنين به وبكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ من واجبات ومستحبا ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ بالعفو عن ذنوبهم وعن عواقبها ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ وبالأجر العظيم ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ بعد ما أبانت الحقائق ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ الملازمون لها.

﴿ 11 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ يُذَكِّر تعالى عباده المؤمنين بنعمه العظيمة، ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسان ﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ وعلى أن يعدوا أيضا إنعامه عليهم بكف أيدي الأعداء عنهم، ورد كيدهم في نحورهم نعمة ﴿ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ فهذا نصر من الله لعباده المؤمنين ينبغي لهم أن يشكروا الله على ذلك. وهذا يشمل كل من كف الله شره عن المسلمين ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، وتبرؤوا من حولهم وقوتهم، ويثقوا بالله تعالى في حصول ما يحبون.

﴿ 12 - 13 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ عهدهم المؤكد الغليظ، ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ رئيسا وعريفا على من تحته، ليكون ناظرا عليهم، حاثا لهم على القيام بما أُمِرُوا به، مطالبا يدعوهم ﴿ وَقَالَ اللَّهُ ﴾ للنقباء الذين

تحملوا من الأعباء ما تحملوا ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ بالعون والنصر ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ ﴾ ظاهرا وباطنا، بالإتيان بما يلزم وينبغي فيها، والمداومة على ذلك ﴿ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ ﴾ لمستحقيها ﴿ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي ﴾ جميعهم، الذين أفضلهم وأكملهم محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ أي عظمتموهم، وأديتم ما يجب لهم من الاحترام والطاعة ﴿ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ وهو الصدقة والإحسان، الصادر عن الصدق والإخلاص وطيب المكسب، فإذا قمتم بذلك ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم، واندفاع المكروه بتكفير السيئات ودفع ما يترتب عليها من العقوبات ﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ العهد والميثاق المؤكد بالأيمان ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ عن عمد وعلم، فيستحق ما يستحقه الضالون ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ ﴾ أي بسببه عاقبناهم أنّا ﴿ لَعَنَّاهُمْ ﴾ أي طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ غليظة لا تجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ فابتلوا بالتغيير والتبديل، فيجعلون للكلام معنى غير ما أراده الله ولا رسوله ﴿ وَنَسُوا حَظًّا ﴾ وسمى الله تعالى ما ذكروا به حظا لأنه هو أعظم الحظوظ، وما عداه فإنما هي حظوظ دنيوية ﴿ مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ فإنهم ذكروا بالتوراة، وبما أنزل الله على موسى، فنسوا حظا منه وهذا شامل لنسيان علمه نسوه وضاع عنهم، ولنسيان العمل الذي هو الترك، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به، ويستدل بهذا على أهل الكتاب بإنكارهم بعض الذي قد ذكر في كتابهم أو وقع في زمانهم، أنه مما نسوه ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ أي خيانة لله ولعباده المؤمنين ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ وفوا بما عاهدوا الله عليه فوفقهم وهداهم للصراط المستقيم ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾ لا تؤاخذهم بما يصدر منهم من الأذى ﴿ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ والإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. وفي حق المخلوقين بذل النفع الديني والدنيوي لهم.

﴿ 14 ﴾ ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ﴾ وزكوا أنفسهم بالإيمان بالله ورسله ﴿ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ ونقضوا العهد ونسوه نسيانا عمليا ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وصار بينهم من الشرور والإحن ما يقتضي معاداة بعضهم بعضا إلى يوم القيامة ﴿ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ فيعاقبهم عليه.

﴿ 15 – 16 ﴾ ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ من اليهود والنصارى، أمرهم جميعا أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا ﴾ وهو أُمِّيّ لا يقرأ ولا يكتب وهذا من أدل الدلائل على القطع برسالته ﴿ يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ عن الناس، وحتى عن العوام من أهل ملتهم ﴿ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ أي يترك بيان ما لا تقتضيه الحكمة ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ ﴾ وهو القرآن، يستضاء به في ظلمات الجهالة وعماية الضلالة ﴿ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ لكل ما يحتاج الخلق إليه من أمور دينهم ودنياهم ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ ﴾ أي يهدي به من اجتهد وحرص على بلوغ مرضاة الله ﴿ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ التي تسلم صاحبها من العذاب، وتوصله إلى دار السلام ﴿ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ﴾ مِّن ظلمات الكفر والبدعة والمعصية إلى نور الإيمان والسنة والطاعة والعلم والذكر. وكل هذه الهداية بإذن الله، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

﴿ 17 - 18 ﴾ ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ﴾ النصارى ﴿ الَّذِينَ قَالُوا ﴾ قولاً شنيعاً ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ ووجه شبهتهم أنه ولد من غير أب. فرد الله عليهم بأدلة عقلية واضحة فقال ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ وهذا دليل على بطلان إلهية من لا يمتنع من الإهلاك، ولا في قوته شيء من الفكاك. ومن الأدلة أن ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ وحده ﴿ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ يتصرف فيهم بحكمه، وهم مملوكون مدبرون. ولا وجه لاستغرابهم لخلق المسيح عيسى ابن مريم من غير أب، فإن الله ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ إن شاء من أب وأم كسائر بني آدم، وإن شاء من أب بلا أم كحواء، وإن شاء من أم بلا أب كعيسى، وإن شاء من غير أب ولا أم كآدم ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ﴾ كلا منهما ادعى دعوى باطلة، يزكون بها أنفسهم ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ والابن في لغتهم هو الحبيب، ولم يريدوا البنوة الحقيقية، فإن هذا ليس من مذهبهم إلا مذهب النصارى في المسيح. قال الله ردا عليهم حيث ادعوا بلا برهان ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ فلو كنتم أحبابه ما عذبكم ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ تجري عليكم أحكام العدل والفضل ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ إذا أتوا بأسباب المغفرة أو أسباب العذاب ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ فأي شيء خصكم بهذه الفضيلة، وأنتم من جملة المماليك ومن جملة من يرجع إلى الله في الدار الآخرة، فيجازيكم بأعمالكم.

﴿ 19 ﴾ ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ ﴾ يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب أن يؤمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ويشكروا الله تعالى الذي أرسله إليهم ﴿ عَلَى ﴾ حين ﴿ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ وشدة حاجة إليه.. وقد قطع الله بذلك حجتهم ﴿ أَنْ تَقُولُوا ﴾ لئلا يقولوا ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ يبشر بالثواب العاجل والآجل، وينذر بالعقاب العاجل والآجل، وبالأعمال الموجبة لذلك، وصفة العاملين بها ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ انقادت الأشياء طوعا وإذعانا لقدرته، ومن قدرته أن أرسل الرسل، يثيب من أطاعهم ويعاقب من عصاهم.

﴿ 20 – 26 ﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّـهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّـهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّـهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ لما امتن الله على موسى وقومه بنجاتهم من فرعون وقومه، ذهبوا وقاربوا وصول بيت المقدس، وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم ليخرجوه من ديارهم فيه. فوعظهم موسى عليه السلام ليقدموا على الجهاد ﴿ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ بقلوبكم وألسنتكم. فإن ذكرها داع إلى محبته تعالى ومنشط على العبادة ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ ﴾ يدعونكم إلى الهدى ويعلمونكم ما لم تكونوا تعلمون ﴿ وَجَعَلَكُم مُلُوكًا ﴾ وزال عنكم استعباد عدوكم لكم، وصرتم تملكون أمركم ﴿ وَآتَاكُمْ ﴾ من النعم الدينية والدنيوية ﴿ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ فإنهم في ذلك الزمان خيرة الخلق، وأكرمهم على الله تعالى ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ﴾ المطهرة ﴿ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ وانتصارهم على عدوهم ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا ﴾ أي ترجعوا ﴿ عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ لدنياكم وآخرتكم فـ ﴿ قَالُوا ﴾ قولا يدل على ضعف قلوبهم، وعدم اهتمامهم بأمر الله ورسوله ﴿ يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ وهذا يمنعنا من دخولها ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ وهذا من الجبن وقلة اليقين، وإلا لعلموا أنهم سينصرون عليهم، إذ وعدهم الله بذلك ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ الله تعالى ﴿ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ بالتوفيق وكلمة الحق والصبر واليقين ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ أي ليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تجزموا عليهم، وتدخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه عليهم

فإنهم سينهزمون ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فإن في التوكل على الله –وخصوصا في هذا الموطن– تيسيرا للأمر، ونصرا على الأعداء. ودل هذا على وجوب التوكل، وعلى أنه بحسب إيمان العبد يكون توكله. فلم ينجع فيهم هذا الكلام ف ﴿ قَالُوا ﴾ قول الأذلين ﴿ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ فلما رأى موسى عليه السلام عتوهم عليه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ﴾ أي فلا يدان لنا بقتالهم، ولست بجبار على هؤلاء ﴿ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ واحكم بيننا وبينهم، بأن تنزل فيهم من العقوبة ما اقتضته حكمتك، ودل ذلك على أن قولهم وفعلهم من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق ﴿ قَالَ ﴾ الله مجيبا لدعوة موسى ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي إن من عقوبتهم أن نحرم عليهم دخول هذه القرية التي كتبها الله لهم مدة أربعين سنة يتيهون خلالها في الأرض[8]. ولعل الحكمة في هذه المدة أن يموت أكثر هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة ولتظهر ناشئة جديدة تتربى عقولهم على طلب قهر الأعداء، وعدم الاستعباد ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي لا تأسف عليهم ولا تحزن، فإنهم قد فسقوا، وفسقهم اقتضى وقوع ما نزل بهم لا ظلما منا.

﴿ 27 – 31 ﴾ ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾ تلاوة يعتبر بها المعتبرون. والظاهر أن ابني آدم هما ابناه لصلبه ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ﴾ واتل عليهم نبأهما في حال تقريبهما للقربان الذي أداهما إلى الحال المذكورة فأخرج كل منهما شيئا من ماله لقصد التقرب إلى الله ﴿ فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ ﴾ وقد علم ذلك بخبر من السماء، أو بالعادة السابقة في الأمم، أن علامة تقبل الله لقربان أن تنزل نار من السماء فتحرقه ﴿ قَالَ ﴾ الابن الذي لم يتقبل منه للآخر حسدا وبغيا ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ ف ﴿ قَالَ ﴾ له الآخر، مترفقا له في ذلك ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ فأي ذنب لي وجناية توجب لك أن تقتلني؟ إلا أني اتقيت الله تعالى. وأصح الأقوال في أن المتقين هنا هم المتقون لله بأن يكون عملهم خالصا لوجه الله. ثم قال له مخبرا أنه لا يريد أن يتعرض لقتله، لا ابتداء ولا مدافعة فقال ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ وليس ذلك جبنا مني ولا عجزا، وإنما ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ والخائف لله لا يقدم على الذنوب، خصوصا الذنوب الكبار. وفي هذا تخويف لمن يريد القتل، وأنه ينبغي

[8] وهذه عقوبة دنيوية، لعل الله تعالى كفر بها عنهم، ودفع عنهم عقوبة أعظم منها، وفي هذا دليل على أن العقوبة على الذنب قد تكون بزوال نعمة موجودة، أو دفع نقمة قد انعقد سبب وجودها أو تأخرها إلى وقت آخر.

لك أن تتقي الله وتخافه ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ ﴾ أي ترجع ﴿ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ أي إنه إذا دار الأمر بين أن أكون قاتلا أو تقتلني فإني أوثر أن تقتلني فتبوء بالوزرين ﴿ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ دل هذا على أن القتل من كبائر الذنوب، وأنه موجب لدخول النار ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾ فلم يرتدع ذلك الجاني ولم ينزجر حتى طوعت له قتل أخيه ﴿ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الذين خسروا دنياهم وآخرتهم. فقد سن هذه السنة لكل قاتل وعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة. فلما قتل أخاه لم يدر كيف يصنع به لأنه أول ميت مات من بني آدم ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي يثيرها ليدفن غرابا آخر ميتاً ﴿ لِيُرِيَهُ ﴾ بذلك ﴿ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ ﴾ أي بدنه، لأن بدن الميت يكون عورة ﴿ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ وهكذا عاقبة المعاصي الندامة والخسارة.

﴿ 32 ﴾ ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ﴾ الذي ذكرناه في قصة ابني آدم، وقتل أحدهما أخاه، وسنه القتل لمن بعده، وأن القتل عاقبته وخيمة وخسارة في الدنيا والآخرة ﴿ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أهل الكتب السماوية ﴿ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي بغير حق ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ لأنه لما تجرأ على قتل النفس التي لم تستحق القتل علم أنه لا فرق عنده بين هذا المقتول وبين غيره، وإنما ذلك بحسب ما تدعوه إليه نفسه الأمارة بالسوء. فتجرؤه على قتله كأنه قتل الناس جميعا. وكذلك ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ أي استبقى أحدا، فلم يقتله مع دعاء نفسه له إلى قتله، فمنعه خوف الله تعالى من قتله، فهذا ﴿ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ لأن ما معه من الخوف يمنعه من قتل من لا يستحق القتل[9] ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ التي لا يبقى معها حجة لأحد ﴿ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ ﴾ أي من الناس ﴿ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ البيان القاطع للحجة، الموجب للاستقامة في الأرض ﴿ لَمُسْرِفُونَ ﴾ في العمل بالمعاصي، ومخالفة الرسل الذين جاءوا بالبينات.

﴿ 33 - 34 ﴾ ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

[9] ودلت الآية على أن القتل يجوز بأحد أمرين: 1- إما أن يقتل نفسا بغير حق متعمدا في ذلك، فإنه يحل قتله، إن كان مكلفا مكافئا، ليس بوالد للمقتول. 2- وإما أن يكون مفسدا في الأرض، بإفساده لأديان الناس أو أبدانهم أو أموالهم، كالكفار المرتدين والمحاربين، والدعاة إلى البدع الذين لا ينكف شرهم إلا بالقتل. وكذلك قطاع الطريق ونحوهم، ممن يصول على الناس لقتلهم، أو أخذ أموالهم.

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ والمشهور أن هذه الآية الكريمة في أحكام قطاع الطريق. واختلف المفسرون: هل على التخيير أن يُفعل بقاطع الطريق ما يراه الإمام أو نائبه المصلحة من هذه الأمور المذكورة؟ وهذا ظاهر اللفظ، أو أن عقوبتهم تكون بحسب جرائمهم؟ فكل جريمة لها قسط يقابلها، كما تدل عليه الآية بحكمتها وموافقتها لحكمة الله تعالى ﴿ أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ﴾ إن قتلوا وأخذوا مالًا تحتم قتلُهم وصلبهم، وإن قتلوا ولم يأخذوا مالا تحتم قتلهم فقط ﴿ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ ﴾ وإن أخذوا مالا ولم يقتلوا تحتم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ إن أخافوا الناس ولم يقتلوا ولا أخذوا مالا نفوا من الأرض، فلا يتركون يأوون في بلد حتى تظهر توبتهم. وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه وكثير من الأئمة، على اختلاف في بعض التفاصيل ﴿ ذَلِكَ ﴾ النكال ﴿ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ أي فضيحة وعار ﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فدل هذا أن قطع الطريق من أعظم الذنوب، وأن فاعله محارب لله ولرسوله. لذلك فإن تطهير الأرض من المفسدين وتأمين السبل والطرق عن القتل وأخذ الأموال وإخافة الناس، من أعظم الحسنات وأجل الطاعات، وأنه إصلاح في الأرض، كما أن ضده إفساد في الأرض ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ﴾ أي من هؤلاء المحاربين ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي فيسقط عنه ما كان لله، من تحتم القتل والصلب والقطع والنفي، ومن حق الآدمي أيضا، إن كان المحارب كافرا ثم أسلم. فإن كان المحارب مسلما فإن حق الآدمي، لا يسقط عنه من القتل وأخذ المال[10].

﴿ 35 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ هذا أمر من الله لعباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان من تقوى الله والحذر من سخطه وغضبه[11] ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ وذلك بأداء فرائضه[12] ﴿ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ ﴾ هو بذل الجهد في قتال الكافرين[13] ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ إذا اتقيتم الله بترك المعاصي، وابتغيتم الوسيلة إلى الله بفعل الطاعات، وجاهدتم في سبيله ابتغاء مرضاته. والفلاح هو الفوز بكل مطلوب والنجاة من كل مرهوب.

﴿ 36 - 37 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾

[10] ودل مفهوم الآية على أن توبة المحارب -بعد القدرة عليه- أنها لا تسقط عنه شيئا، والحكمة في ذلك ظاهرة. وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليه، تمنع من إقامة الحد في الحرابة، فغيرها من الحدود -إذا تاب من فعلها، قبل القدرة عليه- من باب أولى.

[11] ، وذلك بأن يجتهد العبد، ويبذل غاية ما يمكنه من المقدور في اجتناب ما يَسخط الله، من معاصي القلب واللسان والجوارح الظاهرة والباطنة. ويستعين بالله على تركها، لينجو بذلك من سخط الله وعذابه

[12] فرائضه القلبية كالحب له وفيه والخوف والرجاء والإنابة والتوكل، والبدنية كالزكاة والحج، والمركبة من ذلك كالصلاة ونحوها، ومن أنواع الإحسان إلى الخلق والنصح لعباد الله، فكل هذه الأعمال تقرب إلى الله، ولا يزال العبد يتقرب بها إلى الله حتى يحبه الله

[13] بالمال والنفس والرأي واللسان والسعي في نصر دين الله بكل ما يقدر عليه العبد

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال الكافرين بالله يوم القيامة ومآلهم الفظيع ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ بملء الأرض ذهبا ﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وأنهم لو افتدوا من عذاب الله ومثله معه ﴿ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ﴾ ولا أفاد، لأن محل الافتداء قد فات ﴿ وَ ﴾ لم يبق ﴿ لَهُمْ ﴾ إلا ﴿ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ ماكثون فيه سرمدا.

﴿ 38 - 40 ﴾ ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ السارق هو من أخذ مال غيره خفية، بغير رضاه. وهو من كبائر الذنوب الموجبة لترتب العقوبة الشنيعة، فإذا سرق قطعت يده من الكوع، وحسمت في زيت لتنسد العروق فيقف الدم. ولكن السنة قيدت عموم هذه الآية من عدة أوجه: 1- لابد أن تكون السرقة من حرز. فلفظ "السرقة" يعني أخذ الشيء على وجه لا يمكن الاحتراز منه، وذلك أن يكون المال محرزا يحفظ به المال عادة. فلو سرق من غير حرز فلا قطع عليه. 2- لابد أن يكون المسروق نصابا، وهو ربع دينار، أو ثلاثة دراهم، أو ما يساوي أحدهما، فلو سرق دون ذلك فلا قطع عليه. والحكمة في قطع اليد في السرقة، أن ذلك حفظ للأموال، واحتياط لها، وليقطع العضو الذي صدرت منه الجناية. فإن عاد السارق قطعت رجله اليسرى، فإن عاد، فقيل: تقطع يده اليسرى، ثم رجله اليمنى، وقيل: يحبس حتى يموت. وقوله: ﴿ جَزَاءً بِمَا كَسَبَا ﴾ أي ذلك القطع جزاء للسارق بما سرقه من أموال الناس ﴿ نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي تنكيلا وترهيبا للسارق ولغيره، ليرتدع السراق إذا علموا أنهم سيقطعون إذا سرقوا ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عَزَّ وحكم فقطع السارق ﴿ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فيغفر لمن تاب فترك الذنوب، وأصلح أعماله وعيوبه ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وذلك أن لله ملك السماوات والأرض يتصرف فيهما بما شاء من المغفرة والعقوبة، بحسب ما اقتضته حكمته ورحمته الواسعة ومغفرته.

﴿ 41 - 44 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا

هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ كان الرسول صلى الله عليه وسلم يشتد حزنه لمن يظهر الإيمان ثم يرجع إلى الكفر، فأرشده الله تعالى ألا يأسى ولا يحزن على أمثال هؤلاء ﴿ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ فإن الذين يؤسى ويحزن عليهم هم المؤمنون حقاً ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ أي اليهود ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ أي مستجيبون ومقلدون لرؤسائهم المبني أمرهم على الكذب والضلال وهؤلاء الرؤساء المتبعون ﴿ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ بل أعرضوا عنك ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ ووضعوا معان للألفاظ ما أرادها الله لإضلال الخلق ولدفع الحق فلا تبال أيضا إذا لم يتبعوك ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾ يقول بعضهم لبعض: إن حكم لكم محمد بهذا الحكم الذي يوافق أهواءكم فاقبلوا حكمه، وإن لم يحكم لكم به فاحذروا أن تتابعوه على ذلك ﴿ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ فإن ذلك من عدم طهارة قلبه[14] ﴿ لَهُم فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ فضيحة وعار ﴿ وَلَهُم فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ النار وسخط الجبار ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ استجابوا من قلة دينهم وعقلهم لمن دعاهم إلى القول الكذب ﴿ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ أي المال الحرام، فجمعوا بين اتباع الكذب وأكل الحرام ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ فالرسول مخيّر عند تحاكم هذا الصنف إليه بين أن يحكم بينهم أو يعرض عن الحكم بينهم، لأنه لا قصد لهم إلا أن يكون الحكم الشرعي موافقا لأهوائهم[15]. وليست هذه الآية منسوخة ﴿ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ حتى ولو كانوا ظلمة وأعداء، فلا يمنعك ذلك من العدل في الحكم بينهم. وفي هذا بيان فضيلة العدل والقسط في الحكم بين الناس، وأن الله تعالى يحبه. ثم قال متعجبا لهم ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإنهم لو كانوا مؤمنين عاملين بما يقتضيه الإيمان ويوجبه لم يصدفوا عن حكم الله الذي في التوراة التي بين أيديهم. وحين حكمت بينهم بحكم الله الموافق لما عندهم أيضا أعرضوا عنه ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ ﴾ على موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ﴿ فِيهَا هُدًى ﴾ إلى الإيمان والحق، ويعصم من الضلالة ﴿ وَنُورٌ ﴾ يستضاء به ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ﴾ بين الذين هادوا، أي بين اليهود في القضايا والفتاوى ﴿ النَّبِيُّونَ ﴾ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لله وانقادوا لأوامره، وهم صفوة الله من العباد ﴿ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ﴾ وكذلك يحكم بالتوراة للذين هادوا أئمة الدين من الربانيين، أي العلماء العاملين المعلمين الذين يربون الناس بأحسن تربية، والأحبار العلماء الكبار الذين يحكمون ﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ أي بسبب أن الله استحفظهم على كتابه، وجعلهم أمناء عليه، يصونونه من الزيادة والنقصان والكتمان. وهم

[14] كما أن من حاكم وتحاكم إلى الشرع ورضي به، وافق هواه أو خالفه، فإنه من طهارة القلب، ودل على أن طهارة القلب، سبب لكل خير

[15] وعلى هذا فكل مستفت ومتحاكم إلى عالم لا يجب الحكم ولا الإفتاء له إذا علم من حاله أنه إن حكم عليه لم يرض. وإذا حكم بين هؤلاء وجب أن يحكم بالقسط،

شهداء عليه، بحيث أنهم المرجوع إليهم فيه، وفيما اشتبه على الناس منه[16] ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ وأن لا يخشوا الناس بل يخشون ربهم ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فتكتمون الحق وتظهرون الباطل لأجل متاع الدنيا القليل [17]﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ من الحق المبين، وحكم بالباطل الذي يعلّمه لغرض من أغراضه الفاسدة ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ لأن الحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر، وقد يكون كفرا ينقل عن الملة، وذلك إذا اعتقد حله وجوازه. وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب.

﴿ 45 ﴾ ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا ﴾ إن الله أوجب عليهم في التوراة ﴿ أَنَّ النَّفْسَ ﴾ إذا قتلت تقتل ﴿ بِالنَّفْسِ ﴾ بشرط العمد والمكافأة ﴿ وَالْعَيْنَ ﴾ تقلع ﴿ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ ﴾ تؤخذ ﴿ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ ﴾ ينزع ﴿ بِالسِّنِّ ﴾ ومثل هذه ما أشبهها من الأطراف التي يمكن الاقتصاص منها بدون حيف ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ فمن جرح غيره عمدا اقتص من الجارح جرحا مثل جرحه للمجروح، حدا وموضعا وطولا وعرضا وعمقا. وليُعلم أن شرع من قبلنا شرّع لنا، ما لم يرد شرعنا بخلافه ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ ﴾ أي بالقصاص في النفس، وما دونها من الأطراف والجروح، بأن عفا عمن جنى، وثبت له الحق قبله﴿ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾ أي كفارة للجاني، لأن الآدمي عفا عن حقه. والله تعالى أحق وأولى بالعفو عن حقه، وكفارة أيضا عن العافي، فإنه كما عفا عمن جنى عليه، أو على من يتعلق به، فإن الله يعفو عن زلاته وجناياته ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ قال ابن عباس: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، فهو ظلم أكبر، عند استحلاله، وعظيمة كبيرة عند فعله غير مستحل له.

﴿ 46 – 47 ﴾ ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ وأتبعنا هؤلاء الأنبياءَ والمرسلين الذين يحكمون بالتوراة ﴿ عَلَى آثَارِهِم بِـ ﴾ عبدنا ورسولنا ﴿ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ روحِ الله وكلمتِه التي ألقاها إلى مريم بعثه الله ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ فهو شاهد لموسى ولما جاء به من التوراة بالحق والصدق، وقد يكون عيسى عليه السلام أخف في بعض الأحكام ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ﴾ الكتاب العظيم المتمم للتوراة ﴿ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ يهدي إلى الصراط المستقيم، ويبين الحق من الباطل ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ بتثبيتها والشهادة لها والموافقة ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين ينتفعون بالهدى،

---

[16] فالله تعالى قد حمل أهل العلم، ما لم يحمله الجهال، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حملوا. وأهل العلم مطالبون بالقيام بما عليهم أنفسهم، كما أنهم مطالبون بتعليم الناس وينبهوهم على ما يحتاجون إليه من أمور دينهم، خصوصا الأمور الأصولية والتي يكثر وقوعها
[17] وهذه الآفات إذا سلم منها العالم فهو من توفيقه وسعادته. ومن شقاوة العالم أن لايقوم بما أمر الله به، ولا مبال بما استحفظ عليه، قد ارتشى في أحكامه، ولا يعلم عباد الله إلا بأجرة وجعالة.

ويتعظون بالمواعظ ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ أي يلزمهم التقيد بكتابهم، ولا يجوز لهم العدول عنه ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾.

﴿ 48 – 50 ﴾ ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ الذي هو القرآن العظيم، أفضل الكتب وأجلّها ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي إنزالا بالحق، ومشتملا على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ لأنه شهد لها ووافقها ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ أي مشتملا على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق. فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود قد دخله التحريف والتبديل، وإلا فلو كان من عند الله، لم يخالفه ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ من الحكم الشرعي الذي أنزله الله عليك ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ أي لا تجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق بدلا عما جاءك من الحق فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ ﴾ أيها الأمم ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ سبيلا وسنة، تختلف باختلاف الأمم وتغير الأزمنة والأحوال، لكن الأصول الكبار لا تختلف فتشرع في جميع الشرائع ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ تبعا لشريعة واحدة ﴿ وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ فيختبركم ويبتلي كل أمة بحسب ما تقتضيه حكمته. وليحصل التنافس بين الأمم فكل أمة تحرص على سبق غيرها ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ بالمبادرة إليها وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها والاجتهاد في أدائها كاملة ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ الأمم السابقة واللاحقة، كلهم سيجمعهم الله ليوم لا ريب فيه ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من الشرائع والأعمال، فيثيب أهل الحق والعمل الصالح، ويعاقب أهل الباطل والعمل السيئ ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ هذه الآية هي التي قيل إنها ناسخة لقوله: فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ والصحيح: أنها ليست بناسخة. فتلك الآية تدل على أنه صلى الله عليه وسلم مخير بين الحكم بينهم وبين عدمه. وهذه الآية تدل على أنه إذا حكم، فإنه يحكم بينهم بما أنزل الله من الكتاب والسنة ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ كرر النهي عن اتباع أهوائهم لشدة التحذير منها ولأن ذلك كان في مقام أوسع هو الحكم والفتوى، أما هذا ففي مقام الحكم وحده ﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ إياك وأن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ عن اتباعك واتباع الحق ﴿ فَاعْلَمْ ﴾ أن ذلك عقوبة عليهم و﴿ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ فإن للذنوب عقوبات عاجلة وآجلة، ومن أعظم العقوبات أن يبتلى العبد ويزين له ترك اتباع الرسول، وذلك لفسقه ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ أي طبيعتهم الفسق والخروج عن طاعة الله واتباع رسوله ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ

﴿ يَبْغُونَ ﴾ أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية، وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ والموقن هو الذي يعرف الفرق بين الحكمين. واليقين، هو العلم التام الموجب للعمل.

﴿ 51 - 53 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ﴾ يرشد تعالى عباده المؤمنين حين بيَّن لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة، أن لا يتخذوهم أولياء فإن ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ يتناصرون فيما بينهم ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم، والتولي القليل يدعو إلى الكثير، حتى يكون العبد منهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الذين يتصفون بالظلم، فلو جئتهم بكل آية ما تبعوك ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي شك ونفاق وضعف إيمان ﴿ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ﴾ و ﴿ يَقُولُونَ ﴾ إن تولينا إياهم للحاجة لإننا ﴿ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ عندما تكون الدائرة لليهود والنصارى فنكسب معهم ويكافؤننا. وهذا سوء ظن منهم بالإسلام ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ ﴾ الذي يعز الله به الإسلام على اليهود والنصارى ﴿ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ ﴾ ييأس به المنافقون من ظفر الكافرين من اليهود وغيرهم ﴿ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا ﴾ أي أضمروا ﴿ فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ على ما كان منهم. وقد حصل الفتح الذي نصر الله به الإسلام والمسلمين وأذل به الكفر والكافرين، فندموا وحصل لهم ما الله به عليم ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ متعجبين من حال هؤلاء الذين في قلوبهم مرض ﴿ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ﴾ أي حلفوا وأكدوا حلفهم إنهم لمعكم في الإيمان ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ لكن ظهر ما أضمروه وبطل كيدهم الذي كادوه في الدنيا ﴿ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ حيث فاتهم مقصودهم، وحضرهم الشقاء والعذاب.

﴿ 54 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ﴾ يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين، وأنه من يرتد عن دينه فلن يضر الله شيئا، وإنما يضر نفسه ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ فمحبة الله للعبد هي أجلّ نعمة ينعم بها

عليه، بها ييسر له الأسباب، ويوفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات[18] ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من محبتهم لهم ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ بالله، قد اجتمعت هممهم وعزائمهم على معاداتهم. ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة دعوتهم إلى الدين الإسلامي بالتي هي أحسن ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ بأموالهم وأنفسهم وأقوالهم وأفعالهم ﴿ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ بل يقدمون رضا ربهم على لوم المخلوقين ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴾ الفضل والإحسان عمت رحمته كل شيء ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يستحق الفضل فيعطيه.

﴿ 55 - 56 ﴾ ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ فكل من كان مؤمنا تقيا كان ولياً لله ووليّ لرسوله وللمؤمنين الذين قاموا بالإيمان ظاهرا وباطنا ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يجب قصر الولاية على المذكورين، والتبري من ولاية غيرهم ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ بشروطها وفروضها ومكملاتها ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ من أموالهم لمستحقيها منهم ﴿ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ خاضعون لله ذليلون. ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ أي فإنه من الحزب المضافين إلى الله إضافة عبودية وولاية، وحزبه هم الغالبون الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة. وهذه بشارة عظيمة لمن قام بأمر الله، فآخر أمره الغلبة والانتصار، ومن أصدق من الله قيلا.

﴿ 57 - 58 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ﴾ ينهى عباده المؤمنين عن اتخاذ أهل الكتاب والكفار أولياء وهم على قدحهم في دين المسلمين واحتقاره واستصغاره ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وأن ما معهم من الإيمان يوجب عليهم ترك موالاتهم، ويحثهم على معاداتهم، وكذلك التزامهم لتقوى الله التي هي امتثال أوامره واجتناب زواجره مما تدعوهم إلى معاداتهم ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ خصوصا الصلاة إنهم إذا نادوا إليها اتخذوها هزوا ولعبا ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فإذا علمتم أيها المؤمنون حال الكفار وشدة معاداتهم لكم ولدينكم فمن لم يعادهم بعد هذا دل على أن الإسلام عنده رخيص لا يبالي بمن قدح فيه.

﴿ 59 - 63 ﴾ ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ * قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ

---

[18] ومن لوازم محبة العبد لربه متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا، في أقواله وأعماله وجميع أحواله، وأن يكثر من التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل، وأن يتعرف إليه تعالى، ويكثر من ذكره. وإذا أحب الله عبدا قبل منه اليسير من العمل، وغفر له الكثير من الزلل.

الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ * وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ * وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ يا أيها الرسول ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ ملزما لهم، إن دين الإسلام هو الدين الحق ﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أي هل لنا عندكم من العيب إلا إيماننا بالله، وبكتبه السابقة واللاحقة، وبأنبيائه المتقدمين والمتأخرين، وبأننا نجزم أن من لم يؤمن كهذا الإيمان فإنه كافر فاسق؟ فقُلْ لهم مخبرا عن شناعة ما كانوا عليه ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِن ذَلِكَ ﴾ الذي نقمتم فيه علينا ﴿ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ ﴾ أي أبعده عن رحمته ﴿ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ وعاقبه في الدنيا والآخرة ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ وهو الشيطان، وكل ما عبد من دون الله فهو طاغوت ﴿ أُولَئِكَ ﴾ المذكورون بهذه الخصال القبيحة﴿ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ من المؤمنين الذين رحمة الله قريب منهم، ورضي الله عنهم وأثابهم في الدنيا والآخرة، لأنهم أخلصوا له الدين. وهذا النوع من باب استعمال أفعل التفضيل في غير بابه وكذلك قوله ﴿ وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ أي وأبعد عن قصد السبيل ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا ﴾ نفاقا ومكرا ﴿ وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ ﴾ مشتملين على الكفر ﴿ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ﴾ فمدخلهم ومخرجهم بالكفر –وهم يزعمون أنهم مؤمنون، فهل أشر من هؤلاء وأقبح حالا منهم؟ ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾ فيجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها ﴿ وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ ﴾ أي من اليهود ﴿ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ أي يحرصون، ويبادرون المعاصي المتعلقة في حق الخالق والعدوان على المخلوقين ﴿ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ الذي هو الحرام. فهم يفعلون ذلك بل ويسارعون فيه، وهذا يدل على أن أنفسهم مجبولة على حب المعاصي والظلم، رغم ما يدعون لأنفسهم من المقامات العالية ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وهذا في غاية الذم لهم والقدح فيهم ﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ أي هلا ينهاهم العلماء المتصدون لنفع الناس، عن المعاصي التي تصدر منهم ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾.

﴿ 64 - 66 ﴾ ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُم مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ أي عن الخير والإحسان والبر ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ وهذا دعاء عليهم بجنس مقالتهم، فجازاهم بأن كانوا أبخل الناس وأقلهم إحسانا، وأسوأهم ظنا بالله، وأبعدهم الله عن رحمته التي وسعت كل شيء ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ بسط تعالى فضله وإحسانه الديني والدنيوي، وأمر العباد

أن لا يسدوا على أنفسهم أبواب إحسانه بمعاصيهم ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ وهذا أعظم العقوبات على العبد: أن يزيد الذكر الذي أنزله الله على رسوله غيَّ الكافرين إلى غيهم وطغياناً إلى طغيانهم. وذلك بسبب إعراضهم عنه، ومعارضتهم له بالشبه الباطلة ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ فلا يتآلفون ولا يتناصرون إلى يوم القيامة ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ ﴾ ليكيدوا بها الإسلام وأهله ﴿ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ بخذلانهم وتفرق جنودهم، وانتصار المسلمين عليهم﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ أي يجتهدون ويجدون، ولكن بالفساد في الأرض، بعمل المعاصي والتعويق عن الدخول في الإسلام ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم على ذلك﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ وهذا من كرمه وجوده: ذكر قبائح أهل الكتاب ومعايبهم وأقوالهم الباطلة، لكنه دعاهم إلى التوبة. فلو أنهم آمنوا بالله وملائكته وجميع كتبه وجميع رسله واتقوا المعاصي، لكفر عنهم سيئاتهم ولو كانت ما كانت، ولأدخلهم جنات النعيم ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي قاموا بأوامرهما ونواهيهما التي أنزلها ربهم إليهم لأجلهم وللاعتناء بهم ﴿ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ أي لأدر الله عليهم الرزق ولأمطر عليهم السماء وأنبت لهم الأرض ﴿ مِّنْهُمْ ﴾ من أهل الكتاب ﴿ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ﴾ عاملة بالتوراة والإنجيل، عملا غير قوي ولا نشيط ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ أي والمسيء منهم الكثير. وأما السابقون منهم فقليل ما هم.

﴿ 67 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ هذا أمر من الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأعظم الأوامر وأجلها، وهو التبليغ لما أنزل الله إليه، ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ ﴾ لم تبلغ ما أنزل إليك من ربك ﴿ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ فما امتثلت أمره ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ هذه حماية وعصمة من الله لرسوله من الناس، وأنه ينبغي أن يكون حرصك على التعليم والتبليغ، ولا يثنيك عنه خوف من المخلوقين فإن نواصيهم بيد الله وقد تكفل بعصمتك ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ وأما الكافرون الذين لا قصد لهم إلا اتباع أهوائهم فإن الله لا يهديهم ولا يوفقهم للخير.

﴿ 68 ﴾ ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ مناديا على ضلالهم، ومعلنا بباطلهم ﴿ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾ من الأمور الدينية، فإنكم لا بالقرآن ومحمد آمنتم، ولا بنبيكم وكتابكم صدقتم ﴿ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴾ أي تجعلوهما قائمين بالإيمان بهما واتباعهما، والتمسك بكل ما يدعوان إليه ﴿ وَ ﴾ تقيموا ﴿ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ الذي أنعم عليكم، وجعل

أجلِّ إنعامه إنزالَ الكتب إليكم. فالواجب عليكم أن تقوموا بشكر الله وتقوموا بما حملتم من أمانة الله وعهده ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾.

﴿ 69 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى ﴾ يخبر تعالى عن أهل الكتب من أهل القرآن والتوراة والإنجيل، أن سعادتهم ونجاتهم في طريق واحد ف ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ فله النجاة و ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فيما يستقبلونه من الأمور المخوفة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما خلفوا منها. وهذا الحكم المذكور يشمل سائر الأزمنة.

﴿ 70 ، 71 ﴾ ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ * وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي عهدهم الثقيل بالإيمان بالله والقيام بواجباته ﴿ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ﴾ يتوالون عليهم بالدعوة، ولكن ذلك لم ينجع فيهم، ولم يفد ﴿ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ ﴾ من الحق ﴿ فَرِيقًا كَذَّبُوا ﴾ وعاملوه أقبح المعاملة ﴿ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ. وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أي ظنوا أن معصيتهم وتكذيبهم لا يجر عليهم عقوبة، فاستمروا على باطلهم ﴿ فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ عن الحق ﴿ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ حين تابوا إليه وأنابوا ﴿ ثُمَّ ﴾ لم يستمروا على ذلك حتى انقلب أكثرهم إلى الحال القبيحة ﴿ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ﴾ بهذا الوصف، والقليل استمروا على توبتهم وإيمانهم ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ فيجازي كل عامل بعمله.

﴿ 72 - 75 ﴾ ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ والحال أنه عليه الصلاة والسلام قد كذبهم في هذه الدعوى، فأثبت لنفسه العبودية التامة، ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ أحدا من المخلوقين ﴿ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ﴾ وذلك لأنه سوى الخلق بالخالق، وصرف ما خلقه الله له وهو العبادة الخالصة لغير من هي له ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ ينقذونهم من

عذاب الله، أو يدفعون عنهم بعض ما نزل بهم ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ الله وعيسى ومريم، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ متصف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ثم دعاهم إلى التوبة وبين لهم في غاية اللطف واللين أنه يقبل التوبة عن عباده ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ ﴾ أي يرجعون إلى ما يحبه ويرضاه من الإقرار لله بالتوحيد، وبأن عيسى عبد الله ورسوله ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ﴾ عن ما صدر منهم ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي يغفر ذنوب التائبين، ولو بلغت عنان السماء، ويرحمهم بقبول توبتهم وتبديل سيئاتهم حسنات. ثم ذكر حقيقة المسيح وأُمِّه، الذي هو الحق ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ أي أنه من عباد الله المرسلين، الذين ليس لهم من الأمر ولا من التشريع إلا ما أرسلهم به الله وهو من جنس الرسل قبله﴿ وَأُمُّهُ ﴾ مريم ﴿ صِدِّيقَةٌ ﴾ كانت من الصديقين الذين هم أعلى الخلق رتبة بعد الأنبياء. وهذا دليل على أن مريم لم تكن نبية، بل أعلى أحوالها الصديقية وكفى بذلك فضلا وشرفا. فإذا كان عيسى عليه السلام من جنس الأنبياء والرسل من قبله، وأمه صديقة، فلأي شيء اتخذهما النصارى إلهين مع الله؟ ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ دليل ظاهر على أنهما عبدان فقيران، محتاجان كما يحتاج بنو آدم إلى الطعام والشراب ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ﴾ الموضحة للحق، الكاشفة لليقين ﴿ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ومع هذا لا تفيد فيهم شيئا، بل لا يزالون على إفكهم وكذبهم وافترائهم.

﴿ 76 ﴾ ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ لهم أيها الرسول ﴿ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ من المخلوقين الفقراء المحتاجين ﴿ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ وتتركون من انفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع ﴿ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بالظواهر والبواطن والغيب والشهادة والأمور الماضية والمستقبلة. فالكامل تعالى الذي هذه أوصافه هو الذي يستحق أن يفرد بجميع أنواع العبادة، ويخلص له الدين.

﴿ 77 - 81 ﴾ ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ * لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ لا تتجاوزوا وتتعدوا الحق إلى الباطل ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ ﴾ أي تقدم ضلالهم ﴿ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ من الناس بدعوتهم إياهم إلى الدين الذي هم عليه ﴿ وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ أي قصد الطريق، فجمعوا بين الضلال والإضلال ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي

طردوا وأبعدوا عن رحمة الله ﴿ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ أي بشهادتهما وإقرارهما بأن الحجة قد قامت عليهم وعاندوها ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ أي أن عصيانهم لله وظلمهم لعباد الله، صارا سببا لكفرهم وبعدهم عن رحمة الله، فإن للذنوب والظلم عقوبات ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ أي كانوا يفعلون المنكر ولا ينهى بعضهم بعضا. فمجرد السكوت فعلُ معصية، وإن لم يباشرها الساكت. كما أن التهاون بالمعاصي وعدم الردع عنها يجرئ العصاة والفسقة على الإكثار منها بل وربما ظن الجاهل أنها عبادة مستحسنة. ثم إن السكوت على معصية العاصين، ربما زينت المعصية في صدور الناس واقتدى بعضهم ببعض ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالمحبة والموالاة والنصرة ﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ من هذه الصفقةَ الخاسرة، وهي سخط الله والخلود الدائم في العذاب العظيم، فقد ظلمتهم أنفسهم حيث قدمت لهم هذا النزل غير الكريم، وقد ظلموا أنفسهم إذ فوتوها النعيم المقيم ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ فإن الإيمان بالله وبالنبي وما أنزل إليه يوجب على العبد موالاة ربه وأوليائه ومعاداة من كفر به وعاداه. فشرط ولايةِ الله والإيمانِ به أن لا يتخذ أعداء الله أولياء ﴿ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أي خارجون عن طاعة الله والإيمان به وبالنبي. ومن فسقهم موالاةُ أعداء الله.

الجزء السابع 7

﴿ 82 - 86 ﴾ ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ فهؤلاء الطائفتان على الإطلاق أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين، وأكثرهم سعيا في إيصال الضرر إليهم ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ﴾ وذكر تعالى لذلك عدة أسباب 1- ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ أي علماء متزهدين، لا يوجد فيهم غلظة اليهود وشدة المشركين 2- ﴿ وَأنهم لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ليس فيهم تكبر ولا عتو عن الانقياد للحق، فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر 3- ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم، أثر ذلك في قلوبهم وخشعوا له فـ ﴿ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا ﴾ بسبب ما سمعوا ﴿ مِنَ الْحَقِّ ﴾ الذي تيقنوه فـ ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم، يشهدون لله بالتوحيد ولرسله بالرسالة ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب، ويقولون ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ

يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ أي وما الذي يمنعنا من الإيمان بالله وقد جاءنا الحق من ربنا، ونحن إذا آمنا واتبعنا الحق طمعنا أن يدخلنا الله الجنة مع القوم الصالحين ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا ﴾ أي بما تفوهوا به من الإيمان ونطقوا به من التصديق بالحق ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وهذه الآيات نزلت في النصارى الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، كالنجاشي وغيره ممن آمن منهم ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ لأنهم كفروا بالله، وكذبوا بآياته المبينة للحق.

﴿ 87 – 88 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ من المطاعم والمشارب، فإنها نعم أنعم الله بها عليكم، فاحمدوه إذ أحلها لكم، واشكروه ولا تردوا نعمته بكفرها أو اعتقاد تحريمها. وفي هذا كذب على الله وكفر النعمة. كما أن اعتقاد الحلال الطيب حراما خبيثا نوع من الاعتداء الذي نهى الله عنه ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم على ذلك. ثم أمر بضد ما عليه المشركون، الذين يحرمون ما أحل الله فقال ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ أي كلوا من رزقه الذي ساقه إليكم إذا كان حلالًا لا سرقة ولا غصبا ولا غير ذلك من أنواع الأموال التي تؤخذ بغير حق، وكان أيضا طيبا لا خبث فيه ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ فإن إيمانكم بالله يوجب عليكم تقواه ومراعاة حقه، فإنه لا يتم إلا بذلك. ويدخل في هذه الآية أنه لا ينبغي للإنسان أن يتجنب الطيبات ويحرمها على نفسه، بل يتناولها مستعينا بها على طاعة ربه.

﴿ 89 ﴾ ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ التي صدرت على وجه اللغو، من غير نية ولا قصد، أو أن الذي عقدها ظنّ صدق نفسه ثم بان له خلاف ذلك ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾ أي بما عزمتم عليه، وعقدت عليه قلوبكم ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ ﴾ ويجب أن يكون ذلك الإطعام ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾ أي كسوة عشرة مساكين، والكسوة هي التي تجزئ في الصلاة ﴿ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أي عتق رقبة مؤمنة كما قيدت في غير هذا الموضع. فمتى فعل واحدا من هذه الثلاثة فقد انحلت يمينه ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ﴾ واحدا من هذه الثلاثة ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ ﴾ ليكون المذكور ﴿ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ تكفرها وتمحوها وتمنع من الإثم ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ عن الحلف بالله كاذبا، وعن كثرة الأيمان، وعن الحنث فيها، إلا إذا كان الحنث خيرا. فتمام الحفظ أن

يفعل الخير، ولا يكون يمينه عرضة لذلك الخير ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ﴾ المبينة للحلال من الحرام ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الله حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون.

﴿ 90 - 91 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ ﴾ كل ما خامر العقل وغطاه بسكره ﴿ وَالْمَيْسِرُ ﴾ وهو جميع المغالبات التي فيها عوض من الجانبين، كالمراهنة ونحوها ﴿ وَالْأَنْصَابُ ﴾ وهي الأصنام والأنداد ونحوها، مما يُنصب ويُعبد من دون الله ﴿ وَالْأَزْلَامُ ﴾ التي يستقسمون بها ﴿ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ فهذه الأربعة نهى الله عنها وزجر لأنها رجس من عمل الشيطان أي خبث ونجس معنىً، وإن لم تكن نجسة حسا ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ أي اتركوه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرم الله ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ﴾ خصوصا ﴿ فِي ﴾ هذه الفواحش المذكورة من ﴿ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ كما أنه لا يفلح العبد إلا باجتنابها والشيطان حريص على بثها، ليوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴾ ولهذا عرض تعالى على العقول السليمة النهي عنها ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ لأن العاقل إذا نظر إلى بعض تلك المفاسد انزجر عنها وكفت نفسه، ولم يحتج إلى وعظ كثير ولا زجر بليغ.

﴿ 92 ﴾ ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ من أطاع الله فقد أطاع الرسول، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله. وهذا أمر يدخل فيه كل أمر ونهي، ظاهر وباطن ﴿ وَاحْذَرُوا ﴾ معصية الله ومعصية رسوله، فإن في ذلك الشر والخسران المبين ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ عما أمرتم به ونهيتم عنه ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ وقد أدى ذلك. فإن اهتديتم فلأنفسكم، وإن أسأتم فعليها.

﴿ 93 ﴾ ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ ﴾ أي حرج وإثم ﴿ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ من الخمر والميسر قبل تحريمهما. ولما كان نفي الجناح يشمل المذكورات وغيرها، قيد ذلك بقوله: ﴿ إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ﴾ أي بشرط أنهم تاركون للمعاصي، مؤمنون بالله إيمانا صحيحا، ويدوم على إحسانه حتى يأتيه أجله. ويدخل في هذه الآية الكريمة، من طعم المحرم، أو فعل غيره بعد التحريم، ثم اعترف بذنبه وتاب إلى الله، واتقى وآمن وعمل صالحا، فإن الله يغفر له، ويرتفع عنه الإثم في ذلك ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

﴿ 94 – 96 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ ﴾ لابد أن يختبر الله إيمانكم ﴿ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ ﴾ غير كثير، فتكون محنة يسيرة، تخفيفا منه تعالى ولطفا، وذلك الصيد الذي يبتليكم الله به ﴿ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ أي تتمكنون من صيده، ليتم بذلك الابتلاء ﴿ لِيَعْلَمَ اللَّهُ ﴾ علما ظاهرا للخلق يترتب عليه الثواب والعقاب ﴿ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾ فيثيبه الثواب الجزيل، ممن لا يخافه بالغيب فلا يرتدع عن معصية تعرض له فيصطاد ما تمكن منه ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى منكم بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ البيان الذي قطع الحجج ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي مؤلم موجع ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ أي محرمون في[19] الحج والعمرة ﴿ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا ﴾ أي قتل صيدا عمدا ﴿ فَ ﴾ عليه ﴿ جَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ﴾ أي الإبل أو البقر أو الغنم، فيجب عليه مثله، يذبحه ويتصدق به والاعتبار بالمماثلة أن ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ أي عدلان يعرفان الحكم ووجه الشبه، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم، حيث قضوا بالحمامة شاة، وفي النعامة بدنة، وفي بقر الوحش على اختلاف أنواعه بقرة، وهكذا كل ما يشبه شيئا من النعم، ففيه مثله، فإن لم يشبه شيئا ففيه قيمته، كما هو القاعدة في المتلفات، وذلك الهدي لا بد أن يكون ﴿ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ أي يذبح في الحرم ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ﴾ أي يجعل مقابلة المثل من النعم، طعام يطعم المساكين. قال كثير من العلماء: يقوم الجزاء، فيشترى بقيمته طعام، فيطعم كل مسكين مُدَّ بُرٍّ أو نصفَ صاع من غيره ﴿ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ ﴾ الطعام ﴿ صِيَامًا ﴾ فيصوم عن إطعام كل مسكين يوما ﴿ لِيَذُوقَ ﴾ بإيجاب الجزاء المذكور عليه ﴿ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ ﴾ بعد ذلك ﴿ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ وإنما نص الله على المتعمد لقتل الصيد، مع أن الجزاء يلزم المتعمد والمخطيء. وقد رتب الله على المتعمد الجزاء والعقوبة والانتقام. وأما المخطئ فليس عليه عقوبة، إنما عليه الجزاء ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ ﴾ في حال إحرامكم ﴿ صَيْدُ الْبَحْرِ ﴾ وهو الحي من حيواناته ﴿ وَطَعَامُهُ ﴾ وهو الميت منها، فدل ذلك على حل ميتة البحر ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ أي الفائدة في إباحته لكم أنه لأجل انتفاعكم وانتفاع رفقتكم الذين يسيرون معكم ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ ويؤخذ من لفظ "الصيد" أنه لا بد أن يكون وحشيا ومأكولا ، لأن الإنسي ليس بصيد، وغير المأكول لا يصاد ولا يطلق عليه اسم الصيد ﴿

[19] والنهي عن قتله يشمل النهي عن مقدمات القتل، وعن المشاركة في القتل، والدلالة عليه، والإعانة على قتله، حتى إن من تمام ذلك أنه ينهى المحرم عن أكل ما قُتل أو صيد لأجله، وهذا كله تعظيم لهذا النسك العظيم.

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي اتقوه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، واستعينوا على تقواه بعلمكم أنكم إليه تحشرون.

﴿ 97 - 99 ﴾ ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ ﴾ يقوم بالقيام بتعظيمه دينُهم ودنياهم، فبذلك يتم إسلامهم ويجتمع فيه من كل فج عميق جميع أجناس المسلمين فتنعقد بينهم الروابط في مصالحهم الدينية والدنيوية ﴿ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ﴾ وكذلك جعل الهدي والقلائد التي هي أشرف أنواع الهدي قياما للناس، ينتفعون بهما ويثابون عليهما ﴿ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فمن علمه أن جعل لكم هذا البيت الحرام، لما يعلمه من مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿ اعْلَمُوا ﴾ على وجه الجزم واليقين ﴿ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ العاجل والآجل على من عصاه ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لمن تاب إليه وأطاعه ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ وقد بلَّغ كما أُمِر، وقام بوظيفته ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ فيجازيكم بما يعلمه تعالى منكم.

﴿ 100 ﴾ ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ للناس محذرا عن الشر ومرغبا في الخير ﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ من كل شيء ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ فإنه لا ينفع صاحبه شيئا، بل يضره في دينه ودنياه ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أهل العقول الوافية، وهم الذين يرجى أن يكون فيهم خير ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لأن الفلاح متوقف على التقوى التي هي موافقة الله في أمره ونهيه.

﴿ 101 - 102 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ وذلك كسؤال بعض المسلمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن آبائهم، وعن حالهم في الجنة أو النار، وكسؤالهم للأمور غير الواقعة، وكالسؤال الذي يترتب عليه تشديدات في الشرع ربما أحرجت الأمة، وكالسؤال عما لا يعني. فهذه الأسئلة، وما أشبهها هي المنهي عنها، وأما السؤال الذي لا يترتب عليه شيء من ذلك فهذا مأمور به ﴿ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ أي وإذا سألتم عن آية أشكلت، أو حكم خفي وجهه عليكم، في وقت يمكن فيه نزول الوحي من السماء، تبد لكم، أي تبين لكم وتظهر. وإلا فاسكتوا عمّا سكت الله عنه ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ﴾ أي سكت معافيا لعباده منها، فكل ما سكت الله عنه فهو مما أباحه وعفا عنه ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ فتعرضوا لمغفرته وإحسانه واطلبوه من رحمته ورضوانه. وهذه

المسائل التي نهيتم عنها ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أي جنسها وشبهها، سؤال تعنت لا استرشاد ﴿ ثُمَّ ﴾ فلما بينت لهم وجاءتهم ﴿ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾[20].

﴿ 103 - 104 ﴾ ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ ﴾ هذا ذم للمشركين الذين شرّعوا في الدين ما لم يأذن به الله، وحرموا ما أحله الله، فجعلوا بآرائهم الفاسدة شيئا من مواشيهم محرما ﴿ بَحِيرَةٍ ﴾ وهي ناقة يشقون أذنها، ثم يحرمون ركوبها ويرونها محترمة ﴿ وَلَا سَائِبَةٍ ﴾ وهي ناقة أو بقرة أو شاة إذا بلغت شيئا اصطلحوا عليه، سيبوها فلا تركب ولا يحمل عليها ولا تؤكل، وبعضهم ينذر شيئا من ماله يجعله سائبة ﴿ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ أي جمل يحمى ظهره عن الركوب والحمل، إذا وصل إلى حالة معروفة بينهم. فكل هذه مما جعلها المشركون محرمة بغير دليل ولا برهان، ولهذا قال ﴿ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ومع هذا فقد أعجبوا بآرائهم التي بنيت على الجهالة والظلم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ﴾ أعرضوا فلم يقبلوا و ﴿ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ من الدين ولو كان غير سديد ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾.

﴿ 105 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ فاجتهدوا في إصلاحها وكمالها وإلزامها سلوك الصراط المستقيم، فإنكم إذا صلحتم ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ ﴾ عن الصراط المستقيم ﴿ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ إذا كان العبد عاجزا عن إنكار المنكر بيده ولسانه وأنكره بقلبه، فإنه لا يضره ضلال غيره. ولا يدل هذا على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يضر العبدَ تركُهما وإهمالُهما، فإنه لا يتم هداه إلا بالإتيان بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي مآلكم ﴿ جَمِيعًا ﴾ يوم القيامة، واجتماعكم بين يدي الله تعالى ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من خير وشر.

﴿ 106 - 108 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ * فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا

---

[20] كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: "ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم".

إثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ إذا حضر الإنسان مقدماتُ الموت وعلائمه فينبغي له أن يكتب وصيته، ويشهد عليها اثنين ذوي عدل ممن تعتبر شهادتهما ﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ أي من غير أهل دينكم، من اليهود أو النصارى أو غيرهم، وذلك عند الحاجة والضرورة وعدم وجود غيرهما من المسلمين ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي سافرتم فيها ﴿ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ أي فأشهدوهما، ولم يأمر بشهادتهما إلا لأن قولهما في تلك الحال مقبول، ويؤكد عليهما، بأن ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ ﴾ التي يعظمونها ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ ﴾ أنهما صدقا، وما غيرا ولا بدلا، هذا ﴿ إِنِ ارْتَبْتُمْ ﴾ في شهادتهما، فإن صدقتموهما فلا حاجة إلى القسم بذلك. ويقولان ﴿ لَا نَشْتَرِي بِهِ ﴾ أي بأيماننا ﴿ ثَمَنًا ﴾ بأن نكذب فيها لأجل عرض من الدنيا ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ فلا نراعيه لأجل قربه منا ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ ﴾ بل نؤديها على ما سمعناها ﴿ إِنَّا إِذًا ﴾ أي إن كتمناها ﴿ لَمِنَ الْآثِمِينَ. فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا﴾ أي الشاهدين ﴿ اسْتَحَقَّا إِثْمًا ﴾ بأن وجد من القرائن ما يدل على كذبهما وأنهما خانا ﴿ فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ ﴾ أي فليقم رجلان من أولياء الميت، وليكونا من أقرب الأولياء إليه ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا ﴾ أي أنهما كذبا وغيرا وخانا ﴿ وَمَا اعْتَدَيْنَا ﴾ فإن ظلمنا واعتدينا وشهدنا بغير الحق ﴿ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ قال الله تعالى في بيان حكمة تلك الشهادة وتأكيدها، وردها على أولياء الميت حين تظهر من الشاهدين الخيانة ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى ﴾ أي أقرب ﴿ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا ﴾ حين تؤكد عليهما تلك التأكيدات ﴿ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ أي أن لا تقبل أيمانهم، ثم ترد على أولياء الميت ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ الذين وصْفُهم الفسق ولا يريدون الهدى والقصد إلى الصراط المستقيم[21].

---

[21] والخلاصة أن الميت - إذا حضره الموت في سفر ونحوه، مما هو مظنة قلة الشهود المعتبرين- أنه ينبغي أن يوصي شاهدين مسلمين عدلين. فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين، جاز أن يوصي إليهما، ولكن لأجل كفرهما فإن الأولياء إذا ارتابوا بهما فإنهم يحلفونهما بعد الصلاة، أنهما ما خانا، ولا كذبا، ولا غيرا، ولا بدلا، فيبرآن بذلك من حق يتوجه إليهما. فإن لم يصدقوهما ووجدوا قرينة تدل على كذب الشاهدين، فإن شاء أولياء الميت، فليقم منهم اثنان، فيقسمان بالله: لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين، وأنهما خانا وكذبا، فيستحقون منهما ما يدعون. ويستدل بالآيات الكريمات على عدة أحكام: 1- أن الوصية مشروعة، وأنه ينبغي لمن حضره الموت أن يوصي. 2- أنها معتبرة، ولو وصل الإنسان إلى مقدمات الموت وعلاماته، ما دام عقله ثابتا. 3- لابد فيها من اثنين عدلين. 4- أن شهادة الكافرين في هذه الوصية ونحوها مقبولة لوجود الضرورة، وهذا مذهب الإمام أحمد. وزعم كثير من أهل العلم: أن هذا الحكم منسوخ، وهذه دعوى لا دليل عليها. 5- ربما استفيد من تلميح الحكم ومعناه أن شهادة الكفار -عند عدم وجود غيرهم، حتى في غير هذه المسألة- مقبولة، كما ذهب إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية. 6- جواز سفر المسلم مع الكافر إذا لم يكن محذوراً. 7- جواز السفر للتجارة. 8- أن الشاهدين -إذا ارتيب منهما، لكن لم تبد قرينة تدل على خيانتهما، فقد يريد الأولياء أن يؤكدوا عليهم اليمين، فيحبسوهما من بعد الصلاة، ليقسمان بصفة ما ذكر الله تعالى. 9- أنه إذا لم تحصل تهمة ولا ريب لم يكن حاجة إلى حبسهما، وتأكيد اليمين عليهما. 10 - تعظيم أمر الشهادة حيث أضافها تعالى إلى نفسه، وأنه يجب الاعتناء بها والقيام بها بالقسط. 11- يجوز امتحان الشاهدين عند الريبة منهما، وتفريقهما لينظر عن شهادتهما. 12- إذا وجدت القرائن الدالة على كذب الوصيين في هذه المسألة - قام اثنان من أولياء الميت فأقسما بالله: أن أيماننا أصدق من أيمانهما، ولقد خانا وكذبا. ثم يدفع إليهما ما ادعياه، فتكون القرينة -مع أيمانهما- قائمة مقام البينة.

﴿ 109 - 110 ﴾ ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ ﴾ في يوم القيامة جميع ﴿ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ﴾ ويسألهم ﴿ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ أي ماذا أجابتكم به أممكم فـ ﴿ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ وإنما العلم لك يا ربنا، فأنت أعلم منا ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ تعلم الأمور الغائبة والحاضرة ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ ﴾ اذكرها بقلبك ولسانك، وقم بواجبها شكرا لربك ﴿ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ قويتك بالروح والوحي، الذي طهرك وزكاك، وصار لك قوة على القيام بأمر الله والدعوة إلى سبيله. وقيل إن المراد "بروح القدس" جبريل عليه السلام، وأن الله أعانه به وبملازمته له وتثبيته ﴿ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ وهذا غير مجرد الكلام، وإنما الدعوة إلى الله. وقد تميز عيسى عليه السلام عن إخوانه من أولي العزم من المرسلين بأنه كلم الناس في المهد ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ ﴾ وهو يشمل الكتب السابقة ﴿ وَ ﴾ خصوصا ﴿ التَّوْرَاةَ ﴾ فإنه من أعلم أنبياء بني إسرائيل بعد موسى بها ﴿ وَ ﴾ يشمل ﴿ الْإِنْجِيلَ ﴾ الذي أنزله الله عليه ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ وهي معرفة أسرار الشرع وفوائده وحكمه وحسن الدعوة والتعليم، ومراعاة ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ طيرا مصورا لا روح فيه فتنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ﴿ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ ﴾ الذي لا بصر له ولا عين ﴿ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ﴾ فهذه آيات بيّنَات، ومعجزات باهرات أيد الله بها عيسى وقوى بها دعوته ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ ﴾ لما جاءهم الحق مؤيدا بالبينات الموجبة للإيمان به ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ وهموا بعيسى أن يقتلوه، وسعوا في ذلك، فكفَّ الله أيديهم عنه، وحفظه منهم.

﴿ 111 - 120 ﴾ ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ * إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّـهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّـهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّـهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ * وَإِذْ قَالَ اللَّـهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّـهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّـهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * قَالَ اللَّـهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّـهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِلَّـهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ﴾ الأنصار ﴿ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ واذكر نعمتي عليك إذ يسرت لك أتباعا وأمرتهم بالوحي الذي جاءك من عند الله، فأجابوا لذلك و ﴿ قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ. إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ فيها طعام، وهذا ليس منهم عن شك في قدرة الله وإنما من باب العرض والأدب منهم. ولما كان سؤال آيات الاقتراح منافيا للانقياد للحق وعظهم عيسى عليه السلام فـ ﴿ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فإن المؤمن ينقاد لأمر الله، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها. فأخبر الحواريون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى، وإنما لهم مقاصد صالحة، ولأجل الحاجة إلى ذلك فـ ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا ﴾ وهذا دليل على أنهم محتاجون لها، ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ بالإيمان حين نرى الآيات العيانية[22] ﴿ وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ أي صدق ما جئت به ﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ فتكون مصلحة لمن بعدنا، فتقوم الحجة ويحصل زيادة البرهان بذلك ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ عليه الصلاة والسلام بعد أن علم مقصودهم ﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ ﴾ يكون وقت نزولها عيدا وموسما، فتحفظ ولا تنسى ومنبها على سنن المرسلين ﴿ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أي اجعلها لنا رزقا. فسأل عيسى عليه السلام نزولها وأن تكون لهاتين المصلحتين: بأن تكون آية باقية وأن تكون رزقا ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ لأنه شاهد الآية الباهرة وكفر عنادا وظلما. واعلم أن الله تعالى وعد أنه سينزلها، وتوعدهم إن كفروا بهذا الوعيد. ولم يذكر أنه أنزلها، فيحتمل أنه لم ينزلها بسبب أنهم لم يختاروا ذلك، ويدل على ذلك أنه لم يذكر في الإنجيل الذي بأيدي النصارى. ويحتمل أنها نزلت كما وعد الله، ويكون عدم ذكرها في الأناجيل التي بأيديهم من الحظ الذي ذكروا به فنسوه. أو أنه لم يذكر في الإنجيل أصلا، وإنما ذلك كان متوارثا بينهم، ينقله الخلف عن السلف، فاكتفى الله بذلك عن ذكره في الإنجيل، ويدل على هذا المعنى قوله: وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ والله أعلم بحقيقة الحال ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وهذا توبيخ للنصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، فيقول الله هذا الكلام لعيسى فيتبرأ عيسى ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ عن هذا الكلام القبيح، وعمّا لا يليق بك ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ ما ينبغي لي، ولا يليق أن أقول شيئا ليس من أوصافي ولا من حقوقي، فإنه ليس أحد من المخلوقين، لا الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية وإنما الجميع عباد مدبرون ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ فأنت أعلم بما صدر مني و﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ

[22] ، فيكون الإيمان عين اليقين، كما كان قبل ذلك علم اليقين. كما سأل الخليل عليه الصلاة والسلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتى { قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } فالعبد محتاج إلى زيادة العلم واليقين والإيمان كل وقت.

﴿الْغُيُوبِ﴾ وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام في خطابه لربه، فلم يقل عليه السلام: "لم أقل شيئا من ذلك" وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيه، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة. ثم صرح بذكر ما أمر به بني إسرائيل، فقال ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ فأنا عبد متبع لأمرك، لا متجرئ على عظمتك ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، فكما أنه ربكم فهو ربي ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أشهد على من قام بهذا الأمر، ممن لم يقم به ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ المطلع على سرائرهم وضمائرهم ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ علمك قد أحاط بالمعلومات وسمعك بالمسموعات وبصرك بالمبصرات ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وأنت أرحم بهم من أنفسهم وأعلم بأحوالهم، فلولا أنهم عباد متمردون لم تعذبهم ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة ﴿الْحَكِيمُ﴾ من مقتضى حكمتك أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ مبينا لحال عباده يوم القيامة، ومَن الفائز منهم ومَن الهالك ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم على الصراط المستقيم والهدْي القويم ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ والكاذبون بضدهم، سيجدون ضرر افترائهم وثمرة أعمالهم الفاسدة ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ لأنه الخالق لهما والمدبر لذلك ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه شيء، بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته، ومسخرة بأمره.

تم مختصر تفسير سورة المائدة

بفضل من الله وإحسان

والحمد لله رب العالمين

6

مختصر تفسير سورة الأنعام

عدد آياتها 165

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 2 ﴾ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ حمد نفسه ﴿ الَّذِي خَلَقَ ﴾ على خلقه ﴿ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ ﴾ وعلى جعله ﴿ الظُّلُمَاتِ وَالنُّور ﴾ الحسي منها كالليل والنهار والشمس والقمر، والمعنوي كظلمات الجهل والشك والشرك والمعصية والغفلة، ونور العلم والإيمان واليقين والطاعة. وذكر الله الظلمات بالجمع، لكثرة موادها وتنوع طرقها. ووحد النور لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدة لا تعدد فيها ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أي يعدلون به سواه ويسوونهم به في العبادة والتعظيم، مع أنهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ﴾ وذلك بخلق مادتكم وأبيكم آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا ﴾ فضرب لمدة إقامتكم في هذه الدار أجلا، تتمتعون به وتبتلون بما يرسل إليكم به رسله ﴿ وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ﴾ وهي الدار الآخرة، التي ينتقل العباد إليها من هذه الدار، فيجازيهم بأعمالهم من خير وشر ﴿ ثُمَّ ﴾ مع هذا البيان التام وقطع الحجة ﴿ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ تشكون في وعد الله ووعيده، ووقوع الجزاء يوم القيامة.

﴿ 3 ﴾ ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾

﴿ وَهُوَ اللَّهُ ﴾ المألوه المعبود ﴿ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ فأهل السماء والأرض من ملائكة وأنبياء ومرسلين وصديقين وشهداء خاضعون لعظمته، مستكينون لعزه وجلاله. وهو تعالى ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ فاحذروا معاصيه وارغبوا في أعمال تدنيكم من رحمته، واحذروا كل عمل يبعدكم منها.

﴿ 4 - 6 ﴾ ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ

نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ الدالة على الحق دلالة قاطعة، الداعية لهم إلى اتباعه وقبوله ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ لا يلقون لها بالا، وانصرفت قلوبهم إلى غيرها ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ والحق حقه أن يتبع، ويشكروا الله على تيسيره لهم لكن قابلوه بضد ذلك ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ فيبين الله للمكذبين كذبهم وافتراءهم، وكانوا يستهزئون بالبعث والجنة والنار ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ كم تتابع إهلاكنا للأمم المكذبين، وأمهلناهم قبل ذلك الإهلاك بأن ﴿ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ ﴾ لهؤلاء من الأموال والبنين والرفاهية ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ ﴾ فينبت لهم بذلك ما شاء الله من زروع وثمار يتمتعون بها، ويتناولون منها ما يشتهون. فلم يشكروا الله على نعمه بل أقبلوا على الشهوات، فجاءتهم رسلهم بالبينات فردوها وكذبوها ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ أهلكهم الله ﴿ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾.

﴿ 7 – 9 ﴾ ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ *وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ وتيقنوه ﴿ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ظلما وعلوا ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ فأي بينة أعظم من هذه البينة، وهذا قولهم الشنيع فيها ﴿ وَقَالُوا ﴾ أيضا تعنتا مبنيا على الجهل ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ أي هلا أنزل مع محمد ملك، يعاونه ويساعده لأن رسالة الله يجب أن تكون بزعمهم على أيدي الملائكة. فقال الله في بيان رحمته ولطفه بعباده حيث أرسل إليهم بشرا منهم ﴿ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا ﴾ لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق، ولكان إيمانا بالشهادة. هذا إن آمنوا، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة و ﴿ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ ولقضي الأمر بتعجيل الهلاك عليهم وعدم إنظارهم. ومع ذلك، فالملك لو أنزل عليهم لم تطقه قواهم الفانية ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ﴾ لأن الحكمة لا تقتضي سوى ذلك ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ أي ولكان الأمر مختلطا عليهم. فلما جاءهم الحق بطرقه الصحيحة اهتدى به غيرهم، ولم يهتدوا هم به، لأنهم أغلقوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا أبواب الضلال.

﴿ 10 – 11 ﴾ ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ لما جاءوا أممهم بالبينات، كذبوهم واستهزأوا بهم وبما جاءوا به ﴿ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ فأهلكهم الله بذلك الكفر والتكذيب ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ فإن شككتم في ذلك فسيروا في الأرض ﴿ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ وكيف أبادهم الملك الجبار.

﴿ 12 ﴾ ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ لهؤلاء المشركين بالله، مقررا لهم وملزما بالتوحيد ﴿ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ مَن الخالق لذلك المتصرف فيه ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ لِلَّهِ ﴾ وهم مقرون بذلك لا ينكرونه، أفلا حين اعترفوا بانفراد الله بالملك والتدبير، أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد؟ وقوله ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ أي أن رحمته تغلب غضبه، والعطاء أحب إليه من المنع، وأنه فتح لجميع العباد أبواب الرحمة إن لم يغلقوا عليهم أبوابها بذنوبهم ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وهذا قسم منه، وهو أصدق المخبرين. ولكن أبى الظالمون إلا جحودا، وأنكروا قدرة الله على بعث الخلائق فخسروا دنياهم وأخراهم ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿ 13 – 20 ﴾ ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ وَلَهُ ﴾ تعالى ﴿ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أي المخلوقات كلها، خلق مدبرون، وعبيد مسخرون لربهم العظيم ﴿ وَهُوَ ﴾ المدبر المالك رب العالمين ﴿ السَّمِيعُ ﴾ لجميع الأصوات ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما كان وما يكون وما لم يكن، المطلع على الظواهر والبواطن ﴿ قُلْ ﴾ إذن لهؤلاء المشركين بالله ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ يتولاني، وينصرني ﴿ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي خالقهما ومدبرهما ﴿ وَهُوَ ﴾ تعالى ﴿ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾

لأنه الرزاق لجميع الخلق، من غير حاجة منه تعالى إليهم ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ لله بالتوحيد ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي ونهيت أيضا عن أن أكون من المشركين، لا في اعتقادهم ولا في مجالستهم ولا في الاجتماع بهم ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ لأن المعاصي في الشرك توجب الخلود في النار في يوم يُخاف عذابه ﴿ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ﴾ فهو المرحوم ﴿ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ ومن نجا فيه فهو الفائز حقا، كما أن من لم ينج منه فهو الهالك الشقي ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ هو تعالى المنفرد بكشف الضراء ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ ﴾ والمنفرد بجلب الخير والسراء ﴿ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فإذا كان وحده النافع الضار فهو الذي يستحق أن يفرد بالعبودية والإلهية ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ فلا يتصرف منهم ولا يتحرك ولا يسكن إلا بمشيئته ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ فيما أمر به ونهى وأثاب وعاقب، وفيما خلق وقدر ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ المطلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور، وهذا كله من أدلة التوحيد ﴿ قُلْ ﴾ لهم، لما بينا لهم الهدى ﴿ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ على هذا الأصل العظيم ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ أكبر شهادة، فهو ﴿ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ فلا أعظم منه شهادة ولا أكبر، وهو يشهد لي بإقراره وفعله ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ أي وأوحى الله إليَّ هذا القرآن الكريم لمنفعتكم ومصلحتكم، لأنذركم به من العقاب الأليم. والنذارة إنما تكون بذكر الترغيب والترهيب وببيان الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، التي مَن قام بها فقد قبل النذارة. ثم قال: قل لهؤلاء المعارضين لخبر الله، والمكذبين لرسله ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ ﴾ أي إن شهدوا، فلا تشهد معهم. فوازِنْ بين شهادة أصدق القائلين رب العالمين، وبين شهادة أهل الشرك الذين فسدت آراؤهم وأخلاقهم. فنحن نختار لأنفسنا ما اختاره الله لنبيه، الذي أمرنا الله بالاقتداء به، فقال ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ لا يستحق العبودية والإلهية سواه، منفرد بالخلق والتدبير ﴿ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ به من الأوثان والأنداد وكل ما أشرك به مع الله. فهذا حقيقة التوحيد، إثبات الإلهية لله ونفيها عمّا عداه. ثم ذكر أن ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ يَعْرِفُونَهُ ﴾ أي يعرفون صحة التوحيد ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ ولا يشتبهون بأولادهم الملازمين لهم. ويحتمل أن الضمير عائد إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وأن أهل الكتاب لا يشتبهون بصحة رسالته ولا يمترون بها، لما عندهم من البشارات به ونعوته التي تنطبق عليه ولا تصلح لغيره، والمعنيان متلازمان ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أي فوتوها ما خلقت له من الإيمان والتوحيد، وحرموها الفضل من الملك المجيد ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فإذا لم يوجد الإيمان منهم، فلا تسأل عن الخسار والشر، الذي يحصل لهم.

﴿ 21 ﴾ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ فلا أعظم ظلما وعنادا ﴿ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ ممن كان فيه أحد الوصفين، فكيف لو اجتمع افتراء الكذب على الله مع التكذيب بآياته، فهذا أظلم الناس ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ والظالم لا يفلح أبدا.

﴿ 22 - 24 ﴾ ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ يخبر تعالى عن مآل أهل الشرك يوم القيامة ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ وأنهم يسألون ويوبخون فيقال لهم ﴿ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي إن الله ليس له شريك، وإنما ذلك على وجه الزعم منهم والافتراء ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ ﴾ أي لم يكن جوابهم حين يفتنون ويختبرون بذلك السؤال ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ إلا إنكارهم أنهم ما كانوا مشركين ﴿ انْظُرْ ﴾ متعجبا منهم ومن أحوالهم ﴿ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي كذبوا كذبا عاد بالخسار على أنفسهم وضرهم ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من الشركاء الذين زعموهم مع الله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

﴿ 25 ﴾ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ هؤلاء المشركين ﴿ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ قوم يحملهم بعضُ الدواعي إلى الاستماع لما تقول، ولكنه استماع خال من قصد الحق واتباعه، ولهذا لا ينتفعون بذلك الاستماع، لعدم إرادتهم للخير ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أغطية وأغشية ﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ لئلا يفقهوا كلام الله، فصان كلامه عن أمثال هؤلاء ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ ﴾ جعلنا ﴿ وَقْرًا ﴾ أي صمما، فلا يستمعون ما ينفعهم ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ ﴾ من الآيات البينات الدالة على الحق ﴿ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ وهذا غاية الظلم والعناد لا يصدقون بها، بل يجادلون بالباطل الحقَّ ليدحضوه ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي مأخوذ من صحف الأولين المسطورة التي ليست عن الله ولا عن رسله. وهذا من كفرهم.

﴿ 26 ﴾ ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

﴿ وَهُمْ ﴾ أي المشركون بالله المكذبون لرسوله، يجمعون بين الضلال والإضلال ﴿ يَنْهَوْنَ ﴾ الناس ﴿ عَنْهُ ﴾ عن اتباع الحق ويحذرونهم منه ﴿ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ ويبعدون بأنفسهم عنه ﴿ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ بذلك، وهم لن يضروا الله ولا عباده المؤمنين بفعلهم هذا شيئا.

﴿ 27 - 29 ﴾ ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾

يقول تعالى –مخبرا عن حال: ﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ المشركين يوم القيامة ﴿ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ﴾ ليوبخوا ويقرعوا لرأيت أمرا هائلا، ولرأيتهم كيف أقروا على أنفسهم بالكفر والفسوق ﴿ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا ﴾ وتمنوا أن لو ﴿ نُرَدُّ ﴾ إلى الدنيا ﴿ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهم كذبة، قصدهم أن يدفعوا عن أنفسهم العذاب ﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ فإنهم كانوا يخفون في أنفسهم أنهم كانوا كاذبين ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ في هذه الأمنية ﴿ وَقَالُوا ﴾ منكرين للبعث ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ أي ما حقيقة الحال والأمر وما المقصود من إيجادنا، إلا الحياة الدنيا وحدها ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾.

﴿ 30 ﴾ ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ الكافرين ﴿ إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ لرأيت هَوْلًا جسيما و﴿ قَالَ ﴾ لهم موبخا ومقرعا ﴿ أَلَيْسَ هَذَا ﴾ الذي ترون من العذاب ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ فأقروا واعترفوا ﴿ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ﴾ حيث لا ينفعهم ذلك ﴿ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.

﴿ 31 ﴾ ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾

﴿ قَدْ ﴾ خاب و﴿ خَسِرَ ﴾ وحرم الخير كله ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴾ فأجترأ على المحرمات ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ وهم على أقبح حال وأسوئه، أظهروا غاية الندم و﴿ قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ ولكن هذا تحسر ذهب وقته ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ ﴾ التي تثقلهم ﴿ عَلَى ظُهُورِهِمْ ﴾ ولا يقدرون على التخلص منه ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ ولهذا خلدوا في النار.

﴿ 32 ﴾ ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ ﴾ هذه حقيقة ﴿ الدُّنْيَا ﴾ فإنها ﴿ إِلَّا لَعِبٌ ﴾ في الأبدان ﴿ وَلَهْوٌ﴾ في القلوب ﴿ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ ﴾ وأما الآخرة فإنها ﴿ خَيْرٌ ﴾ في ذاتها وصفاتها وبقائها ودوامها وفيها ما تشتهيه الأنفس ولكنها ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ يفعلون أوامر الله ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أفلا يكون لكم عقول بها تدركون أيّ الدارين أحق بالإيثار.

﴿ 33 - 35 ﴾ ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ * وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾ نعلم أن الذي يقول المكذبون فيك يحزنك ويسوءك ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ لأنهم يعرفون صدقك، حتى إنهم كانوا يسمونه قبل البعثة الأمين ﴿ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ فإن تكذيبهم هو لآيات الله التي جعلها الله على يديك ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ ولم نأمرك بما أمرناك به من الصبر إلا لتحصل لك المنازل العالية، فاصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ما به يثبت فؤادك ويطمئن به قلبك ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي شق عليك من حرصك عليهم ومحبتك لإيمانهم ﴿ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ ﴾ فليس في مقدورك أن تهدي من لم يرد الله هدايته ﴿ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ﴾ أي فافعل ذلك فإنه لا يفيدهم شيئا، وهذا قطع لطمعه في هدايته أشباه هؤلاء المعاندين ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ ولكن حكمته تعالى اقتضت أنهم يبقون على الضلال ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ الذين لا يعرفون حقائق الأمور ولا ينزلونها على منازلها.

﴿ 36 - 37 ﴾ ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ﴾ لدعوتك ﴿ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ بقلوبهم فيستجيبون لما ينفعهم. لأن سماع الأذن يشترك فيه البر والفاجر ﴿ وَالْمَوْتَى ﴾ يحتمل أن المعنى: إنما يستجيب لك أحياء القلوب، وأما أموات القلوب فإنهم لا يستجيبون لك وموعدهم القيامة ﴿ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ ويحتمل أن المراد بالآية على ظاهرها، وأن الله تعالى يقرر المعاد، وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة ثم ينبئهم بما كانوا يعملون. ويكون هذا متضمنا للترغيب في الاستجابة لله ورسوله، والترهيب من عدم ذلك ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي المكذبون بالرسول تعنتا وعنادا ﴿

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ يعنون بذلك آيات الاقتراح، التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة ﴿ قُلْ ﴾ مجيبا ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً ﴾ فجميع الأشياء منقادة لعزته، مذعنة لسلطانه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ أكثر الناس ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فهم يطلبون ما فيه شر لهم: لأن الآيات لو جاءتهم ولم يؤمنوا بها لعوجلوا بالعقاب.

﴿ 38 ﴾ ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ جميع الحيوانات من البهائم والوحوش ﴿ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ والطيور ﴿ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ خلقناها كما خلقناكم، ورزقناها كما رزقناكم، ونفذت فيها مشيئتنا وقدرتنا كما كانت نافذة فيكم ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي ما أهملنا ولا أغفلنا، في اللوح المحفوظ شيئا من الأشياء، وكل شيئ يقع طبق ما جرى به القلم[1]. ويحتمل أن المراد بالكتاب هذا القرآن. وقوله ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ أي جميع الأمم تحشر وتجمع إلى الله في موقف القيامة العظيم فيجازيهم بعدله وإحسانه.

﴿ 39 ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ هذا بيان لحال المكذبين بآيات الله، المكذبين لرسله أنهم قد سدوا على أنفسهم باب الهدى، وأنهم ﴿ صُمٌّ ﴾ عن سماع الحق ﴿ وَبُكْمٌ ﴾ عن النطق به، فلا ينطقون إلا بباطل ﴿ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ منغمسون في ظلمات الجهل والكفر والعناد والمعاصي. وهذا من إضلال الله إياهم، فـ ﴿ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ لأنه المنفرد بالهداية والإضلال، بحسب ما اقتضاه فضله وحكمته.

﴿ 40 - 41 ﴾ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ للمشركين بالله ﴿ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ﴾ إذا حصلت هذه المشقات والكروب ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي هل تدعون آلهتكم وأصنامكم، أم تدعون ربكم الملك الحق المبين ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ فإذا كنتم تنسون أندادكم عند

[1] وفي هذه الآية دليل على أن الكتاب الأول قد حوى جميع الكائنات، وهذا أحد مراتب القضاء والقدر، فإنها أربع مراتب: 1- علم الله الشامل لجميع الأشياء، 2- كتابه المحيط بجميع الموجودات، 3- مشيئته وقدرته النافذة العامة لكل شيء، 4-خلقه لجميع المخلوقات، حتى أفعال العباد.

الشدائد لعلمكم أنهم لا يملكون لكم ضرا ولا نفعا وتخلصون لله الدعاء لعلمكم أنه هو النافع الضار، فما بالكم في الرخاء تجعلون له شركاء؟

﴿ 42 - 45 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ من الأمم السالفين فكذبوا رسلنا ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ بالفقر والمرض والآفات والمصائب، رحمة منا بهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ إلينا ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فاستحجرت فلا تلين للحق ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فظنوا أن ما هم عليه دين الحق، فتمتعوا في باطلهم برهة من الزمان ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من الدنيا ولذاتها وغفلاتها ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ آيسون من كل خير. وهذا أشد ما يكون من العذاب أن يؤخذوا على غرة وغفلة وطمأنينة، ليكون أشد لعقوبتهم ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي اصطلموا بالعذاب ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ على ما قضاه وقدره من هلاك المكذبين. فإن بذلك تتبين آياته، وصدق ما جاءت به المرسلون.

﴿ 46 - 47 ﴾ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ * قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ فبقيتم بلا سمع ولا بصر ولا عقل ﴿ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ فإذا لم يكن غير الله يأتي بذلك، فلم عبدتم معه من لا قدرة له على شيء إلا إذا شاءه الله. وهذا من أدلة التوحيد وبطلان الشرك ﴿ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ أي ننوعها، وتتبين سبيل المجرمين ﴿ ثُمَّ هُمْ ﴾ مع هذا البيان التام ﴿ يَصْدِفُونَ ﴾ عن آيات الله ويعرضون عنها ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ ﴾ أي أخبروني ﴿ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً ﴾ مفاجأة أو قد تقدم أمامه مقدمات، تعلمون بها وقوعه ﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ الذين صاروا سببا لوقوع العذاب بهم، بظلمهم وعنادهم؟

﴿ 48 - 49 ﴾ ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ يذكر تعالى زبدة ما أرسل به المرسلين: أنه البشارة والنذارة مع تبيين الأعمال التي إذا عملها العبد، حصلت له البشارة، وتلك التي من عملها حقت عليه النذارة. ولكن الناس انقسموا إلى قسمين: 1- ﴿ فَمَنْ آمَنَ ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ إيمانه وأعماله ونيته ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فيما يستقبل ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما مضى. 2- ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ ﴾ وينالهم ويذوقونه ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾.

﴿ 50 ﴾ ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾ أي مفاتيح رزقه ورحمته وإنما ذلك كله عند الله ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ فهو وحده عالم الغيب والشهادة ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ فأكون نافذ التصرف قويا، فلست أدعي فوق منزلتي التي أنزلني الله بها ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ وهذا منتهى أمري وأعلاه، فأعمل به في نفس وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك. فقل لهم في بيان الفرق، بين من قبل دعوتي وبين من لم يقبلها ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ فتنزلون الأشياء منازلها، وتختارون ما هو أولى؟

﴿ 51 - 55 ﴾ ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ * وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾

﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ ﴾ هذا القرآن نذارة للخلق كلهم، ولكن إنما ينتفع به ﴿ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ ﴾ فهم متيقنون للانتقال من هذه الدار إلى دار القرار ﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ من دون الله ﴿ وَلِيٌّ ﴾ يتولى أمرهم ﴿ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ يشفع لهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ لا تطرد عنك وعن مجالستك أهل العبادة والإخلاص من الملازمين لدعاء ربهم يقصدون

وجه الله. فهؤلاء هم صفوة الخلق وإن كانوا فقراء، والأعزاء في الحقيقة وإن كانوا عند الناس أذلاء ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فكلٌّ له حسابه، وله عمله الحسن وعمله القبيح ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ وقد امتثل صلى الله عليه وسلم هذا الأمر، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين أحسن معاملتهم، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه رضي الله عنهم [2] ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ هذا من ابتلاء الله لعباده. فإذا مَنَّ الله بالإيمان على الفقير أو الوضيع كان ذلك محل محنة للغني والشريف، فإن كان قصده الحق واتباعه آمن وأسلم، ولم يمنعه من ذلك مشاركه الذي يراه دونه بالغنى أو الشرف، وإن لم يكن صادقا في طلب الحق كانت هذه عقبة ترده عن اتباع الحق ﴿ لِيَقُولُوا ﴾ محتقرين لمن يرونهم دونهم ﴿ أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ فمنعهم هذا من اتباع الحق. فقال تعالى ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ الذين يعرفون النعمة ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي المؤمنون ﴿ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ فحَيّهم ورحّب بهم وبشرهم برحمة الله ورَهّبهم من الذنوب وأمُرْهم بالتوبة، فقد ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ ﴾ أي فلا بد مع ترك الذنوب والإقلاع والندم عليها، من إصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة، فإذا وجد ذلك كله ﴿ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ صب عليهم من مغفرته ورحمته، بحسب ما قاموا به مما أمرهم به ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ أي نوضحها ونبينها، ونميز بين طريق الهدى من الضلال ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الموصلة إلى سخط الله وعذابه. فإن سبيل المجرمين إذا استبانت واتضحت، أمكن اجتنابها بخلاف ما لو كانت مشتبهة ملتبسة.

﴿ 56 - 58 ﴾ ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ * قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ * قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى ﴿ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ من الأنداد والأوثان، فإن هذا باطل ﴿ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا ﴾ أي إن اتبعت أهواءكم ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ قُلْ إِنِّي ﴾ وأما ما أنا عليه فـ ﴿ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ وإنه الحق وأنا على يقين مبين بصحته وبطلان ما عداه، وهذه شهادة من الرسول جازمة وهو أعدل الشهود على الإطلاق ﴿ وَ ﴾ لكنكم أيها المشركون ﴿ كَذَّبْتُمْ بِهِ ﴾ وإذا استمررتم على تكذيبكم، فاعلموا أن العذاب واقع بكم لا محالة ﴿ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ وإن استعجلتم به، فليس بيدي من الأمر شيء. بل هو عند الله ينزله عليكم إذا

---

[2] وكان سبب نزول هذه الآيات، أن أناسا من قريش، أو من أجلاف العرب قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إن أردت أن نؤمن لك ونتبعك، فاطرد فلانا وفلانا من فقراء الصحابة، فإنا نستحيي أن ترانا العرب جالسين مع هؤلاء الفقراء. فحمله حبه لإسلامهم واتباعهم له على أن تحدثه نفسه بذلك. فعاتبه الله بهذه الآية ونحوها.

شاء وكيف شاء ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ ﴾ فكما أنه هو الذي أمر ونهى، فإنه سيثيب ويعاقب بحسب ما تقتضيه حكمته ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ بين عباده في الدنيا والآخرة. فيفصل بينهم فصلا يحمده عليه حتى من قضى عليه ﴿ قُل ﴾ إذن للمستعجلين بالعذاب، جهلا وعنادا وظلما ﴿ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ فأوقعته بكم. ولكن الأمر عند الحليم الصبور ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾ لا يخفى عليه من أحوالهم شيء، فيمهلهم ولا يهملهم.

﴿ 59 ﴾ ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ هذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلا لعلمه المحيط الشامل للغيوب كلها، يطلع منها من شاء من خلقه، وطوى الكثير من علمها حتى عن الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ ﴾ من أشجار الكون إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ ﴾ من حبوب الثمار والزروع والنوابت البرية ﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ ﴾ هذا عموم بعد خصوص ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ وهو اللوح المحفوظ، قد حواها، واشتمل عليها.

﴿ 60 – 62 ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ أخبر تعالى أنه وحده المتفرد بتدبير عباده في يقظتهم ومنامهم، وأنه يتوفاهم بالليل فتستريح أبدانهم، ويبعثهم في اليقظة من نومهم، ليتصرفوا في مصالحهم الدينية والدنيوية. وهو تعالى يعلم ما جرحوا وما كسبوا من تلك الأعمال. ثم لا يزال تعالى هكذا، حتى يستوفوا أجل الحياة، ثم أجل البعث بعد الموت ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ وليس إلى غيره ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من خير وشر ﴿ وَهُوَ ﴾ تعالى ﴿ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ فليسوا يملكون من الأمر شيئا ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ ومع ذلك فقد وكل بالعباد ملائكة يحفظون العبد ويحفظون عليه ما عمل في حال الحياة ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ أي الملائكة الموكلون بقبض الأرواح ﴿ وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ في ذلك، فلا يزيدون ساعة مما قدره الله وقضاه ولا ينقصون ﴿ ثُمَّ ﴾ بعد الموت والحياة البرزخية، وما فيها من الخير والشر ﴿ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ ليتولى الحكم فيهم بالجزاء، ويثيبهم على ما عملوا من الخيرات، ويعاقبهم على الشرور والسيئات ﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ ﴾ وحده لا شريك له ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ لكمال علمه وحفظه لأعمالهم.

﴿ 63 – 64 ﴾ ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ للمشركين بالله ﴿ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أي شدائدهما ومشقاتهما، وحين يتعذر أو يتعسر عليكم وجه الحيلة ﴿ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا ﴾ بقلب خاضع ﴿ وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ ﴾ الشدة التي وقعنا فيها ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ لله المعترفين بنعمته ﴿ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ﴾ أي من هذه الشدة الخاصة، ومن جميع الكروب العامة ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ لا تفون لله بما قلتم، وتنسون نعمه عليكم.

﴿ 65 – 67 ﴾ ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ * وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا ﴾ إنه تعالى قادر على إرسال العذاب ﴿ مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ بالرجم والحصب ونحوه ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ بالخسف ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ ﴾ أي يخلطكم ﴿ شِيَعًا ﴾ فهو قادر على أن يصيبكم بعذاب يمحقكم، لكن من رحمته رفع عن هذه الأمة العذاب ولكن عاقب من عاقب منهم ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ وسلط بعضهم على بعض، عقوبة عاجلة يراها المعتبرون ﴿ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ أي ننوعها ونأتي بها على أوجه كثيرة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ يفهمون ما خلقوا من أجله، ويفقهون الحقائق الشرعية والمطالب الإلهية ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ ﴾ بالقرآن ﴿ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ الذي لا مرية فيه ﴿ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أحفظ أعمالكم، وأجازيكم عليها، وإنما أنا منذر ومبلغ ﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ وقت يستقر فيه، وزمان لا يتقدم عنه ولا يتأخر ﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ما توعدون به من العذاب.

﴿ 68 – 69 ﴾ ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ المراد بالخوض في آيات الله: التكلم بما يخالف الحق من تحسين المقالات الباطلة والدعوة إليها ومدح أهلها، والإعراض عن الحق والقدح فيه وفي أهله ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ فأمر الله رسوله أصلا، وأمته تبعا، إذا رأوا من يخوض بآيات الله بشيء مما ذكر، بالإعراض عنهم، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل ﴿ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ حتى يكون الخوض في كلام غيره ﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ ﴾ بأن جلست معهم على وجه النسيان والغفلة ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ الخائضين

بالباطل، وكل متكلم بمحرم، أو فاعل لمحرم. فإن أمرهم بالخير ونهاهم عن الشر فهذا ليس عليه حرج ولا إثم ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى ﴾ لكن ليذكرهم ويعظهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الله تعالى. وفي هذا دليل على أنه ينبغي أن يستعمل المذكِّرُ كلاماً يحصل به مقصود التقوى. وفيه دليل على أنه إذا كان التذكير والوعظ يزيد الموعوظ شرا إلى شره، فإن تركه واجب.

﴿ 70 ﴾ ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ من زعم أنه صاحب دين وتقوى لكن قلبه لاهٍ عن محبة الله ومعرفته، فهذا أمَر الله تعالى أن يترك ويحذر ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ ﴾ أي ذكر بالقرآن ما ينفع العباد أمرا وتفصيلا ﴿ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ هذا لئلا تبسل نفس بما كسبت، أي قبل اقتحام العبد للذنوب. فذكرها وعظها لترتدع وتنزجر وتكف عن فعلها ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أي قبل أن تحيط بها ذنوبها، ثم لا ينفعها أحد من الخلق، ولا يتولاها من دون الله أحد ﴿ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ ﴾ أي تفتدي بكل فداء، ولو بملء الأرض ذهبا ﴿ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ أي لا يقبل ولا يفيد ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ الَّذِينَ أُبْسِلُوا ﴾ أهلكوا وأيسوا من الخير وذلك ﴿ بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أي ماء حار قد انتهى حره يشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم ﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾.

﴿ 71 – 73 ﴾ ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ يا أيها الرسول للمشركين بالله، الداعين معه غيره ﴿ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وهذا يشمل كل مَن عُبِد مِنْ دون الله ﴿ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ لأن الأمر كله لله ﴿ وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ وننقلب بعد هداية الله لنا إلى الضلال، فهذه حال لا يرتضيها ذو رشد، وصاحبها ﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي أضلته وتيهته عن طريقه فبقي ﴿ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ﴾ بينما الشياطين ومن سلك مسلكهم والنفس الأمارة بالسوء يدعونه إلى الردى والضلال. فمن الناس من يكون مع داعي الهدى ومنهم من بالعكس من ذلك. ومنهم من يتساوى لديه الداعيان ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴾ أي ليس الهدى إلا

الطريق التي شرعها الله على لسان رسوله، وما عداه فهو ضلال وردى وهلاك ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بأن ننقاد لتوحيده، ونستسلم لأوامرهِ ونواهيه ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أي وأمرنا أن نقيم الصلاة بأركانها وشروطها وسننها ومكملاتها ﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾ بفعل ما أمر به، واجتناب ما عنه نهى ﴿ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي تُجْمَعون ليوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ ليأمر العباد وينهاهم، ويثيبهم ويعاقبهم ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ ﴾ الذي لا مرية فيه ولا يقول شيئا عبثا ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ يوم القيامة، خصه بالذكر مع أنه مالك كل شيء لأنه تنقطع فيه الأملاك، فلا يبقى ملك إلا الله الواحد القهار ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ الذي له الحكمة التامة والعلم المحيط بالسرائر والبواطن والخفايا، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿ 74 – 83 ﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ واذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام إذ قال ﴿ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ لا تنفع ولا تضر وليس لها من الأمر شيء ﴿ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ حيث عبدتم من لا يستحق من العبادة شيئا، وتركتم عبادة خالقكم ورازقكم ومدبركم ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه ﴿ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ليرى ببصيرته ما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ فإنه بحسب قيام الأدلة، يحصل له الإيقان والعلم التام بجميع المطالب ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ أي أظلم ﴿ رَأَى كَوْكَبًا ﴾ لعله من الكواكب المضيئة، لأن تخصيصه بالذكر يدل على زيادته عن غيره، ولهذا قيل والله أعلم إنه الزهرة ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ أي على وجه التنزل مع الخصم، أي فهلمّ ننظر هل يستحق الربوبية ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ ﴾ أي غاب ذلك الكوكب ﴿ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ الذي يغيب ويختفي عمّن عبده. فإن المعبود لا بد أن يكون قائما بمصالح من عبده، ومدبرا له في جميع شئونه. فأما الذي يغيب في وقت كثير، فكيف يستحق العبادة؟ ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا ﴾ طالعا، رأى زيادته على نور الكواكب ومخالفته لها ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ تنزلا ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي

رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ فافتقر غاية الافتقار إلى هداية ربه، وعلم أنه إن لم يهده الله فلا هادي له، وإن لم يعنه على طاعته، فلا معين له ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ﴾ من الكوكب ومن القمر ﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ ﴾ تقرر حينئذ الهدى، فـ ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾ لله وحده، مقبلا عليه، معرضا عن من سواه ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فتبرأ من الشرك، وأذعن بالتوحيد، وأقام على ذلك البرهان. والمقام في تفسير هذه الآيات أنه مقام مناظرة، من إبراهيم لقومه لبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها. وأما من قال: إنه مقام نظر في حال طفوليته، فليس عليه دليل ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ أيُّ فائدة لمحاجة من لم يتبين له الهدى؟ ﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ فإنها لن تضرني، ولن تمنع عني من النفع شيئا ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ فتعلمون أنه وحده المعبود المستحق للعبودية ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾ وحالها حال العجز، وعدم النفع ﴿ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ أي إلا بمجرد اتباع الهوى ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ قال الله تعالى فاصلا بين الفريقين: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ﴾ أي يخلطوا ﴿ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقا، لا بشرك ولا بمعاص، حصل لهم الأمن التام، والهداية التامة. وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها. ومفهوم الآية الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمران، لم يحصل لهم هداية ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء. ولما حكم لإبراهيم عليه السلام، بما بين به من البراهين القاطعة قال: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ أي علا بها عليهم ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾ كما رفعنا درجات إبراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة، فإن العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ فلا يضع العلم والحكمة، إلا في المحل اللائق بها، وهو أعلم بذلك المحل، وبما ينبغي له.

﴿ 84 - 90 ﴾ ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ابنه إسرائيل، أبو الشعب الذي فضله الله على العالمين ﴿ كُلًّا ﴾ منهما ﴿ هَدَيْنَا ﴾ الصراط المستقيم في علمه وعمله ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ وهدايته لم تحصل إلا لأولي العزم من الرسل، وهو أحدهم ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴾ يحتمل أن الضمير عائد إلى نوح، لأنه أقرب مذكور، ولأن الله ذكر مع من ذكر لوطا وهو من ذرية نوح، لا من ذرية إبراهيم لأنه ابن أخيه. ويحتمل أن الضمير يعود إلى إبراهيم لأن السياق في مدحه والثناء عليه، ولوط وإن لم يكن من ذريته فإنه ممن آمن على يده، وفضيلته بذلك أبلغ من كونه مجرد ابن له ﴿ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ بن داود﴿ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ ﴾ بن يعقوب ﴿ وَمُوسَى وَهَارُونَ ﴾ ابني عمران ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ كما أصلحنا ذرية إبراهيم الخليل فإننا ﴿ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ بأن نجعل لهم من الثناء والذرية الصالحة، بحسب إحسانهم ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى ﴾ ابنه ﴿ وَعِيسَى ﴾ ابن مريم ﴿ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ ﴾ من هؤلاء ﴿ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ في أخلاقهم وأعمالهم وعلومهم ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ بن إبراهيم أبو أفضل الشعوب وهو الشعب العربي، ووالد سيد ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ ﴾ بن متى ﴿ وَلُوطًا ﴾ بن هاران أخي إبراهيم ﴿ وَكُلًا ﴾ من هؤلاء الأنبياء والمرسلين ﴿ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ فالرسل الذين قصهم الله في كتابه، أفضل ممن لم يقص علينا نبأهم بلا شك ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ ﴾ أي وهدينا من آباء هؤلاء المذكورين ﴿ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ ﴾ أي اخترناهم ﴿ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. ذَلِكَ ﴾ الهدى المذكور ﴿ هُدَى اللَّهِ ﴾ الذي لا هدى إلا هداه ﴿ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ فاطلبوا منه الهدى فإنه إن لم يهدكم فلا هادي لكم غيره، وممن شاء هدايته هؤلاء المذكورون ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا ﴾ على الفرض والتقدير ﴿ لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فإن الشرك محبط للعمل، موجب للخلود في النار ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار، لو أشركوا –وحاشاهم– لحبطت أعمالهم فغيرهم أولى ﴿ أُولَئِكَ ﴾ المذكورون ﴿ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ ﴾ أي امش أيها الرسول الكريم خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار، واتبع ملتهم. وقد امتثل صلى الله عليه وسلم، فاهتدى بهدي الرسل قبله، وجمع كل كمال فيهم. وبهذا الملحظ، استدل بهذه من استدل من الصحابة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أفضل الرسل كلهم ﴿ قُلْ ﴾ للذين أعرضوا عن دعوتك: ﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أي لا أطلب منكم مغرما ومالا، جزاء عن إبلاغي إياكم فيكون من أسباب امتناعكم، إن أجري إلا على الله ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ يتذكرون به ما ينفعهم، فيفعلونه، وما يضرهم، فيذرونه. وهذه أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم، فعليهم قبولها والشكر عليها.

﴿ 91 ﴾ ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ فمن نفى الرسالة من اليهود والمشركين وزعم أن الله ما أنزل على بشر من شيء، فما قدر الله حق قدره، ولا عظمه حق عظمته، إذ هذا قدح في حكمته، ونفي لأعظم منة امتن الله بها على عباده وهي الرسالة ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى ﴾ وهو التوراة العظيمة ﴿ نُورًا ﴾ في ظلمات الجهل ﴿ وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ من الضلالة يتناسخونه في القراطيس، فما وافق أهواءهم منه أبدوه وما خالف ذلك أخفوه وكتموه، وذلك كثير ﴿ وَعُلِّمْتُمْ ﴾ بذلك الكتاب الجليل من العلوم ﴿ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ﴾ فإذا سألتهم عمن أنزل هذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات فـ ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ الذي أنزله، فحينئذ يتضح الحق وتقوم عليهم الحجة، ﴿ ثُمَّ ﴾ إذا ألزمتهم بهذا الإلزام ﴿ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي اتركهم يخوضوا في الباطل، حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون.

﴿ 92 ﴾ ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ ﴾ القرآن الذي ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ إليك ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ وَصْفُه البركة، وذلك لكثرة خيراته ﴿ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ موافق للكتب السابقة، وشاهد لها بالصدق ﴿ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي وأنزلناه أيضا لتنذر أم القرى مكة المكرمة ومن حولها من سائر البلدان فتحذر الناس عقوبة الله، ومما يوجبها ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ لأن الخوف إذا كان في القلب عمرت أركانه، وانقاد لمراضي الله ﴿ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ يداومون عليها، ويحفظون أركانها وحدودها وشروطها وآدابها ومكملاتها. جعلنا الله منهم.

﴿ 93 - 94 ﴾ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ * وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ لا أحد أعظم ظلما ممن كذب على الله بأن نسب إليه قولا أو حكما هو تعالى بريء منه، من أمثال مسيلمة الكذاب والأسود العنسي والمختار وغيرهم ﴿ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أي ومن أظلم ممن زعم أنه يقدر على ما يقدر الله عليه ويشرع من الشرائع كما شرعه الله. ويدخل في هذا، كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، وأنه في إمكانه أن يأتي بمثله ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ أي شدائده وأهواله وكُرَبه لرأيت حالة لا توصف ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ

بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ ﴾ إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب، يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها، وتعصيها للخروج من الأبدان ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ الشديد الذي يهينكم ويذلكم، ذلك ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ من كذبكم عليه وردكم للحق الذي جاءت به الرسل ﴿ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي تَرَفَّعون عن الانقياد لها والاستسلام لأحكامها. وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه[3] ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ يوم القيامة ﴿ فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ ﴾ أي أعطيناكم وأنعمنا به عليكم ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ لا يغنون عنكم شيئا ﴿ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ﴾ فإن المشركين يشركون بالله، ويعبدون معه الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم، وهم كلهم لله، عبيد لله، فيوبخون يوم القيامة ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ الوصل والأسباب من الشفاعة وغيرها فلم تنفع ولم تُجْد شيئا ﴿ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ من الربح والأمن والسعادة والنجاة التي زينها لكم الشيطان، فنطقت بها ألسنتكم، وظهر أنكم الخاسرون.

﴿ 95 - 98 ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ شامل لسائر الحبوب وأنواع النوى ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ كما يخرج من المني حيوانا، ومن البيضة فرخا، ومن الحب والنوى زرعا وشجرا ﴿ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ ﴾ وهو الذي لا نمو فيه، أو لا روح ﴿ مِنَ الْحَيِّ ﴾ كما يخرج من الأشجار والزروع النوى والحب، ويخرج من الطائر بيضا ونحو ذلك ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ الذي فعل ما فعل انفرد بخلق هذه الأشياء وتدبيرها ﴿ اللَّهُ ﴾ رَبُّكُمْ الذي له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ فأنى تصرفون وتصدون عن عبادة من هذا شأنه إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ﴾ كما أنه فالق ظلمة الليل الداجي بضياء الصبح يفلقه شيئا فشيئا حتى تذهب ظلمته كلها، و ﴿ جَعَلَ ﴾ الله ﴿ اللَّيْلَ سَكَنًا ﴾ يسكن فيه الآدميون والأنعام والطيور فتأخذ نصيبها من الراحة ثم يزيل الله ذلك بالضياء وهكذا أبدا إلى يوم القيامة ﴿ وَ ﴾ جعل تعالى ﴿ الشمس وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ بهما تعرف الأزمنة والأوقات ﴿ ذَلِكَ ﴾ التقدير المذكور ﴿ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ ﴾ الذي من عزته انقادت له هذه المخلوقات العظيمة، لا تتعدى ما حده الله لها ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ جعل الله النجوم هداية للخلق[4] ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا

---

[3] فهذا العذاب هو عند الاحتضار وقبيل الموت وبعده. وفيه دليل على أن الروح جسم يدخل ويخرج، ويخاطب، ويساكن الجسد، ويفارقه، فهذه حالهم في البرزخ.

[4] ودلت هذه الآية ونحوها، على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالّها الذي يسمى علم التسيير.

﴿ الْآيَاتِ ﴾ أي بيناها ووضحناها فصارت بادية ظاهرة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ لأهل العلم والمعرفة، الذين يوجه إليهم الخطاب، ويطلب منهم الجواب. بخلاف أهل الجهل المعرضين عن آيات الله، وعما جاءت به الرسل، فإن البيان لا يفيدهم شيئا ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أنشأ الله من آدم عليه السلام العنصر الآدمي الذي ملأ الأرض ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ ﴾ وجعل الله لهم مستقرا، أي منتهى ينتهون إليه وهي دار القرار التي لا مستقر وراءها، ولا نهاية فوقها ﴿ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ وأودعهم الله في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم ثم في دار الدنيا ثم في البرزخ، كل ذلك على وجه الوديعة، التي لا تستقر ولا تثبت، بل ينتقل منها حتى يوصل إلى الدار التي هي المستقر. وأما هذه الدار، فإنها مستودع وممر ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ عن الله آياته، ويفهمون عنه حججه وبيناته.

﴿ 99 ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ من أعظم مننه العظيمة أنه أنزل من السماء ماء ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ فأنبت ﴿ بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مما يأكل الناس والأنعام ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ من أنواع الأشجار والنبات ﴿ نُخْرِجُ مِنْهُ ﴾ أي من ذلك النبات الخضر ﴿ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾ بعضه فوق بعض إشارة إلى أن حبوبه متعددة متفرقة مجتمعة الأصول، وجميعها تستمد من مادة واحدة لا تختلط. وهذه إشارة أيضا إلى كثرتها وشمول غلتها ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ ﴾ أخرج الله ﴿ مِنْ طَلْعِهَا ﴾[5] وهو الكفرى، والوعاء قبل ظهور القنو منه، فيخرج من ذلك الوعاء ﴿ قِنْوَانٌ[6] دَانِيَةٌ ﴾ أي قريبة سهلة التناول. ولا يعسر التناول من النخل وإن طالت فإنه يوجد فيها كرب ومراقي يسهل صعودها ﴿ وَ ﴾ أخرج تعالى بالماء ﴿ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ ﴾ فهذه من الأشجار الكثيرة النفع، فلذلك خصصها الله بالذكر بعد أن عم جميع الأشجار والنوابت. وقوله ﴿ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون، أي مشتبها في شجره وورقه، غير متشابه في ثمره. ويحتمل أن يرجع ذلك إلى سائر الأشجار والفواكه، وأن بعضها مشتبه يشبه بعضه بعضا، ويتقارب في بعض أوصافه، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره، والكل ينتفع به العباد، ويتفكهون ويقتاتون ويعتبرون. ولهذا أمر تعالى بالاعتبار به، فقال: ﴿ انْظُرُوا ﴾ نظر فكر واعتبار ﴿ إِلَى ثَمَرِهِ ﴾ أي الأشجار كلها ﴿ إذا أثمر وَيَنْعِهِ ﴾ أي انظروا إليه وقت نضجه وإيناعه، فإن في ذلك عبرا وآيات يستدل بها على رحمة الله وسعة إحسانه وجوده. وقد قيد تعالى الانتفاع بالآيات بالمؤمنين فقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأن ما معهم من الإيمان يحملهم على العمل بمقتضياته ولوازمه، التي منها التفكر في آيات الله.

---

[5] طلعها : هو أوّل ما يخرج من ثمر النّخل في الكيزان (م)

[6] قنوان : جمع قنو أي عذوق و عراجين كالعناقيد تنشق عنها الكيزان (م)

﴿ 100 - 104 ﴾ ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ * قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾

﴿ وَجَعَلُوا ﴾ المشركون ﴿ لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ والملائكة يدعونهم ويعبدونهم ﴿ وَ ﴾ هم خلق ﴿ خَلَقَهُمْ ﴾ الله ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ ﴾ ائتفكوا وافتروا ﴿ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ منهم ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ فإنه تعالى الموصوف بكل كمال المنزه عن كل نقص وآفة وعيب ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي خالقهما ومتقن صنعتهما على غير مثال سبق بأحسن خلق ونظام وبهاء ﴿ أَنَّى ﴾ كيف ﴿ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ والولد لا بد أن يكون من جنس والده، وليس شيء من المخلوقات مشابها لله بوجه من الوجوه ﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ﴾ أي لا زوجة له ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ وهو الغني عن مخلوقاته وكلها فقيرة إليه مضطرة في جميع أحوالها إليه ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وبهذه المخلوقات وما اشتملت عليه من النظام التام والخلق الباهر، فإن في ذلك دلالة على سعة علم الخالق وكمال حكمته ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أي المألوه المعبود ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فإذا استقر وثبت أنه الله الذي لا إله إلا هو، فاصرفوا له جميع أنواع العبادة وأخلصوها لله واقصدوا بها وجهه ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أي جميع الأشياء تحت وكالة الله وتدبيره: وكالته من نفسه لنفسه. ومن وكالته أنه تعالى توكل ببيان دينه وحفظه عن المزيلات والمغيرات، وأنه تولى حفظ المؤمنين وعصمتهم عما يزيل إيمانهم ودينهم ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ لعظمته وجلاله وكماله، أي لا تحيط به الأبصار. وإن كانت تراه وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم. فنفي الإدراك لا ينفي الرؤية، بل يثبتها بالمفهوم. فإنه لو أراد نفي الرؤية، لقال "لا تراه الأبصار" ونحو ذلك. فلنعلم أنه ليس في الآية حجة لمذهب المعطلة، الذين ينفون رؤية ربهم في الآخرة، بل فيها ما يدل على نقيض قولهم ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ أي هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ الذي لطف علمه وخبرته، ودق حتى أدرك السرائر والخفايا[7] ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ ﴾ آيات تبين الحق ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ الذي ربى خلقه بصنوف نعمه الظاهرة والباطنة ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ ﴾ بتلك الآيات مواقع العبرة، وعمل بمقتضاها ﴿ فَلِنَفْسِهِ ﴾ فإن الله هو الغني الحميد ﴿ وَمَنْ عَمِيَ ﴾ بأن بُصِّر فلم

[7] ومن لطفه أنه يسوق عبده إلى مصالح دينه، ويوصلها إليه بالطرق التي لا يشعر بها العبد، ولا يسعى فيها، ويوصله إلى السعادة الأبدية من حيث لا يحتسب. بل إنه يقدر عليه أموراً قد يكرهها العبد، ويتألم منها، ويدعو الله أن يزيلها، لكن الله يعلم أن دين العبد يصلح بها، وأن كماله متوقف عليها، فسبحان اللطيف لما يشاء، الرحيم بالمؤمنين.

يتبصر ﴿ فَعَلَيْهَا ﴾ فإنما مضرة عماه تعود عليه ﴿ وَمَا أَنَا ﴾ أي الرسول ﴿ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أحفظ أعمالكم وأرقبها على الدوام إنما عليَّ البلاغ المبين وقد أديته.

﴿ 108 ﴾ ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ينهى الله المؤمنين عن أمر كان جائزا بل مشروعا في الأصل وهو سب آلهة المشركين ﴿ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ولكن لما كان هذا السب طريقا إلى سب المشركين لرب العالمين نهى الله عن سب آلهة المشركين[8] ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ لأن كل أمة زين الله لهم عملهم فرأوه حسنا، وذبوا عنه، ودافعوا بكل طريق، حتى إنهم ليسبون الله رب العالمين إذا سب المسلمون آلهتهم ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ولكن الخلق لهم، مرجعهم ومآلهم إلى الله يوم القيامة، يعرضون عليه وتعرض أعمالهم، فينبئهم بما كانوا يعملون من خير وشر.

[الجزء الثامن 8]

﴿ 109 - 111 ﴾ ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾

﴿ وَأَقْسَمُوا ﴾ المشركون ﴿ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ قسما اجتهدوا فيه وأكدوه ﴿ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ ﴾ تدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ وهذا لرد ما جاء به الرسول قطعا، لأن طلبهم للآيات من باب التعنت الذي لا يلزم إجابته ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ يرسلها إذا شاء ويمنعها إذا شاء ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ومع ذلك فليس معلوما أنهم إذا جاءتهم الآيات يؤمنون ويصدقون، بل الغالب ممن هذه حاله أنه لا يؤمن ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ ونعاقبهم بتقليب القلوب والحيلولة بينهم وبين الإيمان، وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيها الداعي ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ وهذا من عدل الله وحكمته بعباده، فإنهم جنوا على أنفسهم عندما فتح لهم الباب فلم يدخلوا، وبين لهم الطريق فلم يسلكوا ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ

[8] وفي هذه الآية الكريمة، دليل للقاعدة الشرعية وهو أن الوسائل تعتبر بالأمور التي توصل إليها، وأن وسائل المحرم، ولو كانت جائزة تكون محرمة، إذا كانت تفضي إلى الشر.

﴿ فحتى لو جاءتهم الآيات العظيمة، من تنزيل الملائكة إليهم وتكليم الموتى وبعثهم بعد موتهم وحشر كل شيء إليهم حتى يكلمهم ﴿ قُبُلًا ﴾ ومشاهدة ومباشرة، بصدق ما جاء به الرسول ﴿ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ ما حصل منهم الإيمان ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ إذا لم يشأ الله إيمانهم ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾.

﴿ 112 - 113 ﴾ ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا ﴾ هذه سنتنا أن نجعل ﴿ لِكُلِّ نَبِيٍّ ﴾ نرسله إلى الخلق ﴿ عَدُوًّا ﴾ أعداء ﴿ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل ﴿ زُخْرُفَ الْقَوْلِ ﴾ ويزخرفون له العبارات ﴿ غُرُورًا ﴾ حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليغتر به السفهاء الذين لا يفهمون الحقائق ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ. وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ ﴾ ولتميل إلى ذلك الكلام المزخرف ﴿ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر يحملهم على ذلك ﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ وزين في قلوبهم وصار عقيدة راسخة ﴿ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾ فيقترفوا من الأعمال والأقوال ويأتون من الكذب بالقول والفعل، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة. وأما أهل الإيمان بالآخرة فإنهم ينظرون إلى المعاني إن كانت حقا قبلوها ولو كسيت بألفاظ غير وافية، وإن كانت باطلا ردوها ولو ألبست بالعبارات المستحسنة.

﴿ 114 - 115 ﴾ ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾ أحاكم إليه، وأتقيد بأوامره ونواهيه، فإن غير الله محكوم عليه لا حاكم ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ موضّحا فيه الحلال والحرام ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ ولهذا تواطأت الإخبارات ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ لا تشُكَّنَّ في ذلك ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا ﴾ في الأخبار ﴿ وَعَدْلًا ﴾ في الأمر والنهي ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ حيث حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق، وبغاية الحق ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لسائر الأصوات ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والماضي والمستقبل.

﴿ 116 - 117 ﴾ ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فإن أكثرهم قد انحرفوا في أديانهم وأعمالهم وعلومهم. فأديانهم فاسدة، وأعمالهم تبع لأهوائهم ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ الذي لا يغني من الحق شيئا ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ في القول على الله ما لا يعلمون. والله تعالى أصدق قيلا وحديثا[9] ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾.

﴿ 118 - 119 ﴾ ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ من الحيوانات المحللة، ويعتقدوا حله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ بمقتضى الإيمان ﴿ وَمَا لَكُمْ ﴾ أي شيء يمنعهم ﴿ أَلَّا تَأْكُلُوا ﴾ من أكل ﴿ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ ﴾ الله ﴿ لَكُمْ ﴾ لعباده ﴿ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ وبينه ووضحه؟ ودلت الآية الكريمة على أن الأصل في الأشياء والأطعمة الإباحة، وأنه إذا لم يرد الشرع بتحريم شيء منها فإنه باق على الإباحة، فما سكت الله عنه فهو حلال ﴿ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ ومع ذلك فالحرام الذي قد فصله الله وأوضحه، قد أباحه عند الضرورة والمخمصة ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ ﴾ بمجرد ما تهوى أنفسهم ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ولا حجة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ فليحذر العبد من أمثال هؤلاء.

﴿ 120 ﴾ ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾

﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ نهى الله عباده عن اقتراف الإثم الظاهر والباطن، في السر والعلانية، المتعلق بالبدن والجوارح وبالقلب[10]. ثم أخبر تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ ﴾ الظاهر والباطن ﴿ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ على حسب كسبهم، وعلى قدر ذنوبهم، قلّت أو كثرت، وهذا الجزاء يكون في الآخرة وقد يكون في الدنيا، يعاقب العبد فيخفف عنه بذلك من سيئاته.

[9] ودلت هذه الآية على أنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك. فإن أهل الحق هم الأقلون عددا، الأعظمون عند الله قدرا وأجرا. بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل، بالطرق الموصلة إليه.
[10] لذلك كان معرفة معاصي القلب والبدن، والعلمُ بذلك واجبا متعينا على المكلف. وكثير من الناس تخفى عليه كثير من معاصي القلب، كالكبر والعجب والرياء. حتى إنه يكون به كثير منها، وهو ولا يشعر، وهذا بسبب الإعراض عن العلم وعدم البصيرة.

﴿ 121 ﴾ ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ كالذي يذبح للأصنام وآلهتهم ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ وكذلك إذا تعمد الذابح ترك التسمية، عند كثير من العلماء. ويخرج من هذا العموم، الناسي بالنصوص الأخر، الدالة على رفع الحرج عنه. ويدخل في هذه الآية ما مات بغير ذكاة من الميتات. ولعل هذا هو سبب نزول الآية، لقوله ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ بغير علم. فإن المشركين حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتة وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة قالوا أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟ يعنون بذلك الميتة. وهذا رأي فاسد ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ في شركهم وتحليلهم الحرام وتحريمهم الحلال ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ لأنكم وافقتموهم واتخذتموهم أولياء من دون الله[11].

﴿ 122 - 124 ﴾ ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾

﴿ أَوَمَنْ كَانَ ﴾ من قبل هداية الله له ﴿ مَيْتًا ﴾ في ظلمات الكفر والجهل والمعاصي ﴿ فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ بنور العلم والإيمان والطاعة ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ فصار يمشي بين الناس في النور ﴿ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ أفيستوي هذا بمن هو في ظلمات الجهل والغي والكفر والمعاصي ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ قد التبست عليه الطرق وأظلمت؟ لكن المشكلة هي أنه ﴿ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فلم يزل الشيطان يحسن لهم أعمالهم ويزينها في قلوبهم، حتى استحسنوها ورأوها حقا. فمنهم قادة ورؤساء ومتبوعون، ومنهم تابعون مرءوسون ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ من الرؤساء الذين اشتد طغيانهم ﴿ لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ بالخديعة والدعوة إلى سبيل الشيطان ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ. وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ من النبوة والرسالة. وفي هذا اعتراض منهم على الله، وعجب بأنفسهم، وتكبر على الحق الذي أنزله على أيدي رسله. فرد الله عليهم اعتراضهم الفاسد، وأخبر أنهم لا يصلحون للخير، فضلا أن يكونوا من النبيين والمرسلين ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ فيمن علمه يصلح لها، ويقوم بأعبائها، وهو متصف بكل خلق جميل. وفي هذه الآية، دليل على كمال حكمة الله تعالى، لأنه، وإن كان تعالى رحيما واسع

[11] ودلت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف، التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم، لا تدل –بمجردها على أنها حق، ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله.

الجود، كثير الإحسان، فإنه حكيم لا يضع جوده إلا عند أهله، ثم توعد المجرمين فقال ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي إهانة وذل، كما تكبروا على الحق، أذلهم الله ﴿ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ أي بسبب مكرهم، لا ظلما منه تعالى.

﴿ 125 ﴾ ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ إن من انشرح صدره للإسلام أي اتسع وانفسح، فاستنار بنور الإيمان واطمأنت بذلك نفسه، فإن هذا علامة على أن الله قد هداه ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ في غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين وقد انغمس قلبه في الشبهات والشهوات ﴿ كَأَنَّمَا ﴾ من ضيقه وشدته ﴿ يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ أي كأنه يكلف الصعود إلى السماء ولا حيلة له في ذلك ﴿ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم سدوا على أنفسهم باب الرحمة والإحسان. فإن من بخل واستغنى وكذب بالحسنى، فسييسره للعسرى.

﴿ 126 - 127 ﴾ ﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ أي معتدلا، موصلا إلى الله، وإلى دار كرامته ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ ﴾ قد بينت أحكامه ولكن ليس للجميع بل ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ممن علموا وانتفعوا بعلمهم فأعد الله لهم الجزاء الجزيل﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ وهي الجنة سميت دار السلام لسلامتها من كل عيب وآفة وكدر، نعيمها في غاية الكمال ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ ﴾ الذي يتولى تدبيرهم وتربيتهم ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ بسبب أعمالهم الصالحة، ومقدماتهم التي قصدوا بها رضا مولاهم.

﴿ 128 - 135 ﴾ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ * وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ

ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ * إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ أي جميع الثقلين من الإنس والجن، من ضل منهم ومن أضل غيره. فيقول موبخا للجن الذين أضلوا الإنس ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ أي من إضلالهم وصدهم عن سبيل الله ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ أي تمتع كل من الجِنّي والإنسي بصاحبه، وانتفع به. فإن الإنسي يعبد الجِنّي، فيخدمه الجِنّي، ويحصل له منه بعض الحوائج الدنيوية ﴿ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ أي وقد وصلنا المحل الذي نجازي فيه بالأعمال، فافعل بنا الآن ما تشاء، فقد انقطعت حجتنا والحكم حكمك. وكأن في هذا الكلام منهم نوع تضرع وترقق، ولكن في غير أوانه. ولهذا حكم فيهم بحكمه العادل فـ ﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ولما كان هذا الحكم من مقتضى حكمته وعلمه، ختم الآية بقوله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ فكما أن علمه وسع الأشياء كلها وعمّها، فحكمته الغائية شملت الأشياء وعمتها ووسعتها ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ﴾ من سنتنا أن نولي كل ظالم ظالما مثله يؤزه إلى الشر ويحثه عليه ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ والعباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم ولَّى عليهم ظلمة يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله وحقوق عباده، على وجه غير مأجورين فيه ولا محتسبين والذنب ذنب الظالم على نفسه جنى ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ الواضحات البينات ﴿ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ ويعلمونكم أن النجاة فيه والفوز إنما هو بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، فأقروا بذلك واعترفوا فـ ﴿ قالوا ﴾ بلى ﴿ شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ بزينتها ونعيمها فاطمأنوا بها ورضوا، وألهتهم عن الآخرة ﴿ وَشَهِدُوا عَلَ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ فقامت عليهم حجة الله ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ لذلك ﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ منهم ﴿ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ بحسب أعمالهم[12] ويتفاوتون في مقدار هذا تفاوتا عظيما ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ فيجازي كلا بما يعلمه من مقصده ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ بالإهلاك ﴿ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ فإذا عرفتم بأنكم لا بد أن تنتقلوا من هذه الدار وترحلون منها وتخلونها لمن بعدكم، فلم اتخذتموها قرارا؟ وأن أمامكم دارًا جمعت كل نعيم؟ فثَمَّ الخلود الدائم ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ لله، فإن نواصيكم تحت قبضته، وأنتم تحت تدبيره وتصرفه ﴿ قُلْ ﴾ يا أيها الرسول لقومك إذا دعوتهم إلى الله فامتنعوا من الانقياد لأمره ﴿ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ على حالتكم التي أنتم عليها ورضيتموها لأنفسكم ﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ على أمر الله، ومتبع لمراضيه

---

[12] كما أن أهل الثواب والجنة وإن اشتركوا في الربح والفلاح، فإن بينهم من الفرق ما لا يعلمه إلا الله، مع أنهم كلهم، قد رضوا بما آتاهم مولاهم، وقنعوا بما حباهم. فنسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفردوس الأعلى، التي أعدها الله للمقربين من عباده، والمصطفين من خلقه، وأهل الصفوة من أهل وداده.

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ أنا أو أنتم ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ فكل ظالم، وإن تمتع في الدنيا بما تمتع به، فنهايته الاضمحلال والتلف.

﴿ 136 - 140 ﴾ ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ *وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ﴾ فجمعوا بين ثلاثة محاذير: منَّتهم على الله في جعلهم له نصيبا، وإشراك الشركاء الذين لم يرزقوهم، وعدم مبالاتهم بما هو لله ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ﴾ فهم يجعلون قسمين ما يحصل لهم من زروعهم وثمارهم وأنعامهم، التي أوجدها الله لهم: قسماً لله بقولهم وزعمهم، لأن الله لا يقبل عمل مَن أشرك به. وقسماً جعلوه حصة شركائهم من الأوثان والأنداد. فإن اختلط شيء مما جعلوه لله ووصل لغيره، لم يبالوا بذلك، وقالوا الله غني عنه، فلا يردونه. وإن وصل شيء مما جعلوه لآلهتهم إلى ما جعلوه لله، ردوه إلى محله، وقالوا: إنها فقيرة، ولا بد من رد نصيبها ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ فهل أسوأ من هذا الحكم. وأظلم؟ ويحتمل أن تأويل الآية الكريمة أن ما جعلوه وتقربوا به لأوثانهم، هو تقرب خالص لغير الله. وما جعلوه لله –على زعمهم– فإنه لا يصل إليه لكونه شركاً ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ ﴾ وهو الوأد فيدفنون أولادهم الذكور خشية الافتقار، والإناث خشية العار ﴿ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ أي رؤساؤهم وشياطينهم ﴿ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ ودعهم مع كذبهم وافترائهم، ولا تحزن عليهم، فإنهم لن يضروا الله شيئا ﴿ وَ ﴾ من أنواع سفاهتهم أن ﴿ قَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ [13] حِجْرٌ ﴾ أي محرمة ﴿ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ ﴾ لا يجوز أن يطعمه أحد إلا من أردنا وهذا ﴿ بِزَعْمِهِمْ ﴾ بحسب آرائهم الفاسدة ﴿ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ ركوبها والحمل عليها فيحمون ظهرها ويسمونها الحام ﴿ وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ بل يذكرون اسم أصنامهم وما كانوا يعبدون من دون الله عليها ﴿ افْتِرَاءً عَلَيْهِ ﴾ وينسبون تلك الأفعال إلى الله، وهم كذبة فُجَّار في ذلك ﴿ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ على الله، من إحلال الشرك، وتحريم الحلال من الأكل، والمنافع. ومن

[13] حرث : زرع (م)
حِجر : محجورة مُحرّمة (م)

آرائهم السخيفة أن ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا ﴾ أي حلال لهم، لا يشاركهم فيها النساء ﴿ وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ﴾ أي نسائنا، هذا إذا ولد حيا ﴿ وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ﴾ حلال للذكور والإناث ﴿ سَيَجْزِيهِمْ ﴾ الله ﴿ وَصْفَهُمْ ﴾ حين وصفوا ما أحله الله بأنه حرام، ووصفوا الحرام بالحلال، ونسبوا ذلك إلى الله ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ ﴾ حيث أمهل لهم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بهم لا تخفى عليه خافية ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي خسروا دينهم وأولادهم وعقولهم، وصار وصْفُهم السفه المردي والضلال ﴿ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ﴾ أي ما جعله رحمة لهم، فردوا كرامة ربهم ووصفوها بأنها حرام. وكل هذا ﴿ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ﴾ أي كذبا يكذب به كل معاند كفَّار ﴿ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ أي قد ضلوا ضلالا بعيدا، ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمورهم.

﴿ 141 ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ ﴾ بساتين ﴿ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ تنتشر أشجارها على عرش تنهض به عن الأرض ﴿ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ تنبت على ساق أو تنفرش في الأرض، وفي هذا تنبيه على كثرة منافعها وخيراتها وأنه تعالى علم العباد كيف يعرشونها وينمونها ﴿ وَ ﴾ أنشأ تعالى ﴿ النخل وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ ﴾ كله في محل واحد ويشرب من ماء واحد ويفضل الله بعضه على بعض في الأكل ﴿ وَ ﴾ أنشأ تعالى ﴿ الزيتون وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا ﴾ في شجره ﴿ وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ في ثمره وطعمه. كأنه قيل: لأي شيء أنشأ الله هذه الجنات؟ فأخبر أنه أنشأها لمنافع العباد ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ﴾ أي النخل والزرع ﴿ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ أي أعطوا حق الزرع، وهو الزكاة ذات الأنصباء المقدرة في الشرع، أمرهم أن يعطوها يوم حصادها[14] ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ يعم النهي عن الإسراف في الأكل، وهو مجاوزة الحد والعادة. وأن يأكل صاحب الزرع أكلا يضر بالزكاة. والإسراف في إخراج حق الزرع بحيث يخرج فوق الواجب عليه، ويضر نفسه أو عائلته أو غرماءه. فكل هذا من الإسراف الذي يبغضه الله[15] ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾.

﴿ 142 - 144 ﴾ ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ

---

[14] وذلك لأن حصاد الزرع بمنزلة حولان الحول. وهو الوقت الذي تتشوف إليه نفوس الفقراء، ويسهل حينئذ إخراجه على أهل الزرع. ويتميز المخرج ممن لا يخرج.

[15] وفي هذه الآية دليل على أنه لا تتكرر الزكاة في الزروع والثمار لو مكثت عند العبد أحوالا كثيرة، إذا كانت لغير التجارة. لأن الله لم يأمر بالإخراج منه إلا وقت حصاده. وأنه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تفريط من صاحب الزرع والثمر، أنه لا يضمنها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة، بل يزكي المال الذي يبقى بعده. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم، يبعث خارصا، يخرص للناس ثمارهم، ويأمره أن يدع لأهلها الثلث، أو الربع، بحسب ما يعتريها من الأكل وغيره، من أهلها، وغيرهم.

الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

﴿ وَ ﴾ خلق وأنشأ ﴿ مِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً ﴾ تحملون عليه وتركبونه ﴿وَفَرْشًا ﴾[16] صغيرة لا تصلح للحمل والركوب ﴿ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ وكلها تؤكل وينتفع بها ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ طرقه وأعماله التي من جملتها أن تحرموا بعض ما رزقكم الله ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ فلا يأمركم إلا بما فيه مضرتكم وشقاؤكم الأبدي. وهذه الأنعام هي في ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ ﴾[17] ذكر وأنثى ﴿ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ﴾ كذلك. فهذه أربعة، كلها داخلة فيما أحل الله. فقل للذين يحرمون منها شيئا دون شيء، أو يحرمون بعضها على الإناث دون الذكور، ملزما لهم بعدم وجود الفرق بين ما أباحوا منها وحرموا ﴿ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ ﴾ من الضأن والمعز ﴿ حَرَّمَ ﴾ الله ﴿ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾ حرم الله من الضأن والمعز. بقي إذا كان الرحم مشتملا على ذكر وأنثى، أو على مجهول فقال ﴿ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾ أي أنثى الضأن وأنثى المعز، من غير فرق بين ذكر وأنثى، فلستم تقولون أيضا بهذا القول. فإذا كنتم لا تقولون بأحد هذه الأقوال الثلاثة، التي حصرت الأقسام الممكنة في ذلك، فإلى أي شيء تذهبون؟ ﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في قولكم ودعواكم، ومن المعلوم أنهم لا يمكنهم أن يقولوا قولا سائغا إنما يقولون أقوالا مصدرها جهل مركب وعقول منحرفة ﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾ ثم ذكر في الإبل والبقر مثل ذلك ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا ﴾ أي لم يبق عليكم إلا أن تقولوا: إن الله وصّانا بذلك، وأوحى إلينا كما أوحى إلى رسله، بل أوحى إلينا وحيا مخالفا لما دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب، وهذا افتراء لا يجهله أحد، ولهذا قال ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي مع كذبه وافترائه على الله، قصده بذلك إضلال عباد الله عن سبيل الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الذين لا إرادة لهم في غير الظلم والجور، والافتراء على الله.

﴿ 145 - 146 ﴾ ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

---

16 وقيل: حمولة : ما يحمل الأثقال كالإبل - فرشا : ما يُفرش للذّبح كالغنم (م)

17 جاء في تفسير القرطبي: إن كان حرم الذكور فكل ذكر حرام . وإن كان حرم الإناث فكل أنثى حرام . وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، يعني من الضأن والمعز، فكل مولود حرام ، ذكرا كان أو أنثى . وكلها مولود فكلها إذا حرام لوجود العلة فيها ، فبين انتقاض علتهم وفساد قولهم; فأعلم الله سبحانه أن ما فعلوه من ذلك افتراء عليه. (م)

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ أي محرما أكله، بقطع النظر عن تحريم الانتفاع بغير الأكل وعدمه ﴿ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ أي ما مات بغير ذكاة شرعية، فإن ذلك لا يحل ﴿ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾ وهو الدم الذي يخرج من الذبيحة عند ذكاتها، لأن احتباسه يضر في البدن، ولا ضرر بأكل اللحم بعد خروج الدم. ويفهم من اللفظ أن الدم الذي يبقى في اللحم والعروق بعد الذبح هو حلال طاهر ﴿ أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ﴾ فهذه الأشياء الثلاثة رجس وخبث مضر، حرمه الله لتنزيهكم عن الخبائث ﴿ أَوْ ﴾ إلا أن يكون ﴿ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ أي إلا أن تكون الذبيحة مذبوحة لأوثان وآلهة المشركين، فإن هذا خروج عن طاعة الله إلى معصيته ومع هذا ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ ﴾ إلى هذه الأشياء المحرمات وحملته الحاجة إلى أكل شيء منها، بأن لم يكن عنده شيء وخاف على نفسه التلف وهو ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ فلا يريد أكلها من غير اضطرار ﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ وَلَا متعد متجاوز للحد، بأن يأكل زيادة عن حاجته ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فالله قد سامح من كان بهذه الحال. وأما ما حرم على أهل الكتاب، فبعضه طيب ولكنه حرم عليهم عقوبة لهم، ولهذا قال ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾ وذلك كالإبل، وما أشبهها ﴿ وَ ﴾ حرمنا عليهم ﴿ مِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ بعض أجزائها وهو ﴿ شُحُومَهُمَا ﴾ وليس المحرم جميع الشحوم منها، بل شحم الألية والثرب، ولهذا استثنى الشحم الحلال من ذلك فقال ﴿ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا ﴾ أي الشحم المخالط للأمعاء ﴿ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ لكن ﴿ ذَلِكَ ﴾ التحريم هو على اليهود الذين ﴿ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ﴾ أي ظلمهم وتعديهم في حقوق الله وحقوق عباده، فحرم الله عليهم هذه الأشياء عقوبة لهم ونكالا ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ في كل ما نقول ونفعل ونحكم به، ومن أصدق من الله حديثا.

﴿ 147 ﴾ ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ هؤلاء المشركون فاستمر على دعوتهم بالترغيب والترهيب ﴿ فَقُلْ رَبُّكُمْ ﴾ الله ﴿ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾ للمخلوقات كلها، فسارعوا إلى رحمته بأسبابها وعلى رأسها تصديق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الذين كثر إجرامهم.

﴿ 148 - 149 ﴾ ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ يخبرنا الله أن المشركين سيسوقون حجة القضاء والقدر لتبرير شركهم وتحريمهم ما أحل الله ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ﴾ كذلك

كانت الأمم المكذبة تدفع دعوة الرسل، لكنها لم تنفعها. فأهكلهم الله وأذاقهم بأسه ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ فلما لم يخرجوه تبين أنه لا علم عندهم ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ ومَنْ بنى حججه على الخرص والظن، فهو مبطل خاسر، فكيف إذا بناها على البغي والعناد والشر والفساد؟ ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ لم تبق لأحد عذرا، وكل ما خالف هذه الأدلة القاطعة باطل، لأن نقيض الحق لا يكون إلا باطلا ﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الجميع داخل في مشيئة الله، مندرج تحت إرادته.

﴿ 150 ﴾ ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

﴿ قُلْ هَلُمَّ ﴾ أحْضِروا ﴿ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ﴾ ونسب ذلك إلى الله ﴿ فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أي يسوون به غيره من الأنداد والأوثان. فحري بشاهد هذا شأنه أن ينهى الله خيار خلقه عن اتباعه، وعلم حينئذ أن تحريمهم لما أحل الله صادر عن تلك الأهواء المضلة.

﴿ 151 - 153 ﴾ ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ لهؤلاء الذين حرموا ما أحل الله ﴿ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ تحريما عاما شاملا لكل أحد، محتويا على سائر المحرمات، من المآكل والمشارب والأقوال والأفعال ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ لا قليلا ولا كثيرا، وألا يُعبد المخلوق كما يعبد الله، وأهم الحقوق بعد حقه ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ بكل قول وفعل يحصل به منفعة للوالدين أو سرور لهما ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ ﴾ من ذكور وإناث ﴿ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ بسبب الفقر وضيقكم من رزقهم، كما كان ذلك موجودا في الجاهلية الظالمة فـ ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ وقد تكفلنا برزق الجميع ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ ﴾ الذنوب العظام المستفحشة ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ والنهي عن قربان الفواحش أبلغ من النهي عن مجرد فعلها، فإنه يتناول النهي عن مقدماتها ووسائلها الموصلة إليها ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ وهي النفس المسلمة، من ذكر وأنثى صغير وكبير بر وفاجر، والكافرة التي قد عصمت بالعهد والميثاق ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ كالزاني المحصن والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ المذكور ﴿ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ عن

الله وصيته تحفظونها وتقومون بها. ودلت الآية على أنه بحسب عقل العبد يكون قيامه بما أمر الله به ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ﴾ بأكل أو معاوضة على وجه المحاباة لأنفسكم، أو أخذ من غير سبب ﴿ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أي إلا بالحال التي تصلح بها أموالهم، وينتفعون بها. فدل هذا على أنه لا يجوز قربانها، والتصرف بها على وجه يضر اليتامى، أو على وجه لا مضرة فيه ولا مصلحة ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ ﴾ اليتيم ﴿ أَشُدَّه ﴾ حتى يبلغ ويرشد ويعرف التصرف، فإذا بلغ أشده أُعطي حينئذ مالُه، وتصرف فيه على نظره. وفي هذا دلالة على أن اليتيم –قبل بلوغ الأشُد– محجور عليه، وأن وليه يتصرف في ماله بالأحظ. ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ أي بالعدل والوفاء التام، فإذا اجتهدتم في ذلك ف ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أي بقدر ما تسعه، ولا تضيق عنه. فمَن حرَص على الإيفاء في الكيل والوزن، ثم حصل منه تقصير لم يفرط فيه ولم يعلمه فإن الله عفو غفور[18] ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ ﴾ قولا تحكمون به بين الناس والأحوال ﴿ فَاعْدِلُوا ﴾ في قولكم بمراعاة الصدق ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ فيمن تحبون ومن تكرهون[19] ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ وهذا يشمل العهد الذي عاهده عليه العباد من القيام بحقوقه والوفاء بها، ومن الذي يقع التعاقد به بين الخلق، فالجميع يجب الوفاء به ويحرم نقضه والإخلال به ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ الأحكام المذكورة ﴿ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ما بينه لكم من الأحكام، وتقومون بوصية الله لكم حق القيام ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ أي هذه الأحكام وما أشبهها ﴿ فَاتَّبِعُوهُ ﴾ لتنالوا الفوز والفلاح ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ أي الطرق المخالفة لهذا الطريق ﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ تضلكم عنه وتفرقكم ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ فإنكم إذا قمتم بما بينه الله لكم علما وعملا وصرتم من المتقين.

﴿ 154 – 157 ﴾ ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾

﴿ ثُمَّ ﴾ ليس المراد منها في هذا الموضع الترتيب الزماني وإنما الترتيب الإخباري ﴿ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ وهو التوراة ﴿ تَمَامًا ﴾ لنعمته وكمالا لإحسانه ﴿ عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ من أمة موسى ﴿ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ يحتاجون إلى تفصيله من الحلال والحرام والعقائد ونحوها ﴿ وَهُدًى ﴾ يهديهم إلى الخير ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ يحصل به لهم السعادة والرحمة والخير الكثير ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ بسبب إنزالنا الكتاب والبينات عليهم ﴿ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ فإنه اشتمل من الأدلة القاطعة على البعث والجزاء بالأعمال، ما يوجب لهم الإيمان بلقاء ربهم والاستعداد له ﴿ وَهَذَا

18وبهذه الآية ونحوها استدل الأصوليون، بأن الله لا يكلف أحدا ما لا يطيق، وعلى أن من اتقى الله فيما أمر، وفعل ما يمكنه من ذلك، فلا حرج عليه فيما سوى ذلك

19 وذكر الفقهاء أن القاضي يجب عليه العدل بين الخصمين في لحظه ولفظه

﴿ القرآن العظيم، والذكر الحكيم ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ فيه الخير الكثير، تستمد منه سائر العلوم ﴿ فَاتَّبِعُوهُ ﴾ فيما يأمر وينهى، وابنوا أصول دينكم وفروعه عليه ﴿ وَاتَّقُوا ﴾ الله تعالى أن تخالفوا له أمرا ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ إن اتبعتموه ﴿ تُرْحَمُونَ ﴾ فأكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب، علما وعملا ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ أنزلنا إليكم هذا الكتاب المبارك قطعا لحجتكم، وخشية أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، أي اليهود والنصارى ﴿ وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴾ أي تقولون لَمْ تنزل علينا كتابا، والكتب التي أنزلتها على الطائفتين ليس لنا بها علم ولا معرفة، فأنزلنا إليكم كتابا، لم ينزل من السماء كتاب أجمع ولا أوضح ولا أبين منه ﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ ﴾ أي إما أن تعتذروا بعدم وصول أصل الهداية إليكم، وإما أن تعتذروا بعدم كمالها وتمامها، فحصل لكم بكتابكم أصل الهداية وكمالها ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وهذا اسم جنس يدخل فيه كل ما يبين الحق ﴿ وَهُدًى ﴾ من الضلالة ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ أي سعادة لكم في دينكم ودنياكم ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ أي أعرض ونأى بجانبه ﴿ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ أي العذاب الذي يسوء صاحبه ويشق عليه ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ لأنفسهم ولغيرهم جزاء لهم على عملهم السيء.

﴿ 158 ﴾ ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ هؤلاء الذين استمر ظلمهم وعنادهم ﴿ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ ﴾ مقدمات العذاب ومقدمات الآخرة بأن تأتيهم ﴿ الْمَلَائِكَةُ ﴾ لقبض أرواحهم، فإنهم إذا وصلوا إلى تلك الحال، لم ينفعهم الإيمان ولا صالح الأعمال ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ لفصل القضاء بين العباد، ومجازاة المحسنين والمسيئين ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ الدالة على قرب الساعة ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ الخارقة للعادة، التي يعلم بها أن الساعة قد دنت، وأن القيامة قد اقتربت ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ يومها لاينفع الكافر إيمانه أن آمن[20] ولا المؤمنَ المقصر أن يزداد خيرُه ﴿ قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ فستعلمون أينا أحق بالأمن.

﴿ 159 - 160 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

---

[20] فالإيمان ينفع إذا كان إيمانا بالغيب، وكان اختيارا من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة، لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت، أقلع عما هو فيه. وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن المراد ببعض آيات الله، طلوع الشمس من مغربها، وأن الناس إذا رأوها، آمنوا، فلم ينفعهم إيمانهم، ويُغلق حينئذ باب التوبة.

﴿ إِنَّ ﴾ يتوعد تعالى ﴿ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾ شتتوه وتفرقوا فيه، كاليهودية والنصرانية والمجوسية. أو لا يكمل بها إيمانه بأن يأخذ من الشريعة شيئا ويجعله دينه ويدع مثله أو ما هو أولى منه، كما هو حال أهل الفرقة من أهل البدع والضلال والمفرقين للأُمة. ودلت الآية الكريمة أن الدين يأمر بالاجتماع والائتلاف، وينهى عن التفرق والاختلاف في أهل الدين، وفي سائر مسائله الأصولية والفروعية. وأمره أن يتبرأ ممن فرقوا دينهم ﴿ لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ أي لست منهم وليسوا منك، لأنهم خالفوك وعاندوك ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ﴾ يردون إليه فيجازيهم بأعمالهم ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ثم ذكر صفة الجزاء فقال ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ﴾ المتعلقة بحق الله أو حق خلقه ﴿ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ وهذا أقل ما يكون من التضعيف ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ وهذا من تمام عدله تعالى وإحسانه، وأنه لا يظلم مثقال ذرة ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

﴿ 161 - 165 ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي ﴾ يأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، أن يعلن بما هو عليه من الهداية ﴿ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ دين العقائد النافعة، الذي عليه الأنبياء والمرسلون ﴿ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ خصوصا إمام الحنفاء خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي ﴾ خصص أشرف العبادات ﴿ وَنُسُكِي ﴾ ومن أخلص في صلاته ونسكه استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله ﴿ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي ﴾ أي ما آتيه في حياتي، وما يجريه الله عليَّ، وما يقدر عليَّ في مماتي، فالجميع ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الذي ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ في العبادة والملك والتدبير. وليس هذا ابتداعا مني بل إني ﴿ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ﴾ أمرا حتما ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ من هذه الأمة ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ ﴾ من المخلوقين ﴿ أَبْغِي رَبًّا ﴾ ويتعين علي وعلى غيري أن يتخذ الله ربا ويرضى به ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وألا يتعلق بأحد من المربوبين الفقراء العاجزين ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من خير وشر ﴿ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ بل كلّ عليه وزر نفسه، وإن كان أحد قد تسبب في ضلال غيره فإن عليه وزر التسبب من غير أن ينقص من وزر المباشر شيء ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ ﴾ يوم القيامة ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من خير وشر، ويجازيكم على ذلك أوفى الجزاء ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ يخلف بعضكم بعضا، واستخلفكم الله في الأرض، وسخَّر لكم جميع ما فيها، وابتلاكم لينظر كيف تعملون ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ في القوة والعافية والرزق والخَلْق والخُلُق ﴿

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ ﴾ فتفاوتت أعمالكم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾ لمن عصاه وكذّب بآياته ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لمن آمن به وعمل صالحا، وتاب من الموبقات.

آخر مختصر تفسير سورة الأنعام

فلله الحمد والثناء

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تسليما كثيرا إلى يوم الدين

.

المجلد الثالث

تيسير الرحمن في تفسير القرآن

لجامعه الفقير إلى الله

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله تعالى

7

مختصر تفسير سورة الأعراف

عدد آياتها 206

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ 1 - 7 ﴾ ﴿ المص * كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾

﴿ المص ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ كِتَابٌ ﴾ جليل حوى كل ما يحتاج إليه العباد ﴿ أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ محكما مفصلا ﴿ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ﴾ أي ضيق وشك واشتباه، وأنه أصدق الكلام فلينشرح له صدرك ﴿ لِتُنْذِرَ بِهِ ﴾ الخلق فتعظهم وتذكرهم ﴿ وَ ﴾ ليكون ﴿ ذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يتذكرون به الصراط المستقيم، وما يحول بين العبد وبين سلوكه ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ وهو ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ فأنزل عليكم هذا الكتاب، إن اتبعتموه هديتم لأحسن الأعمال والأخلاق ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ تتولونهم وتتبعون أهواءهم ﴿ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فلو تذكرتم لما آثرتم الضار على النافع، والعدو على الوليّ ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا ﴾ عذابنا الشديد ﴿ بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ في حين غفلتهم، لم يخطر الهلاك على قلوبهم. فحين جاءهم العذاب لم يدفعوه عن أنفسهم. فقد حذرهم عقوباته للأمم الذين

كذبوا ما جاءتهم به رسلهم، لئلا يشابهوهم ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ وقوله ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي لنسألن الأمم الذين أرسل الله إليهم المرسلين ﴿ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ عن تبليغهم لرسالات ربهم، وعما أجابتهم به أممهم ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ ﴾ على الخلق كلهم ما عملوا ﴿ بِعِلْمٍ ﴾ منه تعالى لأعمالهم ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ في وقت من الأوقات.

﴿ 8 - 9 ﴾ ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ يكون الوزن يوم القيامة بالعدل والقسط، الذي لا جور فيه ولا ظلم ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ بأن رجحت كفة حسناته على سيئاته ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الذين حصل لهم الربح العظيم والسعادة الدائمة ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ بأن رجحت سيئاته، وصار الحكم لها ﴿ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ إذ فاتهم النعيم المقيم، وحصل لهم العذاب الأليم ﴿ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ فلم ينقادوا لها كما يجب عليهم ذلك.

﴿ 10 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ فهيأناها لكم بوجوه الانتفاع بها ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾ هيأها وسخر أسبابها ﴿ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ الله الذي أنعم عليكم بأصناف النعم، وصرف عنكم النقم.

﴿ 11 - 15 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ بخلق أصلكم ومادتكم التي منها خرجتم: أبيكم آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ في أحسن صورة وأحسن تقويم. وعلمه الله تعالى ما به تكمل صورته الباطنة، أسماء كل شيء ﴿ ثُمَّ قُلْنَا ﴾ أمر ﴿ لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ إكراما واحتراما وإظهارا لفضله ﴿ فَسَجَدُوا ﴾ كلهم أجمعون ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ أبى أن يسجد له ﴿ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ تكبرا عليه وإعجابا بنفسه فوبخه الله على ذلك و ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ لما خلقت بيديَّ، أي شرفته وفضلته بفضيلة لم تكن لغيره ﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ فعصيت أمري؟ ﴿ قَالَ ﴾ إبليس معارضا لربه ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ ثم برهن على هذه الدعوى الباطلة بقوله ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ فـ ﴿ قَالَ ﴾ الله له ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ أي من الجنة ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ لأنها دار الطيبين الطاهرين، فلا تليق بأخبث خلق الله وأشرهم ﴿ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ أي المهانين الأذلين، جزاء على كبره وعجبه بالإهانة والذل ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي

﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي سأل الله الإمهال إلى يوم البعث، ليتمكن من إغواء ما يقدر عليه من بني آدم. ولما كانت حكمة الله مقتضية لابتلاء العباد واختبارهم ليتبين الصادق من الكاذب ومن يطيعه ومن يطيع عدوه، أجابه لما سأل، فـ ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾.

﴿ 16 – 17 ﴾ ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ إبليس، لما أبلس وأيس من رحمة الله ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ ﴾ أي للخلق ﴿ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي لألزمن الصراط ولأسعى غاية جهدي على صد الناس عنه وعدم سلوكهم إياه ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ من جميع الجهات والجوانب، ومن كل طريق يتمكن فيه من إدراك بعض مقصوده فيهم. ولما علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم، وكان جازما ببذل مجهوده على إغوائهم، ظن وصدق ظنه فقال ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ فإن القيام بالشكر من سلوك الصراط المستقيم، وهو يريد صدهم عنه وعدم قيامهم به[1].

﴿ 18 ﴾ ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ الله لإبليس ﴿ اخْرُجْ مِنْهَا ﴾ خروج صغار واحتقار بل ﴿ مَذْءُومًا ﴾ مذموما ﴿ مَدْحُورًا ﴾ مبعدا عن الله وعن رحمته وكلّ خير ﴿ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ ﴾ منك وممن تبعك منهم ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ وهذا قسم منه تعالى أن النار دار العصاة، لا بد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس.

﴿ 19 – 23 ﴾ ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ أمر الله تعالى آدم وزوجته حواء، التي أنعم الله بها عليه ليسكن إليها ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ أن يأكلا من الجنة حيث شاءا ويتمتعا فيها بما أرادا ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ إلا أنه عين

[1] وإنما نبهنا الله على ما قال وعزم على فعله، لنأخذ منه حذرنا ونحترز منه بعلمنا، بالطريق التي يأتي منها، ومداخله التي ينفذ منها، فله تعالى علينا بذلك أكمل نعمة.

لهما شجرة نهاهما عن أكلها، والله أعلم ما هي، وليس في تعيينها فائدة لنا. وحرم عليهما أكلها ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فلم يزالا ممتثلين لأمر الله، حتى تغلغل إليهما عدوهما إبليس بمكره ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ وسوسة خدعهما بها ﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ من جنس الملائكة ﴿ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ. وَقَاسَمَهُمَا ﴾ مع قوله هذا بالله ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ حيث قلت لكما ما قلت. فاغترا بذلك، وغلبت الشهوة في تلك الحال على العقل ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ نزَّلهما عن رتبتهما العالية[2] التي هي البعد عن الذنوب والمعاصي إلى التلوث بأوضارها، فأقدما على أكلها بعدما خدعهما ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ﴾ وظهرت عورة كل منهما بعد ما كانت مستورة، فصار للعري الباطن من التقوى في هذه الحال أثر في اللباس الظاهر، حتى انخلع فظهرت عوراتهما ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ فخَجِلا وجَعَلا يخصفان على عوراتهما من أوراق شجر الجنة، ليستترا بذلك ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ وهما بتلك الحال موبخا ومعاتبا ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا[3] الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ فلم اقترفتما المنهي، وأطعتما عدوَّكما؟ ثم من الله عليهما بالتوبة وقبولها، فاعترفا بالذنب، وسألا من الله مغفرته فـ ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي قد فعلنا الذنب، وسبب الخسار إن لم تغفر لنا بمحو أثر الذنب وعقوبته، وترحمنا بقبول التوبة والمعافاة من أمثال هذه الخطايا. فغفر الله لهما ذلك.

﴿ 25 - 26 ﴾ ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ * يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ لما أهبط الله آدم وزوجته وذريتهما إلى الأرض، أخبرهما أن فيها حياة يتلوها الموت، مشحونة بالامتحان والابتلاء، وأنهم لا يزالون فيها يرسل إليهم رسله وينزل عليهم كتبه، حتى يأتيهم الموت فيدفنون فيها، ثم إذا استكملوا بعثهم الله وأخرجهم منها إلى الدار حقيقةً، دار المقامة ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ ثم امتن عليهم بما يسر لهم من اللباس الذي المقصود منه الجمال وسائر الأشياء كالطعام والشراب والمراكب والمناكح ونحوها، قد يسر الله للعباد ضروريها ومكمل ذلك. وبين لهم أن هذا ليس مقصودا بالذات، وإنما أنزله الله ليكون معونة لهم على عبادته وطاعته ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ من اللباس الحسي. فإن لباس التقوى يستمر مع العبد ولا يبلى ولا يبيد، وهو جمال القلب والروح وبدونه تنكشف عورته الباطنة وينال الخزي والفضيحة. وأما اللباس الظاهري فغايته أن يستر العورة الظاهرة في وقت من

---

2 فسر الدكتور حبنكة رحمه الله كلمة "دلّاهما" على اساس اصلها اللغوي المشتق من "الدلو" الذي يرسل إلى ماء البئر تباعا. فيكون المعنى أنّ الشيطان أنزلهما بحنكته من حال الطاعة إلى حال العصيان. (م)

3 للدكتور حبنكة رحمه الله ملاحظة جميلة هنا: فهما كانا بدايةً قرب الشجرة مع إبليس الذي كان يراودهما. ولما اقترفا ذلك الإثم هربا من الموقع كما يفعل المجرم عندما يبتعد عن مكان جريمته وهذا بدليل أن إبليس قال بداية في الآية: "مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة" لكن الله تعالى قال لهما بعدئذ "ألم أنهكما عن تلكما الشجرة". (م)

الأوقات، أو يكون جمالا للإنسان ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي ذلك المذكور لكم من اللباس، مما تذكرون به ما ينفعكم ويضركم وتشبهون باللباس الظاهر على الباطن

﴿ 27 ﴾ ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ بأن يزين لكم العصيان ويدعوكم إليه فتنقادون له ﴿ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ﴾ وأنزلهما من المحل العالي وهو يريد أن يفعل بكم كذلك. فعليكم أن لا تغفُلوا عن المواضع التي يدخل منها إليكم فـ ﴿ إِنَّهُ ﴾ يراقبكم على الدوام و ﴿ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ من شياطين الجن ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فعدم الإيمان هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان.

﴿ 28 - 30 ﴾ ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ﴾ وهي كل ما يستفحش ويستقبح[4] ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ﴾ وصدقوا في هذا ﴿ وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ وكذبوا في هذا ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي لا يليق بكماله وحكمته أن يأمر عباده بتعاطي الفواحش لا هذا الذي يفعله المشركون ولا غيره ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وأي افتراء أعظم من هذا! ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل في العبادات والمعاملات لا بالظلم والجور ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ توجهوا لله، واجتهدوا في تكميل العبادات، خصوصا الصلاة أقيموها ظاهرا وباطنا ونقوها من كل نقص ومفسد ﴿ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ قاصدين بذلك وجهه وحده لا شريك له. ولا تراءوا ولا تقصدوا من الأغراض في دعائكم سوى عبودية الله ورضاه ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ ﴾ أول مرة ﴿ تَعُودُونَ ﴾ للبعث. فالقادر على بدء خلقكم قادر على إعادته، بل الإعادة أهون من البداءة ﴿ فَرِيقًا ﴾ منكم ﴿ هَدَى ﴾ الله وفقهم للهداية ويسر لهم أسبابها ﴿ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ وجبت عليهم الضلالة بما تسببوا لأنفسهم وعملوا بأسباب الغواية فـ ﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا

[4] ومن ذلك طوافهم بالبيت عراة

الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ انسلخوا من ولاية الرحمن واستحبوا ولاية الشيطان، فوكلوا إلى أنفسهم ﴿ وَهم يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ لأنهم انقلبت عليهم الحقائق، فظنوا الباطل حقا والحق باطلا[5].

﴿ 31 ﴾ ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ استروا عوراتكم عند الصلاة كلها، فرضها ونفلها، فإن سترها زينة للبدن. ويحتمل أن المراد بالزينة هنا ما فوق ذلك من اللباس النظيف الحسن، ففي هذا أمر بستر العورة في الصلاة، وباستعمال التجميل فيها ونظافة السترة من الأدناس ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ مما رزقكم الله من الطيبات ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ في ذلك، بالزيادة على القدر الكافي والشره في المأكولات الذي يضر بالجسم، أو بزيادة الترفه والتنوق في المآكل والمشارب واللباس، وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ فإن السرف يبغضه الله، ويضر بدن الإنسان ومعيشته [6].

﴿ 32 – 33 ﴾ ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ من أنواع اللباس والطيبات من مأكل ومشرب؟ ومَن هذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم الله بها على العباد، ومن ذا الذي يضيق عليهم ما وسَّعه الله؟ ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي لا تبعة عليهم فيها[7] ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ أي نوضحها ونبينها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ لأنهم الذين ينتفعون بما فصله الله من الآيات، ويعلمون أنها من عند الله، فيعقلونها ويفهمونها ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ ﴾ أي الذنوب الكبار التي تستفحش وتستقبح لشناعتها وقبحها، كالزنا واللواط ونحوهما ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ أي الفواحش التي تتعلق بحركات البدن والقلوب، كالكبر والعجب والرياء والنفاق ونحو ذلك ﴿ وَالْإِثْمَ ﴾ الذنوب التي تؤثم وتوجب العقوبة في حقوق الله ﴿ وَالْبَغْيَ ﴾ على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ فدخل في هذا الذنوبُ المتعلقةُ بحق الله والعباد ﴿ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ أي حجة. والشركُ هو أن يشرك مع الله في عبادته أحد من الخلق، وربما دخل في

---

[5] وفي هذه الآيات دليل على أن 1- الأوامر والنواهي تابعة للحكمة والمصلحة. والله تعالى لا يأمر بما تستفحشه العقول، ولا يأمر إلا بالعدل والإخلاص. 2- الهداية بفضل الله ومَنّه. 3- الضلالة بخذلانه للعبد، إذا تولى - بجهله وظلمه – الشيطانَ. 4- لا عذر لمن حسب أنه مهتدٍ وهو ضالٌ لأنه قادر على الهدى.

[6] وفي هذه الآية الكريمة أمر بتناول الأكل والشرب، والنهي عن تركهما، وعن الإسراف فيهما.

[7] ومفهوم الآية أن من لم يؤمن بالله، بل استعان بها على معاصيه، فإنها غير خالصة له ولا مباحة، بل يعاقب عليها وعلى التنعم بها، ويُسأل عن النعيم يوم القيامة

هذا الشرك الأصغر كالرياء والحلف بغير الله ونحو ذلك ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه، فكل هذه قد حرمها الله.

﴿ 34 ﴾ ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أخرج الله بني آدم إلى الأرض وأسكنهم فيها، وجعل لهم أجلا مسمى ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ لا تتقدم أمة من الأمم على وقتها المسمى ولا تتأخر، لا الأمم المجتمعة ولا أفرادها.

﴿ 35 – 36 ﴾ ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ لما أخرج الله بني آدم من الجنة، ابتلاهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم يقصون عليهم آيات الله ويبينون لهم أحكامه. ثم ذكر فضل من استجاب لهم، وخسار من لم يستجب لهم ﴿ فَمَنِ اتَّقَى ﴾ ما حرم الله ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ أعماله الظاهرة والباطنة ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من الشر الذي قد يخافه غيرهم ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما مضى، فحصل الأمن التام والفلاح الأبدي ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ﴾ فلا آمنت بها قلوبهم، ولا انقادت لها جوارحهم ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ كما استهانوا بآياته، ولازموا التكذيب بها، أهينوا بالعذاب الدائم الملازم.

﴿ 37–38 ﴾ ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ لا أحد أظلم ﴿ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ بنسبة الشريك له أو النقص له أو التقول عليه ما لم يقل ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ الواضحة المبينة للحق المبين ﴿ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ فهؤلاء وإن تمتعوا بالدنيا، ونالهم نصيبهم مما كان مكتوبا لهم في اللوح المحفوظ، فليس ذلك بمغن عنهم شيئا، يتمتعون قليلا، ثم يعذبون طويلا ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ أي الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم واستيفاء آجالهم ﴿ قَالُوا ﴾ لهم في تلك الحالة توبيخا ﴿ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ من الأصنام والأوثان، فقد

جاء وقت الحاجة إن كان فيها منفعة لكم ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ اضمحلوا وبطلوا، وليسوا مغنين عنا من عذاب الله من شيء ﴿ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ مستحقين للعذاب الدائم. فقالت لهم الملائكة ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي ﴾ في جملة ﴿ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ مضوا على ما مضيتم عليه من الكفر والاستكبار، فادخلوا كما دخلوا ﴿ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ ﴾ كلما دخلت أمة من الأمم العاتية النار ﴿ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا ﴾ واجتمع في النار جميع أهلها من الأولين والآخرين والقادة والرؤساء والمقلدين الأتباع ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ ﴾ أي متأخروهم المتبعون للرؤساء ﴿ لِأُولَاهُمْ ﴾ أي لرؤسائهم، شاكين إلى الله إضلالهم إياهم ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ﴾ عذبهم عذابا مضاعفا لأنهم أضلونا وزينوا لنا الأعمال الخبيثة ﴿ قَالَ ﴾ الله ﴿ لِكُلٍّ ﴾ منكم ﴿ ضِعْفٌ ﴾ ونصيب من العذاب ﴿ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ 39 ﴾ ﴿ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

﴿ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ ﴾ فقال الرؤساء لأتباعهم ﴿ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ فقد اشتركنا جميعا في الغي والضلال، وفي فعل أسباب العذاب، فأي فضل لكم علينا؟ ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ ولكنه من المعلوم أن عذاب الرؤساء أبلغ من عذاب الأتباع، كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائه أعظم من ثواب الأتباع. وهكذا فإن مودتهم التي كانت بينهم في الدنيا تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعنة.

﴿ 40 – 41 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ * لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ﴾ يخبر تعالى عن عقاب من كذب بآياته فلم يؤمن بها ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ ﴾ لأرواحهم ﴿ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ صعدت تريد العروج إلى الله، فتستأذن فلا يؤذن لها. ومفهوم الآية أن أرواح المؤمنين تفتح لها أبواب السماء حتى تعرج إلى الله، وتبتهج بالقرب من ربها والحظوة برضوانه ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ ﴾ وهو البعير المعروف ﴿ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ أي حتى يدخل البعير الذي هو من أكبر الحيوانات جسما في خرق الإبرة الذي هو من أضيق الأشياء. وهذا من باب تعليق الشيء بالمحال ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾ فراش من تحتهم ﴿ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ ظلل من العذاب تغشاهم ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ لأنفسهم جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿ 42 – 43 ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بقلوبهم ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ بجوارحهم، فجمعوا بين الإيمان والعمل ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أي بمقدار ما تسعه طاقتها، تتقي الله بحسب استطاعتها، وإذا عجزت عن بعض الواجبات التي يقدر عليها غيرها سقطت عنها، فلا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة ﴿ أُولَئِكَ ﴾ المتصفون بالإيمان والعمل الصالح ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ لا يحولون عنها ولا يبغون بها بدلا ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ﴾ وهذا من كرمه وإحسانه على أهل الجنة أن الغل الذي كان موجودا في قلوبهم والتنافس تزول أسبابه ويقلعه الله حتى يكونوا إخوانا متحابين ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ يفجرونها تفجيرا حيث شاءوا وأين أرادوا ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ﴾ بأن منّ علينا وأوحى إلى قلوبنا فآمنت به، وانقادت للأعمال الموصلة إلى هذه الدار ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ أي ليس في نفوسنا قابلية للهدى لولا أنه تعالى منَّ بهدايته واتباع رسله ﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ فلقد رأينا ما وعدتنا به الرسل وأن جميع ما جاءوا به حق اليقين ﴿ وَنُودُوا ﴾ تهنئة لهم، وإكراما وتحية واحتراما ﴿ أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ وصارت إقطاعا لكم، إذ كان إقطاع الكفار النار أورثتموها [8] ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ 44 – 45 ﴾ ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ بأن قالوا ﴿ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ﴾ حين وعدنا على الإيمان والعمل الصالح الجنة فأدخلناها وأرانا ما وصفه لنا ﴿ فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ ﴾ على الكفر والمعاصي ﴿ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ ﴾ قد وجدناه حقا ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ ﴾ بين أهل النار وأهل الجنة بأن قال ﴿ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ ﴾ أي بُعْدُه وإقصاؤه عن كل خير ﴿ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ إذ فتح الله لهم أبواب رحمته فصدفوا أنفسهم عنها ظلما، فضلوا وأضلوا ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ المستقيمة ليعتدل سير السالكين إليه ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ منحرفة صادة عن سواء السبيل ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾ وهذا الذي أوجب لهم الانحراف عن الصراط، عدم إيمانهم بالبعث. ومفهوم هذا النداء أن رحمة الله على المؤمنين، وبرَّه شامل لهم، وإحسانه متواتر عليهم.

---

[8] قال بعض السلف: أهل الجنة نجوا من النار بعفو الله، وأدخلوا الجنة برحمة الله، واقتسموا المنازل وورثوها بالأعمال الصالحة وهي من رحمته، بل من أعلى أنواع رحمته.

﴿ 46 - 49 ﴾ ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾

﴿ وَبَيْنَهُمَا ﴾ أصحاب الجنة وأصحاب النار ﴿ حِجَابٌ ﴾ يقال له الأعراف، لا من الجنة ولا من النار، يشرف على الدارين، وينظر مِنْ عليه حالُ الفريقين ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ ﴾ وعلى هذا الحجاب ﴿ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا ﴾ من أهل الجنة وأهل النار ﴿ بِسِيمَاهُمْ ﴾ علاماتهم التي بها يعرفون ويميزون ﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ فإذا نظروا إلى أهل الجنة نَادَوْهم ﴿ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ يحيونهم ويسلمون عليهم ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا ﴾ وهم إلى الآن لم يدخلوا الجنة[9] ﴿ وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ ولكنهم يطمعون في دخولها. ولم يجعل الله الطمع في قلوبهم إلا لما يريد بهم من كرامته ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ ورأوا منظرا وهَوْلًا فظيعا ﴿ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ فأهل الجنة إذا رآهم أهل الأعراف يطمعون أن يكونوا معهم في الجنة، ويحيونهم ويسلمون عليهم، وعند انصراف أبصارهم بغير اختيارهم لأهل النار، يستجيرون بالله من حالهم هذا على وجه العموم. ثم ذكر الخصوص بعد العموم فقال ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ وهم من أهل النار، وقد كان لهم في الدنيا أبهة وشرف وأموال وأولاد ﴿ قَالُوا ﴾ أي أصحاب الأعراف لهم حين رأوهم منفردين في العذاب، بلا ناصر ولا مغيث ﴿ مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ ﴾ في الدنيا، فاليوم اضمحل ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ وأي شيء نفعكم استكباركم على الحق وعلى من جاء به وعلى من اتبعه. ثم أشاروا لهم إلى أناس من أهل الجنة كانوا في الدنيا فقراء ضعفاء يستهزئ بهم أهل النار، فقالوا لأهل النار ﴿ أَهَؤُلَاءِ ﴾ الذين أدخلهم الله الجنة ﴿ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ احتقارا لهم وازدراء وإعجابا بأنفسكم ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ بما كنتم تعملون، أي قيل لهؤلاء الضعفاء إكراما واحتراما ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ ﴾ فيما يستقبل من المكاره ﴿ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ على ما مضى، بل آمنون فرحون بكل خير.

﴿ 50 - 53 ﴾ ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ

[9] هذا وقد اختلف أهل العلم والمفسرون، من هم أصحاب الأعراف، وما أعمالهم؟ والصحيح من ذلك، أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فلا رجحت سيئاتهم فدخلوا النار، ولا رجحت حسناتهم فدخلوا الجنة، فصاروا في الأعراف ما شاء الله، ثم إن الله تعالى يدخلهم برحمته الجنة، فإن رحمته تسبق وتغلب غضبه، ورحمته وسعت كل شيء.

يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ ويستغيثون بهم ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ من الطعام فأجابهم أهل الجنة ﴿ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا ﴾ أي ماء الجنة وطعامها ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ وذلك جزاء لهم على كفرهم بآيات الله ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا ﴾ لهت قلوبهم وأعرضت عنه، أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ بزينتها وزخرفها وكثرة دعاتها، فاطمأنوا إليها وأعرضوا عن الآخرة ونسوها ﴿ فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ ﴾ نتركهم في العذاب ﴿ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا، وليس أمامهم عرض ولا جزاء ﴿ وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ ولم يكن جحودهم بسبب قصور في آيات الله وبيناته ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ ﴾ وبينا فيه جميع المطالب التي يحتاج إليها الخلق ﴿ عَلَى عِلْمٍ ﴾ وتفصيل من الله الذي أحاط علمه بكل شيء ووسعت رحمته كل شيء ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب الهداية من الضلال، ويحصل أيضا لهم به الرحمة، وهي الخير والسعادة في الدنيا والآخرة ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ وقوع ما أخبر به ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ متندمين متأسفين على ما مضى منهم، مقرين بما أخبرت به الرسل ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ ﴾ إلى الدنيا ﴿ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ وقد فات الوقت عن الرجوع إلى الدنيا. وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا، ليعملوا غير عملهم كذب منهم ﴿ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ حين سلكوا بها سبيل الهلاك ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ في الدنيا مما تمنيهم أنفسهم به، ويعدهم به الشيطان، وتبين لهم باطلهم وضلالهم، وصدق ما جاءتهم به الرسل.

﴿ 54 ﴾ ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ وما فيهما على عظمهما وسعتهما وإحكامهما وإتقانهما وبديع خلقهما ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ﴿ ثُمَّ ﴾ فلما قضاهما وأودع فيهما من أمره ما أودع ﴿ اسْتَوَى ﴾ تبارك وتعالى ﴿ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ العظيم الذي يسع السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ ﴾ المظلم ﴿ النَّهَارَ ﴾ المضيء فيظلم ما على وجه الأرض ويسكن الآدميون ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ كلما جاء الليل ذهب النهار، وكلما جاء النهار ذهب الليل، وهكذا أبدا على الدوام حتى يطوي الله هذا العالم وينتقل العباد إلى دار غير هذه الدار ﴿

﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ بتسخيره وتدبيره الدال على ما له من أوصاف الكمال: فخلْقُها وعظَمُها دالٌّ على كمال قدرته، وما فيها من الإحكام والانتظام والإتقان دال على كمال حكمته، وما فيها من المنافع والمصالح الضرورية وما دونها دال على سعة رحمته، وذلك دال على سعة علمه، وأنه الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ ﴾ الذي صدرت عنه جميع المخلوقات ﴿ وَالْأَمْرُ ﴾ المتضمن للشرائع والنبوات. فالخلق يتضمن أحكامه الكونية القدرية. والأمر يتضمن أحكامه الدينية الشرعية. وثم أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ ﴾ عظم وتعالى وكثر خيره وإحسانه، فكل بركة في الكون من آثار رحمته ﴿ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾.

﴿ 55 - 56 ﴾ ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ ﴾ دعاء المسألة ودعاء العبادة. فأمر بدعائه ﴿ تَضَرُّعًا ﴾ إلحاحا في المسألة ودُءوبا في العبادة ﴿ وَخُفْيَةً ﴾ إخلاصا لله تعالى، لا جهرا وعلانية مخافة الرياء ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ أي المتجاوزين للحد في كل الأمور. ومن الاعتداء كون العبد يسأل الله مسائل لا تصلح له، أو يتنطع في السؤال، أو يبالغ في رفع صوته بالدعاء فكل هذا داخل في الاعتداء المنهي عنه ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ بعمل المعاصي ﴿ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ بالطاعات، فإن المعاصي تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق. كما أن الطاعات تصلح بها الأخلاق، والأعمال، والأرزاق وأحوال الدنيا والآخرة ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا ﴾ من عقابه ومن ردها ﴿ وَطَمَعًا ﴾ في ثوابه وفي قبولها. لا دعاء عبد مدل على ربه قد أعجبته نفسه ونزل نفسه فوق منزلته أو دعاء من هو غافل لاهٍ[10] ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله. فكلما كان العبد أكثر إحسانا، كان أقرب إلى رحمة ربه، وكان ربه قريبا منه برحمته.

﴿ 57 - 58 ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ ﴾ المبشرات بالغيث ﴿ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ ﴾ الرياح ﴿ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ قد أثاره بعضها، وألفه ريح أخرى، وألحقه ريح أخرى ﴿ سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ كاد أهله أن ييأسوا من رحمة الله ﴿ فَأَنْزَلْنَا بِهِ ﴾ بذلك البلد الميت ﴿ الْمَاءَ ﴾ الغزير من ذلك السحاب وسخر الله له ريحا تدره وتفرقه بإذن الله

[10] وحاصل ما ذكر الله من آداب الدعاء: الإخلاص فيه لله وحده، لأن ذلك يتضمنه الخفية، وإخفاؤه وإسراره، وأن يكون القلب خائفا طامعا لا غافلا، ولا آمنا ولا غير مبال بالإجابة

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ فأصبحوا مستبشرين برحمة الله، راتعين بخير الله، وقوله ﴿ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات، كذلك نخرج الموتى من قبورهم، بعد ما كانوا رفاتا متمزقين. وهذا استدلال واضح فإنه لا فرق بين الأمرين ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ ﴾ طيب التربة والمادة إذا نزل عليه مطر ﴿ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ ﴾ الذي هو مستعد له ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ أي بإرادة الله ومشيئته. فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء حتى يأذن الله بذلك ﴿ وَالَّذِي خَبُثَ ﴾ من الأراضي ﴿ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ إلا نباتا خاسا لا نفع فيه ولا بركة ﴿ كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ ننوعها ونبينها ونضرب فيها الأمثال ونسوقها ﴿ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ الله بالاعتراف بنعمه. فكما أن الغيث مادة الحياة، فكذلك القلوب الطيبة حين يجيئها الوحي، تقبله وتنبت بحسب طيب أصلها. وأما القلوب الخبيثة التي لا خير فيها، فإذا جاءها الوحي يجدها غافلة معارضة، فيكون كالمطر الذي يمر على الرمال فلا يؤثر فيها شيئا.

﴿ 59 - 64 ﴾ ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّـهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَـٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّـهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وحده ﴿ فَقَالَ ﴾ لهم ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وحده ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ لأنه الخالق الرازق المدبّر لجميع الأمور، وما سواه مخلوق مدبّر ثم خوفهم إن لم يطيعوه عذاب الله ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام وشفقته عليهم فـ ﴿ قَالَ الْمَلَأُ ﴾ الرؤساء الأغنياء المتبوعون ﴿ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ الذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحق وعدم انقيادهم للرسل ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ فلم يكفهم قبحهم الله أنهم لم ينقادوا له، بل استكبروا ونسبوه إلى الضلال، وجعلوه ضلالا مبينا. فرد نوح عليهم ردا لطيفا، وترقق لهم لعلهم ينقادون له فـ ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾ لست ضالا في مسألة من المسائل بوجه من الوجوه ﴿ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وإنما أنا هاد مهتد، ربي هو ربكم ورب جميع الخلق ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾ أي وظيفتي تبليغكم، ببيان توحيده وأوامره ونواهيه ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فيجب أن تطيعوني وتنقادوا لأمري ﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ ﴾ كيف تعجبون أن جاءكم التذكير والموعظة على يد رجل منكم تعرفون حقيقته وصدقه وحاله؟ ﴿ لِيُنْذِرَكُمْ ﴾ العذاب الأليم ﴿ وَلِتَتَّقُوا ﴾ الله ظاهرا وباطنا ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ وبذلك تنزل عليكم رحمة الله الواسعة ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ أي السفينة التي أمر الله نوحا عليه الصلاة والسلام بصنعتها، وأوحى إليه أن يحمل من كل صنف من الحيوانات، زوجين اثنين وأهله ومن آمن

معه، فحملهم فيها ونجاهم الله بها ﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ عن الهدى أبصروا الحق، وأراهم الله على يد نوح من الآيات البينات، ما بهم يؤمن أولوا الألباب، فسخروا منه، واستهزءوا به وكفروا.

﴿ 65 - 72 ﴾ ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وَ ﴾ أرسلنا ﴿ إِلَى عَادٍ ﴾ الأولى في أرض اليمن ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ في النسب ﴿ هُودًا ﴾ عليه السلام يدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن الشرك والطغيان في الأرض فـ ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ سخطه وعذابه، إن أقمتم على ما أنتم عليه فـ ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ رادين لدعوته ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ما نراك إلا سفيها، ويغلب على ظننا أنك من جملة الكاذبين ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ فالواجب عليكم أن تتلقوا ذلك بالقبول والانقياد وطاعة رب العباد ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ ﴾ كيف تعجبون ﴿ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ ﴾ أن الله أرسل إليكم رجلا ﴿ مِنْكُمْ ﴾ تعرفون أمره ﴿ لِيُنْذِرَكُمْ ﴾ ويحثكم على ما فيه النفع لكم ﴿ وَاذْكُرُوا ﴾ واحمدوا ربكم واشكروه ﴿ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ ﴾ مكن لكم في الأرض ﴿ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ تخلفون الأمم الهالكة الذين كذبوا الرسل ﴿ وَ ﴾ اذكروا نعمة الله عليكم التي خصكم بها، وهي أن ﴿ زَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾ في القوة وكبر الأجسام وشدة البطش ﴿ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ ﴾ نعمه الواسعة ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ إذا ذكرتموها بشكرها وأداء حقها ﴿ تُفْلِحُونَ ﴾ وتفوزون بالمطلوب. فلم ينقادوا ولا استجابوا بل ﴿ قَالُوا ﴾ متعجبين من دعوته ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ فقدموا ما عليه الآباء الضالون من الشرك وعبادة الأصنام، على ما دعت إليه الرسل من توحيد الله وحده لا شريك له، وكذبوا نبيهم ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وهذا استفتاح منهم على أنفسهم ﴿ قَالَ ﴾ لهم هود عليه السلام ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ أي لا بد من وقوعه، فإنه قد انعقدت أسبابه وحان وقت الهلاك ﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ كيف تجادلون على أصنام سميتوها آلهة، ولا مثقال ذرة من الآلهة فيها و﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ فإنها لو كانت صحيحة لأنزل الله بها سلطانا ﴿ فَانْتَظِرُوا ﴾ ما

يقع بكم من العقاب، الذي وعدتكم به ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ وفرق بين الانتظارين وفتح الله بين الفريقين فقال ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ ﴾ أي هودا ﴿ وَالَّذِينَ ﴾ آمنوا ﴿ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ فإنه جعل إيمانهم سببا ينالون به رحمته ﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ استأصلناهم بالعذاب الشديد وسلط الله عليهم الريح العقيم ﴿ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ بوجه من الوجوه، بل وصفهم التكذيب والعناد ونعتهم الكبر والفساد.

﴿ 73 - 79 ﴾ ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّـهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـٰذِهِ نَاقَةُ اللَّـهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّـهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّـهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾

﴿ وَ ﴾ أرسلنا ﴿ إِلَى ثَمُودَ ﴾ القبيلة المعروفة الذين كانوا يسكنون الحجر وما حوله، من أرض الحجاز وجزيرة العرب ﴿ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ نبيا يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد فـ ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ أمر بعبادة الله وبيان أنه ليس للعباد إله غير الله ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ خارق من خوارق العادات التي لا تكون إلا آية سماوية لا يقدر الناس عليها ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ هذه ناقة شريفة فاضلة لإضافتها إلى الله تعالى إضافة تشريف، لكم فيها آية عظيمة. لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ. وكان عندهم بئر كبيرة للناقة يوم تشربها ويشربون اللبن من ضرعها، ولهم يوم يردونها وتصدر الناقة عنهم. وقال لهم نبيهم صالح عليه السلام ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ﴾ فلا عليكم من مئونتها شيء ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ بعقر أو غيره ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ ﴾ في الأرض تتمتعون بها وتدركون مطالبكم ﴿ مِنْ بَعْدِ عَادٍ ﴾ الذين أهلكهم الله، وجعلكم خلفاء من بعدهم ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ مكن لكم فيها وسهل لكم الأسباب الموصلة إلى ما تريدون ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا ﴾ فيها ﴿ قُصُورًا ﴾ عالية وأبنية حصينة ﴿ وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ كما هو مشاهد إلى الآن من أعمالهم المساكن والحجر ونحوها ﴿ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ ﴾ نعمه، وما خولكم من الفضل والرزق والقوة ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ لا تخربوا الأرض بالفساد والمعاصي ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ أي الرؤساء والأشراف الذين تكبروا عن الحق ﴿ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ ولما كان المستضعفون ليسوا كلهم مؤمنين قالوا ﴿ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أي أهو صادق أم كاذب؟ ﴿ قَالُوا ﴾ أي المستضعفون ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ من توحيد الله والخبر عنه وأمره ونهيه ﴿ قَالَ الَّذِينَ

اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ حملهم الكبر أن لا ينقادوا للحق الذي انقاد له الضعفاء ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴾ التي توعدهم إن مسوها بسوء أن يصيبهم عذاب أليم ﴿ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ استكبروا عن أمره الذي من عتا عنه أذاقه العذاب الشديد ﴿ وَقَالُوا ﴾ مع هذه الأفعال متجرئين على الله ﴿ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من العذاب ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الصادقين ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ على ركبهم، قد أبادهم الله، وقطع دابرهم ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ صالح عليه السلام حين أحل الله بهم العذاب ﴿ وَقَالَ ﴾ مخاطبا لهم توبيخا بعدما أهلكهم الله ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ أبلغتكم وحرصت على هدايتكم ﴿ وَلَكِن لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ بل رددتم قول النصحاء[11].

﴿ 80 - 84 ﴾ ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾

﴿ وَ ﴾ اذكر عبدنا ﴿ لُوطًا ﴾ عليه الصلاة والسلام ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ إذ أرسلناه إلى قومه يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن الفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فقال ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ أي الخصلة التي بلغت في العظم والشناعة إلى أن استغرقت أنواع الفحش ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ فكونها فاحشة من أشنع الأشياء، وكونهم ابتدعوها وابتكروها، وسنوها لمن بعدهم، من أشنع ما يكون أيضا ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴾ فكيف تذرون النساء اللاتي خلقهن الله لكم، وفيهن المستمتع الموافق للشهوة والفطرة، وتقبلون على أدبار الرجال، التي هي غاية ما يكون في الشناعة والخبث، ومحل تخرج منه الأنتان والأخباث، التي يستحيي من ذكرها فضلا عن ملامستها وقربها ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ متجاوزون لما حده الله متجرئون على محارمه. ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ يتنزهون عن فعل الفاحشة ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ الباقين المعذبين، أمره الله أن يسري بأهله ليلا فإن العذاب مصبح قومه فسرى بهم، إلا امرأته أصابها ما أصابهم ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴾ أي حجارة حارة شديدة من سجيل، وجعل الله عاليها سافلها ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الهلاك والخزي الدائم.

---

[11] واعلم أن كثيرا من المفسرين يذكرون قصصاً عن الناقة كلها من الإسرائيليات التي ليس في القرآن ما يدل على شيء منها بوجه من الوجوه، ولو كانت صحيحة لذكرها الله تعالى، أو لصح شيء منهاعن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يناقض كتاب الله.

﴿ 85 - 87 ﴾ ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّـهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّـهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّـهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾

﴿ وَ ﴾ أرسلنا ﴿ إِلَى مَدْيَنَ ﴾ القبيلة المعروفة بهذا الاسم ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ في النسب ﴿ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّـهَ ﴾ وحده لا شريك له ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ وأن لا يعثوا في الأرض مفسدين، بالإكثار من عمل المعاصي ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فإن ترك المعاصي امتثالا لأمر الله وتقربا إليه خير، وأنفع للعبد من ارتكابها الموجب لسخط الجبار وعذاب النار ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا ﴾ للناس ﴿ بِكُلِّ صِرَاطٍ ﴾ أي طريق من الطرق التي يكثر سلوكها تحذرون الناس منها وَ ﴿ تُوعِدُونَ ﴾ من سلكها ﴿ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ ﴾ من أراد الاهتداء به ﴿ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ تبغون سبيل الله تكون معوجة، وأن تكونوا أنتم قطاع طريقها، الصادين الناس عنها ﴿ وَاذْكُرُوا ﴾ نعمة الله عليكم ﴿ إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾ أي نماكم بما أنعم عليكم من الزوجات والنسل والصحة ﴿ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ فإنكم لا تجدون في جموعهم إلا الشتات ولا في ربوعهم إلا الوحشة ويوم القيامة أشد خزيا ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ وهم الجمهور منهم ﴿ فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ فينصر المحق، ويوقع العقوبة على المبطل.

﴿ 88 - 93 ﴾ ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّـهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّـهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّـهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّـهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ فشُعَيْبُ عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم طامعا في إيمانهم، والآن لم يسلم من شرهم، حتى توعدوه إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجنكم من قريتنا فـ ﴿ قَالَ ﴾ لهم شعيب عليه الصلاة والسلام متعجبا ﴿

﴿ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ هل نتابعكم على دينكم وملتكم الباطلة، ولو كنا كارهين لها لعلمنا ببطلانها ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ أي اشهدوا علينا أننا إن عدنا إليها بعد ما نجانا الله منها أننا كاذبون مفترون على الله الكذب، وهذا من المحال ﴿ وَ ﴾ خاصة أنه ﴿ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾ فلا يمكننا ولا غيرنا الخروج عن مشيئته التابعة لعلمه وحكمته، فقد ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ فيعلم ما يصلح للعباد وما يدبرهم عليه ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ فمن توكل على الله كفاه، ويسر له أمر دينه ودنياه ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ سألوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق والعدل، وأن يريهم من آياته وعبره ما يكون فاصلا بين الفريقين ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ محذرين عن اتباع شعيب ﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ ولم يدروا أن كل الخسارة في لزوم ما هم عليه من الضلال والإضلال وقد علموا ذلك حين فاجأهم العذاب ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ الزلزلة الشديدة ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ أي صرعى ميتين هامدين ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ كأنهم ما أقامو

ا في ديارهم وتمتعوا فيها ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ الخسار محصور فيهم، خسروا دينهم وأنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين. وتولى عنهم حين هلكوا نبيهم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿ وَقَالَ ﴾ معاتبا وموبخا بعد موتهم ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ﴾ أي أوصلتها إليكم وبينتها حتى خالطت أفئدتكم ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ فلم تقبلوا نصحي بل فسقتم وطغيتم ﴿ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ فكيف أحزن على قوم لا خير فيهم، أتاهم الخير فردوه ولم يقبلوه ولا يليق بهم إلا الشر؟

﴿ 94 - 95 ﴾ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ ﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عن ما هم فيه من الشر فلم ينقادوا له ﴿ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا ﴾ ابتلاهم الله ﴿ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ بالفقر والمرض وأنواع البلايا ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ إذا أصابتهم أخضعت نفوسهم ﴿ يَضَّرَّعُونَ ﴾ فتضرعوا إلى الله واستكانوا للحق ﴿ ثُمَّ ﴾ إذا لم يفد فيهم، واستمر استكبارهم وازداد طغيانهم ﴿ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ ﴾ فأدَرَّ عليهم الأرزاق، وعافى أبدانهم ورفع عنهم البلاء ﴿ حَتَّى عَفَوْا ﴾ أي كثروا، وكثرت أرزاقهم وانبسطوا في نعمة الله وفضله ونسوا ما مر عليهم من البلاء ﴿ وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ ﴾ أي تارة يكونون في سراء وتارة في ضراء، وحسبوا أن هذه مجرد عادة جارية وليست للموعظة والتذكير ولا للاستدراج. حتى إذا اغتبطوا وفرحوا بما أوتوا وكانت الدنيا أسر ما كانت إليهم ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي لا يخطر لهم الهلاك على بال، وظنوا أنهم قادرون على ما آتاهم الله، وأنهم غير زائلين ولا منتقلين عنه.

﴿ 96 – 99 ﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا ﴾ بقلوبهم إيمانا صادقا صدقته الأعمال ﴿ وَاتَّقَوْا ﴾ واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهرا وباطنا ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ في أخصب عيش وأغزر رزق ﴿ وَلَكِنْ كَذَّبُوا ﴾ ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ بالعقوبات والبلايا ونزع البركات. وهي بعض جزاء أعمالهم وإلا فلو آخذهم بجميع ما كسبوا ما ترك عليها من دابة ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى ﴾ المكذبة ﴿ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ﴾ عذابنا الشديد ﴿ بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ أي في غفلتهم وراحتهم ﴿ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي شيء يؤمنهم من ذلك، وهم قد فعلوا أسبابه ما يوجب بعضه الهلاك! ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾ حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويملي لهم إن كيده متين ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أي من لم يصدق بالجزاء على الأعمال، ولا آمن بالرسل حقيقة الإيمان[12].

﴿ 100 – 102﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ * وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾

﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ ﴾ أو لم يتضح للأمم ﴿ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا ﴾ بعد إهلاك من قبلهم بذنوبهم ﴿ أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ فإن هذه سنته في الأولين والآخرين ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ إذا هداهم بالآيات والعبر فلم يهتدوا، فإن الله تعالى يعاقبهم ويطبع على قلوبهم فيعلوها الران والدنس حتى يختم عليها، فلا يدخلها حق ولا يصل إليها خير ولا يسمعون ما ينفعهم ﴿ تِلْكَ الْقُرَى ﴾ الذين تقدم ذكرهم ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا ﴾ ما يحصل به ازدجار للظالمين وموعظة للمتقين ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ ولقد جاءت هؤلاء المكذبين رسلهم تدعوهم إلى ما فيه سعادتهم. أيدهم الله بالمعجزات الظاهرة، والبينات المبينات للحق ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ ما كان ليهديهم للإيمان بسبب تكذيبهم وردهم الحق أول مرة ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ عقوبة منه، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ﴾ وما وجدنا لأكثر الأمم من عهد، ولا انقادوا لأوامره التي ساقها إليهم على ألسنة رسله ﴿ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ وأما أكثر الخلق فأعرضوا عن الهدى، واستكبروا عما جاءت به الرسل، فأحل الله بهم من عقوباته المتنوعة

[12] وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ، على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمنا على ما معه من الإيمان. ولو بلغت به الحال ما بلغت - فليس على يقين من السلامة.

﴿103- 122﴾ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ ﴾ أي عد أولئك الرسل ﴿ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ ﴾ قوم عتاة وهم ﴿ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ فأراهم مُوسَىٰ عليه السلام من آيات الله العظيمة ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ بأن استكبروا عنها ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ وكيف أهلكهم الله وأتبعهم الذم واللعنة في الدنيا ويوم القيامة ﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ حين جاء إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان ﴿ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ من مرسل عظيم اختارني واصطفاني لرسالته، فإذا كان هذا شأنه، وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته، فـ ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ وأن لا أكذب عليه ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ فوجب عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته أي إيمانهم به، وإرسال بني إسرائيل فـ ﴿ قَالَ ﴾ له فرعون ﴿ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَأَلْقَى ﴾ موسى ﴿ عَصَاهُ ﴾ في الأرض ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ حيّةٌ ظاهرة تسعى، وهم يشاهدونها ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ من جيبه ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ من غير سوء، فهاتان آيتان كبيرتان دالتان على صحة ما جاء به موسى وصدقه وأنه رسول رب العالمين ﴿ قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ حين بهرهم ما رأوا من الآيات ولم يؤمنوا، وطلبوا لها التأويلات الفاسدة ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أي ماهر في سحره. وهكذا خوفوا ضعفاء الأحلام بأن موسى ﴿ يُرِيدُ ﴾ بفعله هذا ﴿ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾ ويجليكم عن أوطانكم ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ فتشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى، لأن ما جاء به سيدخل في عقول أكثر الناس إن لم يقابل بما يبطله ويدحضه. فحينئذ انعقد رأيهم إلى أن ﴿ قَالُوا ﴾ لفرعون ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أي احبسهما وأمهلهما ﴿ وَأَرْسِلْ ﴾ أناسا ﴿ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ يحشرون أهل المملكة ﴿ يَأْتُوكَ ﴾ يجيئون ﴿ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ بالسحرة المهرة ليقابلوا ما جاء به موسى ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ طالبين منه الجزاء إن غلبوا فـ ﴿ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ. قَالَ﴾ فرعون ﴿ نَعَمْ ﴾ لكم أجر ﴿ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ فوعدهم الأجر والتقريب، وعلو المنزلة عنده ليجتهدوا ويبذلوا وسعهم وطاقتهم في مغالبة موسى. فلما حضروا مع موسى بحضرة الخلق العظيم ﴿ قَالُوا ﴾ على وجه التألي وعدم المبالاة بما جاء به موسى ﴿ يَا

مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ ﴾ ما معك ﴿ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ فـ ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ أَلْقُوا ﴾ لأجل أن يرى الناس ما معهم وما مع موسى ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا ﴾ حبالهم وعصيهم، إذا هي من سحرهم كأنها حيات تسعى، فـ ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ لم يوجد له نظير من السحر ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ ﴾ حية تسعى ﴿ تَلْقَفُ ﴾ جميع ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي يكذبون به ويموهون ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ ﴾ أي تبين وظهر، واستعلن في ذلك المجمع ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. فَغُلِبُوا هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك المقام ﴿ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ حقيرين قد اضمحل باطلهم، وتلاشى سحرهم. وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل السحر الذين يعرفون أنواع السحر وجزئياته ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله لا يدان لأحد بها ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ وصدقنا بما بعث به موسى من الآيات البينات.

﴿123-129 ﴾ ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

فـ ﴿ قَالَ ﴾ لَهُمْ ﴿ فِرْعَوْنُ ﴾ متهددا ﴿ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ فهذا سوء أدب منكم وتجرؤ عَلَيَّ لأنه لا خروج لأحد عن قوله وحكمه. ثم موه على قومه وقال ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾ أي إن موسى كبيركم الذي علمكم السحر، فتواطأتم أنتم وهو على أن تنغلبوا له، فيظهر فتتبعوه، ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم فتخرجوا منها أهلها. وهذا كذب لأن السحرة بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى، حتى عجزوا، وتبين لهم الحق، فاتبعوه. ثم توعدهم فرعون بقوله ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ما أحل بكم من العقوبة ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ﴾ كما يصنع بالمفسدين من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف أي اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ ﴾ في جذوع النخل، لتختزوا بزعمه ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ فكلكم سيذوق هذا العذاب. فـ ﴿ قَالُوا ﴾ أي السحرة ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ فلا نبالي بعقوبتك، فالله خير وأبقى ﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا ﴾ وما تعيب منا على إنكارك علينا وتوعدك لنا؟ فليس لنا ذنب ﴿ إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ﴾ فإن كان هذا ذنبا يعاب عليه، ويستحق صاحبه العقوبة، فهو ذنبنا. ثم دعوا الله أن يثبتهم ويصبرهم فقالوا ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ ﴾ أفض ﴿ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ عظيما، كما يدل عليه التنكير، لأن هذه محنة عظيمة تؤدي إلى ذهاب النفس، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير، ليثبت

الفؤاد ويطمئن المؤمن على إيمانه ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ منقادين لأمرك متبعين لرسولك، والظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه، وأن الله تعالى ثبتهم على الإيمان ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ مهيجين له على الإيقاع بموسى، وزاعمين أن ما جاء باطل وفساد ﴿ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ ﴾ بالدعوة إلى الله ﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ يدعك أنت وآلهتك، وينهى عنك ويصد الناس عن اتباعك. فـ ﴿ قَالَ ﴾ فرعون مجيبا لهم، بأنه سيدع بني إسرائيل مع موسى بحالة لا ينمون فيها ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ نستبقيهن فلا نقتلهن، فإذا فعلنا ذلك أمنا من كثرتهم، وكنا مستخدمين لباقيهم، ومسخرين لهم على ما نشاء من الأعمال ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ لا خروج لهم عن حكمنا، ولا قدرة فـ ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ موصيا لهم في هذه الحالة التي لا يقدرون معها على شيء ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ ﴾ اعتمدوا عليه في جلب ما ينفعكم ودفع ما يضركم، وثقوا بالله أنه سيتم أمركم ﴿ وَاصْبِرُوا ﴾ الزموا الصبر على ما يحل بكم، منتظرين للفرج ﴿ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ ﴾ ليست لفرعون ولا لقومه حتى يتحكموا فيها ﴿ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي يداولها بين الناس على حسب مشيئته وحكمته، ولكن العاقبة للمتقين، فإنهم وإن امتحنوا مدة ابتلاء من الله وحكمة، فإن النصر لهم ﴿ وَالْعَاقِبَةُ ﴾ على قومهم ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فالعبد عند القدرة يجب أن يفعل ما يقدر عليه من الأسباب التي تدفع عنه أذى الغير، أما عند العجز فعليه أن يصبر ويستعين الله، وينتظر الفرج ﴿ قَالُوا ﴾ لموسى متضجرين من طول ما مكثوا في عذاب فرعون وأذيته ﴿ أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا ﴾ فإنهم يسوموننا سوء العذاب يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا ﴿ وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ كذلك فـ ﴿ قَالَ ﴾ لهم موسى مرجيا لهم الفرج والخلاص من شرهم ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ يمكنكم فيها، ويجعل لكم التدبير فيها ﴿ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ هل تشكرون أم تكفرون؟ وهذا وعد أنجزه الله لما جاء الوقت الذي أراده الله.

﴿ 130-137 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّـهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ﴾ بالجدب ﴿ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ يتعظون أن ما حل بهم وأصابهم معاتبة من الله لهم، لعلهم يرجعون عن كفرهم ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ ﴾ الخصب وإدرار الرزق ﴿ قَالُوا

لَنَا هَذِهِ ﴾ ونحن مستحقون لها، فلم يشكروا الله عليها ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ قحط وجدب ﴿ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴾ ويقولوا إنما جاءنا بسبب مجيء موسى، واتباع بني إسرائيل له ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ بقضائه وقدرته وذنوبهم وكفرهم هو السبب في ذلك ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وَقَالُوا ﴾ مبينين لموسى أنهم لا يزالون، ولا يزولون عن باطلهم ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ فقد تقرر عندنا أنك ساحر، فمهما جئت بآية جزمنا أنها سحر ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ ﴾ الذي أغرق أشجارهم وزروعهم، وأضر بهم ضررا كثيرا ﴿ وَالْجَرَادَ ﴾ فأكل ثمارهم وزروعهم ونباتهم ﴿ وَالْقُمَّلَ ﴾ قيل إنه الدباء، أي صغار الجراد، والظاهر أنه القمل المعروف ﴿ وَالضَّفَادِعَ ﴾ فملأت أوعيتهم وأقلقتهم وآذتهم أذية شديدة ﴿ وَالدَّمَ ﴾ إما أن يكون الرعاف، أو كما قال كثير من المفسرين أن ماءهم الذي يشربون انقلب دما ﴿ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ ﴾ أي أدلة وبينات على أنهم كانوا كاذبين ظالمين وعلى أن ما جاء به موسى حق وصدق ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ لما رأوا الآيات ﴿ وَكَانُوا ﴾ في سابق أمرهم ﴿ قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ فلذلك عاقبهم الله تعالى بأن أبقاهم على الغي والضلال ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ ﴾ أي العذاب، يحتمل أن المراد به الطاعون، كما قاله كثير من المفسرين، ويحتمل أن يراد به ما تقدم من الآيات، وأنهم كلما أصابهم واحد منها ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾ أي تشفعوا بموسى بما عهد الله عنده من الوحي والشرع ﴿ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وهم في ذلك كذبة، لا قصد لهم إلا زوال ما حل بهم من العذاب، وظنوا إذا رفع لا يصيبهم غيره ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ ﴾ أي إلى مدة قدر الله بقاءهم إليها، وليس كشفا مؤبدا، وإنما هو مؤقت ﴿ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ العهد الذي عاهدوا عليه موسى واستمروا على كفرهم يعمهون وعلى تعذيب بني إسرائيل دائبين ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ حين جاء الوقت المؤقت لهلاكهم أمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلا وأخبره أن فرعون سيتبعهم هو وجنوده ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عما دلت عليه من الحق ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ أي بني إسرائيل الذين كانوا خدمة لآل فرعون يسومونهم سوء العذاب أورثهم الله ﴿ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ﴾ والمراد بالأرض هاهنا أرض مصر التي كانوا فيها مستضعفين أذلين، أي ملكهم الله جميعا ومكنهم فيها ﴿ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴾ من الأبنية الهائلة والمساكن المزخرفة ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾.

﴿ 138 – 141 ﴾ ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ بعد ما أنجاهم الله من عدوهم فرعون وقومه، وأهلكهم الله، وبنو إسرائيل ينظرون ﴿ فَأَتَوْا ﴾ مروا ﴿ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ﴾ يقيمون عندها ويعبدونها. فـ ﴿ قَالُوا ﴾ من جهلهم وسفههم لنبيهم موسى بعدما أراهم الله من الآيات ما أراهم ﴿ يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ أي اشرع لنا أن نتخذ أصناما آلهة كما اتخذها هؤلاء فـ ﴿ قَالَ ﴾ لهم موسى ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ وأي جهل أعظم من جهل من أراد أن يسوي خالقه بغيره؟ ولهذا قال لهم موسى ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ لأن العمل باطل وغايته باطلة ﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا ﴾ أي أأطلب لكم إلها غير الله المألوه، الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله ﴿ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ فيقتضي أن تقابلوا فضله وتفضيله بالشكر ﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي من فرعون وآله ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ يوجهون إليكم من العذاب أسوأه، وهو أنهم كانوا﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ ﴾ النجاة من عذابهم ﴿ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ أي نعمة جليلة ومنحة جزيلة، أو وفي ذلك العذاب الصادر منهم لكم بلاء من ربكم عليكم عظيم، فلما ذكرهم موسى ووعظهم انتهوا عن ذلك.

﴿ 142 –147 ﴾ ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ * قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ * وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ * سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ ليستعد موسى، ويتهيأ لوعد الله ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ ﴾ موصيا له على بني إسرائيل من حرصه عليهم ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴾ كن خليفتي فيهم واعمل فيهم بما كنت أعمل ﴿ وَأَصْلِحْ ﴾ اتبع طريق الصلاح ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ وهم الذين يعملون بالمعاصي ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا ﴾ الذي وقتناه له لإنزال الكتاب ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ بما كلمه من وحيه وأمره ونهيه، تشوق إلى رؤية الله، حبا لربه ومودة لرؤيته فـ ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ ﴾ اللهُ ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾ أي لن تقدر الآن على رؤيتي. فإن الله تبارك وتعالى أنشأ الخلق في هذه الدار على نشأة لا يقدرون بها ولا يثبتون

لرؤية الله[13]. ولهذا رتب الله الرؤية في هذه الآية على ثبوت الجبل، فقال مقنعا لموسى في عدم إجابته للرؤية ﴿ وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ ﴾ إذا تجلى الله له ﴿ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ الأصم الغليظ ﴿ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ فانهال مثل الرمل من عدم ثبوته لرؤية الله ﴿ وَخَرَّ مُوسَى ﴾ حين رأى ما رأى ﴿ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ ﴾ تبين له أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله، فموسى أولى أن لا يثبت لذلك، واستغفر ربه لما صدر منه من السؤال و ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ أي تنزيها لك، وتعظيما عما لا يليق بجلالك ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ من جميع الذنوب وسوء الأدب معك ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه، بما كمل الله له مما كان يجهله قبل ذلك. فلما منعه الله من رؤيته بعدما كان متشوقا إليها أعطاه خيرا كثيرا فـ ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ ﴾ اخترتك ﴿ عَلَى النَّاسِ ﴾ بفضائل عظيمة و ﴿ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي ﴾ إياك من غير واسطة، وهذه فضيلة اختص بها موسى الكليم، وعرف بها من بين إخوانه من المرسلين ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ ﴾ من النعم والأمر والنهي بانشراح صدر، وتلقه بالقبول والانقياد ﴿ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ لله على ما خصّك وفضلك ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الألْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يحتاج إليه العباد ﴿ مَوْعِظَةً ﴾ ترغب النفوس في أفعال الخير وترهبهم من أفعال الشر ﴿ وَتَفْصِيلا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ من الأحكام الشرعية والعقائد والأخلاق والآداب ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ بجد واجتهاد على إقامتها ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ وهي الأوامر الواجبة والمستحبة، فإنها أحسنها. وفي هذا دليل على أن أوامر الله في كل شريعة كاملة عادلة حسنة ﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ بعد ما أهلكهم الله، وأبقى ديارهم عبرة ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ﴾ أي عن الاعتبار والفهم لآيات الكتاب ﴿ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أي يتكبرون على عباد الله وعلى الحق، وعلى من جاء به ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ لإعراضهم واعتراضهم ومحادتهم لله ورسوله ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ ﴾ أي الهدى والاستقامة، وهو الصراط الموصل إلى الله وإلى دار كرامته ﴿ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا ﴾ لا يسلكوه ولا يرغبوا فيه ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ ﴾ أي الغواية الموصل لصاحبه إلى دار الشقاء ﴿ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا ﴾ والسبب في انحرافهم هذا الانحراف ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ فردهم لآيات الله، وغفلتهم عما يراد بها واحتقارهم لها هو الذي أوجب لهم سلوك طريق الغي وترك طريق الرشد ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ العظيمة الدالة على صحة ما أرسلنا به رسلنا ﴿ وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ لأنها على غير أساس، وقد فقد شرطها وهو الإيمان بآيات الله، والتصديق بجزائه ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ ﴾ في بطلان أعمالهم وحصول ضد مقصودهم ﴿ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فإن أعمال من لا يؤمن باليوم الآخر، لا يرجو فيها ثوابا، فلذلك اضمحلت وبطلت.

[13] وليس في هذا دليل على أنهم لا يرونه في الجنة، فإنه قد دلت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على أن أهل الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم. وأنه ينشئهم نشأة كاملة، يقدرون معها على رؤية الله تعالى.

﴿ 148-149 ﴾ ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ * وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلا جَسَدًا ﴾ صاغه السامري وألقى عليه قبضة من أثر الرسول فصار ﴿ لَّهُ خُوَارٌ ﴾ وصوت، فعبدوه واتخذوه إلها. وهذا من سفههم وقلة بصيرتهم، كيف اشتبه عليهم رب الأرض والسماوات، بعجل من أنقص المخلوقات ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ ﴾ وعدم الكلام نقص عظيم، فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد، الذي لا يتكلم ﴿ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلا ﴾ لا يدلهم طريقا دينيا، ولا يحصل لهم مصلحة دنيوية ﴿ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ حيث وضعوا العبادة في غير موضعها وأشركوا بالله ﴿ وَلَمَّا ﴾ رجع موسى إلى قومه، فوجدهم على هذه الحال، وأخبرهم بضلالهم ندموا و ﴿ سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ من الهم والندم على فعلهم ﴿ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ﴾ فتنصلوا، إلى الله وتضرعوا و ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ﴾ فيدلنا عليه ويرزقنا عبادته ويوفقنا لصالح الأعمال ﴿ وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ ما صدر منا من عبادة العجل ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الذين خسروا الدنيا والآخرة.

﴿ 150-151 ﴾ ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ ممتلئا غضبا وغيظا عليهم ﴿ قَالَ بِئْسَمَا ﴾ الحالة التي ﴿ خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ﴾ بعد ذهابي عنكم، تفضي إلى الهلاك الأبدي ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ حيث وعدكم بإنزال الكتاب لكنكم بادرتم برأيكم الفاسد إلى هذه الخصلة القبيحة ﴿ وَأَلْقَى الألْوَاحَ ﴾ ورماها من الغضب ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ ﴾ هارون ولحيته ﴿ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ فـ ﴿ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ ﴾ وهذا ترقيق لأخيه، بذكر الأم وحدها، وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه ﴿ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي ﴾ أي احتقروني ﴿ وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ﴾ فلا تظن بي تقصيرا ﴿ فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاءَ ﴾ بنهرك لي، ومسك إياي بسوء ﴿ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ فتعاملني معاملتهم. فندم موسى عليه السلام على ما استعجل من صنعه بأخيه قبل أن يعلم براءته، مما ظنه فيه من التقصير و ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأخِي ﴾ هارون ﴿ وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ﴾ أي اجعل رحمتك تحيط بنا من كل جانب ﴿ وَأَنْتَ أَرْحَمُ ﴾ بنا من كل ﴿ الرَّاحِمِينَ ﴾ أرحم بنا من آبائنا وأمهاتنا وأولادنا وأنفسنا.

﴿ 152-159 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ * وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ *وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ * وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ* وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّـهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّـهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّـهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ ﴾ إلها ﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ كما أغضبوا ربهم واستهانوا بأمره ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ فكل مفتر على الله[14]، كاذب على شرعه له نصيب من غضب الله والذل في الحياة الدنيا ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ من شرك وكبائر وصغائر﴿ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا ﴾ بأن ندموا على ما مضى وأقلعوا عنها، وعزموا على أن لا يعودوا ﴿ وَآمَنُوا ﴾ بالله بأعمال القلوب والجوارح ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا ﴾ بعد التوبة من السيئات والرجوع إلى الطاعات ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ يغفر السيئات ويمحوها ولو كانت قراب الأرض ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بقبول التوبة والتوفيق لأفعال الخير وقبولها ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ﴾ سكن غضبه وتراجعت نفسه ﴿ أَخَذَ الأَلْوَاحَ ﴾ التي ألقاها وهي ألواح عظيمة المقدار، جليلة ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا ﴾ تشتمل وتتضمن وفيها ﴿ هُدًى ﴾ لأحسن الأعمال والأخلاق ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ وسعادة لمن عمل بها وعلم أحكامها ومعانيها ﴿ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ يخافون منه ويخشونه ﴿ وَ ﴾ لما تاب بنو إسرائيل وتراجعوا إلى رشدهم ﴿ اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ ﴾ أي منهم ﴿ سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾ من خيارهم ليعتذروا لقومهم عند ربهم، ووعدهم الله ميقاتا يحضرون فيه ﴿ لِمِيقَاتِنَا ﴾ فلما حضروه قالوا يا موسى أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فتجرأوا على الله جراءة كبيرة، وأساءوا الأدب معه ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ صعقوا وهلكوا. فلم يزل موسى عليه الصلاة والسلام، يتضرع إلى الله ويتبتل ﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ ﴾ أي قبل أن يحضروا ويكونون في حالة يعتذرون فيها لقومهم، فصاروا هم الظالمين ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ أي ضعفاء العقول سفهاء الأحلام، فتضرع إلى الله واعتذر بأن المتجرئين على الله ليس لهم عقول كاملة تردعهم عما

[14] وقد نالهم غضب الله، حيث أمرهم أن يقتلوا أنفسهم، وأنه لا يرضى الله عنهم إلا بذلك، فقتل بعضهم بعضا، وانجلت المعركة عن كثير من القتلى ثم تاب الله عليهم بعد ذلك.

قالوا وفعلوا، وبأنهم حصل لهم فتنة يخطر بها الإنسان، ويخاف من ذهاب دينه فقال ﴿ إِنْ هِيَ إلا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ أنت خير من غفر، وأولى من رحم، وأكرم من أعطى وتفضل[15]. فأجاب الله سؤاله وأحياهم من بعد موتهم وغفر لهم ذنوبهم. وقال موسى في تمام دعائه ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ من علم نافع ورزق واسع وعمل صالح ﴿ وَفِي الآخِرَةِ ﴾ حَسَنَةً، وهي ما أعد الله لأوليائه الصالحين من الثواب ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي رجعنا مقرين بتقصيرنا، منيبين في جميع أمورنا ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾ ممن كان شقيا متعرضا لأسبابه ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ من العالم العلوي والسفلي، البر والفاجر المؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله وغمره فضله وإحسانه. ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ المعاصي، صغارها وكبارها ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ الواجبة مستحقيها ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ومن تمام الإيمان بآيات الله معرفة معناها، والعمل بمقتضاها، ومن ذلك اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا في أصول الدين وفروعه ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ﴾ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم. والسياق في أحوال بني إسرائيل وأن الإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم شرط في دخولهم في الإيمان، وأن المؤمنين به المتبعين هم أهل الرحمة المطلقة التي كتبها الله لهم، ووصفه بالأمي لأنه من العرب الأمة الأمية، التي لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها قبل القرآن كتاب ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ ﴾ باسمه وصفته، التي من أعظمها وأجلها ما يدعو إليه وينهى عنه وأنه ﴿ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ وهو كل ما عرف حسنه وصلاحه ونفعه ﴿ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ وهو كل ما عرف قبحه في العقول والفطر. وأعظم دليل يدل على أنه رسول الله ما دعا إليه وأمر به ونهى عنه وأحله وحرمه ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ﴾ من المطاعم والمشارب والمناكح والأقوال والأفعال ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ منها ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي ومن وصفه أن دينه سهل سمح ميسر، لا إصر فيه ولا أغلال ولا مشقات ولا تكاليف ثقال ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ ﴾ أي عظموه وبجلوه ﴿ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزلَ مَعَهُ ﴾ وهو القرآن الذي يستضاء به في ظلمات الشك والجهالات ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الظافرون بخير الدنيا والآخرة، والناجون من شره ما، لأنهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح. وأما من لم يؤمن بهذا النبي الأمي فأولئك هم الخاسرون. ولما دعا أهل التوراة من بني إسرائيل إلى اتّباعه، وكان ربما توهم متوهم أن الحكم مقصور عليهم، أتى بما يدل على العموم ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ أي عربيكم وعجميكم، أهل الكتاب منكم وغيرهم ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ يتصرف فيهما بأحكامه الكونية والشرعية الدينية ﴿ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ من جملة تدابيره الإحياء والإماتة ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ﴾ إيمانا في القلب، متضمنا لأعمال القلوب والجوارح ﴿ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ﴾ آمنوا بهذا

[15]، فكأن موسى عليه الصلاة والسلام، قال: المقصود يا رب بالقصد الأول لنا كلنا، هو التزام طاعتك والإيمان بك، وأن من حضره عقله ورشده، وتم على ما وهبته من التوفيق، فإنه لم يزل مستقيما، وأما من ضعف عقله، وسفه رأيه، وصرفته الفتنة، فهو الذي فعل ما فعل، لذينك السببين، ومع هذا فأنت أرحم الراحمين، وخير الغافرين، فاغفر لنا وارحمنا

الرسول المستقيم في عقائده وأعماله ﴿ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ في مصالحكم الدينية والدنيوية، فإنكم إذا لم تتبعوه ضللتم ضلالا بعيدا ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ ﴾ جماعة ﴿ يَهْدُونَ ﴾ الناس ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ في تعليمهم إياهم وفتواهم لهم ﴿ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ بينهم في الحكم بينهم، بقضاياهم. وفي هذا فضيلة لأمة موسى عليه الصلاة والسلام، وأن الله تعالى جعل منهم هداة يهدون بأمره[16].

﴿ 160-163 ﴾ ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ * وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ ﴾ أي قسمناهم ﴿ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ اثنتي عشرة قبيلة من أولاد يعقوب، متعارفة متوالفة ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ ﴾ طلبوا منه أن يدعو الله تعالى أن يسقيهم ماء وذلك لأنهم والله أعلم في محل قليل الماء، فأوحى الله لموسى إجابة لطلبتهم ﴿ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ يحتمل أنه حجر معين، ويحتمل أنه اسم جنس يشمل أي حجر كان، فضربه ﴿ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ ﴾ انفجرت من ذلك الحجر ﴿ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ جارية سارحة ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾ قسم على كل قبيلة من تلك القبائل الاثنتي عشرة، وجعل لكل منهم عينا، فعلموها واطمأنوا واستراحوا من التعب والمزاحمة والمخاصمة ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ ﴾ فكان يسترهم من حر الشمس ﴿ وَأَنزلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ ﴾ وهو الحلوى ﴿ وَالسَّلْوَى ﴾ وهو لحم طير من أنواع الطيور وألذها ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ حين لم يشكروا الله، ولم يقوموا بما أوجب الله عليهم ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ حيث فوتوها كل خير وعرضوها للشر والنقمة، وهذا كان مدة لبثهم في التيه ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ ادخلوها لتكون وطنا لكم ومسكنا، وهي (إيلياء) ﴿ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ فهي رغيدة العيش يأكلون منها حيث شاءوا ﴿ وَقُولُوا ﴾ حين تدخلون الباب ﴿ حِطَّةٌ ﴾ أي احطط عنا خطايانا واعف عنا ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ أمرهم بالخضوع وسؤال المغفرة ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ﴾ والثواب العاجل والآجل ﴿ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ من خير الدنيا والآخرة. فلم يمتثلوا هذا الأمر الإلهي ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ وعصوا الله واستهانوا بأمره ﴿ قَوْلا غَيْرَ

[16] وكأن الإتيان بهذه الآية الكريمة فيه نوع احتراز مما تقدم، فإنه تعالى ذكر فيما تقدم جملة من معايب بني إسرائيل، المنافية للكمال المناقضة للهداية، فربما توهم متوهم أن هذا يعم جميعهم، فذكر تعالى أن منهم طائفة مستقيمة هادية مهدية.

﴿ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ فقالوا بدل طلب المغفرة وقولهم حِطَّة، "حبة في شعيرة". وإذا بدلوا القول مع يسره وسهولته فتبديلهم للفعل من باب أولى. ولهذا دخلوا وهم يزحفون على أستاههم ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ حين خالفوا أمر الله وعصوه ﴿ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ عذابا شديدا، إما الطاعون وإما غيره من العقوبات السماوية. وما ظلمهم الله بعقابه وإنما كان ذلك ﴿ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ أي يخرجون من طاعة الله إلى معصيته، من غير ضرورة ألجأتهم ولا داع دعاهم سوى الخبث والشر الذي كان كامنا في نفوسهم ﴿ وَاسْأَلْهُمْ ﴾ اسأل بني إسرائيل ﴿ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ على ساحله في حال تعديهم وعقاب الله إياهم ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ وكان الله تعالى قد أمرهم أن يعظموه ويحترموه ولا يصيدوا فيه صيدا، فابتلاهم الله وامتحنهم ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ ﴾ فكانت الحيتان تأتيهم ﴿ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾ كثيرة طافية على وجه البحر ﴿ وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ ﴾ إذا ذهب يوم السبت ﴿ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ وتذهب في البحر فلا يرون منها شيئا ﴿ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ففسقهم هو الذي أوجب أن يبتليهم الله، وأن تكون لهم هذه المحنة، وإلا فلو لم يفسقوا لعافاهم الله. ولما عرضهم للبلاء والشر فتحيلوا على الصيد، فكانوا يحفرون لها حفرا، وينصبون لها الشباك، فإذا جاء يوم السبت ووقعت في تلك الحفر والشباك، لم يأخذوها في ذلك اليوم، فإذا جاء يوم الأحد أخذوها.

﴿ 164-170 ﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ ﴾ انقسموا بعد ذلك ثلاث فرق، قالت إحداها ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ كأنهم يقولون لا فائدة في وعظ من اقتحم محارم الله، ولم يصغ للنصيح، فإنه لا بد أن يعاقبهم الله إما بهلاك أو عذاب شديد فـ ﴿ قَالُوا ﴾ أي الواعظون نعظهم وننهاهم ﴿ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ أي لنعذر فيهم ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي يتركون ما هم فيه من المعصية. فلا نيأس من هدايتهم، فربما نجع فيهم الوعظ ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أي تركوا ما ذكروا به، واستمروا على غيهم واعتدائهم ﴿ أَنْجَيْنَا ﴾ من العذاب ﴿ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ ﴾ وهكذا سنة الله في عباده، أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ

﴿ ظَلَمُوا ﴾ وهم الذين اعتدوا في السبت ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ أي شديد ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ وأما الفرقة الأخرى فاختلف المفسرون في نجاتهم وهلاكهم، والظاهر أنهم كانوا من الناجين، لأن الله خص الهلاك بالظالمين، ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، فاكتفوا بإنكار أولئك ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ ﴾ وقسوا فلم يلينوا، ولا اتعظوا ﴿ قُلْنَا لَهُمْ ﴾ قولا قدريا ﴿ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ فانقلبوا بإذن الله قردة، وأبعدهم الله من رحمته. ثم ذكر ضرب الذلة والصغار على من بقي منهم فقال ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ﴾ أي أعلم إعلاما صريحا ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ يهينهم، ويذلهم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾ لمن عصاه، حتى إنه يعجل له العقوبة في الدنيا ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لمن تاب إليه وأناب، يغفر له الذنوب، ويستر عليه العيوب، ويرحمه بأن يتقبل منه الطاعات ويثيبه عليها ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا ﴾ فرقناهم ومزقناهم في الأرض بعد ما كانوا مجتمعين ﴿ مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ ﴾ القائمون بحقوق الله وحقوق عباده ﴿ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ﴾ دون الصلاح إما مقتصدون وإما ظالمون لأنفسهم ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ ﴾ على عادتنا وسنتنا ﴿ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ﴾ أي بالعسر واليسر ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عما هم عليه، فلم يزالوا بين صالح وطالح ومقتصد ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ زاد شرهم ﴿ وَرِثُوا ﴾ بعدهم ﴿ الْكِتَابَ ﴾ وصار المرجع فيه إليهم، وصاروا يتصرفون فيه بأهوائهم، وتبذل لهم الأموال، ليفتوا ويحكموا بغير الحق، وفشت فيهم الرشوة ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ ﴾ مقرين بأنه ذنب وأنهم ظلمة ﴿ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ وهذا قول خال من الحقيقة فلو كان ذلك لندموا على ما فعلوا وعزموا على أن لا يعودوا ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ ولكنهم إذا أتاهم عرض آخر، ورشوة أخرى يأخذوه. قال الله تعالى في الإنكار عليهم، وبيان جراءتهم ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ ﴾ فما بالهم يقولون عليه غير الحق اتباعا لأهوائهم ﴿ وَ ﴾ قد ﴿ دَرَسُوا مَا فِيهِ ﴾ فليس عليهم فيه إشكال، بل قد أَتَوْا أمرهم متعمدين، وهذا أعظم للذنب ﴿ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ ما حرم الله عليهم من المآكل التي تؤكل رشوة على الحكم بغير ما أنزل الله، وغير ذلك من أنواع المحرمات ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ أي أفلا يكون لكم عقول توازن بين ما ينبغي إيثاره، وما ينبغي الإيثار عليه ﴿ وَ ﴾ إنما ﴿ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ ﴾ أي يتمسكون به علما وعملا فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ ﴾ كان عملهم كله إصلاحا ﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ في أقوالهم وأعمالهم ونياتهم، مصلحين لأنفسهم ولغيرهم.

﴿ 171-178 ﴾ ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ

عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ * مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ ﴾ حين امتنعوا من قبول ما في التوراة فألزمهم الله العمل ونتق[17] فوق رءوسهم الجبل، فصار فوقهم ﴿ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ[18] وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ وقيل لهم ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ أي بجد واجتهاد﴿ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ ﴾ دراسة ومباحثة واتصافا بالعمل به ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ إذا فعلتم ذلك.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أي أخرج من أصلابهم ذريتهم، وجعلهم يتناسلون ويتوالدون قرنا بعد قرن. وحين أخرجهم من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أي قررهم بإثبات ربوبيته، بما أودعه في فطرهم من الإقرار بأنه ربهم وخالقهم ومليكهم[19]، ولهذا ﴿ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾ قد أقررنا بذلك، أي إنما امتحناكم حتى أقررتم بما تقرر عندكم، من أن الله تعالى ربكم ﴿ أَنْ تَقُولُوا ﴾ خشية أن تنكروا ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ فلا تقروا بشيء من ذلك ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ وتزعمون أن حجة الله ما قامت عليكم، ولا عندكم بها علم، بل أنتم غافلون عنها لاهون. فاليوم قد انقطعت حجتكم، وثبتت الحجة البالغة لله عليكم ﴿ أَوْ تَقُولُوا ﴾ أو تحتجون أيضا بحجة أخرى فتقولون ﴿ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ فحذونا حذوهم وتبعناهم في باطلهم ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ فقد أودع الله في فطركم ما يدلكم على أن ما مع آبائكم باطل، وأن الحق ما جاءت به الرسل. وهذا يقاوم ما وجدتم عليه آباءكم، ويعلو عليه. نعم قد يعرض للعبد من أقوال آبائه الضالين، ومذاهبهم الفاسدة ما يظنه هو الحق. وما ذاك إلا لإعراضه عن حجج الله وبيناته: هذا هو الصواب في تفسير هذه الآيات. وقد قيل إن الله أخذ الميثاق على ذرية آدم حين استخرجهم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم، فشهدوا بذلك. فاحتج عليهم بما أقروا به في ذلك الوقت على ظلمهم في كفرهم، وعنادهم في الدنيا والآخرة. ولكن ليس في الآية ما يدل على هذا، ولا له مناسبة، ولا تقتضيه حكمة الله تعالى، والواقع شاهد بذلك. فالعهد والميثاق حين أخرج الله ذرية آدم من ظهره، وكانوا في عالم كالذر، لايمكن أن يذكره أحد، ولا يخطر ببال آدمي، فكيف يحتج الله عليهم بأمر ليس عندهم به خبر، ولا له عين ولا أثر؟ ولهذا قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ أي نبينها ونوضحها ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ إلى ما أودع الله في فطرهم، وإلى ما عاهدوا الله عليه، فيرتدعون عن القبائح ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ علمناه كتاب الله ﴿ فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ أي انسلخ من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله. فإن العلم بذلك، يصير صاحبه متصفا بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال. فترك هذا كتاب الله وراء ظهره، ونبذ الأخلاق التي يأمر بها وخلعها كما يخلع اللباس. فلما انسلخ منها أتبعه الشيطان وتسلط عليه فأزه إلى المعاصي أزا ﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ بعد أن كان من الراشدين المرشدين. وهذا لأن الله تعالى خذله ووكله

---

[17] نتقنا الجبل : رفعناه و قلعناه (م)
[18] كأنّه ظلّة : غمامة ، أو سقيفة تُظلّ (م)
[19] فإن الله تعالى فطر عباده على الدين الحنيف القيم. فكل أحد فهو مفطور على ذلك، ولكن الفطرة قد تغير وتبدل بما يطرأ عليها من العقائد الفاسدة.

إلى نفسه، فلهذا قال تعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ بأن نوفقه للعمل بها، فيرتفع في الدنيا والآخرة، فيتحصن من أعدائه ﴿ وَلَكِنَّهُ ﴾ فعل ما يقتضي الخذلان ﴿ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ ﴾ أي إلى الشهوات السفلية، والمقاصد الدنيوية ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ وترك طاعة مولاه ﴿ فَمَثَلُهُ ﴾ في شدة حرصه على الدنيا وانقطاع قلبه إليها ﴿ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ أي لا يزال لاهثا في كل حال، وهذا لا يزال حريصا، حرصا قاطعا قلبه، لا يسد فاقته شيء من الدنيا ﴿ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ بعد أن ساقها الله إليهم، فلم ينقادوا لها، بل كذبوا بها وردوها، لهوانهم على الله، واتباعهم لأهوائهم، بغير هدى من الله ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في ضرب الأمثال وفي العبر والآيات، فإذا تفكروا علموا، وإذا علموا عملوا ﴿ سَاءَ مَثَلا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ أي ساء وقبح مثل من كذب بآيات الله، وظلم نفسه بأنواع المعاصي فإن مثلهم مثل السوء[20] ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ ﴾ بأن يوفقه للخيرات ويعصمه من المكروهات، ويعلمه ما لم يكن يعلم ﴿ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ﴾ حقا لأنه آثر هدايته تعالى ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ ﴾ فيخذله ولا يوفقه للخير ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿ 179 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا ﴾ أنشأنا وبثثنا ﴿ لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ ﴾ صارت البهائم أحسن حالة منهم ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ لا يصل إليها فقه ولا علم ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ ما ينفعهم ﴿ وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ سماعا يصل معناه إلى قلوبهم ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الذين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿ كَالأَنْعَامِ ﴾ البهائم فقدت خاصية العقل ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ من البهائم فهي مستعملة فيما خلقت له ولها أذهان تدرك بها مضرتها من منفعتها ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ الذين غفلوا عن الإيمان بالله وطاعته وذكره. خلقت لهم الأفئدة والأسماع والأبصار لتكون عونا لهم على القيام بأوامر الله وحقوقه، فاستعانوا بها على ضد هذا المقصود. فهؤلاء حقيقون بأن يكونوا ممن ذرأ الله لجهنم وخلقهم لها.

﴿ 180 ﴾ ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

[20] وهذا الذي آتاه الله آياته، يحتمل أن المراد به شخص معين قد كان منه ما ذكره الله، فقص الله قصته تنبيها للعباد. ويحتمل أن المراد بذلك أنه اسم جنس، وأنه شامل لكل من آتاه الله آياته فانسلخ منها. وفي هذه الآيات الترغيب في العمل بالعلم، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه، وعصمة من الشيطان، والترهيب من عدم العمل به، وأنه نـزول إلى أسفل سافلين، وتسليط للشيطان عليه، وفيه أن اتباع الهوى، وإخلاد العبد إلى الشهوات، يكون سببا للخذلان.

﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ هذا بيان لعظيم جلاله وسعة أوصافه بأن له الأسماء الحسنى. كل اسم دال على صفة كمال عظيمة، وبذلك كانت حسنى[21]. ومن تمام كونها "حسنى" أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال ﴿ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة. فيدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب[22] ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي عقوبة وعذابا على إلحادهم في أسمائه، وحقيقة الإلحاد الميل بها عما جعلت له، إما بأن يسمى بها من لا يستحقها، كتسمية المشركين بها لآلهتهم، وإما بنفي معانيها وتحريفها، وأن يجعل لها معنى ما أراده الله ولا رسوله، وإما أن يشبه بها غيرها، فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها، ويحذر الملحدون فيها، وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم (أن لله تسعة وتسعين اسما، من أحصاها دخل الجنة).

﴿ 181-186 ﴾ ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ * أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ * مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾ من جملة من خلقنا أمة فاضلة كاملة في نفسها، مكملة لغيرها، يهدون أنفسهم وغيرهم بالحق، فيعلمون الحق ويعملون به، ويعلِّمونه، ويدعون إليه وإلى العمل به ﴿ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ بين الناس في أحكامهم إذا حكموا في الأموال والدماء والحقوق والمقالات ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ الدالة على صحة ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، من الهدى فردوها ولم يقبلوها ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴾ بأن يدر لهم الأرزاق ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ أُمهِلُهُم حتى يظنوا أنهم لا يؤخذون ولا يعاقبون، فيزدادون كفرا وطغيانا، وبذلك تزيد عقوبتهم، فيضرون أنفسهم من حيث لا يشعرون، ولهذا قال ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أي قوي بليغ ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ أَوَ لَمْ يُعْمِلُوا أفكارهم وينظروا هل في صاحبهم الذي يعرفونه ولا يخفى عليهم من حاله شيء، هل هو مجنون؟[23] ﴿ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ يدعو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب، ويحصل لهم الثواب ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فإنهم إذا نظروا إليها، وجدوها أدلة دالة على توحيد ربها، وعلى ما له من صفات الكمال ﴿ وَ ﴾ كذلك لينظروا إلى جميع ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فإن جميع أجزاء العالم، يدل أعظم دلالة على الله وقدرته وحكمته

---

[21] فكل اسم من أسمائه دال على جميع الصفة التي اشتق منها، مستغرق لجميع معناها. فاسم العليم يدل على أن له علما محيطا عاما لجميع الأشياء، فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. والرحيم يدل على أن له رحمة عظيمة، واسعة لكل شيء. والقدير يدل على أن له قدرة عامة لا يعجزها شيء.

[22] فيقول الداعي مثلا اللّهم اغفر لي وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم، وتب عَلَيَّ يا تواب، وارزقني يا رزاق، والطف بي يا لطيف ونحو ذلك

[23] فلينظروا في أخلاقه وهديه، فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا أتمها، ولا من العقل والرأي إلا ما فاق به العالمين، ولا يدعو إلا لكل خير، ولا ينهى إلا عن كل شر

وسعة رحمته، وإحسانه، ونفوذ مشيئته ﴿ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ لينظروا في خصوص حالهم، وينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم، ويفجأهم الموت وهم في غفلة معرضون، فلا يتمكنون حينئذ من استدراك الفارط ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل، فبأي حديث يؤمنون به؟ ﴿ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي متحيرين يترددون، لا يخرجون منه ولا يهتدون إلى حق.

﴿187-188﴾ ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ. قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ المكذبون لك، المتعنتون ﴿ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ متى وقتها الذي تجيء به، ومتى تحل بالخلق ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ إنه تعالى مختص بعلمها ﴿ لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ ﴾ لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم فيه إلا هو ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ خفي علمها على أهل السماوات والأرض، واشتد أمرها أيضا عليهم، فهم من الساعة مشفقون ﴿ لا تَأْتِيكُمْ إِلا بَغْتَةً ﴾ فجأة من حيث لا تشعرون، لم يستعدوا لها، ولم يتهيأوا لقيامها ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ هم حريصون على سؤالك عن الساعة، كأنك مستحف عن السؤال عنها، ولم يعلموا أنك لكمال علمك بربك، وما ينفع السؤال عنه غير مبال بالسؤال عنها، ولا حريص على ذلك، فلم لا يقتدون بك، ويكفون عن الاستحفاء عن هذا السؤال الخالي من المصلحة المتعذر علمه، فإنه لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب. وهي من الأمور التي أخفاها الله عن الخلق، لكمال حكمته وسعة علمه ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ فلذلك حرصوا على ما لا ينبغي الحرص عليه، ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يدركه ﴿ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا ﴾ فإني فقير مدبر، لا يأتيني خير إلا من الله، ولا يدفع عني الشر إلا هو، وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالى ﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾ لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ ، ولحذرت من كل ما يفضي إلى سوء ومكروه لعلمي بالأشياء قبل كونها وعلمي بما تفضي إليه ﴿ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ ﴾ أنذر العقوبات الدينية والدنيوية والأخروية، وأبين الأعمال المفضية إلى ذلك، وأحذر منها ﴿ وَبَشِيرٌ ﴾ بالثواب العاجل والآجل، ببيان الأعمال الموصلة إليه والترغيب فيها ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنذارة.

﴿189-193﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ

﴿ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ أيها الرجال والنساء، المنتشرون في الأرض على كثرتكم وتفرقكم ﴿ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ وهو آدم أبو البشر صلى الله عليه وسلم ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ خلق من آدم زوجته حواء لأجل أن يسكن إليها لأنها إذا كانت منه حصل بينهما من المناسبة والموافقة ما يقتضي سكون أحدهما إلى الآخر، فانقاد كل منهما إلى صاحبه بزمام الشهوة ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ أي تجللها مجامعا لها قدَّر الباري أن يوجد من تلك الشهوة وذلك الجماع النسل، وحينئذ ﴿ حَمَلَتْ حَمْلا خَفِيفًا ﴾ وذلك في ابتداء الحمل، لا تحس به الأنثى ولا يثقلها ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا ﴾ استمرت به و ﴿ أَثْقَلَتْ ﴾ به حين كبر في بطنها، صار في قلوبهما الشفقة على الولد وعلى خروجه حيا صحيحا سالما لا آفة فيه ﴿ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا ﴾ ولدا ﴿ صَالِحًا ﴾ صالح الخلقة تامها لا نقص فيه ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا ﴾ على وفق ما طلبا، وتمت عليهما النعمة فيه ﴿ جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ جعلا لله شركاء في ذلك الولد الذي انفرد الله بإيجاده وأقرَّ به أعين والديه، فَعَبَّدَاه لغير الله بشرك الأقوال أو الأفعال ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أفلا يستحق أن يعبدوه ولا يشركوا به في عبادته أحدا، ويخلصوا له الدين ﴿ أَيُشْرِكُونَ ﴾ ولكن الأمر جاء على العكس، فأشركوا بالله ﴿ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ. وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ ﴾ أي لعابديها ﴿ نَصْرًا وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ فإذا كانت لا تخلق شيئا، ولا مثقال ذرة، بل هي مخلوقة، ولا تستطيع أن تدفع المكروه عن من يعبدها، بل ولا عن أنفسها، فكيف تتخذ مع الله آلهة؟ ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ ﴾ أيها المشركون هذه الأصنام التي عبدتم من دون الله ﴿ إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾.

﴿ 194-196﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نزلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ لا فرق بينكم وبينهم، فكلكم عبيد لله مملوكون، فإن كنتم كما تزعمون صادقين في أنها تستحق من العبادة شيئا ﴿ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فإن استجابوا لكم وحصلوا مطلوبكم، وإلا تبين أنكم كاذبون في هذه الدعوى ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ وهذا لا يحتاج إلى التبيين فيه، فإذا كانت لا تجيبكم بل أنتم أكمل منها وأقوى على كثير من الأشياء عبدتموها فلأي شيء عبدتموها ﴿ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ ﴾ اجتمعوا

أنتم وشركاؤكم على إيقاع السوء والمكروه بي، من غير إمهال ولا إنظار فإنكم غير بالغين لشيء من المكروه بي ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ ﴾ الذي يتولاني فيجلب لي المنافع ويدفع عني المضار ﴿ الَّذِي نزلَ الْكِتَابَ ﴾ الذي فيه الهدى والشفاء والنور ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ الذين صلحت نياتهم وأعمالهم وأقوالهم.

﴿ 197-198﴾ ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ. وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَسْمَعُوا ﴾ فلو دعوت هذه الأصنام إلى الهدى لم تهتد، فإذا تأملتها عرفت أنها جمادات لا حراك بها ولا حياة، فبأي رأي اتخذها المشركون آلهة مع الله. وقيل إن معنى قوله ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ أن الضمير يعود إلى المشركين المكذبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتحسبهم ينظرون إليك يا رسول الله نظر اعتبار يتبين به الصادق من الكاذب، ولكنهم لا يبصرون حقيقتك وما فيك من الجمال والكمال والصدق.

﴿ 199 ﴾ ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾

﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس أن يأخذ العفو وما سمحت به أنفسهم فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله، فمن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فَصِلْهُ، ومن ظلمك فاعدل فيه.

﴿ 200 – 202 ﴾ ﴿ وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ ﴾

﴿ وَإِمَّا ﴾ أي وقت، وفي أي حال ﴿ يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ ﴾ أي تحس منه بوسوسة وتثبيط عن الخير أو حث على الشر وإيعاز إليه ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ التجئ واعتصم بالله واحتم بحماه فـ ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لما تقول ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنيتك وضعفك وقوة التجائك له، فسيحميك من فتنته ويقيك من وسوسته ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ والمتقي إذا مسه طائف من الشيطان فأذنب بفعل محرم أو ترك واجب ﴿ تَذَكَّرُوا ﴾ تذكر من أي باب أُتِيَ، ومن أي مدخل دخل الشيطان عليه ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ فأبصر واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه

بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئا ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ ﴾ إخوان الشياطين وأولياؤهم ﴿ يَمُدُّونَهُمْ ﴾ إذا وقعوا ﴿ فِي الْغَيِّ ﴾ لأنها طمعت فيهم حين رأتهم سلسي القياد لها ﴿ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ ﴾ وهم لا يقصرون عن فعل الشر.

﴿203﴾ ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ ﴾ من آيات الاقتراح التي يعينونها ﴿ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ هلا اخترت الآية، كأنك أنت المنزل للآيات، ولم يعلموا أنه ليس لك من الأمر شيء. أو أن المعنى لولا اخترعتها من نفسك ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ﴾ فأنا عبد متبع مدبَّر، والله تعالى هو الذي ينزل الآيات ويرسلها على حسب ما اقتضاه حمده، وطلبتْه حكمته البالغة فـ ﴿ هَذَا ﴾ القرآن العظيم ﴿ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يستبصر به وهو الدليل والمدلول، تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿204﴾ ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له بأن يلقي سمعه، ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع ﴿ وَأَنْصِتُوا ﴾ بترك ما يشغل عن استماعه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيرا كثيرا[24].

﴿205- 206﴾ ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ * إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾

﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾ الذكر لله تعالى يكون بالقلب ويكون باللسان ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله. فأمر الله عبده ورسوله محمدا أصلا وغيره تبعا بذكر ربه في نفسه مخلصا خاليا ﴿ تَضَرُّعًا ﴾ بلسانك، مكررا لأنواع الذكر ﴿ وَخِيفَةً ﴾ في قلبك بأن تكون خائفا من الله، وَجِلَ القلب منه ﴿ وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ كن متوسطا، لا تجهر بصلاتك، ولا تخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلا ﴿ بِالْغُدُوِّ ﴾ أول النهار ﴿ وَالآصَالِ ﴾ آخره، وهذان الوقتان لذكر الله فيهما مزية وفضيلة على غيرهما ﴿ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم. فينبغي للعبد الإكثار من ذكر الله آناء الليل والنهار، خصوصا طَرَفَي النهار، مخلصا خاشعا متضرعا، متذللا ساكنا، مع إحضار

---

[24] ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما. فدل ذلك على أن من تُلِيَ عليه الكتاب فلم يستمع له وينصت أنه محروم الحظ من الرحمة. ومن أوكد ما يؤمر به مستمع القرآن أن يستمع له وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه، حتى إن أكثر العلماء يقولون إن الإنصات أولى من قراءته الفاتحة وغيرها.

قلب وعدم غفلة. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ من الملائكة المقربين وحملة العرش. ذكر تعالى أن له عبادا مستديمين لعبادته هم الملائكة، فالله لا يريد أن يتكثر بعبادتكم من قلة، وإنما يريد نفع أنفسكم، وأن تربحوا عليه أضعاف أضعاف ما عملتم ﴿ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ بل يذعنون لها وينقادون لأوامر ربهم ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ الليل والنهار لا يفترون ﴿ وَلَهُ ﴾ وحده لا شريك له ﴿ يَسْجُدُونَ ﴾ فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكرام.

تم مختصر تفسير سورة الأعراف

ولله الحمد والشكر والثناء.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

8

مختصر تفسير سورة الأنفال

عدد آياتها 75

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-4 ﴾ ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنْفَالِ قُلِ الأنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنْفَالِ ﴾ الأنفال هي الغنائم التي ينفلها الله لهذه الأمة من أموال الكفار، وكانت هذه الآيات في هذه السورة قد نـزلت في قصة بدر أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين، فحصل بين بعض المسلمين فيها نـزاع، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها، فأنـزل الله ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ الأنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ يضعانها حيث شاءا، فلا اعتراض لكم على حكم الله ورسوله. بل عليكم إذا حكم الله ورسوله أن ترضوا بحكمهما وذلك داخل في قوله ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابر، بالتوادد والتحاب والتواصل. والأمر الجامع لذلك كله قوله ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فإن الإيمان يدعو إلى طاعة الله ورسوله، كما أن من لم يطع الله ورسوله فليس بمؤمن. وقد ذكر الإيمان الكامل فقال ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ خافت فأوجبت لهم خشية الله تعالى الانكفاف عن المحارم ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ ﴾ وحده لا شريك له ﴿ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ يعتمدون في قلوبهم على ربهم. والتوكل هو الحامل للأعمال كلها، فلا توجد ولا تكمل إلا به ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ﴾ من فرائض ونوافل ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ النفقات الواجبة والمستحبة ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الذين اتصفوا بتلك الصفات ﴿ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق الله وحقوق عباده. ثم ذكر ثواب المؤمنين حقا فقال ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ عالية بحسب علو أعمالهم ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ وهو ما أعد الله لهم في دار كرامته. ودل هذا على أن من يصل إلى درجتهم في الإيمان وإن دخل الجنة فلن ينال ما نالوا من كرامة الله التامة.

﴿ 5-8 ﴾ ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾.

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ أخرج الله رسوله صلى الله عليه وسلم من بيته إلى لقاء المشركين في بدر بالحق الذي يحبه الله تعالى. وقد قدره وقضاه، وإن كان المؤمنون لم يخطر ببالهم في ذلك الخروج أنه يكون بينهم وبين عدوهم قتال ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ فحين تبين لهم أن ذلك واقع جعل فريق من المؤمنين ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ هذا وكثير من المؤمنين لم يجر منهم من هذه المجادلة شيء، ولا كرهوا لقاء عدوهم. وكذلك الذين عاتبهم الله، انقادوا للجهاد أشد الانقياد، وثبتهم الله. وكان أصل خروجهم يتعرضون لعير خرجت مع أبي سفيان بن حرب لقريش إلى الشام، قافلة كبيرة، فلما سمعوا برجوعها من الشام، ندب النبي صلى الله عليه وسلم الناس، فخرج معه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا معهم سبعون بعيرا، يعتقبون عليها ويحملون عليها متاعهم. فسمعت بخبرهم قريش فخرجوا لمنع عيرهم، في عَدَدٍ كثير وعُدَّةٍ وافرة من السلاح والخيل والرجال، يبلغ عددهم قريبا من الألف ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ ﴾ وعد الله المؤمنين ﴿ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ إما أن يظفروا بالعير أو بالنفير ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ فأحبوا العير لقلة ذات يد المسلمين، ولأنها غير ذات شوكة. ولكن الله تعالى أحب لهم وأراد أن يظفروا بالنفير الذي خرج فيه كبراء المشركين وصناديدهم ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ فينصر أهله ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ يستأصل أهل الباطل، ويُرِيَ عباده من نصره للحق أمرا لم يكن يخطر ببالهم ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ بما يظهر من الشواهد والبراهين على صحته وصدقه ﴿ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ﴾ بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ فلا يبالي الله بهم.

﴿ 9-14 ﴾ ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾.

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ اذكروا نعمة الله عليكم لما قارب التقاؤكم بعدوكم استغثتم بربكم وطلبتم منه أن يعينكم وينصركم ﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ وأغاثكم بعدة أمور منها ﴿ أَنِّي ﴾ أن الله ﴿ مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ يردف بعضهم بعضا ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ ﴾ أي إنزال الملائكة ﴿ إِلا بُشْرَى ﴾ لتستبشر بذلك نفوسكم ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ فالنصر بيد الله، ليس بكثرة عَدَدٍ ولا عُدَدٍ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ لا يغالبه مغالب بل هو القهار ﴿ حَكِيمٌ

﴾ حيث قدر الأمور بأسبابها، ووضع الأشياء مواضعها. ومن نصره واستجابته لدعائكم ﴿ إِذْ ﴾ أنزل عليكم ﴿ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ ﴾ فيذهب ما في قلوبكم من الخوف والوجل، ويكون ﴿ أَمَنَةً ﴾ لكم وعلامة على النصر والطمأنينة ﴿ وَ ﴾ من ذلك أنه ﴿ يُنزلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ مطرا ﴿ لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ من الحدث والخبث ﴿ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ ﴾ وساوس و ﴿ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ يثبتها فإن ثبات القلب أصل ثبات البدن ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأقْدَامَ ﴾ فإن الأرض كانت سهلة دهسة فلما نزل عليها المطر تلبدت، وثبتت به الأقدام. ومن ذلك ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ بالعون والنصر والتأييد ﴿ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ألهموهم الجراءة على عدوهم، ورغبوهم في الجهاد وفضله ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ وهو أعظم جند لكم عليهم ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأعْنَاقِ ﴾ على الرقاب ﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ مفصل. وهذا خطاب إما للملائكة الذين أوحى الله إليهم أن يثبتوا الذين آمنوا فيكون في ذلك دليل أنهم باشروا القتال يوم بدر، أو للمؤمنين يشجعهم الله ويعلمهم كيف يقتلون المشركين ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ومن عقابه تسليط أوليائه على أعدائه وتقتيلهم ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ العذاب المذكور ﴿ فَذُوقُوهُ﴾ أيها المشاققون لله ورسوله عذابا معجلا ﴿ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾.

﴿ 15-16 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا ﴾ في صف القتال ﴿ فَلا تُوَلُّوهُمُ الأدْبَارَ ﴾ بل اثبتوا لقتالهم فإن في ذلك نصرة لدين الله، وقوة لقلوب المؤمنين، وإرهابا للكافرين ﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ ﴾ رجع ﴿ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ ﴾ مقره ﴿ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ وهذا يدل على أن الفرار من الزحف من غير عذر من أكبر الكبائر. ومفهوم الآية أن المتحرف للقتال الذي ينحرف من جهة إلى أخرى ليكون أمكن له في القتال، فإنه لا بأس بذلك. وأن المتحيز إلى فئة تمنعه وتعينه على قتال الكفار، فإن ذلك جائز. فإن كانت الفئة في العسكر، فالأمر في هذا واضح. وإن كانت الفئة في غير محل المعركة كانهزام المسلمين بين يدي الكافرين والتجائهم إلى بلد من بلدان المسلمين أو إلى عسكر آخر من عسكر المسلمين، فقد ورد من آثار الصحابة ما يدل على أن هذا جائز، ولعل هذا يقيد بما إذا ظن المسلمون أن الانهزام أحمد عاقبة، وأبقى عليهم. أما إذا ظنوا غلبتهم للكفار في ثباتهم لقتالهم، فيبعد - في هذه الحال -أن تكون من الأحوال المرخص فيها، لأنه - على هذا - لا يتصور الفرار المنهي عنه، وهذه الآية مطلقة، وسيأتي في آخر السورة تقييدها بالعدد.

﴿ 17-19 ﴾ ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ * إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾ بحولكم وقوتكم لما انهزم المشركون يوم بدر، وقتلهم المسلمون ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ حيث أعانكم على ذلك بما تقدم ذكره ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل العريش وقت القتال وجعل يدعو الله ويناشده في نصرته ثم خرج منه فأخذ حفنة من تراب، فرماها في وجوه المشركين، فأوصلها الله إلى وجوههم. فما بقي منهم واحد إلا وقد أصاب وجهه وفمه وعينيه منها. فحينئذ انكسر حدهم فانهزموا. يقول تعالى لنبيه: لست بقوتك حين رميت التراب أوصلته إلى أعينهم، وإنما أوصلناه إليهم بقوتنا واقتدارنا ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا ﴾ إن الله تعالى قادر على انتصار المؤمنين من الكافرين، من دون مباشرة قتال. ولكن الله أراد أن يمتحن المؤمنين، ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، ويعطيهم أجرا حسنا وثوابا جزيلا ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ يسمع ما أسر به العبد وما أعلن ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما في قلبه من النيات الصالحة وضدها فيجزي كلا بحسب نيته وعمله ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ النصر من الله لكم ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ مضعف كل مكر وكيد يكيدون به الإسلام وأهله، وجاعل مكرهم محيقا بهم ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا ﴾ أيها المشركون وتطلبوا من الله أن يوقع بأسه وعذابه على المعتدين الظالمين ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ حين أوقع الله بكم من عقابه، ما كان نكالا لكم وعبرة للمتقين ﴿ وَإِنْ تَنْتَهُوا ﴾ عن الاستفتاح ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ لأنه ربما أمهلتم، ولم يعجل لكم النقمة ﴿ وإن تعودوا ﴾ إلى الاستفتاح وقتال حزب الله المؤمنين ﴿ نَعُدْ ﴾ في نصرهم عليكم ﴿ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ ﴾ أعوانكم وأنصاركم الذين تحاربون معتمدين عليهم ﴿ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ 20-21 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ بامتثال أمرهما واجتناب نهيهما ﴿ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ عن طاعة الله ورسوله ﴿ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ ما يتلى عليكم من كتاب الله، فتوليكم في هذه الحال من أقبح الأحوال ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾ فليس الإيمان بالتمني والتحلي، ولكنه ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال.

﴿ 22-23 ﴾ ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾.

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ من لم تفد فيهم الآيات والنذر وهم ﴿ الصُّمُّ ﴾ عن استماع الحق ﴿ الْبُكْمُ ﴾ عن النطق به ﴿ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾ ما ينفعهم ويؤثرونه على ما يضرهم. فهؤلاء شر عند الله من جميع الدواب، لأن الله أعطاهم أسماعا وأبصارا وأفئدة، ليستعملوها في طاعة الله، فاستعملوها في معاصيه. والسمع الذي نفاه الله عنهم هو سمع المعنى المؤثر في القلب، لأنه لم يعلم فيهم خيرا يصلحون به لسماع آياته ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ على الفرض والتقدير ﴿ لَتَوَلَّوْا ﴾ عن الطاعة ﴿ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ لا التفات لهم إلى الحق بوجه من الوجوه. وهذا دليل على أن الله تعالى لا يمنع الإيمان والخير إلا لمن لا خير فيه.

﴿ 24-25 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم وهو الانقياد لما أمرا به والمبادرة إلى ذلك والدعوة إليه، والاجتناب لما نهيا عنه والانكفاف عنه والنهي عنه ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه. ثم حذر عن عدم الاستجابة لله وللرسول فقال ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ فإياكم أن تردوا أمر الله أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك. وتختلف قلوبكم، فإن الله يحول بين المرء وقلبه، يقلب القلوب حيث شاء ويصرفها أنى شاء [1] ﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ تجمعون ليوم لا ريب فيه فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بعصيانه ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ بل تصيب فاعل الظلم وغيره، لأنه إذا ظهر الظلم فلم يُغير، فإن عقوبته تعم الفاعل وغيره ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لمن تعرض لمساخطه، وجانب رضاه.

﴿ 26 ﴾ ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ مقهورون تحت حكم غيركم ﴿ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ ﴾ يأخذونكم ﴿ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ فجعل لكم بلدا تأوون إليه، وانتصر من أعدائكم على أيديكم، وغنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الله على منته العظيمة بأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا.

[1] فليكثر العبد من قول *"يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب، اصرف قلبي إلى طاعتك"*.

﴿ 27 – 28﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما ائتمنهم الله عليه من أوامره ونواهيه ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ولما كان العبد ممتحنا بأمواله وأولاده، فربما حمله محبة ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته، أخبر الله تعالى أن الأموال والأولاد فتنة يبتلي الله بهما عباده، وأنها عارية ستؤدى لمن أعطاها، وترد لمن استودعها ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ فالعاقل يوازن بين الأشياء، ويؤثر أولاها بالإيثار، وأحقها بالتقديم.

﴿ 29 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئا كثيرا فذكر هنا أن من اتقى الله حصل له أربعة أشياء، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها: 1- ﴿ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال. 2- ﴿ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ 3- ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر. 4- ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن اتقاه وآثر رضاه على هوى نفسه.

﴿ 30 ﴾ ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾.

﴿ وَ ﴾ أذكر أيها الرسول ما منَّ الله به عليك ﴿ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ حين تشاور المشركون في دار الندوة فيما يصنعون بالنبي صلى الله عليه وسلم، إما ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ عندهم بالحبس ويوثقوه ﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ ويجلوه من ديارهم. ثمَّ اتفق رأيهم على رأي شريرهم أبو جهل لعنه الله، وهو أن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش فتى فيقتله الجميع قتلة رجل واحد ليتفرق دمه في القبائل ويرضى بنو هاشم بديته. فترصدوا للنبي صلى الله عليه وسلم في الليل ليوقعوا به إذا قام من فراشه. فجاءه الوحي من السماء وخرج عليهم فذرَّ على رءوسهم التراب وخرج. ومنع الله رسوله منهم. وأذن له في الهجرة إلى المدينة، فهاجر إليها. وأيده الله بأصحابه المهاجرين والأنصار. ولم يزل أمره يعلو حتى دخل مكة عنوة، وقهر أهلها، فأذعنوا له وصاروا تحت حكمه، بعد أن خرج مستخفيا منهم، خائفا على نفسه ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾.

﴿ 31 - 34 ﴾ ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ * وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَمَا لَهُمْ أَلا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ الدالة على صدق ما جاء به الرسول ﴿ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ ﴾ وهذا من عنادهم وظلمهم، وإلا فقد تحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثله فتبين عجزهم. وقد علم أنه صلى الله عليه وسلم أُمّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، ولا رحل ليدرس من أخبار الأولين، فأتى بهذا الكتاب الجليل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا ﴾ الذي يدعو إليه محمد ﴿ هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قالوه على وجه الجزم منهم بباطلهم، والجهل بما ينبغي من الخطاب. فلو أنهم قالوا لمن ناظرهم: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له، لكان أولى لهم وأستر لظلمهم ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ فوجوده صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم أمنة لهم من العذاب. وكانوا مع قولهم هذه المقالة التي يظهرونها على رءوس الأشهاد، يدرون بقبحها، فكانوا يخافون من وقوعها فيهم، فيستغفرون الله تعالى فلهذا قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم، بعد ما انعقدت أسبابه ثم قال ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾ أي شيء يمنعهم من عذاب الله، وقد فعلوا ما يوجب ذلك ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ وهو صد الناس عن المسجد الحرام، خصوصا صدهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين هم أولى به منهم، ولهذا قال ﴿ وَمَا كَانُوا ﴾ أي المشركون ﴿ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى الله، أي أولياء الله. ويحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام، أي وما كانوا أولى به من غيرهم ﴿ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلا الْمُتَّقُونَ ﴾ وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وأفردوا الله بالتوحيد والعبادة، وأخلصوا له الدين ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ فلذلك ادَّعَوْا لأنفسهم أمرا غيرهم أولى به.

﴿ 35 ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.

﴿ وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ ﴾ وأما هؤلاء المشركون الذين يصدون عنه فما كان صلاتهم فيه ﴿ إِلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ صفيرا وتصفيقا، فعل جهلة أغبياء ليس في قلوبهم تعظيم لربهم، ولا احترام لأفضل البقاع وأشرفها ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.

﴿ 36-37 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ليبطلوا الحق وينصروا الباطل ﴿ فَسَيُنْفِقُونَهَا ﴾ فسيصدرون هذه النفقة، وتخف عليهم لتمسكهم بالباطل وشدة بغضهم للحق ﴿ ثُمَّ ﴾ ولكنها ﴿ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ وندامة ويغلبون ﴿ ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ فتذهب أموالهم وما أملوا ويعذبون في الآخرة أشد العذاب ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ يجمعون إليها ليذوقوا عذابها، لأنها دار الخبث والخبثاء ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ ﴾ يريد أن يميز ﴿ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ ﴾ من الأعمال والأموال والأشخاص ﴿ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿ 38-40 ﴾ ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾.

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا ﴾ عن كفرهم وذلك بالإسلام لله وحده لا شريك له ﴿ يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ منهم من الجرائم ﴿ وَإِنْ يَعُودُوا ﴾ إلى كفرهم وعنادهم ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ بإهلاك الأمم المكذبة ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ شرك وصد عن سبيل الله، ويذعنوا لأحكام الإسلام ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين، حتى يكون هو العالي على سائر الأديان ﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا ﴾ عن ما هم عليه من الظلم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ لا تخفى عليه منهم خافية ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ عن الطاعة ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى ﴾ الذي يتولى عباده المؤمنين ﴿ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ الذي ينصرهم، ومن كان الله مولاه وناصره فلا خوف عليه، ومن كان الله عليه فلا عِزَّ له ولا قائمة له.

الجزء العاشر 10

من 41 سورة الأنفال إلى التوبة 92

﴿ 41 - 42 ﴾ ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِذْ أَنْتُمْ

﴿ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أخذتم من مال الكفار قهرا بحق، قليلا كان أو كثيرا ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ أضاف الغنيمة إليهم وأخرج منها خمسها فدل على أن الباقي لهم، يقسم على ما قسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم: للراجل سهم، وللفارس سهمان لفرسه وسهم له. وأما هذا الخمس فيقسم خمسة أسهم سهم لله ﴿ وَلِلرَّسُولِ ﴾ ولرسوله يصرف لعباد الله في مصالح المسلمين العامة ﴿ وَ ﴾ الخمس الثاني ﴿ لِذِي الْقُرْبَى ﴾، وهم قرابة النبي صلى الله عليه وسلم من بني هاشم وبني المطلب، ﴿ وَ ﴾ الخمس الثالث لـ ﴿ الْيَتَامَى ﴾ ، وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغار ﴿ وَ ﴾ الخمس الرابع لـ ﴿ الْمَسَاكِينِ ﴾ المحتاجين الفقراء ﴿ وَ ﴾ الخمس الخامس لـ ﴿ ابْنِ السَّبِيلِ ﴾ الغريب المنقطع به في غير بلده. ويقول بعض المفسرين إن خمس الغنيمة لا يخرج عن هذه الأصناف ولا يلزم أن يكونوا فيه على السواء بل ذلك تبع للمصلحة وهذا هو الأولى. وجعل الله أداء الخمس على وجهه شرطا للإيمان فقال ﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ وهو يوم بدر الذي فرق الله به وأظهر الحق وأبطل الباطل ﴿ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ جمع المسلمين وجمع الكافرين. أي إن كان إيمانكم بالله، وبالحق الذي أنزله الله على رسوله يوم الفرقان، ما دل على أن ما جاء به هو الحق ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يغالبه أحد إلا غلبه ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾ بعدوة الوادي القريبة من المدينة ﴿ وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾ أي جانبه البعيدة من المدينة، فقد جمعكم واد واحد ﴿ وَالرَّكْبُ ﴾ الذي خرجتم لطلبه، وأراد الله غيره ﴿ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ مما يلي ساحل البحر ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ ﴾ أنتم وإياهم على هذا الوصف وبهذه الحال ﴿ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾ لا بد من تقدم أو تأخر أو اختيار منزل، أو غير ذلك ﴿ وَلَكِنْ ﴾ الله جمعكم على هذه الحال ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ مقدرا في الأزل، لا بد من وقوعه ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ ليكون حجة وبينة للمعاند، ولا يبقى له عذر عند الله ﴿ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ يزداد المؤمن بصيرة ويقينا، بما أرى الله الطائفتين من أدلة الحق وبراهينه ما هو تذكرة لأولي الألباب ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ ﴾ لجميع الأصوات ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بالظواهر والضمائر والسرائر والغيب والشهادة.

﴿ 43 – 44 ﴾ ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾ وكان الله قد أرى رسوله المشركين في الرؤيا عددا قليلا، فبشر بذلك أصحابه فاطمأنت قلوبهم وتثبتت أفئدتهم ﴿ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ ﴾ إياهم ﴿ كَثِيرًا ﴾ فأخبرت بذلك أصحابك ﴿ لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ ووقع من الاختلاف والتنازع ما يوجب الفشل ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾ فلطف بكم ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

بما فيها من ثبات وجزع وصدق وكذب ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِم ﴾ فكل من الطائفتين ترى الأخرى قليلة، لتقدم كل منهما على الأخرى ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ من نصر المؤمنين وخذلان الكافرين وقتل قادتهم ورؤساء الضلال منهم، ولم يبق منهم أحد له اسم يذكر، فيتيسر بعد ذلك انقيادهم إذا دعوا إلى الإسلام، فصار أيضا لطفا بالباقين، الذين مَنَّ الله عليهم بالإسلام ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ جميع أمور الخلائق ترجع إلى الله، فيميز الخبيث من الطيب، ويحكم في الخلائق بحكمه العادل، الذي لا جور فيه ولا ظلم.

﴿ 45 - 49 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾ طائفة من الكفار تقاتلكم ﴿ فَاثْبُتُوا ﴾ لقتالها ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ استعينوا على ذلك بالإكثار من ذكر الله ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تدركون ما تطلبون من الانتصار على أعدائكم ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في استعمال ما أمرا به، والمشي خلف ذلك في جميع الأحوال ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا ﴾ تنازعا يوجب تشتت القلوب وتفرقها ﴿ فَتَفْشَلُوا ﴾ تجبنوا ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ تنحل عزائمكم وتفرق قوتكم ﴿ وَاصْبِرُوا ﴾ نفوسكم على طاعة الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بالعون والنصر والتأييد ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ليصدوا عن سبيل الله ﴿ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ فلذلك أخبركم بمقاصدهم، وحذركم أن تشبهوا بهم، فليكن قصدكم في خروجكم وجه الله تعالى وإعلاء دين الله ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ حسَّنها في قلوبهم وخدعهم ﴿ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ﴾ فإنكم في عَدَدٍ وعُدَدٍ وهيئة لا يقاومكم فيها محمد ومن معه ﴿ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾ من أن يأتيكم أحد ممن تخشون غائلته، لأن إبليس قد تبدَّى لقريش في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي، وكانوا يخافون من بني مدلج لعداوة كانت بينهم. فقال لهم الشيطان أنا جار لكم، فاطمأنت نفوسهم ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ ﴾ المسلمون والكافرون، فرأى الشيطان جبريل عليه السلام يزع الملائكة خاف خوفا شديدا و﴿ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ ولى مدبرا ﴿ وَقَالَ ﴾ لمن خدعهم وغرهم ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ أرى الملائكة الذين لا يدان لأحد بقتالهم ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ﴾ أخاف أن يعاجلني بالعقوبة في الدنيا ﴿ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ومن المحتمل أن يكون الشيطان، قد سول لهم ووسوس في صدورهم أنه لا غالب لهم وأنه جار لهم، فلما أوردهم مواردهم نكص عنهم وتبرأ منهم ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ شك وشبهة للمؤمنين حين أقدموا مع قِلَّتهم على

قتال المشركين مع كثرتهم ﴿ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾ أوردهم الذين الذي هم عليه هذه الموارد التي لا استطاعة لهم بها ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ لا يغالب قوته قوة ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما قضاه وأجراه.

﴿ 50 - 52 ﴾ ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ﴾ ولو ترى الذين كفروا بآيات الله حين توفاهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم وقد اشتد بهم القلق وعظم كربهم و ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ يقولون لهم أخرجوا أنفسكم، ونفوسهم متمنعة مستعصية على الخروج، لعلمها ما أمامها ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ الشديد المحرق بما قدمت أيديكم من المعاصي ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ ذلك العذاب حصل لكم بما قدمت أيديكم من المعاصي، غير ظلم ولا جور من ربكم ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم المكذبة ﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ﴾ بالعقاب ﴿ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لا يعجزه أحد يريد أخذه.

﴿ 53 - 54 ﴾ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾

﴿ ذَلِكَ ﴾ العذاب الذي أوقعه الله بالأمم المكذبين وأزال عنهم ما هم فيه من النعم والنعيم، بسبب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ ﴾ من نعم الدين والدنيا، بل يبقيها ويزيدهم منها، إن ازدادوا له شكرا ﴿ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ من الطاعة إلى المعصية فيكفروا نعمة الله ويبدلوها كفرا، فيسلبهم إياها ويغيرها عليهم كما غيروا ما بأنفسهم ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ سواء من أسر القول ومن جهر به، فيجري على عباده من الأقدار ما اقتضاه علمه وجرت به مشيئته ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ وقومه ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ حين جاءتهم ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ كل بحسب جرمه ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ ﴾ من المهلكين المعذبين ﴿ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ لأنفسهم، ساعين في هلاكها.

﴿ 55 - 57 ﴾ ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ * فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال الثلاث الكفر، وعدم الإيمان، والخيانة، بحيث لا يثبتون على عهد عاهدوه

ولا قول قالوه، هم شر الدواب عند الله لأن الخير معدوم منهم، والشر متوقع فيهم. فإذهاب هؤلاء ومحقهم هو المتعين، لئلا يسري داؤهم لغيرهم ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ ﴾ تجدنهم في حال المحاربة، بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق ﴿ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ﴾ نكل بهم غيرهم، وأوقع بهم من العقوبة ما يصيرون به عبرة لمن بعدهم ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ أي من خلفهم ﴿ يَذَّكَّرُونَ ﴾ صنيعهم، لئلا يصيبهم ما أصابهم. ومن فوائد العقوبات أنها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصي، بل وزجرا لمن عملها أن لا يعاودها. ودل تقييد هذه العقوبة في الحرب أن الكافر ولو كان كثير الخيانة سريع الغدر أنه إذا أُعْطِيَ عهدا لا يجوز خيانته وعقوبته.

﴿ 58 ﴾ ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ وإذا كان بينك وبين قوم عهد وميثاق على ترك القتال فخفت منهم خيانة، بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة ﴿ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ ﴾ عهدهم وارمه عليهم وأخبرهم أنه لا عهد بينك وبينهم ﴿ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ حتى يستوي علمك وعلمهم بذلك، ولا يحل لك أن تغدرهم، أو تسعى في شيء مما منعه موجب العهد حتى تخبرهم بذلك ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ بل يبغضهم أشد البغض، فلا بد من أمر بيّنٍ يبرئكم من الخيانة. ودلت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة المحققة منهم لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم. ودل مفهومها أيضا أنه إذا لم يُخَفْ منهم خيانة، بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك، أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته.

﴿ 59 ﴾ ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لا يحسب الكافرون بربهم المكذبون بآياته، أنهم ﴿ سَبَقُوا ﴾ الله فـ ﴿ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ والله لهم بالمرصاد.

﴿ 60 ﴾ ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ ﴾ لأعدائكم الكفار ﴿ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ كل ما تقدرون عليه ﴿ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ عقلية وبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يعين على قتالهم[2] ﴿ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ فإذا كان شيء موجود معدة للقتال وتكون النكاية فيها أشد، كانت مأمورا بالاستعداد بها والسعي لتحصيلها[3] ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ ممن تعلمون أنهم أعداؤكم ﴿ وَآخَرِينَ

---

[2] فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات والحصون والرأي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم وتَعَلُّم الرَّمْيِ والشجاعة والتدبير

[3] حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلُّم الصناعة وجب ذلك، لأن ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب

﴿ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ﴾ ممن سيقاتلونكم بعد هذا الوقت الذي يخاطبهم الله به ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم. ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذلك النفقات المالية في جهاد الكفار ولهذا قال تعالى مرغبا في ذلك ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قليلا كان أو كثيرا ﴿ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ أجره يوم القيامة مضاعفا أضعافا كثيرة، حتى إن النفقة في سبيل الله، تضاعف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ لا تنقصون من أجرها وثوابها شيئا.

﴿ 61 - 64 ﴾ ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا ﴾ الكفار المحاربون أي مالوا﴿ لِلسَّلْمِ ﴾ الصلح وترك القتال ﴿ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أجبهم إلى ما طلبوا متوكلا على ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة منها أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك كان أولى لإجابتهم، ومنها أن في ذلك استعدادا منكم لقتالهم في وقت آخر، إن احتيج لذلك، ومنها أنكم إذا أصلحتم وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه. فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان. ولا يخاف من السلم إلا أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴾ كافيك ما يؤذيك، وهو القائم بمصالحك ومهماتك فـ ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ أعانك بمعونة سماوية، ومعونة بالمؤمنين بأن قيضهم لنصرك ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ فاجتمعوا وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ لتأليفهم بعد تلك النفرة والفرقة الشديدة ﴿ مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ لأنه لا يقدر على تقليب القلوب إلا الله تعالى ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ومن عزته أن ألف بين قلوبهم، وجمعها بعد الفرقة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ﴾ كافيك ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وكافي أتباعك من المؤمنين.

﴿ 65 - 66 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ حثهم وأنهضهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم وينشط هممهم من الترغيب في الجهاد ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يكون الواحد بنسبة عشرة من الكفار، وذلك ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بأن الكفار ﴿ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ لا علم عندهم

بما أعد الله للمجاهدين في سبيله، فهم يقاتلون لأجل العلو في الأرض والفساد فيها، وأنتم تفقهون المقصود من القتال أنه لإعلاء كلمة الله وإظهار دينه، وهذه كلها دواع للشجاعة والصبر والإقدام على القتال ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ فلذلك اقتضت رحمته وحكمته التخفيف ﴿ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بعونه وتأييده. وهذه الآيات صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين، بأنهم إذا بلغوا هذا المقدار المعين يغلبون ذلك المقدار المعين في مقابلته من الكفار، وأن الله يمتن عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية. ولكن معناها وحقيقتها أن الله أمر المؤمنين في البداية أن الواحد لا يجوز له أن يفر من العشرة، والعشرة من المائة، والمائة من الألف. ثم إن الله خفف ذلك، فصار لا يجوز فرار المسلمين من مثليهم من الكفار، فإن زادوا على مثليهم جاز لهم الفرار، ولكن يرد على هذا أمران: أحدهما: أنها بصورة الخبر، وأن المقصود بذلك الامتنان والإخبار بالواقع. والثاني: تقييد ذلك العدد أن يكونوا صابرين بأن يكونوا متدربين على الصبر. ومفهوم هذا أنهم إذا لم يكونوا صابرين، فإنه يجوز لهم الفرار، ولو أقل من مثليهم إذا غلب على ظنهم الضرر كما تقتضيه الحكمة الإلهية. ويجاب عن الأول بأن قوله الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ إلى آخرها، دليل على أن هذا أمر لازم وأمر محتم، ثم إن الله خففه إلى ذلك العدد. فهذا ظاهر في أنه أمر، وإن كان في صيغة الخبر. وقد يقال إن في إتيانه بلفظ الخبر، نكتة بديعة لا توجد فيه إذا كان بلفظ الأمر، وهي تقوية قلوب المؤمنين، والبشارة بأنهم سيغلبون الكافرين. ويجاب عن الثاني أن المقصود بتقييد ذلك بالصابرين، أنه حث على الصبر، وأنه ينبغي منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك. فإذا فعلوها صارت الأسباب الإيمانية والأسباب المادية مبشرة بحصول ما أخبر الله به من النصر لهذا العدد القليل.

﴿ 67 -69 ﴾ ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ما ينبغي[4] ولا يليق به إذا قاتل الكفار الذين يريدون أن يطفئوا نور الله ويسعوا لإخماد دينه أن يتسرع إلى أسرهم وإبقائهم لأجل الفداء الذي يحصل منهم، وهو عرض قليل بالنسبة إلى المصلحة المقتضية لإبادتهم وإبطال شرهم، فما دام لهم شر وصولة، فالأوفق أن لا يؤسروا. فإذا أثخنوا، وبطل شرهم فحينئذ لا بأس بأخذ الأسرى منهم وإبقائهم ﴿ تُرِيدُونَ ﴾ بأخذكم الفداء وإبقائهم ﴿ عَرَضَ الدُّنْيَا ﴾ لا لمصلحة تعود إلى دينكم ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ بإعزاز دينه فيأمركم بما يوصل إلى ذلك ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ كامل العزة، ولو شاء أن ينتصر من الكفار من دون قتال لفعل، لكنه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يبلي بعضكم ببعض ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ ﴾ به القضاء والقدر، أنه قد أحل لكم الغنائم، وأن الله رفع عنكم أيها الأمة العذاب ﴿ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ.

[4] هذه معاتبة من الله لرسوله وللمؤمنين يوم بدر إذ أسروا المشركين وأبقوهم لأجل الفداء، وكان رأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في هذه الحال، قتلهم واستئصالهم، فقال تعالى

﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة، أن أحل لها الغنائم ولم يحلها لأمة قبلها ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في جميع أموركم ولازموها، شكرا لنعم الله عليكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ يغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب، ويغفر لمن لم يشرك به شيئا جميع المعاصي ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بكم، حيث أباح لكم الغنائم وجعلها حلالا طيبا.

﴿ 70 - 71 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ ﴾ نزلت في أسارى يوم بدر، وكان في جملتهم العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما طلب منه الفداء، ادَّعى أنه مسلم قبل ذلك، فلم يسقطوا عنه الفداء، فأنزل الله تعالى جبرا لخاطره ومن كان على مثل حاله، بأن ييسر لكم من فضله، خيرا وأكثر مما أخذ منكم ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ذنوبكم ويدخلكم الجنة ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وقد أنجز الله وعده للعباس وغيره، فحصل له بعد ذلك من المال شيء كثير، حتى إنه مرة لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم مال كثير، أتاه العباس فأمره أن يأخذ منه بثوبه ما يطيق حمله، فأخذ منه ما كاد أن يعجز عن حمله ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ ﴾ في السعي لحربك ومنابذتك ﴿ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم وهم تحت قبضته ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بكل شيء ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يضع الأشياء مواضعها.

﴿ 72 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ هذا عقد موالاة ومحبة، عقدها الله بين المهاجرين الذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله، وبين الأنصار الذين آووا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأعانوهم في ديارهم وأموالهم وأنفسهم. بعضهم أولياء بعض، لكمال إيمانهم

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ﴾ فلما لم يهاجروا لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شيء، لكنهم ﴿ وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ لأجل قتال من قاتلهم لأجل دينهم ﴿ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ﴾ والقتال معهم. وأما من قاتلوهم لغير ذلك من المقاصد فليس عليكم نصرهم ﴿ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾ عهد بترك القتال. فإنهم إذا أراد المؤمنون الذين لم يهاجروا قتالهم، فلا تعينوهم عليهم، لأجل ما بينكم وبينهم من الميثاق ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ يعلم ما أنتم عليه من الأحوال، فيشرع لكم من الأحكام ما يليق بكم.

﴿ 73 ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ جمع الكفر بين الكفار، فبعضهم أولياء لبعض فلا يواليهم إلا كافر مثلهم ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ ﴾ أي موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين، بأن واليتموهم كلهم أو عاديتموهم كلهم، أو واليتم الكافرين وعاديتم المؤمنين ﴿ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ فإنه يحصل بذلك من الشر ما لا ينحصر من اختلاط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وعدم كثير من العبادات الكبار، كالجهاد والهجرة، وغير ذلك من مقاصد الشرع والدين التي تفوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض.

﴿ 74 - 75 ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ ﴾ المؤمنون من المهاجرين والأنصار ﴿ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ لأنهم صدقوا إيمانهم بما قاموا به من الهجرة والنصرة والموالاة بعضهم لبعض، وجهادهم لأعدائهم من الكفار والمنافقين ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ من الله تمحى بها سيئاتهم ﴿ وَ ﴾ لهم ﴿ رِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ خير كثير في جنات النعيم. وربما حصل لهم من الثواب المعجل ما تقر به أعينهم، وتطمئن به قلوبهم ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ ﴾ من جاء بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار، ممن اتبعهم بإحسان فآمن وهاجر وجاهد في سبيل الله ﴿ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم. فهذه الموالاة الإيمانية - وقد كانت في أول الإسلام - لها وقع كبير وشأن عظيم، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم آخى بين المهاجرين والأنصار أخوة خاصة، غير الأخوة الإيمانية العامة، وحتى كانوا يتوارثون بها، فأنزل الله ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ ﴾ فلا يرثه إلا أقاربه من العصبات وأصحاب الفروض، فإن لم يكونوا، فأقرب قراباته من ذوي الأرحام، كما دل عليه عموم هذه الآية الكريمة وقوله ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ في حكمه وشرعه ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ومنه ما يعلمه من أحوالكم التي يجري من شرائعه الدينية عليكم ما يناسبها.

تم تفسير سورة الأنفال

ولله الحمد

9

مختصر تفسير سورة براءة

ويقال: سورة التوبة،

عدد آياتها 129

وهي مدنية

﴿ 1 - 2 ﴾ ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾

﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ ﴾ جميع ﴿ الْمُشْرِكِينَ ﴾ المعاهدين ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ على اختياركم أيها المشركون ﴿ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ آمنين من المؤمنين. وبعد الأربعة الأشهر فلا عهد لهم، ولا ميثاق. وهذا لمن كان له عهد مطلق غير مقدر، أو مقدر بأربعة أشهر فأقل، أما من كان له عهد مقدر بزيادة على أربعة أشهر، فإن الله يتعين أن يتمم له عهده إذا لم يخف منه خيانة، ولم يبدأ بنقض العهد. ثم أنذر المعاهدين في مدة عهدهم: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ ولن يفوتوه وإن كانوا آمنين ﴿ وَأَنَّ ﴾ من استمر منهم على شركه فإن ﴿ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ فكان هذا مما يجلبهم إلى الدخول في الإسلام، إلا من عاند وأصر ولم يبال بوعيد الله له.

﴿ 3 ﴾ ﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ﴾ فأمر النبي مؤذنه أن يؤذن يوم الحج الأكبر، وهو يوم النحر وقت اجتماع الناس مسلمهم وكافرهم من جميع جزيرة العرب، أن يؤذن بـ ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ فليس لهم عنده عهد وميثاق، فأينما وجدوا قتلوا. وقيل لهم: لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا، وكان ذلك سنة تسع من الهجرة[1]. ثم رغب تعالى المشركين بالتوبة، ورهبهم من الاستمرار على الشرك ﴿ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ

1 هذا ما وعد الله به المؤمنين، من نصر دينه وإعلاء كلمته، وخذلان أعدائهم من المشركين الذين أخرجوا الرسول ومن معه من مكة، من بيت الله الحرام، وأجلوهم، مما لهم التسلط عليه من أرض الحجاز. نصر الله رسوله والمؤمنين حتى افتتح مكة، وأذل المشركين،

تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ أي فائتيه بل أنتم في قبضته قادر أن يسلط عليكم عباده المؤمنين ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي مؤلم في الدنيا بالقتل والأسر والجلاء، وفي الآخرة بالنار وبئس القرار.

﴿ 4 ﴾ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ هذه البراءة التامة المطلقة من جميع المشركين إلا الذين استمروا على عهدهم ﴿ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا ﴾ ولم يجر منهم ما يوجب النقض، فلا نقصوكم شيئا ﴿ وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾ ولا عاونوا عليكم أحدا ﴿ فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ ﴾ فهؤلاء أتموا لهم عهدهم إلى مدتهم، قَلَّتْ أو كثرت، لأن الإسلام لا يأمر بالخيانة وإنما يأمر بالوفاء ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ الذين أدوا ما أمروا به، واتقوا الشرك والخيانة وغير ذلك من المعاصي.

﴿ 5 ﴾ ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ ﴾ أي التي حرم فيها قتال المشركين المعاهدين، وهي أشهر التسيير الأربعة، وتمام المدة لمن له مدة أكثر منها، فقد برئت منهم الذمة ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ في أي مكان وزمان ﴿ وَخُذُوهُمْ ﴾ أسرى ﴿ وَاحْصُرُوهُمْ ﴾ أي ضيقوا عليهم، فلا تدعوهم يتوسعون في بلاد الله وأرضه، التي جعلها الله معبدا لعباده ﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ أي كل ثنية وموضع يمرون عليه، ورابطوا في جهادهم وابذلوا غاية مجهودكم في ذلك، ولا تزالوا على هذا الأمر حتى يتوبوا من شركهم ﴿ فَإِنْ تَابُوا ﴾ من شركهم ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أي أدوها بحقوقها ﴿ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ لمستحقيها[2] ﴿ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ أي اتركوهم وليكونوا مثلكم، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يغفر الشرك فما دونه للتائبين ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة ثم قبولها منهم.

﴿ 6 ﴾ ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

وصار للمؤمنين الحكم والغلبة على تلك الديار. وحج بالناس أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وأذن ببراءة -يوم النحر- ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

[2] وفي هذه الآية، دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة، فإنه يقاتل حتى يؤديهما، كما استدل بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ ﴾ أي طلب منك أن تجيره وتمنعه من الضرر لأجل أن يسمع كلام الله وينظر حالة الإسلام. وجاءت الآية بعدما كان ما تقدم من قوله ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ أمرا عاما في جميع الأحوال وفي كل الأشخاص منهم، ذكر تعالى هنا أن المصلحة إذا اقتضت تقريب بعضهم جاز، بل وجب ذلك، فقال ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ ثم إن أسلم، فذاك وإلا ﴿ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ أي المحل الذي يأمن فيه ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي الكفار ﴿ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فربما كان استمرارهم على كفرهم لجهل منهم، إذا زال اختاروا عليه الإسلام. فلذلك أمر الله رسوله، وأمته أسوته في الأحكام، أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله[3].

﴿ 7 ﴾ ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ ﴾ هذا بيان للحكمة الموجبة لأن يتبرأ الله ورسوله من المشركين. أما حاربوا الحق ونصروا الباطل؟ فيحق عليهم أن يتبرأ الله منهم ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ ﴾ من المشركين ﴿ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ فإن لهم في العهد وخصوصا في هذا المكان الفاضل حرمة، أوجب أن يراعوا فيها ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾.

﴿ 8 - 11 ﴾ ﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ كَيْفَ ﴾ يكون للمشركين عند الله عهد وميثاق ﴿ وَ ﴾ الحال أنهم ﴿ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ بالقدرة والس لطة لا يرحموكم و ﴿ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ أي لا ذمة ولا قرابة، ولا يخافون الله فيكم. ولا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم فإنهم ﴿ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ ﴾ الميل والمحبة لكم، بل هم الأعداء حقا ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ لا ديانة لهم ولا مروءة ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ اختاروا الحظ العاجل الخسيس في الدنيا على الإيمان بالله ورسوله ﴿ فَصَدُّوا ﴾ بأنفسهم وصدوا غيرهم﴿ عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ أي لأجل عداوتهم للإيمان ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ. فَإِنْ تَابُوا ﴾ عن شركهم ورجعوا إلى الإيمان ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ فتناسوا تلك العداوة لتكونوا عباد الله

---

[3] وفي هذا حجة صريحة لمذهب أهل السنة والجماعة، القائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، لأنه تعالى هو المتكلم به، وأضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها، وبطلان مذهب المعتزلة ومن أخذ بقولهم: أن القرآن مخلوق. وكم من الأدلة الدالة على بطلان هذا القول، ليس هذا محل ذكرها

المخلصين ﴿ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ أي نوضحها ونميزها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ اللهم اجعلنا من القوم الذين يعلمون، ويعملون بما يعلمون، برحمتك وجودك وكرمك وإحسانك يا رب العالمين.

﴿ 12 - 15 ﴾ ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ * أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ ﴾ جاءت الآية بعدما ذكر تعالى أن المعاهدين من المشركين إن استقاموا على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء. أما إذا نقضوها وحلوها، فقاتلوكم أو أعانوا على قتالكم أو نقصوكم ﴿ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ أي عابوه وسخروا منه ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ أي القادة فيه، وخصهم بالذكر لعظم جنايتهم ولأن غيرهم تبع لهم، وليدل على أن من طعن في الدين فإنه من أئمة الكفر ﴿ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ ﴾ لا يزالون خائنين ناكثين للعهد لا يوثق منهم ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ في قتالكم إياهم ﴿ يَنْتَهُونَ ﴾ عن الطعن في دينكم، وربما دخلوا فيه ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ﴾ الذي يجب احترامه وتوقيره وتعظيمه؟ وهم هموا أن يجلوه ويخرجوه من وطنه وسعوا في ذلك ما أمكنهم ﴿ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ حيث نقضوا العهد وأعانوا عليكم، وذلك حيث عاونت قريش -وهم معاهدون- بني بكر حلفاء هم على خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقاتلوا معهم، كما هو مذكور في السيرة ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ﴾ في ترك قتالهم ﴿ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ ﴾ فامتثلوا لأمر الله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ثم أمر بقتالهم وذكر ما يترتب على قتالهم من الفوائد، وكل هذا حث وإنهاض للمؤمنين على قتالهم، فقال ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ بالقتل ﴿ وَيُخْزِهِمْ ﴾ إذا نصركم الله عليهم، وهم الأعداء الذين يطلب خزيهم ﴿ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ هذا وعد من الله وبشارة قد أنجزها ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ. وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ فإن في قلوبهم من الحنق والغيظ عليهم ما يكون قتالهم وقتلهم شفاء لما في قلوب المؤمنين من الغم والهم، إذ يرون هؤلاء الأعداء ساعين في إطفاء نور الله، وهذا يدل على محبة الله لعباده المؤمنين، حتى إنه جعل شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم من جملة المقاصد الشرعية ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ من هؤلاء المحاربين، بأن يوفقهم للدخول في الإسلام ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ يضع الأشياء مواضعها ﴿ حَكِيمٌ ﴾ ويعلم من يصلح للإيمان فيهديه، ومن لا يصلح فيبقيه في غيه وطغيانه.

﴿ 16 ﴾ ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا ﴾ من دون ابتلاء وامتحان، يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد ما أمرهم بالجهاد ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ﴾ علما يترتب عليه الثواب والعقاب، فيعلم الذين يجاهدون في سبيله ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ أي وليا من الكافرين، بل يتخذون الله ورسوله والمؤمنين أولياء ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يعلم ما يصير منكم ويصدر، فيبتليكم بما يظهر به حقيقة ما أنتم عليه، ويجازيكم على أعمالكم خيرها وشرها.

﴿ 17 - 18 ﴾ ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾

﴿ مَا كَانَ ﴾ أي ما ينبغي ولا يليق ﴿ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾ بالعبادة والصلاة وغيرها من أنواع الطاعات، فإذا كانوا ﴿ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ﴾ وعدم الإيمان الذي هو شرط لقبول الأعمال، فكيف يزعمون أنهم عُمَّارُ مساجد الله، والأصل منهم مفقود، والأعمال منهم باطلة ﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ بطلت وضلت ﴿ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ ثم ذكر من هم عمار مساجد الله ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ﴾ الواجبة والمستحبة بالقيام بالظاهر منها والباطن ﴿ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ لأهلها ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ أي قصر خشيته على ربه، فكف عما حرم الله ولم يقصر بحقوق الله الواجبة ﴿ فَعَسَى ﴾ وعسى من الله واجبة ﴿ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ وأما من لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا عنده خشية لله، فهذا ليس من عمار مساجد الله، ولا من أهلها الذين هم أهلها وإن زعم ذلك.

﴿ 19 - 22 ﴾ ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾ أي سقيهم الماء من زمزم، كما هو المعروف إذا أطلق هذا الاسم أنه المراد ﴿ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فالجهاد والإيمان بالله أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بدرجات كثيرة، لأن الإيمان أصل الدين وبه تقبل الأعمال. وأما الجهاد في سبيل الله فهو ذروة سنام الدين، الذي به يحفظ الدين الإسلامي ويتسع. وأما عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج فهي، وإن كانت أعمالا صالحة، متوقفة على الإيمان، وليس فيها من المصالح ما في الإيمان والجهاد ﴿ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا

﴿ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الذين وصفهم الظلم، الذين لا يصلحون لقبول شيء من الخير، بل لا يليق بهم إلا الشر. ثم صرح بالفضل فقال ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ ﴾ بالنفقة في الجهاد وتجهيز الغزاة ﴿ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ بالخروج بالنفس ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ أي لا يفوز بالمطلوب ولا ينجو من المرهوب، إلا من اتصف بصفاتهم وتخلق بأخلاقهم ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ جودا منه وكرما وبرا بهم ﴿ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ ﴾ أزال بها عنهم الشرور وأوصل إليهم كل خير ﴿وَرِضْوَانٍ ﴾ منه تعالى عليهم، الذي هو أكبر نعيم الجنة وأجله، فيحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبدا ﴿وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴾ مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله تعالى، الذي منه أن الله أعد للمجاهدين في سبيله مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ولو اجتمع الخلق في درجة واحدة منها لوسعتهم ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ لا ينتقلون عنها، ولا يبغون عنها حوَلًا ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لا تستغرب كثرته على فضل الله، ولا يتعجب من عظمه وحسنه على من يقول للشيء كن فيكون.

﴿ 23 - 24 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ اعملوا بمقتضى الإيمان، بأن توالوا من قام به، وتعادوا من لم يقم به و﴿ لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ ﴾ الذين هم أقرب الناس إليكم، وغيرهم من باب أولى وأحرى، فلا تتخذوهم ﴿ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا ﴾ أي اختاروا على وجه الرضا والمحبة ﴿ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ لأنهم تجرؤوا على معاصي الله، واتخذوا أعداء الله أولياء، وأصل الولاية: المحبة والنصرة، وذلك أن اتخاذهم أولياء، موجب لتقديم طاعتهم على طاعة الله، ومحبتهم على محبة الله ورسوله ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ ﴾ ومثلهم الأمهات ﴿ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ ﴾ في النسب والعشرة ﴿ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ أي قراباتكم عموما ﴿ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ أي اكتسبتموها وتعبتم في تحصيلها، خصها بالذكر لأنها أرغب عند أهلها، وصاحبها أشد حرصا عليها ممن تأتيه الأموال من غير تعب ولا كدّ ﴿ وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ أي رخصها ونقصها، وهذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب وغير ذلك ﴿ وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا ﴾ من حسنها وزخرفتها وموافقتها لأهوائكم، فإن كانت هذه الأشياء ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ﴾ فأنتم فسقة ظلمة ﴿ فَتَرَبَّصُوا ﴾ أي انتظروا ما يحل بكم من العقاب ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ الذي لا مرد له ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي الخارجين عن طاعة الله، المقدمين على محبة الله شيئا من المذكورات.

﴿ 25 – 27 ﴾ ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ وهو اسم للمكان الذي كانت فيه الوقعة بين مكة والطائف[4] ﴿ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ﴾ لم تفدكم شيئا ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ ﴾ بما أصابكم من الهم والغم حين انهزمتم ﴿ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي على رحبها وسعتها ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾ منهزمين. ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ والسكينة ما يجعله الله في القلوب وقت القلاقل والزلازل والمفظعات، مما يثبتها ويسكنها ويجعلها مطمئنة، وهي من نعم الله العظيمة على العباد ﴿ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ وهم الملائكة، أنزلهم الله معونة للمسلمين يوم حنين يثبتونهم ويبشرونهم بالنصر ﴿ وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالهزيمة والقتل ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ يعذبهم الله في الدنيا، ثم يردهم في الآخرة إلى عذاب غليظ ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ فتاب الله على كثير ممن كانت الوقعة عليهم، وأتوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم مسلمين تائبين، فرد عليهم نساءهم، وأولادهم ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ ذو مغفرة واسعة يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين ﴿ رَحِيمٌ ﴾ رحمة عامة، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة والطاعة، وقبول توباتهم. فلا ييأسنَّ أحد من مغفرته ورحمته، ولو فعل من الذنوب والإجرام ما فعل.

﴿ 28 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ ﴾ بالله الذين عبدوا معه غيره ﴿ نَجَسٌ ﴾ خبثاء في عقائدهم وأعمالهم، وأي نجاسة[5] أبلغ ممن يعبد مع الله آلهة لا تغني عنه شيئا ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم ﴿ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ وهو سنة تسع من الهجرة، فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها

---

[4] يمتن تعالى على عباده المؤمنين، بنصره إياهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء، ومواضع الحروب والهيجاء، حتى في يوم {حنين} الذي اشتدت عليهم فيه الأزمة، ورأوا من التخاذل والفرار ما ضاقت عليهم به الأرض على رحبها وسعتها. وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة، سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه، فسار إليهم صلى الله عليه وسلم في أصحابه الذين فتحوا مكة، وممن أسلم من الطلقاء أهل مكة، فكانوا اثني عشر ألفا، والمشركون أربعة آلاف، فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم، وقال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة. فلما التقوا هم وهوازن، حملوا على المسلمين حملة واحدة، فانهزموا لا يلوي أحد على أحد، ولم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا نحو مائة رجل، ثبتوا معه، وجعلوا يقاتلون المشركين، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم، يركض بغلته نحو المشركين ويقول: {أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب}. ولما رأى من المسلمين ما رأى، أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادي في الأنصار وبقية المسلمين، وكان رفيع الصوت، فناداهم: يا أصحاب السمرة، يا أهل سورة البقرة. فلما سمعوا صوته، عطفوا عطفة رجل واحد، فاجتلدوا مع المشركين، فهزم الله المشركين، هزيمة شنيعة، واستولوا على معسكرهم ونسائهم وأموالهم.

[5] وليس المراد هنا، نجاسة البدن، فإن الكافر كغيره طاهر البدن، بدليل أن الله تعالى أباح وطء الكتابية ومباشرتها، ولم يأمر بغسل ما أصاب منها. والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار، ولم ينقل عنهم أنهم تقذروا منها، تَقَذُّرَهُمْ من النجاسات، وإنما المراد كما تقدم نجاستهم المعنوية، بالشرك، فكما أن التوحيد والإيمان، طهارة، فالشرك نجاسة.

عنهم[6]. وذلك حين حج بالناس أبو بكر الصديق، وبعث النبي صلى الله عليه وسلم ابن عمه عليا، أن يؤذن يوم الحج الأكبر ببراءة فنادى أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ أيها المسلمون ﴿ عَيْلَةً ﴾ فقرا وحاجة، من منع المشركين من قربان المسجد الحرام بأن تنقطع الأسباب التي بينكم وبينهم من الأمور الدنيوية ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ فليس الرزق مقصورا على باب واحد ومحل واحد، بل لا ينغلق باب إلا وفتح غيره أبواب كثيرة، فإن فضل الله واسع خصوصا لمن ترك شيئا لوجهه الكريم، فإن الله أكرم الأكرمين. وقد أنجز الله وعده، فإن الله قد أغنى المسلمين من فضله، وبسط لهم من الأرزاق ما كانوا به من أكبر الأغنياء والملوك. وقوله ﴿ إِنْ شَاءَ ﴾ تعليق للإغناء بالمشيئة، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين إلا من يحب. ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ علمه واسع، يعلم من يليق به الغنى ومن لا يليق ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها.

﴿ 29 ﴾ ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾

﴿ قَاتِلُوا ﴾ هذه الآية أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى من ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إيمانا صحيحا يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم ﴿ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ فلا يتبعون شرعه في تحريم المحرمات ﴿ وَلَا يَدِينُونَ ﴾ بالدين الصحيح ﴿ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ وإن زعموا أنهم على دين، فإنه دين غير الحق، لأنه إما بين دين مبدل وهو الذي لم يشرعه الله أصلا، وإما دين منسوخ قد شرعه الله ثم غيره بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم، فيبقى التمسك به بعد النسخ غير جائز. فأمره بقتال هؤلاء ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ ﴾ أي المال جزاء لترك المسلمين قتالهم وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم بين أظهر المسلمين، يؤخذ منهم كل عام كلٌّ على حسب حاله من غني وفقير ومتوسط، كما فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره، من أمراء المؤمنين. وقوله ﴿ عَنْ يَدٍ ﴾ أي حتى يبذلوها في حال ذلهم، وعدم اقتدارهم، ويعطونها بأيديهم، فلا يرسلون بها خادما ولا غيره، بل لا تقبل إلا من أيديهم ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ فإذا كانوا بهذه الحال، وسألوا المسلمين أن يقروهم بالجزية، واستسلموا للشروط التي أجراها عليهم المسلمون مما ينفي عزهم وتكبرهم ويوجب ذلهم وصغارهم، وجب على الإمام

---

[6] وتدل الآية الكريمة، وهي قوله { فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا } أن المشركين بعد ما كانوا هم الملوك والرؤساء بالبيت، ثم صار بعد الفتح الحكم لرسول الله والمؤمنين، مع إقامتهم في البيت، ومكة المكرمة، ثم نزلت هذه الآية. ولما مات النبي صلى الله عليه وسلم أمر أن يجلوا من الحجاز، فلا يبقى فيها دينان، وكل هذا لأجل بُعْدِ كل كافر عن المسجد الحرام.

أو نائبه أن يعقدها لهم. وإلا بأن لم يفوا، ولم يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، لم يجز إقرارهم بالجزية بل يقاتلون حتى يسلموا[7].

﴿ 30 - 33 ﴾ ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ ﴾ قالها فرقة منهم ﴿ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ مما يدل على أن في اليهود من الخبث والشر ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة[8] التي تجرأوا فيها على الله ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ﴾ عيسى ابن مريم ﴿ ابْنُ اللَّهِ ﴾ قال الله تعالى ﴿ ذَلِكَ ﴾ القول الذي قالوه هو ﴿ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ لم يقيموا عليه حجة ولا برهانا ﴿ يُضَاهِئُونَ ﴾ أي يشابهون في قولهم هذا ﴿ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي قول المشركين الذين يقولون الملائكة بنات الله، تشابهت قلوبهم فتشابهت أقوالهم في البطلان ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ كيف يصرفون على الحق إلى القول الباطل المبين. وهذا وإن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة، أن تتفق على قول يدل على بطلانه أدنى تفكر وتسليط للعقل عليه، فإن لذلك سببا وهو أنهم ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ﴾ وهم علماؤهم ﴿ وَرُهْبَانَهُمْ ﴾ العُبَّاد المتجردين للعبادة ﴿ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ يشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها ﴿ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ اتخذوه إلها من دون الله، والحال أنهم خالفوا في ذلك أمر الله لهم على ألسنة رسله ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فيخلصون له العبادة والطاعة، ويخصونه بالمحبة والدعاء ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ وتعالى ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تنزه وتقدس، وتعالت عظمته عن شركهم وافترائهم. فلما تبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه، وإنما هو مجرد افتراء افتروه أخبر أنهم ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ بهذا ﴿ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ وسماه الله نورا لأنه يستنار به في ظلمات الجهل. فهؤلاء اليهود والنصارى ومن ضاهوه من المشركين يريدون أن يطفئوا نور الله بمجرد أقوالهم، التي ليس عليها دليل ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ﴾ لأنه النور الباهر، الذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا

---

7 واستدل بهذه الآية الجمهور الذين يقولون: لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، لأن الله لم يذكر أخذ الجزية إلا منهم. وأما غيرهم فلم يذكر إلا قتالهم حتى يسلموا، وألحق بأهل الكتاب في أخذ الجزية وإقرارهم في ديار المسلمين، المجوس، فإن النبي صلى الله عليه وسلم، أخذ الجزية من مجوس هجر، ثم أخذها أمير المؤمنين عمر من الفرس المجوس. وقيل إن الجزية تؤخذ من سائر الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، لأن هذه الآية نزلت بعد الفراغ من قتال العرب المشركين، والشروع في قتال أهل الكتاب ونحوهم، فيكون هذا القيد إخبارا بالواقع، لا مفهوما له. ويدل على هذا أن المجوس أخذت منهم الجزية وليسوا أهل كتاب، ولأنه قد تواتر عن المسلمين من الصحابة ومن بعدهم أنهم يدعون من يقاتلونهم إلى إحدى ثلاث: إما الإسلام، أو أداء الجزية، أو السيف، من غير فرق بين كِتَابِيٍّ وغيره.

8 وقد قيل: إن سبب ادعائهم في { عزير } أنه ابن الله، أنه لما سلط الله الملوك على بني إسرائيل، ومزقوهم كل ممزق، وقتلوا حَمَلَةَ التوراة، وجدوا عزيرا بعد ذلك حافظا لها أو لأكثرها، فأملاها عليهم من حفظه، واستنسخوها، فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة.

على إطفائه أن يطفئوه ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ فإن سعيهم لا يضر الحق شيئا ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ﴾ الذي هو العلم النافع ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ الذي هو العمل الصالح. فكان ما بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم مشتملا على بيان الحق من الباطل والأمر بكل مصلحة نافعة والأمر بمكارم الأخلاق والنهي عن كل ما يضاد ذلك ويناقضه ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ليعليه على سائر الأديان وإن كره المشركون ذلك.

﴿ 34 - 35 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ ﴾ العلماء والعباد ﴿ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ بغير حق ﴿ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فيكون أخذهم لها على هذا الوجه سحتا وظلما، فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم إلا ليدلوهم إلى الطريق المستقيم ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ﴾ أي يمسكونها ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي طرق الخير[9] الموصلة إلى الله ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ثم فسره بقوله ﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا ﴾ أي على أموالهم ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ فيحمى كل دينار أو درهم على حدته ﴿ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ في يوم القيامة كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويقال لهم توبيخا ولوما ﴿ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ فما ظلمكم ولكنكم ظلمتم أنفسكم[10] وعذبتموها بهذا الكنز.

﴿ 36 ﴾ ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ في قضائه وقدره ﴿ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ وهي هذه الشهور المعروفة ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أي في حكمه القدري ﴿ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ وقدر أوقاتها فقسمها على هذه الشهور الاثني عشر ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ وهي رجب الفرد، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وسميت حرما لزيادة حرمتها، وتحريم القتال فيها ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى الاثنى عشر شهرا، لتعمر بطاعته وبشكر الله تعالى على مِنَّتِهِ بها، فلتحذروا من ظلم أنفسكم فيها. ويحتمل أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم، وأن هذا نهي لهم عن الظلم فيها، خصوصا مع النهي عن الظلم كل وقت، لزيادة تحريمها وكون الظلم فيها أشد منه في

---

[9] وهذا هو الكنز المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات، أو الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت.

[10] وذكر الله في هاتين الآيتين، انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين: إما أن ينفقه في الباطل الذي لا يجدي عليه نفعا، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تعين على طاعة الله، وإخراجها للصد عن سبيل الله. وإما أن يمسك ماله عن إخراجه في الواجبات.

غيرها. ومن ذلك النهي عن القتال فيها، على قول من قال: إن القتال في الأشهر الحرام لم ينسخ تحريمه عملا بالنصوص العامة في تحريم القتال فيها. ومنهم من قال إن تحريم القتال فيها منسوخ أخذا بعموم نحو قوله تعالى ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ أي قاتلوا جميع أنواع المشركين والكافرين برب العالمين. ولا تخصوا أحدا منهم بالقتال دون أحد، بل اجعلوهم كلهم لكم أعداء كما كانوا هم معكم كذلك. ويحتمل أن ﴿ كَافَّةً ﴾ حال من الواو فيكون معنى هذا: وقاتلوا جميعكم المشركين، فيكون فيها وجوب النفير على جميع المؤمنين. وقد نسخت على هذا الاحتمال بقوله وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴿ واعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ بعونه ونصره وتأييده، فلتحرصوا على استعمال تقوى الله في سركم وعلنكم والقيام بطاعته خصوصا عند قتال الكفار.

﴿ 37 ﴾ ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ ﴾ فقد رأوا بآرائهم الفاسدة وبدع أهل الجاهلية الباطلة أن يؤخروا بعض الأشهر الحرم، أو يقدموه ليحلوا القتال فيه، وجعلوا الشهر الحلال حراما. فهذا كما أخبر الله ﴿ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ لما فيه من المحاذير[11] ﴿ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ ليوافقوها في العدد ﴿ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ﴾ أي زينت لهم الشياطين الأعمال السيئة فرأوها حسنة ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ الذين انصبغ الكفر والتكذيب في قلوبهم.

﴿ 38 - 39 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ألا تعملون بمقتضى الإيمان[12] وجهاد أعدائه والنصرة لدينكم، فـ ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ تكاسلتم وملتم إلى الأرض والدعة والسكون فيها ﴿ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ﴾ أي ما حالكم إلا حال من رضي بالدنيا وسعى لها ولم يبال بالآخرة، فكأنه ما آمن بها ﴿ فَمَا مَتَاعُ

- [11] أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله بريئان منه.
- أنهم قلبوا الدين، فجعلوا الحلال حراما والحرام حلالا.
- أنهم مَوَّهوا على الله بزعمهم وعلى عباده، ولبسوا عليهم دينهم، واستعملوا الخداع والحيلة في دين الله.
- أن العوائد المخالفة للشرع يزول قبحها عن النفوس عند الاستمرار عليها، وربما ظن أنها عوائد حسنة، فحصل من الغلط والضلال ما حصل، ولهذا قال: { يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ } أي: ليوافقوها في العدد، فيحلوا ما حرم الله.

[12] اعلم أن كثيرا من هذه السورة الكريمة، نزلت في غزوة تبوك، إذ ندب النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى غزو الروم، وكان الوقت حارا، والزاد قليلا، والمعيشة عسرة، فحصل من بعض المسلمين من التثاقل ما أوجب أن يعاتبهم الله تعالى عليه ويستنهضهم

﴿ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ التي مالت بكم وقدمتموها على الآخرة ﴿ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ فبأي رَأْيٍ رأيتم إيثارها على الدار الآخرة الجامعة لكل نعيم ﴿ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ في الدنيا والآخرة، فإن عدم النفير في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ﴾ فإنه تعالى متكفل بنصر دينه وإعلاء كلمته ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزه شيء أراده، ولا يغالبه أحد.

﴿ 40 ﴾ ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ ﴾ إلا تنصروا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم، فالله غني عنكم لا تضرونه شيئا ﴿ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ في أقل ما يكون ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من مكة لما هموا بقتله، فألجؤوه إلى أن يخرج ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ ﴾ أي هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ﴿ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ أي لما هربا من مكة، لجآ إلى غار ثور في أسفل مكة، فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب. فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة، حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما، فأنزل الله عليهما من نصره ما لا يخطر على البال ﴿ إِذْ يَقُولُ ﴾ النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ لِصَاحِبِهِ ﴾ أبي بكر لما حزن واشتد قلقه ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ بعونه ونصره وتأييده ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ أي الثبات والطمأنينة والسكون المثبتة للفؤاد ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ وهي الملائكة الكرام الذين جعلهم الله حرسا له ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ﴾ فخذلهم الله ولم يتم لهم مقصودهم ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ فدين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ لا يغالبه مغالب ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يضع الأشياء مواضعها[13]، وقد يؤخر نصر حزبه إلى وقت آخر اقتضته الحكمة الإلهية.

﴿ 41 - 42 ﴾ ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

---

[13] وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة، والصحبة الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدوا من أنكر صحبة أبي بكر للنبي صلى الله عليه وسلم، كافرا، لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها. وفيها فضيلة السكينة، وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش بها الأفئدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته. وفيها: أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين، مع أن الأولى -إذا نزل بالعبد- أن يسعى في ذهابه عنه، فإنه مضعف للقلب، موهن للعزيمة.

﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ أي في العسر واليسر والحر والبرد وفي جميع الأحوال ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ إذ كما يجب الجهاد في النفس فيجب الجهاد في المال، حيث اقتضت الحاجة ودعت لذلك ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي الجهاد في النفس والمال خير لكم من التقاعد عن ذلك، لأن فيه رضا الله تعالى والفوز بالدرجات العاليات عنده ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا ﴾ أي منفعة دنيوية سهلة التناول ﴿ وَ ﴾ لَوْ كَانَ السفر ﴿ سَفَرًا قَاصِدًا ﴾ أي قريبا سهلا ﴿ لَاتَّبَعُوكَ ﴾ لعدم المشقة الكثيرة ﴿ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ طالت عليهم المسافة، وصعب عليهم السفر. لكن العبد حقيقة هو القائم بالعبادة السهلة والشاقة ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ أي سيحلفون أن تخلفهم عن الخروج أن لهم أعذارا وأنهم لا يستطيعون ذلك ﴿ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ بالقعود والكذب والإخبار بغير الواقع ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾. وهذا العتاب إنما هو للمنافقين، الذين تخلفوا عن النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وأبدوا من الأعذار الكاذبة ما أبدوا، فعفا النبي صلى الله عليه وسلم عنهم بمجرد اعتذارهم، من غير أن يمتحنهم، فيتبين له الصادق من الكاذب، ولهذا عاتبه الله على هذه المسارعة إلى عذرهم:

﴿ 43 - 45 ﴾ ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ * لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ﴾ أي سامحك وغفر لك ما أجريت ﴿ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ في التخلف ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ بأن تمتحنهم، ليتبين لك الصادق من الكاذب، فتعذر من يستحق العذر ممن لا يستحق ذلك ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ لأن ما معهم من الرغبة في الخير والإيمان، يحملهم على الجهاد من غير أن يحثهم عليه حاث، فضلا عن كونهم يستأذنون في تركه من غير عذر ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ فيجازيهم على تقواه، وأخبر أن من علاماتهم أنهم لا يستأذنون في ترك الجهاد ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي ليس لهم إيمان تام ولا يقين صادق، فلذلك جبنوا عن القتال، واحتاجوا أن يستأذنوا في ترك القتال ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أي لا يزالون في الشك والحيرة.

﴿ 46 - 48 ﴾ ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ *لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا ﴾ هؤلاء المنافقون ﴿ الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾ أي لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ولكن لما لم يعدوا له عدة، علم أنهم ما أرادوا الخروج ﴿ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ ﴾ معكم في الخروج للغزو ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ قدرا وقضاء، وإن كان قد أمرهم وحثهم على الخروج وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم، بل خذلهم وثبطهم ﴿ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ من النساء والمعذورين ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ أي نقصا ﴿ وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ ﴾ أي ولسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم المجتمعين ﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ أي هم حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم ﴿ وَفِيكُمْ ﴾ أناس ضعفاء العقول ﴿ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ أي مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم. فللّه أتم الحكمة حيث ثبطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم، ولطفا من أن يداخلهم ما لا ينفعهم، بل يضرهم ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ فيعلم عباده كيف يحذرونهم، ويبين لهم من المفاسد الناشئة من مخالطتهم. ثم ذكر سوابقهم في الشر ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ ﴾ بذلوا الجهد حين هاجرتم إلى المدينة ﴿ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ ﴾ أعملوا الحيل في خذلان دينكم ﴿ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ فبطل كيدهم واضمحل باطلهم.

﴿ 49 ﴾ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ من هؤلاء المنافقين ﴿ مَنْ يَقُولُ ﴾ يعتذر بعذر آخر عجيب ﴿ ائْذَنْ لِي ﴾ في التخلف ﴿ وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ في الخروج[14] ﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ فإن في التخلف مفسدة كبرى وفتنة عظمى هي معصية الله ومعصية رسوله ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ليس لهم عنها مفر ولا فكاك.

﴿ 50 - 51 ﴾ ﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ * قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ ﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿ تَسُؤْهُمْ ﴾ تحزنهم وتغمهم ﴿ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ ﴾ كإدالة العدو عليك ﴿ يَقُولُوا ﴾ متبجحين بسلامتهم من الحضور معك ﴿ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ قد حذرنا وعملنا بما ينجينا من الوقوع في مثل هذه المصيبة ﴿ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ بمصيبتك، وبعدم مشاركتهم إياك فيها ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ أي ما قدره وأجراه في اللوح المحفوظ ﴿ هُوَ مَوْلَانَا ﴾ متولي أمورنا الدينية والدنيوية، فعلينا الرضا بأقداره ﴿ وَعَلَى اللَّهِ ﴾ وحده ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم.

---

[14] قال *الجد بن قيس* :فإني إذا خرجت فرأيت نساء بني الأصفر لا أصبر عنهن.

﴿ 52 ﴾ ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ للمنافقين الذين يتربصون بكم الدوائر ﴿ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا ﴾ أي شيء تربصون بنا؟ فإنكم لا تربصون بنا ﴿ إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾ إما الظفر بالأعداء ونيل الثواب الأخروي والدنيوي، وإما الشهادة التي هي أرفع المنازل عند الله ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ ﴾ يا معشر المنافقين ﴿ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ لا سبب لنا فيه ﴿ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ بأن يسلطنا عليكم فنقتلكم ﴿ فَتَرَبَّصُوا ﴾ بنا الخير ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾ بكم الشر.

﴿ 53 – 54 ﴾ ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ أَنْفِقُوا طَوْعًا ﴾ من أنفسكم ﴿ أَوْ كَرْهًا ﴾ بغير اختياركم ﴿ لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ ﴾ شيء من أعمالكم ﴿ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ خارجين عن طاعة الله ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾ والأعمال كلها شرط قبولها الإيمان، فهؤلاء لا إيمان لهم ولا عمل صالح ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى ﴾ لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ من غير انشراح صدر وثبات نفس. فينبغي للعبد أن لا يأتي الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب إليها، ولا ينفق إلا وهو منشرح الصدر ثابت القلب، يرجو ذخرها وثوابها من الله وحده، ولا يتشبه بالمنافقين.

﴿ 55 – 57 ﴾ ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ * وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾ قدموها على مراضى ربهم وعصوا الله لأجلها ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ والمراد بالعذاب هنا ما ينالهم من المشقة في تحصيلها، وهمّ القلب فيها وتعب البدن، صارت وبالا عليهم حتى في الدنيا. ولا يبقى في قلوبهم للآخرة نصيب ﴿ وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ فأي عقوبة أعظم من هذه العقوبة الموجبة للشقاء الدائم والحسرة الملازمة ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ يخافون الدوائر، ويخافون إن أظهروا حالهم منكم أن تتبرأوا منهم، فيتخطفهم الأعداء من كل جانب

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً ﴾ يلجأون إليه عندما تنزل بهم الشدائد﴿ أَوْ مَغَارَاتٍ ﴾ يدخلونها فيستقرون فيها ﴿ أَوْ مُدَّخَلًا ﴾ محلا يدخلونه فيتحصنون فيه ﴿ لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ يسرعون.

﴿ 58 – 59 ﴾ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ من يعيبك في قسمة الصدقات ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ فينبغي أن يكون هوى العبد تبعا لمرضاة ربه ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ أعطاهم من قليل وكثير ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ كافينا الله، فنرضى بما قسمه لنا وليؤملوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا ﴿ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ متضرعون في جلب منافعنا ودفع مضارنا، لسلموا من النفاق ولهدوا إلى الإيمان والأحوال العالية.

﴿ 60 ﴾ ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ ﴾ أي الزكوات الواجبة، بدليل أن الصدقة المستحبة لا يخص بها أحد دون أحد ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ الفقير الذي لا يجد شيئا، أو يجد بعض كفايته دون نصفها ﴿ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ والمسكين الذي يجد نصفها فأكثر ولا يجد تمام كفايته ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ على الزكاة وهي أجرة لأعمالهم فيها ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ والمؤلف قلبه هو السيد المطاع في قومه ممن يرجى إسلامه، أو يخشى شره أو يرجى بعطيته قوة إيمانه، أو إسلام نظيره، أو جبايتها ممن لا يعطيها فيعطى ما يحصل به التأليف والمصلحة ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ وهم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم، فهم يسعون في تحصيل ما يفك رقابهم، فيعانون على ذلك من الزكاة. وفك الرقبة المسلمة التي في حبس الكفار داخل في هذا بل أولى ويدخل أيضاً أنه يجوز أن يعتق منها الرقاب استقلالا ﴿ وَالْغَارِمِينَ ﴾ لإصلاح ذات البين، يتوسط الرجل للإصلاح بمال يبذله فجعل له نصيب من الزكاة، ولو كان غنيا. وكذلك من غرم لنفسه ثم أعسر، فيعطى ما يُوَفِّي به دينه ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الغزاة المتطوعة الذين لا ديوان لهم فيعطون من الزكاة ما يعينهم على غزوهم. وقال كثير من الفقهاء إن تفرغ القادر على الكسب لطلب العلم أعطي من الزكاة لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل الله ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعطى من الزكاة ما يوصله إلى

بلده. فهؤلاء الأصناف الثمانية[15] الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم ﴿ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ﴾ قدرها تابعة لعلمه وحكمه ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿ 61 - 63 ﴾ ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾

﴿ وَمِنْهُمُ ﴾ من المنافقين ﴿ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ بالأقوال الردية ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ أي إذا بلغه عنا بعض ذلك، جئنا نعتذر إليه فيقبل منا لأنه أذن يقبل كل ما يقال له ولا يميز بين صادق وكاذب. وقصدهم قبحهم الله فيما بينهم، أنهم غير مكترثين بذلك، لأنه إذا لم يبلغه فهذا مطلوبهم، وإن بلغه اكتفوا بمجرد الاعتذار الباطل ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ ﴾ أي يقبل من قال له خيرا وصدقا. وأما إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار الكذب، فلسعة خلقه، وعدم اهتمامه بشأنهم ، وامتثاله لأمر الله. وأما حقيقة ما في قلبه ورأيه، فهو ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الصادقين ويعلم الصادق من الكاذب ﴿ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾ فإنهم به يهتدون، وبأخلاقه يقتدون. ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ بالقول أو الفعل ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الدنيا والآخرة، ومن العذاب الأليم أنه يتحتم قتل مؤذيه وشاتمه ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ فيتبرأوا مما صدر منهم من الأذية وغيرها، فغايتهم أن ترضوا عليهم ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ لأن المؤمن لا يقدم شيئا على رضا ربه ورضا رسوله، فدل هذا على انتفاء إيمانهم حيث قدموا رضا غير الله ورسوله ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي يكون في حد وشق مبعد عن الله ورسوله بأن تهاون بأوامر الله، وتجرأ على محارمه ﴿ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ الذي لا خزي أشنع ولا أفظع منه، حيث فاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على عذاب الجحيم عياذا بالله من أحوالهم.

﴿ 64 - 66 ﴾ ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾

[15] واعلم أن هذه الأصناف الثمانية، ترجع إلى أمرين:
1- من يعطى لحاجته ونفعه، كالفقير، والمسكين، ونحوهما.
2- من يعطى للحاجة إليه وانتفاع الإسلام به، فأوجب الله هذه الحصة في أموال الأغنياء، لسد الحاجات الخاصة والعامة للإسلام والمسلمين.

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أي تخبرهم وتفضحهم، وتبين أسرارهم، حتى تكون علانية لعباده ﴿ قُلِ اسْتَهْزِئُوا ﴾ استمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ وقد وفَّى تعالى بوعده، فأنزل هذه السورة التي بينتهم وفضحتهم، وهتكت أستارهم. حتى كانت هذه السورة الكريمة تسمى الفاضحة. ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾ عما قالوه من الطعن في المسلمين وفي دينهم في غزوة تبوك، بعدما بلغهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد علم بكلامهم، وجاءوا يعتذرون إليه ﴿ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ أي نتكلم بكلام لا قصد لنا به، ولا قصدنا الطعن والعيب ﴿ قُلْ ﴾ لهم، فقال الرسول لهم لما جاءوا يعتذرون بهذه المقالة ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ فإن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر مخرج عن الدين لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله، وتعظيم دينه ورسله، والاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل ومناقض له أشد المناقضة. وقوله ﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ ﴾ لتوبتهم واستغفارهم وندمهم ﴿ نُعَذِّبْ طَائِفَةً ﴾ منكم ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ مقيمين على كفرهم ونفاقهم[16].

﴿ 67 – 68 ﴾ ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ لأنهم اشتركوا في النفاق، فاشتركوا في تولي بعضهم بعضا، وفي هذا قطع للمؤمنين من ولايتهم. ثم ذكر وصف المنافقين العام الذي لا يخرج منه صغير منهم ولا كبير ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ ﴾ وهو الكفر والفسوق والعصيان ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾ وهو الإيمان والأعمال الصالحة ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ عن الصدقة وطرق الإحسان، فوصفهم البخل ﴿ نَسُوا اللَّهَ ﴾ فلا يذكرونه إلا قليلا ﴿ فَنَسِيَهُمْ ﴾ من رحمته فلا يوفقهم لخير، ولا يدخلهم الجنة، بل يتركهم في الدرك الأسفل من النار، خالدين فيها مخلدين ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ حصر الفسق فيهم، لأن فسقهم أعظم من فسق غيرهم، بدليل أن عذابهم أشد من عذاب غيرهم، وأن المؤمنين قد ابتلوا بهم، إذ كانوا بين أظهرهم، والاحتراز منهم شديد ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ جمع المنافقين والكفار في النار، واللعنة والخلود في ذلك لاجتماعهم في الدنيا على الكفر والمعاداة لله ورسوله والكفر بآياته.

[16] وفي هذه الآيات دليل على أن من أسر سريرة، خصوصا السريرة التي يمكر فيها بدينه، ويستهزئ به وبآياته ورسوله، فإن الله تعالى يظهرها ويفضح صاحبها، ويعاقبه أشد العقوبة. وأن من استهزأ بشيء من كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة عنه، أو سخر بذلك، أو تنقصه، أو استهزأ بالرسول أو تنقصه، فإنه كافر بالله العظيم، وأن التوبة مقبولة من كل ذنب، وإن كان عظيما.

﴿ 69 - 70 ﴾ ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ﴾ فلم تتعد همتكم وإرادتكم ما خولتم من النعم ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ ﴾ بنصيبكم من الدنيا فتناولتموه على وجه اللذة والشهوة معرضين عن المراد منه ﴿ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ وخضتم بالباطل والزور وجادلتم بالباطل لتدحضوا به الحق ﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يقول تعالى محذرا المنافقين أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من الأمم المكذبة ﴿ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ أي قرى قوم لوط. فكلهم ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالحق الواضح الجلي، فكذبوا بها فجرى عليهم ما قص الله علينا ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ إذ أوقع بهم من عقوبته ما أوقع ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ حيث تجرأوا على معاصيه، وعصوا رسلهم، واتبعوا أمر كل جبار عنيد.

﴿ 71 - 72 ﴾ ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ ﴾ أي ذكورهم وإناثهم ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ في المحبة والموالاة والانتماء والنصرة ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ وهو اسم جامع لكل ما عرف حسنه من العقائد الحسنة والأعمال الصالحة ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ وهو كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام ﴿ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ يدخلهم في رحمته ويشملهم بإحسانه﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ قوي قاهر ﴿ حَكِيمٌ ﴾ ومع قوته فهو حكيم يضع كل شيء موضعه اللائق به ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ جامعة لكل نعيم وفرح، خالية من كل أذى وترح، تجري من تحت قصورها ودورها وأشجارها الأنهار الغزيرة ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ لا يبغون عنها حِوَلًا ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ أي إقامة، قد زخرفت وحسنت وأعدت لعباد الله المتقين﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ على أهل الجنة ﴾

﴿ أَكْبَرُ ﴾ فرضا رب الأرض والسماوت أكبر من نعيم الجنات ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ حيث حصلوا على كل مطلوب، فنسأل الله أن يجعلنا معهم بجوده.

﴿ 73 - 74 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي بالغ في جهادهم والغلظة عليهم حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم. فمن بارز منهم بالمحاربة فيجاهد باليد، واللسان والسيف والبيان. ومن كان مذعنا للإسلام بذمة أو عهد، فإنه يجاهد بالحجة والبرهان، فهذا ما لهم في الدنيا. وأما في الآخرة فـ ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي مقرهم الذي لا يخرجون منها ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ. يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ﴾ فإذا بلغهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بلغه شيء جاءوا إليه يحلفون بالله ما قالوا ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾ أي الكلام الذي يتكلم به الواحد بعد الواحد في الاستهزاء بالدين وبالرسول ﴿ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ فكلامهم الأخير ينقض إسلامهم، ويدخلهم بالكفر﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ وذلك حين هموا بالفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، فقص الله عليه نبأهم، فأمر من يصدهم عن قصدهم ﴿ وَ ﴾ الحال أنهم ﴿ مَا نَقَمُوا ﴾ وعابوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ بعد أن كانوا فقراء معوزين، وهذا من أعجب الأشياء، أن يستهينوا بمن كان سببا لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومغنيا لهم بعد الفقر. ثم عرض عليهم التوبة فقال ﴿ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ لأن التوبة، أصل لسعادة الدنيا والآخرة ﴿ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا ﴾ عن التوبة والإنابة ﴿ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ في الدنيا بما ينالهم من الهم والغم والحزن على نصرة الله لدينه وعدم حصولهم على مطلوبهم، وفي الآخرة في عذاب السعير ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ يتولى أمورهم ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يدفع عنهم المكروه.

﴿ 75 - 78 ﴾ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾ ومن هؤلاء المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه ﴿ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ من الدنيا فبسطها لنا ووسعها ﴿ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فنصل الرحم ونقري الضيف ونعين على نوائب الحق ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة﴿ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ لم يفوا بما قالوا بل ﴿ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا ﴾ عن الطاعة

والانقياد ﴿ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ غير ملتفتين إلى الخير ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ مستمرا ﴿ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ ولهذا توعد[17] من صدر منهم هذا الصنيع ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ وسيجازيهم على ما عملوا من الأعمال التي يعلمها.

﴿ 79 - 80 ﴾ ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ ﴾ وهذا أيضا من مخازي المنافقين الذين يعيبون ويطعنون ﴿ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ فيقولون: مراءون، قصدهم الفخر والرياء ﴿ وَ ﴾ يلمزون ﴿ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ فيخرجون ما استطاعوا: الله غني عن صدقاتهم ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾ فقابلهم الله على صنيعهم بأن ﴿ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ولهذا كان جزاؤهم أن سخر الله منهم، ولهم عذاب أليم ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ على وجه المبالغة، وإلا، فلا مفهوم لها ﴿ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ ثم ذكر السبب المانع لمغفرة الله لهم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ والكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام كافرا ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي الذين صار الفسق لهم وصفا بحيث لا يختارون عليه سواه، فيعاقبهم الله تعالى بأن لا يوفقهم بعد ذلك.

﴿ 81 - 83 ﴾ ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ وهذا قدر زائد على مجرد التخلف، فهذا تخلف محرم وزيادة رضا بفعل المعصية وتبجح به ﴿ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وهذا بخلاف المؤمنين الذين إذا

---

[17] وهذه الآيات نزلت في رجل من المنافقين يقال له { ثعلبة } جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وسأله أن يدعو الله له، أن يعطيه الله من فضله، وأنه إن أعطاه، ليتصدقن، ويصل الرحم، ويعين على النوائب، فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم، فكان له غنم، فلم تزل تتنامى، حتى خرج بها عن المدينة، فكان لا يحضر إلا بعض الصلوات الخمس، ثم أبعد، فكان لا يحضر إلا صلاة الجمعة، ثم كثرت فأبعد بها، فكان لا يحضر جمعة ولا جماعة. ففقده النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبر بحاله، فبعث من يأخذ الصدقات من أهلها، فمروا على ثعلبة، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، فلما لم يعطهم جاءوا فأخبروا بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: { يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة } ثلاثا. فلما نزلت هذه الآية فيه، وفي أمثاله، ذهب بها بعض أهله فبلغه إياها، فجاء بزكاته، فلم يقبلها النبي صلى الله عليه وسلم، ثم جاء بها لأبي بكر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها، ثم جاء بها بعد أبي بكر لعمر فلم يقبلها، فيقال: إنه هلك في زمن عثمان.

تخلفوا ولو لعذر حزنوا على تخلفهم ويحبون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، لما في قلوبهم من الإيمان، ولما يرجون من فضل الله وإحسانه وبره وامتنانه ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي المنافقون ﴿ لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ أي إن النفير مشقة علينا بسبب الحر، فقدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية التامة ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ لما فروا من المشقة الخفيفة المنقضية، إلى المشقة الشديدة الدائمة ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾ أي فليتمتعوا في هذه الدار المنقضية ويفرحوا بلذاتها، فسيبكون كثيرا في عذاب أليم ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الكفر والنفاق، وعدم الانقياد لأوامر ربهم. ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ ﴾ وهم الذين تخلفوا من غير عذر، ولم يحزنوا على تخلفهم ﴿ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾ لغير هذه الغزوة إذا رأوا السهولة ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم عقوبة ﴿ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ فسيغني الله عنكم ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ فإن المتثاقل المتخلف عن المأمور به عند انتهاز الفرصة، لا يوفق له بعد ذلك[18].

﴿ 84 ﴾ ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أبدا ﴾ من المنافقين ﴿ وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ بعد الدفن لتدعو له، فإن صلاته ووقوفه على قبورهم شفاعة منه لهم، وهم لا تنفع فيهم الشفاعة ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ ومن كان كافرا ومات على ذلك، فما تنفعه شفاعة الشافعين، وفي ذلك عبرة لغيرهم، وزجر ونكال لهم. وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق، فإنه لا يصلى عليه[19].

﴿ 85 ﴾ ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ﴾ لا تغتر بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال والأولاد، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا ﴾ فيتعبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها، وتلهيهم عن الله والدار الآخرة، حتى ينتقلوا من الدنيا ﴿ وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ قد سلبهم حبها عن كل شيء فماتوا وقلوبهم بها متعلقة.

---

[18] وفيه أيضا تعزير لهم، فإنه إذا تقرر عند المسلمين أن هؤلاء من الممنوعين من الخروج إلى الجهاد لمعصيتهم، كان ذلك توبيخا لهم، وعارا عليهم ونكالا أن يفعل أحد كفعلهم.

[19] وفي هذه الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين، والوقوف عند قبورهم للدعاء لهم، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم، يفعل ذلك في المؤمنين، فإن تقييد النهي بالمنافقين يدل على أنه قد كان متقررا في المؤمنين.

﴿ 86 - 87 ﴾ ﴿ وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ * رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

﴿ وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ يؤمرون فيها بالإيمان بالله والجهاد في سبيله ﴿ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾ الذين لا عذر لهم، أمدهم الله بأموال وبنين، أبوا إلا التكاسل ﴿ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ والاستئذان في القعود ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ كيف رضوا لأنفسهم أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد ﴿ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ فلو فقهوا حقيقة الفقه، لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال التي تحطهم عن منازل الرجال.

﴿ 88 - 89 ﴾ ﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ ﴾ إذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد فللّه عباد اختصهم بفضله ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾غير متثاقلين ولا كسلين، بل هم فرحون مستبشرون، ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ﴾ الكثيرة في الدنيا والآخرة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الذين ظفروا بأعلى المطالب وأكمل الرغائب ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ فتبا لمن لم يرغب بما رغبوا فيه، وخسر دينه ودنياه وأخراه.

﴿ 90 - 93 ﴾ ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾ جاء الذين تهاونوا لأجل أن يؤذن لهم في ترك الجهاد بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف. ويحتمل أن معنى قوله ﴿ الْمُعَذِّرُونَ ﴾ الذين لهم عذر، أتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعذرهم، ومن عادته أن يعذر من له عذر﴿ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وتركوا الاعتذار بالكلية ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى ﴾ الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ ﴾ لا يجدون زادا ولا راحلة يتبلغون بها في سفرهم، فهؤلاء ليس عليهم ﴿ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم وعزمهم أنهم لو قدروا لجاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد ﴿ مَا عَلَى

﴿ الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه سقط عنه ما لا يقدر عليه ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ومن مغفرته ورحمته عفا عن العاجزين وأثابهم بنيتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين. ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ فلم يصادفوا عندك شيئا ﴿ قُلْتَ ﴾ لهم معتذرا ﴿ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ فهؤلاء لا حرج عليهم، ومن نوى الخير واقترن بنيته الجازمة سَعْيٌ فيما يقدر عليه ثم لم يقدر فإنه ينزل منزلة الفاعل التام ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ ﴾ يتوجه ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾ قادرون على الخروج لا عذر لهم فهؤلاء ﴿ رَضُوا ﴾ لأنفسهم ﴿ بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ كالنساء والأطفال ونحوهم ﴿ وَ ﴾ إنما رضوا بهذا الحال لأن الله ﴿ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي ختم عليها، فلا يدخلها خير ﴿ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ عقوبة لهم على ما اقترفوا.

﴿ 94 – 96 ﴾ ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ من غزواتكم ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ لن نصدقكم في اعتذاركم الكاذب ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ ومحال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر الله الذي هو أعلى مراتب الصدق. وهنا إثبات الكلام لله تعالى وإثبات الأفعال الاختيارية لله الواقعة بمشيئته تعالى وقدرته ﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب. وقد أخبر هنا أنه سيرى العمل بعد وقوعه، وفيها إثبات الرضا لله عن المحسنين، والغضب والسخط على الفاسقين ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من خير وشر، ويجازيكم بعدله أو بفضله[20] ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ وهذا في حق المنافقين أي لا توبخوهم، ولا تجلدوهم أو تقتلوهم بل يعرض عنهم، ولا يقابلوا بما فعلوا بالعقوبة الفعلية ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ إنهم قذر خبثاء، ليسوا بأهل لأن يبالى بهم، وليس التوبيخ والعقوبة مفيدا فيهم ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ وتكفيهم عقوبة جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴾ أي ولهم أيضا هذا المقصد الآخر منكم، غير مجرد الإعراض بل يحبون أن ترضوا عنهم كأنهم ما فعلوا شيئا ﴿ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي فلا ينبغي لكم أيها المؤمنون أن ترضوا عن من لم يرض الله عنه، بل عليكم أن توافقوا ربكم في

[20] وأعلم أن المسيء المذنب له ثلاث حالات:

- أن يقبل قوله وعذره ظاهرا وباطنا، ويعفى عنه بحيث يبقى كأنه لم يذنب. فهذه الحالة هي المذكورة هنا في حق المنافقين،
- أن عذرهم غير مقبول، وأنه قد تقررت أحوالهم الخبيثة وأعمالهم السيئة، وإما أن يعاقبوا بالعقوبة والتعزير الفعلي على ذنبهم،
- أن يعرض عنهم، ولا يقابلوا بما فعلوا بالعقوبة الفعلية، وهذه الحال الثالثة هي التي أمر الله بها في حق المنافقين.

رضاه وغضبه. وتأمل كيف قال: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ ولم يقل: "فإن الله لا يرضى عنهم" ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم، فإن الله يتوب عليهم ويرضى عنهم. وأما ما داموا فاسقين فإن الله لا يرضى عليهم.

﴿ 97 – 99 ﴾ ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ الْأَعْرَابُ ﴾ وهم سكان البادية والبراري ﴿ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ من الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق. وذلك لأنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية فهم أحرى ﴿ وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ من أصول الإيمان وأحكامه، بخلاف الحاضرة فإنهم يجالسون أهل الإيمان ويخالطونهم، كما أن الأعراب أحرص على الأموال وأشح فيها ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ ﴾ من الزكاة والنفقة في سبيل الله وغير ذلك ﴿ مَغْرَمًا ﴾ أي يراها خسارة ونقصا لا يحتسب فيها، ولا يريد بها وجه الله ولا يكاد يؤديها إلا كرها ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ﴾ أي من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم لهم، أنهم يودون وينتظرون فيهم دوائر الدهر ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ وهذا سينعكس عليهم فعليهم دائرة السوء ﴿ وَاللَّهُ سميع عليم ﴾ يعلم نيات العباد، وما صدرت عنه الأعمال، من إخلاص وغيره ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ وليس الأعراب كلهم مذمومين، بل منهم ﴿ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فيسلم بذلك من الكفر والنفاق ويعمل بمقتضى الإيمان ﴿ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي يحتسب نفقته، ويقصد بها وجه الله تعالى والقرب منه ﴿ وَ ﴾ يجعلها وسيلة لـ ﴿ صَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾ أي دعائه لهم، وتبريكه عليهم. قال تعالى مبينا لنفع صلوات الرسول ﴿ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ﴾ تقربهم إلى الله، وتنمي أموالهم وتحل فيها البركة ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ في جملة عباده الصالحين[21] ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

---

[21] وفي هذه الآية دليل على أن الأعراب كأهل الحاضرة، منهم الممدوح ومنهم المذموم، فلم يذمهم الله على مجرد تعربهم وباديتهم، إنما ذمهم على ترك أوامر الله، وأنهم في مظنة ذلك.

- ومنها: أن الكفر والنفاق يزيد وينقص ويغلظ ويخف بحسب الأحوال.
- ومنها: فضيلة العلم، وأن فاقده أقرب إلى الشر ممن يعرفه، لأن الله ذم الأعراب، وأخبر أنهم أشد كفرا ونفاقا، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله.
- ومنها: أن أنفع العلوم معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله من أصول الدين وفروعه. فإن في معرفتها تمكين من فعلها إن كانت مأمور بها، أو تركها إن كانت محظورة، وكذلك من الأمر بها أو النهي عنها.
- ومنها: أنه ينبغي للمؤمن أن يؤدي ما عليه من الحقوق منشرح الصدر مطمئن النفس، ويحرص أن تكون مغنما ولا تكون مغرما.

﴿ 100 ﴾ ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ ﴾ الذين سبقوا هذة الأمة إلى الإيمان والهجرة والجهاد وإقامة دين الله ﴿ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ﴿ وَالْأَنْصَارِ ﴾ الذين تبوأوا الدار والإيمان يحبون من هاجر إليهم ويؤثرون على أنفسهم ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ بالاعتقادات والأقوال والأعمال ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ ورضاه تعالى أكبر من نعيم الجنة ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ ﴾ الجارية ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ مهما تمنوه أدركوه، ومهما أرادوه وجدوه ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذي حصل لهم فيه، كل محبوب للنفوس واندفع عنهم كل محذور.

﴿ 101 ﴾ ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ﴾ أيضا منافقون ﴿ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ أي تمرنوا عليه واستمروا ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ ﴾ بأعيانهم فتعاقبهم، أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم، لما لله في ذلك من الحكمة الباهرة ﴿ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ﴾ أولا في الدنيا بما ينالهم من الحزن لما يصيب المؤمنين من الفتح والنصر ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ ﴾ ثانيا في الآخرة ﴿ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ عذاب النار وبئس القرار. ويحتمل أن المراد سنغلظ عليهم العذاب، ونضاعفه عليهم ونكرره.

﴿ 102 - 103 ﴾ ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ وَآخَرُونَ ﴾ ممن بالمدينة ومن حولها، بل ومن سائر البلاد الإسلامية ﴿ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أقروا بها وندموا وسعوا في التوبة منها ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ من التجرؤ على بعض المحرمات، والتقصير في بعض الواجبات مع الاعتراف بذلك والرجاء بأن يغفر الله لهم، فهؤلاء ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ بالتوفيق للتوبة ثم قبولها[22] ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وصفه المغفرة والرحمة اللتان لا يخلو مخلوق منهما، بل لا بقاء للعالم

---

[22] ومن مغفرته أن المسرفين على أنفسهم الذين قطعوا أعمارهم بالأعمال السيئة، إذا تابوا إليه وأنابوا ولو قبيل موتهم بأقل القليل، فإنه يعفو عنهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، فهذه الآية، دلت على أن المخلط المعترف النادم، الذي لم يتب توبة نصوحا، أنه تحت الخوف والرجاء، وهو إلى السلامة أقرب. وأما المخلط الذي لم يعترف ويندم على ما مضى منه، بل لا يزال مصرا على الذنوب، فإنه يخاف عليه أشد الخوف.

العلوي والسفلي إلا بهما، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ وهي الزكاة المفروضة ﴿ تُطَهِّرُهُمْ ﴾ من الذنوب والأخلاق الرذيلة ﴿ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ أي تنميهم وتزيد في أخلاقهم الحسنة وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي، وتنمي أموالهم ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أي ادع للمؤمنين عموما، وخصوصا عندما يدفعون إليك زكاة أموالهم ﴿ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ أي طمأنينة لقلوبهم، واستبشار لهم ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لدعائك، سمع إجابة وقبول ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأحوال العباد ونياتهم، فيجازي كل عامل بعمله، وعلى قدر نيته[23].

﴿ 104 ﴾ ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ ﴾ أما علموا سعة رحمة الله وعموم كرمه وأنه ﴿ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ التائبين من أي ذنب كان، بل يفرح تعالى بتوبة عبده، إذا تاب أعظم فرح يقدر ﴿ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ يقبلها، ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدهم كما يربي الرجل فلوه، حتى تكون التمرة الواحدة كالجبل العظيم، فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ ﴾ كثير التوبة على التائبين، فمن تاب إليه تاب عليه. ولا يمل الله من التوبة على عباده حتى يملوا هم ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء.

﴿ 105 ﴾ ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَقُلْ ﴾ لهؤلاء المنافقين ﴿ اعْمَلُوا ﴾ ما ترون من الأعمال، فلا تحسبوا أن ذلك سيخفى﴿ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي لا بد أن يتبين عملكم ويتضح ﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من خير وشر، ففي هذا التهديد والوعيد الشديد على من استمر على باطله وطغيانه وغيه وعصيانه. ويحتمل أن المعنى أنكم مهما عملتم من خير أوشر، فإن الله مطلع عليكم، وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين على أعمالكم ولو كانت باطنة.

---

[23] فكان النبي صلى الله عليه وسلم يمتثل لأمر الله، ويأمرهم بالصدقة، ويبعث عماله لجبايتها، فإذا أتاه أحد بصدقته دعا له وبرَّك.
ففي هذه الآية، دلالة على وجوب الزكاة، في جميع الأموال، وهذا إذا كانت للتجارة ظاهرة، فإنها أموال تنمى ويكتسب بها، فمن العدل أن يواسى منها الفقراء، بأداء ما أوجب الله فيها من الزكاة.
وما عدا أموال التجارة، فإن كان المال ينمى، كالحبوب، والثمار، والماشية المتخذة للنماء والدر والنسل، فإنها تجب فيها الزكاة، وإلا لم تجب فيها، لأنها إذا كانت للقنية، لم تكن بمنزلة الأموال التي يتخذها الإنسان في العادة، مالا يتمول، ويطلب منه المقاصد المالية، وإنما صرف عن المالية بالقنية ونحوها.
وفيها: أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها، لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها.
وفيها: استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه لمن أدى زكاته بالبركة، وأن ذلك ينبغي، أن يكون جهرا، بحيث يسمعه المتصدق فيسكن إليه.
ويؤخذ من المعنى، أنه ينبغي إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللين، والدعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة، وسكون لقلبه. وأنه ينبغي تنشيط من أنفق نفقة وعمل عملا صالحا بالدعاء له والثناء، ونحو ذلك.

﴿ 106 ﴾ ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ وَآخَرُونَ ﴾ من المخلفين ﴿ مُرْجَوْنَ ﴾ مؤخرون ﴿ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ ففي هذا التخويف الشديد للمتخلفين، والحث لهم على التوبة والندم ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بأحوال العباد ونياتهم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يضع الأشياء مواضعها. فإن اقتضت حكمته أن يغفر لهم ويتوب عليهم غفر لهم وتاب عليهم، وإن اقتضت حكمته أن يخذلهم ولا يوفقهم للتوبة فعل ذلك.

﴿ 107 - 110 ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا ﴾ أي مضارة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه ﴿ وَكُفْرًا ﴾ قصدهم فيه الكفر[24] ﴿ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ليتشعبوا ويتفرقوا ويختلفوا﴿ وَإِرْصَادًا ﴾ أي إعدادا ﴿ لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي إعانة للمحاربين لله ورسوله، الذين تقدم حرابهم واشتدت عداوتهم[25] ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا ﴾ في بنائنا إياه ﴿ إِلَّا الْحُسْنَى ﴾ أي الإحسان إلى الضعيف والعاجز والضرير ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فشهادة الله عليهم أصدق من حلفهم.﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ أي لا تصل في ذلك المسجد أبدا ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ ظهر فيه الإسلام في "قباء" وهو مسجد "قباء" أسس على إخلاص الدين لله، وإقامة ذكره وشعائر دينه، وكان قديما في هذا عريقا فيه، فهذا المسجد الفاضل ﴿ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ وتتعبد، وأهله فضلاء مدحهم الله بقوله ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴾ من الذنوب والأوساخ والنجاسات[26] والأحداث ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ طهارة معنوية كالتنزه من الشرك والأخلاق الرذيلة وطهارة حسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث. ثم فاضل بين المساجد بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لرضاه فقال ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ ﴾ على نية صالحة وإخلاص ﴿ وَرِضْوَانٍ ﴾ بأن كان موافقا لأمره، فجمع في عمله بين الإخلاص والمتابعة

---

[24] كان أناس من المنافقين من أهل قباء اتخذوا مسجدا إلى جنب مسجد قباء، يريدون به المضارة والمشاقة بين المؤمنين، ويعدونه لمن يرجونه من المحاربين لله ورسوله، يكون لهم حصنا عند الاحتياج إليه، فبين تعالى خزيهم، وأظهر سرهم.

[25] وذلك كأبي عامر الراهب، الذي كان من أهل المدينة، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم وهاجر إلى المدينة، كفر به، وكان متعبدا في الجاهلية، فذهب إلى المشركين يستعين بهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما لم يدرك مطلوبه عندهم ذهب إلى قيصر بزعمه أنه ينصره، فهلك اللعين في الطريق، وكان على وعد وممالأة، هو والمنافقون. فكان مما أعدوا له مسجد الضرار، فنزل الوحي بذلك، فبعث إليه النبي صلى الله عليه وسلم من يهدمه ويحرقه، فهدم وحرق، وصار بعد ذلك مزبلة.

[26] وسألهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما نزلت هذه الآية في مدحهم عن طهارتهم، فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء، فحمدهم على صنيعهم.

﴿ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا ﴾ أي على طرف ﴿ جُرُفٍ هَارٍ ﴾ أي بال، قد تداعى للانهدام ﴿ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ لما فيه مصالح دينهم ودنياهم﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أي شكا وريبا ماكثا في قلوبهم ﴿ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ بأن يندموا غاية الندم ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف، فبذلك يعفو الله عنهم، وإلا فبنيانهم لا يزيدهم إلا ريبا إلى ريبهم، ونفاقا إلى نفاقهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بجميع الأشياء ظاهرها وباطنها ﴿حَكِيمٌ ﴾ لا يفعل ولا يخلق ولا يأمر ولا ينهى إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به[27] فللّه الحمد.

﴿ 111 ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى ﴾ بنفسه الكريمة ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ فهي السلعة المبيعة ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ فهذا العقد والمبايعة، قد صدرت من الله مؤكدة بأنواع التأكيدات﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ التي هي أشرف الكتب وأكملها، وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا ﴾ أيها المؤمنون القائمون ﴿ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ أي لتفرحوا بذلك وليبشر بعضكم بعضا ﴿ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذي لا فوز أكبر منه ولا أجل، يتضمن السعادة الأبدية، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات، وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة، فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو الله جل جلاله. وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم. وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان.

---

[27] وفي هذه الآيات فوائد عدة:
منها: أن اتخاذ المسجد الذي يقصد به الضرار لمسجد آخر بقربه، أنه محرم، وأنه يجب هدم مسجد الضرار، الذي اطلع على مقصود أصحابه.
ومنها: أن العمل وإن كان فاضلا تغيره النية، فينقلب منهيا عنه، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم إلى ما ترى.
ومنها: أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين، فإنها من المعاصي التي يتعين تركها وإزالتها.
كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين وائتلافهم، يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها، لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجب للنهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله.
ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبعد عنها، وعن قربها.
ومنها: أن المعصية تؤثر في البقاع، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونهي عن القيام فيه، وكذلك الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد " قباء". ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره، حتى كان صلى الله عليه وسلم يزور قباء كل سبت يصلي فيه، وحث على الصلاة فيه.
ومنها: أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة في الآية، أربع قواعد مهمة، وهي:
كل عمل فيه مضارة لمسلم، أو فيه معصية لله، فإن المعاصي من فروع الكفر، أو فيه تفريق بين المؤمنين، أو فيه معاونة لمن عادى الله ورسوله، فإنه محرم ممنوع منه، وعكسه بعكسه.
ومنها: أن الأعمال الحسية الناشئة عن معصية الله لا تزال مبعدة لفاعلها عن الله بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها ويتوب منها توبة تامة بحيث يتقطع قلبه من الندم والحسرات.
ومنها: أنه إذا كان مسجد قباء مسجدا أسس على التقوى، فمسجد النبي صلى الله عليه وسلم الذي أسسه بيده المباركة وعمل فيه واختاره الله له من باب أولى وأحرى.
ومنها: أن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة، هو العمل المؤسس على التقوى، الموصل لعامله إلى جنات النعيم.
والعمل المبني على سوء القصد وعلى البدع والضلال، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين

وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل. وبأي كتاب رقم، وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق.

﴿ 112 ﴾ ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ التَّائِبُونَ ﴾ الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات ﴿ الْعَابِدُونَ﴾ المتصفون بالعبودية لله والاستمرار على طاعته ﴿ الْحَامِدُونَ ﴾ لله في السراء والضراء، المثنون على الله ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ فسرت السياحة بالصيام، أو السياحة في طلب العلم، وفسرت بسياحة القلب في معرفة الله ومحبته، والإنابة إليه على الدوام، والصحيح أن المراد بالسياحة: السفر في القربات، كالحج والعمرة والجهاد وطلب العلم وصلة الأقارب ونحو ذلك ﴿ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾ المكثرون من الصلاة المشتملة على الركوع والسجود ﴿ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات﴿ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ وهي جميع ما نهى الله ورسوله عنه ﴿ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله، الملازمون لها فعلا وتركا﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ لم يذكر ما يبشرهم به، ليعم جميع ما رتب على الإيمان من ثواب الدنيا والدين والآخرة، فالبشارة متناولة لكل مؤمن. وأما مقدارها وصفتها فإنها بحسب حال المؤمنين وإيمانهم، قوة، وضعفا، وعملا بمقتضاه.

﴿ 113 - 114 ﴾ ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ما يليق ولا يحسن للنبي وللمؤمنين به ﴿ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي لمن كفر به، وعبد معه غيره ﴿ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ لأنهم إذا ماتوا على الشرك، أو علم أنهم يموتون عليه، فقد حقت عليهم كلمة العذاب، ووجب عليهم الخلود في النار، ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين ولا استغفار المستغفرين. وأيضا فإن النبي والذين آمنوا معه، عليهم أن يوافقوا ربهم في رضاه وغضبه، ويعادوا من عاداه الله. والاستغفار منهم لمن تبين أنه من أصحاب النار مناف لذلك ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ عليه السلام ﴿ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ في قوله ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ ﴾ سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير ﴿ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ موافقة لربه وتأدبا معه ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ ﴾ أي رجَّاع إلى الله في جميع الأمور كثير

الذكر والدعاء والاستغفار والإنابة إلى ربه ﴿ حَلِيمٌ ﴾ أي ذو رحمة بالخلق، وصفح عما يصدر منهم إليه من الزلات. فعليكم أن تقتدوا به، وتتبعوا ملة إبراهيم في كل شيء.

﴿ 115 - 116 ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ﴾ فإذا منَّ على قوم بالهداية، فإنه تعالى يبين لهم ولا يتركهم ضالين جاهلين بأمور دينهم. ويحتمل أن المراد بذلك: إذا بين لهم ما يتقون فلم ينقادوا له، عاقبهم بالإضلال جزاء لهم على ردهم الحق المبين. ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فلكمال علمه وعمومه علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبين لكم ما به تنتفعون. ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ هو المالك المدبر لعباده بالإحياء والإماتة وأنواع التدابير الإلهية، فإذا كان لا يخل بتدبيره القدري فكيف يخل بتدبيره الديني أو يدعهم ضالين جاهلين؟ ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ يتولاكم بجلب المنافع لكم ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يدفع عنكم المضار.

﴿ 117 - 118 ﴾ ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ تابَ من لطفه وإحسانه عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ﴿ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ فغفر لهم الزلات وهم ﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ وخرجوا معه لقتال الأعداء في وقعة "تبوك" في حر شديد وضيق من الزاد والركوب وكثرة عدو. فاستعانوا الله تعالى وقاموا بذلك ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ﴾ أي تنقلب قلوبهم، ولكن الله ثبتهم وأيدهم وقواهم. وزَيْغُ القلب هو انحرافه عن الصراط المستقيم. فإن كان الانحراف في أصل الدين كان كفرا، وإن كان في شرائعه كان بحسب تلك الشريعة التي زاغ عنها، إما قصر عن فعلها أو فعلها على غير الوجه الشرعي ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ قبل توبتهم ﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ مَنَّ عليهم بالتوبة وقبلها منهم وثبتهم عليها ﴿ وَ ﴾ كذلك تاب الله ﴿ عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ عن الخروج مع المسلمين، في تلك الغزوة وهم "كعب بن مالك" وصاحباه، وقصتهم مشهورة معروفة في الصحاح والسنن. وفي هذا إشارة إلى أن تخلفهم لم يكن رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل "تخلفوا" ﴿ حَتَّى إِذَا ﴾ حزنوا حزنا عظيما و ﴿ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي على سعتها ورحبها ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ التي هي أحب إليهم من كل شيء ﴾

﴿ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ﴾ أي تيقنوا أنه لا ينجي من الشدائد إلا الله وحده وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ أذن في توبتهم ووفقهم لها وامتن عليهم بها حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها ﴿ لِيَتُوبُوا ﴾ أي لتقع منهم فيتوب الله عليهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ ﴾ كثير التوبة والعفو﴿ الرَّحِيمُ ﴾ وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في جميع اللحظات.

﴿ 119 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله، وبما أمر الله بالإيمان به، قوموا بما يقتضيه الإيمان و ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ باجتناب ما نهى الله عنه والبعد عنه ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة.

﴿ 120 - 121 ﴾ ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ أي ما ينبغي لهم ذلك ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ في بقائها وراحتها وسكونه ﴿ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ الكريمة الزكية، بل النبي صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فعلى كل مسلم أن يفدي النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه ويقدمه عليها ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ المجاهدون في سبيل الله ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ ﴾ أي تعب ومشقة ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي مجاعة ﴿ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ ﴾ من الخوض لديارهم والاستيلاء على أوطانهم ﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا ﴾ كالظفر بجيش أو سرية أو الغنيمة ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله، وقيامهم بما عليهم من حقه وحق خلقه ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا ﴾ في ذهابهم إلى عدوهم ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ 122 ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾ أي جميعا لقتال عدوهم، فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك، وتفوت به كثير من المصالح الأخرى ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ ﴾ أي من البلدان والقبائل والأفخاذ ﴿ طَائِفَةٌ ﴾ تحصل بها الكفاية والمقصود لكان أولى. ثم نبه على أن في إقامة المقيمين منهم وعدم خروجهم مصالح لو خرجوا لفاتتهم، فقال ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ أي القاعدون ﴿ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ أي ليتعلموا العلم الشرعي ويعلموا معانيه، وليعلموا غيرهم ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم[28] ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾.

﴿ 123 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ أرشدهم إلى أنهم يبدأون بالأقرب فالأقرب من الكفار، والغلظة عليهم، والشدة في القتال، والشجاعة والثبات. لكن هذا العموم في قوله مخصوص بما إذا كانت المصلحة في قتال غير الذين يلوننا، وأنواع المصالح كثيرة جدا. ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وليكن لديكم علم أن المعونة من الله تنزل بحسب التقوى، فلازموا على تقوى الله يعنكم وينصركم على عدوكم.

﴿ 124 - 126 ﴾ ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ * أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ فيها أمر ونهي والخبر عن نفسه الكريمة وعن الأمور الغائبة والحث على الجهاد ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾ أي حصل الاستفهام لمن حل له الإيمان بها من الطائفتين ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ بالعلم بها وفهمها واعتقادها والعمل بها ﴿ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي يبشر بعضهم بعضا بما من الله عليهم من آياته، والتوفيق لفهمها والعمل بها ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ شك ونفاق ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ أي مرضا إلى مرضهم، وشكا إلى شكهم، من حيث إنهم كفروا بها وأعرضوا عنها، فازداد لذلك مرضهم، وترامى بهم إلى الهلاك ﴿ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ وهذا عقوبة لهم، لأنهم كفروا بآيات الله وعصوا رسوله، فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ بما يصيبهم من البلايا والأمراض، وبما يبتلون من الأوامر الإلهية التي يراد بها اختبارهم ﴿ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ ﴾ عما هم عليه من

---

[28] ففي هذا فضيلة العلم، وخصوصا الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور. وأن من تعلم علما فعليه نشره وبثه في العباد ونصيحتهم فيه. فإن انتشار العلم عن العالم من بركته وأجره، الذي ينمى له. وأما اقتصار العالم على نفسه، وعدم دعوته إلى سبيل الله فغايته أن يموت، فيموت علمه وثمرته وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه الله علما ومنحه فهما.
وفي هذه الآية أيضا دليل وإرشاد وتنبيه لطيف لفائدة مهمة، وهي: أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها.

الشر ﴿ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه. وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، وأنه ينبغي للمؤمن أن يتفقد إيمانه ويتعاهده فيجدده وينميه، ليكون دائما في صعود.

﴿ 127 ﴾ ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ ليؤمنوا بها ويعملوا بمضمونها ﴿ نَظَرَ ﴾ المنافقون ﴿ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ جازمين على ترك العمل بها، ينتظرون الفرصة في الاختفاء عن أعين المؤمنين ويقولون ﴿ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا ﴾ متسللين وانقلبوا معرضين، فجازاهم الله بعقوبة من جنس عملهم، فكما انصرفوا عن العمل ﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أي صدها عن الحق وخذلها ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ فقها ينفعهم، فإنهم لو فقهوا لكانوا إذا نزلت سورة آمنوا بها وانقادوا لأمرها.

﴿ 128 - 129 ﴾ ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ يمتن تعالى على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم، يعرفون حاله ويتمكنون من الأخذ عنه ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعنتكم ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ فيحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ شديد الرأفة والرحمة بهم ﴿ فَإِنْ ﴾ آمنوا فذلك حظهم وتوفيقهم، وإن ﴿ تَوَلَّوْا ﴾ عن الإيمان والعمل فامض على سبيلك، ولا تزل في دعوتك ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ أي الله كافيَّ في جميع ما أهمني ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا معبود بحق سواه ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي اعتمدت ووثقت به في جلب ما ينفع ودفع ما يضر ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ الذي هو أعظم المخلوقات. وإذا كان رب العرش العظيم، الذي وسع المخلوقات، كان ربا لما دونه من باب أولى وأحرى.

تم تفسير سورة التوبة

بعون الله ومنه

فلله الحمد أولا وآخرا وظاهرا وباطنا

10

مختصر تفسير سورة يونس

عدد آياتها 109

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 2 ﴾ ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴾

﴿ الر ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ وهو هذا القرآن، المشتمل على الحكمة والأحكام، الدالة آياته على الحقائق الإيمانية والأوامر والنواهي الشرعية، الذي على جميع الأمة تلقيه بالرضا والقبول والانقياد ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ ومع هذا فأعرض أكثرهم فهم لا يعلمون فتعجبوا ﴿ أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ﴾ عذاب الله، وخوفهم نقم الله، وذكرهم بآيات الله ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إيمانا صادقا ﴿ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ لهم جزاء موفور عند ربهم بما قدموه وأسلفوه من الأعمال الصالحة الصادقة. فـ ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ عنه ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴾ بيّن السحر لا يخفى بزعمهم على أحد. وهذا من سفههم وعنادهم.

﴿ 3 - 4 ﴾ ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة، ولكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية، ولأنه رفيق في أفعاله. ومن جملة حكمته فيها، أنه خلقها بالحق وللحق، ليعرف بأسمائه وصفاته ويفرد بالعبادة ﴿ ثُمَّ ﴾ بعد خلق السماوات والأرض ﴿ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ استواء يليق بعظمته ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ في العالم العلوي والسفلي فأنواع التدابير نازلة منه وصاعدة إليه، وجميع الخلق مذعنون لعزه خاضعون لعظمته وسلطانه ﴿ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق، حتى يأذن الله ولا يأذن إلا لمن ارتضى. ولا يرتضي إلا أهل الإخلاص والتوحيد له ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ الذي هذا شأنه ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ هو الله الذي له وصف الإلهية الجامعة لصفات الكمال، ووصف الربوبية الجامع لصفات الأفعال

﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾ أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع العبودية ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ سيجمعكم بعد موتكم، لميقات يوم معلوم ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ وعده صادق لا بد من إتمامه وهذا دليل نقلي على المعاد ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ فالقادر على ابتداء الخلق قادر على إعادته. وهذا دليل عقلي واضح على المعاد ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ بجوارحهم من واجبات ومستحبات ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ بإيمانهم وأعمالهم، جزاء قد بينه لعباده ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بآيات الله وكذبوا رسل الله ﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ ماء حار يشوي الوجوه، ويقطع الأمعاء ﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ من سائر أصناف العذاب ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ بسبب كفرهم وظلمهم، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

﴿ 5 – 6 ﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ لما قرر ربوبيته وإلهيته، ذكر الأدلة العقلية الأفقية الدالة على ذلك وعلى كماله، في أسمائه وصفاته، من الشمس والقمر، والسماوات والأرض وجميع ما خلق فيهما من سائر أصناف المخلوقات، وأخبر أنها آيات ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فإن العلم يهدي إلى معرفة الدلالة فيها ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ والتقوى تحدث في القلب الرغبة في الخير والرهبة من الشر. وفي هذه الآيات الحث والترغيب على التفكر في مخلوقات الله، والنظر فيها بعين الاعتبار، فإن بذلك تنفتح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل. وفي إهمال ذلك تهاون بما أمر الله به وإغلاق لزيادة الإيمان وجمود للذهن.

﴿ 7 – 8 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ لا يطمعون بلقاء الله، الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون، بل أعرضوا عن ذلك، وربما كذبوا به ﴿ وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بدلا عن الآخرة ﴿ وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ﴾ ركنوا إليها، وجعلوها غاية مرامهم فسعوا لها وأكبوا على لذاتها وشهواتها ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴾ فلا ينتفعون بالآيات القرآنية، ولا بالآيات الأفقية والنفسية. والإعراض عن الدليل مستلزم للإعراض والغفلة عن المدلول المقصود ﴿ أُولَئِكَ ﴾ من هذا وصفهم ﴿ مَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ مقرهم ومسكنهم التي لا يرحلون عنها ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الكفر والشرك وأنواع المعاصي.

﴿ 9 - 10 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ جمعوا بين الإيمان، والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ فبسبب ما معهم من الإيمان يثيبهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية في هذه الدار ثم إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم في دار الجزاء ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ الجارية على الدوام ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ أضافها الله إلى النعيم، لاشتمالها على نعيم القلب ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاغتباط برضاه وقربه. ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ عبادتهم فيها لله، أولها تسبيح لله وتنزيه له عن النقائض، وآخرها تحميد لله. فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وما عليهم إلا ذكر الله الذي تطمئن به القلوب، هو لهم بمنزلة النَّفس، من دون مشقة ﴿ وَ ﴾ أما ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا ﴾ فيما بينهم فهو ﴿ سَلَامٌ ﴾ كلام سالم من اللغو والإثم، وقد قيل في تفسير الآية أن أهل الجنة -إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما- قالوا سبحانك اللهم، فأحضر لهم في الحال ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ ﴾ فإذا فرغوا قالوا ﴿ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

﴿ 11 ﴾ ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ ﴾ وهذا من لطفه وإحسانه بعباده، أنه لو عجل لهم الشر إذا أتوا بأسبابه، وبادرهم بالعقوبة على ذلك، كما يعجل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه ﴿ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ فمحقتهم العقوبة. ولكنه تعالى يمهلهم ولا يهملهم، ويعفو عن كثير من حقوقه، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة. ويدخل في هذا، أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله، ربما دعا عليهم دعوة لو قبلت منه لهلكوا، ولأضره ذلك غاية الضرر، ولكنه تعالى حليم حكيم ﴿ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ ولا يؤمنون بالآخرة، ولا يستعدون لها، ولا يعلمون ما ينجيهم من عذاب الله ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ باطلهم، الذي جاوزوا به الحق والحد ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يترددون حائرين، وذلك عقوبة لهم على ظلمهم، وكفرهم بآيات الله.

﴿ 12 ﴾ ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ وهذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه إذا مسه ضر من مرض أو مصيبة اجتهد في الدعاء، وسأل الله في جميع أحواله، قائما وقاعدا ومضطجعا، وألح في

الدعاء ليكشف الله عنه ضره ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ﴾ واستمر في غفلته معرضا عن ربه، كأنه ما جاءه ضره، فكشفه الله عنه. ﴿ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ المتجاوزين للحد ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ 13 - 14 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ يخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية بظلمهم وكفرهم، بعد ما جاءتهم البينات على أيدي الرسل وتبين الحق فلم ينقادوا لها ولم يؤمنوا. فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم متجرئ على محارم الله، وهذه سنته في جميع الأمم ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ ﴾ أيها المخاطبون ﴿ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ فإن أنتم اعتبرتم واتعظتم بمن قبلكم واتبعتم آيات الله وصدقتم رسله، نجوتم في الدنيا والآخرة. وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم، أحل بكم ما أحل بهم.

﴿ 15 - 17 ﴾ ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ يذكر تعالى تعنت المكذبين لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وأنهم إذا تتلى عليهم آيات الله القرآنية المبينة للحق، أعرضوا عنها، فقالوا ﴿ ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ فقبحهم الله، ما أجرأهم على الله، وأشدهم ظلما.فإذا كان الرسول العظيم يأمره الله، أن يقول لهم ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي ﴾ ما ينبغي ولا يليق ﴿ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ﴾ فإني رسول ليس لي من الأمر شيء ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ ليس لي غير ذلك ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فهذا قول خير الخلق وأدبه مع أوامر ربه ووحيه، فكيف بهؤلاء السفهاء الضالين، أفلا يخافون عذاب يوم عظيم؟ ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا ﴾ طويلا ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ قبل تلاوته، وقبل درايتكم به، وأنا ما خطر على بالي، ولا وقع في ظني ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فكيف يكون من تلقاء نفسي؟ فلو تدبرتم حالي وحال هذا الكتاب، لجزمتم جزما لا يقبل الريب بصدقه، وأنه الحق الذي ليس بعده إلا الضلال ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ ولكن إذ أبيتم إلا التكذيب والعناد، فأنتم لا شك أنكم ظالمون. ولو كنت متقولا لكنت أظلم الناس، ولكني جئتكم بآيات

الله، فكذبتم بها. فتعين فيكم الظلم ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ولا بد أن أمركم سيضمحل، ولن تنالوا الفلاح، ما دمتم كذلك.

﴿ 18﴾ ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ وهم المشركون المكذبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ لا يملك لهم مثقال ذرة من النفع ولا يدفع عنهم شيئا ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ قولا خاليا من البرهان: ﴿ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ فيعبدونهم ليقربوهم إلى الله، ويشفعوا لهم عنده، وهذا كلام ابتكروه ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ فالله تعالى هو الذي أحاط علما بجميع ما في السماوات والأرض، وقد أخبركم بأنه ليس له شريك ولا إله معه. أفتزعمون أنتم يا معشر المشركين أنه يوجد له فيها شركاء؟ أو تخبرونه بأمر خفي عليه، وعلمتوه؟ أأنتم أعلم أم الله؟ ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تقدس وتنزه أن يكون له شريك أو نظير، بل هو الله الأحد الفرد الصمد الذي لا إله في السماوات والأرض إلا هو ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾.

﴿ 19 – 20 ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ متفقين على الدين الصحيح ﴿ فَاخْتَلَفُوا ﴾ ولكنهم اختلفوا، فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ بإمهال العاصين وعدم معاجلتهم بذنوبهم ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ بأن ننجي المؤمنين، ونهلك الكافرين المكذبين، فيكون هذا فارقا بينهم ﴿ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ولكنه أراد امتحانهم وابتلاء بعضهم ببعض، ليتبين الصادق من الكاذب ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ أي المكذبون المتعنتون ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ يعنون آيات الاقتراح التي يعينونها ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم إذا طلبوا منك آية ﴿ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ هو المحيط علما بأحوال العباد، فيدبرهم بما يقتضيه علمه فيهم وحكمته البديعة، وليس لأحد تدبير في حكم ولا دليل ﴿ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ كل ينتظر بصاحبه ما هو أهل له، فانظروا لمن تكون العاقبة.

﴿ 21 ﴾ ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ ﴾ كالصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، والأمن بعد الخوف، ﴿ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾ يسعون بالباطل، ليبطلوا به الحق وقد نسوا ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم ﴿ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ تكتب الملائكة عليهم ما يعملون، ويحصيه الله عليهم، ثم يجازيهم عليه أوفر الجزاء.

﴿ 22 – 23﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ بما يسر لكم من الأسباب المسيرة لكم فيها، وهداكم إليها ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ ﴾ السفن البحرية ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ موافقة لما يهوونه، من غير انزعاج ولا مشقة ﴿ وَفَرِحُوا بِهَا ﴾ واطمأنوا إليها، فبينما هم كذلك، إذ ﴿ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ شديدة الهبوب ﴿ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ عرفوا أنه الهلاك، فانقطع حينئذ تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام، فقالوا: ﴿ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء، وما ألزموه أنفسهم، فأشركوا بالله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ ولكن هذا البغي يعود وباله عليهم ﴿ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ غاية ما تؤملون ببغيكم أن تنالوا شيئًا من حطام الدنيا وجاهها النزر اليسير الذي سينقضي سريعًا ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ في يوم القيامة ﴿ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وفي هذا غاية التحذير لهم عن الاستمرار على عملهم.

﴿24 ﴾ ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وهذا المثل مطابق لحالة الدنيا ﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ نبت فيها من كل صنف، وزوج بهيج ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ ﴾ كالحبوب والثمار ﴿ وَ ﴾ مما تأكل ﴿ الْأَنْعَامِ ﴾ كأنواع العشب ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ﴾ فصارت بهجة للناظرين ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ حصل معهم طمع، بأن ذلك سيستمر ويدوم، فبينما هم في تلك الحالة ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا

﴿ كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾ كأنها ما كانت فهذه حالة الدنيا، سواء بسواء ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ نبينها ونوضحها بتقريب المعاني إلى الأذهان وضرب الأمثال ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يعملون أفكارهم فيما ينفعهم.

﴿ 25 - 26 ﴾ ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ عم تعالى عباده بالدعوة إلى دار السلام والحث على ذلك والترغيب ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وخص بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاءه ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴾ في عبادة الخالق وأحسنوا إلى عباد الله، لهم ﴿ الْحُسْنَى ﴾ وهي الجنة الكاملة في حسنها ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ وهي النظر إلى وجه الله الكريم وسماع كلامه والفوز برضاه والبهجة بقربه ﴿ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ لا ينالهم مكروه، إذا وقع بالإنسان تبين ذلك في وجهه وتغير وتكدر ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ الملازمون لها ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ لا يحولون ولا يزولون ولا يتغيرون.

﴿27﴾ ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ لما ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار، فجزاؤهم يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ﴾ تغشاهم ﴿ ذِلَّةٌ ﴾ في قلوبهم تسري إلى ظاهرهم فتكون سوادًا في الوجوه ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

﴿ 28 - 30﴾ ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ نجمع جميع الخلائق لميعاد يوم معلوم، ونحضر المشركين، وما كانوا يعبدون من دون الله ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾ الزموا مكانكم ليقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ فرقنا بينهم، وحصلت بينهم العداوة الشديدة ﴿ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ فإننا ننزه الله أن يكون له شريك أو نديد ﴿ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ ما أمرناكم بها، ولا دعوناكم لذلك، وإنما عبدتم من دعاكم إلى ذلك وهو الشيطان. فالملائكة الكرام والأنبياء والأولياء ونحوهم يتبرؤون ممن عبدهم يوم

القيامة ويتنصلون من دعائهم إياهم إلى عبادتهم وهم الصادقون البارون في ذلك، فحينئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها ﴿ هُنَالِكَ ﴾ في ذلك اليوم ﴿ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ﴾ إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من قولهم بصحة ما هم عليه من الشرك وأن ما يعبدون من دون الله تنفعهم وتدفع عنهم العذاب.

﴿ 31 - 33 ﴾ ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ * كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله ﴿ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ بإنزال الأرزاق من السماء، وإخراج أنواعها من الأرض، وتيسير أسبابها فيها؟ ﴿ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ من هو الذي خلقهما وهو مالكهما؟ وخصهما بالذكر من باب التنبيه على المفضول بالفاضل، ولكمال شرفهما ونفعهما ﴿ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ كإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر والطائر من البيضة ونحو ذلك ﴿ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ عكس هذه المذكورات ﴿ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ في العالم العلوي والسفلي، وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية. فإنك إذا سألتهم عن ذلك ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ لأنهم يعترفون بجميع ذلك، وأن الله لا شريك له في شيء من المذكورات ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم إلزامًا بالحجة ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ الله فتخلصون له العبادة وحده لا شريك له ﴿ فَذَلِكُمُ ﴾ الذي وصف نفسه بما وصفها به ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمُ ﴾ المألوه المعبود المحمود، المربي جميع الخلق بالنعم وهو ﴿ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ عن عبادة من هذا وصفه، إلى عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا. ولهذا قال تعالى عنهم ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بعد ما أراهم الله من الآيات البينات.

﴿ 34 – 36 ﴾ ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ﴾ يبتديه ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي والتقرير: فما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ من غير مشارك ولا معاون له على ذلك ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ تصرفون، وتنحرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء، والإعادة إلى عبادة من لا يخلق شيئًا وهم يخلقون ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾ ببيانه وإرشاده، أو بإلهامه وتوفيقه ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ وحده ﴿ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ بالأدلة

والبراهين وبالإلهام والإعانة إلى سلوك أقوم طريق ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي ﴾ لا يهتدي ﴿ إِلَّا أَنْ يُهْدَى ﴾ لعدم علمه ولضلاله، وهي شركاؤهم التي لا تهدي ولا تهتدي إلا أن تهدى ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أيّ شيء جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل بصحة عبادة أحد مع الله بعد ظهور الحجة والبرهان، أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ﴾ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء وإنما يتبعون الظن و ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ فسموها آلهة، وعبدوها مع الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ وسيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة.

﴿ 37- 41﴾ ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ * وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ غير ممكن ولا متصور، أن يفترى هذا القرآن على الله تعالى، لأنه كتاب الله الذي تكلم به رب العالمين، فكيف يقدر أحد من الخلق، أن يتكلم بمثله أو بما يقاربه ﴿ وَلَكِنْ ﴾ الله أنزل هذا الكتاب، رحمة للعالمين، وحجة على العباد أجمعين و ﴿ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من كتب الله السماوية، بأن وافقها وصدقها بما شهدت به ﴿ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ ﴾ للحلال والحرام، والأحكام الدينية والقدرية، والإخبارات الصادقة ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لا شك ولا مرية فيه، أنزل عليهم هذا الكتاب الذي فيه مصالحهم الدينية والدنيوية، المشتمل على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ المكذبون به عنادًا وبغيًا ﴿ افْتَرَاهُ ﴾ محمد على الله، واختلقه، ﴿ قُلْ ﴾ لهم إن قدروا عليه ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يعاونكم على الإتيان بسورة مثله، وهذا محال، ولو كان ممكنًا لادعوا قدرتهم على ذلك، ولأتوا بمثله ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾ فلو أحاطوا به علمًا وفهموه حق فهمه، لأذعنوا بالتصديق به ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ وكذلك إلى الآن لم يأتهم تأويله الذي وعدهم أن ينزل بهم العذاب ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ وهو الهلاك الذي لم يبق منهم أحدًا. وفي هذا دليل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده قبل أن يحيط به علمًا ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ بالقرآن وما جاء به ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ وهم الذين لا يؤمنون به على وجه العناد والظلم والفساد، فسيجازيهم على فسادهم بأشد العذاب ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ ﴾ فاستمر على دعوتك، وليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء ﴿ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ 42 - 44 ﴾ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ * إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقت قراءته للوحي، لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرج والتكذيب وتطلب العثرات. لا جرم انسد عليهم باب التوفيق، وحرموا من فائدة الاستماع ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ وهذا الاستفهام بمعنى النفي المتقرر. فإذا كان من المحال إسماع الأصم الذي لا يعقل للكلام، فهؤلاء المكذبون كذلك ممتنع إسماعك إياهم إسماعاً ينتفعون به ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ﴾ فلا يفيده نظره إليك ﴿ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ فإذا فسدت عقولهم وأسماعهم وأبصارهم التي هي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق، فأين الطريق الموصل لهم إلى الحق[1]؟ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا ﴾ فلا يزيد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم ﴿ وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ يجيئهم الحق فلا يقبلونه فيعاقبهم الله بعد ذلك بالطبع على قلوبهم، والختم على أسماعهم وأبصارهم.

﴿ 45 ﴾ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ يخبر تعالى عن سرعة انقضاء الدنيا كأنهم ما لبثوا ﴿ إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ وأنه إذا حشر الناس وجمعهم ليوم لا ريب فيه وكأنه ما مر عليهم نعيم ولا بؤس ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ في هذا اليوم يربح المتقون ويخسر الذين كذبوا بلقاء الله.

﴿ 46 ﴾ ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴾

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ لا تحزن أيها الرسول على هؤلاء المكذبين، ولا تستعجل لهم، فإنهم لا بد أن يصيبهم الذي نعدهم من العذاب إما في الدنيا فتراه بعينك، وإما في الآخرة بعد الوفاة، ﴿ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴾ فإن مرجعهم إلى الله، وسينبئهم بما كانوا يعملون.

---

[1] وتدل هذه الآية أيضاً على أن النظر إلى حالة النبي صلى الله عليه وسلم، وهديه وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة.

﴿ 47 – 49 ﴾ ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم الماضية ﴿ رَسُولٌ ﴾ يدعوهم إلى توحيد الله ودينه ﴿ فَإِذَا جَاءَ ﴾ هم ﴿ رَسُولُهُمْ ﴾ بالآيات، صدقه بعضهم وكذبه آخرون ﴿ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ فيقضي الله بينهم بالقسط بنجاة المؤمنين وإهلاك المكذبين ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بأن يعذبوا قبل إرسال الرسول وبيان الحجة، أو يعذبوا بغير جرمهم ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فإن هذا ظلم منهم، حيث طلبوه من النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ وليس له من الأمر شيء، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس ﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ وأما حسابهم وإنزال العذاب عليهم فمن الله تعالى، ينزله عليهم إذا جاء الأجل الموافق لحكمته الإلهية.

﴿ 50 – 52 ﴾ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ * أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ * ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا ﴾ وقت نومكم بالليل ﴿ أَوْ نَهَارًا ﴾ في وقت غفلتكم ﴿ مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ فأي بشارة استعجلوا بها؟ وأي عقاب ابتدروه؟ ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ فإنه لا ينفع الإيمان حين حلول عذاب الله، ويقال لهم توبيخًا وعتابًا في تلك الحال التي زعموا أنهم يؤمنون ﴿ آلْآنَ ﴾ تؤمنون في حال الشدة والمشقة؟ ﴿ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ فهذا ما عملت أيديكم، وهذا ما استعجلتم به ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ حين يوفون أعمالهم يوم القيامة ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ الذي تخلدون فيه ولا يفتر عنكم ساعة ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ من الكفر والتكذيب والمعاصي.

﴿ 53 – 56 ﴾ ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ ﴾ يستخبرك المكذبون على وجه التعنت والعناد، لا على وجه التبين والرشاد ﴿ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ أصد العباد، وبعثهم بعد موتهم ليوم المعاد ﴿ قُلْ ﴾ لهم مقسمًا على صحته ﴿ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ لا مرية فيه ﴿ بِمُعْجِزِينَ ﴾ لله أن يبعثكم، فكما ابتدأ خلقكم ولم تكونوا شيئًا، كذلك يعيدكم مرة أخرى ليجازيكم بأعمالكم ﴿ وَ ﴾ القيامة ف ﴿ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾ بالكفر والمعاصي جميع ﴿ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ من ذهب وفضة وغيرهما، لتفتد

عذاب الله ﴿ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾ ولما نفعها ذلك. وإنما النفع والضر على الأعمال الصالحة والسيئة ﴿ وَأَسَرُّوا ﴾ أي الذين ظلموا ﴿ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ ندموا على ما قدموا، ولات حين مناص ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ العدل التام ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ الذي لا ظلم ولا جور ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يحكم فيهم بحكمه الديني والقدري، وسيحكم فيهم بحكمه الجزائي ﴿ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فلذلك لا يستعدون للقاء الله، بل ربما لم يؤمنوا به ﴿ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ هو المتصرف بالإحياء والإماتة، وسائر أنواع التدبير، لا شريك له في ذلك ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

﴿ 57 - 58 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ تعظكم، وتنذركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله ﴿ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ وهو هذا القرآن، يشفي أمراض الشهوات الصادة عن الانقياد للشرع، وأمراض الشبهات[2] ﴿ وَهُدًى ﴾ العلم بالحق والعمل به ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ ما يحصل من الخير والإحسان والثواب العاجل والآجل لمن اهتدى به ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ولذلك أمر تعالى بالفرح بذلك ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ ﴾ الذي هو القرآن، فضل تفضل الله به على عباده ﴿ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ الدين والإيمان، وعبادة الله ومحبته ومعرفته ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ من متاع الدنيا ولذاتها.

﴿ 59 - 60 ﴾ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ * وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾ يعني أنواع الحيوانات المحللة، التي جعلها الله رزقا لهم ورحمة في حقهم ﴿ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ﴾ لهم موبخا على هذا القول الفاسد ﴿ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ ومن المعلوم أن الله لم يأذن لهم، فعلم أنهم مفترون ﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أن يفعل الله بهم من النكال، ويحل بهم من العقاب ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ وذو إحسان جزيل ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ وقليل منهم الشاكر الذي يعترف بالنعمة، ويثني بها على الله، ويستعين بها على طاعته[3].

﴿ 61 ﴾ ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

---

[2] . وإذا صح القلب من مرضه ورفل بأثواب العافية، تبعته الجوارح كلها، فإنها تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده.
[3] ويستدل بهذه الآية على أن الأصل في جميع الأطعمة الحل، إلا ما ورد الشرع بتحريمه، لأن الله أنكر على من حرم الرزق الذي أنزله لعباده.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ حالٍ من أحوالك الدينية والدنيوية ﴿ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ﴾ وما تتلو من القرآن الذي أوحاه الله إليك ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ صغير أو كبير ﴿ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ وقت شروعكم فيه، واستمراركم على العمل به ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ ﴾ ما يغيب عن علمه، وسمعه وبصره ومشاهدته ﴿ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ قد أحاط به علمه وجرى به قلمه[4].

﴿ 62 – 64 ﴾ ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف والأهوال ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما أسلفوا، لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وصدقوا إيمانهم باستعمال التقوى وامتثال الأوامر واجتناب النواهي. و ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي لطف الله بهم وتيسيرهم لأحسن الأعمال والأخلاق وصرفهم عن مساوئ الأخلاق ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ النجاة من العذاب الأليم ودخول جنات النعيم التي بشرتهم بها الملائكة عند قبض أرواحهم وتبشيرهم في القبر برضا الله تعالى والنعيم المقيم ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ بل ما وعد الله فهو حق، لا يمكن تغييره ولا تبديله ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ وحصر الفوز فيه لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى. ولهذا أطلق ذلك، فلم يقيده.

﴿ 65 ﴾ ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ ولا يحزنك قول المكذبين فيك من الأقوال التي يتوصلون بها إلى القدح فيك، وفي دينك فإن أقوالهم لا تعزهم، ولا تضرك شيئًا ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ يؤتيها من يشاء ويمنعها ممن يشاء. والعزة لك ولأتباعك من الله ﴿ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ أحاط سمعه بجميع الأصوات، فلا يخفى عليه شيء منها ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ وأحاط علمه بجميع الظواهر والبواطن، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

﴿ 66 – 67 ﴾ ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ خلقًا وملكًا وعبيدًا، لا يستحقون شيئًا من العبادة، وليسوا شركاء لله بوجه الوجوه ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ الذي لا يغني من الحق شيئًا ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ في ذلك، خرص كذب وإفك وبهتان و ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ في النوم والراحة بسبب الظلمة

[4] العلم المحيط بجميع الأشياء، وكتابته المحيطة بجميع الحوادث هما مرتبتان من مراتب القضاء والقدر كثيرًا ما يقرن الله بينهما.

فلو استمر الضياء لما قروا ولما سكنوا ﴿ وَ ﴾ جعل الله ﴿ النَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ مضيئًا، يبصر به الخلق، فيتصرفون في مصالح دينهم ودنياهم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ عن الله سمع فهم وقبول واسترشاد لآياته، ويستدلون بها على أنه وحده المعبود وأنه الإله الحق.

﴿ 68 - 70 ﴾ ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ فنزه نفسه عن ذلك بقوله ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزه عما يقول الظالمون في نسبة النقائص إليه علوًا كبيرًا، ثم برهن على ذلك بعدة براهين: 1- ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ والغنى منحصر فيه، وأنواع الغنى مستغرقة فيه. والحاجة منه إلى الولد تنافي غناه فلا يتخذ أحد ولدًا إلا لنقص في غناه. 2- ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الجميع مخلوقون عبيد مماليك. فملكيته لما في السماوات والأرض تنافي الولادة. 3- ﴿ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ﴾ هل عندكم من حجة وبرهان يدل على أن لله ولدًا؟ لكن ذلك قول بلا علم ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ. قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ لا ينالون مطلوبهم ﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ وإنما يتمتعون في كفرهم وكذبهم في الدنيا قليلاً، ثم ينتقلون إلى الله فيذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون.

﴿ 71 - 73 ﴾ ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ * فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ واتل على قومك ﴿ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ حين دعا قومه إلى الله ألف سنة إلا خمسين عامًا، فلم يزدهم دعاؤه إياهم إلا طغيانًا، وهو عليه الصلاة والسلام غير متوان في دعوتهم ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي ﴾ إن كان مقامي عندكم، وتذكيري إياكم ما ينفعكم ﴿ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ قد شق عليكم وأردتم أن تنالوني بسوء أو تردوا الحق ﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فأنا اعتمدت على الله في دفع كل شر يراد بي، وبما أدعو إليه ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ ﴾ كلكم، بحيث لا يتخلف منكم أحد ولا تدخروا من مجهودكم شيئًا ﴿ وَ ﴾ أحضروا ﴿ شُرَكَاءَكُمْ ﴾ الذي كنتم تعبدونهم وتوالونهم من دون الله رب العالمين ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ مشتبهًا خفيًا، بل ليكن ذلك ظاهرًا علانية ﴿ ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ ﴾ اقضوا علي بالعقوبة والسوء، الذي في إمكانكم ﴿ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴾ لا تمهلوني ساعة من نهار. فهذا برهان قاطع، وآية عظيمة على صحة رسالته، وصدق ما جاء به ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ عن ما دعوتكم إليه ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾ على دعوتي ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ لا أريد

الثواب والجزاء إلا منه، ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فأنا أول داخل، وأول فاعل لما أمرتكم به ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ بعد ما دعاهم ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ الذي أمرناه أن يصنعه بأعيننا. فأمر الله السماء أن تمطر بماء منهمر وفجر الأرض عيونًا، فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾ في الأرض بعد إهلاك المكذبين. ثم بارك الله في ذريته، وجعلها ذريته هم الباقين ونشرهم في أقطار الأرض ﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ بعد ذلك البيان ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ وهو الهلاك المخزي، واللعنة المتتابعة عليهم في كل قرن يأتي بعدهم.

﴿ 74 ﴾ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ من بعد نوح عليه السلام ﴿ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ ﴾ المكذبين يدعونهم إلى الهدى ﴿ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ الدالة على صحة ما جاؤوا به ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ طبع الله على قلوبهم، وحال بينهم وبين ﴿ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ نختم عليها فلا يدخلها خير.

﴿ 75 ﴾ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم ﴾ من بعد هؤلاء الرسل ﴿ مُوسَى ﴾ بن عمران، كليم الرحمن ﴿ وَ ﴾ جعلنا معه أخاه ﴿ هَارُونَ ﴾ وزيرًا ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ أي كبار دولته ورؤسائهم، لأن عامتهم تبعٌ للرؤساء ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ الدالة على صدق ما جاء به من توحيد الله، والنهي عن عبادة ما سوى الله تعالى ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ عنها ظلمًا وعلوًا، بعد ما استيقنوها ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ وصفُهم الإجرام والتكذيب.

﴿ 76- 77 ﴾ ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ* قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ على يد موسى ردوه فلم يقبلوه و ﴿ قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ ولهذا ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ مُوسَى ﴾ موبخا لهم ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ﴾ إنه سحر مبين ﴿ أَسِحْرٌ هَذَا ﴾ فانظروا وصفه وما اشتمل عليه، فبمجرد ذلك يجزم بأنه الحق ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة. وقد ظهر أن موسى عليه السلام هو الذي فاز بظفر الدنيا والآخرة.

﴿ 78 ﴾ ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ قَالُوا ﴾ لموسى ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ أجئتنا لتصدنا عما وجدنا عليه آباءنا من الشرك وعبادة غير الله، وتأمرنا بأن نعبد الله وحده لا شريك له؟ ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ ﴾ وهذا تهييج لعوامهم على معاداة موسى، لأنّ عليه الصلاة والسلام لا يبتغي العلو في الأرض ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ تكبرًا وعنادًا وإرادة العلو الذي رموا به موسى وهارون.

﴿ 79- 81 ﴾ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ * فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّـهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّـهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ معارضًا للحق ﴿ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ ماهرٍ بالسحر. فأرسل من أتاه بأنواع السحرة ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ ﴾ للمغالبة مع موسى ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ أي شيء أردتم، وذلك لأنه غير مبال بهم ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا ﴾ حبالهم وعصيهم، إذا هي كأنها حيات تسعى، فـ ﴿ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ ﴾ حقيقيّ عظيم، ولكن مع عظمته ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ فإنهم يريدون بذلك نصر الباطل على الحق، وأي فساد أعظم من هذا؟ فألقى موسى عصاه فتلقفت جميع ما صنعوا، فبطل سحرهم واضمحل باطلهم.

﴿ 82 – 83﴾ ﴿ وَيُحِقُّ اللَّـهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ * فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾

﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ فألقي السحرة سجدًا حين تبين لهم الحق. فتوعدهم فرعون بالصلب، وتقطيع الأيدي والأرجل، فلم يبالوا بذلك وثبتوا على إيمانهم. وأما فرعون وملؤه وأتباعهم فلم يؤمن منهم أحد، بل استمروا في طغيانهم يعمهون ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ شباب من بني إسرائيل صبروا على الخوف، لما ثبت في قلوبهم الإيمان ﴿ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ﴾ عن دينهم ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ له القهر والغلبة فيها فحقيق بهم أن يخافوا من بطشته ﴿ وَ ﴾ خصوصًا ﴿ إِنَّهُ ﴾ كان ﴿ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ المتجاوزين للحد في البغي والعدوان. والحكمة – والله أعلم– أن الذرية والشباب أقبل للحق وأسرع له انقيادًا، بخلاف الشيوخ ونحوهم ممن تربى على الكفر فإنهم بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة أبعد من الحق من غيرهم.

﴿ 84 ﴾ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّـهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾

﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ موصيًا لقومه بالصبر، ومذكرًا لهم ما يستعينون به على ذلك ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ فقوموا بوظيفة الإيمان ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ اعتمدوا عليه، والجؤوا إليه واستنصروه.

﴿ 85 - 86 ﴾ ﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّـهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

﴿ فَقَالُوا ﴾ ممتثلين لذلك ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ لا تسلطهم علينا، فيفتنونا، أو يغلبونا، فيفتتنون بذلك، ويقولون: لو كانوا على حق لما غلبوا ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ لنسلم من شرهم ولنقيم على ديننا على وجه نتمكن به من إقامة شرائعه من غير معارض.

﴿ 87 ﴾ ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ ﴾ حين اشتد الأمر على قومهما، من فرعون وقومه، وحرصوا على فتنتهم عن دينهم ﴿ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ مروهم أن يجعلوا لهم بيوتًا، يتمكنون من الاستخفاء فيها ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ اجعلوها محلا تصلون فيها، حيث عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس والبيع العامة ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ فإنها معونة على جميع الأمور ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالنصر والتأييد.

﴿ 88 ﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً ﴾ يتزينون بها ﴿ وَأَمْوَالًا ﴾ عظيمة ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾ إن أموالهم لم يستعينوا بها إلا على الإضلال في سبيلك ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ﴾ أتلفها عليهم. فلما رأى موسى القسوة والإعراض من فرعون وملئه دعا عليهم وأمن هارون على دعائه ﴿ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ قسّها ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ قال ذلك غضبًا عليهم حيث تجرؤوا على محارم الله، ولكمال معرفته بأن الله سيعاقبهم بإغلاق باب الإيمان عليهم.

﴿ 89- 93 ﴾ ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ * وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ هذا دليل على أن موسى كان يدعو وهارون يؤمن على دعائه، وأن الذي يؤمن يكون شريكا للداعي في ذلك الدعاء ﴿ فَاسْتَقِيمَا ﴾ على دينكما واستمرا على دعوتكما ﴿ وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

لا تتبعان سبيل المتبعين لطرق الجحيم ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ وذلك أن الله أوحى إلى موسى لما وصل البحر أن يضربه بعصاه، فضربه فانفلق اثنى عشر طريقًا وسلكه بنو إسرائيل ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾ وساق فرعون وجنوده خلفه داخلين. فلما استكمل موسى وقومه خارجين من البحر، وفرعون وجنوده داخلين فيه، أمر الله البحر فالتطم على فرعون وجنوده ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ﴾ وجزم بهلاكه ﴿ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ وهو الله الإله الحق الذي لا إله إلا هو ﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ المنقادين لدين الله ولما جاء به موسى ﴿ آلْآنَ ﴾ تؤمن وتقر برسول الله ﴿ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ بارزت بالمعاصي، والكفر والتكذيب ﴿ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ فلا ينفعك الإيمان، والذي ينفع إنما هو الإيمان بالغيب ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ قال المفسرون: إن بني إسرائيل كأنهم لم يصدقوا بإغراقه، فأمر الله البحر أن يلقيه على نجوة مرتفعة ببدنه، ليكون لهم عبرة وآية ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ فلذلك تمر عليهم وتتكرر فلا ينتفعون بها، لعدم إقبالهم عليها ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ أنزلهم الله وأسكنهم في مساكن آل فرعون، وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ من المطاعم والمشارب وغيرهما ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا ﴾ في الحق ﴿ حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ الموجب لاجتماعهم وائتلافهم. ولكن بغى بعضهم على بعض، وصار لكثير منهم أهوية وأغراض تخالف الحق، فحصل بينهم من الاختلاف شيء كثير ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ بحكمة العدل الناشئ عن علمه التام، وقدرته الشاملة[5].

﴿ 94 - 95 ﴾ ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ هل هو صحيح أم غير صحيح ﴿ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ اسأل أهل الكتب المنصفين فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به وموافقته لما معهم[6] ﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ ﴾ الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه ﴿ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ وحاصل هذا أن الله نهى عن شيئين: الشك في هذا القرآن والامتراء فيه ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ وأشد من ذلك التكذيب به، ورتب على هذا الخسار، وهو عدم الربح أصلاً.

---

[5] وهذا هو الداء، الذي يعرض لأهل الدين الصحيح: أن الشيطان إذا أعجزوه أن يطيعوه في ترك الدين بالكلية، سعى في إلقاء العداوة والبغضاء. فحصل من الاختلاف ما هو موجب ذلك، ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض، وعداوة بعضهم لبعض، ما هو قرة عين اللعين

1- لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق. وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين، كعبد الله بن سلام وأصحابه وكثير ممن أسلم في وقت النبي صلى الله عليه وسلم، وخلفائه، ومن بعده و كعب الأحبار وغيرهما.

2- لأن شهادة أهل الكتاب للرسول صلى الله عليه وسلم مبنية على كتابهم التوراة الذي ينتسبون إليه.

3- لأن الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه، وأظهر ذلك وأعلنه على رءوس الأشهاد. ولو كان عندهم ما يردّ ما ذكره الله، لأبدوه وأظهروه وبينوه.

4- لم يردّ أكثر أهل الكتاب دعوة الرسول، بل استجاب لها أكثرهم. فقد انقاد للإسلام أكثر أهل الشام، ومصر، والعراق، وما جاورها من البلدان التي هي مقر دين أهل الكتاب، ولم يبق إلا أهل الرياسات الذين آثروا رياساتهم على الحق، ومن تبعهم من العوام الجهلة.

﴿ 96 – 97 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ هم من الضالين الغاوين أهل النار ﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ فلا تزيدهم الآيات إلا طغيانا. حينها يعلمون حق اليقين أن ما هم عليه هو الضلال، وأن ما جاءتهم به الرسل هو الحق ﴿ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ ولكن في وقت لا يجدي عليهم إيمانهم شيئًا.

﴿ 98 ﴾ ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ﴾ من قرى المكذبين ﴿ آمَنَتْ ﴾ حين رأت العذاب ﴿ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ﴾ لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه حين رأى العذاب. لأن الإيمان الاضطراري ليس بإيمان حقيقة، ولو صرف عنه العذاب لرجع إلى الكفران ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا ﴾ بعدما رأوا العذاب ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ فهم مستثنون من العموم السابق. ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة لم تصل إلينا ولم تدركها أفهامنا. ولعل الحكمة في ذلك أن غيرهم من المهلكين لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه. وأما قوم يونس فإن الله علم أن إيمانهم سيستمر وقد استمر فعلا، والله أعلم.

﴿ 99 – 100 ﴾ ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ بأن يلهمهم الإيمان، ويوزع قلوبهم للتقوى، ولكنه اقتضت حكمته أن كان بعضهم مؤمنين، وبعضهم كافرين ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ لا تقدر على ذلك، وليس في إمكانك، ولا قدرة لغير الله على شيء من ذلك ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بإرادته ومشيئته. ﴿ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ ﴾ أي الشر والضلال ﴿ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ عن الله أوامره ونواهيه، ولا يلقوا بالا لنصائحه ومواعظه.

﴿ 101 – 103 ﴾ ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ * فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يدعو تعالى عباده إلى النظر لما في السماوات والأرض، نظر الفكر والاعتبار والتأمل. فإن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون، تدل على أن الله وحده ﴿ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فإنهم لا ينتفعون بالآيات لإعراضهم وعنادهم ﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ ﴾ فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله، بعد وضوحها ﴿ إِلَّا

﴿ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الهلاك والعقاب ﴿ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ فستعلمون من تكون له العاقبة الحسنة والنجاة في الدنيا والآخرة، وليست إلا للرسل وأتباعهم ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ من مكاره الدنيا والآخرة وشدائدهما ﴿ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا ﴾ أوجبناه على أنفسنا ﴿ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، وبحسب ما مع العبد من الإيمان تحصل له النجاة من المكاره.

﴿ 104 - 106 ﴾ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ﴾ في ريب واشتباه، فإني لست في شك منه بل لدي العلم اليقيني أنه الحق ﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ من الأنداد والأصنام وغيرها ﴿ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ هو الله الذي خلقكم وهو الذي يميتكم ثم يبعثكم ليجازيكم بأعمالكم ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة لله، وأقم جميع شرائع الدين حنيفًا، مقبلاً على الله، معرضًا عما سواه ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ لا في حالهم، ولا تكن معهم ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ وهذا وصف لكل مخلوق، أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار هو الله تعالى ﴿ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ الضارين أنفسهم بإهلاكها، وهذا الظلم هو الشرك.

﴿ 107 ﴾ ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة فإنه النافع الضار المعطي المانع، الذي إذا مس بضر كفقر ومرض ونحوها ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ ولهذا قال ﴿ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ لا يقدر أحد من الخلق، أن يرد فضله وإحسانه ﴿ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ يختص برحمته من شاء من خلقه والله ذو الفضل العظيم ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ ﴾ لجميع الزلات ويوفق عبده لأسباب مغفرته ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء.

﴿ 108 - 109 ﴾ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ يا أيها الرسول، لما تبين البرهان ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ الخبر الصادق المؤيد بالبراهين الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى ﴾ بهدى الله بأن علم الحق وتفهمه﴿ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ ﴾ عن الهدى بأن أعرض عن العلم بالحق، أو عن العمل به ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ ولا يضر إلا نفسه ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ وإنما أنا لكم نذير

مبين، والله عليكم وكيل ﴿ وَاتَّبِعْ ﴾ أيها الرسول ﴿ مَا يُوحَى إِلَيْكَ ﴾ علمًا، وعملاً، وحالاً، ودعوة إليه ﴿ وَاصْبِرْ ﴾ على ذلك، ﴿ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾ بينك وبين من كذبك ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ فإن حكمه، مشتمل على العدل التام، والقسط الذي يحمد عليه. وقد امتثل صلى الله عليه وسلم أمر ربه، وثبت على الصراط المستقيم، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، ونصره على أعدائه.

فلله الحمد والثناء الحسن، كما ينبغي لجلاله، وعظمته، وكماله وسعة إحسانه.

تم تفسير سورة يونس

والحمد لله رب العالمين.

11

مختصر تفسير سورة هود عليه الصلاة والسلام

عدد آياتها 123

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 – 4 ﴾ ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ الر ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها. هذا ﴿ كِتَابٌ ﴾ عظيم ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ أتقنت وأحسنت ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ ميزت وبينت بيانا في أعلى أنواع البيان ﴿ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ ﴾ يضع الأشياء مواضعها، لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته ﴿ خَبِيرٍ ﴾ مطلع على الظواهر والبواطن ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ بإخلاص الدين كله لله، وأن لا يشرك به أحد من خلقه ﴿ إِنَّنِي لَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ مِنْهُ ﴾ من الله ربكم ﴿ نَذِيرٌ ﴾ لمن تجرأ على المعاصي بعقاب الدنيا والآخرة ﴿ وَبَشِيرٌ ﴾ للمطيعين لله بثواب الدنيا والآخرة ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ عن ما صدر منكم من الذنوب ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ بالإنابة والرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه ﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا ﴾ يعطيكم من رزقه ما تتمتعون به وتنتفعون ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ إلى وقت وفاتكم ﴿ وَيُؤْتِ ﴾ منكم ﴿ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبره ما هو جزاء لإحسانهم ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ عن ما دعوتكم إليه، بل أعرضتم عنه وربما كذبتم به ﴿ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ وهو يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، فيجازيهم بأعمالهم ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فإنه قدير على كل شيء، ومن جملة الأشياء إحياء الموتى.

﴿ 5 ﴾ ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ ﴾ يخبر تعالى عن ضلال المشركين أنهم ﴿ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ يميلونها ﴿ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ من الله ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ يتغطون بها، فإنه يعلمهم في ذلك الخفاء و﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ﴾ من الأقوال والأفعال ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ منها، بل ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ من الإرادات والوساوس والأفكار وغيرها، فكيف تخفى عليه حالكم إذا ثنيتم صدوركم لتستخفوا منه؟ ويحتمل أن يكون المعنى: من شدة إعراض المكذبين للرسول عن دعوته، فإنهم يثنون صدورهم، أي يحدودبون حين يرون الرسول صلى الله عليه وسلم لئلا يراهم ويعظهم. ثم توعدهم بعلمه تعالى بجميع أحوالهم وأنهم لا يخفون عليه، وسيجازيهم بصنيعهم.

الجزء الثاني عشر 12

﴿ 6 ﴾ ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ جميع ما دب على وجه الأرض، فالله تعالى قد تكفل بأرزاقهم وأقواتهم ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ أي المكان الذي تقيم فيه وتأوي إليه ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها ومجيئها ﴿ كُلٌّ ﴾ من تفاصيل أحوالها موجود ﴿ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ في اللوح المحفوظ المحتوي على جميع الحوادث الواقعة في السماوات والأرض. أحاط بها جميعها علمُ الله، وجرى بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته، ووسعها رزقه. فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها.

﴿ 7 – 8 ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ﴿ وَ ﴾ حين خلق السماوات والأرض ﴿ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ فوق السماء السابعة. فبعد أن خلق السماوات والأرض استوى عليه، يدبر الأمور، ويصرفها كيف شاء ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ليمتحنكم، إذ خلق لكم ما في السماوات والأرض بأمره ونهيه، فينظر أيكم أحسن عملا، في الصواب والإخلاص ﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ ﴾ لهؤلاء وأخبرتهم ﴿ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ ﴾ كذبوك و ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ ألا وهو الحق المبين ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴾ إلى وقت مقدر فتباطأوه ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ لقالوا من جهلهم وظلمهم ﴿ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ ومضمون هذا تكذيبهم به، فإنهم يستدلون بعدم وقوعه بهم عاجلا، على كذب الرسول ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ العذاب ﴿ لَيْسَ مَصْرُوفًا

﴿ عَنْهُمْ ﴾ فيتمكنون من النظر في أمرهم ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أي نزل ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ به، حتى جزموا بكذب من جاء به.

﴿ 9 - 10 ﴾ ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ الإنسان جاهل ظالم إذا أذاقه الله رحمة كالصحة والرزق والأولاد ﴿ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾ فإنه يستسلم لليأس فلا يرجو ثواب الله ولا يخطر بباله أن الله سيردها أو مثلها أو خيرا منها عليه ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ فهو يفرح ويبطر ويظن أنه سيدوم له ذلك الخير ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ بما أوتي مما يوافق هوى نفسه، وذلك يحمله على الأشر والبطر والإعجاب بالنفس والتكبر على الخلق واحتقارهم وازدرائهم ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم، يزول بها عنهم كل محذور ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وهو الفوز بجنات النعيم.

﴿ 12 - 14 ﴾ ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ لا ينبغي هذا لمثلك فيؤثر قولهم فيك ويصدك عما أنت عليه فتترك بعض ما يوحى إليك ويضيق صدرك ﴿ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ فهذا قول ناشئ من تعنت وضلال، فامض على أمرك وليس عليك حسابهم ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ فهو الوكيل عليهم يحفظ أعمالهم ويجازيهم بها أتم الجزاء ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ افترى محمد هذا القرآن؟ فأجابهم ﴿ قُلْ ﴾ لهم إذا كان قد افتراه، فإنه لا فرق بينكم وبينه في الفصاحة والبلاغة ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وخاصة أنكم أعداء حريصون على إبطال دعوته ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ على شيء من ذلكم ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ ﴾ من عند الله ﴿ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ ﴾ اعلموا ﴿ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وحده المستحق للألوهية والعبادة ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ منقادون لألوهيته، مستسلمون لعبوديته[1].

[1] وفي هذه الآيات إرشاد إلى أنه لا ينبغي للداعي إلى الله أن يصده اعتراض المعترضين، ولا يضيق صدره، بل يطمئن بذلك، ماضيا على أمره. وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين للأدلة التي يختارونها. لأن هذا القرآن، معجز بنفسه، لا يقدر أحد من البشر أن يأتي بمثله، ولا بعشر سور من مثله، بل ولا بسورة من مثله.

﴿ 15 - 16 ﴾ ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ فهذا لا يكون إلا كافرا، لأنه لو كان مؤمنا لمنعه ايمانه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا فأولئك ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾ نعطيهم ما قسم لهم في أم الكتاب من ثواب الدنيا ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ لا ينقصون شيئا مما قدر لهم، ولكن هذا منتهى نعيمهم و ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ﴾ خالدين فيها أبدا، لا يفتَّر عنهم العذاب ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وبطل واضمحل ما عملوه في الدنيا مما يكيدون به الحق وأهله، وما عملوه من أعمال الخير التي لا وجود لشرطها أي الإيمان.

﴿ 17 ﴾ ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ بالوحي الذي أنزل الله فيه المسائل المهمة ودلائلها الظاهرة، فتيقن تلك البينة ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ يتلو هذه البينة والبرهان ويتبعه برهان آخر ﴿ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ وهو شاهد الفطرة المستقيمة والعقل الصحيح، يشهد حقيقة ما أوحاه الله وشرعه، وعلم بعقله حسنه فازداد بذلك إيمانا ﴿ وَ ﴾ الشاهد الثالث ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ هو ﴿ كِتَابُ مُوسَى ﴾ التوراة التي جعلها الله ﴿ إِمَامًا ﴾ للناس ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لهم يشهد لهذا القرآن بالصدق، ويوافقه فيما جاء به من الحق. أي أفمن كان بهذا الوصف قد تواردت عليه شواهد الإيمان كمن هو في ظلمات الجهالة ليس بخارج منها! لا يستوون عند الله ولا عند عباده ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الذين وفقوا لقيام الأدلة عندهم ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ بالقرآن حقيقة، فيثمر لهم إيمانهم كل خير في الدنيا والآخرة ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ﴾ أي القرآن ﴿ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ أي سائر طوائف أهل الأرض المتحزبة على رد الحق ﴿ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ لا بد من وروده إليها ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ منه ﴾ في أدنى شك ﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ إما جهلا منهم وضلالا، وإما ظلما وعنادا وبغيا.

﴿ 18 - 22 ﴾ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ *أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي لا أحد. ويدخل في هذا كل من كذب على الله بنسبة الشريك له أو وصفه بما لا يليق بجلاله أو الإخبار عنه بما لم يقل أو ادعاء النبوة أو غير ذلك ﴿ أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ ﴾

ليجازيهم بظلمهم ﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ ﴾ الذين شهدوا عليهم بافترائهم وكذبهم، عندما يحكم على الكاذبين بالعقاب الشديد ﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ لعنة لا تنقطع، لأن ظلمهم صار وصفا لهم ملازما لا يقبل التخفيف ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ بأنفسهم كما صدوا غيرهم عنها فصاروا أئمة يدعون إلى النار﴿ وَيَبْغُونَهَا ﴾ سبيل الله ﴿ عِوَجًا ﴾ يجتهدون في ميلها وتهجينها لتصير عند الناس غير مستقيمة، فيحسنون الباطل ويقبحون الحق، قبحهم الله ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ. أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ليسوا فائتين الله، لأنهم تحت قبضته وفي سلطانه ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ فيدفعون عنهم المكروه، بل تقطعت بهم الأسباب ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ يغلظ ويزداد، لأنهم ضلوا بأنفسهم وأضلوا غيرهم ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ من بغضهم للحق ونفورهم عنه ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا آيات الله وإنما هم كالصم البكم الذين لا يعقلون ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ حيث فوتوها أعظم الثواب واستحقوا أشد العذاب ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ اضمحل دينهم الذي يدعون إليه ويحسنونه، ولم تغن عنهم آلهتهم التي يعبدون من دون الله لما جاء أمر ربك ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي حقا وصدقا ﴿ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ حصر الخسار فيهم، بل جعل لهم منه أشده، لشدة حسرتهم وحرمانهم.

﴿ 23 - 24 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بقلوبهم وصدقوا واعترفوا لما أمر الله بالإيمان به، من أصول الدين وقواعده ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ المشتملة على أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان ﴿ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ ﴾ خضعوا له وأنابوا إليه بمحبته وخوفه ورجائه والتضرع إليه ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الذين جمعوا تلك الصفات ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ لأنهم لم يتركوا خيرا إلا سبقوا إليه ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ ﴾ الأشقياء والسعداء ﴿ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ ﴾ هو مثل الأشقياء ﴿ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾ هو مثل السعداء ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ بل بينهما من الفرق ما لا يأتي عليه الوصف ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ الأعمال التي تنفعكم فتفعلونها، والأعمال التي تضركم فتتركونها.

﴿ 25 - 49 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّـهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ * وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّـهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّـهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّـهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّـهُ خَيْرًا اللَّـهُ

أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّـهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّـهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ * وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّـهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّـهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ * قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ أول المرسلين ﴿ إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ يدعوهم إلى الله وينهاهم عن الشرك فقال لهم ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ بينت لكم ما أنذرتكم به بيانا زال به الإشكال ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ أخلصوا العبادة لله وحده، واتركوا كل ما يعبد من دون الله ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ إن لم تقوموا بتوحيد الله وتطيعوني ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ ﴾ الأشراف والرؤساء رادين لدعوة نوح عليه السلام ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ وهذا مانع بزعمهم عن اتباعه ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ ما نرى اتبعك إلا الأراذل والسفلة بزعمهم ﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ وإنما اتبعوك من غير تفكر وروية، وليسوا على بصيرة من أمرهم ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ ولستم أفضل منا فننقاد لكم ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ وكذبوا هم في قولهم هذا ﴿ قَالَ ﴾ لهم نوح مجاوبا ﴿ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ على يقين وجزم، يعني أنه الرسول الكامل القدوة، فحسبك بقوله شهادة له وتصديقا ﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ ﴾ أوحى إلي وأرسلني ومنَّ علي بالهداية ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ خفيت عليكم وبها تثاقلتم ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ أنكرهكم على ما تحققناه، وشككتم أنتم فيه؟ ﴿ وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ حتى حرصتم على رد ما جئت به، ليس ذلك ضارنا، وليس بقادح من يقيننا فيه. فإذا وصلت الحال إلى هذه الغاية، فلا نقدر على إكراهكم على ما أمر الله، ولا

إلزامكم ما نفرتم عنه ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على دعوتي إياكم ﴿ مَالًا ﴾ فتستثقلون المغرم ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ وكأنهم طلبوا منه طرد المؤمنين الضعفاء فقال لهم ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ما ينبغي لي ولا يليق بي ذلك بل أتلقاهم بالرحب والإكرام ﴿ إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ ﴾ فمثيبهم على إيمانهم وتقواهم بجنات النعيم ﴿ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ حيث تأمرونني بطرد أولياء الله ﴿ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ﴾ من يمنعني من عذابه فإن طردهم موجب للعذاب والنكال الذي لا يمنعه من دون الله مانع ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ما هو الأنفع لكم والأصلح، وتدبرون الأمور ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾ غايتي أني رسول الله إليكم، أبشركم وأنذركم، وليست خزائن الله عندي ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ فأخبركم بسرائركم وبواطنكم ﴿ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ والمعنى أني لا أدعي رتبة فوق رتبتي، ولا منزلة سوى المنزلة التي أنزلني الله بها ولا أحكم على الناس بظني ﴿ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ ﴾ ضعفاء المؤمنين، الذين يحتقرهم الملأ الذين كفروا ﴿ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ فإن كانوا صادقين في إيمانهم فلهم الخير الكثير، وإن كانوا غير ذلك فحسابهم على الله ﴿ إِنِّي إِذًا ﴾ أي إن قلت لكم شيئا مما تقدم ﴿ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ وهذا تأييس منه عليه الصلاة والسلام لقومه أن ينبذ فقراء المؤمنين. فلما رأوه لا ينكف عما كان عليه من دعوتهم ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من العذاب ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فما أجهلهم وأضلهم، حيث عدلوا إلى الاستعجال بالعذاب وتعجيز الله. ولهذا أجابهم نوح عليه السلام ﴿ قَالَ ﴾ لهم بقوة ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ ﴾ فإن اقتضت مشيئته وحكمته أن ينزله بكم، فعل ذلك ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ لله، وأنا ليس بيدي من الأمر شيء ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ إن إرادة الله غالبة، فإنه إذا أراد أن يغويكم، وحرصت أنا غاية مجهودي ونصحت لكم أتم النصح، وهو قد فعل عليه السلام، فليس ذلك بنافع لكم شيئا ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ يفعل بكم ما يشاء ويحكم فيكم بما يريد ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازيكم بأعمالكم. ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ هذا الضمير محتمل أن يعود إلى نوح، كما كان السياق في قصته مع قومه، وأن المعنى أن قومه يقولون افترى على الله كذبا وكذب بالوحي الذي يزعم أنه من الله. فأمره الله أن يقول لهم ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ كل عليه وزره. ويحتمل أن يكون الضمير عائدا إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم وتكون هذه الآية معترضة في أثناء قصة نوح وقومه. فإذا زعموا – مع هذا – أنه افتراه، علم أنهم معاندون، واللائق في هذه الحال الإعراض عنهم ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي ﴾ ذنبي وكذبي ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ فلم تستلجون في تكذيبي؟ ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ قد قسوا ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ فلا تحزن ولا تبال بهم وبأفعالهم فإن الله قد مقتهم، وأحق عليهم عذابه الذي لا يرد ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ بحفظنا ومرأى منا وعلى مرضاتنا ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ لا تراجعني في إهلاكهم ﴿ إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ قد حق عليهم القول ونفذ فيهم القدر. فامتثل أمر ربه ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ﴾ وجعل يصنع الفلك ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ ورأوا ما يصنع ﴿ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا ﴾ الآن ﴿ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ نحن أم أنتم.

وقد علموا ذلك، حين حل بهم العقاب ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أي قدرنا وحان وقت نزول العذاب بهم ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ أنزل الله السماء بالماء بالمنهمر، وفجر الأرض كلها عيونا حتى التنانير التي هي محل النار في العادة، وأبعد ما يكون عن الماء، تفجرت فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴿ قُلْنَا ﴾ لنوح ﴿ احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ من كل صنف من أصناف المخلوقات، ذكر وأنثى، لتبقى مادة سائر الأجناس ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ ممن كان كافرا، كابنه الذي غرق ﴿ وَمَنْ آمَنَ وَ ﴾ الحال أنه ﴿ مَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ. وَقَالَ ﴾ نوح لمن أمره الله أن يحملهم ﴿ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ تجري على اسم الله، وترسو على اسم الله، وتجري بتسخيره وأمره ﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ حيث غفر لنا ورحمنا، ونجانا من القوم الظالمين. ثم وصف جريانها كأنا نشاهدها فقال ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ ﴾ بنوح ومن ركب معه ﴿ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ والله حافظها، وحافظ أهلها ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾ عندما ركب، ليركب معه ﴿ وَكَانَ ﴾ أي ابنه ﴿ فِي مَعْزِلٍ ﴾ عنهم حين ركبوا، أي مبتعدا وأراد منه أن يقرب ليركب، فقال له ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ فيصيبك ما يصيبهم. لكنه ﴿ قَالَ ﴾ مكذبا لأبيه أنه لا ينجو إلا من ركب معه السفينة ﴿ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ سأرتقي جبلا أمتنع به من الماء ﴿ قَالَ ﴾ نوح ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ فلا يعصم أحدا جبل ولا غيره إن لم ينجه الله ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ ﴾ أي الابن ﴿ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ فلما أغرقهم الله ونجى نوحا ومن معه ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾ الذي خرج منك، والذي نزل إليك ﴿ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ فامتثلتا لأمر الله ﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ ﴾ فنضب الماء من الأرض ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ بهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين ﴿ وَاسْتَوَتْ ﴾ السفينة ﴿ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ أرست على ذلك الجبل المعروف في أرض الموصل ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أتبعوا بعد هلاكهم لعنة وبعدا وسحقا لا يزال معهم ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ﴾ ولن تخلف ما وعدتني به. لعله عليه الصلاة والسلام حملته الشفقة، وأن الله وعده بنجاة أهله، ظن أن الوعد لعمومهم، من آمن ومن لم يؤمن. فلذلك دعا ربه بذلك الدعاء، ومع هذا ففوض الأمر ﴿ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ لحكمة الله البالغة ف ﴿ قَالَ ﴾ الله له ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ الذين وعدتك بإنجائهم ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ هذا الدعاء الذي دعوت به، لنجاة كافر لا يؤمن بالله ولا رسوله ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ما لا تعلم عاقبته ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أني أعظك وعظا تكون به من الكاملين. فحينئذ ندم نوح عليه السلام ندامة شديدة على ما صدر منه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ. قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ﴾ من الآدميين وغيرهم من الأزواج التي حملها معه، فبارك الله في الجميع، حتى ملأوا أقطار الأرض ونواحيها ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وإن متعوا قليلا، فسيؤخذون بعد ذلك. قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بعد ما قص عليه هذه القصة المبسوطة، التي لا يعلمها إلا من منَّ عليه برسالته ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ فيقولوا إنه كان يعلمها.

فاحمد الله و ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ على ما أنت عليه من الدين القويم والدعوة إلى الله ﴿ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين يتقون الشرك وسائر المعاصي، فستكون لك العاقبة على قومك، كما كانت لنوح على قومه.

﴿ 50 – 60 ﴾ ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّـهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ * قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّـهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّـهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ* فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ *وَأُتْبِعُوا فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾

﴿ وَ ﴾ أرسلنا ﴿ إِلَى عَادٍ ﴾ وهم القبيلة المعروفة في الأحقاف من أرض اليمن ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ في النسب ﴿ هُودًا ﴾ ليتمكنوا من الأخذ عنه والعلم بصدقه. فـ ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ أمرهم بعبادة الله وحده، وأخبرهم أنهم قد افتروا على الله الكذب في عبادتهم لغيره. ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ غرامة من أموالكم على ما دعوتكم إليه فتقولوا: هذا يريد أن يأخذ أموالنا، وإنما أدعوكم وأعلمكم مجانا ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ما أدعوكم إليه، وأنه موجب لقبوله، منتفٍ المانع عن رده ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ عما مضى منكم ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ فيما تستقبلونه بالتوبة النصوح، والإنابة إلى الله تعالى. فإنكم إذا فعلتم ذلك ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ بكثرة الأمطار التي تخصب بها الأرض، ويكثر خيرها ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ وعدهم أنهم إن آمنوا زادهم قوة إلى قوتهم ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا ﴾ عن ربكم ﴿ مُجْرِمِينَ ﴾ مستكبرين عن عبادته متجرئين على محارمه ﴿ قَالُوا ﴾ رادين لقوله ﴿ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ من التي يقترحونها. ولو لم يكن له آية إلا دعوته إياهم لإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، مع ما هو مشتمل عليه هود عليه السلام من الصفات التي لا تكون إلا لخيار الخلق وأصدقهم، لكفى بها آيات وأدلة على صدقه. ومن آياته وبيناته الدالة على صدقه، أنه شخص واحد ليس له أنصار ولا أعوان ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ ﴾ لا نترك عبادة آلهتنا لمجرد قولك، الذي ما أقمت عليه بينة بزعمهم ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وهذا تأييس منهم لنبيهم هود عليه السلام في إيمانهم، وأنهم لا يزالون في كفرهم يعمهون ﴿ إِنْ نَقُولُ ﴾ فيك ﴿ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ أصابتك بخبال وجنون، فصرت تهذي بما لا يعقل. ولهذا بين هود عليه الصلاة والسلام أنه واثق غاية الوثوق، أنه لا يصيبه منهم، ولا من آلهتهم أذى ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ﴾ اطلبوا لي الضرر لكم، بكل طريق تتمكنون بها مني ﴿ ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴾ لا تمهلوني ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾ اعتمدت في أمري كله على الله ﴿ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ هو خالق الجميع، ومدبرنا

وإياكم. ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ فلا تتحرك ولا تسكن إلا بإذنه. فلو اجتمعتم جميعا على الإيقاع بي، والله لم يسلطكم علي لم تقدروا على ذلك فـ ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ على عدل وقسط وحكمة وحمد في قضائه وقدره، في شرعه وأمره، لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم، التي يحمد ويثنى عليه بها ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ عما دعوتكم إليه ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ فلم يبق عليَّ تبعة من شأنكم ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ يقومون بعبادته ولا يشركون به شيئا ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ﴾ ضرركم يعود عليكم، فالله لا تضره معصية ولا تنفعه طاعة ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ . وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ عذابنا بإرسال الريح العقيم ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ عظيم شديد، أحله الله بعاد ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ الذين أوقع الله بهم ما أوقع، بظلم منهم لأنهم ﴿ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ بعدما تبين أنهم متيقنون لدعوة هود، وإنما عاندوا وجحدوا ﴿ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾ لأن من عصى رسولا فقد عصى جميع المرسلين لأن دعوتهم واحدة ﴿ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ ﴾ متسلط على عباد الله ﴿ عنيد ﴾ معاند لآيات الله ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ فكل وقت وجيل، إلا ولأنبائهم القبيحة، ذكر يذكرون به وذم يلحقهم ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ لهم أيضا لعنة ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ جحدوا من خلقهم ورزقهم ورباهم ﴿ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ أبعدهم الله عن كل خير وقربهم من كل شر.

﴿ 61 - 68 ﴾ ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّـهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ * قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّـهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ * وَيَا قَوْمِ هَـٰذِهِ نَاقَةُ اللَّـهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّـهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾

﴿ وَ ﴾ أرسلنا ﴿ إِلَى ثَمُودَ ﴾ وهم عاد الثانية، المعروفون الذين يسكنون الحجر ووادي القرى ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ في النسب ﴿ صَالِحًا ﴾ عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى عبادة الله وحده فـ ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وحدوه، وأخلصوا له الدين ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ لا في السماء ولا في الأرض ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ خلقكم فيها ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ استخلفكم فيها، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، فكما أنه لا شريك له في جميع ذلك فلا تشركوا به في عبادته ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ مما صدر منكم من الكفر والشرك والمعاصي وأقلعوا عنها ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ ارجعوا إليه بالتوبة النصوح والإنابة ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ قريب ممن دعاه دعاء مسألة أو دعاء عبادة، يجيبه بإعطائه سؤله وقبول عبادته وإثابته عليها. ولهذا يقرن باسمه "القريب" اسمه "المجيب". ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع، وهذا شهادة منهم، لنبيهم صالح بمكارم الأخلاق وأنه من خيار قومه ﴿ أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ ولكنه لما جاءهم بما لا يوافق أهواءهم الفاسدة قالوا كنت كاملا وصرت بحالة لا يرجى منك خير ﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ

﴾ ما زلنا شاكين فيما دعوتنا إليه وبزعمهم أنهم لو علموا صحة ما دعاهم إليه لاتبعوه ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ ويقين مني ﴿ وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ ومنَّ علي برسالته ووحيه، فهل أتابعكم على ما أنتم عليه، وما تدعونني إليه ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ غير خسار وتباب وضرر ﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ لها شرب من البئر يوما ثم يشربون كلهم من ضرعها، ولهم شرب يوم معلوم ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ﴾ ليس عليكم من مؤنتها وعلفها شيء ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ بعقر ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ. فَعَقَرُوهَا فَقَالَ ﴾ لهم صالح عليه السلام ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ بل لا بد من وقوعه ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ بوقوع العذاب ﴿ نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ نجيناهم من العذاب والخزي والفضيحة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ ومن قوته وعزته، أن أهلك الأمم الطاغية، ونجى الرسل وأتباعهم ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ العظيمة فقطعت قلوبهم ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ خامدين لا حراك لهم ﴿ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ كأنهم لما جاءهم العذاب ما تمتعوا في ديارهم، ولا أنسوا بها ولا تنعموا بها يوما من الدهر ﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ جحدوه بعد أن جاءتهم الآية المبصرة ﴿ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴾ فما أشقاهم وأذلهم.

﴿ 69 – 83 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ *قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّـهِ رَحْمَتُ اللَّـهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ * فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ * وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّـهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ *فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا ﴾ من الملائكة الكرام، رسولنا ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿ بِالْبُشْرَى ﴾ بالبشارة بالولد. حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم أن يمروا على إبراهيم، فيبشروه بإسحاق، فلما دخلوا عليه ﴿ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ

﴿ سلموا عليه، ورد عليهم السلام[2] ﴿ فَمَا لَبِثَ ﴾ إبراهيم لما دخلوا عليه ﴿ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ استحضر لأضيافه عجلا مشويا على الرضف سمينا، فقربه إليهم فقال ألا تأكلون؟ ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ ﴾ إلى تلك الضيافة ﴿ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ وظن أنهم أتوه بشر ومكروه، وذلك قبل أن يعرف أمرهم. فـ ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ أرسلنا الله إلى إهلاك قوم لوط. ﴿ وَامْرَأَتُهُ ﴾ وامرأة إبراهيم ﴿ قَائِمَةٌ ﴾ تخدم أضيافه ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ حين سمعت بحالهم، وما أرسلوا به، تعجبا ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ فتعجبت من ذلك و ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ فهذان مانعان من وجود الولد ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ. قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ فإن أمره لا عجب فيه، لنفوذ مشيئته التامة في كل شيء ﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ لا أفعاله إحسان تزال رحمته وإحسانه وبركاته، وهي الزيادة من خيره وإحسانه وحلول الخير الإلهي ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ ﴾ صفاته صفات كمال وأفعاله إحسان وحكمة وعدل ﴿ مَجِيدٌ ﴾ والمجد هو عظمة الصفات وسعتها. فله من كل صفةِ كمالٍ أكملها وأعمها ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ﴾ الذي أصابه من خيفة أضيافه ﴿ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى ﴾ بالولد، التفت ﴿ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ إلى مجادلة الرسل في إهلاك قوم لوط ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ ﴾ ذو خلق حسن وسعة صدر عند جهل الجاهلين ﴿ أَوَّاهٌ ﴾ متضرع إلى الله في جميع الأوقات ﴿ مُنِيبٌ ﴾ رجَّاع إلى الله بمعرفته ومحبته، والإقبال عليه والإعراض عمن سواه، فلذلك كان يجادل عمن حتَّم الله بهلاكهم. فقيل له ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ الجدال ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ بهلاكهم ﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ فلا فائدة في جدالك ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا ﴾ الملائكة وأتوا ﴿ لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ﴾ شق عليه مجيئهم ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ شديد حرج، لأنه علم أن قومه لا يتركونهم، لأنهم في صور شباب في غاية الكمال والجمال، ولهذا وقع ما خطر بباله ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ يسرعون ويريدون أضيافه بالفاحشة التي كانوا يعملونها ﴿ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ التي ما سبقهم عليها أحد من العالمين ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ من أضيافي. والمقصود الأعظم هو دفع هذه الفاحشة الكبرى ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ إما أن تراعوا تقوى الله، وإما أن تراعوني في ضيفي، ولا تخزون عندهم ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ فينهاكم ويزجركم، وهذا دليل على مروجهم وانحلالهم، من الخير والمروءة فـ ﴿ قَالُوا ﴾ له ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ لا نريد إلا الرجال، ولا لنا رغبة في النساء. فاشتد قلق لوط عليه الصلاة والسلام، و ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ كقبيلة مانعة، لمنعتكم. وهذا بحسب الأسباب المحسوسة، وإلا فإنه يأوي إلى أقوى الأركان وهو الله، الذي لا يقوم لقوته أحد. ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه واشتد الكرب ﴿ قَالُوا ﴾ له ﴿ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ أخبروه بحالهم ليطمئن قلبه ﴿ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ بسوء. وأمر الملائكة لوطا ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ أن يسري بأهله ﴿ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ بجانب منه قبل الفجر بكثير، ليتمكنوا من البعد عن قريتهم ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ﴾ بادروا بالخروج، وليكن همكم النجاة ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا ﴾ من العذاب ﴿ مَا أَصَابَهُمْ ﴾ لأنها تشارك

---

[2] ففي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام، وأن السلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الرد، أبلغ من الابتداء, لأن سلامهم بالجملة الفعلية، الدالة على التجدد، ورده بالجملة الاسمية، الدالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية.

قومها في الإثم، فتدلهم على أضياف لوط، إذا نزل به أضياف ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ﴾ فكأن لوطا استعجل ذلك فقيل له ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ. فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ بنزول العذاب وإحلاله فيهم ﴿ جَعَلْنَا ﴾ ديارهم ﴿ عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ قلبناها عليهم ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ من حجارة النار الشديدة الحرارة ﴿ مَنْضُودٍ ﴾ تتبع من شذ عن القرية ﴿ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ عليها علامة العذاب والغضب ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ الذين يشابهون لفعل قوم لوط ﴿ بِبَعِيدٍ ﴾ فليحذر العباد أن يفعلوا كفعلهم، لئلا يصيبهم ما أصابهم.

﴿ 84 - 95 ﴾ ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ *وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ *وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ *وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾

﴿ وَ ﴾ أرسلنا ﴿ إِلَى مَدْيَنَ ﴾ القبيلة المعروفة، الذين يسكنون مدين في أدنى فلسطين ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ في النسب ﴿ شُعَيْبًا ﴾ لأنهم يعرفونه وليتمكنوا من الأخذ عنه ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ أخلصوا له العبادة ﴿ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾ بل أوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴿ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ بنعمة كثيرة وصحة وكثرة أموال وبنين فاشكروا الله على ما أعطاكم ولا تكفروا بنعمة الله فيزيلها عنكم ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾ عذابا يحيط بكم ولا يبقي منكم باقية ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل الذي ترضون أن تعطوه ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ لا تنقصوا من أشياء الناس، فتسرقوها بنقص المكيال والميزان ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ فإن الاستمرار على المعاصي يفسد الأديان والعقائد ويهلك ﴿ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ يكفيكم ما أبقى الله لكم من الخير، وما هو لكم فلا تطمعوا في أمر ضار لكم جدا ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فاعملوا بمقتضى الإيمان ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ لست بحافظ لأعمالكم ووكيل عليها، وإنما الذي يحفظها الله تعالى. وأما أنا فأبلغكم ما أرسلت به. ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ قالوا ذلك على وجه التهكم بنبيهم، والاستبعاد لإجابتهم له فكيف نتبعك، ونترك آباءنا الأقدمين أولي العقول والألباب! ﴿ أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي

﴿ أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ ما قلت لنا من وفاء الكيل والميزان، بل سنفعل فيها ما شئنا لأنها أموالنا. ولهذا قالوا في تهكمهم ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ وقصدهم أنه موصوف بعكس هذين الوصفين. والمعنى كيف تكون أنت الحليم الرشيد، وآباؤنا هم السفهاء الغاوون! ﴿ قَالَ ﴾ لهم شعيب ﴿ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ يقين وطمأنينة، في صحة ما جئت به ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أعطاني الله من أصناف المال ما أعطاني ﴿ وَمَا ﴾ أنا لا ﴿ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ فلست أريد أن أنهاكم عن البخس في المكيال والميزان، وأفعله أنا. بل ما أنهاكم عن أمر إلا وأنا أول مبتدر لتركه ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ ليس لي من المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم. ولما كان هذا فيه نوع تزكية للنفس، دفع هذا بقوله ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ وما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير إلا بالله تعالى، لا بحولي ولا بقوتي ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ اعتمدت في أموري، ووثقت في كفايته ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ﴾ لا تحملنكم مخالفتي ومشاقتي ﴿ أَنْ يُصِيبَكُمْ ﴾ من العقوبات ﴿ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ لا في الدار ولا في الزمان ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ عما اقترفتم من الذنوب ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ فيما يستقبل من أعماركم بالتوبة النصوح، والإنابة إليه بطاعته وترك مخالفته ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ لمن تاب وأناب، يرحمه فيغفر له ويتقبل توبته ويحبه. ومعنى الودود، من أسمائه تعالى، أنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه، فهو "فعول" بمعنى "فاعل" وبمعنى "مفعول" ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ ﴾ تضجروا من نصائحه ومواعظه لهم، وذلك لبغضهم لما يقول ونفرتهم عنه ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ في نفسك، لست من الكبار والرؤساء بل من المستضعفين ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ ﴾ جماعتك وقبيلتك ﴿ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ ليس لك احترام في أنفسنا، وإنما احترمنا قبيلتك بتركنا إياك. فـ ﴿ قَالَ ﴾ لهم مترفقا لهم ﴿ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ كيف تراعوني لأجل رهطي، ولا تراعوني لله، فصار رهطي أعز عليكم من الله ﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ نبذتم أمر الله وراء ظهوركم، ولم تبالوا به ولا خفتم منه ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء فسيجازيكم على ما عملتم أتم الجزاء ﴿ وَ ﴾ لما أعيوه وعجز عنهم قال ﴿ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ على حالتكم ودينكم ﴿ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ ويحل عليه عذاب مقيم أنا أم أنتم ﴿ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ وقد علموا ذلك حين وقع عليهم العذاب ﴿ وَارْتَقِبُوا ﴾ ما يحل بي ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ ما يحل بكم ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ بإهلاك قوم شعيب ﴿ نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ لا تسمع لهم صوتا، ولا ترى منهم حركة ﴿ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ كأنهم ما أقاموا في ديارهم، ولا تنعموا فيها حين أتاهم العذاب ﴿ أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ ﴾ إذ أهلكها الله وأخزاها ﴿ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ قد اشتركت هاتان القبيلتان في السحق والبعد والهلاك.

﴿ 96 - 101﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ * ذَلِكَ مِنْ

أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّـهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى ﴾ بن عمران ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ الدالة على صدق ما جاء به كالعصا واليد ونحوهما ﴿ وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ حجة ظاهرة ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ أشراف قومه لأنهم المتبوعون، فلم ينقادوا لموسى ﴿ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ بل هو ضال غاو ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ ﴾ الدنيا ﴿ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ يلعنهم الله وملائكته ﴿ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ بئس ما ترادف عليهم من عذاب الله ولعنة الدنيا والآخرة ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ لتنذر به، ويكون آية على رسالتك، وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴿ مِنْهَا قَائِمٌ ﴾ لم يتلف، بل بقي من آثار ديارهم ما يدل عليهم ﴿ وَ ﴾ منها ﴿ حَصِيدٌ ﴾ فلم يبق لها أثر ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بأخذهم بأنواع العقوبات ﴿ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بالشرك والكفر والعناد ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ وهكذا كل من التجأ إلى غير الله، لم ينفعه ذلك عند نزول الشدائد ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ خسار ودمار، بالضد مما خطر ببالهم.

﴿ 102-108﴾ ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ يقصمهم بالعذاب ويبيدهم، ولا ينفعهم ما كانوا يدعون من دون الله من شيء ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ المذكور ﴿ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ لعبرة ودليلا على أن أهل الظلم والإجرام لهم العقوبة الدنيوية والعقوبة الأخروية ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ ﴾ جمعوا لأجل ذلك اليوم للمجازاة، وليظهر لهم من عظمة الله وسلطانه وعدله العظيم، ما به يعرفونه حق المعرفة ﴿ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ يشهده الله، وملائكته، وجميع المخلوقين، ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ ﴾ إتيان يوم القيامة ﴿ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴾ إذا انقضى أجل الدنيا وما قدر الله فيها من الخلق فحينئذ ينقلهم إلى الدار الأخرى ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ ذلك اليوم، ويجتمع الخلق ﴿ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ حتى الأنبياء، والملائكة الكرام، لا يشفعون إلا بإذنه ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ الخلق ﴿ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ فالأشقياء هم الذين كفروا بالله، والسعداء هم المؤمنون المتقون ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ﴾ حصلت لهم الشقاوة ﴿ فَفِي النَّارِ ﴾ منغمسون في عذابها ﴿ لَهُمْ فِيهَا ﴾ من شدة ما هم فيه ﴿ زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ وهو أشنع الأصوات وأقبحها ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ في النار التي هذا عذابها ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ خالدين

فيها أبدا ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته فعله تبارك وتعالى لا يرده أحد عن مراده ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ﴾ حصلت لهم السعادة والفلاح والفوز ﴿ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ ثم أكد ذلك بقوله ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ ما أعطاهم الله من النعيم المقيم واللذة العالية، فإنه دائم مستمر غير منقطع بوقت من الأوقات، نسأل الله الكريم من فضله.

﴿ 109 ﴾ ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴾

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ﴾ المشركون لا تشك في أن ما هم عليه باطل، وإنما دليلهم وشبهتهم أنهم ﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ فإن أقوالهم، وإن اتفقوا عليها، فإنها خطأ وضلال ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴾ لا بد أن ينالهم نصيبهم من الدنيا مما كتب لهم. فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب. ولا يعطي الإيمان والدين الصحيح إلا من يحب.

﴿ 110 - 113 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ * وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ آتى موسى التوراة ولكن قومه اختلفوا فيها اختلافا أضر بعقائدهم وبجامعتهم الدينية ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ بعدم معاجلتهم بالعذاب ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ بإحلال العقوبة بالظالم. ولكنه تعالى، اقتضت حكمته أن أخّر القضاء بينهم إلى يوم القيامة ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ بقوا ﴿ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ وإذا كانت هذه حالهم مع كتابهم، فمع القرآن الذي أوحاه الله إليك غير مستغرب أن يكونوا في شك منه مريب ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ لا بد أن الله يقضي بينهم يوم القيامة بحكمه العدل، فيجازي كلا بما يستحقه ﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ من خير وشر ﴿ خَبِيرٌ ﴾ فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ﴾ ثم أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ومن معه، أن يستقيموا كما أمروا، فيسلكوا ما شرعه الله من الشرائع ﴿ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ بأن يتجاوزوا ما حده الله لهم من الاستقامة له ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم شيء. وفي هذا ترغيب لسلوك الاستقامة وترهيب من ضدها ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا ﴾ حذرهم عن الميل إلى من تعدى الاستقامة، أي لا تميلوا ﴿ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ فإنكم إذا رضيتم ما هم عليه من الظلم ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ إن فعلتم ذلك ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ يمنعونكم من عذاب الله، ولا يحصلون لكم شيئا من ثواب الله ﴿ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾ لا يدفع عنكم العذاب إذا مسكم. ففي هذه الآية تحذير من الميل إلى الظالم والانضمام إليه بظلمه وموافقته على ذلك.

﴿ 114 - 115 ﴾ ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ يأمر تعالى بإقامة الصلاة كاملة ﴿ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ أوله وآخره، كصلاة الفجر وصلاتا الظهر والعصر ﴿ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ﴾ كصلاة المغرب والعشاء. وكذلك قيام الليل، فإنها مما تزلف العبد، وتقربه إلى الله تعالى ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ فالصلوات الخمس والتطوعات من أكبر الحسنات التي تقرب إلى الله وتوجب الثواب وتذهب السيئات وتمحوها. فهي مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر، كما قال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ فيمتثلون للأوامر المثمرة للخيرات الدافعة للشرور والسيئات ﴿ وَاصْبِرْ ﴾ احبس نفسك على طاعة الله وعن معصيته، واستمر ولا تضجر لأنها أمور تحتاج إلى مجاهدة النفس والصبر عليها ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ بل يتقبل الله عنهم أحسن الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.

﴿ 116 ﴾ ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ لولا أن الله جعل في القرون الماضية بقايا من أهل الخير يدعون إلى الهدى وينهون عن الفساد، فحصل من نفعهم ما بقيت به الأديان، ولكنهم قليلون جدا. لقد نجا اولئك باتباعهم المرسلين وقيامهم بما قاموا به من دينهم، وبكون حجة الله أجراها على أيديهم ﴿ وَ ﴾ لكن ﴿ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ﴾ ولم يبغوا به بدلا ﴿ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ ظالمين، باتباعهم ما أترفوا فيه، فلذلك حق عليهم العقاب. وفي هذا حث لهذه الأمة أن يكون فيهم بقايا مصلحون، قائمون بدين الله، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى.

﴿ 117 ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ وهم مقيمون على الصلاح إلا إذا ظلموا وقامت عليهم حجة الله. ويحتمل أن المعنى: وما كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السابق، إذا رجعوا وأصلحوا عملهم، فإن الله يعفو عنهم، ويمحو ما تقدم من ظلمهم.

﴿ 118 - 119 ﴾ ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ على الدين الإسلامي، فمشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء لكنه اقتضت حكمته أن ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة لا يزالوا مختلفين، كل يرى الحق فيما قاله، والضلال في قول غيره ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ ممن هداهم إلى العلم بالحق والعمل به ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ اقتضت حكمته أنه خلقهم، ليكون منهم فريق هدى الله وفريق حقت عليهم الضلالة. وليتبين للعباد عدله وحكمته ﴿ وَ ﴾ لأنه ﴿ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ فلا بد أن ييسر للنار أهلا يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

﴿ 120 - 123 ﴾ ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ * وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ قلبك ليطمئن ويثبت ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ ﴾ السورة ﴿ الْحَقُّ ﴾ اليقين، فلا شك فيه بوجه من الوجوه ﴿ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يتعظون به، فيرتدعون عن الأمور المكروهة، ويتذكرون الأمور المحبوبة لله فيفعلونها. وأما من ليس من أهل الإيمان فلا تنفعهم المواعظ ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بعد ما قامت عليهم الآيات ﴿ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ حالتكم التي أنتم عليها ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ على ما كنا عليه ﴿ وَانْتَظِرُوا ﴾ ما يحل بنا ﴿ إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ ما يحل بكم. وقد أرى الله عباده نصره لعباده المؤمنين وقمعه لأعداء الله المكذبين. ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ما غاب فيهما من الخفايا والأمور الغيبية ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ من الأعمال والعمال، فيميز الخبيث من الطيب ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ قم بعبادته، وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه، وتوكل على الله في ذلك. ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ من الخير والشر، بل قد أحاط علمه بذلك، وجرى به قلمه، وسيجري عليه حكمه، وجزاؤه.

تم تفسير سورة هود

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على محمد وسلم.

وكان الفراغ من نسخه

في يوم السبت في 21 من شهر ربيع الآخر 1347

12

مختصر تفسير سورة يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام

عدد آياتها 111

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 3 ﴾ ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾

﴿ الر ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ البين الواضحة ألفاظه ومعانيه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ تزداد عقولكم بتكرر المعاني الشريفة العالية على أذهانكم، فتنتقلون إلى أحوال أعلى وأكمل ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ[1] ﴾ وذلك لصدقها وسلاسة عبارتها ورونق معانيها ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ بما اشتمل عليه هذا القرآن، وفضلناك به على سائر الأنبياء ﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحي الله إليك.

﴿ 4 - 6 ﴾ ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ ﴾[2] يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ فكانت هذه الرؤيا[3] مقدمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من الارتفاع في الدنيا والآخرة. فأوّلها يعقوب بأن الشمس أمه والقمر أبوه والكواكب إخوته، وأنه

---

1 ساق الشيخ السعدي رحمه الله في ختام تفسيره بعضاً من العبر والفوائد التي اشتملت عليهاهذه القصة العظيمة. ونسوق في هوامش مختصر هذه السور بعضاً مما قاله: فقد بدأت السورة بقوله تعالى { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ } و{ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ } بينما قال في آخرها { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ }.

2 ذكر هذه القصة وبسطها، وذكر ما جرى فيها، فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة. فمن أراد أن يحسنها بما في الإسرائيليات التي لا يعرف لها سند ولا ناقل وأغلبها كذب، فهو مستدرك على الله، ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص. وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحا، فإن تضاعيف هذه السورة قد ملئت في كثير من التفاسير، من الأكاذيب والأمور الشنيعة المناقضة لما قصه الله تعالى بشيء كثير.

3 في هذه السورة أصل لتعبير الرؤيا، وأن علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها الله من يشاء من عباده، وإن أغلب ما تبنى عليه المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة.وعلم التعبير من العلوم الشرعية، يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه، وتعبير المرائي داخل في الفتوى ،.فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم.

ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يسجدون له إكراما وإعظاما. وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب، الذين سجدوا له وصاروا تبعا له فيها. ولما بان تعبيرها ليوسف ﴿ قَالَ ﴾ له أبوه ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ حسدا من عند أنفسهم، أن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ لا يفتر عنه ليلا ولا نهارا، فامتثل يوسف أمر أبيه، ولم يخبر إخوته بذلك ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ يصطفيك ويختارك ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ من تعبير الرؤيا، وبيان ما تئول إليه الأحاديث الصادقة كالكتب السماوية ونحوها ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ بأن يؤتيك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ حيث أنعم الله عليهما، بنعم عظيمة واسعة دينية ودنيوية ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ علمه محيط بالأشياء، حكيم يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

﴿ 7 – 9 ﴾ ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ * إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ ﴾ عبر وأدلة[4] على كثير من المطالب الحسنة ﴿ لِلسَّائِلِينَ ﴾ فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا ينتفعون بها ولا في القصص والبينات ﴿ إِذْ قَالُوا ﴾ فيما بينهم ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ بنيامين، وهو شقيقه، وإلا فكلهم إخوة ﴿ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ جماعة ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ لفي خطأ بيّن، حيث فضلهما علينا من غير موجب نراه ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ غيبوه عن أبيه في أرض بعيدة لا يتمكن من رؤيته فيها. فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ يتفرغ لكم، ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ من بعد هذا الصنيع ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ تتوبون إلى الله، وتستغفرون من بعد ذنبكم. فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهيلا لفعله وتنشيطا لبعضهم لبعض.

﴿ 10 ﴾ ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ من إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو تبعيده ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ فإن قتله أعظم إثما، والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى تبعيده ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ وتتوعدوه على أنه لا يخبر بشأنكم، بل على أنه عبد مملوك آبق منكم، لأجل أن ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ الذاهبين نحو مكان بعيد، فيحتفظون فيه. ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ وهذا القائل أحسنهم رأيا في يوسف، وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية.

---

4 العبرة بالنسبة للعبد هي بكمال النهاية، لا بنقص البداية. فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح.

﴿ 11 – 14 ﴾ ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾

﴿ قَالُوا ﴾ إخوة يوسف ﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾ لأي شيء يدخلك الخوف منا على يوسف ﴿ وَ ﴾ الحال ﴿ إِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ نود له ما نود لأنفسنا. وهذا يدل على أن يعقوب عليه السلام لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبرية ونحوها ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ يتنزه في البرية ويستأنس ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ سنراعيه، ونحفظه من أي أذى، فأجابهم و ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ مجرد ذهابكم به يحزنني ويشق علي ﴿ وَ ﴾ مانع ثان هو أني ﴿ أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ في حال غفلتكم عنه، وهو صغير لا يمتنع من الذئب ﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ جماعة، حريصون على حفظه ﴿ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ لا خير فينا ولا نفع يرجى منا إن أكله الذئب وغلبنا عليه.

﴿ 15 – 18 ﴾ ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ ثم إن الله لطف به ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وهذا بشارة له بأنه سينجو وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العز والتمكين له في الأرض ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ ليكون إتيانهم متأخرا عن عادتهم وبكاؤهم قرينة على صدقهم فـ ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ إما على الأقدام، أو بالرمي والنضال ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ﴾ توفيرا له وراحة ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ في حال غيبتنا عنه في استباقنا ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ تعذرنا بهذا العذر، والظاهر أنك لا تصدقنا لما في قلبك من الحزن على يوسف ﴿ وَ ﴾ مما أكدوا به قولهم أنهم ﴿ جَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ زعموا أنه دم يوسف حين أكله الذئب، فلم يصدقهم أبوهم بذلك، و ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ زينت لكم أنفسكم أمرا قبيحا في التفريق بيني وبينه، لأنه رأى من القرائن والأحوال ومن رؤيا يوسف التي قصَّها عليه ما دلّه على ما قال[5]﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ سأصبر على هذه المحنة صبرا جميلا سالما من السخط والتَّشكِّي إلى الخلق، وأستعين الله على ذلك، لا على حولي وقوتي لأن الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل.

---

5 سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم، فإن يعقوب قال لأولاده بعد ما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشد المعالجة، ثم قال لهم بعد ما أتوه، وزعموا أن الذئب أكله{بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا } وقال لهم في الأخ الآخر: {هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ } ثم لما احتبسه يوسف عنده، وجاء إخوته لأبيهم قال لهم: { بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا } فهم في الأخيرة - وإن لم يكونوا مفرطين - فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال، من غير إثم عليه ولا حرج.

﴿ 19 – 20 ﴾ ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ جاءت قافلة تريد مصر بعدما مكث يوسف في الجب ما مكث ﴿ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾ الذي يعس لهم المياه ﴿ فَأَدْلَى ﴾ ذلك الوارد ﴿ دَلْوَهُ ﴾ فتعلق فيه يوسف عليه السلام وخرج ﴿ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ ﴾ استبشر وقال هذا غلام نفيس ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ وكان إخوته قريبا منه ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ فاشتراه السيارة منهم ﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ قليل جدا ﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه عن أبيه. والمعنى أن السيارة عزموا أن يجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم، حتى جاءهم إخوته فزعموا أنه عبد أبق منهم، فاشتروه منهم بذلك الثمن، واستوثقوا منهم فيه لئلا يهرب، والله أعلم.

﴿ 21 ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ ﴾ لما ذهب به السيارة إلى مصر اشتراه عزيز مصر وأعجب به، ووصى عليه امرأته وقال ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ إما أن ينفعنا كنفع العبيد بأنواع الخدم، وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا. ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ كما يسرنا له أن يشتريه عزيز مصر، جعلنا هذا مقدمة لتمكينه في الأرض من هذا الطريق ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ إذا بقي لا همَّ له سوى العلم ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ وأمره تعالى نافذ لا يغلبه مغالب ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فلذلك يجري منهم في مغالبة أحكام الله القدرية، وهم أعجز وأضعف من ذلك.

﴿ 22 ﴾ ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ ﴾ يوسف ﴿ أَشُدَّهُ ﴾ كمال قوته المعنوية والحسية، وصلح لأن يتحمل النبوة والرسالة ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ جعلناه نبيا رسولا، وعالما ربانيا ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم علما نافعا. ودل هذا على أن يوسف وفَّى مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين الناس والعلم الكثير والنبوة.

﴿ 23 – 29 ﴾ ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ * وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا

إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾

﴿ وَ ﴾ بقي يوسف عليه الصلاة والسلام مكرما في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب أن ﴿ رَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ وهو تحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد ولا إحساس بشر ﴿ وَ ﴾ زادت المصيبة بأن ﴿ غَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾ وصار المحل خاليا، وهما آمنان من دخول أحد عليهما، بسبب تغليق الأبواب، وقد دعته إلى نفسها ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ افعل وأقبل إليَّ. وهو أسير تحت يدها وهي سيدته، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك. فصبر عن معصية الله، وقدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء[6] و ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ لأنه مما يسخط الله ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ أي ما معه من العلم والإيمان الموجب لترك كل ما حرم الله[7]﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ ما أوجب له البعد والانكفاف عن هذه المعصية الكبيرة ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المراودة الشديدة، ذهب ليهرب عنها ويبادر إلى الخروج من الباب ليتخلص، ويهرب من الفتنة[8]. فبادرت إليه ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ وتعلقت بثوبه فشقت قميصه ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾ فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال وجدا زوجها لدى الباب، فرأى أمرا شق عليه ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ فبادرت إلى الكذب، أن المراودة قد كانت من يوسف، ولم تقل "من فعل بأهلك سوءا" تبرئة لها وتبرئة له أيضا من الفعل. وإنما النزاع عند الإرادة والمراودة ﴿ إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فبرأ نفسه مما رمته به و ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ فانبعث شاهد من أهل بيتها فقال ﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها، وأنها أرادت أن تدفعه عنها فشقت قميصه من هذا الجانب ﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ لأن ذلك يدل على هروبه منها، وأنها هي التي طلبته، فشقت قميصه من هذا الجانب ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ﴾ عرف بذلك صدق يوسف وبراءته[9]، وأنها هي الكاذبة. فـ ﴿ قَالَ ﴾ لها سيدها ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وهل أعظم من هذا الكيد، الذي برأت به نفسها مما أرادت وفعلت، ورمت به نبي الله يوسف عليه السلام. ثم إن سيدها لما تحقق الأمر، قال ليوسف ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ اترك الكلام فيه وتناسه ولا تذكره لأحد، طلبا للستر على أهله ﴿ وَاسْتَغْفِرِي ﴾ أيتها المرأة ﴿ لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ فأمر يوسف بالإعراض، وهي بالاستغفار والتوبة.

6 ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين: إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيوية، أن يختار العقوبة الدنيوية على مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة.

7 من دخل الإيمان قلبه، وكان مخلصا لله في جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه، وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه.

8 ينبغي للعبد إذا رأى محلا فيه فتنة وأسباب معصية، أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه، ليتمكن من التخلص من المعصية.

9 القرائن يعمل بها عند الاشتباه: فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قد القميص.

﴿30 –35﴾ ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ *فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ اشتهر الخبر وشاع في البلد وتحدث به النسوة فجعلن يلمنها ويقلن ﴿ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ هذا أمر مستقبح، هي امرأة كبيرة القدر، وزوجها كبير القدر، ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو باطنه وسويداؤه، وهذا أعظم ما يكون من الحب ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ حيث وجدت منها هذه الحالة التي لا تنبغي منها. وكان هذا القول منهن مكرا، ليس المقصود به مجرد اللوم لها والقدح فيها. وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فتنت به امرأة العزيز لتحنق امرأة العزيز، وتريهن إياه ليعذرنها، ولهذا سماه مكرا، فقال ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ تدعوهن إلى منزلها للضيافة ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ محلا مهيأ بأنواع الفرش والوسائد، وكان في جملة ما أتت به وأحضرته في الضيافة، طعام يحتاج إلى سكين، إما أترج أو غيره ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ ليقطعن فيها ذلك الطعام ﴿ وَقَالَتِ ﴾ ليوسف ﴿ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ في حالة جماله وبهائه. ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أعظمنه في صدورهن، ورأين منظرا فائقا لم يشاهدن مثله ﴿ وَقَطَّعْنَ ﴾ من الدهش ﴿ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ بتلك السكاكين اللاتي معهن ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ تنزيها لله ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ وذلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء ما كان به آية للناظرين ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر أرادت أن تريهن جماله الباطن بالعفة التامة فقالت معلنة لذلك ومبينة لحبه الشديد غير مبالية، ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ امتنع وهي مقيمة على مراودته، ولهذا قالت له بحضرتهن ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ لتلجئه بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه. فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واستعان به على كيدهن و ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ وهذا يدل على أن النسوة، جعلن يشرن على يوسف في مطاوعة سيدته ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أمل إليهن، فإني ضعيف عاجز، إن لم تدفع عني السوء ﴿ وَأَكُنْ ﴾ إن صبوت إليهن ﴿ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ فإن هذا جهل، يؤثر لذة قليلة منغصة على لذات متتابعات في جنات النعيم [10] ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ﴾ حين دعاه ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ لكنها بقيت تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل، حتى صرف

[10] ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته.

الله عنه كيدها ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لدعاء الداعي ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بنيته الصالحة، وبنيته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته ولطفه. وأما أسياده فإنه لما اشتهر الخبر وبان، وصار الناس بين عاذر ولائم وقادح ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ ﴾ ظهر لهم ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ ﴾ الدالة على براءته ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس.

﴿ 36 – 40 ﴾ ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَ ﴾ كان في جملة من ﴿ دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ شابان رأى كل واحد منهما رؤيا، وقصها على يوسف ليعبرهاف ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا ﴾ وذلك الخبز ﴿ تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ بتفسيره، وما يؤول إليه أمرهما، وقولهما ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ من أهل الإحسان إلى الخلق، فأحسن إلينا في تعبيرك لرؤيانا، كما أحسنت إلى غيرنا. فـ ﴿ قَالَ ﴾ لهما مجيبا لطلبتاهما ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ فلتطمئن قلوبكما، فإني سأبادر إلى تعبير رؤياكما، فلا يأتيكما غداؤكما أو عشاؤكما أول ما يجيء إليكما إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما. ولعل يوسف عليه الصلاة والسلام قصد أن يدعوهما إلى الإيمان في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه، ليكون أنجع لدعوته ﴿ ذَلِكُمَا ﴾ التعبير الذي سأعبره لكما ﴿ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ هذا من علم الله علمنيه وأحسن إليَّ به، وذلك ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ والترك كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه، يكون لمن لم يدخل فيه أصلًا. هذا كي لا يقال إن يوسف كان من قبل على غير ملة إبراهيم ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ثم فسر تلك الملة بقوله ﴿ مَا كَانَ لَنَا ﴾ ما ينبغي ولا يليق بنا ﴿ أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ بل نفرد الله بالتوحيد، ونخلص له الدين والعبادة ﴿ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾ هذا من أفضل إحسانه علينا ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ فلذلك تأتيهم المنة والإحسان، فلا يقبلونها ولا يقومون لله بحقه.ثم صرح لهما بالدعوة، فقال ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ ﴾ أرباب عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضر، أتلك ﴿ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ ﴾ الذي له صفات الكمال ﴿ الْوَاحِدُ ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ الذي انقادت الأشياء لقهره وسلطانه. ومن المعلوم أن من هذا شأنه ووصفه خير من الآلهة المتفرقة التي هي مجرد أسماء، لا كمال لها ولا أفعال لديها. ولهذا قال ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ كسوتموها أسماء، سميتموها آلهة، وهي لا شيء، ولا فيها من صفات

الألوهية شيء ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ بل أنزل الله السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها. وهو الذي أمركم ﴿ أَمَرَ أن لا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ المستقيم الموصل إلى كل خير ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ حقائق الأشياء.

﴿41﴾ ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا ﴾ الذي رأى أنه يعصر خمرا فإنه يخرج من السجن ﴿ فَيَسْقِي رَبَّهُ ﴾ سيده الذي كان يخدمه ﴿ خَمْرًا ﴾ وذلك مستلزم لخروجه من السجن ﴿ وَأَمَّا الْآخَرُ ﴾ الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه ﴿ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ﴾ أي عبر عن الخبز بلحم رأسه. ثم أخبرهما بأن هذا التأويل لا بد من وقوعه ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ تسألان عن تعبيره وتفسيره.

﴿42﴾ ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾

﴿ وَقَالَ ﴾ يوسف عليه السلام ﴿ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا ﴾ الذي رأى أنه يعصر خمرا ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ اذكر له شأني وقصتي لعله يرقُّ لي، فيخرجني مما أنا فيه ﴿ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ فأنسى الشيطان ذلك الناجي ذكر الله تعالى، وذكر ما يقرب إليه، ومن جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف الذي يستحق أن يجازى بأتم الإحسان، وذلك ليتم الله أمره وقضاءه ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ والبضع من الثلاث إلى التسع، ولهذا قيل إنه لبث سبع سنين.

﴿43 - 49﴾ ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِي * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ﴾ لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن، أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة الذي يتناول تأويلها جميع الأمة، وليكون تأويلها على يد يوسف، فيبين من علمه ما يكون له رفعة في الدارين. جمع الملك علماء قومه وذوي الرأي منهم وقال ﴿ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ وهذا من

العجب أن السبع العجاف الهزيلات يأكلن السبع السمان ﴿ وَ ﴾ رأيت ﴿ سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَ ﴾ يأكلهن سبع سنبلات ﴿ أُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ ﴾ لأن تعبير الجميع واحد، وتأويله شيء واحد ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ فتحيروا و ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ أحلام لا حاصل لها، ولا لها تأويل. ثم قالوا ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ لا نعبر إلا الرؤيا، وأما الأحلام التي هي من الشيطان، أو من حديث النفس، فإنا لا نعبرها. فجمعوا بين الجهل والإعجاب بالنفس ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا ﴾ من الفتيين، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند ربه ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ وتذكر يوسف وما وصاه به، وعلم أنه كفيل بتعبير هذه الرؤيا بعد مدة من السنين فقال ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ إلى يوسف لأسأله عنها. فأرسلوه، ولم يعنفه يوسف على نسيانه بل استمع ما يسأله عنه ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾ كثير الصدق في أقواله وأفعاله ﴿ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فإنهم متشوقون لتعبيرها، وقد أهمتهم. فعبر يوسف السبع البقرات السمان والسبع السنبلات الخضر بأنهن سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات العجاف والسبع السنبلات اليابسات بأنهن سنين مجدبات. فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه من التدبير في سني الخصب إلى سني الجدب فقال ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ متتابعات ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ ﴾ من تلك الزروع ﴿ فَذَرُوهُ ﴾ اتركوه ﴿ فِي سُنْبُلِهِ ﴾ لأنه أبقى له وأبعد من الالتفات إليه ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ وليكن أكلكم قليلا في هذه السنين الخصبة، وليكثر ما تدخرون ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ بعد تلك السنين السبع المخصبات ﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ مجدبات جدا ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ يأكلن جميع ما ادخرتموه ولو كان كثيرا ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ تمنعونه من التقديم لهن ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ بعد السبع الشداد ﴿ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ فيه تكثر الغلات، حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه زيادة على أكلهم. ومع أن هذا العام غير مصرح به في رؤيا الملك، فهو قد فهم من التقدير بالسبع الشداد، أن العام الذي يليها يزول به شدتها.

الجزء الثالث عشر 13

﴿50 -57﴾ ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ *وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ﴾ لمن عنده ﴿ ائْتُونِي بِهِ ﴾ بيوسف عليه السلام من السجن ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ ﴾ وأمره

بالحضور عند الملك، امتنع عن المبادرة إلى الخروج حتى تتبين براءته التامة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام. فـ ﴿ قَالَ ﴾ للرسول ﴿ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ﴾ يعني به الملك ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ اسأله ما شأنهن وقصتهن، فإن أمرهن ظاهر متضح ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ فأحضرهن الملك و ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ شأنكن ﴿ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ فهل رأيتن منه ما يريب؟ فبرَّأنه و ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ لا قليل ولا كثير. فحينئذ زال السبب الذي تنبني عليه التهمة، ولم يبق إلا ما عند امرأة العزيز، فـ ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ وتبين، بعد ما كنا نذخل معه من السوء والتهمة، ما أوجب له السجن ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ في أقواله وبراءته ﴿ ذَلِكَ ﴾ الإقرار الذي أقررتُ ﴿ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ يحتمل أن مرادها بذلك زوجها أي ليعلم أني حين أقررت أني راودت يوسف، أني لم أخنه بالغيب، ولم يجر منِّي إلا مجرد المراودة، ولم أفسد عليه فراشه. ويحتمل أن المراد بذلك ليعلم يوسف حين أقررت أني أنا الذي راودته، وأنه صادق أني لم أخنه في حال غيبته عني ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ فإن كل خائن، لا بد أن تعود خيانته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبين أمره. ثم لما كان في هذا الكلام نوع تزكية لنفسها، وأنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف، استدركت فقالت ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ من المراودة والهمّ، والحرص الشديد، والكيد في ذلك ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء، الفاحشة، وسائر الذنوب، فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ فنجاه من نفسه الأمارة، من فضل الله ورحمته بعبده. ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ ﴾ هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصي إذا تاب وأناب ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بقبول توبته، وتوفيقه للأعمال الصالحة. وهذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف، فإن السياق في كلامها، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر. فلما تحقق الملك والناس براءة يوسف التامة، أرسل إليه الملك ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ أجعله مقربا لديَّ. فأتوه به مكرما محترما ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ أعجبه كلامه، وزاد موقعه عنده فـ ﴿ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا ﴾ عندنا ﴿ مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ متمكن، أمين على الأسرار، فـ ﴿ قَالَ ﴾ يوسف طلبا للمصلحة العامة ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾ على خزائن جبايات الأرض وغلالها، وكيلا حافظا مدبرا ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ حفيظ للذي أتولاه، فلا يضيع منه شيء في غير محله، وضابط للداخل والخارج، عليم بكيفية التدبير والإعطاء والمنع. وليس ذلك حرصا من يوسف على الولاية، وإنما هو رغبة منه في النفع العام[11] ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ في عيش رغد، ونعمة واسعة، وجاه عريض ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ﴾ هذا من رحمة الله بيوسف التي أصابه بها وقدرها له، وليست مقصورة على نعمة الدنيا ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ من أجر الدنيا ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ لمن جمع بين التقوى والإيمان.

[11] لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل، إذا كان في ذلك مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسلم من الكذب.

﴿58 – 68﴾ ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ * قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ لم يعرفوه[12] ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ ﴾ كال لهم كما كان يكيل لغيرهم، وكان من تدبيره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حمل بعير، وكان قد سألهم عن حالهم، فأخبروه أن لهم أخا عند أبيه، وهو بنيامين. فـ ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ﴾ ثم رغبهم في الإتيان به فقال ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ في الضيافة والإكرام. ثم رهبهم بعدم الإتيان به، فقال ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ وذلك لعلمه أن ذلك يحملهم على الإتيان به فـ ﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ دل هذا على أن يعقوب عليه السلام كان مولعا به لا يصبر عنه، وكان يتسلى به بعد يوسف ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ لما أمرتنا به ﴿ وَقَالَ ﴾ يوسف ﴿ لِفِتْيَانِهِ ﴾ الذين في خدمته ﴿ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ ﴾ الثمن الذي اشتروا به من الميرة ﴿ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا ﴾ أي بضاعتهم إذا رأوها بعد ذلك في رحالهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لأجل التحرج من أخذها، على ما قيل. والظاهر أنه أراد أن يرغبهم في إحسانه إليهم بالكيل لهم كيلا وافيا، ثم إعادة بضاعتهم إليهم على وجه لا يحسون بها، فإن الإحسان يوجب للإنسان تمام الوفاء للمحسن ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ إن لم ترسل معنا أخانا ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ ليكون ذلك سببا لكيلنا، ثم التزموا له بحفظه، فقالوا ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من أن يعرض له ما يكره ﴿ قَالَ ﴾ لهم يعقوب عليه السلام ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ تقدم منكم التزام أكثر من هذا في حفظ يوسف فلا أثق بالتزامكم وحفظكم، وإنما أثق بالله تعالى ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ يعلم حالي، وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده علي، وكأنه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ هذا دليل على أنه قد كان معلوما عندهم أن يوسف قد ردها عليهم بالقصد، وأنه أراد أن يملكهم إياها. فـ ﴿ قَالُوا ﴾ لأبيهم ترغيبا

[12] لما تولى يوسف عليه السلام خزائن الأرض، دبرها أحسن تدبير، فزرع في أرض مصر جميعها في السنين الخصبة زروعا هائلة وجبا من الأطعمة شيئا كثيرا وحفظه. فلما سرى الجدب حتى وصل إلى فلسطين، التي يقيم فيها يعقوب وبنوه أرسل يعقوب بنيه لأجل الميرة إلى مصر

في إرسال أخيهم معهم ﴿ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾ أي شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل ﴿ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ إذا ذهبنا بأخينا صار سببا لكيله لنا. فمرنا أهلنا وأتينا لهم بما هم مضطرون إليه من القوت ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ بإرساله معنا، فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير ﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ سهل، لا ينالك ضرر، لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد تبينت. ف ﴿ قَالَ ﴾ لهم يعقوب ﴿ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾ عهدا ثقيلا، وتحلفون بالله ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ إلا أن يأتيكم أمر لا تقدرون دفعه ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ على ما أراد ﴿ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ تكفينا شهادته علينا وحفظه وكفالته. ثم لما أرسله معهم وصاهم، إذا هم قدموا مصر ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ وذلك أنه خاف عليهم العين، لكثرتهم وبهاء منظرهم لكونهم أبناء رجل واحد ﴿ وَ ﴾ إلا ف ﴿ مَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فالمقدر لا بد أن يكون ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ فما قضاه وحكم به لا بد أن يقع ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ اعتمدت على الله، لا على ما وصيتكم به من السبب ﴿ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ فإن بالتوكل يحصل كل مطلوب ﴿ وَلَمَّا ﴾ ذهبوا و ﴿ دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ ﴾ ذلك الفعل ﴿ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ فحصل له في ذلك طمأنينة وقضاء لما في خاطره. وليس هذا قصورا في علمه، فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين، ولهذا قال عنه ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ ﴾ لصاحب علم عظيم ﴿ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ لتعليمنا إياه، لا بحوله وقوته أدركه، بل بفضل الله وتعليمه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ عواقب الأمور ودقائق الأشياء.

﴿69 - 79﴾ ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ * قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ * قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴾

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا ﴾ إخوة يوسف ﴿ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ شقيقه بنيامين الذي أمرهم بالإتيان به، وأخبره بحقيقة الحال، و ﴿ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾ لا تحزن ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فإن العاقبة خير لنا. ثم خبره بما يريد أن يصنع ويتحيل لبقائه عنده إلى أن ينتهي الأمر ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ ﴾ كال لكل واحد من إخوته، ومن جملتهم أخوه هذا ﴿ جَعَلَ السِّقَايَةَ ﴾ الإناء الذي يشرب به، ويكال فيه ﴿ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ ﴾

أوعوا متاعهم[13]. فلما انطلقوا ذاهبين ﴿ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ ولعل هذا المؤذن، لم يعلم بحقيقة الحال ﴿ قَالُوا ﴾ أي إخوة يوسف ﴿ وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ﴾ لإبعاد التهمة. أي جاءوا مقبلين إليهم ليس لهم همٌّ إلا إزالة التهمة التي رموا بها عنهم، بينما ليس للسارق همٌّ إلا البعد والانطلاق عمن سرق منه. وقالوا ﴿ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ ولم يقولوا *"ما الذي سرقنا"* لجزمهم بأنهم براء من السرقة ﴿ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ أجراً له ﴿ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ كفيل، وهذا يقوله المؤذن المتفقد ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بجميع أنواع المعاصي ﴿ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين، وهذا أبلغ في نفي التهمة من أن لو قالوا: *ـم نفسد في الأرض ولم نسرق* ﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ ﴾ جزاء هذا الفعل ﴿ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ بأن كان معكم ﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ ﴾ أي الموجود في رحله ﴿ جَزَاؤُهُ ﴾ بأن يتملكه صاحب السرقة[14] وكان في دينهم أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة أصبح ملكا لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ. فَبَدَأَ ﴾ المفتش ﴿ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ وذلك لتزول الريبة التي يظن أنها فعلت بالقصد، فلما لم يجد في أوعيتهم شيئا ﴿ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ ولم يقل *"وجدها، أو سرقها أخوه"* مراعاة للحقيقة الواقعة. فحينئذ تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده، على وجه لا يشعر به إخوته. قال تعالى ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ يسرنا له هذا الكيد، الذي توصل به إلى أمر غير مذموم ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ فلو رد الحكم إلى دين الملك، لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده، ولكنه جعل الحكم من دينهم ليتم له ما أراد ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾ بالعلم النافع، ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها، كما رفعنا درجات يوسف ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ فكل عالم، فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة. فلما رأى إخوة يوسف ما رأوا ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ ﴾ هذا الأخ، فليس هذا غريبا منه ﴿ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنون يوسف عليه السلام. ومقصودهم تبرئة أنفسهم وأن هذا وأخاه قد يصدر منهما ما يصدر من السرقة، فهما ليسا شقيقين لنا. وفي هذا من الغض عليهما ما فيه ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كظم الغيظ، و ﴿ قَالَ ﴾ في نفسه ﴿ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا ﴾ حيث ذممتمونا بما أنتم على أشر منه ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ من وصفنا بسرقة يعلم الله أنا براء منها، ثم سلكوا معه مسلك التملق، لعله يسمح لهم بأخيهم ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ وإنه لا يصبر عنه، وسيشق عليه فراقه ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فأحسن إلينا وإلى أبينا بذلك. فـ ﴿ قَالَ ﴾ يوسف ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ﴾ هذا ظلم منا، لو أخذنا البريء بذنب من وجدنا متاعنا عنده، ولم يقل *"من سرق"* تحرزاً من الكذب ﴿ إِنَّا إِذًا ﴾ إن أخذنا غير من وجد في رحله ﴿

[13] دليل على جواز استعمال المكايد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وإنما الممنوع، التحيل على إسقاط واجب، أو فعل محرم.

[14] القرائن يعمل بها عند الاشتباه: فقد استدل بوجود الصُّواع في رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقة، من غير بينة شهادة ولا إقرار، فعلى هذا إذا وجد المسروق في يد السارق، خصوصا إذا كان معروفا بالسرقة، فإنه يحكم عليه بالسرقة، وهذا أبلغ من الشهادة.

لَظَالِمُونَ ﴾ حيث وضعنا العقوبة في غير موضعها.

﴿80 - 83﴾ ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ ﴾ فلما استيأس إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ اجتمعوا وحدهم وجعلوا يتناجون فيما بينهم، فـ ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾ في حفظه، وأنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم ﴿ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ فاجتمع عليكم الأمران، تفريطكم في يوسف السابق، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق، فليس لي وجه أواجه به أبي ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ سأقيم في هذه الأرض ولا أزال بها ﴿ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ يقدر لي المجيء وحدي، أو مع أخي ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ثم وصَّاهم بما يقولون لأبيهم ﴿ ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾ وأُخذ بسرقته، ولم يحصل لنا أن نأتيك به، وقد شهدنا بما علمنا، لأننا رأينا الصواع استخرج من رحله[15] ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ لو كنا نعلم الغيب لما حرصنا وبذلنا المجهود في ذهابه معنا، ولما أعطيناك عهودنا ومواثيقنا، فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ ﴿ وَاسْأَلِ ﴾ إن شككت في قولنا ﴿ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ فقد اطلعوا على ما أخبرناك به ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ لم نكذب ولم نغير ولم نبدل، بل هذا الواقع. فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهذا الخبر، اشتد حزنه وتضاعف كمده، واتهمهم أيضا في هذه القضية، كما اتهمهم في الأولى، و ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ ألجأ في ذلك إلى الصبر الجميل، الذي لا يصحبه تسخط ولا جزع، ولا شكوى للخلق، ثم لجأ إلى حصول الفرج لما رأى أن الأمر اشتد، والكربة انتهت فقال ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ أي يوسف وبنيامين وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ الذي يعلم حالي، واحتياجي إلى تفريجه ومنّته، واضطراري إلى إحسانه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي جعل لكل شيء قدرا بحسب ما اقتضته حكمته الربانية.

﴿ 84 – 86 ﴾ ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَتَوَلَّى ﴾ يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿ عَنْهُمْ ﴾ عن أولاده بعد ما أخبروه هذا الخبر ﴿ وَقَالَ يَا أَسَفَى

---

[15] لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه، وتحققه إما بمشاهدة أو خبر من يثق به، وتطمئن إليه النفس.

عَلَى يُوسُفَ ﴾ واشتد به الأسى الذي له أوجب كثرة البكاء ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ممتلئ القلب من الحزن الشديد وظهر منه ما كمن من الهم القديم وذكرته هذه المصيبة المصيبة الأولى ﴿ قَالُوا ﴾ فقال له أولاده متعجبين من حاله ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ لا تزال تذكر يوسف في جميع أحوالك ﴿ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا ﴾ فانيا لا حراك فيك ولا قدرة على الكلام ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ فـ ﴿ قَالَ ﴾ يعقوب ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي ﴾ ما أبث من الكلام ﴿ وَحُزْنِي ﴾ الذي في قلبي ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ وحده، لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من أنه سيردهم علي ويقر عيني بالاجتماع بهم.

﴿87 – 88﴾ ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ * فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما ﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﴾ فإن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم، فلا تتشبهوا بالكافرين. ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله وروحه. فذهبوا ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ على يوسف ﴿ قَالُوا ﴾ متضرعين إليه ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ قد اضطررنا نحن وأهلنا ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ ﴾ مدفوعة مرغوب عنها لقلتها ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ مع عدم وفاء العرض، وتصدق علينا بالزيادة عن الواجب ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ بثواب الدنيا والآخرة.

﴿ 89 – 92 ﴾ ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

﴿ قال هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾[16] أما يوسف فظاهر فعلهم فيه، وأما أخوه، فلعل الحادث الذي فرّق بينه وبين أبيه هم السبب فيه ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم، أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين. فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف، فـ ﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ بالإيمان والتقوى والتمكين في الدنيا ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ يتقي فعل ما حرم الله، ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ فضلك علينا بمكارم الأخلاق وأسأنا إليك غاية الإساءة، والتبعيد لك عن أبيك، فآثرك الله تعالى ومكنك مما تريد ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ وهذا غاية

[16] فلما انتهى الأمر وبلغ أشده رقَّ لهم يوسف رقَّة شديدة، وعرَّفهم بنفسه، وعاتبهم.

الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف. فـ ﴿ قَالَ ﴾ لهم يوسف عليه السلام كرما وجودا ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ لا أثرب عليكم ولا ألومكم ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فسمح لهم سماحا تاما، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان، الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين.

﴿93 – 98﴾ ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ * وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ * قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ *فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ فهذا القميص لما كان فيه أثر ريح يوسف، الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم أراد أن يشمه، فترجع إليه روحه، وتتراجع إليه نفسه، ويرجع إليه بصره، ولله في ذلك حكم وأسرار، لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أولادكم وعشيرتكم وتوابعكم كلهم، ليحصل تمام اللقاء، ويزول عنكم نكد المعيشة، وضنك الرزق ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ عن أرض مصر مقبلة إلى أرض فلسطين شمَّ يعقوب ريح القميص، فـ ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ تسخرون مني، وتزعمون أن هذا الكلام، صدر مني من غير شعور، لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول. فوقع ما ظنه بهم فـ ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ لا تزال تائها في بحر الحبّ لا تدري ما تقول ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ ﴾ بقرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم ﴿ أَلْقَاهُ ﴾ أي القميص ﴿ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ رجع على حاله الأولى بصيرا، فقال لمن حضره من أولاده وأهله متبجحا بنعمة الله عليه ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ حيث كنت مترجيا للقاء يوسف، مترقبا لزوال الهم والغم والحزن. فأقروا بذنبهم و ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ حيث فعلنا معك ما فعلنا. فـ ﴿ قَالَ ﴾ مجيبا لطلبتهم ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ وقد قيل إنه أخّر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل ليكون أتمَّ للاستغفار وأقرب للإجابة.

﴿99 – 100﴾ ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ فَلَمَّا ﴾ وصلوا إلى مصر ﴿ دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ ضمهما إليه، واختصهما بقربه ﴿ وَقَالَ ﴾

لجميع أهله ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ من جميع المكاره والمخاوف ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ على سرير الملك، ومجلس العزيز ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ أي أبوه، وأمه وإخوته، سجودا على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام ﴿ وَقَالَ ﴾ لما رأى هذه الحال، ورأى سجودهم له ﴿ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ حين رأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين، فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ ولم يجعلها أضغاث أحلام ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي ﴾ إحسانا جسيما ﴿ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام حيث ذكر حاله في السجن ولم يذكر حاله في الجب، لتمام عفوه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك وصلوا الذنب، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إلي. فلم يقل: *جاء بكم من الجوع والنصب*، ولا قال: *"أحسن بكم"* بل قال ﴿ أَحْسَنَ بِي ﴾ جعل الإحسان عائدا إليه ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ فلم يقل *نزغ الشيطان إخوتي"* بل كأن الذنب والجهل صدر من الطرفين. فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره، وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾ يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في وضعه الأشياء مواضعها المقدرة لها.

﴿101﴾ ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ وذلك أنه كان على خزائن الأرض وتدبيرها ووزيرا كبيرا للملك فأقرّ بنعمة الله شاكرا ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ في الكتب المنزلة وتأويل الرؤيا وغير ذلك من العلم ﴿ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾ أدم عليّ الإسلام وثبتني عليه حتى توفاني عليه، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار.

﴿102﴾ ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾

﴿ ذَلِكَ ﴾ لما قص الله هذه القصة على محمد صلى الله عليه وسلم قال الله له إن الذي أخبرناك به ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ الذي لولا إيحاؤنا إليك لما وصل إليك هذا الخبر الجليل ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ﴾ لم تكن حاضرا لديهم ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ أي إخوة يوسف ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ به حين تعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه.

﴿103 - 107﴾ ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ *وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ * أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾ على إيمانهم ﴿ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ فإن مداركهم ومقاصدهم قد أصبحت فاسدة، فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ يتذكرون به ما ينفعهم ليفعلوه، وما يضرهم ليتركوه ﴿ وَكَأَيِّنْ ﴾ وكم ﴿ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ﴾ دالة لهم على توحيد الله ﴿ وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ ومع هذا إن وجد منهم بعض الإيمان ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ فهم وإن أقروا بربوبية الله تعالى، وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، فإنهم يشركون في ألوهية الله وتوحيده، فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحال لم يبق عليهم إلا أن يحل بهم العذاب، ويفجأهم العقاب وهم آمنون، ولهذا قال ﴿ أَفَأَمِنُوا ﴾ الفاعلون لتلك الأفعال، المعرضون عن آيات الله ﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ يغشاهم ويعمهم ويستأصلهم، ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ فجأة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فإنهم قد استوجبوا لذلك، فليتوبوا إلى الله.

﴿ 108 - 109 ﴾ ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ للناس ﴿ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾ طريقي التي أدعو إليها ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ أحثُّ الخلق والعباد إلى الوصول إلى ربهم، ومع هذا فأنا ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ من ديني، على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية ﴿ أَنَا وَ ﴾ كذلك ﴿ مَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ يدعو إلى الله كما أدعو على بصيرة من أمره ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ عما نسب إليه مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ في جميع أموري، بل أعبد الله مخلصا له الدين ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ لم نرسل ملائكة ولا غيرهم من أصناف الخلق ﴿ نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ الذين هم أكمل عقولا وأصح آراء، وليتبين أمرهم ويتضح شأنهم ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ إذا لم يصدقوا لقولك ﴿ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ كيف أهلكهم الله بتكذيبهم ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ ﴾ الجنة وما فيها من النعيم المقيم ﴿ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ الله في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أفلا تكون لكم عقول تؤثر الذي هو خير على الأدنى.

﴿110 - 111﴾ ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ * لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ يخبر تعالى أنه يرسل الرسل الكرام فيكذبهم القوم المجرمون اللئام. وهم على كمال يقينهم وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده ربما يخطر بقلوبهم نوع من الإياس. فإذا بلغ الأمر هذه الحال ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ﴾ وهم الرسل وأتباعهم ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ

﴾ ولا يرد عذابنا، عمن تجرأ على الله ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ ﴾ قصص الأنبياء والرسل مع قومهم ﴿ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ يعتبرون بها ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ ما كان هذا القرآن الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص من الأحاديث المفتراة المختلقة ﴿ وَلَكِنْ ﴾ كان ﴿ تصديق الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب السابقة، يوافقها ويشهد لها بالصحة ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، ومن الأدلة والبراهين ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فإنهم بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره يحصل لهم الهدى. وبما يحصل لهم من الثواب تحصل لهم الرحمة.

تم مختصر تفسير سورة يوسف عليه الصلاة والسلام

والحمد لله رب العالمين.

13

مختصر تفسير سورة الرعد

عدد آياتها 43

وهي مدنية

وقيل مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 ﴾ ﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ المر ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ يخبر تعالى أن هذا القرآن هو آيات الكتاب الدالة على كل ما يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، فمن أقبل عليه وعلى علمه، كان من أهل العلم بالحق، الذي يوجب لهم علمهم العمل بما أحب الله ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بهذا القرآن، إما جهلا وإعراضا عنه وعدم اهتمام به، وإما عنادا وظلما، فلذلك أكثر الناس غير منتفعين به.

﴿ 2 – 4 ﴾ ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ ﴾ على عظمتها واتساعها بقدرته العظيمة ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ ليس لها عمد من تحتها، فإنه لو كان لها عمد لرأيتموها ﴿ ثُمَّ ﴾ بعد ما خلق السماوات والأرض ﴿ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ العظيم الذي هو أعلى المخلوقات، استواء يليق بجلاله ويناسب كماله ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ لمصالح العباد ﴿ كُلٌّ ﴾ من الشمس والقمر ﴿ يَجْرِي ﴾ بتدبير العزيز العليم ﴿ لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ بسير منتظم، لا يفتران ولا ينيان، حتى يجيء الأجل المسمى التي هي دار القرار. فعند ذلك يطوي الله السماوات ويبدلها، ويغير الأرض ويبدلها[1] ﴿ يُدَبِّرُ

---

[1] فتكور الشمس والقمر، ويجمع بينهما فيلقيان في النار، ليرى من عبدهما أنهما غير أهل للعبادة؛ فيتحسر بذلك أشد الحسرة وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.

﴿ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ هذا جمع بين الخلق والأمر، أي قد استوى الله العظيم على سرير الملك، يدبر الأمور في العالم العلوي والسفلي وينفذ الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه، وجرى بها قلمه، ويرسل ملائكته الكرام لتدبير ما جعلهم على تدبيره. وينزل الكتب الإلهية على رسله ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع والأوامر والنواهي، ويفصلها غاية التفصيل ببيانها وإيضاحها وتمييزها ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفقية والآيات القرآنية ﴿ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ فإن كثرة الأدلة وبيانها ووضوحها، من أسباب حصول اليقين في جميع الأمور الإلهية، خصوصا في العقائد الكبار، كالبعث والنشور. ثم ينقلهم إلى دار يحل فيها جزاؤه. ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ خلقها للعباد، ووسعها وبارك فيها ومهدها للعباد ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالا عظاما، لئلا تميد بالخلق، جعلها الله أوتادا لها ﴿ وَ ﴾ جعل فيها ﴿ أَنْهَارًا ﴾ تسقي الآدميين وبهائمهم وحروثهم ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ صنفين مما يحتاج إليه العباد ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ فتظلم الآفاق فيسكن كل حيوان إلى مأواه. ثم إذا قضوا مأربهم من النوم غشي النهار الليل فإذا هم مصبحون منتشرون في مصالحهم وأعمالهم في النهار ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ على المطالب الإلهية ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيها، وينظرون فيها نظر اعتبار دالة على أن الذي خلقها ودبرها وصرفها هو الله الذي لا إله إلا هو تبارك وتعالى ﴿ وَ ﴾ من الآيات على كمال قدرته وبديع صنعته أن جعل ﴿ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ ﴾ فيها أنواع الأشجار ﴿ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ التي بعضها ﴿ صِنْوَانٌ ﴾ عدة أشجار في أصل واحد ﴿ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ بأن كان كل شجرة على حدتها، والجميع ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾ وأرضه واحدة ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ لونا وطعما ونفعا ولذة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما ينفعهم، وتقودهم إلى ما يرشدهم ويعقلون عن الله وصاياه وأوامره ونواهيه.

﴿ 5 ﴾ ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

يحتمل أن معنى قوله ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ ﴾ من عظمة الله تعالى وكثرة أدلة توحيده ﴿ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ فإن العجب هو إنكار المكذبين وتكذيبهم بالبعث. ويحتمل أن معناه: إن الذي توضح له الآيات، ويرى من الأدلة القاطعة على البعث ما لا يقبل الشك والريب، ثم ينكر ذلك فإن قوله من العجائب ﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ هذا بعيد بزعمهم أنهم بعد ما كانوا ترابا، أن الله يعيدهم. فلما رأوا هذا ممتنعا في قدرة المخلوق ظنوا أنه ممتنع على قدرة الخالق، ونسوا أن الله خلقهم أول مرة ولم يكونوا شيئا. ولكن ذلك لا يستغرب على ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ وجحدوا وحدانيته ﴿ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ ﴾ المانعة لهم من الهدى ﴿ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ حيث دعوا إلى الإيمان فلم يؤمنوا، وعرض عليهم الهدى فلم يهتدوا، فقلبت قلوبهم وأفئدتهم عقوبة على أنهم لم يؤمنوا به أول مرة ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ لا يخرجون منها أبدا.

﴿ 6 ﴾ ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ يخبر تعالى عن جهل المكذبين لرسوله المشركين به، الذين يستعجلون الرسول بالعذاب ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ﴾ أي وقائع الله وأيامه في الأمم المكذبين، أفلا يتفكرون في حالهم ويتركون جهلهم ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾ خيره وإحسانه وبره وعفوه نازل إلى العباد، وهم لا يزال شرهم وعصيانهم إليه صاعدًا ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ على من لم يزل مصرا على الذنوب.

﴿ 7 ﴾ ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ويقترح الكفار عليك من الآيات، التي يعينونها ويقولون ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ويجعلون هذا القول منهم عذرا لهم في عدم الإجابة إلى الرسول ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ﴾ والحال أنه منذر ليس له من الأمر شيء، والله هو الذي ينزل الآيات. والكافر لو جاءته أي آية كانت لم يؤمن ولم ينقد ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ يدعوهم إلى الهدى من الرسل وأتباعهم.

﴿ 8 - 11﴾ ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ﴾ من بني آدم وغيرهم ﴿ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ ﴾ تنقص مما فيها إما أن يهلك الحمل أو يتضاءل أو يضمحل ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ الأرحام وتكبر الأجنة التي فيها ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ لا يتقدم عليه ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص إلا بما تقتضيه حكمته وعلمه. فإنه ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ ﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته ﴿ الْمُتَعَالِ ﴾ على جميع خلقه بذاته وقدرته وقهره ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ ﴾ في علمه وسمعه وبصره ﴿ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ ﴾ مستقر بمكان خفي فيه ﴿ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ داخل سربه في النهار إما جوف بيته أو نحو ذلك ﴿ لَهُ ﴾ للإنسان ﴿ مُعَقِّبَاتٌ ﴾ من الملائكة يتعاقبون في الليل والنهار ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ يحفظون بدنه وروحه وأعماله، وهم ملازمون له دائما ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ﴾ من النعمة والإحسان ورغد العيش ﴿ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم الله إلى البطر بها فيسلبهم الله عند ذلك إياها. وكذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية، فانتقلوا إلى طاعة الله، غير الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة

والرحمة ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ ولا أحد يمنعهم منه ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ يتولى أمورهم فيجلب لهم المحبوب، ويدفع عنهم المكروه.

﴿12 - 13﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا ﴾ يخاف منه الصواعق والهدم وأنواع الضرر ﴿ وَطَمَعًا ﴾ في خيره ونفعه ﴿ وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ بالمطر الغزير الذي به نفع العباد والبلاد ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ وهو الصوت الذي يسمع من السحاب ، فهو خاضع لربه مسبح بحمده ﴿ وَ ﴾ تسبح ﴿ الْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ خشعا لربهم خائفين من سطوته ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ﴾ وهي النار التي تخرج من السحاب ﴿ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ﴾ من عباده بحسب ما شاءه وأراده ﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ شديد الحول والقوة فلا يريد شيئا إلا فعله، ولا يتعاصى عليه شيء.

﴿14﴾ ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾

﴿ لَهُ ﴾ لله وحده ﴿ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ هو الذي ينبغي أن يصرف له الدعاء والخوف والرجاء والحب والرغبة والرهبة والإنابة؛ لأن ألوهيته هي الحق، ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ ألوهيتهم باطلة، من أوثان وأنداد جعلوها شركاء لله ﴿ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ ﴾ لمن يدعوها ويعبدها بشيء قليل ولا كثير لا من أمور الدنيا ولا من أمور الآخرة ﴿ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ ﴾ فإنه من شدة عطشه يتناول بيده، ويبسطها إلى الماء، فلا يصل إليه. وهذا تشبيه بأمر محال والتعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء. لأن الكفار الذين يدعون معه آلهة لا يستجيبون لهم بشيء ولا ينفعونهم ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ لبطلان ما يدعون من دون الله، فبطلت عباداتهم ودعاؤهم.

﴿15﴾ ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ جميع ما احتوت عليه السماوات والأرض كلها خاضعة لربها، تسجد له ﴿ طَوْعًا ﴾ لمن يأتي بالسجود والخضوع اختيارا كالمؤمنين ﴿ وَكَرْهًا ﴾ لمن يستكبر عن عبادة ربه، وحاله وفطرته

تكذبه في ذلك ﴿ وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ ويسجد له ظلال المخلوقات أول النهار وآخره وسجود كل شيء بحسب حاله.

﴿16﴾ ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ أفتاهت عقولكم حتى اتخذتم من دونه أولياء تتولونهم بالعبادة، فإنهم ﴿ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ وتتركون ولاية من هو كامل الأسماء والصفات، المالك للأحياء والأموات، الذي بيده الخلق والتدبير والنفع والضر؟ فما تستوي عبادة الله وحده وعبادة المشركين به ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ﴾ كما لا يستوي ﴿ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ﴾ وكما لا تستوي ﴿ الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ ف ﴿ قُلِ ﴾ لهم ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فإنه من المحال أن يوجد من دون خالق ﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ والوحدة والقهر لله وحده.

﴿ 17 ﴾ ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ شبّه تعالى الهدى الذي أنزله على رسوله بما في المطر من النفع الضروري ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها بالأودية التي تسيل فيها السيول ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ﴾ وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها، بالزبد الذي يعلو الماء ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يراد تخليصها وسبكها ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ وأنها لا تزال فوق الماء طافية مكدرة له حتى تذهب وتضمحل ﴿ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي والحلية الخالصة ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ ليتضح الحق من الباطل.

﴿ 18 ﴾ ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ﴾ انقادت قلوبهم للعلم والإيمان وجوارحهم للأمر والنهي، وصاروا موافقين لربهم فيما يريده منهم، فلهم ﴿ الْحُسْنَى ﴾ الثواب الحسن العاجل والآجل ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ﴾ بعد ما ضرب لهم الأمثال وبين لهم الحق، لهم الحالة غير الحسنة، فـ ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ من ذهب وفضة وغيرها ﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ﴾ من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم وأنى لهم ذلك؟ ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ﴾ على كل ما أسلفوه من عمل سيئ وما ضيعوه من حقوق الله وحقوق عباده ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ الجامعة لكل أصناف العذاب ﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ المقر والمسكن مسكنهم.

﴿19 -24﴾ ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ ففهم ذلك وعمل به ﴿ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ لا يعلم الحق ولا يعمل به. فحقيق بالعبد أن يتذكر ويتفكر أي الفريقين أحسن حالا وخير مآلا ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أولو العقول الرزينة ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ الذي عهده إليهم والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة ﴿ وَ ﴾ من تمام الوفاء بها أنهم ﴿ لَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ العهد الذي عاهدوا عليه الله، فدخل في ذلك جميع المواثيق والعهود والأيمان والنذور، التي يعقدها العباد ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ وهذا عام في كل ما أمر الله بوصله، من الإيمان به وبرسوله، ويصلون آباءهم وأمهاتهم والأقارب والأرحام والأزواج والأصحاب والمماليك، بأداء حقهم كاملا موفرا من الحقوق الدينية والدنيوية ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ فيمنعهم خوفهم منه، أن يتجرؤوا على معاصي الله أو يقصروا في ما أمر الله به ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ على المأمورات بالامتثال، وعن المنهيات بالانكفاف عنها، وعلى أقدار الله المؤلمة بعدم تسخطها. ولكن بشرط أن يكون ذلك الصبر ﴿ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة وهو من خصائص أهل الإيمان. وأما الصبر لذي غايته التجلد ومنتهاه الفخر، فهذا يصدر من البر والفاجر والمؤمن والكافر فليس هو الممدوح على الحقيقة ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ بأركانها وشروطها ومكملاتها ظاهرا وباطنا ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ من النفقات الواجبة والمستحبة حيث دعت الحاجة إلى النفقة، سرا وعلانية ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ من أساء إليهم بقول أو فعل لم يقابلوه بفعله بل قابلوه بالإحسان إليه ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الذين وصفت صفاتهم الجليلة ﴿ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ فسرها بقوله ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ إقامة لا يزولون عنها، ولا يبغون عنها حولا، ومن تمام نعيمهم وقرة أعينهم أنهم ﴿ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ ﴾ من الذكور والإناث ﴿ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ الزوج أو الزوجة وكذلك النظراء والأشباه، والأصحاب والأحباب، فإنهم

من أزواجهم وذرياتهم ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ يهنئونهم بالسلامة وكرامة الله لهم ويقولون﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ حلت عليكم السلامة والتحية من الله وحصلت لكم، وذلك متضمن لزوال كل مكروه ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ صبركم هو الذي أوصلكم إلى هذه المنازل العالية ﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾.

﴿25﴾ ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾

﴿ والَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ من بعد ما أكده عليهم على أيدي رسله، وغلظ عليهم، فقابلوه بالإعراض والنقص ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح، ولا وصلوا الأرحام ولا أدوا الحقوق، بل أفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي، والصد عن سبيل الله وابتغائها عوجا ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ البعد والذم من الله وملائكته وعباده المؤمنين ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ الجحيم والعذاب الأليم.

﴿26 ﴾ ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ هو وحده يوسع الرزق ويبسطه على من يشاء ويقدره ويضيقه على من يشاء ﴿ وَفَرِحُوا ﴾ الكفار ﴿ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فرحا أوجب لهم أن يطمئنوا بها، ويغفلوا عن الآخرة وذلك لنقصان عقولهم ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ شيء حقير يتمتع به قليلا ويفارق أهله وأصحابه.

﴿27 – 29﴾ ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بآيات الله، يتعنتون على رسول الله ويقترحون ويقولون ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ وبزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا فأجابهم الله بقوله ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ وطلب رضوانه، فليست الهداية والضلال بأيديهم حتى يجعلوا ذلك متوقفا على الآيات، ومع ذلك فهم كاذبون ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ يزول قلقها واضطرابها ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ فإنه لا شيء ألذ للقلوب ولا أشهى ولا أحلى من محبة خالقها، والأنس به ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له، يكون ذكرها له. وقيل: إن معنى طمأنينة القلوب بذكر الله أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه تطمئن لها، فإنها لا تطمئن القلوب إلا باليقين والعلم ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ آمنوا بقلوبهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وصدقوا هذا الإيمان بالأعمال الصالحة ﴿ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ لهم حالة طيبة بما ينالون من رضوان الله وكرامته في الدنيا والآخرة،

وأن لهم كمال الراحة وتمام الطمأنينة، ومن جملة ذلك شجرة طوبى التي في الجنة، التي يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها، كما وردت بها الأحاديث الصحيحة.

﴿30﴾ ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ ﴾ إلى قومك تدعوهم إلى الهدى ﴿ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ أرسلنا فيهم رسلنا. أفلا يعتبرون بمن خلا من قبلهم من القرون المكذبة كيف أخذهم الله بذنوبهم ﴿ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ لكن قومك يكفرون بالرحمن، فلم يقابلوا رحمته وإحسانه –التي أعظمها أن أرسلناك إليهم رسولا وأنزلنا عليك كتابا– بالقبول والشكر بل قابلوها بالإنكار والرد ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فهو ربي، رباني بنعمه منذ أوجدني وهو إلهي الذي ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في جميع أموري ﴿ وَإِلَيْهِ متاب ﴾ أرجع في جميع عباداتي وفي حاجاتي.

﴿31﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا ﴾ من الكتب الإلهية ﴿ سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ عن أماكنها ﴿ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ ﴾ جنانا وأنهارا ﴿ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾ لكان هذا القرآن. بين تعالى فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة ﴿ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته، فما بال المكذبين يقترحون من الآيات ما يقترحون؟ فهل لهم أو لغيرهم من الأمر شيء؟ ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ فليعلموا أنه قادر على هدايتهم جميعا ولكنه لا يشاء ذلك، بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ على كفرهم، لا يعتبرون ولا يتعظون ﴿ تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ ﴾ والله تعالى يوالي عليهم القوارع التي تصيبهم في ديارهم أو تحل قريبا منها، وهم مصرون على كفرهم ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ الذي وعدهم به، لنزول العذاب المتصل الذي لا يمكن رفعه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ وهذا تهديد لهم وتخويف من نزول ما وعدهم الله به على كفرهم وعنادهم وظلمهم.

﴿32﴾ ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ فلست أول رسول كذب وأوذي ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ برسلهم أمهلتهم مدة حتى ظنوا أنهم غير معذبين ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ بأنواع العذاب ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ كان عقابا شديدا وعذابا أليما، فلا يغتر هؤلاء الذين كذبوك واستهزؤوا بك بإمهالنا.

﴿33 - 34﴾ ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ بالجزاء العاجل والآجل، بالعدل والقسط، وهو الله تبارك وتعالى كمن ليس كذلك ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد ﴿ قُلْ ﴾ لهم إن كانوا صادقين ﴿ سَمُّوهُمْ ﴾ لتعلم حالهم ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ ﴾ وأنكم بمنزلة الذي يُعَلِّمُ الله أن له شريكا وهو لا يعلمه وهذا أبطل ما يكون ﴿ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ غاية ما يمكن من دعوى الشريك له تعالى أنه بظاهر أقوالكم. وأما في الحقيقة، فلا إله إلا الله ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ﴾ الذي مكروه وهو كفرهم وشركهم، وتكذيبهم لآيات الله ﴿ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ عن الطريق المستقيمة الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ لأنه ليس لأحد من الأمر شيء ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ من عذاب الدنيا لشدته ودوامه ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ يقيهم من عذاب الله، فعذابه إذا وجهه إليهم لا مانع منه.

﴿ 35 ﴾ ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم به ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أنهار العسل والخمر واللبن والماء التي تجري في غير أخدود، وهذه صفتها وحقيقتها ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ دائم أيضا ﴿ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ عاقبتهم ومآلهم التي إليها يصيرون ﴿ وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ فكم بين الفريقين من الفرق المبين؟

﴿36﴾ ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ مننا عليهم به وبمعرفته ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ فيؤمنون به ويفرحون بموافقة الكتب بعضها لبعض ﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ﴾ ومن طوائف الكفار المنحرفين عن الحق، من ينكر بعض

هذا القرآن ولا يصدقه ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ ﴾ إنما أنت يا محمد منذر تدعوا إلى الله ﴿ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ بإخلاص الدين لله وحده ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ مرجعي الذي أرجع به إليه فيجازيني بما قمت به من الدعوة إلى دينه والقيام بما أمرت به.

﴿ 37 ﴾ ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب محكما متقنا بأوضح الألسنة وأفصح اللغات، لئلا يقع فيه شك واشتباه، وليوجب أن يتبع وحده، ولا يتبع ما يناقضه من أهواء الذين لا يعلمون. ولهذا توعد رسوله –مع أنه معصوم– ليمتن عليه بعصمته ولتكون أمته أسوته في الأحكام فقال ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ البين الذي ينهاك عن اتباع أهوائهم ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب ﴿ وَلَا وَاقٍ ﴾ يقيك من الأمر المكروه.

﴿38 – 39﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ ﴾ لست أول رسول أرسل إلى الناس حتى يستغربوا رسالتك ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ فلا يعيبك أعداؤك بأن يكون لك أزواج وذرية ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ والله لا يأذن فيها إلا في وقتها الذي قدره وقضاه ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ من الأقدار﴿ وَيُثْبِتُ ﴾ ما يشاء منها. وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه وكتبه قلمه فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير فمحال على الله أن يقع في علمه نقص أو خلل ﴿ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع له وشعب. فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب: كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسبابا ولمحوها أسبابا، لا تتعدى تلك الأسباب، ما رسم في اللوح المحفوظ. كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سببا لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببا للسلامة، وجعل التعرض لذلك سببا للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ.

﴿40 – 41﴾ ﴿ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

﴿ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: لا تعجل عليهم بإصابة ما يوعدون به من العذاب، فهم إن استمروا على طغيانهم وكفرهم فلا بد أن يصيبهم ما وعدوا به ونريك إياه في الدنيا فتقر بذلك عينك ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل إصابتهم فليس ذلك شغلا لك ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ والتبيين للخلق ﴿ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ فنحاسب الخلق على ما قاموا به، مما عليهم، وضيعوه، ونثيبهم أو نعاقبهم ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ قيل بإهلاك المكذبين واستئصال الظالمين، وقيل بفتح بلدان المشركين، ونقصهم في أموالهم وأبدانهم، وقيل غير ذلك من الأقوال.والظاهر –والله أعلم– أن المراد بذلك أن أراضي هؤلاء المكذبين جعل الله يفتحها ويجتاحها، ويحل القوارع بأطرافها، تنبيها لهم قبل أن يجتاحهم النقص ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ مبنية على القسط والعدل والحمد، فلا يتعقبها أحد ولا سبيل إلى القدح فيها ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ فلا يستعجلوا بالعذاب فإن كل ما هو آت فهو قريب.

﴿42 – 43﴾ ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ برسلهم وبالحق الذي جاءت به الرسل، فلم يغن عنهم مكرهم ﴿ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ لا يقدر أحد أن يمكر مكرا إلا بإذنه، وتحت قضائه وقدره، فإذا كانوا يمكرون بدينه فإن مكرهم سيعود عليهم بالخيبة والندم، فإن الله ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ والمكر لا بد أن يكون من كسبها فيمتنع أن يمكروا مكرا يضر الحق وأهله ويفيدهم شيئا ﴿ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ ألهم أو لرسله؟ ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين لا للكفر وأعماله ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ يكذبونك ويكذبون ما أرسلت به ﴿ قُلْ ﴾ لهم إن طلبوا على ذلك شهيدا ﴿ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ وشهادته فبما أوحاه الله إلى أصدق خلقه ثم أيده ونصره نصرا خارجا عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد. كما أخبر أن الرسول رسوله أمر الناس باتباعه ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ وهذا شامل لكل من آمن واتبع الحقبين علماء أهل الكتابين، فإنهم يشهدون للرسول. ومن كتم ذلك فإخبار الله عنه أن عنده شهادة أبلغ من خبره. وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله ومن هم أعلم به من غيرهم، بخلاف من هو أجنبي عنه، كالأميين من مشركي العرب وغيرهم، فلا فائدة في استشهادهم لعدم خبرتهم ومعرفتهم والله أعلم.

تم تفسير سورة الرعد

والحمد لله رب العالمين

14

مختصر تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

عدد آياتها 52

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 – 3 ﴾ ﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾

﴿ الر ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ يخبر تعالى أنه أنزل كتابه على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والأخلاق السيئة وأنواع المعاصي إلى نور العلم والإيمان والأخلاق الحسنة ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ لا يحصل منهم المراد المحبوب لله، إلا بإرادة من الله ومعونة، ففيه حث للعباد على الاستعانة بربهم. ثم فسر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب ﴿ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ الموصل إليه وإلى دار كرامته، المشتمل على العلم بالحق والعمل به. وفي ذكر ﴿ العزيز الحميد ﴾ بعد ذكر الصراط الموصل إليه إشارة إلى أن من سلكه فهو عزيز بعز الله قوي ولو لم يكن له أنصار إلا الله، محمود في أموره، حسن العاقبة ﴿ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ وليدل ذلك على أن صراط الله من أكبر الأدلة على ما لله من صفات الكمال، وأن الذي نصبه لعباده، عزيز السلطان، حميد في أقواله وأفعاله وأحكامه، وأنه مألوه معبود بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم، وأنه كما أن له ملك السماوات والأرض خلقا ورزقا وتدبيرا، فله الحكم على عباده بأحكامه الدينية، لأنهم ملكه، ولا يليق به أن يتركهم سدى، فلما بيَّن الدليل والبرهان توعد من لم ينقد لذلك، فقال ﴿ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ لا يقدر قدره، ولا يوصف أمره. وهؤلاء هم ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ﴾ فرضوا بها واطمأنوا وغفلوا عن الدار الآخرة ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ الناس ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ التي نصبها لعباده وبينها في كتبه ﴿ وَيَبْغُونَهَا ﴾ أي سبيل الله ﴿ عِوَجًا ﴾ يحرصون على تقبيحها للتنفير عنها ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الذين ذكر وصفهم ﴿ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ لأنهم ضلوا وأضلوا وشاقوا الله ورسوله وحاربوهما.

﴿ 4 ﴾ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ

﴿ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ ﴾ وهذا من لطفه بعباده أنه ما أرسل رسولا ﴿ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من تعلم ما أتى به ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ممن لم ينقد للهدى ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ممن اختصه برحمته ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي من عزته أنه انفرد بالهداية والإضلال، وتقليب القلوب إلى ما شاء ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا بالمحل اللائق به.

﴿5 - 8﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ يخبر تعالى أنه أرسل موسى بآياته العظيمة الدالة على صدق ما جاء به وصحته ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ ظلمات الجهل والكفر وفروعه، إلى نور العلم والإيمان وتوابعه ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾ بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، وبأيامه في الأمم المكذبين، ووقائعه بالكافرين، ليشكروا نعمه وليحذروا عقابه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ في أيام الله على العباد ﴿ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ في الضراء والعسر والضيق ﴿ شَكُورٍ ﴾ على السراء والنعمة ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ ولهذا امتثل موسى عليه السلام أمر ربه، فذكرهم نعم الله ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ بقلوبكم وألسنتكم ﴿ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ ﴾ يولونكم ﴿ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ أشده ﴿ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ يبقونهن فلا يقتلونهن ﴿ وَفِي ذَلِكُمْ ﴾ الإنجاء ﴿ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ نعمة عظيمة، أو وفي ذلكم العذاب الذي ابتليتم به من فرعون وملئه ابتلاء من الله عظيم لكم، لينظر هل تصبرون أم لا؟ وقال لهم حاثا على شكر نعم الله ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ أعلم ووعد ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ من نعمي ﴿ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ ومن ذلك أن يزيل عنهم النعمة التي أنعم بها عليهم ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ فلن تضروا الله شيئا ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ فالطاعات لا تزيد في ملكه والمعاصي لا تنقصه، وهو كامل الغنى حميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

﴿9 - 12﴾ ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ *قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ

﴿إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ وقد ذكر الله قصصهم في كتابه وبسطها. وهنا يقول تعالى مخوفا عباده ما أحله بالأمم المكذبة حين جاءتهم الرسل، فكذبوهم، فعاقبهم بالعقاب العاجل الذي رآه الناس وسمعوه ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ من كثرتهم وكون أخبارهم اندرست. فهؤلاء كلهم ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالأدلة الدالة على صدق ما جاءوا به ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ لم يؤمنوا بما جاءوا به ﴿وَقَالُوا﴾ صريحا لرسلهم ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة، وقد كذبوا في ذلك وظلموا ولهذا ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ فإنه أظهر الأشياء وأجلاها، فمن شك في الله ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى منافعكم ومصالحكم ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ليثيبكم على الاستجابة لدعوته بالثواب العاجل والآجل، فلم يدعكم لينتفع بعبادتكم. فردوا على رسلهم رد السفهاء الجاهلين ﴿قَالُوا﴾ لهم ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فكيف تفضلوننا بالنبوة والرسالة ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فكيف نترك رأي الآباء وكيف نطيعكم وأنتم بشر مثلنا؟ ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ بحجة وبينة ظاهرة، ومرادهم بينة يقترحونها هم ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مجيبين عن اقتراحهم واعتراضهم ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ صحيح وحقيقة أنّا بشر مثلكم ﴿وَلَكِنَّ﴾ ليس في ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق فإن ﴿اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فإذا من الله علينا بوحيه ورسالته، فذلك فضله وإحسانه ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وهو لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته ورحمته ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فيعتمدون عليه في جلب مصالحهم ودفع مضارهم. فعلم بهذا وجوب التوكل وأنه من لوازم الإيمان ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ وأي شيء يمنعنا من التوكل على الله والحال أننا على الحق والهدى ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ ولنستمرن على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم ولا نبالي بما يأتينا منكم من الأذى ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ وحده لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإن التوكل عليه مفتاح لكل خير.

﴿13 - 17﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ * وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ﴾ متوعدين لهم ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ فما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى بل توعدوهم بالإخراج من ديارهم ونسبوها إلى أنفسهم وزعموا أن الرسل لا حق لهم فيها.

فما بقي حينئذ إلا أن يمضي الله أمره ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ بأنواع العقوبات. ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ ﴾ العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرسل ومن تبعهم جزاء ﴿ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي ﴾ عليه في الدنيا وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه، ﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ ما توعدت به من عصاني ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا ﴾ أي الكفار الذين طلبوا واستعجلوا فتح الله وفرقانه بين أوليائه وأعدائه فجاءهم ما استفتحوا به وإلا فالله حليم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ خسر في الدنيا والآخرة من تجبر على الله وعلى الحق وعلى عباد الله واستكبر في الأرض وعاند الرسل وشاقهم ﴿ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ﴾ لا بد له من ورودها ﴿ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾ في لونه وطعمه ورائحته الخبيثة، وهو في غاية الحرارة ﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ من العطش الشديد ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ فإنه إذا قرب إلى وجهه شواه وإذا وصل إلى بطنه قطع الأمعاء ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ يأتيه العذاب الشديد من كل نوع من أنواع العذاب، وكل نوع منه من شدته يبلغ إلى الموت ﴿ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ ولكن الله قضى أن لا يموتوا ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِ ﴾ أي الجبار العنيد ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ قوي شديد لا يعلم وصفه وشدته إلا الله تعالى.

﴿ 18 ﴾ ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ التي عملوها لله ﴿ كَرَمَادٍ ﴾ في بطلانها كاضمحلال الرماد إذا ﴿ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ فإنه يذهب ﴿ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾ ولا على مثقال ذرة منه، فكذلك أعمال الكفار لأنها مبنية على الكفر والتكذيب ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ حيث بطل سعيهم واضمحل عملهم. وإما أن المراد بذلك أعمال الكفار التي عملوها ليكيدوا بها الحق، فإنهم يسعون ويكدحون في ذلك ومكرهم عائد عليهم.

﴿19 - 21﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ * وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ ﴾ ينبه تعالى عباده بأنه ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ ليعبده الخلق ويعرفوه، وليعلموا أن الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يعيدهم خلقا جديدا، ليجازيهم بإحسانهم وإساءتهم ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾. يحتمل أن المعنى إن يشأ يذهبكم ويأت بقوم غيركم يكونون أطوع لله منكم. ويحتمل أن المراد أنه إن يشأ يفنيكم ثم يعيدهم بالبعث خلقا جديدا ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ بممتنع بل هو سهل عليه جدا ﴿ وَبَرَزُوا ﴾ الخلائق ﴿ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ حين ينفخ في الصور فيخرجون من الأجداث إلى ربهم فيقفون في أرض مستوية قاع صفصف، وكل يدفع عن نفسه، ويدافع ما يقدر عليه ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ ﴾

التابعون والمقلدون ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم المتبوعون ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ في الدنيا أمرتمونا بالضلال، وزينتموه لنا ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ولو مثقال ذرة ﴿ قَالُوا ﴾ أي المتبوعون والرؤساء ﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ فلا يغني أحد أحدا ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا ﴾ من العذاب ﴿ أَمْ صَبَرْنَا ﴾ عليه ﴿ مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ من ملجأ نلجأ إليه، ولا مهرب لنا من عذاب الله.

﴿22 - 23﴾ ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ ﴾ الذي هو سبب لكل شر يقع ووقع في العالم، مخاطبا لأهل النار ومتبرئا منهم ﴿ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾ على ألسنة رسله فلم تطيعوه، فلو أطعتموه لأدركتم الفوز العظيم ﴿ وَوَعَدْتُكُمْ ﴾ الخير ﴿ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ لم يحصل ولن يحصل لكم ما منيتكم به من الأماني الباطلة ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ من حجة على تأييد قولي ﴿ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ دعوتكم إلى مرادي وزينته لكم، فاستجبتم لي اتباعا لأهوائكم وشهواتكم ﴿ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فأنتم السبب ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ بمغيثكم من الشدة التي أنتم بها ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ كل له قسط من العذاب ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴾ تبرأت من جعلكم لي شريكا مع الله فلست شريكا لله ولا تجب طاعتي ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ لأنفسهم بطاعة الشيطان ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ خالدين فيه أبدا. وهذا من لطف الله بعباده أن حذرهم من طاعة الشيطان وأخبر بمداخله التي يدخل منها على الإنسان ومقاصده فيه، وأنه يقصد أن يدخله النيران، وهنا بين لنا أنه إذا دخل النار وحزبه أنه يتبرأ منهم هذه البراءة، ويكفر بشركهم[1] ﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وهم الذين قاموا بالدين قولا وعملا واعتقادا﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ فيها من اللذات والشهوات ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ لا بحولهم وقوتهم بل بحول الله وقوته ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ يحيي بعضهم بعضا بالسلام والتحية والكلام الطيب.

﴿24 - 26﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ *تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾

---

[1] واعلم أن الله ذكر في هذه الآية أنه ليس له سلطان، وقال في آية أخرى (إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) فالسلطان الذي نفاه عنه هو سلطان الحجة والدليل، فليس له حجة أصلا على ما يدعو إليه، وإنما نهاية ذلك أن يقيم لهم من الشبه والتزيينات ما به يتجرؤون على المعاصي. وأما السلطان الذي أثبته فهو التسلط بالإغراء على المعاصي لأوليائه يُؤزّهم إلى المعاصي أزّا، وهم الذين سلطوه على أنفسهم بموالاته والالتحاق بحزبه، ولهذا س له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ وهي شهادة أن لا إله إلا الله وفروعها ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وهي النخلة ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ في الأرض ﴿ وَفَرْعُهَا ﴾ منتشر ﴿ فِي السَّمَاءِ ﴾ وهي كثيرة النفع دائما ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا ﴾ ثمرتها ﴿ كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ فكذلك شجرة الإيمان أصلها ثابت في قلب المؤمن، علما واعتقادا. وفرعها من الكلم الطيب والعمل الصالح والأخلاق المرضية والآداب الحسنة في السماء دائما تخرجها شجرة الإيمان ما ينتفع به المؤمن وينفع غيره ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ما أمرهم به ونهاهم عنه، فإن في ضرب الأمثال تقريبا للمعاني المعقولة من الأمثال المحسوسة ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ المأكل والمطعم وهي شجرة الحنظل ونحوها. ذكر ضدها وهي كلمة الكفر وفروعها ﴿ اجْتُثَّتْ ﴾ هذه الشجرة ﴿ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ من ثبوت فلا عروق تمسكها، وثمرتها خبيثة مثل كلمة الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوت نافع في القلب، ولا تثمر إلا كل قول خبيث وعمل خبيث.

﴿27﴾ ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ يخبر تعالى أنه يثبت عباده المؤمنين الذين قاموا بما عليهم من إيمان القلب التام، في الحياة الدنيا عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومراداتها. وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين، للجواب الصحيح، بأن يقول المؤمن: "الله ربي والإسلام ديني ومحمد نبيي" ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ﴾ عن الصواب في الدنيا والآخرة ﴿ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ وفي هذه الآية دلالة على فتنة القبر وعذابه، ونعيمه، كما تواترت بذلك النصوص عن النبي صلى الله عليه وسلم في الفتنة، وصفتها، ونعيم القبر وعذابه.

﴿28 - 30﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ * وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ ونعمة الله هي إرسال محمد صلى الله عليه وسلم إليهم، يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة، فبدلوا هذه النعمة بردها، والكفر بها والصد عنها بأنفسهم ﴿ وَ ﴾ صدهم غيرهم حتى ﴿ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ وهي النار حيث تسببوا لإضلالهم، فصاروا وبالا على قومهم. ومن ذلك أنهم زينوا لهم الخروج يوم "بدر" ليحاربوا الله ورسوله، فجرى عليهم ما جرى في تلك الوقعة ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يحيط بهم حرها من جميع جوانبهم ﴿ وَبِئْسَ الْقَرَارُ . وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ نظراء وشركاء ﴿ لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ عن سبيل الله ﴿ قُلْ ﴾ لهم متوعدا ﴿ تَمَتَّعُوا ﴾ بكفركم وضلالكم قليلا، فليس ذلك بنافعكم ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ مآلكم ومقركم ومأواكم فيها وبئس

المصير.

﴿31﴾ ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ آمرا لهم بما فيه غاية صلاحهم ﴿ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ ظاهرا وباطنا ﴿ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ من النعم التي أنعمنا بها عليهم قليلا أو كثيرا ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ وهذا يشمل النفقة الواجبة والمستحبة ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ لا ينفع فيه شيء ولا سبيل إلى استدراك ما فات ، فكل امرئ له شأن يغنيه.

﴿32 – 34﴾ ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ *وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ على اتساعهما وعظمهما ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ المطر الذي ينزله من السحاب ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ ﴾ بذلك الماء ﴿ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ المختلفة الأنواع ﴿ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ ولأنعامكم ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ ﴾ السفن والمراكب ﴿ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ وحفظها على الماء لتحملكم ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ لتسقي حروثكم وأشجاركم وتشربوا منها ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ لا يفتران، يسعيان لمصالحكم وحساب أزمنتكم ومصالح حيواناتكم وزروعكم ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ ﴾ لتسكنوا فيه ﴿ وَالنَّهَارِ ﴾ مبصرا لتبتغوا من فضله ﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ أعطاكم من كل ما تعلقت به أمانيكم وحاجتكم مما تسألونه ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ فضلا عن قيامكم بشكرها ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ فهذه طبيعة الإنسان، ظالم متجرئ على المعاصي مقصر في حقوق ربه كفَّار لنعم الله لا يشكرها ولا يعترف بها إلا من هداه الله فشكر نعمه، وعرف حق ربه وقام به.

﴿35﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًاوَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ اذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام إذ قال ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ﴾ أي الحرم ﴿ آمِنًا ﴾ فاستجاب الله دعاءه شرعا وقدرا، فحرمه الله في الشرع ويسر من أسباب حرمته قدرا ما هو معلوم. ثم دعا لبنيه بالأمن ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ اجعلني وإياهم جانبا بعيدا عن عبادتها والإلمام بها.

﴿36﴾ ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ﴾ ذكر هنا الموجب لخوفه عليه وعلى بنيه بكثرة من افتتن وابتلي

بعبادتها وضلوا بسببها ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي ﴾ على ما جئت به من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ لتمام الموافقة ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وهذا من شفقة الخليل عليه الصلاة والسلام حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله.

﴿37﴾ ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ لا كل ذريتي لأن إسحاق في الشام وباقي بنيه كذلك. وذلك أنه أتى بـ "هاجر" أم إسماعيل وبابنها إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو في الرضاع من الشام حتى وضعهما في مكة وهي إذ ذاك ليس فيها سكن ولا داع ولا مجيب، فلما وضعهما دعا ربه بهذا الدعاء، متضرعا متوكلا على ربه ﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ لأن أرض مكة لا تصلح للزراعة ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ تحبهم وتحب الموضع الذي هم ساكنون فيه ﴿ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ فأجاب الله دعاءه، فصار يجبي إليه ثمرات كل شيء.

﴿38﴾ ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾ أنت أعلم بنا منا، فنسألك من تدبيرك وتربيتك لنا أن تيسر لنا من الأمور التي نعلمها والتي لا نعلمها ما هو مقتضى علمك ورحمتك ﴿ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ ومن ذلك هذا الدعاء الذي لم يقصد به الخليل إلا الخير وكثرة الشكر لله رب العالمين.

﴿39-41﴾ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحساب ﴾

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ فهبتهم من أكبر النعم، وكونهم على الكبر في حال الإياس من الأولاد نعمة أخرى، وكونهم أنبياء صالحين أجل وأفضل ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ لقريب الإجابة ممن دعاه، وقد دعوته فلم يخيب رجائي. ثم دعا لنفسه ولذريته فقال ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحساب ﴾ فاستجاب الله له في ذلك كله إلا أن دعاءه لأبيه إنما كان عن موعدة وعده إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه.

﴿42 - 43﴾ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ حيث تركهم يتقلبون في البلاد آمنين مطمئنين و لكن هذا لا

يدل على حسن حالهم، لأن الله يملي للظالم ويمهله ليزداد إثما، حتى إذا أخذه لم يفلته. والظلم يشمل ما بين العبد وربه وظلمه لعباد الله. وهذا وعيد شديد للظالمين، وتسلية للمظلومين ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ لا تطرف من شدة ما ترى من الأهوال ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب ﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ رافعيها قد غُلَّتْ أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك رءوسهم ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ أفئدتهم فارغة صعدت إلى الحناجر لكنها مملوءة من كل هم وغم وحزن وقلق.

﴿ 44 - 46 ﴾ ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ * وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾

﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾ صف لهم صفة تلك الحال وحذرهم من الأعمال الموجبة للعذاب الذي حين يأتي في شدائده وقلاقله ﴿ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالكفر والتكذيب وأنواع المعاصي نادمين على ما فعلوا سائلين للرجعة في غير وقتها ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ ردَّنا إلى الدنيا فإنا قد أبصرنا ﴿ نُجِبْ دَعْوَتَكَ ﴾ والله يدعو إلى دار السلام ﴿ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾ وهذا كله لأجل التخلص من العذاب الأليم وإلا فهم كذبة في هذا الوعد، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه. ولهذا يوبخون ويقال لهم ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ عن الدنيا وانتقال إلى الآخرة، فها قد كذبكم فيما تدعون ﴿ وَ ﴾ ليس عملكم قاصر في الدنيا من أجل الآيات البينات، بل ﴿ سَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ وكيف أحل الله بهم العقوبات، حين كذبوا بالآيات البينات. وضربنا لكم الأمثال الواضحة فلم تنفع فيكم حتى وصلتم إلى هذا اليوم الذي لا ينفع فيه اعتذار ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا ﴾ المكذبون للرسل ﴿ مَكْرَهُمْ ﴾ الذي وصلت إرادتهم وقدر لهم عليه ﴿ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ هو محيط به علما وقدرة ﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ ولقد كان مكر الكفار المكذبين للرسل بالحق وبمن جاء به –من عظمه– لتزول الجبال الراسيات بسببه عن أماكنها.

﴿ 47 - 52 ﴾ ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ بنجاتهم ونجاة أتباعهم وسعادتهم وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا وعقابهم في الآخرة، فهذا لا بد من وقوعه، والله تعالى لا يعجزه شيء فـ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ إذا أراد

أن ينتقم من أحد، فإنه لا يفوته في يوم القيامة ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ تبدل غير السماوات. وهذا التبديل تبديل صفات لا تبديل ذات، فإن الأرض يوم القيامة تسوى وتمد كمد الأديم ويلقى ما على ظهرها من جبل ومَعْلم، وتكون السماء كالمهل من شدة أهوال ذلك اليوم ثم يطويها الله تعالى بيمينه ﴿ وَبَرَزُوا ﴾ الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم، ونشورهم في محل لا يخفى منهم على الله شيء ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله العظيمة، وقهره لكل العوالم ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ ﴾ ووصفهم الإجرام وكثرة الذنوب ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ في ذلك اليوم ﴿ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ يسلسل كل أهل عمل من المجرمين بسلاسل من نار فيقادون إلى العذاب في أذل صورة وأبشعها ﴿ سَرَابِيلُهُمْ ﴾ ثيابهم ﴿ مِنْ قَطِرَانٍ ﴾ وذلك لشدة اشتعال النار فيهم وحرارتها ونتن ريحها ﴿ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ ﴾ التي هي أشرف ما في أبدانهم ﴿ النَّارَ ﴾ تحيط بها وتصلاها من كل جانب ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ﴾ من خير وشر بالعدل والقسط ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أي حسابه للناس قريب منهم وهم غافلون معرضون. ويحتمل أن معناه سريع المحاسبة فيحاسب الخلق في ساعة واحدة، كما يرزقهم ويدبرهم بأنواع التدابير في لحظة واحدة وليس ذلك بعسير عليه. ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ﴾ يتبلغون به ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات ﴿ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ ﴾ لما فيه من الترهيب من أعمال الشر وما أعد الله لأهلها من العقاب ﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ حيث صرف فيه من الأدلة والبراهين على ألوهيته ووحدانيته، ما صار ذلك حق اليقين ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أصحاب العقول الكاملة ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه. إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وآراؤهم، وتنورت أفكارهم. وهذه القاعدة إذا تدرب بها العبد الذكي لم يزل في صعود ورقي على الدوام في كل خصلة حميدة.

والحمد لله رب العالمين.

تم تفسير سورة إبراهيم الخليل

عليه الصلاة والسلام

15

مختصر تفسير سورة الحجر

عدد آياتها 99

وهي مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 -5 ﴾ ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ * رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ * ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾

﴿ الر ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ الدالة على أحسن المعاني ﴿ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾ للحقائق بأحسن لفظ وأوضحه وأدله على المقصود ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ فأما من قابل هذه النعمة العظيمة بردها والكفر بها فإنه من المكذبين الضالين الذين يتمنون أنهم مسلمون وقد فات وقت الإمكان، ولكنهم في هذه الدنيا مغترون فـ ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ﴾ بلذاتهم ﴿ وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ﴾ يؤملون البقاء في الدنيا فيلهيهم عن الآخرة ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن ما هم عليه باطل وأن أعمالهم ذهبت خسرانا عليهم ولا يغتروا بإمهال الله تعالى فإن هذه سنته في الأمم ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ كانت مستحقة للعذاب ﴿ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴾ مقدر لإهلاكها ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ وإلا فالذنوب لا بد من وقوع أثرها وإن تأخر.

﴿ 6 - 9 ﴾ ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * مَانُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

﴿ وَقَالُوا ﴾ المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم استهزاء وسخرية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ إذ تظن أنا سنتبعك ونترك ما وجدنا عليه آباءنا لمجرد قولك ﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ ﴾ يشهدون لك بصحة ما جئت به ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فلما لم تأت بالملائكة فلست بصادق. وهذا تجرؤ على الله وتعنت بتعيين الآيات التي لم يخترها وحصل المقصود والبرهان بدونها من الآيات الكثيرة الدالة على صحة ما جاء به. وهذا جهل بمصلحتهم من مضرتهم: فليس في إنزال الملائكة خير لهم بل ﴿ مَانُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق الذي لا إمهال على من لم يتبعه وينقد له ﴿ وَمَا كَانُوا إِذًا ﴾ حين تنزل الملائكة، إن لم يؤمنوا، ولن يؤمنوا ﴿ مُنْظَرِينَ ﴾ بمهملين. ويكفيهم من الآيات إن كانوا صادقين، هذا

القرآن العظيم ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ القرآن الذي فيه ذكرى ودلائل واضحة ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ له من استراق كل شيطان رجيم عند إنزاله. أما بعد إنزاله فقد أودعه الله في قلب رسوله، واستودعه فيها ثم في قلوب أمته، وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها والزيادة والنقص، ومعانيه من التبديل، فلا يحرف محرف معنى من معانيه إلا وقيض الله له من يبين الحق المبين، وهذا من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين، ومن حفظه أن الله يحفظ أهله من أعدائهم، ولا يسلط عليهم عدوا يجتاحهم.

﴿ 10 – 13 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴾ فرقهم وجماعاتهم رسلا ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ ﴾ يدعوهم إلى الحق إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾ ندخل التكذيب ﴿ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الذين تشابهت معاملتهم لأنبيائهم ورسلهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الإيمان ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ عادة الله فيهم بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله.

﴿ 14 – 15 ﴾ ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ فصاروا يعرجون فيه، ويشاهدونه عيانا بأنفسهم، أي ولو جاءتهم كل آية عظيمة لم يؤمنوا وكابروا و ﴿ لَقَالُوا ﴾ من ظلمهم وعنادهم منكرين لهذه الآية ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ﴾ أصابها سكر وغشاوة حتى رأينا ما لم نر ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ أي ليس هذا بحقيقة بل هو سحر. وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار، فإنهم لا مطمع فيهم ولا رجاء.

﴿ 16 –20 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ نجوما كالأبراج والأعلام العظام يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ﴿ وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ فهي بهذا المنظر البهي الداعي للتأمل في معانيها والاستدلال بها على باريها ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ باطنها محروسا ممنوعا من الآفات ﴿ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ ﴾ قد يسترق بعض الشياطين في بعض الأوقات السمع بخفية واختلاس ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴾ بيّن منير يقتله أو يخبله ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ وسعناها سعة يتمكن الآدميون والحيوانات كلها على الامتداد بأرجائها والتناول من أرزاقها والسكون في نواحيها ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالا عظاما تحفظ الأرض بإذن الله أن

تميد وتثبتها أن تزول ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ نافع متقوم يضطر إليه العباد والبلاد ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾ من الحرث والماشية وأنواع المكاسب والحرف ﴿ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ أنعمنا عليكم بعبيد وإماء وأنعام لنفعكم ومصالحكم وليس عليكم رزقها، بل خولكم الله إياها وتكفل بأرزاقها.

﴿ 21 ﴾ ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ جميع الأرزاق وأصناف الأقدار لا يملكها أحد إلا الله، فخزائنها بيده يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، بحسب حكمته ورحمته الواسعة ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ ﴾ المقدر من كل شيء ﴿ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ فلا يزيد على ما قدره الله ولا ينقص منه.

﴿ 22 ﴾ ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ وسخرنا رياح الرحمة تلقح السحاب فينشأ عن ذلك الماء بإذن الله، فيسقيه الله العباد ومواشيهم وأرضهم ويبقى في الأرض مدخرا لحاجاتهم وضروراتهم ما هو مقتضى قدرته ورحمته ﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ لا قدرة لكم على خزنه وادخاره، ولكن الله يخزنه لكم ويسلكه ينابيع في الأرض رحمة بكم وإحسانا إليكم.

﴿ 23 - 25 ﴾ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ﴾ هو وحده لا شريك له الذي يحيي الخلق من العدم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا ويميتهم لآجالهم التي قدرها ﴿ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ وليس ذلك بممتنع على الله فإنه يعيد عباده خلقا جديدا ويحشرهم إليه ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ ﴾ من الخلق ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ منهم ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ ويعلم ما تنقص الأرض منهم وما تفرق من أجزائهم، وهو الذي قدرته لا يعجزها معجز فيعيد عباده خلقا جديدا ويحشرهم إليه ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، ويجازي كل عامل بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

﴿26 - 44﴾ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ * وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ

مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ أي آدم عليه السلام ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ ﴾ من طين قد يبس حتى صار له صلصلة وصوت كالفخار ﴿ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ الطين المتغير لونه وريحه من طول مكثه ﴿ وَالْجَانَّ ﴾ وهو أبو الجن إبليس ﴿ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي قبل خلق آدم ﴿ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ من النار الشديدة الحرارة ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ لما أراد الله خلق آدم ﴿ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ قال للملائكة ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ جسدا تاما ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ فامتثلوا أمر ربهم ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ تأكيد بعد تأكيد ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد، وذلك تعظيما لأمر الله وإكراما لآدم ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ وهذه أول عداوته لآدم وذريته ﴿ قَالَ ﴾ الله ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ فاستكبر على أمر الله وأبدى العداوة لآدم وذريته وأعجب بعنصره: أنا خير من آدم ﴿ قَالَ ﴾ الله معاقبا له على كفره واستكباره ﴿ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ مطرود مبعد من كل خير ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ ﴾ الذم والعيب والبعد عن رحمة الله ﴿ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ففيها وما أشبهها دليل على أنه سيستمر على كفره وبعده من الخير ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي ﴾ أمهلني ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ وليس إجابة الله لدعائه كرامة في حقه وإنما ذلك امتحان وابتلاء من الله له وللعباد ليتبين الصادق الذي يطيع مولاه دون عدوه ممن ليس كذلك، ولذلك حذرنا منه غاية التحذير، وشرح لنا ما يريده منا ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أزين لهم الدنيا وأدعوهم إلى إيثارها على الأخرى، حتى يكونوا منقادين لكل معصية ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أصدهم كلهم عن الصراط المستقيم ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ الذين أخلصتهم واجتبيتهم لإخلاصهم وإيمانهم وتوكلهم ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ معتدل موصل إليَّ وإلى دار كرامتي ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ تميلهم به إلى ما تشاء من أنواع الضلالات، بسبب عبوديتهم لربهم وانقيادهم لأوامره أعانهم الله وعصمهم من الشيطان ﴿ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ ﴾ فرضي بولايتك وطاعتك بدلا من طاعة الرحمن ﴿ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ والغاوي ضد الراشد فهو الذي عرف الحق وتركه، والضال الذي تركه من غير علم منه به ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ إبليس وجنوده ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ كل باب أسفل من الآخر ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ ﴾ من أتباع إبليس ﴿ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ بحسب أعمالهم.

﴿ 45 - 50 ﴾ ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ * نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ

﴿ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ الذين اتقوا طاعة الشيطان وما يدعوهم إليه من جميع الذنوب والعصيان ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ قد احتوت على جميع الثمار اللذيذة في جميع الأوقات. ويقال لهم حال دخولها ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴾ من الموت والنوم والنصب، واللغوب وانقطاع شيء من النعيم وسائر المكدرات ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ﴾ فتبقى قلوبهم سالمة من كل دغل وحسد متصافية متحابة ﴿ إخوانا على سرر متقابلين. لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ لا ظاهر ولا باطن، وذلك لأن الله ينشئهم نشأة وحياة كاملة لا تقبل شيئا من الآفات ﴿ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ على سائر الأوقات ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي ﴾ أخبرهم خبرا جازما مؤيدا بالأدلة ﴿ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته سَعَوا في الأسباب الموصلة لهم إليها. ومع هذا فلا ينبغي أن يتمادى بهم الرجاء إلى حال الأمن والإدلال، فنبئهم ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ لا عذاب في الحقيقة إلا عذاب الله. فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائما بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة.

﴿51 - 56﴾ ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وهم الملائكة الكرام أكرمه الله بأن جعلهم أضيافه ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ سلموا عليه فرد عليهم ﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ خائفون، لأنه لما دخلوا عليه وحسبهم ضيوفا ذهب مسرعا إلى بيته فأحضر لهم ضيافتهم، عجلا حنيذا فقدمه إليهم، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه خاف منهم أن يكونوا لصوصا أو نحوهم. فـ ﴿ قَالُوا ﴾ له ﴿ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ وهو إسحاق عليه الصلاة والسلام، كثير العلم، فـ ﴿ قَالَ ﴾ لهم متعجبا من هذه البشارة ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِ ﴾ بالولد ﴿ عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ ﴾ ويئست من ذلك ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ على أي وجه تبشرون وقد عدمت الأسباب ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ الذي لا شك فيه لأن الله على كل شيء قدير ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾ الذين يستبعدون وجود الخير ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ الذين لا علم لهم بربهم، وكمال اقتداره. ثم لما بشروه بهذه البشارة، عرف أنهم مرسلون لأمر مهم.

﴿ 57 - 77 ﴾ ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ * فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ * وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ

عَنِ الْعَالَمِينَ * قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ الخليل عليه السلام للملائكة ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ ما شأنكم ولأي شيء أرسلتم ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ كثر فسادهم وعظم شرهم، لنعذبهم ونعاقبهم ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾ إلا لوطا وأهله ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ الباقين بالعذاب، وأما لوط فسنخرجنه وأهله وننجيهم منها. فجعل إبراهيم يجادل الرسل في إهلاكهم ويراجعهم ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ قَالَ ﴾ لهم لوط ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ لا أعرفكم ولا أدري من أنتم ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ جئناك بعذابهم الذي كانوا يشكون فيه ويكذبونك حين تعدهم به ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ الذي ليس بالهزل ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فيما قلنا لك ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ في أثنائه حين تنام العيون ولا يدري أحد عن مسراك ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ﴾ بادروا وأسرعوا ﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ كأن معهم دليلا يدلهم إلى أين يتوجهون ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ ﴾ أخبرناه ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ سيصبحهم العذاب الذي يجتاحهم ويستأصلهم ﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ﴾ التي فيها قوم لوط ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يبشر بعضهم بعضا بأضياف لوط وصباحة وجوههم واقتدارهم عليهم، وذلك لقصدهم فعل الفاحشة فيهم، فجاءوا حتى وصلوا إلى بيت لوط ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ فجعلوا يعالجون لوطا على أضيافه ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ ولوط يستعيذ منهم فـ ﴿ قَالُوا ﴾ له ﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أن تضيفهم فنحن قد أنذرناك، فـ ﴿ قَالَ ﴾ لهم لوط من شدة الأمر الذي أصابه ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ فلم يبالوا بقوله. ولهذا قال الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ وهذه السكرة هي سكرة محبة الفاحشة التي لا يبالون معها بعذل ولا لوم. فلما بينت له الرسل حالهم، زال عن لوط ما كان يجده من الضيق والكرب، فامتثل أمر ربه وسرى بأهله ليلا فنجوا، وأما أهل القرية ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ وقت شروق الشمس حين كانت العقوبة عليهم أشد ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ قلبنا عليهم مدينتهم ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ تتبع فيها من شذ من البلد منهم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ المتأملين ذوي الفكر والفراسة الذين يفهمون أن من تجرأ على معاصي الله فإنه سيعاقبهم بأشنع العقوبات، كما تجرأوا على أشنع السيئات ﴿ وَإِنَّهَا ﴾ مدينة قوم لوط ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ﴾ للسالكين، يعرفه كل من تردد في تلك الديار ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ من عنايته تعالى بخليله إبراهيم وبلوط عليه السلام.

﴿78 – 79﴾ ﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ ﴾

﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴾ وهؤلاء هم قوم شعيب، نعتهم الله وأضافهم إلى الأيكة، وهو البستان كثير الأشجار، ليذكر نعمته عليهم. جاءهم نبيهم شعيب فدعاهم إلى التوحيد وترك ظلم الناس في المكاييل

والموازين، فاستمروا على ظلمهم ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ أي: ديار قوم لوط وأصحاب الأيكة ﴿ لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ لبطريق واضح يمر بهم المسافرون كل وقت، فيبين من آثارهم ما هو مشاهد بالأبصار فيعتبر بذلك أولوا الألباب.

﴿ 80 - 84 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ ﴾ وهم قوم صالح الذين كانوا يسكنون الحجر المعروف في أرض الحجاز، كذبوا ﴿ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي كذبوا صالحا ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا ﴾ الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق كتلك الناقة التي هي من آيات الله العظيمة ﴿ فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ كبرا وتجبرا على الله ﴿ وَكَانُوا ﴾ من كثرة إنعام الله عليهم ﴿ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴾ من المخاوف مطمئنين في ديارهم، فلو شكروا النعمة وصدقوا نبيهم صالحا عليه السلام لأدرَّ الله عليهم الأرزاق، ولأكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والآجل، ولكنهم كذبوا وعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ فتقطعت قلوبهم في أجوافهم وأصبحوا في دارهم جاثمين هلكى مع ما يتبع ذلك من الخزي واللعنة المستمرة ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ لأن أمر الله إذا جاء لا يرده كثرة جنود، ولا قوة أنصار ولا غزارة أموال.

﴿ 85 - 86 ﴾ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ ما خلقناهما عبثا وباطلا كما يظن ذلك أعداء الله، بل ما خلقناهما ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ دالتين على كمال خالقهما، واقتداره، وسعة رحمته وحكمته، وعلمه المحيط، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ لا ريب فيها ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ وهو الصفح الذي لا أذية فيه بل يقابل إساءة المسيء بالإحسان، وذنبه بالغفران. والمعنى الأحسن هو أن المأمور به هو الصفح الجميل الحسن الذي سلم من الحقد والأذية القولية والفعلية، دون الصفح الذي ليس بجميل، وهو الصفح في غير محله، فلا يصفح حيث اقتضى المقام العقوبة، كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ ﴾ لكل مخلوق ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بكل شيء، فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه من سائر الموجودات.

﴿ 87 - 93 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ * كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي ﴾ وهن –على الصحيح– السور السبع الطوال: " البقرة " و " آل عمران " و " النساء " و " المائدة " و " الأنعام " و " الأعراف " و " الأنفال " مع " التوبة " أو أنها فاتحة الكتاب لأنها سبع آيات، فيكون عطف ﴿ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ على ذلك من باب عطف العام على الخاص، لكثرة ما في المثاني من التوحيد، وعلوم الغيب، والأحكام الجليلة، وتثنيتها فيها. وعلى القول بأن " الفاتحة " هي السبع المثاني معناها: أنها سبع آيات، تثنى في كل ركعة. واذا كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع المثاني كان قد أعطاه أعظم ما فرح به المؤمنون ف ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ لا تعجب إعجابا يحملك على إشغال فكرك بشهوات الدنيا التي تمتع بها المترفون، واغترَّ بها الجاهلون، واستغن بما آتاك الله من المثاني والقرآن العظيم ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ فإنهم لا خير فيهم يرجى، ولا نفع يرتقب، فلك في المؤمنين عنهم أحسن البدل وأفضل العوض ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ألن لهم جانب كمحبة وتودُّدا ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ قم بما عليك من أداء الرسالة والتبليغ. ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ كما أنزلنا العقوبة على المقتسمين على بطلان ما جئت به، الساعين لصد الناس عن سبيل الله ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ أصنافا وأعضاء وأجزاء، يصرفونه بحسب ما يهوونه، فمنهم من يقول سحر ومنهم من يقول كهانة ومنهم من يقول مفترى إلى غير ذلك من أقوال الكفرة المكذبين به، الذين جعلوا قدحهم فيه ليصدوا الناس عن الهدى ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ جميع من قدح فيه وعابه وحرفه وبدله ﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وفي هذا أعظم ترهيب وزجر لهم عن الإقامة على ما كانوا عليه.

﴿ 94 - 99 ﴾ ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّـهِ إِلَـٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ ثم أمر الله رسوله ان لا يبالي بهم ولا بغيرهم وأن يصدع بما أمر الله ويعلن بذلك لكل أحد ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ لا تبال بهم واترك مشاتمتهم ومسابتهم مقبلا على شأنك ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ بك وبما جئت به وهذا وعد من الله لرسوله، أن لا يضره المستهزئون، وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة ﴿ الَّذِينَ ﴾ كما يؤذونك يا رسول الله، فإنهم ﴿ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّـهِ إِلَـٰهًا آخَرَ ﴾ فيؤذون الله أيضا وهو ربهم وخالقهم ومدبرهم ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ غب أفعالهم إذا وردوا القيامة. ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ لك من التكذيب والاستهزاء، فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ أكثر من ذكر الله وتسبيحه وتحميده والصلاة فإن ذلك يوسع الصدر ويشرحه ويعينك على أمورك ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ الموت أي استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات، فامتثل صلى الله عليه وسلم أمر ربه، فلم يزل دائبا في العبادة، حتى أتاه اليقين من ربه صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا.

تم تفسير سورة الحجر

16

مختصر تفسير سورة النحل

عدد آياتها 128

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 -2 ﴾ ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ فإنه آت قريب ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ من شريك وولد وصاحبة وكفء وغير ذلك مما نسبه إليه المشركون مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ بالوحي ﴿ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ممن يعلمه صالحا لتحمل رسالته. وزبدة دعوة الرسل كلهم ﴿ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ على معرفة الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له فهي التي أنزل الله بها كتبه وأرسل رسله وجعل الشرائع كلها تدعو إليها.

﴿ 3 - 9 ﴾ ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ *وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ هذه السورة تسمى سورة النعم، فإن الله ذكر في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها، فأخبر أنه خلق السماوات والأرض بالحق، ليستدل بهما العباد على عظمة خالقهما ولهذا نزه نفسه عن شرك المشركين به ﴿ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزه وتعاظم عن شركهم فإنه الإله حقا ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ لم يزل يدبرها ويرقيها وينميها حتى صارت بشرا تاما كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، حتى إذا استتم فخر بنفسه وأعجب بها ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾. يحتمل أن المراد: 1- فإذا هو خصيم لربه، يكفر به، ويجادل رسله، ويكذب بآياته. ونسي خلقه الأول وما أنعم الله عليه به، من النعم فاستعان بها على معاصيه.2- أن الله أنشأ الآدمي من نطفة، حتى صار عاقلا ذا ذهن ورأي يخاصم ويجادل ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾ لأجل منافعكم ومصالحكم، لكم ﴿ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ من الثياب والفرش والبيوت ﴿ وَ ﴾ لكم فيها ﴿ مَنَافِعُ ﴾ غير ذلك ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ

تَسْرَحُونَ ﴾ في وقت راحتها وسكونها ووقت حركتها وسرحها، أنتم الذين تتجملون بها، وتعجبون بذلك ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ من الأحمال الثقيلة، بل وتحملكم أنتم ﴿ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ﴾ ولكن الله ذللها لكم ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ إذ سخر لكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ ﴾ سخرناها لكم ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ تارة تستعملونها للضرورة في الركوب وتارة لأجل الجمال والزينة، ولم يذكر الأكل لأن البغال والحمر محرم أكلها، والخيل لا تستعمل في الغالب للأكل، بل ينهى عن ذبحها لأجل الأكل خوفا من انقطاعها وإلا فقد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم أذن في لحوم الخيل ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء، التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم، فإنه لم يذكرها بأعيانها، لأن الله تعالى لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير في زمانهم فإنه لو ذكر لم يعرفوه ولم يفهموا المراد منه، فيذكر أصلا جامعا يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون، كما ذكر نعيم الجنة وسمى منه ما نعلم ونشاهد نظيره، كالنخل والأعناب والرمان، وأجمل ما لا نعرف له نظيرا في قوله: فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ. هذا عن الطريق الحسي المادي، أنما عن الطريق المعنوي الموصل إليه فقال ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ الصراط المستقيم، الذي هو أقرب الطرق وأخصرها موصل إلى الله. وقد سلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ وضل الغاوون عنه وسلكوا الطرق الجائرة ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ولكنه هدى بعضا كرما وفضلا، ولم يهد آخرين، حكمة منه وعدلا.

﴿ 10 - 11 ﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ دل بذلك على كمال قدرة الله الذي أنزل هذا الماء من السحاب الرقيق اللطيف، ورحمته حيث جعل فيه ماء غزيرا ﴿ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ ﴾ يشربون وتشرب مواشيهم ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ ويسقون منه حروثهم ﴿ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ فتخرج لهم الثمرات الكثيرة والنعم الغزيرة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

﴿ 12 ﴾ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ سخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم وأنواع مصالحكم بحيث لا تستغنون عنها أبدا، فبالليل تسكنون وتنامون وتستريحون، وبالنهار تنتشرون في معايشكم ومنافع دينكم ودنياكم، وبالشمس والقمر من الضياء والنور والإشراق، وغير ذلك من الضروريات التابعة لوجود الشمس والقمر. وفيهما وفي النجوم من الزينة للسماء والهداية في ظلمات البر والبحر، ومعرفة

الأوقات وحساب الأزمنة ما تتنوع دلالاتها وتتصرف آياتها، ولهذا جمعها في قوله ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ لمن لهم عقول يستعملونها في التدبر والتفكر تعقل ما تراه وتسمعه، لا كنظر البهائم التي لا عقل لها.

﴿ 13 ﴾ ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ ونشر للعباد من كل ما على وجه الأرض، من حيوان وأشجار ونبات وغير ذلك ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ مما تختلف ألوانه، وتختلف منافعه ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ على كمال قدرة الله وعميم إحسانه، وسعة بره، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ يتأملون ما دعاهم الله إلى التأمل فيه حتى يتذكروا بذلك ما هو دليل عليه.

﴿ 14 ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

﴿ وَهُوَ ﴾ وحده لا شريك له ﴿ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ ﴾ وهيأه لمنافعكم المتنوعة ﴿ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ يصطادونه منه ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ فتزيدكم جمالا وحسنا إلى حسنكم ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ ﴾ السفن والمراكب ﴿ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ تمخر في البحر ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ تحمل المسافرين وأرزاقهم ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الذي يسر لكم هذه الأشياء وهيأها وتثنون على الله الذي منَّ بها.

﴿ 15 – 16 ﴾ ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

﴿ وَأَلْقَىٰ ﴾ الله تعالى لأجل عباده ﴿ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ الجبال العظام ﴿ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ لئلا تميد بهم ﴿ وَ ﴾ من رحمته تعالى أن جعل فيها ﴿ أَنْهَارًا ﴾ يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطرة إليها، على وجه الأرض، وفي بطنها يستخرجونها بحفرها. ﴿ وَ ﴾ من رحمته أن جعل في الأرض ﴿ سُبُلًا ﴾ طرقا توصل إلى الديار المتنائية ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ السبيل إليها ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾.[1]

﴿ 17 – 23 ﴾ ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ *وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ

---

[1] جاء في تفسير الطبري: "فتأويل الكلام إذن: وجعل لكم أيها الناس علامات تستدلون بها نهارا على طرقكم في أسفاركم. ونجوما تهتدون بها ليلا في سُبُلكم". (م)

مُسْتَكْبِرُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾

﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ ﴾ جميع المخلوقات وهو الفعال لما يريد ﴿ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ شيئا لا قليلا ولا كثيرا ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فتعرفون أن المنفرد بالخلق أحق بالعبادة كله ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ عددا مجردا عن الشكر ﴿ لَا تُحْصُوهَا ﴾ فضلا عن كونكم تشكرونها، فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد فأكثر من أن تحصى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يرضى منكم باليسير من الشكر مع إنعامه الكثير ﴿ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ بخلاف من عبد من دونه ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ فإنهم ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ قليلا ولا كثيرا ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ ومع هذا ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء لا علم، ولا غيره ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئا ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ فتبا لعقول المشركين ما أضلها وأفسدها ﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يكن له كفوا أحد ﴿ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ ﴾ لهذا الأمر العظيم: توحيد الله ﴿ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن عبادته ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ حقا لا بد ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من الأعمال القبيحة ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ بل يبغضهم أشد البغض.

﴿ 24 - 29 ﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ * قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ إذا سألوا عن القرآن والوحي الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد ﴿ قَالُوا ﴾ فيكون جوابهم أقبح جواب ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ما هو إلا قصص الأولين التي يتناقلها الناس جيلا بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب، فقالوا هذه المقالة، ودعوا أتباعهم إليها ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ وحملوا وزرهم ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ من أوزار المقلدين الذين لا علم عندهم إلا ما دعوهم إليه، فيحملون إثم ما دعوهم إليه، وأما الذين يعلمون فكلٌّ مستقلٌّ بجرمه، لأنه عرف ما عرفوا ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ بئس ما حملوا من الوزر المثقل لظهورهم، من وزرهم ووزر من أضلوه ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ برسلهم واحتالوا بأنواع الحيل على رد ما جاءوهم به وبنوا من مكرهم قصورا هائلة ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ فصار ما بنوه عذابا عذبوا به ﴿ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سينفعهم ويقيهم العذاب فصار عذابهم فيما بنوه وأصّلوه ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾ يفضحهم على رءوس الخلائق ويبين لهم

كذبهم وافتراءهم على الله ﴿ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ تحاربون وتعادون الله وحزبه لأجلهم وتزعمون أنهم شركاء لله ﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ العلماء الربانيون ﴿ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ ﴾ يوم القيامة ﴿ وَالسُّوءَ ﴾ العذاب ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق وأن لقولهم اعتبارا عند الله وعند خلقه ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ تتوفاهم في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغيهم وقد علم ما يلقى الظلمة في ذلك المقام من أنواع العذاب ﴿ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ﴾ استسلموا وأنكروا ما كانوا يعبدونهم من دون الله وقالوا ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ فيقال لهم ﴿ بَلَى ﴾ كنتم تعملون السوء فـ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فلا يفيدكم الجحود شيئا ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ كلُّ أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بحالهم ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ نار جهنم فإنها مثوى الحسرة والندم.

﴿ 30 – 32 ﴾﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى عباد الله فلهم ﴿ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ رزق واسع وعيشه هنية وطمأنينة قلب وأمن وسرور ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ من هذه الدار فإن نعيمها قليل منقطع، بخلاف نعيم الآخرة ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ. جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ فلا يمكن أن يطلبوا نوعا من أنواع النعيم إلا وهو حاضر لديهم، حتى إنه يذكرهم أشياء من النعيم لم تخطر على قلوبهم ﴿ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ مستمرين على تقواهم ﴿ طَيِّبِينَ ﴾ طاهرين مطهرين من كل نقص ودنس يتطرق إليهم ويخل في إيمانهم ﴿ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ﴾ التحية الكاملة حاصلة لكم والسلامة من كل آفة ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من الإيمان بالله والانقياد لأمره.

﴿ 33 – 34 ﴾ ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ هل ينظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا، وذكِّروا فلم يتذكروا ﴿ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ لقبض أرواحهم ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ بالعذاب الذي سيحل بهم فإنهم قد استحقوا وقوعه فيهم ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ كذبوا وكفروا، ثم لم يؤمنوا حتى نزل بهم العذاب ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ﴾ إذ عذبهم ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ فإنها مخلوقة لعبادة الله ليكون مآلها إلى كرامة الله فظلموها وتركوا ما خلقت له، وعرضوها للإهانة الدائمة والشقاء الملازم ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ عقوبات أعمالهم

وآثارها ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ نزل ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ فإنهم كانوا إذا أخبرتهم رسلهم بالعذاب استهزأوا به، وسخروا ممن أخبر به فحل بهم ذلك الأمر الذي سخروا منه.

﴿ 35 ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ احتج المشركون أن لو شاء الله ما أشركوا. فاحتجاجهم بالقضاء والقدر من أبطل الباطل، فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله وتكذيب الأمور العقلية والحسية ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ البين الظاهر الذي يبلغ القلوب، وحسابهم بعدها على الله عز وجل.

﴿ 36 - 37 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ﴾ ما من أمة إلا وبعث الله فيها رسولا، وكلهم متفقون على دعوة واحدة ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ فانقسمت الأمم بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها قسمين ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ ﴾ فاتبعوا المرسلين علما وعملا ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ فاتبع سبيل الغي ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ فإنكم لا تجدون مكذبا إلا كان عاقبته الهلاك ﴿ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ ﴾ وتبذل جهدك في ذلك ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ ولو فعل كل سبب لم يهده إلا الله ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ ينصرونهم من عذاب الله ويقونهم بأسه.

﴿ 38 - 40 ﴾ ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ * إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ حلفوا أيمانا مؤكدة مغلظة ﴿ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ﴾ أن الله لا يبعث الأموات. فكذبهم تعالى ﴿ بَلَى ﴾ سيبعثهم ويجمعهم ليوم لا ريب فيه ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ لا يخلفه ولا يغيره ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ومن جهلهم العظيم إنكارهم للبعث والجزاء ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ من المسائل الكبار والصغار، فيبين حقائقها ويوضحها ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ حين يرون أعمالهم حسرات عليهم، وحين يرون ما يعبدون حطبا لجهنم، ويتضح لمن يعبد الشمس والقمر والنجوم أنها عبيد مسخرات مفتقرات إلى الله في جميع الحالات ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

وليس ذلك على الله بصعب فإنه إذا أراد شيئا قال له: كن فيكون، من غير منازعة ولا امتناع.

﴿ 41 - 42 ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ ﴾ في سبيله وابتغاء مرضاته ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ من قومهم الذين يفتنونهم ليردوهم إلى الكفر والشرك، فتركوا الأوطان وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن. فذكر لهم ثوابين﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ ثوابا عاجلا في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ ﴾ الذي وعدهم الله على لسان رسوله ﴿ أَكْبَرُ ﴾ من أجر الدنيا ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ علم يقين بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجر في سبيله لما تخلف عن ذلك أحد ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ على أوامر الله وعن نواهيه، وعلى أقدار الله المؤلمة، وعلى الأذية فيه والمحن ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ يعتمدون عليه في تنفيذ محابّه، لا على أنفسهم.

﴿ 43 - 44 ﴾ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ لم نرسل قبلك ملائكة بل رجالا كاملين ﴿ نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ الشرائع والأحكام من غير أن يأتوا بشيء من قبل أنفسهم ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ الكتب السابقة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ نبأ الأولين، وشككتم هل بعث الله رجالا؟ فاسألوا أهل العلم بذلك الذين نزلت عليهم ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴾ فعلموها وفهموها ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ﴾ القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة. وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ وهذا شامل لتبيين ألفاظه وتبيين معانيه ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيه فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه.

﴿ 45 - 47 ﴾ ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ هذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، من أن يأخذهم العذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم بالخسف وغيره ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ وإما في حال تقلُّبهم وشغلهم وعدم خطور العذاب ببالهم ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ وإما في حال تخوفهم من العذاب، فليسوا بمعجزين لله في حالة من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته ونواصيهم بيده. ولكنه رءوف رحيم لا يعاجل

العاصين بالعقوبة، بل يمهلهم ويعافيهم ويرزقهم ويفتح لهم أبواب التوبة. وليعلم المجرم أن الله يمهل ولا يهمل.

﴿ 48 – 50 ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ الشاكون في توحيد ربهم وعظمته وكماله ﴿ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ إلى جميع مخلوقاته وكيف ﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَ ﴾ عن ﴿ الشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ ﴾ كلها ساجدة لربها خاضعة لعظمته وجلاله ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ ذليلون تحت التسخير والتدبير والقهر، ما منهم أحد إلا وناصيته بيد الله وتدبيره عنده ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ من الحيوانات الناطقة والصامتة ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ الكرام خصهم بعد العموم لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم ولهذا قال ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن عبادته على كثرتهم وعظمة أخلاقهم وقوتهم ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ لما مدحهم بكثرة الطاعة والخضوع لله، مدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ مهما أمرهم الله تعالى امتثلوا لأمره، طوعا واختيارا[2].

﴿ 51 – 55 ﴾ ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ تجعلون له شريكا في إلهيته ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ فكما أنه الواحد في ذاته وأسمائه ونعوته وأفعاله، فلتوحّدوه في عبادته، ولهذا قال ﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ خافوني وامتثلوا أمري، واجتنبوا نهيي ﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ﴾ الدين والعبادة والذل في جميع الأوقات لله وحده ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ من أهل الأرض أو أهل السماوات فإنهم لا يملكون لكم ضرا ولا نفعا ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ[3] ﴾ ظاهرة وباطنة ﴿ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ لا أحد يشركه فيها ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ ﴾ من فقر ومرض وشدة ﴿ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ تضجون بالدعاء والتضرع لعلمكم أنه لا يدفع الضر والشدة إلا هو ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ. لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ أعطيناهم حيث نجيناهم من الشدة، وخلصناهم من المشقة ﴿ فَتَمَتَّعُوا ﴾ في دنياكم قليلا ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة كفركم.

﴿56 –60﴾ ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ

---

2 وسجود المخلوقات لله تعالى قسمان: 1- سجود اضطرار: وهذا عام لكل مخلوق، 2- سجود اختيار: يختص بأوليائه وعباده.

3 في قراءة أخرى: "وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ..." (م)

مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم وافترائهم على الله الكذب، وأنهم يجعلون لأصنامهم التي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر نصيبا مما رزقهم الله وأنعم به عليهم ﴿ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ ﴾ حيث قالوا عن الملائكة العباد المقربين إنهم بنات الله ﴿ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ لأنفسهم الذكور حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة، فكان أحدهم ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ من الغم الذي أصابه ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ كاظم على الحزن والأسف إذا بشّر بأنثى، وحتى إنه يفتضح عند أبناء جنسه ﴿ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾ ثم يعمل فكره ورأيه الفاسد فيما يصنع بتلك البنت التي بشّر بها ﴿ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ ﴾ يتركها من غير قتل على إهانة وذل ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾ يدفنها وهي حية وهو الوأد الذي ذم الله به المشركين ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله من نسبة الإناث اللاتي يأنفون بأنفسهم عنها ويكرهونها، فكيف ينسبونها لله تعالى؟! فبئس الحكم حكمهم ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ المثل الناقص والعيب التام ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ وهو كل صفة كمال وكل كمال في الوجود فالله أحق به، من غير أن يستلزم ذلك نقصا بوجه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي قهر جميع الأشياء وانقادت له المخلوقات بأسرها ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها.

﴿61﴾ ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ﴾ من غير زيادة ولا نقص ﴿ مَا تَرَكَ عليها مِنْ دَابَّةٍ ﴾ لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم، من أنواع الدواب والحيوانات فإن شؤم المعاصي يهلك به الحرث والنسل ﴿ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ عن تعجيل العقوبة عليهم ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ فليحذروا ما داموا في وقت الإمهال قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه.

﴿62 -63﴾ ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ * تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ من البنات، ومن الأوصاف القبيحة وهو الشرك بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات التي هي عبيد لله ﴿ وَ ﴾ هم مع هذه الإساءة العظيمة ﴿ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى ﴾ أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة رد عليهم بقوله ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴾ مقدمون إليها ماكثون فيها غير خارجين منها أبدا. وبيَّن تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه ليس هو أول

رسول كُذِّب فقال تعالى: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ رسلا يدعونهم إلى التوحيد ﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ فكذبوا الرسل وزعموا أن ما هم عليه هو الحق، فلما زين لهم الشيطان أعمالهم ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ ﴾ صار وليهم في الدنيا، فأطاعوه حيث تولوا عن ولاية الرحمن، ورضوا بولاية الشيطان ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فاستحقوا لذلك عذاب الهوان.

﴿65﴾ ﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فيستدلوا بذلك على أنه وحده المعبود، لأنه المنعم بإنزال المطر وإنبات جميع أصناف النبات، وعلى أنه على كل شيء قدير، وأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأموات وأن الذي نشر هذا الإحسان لذو رحمة واسعة وجود عظيم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾.

﴿ 66 - 67﴾ ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ * وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ ﴾ التي سخرها الله لمنافعكم ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ تستدلون بها على كمال قدرة الله وسعة إحسانه ﴿ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرث والدم، فأخرج من بين ذلك لبنا خالصا من الكدر سائغا للشاربين للذته ولأنه يسقي ويغذي فهل هذه إلا قدرة إلهية ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد، ومصالح من أنواع الرزق الحسن طعاما وشرابا يتخذ من عصيرها ونبيذها، ومن السكر الذي كان حلالا قبل ذلك، ثم إن الله نسخ حلَّ المسكرات، وأعاض عنها بالطيبات وأنواع الأشربة اللذيذة المباحة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ عن الله كمال اقتداره وعلى شمول رحمته حيث عم بها عباده ويسرها لهم.

﴿ 68 - 69﴾ ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ في خلق هذه النحلة الصغيرة، التي هداها الله هذه الهداية العجيبة ﴿ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ ويسر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها، وهدايته لها ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ ﴾ العسل اللذيذ ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ بحسب اختلاف أرضها ومراعيها ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ من أمراض عديدة ﴿ إِنَّ فِي

﴿ ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى، وتمام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ويدعي سواه.

﴿ 70﴾ ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ يخبر تعالى أنه الذي خلق العباد ونقلهم في الخلقة طورا بعد طور ثم بعد أن يستكملوا آجالهم يتوفاهم ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ ﴾ يعمره حتى ﴿ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة حتى العقل الذي هو جوهر الإنسان يزيد ضعفه ﴿ لِكَيلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ حتى إنه ينسى ما كان يعلمه، ويصير عقله كعقل الطفل ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء ومن ذلك ما ينقل به الآدمي من أطوار الخلقة، خلقا بعد.

﴿71﴾ ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾ فجعل منكم أحرارا لهم مال وثروة، ومنكم أرقاء لهم لا يملكون شيئا من الدنيا ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا ﴾ فكما أن سادتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق ليسوا ﴿ بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ ويرون هذا من الأمور الممتنعة، فكذلك من أشركتم بها مع الله، فإنها عبيد ليس لها من الملك مثقال ذرة، فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى؟!هل هذا إلا من أعظم الظلم والجحود لنعم الله ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ فلو أقروا بالنعمة ونسبوها إلى من أولاها، لما أشركوا به أحدا.

﴿72﴾ ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ يخبر تعالى عن منته العظيمة على عباده حيث جعل لهم أزواجا ليسكنوا إليها ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ أولادا تقرُّ بهم أعينهم ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ من جميع المآكل والمشارب والنعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصوها ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ أيؤمنون بالباطل الذي لم يكن شيئا مذكورا ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ يجحدونها ويستعينون بها على معاصي الله والكفر به.

﴿73 – 76﴾ ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ * فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ

أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم أنهم يعبدون من دونه آلهة اتخذوها شركاء لله، وهم لا يملكون لهم رزقا من السماوات والأرض. فكيف جعلوها مع الله ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فعلينا أن لا نقول عليه بلا علم، وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال. فلهذا ضرب تعالى مثلين له ولمن يعبد من دونه ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ أحدهما عبد مملوك لا يملك نفسه ولا يملك من المال والدنيا شيئا ﴿ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ والثاني حرٌّ غنيٌّ قد رزقه الله منه رزقا حسنا وهو كريم محب للإحسان، فهو ينفق منه سرا وجهرا ﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾ هل يستوي هذا وذاك! لا يستويان مع أنهما مخلوقان. فإذا كانا لا يستويان فكيف يستوي المخلوق العبد بالرب الخالق المالك لجميع الممالك القادر على كل شيء ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك فلم سوَّى المشركون آلهتهم بالله؟ قال ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فلو علموا حقيقة العلم لم يتجرؤوا على الشرك العظيم ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ والمثل الثاني مثل ﴿ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ ﴾ لا يسمع ولا ينطق و ﴿ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ قليل أو كثير ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ ﴾ يخدمه مولاه، ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ فهو ناقص من كل وجه ﴿ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ فكما أنهما لا يستويان فلا يستوي من عبد من دون الله وهو لا يقدر على شيء من مصالحه، فلولا قيام الله بها لم يستطع شيئا منها.

﴿77﴾ ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ ﴾ هو تعالى المنفرد بغيب السماوات والأرض، فلا يعلم الخفايا والبواطن والأسرار إلا هو، ومن ذلك علم الساعة فلا يدري أحد متى تأتي إلا الله، فإذا جاءت وتجلت لم تكن ﴿ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ من ذلك فيقوم الناس من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم وتفوت الفرص لمن يريد الإمهال ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فلا يستغرب على قدرته الشاملة إحياؤه للموتى.

﴿78﴾ ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

﴿ وَاللَّهُ ﴾ هو المنفرد بهذه النعم حيث ﴿ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ ولا تقدرون على

شيء ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ خصّ هذه الأعضاء الثلاثة، لشرفها وفضلها ولأنها مفتاح لكل علم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

﴿79﴾ ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴾ فالمؤمنون هم المتفكرون والمنتفعون بآيات الله، وأما غيرهم فإن نظرهم نظر لهو وغفلة. ووجه الآية أن الله تعالى خلقها بخلقة تصلح للطيران، ثم سخر لها هذا الهواء اللطيف ثم أودع فيها من قوة الحركة وما قدرت به على ذلك ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وذلك دليل على كمال حكمته وعلمه الواسع وعنايته الربانية بجميع مخلوقاته وكمال اقتداره، تبارك الله رب العالمين.

﴿80 - 83﴾ ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾ تكنُّكم من الحر والبرد وتستركم أنتم وأولادكم وأمتعتكم ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ ﴾ إما من الجلد نفسه أو مما نبت عليه، من صوف وشعر ووبر ﴿ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾ خفيفة الحمل في السفر ﴿ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ تقيكم من الحر والبرد والمطر ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا ﴾ أي الأنعام ﴿ وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا ﴾ وهذا شامل لكل ما يتخذ منها من الآنية والأوعية والفرش والألبسة وغير ذلك ﴿ وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ تتمتعون بذلك في هذه الدنيا وتنتفعون بها ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ﴾ من مخلوقاته ﴿ ظِلَالًا ﴾ وذلك كأظلة الأشجار والجبال والآكام ونحوها ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾ مغارات تكنكم من الحر والبرد والأمطار والأعداء ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ ﴾ ألبسة وثيابا ﴿ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ ولم يذكر الله البرد لأنه قد تقدم أن هذه السورة أولها في أصول النعم وآخرها في مكملاتها ومتمماتها، ووقاية البرد من أصول النعم فإنه من الضرورة وقد ذكره في أولها في قوله لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ وثيابا تقيكم وقت البأس والحرب من السلاح، وذلك كالدروع والزرد ونحوها ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ ﴾ إذا ذكرتم نعمة الله ورأيتموها غامرة لكم من كل وجه ﴿ تُسْلِمُونَ ﴾ لعظمته وتنقادون لأمره ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ عن الله وعن طاعته بعد ما ذُكِّروا بنعمه وآياته ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ فأنت مطالب بالوعظ والتحذير وحسابهم على الله ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ يعرفون نعمة الله وينكرونها، وما ينفعهم توالي الآيات.

﴿84 - 87﴾ ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ

ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ * وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ يشهد عليهم بأعمالهم وماذا أجابوا به الداعي إلى الهدى وذلك هم الرسل الذين إذا شهدوا تم عليهم الحكم ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ في الاعتذار لأن اعتذارهم اعتذار كاذب لا يفيدهم شيئا، وإن طلبوا أيضا الرجوع إلى الدنيا ليستدركوا لم يجابوا ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ ولم يعتبوا، بل يبادرهم العذاب الشديد ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ ﴾ يوم القيامة وعلموا بطلانها ولم يمكنهم الإنكار ﴿ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ ﴾ ليس عندها نفع ولا شفع، فنوّهوا بأنفسهم ببطلانها، وكفروا بها ﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ ﴾ ردت عليهم شركاؤهم قولهم، فقالت لهم ﴿ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ حيث جعلتمونا شركاء لله، وعبدتمونا معه فلم نأمركم بذلك، ولا زعمنا أن فينا استحقاقا للألوهية فاللوم عليكم ﴿ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ﴾ فحينئذ استسلموا لله ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ فدخلوا النار.

﴿88﴾ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ حيث كفروا بأنفسهم، وكذبوا بآيات الله وحاربوا رسله ﴿ وَصَدُّوا ﴾ الناس ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ فاستحقوا مضاعفة العذاب، كما تضاعف جرمهم وكما أفسدوا في أرض الله.

﴿ 89 ﴾ ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ وخص منهم هذا الرسول الكريم ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ﴾ على أمتك تشهد عليهم بالخير والشر، وهذا من كمال عدل الله تعالى أن كل رسول يشهد على أمته لأنه أعظم اطلاعا من غيره على أعمال أمته، وأعدل وأشفق من أن يشهد عليهم إلا بما يستحقون ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم تبيين بألفاظ واضحة ومعان جلية ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

﴿ 90 ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ فيؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة في حق الله وحق عباده. فالعدل واجب، والإحسان فضيلة ﴿ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ وخص الله إيتاء ذي القربى وإن

كان داخلا في العموم لتأكد حقهم وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك. ويدخل في ذلك جميع الأقارب قريبهم وبعيدهم لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر ﴿ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ ﴾ وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر كالشرك بالله والقتل بغير حق والزنا والسرقة والعجب والكبر واحتقار الخلق وغير ذلك من الفواحش. ﴿ وَالْمُنْكَرِ ﴾ ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى. ﴿ وَالْبَغْيِ ﴾ وهو كل عدوان على الخلق في الدماء والأموال والأعراض. فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات ﴿ يَعِظُكُمْ ﴾ بما بينه لكم في كتابه بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرتكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ما يعظكم به فتفهمونه وتعقلونه.

﴿91 - 92﴾ ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ وهذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه من العبادات والنذور والأيمان التي عقدها إذا كان الوفاء بها برا، ويشمل أيضا ما تعاقد عليه هو وغيره كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره ويؤكده على نفسه، فعليه في جميع ذلك الوفاء وتتميمها مع القدرة، ولهذا نهى الله عن نقضها فقال ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ بعقدها على اسم الله تعالى ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ ﴾ أيها المتعاقدون ﴿ كَفِيلًا ﴾ فلا يحل لكم أن لا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلا. فكما ائتمنك وأحسن ظنه فيك فلتف له بما قلته وأكدته ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ يجازي كل عامل بعمله على حسب نيته ومقصده ﴿ وَلَا تَكُونُوا ﴾ في نقضكم للعهود بأسوأ الأمثال وأقبحها وأدلها على سفه متعاطيها، وذلك ﴿ كَالَّتِي ﴾ تغزل غزلا قويا فإذا استحكم وتم ما أريد منه ﴿ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ فجعلته ﴿ أَنْكَاثًا ﴾ فتعبت على الغزل ثم على النقض، فكذلك من نقض ما عاهد عليه فهو ظالم جاهل سفيه ناقص الدين والمروءة ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ لا تنبغي هذه الحالة منكم تعقدون الأيمان المؤكدة وتنتظرون فيها الفرص، فإذا كان العاقد لها ضعيفا غير قادر على الآخر أتمها لا لتعظيم العقد واليمين بل لعجزه، وإن كان قويا يرى مصلحته الدنيوية في نقضها نقضها غير مبال بعهد الله ويمينه ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ﴾ وهذا ابتلاء من الله وامتحان يبتليكم الله به ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فيجازي كلا بما عمل، ويخزي الغادر.

﴿93﴾ ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ ﴾ أيها الناس على الهدى وجعلكم ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ

﴿ يَشَاءُ ﴾ ولكنه يعطي الهداية من يستحقها فضلا، ويمنعها من لا يستحقها عدلا ﴿ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من خير وشر فيجازيكم عليها أتم الجزاء وأعدله.

﴿94﴾ ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ وعهودكم ومواثيقكم تبعا لأهوائكم متى شئتم وفيتم بها، ومتى شئتم نقضتموها ﴿ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ فإنكم إذا فعلتم ذلك تزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم ﴿ وَتَذُوقُوا السُّوءَ ﴾ العذاب الذي يسوءكم ويحزنكم ﴿ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ حيث ضللتم وأضللتم غيركم ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ مضاعف.

﴿95 - 97﴾ ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ تنالونه بالنقض وعدم الوفاء ﴿ إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ من الثواب العاجل والآجل لمن آثر رضاه، وأوفى بما عاهد عليه الله ﴿ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من حطام الدنيا الزائلة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فآثروا ما يبقى على ما يفنى فإن ﴿ مَا عِنْدَكُمْ ﴾ ولو كثر جدا لا بد أن ﴿ يَنْفَدُ ﴾ ويفنى ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ ببقائه لا يفنى ولا يزول ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ على طاعة الله، وعن معصيته ﴿ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ وذلك بطمأنينة قلبه، وسكون نفسه، وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه، ويرزقه الله رزقا حلالا طيبا من حيث لا يحتسب ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من أصناف اللذات. فيؤتيه الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة.

﴿98 - 100﴾ ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ إذا أردت قراءة كتاب الله فالطريق إلى السلامة من شر الشيطان الالتجاء إلى الله، والاستعاذة به من شره لأنه أحرص ما يكون على العبد عند شروعه في الأمور الفاضلة، فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها. فـ ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ ﴾ تسلط ﴿ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ ﴾ وحده لا شريك له ﴿ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه شر الشيطان ولا يبق

له عليهم سبيل ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ ﴾ تسلطه ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ يجعلونه لهم وليا ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ وذلك بتخليهم عن ولاية الله، ودخولهم في طاعة الشيطان.

﴿101 - 102﴾ ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ يذكر تعالى أن المكذبين بهذا القرآن يتتبعون ما يرونه حجة لهم، وهو أن الله تعالى، الحاكم الحكيم، الذي يشرع الأحكام، ويبدل حكما مكان آخر لحكمته ورحمته، فإذا رأوه كذلك قدحوا في الرسول وبما جاء به و ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾ قال الله تعالى ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فهم جهال لا علم لهم بربهم ولا بشرعه ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ﴾ وهو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة ﴿ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ نزوله بالحق وهو مشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه ﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ عند نزول آياته وتواردها عليهم وقتا بعد وقت. ويعلمون أيضا أنه الحق، وإذا شرع حكما ثم نسخه علموا أنه أبدله بما هو مثله أو خير منه لهم ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ يهديهم إلى حقائق الأشياء ويبين لهم الحق من الباطل والهدى من الضلال، ويبشرهم أن لهم أجرا حسنا، ماكثين فيه أبدا.

﴿103 - 105﴾ ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ * إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ ﴾ يخبر تعالى عن قيل المشركين المكذبين لرسوله ﴿ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ ﴾ هذا الكتاب الذي جاء به ﴿ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ﴾ اللسان ﴿ وَهَذَا ﴾ القرآن ﴿ لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ ولكن الكاذب يكذب وفي قوله من التناقض والفساد ما يوجب رده بمجرد تصوره ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ الدالة دلالة صريحة على الحق المبين فيردونها ولا يقبلونها ﴿ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ ﴾ فقد جاءهم الهدى فردوه فعوقبوا بحرمانه وخذلان الله لهم ﴿ وَلَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ. إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ ﴾ إنما يصدر افتراه الكذب من ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ كالمعاندين لرسوله من بعد ما جاءتهم البينات ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ الكذب منحصر فيهم.

﴿106 - 109﴾ ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي

﴿ الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ ﴾ فرجع إلى الضلال بعد ما اهتدى ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ على الكفر وأجبر عليه ﴿ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ راغب فيه فإنه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها ﴿ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ راضيا به مطمئنا ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم الذي إذا غضب غضب عليهم كل شيء ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ في غاية الشدة، دائم أبدا. و ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ﴾ حيث ارتدوا على أدبارهم طمعا في شيء من حطام الدنيا، فلما اختاروا الكفر على الإيمان ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ منعهم الله الهداية ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ فطبع على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلا ينفذ منها ما ينفعهم ويصل إلى قلوبهم ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة وفاتهم النعيم المقيم وحصلوا على العذاب الأليم[4].

﴿110 - 111﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ الذي ربى عباده المخلصين بلطفه وإحسانه ﴿ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ في سبيله ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا ﴾ فهذه أكبر الأسباب التي تنال بها أعظم العطايا ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ للذنوب صغارها وكبارها ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودنياهم، ولهم الرحمة من الله في يوم القيامة ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ﴾ كلٌّ يقول نفسي نفسي، ففي ذلك اليوم يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير ﴿ وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ﴾ من خير وشر ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ فلا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم.

﴿112 - 113﴾ ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ وهذه القرية هي مكة المشرفة، كانت بلدة

ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته

[4] ودل ذلك على أن كلام المكره على الطلاق أو العتاق أو البيع أو الشراء أو سائر العقود أنه لا عبرة به، ولا يترتب عليه حكم شرعي، لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر إذا أكره عليها فغيرها من باب أولى وأحرى.

وصدقه، يدعوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة، فكذبوه وكفروا بنعمة الله عليهم ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه، وألبسهم لباس الجوع الذي هو ضد الرغد، والخوف الذي هو ضد الأمن ﴿ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شكرهم.

﴿114 - 118﴾ ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ يأمر تعالى عباده بأكل ما رزقهم الله من الحيوانات والحبوب والثمار وغيرها ﴿ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ متصفة بهذين الوصفين ﴿ وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ بالاعتراف بها بالقلب والثناء على الله بها وصرفها في طاعة الله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ إن كنتم مخلصين له العبادة، فلا تشكروا إلا إياه، ولا تنسوا المنعم ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ﴾ الأشياء المضرة تنزيها لكم، وذلك: كـ ﴿ الْمَيْتَةَ ﴾ ويدخل في ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة مشروعة، ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسمك ﴿ وَالدَّمَ ﴾ المسفوح وأما ما يبقى في العروق واللحم فلا يضر ﴿ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ﴾ لقذارته وخبثه وذلك شامل للحمه وشحمه وجميع أجزائه ﴿ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها لأنه مقصود به الشرك ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ ﴾ إلى شيء من المحرمات ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ بأن حملته الضرورة وخاف إن لم يأكل أن يهلك فلا جناح عليه إذا لم يرد أكل المحرم وهو غير مضطر ﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ ولا متعد الحلال إلى الحرام، أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾ لا تحرموا وتحللوا من تلقاء أنفسكم، كذبا وافتراء على الله وتقولا عليه ﴿ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا بد أن يظهر الله خزيهم وإن تمتعوا في الدنيا فإنه ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ ومصيرهم إلى النار﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فالله تعالى ما حرم علينا إلا الخبيثات تفضلا منه وصيانة عن كل مستقذر ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ وأما الذين هادوا فحرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ظلمهم عقوبة لهم، كما قصّه في سورة الأنعام[5].

﴿119﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

---

[5] في قوله: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ من عمل سوءا بجهالة ﴿ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ بأن ترك الذنب وندم عليه ﴿ وَأَصْلَحُوا ﴾ وأصلح أعماله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يتقبل توبته ويعيده إلى حالته الأولى أو أعلى منها.

﴿ 120 - 123 ﴾ ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ إماما جامعا لخصال الخير هاديا مهتديا ﴿ قَانِتًا لِلَّهِ ﴾ مديما لطاعة ربه مخلصا له الدين ﴿ حَنِيفًا ﴾ مقبلا على الله بالمحبة والإنابة والعبودية معرضا عمن سواه ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ في قوله وعمله، وجميع أحواله لأنه إمام الموحدين الحنفاء ﴿ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ﴾ آتاه الله في الدنيا حسنة، وأنعم عليه بنعم ظاهرة وباطنة، فقام بشكرها، فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن ﴿ اجْتَبَاهُ ﴾ ربه واختصه بخلته وجعله من صفوة خلقه، وخيار عباده المقربين ﴿ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ في علمه وعمله فعلم بالحق وآثره على غيره ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ رزقا واسعا وزوجة وذرية صالحين وأخلاقا مرضية ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ الذين لهم المنازل العالية والقرب العظيم من الله تعالى. ومن أعظم فضائله أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ويقتدي به هو وأمته.

﴿124﴾ ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ ﴾ فرضا ﴿ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ حين ضلوا عن يوم الجمعة وهم اليهود فصار اختلافهم سببا لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه، وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة الذي هدى الله هذه الأمة إليه ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فيبين لهم المحق من المبطل والمستحق للثواب ممن استحق العقاب.

﴿125﴾ ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ

﴿ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح ﴿ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ كل أحد على حسب حاله وفهمه وقوله وانقياده[6] ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ علم السبب الذي أداه إلى الضلال، وعلم أعماله المترتبة على ضلالته وسيجازيه عليها ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ علم أنهم يصلحون للهداية فهداهم ثم منَّ عليهم فاجتباهم.

﴿126 - 128﴾ ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾ من أساء إليكم بالقول والفعل ﴿ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ من غير زيادة منكم على ما أجراه معكم ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ ﴾ عن المعاقبة وعفوتم عن جرمهم ﴿ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ من الاستيفاء وما عند الله خير لكم وأحسن عاقبة. ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله والاستعانة بالله على ذلك وعدم الاتكال على النفس ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ هو الذي يعينك عليه ويثبتك ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ إذا دعوتهم فلم تر منهم قبولا لدعوتك ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ ﴾ شدة وحرج ﴿ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ فإن مكرهم عائد إليهم والله مع المتقين المحسنين، بعونه وتوفيقه وتسديده.

نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين.

تم تفسير سورة النحل

والحمد لله.

[6] ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل والبداءة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين، فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب.إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به.وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان [المدعو] يرى أن ما هو عليه حق. أو كان داعيه إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلا ونقلا.ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها.

17

مختصر تفسير سورة الإسراء

عدد آياتها 111

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 ﴾ ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي ﴾ ينزه تعالى نفسه المقدسة ويعظمها لأن له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة التي من جملتها أن ﴿ أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ الذي هو أجل المساجد على الإطلاق ﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾ الذي هو من المساجد الفاضلة وهو محل الأنبياء فأسري به ورجع في ليلته. وظاهر الآية أن الإسراء كان في أول الليل وأنه من نفس المسجد الحرام. لكن ثبت في الصحيح أنه أسري به من بيت أم هانئ، فعلى هذا تكون الفضيلة في المسجد الحرام لسائر الحرم، فكله تضاعف فيه العبادة كتضاعفها في نفس المسجد. وأن الإسراء تم بروحه وجسده معا وإلا لم يكن في ذلك آية كبرى ومنقبة عظيمة. وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم في الإسراء، وذكر تفاصيل ما رأى وأنه أسري به إلى بيت المقدس ثم عرج به من هناك إلى السماوات حتى وصل إلى ما فوق السماوات العلى ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم وفرض عليه الصلوات خمسين، ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم حتى صارت خمسا بالفعل، وخمسين بالأجر والثواب، وحاز من المفاخر تلك الليلة هو وأمته ما لا يعلم مقداره إلا الله عز وجل. وذكره هنا وفي مقام الإنزال للقرآن ومقام التحدي بصفة العبودية لأنه نال هذه المقامات الكبار بتكميله لعبودية ربه ﴿ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ بكثرة الأشجار والأنهار والخصب الدائم. ومن بركته تفضيله على غيره من المساجد سوى المسجد الحرام ومسجد المدينة، وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه وأن الله اختصه محلا لكثير من أنبيائه وأصفيائه ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ وأراه الله من آياته ما ازداد به هدى وبصيرة وثباتا وفرقانا.

﴿2-8﴾ ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا * وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ

رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا * عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ الذي هو التوراة[1] ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ يهتدون به في ظلمات الجهل إلى العلم بالحق ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ﴾ ليعبدوا الله وحده ويتخذوه وحده وكيلا ومدبرا لهم في أمر دينهم ودنياهم ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ يا ذرية من مننا عليهم وحملناهم مع نوح ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ ثناء على نوح عليه السلام بقيامه بشكر الله واتصافه بذلك والحث لذريته أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه. ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ أخبرناهم في كتابهم ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد في الأرض مرتين بعمل المعاصي والبطر لنعم الله والعلو في الأرض والتكبر فيها وأنه إذا وقع واحدة منهما سلط الله عليهم الأعداء وانتقم منهم وهذا تحذير لهم وإنذار لعلهم يرجعون فيتذكرون ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا ﴾ أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما ووقع منهم ذلك الفساد ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ ﴾ بعثا قدريا وسلطنا عليكم تسليطا كونيا جزائيا ﴿ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ذوي شجاعة وعدد وعدة فنصرهم الله عليكم فقتلوكم وسبوا أولادكم ونهبوا أموالكم، وجاسوا خِلَالَ دياركم فهتكوا الدور ودخلوا المسجد الحرام وأفسدوه ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ لا بد من وقوعه لوجود سببه منهم. واختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المسلطين إلا أنهم اتفقوا على أنهم قوم كفار. إما من أهل العراق أو الجزيرة أو غيرها سلطهم الله على بني إسرائيل لما كثرت فيهم المعاصي وتركوا كثيرا من شريعتهم وطغوا في الأرض ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ على هؤلاء الذين سلطوا عليكم فأجليتموهم من دياركم ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ أكثرنا أرزاقكم وكثرناكم وقويناكم عليهم ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ منهم، بسبب إحسانكم وخضوعكم لله ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ لأن النفع عائد إليكم حتى في الدنيا كما شاهدتم من انتصاركم على أعدائكم ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ فلأنفسكم يعود الضرر كما أراكم الله من تسليط الأعداء ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ المرة الآخرة التي تفسدون فيها في الأرض سلطنا عليكم الأعداء ﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ بانتصارهم عليكم وسبيكم ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ﴾ مسجد بيت المقدس ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ﴾ يخربوا ويدمروا ﴿ مَا عَلَوْا ﴾ عليه ﴿ تَتْبِيرًا ﴾ فيخربوا بيوتكم ومساجدكم وحروثكم. ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ﴾ فيديل لكم الكرة عليهم، فرحمهم وجعل لهم الدولة وتوعدهم على المعاصي فقال ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ ﴾ إلى الإفساد في الأرض ﴿ عُدْنَا ﴾ إلى عقوبتكم، فعادوا لذلك فسلط الله عليهم رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم فانتقم الله به منهم، فهذا جزاء الدنيا وما عند الله من النكال أعظم وأشنع، ولهذا قال: ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ يصلونها ويلازمونها لا يخرجون منها

[1] كثيرا ما يقرن الباري بين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوة موسى صلى الله عليه وسلم وبين كتابيهما وشريعتيهما لأن كتابيهما أفضل الكتب وشريعتيهما أكمل الشرائع ونبوتيهما أعلى النبوات وأتباعهما أكثر المؤمنين.

أبدا. [2]

﴿ 9 - 10 ﴾ ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته وأنه ﴿ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ أعدل وأعلى من العقائد والأعمال والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ من الواجبات والسنن ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ أعده الله لهم في دار كرامته لا يعلم وصفه إلا هو ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فالقرآن مشتمل على البشارة والنذارة وذكر الأسباب التي تنال بها البشارة وهو الإيمان والعمل الصالح والتي تستحق بها النذارة وهو ضد ذلك.

﴿ 11 ﴾ ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾ وهذا من جهل الإنسان ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ حيث يدعو على نفسه وأولاده وماله بالشر عند الغضب ويبادر بذلك الدعاء كما يبادر بالدعاء في الخير، ولكن الله بلطفه يستجيب له في الخير ولا يستجيب له بالشر.

﴿12﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾ دالتين على كمال قدرة الله وسعة رحمته وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ﴾ جعلناه مظلما للسكون فيه والراحة ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ مضيئة ﴿ لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ في معايشكم وتجاراتكم وأسفاركم ﴿ وَلِتَعْلَمُوا ﴾ بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر ﴿ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ فتبنون عليها ما تشاءون من مصالحكم ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ بينا الآيات وصرفناه لتتميز الأشياء ويستبين الحق من الباطل.

﴿ 13 - 14 ﴾ ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

---

[2] وفي هذه الآيات التحذير لهذه الأمة من العمل بالمعاصي لئلا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل، فسنة الله واحدة لا تبدل ولا تغير. ومن نظر إلى تسليط الكفرة على المسلمين والظلمة، عرف أن ذلك من أجل ذنوبهم عقوبة لهم وأنهم إذا أقاموا كتاب الله وسنة رسوله، مكن لهم في الأرض ونصرهم على أعدائهم.

﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ وهذا إخبار عن كمال عدله أن ما عمل من خير وشر يجعله الله ملازما له لا يتعداه إلى غيره، فلا يحاسب بعمل غيره ولا يحاسب غيره بعمله ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ فيه ما عمله من الخير والشر حاضرا صغيره وكبيره ويقال له ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ وهذا من أعظم العدل والإنصاف أن يقال للعبد: حاسب نفسك ليعرف بما عليه من الحق الموجب للعقاب.

﴿15﴾ ﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ هداية كل أحد وضلاله لنفسه لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يدفع عنه مثقال ذرة من الشر ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ والله تعالى أعدل العادلين لا يعذب أحدا حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة ثم يعاند الحجة. وأما من انقاد للحجة أو لم تبلغه حجة الله تعالى فإن الله تعالى لا يعذبه. واستدل بهذه الآية على أن أهل الفترات وأطفال المشركين، لا يعذبهم الله حتى يبعث إليهم رسولا لأنه منزه عن الظلم.

﴿ 16 - 17 ﴾ ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ يخبر تعالى أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة ويستأصلها بالعذاب أمر مترفيها أمرا قدريا ففسقوا فيها واشتد طغيانهم ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ﴾ كلمة العذاب التي لا مرد لها ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا. وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ لما كثر بغيهم واشتد كفرهم أنزل الله بهم عقابه العظيم ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ ﴾ فلا يخافوا منه ظلما ﴿ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ وأنه يعاقبهم على ما عملوه.

﴿18-21﴾ ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ﴾ الدنيا ﴿ العاجلة ﴾ المنقضية الزائلة فعمل لها وسعى ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ ﴾ من حطامها ومتاعها ﴿ فِيهَا مَا نَشَاءُ ﴾ مما كتب الله له في اللوح المحفوظ ﴿ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ ﴾ في الآخرة ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا ﴾ يباشر عذابها ﴿ مَذْمُومًا ﴾ من الله ومن خلقه ﴿ مَدْحُورًا ﴾ والبعد عن رحمة الله فيجمع له بين العذاب

والفضيحة ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ ﴾ فرضيها وآثرها على الدنيا ﴿ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ الذي دعت إليه الكتب السماوية والآثار النبوية فعمل بذلك على قدر إمكانه ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ مقبولا منمى مدخرا لهم، أجرهم وثوابهم عند ربهم ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾ ومع هذا فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا فكلا يمده الله ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ ممنوعا من أحد بل جميع الخلق راتعون بفضله وإحسانه ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ في الدنيا بسعة الأرزاق وقلتها، واليسر والعسر والعلم والجهل والعقل والسفه وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم على بعض بها ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها إلى الآخرة بوجه من الوجوه.

﴿ 22 ﴾ ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ لا تعتقد أن أحدا من المخلوقين يستحق شيئا من العبادة ولا تشرك بالله أحدا منهم ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾ فإن ذلك داع للذم والخذلان في أمر دين المشرك ودنياه بحسب ما تركه من التعلق بربه.

﴿ 23-24 ﴾ ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ ﴾ قضاء دينيا وأمر أمرا شرعيا ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا ﴾ أحدا من أهل الأرض والسماوات الأحياء والأموات ﴿ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ الواحد لأنه الأحد الفرد الصمد الذي له كل صفة كمال، ومن تلك الصفة أعظمها ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان القولي والفعلي لأنهما سبب وجود العبد ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه والقرب ما يقتضي تأكد الحق ووجوب البر ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ إذا وصلا إلى هذا السن الذي تضعف فيه قواهما ويحتاجان من اللطف والإحسان ما هو معروف ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ﴾ وهذا أدنى مراتب الأذى نبه به على ما سواه، والمعنى لا تؤذهما أدنى أذية ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ تزجرهما وتتكلم لهما كلاما خشنا ﴿ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ بلفظ يحبانه وتأدب وتلطف بكلام لين حسن يلذ على قلوبهما وتطمئن به نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ تواضع لهما ذلا لهما ورحمة واحتسابا للأجر لا لأجل الخوف منهما أو الرجاء لما لهما ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ ادع لهما بالرحمة أحياء وأمواتا، جزاء على تربيتهما إياك صغيرا. وفهم من هذا أنه كلما ازدادت التربية ازداد الحق، وكذلك من تولى تربية الإنسان في دينه ودنياه تربية صالحة غير الأبوين فإن له على من رباه حق التربية.

﴿ 25 ﴾ ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾ ربكم تعالى مطلع على ما أكنته سرائركم من خير وشر وهو لا ينظر إلى أعمالكم وأبدانكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وما فيها من الخير والشر ﴿ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ ﴾ بأن تكون إرادتكم ومقاصدكم دائرة على مرضاة الله ورغبتكم فيما يقربكم إليه وليس في قلوبكم إرادات مستقرة لغير الله ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ ﴾ الرجاعين إليه في جميع الأوقات ﴿ غَفُورًا ﴾ يغفر له الأمور العارضة غير المستقرة.

﴿ 26-30 ﴾ ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا * وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ﴾ من البر والإكرام الواجب والمسنون وذلك الحق يتفاوت بتفاوت الأحوال والأقارب والحاجة وعدمها والأزمنة ﴿ وَالْمِسْكِينَ ﴾ آته حقه من الزكاة ومن غيرها لتزول مسكنته ﴿ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ وهو الغريب المنقطع به عن بلده، فيعطي الجميع من المال على وجه لا يضر المعطي ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ ولا يكون زائدا على المقدار اللائق فإن ذلك تبذير قد نهى الله عنه وأخبر ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ لأن الشيطان لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك فإذا عصاه، دعاه إلى الإسراف والتبذير. والله تعالى إنما يأمر بأعدل الأمور وأقسطها ويمدح عليه ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ كناية عن شدة الإمساك والبخل ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ فتنفق فيما لا ينبغي أو زيادة على ما ينبغي ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ إن فعلت ذلك ﴿ مَلُومًا ﴾ تلام على ما فعلت ﴿ مَحْسُورًا ﴾ حاسر اليد فارغها فلا بقي ما في يدك من المال ولا خلفه مدح وثناء. وهذا الأمر بإيتاء ذي القربى مع القدرة والغنى، فأما مع العدم أو تعسر النفقة الحاضرة فأمر تعالى أن يردوا ردا جميلا فقال ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ تعرض عن إعطائهم إلى وقت آخر ترجو فيه من الله تيسير الأمر ﴿ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴾ لطيفا برفق ووعد بالجميل عند سنوح الفرصة واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر لينقلبوا عنك مطمئنة خواطرهم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ من عباده ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ ويضيقه على من يشاء حكمة منه ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ فيجزيهم على ما يعلمه صالحا لهم ويدبرهم بلطفه وكرمه.

﴿ 31 ﴾ ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ نهى الوالدين أن يقتلوا أولادهم خوفا من الفقر والإملاق ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ وتكفل برزق الجميع. وهذا من رحمته بعباده حيث كان أرحم بهم من والديهم ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا

كَبِيرًا ﴾ أي من أعظم كبائر الذنوب.

﴿ 32 ﴾ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا ﴾ والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه خصوصا هذا الأمر الذي في كثير من النفوس أقوى داع إليه. ووصف الله الزنى وقبحه ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ إثما يستفحش في الشرع والعقل والفطر ﴿ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ بئس السبيل سبيل من تجرأ على هذا الذنب العظيم.

﴿ 33 ﴾ ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ ﴾ وهذا شامل لكل نفس ﴿ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ قتلها ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ كالنفس بالنفس والزاني المحصن والتارك لدينه المفارق للجماعة والباغي في حال بغيه إذا لم يندفع إلا بالقتل ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا ﴾ بغير حق ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ ﴾ وهو أقرب ورثته إليه ﴿ سُلْطَانًا ﴾ حجة ظاهرة على القصاص من القاتل، وجعلنا له أيضا تسلطا قدريا على ذلك، وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص كالعمد العدوان والمكافأة ﴿ فَلَا يُسْرِفْ ﴾ الولي ﴿ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ والإسراف مجاوزة الحد إما أن يمثل بالقاتل أو يقتله بغير ما قتل به أو يقتل غير القاتل. وفي هذه الآية دليل إلى أن الحق في القتل للولي فلا يقتص إلا بإذنه وإن عفا سقط القصاص. وأن ولي المقتول يعينه الله على القاتل ومن أعانه حتى يتمكن من قتله.

﴿34﴾ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ﴾ وهذا من لطفه ورحمته تعالى باليتيم الذي فقد والده وهو صغير غير عارف بمصلحة نفسه ولا قائم بها أن أمر أولياءه بحفظه وحفظ ماله وإصلاحه وأن لا يقربوه ﴿ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ من التجارة فيه وعدم تعريضه للأخطار، والحرص على تنميته، وذلك ممتد ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ ﴾ اليتيم ﴿ أَشُدَّهُ ﴾ بلوغه وعقله ورشده، فإذا بلغ أشده زالت عنه الولاية وصار ولي نفسه ودفع إليه ماله ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ الذي عاهدتم الله عليه والذي عاهدتم الخلق عليه ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ مسئولين عن الوفاء به وعدمه، فإن وفيتم فلكم الثواب الجزيل وإن لم تفوا فعليكم الإثم العظيم.

﴿ 35 ﴾ ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ وهذا أمر بالعدل وإيفاء المكاييل والموازين بالقسط من غير بخس ولا نقص. ويؤخذ من عموم المعنى النهي عن كل غش في ثمن أو مثمن أو معقود عليه والأمر

بالنصح والصدق في المعاملة ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ من عدمه ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أحسن عاقبة به يسلم العبد من التبعات وبه تنزل البركة.

﴿ 36 ﴾ ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل تثبت في كل ما تقوله وتفعله، فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسئول عما قاله وفعله وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته أن يعد للسؤال جوابا، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله وإخلاص الدين له وكفها عما يكرهه الله تعالى.

﴿ 37 – 39 ﴾ ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا * ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴾

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ كبرا وتيها وبطرا متكبرا على الحق ومتعاظما على الخلق ﴿ إِنَّكَ ﴾ في فعلك ذلك ﴿ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ في تكبرك ﴿ كُلُّ ذَلِكَ ﴾ المذكور الذي نهى الله عنه فيما تقدم من قوله وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، والنهي عن عقوق الوالدين وما عطف على ذلك ﴿ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ كل ذلك يكرهه الله تعالى ويأباه ﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي بيناه من هذه الأحكام الجليلة ﴿ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ وهي الأمر بمحاسن الأعمال ومكارم الأخلاق والنهي عن أراذل الأخلاق وأسوأ الأعمال. ثم ختمها بالنهي عن عبادة غير الله كما افتتحها بذلك ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ ﴾ خالدا مخلدا ﴿ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴾ قد لحقتك اللائمة واللعنة والذم من الله وملائكته والناس أجمعين.

﴿ 40 ﴾ ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ ﴾ اختار لكم الصفوة ﴿ وَاتَّخَذَ ﴾ لنفسه ﴿ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ﴾ حيث زعموا أن الملائكة بنات الله ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ فيه أعظم الجرأة على الله حيث نسبتم له الولد المتضمن لحاجته واستغناء بعض المخلوقات عنه وحكمتم له بالإناث وهو الذي خلقكم، واصطفاكم بالذكور. فتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

﴿ 41–44 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا * قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا * تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ يخبر تعالى أنه صرف لعباده في هذا القرآن نوع الأحكام ووضحها وأكثر من الأدلة والبراهين على ما دعا إليه، ووعظ وذكر لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسلكوه وما يضرهم فيدعوه ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ ولكن أبى أكثر الناس إلا نفورا عن آيات الله لبغضهم للحق ومحبتهم ما كانوا عليه من الباطل ﴿ قُلْ ﴾ للمشركين الذين يجعلون مع الله إلها آخر ﴿ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ على موجب زعمهم وافترائهم ﴿ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ لاتخذوا سبيلا إلى الله بعبادته والإنابة إليه والتقرب وابتغاء الوسيلة. ويحتمل أن المعنى: لطلبوا السبيل وسعوا في مغالبة الله تعالى، فإما أن يعلوا عليه فيكون من علا وقهر هو الرب الإله، فأما وقد علموا أنهم يقرون أن آلهتهم التي يعبدون من دون الله مقهورة مغلوبة ليس لها من الأمر شيء فلم اتخذوها وهي بهذه الحال ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴾ تقدس وتنزه وعلت أوصافه ﴿ عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ من الشرك به واتخاذ الأنداد معه ﴿ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ فعلا قدره وعظم وجلت كبرياؤه ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ من حيوان ناطق وغير ناطق ومن أشجار ونبات وجامد وحي وميت ﴿ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ بلسان الحال ولسان المقال ﴿ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ تسبيح باقي المخلوقات التي على غير لغتكم بل يحيط بها علام الغيوب ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ حيث لم يعاجل بالعقوبة من قال فيه قولا تكاد السماوات والأرض تتفطر منه وتخر له.

﴿ 45-48 ﴾ ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا * انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ﴾ الذي فيه الوعظ والتذكير والهدى والإيمان والخير والعلم الكثير ﴿ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ يسترهم عن فهمه وعن التحقق بحقائقه والانقياد إلى ما يدعو إليه من الخير ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أغطية وأغشية ﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ لا يفقهون معها القرآن بل يسمعونه سماعا تقوم به عليهم الحجة ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ صمما عن سماعه ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ ﴾ داعيا لتوحيده ناهيا عن الشرك به ﴿ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ من شدة بغضهم له ومحبتهم لما هم عليه من الباطل ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ﴾ ليس استماعهم لأجل الاسترشاد وقبول الحق وإنما هم متعمدون على عدم اتباعه، ومن كان بهذه الحالة لم يفده الاستماع شيئا ولهذا قال ﴿ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ متناجين ﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ ﴾ في مناجاتهم ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ فإذا كانت هذه مناجاتهم الظالمة فيما بينهم وقد بنوها على أنه مسحور فهم جازمون أنهم غير معتبرين لما قال، وأنه يهذي لا يدري ما يقول ﴿ انْظُرْ ﴾ متعجبا ﴿ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ التي هي أضل الأمثال وأبعدها عن الصواب ﴿ فَضَلُّوا ﴾ في ذلك أو فصارت سببا لضلالهم لأنهم بنوا عليها أمرهم والمبني على فاسد أفسد منه ﴿ فَلَا

يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ لا يهتدون أي اهتداء فنصيبهم الضلال المحض والظلم الصرف.

﴿ 49 - 52 ﴾ ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾ أجسادا بالية ﴿ أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ لا يكون ذلك وهو محال بزعمهم. ولهذا أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهؤلاء المنكرين للبعث استبعادا ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا. أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ ﴾ يعظم ﴿ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ لتسلموا بذلك على زعمكم من أن تنالكم قدرة الله أو تنفذ فيكم مشيئته، فإنكم غير معجزي الله ﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾ حين تقيم عليهم الحجة في البعث ﴿ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فكما فطركم ولم تكونوا شيئا مذكورا فإنه سيعيدكم خلقا جديدا ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ يهزونها إنكارا وتعجبا مما قلت ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ﴾ متى وقت البعث الذي تزعمه على قولك؟ لا إقرار منهم لأصل البعث بل ذلك سفه منهم وتعجيز ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ فليس في تعيين وقته فائدة، وإنما الفائدة والمدار على تقريره والإقرار به وإثباته ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ للبعث والنشور وينفخ في الصور ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ ﴾ تنقادون لأمره ولا تستعصون عليه ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ هو المحمود تعالى على فعله ويجزي به العباد إذا جمعهم ليوم التناد ﴿ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ من سرعة وقوعه وأن الذي مر عليكم من النعيم كأنه ما كان.

﴿ 53 - 55 ﴾ ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا * وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله من قراءة وذكر وعلم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين فإنه يأمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ يسعى بين العباد بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم. فدواء هذا أن لا يطيعوه في الأقوال غير الحسنة التي يدعوهم إليها ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا. رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ من أنفسكم فلذلك لا يريد لكم إلا ما هو الخير ولا يأمركم إلا بما فيه مصلحة لكم وقد تريدون شيئا والخير في عكسه ﴿ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ فيوفق من شاء لأسباب الرحمة ويخذل من شاء فيضل عنها فيستحق العذاب ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ فالله هو الوكيل وأنت مبلغ هاد إلى صراط مستقيم ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من جميع أصناف الخلائق فيعطي كلا منهم ما يستحقه وتقتضيه حكمته ويفضل بعضهم على بعض في جميع الخصال الحسية والمعنوية ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ بالفضائل والخصائص الراجعة إلى ما من به عليهم من

الأوصاف الممدوحة والأخلاق المرضية والأعمال الصالحة وكثرة الأتباع ونزول الكتب على بعضهم المشتملة على الأحكام الشرعية والعقائد المرضية ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ وهو الكتاب المعروف. فإذا كان تعالى قد فضل بعضهم على بعض وآتى بعضهم كتبا فلِمَ يُنكر المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم ما أنزله الله عليه وما فضله به من النبوة والكتاب.

﴿ 56 – 57 ﴾ ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾

﴿ قُلْ ﴾ للمشركين بالله ﴿ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ آلهة من دون الله فانظروا هل ينفعونكم أو يدفعون عنكم الضر، فإنهم ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ ﴾ من مرض أو فقر أو شدة ﴿ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ ولا يملكون أيضا تحويله من شخص إلى آخر ومن شدة إلى ما دونها ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ من الأنبياء والصالحين والملائكة ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ يتنافسون في القرب من ربهم ويبذلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ﴾ المقربة إلى الله تعالى وإلى رحمته ﴿ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ هو الذي ينبغي شدة الحذر منه والتوقي من أسبابه.

﴿58﴾ ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾

﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ ما من قرية من القرى المكذبة للرسل ﴿ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ إلا ويصيبها هلاك قبل يوم القيامة ﴿ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أو عذاب شديد ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ كتاب كتبه الله وقضاء أبرمه لا بد من وقوعه.

﴿59–60﴾ ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا * وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ يذكر تعالى رحمته بعدم إنزاله الآيات التي يقترح بها المكذبون، وأنه ما منعه أن يرسلها إلا خوفا من تكذيبهم لها، فإذا كذبوا بها عاجلهم العقاب وحل بهم من غير تأخير كما فعل بالأولين الذين كذبوا بها ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ ومن أعظم الآيات الناقة العظيمة التي كانت تصدر عنها القبيلة بأجمعها ومع ذلك كذبوا بها فأصابهم ما قص الله علينا في كتابه. وهؤلاء كذلك لو جاءتهم الآيات الكبار لم يؤمنوا ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجبة للإيمان الذي لا يحصل إلا بها، بل المقصود منها التخويف والترهيب ليرتدعوا عن ما هم عليه

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ علما وقدرة فليس لهم ملجأ يلجأون إليه، وهذا كاف لمن له عقل في الانكفاف عما يكرهه الله ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ أجمع أكثر المفسرين على أنها ليلة الإسراء ﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ ﴾ التي ذكرت ﴿ فِي الْقُرْآنِ ﴾ وهي شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم. والمعنى إذا كان هذان الأمران قد صارا فتنة للناس حتى استلج الكفار بكفرهم وازداد شرهم، ورجع بعض من كان إيمانه ضعيفا عن إيمانه، بسبب أن ما أخبرهم به من أمور حدثت ليلة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان خارقا للعادة. كما أن الإخبار بوجود شجرة تنبت في أصل الجحيم هو من الخوارق أيضا مما أوجب تكذيبهم. فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة؟ أليس ذلك أولى أن يزداد بسببه شرهم؟! فلذلك رحمهم الله وصرفها عنهم، ومن هنا تعلم أن عدم التصريح في الكتاب والسنة بذكر الأمور العظيمة التي حدثت في الأزمنة المتأخرة أولى وأحسن لأن الأمور التي لم يشاهد الناس لها نظيرا ربما لا تقبلها عقولهم لو أخبروا بها قبل وقوعها، فيكون ذلك ريبا في قلوب بعض المؤمنين ومانعا يمنع من لم يدخل الإسلام ومنفرا عنه. بل ذكر الله ألفاظا عامة تتناول جميع ما يكون ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ ﴾ بالآيات ﴿ فَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ التخويف ﴿ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التملي بالشر ومحبته وبغض الخير وعدم الانقياد له.

﴿ 61 – 65 ﴾ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ ينبه تبارك وتعالى عباده على شدة عداوة الشيطان وحرصه على إضلالهم وأنه لما خلق الله آدم استكبر عن السجود له و ﴿ قَالَ ﴾ متكبرا ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ من طين وبزعمه أنه خير منه لأنه خلق من نار. فلما تبين لإبليس تفضيل الله لآدم ﴿ قَالَ ﴾ مخاطبا لله ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ ﴾ بالإضلال ولأغوينهم ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ عرف الخبيث أنه لا بد أن يكون منهم من يعاديه ويعصيه. فـ ﴿ قَالَ ﴾ الله له ﴿ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ واختارك على ربه ووليه الحق ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ مدخرا لكم موفرا جزاء أعمالكم.ثم أمره الله أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم فقال ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ ويدخل في هذا كل داع إلى المعصية ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ ويدخل فيه كل راكب وماش في معصية الله فهو من خيل الشيطان ورجله. والمقصود أن الله ابتلى العباد بهذا العدو المبين الداعي لهم إلى معصية الله بأقواله وأفعاله ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ وذلك شامل لكل معصية تعلقت بأموالهم وأولادهم من منع الزكاة والكفارات والحقوق الواجبة، وعدم تأديب الأولاد وتربيتهم على الخير وترك الشر وأخذ الأموال بغير حقها أو وضعها بغير حقها أو استعمال المكاسب الردية. بل ذكر كثير من المفسرين أنه يدخل في مشاركة

الشيطان في الأموال والأولاد ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع، وأنه إذا لم يسم الله في ذلك شارك فيه الشيطان كما ورد فيه الحديث ﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ الوعود المزخرفة التي لا حقيقة لها ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ باطلا مضمحلا كأن يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة ويعدهم عليها الأجر لأنهم يظنون أنهم على الحق ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ تسلط وإغواء بل الله يدفع عنهم -بقيامهم بعبوديته- كل شر ويحفظهم من الشيطان الرجيم ويقوم بكفايتهم ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ لمن توكل عليه وأدى ما أمر به.

﴿ 66 - 69 ﴾ ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا *وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا * أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا * أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾

﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ يذكر تعالى نعمته على العباد بما سخر لهم من الفلك والسفن والمراكب وألهمهم كيفية صنعتها، وسخر لها البحر الملتطم يحملها على ظهره لينتفع العباد بها في الركوب والحمل للأمتعة والتجارة ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ ومن رحمته أنهم إذا مسهم الضر في البحر ضل عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في حال الرخاء، فكأنهم لم يكونوا يدعونهم في وقت من الأوقات لعلمهم أنهم ضعفاء عاجزون عن كشف الضر وصرخوا بدعوة فاطر الأرض والسماوات الذي تستغيث به في شدائدها جميع المخلوقات وأخلصوا له الدعاء والتضرع في هذه الحال ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ عن الإخلاص لربهم ومليكهم ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ وهذا من جهل الإنسان وكفره فإن الإنسان كفور للنعم، إلا من هدى الله ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾ فهو على كل شيء قدير إن شاء أنزل عليكم عذابا من أسفل منكم بالخسف ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ من فوقكم وهو العذاب الذي يحصبهم فيصبحوا هالكين، فلا تظنوا أن الهلاك لا يكون إلا في البحر ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا * أَمْ أَمِنْتُمْ ﴾ وإن ظننتم ذلك أفأنتم آمنون من ﴿ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ ﴾ في البحر ﴿ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ ﴾ ريحا شديدة جدا تقصف ما أتت عليه ﴿ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ تبعة ومطالبة فإن الله لم يظلمكم مثقال ذرة.

﴿ 70 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ وهذا من كرمه عليهم وإحسانه ﴿ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ ﴾ على المراكب البرية ﴿ وَ ﴾ في ﴿ الْبَحْرِ ﴾ في السفن والمراكب ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ من المآكل والمشارب والملابس والمناكح ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ بما خصهم به من المناقب وفضلهم به من الفضائل التي ليست

لغيرهم من أنواع المخلوقات.

﴿71-72﴾ ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ يخبر تعالى أنه يدعو كل أناس ومعهم إمامهم من الرسل ونوابهم، فتعرض كل أمة وأعمالها على كتاب رسولها، هل هي موافقة له أم لا؟ فينقسمون بهذا قسمين ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ لكونه اتبع إمامه ﴿ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ ﴾ قراءة سرور وبهجة ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ مما عملوه من الحسنات ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ ﴾ الدنيا ﴿ أَعْمَى ﴾ عن الحق بل اتبع الضلال ﴿ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى ﴾ عن سلوك طريق الجنة كما لم يسلكه في الدنيا ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل. وفي هذه الآية دليل على أن كل أمة تدعى إلى دينها وكتابها، هل عملت به أم لا؟ وأنهم لا يؤاخذون بشرع نبي لم يؤمروا باتباعه. وأن أهل الخير يعطون كتبهم بأيمانهم، وأهل الشر لا يقدرون على قراءة كتبهم، من شدة غمهم.

﴿73-77 ﴾ ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا * وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ قد كادوا لك أمرًا لم يدركوه، وتحيلوا لك، على أن تفتري على الله غير الذي أنزلنا إليك، فتجيء بما يوافق أهواءهم، وتدع ما أنزل الله إليك ﴿ وَإِذًا ﴾ لو فعلت ما يهوون ﴿ لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ أي حبيبًا ص فيًا.ولكن لتعلم أنهم لم يعادوك وينابذوك العداوة، إلا للحق الذي جئت به لا لذاتك ﴿ وَ ﴾ مع هذا ف ﴿ لَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ ﴾ على الحق، وامتننا عليك بعدم الإجابة لداعيهم ﴿ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ من كثرة المعالجة، ومحبتك لهدايتهم ﴿ إِذًا ﴾ لو ركنت إليهم بما يهوون ﴿ لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ﴾ أي لأصبناك بعذاب مضاعف، في الحياة الدنيا والآخرة ، وذلك لكمال نعمة الله عليك وكمال معرفتك ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ ينقذك مما يحل بك من العذاب، ولكن الله تعالى عصمك من أسباب الشر، ومن البشر فثبتك وهداك الصراط المستقيم، ولم تركن إليهم بوجه من الوجوه، فله عليك أتم نعمة وأبلغ منحة ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ من بغضهم لمقامك بين أظهرهم، قد كادوا أن يخرجوك من الأرض، ويجلوك منها ﴿ وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ لو فعلوا ذلك، لم يلبثوا بعدك فيها إلا قليلا، حتى تحل بهم العقوبة ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ كما هي سنة الله التي لا تحول ولا تبدل في جميع الأمم.

﴿ 78-82 ﴾ ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا * وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا * وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا * وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ يأمر تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بإقامة الصلاة تامة ظاهرًا وباطنًا، في أوقاتها ﴿ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ أي ميلانها إلى الأفق الغربي بعد الزوال، فيدخل في ذلك صلاة الظهر وصلاة العصر ﴿ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ ظلمته، فدخل في ذلك صلاة المغرب وصلاة العشاء ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ صلاة الفجر، وسميت قرآنا لمشروعية إطالة القرآن فيها أطول من غيرها ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ ولفضل القراءة فيها حيث شهدها الله وملائكة الليل وملائكة والنهار ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ ﴾ صل به في سائر أوقاته ﴿ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ لتكون صلاة الليل زيادة لك في علو القدر ورفع الدرجات، بخلاف غيرك فإنها تكون كفارة لسيئاته. ويحتمل أن يكون المعنى: أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين، بخلاف صلاة الليل، فإنها فرض عليك بالخصوص، ولكرامتك على الله، أن جعل وظيفتك أكثر من غيرك، وليكثر ثوابك، وتنال بذلك المقام المحمود، مقام الشفاعة العظمى، فيشفع عند ربه فيشفعه، ويقيمه مقامًا يغبطه به الأولون والآخرون، وتكون له المنة على جميع الخلق ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ اجعل مداخلي ومخارجي كلها في طاعتك وعلى مرضاتك، وذلك لتضمنها الإخلاص وموافقتها الأمر ﴿ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ حجة ظاهرة، وبرهانًا قاطعًا على جميع ما آتيه وما أذره ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ والحق هو ما أوحاه الله إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فأمره الله أن يقول ويعلن، قد جاء الحق الذي لا يقوم له شيء، وزهق الباطل أي: اضمحل وتلاشى ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ هذا وصف الباطل، ولكنه قد يكون له صولة وروجان إذا لم يقابله الحق فعند مجيء الحق يضمحل الباطل، فلا يبقى له حراك. ولهذا لا يروج الباطل إلا في الأزمان والأمكنه الخالية من العلم بآيات الله وبيناته ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ ﴾ للقلوب من الشبه والجهالة والآراء الفاسدة والانحراف السيئ والقصود السيئة ﴿ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ به المصدقين بآياته العاملين به، لما فيه من الأسباب والوسائل التي يحث عليها، متى فعلها العبد فاز بالرحمة والسعادة الأبدية، والثواب العاجل والآجل ﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ وأما الظالمون بعدم التصديق به أو عدم العمل به، فلا تزيدهم آياته إلا خسارًا، إذ به تقوم عليهم الحجة.

﴿ 83 ﴾ ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ هذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من هداه الله، فإن الإنسان- عند إنعام الله عليه - يفرح بالنعم ويبطر بها، ويعرض وينأى بجانبه عن ربه، فلا يشكره ولا يذكره ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ كالمرض ونحوه ﴿ كَانَ يَئُوسًا ﴾ من الخير قد قطع ربه رجاءه، وظن أن ما هو فيه دائم

أبدًا. وأما من هداه الله فإنه- عند النعم -يخضع لربه، ويشكر نعمته، وعند الضراء يتضرع، ويرجو من الله عافيته، وإزالة ما يقع فيه، وبذلك يخف عليه البلاء.

﴿ 84 ﴾ ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾

﴿ قُلْ كُلٌّ ﴾ من الناس ﴿ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ على ما يليق به من الأحوال، إن كان من الصفوة الأبرار، لم يشاكلهم إلا عملهم لرب العالمين. ومن كان من غيرهم من المخذولين، لم يناسبهم إلا العمل للمخلوقين، ولم يوافقهم إلا ما وافق أغراضهم. ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ فيعلم من يصلح للهداية، فيهديه ومن لا يصلح لها فيخذله ولا يهديه.

﴿ 85 ﴾ ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ وهذا متضمن لردع من يسأل المسائل، التي لا يقصد بها إلا التعنت والتعجيز، ويدع السؤال عن المهم، فيسألون عن الروح التي هي من الأمور الخفية، التي لا يتقن وصفها وكيفيتها كل أحد، وهم قاصرون في العلم الذي يحتاج إليه العباد. ولهذا أمر الله رسوله أن يجيب سؤالهم بقوله ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ من جملة مخلوقاته، التي أمرها أن تكون فكانت فليس في السؤال عنها كبير فائدة ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ مع عدم علمكم بغيرها.

﴿ 86 - 87 ﴾ ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا *إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾

﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يخبر تعالى أن القرآن والوحي الذي أوحاه وتفضل به عليك، هو قادر على أن يذهب به ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ لا رادًا يرده، ولا وكيلا بتوجه عند الله فيه ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ فلتغتبط به، وتقر به عينك، ولا يحزنك تكذيب المكذبين، واستهزاء الضالين، فإنهم عرضت عليهم أجل النعم، فردوها لهوانهم على الله وخذلانه لهم.

﴿ 88 ﴾ ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ وهذا دليل قاطع على صحة ما جاء به الرسول وصدقه، حيث تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله، وأخبر أنهم لا يأتون بمثله ﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ولو تعاونوا كلهم على ذلك لم يقدروا عليه.

﴿89-96﴾ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا * وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا * قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا * قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ نوعنا فيه المواعظ والأمثال، وثنينا فيه المعاني التي يضطر إليها العباد، لأجل أن يتذكروا ويتقوا، فلم يتذكر إلا القليل منهم، الذين سبقت لهم من الله سابقة السعادة، وأعانهم الله بتوفيقه ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ التي هي أكبر من جميع النعم، وجعلوا يتعنتون عليه باقتراح آيات غير آياته، فيقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أتى بهذا القرآن المشتمل على كل برهان وآية ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ أنهارًا جارية ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ ﴾ فتستغنى بها عن المشي في الأسواق والذهاب والمجيء ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ قطعًا من العذاب ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ جميعًا، أو مقابلة ومعاينة، يشهدون لك بما جئت به ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ﴾ مزخرف بالذهب وغيره ﴿ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ ﴾ رقيًا حسيًا، ومع هذا فـ ﴿ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ ﴾ ولما كانت هذه تعنتات وتعجيزات وكلام أسفه الناس وأظلمهم، المتضمنة لرد الحق وسوء الأدب مع الله، أمره الله أن ينزهه فقال ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي ﴾ عما تقولون علوًا كبيرًا، وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة وآرائهم الضالة ﴿ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ ليس بيده شيء من الأمر ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ وهذا السبب الذي منع أكثر الناس من الإيمان، حيث كانت الرسل التي ترسل إليهم من جنسهم بشرًا. وهذا من رحمته بهم، أن أرسل إليهم بشرًا منهم، فإنهم لا يطيقون التلقي من الملائكة ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ يثبتون على رؤية الملائكة والتلقي عنهم ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ ليمكنهم التلقي عنه ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ فمن شهادته لرسوله ما أيده به من المعجزات وما أنزل عليه من الآيات ونصره على من عاداه وناوأه ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾.

﴿ 97 - 100 ﴾ ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا * قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ

رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال. فمن يهده ييسره لليسرى ويجنبه العسرى، فهو المهتدي على الحقيقة ﴿ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ﴾ ومن يضلله فيخذله ويكله إلى نفسه، فلا هادي له من دون الله، وليس له ولي ينصره من عذاب الله ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ لا يبصرون ولا ينطقون ﴿ مَأْوَاهُمْ ﴾ مقرهم ودارهم ﴿ جَهَنَّمُ ﴾ التي جمعت كل هم وغم وعذاب ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ تهيأت للإنطفاء ﴿ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ سعرناها بهم لا يفتر عنهم العذاب، ولا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها ﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ لا يكون هذا لأنه في غاية البعد عن عقولهم الفاسدة ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ وهي أكبر من خلق الناس ﴿ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ بلى، إنه على ذلك قدير ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ ﴾ لذلك ﴿ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ولا شك، وإلا فلو شاء لجاءهم به بغتة، ومع إقامته الحجج والأدلة على البعث ﴿ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ ظلمًا منهم وافتراء ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾ التي لا تنفذ ولا تبيد ﴿ إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ خشية أن ينفد ما تنفقون منه، مع أنه من المحال أن تنفد خزائن الله ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ ولكن الإنسان مطبوع على الشح والبخل.

﴿ 101 – 104 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا * فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا * وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ﴾ لست أيها الرسول المؤيد بالآيات أول رسول كذبه الناس، فلقد أرسلنا قبلك موسى ابن عمران الكليم إلى فرعون وقومه، وآتيناه ﴿ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ كل واحدة منها تكفي لمن قصده اتباع الحق، كالحية والعصا والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والرجز وفلق البحر. فإن شككت في شيء من ذلك ﴿ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ ﴾ مع هذه الآيات ﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ﴾ فـ ﴿ قَالَ ﴾ له موسى ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ يا فرعون ﴿ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ ﴾ الآيات ﴿ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ منه لعباده فليس قولك هذا بالحقيقة، وإنما قلت ذلك ترويجًا على قومك، واستخفافًا لهم ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ ممقوتًا، ملقى في العذاب، لك الويل والذم واللعنة ﴿ فَأَرَادَ ﴾ فرعون ﴿ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ يجليهم ويخرجهم منها ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴾ وأورثنا بني إسرائيل أرضهم وديارهم ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ جميعًا ليجازى كل عامل بعمله.

﴿ 105 ﴾ ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ وبالحق أنزلنا هذا القرآن الكريم لأمر العباد ونهيهم ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ بالصدق والعدل والحفظ من كل شيطان رجيم ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا ﴾ لمن أطاع الله بالثواب العاجل والآجل ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ لمن عصى الله بالعقاب العاجل والآجل.

﴿ 106- 109 ﴾ ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا * قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ ﴾ وأنزلنا هذا القرآن مفرقًا، فارقًا بين الهدى والضلال، والحق والباطل ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ﴾ على مهل، ليتدبروه ويتفكروا في معانيه، ويستخرجوا علومه ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ شيئًا فشيئًا، مفرقًا في ثلاث وعشرين سنة. فإذا تبين أنه الحق، الذي لا شك فيه ولا ريب بوجه من الوجوه فـ ﴿ قُلْ ﴾ لمن كذب به وأعرض عنه ﴿ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾ فليس لله حاجة فيكم ولستم بضاريه شيئًا، وإنما ضرر ذلك عليكم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ فإن لله عبادًا غيركم وهم الذين آتاهم الله العلم النافع ﴿ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ يتأثرون به غاية التأثر، ويخضعون له ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا ﴾ عما لا يليق بجلاله، مما نسبه إليه المشركون ﴿ إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا ﴾ بالبعث والجزاء بالأعمال ﴿ لَمَفْعُولًا ﴾ لا خلف فيه ولا شك ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ ﴾ على وجوههم ﴿ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ ﴾ القرآن ﴿ خُشُوعًا ﴾ وهؤلاء كالذين من الله عليهم من مؤمني أهل الكتاب كعبد الله ابن سلام وغيره، ممن أمن في وقت النبي صلى الله عليه وسلم وبعد ذلك.

﴿ 110 - 111 ﴾ ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ أيهما شئتم ﴿ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ ليس له اسم غير حسن، أي: حتى ينهى عن دعائه به، أي اسم دعوتموه به حصل به المقصود، والذي ينبغي أن يدعى في كل مطلوب، مما يناسب ذلك الاسم ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ قراءتك ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ فإن في كل من الأمرين محذورًا. أما الجهر، فإن المشركين المكذبين به إذا سمعوه سبوه، وسبوا من جاء به. وأما المخافتة، فإنه لا يحصل المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ بين الجهر والإخفات ﴿ سَبِيلًا ﴾ تتوسط فيما بينهما ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ له الكمال والثناء والحمد والمجد من جميع الوجوه، المنزه عن كل آفة ونقص ﴿ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ بل الملك كله لله الواحد القهار، فالعالم العلوي والسفلي، كلهم مملوكون لله، ليس لأحد من الملك شيء ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ ﴾ لا يتولى أحدًا من خلقه ليتعزز

به ويعاونه، فإنه الغني الحميد، الذي لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات، في الأرض ولا في السماوات، ولكنه يتخذ أولياء إحسانًا منه إليهم ورحمة بهم ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة، وبالثناء عليه، بأسمائه الحسنى، وبتجميده بأفعاله المقدسة، وبتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله له.

تم تفسير سورة الإسراء ولله الحمد والمنة والثناء الحسن

على يد جامعه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

أمين وصلى الله على محمد وسلم تسليمًا

وذلك في 7 جمادى الأولى سنة 1344.

المجلد الخامس

من تيسير الكريم الرحمن من تفسير كلام المنان

لجامعه الفقير إلى الله

عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

18

تفسير سورة الكهف

عدد آياتها 110

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-6 ﴾ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا * قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا *مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا * فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ الحمد لله هو الثناء عليه بصفاته، التي هي كلها صفات كمال، وبنعمه الظاهرة والباطنة، وأجلّها على الإطلاق إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فحمد نفسه، وفي ضمنه إرشاد العباد ليحمدوه على إرسال الرسول إليهم وإنزال الكتاب عليهم ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا ﴾ ثم وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين على أنه الكامل من جميع الوجوه: وهما نفي العوج عنه فليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث ﴿ قَيِّمًا ﴾ وإثبات أنه قيم مستقيم بما يقتضي أنه لا يخبر ولا يأمر إلا بأجل الإخبارات وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفة وإيمانا وعقلا. وأن أوامره ونواهيه تزكي النفوس وتطهرها وتنميها وتكملها. وحقيق بكتاب موصوف بما ذكر، أن يحمد الله نفسه على إنزاله، وأن يتمدح إلى عباده به ﴿ لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ ﴾ أي لينذر بهذا القرآن الكريم قدره وقضاه على من خالف أمره، وهذا يشمل عقاب الدنيا وعقاب الآخرة. ومن نعمه أن خوّف عباده وأنذرهم ما يضرهم ويهلكهم

﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ أي وأنزل الله على عبده الكتاب ليبشر المؤمنين به، وبرسله وكتبه، وأوجب لهم الأعمال الصالحة ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ وهو الثواب الذي رتبه الله على الإيمان والعمل الصالح. وفي وصفه بالحسن دلالة على أنه لا مكدر فيه ولا منغص ﴿ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ لا يزول عنهم ولا يزولون عنه ﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ من اليهود والنصارى والمشركين الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ﴾ فإنهم لم يقولوها عن علم منهم، ولا علم من آبائهم الذين قلدوهم واتبعوهم، بل إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي عظمت شناعتها واشتدت عقوبتها، وأي شناعة أعظم من وصفه بالاتخاذ للولد الذي يقتضي نقصه، ومشاركة غيره له في خصائص الربوبية والإلهية، والكذب عليه؟ ﴿ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ ما فيه من الصدق شيء[1] ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ أي مهلكها غما وأسفا عليهم. وذلك أن أجرك قد وجب على الله، وهؤلاء لو علم الله فيهم خيرا لهداهم، ولكنه علم أنهم لا يصلحون إلا للنار فلذلك خذلهم فلم يهتدوا.[2]

﴿ 7-8 ﴾ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾ يخبر تعالى أنه جعل جميع ما على وجه الأرض زينة لهذه الدار، فتنة واختبارا ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أي أخلصه وأصوبه ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات، فانية مضمحلة. وستعود الأرض صعيدا جرزا قد ذهبت لذاتها، وزال نعيمها. هذه حقيقة الدنيا، قد جلاها الله لنا كأنها رأي عين، وحذرنا من الاغترار بها.

﴿ 9 – 12 ﴾ ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ وهذا الاستفهام بمعنى النفي والنهي. أي أن قصة أصحاب الكهف وإن كانت من آيات الله العجيبة، فإن جنسها كثير جدا. لكن الوقوف معها وحدها في مقام العجب والاستغراب، نقص في العلم والعقل. فوظيفة المؤمن التفكر بجميع آيات الله، التي دعا الله العباد إلى التفكير فيها. وأضاف أصحاب الكهف إلى الكهف، الذي هو الغار في الجبل، والرقيم، أي: الكتاب الذي قد رقمت فيه أسماؤهم وقصتهم، لملازمتهم له دهرا طويلا. ثم ذكر قصتهم مجملة، وفصلها بعد ذلك فقال: ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ ﴾ أي الشباب ﴿ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ يريدون بذلك التحصن والتحرز من فتنة قومهم لهم ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ أي تثبتنا بها وتحفظنا من الشر، وتوفقنا للخير

---

[1] وتأمل كيف أبطل هذا القول بالتدريج، والانتقال من شيء إلى أبطل منه. فأخبر أولا عن القول على الله بلا علم: مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ. ثم أخبر ثانيا أنه قول قبيح شنيع: كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ. ثم ذكر ثالثا مرتبته من القبح وهو الكذب المنافي للصدق: إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا.

[2] وفي هذه الآية ونحوها عبرة، فإن المأمور بدعاء الخلق إلى الله، عليه التبليغ والسعي بكل سبب يوصل إلى الهداية، مع التوكل على الله في ذلك، فإن اهتدوا فبها ونعمت، وإلا فلا يحزن ولا يأسف.

﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ أي يسر لنا كل سبب موصل إلى الرشد، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا. فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق، فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقيض لهم ما لم يكن في حسابهم، قال ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ ﴾ أي أنمناهم ﴿ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ وهي ثلاث مائة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظ لهم من قومهم وليكون آية بينة ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ من نومهم ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ أي لنعلم أيهم أحصى لمقدار مدتهم، وفي العلم بمقدار لبثهم ضبط للحساب، ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته، فلو استمروا على نومهم لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم.

﴿ 13-14 ﴾ ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ هذا شروع في تفصيل قصتهم، وأن الله يقصها على نبيه بالحق والصدق، الذي ما فيه شك ولا شبهة بوجه من الوجوه ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾ وهذا من جموع القلة، يدل ذلك على أنهم دون العشرة ﴿ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ بالله وحده لا شريك له من دون قومهم ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ فشكر الله لهم إيمانهم، فزادهم هدى، الذي هو العلم النافع والعمل الصالح ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي صبرناهم وثبتناهم، وجعلنا قلوبهم مطمئنة ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الذي خلقنا ورزقنا، ودبرنا وربانا. واستدلوا بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية ﴿ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا ﴾ من سائر المخلوقات ﴿ لَقَدْ قُلْنَا إِذًا ﴾ أي إن دعونا معه آلهة، بعد ما علمنا أنه الرب الإله الذي لا تجوز ولا تنبغي العبادة، إلا له ﴿ شَطَطًا ﴾ أي ميلا عظيما عن الحق.

﴿ 15 ﴾ ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾

﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ لما ذكروا ما من الله به عليهم من الإيمان والهدى، والتفتوا إلى ما كان عليه قومهم، من اتخاذ الآلهة من دون الله، فمقتوهم، وبينوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم، بل في غاية الجهل والضلال فقالوا ﴿ لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ بحجة وبرهان، على ما هم عليه من الباطل، ولا يستطيعون سبيلا إلى ذلك ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾.

﴿ 16 ﴾ ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا ﴾

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ قال بعضهم لبعض إذا اعتزلتم قومكم في أجسامكم وأديانكم، إذ لا سبيل إلى قتالهم، ولا بقائهم بين أظهرهم وهم على غير دينهم ﴿ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ ﴾ اختفوا فيه ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ

أَمْرِكُمْ مِرفَقًا ﴾ فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم، والالتجاء إلى الله في صلاح أمرهم، ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك.

﴿ 17-18 ﴾ ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا * وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ فحفظهم الله في الغار من الشمس إذا طلعت تميل عنه يمينا، وعند غروبها تميل عنه شمالا فلا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم بها﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ في مكان متسع من الكهف، وذلك ليطرقهم الهواء والنسيم، وذلك إجابة لدعائهم وهدايتهم حتى في هذه الأمور ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ أي لا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله، فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين ﴿ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ لأن الله قد حكم عليه بالضلال، ولا راد لحكمه ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ تحسبهم أيها الناظر إليهم كأنهم أيقاظ، والحال أنهم نيام، قال المفسرون: وذلك لأن أعينهم منفتحة، لئلا تفسد، فالناظر إليهم يحسبهم أيقاظا، وهم رقود ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ وكان من قدر الله، أن قلبهم على جنوبهم يمينا وشمالا، بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم، والله تعالى حكيم، أراد أن تجري سنته في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ أي الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف كان باسطا ذراعيه بالوصيد، أي الباب، أو فنائه. بهذا حفظهم من الأرض. وأما حفظهم من الآدميين، فأخبر أنه حماهم بالرعب الذي نشره الله عليهم ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ وهذا الذي أوجب أن يبقوا كل هذه المدة الطويلة، لم يعثر عليهم أحد مع قربهم من المدينة جدا. والدليل على قربهم أنهم لما استيقظوا أرسلوا أحدهم ليشتري لهم طعاما من المدينة، وبقوا في انتظاره، فدل ذلك على شدة قربهم منها.

﴿ 19-20 ﴾ ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ من نومهم الطويل ﴿ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدة لبثهم ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ كأنه وقع عندهم اشتباه في طول مدتهم فلهذا ﴿ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيء. فمن رحمته بمن طلب علم الحقيقة في الأمور المطلوب علمها، وسعى لذلك ما

أمكنه، فإن الله يوضح له ذلك ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ ﴾ أي بالدراهم التي كانت معهم ﴿ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ ﴾ وأمروه أن يتخير من الطعام أزكاه أي أطيبه وألذه ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ وأن يتلطف في ذهابه وشرائه وإيابه ولا يشعرن بهم أحدا ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ وإلا فهم بين أمرين إما الرجم بالحجارة، وإما أن يفتنوهم عن دينهم، ويردوهم في ملتهم، فلا يفلحون أبدا.

﴿ 21 ﴾ ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ أطلع الله تعالى الناس على حال أهل الكهف، وذلك –والله أعلم– بعدما استيقظوا. فأراد الله أمرا فيه صلاح للناس، فجعل قصتهم زيادة بصيرة ويقين للمؤمنين، وحجة على الجاحدين. وشهر الله أمرهم، ورفع قدرهم حتى عظمهم الذين اطلعوا عليهم ﴿ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ ﴾ الذين لهم الأمر ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ نعبد الله تعالى فيه، ونتذكر ما جرى لهم. ورغم أن هذه الحالة محظورة، ونهى عنها النبي صلى الله عليه وسلم، وذم فاعليها، فإن ذكرها هنا لا يدل على عدم ذمها، لأن السياق هو في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم. وفي هذه القصة، دليل على أن من فر بدينه من الفتن، سلمه الله منها. وأن من حرص على العافية عافاه الله. ومن أوى إلى الله، آواه الله، وجعله هداية لغيره. ومن تحمل الذل في سبيله وابتغاء مرضاته، كان آخر أمره وعاقبته العز العظيم من حيث لا يحتسب.

﴿ 22 ﴾ ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾

﴿ سَيَقُولُونَ ﴾ يخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب في عدد أصحاب الكهف، فمنهم من يقول ﴿ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ ﴾ ومنهم من يقول ﴿ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ ﴾ ومنهم من يقول ﴿ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ وهذا –والله أعلم– الصواب، لأن الله أبطل الأولين ولم يبطله، فدل على صحته. على أي حال هذا اختلاف لا فائدة تحته، ولا يحصل بمعرفة عددهم مصلحة للناس، دينية ولا دنيوية ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ وهم الذين أصابوا الصواب ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ ﴾ أي لا تجادل ﴿ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ مبنيا على العلم واليقين، وذا فائدة. وأما الممارة المبنية على الجهل والرجم بالغيب، أو التي لا فائدة فيها، فهي إما أن يكون الخصم فيها معاندا، أو تكون المسألة لا أهمية فيها، ولا تحصل فائدة دينية بمعرفتها ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ ﴾ أي في شأن أهل الكهف ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أي من أهل الكتاب ﴿ أَحَدًا ﴾ وذلك لأن كلامهم فيهم مبني على الرجم بالغيب والظن، الذي لا يغني من الحق شيئا. ففي الآية دليل على المنع من استفتاء من لا يصلح للفتوى، إما لقصوره في الأمر المستفتى فيه، أو لأنه لا ورع يحجزه. وإذا نهي عن استفتاء هذا الجنس، فنهيه هو

عن الفتوى به، من باب أولى وأحرى. وفي الآية أيضا، دليل على أن الشخص، قد يكون منهيا عن استفتائه في شيء، دون آخر. فيستفتى فيما هو أهل له، بخلاف غيره، لأن الله لم ينه عن استفتائهم مطلقا، إنما نهى عن استفتائهم في قصة أصحاب الكهف وما أشبهها.

﴿ 23-24 ﴾ ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ ﴾ هذا الخطاب عام للمكلفين، فنهى الله أن يقول العبد في الأمور المستقبلة ﴿ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴾ من دون أن يقرنه بمشيئة الله، وهو لا يدري أصلاً هل يفعله أم لا ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ ففي ذكر مشيئة الله تيسير للأمر وتسهيله وحصول البركة فيه. ولما كان العبد بشرا لا بد أن يسهو فيترك ذكر المشيئة، أمره الله ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ أمر بذكر الله عند النسيان فإنه يزيله فيذكر العبد ما سها عنه. وكذلك يؤمر الساهي الناسي لذكر الله، أن يذكر ربه ولا يكونن من الغافلين. ولما كان العبد مفتقرا إلى الله في توفيقه للإصابة، أمره الله أن يقول: ﴿ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ فيدعو الله ويرجوه، ويثق به أن يهديه لأقرب الطرق الموصلة إلى الرشد.

﴿ 25 - 26 ﴾ ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أخبر الله هنا بمدة لبثهم، وأن علم ذلك عنده وحده، فإنه من غيب السماوات والأرض، وغيبها مختص به، فما أخبر به عنها على ألسنة رسله، فهو الحق اليقين الذي لا يشك فيه، وما لا يطلع رسله عليه، فإن أحدا من الخلق لا يعلمه ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ تعجب من كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالمسموعات والمبصرات، بعد ما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات. ثم أخبر عن انفراده بالولاية العامة والخاصة ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ وهو الذي تولى أصحاب الكهف بلطفه وكرمه، ولم يكلهم إلى أحد من الخلق ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ فهو الحاكم في خلقه قضاء وقدرا وخلقا وتدبيرا، والحاكم فيهم بأمره ونهيه وثوابه وعقابه.

﴿ 27 ﴾ ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ التلاوة هي الاتباع أي اتبع ما أوحى الله إليك بمعرفة معانيه وفهمها، وتصديق أخباره وامتثال أوامره ونواهيه، فإنه الكتاب الجليل الذي ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ أي لا تغير ولا تبدل لصدقها وعدلها وبلوغها غاية الحسن ﴿ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ لن تجد من دون ربك ملجأ تلجأ إليه، فتعين أن يكون هو المألوه المرغوب إليه

في السراء والضراء، المفتقر إليه في جميع الأحوال، المسئول في جميع المطالب.

﴿ 28 ﴾ ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ يأمر تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، وغيره أسوته، في الأوامر والنواهي أن يصبر نفسه ﴿ مَعَ ﴾ المؤمنين العباد المنيبين ﴿ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ أي أول النهار وآخره ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ يريدون بذلك وجه الله ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ أي لا تجاوزهم بصرك، وترفع عنهم نظرك ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فإن زينة الدنيا تروق للناظر وتسحر العقل، فيغفل القلب عن ذكر الله، ويقبل على اللذات والشهوات، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية. ولهذا قال ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ غفل عن الله، فعاقبه بأن أغفله عن ذكره ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ أي صار تبعا لهواه ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ ﴾ أي مصالح دينه ودنياه ﴿ فُرُطًا ﴾ أي ضائعة معطلة. فهذا قد نهى الله عن طاعته، لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به. ودلت الآية على أن الذي ينبغي أن يطاع من امتلأ قلبه بمحبة الله وفاض ذلك على لسانه فلهج بذكر الله واتبع مراضي ربه، فقدمها على هواه. والصبر المذكور في هذه الآية هو الصبر على طاعة الله الذي هو أعلى أنواع الصبر. وفي الآية استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرفي النهار، لأن الله مدحهم بفعله، وكل فعل مدح الله فاعله دل ذلك على أن الله يحبه، وإذا كان يحبه فإنه يأمر به ويرغب فيه.

﴿ 29-31 ﴾ ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ قل للناس يا محمد: هو الحق من ربكم وقد تبين الهدى من الضلال ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ لم يبق إلا سلوك أحد الطريقين، فمن آمن فقد وفق للصواب، ومن كفر فقد قامت عليه الحجة، وليس بمكره على الإيمان. لكن ذلك تهديد ووعيد لمن اختار الكفر بعد البيان التام، كما ليس فيها ترك قتال الكافرين ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ ﴾ بالكفر والفسوق والعصيان ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ أي سورها المحيط بها، فليس لهم منفذ ولا طريق ولا مخلص منها، تصلاهم النار الحامية ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا ﴾ يطلبوا الشراب ليطفئ ما نزل بهم من العطش الشديد ﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت، من شدة حرارته ﴿ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ فكيف بالأمعاء والبطون ﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ ﴾ الذي يراد ليطفئ العطش فيكون زيادة في عذابهم ﴿ وَسَاءَتْ ﴾ النار ﴿ مُرْتَفَقًا ﴾ وهذا ذم لحالة النار، أنها ساءت المحل الذي يرتفق به فإنها ليست فيها ارتفاق، وإنما فيها العذاب العظيم الشاق. ثم ذكر الفريق الثاني ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

﴿ الصَّالِحَاتِ ﴾ جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وعمل الصالحات من الواجبات والمستحبات ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ وإحسان العمل: أن يريد العبد العمل لوجه الله، متبعا في ذلك شرع الله. فـ ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ لهم الجنات العاليات، كثرت أشجارها وكثرت أنهارها، والمنازل الرفيعة، وحليتهم فيها الذهب، ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس، وهو الغليظ من الديباج، والإستبرق، وهو ما رق منه. متكئين فيها على الأرائك، وهي السرر المزينة المجملة بالثياب الفاخرة فإنها لا تسمى أريكة حتى تكون كذلك، وفي اتكائهم على الأرائك، ما يدل على كمال الراحة، وزوال النصب والتعب، وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون، وتمام ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدية، فهذه الدار الجليلة ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ ﴾ للعاملين ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ يرتفقون بها، ويتمتعون بما فيها. وأي مرتفق أحسن من دار، أدنى أهلها، يسير في ملكه ونعيمه وقصوره وبساتينه ألفي سنة، ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم. فنسأل الله الكريم، أن لا يحرمنا خير ما عنده من الإحسان، بشر ما عندنا من التقصير والعصيان. ودلت الآية الكريمة وما أشبهها، على أن الحلية، عامة للذكور والإناث، كما ورد في الأحاديث الصحيحة لأنه أطلقها في قوله يُحَلَّوْنَ، وكذلك الحرير ونحوه.

﴿ 32-34 ﴾ ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ ﴾ اضرب للناس مثل هذين الرجلين، الشاكر لنعمة الله والكافر لها، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل والثواب، ليعتبروا ويتعظوا بحالهما ﴿ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا ﴾ الكافر لنعمة الله الجليلة ﴿ جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ بستانين من أعناب ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ﴾ أشرف الأشجار: العنب في وسطها والنخل قد حف بذلك، وفيهما من كل الثمرات ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ بين تلك الأشجار ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ أي ثمرها وزرعها ضعفين، أي متضاعفا ﴿ وَلَم تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ أي لم تنقص من أكلها أدنى شيء ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴾ الأنهار في جوانبهما سارحة كثيرة غزيرة ﴿ وَكَانَ لَهُ ﴾ أي لذلك الرجل ﴿ ثَمَرٌ ﴾ أي عظيم كما يفيده التنكير، فاستكملت جنتاه ثمارهما، ولهذا اغتر هذا الرجل بهما وتبجح وافتخر ونسي آخرته.

﴿ 34 - 36 ﴾ ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾

﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ قال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن مفتخرا عليه ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ فخر بكثرة ماله وعزة أنصاره، فخر الصبي بالأماني لا حقائق تحتها ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا

﴾ أي تنقطع وتضمحل واطمأن إلى هذه الدنيا، ورضى بها، وأنكر البعث ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي ﴾ على ضرب المثل ﴿ لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ أي ليعطيني خيرا من هاتين الجنتين. ظن بجهله أن من أعطي في الدنيا أعطي في الآخرة. بل الغالب أن الله تعالى يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه الذين ليس لهم في الآخرة نصيب. والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال، ولكنه قال هذا الكلام على وجه التهكم والاستهزاء، بدليل قوله: وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مما يدل على تمرده وعناده.

﴿ 37 - 39 ﴾ ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ ﴾ المؤمن ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ ناصحا له ومذكرا له بخلق الله له ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ فأوجدك وأمدك وواصل عليك النعم ونقلك من طور إلى طور حتى سواك رجلا، ولم تحصل لك الدنيا بحولك وقوتك بل بفضل الله تعالى عليك. ولهذا لما رأى استمراره على كفره وطغيانه قال مخبرا عن نفسه على وجه الشكر لربه والإعلان بدينه ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ فأقر بربوبية لربه، وأنه لا يشرك به أحدا من المخلوقين ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ أي لا أقدر على حفظ مالي أو دفع شيء عنه إلا بإذن الله.

﴿ 39 - 44 ﴾ ﴿ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾

﴿ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ فإن ما عند الله خير وأبقى. وما يرجى من خيره وإحسانه أفضل من جميع الدنيا التي يتنافس فيها المتنافسون ﴿ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ أي على جنتك التي طغيت بها وغرتك ﴿ حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي عذابا ﴿ فَتُصْبِحَ ﴾ بسبب ذلك ﴿ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ قد اقتلعت أشجارها وتلفت ثمارها وغرق زرعها وزال نفعها ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا ﴾ الذي مادتها منه ﴿ غَوْرًا ﴾ غائرا في الأرض ﴿ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ لا يستطاع الوصول إليه. وإنما دعا على جنته غضبا لربه، لكونها غرته وأطغته واطمأن إليها، لعله ينيب ويراجع رشده. فاستجاب الله دعاءه ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ أي أصابه عذاب أحاط به واستهلكه، فلم يبق منه شيء. والإحاطة بالثمر يستلزم تلف جميع أشجاره وثماره وزرعه، فندم كل الندامة ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾ على كثرة نفقاته الدنيوية عليها ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ حيث اضمحلت وتلاشت ﴿ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ وندم أيضا على شركه ﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴾ أي لما نزل العذاب بجنته، ذهب عنه ما كان يفتخر به وهو أشد ما كان

إليهم حاجة، وما كان بنفس منتصرا. وكيف ينتصر على قضاء الله وقدره الذي لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شيء منه، لم يقدروا؟ ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه، أن صاحب هذه الجنة، التي أحيط بها، تحسنت حاله، ورزقه الله الإنابة إليه، وراجع رشده، وذهب تمرده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيرا عجل له العقوبة في الدنيا. وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ أي في تلك الحال التي أجرى الله فيها العقوبة على من طغى وآثر الحياة الدنيا، والكرامة لمن آمن وعمل صالحا وشكر الله ودعا غيره لذلك، تبين وتوضح أن الولاية لله الحق. وأن العبد ينبغي له -إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده- أن يضيف النعمة إلى موليها ومسديها، وأن يقول ما شاء الله، لا قوة إلا بالله ليكون شاكرا لله متسببا لبقاء نعمته عليه. وفيها أن المال والولد لا ينفعان، إن لم يعينا على طاعة الله. وفيها الدعاء بتلف مال ما كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصا إن فضّل نفسه بسببه على المؤمنين، وفخر عليهم. وفيها أن ولاية الله وعدمها إنما تتضح نتيجتها إذا انجلى الغبار وحق الجزاء، ووجد العاملون أجرهم.

﴿ 45 - 46 ﴾ ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ اضرب للناس مثل الحياة الدنيا ليتصوروها حق التصور، ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيهما أولى بالإيثار ﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ وأن مثل هذه الحياة الدنيا كمثل المطر ينزل على الأرض، فتنبت من كل زوج بهيج. فبينما زهرتها وزخرفها تسر الناظرين إذ ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ فأصبحت الأرض غبراء ترابا. ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ كذلك هذه الدنيا بينما صاحبها قد أعجب بشبابه وفاق فيها على أقرانه وأترابه، إذ أصابه الموت أو التلف لماله، فذهب عنه سروره، وزالت لذته وحبوره. هنالك يعض الظالم على يديه ليستدرك ما فرط منه من الغفلات، بالتوبة والأعمال الصالحات ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ وتأمل كيف لما ضرب الله مثل الدنيا وحالها واضمحلالها ذكر أن الذي فيها نوعان: نوع من زينتها يتمتع به قليلا، ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه، بل ربما لحقته مضرته وهو المال والبنون، ونوع يبقى وينفع صاحبه على الدوام، وهي الباقيات الصالحات.

﴿ 47 - 49 ﴾ ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ ﴾ يزيلها عن أماكنها ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ وتبرز الأرض فتصير قاعا صفصفا ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ ويحشر الله جميع الخلق على تلك الأرض، فلا يغادر منهم أحدا، بل يجمع الأولين والآخرين ﴿ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا ﴾ ليستعرضهم وينظر في أعمالهم، ويحكم فيهم بحكمه العدل، الذي لا جور فيه ولا ظلم، ويقول لهم ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي بلا مال ولا أهل ولا عشيرة ما معهم إلا الأعمال التي عملوها ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾ أي أنكرتم الجزاء على الأعمال، ووعد الله ووعيده، فها قد رأيتموه وذقتموه ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ ﴾ حينها ﴿ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة إلا وهي مكتوبة فيه، محفوظة لم ينس منها عمل سر ولا علانية، ولا ليل ولا نهار ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ لا يقدرون على إنكاره ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ فالله ليس بظلام للعبيد وهم تحت عدله وفضله.

﴿ 50 ﴾ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ يخبر تعالى عن عداوة إبليس لآدم وذريته، وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم إكراما وتعظيما، وامتثالا لأمر الله، فامتثلوا ذلك ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ وتبينت عداوته لله ولأبيكم ولكم ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ ﴾ فكيف تتخذونه وذريته من الشياطين ﴿ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان، الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر.

﴿51-52﴾ ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا * وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾

﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ يقول تعالى: ما أشهدت الشياطين وهؤلاء المضلين خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم أي ما أحضرتهم ذلك، ولا شاورتهم عليه ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ معاونين، مظاهرين لله على شأن من الشئون. أي ما ينبغي ولا يليق بالله أن يجعل لهم قسطا من التدبير، لأنهم ساعون في إضلال الخلق والعداوة لربهم، فاللائق أن يقصيهم ولا يدنيهم ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ ﴾ ثم أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم القيامة، وأن الله يقول لهم ﴿ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ بموجب زعمكم الفاسد، لينفعوكم ويخلصوكم من الشدائد ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ لأن الحكم والملك يومئذ لله، لا أحد يملك مثقال ذرة من النفع لنفسه ولا لغيره ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ بين المشركين وشركائهم ﴿ مَوْبِقًا ﴾ أي مهلكا، يبعد بعضهم من بعض، ويتبين حينئذ عداوة الشركاء لشركائهم وكفرهم بهم وتبريهم منهم.

﴿53﴾ ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ﴾ يوم القيامة ﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ رأى المجرمون جهنم قبل دخولها، فانزعجوا واشتد قلقهم لظنهم أنهم مواقعوها، وهذا الظن قال المفسرون إنه بمعنى اليقين ﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أي معدلا يعدلون إليه، ولا شافع لهم من دون إذنه.

﴿ 54 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ يخبر الله تعالى عن عظمة القرآن وجلالته وعمومه، وأنه صرف فيه من كل مثل، أي من كل طريق موصل إلى العلوم النافعة والسعادة الأبدية. ومع ذلك كان كثير من الناس يجادلون في الحق بعد ما تبين، ويجادلون بالباطل ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ أي مجادلة ومنازعة فيه.

﴿ 55 ﴾ ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى ﴾ يفرق بين الحق والباطل ﴿ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ إلا أن تأتيهم سنة الله، وعادته في الأولين من أنهم إذا لم يؤمنوا عوجلوا بالعذاب. فليخافوا من ذلك وليتوبوا من كفرهم قبل أن يأتيهم عذاب لا مرد له.

﴿ 56 ﴾ ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا ﴾

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ أرسلناهم يدعون الناس إلى كل خير وينهون عن كل شر، ويبشرونهم على امتثال ذلك بالثواب العاجل والأجل، وينذرونهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والآجل ﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا ﴾ ومع ذلك يأبى الظالمون الكافرون إلا المجادلة بالباطل ليدحضوا به الحق، واستهزءوا برسل الله وآياته، وفرحوا بما عندهم من العلم.

﴿ 57-59 ﴾ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا * وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا* وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلما من عبد ذكر بآيات الله فأعرض عنها، فلم يتذكر بما ذكر به، ونسى ما قدمت يداه من الذنوب، ولم يراقب علام الغيوب، فسد عليه أبواب الهداية بأن جعل على قلبه أكنة، أي أغطية محكمة تمنعه أن يفقه الآيات وإن سمعها

﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أي صمما يمنعهم من وصول الآيات، ومن سماعها على وجه الانتفاع. وإذا كانوا بهذه الحالة، فليس لهدايتهم سبيل ﴿ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ فهؤلاء الذين أبصروا ثم عموا، ورأوا طريق الحق فتركوه، وطريق الضلال فسلكوه، عاقبهم الله بإقفال القلوب والطبع عليها ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ﴾ ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته، وأنه يغفر الذنوب، ويتوب الله على من يتوب، فيتغمده برحمته ويشمله بإحسانه، وأنه لو آخذ العباد على ما قدمت أيديهم من الذنوب، لعجل لهم العذاب، ولكنه تعالى حليم لا يعجل بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل ﴿ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا ﴾ أي لهم موعد يجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، وهذه سنته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنابوا، غفر لهم ورحمهم، وإلا أنزل بهم بأسه ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ بظلمهم، لا بظلم منا ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾ وقتا مقدرا، لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون.

الجزء السادس عشر -16

﴿ 60 - 82 ﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَه قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ﴾ يخبر تعالى عن نبيه موسى عليه السلام، وشدة رغبته في الخير وطلب العلم، أنه قال لفتاه أي

خادمه الذي يلازمه في حضره وسفره، (وهو " يوشع بن نون " الذي نبأه الله بعد ذلك) ﴿ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ أي لا أزال مسافرا وإن طالت علي الشقة ولحقتني المشقة حتى أصل إلى مجمع البحرين، وهو المكان الذي أوحي إليه أنك ستجد فيه عبدا من عباد الله العالمين عنده من العلم ما ليس عندك ﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ أي مسافة طويلة ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا ﴾ هو وفتاه ﴿ مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ وكان معهما حوت يُعد أنه متى فُقد فثمّ ذلك العبد الذي قصدته ﴿ فَاتَّخَذَ ﴾ ذلك الحوت ﴿ سَبِيلَهُ ﴾ طريقه ﴿ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ وهذا من الآيات. وقال المفسرون إن ذلك الحوت لما وصلا إلى ذلك المكان أصابه بلل البحر، فانسرب بإذن الله في البحر، وصار مع حيواناته حيا ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ فلما جاوز موسى وفتاه مجمع البحرين ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز فقط، وإلا فالسفر الطويل الذي وصلا به إلى مجمع البحرين لم يجدا مس التعب فيه، وهذا من الآيات والعلامات الدالة لموسى، على وجود مطلبه، وأيضا فإن الشوق المتعلق بالوصول إلى ذلك المكان، سهل لهما الطريق، فلما تجاوزا غايتهما وجدا مس التعب، فلما قال موسى لفتاه هذه المقالة ﴿ قَالَ ﴾ له فتاه ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ ﴾ أي ألم تعلم حين آوانا الليل إلى تلك الصخرة المعروفة بينهما ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ لأنه السبب في ذلك ﴿ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ أي لما انسرب في البحر ودخل فيه، كان ذلك من العجائب. وكان عند موسى وعد من الله أنه إذا فقد الحوت، وجد الخضر، فـ ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ أي نطلب ﴿ فَارْتَدَّا ﴾ أي رجعا ﴿ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ أي رجعا وهما يتبعان أثرهما السابق إلى المكان الذي نسيا فيه الحوت ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وجدا الخضر، وكان عبدا صالحا، لا نبيا على الصحيح ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ أعطاه الله رحمة خاصة زاد بها علمه وحسن عمله ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا ﴾ من عندنا ﴿ عِلْمًا ﴾ وكان قد أعطي من العلم ما لم يعط موسى، فلما اجتمع به ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى ﴾ على وجه الأدب والمشاورة والإخبار عن مطلبه ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ أي هل أتبعك على أن تعلمني مما علمك الله، ما به أسترشد وأهتدي وأعرف به الحق في تلك القضايا؟ وكان الخضر قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة، ما به يحصل له الاطلاع على بواطن كثير من الأشياء التي خفيت حتى على موسى عليه السلام، فـ ﴿ قَالَ ﴾ الخضر لموسى لا أمتنع من ذلك، ولكن ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ لا تقدر على اتباعي وملازمتي، لأنك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه من الأمور التي ظاهرها المنكر، وباطنها غير ذلك ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ كيف تصبر على أمر ما أحطت بباطنه وظاهره ولا علمت المقصود منه ومآله؟ فـ ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ وهذا عزم منه، قبل أن يوجد الشيء الممتحن به، والعزم شيء، ووجود الصبر شيء آخر، فلذلك ما صبر موسى عليه السلام حين وقع الأمر. فحينئذ ﴿ قَالَ ﴾ له الخضر ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ لا تبتدئني بسؤال منك وإنكار، حتى أكون أنا الذي أخبرك بحاله، في الوقت الذي ينبغي إخبارك به ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ أي اقتلع الخضر منها لوحا، وكان له مقصود في ذلك، سيبينه، فلم يصبر موسى عليه السلام، لأن ظاهره أنه منكر، لأنه عيب للسفينة، وسبب لغرق أهلها ﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ أي عظيما شنيعا، وهذا من عدم صبره عليه السلام، فـ ﴿ قَالَ ﴾ له الخضر ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ أي فوقع

كما أخبرتك، وكان هذا من موسى نسيانا فـ ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ أي لا تعسر علي الأمر، واسمح لي، فإن ذلك وقع على وجه النسيان ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا ﴾ صغيرا ﴿ فَقَتَلَهُ ﴾ الخضر، فاشتد بموسى الغضب، وأخذته الحمية الدينية، حين قتل غلاما صغيرا لم يذنب ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ وأي نكر مثل قتل الصغير، الذي ليس عليه ذنب، ولم يقتل أحدا! وكانت الأولى من موسى نسيانا، وهذه عدم صبر، فـ ﴿ قَالَ ﴾ له الخضر معاتبا ومذكرا ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ فـ ﴿ قَالَ ﴾ له موسى ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾ بعد هذه المرة ﴿ فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ أي فأنت معذور بذلك، وبترك صحبتي ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾ أي استضافاهم ﴿ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾ أي قد عاب واستهدم ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ الخضر فبناه وأعاده جديدا فـ ﴿ قَالَ ﴾ له موسى ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أي كيف تبنيه من دون أجرة، وأهل هذه القرية لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم. فحينئذ استعذر الخضر منه ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ فإنك شرطت ذلك على نفسك، فلم يبق الآن عذر، ولا موضع للصحبة ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ أي سأخبرك بما أنكرت عليَّ، وأنبئك بما لي في ذلك من المآرب، وما يئول إليه الأمر ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ ﴾ التي خرقتها ﴿ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ يقتضي ذلك الرقة عليهم، والرأفة بهم ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ أي كان مرورهم على ذلك الملك الظالم، فكل سفينة صالحة تمر عليه ما فيها عيب غصبها وأخذها ظلما، فأردت أن أخرقها ليكون فيها عيب، فتسلم من ذلك الظالم ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ ﴾ الذي قتلته ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ وكان ذلك الغلام قد قدر عليه أنه لو بلغ لأرهق أبويه وحملهما على الطغيان والكفر، إما لأجل محبتهما إياه، أو للحاجة إليه أو يحدهما على ذلك. فقتلته، لاطلاعي على ذلك، سلامة لدين أبويه المؤمنين، وأي فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة؟ وهو وإن كان فيه إساءة إليهما، وقطع لذريتهما، فإن الله تعالى سيعطيهما من الذرية، ما هو خير منه ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ ولدا صالحا، زكيا، واصلا لرحمه ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ ﴾ الذي أقمته ﴿ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ أي حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحمتهم، وحفظهما الله أيضا بصلاح والدهما ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا ﴾ أي فلهذا هدمت الجدار وأعدته مجانا ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ هذا الذي فعلته رحمة من الله ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ وإنما ذلك من رحمة الله وأمره ﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي فسرته لك ﴿ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾.

وفي هذه القصة العجيبة الجليلة، من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير، ننبه على بعضه بعون الله[3].

1- [3] العلم والرحلة في طلبه من أهم الأمور، فقد ترك موسى عليه بني إسرائيل وتعليمهم وإرشادهم واختار السفر.
2- الإخبار بأين يريد السفر أكمل من كتمه. لكن ذلك يبقى حسب المصلحة. وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه حين غزا تبوك بوجهه، مع أن عادته التورية.
3- إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان، على وجه التسويل والتزيين، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره.
4- جواز إخبار الإنسان عن حاله من نصب أو جوع، أو عطش، إذا لم يكن على وجه التسخط وكان صدقا.
5- استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وأكلهما جميعا.
6- أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالمأمور به، وأن الموافق لأمر الله، يعان ما لا يعان غيره.

﴿ 83-88 ﴾ ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ سأل أهل الكتاب أو المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة ذي القرنين، فأمره الله أن ﴿ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ من أحواله ما يكون عبرة، وأما ما سوى ذلك فلم يتله عليهم ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي ملكه الله تعالى ومكنه من النفوذ في أقطار الأرض ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا. فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي أعطاه الله من الأسباب الموصلة له لما وصل إليه، وعمل بتلك الأسباب التي أعطاه الله إياها واستعملها على وجهها. وهذه الأسباب التي أعطاه الله إياها، لم يخبرنا الله ولا رسوله بها، ولم تتناقلها الأخبار على وجه يفيد العلم، فلهذا، لا يسعنا غير السكوت عنها، وعدم الالتفات لما يذكره النقلة للإسرائيليات ونحوها، ولكننا نعلم بالجملة أنها أسباب قوية كثيرة، داخلية وخارجية، بها صار له جند عظيم، ذو عدد وعدد ونظام، وبه تمكن من قهر الأعداء، ومن تسهيل الوصول إلى مشارق الأرض ومغاربها، وأنحائها. فأعطاه الله، ما بلغ به مغرب الشمس ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ رأى الشمس في مرأى العين ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ كأنها تغرب في عين حمئة، أي سوداء وهي في غاية الارتفاع ﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا ﴾ أي عند

-7 العبد الذي لقياه، ليس نبيا، بل عبدا صالحا، لأنه وصفه بالعبودية، وذكر منة الله عليه بالرحمة والعلم، ولم يذكر رسالته ولا نبوته، ولو كان نبيا، لذكر ذلك كما ذكره غيره. وأما قوله وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي فإنه لا يدل على أنه نبي وإنما يدل على الإلهام والتحديث.

-8 العلم الذي يعلمه الله لعباده نوعان: مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده. ولدنيّ، يهبه الله لمن يمن عليه من عباده.

-9 التأدب مع المعلم، وإظهار الحاجة إلى تعليمه. وتواضع الفاضل للتعلم ممن هو دونه. ففي هذا النوع من العلم كان عند الخضر، ما ليس عند موسى، فلهذا حرص على التعلم منه.

-10 إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار بذلك، وشكر الله عليها.

-11 من لا صبر له لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر أدرك كل أمر سعى فيه.

-12 السبب الكبير لحصول الصبر هو إحاطة الإنسان علما وخبرة بالأمر الذي أمر بالصبر عليه.

-13 التأني وعدم الحكم على الشيءحتى يعرف ما هو المقصود منه.

-14 أن لا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل، إلا أن يقول ﴿ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾

-15 العزم على فعل الشيء ليس بمنزلة فعله، فإن موسى وطّن نفسه على الصبر ولم يفعل.

-16 قد يرى المعلم مصلحة في أن لا يبتدأ المتعلم في السؤال عن بعض الأشياء، حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها، وذلك تبعاً للمصلحة.

-17 جواز ركوب البحر، في غير الحالة التي يخاف منها.

-18 الناسي غير مؤاخذ بنسيانه لا في حق الله، ولا في حقوق العباد.

-19 ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ما سمحت به أنفسهم، ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون.

-20 تجري الأحكام على ظاهر الأمور وتعلق بها الأحكام الدنيوية، وذلك في الأموال، والدماء وغيرها. فقد بادر موسى عليه السلام إلى الحكم على الحالة العامة، ولم يلتفت إلى ضرورة الصبر.

-21 اتباع القاعدة الكبيرة الجليلة: "دفع شر كبير بارتكاب شر صغير". ، فإن قتل الغلام شر، ولكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما، أعظم شرا منه، فلذلك قتله الخضر.

-22 لو وقع حرق أو غرق أو نحوهما في دار إنسان أو ماله، جاز بل شرع إتلاف بعض المال أو هدم بعض الدار، بما فيه سلامة للباقي. وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير ودفع إليه إنسان بعض المال افتداء للباقي جاز ولو من غير إذن.

-23 قد يكون للمسكين مال لا يبلغ كفايته، ولا يخرج بذلك عن اسم المسكنة، لأن الله أخبر أن هؤلاء المساكين لهم سفينة.

-24 القتل من أكبر الذنوب لقوله في قتل الغلام ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾

-25 القتل قصاصا غير منكر لقوله ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾

-26 العبد الصالح يحفظه الله في نفسه وفي ذريته.

-27 خدمة الصالحين، أو من يتعلق بهم، أفضل من غيرها، لأنه علل استخراج كنزهما، وإقامة جدارهما، أن أباهما صالح.

-28 استعمال الأدب مع الله تعالى في الألفاظ، فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ وأما الخير، فأضافه إلى الله تعالى لقوله: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾.

-29 ينبغي للصاحب أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال، ويترك صحبته، حتى يعتبه، ويعذر منه، كما فعل الخضر مع موسى.

-30 موافقة الصاحب لصاحبه في غير الأمور المحذورة مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكدها كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة.

مغربها ﴿ قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ أي إما أن تعذبهم بقتل أو ضرب أو أسر ونحوه، وإما أن تحسن إليهم. فخير بين الأمرين، لأن الظاهر أنهم كفار أو فساق، أو فيهم شيء من ذلك، لأنهم لو كانوا مؤمنين غير فساق، لم يرخص في تعذيبهم، فكان عند ذي القرنين من السياسة الشرعية ما استحق به المدح والثناء، لتوفيق الله له لذلك، فـ ﴿ قَالَ ﴾ سأجعلهم قسمين ﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ بالكفر ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴾ أي تحصل له عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى ﴾ الجنة جزاء يوم القيامة ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ وسنحسن إليه. وهذا يدل على كونه من الملوك الصالحين الأولياء العادلين العالمين، حيث وافق مرضاة الله في كل أحد، بما يليق بحاله.

﴿ 89 - 98 ﴾ ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا * كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾ أي كر راجعا قاصدا مطلعها متبعا للأسباب التي أعطاه الله، فوصل إلى مطلع الشمس فـ ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ﴾ على أناس ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴾ ليس لهم ستر من الشمس، إما لهمجيتهم وتوحشهم، وإما لكون الشمس لا تغرب عنهم غروبا يذكر ﴿ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ أي أحطنا بما عنده من الخير والأسباب العظيمة وعلمنا معه، حيثما توجه وسار ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ قال المفسرون ذهب متوجها من المشرق قاصدا للشمال، فوصل إلى ما بين السدين، وهما سلاسل جبال معروفين في ذلك الزمان فـ ﴿ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ لعجمة ألسنتهم واستعجام أذهانهم وقلوبهم. وقد أعطى الله ذا القرنين من الأسباب العلمية ما فقه به ألسنة أولئك القوم وفقههم، وراجعهم وراجعوه، فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج، وهما أمتان عظيمتان من بني آدم فـ ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بالقتل وأخذ الأموال وغير ذلك ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ أي جعلا ﴿ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ عرفوا اقتدار ذي القرنين على بناء سد فبذلوا له أجرة ليفعل ذلك، وذكروا له السبب الداعي وهو: إفسادهم في الأرض. كان قصد ذي القرنين الإصلاح فأجاب طلبتهم ولم يأخذ منهم أجرة، وشكر ربه على تمكينه واقتداره ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ مما تبذلون لي وتعطوني، وإنما أطلب منكم أن ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ منكم بأيديكم ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ أي مانعا من عبورهم عليكم ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ أي قطع الحديد، فأعطوه ذلك ﴿ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ أي الجبلين اللذين بني بينهما السد ﴿ قَالَ انْفُخُوا ﴾ النار أي أوقدوها إيقادا عظيما، واستعملوا لها المنافيخ لتشتد ويذوب النحاس الذي يريد أن يلصقه بين الزبر ﴿ حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ

نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ نحاسا مذابا. فأفرغ عليه القطر، فاستحكم السد استحكاما هائلا، وامتنع من وراءه من الناس، من ضرر يأجوج ومأجوج ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ أي فما لهم استطاعة، ولا قدرة على الصعود عليه لارتفاعه، ولا على نقبه لإحكامه وقوته. فلما فعل هذا الفعل الجميل، أضاف النعمة إلى موليها و ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾ أي من فضله وإحسانه عليَّ. وهذه حال الخلفاء الصالحين إذا من الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم واعترافهم بنعمة الله ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ أي لخروج يأجوج ومأجوج ﴿ جَعَلَهُ ﴾ ذلك السد المحكم المتقن ﴿ دَكَّاءَ ﴾ أي دكه فانهدم واستوى هو والأرض ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾.

﴿ 99 ﴾ ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى يأجوج ومأجوج، وأنهم إذا خرجوا على الناس من كثرتهم واستيعابهم للأرض كلها يموج بعضهم ببعض. ويحتمل أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم القيامة، وأنهم يجتمعون فيه فيكثرون ويموج بعضهم ببعض، من الأهوال والزلازل العظام، بدليل قوله ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ أي إذا نفخ إسرافيل في الصور أعاد الله الأرواح إلى الأجساد، ثم حشرهم وجمعهم لموقف القيامة، الأولين منهم والأخرين، والكافرين والمؤمنين، ليسألوا ويحاسبوا ويجزون بأعمالهم، فأما الكافرون على اختلافهم فإن جهنم جزاؤهم، خالدين فيها أبدا.

﴿ 100 – 101 ﴾ ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ عرضت لهم لتكون مأواهم ومنزلهم، وليذوقوا من العقاب، وهذا جزاء أفعالهم في الدنيا ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي ﴾ معرضين عن الذكر الحكيم والقرآن الكريم، وفي أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات الله النافعة ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ ولا يقدرون على سماع آيات الله الموصلة إلى الإيمان. فإذا انحجبت عنهم طرق العلم والخير، فليس لهم سمع ولا بصر، ولا عقل نافع.

﴿ 102 ﴾ ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾

﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾ هذا بيان لبطلان دعوى المشركين الكافرين الذين اتخذوا بعض الأنبياء والأولياء شركاء لله يعبدونهم ويزعمون أنهم ينجونهم من عذاب الله، وينيلونهم ثوابه، وهم قد كفروا بالله وبرسله. ويحتمل وهو الظاهر أن المعنى: أفحسب الكفار بالله، أن يتخذوا من دون الله أولياء ينصرونهم، وينفعونهم من دون الله، ويدفعون عنهم الأذى؟ هذا حسبان باطل، وظن فاسد ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾ فبئس النزل نزلهم، وبئست جهنم،

ضيافتهم.

﴿ 103 – 106 ﴾ ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ قل يا محمد للناس هل أخبركم بأخسر الناس أعمالا على الإطلاق ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي بطل واضمحل كل ما عملوه ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ فكيف بأعمالهم التي يعلمون أنها باطلة؟ ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ ﴾ أي جحدوا الآيات القرآنية والآيات العيانية، الدالة على وجوب الإيمان به وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر ﴿ فَحَبِطَتْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ لأن الوزن فائدته، مقابلة الحسنات بالسيئات، والنظر في الراجح منها والمرجوح، وهؤلاء لا حسنات لهم لعدم وجود شرطها وهو الإيمان. لكن تعد أعمالهم وتحصى، ويقررون بها، ويخزون بها على رءوس الأشهاد، ثم يعذبون عليها و ﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ ﴾ لحقارتهم بكفرهم بآيات الله ﴿ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ واتخاذهم آياته ورسله هزوا ويسخرون منها.

﴿ 107 – 108 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ للذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، ويشمل هذا الوصف الدين بعقائده وأعماله، أصوله وفروعه الظاهرة والباطنة. ويحتمل أن المراد بجنات الفردوس أعلى الجنة وأوسطها وأفضلها. وأن هذا الثواب ينال من كمل فيه الإيمان والعمل الصالح، والأنبياء والمقربون. ويحتمل أن يراد بها جميع منازل الجنان، فيشمل هذا الثواب جميع طبقات أهل الإيمان من المقربين، والأبرار والمقتصدين، كل بحسب حاله، وهذا أولى المعنيين لعمومه، ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس. ولأن الفردوس يطلق على البستان المحتوي على الكرم أو الأشجار الملتفة، وهذا صادق على جميع الجنة ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ هذا هو تمام النعيم نعيم كامل لا ينقطع ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ أي تحولا ولا انتقالا، لأنهم لا يرون نعيما فوق ما هم فيه.

﴿ 109 ﴾ ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ ﴾ هذه الأبحر الموجودة في العالم ﴿ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ وأشجار الدنيا من أولها إلى آخرها أقلام ﴿ لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ وهذا شيء لا يحيط به أحد. وهذا من باب تقريب المعنى إلى

الأذهان، لأن هذه الأشياء مخلوقة، وجميع المخلوقات منقضية منتهية، وأما كلام الله فإنه من جملة صفاته، وصفاته غير مخلوقة ولا لها حد ولا منتهى، فأي سعة وعظمة تصورتها القلوب فالله فوق ذلك، وهكذا سائر صفات الله تعالى.

﴿ 110 ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد للكفار وغيرهم ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ أي لست بإله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزائن الله. بل عبد من عبيد ربي ﴿ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ وفضلت عليكم بالوحي ولأخبركم أنما إلهكم إله واحدلا شريك له، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره. وأدعوكم إلى العمل الذي يقربكم منه وينيلكم ثوابه ويدفع عنكم عقابه ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ وهو الموافق لشرع الله، من واجب ومستحب ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ يعمله خالصا لوجه الله تعالى. فالذي يجمع بين الإخلاص والمتابعة ينال ما يرجو ويطلب. وأما من عدا ذلك، فإنه خاسر في دنياه وأخراه، وقد فاته القرب من مولاه ونيل رضاه.

آخر تفسير سورة الكهف

ولله الحمد

19

مختصر تفسير سورة مريم

عدد آياتها 98

وهي مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿1 - 6﴾ ﴿ كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾

﴿ كهيعص ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها. هذا ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ الذي اجتباه الله تعالى واصطفاه لرسالته، وخصه بوحيه، فقام بذلك قيام أمثاله من المرسلين. فلما رأى من نفسه الضعف، ولم يكن أحد ينوب منابه في دعوة الخلق إلى ربهم، شكا إلى ربه ضعفه الظاهر والباطن ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ ليكون أكمل وأفضل وأتم إخلاصا ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ وإذا ضعف العظم، الذي هو عماد البدن، ضعف غيره ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ لأن الشيب دليل الضعف والكبر. فتوسل إلى الله تعالى بضعفه وعجزه، وهذا من أحب الوسائل إلى الله، لأنه يدل على التبري من الحول والقوة، وتعلق القلب بحول الله وقوته ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ لم تكن يا رب تردني خائبا ولا محروما من الإجابة، فسأل الذي أحسن سابقا أن يتمم إحسانه لاحقا ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ﴾ وإني خفت من يتولى على بني إسرائيل من بعد موتي، أن لا يقوموا بدينك حق القيام. وهذا فيه شفقة زكريا عليه السلام ونصحه، وأن طلبه للولد قصده مصلحة الدين ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ واشتكى أن امرأته ليست تلد أصلا، وأنه قد بلغ من الكبر عتيا، أي عمرا يندر معه وجود الشهوة والولد ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ وهذه الولاية، ولاية الدين، وميراث النبوة والعلم والعمل ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ عبدا صالحا ترضاه وتحببه إلى عبادك.

﴿ 7 - 11 ﴾ ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى ﴾ فبشره الله تعالى على يد الملائكة بـ "يحيى" وسماه الله له " يحيى " وكان اسما موافقا لمسماه: يحيا حياة حسية، فتتم به المنة، ويحيا حياة معنوية، وهي حياة القلب والروح، بالوحي والعلم والدين ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ لم يسم هذا الاسم قبله أحد ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ فالمانع من وجود الولد موجود بي وبزوجتي. وكأنه وقت دعائه، لم يستحضر هذا المانع لشدة الحرص على الولد. وحين قبلت دعوته تعجب من ذلك ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ الأمر مستغرب في العادة، وفي سنة الله في الخليقة ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ ولكن قدرة الله تعالى صالحة لإيجاد الأشياء بدون أسبابها فذلك هين عليه، ليس بأصعب من إيجاده قبل ولم يكن شيئا ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ يطمئن بها قلبي، وليس هذا شكا في خبر الله، وإنما طلب زيادة العلم، والوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين، فأجابه الله إلى طلبته رحمة به، فـ ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ منعه من الكلام مدة ثلاثة أيام وعجزه عنه من غير خرس ولا آفة من الأدلة على قدرة الله الخارقة للعوائد. إلا أنه ممنوع من الكلام الذي يتعلق بالآدميين وخطابهم. وأما التسبيح والتهليل والذكر ونحوه، فغير ممنوع منه. فاطمأن قلبه، واستبشر وامتثل لأمر الله له بالشكر بعبادته وذكره، فعكف في محرابه ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ﴾ وخرج على قومه منه ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ ﴾ بالإشارة والرمز ﴿ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ لأن البشارة بـ "يحيى" في حق الجميع مصلحة دينية.

﴿ 12 - 15 ﴾ ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾

﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ دل الكلام السابق على ولادة يحيى، وشبابه، وتربيته، فلما وصل إلى حالة يفهم فيها الخطاب أمره الله أن يأخذ الكتاب بقوة، وتمامه بالاجتهاد في حفظ ألفاظه وفهم معانيه والعمل بأوامره ونواهيه. فامتثل أمر ربه، وأقبل على الكتاب، فحفظه وفهمه، وجعل الله فيه من الذكاء والفطنة، ما لا يوجد في غيره ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ معرفة أحكام الله والحكم بها، وهو في حال صغره وصباه ﴿ وَ ﴾ آتيناه أيضا ﴿ حَنَانًا مِنْ لَدُنَّا ﴾ أي رحمة ورأفة ﴿ وَزَكَاةً ﴾ طهارة من الآفات والذنوب ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ ومن كان مؤمنا تقيا كان من أهل الجنة التي أعدت للمتقين ﴿ وَ ﴾ كان أيضا ﴿ بَرًّا بِوَالِدَيْهِ ﴾ محسنا إليهما بالقول والفعل ﴿ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ لم يكن متجبرا متكبرا عن عبادة الله، ولا مترفعا على عباد الله، ولا على والديه، جمع بين القيام بحق الله وحق خلقه ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ وذلك يقتضي سلامته من الشيطان والشر والعقاب، ومن أهل دار السلام.

﴿ 16 - 21 ﴾ ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ

رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ ﴾ الكريم ﴿ مَرْيَمَ ﴾ عليها السلام ﴿ إِذِ انْتَبَذَتْ ﴾ تباعدت عن أهلها ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ مما يلي الشرق عنهم ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ سترا ومانعا. وهذا التباعد منها واتخاذ الحجاب لتعتزل، وتنفرد بعبادة ربها، وتقنت له في حالة الإخلاص والخضوع والذل ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ وهو جبريل عليه السلام ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ كاملا من الرجال، في صورة جميلة، وهيئة حسنة، لا عيب فيه ولا نقص. لكونها لا تحتمل رؤيته على ما هو عليه، فلما رأته خافت أن يكون رجلا قد تعرض لها بسوء، فاعتصمت بربها، واستعاذت منه ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ ﴾ ألتجئ به وأعتصم برحمته، أن تنالني بسوء ﴿ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ إن كنت تخاف الله، وتعمل بتقواه، فاترك التعرض لي. فجمعت بين الاعتصام بربها، وبين تخويفه وترهيبه، وأمره بلزوم التقوى. وهي في تلك الحالة الخالية، والشباب، والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر، والبشرية الكاملة السوية، ولم ينطق لها بسوء، أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها، وهذا أبلغ ما يكون من العفة، والبعد عن الشر وأسبابه. وهذه العفة – خصوصا مع اجتماع الدواعي، وعدم المانع – من أفضل الأعمال. فلما رأى جبريل منها الروع والخيفة ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ إنما وظيفتي وشغلي تنفيذ رسالة ربي فيك ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ وهذه بشارة عظيمة بالولد وزكائه، فإن الزكاء يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة، واتصافه بالخصال الحميدة ﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ فتعجبت من وجود الولد من غير أب.

﴿ 21 ﴾ ﴿ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾

﴿ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ تدل على كمال قدرة الله تعالى، ولئلا يقف الناس مع الأسباب ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها ﴿ وَرَحْمَةً مِنَّا ﴾ ولنجعله رحمة منا به وبوالدته وبالناس ﴿ وَكَانَ ﴾ وجود عيسى عليه السلام على هذه الحالة ﴿ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾ قضاء سابقا، فلا بد من نفوذه، فنفخ جبريل عليه السلام في جيبها.

﴿ 22 – 26 ﴾ ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا * فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ ﴾ لما حملت بعيسى عليه السلام، خافت من الفضيحة فتباعدت عن الناس ﴿ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ فلما قرب ولادها ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ فلما آلمها وجع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من قالة الناس، وخافت عدم صبرها ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا

﴿ مَنْسِيًّا ﴾ قبل هذا الحادث، فلا تذكر. وهذا التمني بناء على ذلك المزعج، وليس في هذه الأمنية خير لها ولا مصلحة، وإنما الخير والمصلحة بتقدير ما حصل ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي ﴾ فحينئذ سكن الملك روعها وثبت جأشها وناداها من تحتها، لعله في مكان أنزل من مكانها، وقال لها: لا تحزني، لا تجزعي ولا تهتمي فـ ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ نهرا تشربين منه ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ طريا لذيذا نافعا ﴿ فَكُلِي ﴾ من التمر ﴿ وَاشْرَبِي ﴾ من النهر ﴿ وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ بعيسى، فهذا طمأنينتها من جهة السلامة من ألم الولادة، وحصول المأكل والمشرب والهني ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي ﴾ وأما من جهة قالة الناس، فأمرها أنها إذا رأت أحدا من البشر، أن تقول على وجه الإشارة ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾ سكوتا ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ لا تخاطبيهم بكلام، لتستريحي من قولهم وكلامهم. وكان معروفا عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة. وجعلت بيّنة هذا الخارق للعادة كلام عيسى في حال صغره.

﴿ 27 - 33 ﴾ ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ ﴾ فلما تعلت مريم من نفاسها أتت بعيسى تحمله غير مبالية ولا مكترثة، وذلك لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها، فقالوا ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ عظيما وخيما، وأرادوا بذلك البغاء حاشاها من ذلك ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ الظاهر أنه أخ لها حقيقي فنسبوها إليه، وكانوا يسمون بأسماء الأنبياء وليس هو هارون بن عمران أخا موسى، لأن بينهما قرونا كثيرة ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ لم يكن أبواك إلا صالحين سالمين من الشر، فكيف كنت على غير وصفهما ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ فأشارت لهم إليه، أي: كلموه. فتعجبوا من ذلك و ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ لأن ذلك لم تجر به عادة. فحينئذ قال عيسى عليه السلام، وهو في المهد صبي ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ فأخبرهم بأنه عبد الله، وأن الله علمه الكتاب، وجعله من جملة أنبيائه، فهذا من كماله لنفسه، ثم ذكر تكميله لغيره فقال ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ في أي مكان وأي زمان ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ أوصاني مدة حياتي بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عباده التي أجلها الزكاة، فأنا ممتثل لوصية ربي ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ ووصاني أيضا أن أبر والدتي فأحسن إليها غاية الإحسان ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا ﴾ متكبرا على الله، مترفعا على عباده ﴿ شَقِيًّا ﴾ في دنياي أو أخراي، فلم يجعلني كذلك بل جعلني مطيعا له خاضعا خاشعا متذللا، متواضعا لعباد الله. ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ من فضل ربي وكرمه، حصلت لي السلامة يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم بعثي، من الشر والشيطان والعقوبة. فهذه معجزة عظيمة وبرهان باهر على أنه رسول الله، وعبد الله حقا.

﴿34 - 36 ﴾ ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ ﴾ ذلك الموصوف بتلك الصفات عيسى بن مريموما قيل فيه مما يخالف هذا، فإنه مقطوع ببطلانه،وهو شكّ من قائله لا علم له به، ولهذا قال: ﴿ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ يشكون فيمارون بشكهم، ويجادلون بخرصهم، فمن قائل عنه: إنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن إفكهم وتقولهم علوا كبيرا.فـ ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ﴾ ما ينبغي ولا يليق، لأن ذلك من الأمور المستحيلة، لأنه الغني الحميد، المالك لجميع الممالك، فكيف يتخذ من عباده ومماليكه، ولدا ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزه وتقدس عن الولد والنقص ﴿ إِذَا قَضَى أَمْرًا ﴾ من الأمور الصغار والكبار، لم يمتنع عليه ولم يستصعب ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فإذا كان قدره ومشيئته نافذا في العالم العلوي والسفلي، فكيف يكون له ولد؟ وكيف يستبعد إيجاده عيسى من غير أب؟ ولهذا أخبر عيسى أنه عبد مربوب كغيره ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ الذي خلقنا وصورنا ونفذ فينا تدبيره ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾ أخلصوا له العبادة ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ طريق معتدل موصل إلى الله.

﴿ 37 - 38 ﴾ ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ * أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ أخبر أن الأحزاب أي فرق الضلال، من اليهود والنصارى وغيرهم اختلفوا في عيسى عليه السلام، فمنهم من قال: إنه الله، ومنهم من قال: إنه ابن الله. ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة. ومنهم كاليهود من لم يجعله رسولا، بل رماه بأنه ولد بغي. وكل هؤلاء مستحقون للوعيد الشديد ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالله ورسله وكتبه ﴿ مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ مشهد يوم القيامة، الذي يشهده الأولون والآخرون، أهل السماوات وأهل الأرض، الخالق والمخلوق[1] ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم! فيقرون بكفرهم وشركهم وأقوالهم ﴿ لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ وليس لهم عذر في هذا الضلال، لأنهم بين معاند ضال على بصيرة، وبين ضال متمكن من معرفة الحق والصواب، ولكنه راض بضلاله.

﴿ 39 - 40 ﴾ ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾

﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ الإنذار هو الإعلام بالمخوف والإخبار بصفاته على وجه الترهيب. وأحق ما ينذر به ويخوف به العباد، هو يوم الحسرة حين يقضى الأمر، فيجمع الأولون والآخرون في موقف واحد،

---

[1] وتأمل كيف قال: ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بعد قوله ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ ولم يقل "فويل لهم" لأن من الأحزاب المختلفين طائفة أصابت الصواب، فقالت في عيسى: "إنه عبد الله ورسوله" فآمنوا به، واتبعوه، فهؤلاه مؤمنون، غير داخلين في هذا الوعيد، فلهذا خص الله بالوعيد الكافرين.

ويسألون عن أعمالهم ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ والحال أنهم في الدنيا في غفلة عن هذا الأمر العظيم لا يخطر بقلوبهم، قد عمتهم الغفلة، وشملتهم السكرة، فهم لا يؤمنون بالله، ولا يتبعون رسله، قد ألهتهم دنياهم، وحالت بينهم وبين الإيمان شهواتهم المنقضية الفانية ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ وسيرث الله الأرض ومن عليها، ويرجعهم إليه، فيجازيهم بما عملوا فيها، وما خسروا فيها أو ربحوا، فمن فعل خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه.

﴿ 41 - 50 ﴾ ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا * فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ الصديق كثير الصدق، الصادق في أقواله وأفعاله وأحواله، المصدق بكل ما أمر بالتصديق به. وإبراهيم عليه السلام، هو أفضل الأنبياء كلهم بعد محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الأب الثالث للطوائف الفاضلة، واجتهد في دعوة أبيه، مهما أمكنه، وذكر الله مراجعته إياه، فقال ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ مهجنا له عبادة الأوثان ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ لم تعبد أصناما، ناقصة في ذاتها، وفي أفعالها، فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تملك لعابدها ولأنفسها نفعا ولا ضرا. ودل بتنبيهه وإشارته أن الذي يجب ويحسن عبادة من له الكمال وهو الله تعالى ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ يا أبت لا تحقرني وتقول إني ابنك، وإن عندك ما ليس عندي، بل قد أعطاني الله من العلم ما لم يعطك، والمقصود من هذا قوله ﴿ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ مستقيما معتدلا.وفي هذا من لطف الخطاب ولينه، ما لا يخفى، فإنه لم يقل: "يا أبت أنا عالم، وأنت جاهل" ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ لأن من عبد غير الله، فقد عبد الشيطان ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ فمن اتبع خطواته، فقد اتخذه وليا وكان عاصيا لله بمنزلة الشيطان. وفي ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن، إشارة إلى أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله، وتغلق عليه أبوابها، كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته، ولهذا ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ بسبب إصرارك على الكفر، وتماديك في الطغيان ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ فتنزل بمنازله الذميمة. فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه، بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتباعك إياي، وأنك إن أطعتني، اهتديت إلى صراط مستقيم، ثم نهاه عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار، ثم حذره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون وليا للشيطان، فلم ينجع هذا الدعاء بذلك الشقي، وأجاب بجواب جاهل ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ

﴿ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ فتبجح بآلهته من الحجر والأصنام، ولام إبراهيم عن رغبته عنها ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ ﴾ عن شتم آلهتي، ودعوتي إلى عبادة الله ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ قتلا بالحجارة ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ لا تكلمني زمانا طويلا. فأجابه الخليل جواب عباد الرحمن عند خطاب الجاهلين، ولم يشتمه، بل صبر، ولم يقابل أباه بما يكره ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾ ستسلم من خطابي إياك بالشتم والسب وبما تكره ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ رحيما رءوفا بحالي، معتنيا بي. ولا أزال أدعو الله لك بالهداية والمغفرة، بأن يهديك للإسلام الذي تحصل به المغفرة. فلما تبين له أنه عدو لله، وأنه لا يفيد فيه شيئا، ترك الاستغفار له، وتبرأ منه ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أنتم وأصنامكم ﴿ وَأَدْعُو رَبِّي ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة ﴿ عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ عسى الله أن يسعدني بإجابة دعائي، وقبول أعمالي ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ لأن مفارقة الإنسان لوطنه ومألفه وأهله وقومه من أشق شيء على النفس ﴿ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ فمن ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه ﴿ وَكُلًّا ﴾ من إسحاق ويعقوب ﴿ جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ فحصل له هبة هؤلاء الصالحين المرسلين إلى الناس، خصهم الله بوحيه، واصطفاهم من العالمين ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ ﴾ لإبراهيم وابنيه ﴿ مِنْ رَحْمَتِنَا ﴾ وهذا يشمل جميع ما وهب الله لهم من العلوم النافعة والأعمال الصالحة والذرية الكثيرة المنتشرة، الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ وهذا أيضا من الرحمة التي وهبها لهم، لأن الله وعد كل محسن أن ينشر له ثناء صادقا بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين.

﴿ 51 - 53 ﴾ ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا *وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ﴾ واذكر في هذا القرآن العظيم موسى بن عمران، على وجه التبجيل له والتعظيم، والتعريف بمقامه الكريم ﴿ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا ﴾ قرئ بفتح اللام، على معنى أن الله تعالى اختاره واستخلصه، واصطفاه على العالمين. وقرئ بكسرها، على معنى أنه كان مخلص لله تعالى، في جميع أعماله، وأقواله، ونياته، والمعنيان متلازمان ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ جمع الله له بين الرسالة والنبوة، فالرسالة تقتضي تبليغ كلام المرسل، وتبليغ جميع ما جاء به من الشرع، دقه وجله. والنبوة تقتضي إيحاء الله إليه وتخصيصه بإنزال الوحي إليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق، بل خصه الله من أنواع الوحي، بأجل أنواعه وأفضلها، وهو: تكليمه تعالى وتقريبه مناجيا لله تعالى، وبهذا اختص من بين الأنبياء، بأنه كليم الرحمن، ولهذا قال ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ الأيمن من موسى في وقتمسيره، أو الأيمن أي الأبرك من اليمن والبركة ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك، وفي هذه إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه، من النداء والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافا لمن أنكر ذلك، من الجهمية، والمعتزلة، ومن نحا نحوهم ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ وهب له من رحمته أخاه هارون نبيا. فنبوة هارون تابعة لنبوة موسى عليهما السلام، فساعده على أمره، وأعانه عليه.

﴿ 54 - 55 ﴾ ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾ واذكر في القرآن الكريم هذا النبي العظيم الذي خرج منه الشعب العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذي منهم سيد ولد آدم ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ لا يعد وعدا إلا وفى به. وهذا شامل للوعد الذي يعقده مع الله أو مع العباد، ولهذا لما وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه له ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ ثم وصفه بالرسالة والنبوة، التي هي أكبر منن الله على عبده، وأهلها من الطبقة العليا من الخلق ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ كان مقيما لأمر الله على أهله، فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد ﴿ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ ارتضاه الله وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربينبسبب امتثاله لمراضي ربه واجتهاده فيما يرضيه.

﴿ 56 - 57 ﴾ ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ ﴾ اذكر في الكتب على وجه التعظيم والإجلال، والوصف بصفات الكمال ﴿ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ جمع الله له بين الصديقية الجامعة للتصديق التام، والعلم الكامل، واليقين الثابت، والعمل الصالح، وبين اصطفائه لوحيه، واختياره لرسالته ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ رفع الله ذكره في العالمين، فكان عالي الذكر، عالي المنزلة.

﴿ 58 ﴾ ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ ﴾ أنعم الله عليهم نعمة لا تلحق من النبوة والرسالة، وهم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين أنعمت عليهم، وأن من أطاع الله، كان مَعَهم. وبعضهم ﴿ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ أي من ذريته ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ ﴾ فهذه خير بيوت العالم ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ﴾ اصطفاهم الله، واختارهم، واجتباهم ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ ﴾ وكان حالهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة، ما أوجب لهم البكاء والإنابة، والسجود لربهم.وفي إضافة الآيات إلى اسمه الرحمن دلالة على أن آياته، من رحمته بعباده وإحسانه إليهم حيث هداهم بها إلى الحق.

﴿ 59 - 63 ﴾ ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا * جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ

كَانَ تَقِيًّا ﴾

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ لما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء المخلصون المتبعون لمراضي ربهم، ذكر أنه خلف من بعدهم خلف رجعوا إلى الخلف والوراء، فـ ﴿ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ ﴾ التي أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهاونوا بها وضيعوها، ﴿ وَ ﴾ السبب الداعي لذلك أنهم ﴿ اتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾ فصارت هممهم منصرفة إليها ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ عذابا مضاعفا شديدا، ثم استثنى تعالى فقال ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴾ عن الشرك والبدع والمعاصي، فأقلع عنها وندم عليها، وعزم عزما جازما أن لا يعاودها ﴿ وَآمَنَ ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ وهو العمل الذي شرعه الله على ألسنة رسله، إذا قصد به وجهه ﴿ فَأُولَئِكَ ﴾ الذي جمعوا بين التوبة والإيمان، والعمل الصالح ﴿ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ﴾ المشتملة على النعيم المقيم ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ من أعمالهم، بل يجدونها كاملة مضاعفا عددها ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ ليست كسائر الجنات، جنات إقامة لا ظعن فيها، ولا حول ولا زوال ﴿ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ ﴾ وعدها الرحمن وأضافها إلى اسمه لأن فيها الرحمة والإحسان. وفي إضافتها إلى رحمته، ما يدل على استمرار سرورها، وأنها باقية ببقاء رحمته ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ يحتمل أن تكون متعلقه بـ ﴿ وَعَدَ الرَّحْمَنُ ﴾ فيكون المعنى أن الله وعدهم إياها وعدا غائبا، لم يشاهدوه ولم يروه فآمنوا بها. ويحتمل أن تكون متعلقة بعباده أي الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه، فهذه عبادتهم ولم يروه. ويحتمل أيضا أن المعنى هذه الجنات التي وعدها الرحمن عباده، من الأمور التي لا تدركها الأوصاف، ولا يعلمها أحد إلا الله. والمعاني كلها صحيحة ثابتة، ولكن الاحتمال الأول أولى، بدليل قوله ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴾ لابد من وقوعه، فإنه لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ كلاما لاغيا لا فائدة فيه، ولا ما يؤثم، فلا يسمعون فيها شتما، ولا عيبا، ولا قولا فيه معصية لله ﴿ إِلَّا سَلَامًا ﴾ إلا الأقوال السالمة من كل عيب، فليس فيها إلا السلام التام في جميع الوجوه ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا ﴾ أرزاقهم من المآكل والمشارب، وأنواع اللذات، مستمرة حيثما طلبوا، وفي أي: وقت رغبوا، ومن تمامها ولذاتها وحسنها أن تكون ﴿ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ ليعظم وقعها ويتم نفعها ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ نورثها المتقين.

﴿ 64 - 65 ﴾ ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ ليس لنا من الأمر شيء، فنحن عبيد مأمورون. ونزلت بعدما استبطأ النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام مرة في نزوله إليه فقال له: " لو تأتينا أكثر مما تأتينا " -تشوقا إليه، وتوحشا لفراقه، وليطمئن قلبه بنزوله- فأنزل الله تعالى الآية على لسان جبريل ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ له الأمور الماضية والمستقبلة والحاضرة، في الزمان والمكان ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ لم يكن لينساك ويهملك. هو الذي أراد ذلك لما له من الحكمة فيه ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ فربوبيته للسماوات والأرض، وكونهما على أحسن نظام وأكمله، ليس فيه غفلة ولا إهمال ولا سدى ولا باطل، برهان قاطع على علمه الشامل،

فلا تشغل نفسك بذلك، بل اشغلها بما ينفعك ﴿ فَاعْبُدْهُ ﴾ وحده لا شريك له ﴿ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ اصبر نفسك عليها وجاهدها ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ هل تعلم لله مماثلا من المخلوقين. وهذا استفهام بمعنى النفي، المعلوم بالعقل.

﴿66 - 67 ﴾ ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ ﴾ يقول كل منكر للبعث مستفهما على وجه النفي والعناد والكفر ﴿ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ كيف يعيدني الله حيا بعد الموت، وبعد ما كنت رميما. ولهذا ذكر تعالى برهانا قاطعا واضحا يعرفه كل أحد على إمكان البعث ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ أو لا يستذكر حالته الأولى، وأن الله خلقه أول مرة، ولم يك شيئا. وفي هذا دعوة للنظر بالدليل العقلي وبألطف خطاب، وأن إنكار ذلك مبني على غفلة منه عن حاله الأولى، وإلا فلو تذكرها وأحضرها في ذهنه لم ينكر ذلك.

﴿ 68 - 70 ﴾ ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا ﴾

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ أقسم الله تعالى وهو أصدق القائلين - بربوبيته، ليحشرن هؤلاء المنكرين للبعث، هم وشياطينهم فيجمعهم لميقات يوم معلوم ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ جاثين على ركبهم من شدة الأهوال منتظرين لحكم الكبير المتعال ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴾ ثم لننزعن من كل طائفة وفرقة من الظالمين المشتركين في الظلم والكفر والعتو أشدهم عتوا، وأعظمهم ظلما، وأكبرهم كفرا، فيقدمهم إلى العذاب، ثم هكذا يقدم إلى العذاب، الأغلظ إثما، فالأغلظ وهم في تلك الحال متلاعنون ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا ﴾ علمنا محيط بمن هو أولى صليا بالنار، قد علمناهم، وعلمنا أعمالهم واستحقاقها وقسطها من العذاب.

﴿ 71 - 72 ﴾ ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ وهذا خطاب لسائر الخلائق، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، أنه ما منهم من أحد، إلا سيرد النار، حكما حتمه الله على نفسه، وأوعد به عباده، فلا بد من نفوذه، ولا محيد عن وقوعه. واختلف في معنى الورود، فقيل ورودها، حضورها للخلائق كلهم، حتى يحصل الانزعاج من كل أحد، ثم بعد، ينجي الله المتقين. وقيل ورودها، دخولها، فتكون على المؤمنين بردا وسلاما. وقيل الورود، هو المرور على

الصراط، الذي هو على متن جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يسعى، ومنهم من يمشي مشيا، ومنهم من يزحف زحفا، ومنهم من يخطف فيلقى في النار، كل بحسب تقواه، ولهذا قال ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ الله تعالى بفعل المأمور، واجتناب المحظور ﴿ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم.

﴿ 73 - 74 ﴾ ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴾

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وإذا تتلى على هؤلاء الكفار آياتنا بينات واضحات الدلالة على وحدانية الله وصدق رسله، استهزءوا بها وبمن آمن بها، واستدلوا بحسن حالهم في الدنيا، على أنهم خير من المؤمنين، فقالوا معارضين للحق ﴿ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ ﴾ نحن والمؤمنون ﴿ خَيْرٌ مَقَامًا ﴾ في الدنيا، من كثرة الأموال والأولاد، وتوفر الشهوات ﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ أي مجلسا. أي استنتجوا من هذه المقدمة الفاسدة أنهم أكثر مالا وأولادا، وقد حصلت لهم أكثر مطالبهم من الدنيا، ومجالسهم وأنديتهم مزخرفة مزوقة. وهذا دليل في غاية الفساد، فكثرة الأموال والأولاد، وحسن المنظر، كثيرا ما يكون سببا لهلاك صاحبه، وشقائه، وشره، ولهذا قال تعالى ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا ﴾ متاعا ﴿ وَ ﴾ أحسن ﴿ رِئْيًا ﴾ أحسن مرأى ومنظرا، من غضارة العيش. وعلم من هذا أن الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا من أفسد الأدلة وأنه من طرق الكفار.

﴿ 75 ﴾ ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ من كان في الضلالة ورضيها لنفسه وسعى فيها، فإن الله يمده منها، ويزيده فيها حبا عقوبة له على اختيارها على الهدى ﴿ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ ﴾ بقتل أو غيره ﴿ وَإِمَّا السَّاعَةَ ﴾ التي هي باب الجزاء على الأعمال ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا ﴾ فحينئذ يتبين لهم بطلان دعواهم ويتيقنون أنهم أهل الشر ﴿ وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئا.

﴿ 76 ﴾ ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ ذكر أنه يزيد المهتدين هداية من فضله عليهم ورحمته، والهدى يشمل العلم النافع، والعمل الصالح ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ الأعمال الباقية التي لا تنقطع إذا انقطع غيرها، ولا تضمحل، هي الصالحات منها. فهذه الأعمال ﴿ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾ خير عند الله ثوابها وأجرها، وكثير للعاملين نفعها وردها. ومناسبة ذكر الباقيات الصالحات–والله أعلم– أنه لما ذكر أن الظالمين جعلوا أحوال الدنيا علامة لحسن حال صاحبها، أخبر هنا أن الأمر ليس كما زعموا، بل العمل الذي هو عنوان السعادة ومنشور الفلاح، هو

العمل بما يحبه الله ويرضاه.

﴿ 77 - 82 ﴾ ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا * وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا * وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ أفلا تتعجب من حالة هذا الكافر، الذي جمع بين كفره بآيات الله ودعواه الكبيرة أنه سيؤتى في الآخرة مالا وولدا، أي يكون من أهل الجنة. وهذه الآية وإن كانت نازلة في كافر معين فإنها تشمل كل كافر، زعم أنه على الحق، وأنه من أهل الجنة، قال الله توبيخا له وتكذيبا ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ ﴾ أحاط علمه بالغيب، حتى علم ما يكون ﴿ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ أنه نائل ما قاله. لم يكن شيء من ذلك، فعلم أنه قائل ما لا علم له به. ولهذا قال تعالى ﴿ كَلَّا ﴾ ليس الأمر كما زعم، فليس للقائل اطلاع على الغيب، ولا اتخذ عند الرحمن عهدا، ولكنه يستحق ضد ما تقوله، وأن قوله مكتوب، محفوظ، ليجازى عليه ويعاقب ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾ نزيده من أنواع العقوبات، كما ازداد من الغي والضلال ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ نرثه ماله وولده، فينتقل من الدنيا فردا، بلا مال ولا أهل ولا أنصار ولا أعوان ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ فيرى من وخيم العذاب وأليم العقاب، ما هو جزاء أمثاله من الظالمين ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ أي لينالوا بها العز ويمتنعون بها من عذاب الله ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ أي ليس الأمر كما ظنوا بل ينكرون أنهم عبدوا الأصنام ، أو تجحد الآلهة عبادة المشركين لها﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أي أعوانا في خصومتهم وتكذيبهم. كأنه قال كلا سيكفرون بعبادتهم، يعني الآلهة[2].

﴿ 83 - 84 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا * فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ وهذا من عقوبة الكافرين أنهم لما لم يعتصموا بالله ووالوا أعداءه من الشياطين سلطهم عليهم، وقيضهم لهم، فجعلت الشياطين تؤزهم إلى المعاصي أزا، فيوسوسون لهم ويزينون لهم الباطل ويقبحون لهم الحق ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ على هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ لهم أياما معدودة لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون.

﴿ 85 - 87 ﴾ ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا * لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين المتقين والمجرمين، وأن المتقين له يحشرهم إلى موقف القيامة مكرمين مبجلين معظمين ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ وأما المجرمون فإنهم يساقون إلى جهنم وردا أي عطاشا، وهذا أبشع ما يكون من الحالات سوقهم على وجه الذل والصغار إلى أفظع

[2] تفسير الآيتين الأخيرتين من تفسير القرطبي.

عقوبة وهو جهنم، في حال ظمئهم ونصبهم يستغيثون فلا يغاثون، ويدعون فلا يستجاب لهم، ويستشفعون فلا يشفع لهم، ولهذا قال ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ ﴾ ليست الشفاعة ملكهم، وإنما هي لله تعالى ﴿ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ فآمن به وبرسله واتبعهم، فإنه ممن ارتضاه الله، وتحصل له الشفاعة. وسمى الله الإيمان به واتباع رسله عهدا، لأنه عهد في كتبه وعلى ألسنة رسله، بالجزاء الجميل لمن اتبعهم.

﴿ 88 - 95 ﴾ ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ وهذا تقبيح وتشنيع لقول المعاندين الجاحدين، الذين زعموا أن الرحمن اتخذ ولدا كقول النصارى: المسيح ابن الله، واليهود: عزير ابن الله، والمشركين: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ عظيما وخيما ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ ﴾ على عظمتها وصلابتها ﴿ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ من هذا القول ﴿ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ﴾ منه، تتصدع وتنفطر ﴿ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ تندك الجبال ﴿ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ من أجل هذه الدعوى القبيحة تكاد هذه المخلوقات، أن يكون منها ما ذكر. والحال أنه ﴿ وَمَا يَنْبَغِي ﴾ لا يليق ولا يكون ﴿ لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ وذلك لأن اتخاذه الولد يدل على نقصه واحتياجه، وهو الغني الحميد. والولد أيضا، من جنس والده، والله تعالى لا شبيه له ولا مثل ولا سمي ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ ذليلا منقادا، غير متعاص ولا ممتنع، الملائكة، والإنس، والجن وغيرهم، الجميع مماليك، متصرف فيهم، ليس لهم من الملك شيء، ولا من التدبير شيء، فكيف يكون له ولد، وهذا شأنه وعظمة ملكه ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ لقد أحاط علمه بالخلائق كلهم، أهل السماوات والأرض، وأحصاهم وأحصى أعمالهم، فلا يضل ولا ينسى، ولا تخفى عليه خافية ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ لا أولاد، ولا مال، ولا أنصار، ليس معه إلا عمله، فيجازيه الله ويوفيه حسابه.

﴿ 96 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ من نعمه على عباده، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح وعدهم أنه ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ أي محبة ووددا في قلوب أوليائه، وأهل السماء والأرض.

﴿ 97 - 98 ﴾ ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ يسر الله هذا القرآن الكريم بلسان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، يسر ألفاظه ومعانيه، ليحصل المقصود منه والانتفاع به ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ﴾ بالترغيب في المبشر به من الثواب العاجل

والآجل، وذكر الأسباب الموجبة للبشارة ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ شديدين في باطلهم، أقوياء في كفرهم، فتنذرهم. فتقوم عليهم الحجة، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة. ثم توعدهم بإهلاك المكذبين قبلهم، فقال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ من المعاندين المكذبين، لما استمروا في طغيانهم، أهلكهم الله فليس لهم من باقية. ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ والركز هو الصوت الخفي، أي لم يبق منهم عين ولا أثر، بل بقيت أخبارهم عبرة للمعتبرين.

تم مختصر تفسير سورة مريم

ولله الحمد والشكر

20

مختصر تفسير سورة طه

عدد آياتها 135

وهي مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 8 ﴾ ﴿ طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى * تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾

﴿ طه ﴾ من جملة الحروف المقطعة، المفتتح بها كثير من السور، وليست اسما للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ ليس المقصود بالوحي، وإنزال القرآن عليك، وشرع الشريعة لتشقى بذلك ويكون في الشريعة تكليف يشق على المكلفين. وإنما الوحي والقرآن والشرع ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً ﴾ والتذكرة لشيء كان موجودا، إلا أن صاحبه غافل عنه، أو غير مستحضر لتفصيله، وخص بالتذكرة ﴿ لِمَنْ يَخْشَى ﴾ لأن غيره لا ينتفع به، وكيف ينتفع به من لم يؤمن بجنة ولا نار؟ ﴿ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا ﴾ ذكر جلالة هذا القرآن العظيم بأنه تنزيل خالق الأرض والسماوات، المدبر لجميع المخلوقات، أي: فاقبلوا تنزيله بغاية الإذعان والمحبة والتسليم، وعظموه نهاية التعظيم ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ وهو أرفع المخلوقات وأعظمها وأوسعها ﴿ اسْتَوَى ﴾ استواء يليق بجلاله، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من ملك وإنسي وجني، وحيوان، وجماد، ونبات ﴿ وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾ الأرض، فالجميع ملك لله تعالى ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ ﴾ الكلام الخفي ﴿ وَأَخْفَى ﴾ من السر الذي في القلب، ولم ينطق به. أو السر ما خطر على القلب وأخفى من ذلك ما لم يخطر. والمعنى أن علمه تعالى محيط بجميع الأشياء، دقيقها، وجليلها، خفيها، وظاهرها، فسواء جهرت بقولك أو أسررته، فالكل سواء، بالنسبة لعلمه تعالى ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا معبود بحق، ولا مألوه إلا هو ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنى، من حسنها أنها كلها أسماء دالة على المدح، ليست أعلاما محضة وإنما هي أسماء وأوصاف، ومن حسنها أنها دالة على الصفات الكاملة، وأن له من كل صفة أكملها وأعمها وأجلها، ومن حسنها أنه أمر العباد أن يدعوه بها، لأنها وسيلة مقربة إليه يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من يحفظها، ويحب من يبحث عن معانيها ويتعبد له بها.

﴿ 9 - 12 ﴾ ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا

بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على وجه الاستفهام التقريري والتعظيم لهذه القصة والتفخيم لها. في حال موسى عليه السلام التي هي مبدأ سعادته، ومنشأ نبوته ﴿ إِذْ رَأَى نَارًا ﴾ من بعيد، وكان قد ضل الطريق، وأصابه البرد، ولم يكن عنده ما يتدفأ به في سفره ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ﴾ أبصرت ﴿ نَارًا ﴾ وكان ذلك في جانب الطور الأيمن ﴿ لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ تصطلون به ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ من يهديني الطريق. وكان مطلبه النور الحسي والهداية الحسية فوجد ثمّ النور المعنوي، نور الوحي، والهداية الحقيقية الموصلة إلى جنات النعيم، فحصل له أمر لم يكن في حسابه، ولا خطر بباله ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ وصل إلىالنار التي آنسها من بعيد، وكانت في الحقيقة نورا، ﴿ نُودِيَ يَا مُوسَى ﴾ أي ناداه الله ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ أخبره أنه ربه، وأمره أن يستعد ويتهيأ لمناجاته، ويلقي نعليه، لأنه بوادي طوى المقدس المطهر المعظم.

﴿ 13 – 15 ﴾ ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ*إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي*إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ ﴾ تخيرتك واصطفيتك من الناس ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ ألق سمعك للذي أوحي إليك، فإنه حقيق بذلك، لأنه أصل الدين ومبدأه، وعماد الدعوة الإسلامية ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ المستحق الألوهية المتصف بها ﴿ فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ خص الصلاة بالذكر وإن كانت داخلة في العبادة، لفضلها وشرفها، وتضمنها عبودية القلب واللسان والجوارح ﴿ لِذِكْرِي ﴾ اللام للتعليل أي أقم الصلاة لأجل ذكرك إياي، لأن ذكره تعالى أجلّ المقاصد ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ﴾ لا بد من وقوعها ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ أخفى علمها عن الخلائق كلهم، فلا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والحكمة في إتيان الساعة ﴿ لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ من الخير والشر، فهي الباب لدار الجزاء.

﴿ 16 ﴾ ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا ﴾ فلا يصدك ويشغلك عن الإيمان بالساعة، والجزاء، والعمل لذلك، ﴿ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ من كان كافرا بها، غير معتقد لوقوعها ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ متبعا في ذلك هواه، ليس قصده الوصول إلى الحق، وإنما قصاراه اتباع هواه، فإياك أن تصغي إلى من هذه حاله ﴿ فَتَرْدَى ﴾ تهلك وتشقى، إن اتبعت طريق من يصد عنها.

﴿ 17 - 23 ﴾ ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ أخرج الكلام بطريق الاستفهام لزيادة الاهتمام في هذا الموضع ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ﴾ ذكر فيها هاتين المنفعتين ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ ﴾ مقاصد ﴿ أُخْرَى ﴾ غير هذين الأمرين. وكان السؤال محتملا عن السؤال عن عينها أو منفعتها أجابه بعينها، ومنفعتها فـ ﴿ قَالَ ﴾ الله له ﴿ أَلْقِهَا يَا مُوسَى* فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ انقلبت بإذن الله ثعبانا عظيما، فولى موسى هاربا خائفا، ولم يعقب، وفي وصفها بأنها تسعى، إزالة لوهم يمكن وجوده، وهو أن يظن أنها تخييل لا حقيقة، فكونها تسعى يزيل هذا الوهم فـ ﴿ قَالَ ﴾ الله لموسى ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾ ليس عليك منها بأس ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ هيئتها وصفتها، إذ كانت عصا، فامتثل موسى أمر الله إيمانا به وتسليما، فأخذها، فعادت عصاه التي كان يعرفها ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ ﴾ أدخل يدك في جيبك، وضم عليك عضدك، الذي هو جناح الإنسان ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ بياضا ساطعا، من غير عيب ولا برص ﴿ آيَةً أُخْرَى. لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ لأجل أن نريك من آياتنا الكبرى، الدالة على صحة رسالتك وحقيقة ما جئت به، فيطمئن قلبك ويزداد علمك، وتثق بوعد الله لك بالحفظ والنصرة، ولتكون حجة وبرهانا لمن أرسلت إليهم.

﴿ 24 - 36 ﴾ ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾

﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ تمرد وزاد على الحد في الكفر والفساد والعلو في الأرض، والقهر للضعفاء، حتى إنه ادعى الربوبية والألوهية قبحه الله ﴿ قَالَ ﴾ حين أرسل إلى هذا الجبار العنيد وعلم أنه تحمل حملا عظيما، فامتثل أمر ربه، وتلقاه بالانشراح والقبول، وسأله المعونة وتيسير الأسباب ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ وسعه وأفسحه، لأتحمل الأذى القولي والفعلي، ولا يتكدر قلبي بذلك، ولا يضيق صدري ﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ سهل علي كل أمر أسلكه وهون علي ما أمامي من الشدائد ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي* يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام، كما قال المفسرون، فسأل الله أن يحل منه عقدة، يفقهوا ما يقول فيحصل المقصود التام من المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴾ معينا يعاونني، ويؤازرني، وسأل أن يكون من أهله، لأنه أحق ببر الإنسان قرابته، ثم عينه بسؤاله فقال: ﴿ هَارُونَ أَخِي* اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾ قوني به، وشد به ظهري ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ في النبوة، بأن تجعله نبيا رسولا، كما جعلتني ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا* وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ سأل الله أن يجعل أخاه معه، يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى، فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح والتهليل، وغيره من العبادات ﴿ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ تعلم حالنا

وضعفنا وعجزنا وافتقارنا إليك في كل الأمور، وأنت أبصر بنا من أنفسنا وأرحم، فمن علينا بما سألناك، وأجب لنا فيما دعوناك. فـ ﴿ قَالَ ﴾ الله ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ أعطيت جميع ما طلبت، فسنشرح صدرك، ونيسر أمرك، ونحل عقدة من لسانك، يفقهوا قولك، ونشد عضدك بأخيك هارون.

﴿ 37 – 41 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴾ حيث ألهمنا أمك ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ ﴾ وقت الرضاع فأخفته خوفا من فرعون، لأنه أمر بذبح أبناء بني إسرائيل، وقذفته في التابوت ﴿ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ أي شط نيل مصر ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ فأمر الله اليم أن يلقيه في الساحل ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴾ وقيض أن يأخذه أعدى الأعداء لله ولموسى، ويتربى في أولاده، ويكون قرة عين لمن رآه، ولهذا قال ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾ فكل من رآه أحبه ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ ولتتربى على نظري وفي حفظي وكلاءتي. ولما وقع موسى في يد عدوه، قلقت أمه قلقا شديدا، وأصبح فؤادها فارغا، وكادت تخبر به، لولا أن الله ثبتها وربط على قلبها. ثم حرم الله على موسى المراضع. فلا يقبل ثدي امرأة قط ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ ﴾ فجاءت أخت موسى ﴿ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ﴾ هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾ ليكون مآله إلى أمه فترضعه، ويكون عندها، مطمئنة قريرة العين ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾ وهو القبطي لما دخل المدينة وقت غفلة من أهلها، وجد رجلين يقتتلان، واحد من شيعة موسى، والآخر من عدوه قبطي ﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾ فدعا الله وسأله المغفرة، فغفر له، ثم فر هاربا لما سمع أن الملأ طلبوه، يريدون قتله. فنجاه الله من الغم من عقوبة الذنب، ومن القتل ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ اختبرناك، وبلوناك، فوجدناك مستقيما في أحوالك أو نقلناك في أحوالك، وأطوارك، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ حين فر هاربا من فرعون وملئه حين أرادوا قتله، فتوجه إلى مدين ووصل إليها وتزوج هناك، ومكث عشر سنين، أو ثمان سنين ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ جئت مجيئا قد مضى به القدر، وعلمه الله وأراده في هذا الوقت وهذا الزمان وهذا المكان، وهذا يدل على كمال اعتناء الله بكليمه موسى عليه السلام ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ أجريت عليك صنائعي ونعمي، وحسن عوائدي، وتربيتي.

﴿ 42 – 46 ﴾ ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ

﴿وَأَرَى﴾

﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ ﴾ هارون ﴿ بِآيَاتِي ﴾ الآيات التي مني، الدالة على الحق كاليد والعصا ونحوها، في تسع آيات إلى فرعون وملئه ﴿ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ لا تفترا، ولا تكسلا، عن مداومة ذكري بل استمرَّا عليه، والزماه كما وعدتما بذلك ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ جاوز الحد، في كفره وطغيانه، وظلمه وعدوانه ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا ﴾ سهلا لطيفا ﴿ لَعَلَّهُ ﴾ بسبب القول اللين ﴿ يَتَذَكَّرُ ﴾ ما ينفعه فيأتيه ﴿ أَوْ يَخْشَى ﴾ ما يضره فيتركه ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا ﴾ يبادرنا بالعقوبة والإيقاع بنا، قبل أن تبلغه رسالاتك، ونقيم عليه الحجة ﴿ أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ يتمرد عن الحق، ويطغى بملكه وسلطانه وجنده وأعوانه ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا ﴾ أن يفرط عليكما ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ أنتما بحفظي ورعايتي، أسمع أقوالكما، وأرى جميع أحوالكما، فلا تخافا منه.

﴿ 47 - 48 ﴾ ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ فأتياه بهذين الأمرين: دعوته إلى الإسلام، وتخليص هذا الشعب الشريف بني إسرائيل من قيده وتعبيده لهم ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾ تدل على صدقنا ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ من اتبع الصراط المستقيم حصلت له السلامة في الدنيا والآخرة ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا ﴾ خبر من عند الله، لا من عند أنفسنا ﴿ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ كذب بأخبار الله، وأخبار رسله، وتولى عن الانقياد لهم واتباعهم، وهذا فيه الترغيب لفرعون بالإيمان والتصديق واتباعهما، والترهيب من ضد ذلك.

﴿ 49 - 55 ﴾ ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ فأجاب موسى بجواب شاف كاف واضح، فـ ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به ﴿ ثُمَّ هَدَى ﴾ فكل مخلوق تجده يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه، حتى إن الله تعالى أعطى الحيوان البهيم من العقل، ما يتمكن به على ذلك. لما لم يمكن فرعون أن يعاند هذا الدليل القاطع، عدل إلى المشاغبة ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ ما شأنهم، وما خبرهم؟ فـ ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ قد أحصى أعمالهم من خير وشر، وكتبه في اللوح المحفوظ، فلا يضل عن شيء منها، ولا ينسى ما

علمه منها. ومضمون ذلك، أنهم قدموا أعمالهم وسيجازون عليها، فلا معنى لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم. ثم استطرد في هذا الدليل القاطع، بذكر كثير من نعمه وإحسانه الضروري، فقال ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ فراشا بحالة تتمكنون من السكون فيها والقرار ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ نفذ لكم الطرق الموصلة من أرض إلى أرض ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أنزل المطر ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ وأنبت بذلك جميع أصناف النوابت ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾ وسياقها على وجه الامتنان، ليدل ذلك على أن الأصل في جميع النوابت الإباحة، فلا يحرم منهم إلا ما كان مضرا ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ لذوي العقول الرزينة الذين ينظرون إليها نظر اعتبار، وأما من عداهم، فإنحظهم منها حظ البهائم، يأكلون ويشربون وقلوبهم لاهية. ثم أخبر أنه خلقنا من الأرض وفيها يعيدنا إذا متنا فدفنا فيها، ومنها يخرجنا تارة أخرى، فكما أوجدنا منها من العدم، وقد علمنا ذلك وتحققناه، فسيعيدنا بالبعث منها بعد موتنا، ليجازينا بأعمالنا التي عملناها عليها.وهذان دليلان عقليان واضحان: إخراج النبات من الأرض بعد موتها، وإخراج المكلفين منها.

﴿ 56 - 61 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى * قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى * فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى * قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ يخبر تعالى أنه أرى فرعون من الآيات والعبر جميع أنواعها فما استقام وإنما كذب وتولى وجادل بالباطل ليضل الناس فـ ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴾ زعم أن هذه الآيات التي أراه إياها موسى سحر لإخراجهم من أرضهم وذلك ليبغضوه. وقال ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ﴾ مثل سحرك فأمهلنا ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ مستو علمنا وعلمك به، أو مكانا مستويا معتدلا ليتمكن من رؤية ما فيه فـ ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ﴾ وهو عيدهم، الذي يتفرغون فيه ويقطعون شواغلهم ﴿ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ يجمعون كلهم في وقت الضحى، وإنما سأل موسى ذلك، لأن يوم الزينة ووقت الضحى فيه يحصل فيه من كثرة الاجتماع، ورؤية الأشياء على حقائقها، ما لا يحصل في غيره ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ وكان السحر إذ ذاك متوفرا وعلمه علما مرغوبا فيه، فجمع خلقا كثيرا من السحرة ﴿ ثُمَّ أَتَى ﴾ كل منهما للموعد، واجتمع الناس للموعد.فحين اجتمعوا من جميع البلدان ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى ﴾ وعظهم موسى عليه السلام وأقام عليهم الحجة ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ ﴾ لا تنصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحركم وتغالبون الحق ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴾ تفترون على الله الكذب فيستأصلكم بعذاب من عنده.

﴿ 62 - 64 ﴾ ﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ

أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾

﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴾ فحينئذ أسروا فيما بينهم النجوى، وأنهم يتفقون على مقالة واحدة، لينجحوا في مقالهم وفعالهم، وليتمسك الناس بدينهم. والنجوى التي أسروها فسرها بقوله ﴿ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا ﴾ كمقالة فرعون السابقة، فإما أن يكون ذلك توافقا من فرعون والسحرة على هذه المقالة من غير قصد، وإما أن يكون تلقينا منه لهم مقالته، التي صمم عليها وأظهرها للناس، وزادوا على قول فرعون أن قالوا ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾ طريقة السحر ليكون له الفخر والصيت والشهرة، ولهذا قالوا ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ﴾ أظهروه دفعة واحدة متظاهرين متساعدين فيه ﴿ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾.

﴿ 65 - 73 ﴾ ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى *قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى *وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى *فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى * قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ ﴾ عصاك ﴿ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ خيّروه فـ ﴿ قَالَ ﴾ لهم موسى ﴿ بَلْ أَلْقُوا ﴾ فألقوا حبالهم وعصيهم ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ ﴾ إلى موسى ﴿ مِنْ سِحْرِهِمْ ﴾ البليغ ﴿ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ أنها حيات تسعى فلما خيل إلى موسى ذلك ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ كما هو مقتضى الطبيعة البشرية، وإلا فهو جازم بوعد الله ونصره ﴿ قُلْنَا ﴾ له تثبيتا وتطمينا ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ عليهم، أي ستعلو عليهم وتقهرهم، ويذلوا لك ويخضعوا ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ ﴾ أي عصاك ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ لأنه من كيد السحرة الذين يموهون على الناس. فألقى موسى عصاه، فتلقفت ما صنعوا كله وأكلته. والناس ينظرون لذلك الصنيع. فعلم السحرة علما يقينا أن هذا ليس بسحر، وأنه من الله فبادروا للإيمان ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ فوقع الحق وبطل السحر في ذلك المجمع العظيم. فـ ﴿ قَالَ ﴾ فرعون للسحرة: ﴿ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ كيف أقدمتم على الإيمان من دون مراجعة مني ولا إذن ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ أظهر أن هذه الغلبة من موسى للسحرة لأنه تمالأ هو والسحرة. ثم توعد فرعون السحرة ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ﴾ قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ لأجل أن تختزوا ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ يعني بزعمه هو أو الله، وأنه أشد عذابا من الله وأبقى.ولهذا لما عرف السحرة الحق،

أجابوه و ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ لن نختارك وما وعدتنا به من الأجر والتقريب، على ما أرانا الله من الآيات البينات ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ مما أوعدتنا به من القطع، والصلب، والعذاب ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ إنما توعدنا به غاية ما يكون في هذه الحياة الدنيا، ينقضي ويزول ولا يضرنا، بخلاف عذاب الله، لمن استمر على كفره، فإنه دائم عظيم ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾ كفرنا ومعاصينا، فإن الإيمان مكفر للسيئات، والتوبة تجب ما قبلها، وقولهم ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ الذي عارضنا به الحق، هذا دليل على أنهم غير مختارين في عملهم المتقدم، وإنما أكرههم فرعون إكراها ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾.

﴿ 74 - 76 ﴾ ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا ﴾ يخبر تعالى أن من أتاه وقدم عليه مجرما من كل وجه واستمر على الكفر حتى مات ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا ﴾ فيستريح ﴿ وَلَا يَحْيَا ﴾ حياة يتلذذ بها ﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا ﴾ مصدقا لرسله، متبعا لكتبه ﴿ قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ ﴾ الواجبة والمستحبة ﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا ﴾ المنازل العاليات ﴿ جَنَّاتُ عدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ ﴾ الثواب ﴿ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ تطهر من الشرك والكفر والفسوق والعصيان، وزكى نفسه أيضا ونماها بالإيمان والعمل الصالح.

﴿ 77 - 79 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى ﴾ أراد الله تعالى أن ينجي بني إسرائيل من عدوهم ويمكن لهم في الأرض ليعبدوه جهرا ويقيموا أمره. فأوحى إلى نبيه موسى ﴿ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أن سيروا أول الليل، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه. فخرجوا أول الليل وحنق عليهم عدوهم فرعون، فأرسل في المدائن من يحض الناس على الخروج في أثر بني إسرائيل.ثم سار بهم يتبع بني إسرائيل. فأوحى الله إلى نبيه موسى أن ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ يضرب البحر بعصاه، فضربه وصار الماء كالجبال العالية. وأيبس الله طرقهم التي انفرق عنها الماء، فسلكوا في تلك الطرق ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ حتى إذا تكامل قوم موسى خارجين وقوم فرعون داخلين، أمر الله البحر فالتطم عليهم، وغرقوا كلهم، وبنو إسرائيل ينظرون إلى عدوهم: ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ ﴾ بما زين لهم من الكفر، ﴿ وَمَا هَدَى ﴾ في وقت من الأوقات، فأوردهم موارد الغي ثم العذاب.

﴿ 80 – 82 ﴾ ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى * كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى * وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ يذكر تعالى بني إسرائيل منته العظيمة عليهم بإهلاك عدوهم ﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ ﴾ ومواعدته لموسى عليه السلام بجانب الطور الأيمن، لينزل عليه الكتاب، ويذكر منته أيضا عليهم في التيه ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ والرزق الرغد الهني الذي يحصل لهم بلا مشقة، وأنه قال لهم ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ واشكروه على ما أسدى إليكم من النعم ﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ ﴾ فتستعملونه في معاصيه، وتبطرون النعمة ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ أي غضبت عليكم، ثم عذبتكم ﴿ وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾ أي ردى وهلك. ومع هذا فالتوبة معروضة، ولو عمل العبد ما عمل من المعاصي ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ ﴾ كثير المغفرة والرحمة ﴿ لِمَنْ تَابَ ﴾ من الكفر والبدعة والفسوق ﴿ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ سلك الصراط المستقيم، وتابع الرسول الكريم، واقتدى بالدين القويم، فهذا يغفر الله أوزاره ويعفو عما تقدم من ذنبه لأنه أتى بالسبب الأكبر للمغفرة والرحمة.

﴿ 83 – 86 ﴾ ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴾

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾ ما الذي قدمك عليهم؟ ولم لم تصبر حتى تقدم أنت وهم؟ وكان الله تعالى قد واعد موسى أن يأتيه لينزل عليه التوراة ثلاثين ليلة، فأتمها بعشر، فلما تم الميقات، بادر موسى عليه السلام إلى الحضور للموعد شوقا لربه، وحرصا على موعوده ﴿ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي ﴾ قريبا مني، وسيصلون في أثري ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ والذي عجلني إليك يا رب طلبا لقربك ومسارعة في رضاك، وشوقا إليك، فـ ﴿ قَالَ ﴾ الله له ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ﴾ ابتليناهم بعبادتهم للعجل، واختبرناهم فلم يصبروا، وحين وصلت إليهم المحنة كفروا ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ بالعجل ﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ أي ممتلئ غيظا وحنقا وغما، قال لهم موبخا ومقبحا لفعلهم ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ وذلك بإنزال التوراة ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾ فتطاولتم غيبتي وهي مدة قصيرة؟ هذا قول كثير من المفسرين، ويحتمل أن معناه: أفطال عليكم عهد النبوة والرسالة ﴿ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ فتعرضتم لأسبابه واقتحمتم موجب عذابه ﴿ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴾ حين أمرتكم بالاستقامة، ووصيت بكم هارون، فلم ترقبوا غائبا، ولم تحترموا حاضرا.

﴿ 87 – 89 ﴾ ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾

﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ قالوا له ما فعلنا الذي فعلنا عن تعمد منا ﴿ وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ ﴾ ولكن السبب الداعي لذلك أننا تأثمنا من زينة القوم التي عندنا، وكانوا قد استعاروا حليا كثيرا من القبط، فخرجوا وهو معهم وألقوه ﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ وجمعوه حين ذهب موسى ليراجعوه فيه إذا رجع. وكان السامري قد بصر يوم الغرق بأثر الرسول، فسولت له نفسه أن يأخذ قبضة من أثره، وأنه إذا ألقاها على شيء حيي، فتنة وامتحانا ﴿ فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ فألقاها على ذلك العجل الذي صاغه بصورة عجل ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ﴾ فتحرك العجل، وصار له خوار وصوت ﴿ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾ وقالوا إن موسى ذهب يطلب ربه، وهو هاهنا فنسيه، وهذا سخافة عقولهم، حيث رأوا هذا الغريب الذي صار له خوار، بعد أن كان جمادا، فظنوه إله الأرض والسماوات ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ أن العجل ﴿ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾ لا يتكلم ويراجعهم ويراجعونه ﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾.

﴿ 90 – 94 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى * قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ﴾ إن اتخاذهم العجل ليسوا معذورين فيه. فإنه وإن كانت عرضت لهم الشبهة في أصل عبادته، فإن هارون قد نهاهم عنه، وأخبرهم أنه فتنة ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ وأن ربهم الرحمن أمرهم أن يتبعوه، ويعتزلوا العجل، فأبوا و ﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾ فأقبل موسى على أخيه لائما له ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِي ﴾ فتخبرني لأبادر للرجوع إليهم ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ في قولي بأن تخلفني وَتَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ. ثم أخذ موسى برأس هارون ولحيته، يجره من الغضب والعتب عليه، فـ ﴿ قَالَ ﴾ هارون ﴿ يَا ابْنَ أُمَّ ﴾ ترقيق له، وإلا فهو شقيقه ﴿ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ ﴾ فإنك أمرتني أن أخلفك فيهم، فلو تبعتك، لتركت ما أمرتني بلزومه و ﴿ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ حيث تركتهم، وليس عندهم راع ولا خليفة، فإن هذا يفرقهم ويشتت شملهم، فلا تجعلني مع القوم الظالمين، ولا تشمت فينا الأعداء، فندم موسى على ما صنع بأخيه، وهو غير مستحق.

﴿ 95 - 97 ﴾ ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ ما شأنك يا سامري، حيث فعلت ما فعلت؟ فـ ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ رأيت جبريل عليه السلام على فرس عندما غرق فرعون وجنوده، على ما قاله المفسرون ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ أن أقبضها، ثم أنبذها على العجل، فكان ما كان. فـ ﴿ قَالَ ﴾ له موسى ﴿ فَاذْهَبْ ﴾ تباعد عني ﴿ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ أي تعاقب في الحياة عقوبة لا يدنو منك أحد، ولا يمسك أحد. ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ ﴾ فتجازى بعملك، من خير وشر ﴿ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ أي العجل ﴿ لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ ففعل موسى ذلك. ولو كان إلها لامتنع. وكان قد أشرب العجل في قلوب بني إسرائيل، فأراد موسى عليه السلام إتلافه وهم ينظرون، على وجه لا تمكن إعادته بالإحراق والسحق وذريه في اليم ونسفه، ليزول ما في قلوبهم من حبه، كما زال شخصه. فلما تبين لهم بطلانه أخبرهم بمن يستحق العبادة وحده لا شريك له.

﴿ 98 ﴾ ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾

﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا معبود إلا وجهه الكريم لأنه الكامل الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ المحيط علمه بجميع الأشياء.

﴿ 99 - 101 ﴾ ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴾

﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ يمتن الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم بما قصه عليه من أنباء السابقين، فإخبارك بالحق اليقين من أخبارهم، دليل على أنك رسول الله حقا، وما جئت به صدق: ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ﴾ منحة جزيلة من عندنا ﴿ ذِكْرًا ﴾ وهو هذا القرآن الكريم المشتمل على أحسن الأحكام. وأما مقابلته بالإعراض، أو الإنكار، فإنه كفر لهذه النعمة، ومن فعل ذلك، فهو مستحق للعقوبة، ولهذا قال: ﴿ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ فلم يؤمن به، أو تهاون بأوامره ونواهيه، أو بتعلم معانيه الواجبة ﴿ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴾ وهو ذنبه ﴿ خَالِدِينَ فِيهِ ﴾ في وزرهم، لأن العذاب هو نفس الأعمال، تنقلب عذابا على أصحابها، بحسب صغرها وكبرها. ﴿ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴾ بئس الحمل الذي يحملونه.

﴿ 102 - 104 ﴾ ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا

عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ إذا نفخ في الصور وخرج الناس من قبورهم، كل على حسب حاله، فالمتقون يحشرون إلى الرحمن وفدا ﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ ألوانهم من الخوف والقلق والعطش ﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ يتناجون بينهم، ويتخافتون في قصر مدة الدنيا وسرعة الآخرة، فيقول بعضهم ﴿ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ إلا عشرة أيام، ويقول بعضهم غير ذلك ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ والله يعلم تخافتهم، ويسمع ما يقولون ﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ أعدلهم وأقربهم إلى التقدير ﴿ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ يندمون كيف ضيعوا الأوقات القصيرة، معرضين عما ينفعهم، مقبلين على ما يضرهم. فها قد حضر الجزاء وحق الوعيد، فلم يبق إلا الندم.

﴿ 105 - 112 ﴾ ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا * يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾ ماذا يصنع بها يوم القيامة، وهل تبقى بحالها أم لا ﴿ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ يزيلها ويقلعها من أماكنها فتكون كالعهن وكالرمل، ويسويها بالأرض ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ ويجعل الأرض قاعا صفصفا مستويا ﴿ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا ﴾ من تمام استوائها ﴿ وَلَا أَمْتًا ﴾ ولا أودية وأماكن منخفضة أو مرتفعة. فتبرز الأرض وتتسع للخلائق. يمدها الله مد الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ ﴾ وذلك حين يبعثون من قبورهم ويقومون منها، يدعوهم الداعي إلى الحضور والاجتماع للموقف، فيتبعونه مهطعين إليه، لا يلتفتون عنه، ولا يعرجون يمنة ولا يسرة. وقوله ﴿ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ أي لا عوج لدعوة الداعي، بل تكون دعوته حقا وصدقا لجميع الخلق، يسمعهم جميعهم، ويصيح بهم أجمعين، فيحضرون لموقف القيامة ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ إلا وطء الأقدام، أو المخافتة سرا بتحريك الشفتين فقط، يملكهم الخشوع والسكون والإنصات، انتظارا لحكم الرحمن فيهم. وتعنو وجوههم أي تذل وتخضع. فترى الجميع في ذلك الموقف العظيم ساكتين منصتين، خاشعة أبصارهم، جاثين على ركبهم، عانية وجوههم، لا يدرون ماذا يُفعل كل منهم به ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ لا يشفع أحد عنده من الخلق إلا إذا رضي قوله، أي شفاعته من الأنبياء والمرسلين، وعباده المقربين ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا. وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ وينقسم الناس في ذلك الموقف قسمين ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ ظالمين بكفرهم وشرهم، فهؤلاء لا ينالهم إلا العذاب الأليم في جهنم ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ والقسم الثاني من آمن الإيمان المأمور به، وعمل صالحا من واجب ومسنون ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا ﴾ فلا زيادة في

سيئاته ﴿ وَلَا هَضْمًا ﴾ أي نقصا من حسناته، بل تغفر ذنوبه، وتطهر عيوبه، وتضاعف حسناته.

﴿ 113 ﴾ ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ وكذلك أنزلنا هذا الكتاب باللسان الفاضل العربي، الذي تفهمونه وتفقهونه ولا يخفى عليكم لفظه ولا معناه ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ ﴾ نوعناها أنواعا كثيرة بذكر:

- أسمائه تعالى الدالة على العدل والانتقام،
- المثلات التي أحلها بالأمم السابقة، –
- آثار الذنوب وما تكسبه من العيوب،
- أهوال القيامة وما فيها من المزعجات والمقلقات،
- جهنم وما فيها من أنوع العقاب وأصناف العذاب،

كل هذا رحمة بالعباد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الله فيتركون من الشر والمعاصي ما يضرهم ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ فيعملون من الطاعات والخير ما ينفعهم.

﴿ 114 ﴾ ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ ﴾ جلّ وارتفع وتقدس عن كلِّ نقص وآفة ﴿ الْمُلْكُ ﴾ الذي الملك وصفه، والخلق كلهم مماليك له ﴿ الْحَقُّ ﴾ وجوده وملكه وكماله حق ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ لا تبادر بتلقف القرآن حين يتلوه عليك جبريل، واصبر حتى يفرغ منه، فإذا فرغ منه فاقرأه، فإن الله قد ضمن لك جمعه في صدرك وقراءتك إياه. ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ كما أمره الله تعالى أن يسأله زيادة العلم.

﴿ 115 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ ﴾ وصينا آدم وأمرناه وعهدنا إليه عهدا ليقوم به، فالتزمه، وعزم على القيام به ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ ومع ذلك نسي ما أمر به، وانتقضت عزيمته المحكمة، فجرى عليه ما جرى. فصار عبرة لذريته، طبائعهم مثل طبيعته: نسي فنسيت ذريته، وخطئ فخطئوا، ولم يثبت على العزم المؤكد، وهم كذلك، وبادر بالتوبة من خطيئته، وأقر بها واعترف، فغفرت له، ومن يشابه أباه فما ظلم.

﴿ 116 – 122 ﴾ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ لما أكمل خلق آدم بيده، وعلمه الأسماء، وفضله، وكرمه، أمر الملائكة بالسجود له، إكراما وتعظيما وإجلالا ﴿ فَسَجَدُوا ﴾ فبادروا بالسجود ممتثلين ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾ وكان بينهم إبليس، فاستكبر عن أمر ربه، وامتنع من السجود لآدم ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ وظهر من حسده، ما كان سبب العداوة. فحذر الله آدم وزوجه منه، وقال ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ إذا أخرجت منها، فإن لك فيها الرزق الهني، والراحة التامة ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى. وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ أي تصيبك الشمس بحرها. فضمن له استمرار الطعام والشراب، والكسوة، والماء، وعدم التعب والنصب. ولكنه نهاه عن أكل شجرة معينة ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ ﴾ فلم يزل الشيطان يسول لهما، ويزين أكل الشجرة التي من أكل منها خلد في الجنة ﴿ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴾ لا ينقطع إذا أكلت منها. فأتاه بصورة ناصح، وتلطف له في الكلام، فاغتر به آدم ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ﴾ وأكلا من الشجرة فسقط في أيديهما، وسقطت كسوتهما، واتضحت معصيتهما، وبدا لكل منهما سوأة الآخر، بعد أن كانا مستورين ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ وجعلا يخصفان على أنفسهما من ورق أشجار الجنة ليستترا بذلك، وأصابهما من الخجل ما الله به عليم ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ فبادرا إلى التوبة والإنابة ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ ويسر له التوبة فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها. وتمت النعمة عليه وعلى ذريته، ووجب عليهم القيام بها والاعتراف، وأن يكونوا على حذر من هذا العدو المرابط الملازم لهم ليلا ونهارا.

﴿ 123 - 127 ﴾ ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أمر تعالى آدمَ وإبليس أن يهبطا إلى الأرض، وأن يتخذ آدم وبنوه الشيطان عدوا لهم. وأخبر أنه سينزل عليهم كتبا، ويرسل إليهم رسلا يبينون لهم الطريق المستقيم الموصلة إليه وإلى جنته، ويحذرونهم من هذا العدو المبين ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ وأنه من اتبع الهدى وما أمر به، واجتنب ما نهي عنه، فإنه لا يضل في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يشقى فيهما ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي ﴾ أي كتابي، وأن يتركه على وجه الإعراض عنه، أو الإنكار له والكفر به ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ فإن جزاءه أن نجعل معيشته ضيقة مشقة. وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر فقط لأن الله ذكر في آخرها عذاب يوم القيامة، هذا حسب بعض السلف، والله أعلم. وبعض المفسرين يرى أن المعيشة الضنك عامة في دار الدنيا وفي دار البرزخ وفي الدار الآخرة، وذلك لإطلاق المعيشة الضنك وعدم تقييدها ﴿ وَنَحْشُرُهُ ﴾ هذا المعرض عن ذكر ربه ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ البصر على الصحيح ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ ﴾ في دار الدنيا ﴿ بَصِيرًا ﴾ فما الذي صيرني إلى هذه الحالة البشعة ﴿ قَالَ كَذَلِكَ

أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ﴾ بإعراضك عنها ﴿ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ تترك في العذاب، وكما عميت عن ذكر ربك ونسيته، فقد أعمى الله بصرك في الآخرة ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ هذا الجزاء ﴿ نَجْزِي ﴾ ه ﴿ مَنْ أَسْرَفَ ﴾ بأن تعدى الحدود، وارتكب المحارم وجاوز ما أذن له ﴿ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ الدالة على جميع مطالب الإيمان دلالة واضحة صريحة ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ ﴾ من عذاب الدنيا أضعافا مضاعفة ﴿ وَأَبْقَى ﴾ لكونه لا ينقطع.

﴿ 128 ﴾ ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ أفلم يهد هؤلاء المكذبين المعرضين، ويدلهم على سلوك طريق الرشاد، ما أحل الله بالمكذبين قبلهم، الذين يعرفون قصصهم و ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ من بعدهم، كقوم هود وصالح ولوط وغيرهم، وأنهم لما كذبوا رسلنا، وأعرضوا عن كتبنا، أصبناهم بالعذاب الأليم؟ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ لكن ما كل أحد ينتفع بالآيات، إنما ينتفع بها أولو النهى، أي العقول السليمة.

﴿ 129-130 ﴾ ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ هذا تسلية للرسول، وتصبير له عن المبادرة إلى إهلاك المكذبين المعرضين. وأن كفرهم وتكذيبهم سبب صالح لحلول العذاب بهم، ولزومه لهم، لأن الله جعل العقوبات سببا وناشئا عن الذنوب، ملازما لها، وهؤلاء قد أتوا بالسبب. ولكن الذي أخره عنهم كلمة ربك، المتضمنة لإمهالهم وتأخيرهم. ولعلهم يراجعون أمر الله، فيتوب عليهم ويرفع عنهم العقوبة، إذا لم تحق عليهم الكلمة ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ ولهذا أمر الله رسوله بالصبر على أذيتهم بالقول ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ وأمره أن يستعين عليه بالتسبيح بحمد ربه في هذه الأوقات الفاضلة أي ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ وفي أطراف النهار، أوله وآخره، عموم بعد خصوص، وأوقات الليل وساعاته، لعلك إن فعلت ذلك، ترضى بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والآجل، فيخف حينئذ عليك الصبر.

﴿ 131 ﴾ ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ لا تمد عينيك معجبا، ولا تكرر النظر مستحسنا إلى أحوال الدنيا والممتعين بها، فإن ذلك كله ﴿ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ تبتهج بها نفوس المغترين، ثم تذهب سريعا وتقتل محبيها وعشاقها، فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا في القيامة ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾

وإنما جعلها الله فتنة واختبارا ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ ﴾ العاجل من العلم والإيمان، والآجل من النعيم المقيم في جوار الرب الرحيم ﴿ خَيْرٌ ﴾ مما متعنا به أزواجا، في ذاته وصفاته ﴿ وَأَبْقَى ﴾ لكونه لا ينقطع، أكلها دائم وظلها. وفي هذه الآية إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه طموحا إلى زينة الدنيا، وإقبالا عليها، أن يذكرها ما أمامها من رزق ربه، وأن يوازن بين هذا وهذا.

﴿ 132 ﴾ ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ ﴾ حث أهلك على الصلاة، وأزعجهم إليها من فرض ونفل. وكذلك بتعليمهم ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها ﴿ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ على الصلاة بإقامتها، بحدودها وأركانها وآدابها وخشوعها، فإن ذلك مشق على النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك ﴿ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ﴾ ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق، وأن لا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ رزقك علينا قد تكفلنا به، فينبغي الاهتمام بما يجلب السعادة الأبدية ﴿ وَالْعَاقِبَةُ ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ لِلتَّقْوَى ﴾ التي هي فعل المأمور وترك المنهي.

﴿ 133-135 ﴾ ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى * وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى * قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ هذا يقتضي أنه لم يأتهم بآية على صدقه، وهذا كذب وافتراء. فإنه أتى من الآيات ما يحصل ببعضه المقصود ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ ﴾ إن كانوا صادقين في قولهم ﴿ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ فهذا القرآن العظيم مصدق لما في الصحف الأولى من التوراة والإنجيل والكتب السابقة ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ﴾ وإنما الفائدة في سوقها إليهم ومخاطبتهم بها، لتقوم عليهم حجة الله بالعقوبة، فها قد جاءكم رسولي ومعه آياتي وبراهيني، فإن كنتم كما تقولون، فصدقوه ﴿ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ ﴾ فتربصوا بي الموت، وأنا أتربص بكم العذاب ﴿ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ ﴾ المستقيم ﴿ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ بسلوكه، أنا أم أنتم؟

21

مختصر تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام

عدد آياتها 112

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 4 ﴾ ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ هذا تعجب من حالة الناس، اقترب حسابهم وهم في غفلة معرضون عما خلقوا له وعما زجروا به ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ ﴾ يذكرهم ما ينفعهم ويحثهم عليه وما يضرهم، ويرهبهم منه ﴿ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ سماعا تقوم عليهم به الحجة ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ غافلة معرضة لاهية بمطالبها الدنيوية، وأبدانهم لاعبة، قد اشتغلوا بتناول الشهوات والعمل بالباطل. وقد فسر اقتراب الحساب بأن هذه الأمة هي آخر الأمم، ورسولها آخر الرسل، وعلى أمته تقوم الساعة، فقد قرب الحساب منها بالنسبة لما قبلها من الأمم. وهناك قول ثان بأن المراد بقرب الحساب الموت، وأن من مات، قامت قيامته، ودخل في دار الجزاء على الأعمال، وأن هذا تعجب من كل غافل معرض، لا يدري متى يفجأه الموت ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ تناجوا، وتواطأوا فيما بينهم، أن يقولوا في الرسول صلى الله عليه وسلم، إنه بشر مثلكم، فما الذي فضله عليكم، وخصه من بينكم، فلو ادعى أحد منكم مثل دعواه، لكان قوله من جنس قوله، ولكنه يريد أن يتفضل عليكم، ويرأس فيكم، فلا تطيعوه، ولا تصدقوه، وأنه ساحر، وما جاء به من القرآن سحر، فانفروا عنه، ونفروا الناس، وقولوا ﴿ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ هذا وهم يعلمون أنه رسول الله حقا بما شاهدوا من الآيات الباهرة ما لم يشاهد غيرهم، ولكن حملهم على ذلك الشقاء والظلم والعناد، والله تعالى قد أحاط علما بما تناجوا به، وسيجازيهم عليه ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ ﴾ الخفي والجلي ﴿ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ في جميع ما احتوت عليه أقطارهما ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لسائر الأصوات باختلاف اللغات ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما في الضمائر والسرائر.

﴿ 5 - 6 ﴾ ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ * مَا آمَنَتْ

قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ بَلْ قَالُوا ﴾ فتارة يقولون ﴿ أضغاث أحلام ﴾ بمنزلة كلام النائم الهاذي، وتارة يقولون ﴿ بَلِ افتراه ﴾ واختلقه ﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ وتارة يقولون إنه شاعر وما جاء به شعر ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ يقولون هذه الأقوال فيه حيث لم يؤمنوا به تنفيرا عنه لمن لم يعرفه. وهو أكبر الآيات المستمرة، الدالة على صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وصدقه. وهو كاف شاف، فمن طلب دليلا غيره فهو جاهل ظالم ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ فالأولون ما آمنوا بها ﴿ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهذا الاستفهام بمعنى النفي، أي لا يكون ذلك منهم أبدا.

﴿ 7 – 9 ﴾ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ * ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ هذا جواب لشبه المكذبين للرسول القائلين، فالرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم كلهم من البشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وتطرأ عليهم العوارض البشرية من الموت وغيره ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فإن حصل معكم شك وعدم علم بحالة الرسل المتقدمين فليسألوا أهل الكتب السالفة كالتوراة والإنجيل، يخبرونهم بما عندهم من العلم[1] ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ وأنهم كلهم بشر من جنس المرسل إليهم ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾.

﴿ 10 ﴾ ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا ﴾ جليلا وقرآنا مبينا ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ شرفكم وفخركم وارتفاعكم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ما ينفعكم وما يضركم، وكيف لا ترضون ما فيه ذكركم وشرفكم في الدنيا والآخرة؟

﴿ 11 – 15 ﴾ ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا ﴾ أهلكنا بعذاب مستأصل ﴿ مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ تلفت عن آخرها ﴿ وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا

[1] وهذه الآية وإن كان سببها خاصا بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين لأهل الذكر وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها، ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم، إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه. وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم، نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهي له أن يتصدى لذلك، وفي هذه الآية دليل على أن النساء ليس منهن نبية، لا مريم ولا غيرها، لقوله: ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾

آخَرِينَ ﴾ وأن هؤلاء المهلكين لما أحسوا بعذاب الله وعقابه ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ ندما وقلقا وتحسرا على ما فعلوا وهروبا من وقوعه ﴿ لَا تَرْكُضُوا ﴾ لا يفيدكم الركوض والندم ﴿ وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ فارجعوا إلى دنياكم التي غرتكم وألهتكم حتى جاءكم أمر الله. لعلكم أن تكونوا كحالتكم الأولى، وهيهات، فقد فات الوقت، وحل بهم العقاب وحضرهم ندمهم وتحسرهم ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ الدعاء بالويل والندم والإقرار على أنفسهم بالظلم وأن الله عادل فيما أحل بهم ﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ بمنزلة النبات الذي قد حصد، خمدت منهم الحركات.

﴿ 16 - 17 ﴾ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ ما خلق السماوات والأرض عبثا ولا لعبا من غير فائدة. بل خلقها بالحق وللحق، ليستدل بها العباد على أنه الخالق العظيم، المدبر الحكيم، الرحمن الرحيم ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا ﴾ على الفرض والتقدير المحال ﴿ لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا ﴾ من عندنا ﴿ إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ فالسماوات والأرض اللذان بمرأى منكم على الدوام، لا يمكن أن يكون القصد منهما العبث واللهو.

﴿ 18 - 20 ﴾ ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ * وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾ تكفل تعالى بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإن كل باطل فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان ما يدمغه ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ مضمحل فانٍ ﴿ وَلَكُمُ ﴾ أيها الواصفون الله بما لا يليق به، من اتخاذ الولد والصاحبة، ومن الأنداد والشركاء، حظكم من ذلك، ونصيبكم الذي تدركون به ﴿ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ والندامة والخسران ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ له ملك السماوات والأرض وما بينهما، فالكل عبيده ومماليكه ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ أي من الملائكة ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ لا يملون ولا يسأمونها، لشدة رغبتهم، وكمال محبتهم، وقوة أبدانهم ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ مستغرقين في العبادة والتسبيح في جميع أوقاتهم.

﴿ 21 - 25 ﴾ ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ * أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أنكر على المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض، في غاية العجز وعدم القدرة ﴿ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴾ استفهام بمعنى النفي، أي لا يقدرون على نشرهم وحشرهم ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ﴾ في السماوات والأرض ﴿ آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ في ذاتهما، وفسد من فيهما من المخلوقات ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ تنزه وتقدس عن كل نقص لكماله وحده ﴿ رَبِّ الْعَرْشِ ﴾ الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها وأعظمها ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ الجاحدون الكافرون، من اتخاذ الولد والصاحبة، وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ لعظمته وعزته وكمال قدرته، لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه. ولا يتوجه إليه سؤال لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال ﴿ وَهُمْ ﴾ أي المخلوقين كلهم ﴿ يُسْأَلُونَ ﴾ عن أفعالهم وأقوالهم، لعجزهم وفقرهم، ولكونهم عبيدا ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ حجتكم ودليلكم على صحة ما ذهبتم إليه، ولن يجدوا لذلك سبيلا، بل قد قامت الأدلة القطعية على بطلانه، ولهذا قال: ﴿ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ﴾ أي قد اتفقت الكتب والشرائع على صحة ما قلت لكم، من إبطال الشرك. فهذا كتاب الله وهذه الكتب السابقة كلها براهين وأدلة لما قلت ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ﴾ وإنما أقاموا على ما هم عليه، تقليدا لأسلافهم يجادلون بغير علم ولا هدى ﴿ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ وليس عدم علمهم بالحق لخفائه وغموضه، وإنما ذلك، لإعراضهم عنه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ فكل الرسل الذين من قبلك مع كتبهم، زبدة رسالتهم وأصلها، الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود.

﴿ 26 - 29 ﴾ ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ زعم المشركون أن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم. وأخبر أن الملائكة هم عبيد ليس لهم من الأمر شيء. وإنما هم مكرمون عند الله، عبيد كرامته ورحمته، وأنهم في غاية الأدب مع الله، والامتثال لوامره فـ ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ قولا يتعلق بتدبير المملكة حتى يقوله الله ﴿ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ امتثلوا لأمره، ولا يكون لهم عمل بأهواء أنفسهم من دون أمر الله, وهو ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ فلا خروج لهم عن علمه، كما لا خروج لهم عن أمره وتدبيره ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه. وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة وأن الملائكة يشفعون ﴿ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ خائفون وجلون، قد خضعوا لجلاله ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ ﴾ على سبيل الفرض والتنزل ﴿ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ وأي ظلم أعظم من ادعاء الفقير إلى الله من جميع الوجوه مشاركة الله في خصائص الإلهية والربوبية؟

﴿ 30 ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ أولم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربهم السماء والأرض فيجدونهما رتقا: هذه ليس فيها سحاب ولا مطر، وهذه هامدة ميتة، لا نبات فيها ﴿ فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ ففتقنا السماء بالمطر، والأرض بالنبات ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ أليس الذي أوجد في السماء السحاب، وأودع فيه الماء الغزير، ثم ساقه إلى بلد ميت قد اغبرت أرجاؤه، وقحط عنه ماؤه، فأمطره فيها، فأنبتت من كل زوج بهيج. أليس ذلك دليلا على أنه الحق وما سواه باطل، وأنه محيي الموتى، وأنه الرحمن الرحيم ﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ إيمانا صحيحا ما فيه شك ولا شرك.

﴿ 31 - 33 ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ ومن الأدلة على قدرته وكماله ووحدانيته ورحمته، أنه لما كانت الأرض لا تستقر فقد أرساها وأوتدها بالجبال لئلا تضطرب، فحصل بسبب ذلك، من المصالح والمنافع، ما حصل ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ ومن حكمة الله ورحمته أن جعل بين تلك الجبال فجاجا سبلا، أي طرقا سهلة لعلهم يهتدون إلى الوصول إلى مطالبهم من البلدان، وبالاستدلال بذلك على وحدانية المنان ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا ﴾ للأرض التي أنتم عليها ﴿ مَحْفُوظًا ﴾ من السقوط ومن استراق الشياطين للسمع ﴿ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ غافلون لاهون، وهذا عام في جميع آيات السماء ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾.

﴿ 34 - 35 ﴾ ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ يا محمد في الدنيا، فإذا مت، فهذا سبيل أمثالك من الرسل والأنبياء والأولياء وغيرهم ﴿ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ فهل إذا مت خلدوا بعدك ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ وهذا يشمل سائر نفوس الخلائق. ولكن الله تعالى أوجد عباده في الدنيا ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ وابتلاهم بالخير والشر، والحياة والموت، فتنة منه تعالى ليبلوهم أيهم أحسن عملا ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فنجازيكم بأعمالكم.

﴿ 36 - 41 ﴾ ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ * خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ وهذا من شدة كفرهم، فإن المشركين إذا رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، استهزأوا به وقالوا ﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ هذا المحتقر بزعمهم، الذي يسب آلهتكم ويذمها، فلا تبالوا به. كذلك فإن ذكرهم كفر وشرك ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ وفي ذكر اسمه ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ هنا بيان لقباحة حالهم، وأنهم كيف قابلوا الرحمن مسدي النعم كلها بالكفر والشرك ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ خلق عجولا، يبادر الأشياء ويستعجل بوقوعها. فالمؤمنون يستعجلون عقوبة الله للكافرين والكافرون يستعجلون بالعذاب تكذيبا وعنادا ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي ﴾ في انتقامي ممن كفر بي وعصاني ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ والله تعالى يمهل ولا يهمل ويجعل لهم أجلا مؤقتا. وكذلك الذين كفروا يقولون اغترارا ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ف ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ حالهم الشنيعة ﴿ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ إذ قد أحاط بهم من كل جانب وغشيهم من كل مكان ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ فلا نصروا ولا انتصروا ﴿ بَلْ تَأْتِيهِمْ ﴾ النار ﴿ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ من الذعر والخوف العظيم ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ إذ هم أذل وأضعف من ذلك ﴿ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ﴾ نزل بهم ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ نزل بهم العذاب، فليحذر هؤلاء أن يصيبهم ما أصاب أولئك المكذبين.

﴿ 42 - 44 ﴾ ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ * بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾

﴿ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ ﴾ يحرسكم ويحفظكم ﴿ بِاللَّيْلِ ﴾ إذ كنتم نائمين على فرشكم، وذهبت حواسكم ﴿ وَالنَّهَارِ ﴾ وقت انتشاركم وغفلتكم ﴿ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ أي هل يحفظكم أحد غيره؟ لا حافظ إلا هو ﴿ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ فلهذا أشركوا به ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ﴾ إذا أردناهم بسوء هل من آلهتهم، من يقدر على منعهم من ذلك السوء، والشر النازل بهم ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ لا يعانون على أمورهم من جهتنا، وإذا لم يعانوا من الله، فهم مخذولون في أمورهم، لا يستطيعون جلب منفعة، ولا دفع مضرة ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ أمددناهم بالأموال والبنين، وأطلنا أعمارهم،

فاشتغلوا بالتمتع بها، ولهوا بها، عما له خلقوا، وطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، وعظم طغيانهم ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بموت أهلها وفنائهم، شيئا فشيئا، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، فلو رأوا هذه الحالة لم يغتروا ويستمروا على ما هم عليه ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ الذين بوسعهم، الخروج عن قدر الله؟ أم إذا جاءهم رسول ربهم لقبض أرواحهم أذعنوا، وذلوا، ولم يظهر منهم أدنى ممانعة؟

﴿ 45 - 46 ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ * وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد، للناس كلهم ﴿ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾ إنما أنا رسول أنذركم بما أوحاه الله إلي، فإن استجبتم، فقد استجبتم لله، وسيثيبكم على ذلك، وإن أعرضتم وعارضتم، فليس بيدي من الأمر شيء، وإنما التقدير كله لله ﴿ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴾ لأن سمعهم قد فسد وتعطل. كما أن القلب إذا كان غير قابل لسماع الهدى، كان بالنسبة للهدى والإيمان بمنزلة الأصم بالنسبة إلى الأصوات. فهؤلاء المشركون، صم عن الهدى، فلا يستغرب عدم اهتدائهم، خصوصا في هذه الحالة، التي لم يأتهم العذاب، ولا مسهم ألمه ﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ ولو جزءا يسيرا ولا يسير من عذابه ﴿ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ لم يكن قولهم إلا الدعاء بالويل والندم والاعتراف بظلمهم وكفرهم واستحقاقهم للعذاب.

﴿ 47 ﴾ ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ يخبر تعالى عن حكمه العدل، وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم في يوم القيامة ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ ﴾ مسلمة أو كافرة ﴿ شَيْئًا ﴾ بأن تنقص من حسناتها، أو يزاد في سيئاتها ﴿ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ﴾ التي هي أصغر الأشياء، من خير أو شر ﴿ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة، فكفى به حاسبا، عالما بأعمال العباد، ومقادير ثوابها وعقابها واستحقاقها، موصلا للعمال جزاءها.

﴿ 48 - 50 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ * وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ﴾ وهي التوراة الفارقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال ﴿ وَضِيَاءً ﴾ فهي نور يهتدي به المهتدون ﴿ وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يتذكرون به ما ينفعهم وما يضرهم، ويتذكر به الخير والشر. وخص المتقين بالذكر لأنهم المنتفعون بذلك علما وعملا ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾ في حال

غيبتهم[2] وعدم مشاهدة الناس لهم، فمع المشاهدة أولى، فيتورعون عما حرم، ويقومون بما ألزم ﴿ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ خائفون وجلون، لكمال معرفتهم بربهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، والعطف هنا من باب عطف الصفات المتغايرات، الواردة على شيء واحد وموصوف واحد ﴿ وَهَذَا ﴾ القرآن ﴿ ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ فوصفه بوصفين جليلين، كونه ذكرا يتذكر به جميع المطالب، من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن صفات الرسل والأولياء وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء والجنة والنار، ولأنه يذكر ما ركزه الله في العقول والفطر من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن والنهي عن القبيح. وكونه مباركا يقتضي كثرة خيراته ونمائها وزيادتها، ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن. فإذا كان ذكرا مباركا، وجب تلقيه بالقبول والانقياد والتسليم وشكر الله على هذه المنحة الجليلة. وعدم الإيمان به فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم ﴿ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾.

﴿ 51 - 73 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّـهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ* قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ* فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ *ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّـهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ* أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّـهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ* قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ *وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ من قبل إرسال موسى ومحمد ونزول كتابيهما، فأراه الله ملكوت السماوات والأرض، وأعطاه من الرشد بحسب حاله، وعلو مرتبته، وإلا فكل مؤمن، له من الرشد، بحسب ما معه من الإيمان ﴿ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ أعطيناه رشده، واختصصناه بالرسالة والخلة، واصطفيناه في الدنيا والآخرة ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ ﴾ التي مثلتموها، ونحتموها بأيديكم، على صور بعض المخلوقات ﴿ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ مقيمون على عبادتها، ملازمون لذلك. فأجابوا جواب العاجز و ﴿ قَالُوا

[2] جاء في تفسير الطنطاوي :" هداية للمتقين، الذين من صفاتهم أنهم يخافون ربهم وهو غير مرئى لهم، ويخشون عذابه في السر والعلانية ". (م)

وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ فسلكنا سبيلهم، وتبعناهم على عبادتها، ولهذا ﴿ قَالَ ﴾ لهم إبراهيم ﴿ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ضلال بين واضح ﴿ قَالُوا ﴾ على وجه الاستغراب لقوله، والاستعظام لما قال، وكيف بادأهم بتسفيههم، وتسفيه آبائهم ﴿ أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ هذا القول الذي قلته، والذي جئتنا به، هل هو حق؟ أم كلامك كلام لاعب مستهزئ؟ فرد عليهم إبراهيم ردا بين به وجه سفههم، وقلة عقولهم فـ ﴿ قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴾ فالله هو وحده، الخالق لجميع المخلوقات، المدبر لهن، أفيليق أن يعبد الإنسان مخلوقا ويدع عبادة الخالق الرازق المدبر ﴿ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ ﴾ أن الله وحده المعبود وأن عبادة ما سواه باطل ﴿ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ وأي شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصا أولي العزم منهم خصوصا خليل الرحمن. ولما بين أن أصنامهم ليس لها من التدبير شيء أراد أن يريهم بالفعل عجزها وليكيد كيدا يحصل به إقرارهم بذلك فلهذا قال ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾ أكسرها على وجه الكيد ﴿ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ عنها فلما تولوا مدبرين، ذهب إليها بخفية ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا ﴾ أي كسرا وقطعا، وكانت مجموعة في بيت واحد، فكسرها كلها ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ ﴾ أي إلا صنمهم الكبير، فإنه تركه لمقصد سيبينه. ولم يقل "كبيرا من أصنامهم" فهذا ينبغي التنبيه له، والاحتراز من تعظيم ما حقره الله، إلا إذا أضيف إلى من عظمه ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا لأجل أن يرجعوا إليه. فحين رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزي ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فرموا إبراهيم بالظلم الذي هم أولى به حيث كسرها ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ يعيبهم ويذمهم، ومن هذا شأنه لا بد أن يكون هو الذي كسرها أو أن بعضهم سمعه يذكر أنه سيكيدها ﴿ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ فلما تحققوا أنه إبراهيم ﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ ﴾ بإبراهيم ﴿ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ ﴾ بمرأى منهم ومسمع ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ يحضرون ما يصنع بمن كسر آلهتهم، وهذا الذي أراد إبراهيم وقصد أن يكون بيان الحق بمشهد من الناس ليشاهدوا الحق. فحين حضر الناس وأحضر إبراهيم ﴿ قَالُوا ﴾ له ﴿ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا ﴾ التكسير ﴿ بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ وهذا استفهام تقرير، أي ما الذي أوجب لك الإقدام على هذا الأمر؟ فـ ﴿ قَالَ ﴾ قال إبراهيم والناس شاهدون ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ وهذا الكلام من إبراهيم، المقصد منه إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ وأراد الأصنام المكسرة اسألوها لم كسرت ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ رجعت إليهم أحلامهم، وعلموا أنهم ضالون في عبادتها، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك، ﴿ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ فحصل بذلك المقصود، ولزمتهم الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل وأن فعلهم كفر وظلم، ولكن لم يستمروا على هذه الحالة، ولكن ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ ﴾ انقلب الأمر عليهم، وانتكست عقولهم وضلت أحلامهم، فقالوا لإبراهيم: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ فكيف تهكم بنا وتستهزئ بنا وتأمرنا أن نسألها وأنت تعلم أنها لا تنطق؟ فقال إبراهيم – موبخا لهم ومعلنا بشركهم على رءوس الأشهاد، ومبينا عدم استحقاق آلهتهم للعبادة-: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ فلا نفع ولا دفع ﴿ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ما أضلكم وأخسر صفقتكم، وما أخسكم، أنتم وما عبدتم من دون الله. فحينئذ لما أفحمهم، ولم يبينوا حجة، استعملوا قوتهم في معاقبته، فـ ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾

اقتلوه أشنع القتلات، بالإحراق، غضبا لآلهتكم، ونصرة لها. فانتصر الله لخليله لما ألقوه في النار ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ فكانت عليه بردا وسلاما، لم ينله فيها أذى ولا أحس بمكروه ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا ﴾ حيث عزموا على إحراقه ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ في الدنيا والآخرة، كما جعل الله خليله وأتباعه، هم الرابحين المفلحين ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا ﴾ وذلك أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام قيل: إنه ابن أخيه، فنجاه الله، وهاجر ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي الشام، فغادر قومه في "بابل" من أرض العراق. ومن بركة الشام أن كثيرا من الأنبياء كانوا فيها، وأن الله اختارها، مهاجرا لخليله، وفيها أحد بيوته الثلاثة المقدسة، وهو بيت المقدس ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ ﴾ حين اعتزل قومه ﴿ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ابن إسحاق ﴿ نَافِلَةً ﴾ بعدما كبر، وكانت زوجته عاقرا، فبشرته الملائكة بإسحاق ويعقوب، هو إسرائيل، الذي كانت منه الأمة العظيمة، وإسماعيل بن إبراهيم، الذي كانت منه الأمة الفاضلة العربية، ومن ذريته، سيد الأولين والآخرين ﴿ وَكُلًّا ﴾ من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿ جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ قائمين بحقوقه، وحقوق عباده ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ يهدون الناس بديننا، لا يأمرون بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾ يفعلونها ويدعون الناس إليها ﴿ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ﴾ هذا من باب عطف الخاص على العام، لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأن من كملهما كما أمر، كان قائما بدينه، ومن ضيعهما، كان لما سواهما أضيع ﴿ وَكَانُوا لَنَا ﴾ لا لغيرنا ﴿ عَابِدِينَ ﴾ مديمين على العبادات القلبية والقولية والبدنية في أكثر أوقاتهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم.

﴿ 74 – 75 ﴾ ﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ هذا ثناء من الله على رسوله (لوط) عليه السلام بالعلم الشرعي، والحكم بين الناس بالصواب. أرسله الله إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عما هم عليه من الفواحش ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾ كذبوا الداعي وتوعدوه بالإخراج، ونجى الله لوطا وأهله فأمره أن يسري بهم ليلا ليبعدوا عن القرية، فسروا ونجوا من فضل الله عليهم ومنته ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ﴾ التي من دخلها، كان من الآمنين من جميع المخاوف ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ النائلين كل خير وسعادة.

﴿ 76 – 77 ﴾ ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ ﴾ واذكر عبدنا ورسولنا نوحا عليه السلام، مثنيا مادحا، حين أرسله الله إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن الشرك به. فلما رآهم لا ينجع فيهم

الوعظ، نادى ربه ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ فأغرقهم الله ولم يبق منهم أحدا ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ ونجى الله نوحا وأهله ومن معه من المؤمنين في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

﴿ 78 - 82 ﴾ ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ * وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ واذكر النبيين الكريمين داود وسليمان مثنيا مبجلا، إذ آتاهما الله العلم الواسع والحكم بين العباد ﴿ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ إذ تحاكم إليهما صاحب حرث، نفشت فيه غنم القوم الآخرين، أي رعت ليلا، فأكلت ما في أشجاره، ورعت زرعه. فقضى داود عليه السلام بأن الغنم تكون لصاحب الحرث، نظرا إلى تفريط أصحابها، فعاقبهم بهذه العقوبة. وحكم فيها سليمان بحكم موافق للصواب، بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث فينتفع بدرها وصوفها ويقومون على بستان صاحب الحرث، حتى يعود إلى حاله الأولى، فإذا عاد إلى حاله، تراد ورجع كل منهما بما له، وكان هذا من كمال فهمه وفطنته عليه السلام ولهذا قال ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ فهمناه هذه القضية، ولا يدل ذلك، أن داود لم يفهمه الله في غيرها، ولهذا خصها بالذكر بدليل قوله ﴿ وَكُلًا ﴾ من داود وسليمان ﴿ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ وهذا دليل على أن الحاكم قد يصيب الحق والصواب وقد يخطئ ذلك، وليس بمعلوم إذا أخطأ مع بذل اجتهاده. ثم ذكر ما خص به كلا منهما فقال ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾ وذلك أنه كان من أعبد الناس وأكثرهم لله ذكرا وتسبيحا وتمجيدا، وكان قد أعطاه الله من حسن الصوت ورقته ورخامته، ما لم يؤته أحدا من الخلق، فكان إذا سبح وأثنى على الله، جاوبته الجبال الصم والطيور البهم، وهذا فضل الله عليه وإحسانه فلهذا قال ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ. وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ ﴾ علم الله داود عليه السلام صنعة الدروع، فهو أول من صنعها وعلمها وسرت صناعته إلى من بعده، فألان الله له الحديد، وعلمه كيف يسردها والفائدة فيها كبيرة ﴿ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ هي وقاية لكم، وحفظ عند الحرب، واشتداد البأس ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ نعمة الله عليكم، حيث أجراها على يد عبده داود ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ ﴾ سخرناها ﴿ عَاصِفَةً ﴾ سريعة في مرورها ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ ﴾ امتثلت أمره، غدوها شهر ورواحها شهر ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ وهي أرض الشام حيث كان مقره، فيذهب على الريح شرقا وغربا، ويكون مأواها ورجوعها إلى الأرض المباركة ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ قد أحاط علمنا بجميع الأشياء ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ وهذا أيضا من خصائص سليمان عليه السلام، أن الله سخر له الشياطين

والعفاريت، فكان منهم من يغوص له في البحر ويستخرج الدر واللؤلؤ وغير ذلك، وسخر طائفة منهم لبناء بيت المقدس، ومات وهو على عمله، وبقوا بعده سنة، حتى علموا موته، كما سيأتي إن شاء الله تعالى ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ لا يقدرون على الامتناع منه وعصيانه، بل حفظهم الله له بقوته وعزته وسلطانه.

﴿ 83 - 84 ﴾ ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ واذكر عبدنا ورسولنا أيوب - مثنيا معظما له، رافعا لقدره - حين ابتلاه، ببلاء شديد، فوجده صابرا راضيا عنه. وذلك أن الشيطان سلط على جسده ابتلاء من الله، وامتحانا فنفخ في جسده، فتقرح قروحا عظيمة ومكث مدة طويلة، واشتد به البلاء، ومات أهله، وذهب ماله، فنادى ربه رب ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فتوسل إلى الله بالإخبار عن حال نفسه، وأنه بلغ الضر منه كل مبلغ، وبرحمة ربه الواسعة العامة ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ﴾ وأمره فركض برجله فخرجت من ركضته عين ماء باردة فاغتسل منها وشرب، فأذهب الله عنه ما به من الأذى ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ ﴾ رددنا عليه أهله وماله ﴿ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ بأن منحه الله العافية من الأهل والمال شيئا كثيرا ﴿ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ به، حيث صبر ورضي، فأثابه الله ثوابا عاجلا قبل ثواب الآخرة ﴿ وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ جعلناه عبرة للعابدين الذين جعلوه أسوة وقدوة عندما يصيبهم الضر.

﴿ 85 - 86 ﴾ ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ﴾ واذكر عبادنا المصطفين وأنبياءنا المرسلين بأحسن الذكر، وأثن عليهم أبلغ الثناء، إسماعيل بن إبراهيم، وإدريس، وذا الكفل، نبيين من أنبياء بني إسرائيل ﴿ كُلٌّ ﴾ من هؤلاء المذكورين ﴿ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ الصبر على طاعة الله والصبر عن معصية الله والصبر على أقدار الله المؤلمة ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ووصفهم أيضا بالصلاح، وهو يشمل صلاح القلب واللسان والجوارح. فبصبرهم وصلاحهم أدخلهم الله برحمته.

﴿ 87 - 88 ﴾ ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وَذَا النُّونِ ﴾ واذكر عبدنا ورسولنا ذا النون وهو يونس صاحب النون، وهي الحوت، بالذكر الجميل والثناء الحسن، فإن الله تعالى أرسله إلى قومه، فدعاهم، فلم يؤمنوا فوعدهم بنزول العذاب بأمد سماه لهم. فجاءهم

العذاب ورأوه عيانا، فعجوا إلى الله، وضجوا وتابوا، فرفع الله عنهم العذاب ﴿ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا ﴾ ولكنه عليه الصلاة والسلام ذهب مغاضبا، وأبق عن ربه لذنب من الذنوب، التي لم يذكرها الله لنا في كتابه، ولا حاجة لنا إلى تعيينها. والظاهر أن عجلته ومغاضبته لقومه وخروجه من بين أظهرهم قبل أن يأمره الله بذلك ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي يضيق عليه في بطن الحوت أو ظن أنه سيفوت الله تعالى، فركب في السفينة مع أناس، فلما خافوا الغرق إن بقوا كلهم اقترعوا من يلقون منهم في البحر، فأصابت القرعة يونس، فالتقمه الحوت وذهب به إلى ظلمات البحار ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فأقر لله تعالى بكمال الألوهية، ونزهه عن كل نقص، وعيب وآفة، واعترف بظلم نفسه وجنايته ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾ الشدة التي وقع فيها ﴿ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهذا وعد وبشارة، لكل مؤمن وقع في شدة وغم، أن الله تعالى سينجيه منها، ويكشف عنه ويخفف.

﴿ 89 - 90 ﴾ ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾

﴿ وَزَكَرِيَّا ﴾ واذكر عبدنا ورسولنا زكريا، منوها بذكره، ناشرا لمناقبه وفضائله، التي من جملتها هذه المنقبة العظيمة المتضمنة لنصحه للخلق، ورحمة الله إياه ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ أي أنه لما تقارب أجله خاف أن لا يقوم أحد بعده مقامه في الدعوة إلى الله، والنصح لعباد الله، وأن يكون في وقته فردا، ولا يخلف من يشفعه ويعينه، على ما قام به ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ خير الباقين، وخير من خلفني بخير، وأنت أرحم بعبادك مني، ولكني أريد ما يطمئن به قلبي، وتسكن له نفسي، ويجري في موازيني ثوابه ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى ﴾ النبي الكريم، الذي لم يجعل الله له من قبل سميا ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ بعدما كانت عاقرا، لا يصلح رحمها للولادة فأصلح الله رحمها للحمل، لأجل نبيه زكريا، وهذا من فوائد الجليس، والقرين الصالح، أنه مبارك على قرينه، فصار يحيى مشتركا بين الوالدين. ولما ذكر هؤلاء الأنبياء والمرسلين، كلا على انفراده، أثنى عليهم عموما فقال ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ يبادرون إليها ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ يسألوننا الأمور المرغوب فيها، من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعوذون بنا من الأمور المرهوب منها، من مضار الدارين ﴿ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ خاضعين متذللين متضرعين.

﴿ 91 - 94 ﴾ ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ * إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾ واذكر مريم عليها السلام، مثنيا عليها مبينا لقدرها، أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا من الحرام وقربانه، بل ومن الحلال، فلم تتزوج لاشتغالها بالعبادة، واستغراق وقتها بالخدمة لربها ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ حيث حملت به، ووضعته من دون مسيس أحد، وحيث تكلم في المهد، وبرأها مما ظن بها المتهمون وأخبر عن نفسه في تلك الحالة، وأجرى الله على يديه من الخوارق والمعجزات ما هو معلوم، فكانت وابنها آية للعالمين، يتحدث بها جيلا بعد جيل. ولما ذكر الأنبياء عليهم السلام، قال مخاطبا للناس ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ هؤلاء الرسل المذكورون هم أمتكم وائمتكم الذين بهم تأتمون، وبهديهم تقتدون، كلهم على دين واحد، وصراط واحد ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ ﴾ الذي خلقتكم، وربيتكم بنعمتي، في الدين والدنيا ﴿ فَاعْبُدُونِ ﴾ فرتب العبادة على ما سبق بالفاء، ترتيب المسبب على سببه ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ تفرق الأحزاب المنتسبون لاتباع الأنبياء فرقا، وتشتتوا، كل يدعي أن الحق معه، والباطل مع الفريق الآخر وقد علم أن المصيب منهم، من كان سالكا للدين القويم، والصراط المستقيم. وسيظهر هذا إذا حشر الله الناس لفصل القضاء، فحينئذ يتبين الصادق من الكاذب ﴿ كُلٌّ ﴾ من الفرق المتفرقة وغيرهم ﴿ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ فنجازيهم أتم الجزاء. ثم فصل جزاءه فيهم ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ ﴾ الأعمال التي شرعتها الرسل وحثت عليها الكتب ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ بالله وبرسله، وما جاءوا به ﴿ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ لا نضيع سعيه ولا نبطله، بل نضاعفه له أضعافا كثيرة ﴿ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ مثبتون له في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي مع الحفظة. ومن لم يعمل من الصالحات، أو عملها وهو ليس بمؤمن، فإنه محروم، خاسر في دينه ودنياه.

﴿ 95 ﴾ ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ يمتنع على القرى المهلكة المعذبة، الرجوع إلى الدنيا، ليستدركوا ما فرطوا فيه ﴿ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ فلا سبيل إلى الرجوع.

﴿ 96 - 97 ﴾ ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾

﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ هذا تحذير من الله للناس ألّا يقيموا على الكفر والمعاصي، وأنه قد قرب انفتاح يأجوج ومأجوج، وهما قبيلتان عظيمتان من بني آدم، وقد سد عليهم ذو القرنين، لما شكي إليه إفسادهم في الأرض. وفي آخر الزمان ينفتح السد عنهم ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ فيخرجون من كل حدب، من كل مكان مرتفع ينسلون أي يسرعون. وفي هذا دلالة على كثرتهم الباهرة وإسراعهم بذواتهم، وإما بما خلق الله لهم من الأسباب التي تقرب لهم البعيد، وتسهل عليهم الصعب، وأنهم يقهرون الناس، ويعلون عليهم في الدنيا، وأنه لا يد لأحد بقتالهم ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ يوم القيامة الذي وعد الله بإتيانه، ووعده حق وصدق ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ففي ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخصة، من شدة

الأهوال والقلاقل. وأنهم يدعون بالويل والثبور، والندم والحسرة، على ما فات ويقولون ﴿ يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ﴾ اليوم العظيم، حتى أتانا اليقين، ووردنا القيامة ﴿ بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ اعترفوا بظلمهم، وعدل الله فيهم، فحينئذ يؤمر بهم إلى النار، هم وما كانوا يعبدون.

﴿ 98 - 103 ﴾ ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ إنكم أيها العابدون مع الله آلهة غيره ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ وقودها وحطبها ﴿ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ وأصنامكم. والحكمة في دخول الأصنام النار وهي جماد لا تعقل، وليس عليها ذنب، بيان كذب من اتخذها آلهة، وليزداد عذابهم، فلهذا قال ﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا ﴾ وكل من العابدين والمعبودين فيها خالدون، لا يخرجون منها ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ من شدة العذاب ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ صم بكم عمي، أولا يسمعون من الأصوات غير صوتها، لشدة غليانها، واشتداد زفيرها وتغيظها. ودخول آلهة المشركين النار، إنما هو الأصنام، أو من عُبِد وهو راضٍ بعبادته ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى ﴾ وأما المسيح وعزير والملائكة ونحوهم، ممن عبد من الأولياء فإنهم لا يعذبون فيها، فقد سبقت لهم سابقة السعادة في علم الله، وفي اللوح المحفوظ وفي تيسيرهم في الدنيا لليسرى والأعمال الصالحة ﴿ أُولَئِكَ عَنْهَا ﴾ عن النار ﴿ مُبْعَدُونَ ﴾ فلا يدخلونها ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ ولا يكونون قريبا منها، بل يبعدون عنها غاية البعد، حتى لا يسمعوا حسيسها، ولا يروا شخصها ﴿ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾ مستمر لهم ذلك ويزداد حسنه ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴾ لا يقلقهم إذا فزع الناس أكبر فزع. وذلك يوم القيامة، حين تقرب النار تتغيظ على الكافرين والعاصين فيفزع الناس لذلك الأمر وهؤلاء لا يحزنهم، لعلمهم بما يقدمون عليه وأن الله قد أمنهم مما يخافون ﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ إذا بعثوا من قبورهم مهنئين لهم قائلين ﴿ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ فليهنكم ما وعدكم الله، وليعظم استبشاركم، بما أمامكم من الكرامة، وليكثر فرحكم وسروركم، بما أمنكم الله من المخاوف والمكاره.

﴿ 104 - 105 ﴾ ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ * وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السماوات كما يطوي الكاتب للسجل أي الورقة المكتوب فيها. فتنتثر نجومها، ويكور شمسها وقمرها، وتزول عن أماكنها ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ إعادتنا للخلق، مثل ابتدائنا لخلقهم، فكما ابتدأنا خلقهم، ولم يكونوا شيئا، كذلك نعيدهم بعد

موتهم ﴿ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ننفذ ما وعدنا، لكمال قدرته، وأنه لا تمتنع منه الأشياء ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ ﴾ وهو الكتاب المزبور، والمراد الكتب المنزلة، كالتوراة ونحوها ﴿ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ كتبناه في الكتب المنزلة، بعد ما كتبنا في الكتاب السابق، الذي هو اللوح المحفوظ، وأم الكتاب الذي توافقه جميع التقادير المتأخرة عنه والمكتوب في ذلك ﴿ أَنَّ الْأَرْضَ ﴾ أرض الجنة ﴿ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ الذين قاموا بالمأمورات، واجتنبوا المنهيات، فهم الذين يورثهم الله الجنات. ويحتمل أن المراد الاستخلاف في الأرض، وأن الصالحين يمكن الله لهم في الأرض ويوليهم عليها.

﴿ 106 - 112 ﴾ ﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ * قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ * إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾

﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ يتبلغون بالقرآن في الوصول إلى ربهم، وإلى دار كرامته. فوصلهم إلى أجل المطالب والرغائب. وليس للعابدين، وهم أشرف الخلق، وراء هذا من غاية. فمن لم يغنه القرآن، فلا أغناه الله، ومن لا يكفيه، فلا كفاه الله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ فهو رحمته المهداة لعباده. قبل بها المؤمنون وشكروها وقاموا بها. وبدّل غيرهم نعمة الله كفرا، وأبوا رحمة الله ونعمته ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ الذي لا يستحق العبادة إلا هو ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ منقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته، فإن فعلوا فليحمدوا ربهم على ما منَّ عليهم بهذه النعمة التي فاقت المنن ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ عن الانقياد لعبودية ربهم، فحذرهم حلول المثلات، ونزول العقوبة ﴿ فَقُلْ آذَنْتُكُمْ ﴾ أعلمتكم بالعقوبة ﴿ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ أي علمي وعلمكم بذلك مستو. وقد حذرتكم وأعلمتكم بمآل الكفر، ولم أكتم عنكم شيئا ﴿ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴾ من العذاب ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ لأن علمه عند الله، وهو بيده، ليس لي من الأمر شيء ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ لعل تأخير العذاب الذي استعجلتموه شر لكم، وأن تتمتعوا في الدنيا إلى حين، ثم يكون أعظم لعقوبتكم ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ بيننا وبين القوم الكافرين ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ نسأل ربنا الرحمن، ونستعين به على ما تصفون، من قولكم سنظهر عليكم، وسيضمحل دينكم. فنحن في هذا، لا نعجب بأنفسنا، ولا نتكل على حولنا وقوتنا، وإنما نستعين بالرحمن، الذي ناصية كل مخلوق بيده، ونرجوه أن يتم ما استعناه به من رحمته، وقد فعل، ولله الحمد.

2

مختصر تفسير سورة الحج

عدد آياتها 78

قيل مكية، وقيل مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 – 2 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ يخاطب الله الناس كافة بأن يتقوا ربهم، بترك الشرك والفسوق والعصيان، ويمتثلوا أوامره مهما استطاعوا. ثم ذكر ما يعينهم على التقوى، ويحذرهم من تركها ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يقدر قدره ولا يبلغ كنهه. ويكون من القلاقل والبلابل ما تنصدع له القلوب ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ مع أنها مجبولة على شدة محبتها لولدها ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ من شدة الفزع والهول ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ﴾ تحسبهم سكارى من الخمر وليسوا سكارى ﴿ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ أذهب عقولهم، وفرغ قلوبهم.

﴿ 3 – 4 ﴾ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ومن الناس طائفة يجادلون يريدون إحقاق الباطل وإبطال الحق، غاية ما عندهم تقليد أئمة الضلال ﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴾ متمرد على الله وعلى رسله ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ ﴾ أي قدر على هذا الشيطان المريد ﴿ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ ﴾ اتبعه ﴿ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ ﴾ عن الحق ﴿ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾.

﴿ 5 – 7 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ *ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ ﴾ أي شك واشتباه، وعدم علم بوقوعه، وإذا أبيتم إلا الريب، فهاكم دليلين عقليين كل واحد منهما يدل دلالة قطعية على ما شككتم فيه، ويزيل عن قلوبكم الريب. 1- ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ وذلك بخلق أبي البشر آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ أي مني، وهذا ابتداء أول التخليق ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ تنقلب تلك النطفة بإذن الله دما أحمر ﴿ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ ﴾ ينتقل الدم مضغة أي قطعة لحم، بقدر ما يمضغ، وتلك المضغة تارة تكون ﴿ مُخَلَّقَةٍ ﴾ أي مصور منها خلق الآدمي ﴿ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ تارة، بأن تقذفها الأرحام قبل تخليقها ﴿ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ أصل نشأتكم، مع قدرته تعالى، على تكميل خلقه في لحظة واحدة، ولكن ليبين لنا كمال حكمته، وعظيم قدرته، وسعة رحمته ﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ ونقر أي نبقي في الأرحام من الحمل، الذي لم تقذفه الأرحام، ما نشاء إبقاءه إلى أجل مسمى، وهو مدة الحمل ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿ طِفْلًا ﴾ لا تعلمون شيئا ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ حتى تبلغوا أشدكم، وهو كمال القوة والعقل ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى ﴾ من قبل أن يبلغ سن الأشد ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ ومنكم من يتجاوزه فيرد إلى أرذل العمر، أي أخسه وأرذله وهو سن الهرم والتخريف ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ لأجل أن لا يعلم هذا المعمر شيئا مما كان يعلمه قبل ذلك، وذلك لضعف عقله 2- ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ خاشعة مغبرة لا نبات فيها ولا خضر ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ﴾ تحركت بالنبات ﴿ وَرَبَتْ ﴾ ارتفعت بعد خشوعها وذلك لزيادة نباتها ﴿ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ صنف من أصناف النبات ﴿ بَهِيجٍ ﴾ يبهج الناظرين ويسر المتأملين ﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي أنشأ الآدمي من ما وصف لكم، وأحيا الأرض بعد موتها ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ الرب المعبود، عبادته هي الحق، وعبادة غيره باطلة ﴿ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ كما ابتدأ الخلق، وكما أحيا الأرض بعد موتها، ﴿ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ كما أشهدكم من بديع قدرته وعظيم صنعته ما أشهدكم ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ فلا وجه لاستبعادها ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ فيجازيكم بأعمالكم حسنها وسيئها.

﴿ 8 - 9 ﴾ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ ﴾ وهناك طائفة من الناس ﴿ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ ﴾ يجادل رسل الله وأتباعهم بالباطل ليدحض به الحق ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ صحيح ﴿ وَلَا هُدًى ﴾ غير متبع في جداله هذا من يهديه ﴿ وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ واضح بيّن. إن هي إلا شبهات يوحيها إليه الشيطان. وهو ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ لاوي جانبه وعنقه، كناية عن كبره عن الحق، واحتقاره للخلق، فقد فرح بما معه من العلم غير النافع، واحتقر أهل الحق وما معهم من الحق ﴿ لِيُضِلَّ ﴾

الناس ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي ليكون من دعاة الضلال. ويدخل تحت هذا جميع أئمة الكفر والضلال. ثم ذكر عقوبتهم الدنيوية والأخروية ﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ يفتضح هذا في الدنيا قبل الآخرة ﴿ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ نذيقه حرها الشديد، وسعيرها البليغ، وذلك بما قدمت يداه.

﴿ 11 - 13 ﴾ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ * يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ * يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ ومن الناس من هو ضعيف الإيمان ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ﴾ إن استمر رزقه رغدا ولم يحصل له من المكاره شيء اطمأن بذلك الخير لا بإيمانه. فهذا، ربما أن الله يعافيه ولا يقيض له من الفتن ما ينصرف به عن دينه. ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ من حصول مكروه، أو زوال محبوب ﴿ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ ارتد عن دينه ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ﴾ أما في الدنيا فخاب سعيه، ولم يحصل له إلا ما قسم له. وأما الآخرة فقد حرم الجنة التي عرضها السماوات والأرض، واستحق النار ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ الواضح البين ﴿ يَدْعُو ﴾ هذا الراجع على وجهه ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ﴾ وهذا صفة كل مدعو ومعبود من دون الله، فإنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ الذي قد بلغ في البعد إلى حد النهاية، حيث أعرض عن عبادة النافع الضار، وأقبل على عبادة مخلوق مثله أو دونه ﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ﴾ فإن ضرره في العقل والبدن والدنيا والآخرة معلوم ﴿ لَبِئْسَ الْمَوْلَى ﴾ هذا المعبود ﴿ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾ أي القرين. فإن المقصود من المولى والعشير حصول النفع ودفع الضرر، فإذا لم يحصل شيء من هذا، فإنه مذموم ملوم.

﴿ 14 ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ذكر تعالى القسم الثاني أي المؤمن حقيقة، الذي صدق ما معه من الإيمان بالأعمال الصالحة. فأخبر تعالى أنه يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وسميت الجنة جنة، لاشتمالها على المنازل والقصور والأشجار والنوابت التي تجن من فيها، ويستتر بها من كثرتها ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ فما أراده تعالى فعله من غير ممانع ولا معارض، ومن ذلك، إيصال أهل الجنة إليها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

﴿ 15 ﴾ ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ

يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾

﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ من كان يظن أن الله لا ينصر رسوله فليعلم أن النصر ينزل من السماء من عند الله و ﴿ فَلْيَمْدُدْ ﴾ ذلك الظان ﴿ بِسَبَبٍ ﴾ أي حبل ﴿ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ وليرقى إليها ﴿ ثُمَّ لِيَقْطَعْ ﴾ النصر النازل عليه من السماء و ﴿ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ أي ما يكيد به الرسول ما يغيظه من ظهور دينه. وهذا استفهام بمعنى النفي وأنه لا يقدر على شفاء غيظه بما يعمله من الأسباب. ومعنى هذه الآية الكريمة: يا أيها المعادي للرسول محمد صلى الله عليه وسلم اعلم أنك مهما فعلت من الأسباب، فإن ذلك لا يذهب غيظك. ولكن إن كان ممكنا ائت اعمد إلى حبل ثم اصعد به حتى تصل إلى الأبواب التي ينزل منها النصر، فسدها وأغلقها واقطعها، فبهذه الحال تشفي غيظك. وهذه الآية الكريمة، فيها من وعد وبشارة بنصر الله لدينه ولرسوله وعباده المؤمنين.

﴿ 16 ﴾ ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴾

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ وكذلك لما فصلنا في هذا القرآن ما فصلنا، جعلناه آيات بينات واضحات ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴾ ولكن الهداية بيد الله، فمن أراد الله هدايته، اهتدى بهذا القرآن، ومن لم يرد الله هدايته، فلو جاءته كل آية ما آمن، ولم ينفعه القرآن شيئا، بل يكون حجة عليه.

﴿ 17 - 24 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَالَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّـهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * إِنَّ اللَّـهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ يخبر تعالى عن طوائف أهل الأرض، من الذين أوتوا الكتاب، من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين ومن المجوس ومن المشركين أن الله سيجمعهم جميعهم ليوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل، ويجازيهم بأعمالهم التي حفظها وكتبها وشهدها ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ

فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَالَهُ مِن مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّـهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ ثم فصل هذا الفصل بينهم بقوله ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ كل يدعي أنه المحق ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يشمل كل كافر، من اليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئين، والمشركين ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ﴾ يجعل لهم ثياب من قطران، وتشعل فيها النار، ليعمهم العذاب من جميع جوانبهم ﴿ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ الماء الحار جدا، يصهر ما في بطونهم من اللحم والشحم والأمعاء، من شدة حره، وعظيم أمره ﴿ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ بيد الملائكة الغلاظ الشداد، تضربهم فيها وتقمعهم ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ فلا يفتر عنهم العذاب، ولا هم ينظرون، ويقال لهم توبيخا: ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ المحرق للقلوب والأبدان ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ومعلوم أن هذا الوصف لا يصدق على غير المسلمين، الذين آمنوا بجميع الكتب وجميع الرسل ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ يسورون في أيديهم، رجالهم ونساؤهم أساور الذهب ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ فتم نعيمهم بسبب أنهم ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ الذي أفضله وأطيبه كلمة الإخلاص، ثم سائر الأقوال الطيبة التي فيها ذكر الله، أو إحسان إلى عباد الله. ﴿ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ الصراط المحمود. أو وهدوا إلى صراط الله الحميد، لأن الله كثيرا ما يضيف الصراط إليه، لأنه يوصل صاحبه إلى الله. وفي ذكر ﴿ الحميد ﴾ هنا ليبين أنهم نالوا الهداية بحمد ربهم ومنته عليهم.

﴿ 25 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِي وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يخبر تعالى عن شناعة ما عليه المشركون الكافرون بربهم، وأنهم جمعوا بين الكفر بالله ورسوله وبين الصد عن سبيل الله ﴿ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ومنع الناس من الإيمان ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِي ﴾ والصد أيضا عن المسجد الحرام، الذي ليس ملكا لهم ولا لآبائهم، بل الناس فيه سواء، المقيم فيه والطارئ إليه، بل صدوا عنه أفضل الخلق محمدا وأصحابه ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ والحال أن هذا المسجد الحرام، من حرمته واحترامه وعظمته، أن من يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم. فمجرد إرادة الظلم والإلحاد في الحرم، موجب للعذاب، وإن كان غيره لا يعاقب العبد عليه إلا بعمل الظلم. وفي هذه الآية الكريمة وجوب احترام الحرم وشدة تعظيمه والتحذير من إرادة المعاصي فيه وفعلها.

﴿ 26 - 29 ﴾ ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا

﴿ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ هيأناه له، وأنزلناه إياه، وجعل قسما من ذريته من سكانه. وأمره الله ببنيانه، فبناه على تقوى الله، وأسسه على طاعة الله، وبناه هو وابنه إسماعيل وأمره أن لا يشرك به ﴿ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾ شيئا، بأن يخلص لله أعماله، ويبنيه على اسم الله ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ من الشرك والمعاصي ومن الأنجاس والأدناس. وأضافه الرحمن إلى نفسه لشرفه وفضله، ولتعظم محبته في القلوب، وتنصب إليه الأفئدة من كل جانب. وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه، لكونه بيت الرب ﴿ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ ﴾ والعاكفين عنده، المقيمين لعبادة من العبادات ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ المصلين: طهره لهؤلاء الفضلاء, ويدخل في هذا تطهيره من الأصوات اللاغية والمرتفعة التي تشوش المتعبدين. وقدم الطواف على الاعتكاف والصلاة، لاختصاصه بهذا البيت، ثم الاعتكاف، لاختصاصه بجنس المساجد ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ أعلمهم به، وادعهم إليه. وبلغ دانيهم وقاصيهم فرضه وفضيلته. فإنك إذا دعوتهم أتوك حجاجا وعمارا ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ أي مشاة على أرجلهم ﴿ وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ أي ناقة ضامر، تقطع المهامه والمفاوز وتواصل السير ﴿ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ من كل بلد بعيد ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ لينالوا ببيت الله منافع العبادات الفاضلة التي لا تكون إلا فيه، ومنافع من التكسب والأرباح الدنيوية ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ وهذا من المنافع الدينية والدنيوية. أي ليذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا، شكرا لله على ما رزقهم منها، ويسرها لهم. فإذا ذبحتموها ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ أي شديد الفقر ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ أي: يقضوا نسكهم، ويزيلوا الوسخ والأذى، الذي لحقهم في حال الإحرام ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ التي أوجبوها على أنفسهم من الحج والعمرة والهدايا ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ القديم، أفضل المساجد على الإطلاق، المعتق: من تسلط الجبابرة عليه. وهذا أمر بالطواف، خصوصا بعد الأمر بالمناسك عموما، لفضله وشرفه ولكونه المقصود وما قبله وسائل إليه. ولعله – والله أعلم أيضا – لفائدة أخرى، وهو: أن الطواف مشروع كل وقت، وسواء كان تابعا لنسك، أم مستقلا بنفسه.

﴿30 – 31﴾ ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ *حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ ﴾ فذلك الذي ذكرنا لكم من تلكم الأحكام، وما فيها من تعظيم حرمات الله وإجلالها وتكريمها هو تقرب الى الله. ومن عظّمها وأجلها أثابه الله ثوابا جزيلا وكانت خيرا له في دينه ودنياه وأخراه عند ربه. وحرمات الله: كل ما أمر باحترامه بعبادة أو غيرها، كالمناسك كلها

والإحرام والهدايا. ثم ذكر منته وإحسانه بما أحله لعباده من بهيمة الأنعام، من إبل وبقر وغنم، وشرعها من جملة المناسك، التي يتقرب بها إليه، فعظمت منته فيها من الوجهين ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ في القرآن تحريمه تزكية لهم وتطهيرا من الشرك به وقول الزور، ولهذا قال ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ ﴾ أي الخبث القذر ﴿ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ أي الأنداد التي جعلتموها آلهة مع الله، فإنها أكبر أنواع الرجس. والظاهر أن ﴿ مِنَ ﴾ هنا ليست لبيان الجنس، كما قاله كثير من المفسرين، وإنما هي للتبعيض، وأن الرجس عام في جميع المنهيات المحرمات، فيكون منهيا عنها عموما، وعن الأوثان التي هي بعضها خصوصا ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ أي جميع الأقوال المحرمات، فإنها من قول الزور الذي هو الكذب، ومن ذلك شهادة الزور ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ ﴾ أي مقبلين عليه وعلى عبادته، معرضين عما سواه ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا ﴾ اي مثله كمن ﴿ خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي سقط منها ﴿ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ﴾ بسرعة ﴿ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ بعيد. كذلك المشرك ومن ترك الإيمان فهو بمنزلة الساقط من السماء، عرضة للآفات والبليات تخطفه الطير فتقطعه، أي تخطفته الشياطين من كل جانب فمزقوه وأذهبوا دينه ودنياه.

﴿ 32 - 33 ﴾ ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ ذلك الذي ذكرنا لكم من تعظيم حرماته وشعائره وإجلالها والقيام بها وتكميلها على أكمل ما يقدر عليه العبد. والشعائر هي أعلام الدين الظاهرة، ومنها المناسك كلها والهدايا والقربان للبيت. وتعظيم الهدايا يعني استحسانها واستسمانها. فالمعظم لشعائر الله يبرهن على تقواه وصحة إيمانه ﴿ لَكُمْ فِيهَا ﴾ أي في الهدايا ﴿ مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ مقدر، موقت وهو ذبحها إذا وصلت. هذا في الهدايا المسوقة من البدن ونحوها، ينتفع بها أربابها بالركوب والحلب ونحو ذلك، مما لا يضرها ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ أي الحرم كله "منى" وغيرها. فإذا ذبحت، أكلوا منها وأهدوا وأطعموا البائس الفقير.

﴿ 34 - 35 ﴾ ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ﴾ لكل من الأمم السالفة جعلنا منسكا. فاستبقوا إلى الخيرات وتسارعوا إليها ﴿ لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ وإن اختلفت أجناس الشرائع، فكلها متفقة على هذا الأصل، وهو ألوهية الله، وإفراده بالعبودية، وترك الشرك به ﴿ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾ انقادوا واستسلموا له لا

لغيره، فإن الإسلام له طريق إلى الوصول إلى دار السلام ﴿ وَبَشِّرِ ﴾ بخير الدنيا والآخرة ﴿ الْمُخْبِتِينَ ﴾ المخبت هو الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ خوفا وتعظيما ﴿ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ ﴾ من البأساء والضراء وأنواع الأذى ﴿ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ ﴾ الذين جعلوها قائمة مستقيمة كاملة ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ جميع النفقات الواجبة والنفقات المستحبة. ﴿ من﴾ مفيدة للتبعيض: فيا أيها المرزوق من فضل الله، أنفق مما رزقك الله، ينفق الله عليك، ويزدك من فضله.

﴿ 36 - 37 ﴾ ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ يخبر الله هنا أن البدن هي من جملة شعائره، وهي الإبل والبقر على أحد القولين، فتعظم وتستسمن، وتستحسن ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ أي المهدي وغيره، من الأكل والصدقة والانتفاع والثواب والأجر ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ أي عند ذبحها ﴿ صَوَافَّ ﴾ أي قائمات، بأن تقام على قوائمها الأربع ثم تعقل يدها اليسرى ثم تنحر ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ أي سقطت في الأرض جنوبها حين تسلخ، ثم يسقط الجزار جنوبها على الأرض، فحينئذ قد استعدت لأن يؤكل منه ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ وهذا خطاب للمهدي، فيجوز له الأكل من هديه ﴿ وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ أي الفقير الذي لا يسأل تقنعا وتعففا، والفقير الذي يسأل فكل منهما له حق فيهما ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ ﴾ أي البدن ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الله على تسخيرها، فإنه لولا تسخيره لها، لم يكن لكم بها طاقة، ولكنه ذللها لكم وسخرها، رحمة بكم وإحسانا إليكم، فاحمدوه ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا ﴾ أي ليس المقصود منها ذبحها فقط. ولا ينال الله من لحومها ولا دمائها شيء، لكونه الغني الحميد ﴿ وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ ففي هذا حث وترغيب على الإخلاص في النحر، وأن يكون القصد وجه الله وحده، لا فخرا ولا رياء ولا سمعة ولا مجرد عادة، وهكذا سائر العبادات، إن لم يقترن بها الإخلاص وتقوى الله، كانت كالقشور الذي لا لب فيه، والجسد الذي لا روح فيه ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ ﴾ أي تعظموه وتجلوه ﴿ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾ أيم قابلة لهدايته إياكم، فإنه يستحق أكمل الثناء وأجل الحمد ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ بعبادة الله والمحسنين لعباد الله بجميع وجوه الإحسان.

﴿ 38 ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ هذا إخبار ووعد وبشارة من الله، للذين آمنوا، أن الله يدافع عنهم كل مكروه، ويدفع عنهم كل شر - بسبب إيمانهم- من شر الكفار، وشر وسوسة الشيطان، وشرور أنفسهم، وسيئات

أعمالهم، ويحمل عنهم عند نزول المكاره ما لا يتحملون، فيخفف عنهم غاية التخفيف. كل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه، فمستقل ومستكثر ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ ﴾ أي خائن في أمانته التي حمله الله إياها، فيبخس حقوق الله عليه، ويخونها ويخون الخلق ﴿ كَفُورٌ ﴾ لنعم الله، يوالي عليه الإحسان، ويتوالى منه الكفر والعصيان، فهذا لا يحبه الله، بل يبغضه ويمقته، وسيجازيه على كفره وخيانته، ومفهوم الآية، أن الله يحب كل أمين قائم بأمانته، شكور لمولاه.

﴿ 39 – 41 ﴾ ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ﴾ يفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين، فأذن الله لهم بقتال الذين يقاتلون، وإنما أذن لهم لأنهم ظلموا بمنعهم من دينهم وأذيتهم عليه وإخراجهم من ديارهم ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ فليستنصروه وليستعينوا به، ثم ذكر صفة ظلمهم ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ ألجئوا إلى الخروج بالأذية والفتنة ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا ﴾ أن ذنبهم الذي نقم منهم أعداؤهم ﴿ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ أي إلا أنهم وحدوا الله، وعبدوه مخلصين له الدين ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ فيدفع الله بالمجاهدين في سبيله ضرر الكافرين ﴿ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ ﴾ لهدمت هذه المعابد الكبار، لطوائف أهل الكتاب، معابد اليهود والنصارى والمساجد للمسلمين ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا ﴾ أي في هذه المعابد ﴿ اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ تقام فيها الصلوات، وتتلى فيها كتب الله، ويذكر فيها اسم الله بأنواع الذكر. فلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لاستولى الكفار على المسلمين، فخربوا معابدهم، وفتنوهم عن دينهم. فدل هذا أن الجهاد مشروع لأجل دفع الصائل والمؤذي، ومقصود لغيره ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ أي يقوم بنصر دينه، مخلصا له في ذلك، يقاتل في سبيله، لتكون كلمة الله هي العليا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي كامل القوة، قد قهر الخلائق، فأبشروا يا معشر المسلمين فإنكم وإن ضعف عددكم وعددكم، وقوي عدد عدوكم وعدتهم فإن ركنكم القوي العزيز و معتمدكم على من خلقكم فاعملوا بالأسباب المأمور بها، ثم اطلبوا منه نصركم، فلا بد أن ينصركم ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي ملكناهم إياها وجعلناهم المتسلطين عليها، من غير منازع ينازعهم، ولا معارض ﴿ أَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ في أوقاتها، وحدودها، وأركانها، وشروطها، في الجمعة والجماعات ﴿ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ التي عليهم خصوصا، وعلى رعيتهم عموما، آتوها أهلها، الذين هم أهلها ﴿ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ﴾ وهذا يشمل كل معروف حسنه شرعا وعقلا، من حقوق الله، وحقوق الآدميين ﴿ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ كل منكر شرعا وعقلا، معروف قبحه، والأمر بالشيء

والنهي عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به ﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ أي جميع الأمور ترجع إلى الله والعاقبة للتقوى.

﴿ 42 - 46 ﴾ ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: وإن يكذبك هؤلاء المشركون فلست بأول رسول كذب، وليسوا بأول أمة كذبت رسولها ﴿ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ* وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ* وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ﴾ أي قوم شعيب ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ﴾ المكذبين، فلم أعاجلهم بالعقوبة بل أمهلتهم، حتى استمروا في طغيانهم يعمهون ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ بالعذاب أخذ عزيز مقتدر ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي إنكاري عليهم كفرهم، وتكذيبهم كيف حاله، كان أشد العقوبات، وأفظع المثلات، فمنهم من أغرقه، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أهلك بالريح العقيم، ومنهم من خسف به الأرض، ومنهم من أرسل عليه عذاب يوم الظلة، فليعتبر بهم هؤلاء المكذبون، أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم ليسوا خيرا منهم، ولا كتب لهم براءة في الكتب المنزلة من الله، وكم من المعذبين المهلكين أمثال هؤلاء كثير ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ أي وكم من قرية ﴿ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ بالعذاب الشديد والخزي الدنيوي ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ بكفرها بالله وتكذيبها لرسله، لم يكن عقوبتنا لها ظلما منا ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ فديارهم متهدمة قصورها وجدرانها ﴿ وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾ أي وكم من بئر قد كان يزدحم عليه الخلق فعدم منه الوارد والصادر، وكم من قصر تعب عليه أهله فحين جاءهم أمر الله، لم يغن عنهم شيئا، وأصبح خاليا من أهله، عبرة لمن اعتبر ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ بأبدانهم وقلوبهم ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ آيات الله ويتأملون بها مواقع عبره ﴿ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ أخبار الأمم الماضين. وإلا فمجرد نظر العين وسماع الأذن الخالي من التفكر والاعتبار غير مفيد ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ عمى القلب عن الحق، حتى لا يشاهده كما لا يشاهد الأعمى المرئيات.

﴿ 47 - 48 ﴾ ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ يستعجلك هؤلاء المكذبون بالعذاب لجهلهم، ولن يخلف الله وعده، فما وعدهم به من العذاب، لابد من وقوعه. وأما عجلته، فليس ذلك إليك يا محمد، ولا يستفزنك عجلتهم وتعجيزهم

إيانا. فإن أمامهم يوم القيامة، الذي يجمع فيه أولهم وآخرهم، ويجازون بأعمالهم، ويقع بهم العذاب الدائم الأليم ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ من طوله وشدته. وسواء أصابهم عذاب في الدنيا، أم تأخر عنهم العذاب، فإن هذا اليوم لا بد أن يدركهم ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا ﴾ أي أمهلتها مدة طويلة ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ أي مع ظلمهم، فلم يكن مبادرتهم بالظلم موجبا لمبادرتنا بالعقوبة ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴾ بالعذاب ﴿ وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ أي مع عذابها في الدنيا، سترجع إلى الله، فيعذبها بذنوبها. فليحذر هؤلاء الظالمون من حلول عقاب الله ولا يغتروا بالإمهال.

﴿ 49 - 51 ﴾ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ يأمر تعالى عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يخاطب الناس جميعا ﴿ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ بأنه رسول الله حقا، مبشرا للمؤمنين بثواب الله، منذرا للكافرين والظالمين من عقابه، بيّن الإنذار، وهو التخويف مع الإعلام بالمخوف. وذلك لأنه أقام البراهين الساطعة على صدق ما أنذرهم به، ثم ذكر تفصيل النذارة والبشارة ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بقلوبهم إيمانا صحيحا صادقا ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ بجوارحهم ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أي الجنات التي يتنعم بها بأنواع النعيم ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ أي جحدوا نعمة ربهم وكذبوا رسله وآياته فأولئك أصحاب الجحيم الملازمون لها.

﴿ 52 - 54 ﴾ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يخبر تعالى بحكمته البالغة أن الله ما أرسل قبل محمد ﴿ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى ﴾ أي قرأ قراءته التي يذكر بها الناس ويأمرهم وينهاهم ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ أي في قراءته، من طرقه ومكايده ما هو مناقض لتلك القراءة ﴿ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾ أي يزيله ويذهبه ويبطله ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾ أي يحفظها فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أي كامل القوة والاقتدار، فبكمال قوته يحفظ وحيه، ويزيل ما تلقيه الشياطين ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يضع الأشياء مواضعها. فمن كمال حكمته، مكن الشياطين من الإلقاء المذكور، ليحصل ما ذكره بقوله ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً ﴾ لطائفتين من الناس، لا يبالي الله بهم وهم: 1- ﴿ لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي ضعف وعدم إيمان تام، فإذا سمعوا ما

ألقاه الشيطان داخلهم الريب والشك، فصار فتنة لهم 2- ﴿ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي الغليظة التي لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير. فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان جعلوه حجة لهم على باطلهم، وجادلوا به وشاقوا الله ورسوله ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أي مشاقة لله، ومعاندة للحق ومخالفة له. فما يلقيه الشيطان يكون فتنة لهؤلاء الطائفتين، فيظهر به ما في قلوبهم، من الخبث الكامن فيها. وأما الطائفة الثالثة فإنه يكون رحمة في حقها ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ لأن الله منحهم من العلم ما به يعرفون الحق من الباطل فيميزون بين الحق المستقر والباطل العارض الذي ينسخه الله ﴿ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ﴾ بسبب ذلك ويزداد إيمانهم عند دفع المعارض والشبه ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي تخشع وتخضع، وتسلم لحكمته، وهذا من هدايته إياهم ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بسبب إيمانهم ﴿ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ علم بالحق، وعمل بمقتضاه، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وهذا النوع من تثبيت الله لعبده[1].

﴿ 55 - 57 ﴾ ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾

﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ﴾ يخبر تعالى عن حالة الكفار وأنهم لا يزالون في شك مما جئتهم به يا محمد، لعنادهم وإعراضهم، وأنهم لا يبرحون مستمرين على هذه الحال ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ أي مفاجأة ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ أي لا خير فيه، وهو يوم القيامة. فإذا جاءتهم الساعة، أو أتاهم ذلك اليوم، علم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، وندموا حيث لا ينفعهم الندم ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لِلَّهِ ﴾ تعالى، لا لغيره ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ بحكمه العدل ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله ورسله وما جاءوا به ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ليصدقوا بذلك إيمانهم ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ نعيم القلب والروح والبدن، مما لا يصفه الواصفون، ولا تدركه العقول ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالله ورسله وكذبوا بآياته الهادية للحق والصواب فأعرضوا عنها ﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ لهم من شدته وألمه.

﴿ 58 - 59 ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا ﴾ هذه بشارة كبرى لمن هاجر في سبيل الله، فخرج من داره

[1] وهذه الآيات، فيها بيان أن للرسول صلى الله عليه وسلم أسوة بإخوانه المرسلين، لما وقع منه عند قراءته صلى الله عليه وسلم ﴿ والنجم ﴾ فلما بلغ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ ألقى الشيطان في قراءته: " تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى " فحصل بذلك للرسول حزن وللناس فتنة، كما ذكر الله، فأنزل الله هذه الآيات.

ووطنه وأولاده وماله، ابتغاء وجه الله، ونصرة لدين الله، فهذا قد وجب أجره على الله، سواء مات على فراشه، أو قتل مجاهدا في سبيل الله ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ في البرزخ، وفي يوم القيامة بدخول الجنة. ويحتمل أن المعنى أن المهاجر في سبيل الله، قد تكفل برزقه في الدنيا، رزقا واسعا حسنا، سواء علم الله منه أنه يموت على فراشه، أو يقتل شهيدا، فكلهم مضمون له الرزق، فلا يتوهم أنه إذا خرج من دياره وأمواله سيفتقر ويحتاج ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ فإن رازقه هو خير الرازقين ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ﴾ إما ما يفتحه الله عليهم من البلدان. وإما المراد به رزق الآخرة، وأن ذلك دخول الجنة. فتكون الآية جمعت بين الرزقين، رزق الدنيا ورزق الآخرة، واللفظ صالح لذلك كله، والمعنى صحيح، فلا مانع من إرادة الجميع ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ ﴾ بالأمور ظاهرها وباطنها ﴿ حَلِيمٌ ﴾ يعصيه الخلائق، وهو لا يعاجلهم بالعقوبة مع كمال اقتداره، بل يواصل لهم رزقه، ويسدي إليهم فضله.

﴿ 60 ﴾ ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾ ذلك بأن من جني عليه وظلم، فإنه يجوز له مقابلة الجاني بمثل جنايته، فإن فعل ذلك، فليس عليه سبيل، وليس بملوم ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾ فإن بغي عليه بعد هذا، فإن الله ينصره، لأنه مظلوم، فلا يجوز أن يبغي عليه، بسبب أنه استوفى حقه، وإذا كان المجازي غيره، بإساءته إذا ظلم بعد ذلك، نصره الله، فالذي بالأصل لم يعاقب أحدا إذا ظلم وجني عليه، فالنصر إليه أقرب ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ يعفو عن المذنبين، فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويغفر ذنوبهم فيزيلها، ويزيل آثارها عنهم. فينبغي لكم أيها المظلومون المجني عليهم أن تعفوا وتصفحوا وتغفروا ليعاملكم الله كما تعاملون عباده.

﴿ 61 - 62 ﴾ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ ﴾ ذلك الذي شرع لكم تلك الأحكام الحسنة العادلة، هو حسن التصرف، في تقديره وتدبيره، الذي ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ يدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فيأتي بالليل بعد النهار، وبالنهار بعد الليل، ويزيد في أحدهما ما ينقصه في الآخر، ثم بالعكس ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ﴿ بَصِيرٌ ﴾ يرى دبيب النملة السوداء تحت الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ﴿ ذَلِكَ ﴾ صاحب الحكم والأحكام ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ الثابت الذي لا يزال ولا يزول ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ في نفسه، وعبادته باطلة ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ العلي في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته.

﴿ 63 - 64 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك ﴿ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ وهو المطر، فينزل على أرض خاشعة مجدبة ﴿ فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ قد اكتست من كل زوج كريم، وصار لها بذلك منظر بهيج ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ ﴾ يدرك بواطن الأشياء وسرائرها ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بسرائر الأمور ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وما في الْأَرْضِ ﴾ خلقا وعبيدا ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ ﴾ بذاته الذي له الغنى المطلق التام، من جميع الوجوه ﴿ الْحَمِيدِ ﴾ المحمود في ذاته، وفي أسمائه.

﴿ 65 – 66 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تشاهد ببصرك وقلبك نعمة ربك السابغة، وأياديه الواسعة، و ﴿ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ مسخر لبني آدم ﴿ وَالْفُلْكَ ﴾ أي وسخر لكم الفلك، وهي السفن ﴿ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ تحملكم، وتحمل تجاراتكم ﴿ و ﴾ من رحمته بكم أنه ﴿ يمسك السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ فلولا رحمته وقدرته، لسقطت السماء على الأرض ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ أرحم بهم من والديهم، ومن أنفسهم ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ﴾ أوجدكم من العدم ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ بعد أن أحياكم ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ بعد موتكم، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ ﴾ أي جنسه، إلا من عصمه الله ﴿ لَكَفُورٌ ﴾ لنعم الله، كفور بالله، لا يعترف بإحسانه، بل ربما كفر بالبعث وقدرة ربه.

﴿ 67 –70 ﴾ ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ * وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا ﴾ يخبر تعالى أنه جعل لكل أمة ﴿ مَنْسَكًا ﴾ أي معبدا وعبادة، قد تختلف في بعض الأمور، مع اتفاقها على العدل والحكمة ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ أي عاملون عليه، بحسب أحوالهم ﴿ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أي لا ينازعك المكذبون لك، ويعترضون على بعض ما جئتهم به بعقولهم الفاسدة وأنه لا ينبغي أن يثنيك عن الدعوة شيء فـ ﴿ إِنَّكَ على هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴾ معتدل موصل للمقصود. والهدى ما تحصل به الهداية. ولهذا أمره الله بالعدول عن جدالهم في هذه الحالة، فقال ﴿ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

عالم بمقاصدكم ونياتكم ﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فمجازيكم عليها في يوم القيامة ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ لا يخفى عليه منها خافية ﴿ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ وإن كان تصوره عندكم لا يحاط به، فالله تعالى يسير عليه أن يحيط علما بجميع الأشياء، وأن يكتب ذلك في كتاب مطابق للواقع.

﴿ 71 -72 ﴾ ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ يذكر تعالى حالة المشركين به، وأنه ليس لهم بذلك علم، وأن الله لم ينزل في ذلك سلطانا. ثم توعد الظالمين منهم المعاندين للحق ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ ينصرهم من عذاب الله إذا نزل بهم وحل ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ الجليلة ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ لم يلتفتوا إليها، بل ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ﴾ من بغضها وكراهتها، ترى وجوههم معبسة ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ أي يكادون يوقعون بهم القتل والضرب البليغ، من شدة بغضهم وبغض الحق وعداوته، فهذه الحالة من الكفار بئس الحالة، وشرها بئس الشر، ولكن ثم ما هو شر منها وهي حالتهم التي يؤولون إليها ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾.

﴿ 73 - 74 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ هذا خطاب للمؤمنين والكفار، المؤمنون يزدادون علما وبصيرة، والكافرون تقوم عليهم الحجة ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ أي ألقوا إليه أسماعكم، وتفهموا ما احتوى عليه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ شمل كل ما يدعى من دون الله ﴿ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا ﴾ الذي هو من أحقر المخلوقات وأخسها، فليس في قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف، فما فوقه من باب أولى ﴿ وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ بل أبلغ من ذلك لو ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ وهذا غاية ما يصير من العجز ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ ﴾ الذي هو المعبود من دون الله ﴿ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ الذي هو الذباب، فكل منهما ضعيف، وأضعف منهما، من يتعلق بهذا الضعيف، وينزله منزلة رب العالمين ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ حيث سوى الفقير العاجز من جميع الوجوه، بالغني القوي من جميع الوجوه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ كامل القوة، كامل العزة.

﴿ 75 - 76 ﴾ ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي ﴾ يختار ويجتبي ﴿ مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ رسلا. ويكون نوع كل من الرسل أزكى ذلك النوع وأجمعه لصفات المجد وأحقه بالاصطفاء. فالرسل لا يكونون إلا صفوة الخلق على الإطلاق ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أحاط علمه وسمعه وبصره بجميع الأشياء ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ فاختياره إياهم، عن علم منه، أنهم أهل لذلك، وأن الوحي يصلح فيهم ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ فهو يرسل الرسل يدعون الناس إلى الله وأما الجزاء على الأعمال فمصيرها إلى الله، فلا تعدم منه فضلا أو عدلا.

﴿ 77 - 78 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالصلاة، وخص منها الركوع والسجود لفضلهما وركنيتهما، ويأمرهم بفعل الخير عموما ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فلا طريق للفلاح سوى الإخلاص في عبادة الخالق والسعي في نفع عبيده ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ هو القيام التام بأمر الله، ودعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق موصل إلى ذلك ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ اختاركم يا معشر المسلمين من بين الناس، واختار لكم الدين. فقابلوا هذه المنحة العظيمة بالقيام بالجهاد فيه حق القيام: وإذا توهم متوهم أن هذا من باب تكليف ما لا يطاق، أو تكليف ما يشق، احترز منه بقوله ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي مشقة وعسر. ويؤخذ من هذه الآية قاعدة شرعية وهي أن "المشقة تجلب التيسير" و"الضرورات تبيح المحظورات" ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي هذه الملة المذكورة ملة أبيكم إبراهيم التي ما زال عليها فالزموها واستمسكوا بها ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي في الكتب السابقة، مذكورون ومشهورون ﴿ وَفِي هَذَا ﴾ أي هذا الكتاب، وهذا الشرع. وما زال هذا الاسم لكم قديما وحديثا ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ﴾ بأعمالكم خيرها وشرها ﴿ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ لكونكم خير أمة أخرجت للناس ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ بأركانها وشروطها وحدودها وجميع لوازمها ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ المفروضة لمستحقيها شكرا لله على ما أولاكم ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ ﴾ امتنعوا به وتوكلوا عليه في ذلك، ولا تتكلوا على حولكم وقوتكم ﴿ هُوَ مَوْلَاكُمْ ﴾ الذي يتولى أموركم ﴿ فَنِعْمَ الْمَوْلَى ﴾ لمن تولاه فحصل له مطلوبه ﴿ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ لمن استنصره فدفع عنه المكروه.

تم تفسير سورة الحج،

والحمد لله رب العالمين.

الجزء الثامن عشر

23

مختصر تفسير سورة المؤمنون

عدد آياتها 118

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿1 - 11 ﴾ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فازوا وسعدوا ونجحوا و ﴿ الَّذِينَ ﴾ من صفاتهم الكاملة أنهم ﴿ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ والخشوع في الصلاة هو حضور القلب بين يدي الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ رغبة عنه، وتنزيها لأنفسهم وترفعا عنه ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ مؤدون لزكاة أموالهم، على اختلاف أجناس الأموال ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ عن الزنا، ومن تمام حفظها تجنب ما يدعو إلى ذلك كالنظر واللمس ونحوهما. فحفظوا فروجهم من كل أحد ﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ من الإماء المملوكات ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ بقربهما، لأن الله تعالى أحلهما ﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ غير الزوجة والسرية ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرمه. وعموم هذه الآية يدل على تحريم نكاح المتعة فإنها ليست زوجة حقيقة مقصودا بقاؤها ولا مملوكة، وتحريم نكاح المحلل لذلك ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ ﴾ مراعون لها، ضابطون، حافظون، حريصون على القيام بها وتنفيذها ﴿ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ يشمل العهد الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ يداومون عليها في أوقاتها وحدودها وأشراطها وأركانها ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿هم الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ ﴾ الذي هو أعلى

الجنة ووسطها وأفضلها، أو المراد بذلك جميع الجنة، ليدخل بذلك عموم المؤمنين، على درجاتهم ومراتبهم كل بحسب حاله ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ لا يظعنون عنها، ولا يبغون عنها حولا.

﴿12 - 16 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ ذكر الله في هذه الآيات أطوار الآدمي وتنقلاته، من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه، فذكر ابتداء خلق أبي النوع البشري آدم عليه السلام، وأنه ﴿ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ أي قد سلت، وأخذت من جميع الأرض، ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض، منهم الطيب والخبيث، وبين ذلك، والسهل والحزن، وبين ذلك ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ ﴾ أي جنس الآدميين ﴿ نُطْفَةً ﴾ تخرج من بين الصلب والترائب، فتستقر ﴿ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ وهو الرحم، محفوظة من الفساد والريح وغير ذلك ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ ﴾ التي قد استقرت قبل ﴿عَلَقَةً ﴾ أي دما أحمر، بعد مضي أربعين يوما من النطفة ﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ ﴾ بعد أربعين يوما ﴿ مُضْغَةً ﴾ أي قطعة لحم صغيرة، بقدر ما يمضغ من صغرها ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ ﴾ اللينة ﴿ عِظَامًا ﴾ صلبة، قد تخللت اللحم، بحسب حاجة البدن إليها ﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ﴾ أي جعلنا اللحم كسوة للعظام، كما جعلنا العظام عمادا للحم، وذلك في الأربعين الثالثة ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ نفخ فيه الروح، فانتقل من كونه جمادا، إلى أن صار حيوانا ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ ﴾ تعالى وتعاظم وكثر خيره ﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾. فخلقه كله حسن، والإنسان من أحسن مخلوقاته، بل هو أحسنها على الإطلاق ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ الخلق، ونفخ الروح ﴿ لَمَيِّتُونَ ﴾ في أحد أطواركم وتنقلاتكم ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ فتجازون بأعمالكم، حسنها وسيئها.

﴿17 - 20 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ * وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ * فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ ﴾ سقفا ﴿ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ أي سبع سماوات طباقا، كل طبقة فوق الأخرى ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ وكثيرا ما يقرن تعالى بين خلقه وعلمه لأن خلق المخلوقات من أقوى الأدلة العقلية على علم خالقها وحكمته ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ يكون رزقا لكم ولأنعامكم ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أنزلناه عليها، فسكن واستقر ﴿ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ إما بأن لا ننزله، أو ننزله ولا يوصل إليه، أو لا يوجد منه المقصود منه.

وهذا تنبيه منه لعباده أن يشكروه على نعمته، ويقدروا عدمها، ماذا يحصل به من الضرر ﴿ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ ﴾ بذلك الماء ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ بساتين ﴿ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ خص تعالى هذين النوعين لفضلهما ومنافعهما. وقد ذكر العام في قوله ﴿ لَكُمْ فيها ﴾ في تلك الجنات ﴿ فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ ﴾ وهي شجرة الزيتون، أي جنسها، خصت بالذكر، لأن مكانها خاص في أرض الشام، ولمنافعها، التي ذكر بعضها في قوله ﴿ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ﴾ أي فيها الزيت الذي هو دهن وغير ذلك من المنافع.

﴿21 - 22 ﴾ ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾ ومن نعمه عليكم، أن سخر لكم الأنعام، عبرة للمعتبرين، ومنافع للمنتفعين ﴿ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ من لبن، يخرج من بين فرث ودم، خالص سائغ للشاربين ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ ﴾ من أصوافها وأوبارها وأشعارها ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أفضل المآكل من لحم وشحم ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ جعلها سفنا لكم في البر.

﴿23 - 30 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ *إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ يذكر تعالى رسالة عبده ورسوله نوح عليه السلام، أول رسول أرسله لأهل الأرض، فأرسله إلى قومه، وهم يعبدون الأصنام، فأمرهم بعبادة الله وحده ﴿ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أي أخلصوا له العبادة، لأن العبادة لا تصح إلا بإخلاصها ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ فيه إبطال ألوهية غير الله ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ما أنتم عليه من عبادة الأوثان والأصنام ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ ﴾ من قومه الأشراف والسادة المتبوعون ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ حين ادعى النبوة ﴿ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ قصده أن يزيد عليكم فضيلة، ليكون متبوعا، وإلا فما الذي يفضله عليكم، وهو من جنسكم ﴿ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ وهذه أيضا معارضة بالمشيئة باطلة ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا ﴾ أي بإرسال الرسول ﴿ فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ وأي حجة هذه، فلا يجعلوا جهلهم حجة لهم، بل فليحمدوا ربهم ويشكروه أن خصهم

بنعمة لم تأت آباءهم ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ أي مجنون ﴿ فَتَرَبَّصُوا بِهِ ﴾ انتظروا به ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ إلى أن يأتيه الموت ﴿ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ فاستنصر ربه عليهم، غضبا لله ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ عند استجابتنا له، سببا ووسيلة للنجاة، قبل وقوع أسبابه ﴿ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾ أي السفينة ﴿ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ أي بأمرنا لك ومعونتنا، وأنت في حفظنا وكلاءتنا بحيث نراك ونسمعك ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ بإرسال الطوفان الذي عذبوا به ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ أي فارت الأرض، وتفجرت عيونا، حتى محل النار الذي لم تجر العادة إلا ببعده عن الماء ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ أي أدخل في الفلك من كل جنس من الحيوانات، ذكرا وأنثى، تبقى مادة النسل لسائر الحيوانات، التي اقتضت الحكمة الربانية إيجادها في الأرض ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ أي أدخلهم ﴿ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ كابنه ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي لا تدعني أن أنجيهم، فإن القضاء والقدر، قد حتم أنهم مغرقون ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ ﴾ أي علوتم عليها، واستقلت بكم في تيار الأمواج، ولجج اليم ﴿ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّـهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ فاحمدوا الله على النجاة والسلامة وعلى نجاتهم من القوم الظالمين في عملهم وعذابهم ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ أي وبقيت عليكم نعمة أخرى، فادعوا الله فيها، وهي أن ييسر الله لكم منزلا مباركا. فاستجاب الله دعاءه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي في هذه القصة ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ تدل على أن الله وحده المعبود، وعلى أن رسوله نوحا صادق، وأن قومه كاذبون، وعلى رحمة الله بعباده، حيث حملهم في صلب أبيهم نوح، في الفلك لما غرق أهل الأرض. والفلك أيضا من آيات الله ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾.

﴿31 – 41 ﴾ ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ * أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ الظاهر أنهم " ثمود " قوم صالح عليه السلام، لأن هذه القصة تشبه قصتهم ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ من جنسهم، فدعا إلى ما دعت إليه الرسل أممهم ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ الأمر بعبادة الله هي أول دعوة يدعون بها أممهم ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ربكم ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي قال الرؤساء الذين جمعوا بين الكفر والمعاندة ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ من جنسكم ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ فما الذي يفضله عليكم؟ ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ إن تبعتموه وجعلتموه لكم رئيسا، وهو مثلكم إنكم لمسلوبو العقل ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا

مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ* هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ بعيد بعيد ما يعدكم به من البعث، بعد أن تمزقتم وكنتم ترابا وعظاما ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ يموت أناس، ويحيا أناس ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ فلهذا أتى بما أتى به من توحيد الله وإثبات المعاد أي فلم يبق بزعمهم الباطل مجادلة معه، وإنما بقي الكلام هل يوقعون به أم لا؟ ولهذا لما اشتد كفرهم، ولم ينفع فيهم الإنذار، دعا عليهم نبيهم ﴿ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ بإهلاكهم وخزيهم الدنيوي، قبل الآخرة ﴿ قَالَ ﴾ الله مجيبا لدعوته ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ ﴾ بالعدل أخذتهم الصيحة فأهلكتهم عن آخرهم ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ﴾ هشيما يبسا ﴿ فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أتبعوا مع عذابهم، البعد واللعنة والذم من العالمين.

﴿42 – 44 ﴾ ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ من بعد هؤلاء المكذبين المعاندين ﴿ قُرُونًا آخَرِينَ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ كل أمة في وقت مسمى وأجل محدود لا تتقدم عنه ولا تتأخر ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى ﴾ متتابعة لعلهم يؤمنون وينيبون ﴿ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ فلم يزل الكفر والتكذيب دأب الأمم العصاة ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا ﴾ بالهلاك، فلم يبق منهم باقية ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ يتحدث بهم من بعدهم، ويكونون عبرة ﴿فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ما أشقاهم وما أخسر صفقتهم.

﴿45 – 49 ﴾ ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى ﴾ بن عمران، كليم الرحمن ﴿ وَأَخَاهُ هَارُونَ ﴾ حين سأل ربه أن يشركه في أمره فأجاب سؤله ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ الدالة على صدقهما وصحة ما جاءا به ﴿ وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي حجة بينة تنقاد لها قلوب المؤمنين، وتقوم الحجة البينة على المعاندين ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ كـ "هامان" وغيره من رؤسائهم، ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ تكبروا عن الإيمان بالله، واستكبروا على أنبيائه ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴾ وصفُهم العلو والقهر والفساد في الأرض ﴿ فَقَالُوا ﴾ كبرا وتيها ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ كما قاله من قبلهم سواء بسواء، فتشابهت أقوالهم وأفعالهم، وجحدوا منة الله عليهما بالرسالة ﴿ وَقَوْمُهُمَا ﴾ أي بنو إسرائيل ﴿ لَنَا عَابِدُونَ ﴾ أي معبدون بالأعمال والأشغال الشاقة. فكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾ في الغرق في البحر، وبنو إسرائيل ينظرون ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ بعدما أهلك الله فرعون، وخلص الشعب الإسرائيلي مع موسى، وتمكن حينئذ من إقامة أمر

الله فيهم وإظهار شعائره، وعده الله أن ينزل عليه التوراة أربعين ليلة، فذهب لميقات ربه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ بمعرفة تفاصيل الأمر والنهي والثواب والعقاب، ويعرفون ربهم بأسمائه وصفاته.

﴿ 50 ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ وامتننا على عيسى ابن مريم وجعلناه وأمه من آيات الله العجيبة، حيث حملته وولدته من غير أب، وتكلم في المهد صبيا، وأجرى الله على يديه من الآيات ما أجرى ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ﴾ أي مكان مرتفع، وهذا – والله أعلم– وقت وضعها ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ مستقر وراحة ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ أي ماء جار.

﴿51 – 56 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ ﴾ هذا أمر منه تعالى لرسله ﴿ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ الرزق الطيب الحلال ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ وشكر الله بالعمل الصالح، الذي به يصلح القلب والبدن والدنيا والآخرة ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ فكل عمل عملوه، وكل سعي اكتسبوه، فإن الله يعلمه وسيجازيهم عليه أتم الجزاء وأفضله ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً ﴾ أي جماعتكم يا معشر الرسل جماعة ﴿ وَاحِدَةً ﴾ متفقة على دين واحد، وربكم واحد ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ بامتثال أوامري واجتناب زواجري. وقد أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين لأنهم بهم يقتدون ﴿ فَتَقَطَّعُوا ﴾ أي تقطع المنتسبون إلى اتباع الأنبياء ﴿ أَمْرَهُمْ ﴾ أي دينهم ﴿ بَيْنَهُمْ زُبُرًا ﴾ أي قطعا ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ أي بما عندهم من العلم والدين ﴿ فَرِحُونَ ﴾ يزعمون أنهم المحقون، وغيرهم على غير الحق، مع أن المحق منهم، من كان على طريق الرسل، من أكل الطيبات، والعمل الصالح، وما عداهم فإنهم مبطلون ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ ﴾ أي في وسط جهلهم بالحق، ودعواهم أنهم هم المحقون ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ إلى أن ينزل العذاب بهم، فإنهم لا ينفع فيهم وعظ ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ أي أيظنون أن زيادتنا إياهم بالأموال والأولاد، دليل على أن لهم خير الدنيا والآخرة؟ ليس الأمر كذلك ﴿ بَل لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أنما نملي لهم ونمهلهم ونمدهم بالنعم، ليزدادوا إثما.

﴿57 – 62 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ * وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ وجلون خائفون ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا، ويتفكرون أيضا في الآيات القرآنية ويتدبرونها ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ كاتخاذ غير الله معبودا، ولا شركا خفيا، كالرياء ونحوه، بل هم مخلصون لله في أقوالهم وأعمالهم وسائر أحوالهم ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا ﴾ يعطون من أنفسهم مما أمروا به، ما آتوا من كل ما يقدرون عليه من صلاة وزكاة وحج وصدقة وغير ذلك ﴿ وَ ﴾ مع هذا ﴿ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ أي خائفة ﴿ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ أي خائفة عند عرض أعمالها عليه، والوقوف بين يديه، أن تكون أعمالهم غير منجية من عذاب الله، لعلمهم بربهم وما يستحقه من أصناف العبادات ﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ يسارعون في كل خير. ولما كان السابق لغيره المسارع قد يسبق لجده وتشميره، وقد لا يسبق لتقصيره، أخبر تعالى أن هؤلاء ﴿ وَهُمْ لَهَا ﴾ أي للخيرات ﴿ سَابِقُونَ ﴾ قد بلغوا ذروتها، وتباروا هم والرعيل الأول، ومع هذا، قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة، أنهم سابقون ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أي بقدر ما تسعه ويفضل من قوتها عنه، ليس مما يستوعب قوتها، رحمة منه وحكمة، لتيسير طريق الوصول إليه، ولتعمر جادة السالكين في كل وقت إليه ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ﴾ وهو الكتاب الأول، الذي فيه كل شيء، وهو يطابق كل واقع يكون، فلذلك كان حقا ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي لا ينقص من إحسانهم، ولا يزداد في عقوبتهم وعصيانهم.

﴿63 – 67 ﴾ ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ * حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا ﴾ يخبر تعالى أن قلوب المكذبين وسط غمرة جهل وإعراض تمنعهم من الوصول إلى هذا القرآن، فلا يهتدون به ولا يصل إلى قلوبهم منه شيء. وقد عملوا بحسب هذا الحال من الأعمال المعاندة للشرع ما هو موجب لعقابهم ﴿ وَ ﴾ لكن ﴿ لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ﴾ هذه الأعمال ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ فلا يستغربوا عدم وقوع العذاب فيهم، فإن الله يمهلهم ليعملوا هذه الأعمال، ثم ينتقلوا إلى غضب الله وعقابه ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ ﴾ أي متنعميهم، الذين ما اعتادوا إلا الترف والرفاهية والنعيم، ولم تحصل لهم المكاره، فإذا أخذناهم ﴿ بِالْعَذَابِ ﴾ ووجدوا مسه ﴿ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴾ يصرخون ويتوجعون ويستغيثون. فيقال لهم ﴿ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ ﴾ وإذا لم تأتهم النصرة من الله لم يستطيعوا نصر أنفسهم، ولم ينصرهم أحد. فكأنه قيل ما السبب الذي أوصلهم إلى هذا الحال؟ قال ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ لتؤمنوا بها وتقبلوا عليها، فلم تفعلوا ذلك ﴿ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ ﴾ فباتباعهم القرآن يتقدمون، أما بالإعراض عنه فهم يستأخرون وينزلون إلى أسفل سافلين ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ

﴿ بِهِ ﴾ قال المفسرون معناه: نحن أهل الحرم، فنحن أفضل من غيرنا وأعلى ﴿ سَامِرًا ﴾ أي جماعة يتحدثون بالليل حول البيت ﴿ تَهْجُرُونَ ﴾ تقولون الكلام الهجر الذي هو القبيح في هذا القرآن.

﴿ 68 – 74 ﴾ ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ *أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ *وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ }

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ أفلا يتفكرون في القرآن ويتدبرونه، فإنهم لو تدبروه لأوجب لهم الإيمان، ولمنعهم من الكفر. ودل هذا على أن تدبر القرآن يدعو إلى كل خير، ويعصم من كل شر، والذي منعهم من تدبره أن على قلوبهم أقفالها ﴿ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أو منعهم من الإيمان أنه جاءهم رسول وكتاب ما جاء آبائهم الأولين، فرضوا بسلوك طريق آبائهم الضالين، وعارضوا كل ما خالف ذلك ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ أو منعهم من اتباع الحق أن رسولهم محمدا صلى الله عليه وسلم غير معروف عندهم، فهم منكرون له؟ أي لم يكن الأمر كذلك، لأن صغيرهم وكبيرهم يعرفون الرسول صلى الله عليه وسلم معرفة تامة، حتى كانوا يسمونه قبل البعثة "الأمين" فلم لا يصدقونه، حين جاءهم بالحق العظيم ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ أي جنون ﴿ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أي بالأمر الثابت، لكن الحقيقة التي منعتهم من الإيمان أنه جاءهم بالحق ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ وهذا هو الذي أوجب لهم التكذيب بالحق لا شكا ولا تكذيبا للرسول ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ فأهواءهم متعلقة بالظلم والكفر والفساد من الأخلاق والأعمال، فلو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بذكرهم ﴾ بهذا القرآن المذكر لهم بكل خير، الذي به فخرهم وشرفهم حين يقومون به، ويكونون به سادة الناس ﴿ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ شقاوة منهم، وعدم توفيق ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا ﴾ أو منعهم من اتباعك يا محمد أنك تسألهم على الإجابة أجرا ﴿ فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ فدعوتك إياهم إلى الصراط المستقيم، موجب لمن يريد الحق أن يتبعك. فأين يذهبون إن لم يتابعوك؟ فإنهم ليس عندهم ما يغنيهم ويكفيهم عن متابعتك لأنهم ﴿ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾ متجنبون منحرفون عن الطريق الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته، ليس في أيديهم إلا ضلالات وجهالات.

﴿75 – 77 ﴾ ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ * حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ إن الله إذا كشف الضر عنهم لجوا يجولون في كفرهم حائرين مترددين ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ ﴾ قال المفسرون المراد بذلك الجوع الذي أصابهم سبع سنين، وأن الله ابتلاهم بذلك، ليرجعوا إليه بالذل والاستسلام، فلم ينجع فيهم ولا نجح منهم أحد ﴿ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ أي خضعوا وذلوا ﴿ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ إليه بل لم يزالوا في غيهم وكفرهم ﴿ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ كالقتل يوم بدر وغيره ﴿ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ آيسون من كل خير، قد حضرهم الشر وأسبابه، فليحذروا قبل نزول عذاب الله الشديد، الذي لا يرد، بخلاف مجرد العذاب، فإنه ربما أقلع عنهم، كالعقوبات الدنيوية، التي يؤدب الله بها عباده.

﴿78 - 80 ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ * وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ ﴾ لتدركوا به المسموعات، فتنتفعوا في دينكم ودنياكم ﴿ وَالْأَبْصَارَ ﴾ لتدركوا بها المبصرات، فتنتفعوا بها في مصالحكم ﴿ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ أي العقول التي تدركون بها الأشياء، وتتميزون بها عن البهائم ﴿ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ ولكنكم قليل شكركم مع توالي النعم عليكم ﴿ وَهُوَ ﴾ تعالى ﴿ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ بثكم في أقطارها وجهاتها، وسلطكم على استخراج مصالحها ومنافعها ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ بعد موتكم، فيجازيكم بما عملتم في الأرض ﴿ وَهُوَ ﴾ تعالى وحده ﴿ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ فالمتصرف في الحياة والموت هو الله وحده ﴿ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ تعاقبهما وتناوبهما ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فتعرفون أن الذي وهب لكم من النعم السمع والأبصار والأفئدة، والذي نشركم في الأرض وحده، والذي يحيي ويميت وحده، والذي يتصرف بالليل والنهار وحده، أن ذلك موجب لكم، أن تخلصوا له العبادة وحده لا شريك له.

﴿81 - 83 ﴾ ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴾ سلك هؤلاء المكذبون مسلك الأولين من المكذبين بالبعث، واستبعدوه غاية الاستبعاد و ﴿ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أي هذا لا يتصور ولا يدخل العقل بزعمهم ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ ﴾ ما زلنا نوعد بأن البعث كائن، نحن وآباؤنا، ولم نره، ولم يأت بعد ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ قصصهم وأسمارهم وليس لها حقيقة.

﴿84 - 89 ﴾ ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ لهؤلاء المكذبين بالبعث، العادلين بالله غيره ﴿ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ من هو الخالق للأرض ومن عليها من حيوان ونبات وجماد وبحار وأنهار وجبال، المالك لذلك، المدبر له؟ فإنك إذا سألتهم عن ذلك ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ فقل لهم إذا أقروا بذلك ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي أفلا ترجعون إلى ما ذكركم الله به، مما هو معلوم عندكم ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ ﴾ وما فيها من الكواكب السيارات والثوابت ﴿ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ الذي هو أعلى المخلوقات وأوسعها وأعظمها، فمن الذي خلق ذلك ودبره، وصرفه بأنواع التدبير ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ قل لهم حين يقرون بذلك ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ الرب العظيم كامل القدرة، عظيم السلطان؟ ثم انتقل إلى إقرارهم بما هو أعم من ذلك كله فقال ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ملك كل شيء، ما نبصره وما لا نبصره و "الملكوت" بصيغة مبالغة بمعنى الملك ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ ﴾ عباده من الشر، ويدفع عنهم المكاره، ويحفظهم مما يضرهم ﴿ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ لا يقدر أحد أن يجير على الله ولا يدفع الشر الذي قدره الله. بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ أي سيقرون أن الله المالك لكل شيء، المجير، الذي لا يجار عليه ﴿ قُلْ ﴾ لهم حين يقرون بذلك، ملزما لهم ﴿ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ أي فأين تذهب عقولكم، حيث عبدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم. فالعقول التي دلتكم على هذا قد سحرها الشيطان، كما سحرت السحرة أعين الناس.

﴿90 - 92 ﴾ ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ المتضمن للصدق في الأخبار، العدل في الأمر والنهي وليس عندهم ما يعوضهم عنه إلا الكذب والظلم ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ كذب يعرف بخبر الله، وخبر رسله، ويعرف بالعقل الصحيح، ولهذا نبه تعالى على الدليل العقلي، على امتناع إلهين فقال ﴿ إِذًا ﴾ أي لو كان معه آلهة كما يقولون ﴿ لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ لانفرد كل واحد من الإلهين بمخلوقاته واستقل بها ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ فالغالب يكون هو الإله، فهل يتصور أن يكون ذلك تقدير إلهين ربين ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ قد نطقت بلسان حالها أن المدبر لها إله واحد كامل الأسماء والصفات ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا ﴿ وَالشَّهَادَةِ ﴾ وهو ما نشاهد من ذلك ﴿ فَتَعَالَى ﴾ أي ارتفع وعظم ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ به من لا علم عنده، إلا ما علمه الله.

﴿93 - 95﴾ ﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾

﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴾ أي وقت أريتني عذابهم وأحضرتني ذلك ﴿ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ اعصمني وارحمني، مما ابتليتهم به من الذنوب الموجبة للنقم، واحمني أيضا من العذاب الذي ينزل بهم، لأن العقوبة العامة تعم -عند نزولها- العاصي وغيره، قال الله في تقريب عذابهم ﴿ وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾ ولكن إن أخرناه فلحكمة، وإلا، فقدرتنا صالحة لإيقاعه فيهم.

﴿96 - 98﴾ ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴾ يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم. وهذا من مكارم الأخلاق التي أمر الله رسوله بها ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ بما يقولون من الأقوال المتضمنة للكفر والتكذيب بالحق. فأنت -يا محمد- ينبغي لك أن تصبر على ما يقولون، وتقابلهم بالإحسان، هذه وظيفة العبد في مقابلة المسيء من البشر. وأما المسيء من الشياطين، فإنه لا يفيد فيه الإحسان ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ ﴾ أي اعتصم بحولك وقوتك متبرئا من حولي وقوتي ﴿ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ أي أعوذ بك من الشر الذي يصيبني بسبب مباشرتهم وهمزهم ومسهم، ومن الشر الذي بسبب حضورهم ووسوستهم، وهذه استعاذة من مادة الشر كله وأصله، ويدخل فيها الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان، ومن مسه ووسوسته، فإذا أعاذ الله عبده من هذا الشر، وأجاب دعاءه، سلم من كل شر، ووفق لكل خير.

﴿99 - 100﴾ ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ يخبر تعالى عن حال من حضره الموت من المفرطين الظالمين، أنه يندم إذا رأى مآله، فيطلب الرجعة إلى الدنيا ﴿ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ من العمل، وفرطت في جنب الله ﴿ كَلَّا ﴾ لا رجعة له ولا إمهال، قد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون ﴿ إِنَّهَا ﴾ أي مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿ كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ أي مجرد قول باللسان، وهو أيضا غير صادق في ذلك، فإنه لو رد لعاد لما نهي عنه ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ من أمامهم وبين أيديهم برزخ، وهو الحاجز بين الشيئين، وهو هنا الحاجز

بين الدنيا والآخرة، وفي هذا البرزخ، يتنعم المطيعون، ويعذب العاصون، من موتهم إلى يوم يبعثون، فليعدوا له عدته وليأخذوا له أهبته.

﴿101 - 114 ﴾ ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ * فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ * قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ إذا نفخ في الصور نفخة البعث، فحشر الناس أجمعون لميقات يوم معلوم، أنه يصيبهم من الهول ما ينسيهم أنسابهم، فغير الأنساب من باب أولى، وأنه لا يسأل أحد أحدا عن حاله، لاشتغاله بنفسه، فلا يدري هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ لنجاتهم من النار، واستحقاقهم الجنة ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ بأن رجحت سيئاته على حسناته، وأحاطت بها خطيئاته ﴿ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ خسارة أبدية ﴿ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ لا يخرجون منها أبد الآبدين[1]. ثم ذكر تعالى، سوء مصير الكافرين فقال ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ أي تغشاهم من جميع جوانبهم، حتى تصيب أعضاءهم الشريفة، ويتقطع لهبها عن وجوههم ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ قد عبست وجوههم، وقلصت شفاههم، من شدة ما هم فيه، وعظيم ما يلقونه ﴿ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ لتؤمنوا ﴿ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ ظلما منكم وعنادا ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق، والإقبال على ما يضر، وترك ما ينفع ﴿ وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ فعلنا في الدنيا فعل التائه الضال السفيه ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ وهم كاذبون في وعدهم هذا ﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم، أشد عليهم وأبلغ في نكايتهم من عذاب الجحيم ، ثم ذكر الحال التي أوصلتهم إلى العذاب، وقطعت عنهم الرحمة فقال ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فجمعوا بين الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة، والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ ﴾ أيها الكفرة الأنذال ﴿ سِخْرِيًّا ﴾ تهزءون بهم وتحتقرونهم ﴿ حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي

[1] وهذا الوعيد، إنما هو كما ذكرنا، لمن أحاطت خطيئاته بحسناته، ولا يكون ذلك إلا كافرا. فعلى هذا لا يحاسب محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنهم لا حسنات لهم. ولكن تعد أعمالهم وتحصى، فيوقفون عليها، ويقررون بها، ويخزون بها، وأما من معه أصل الإيمان، ولكن عظمت سيئاته، فرجحت على حسناته، فإنه وإن دخل النار، لا يخلد فيها، كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة.

﴿ وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ وهذا الذي أوجب لهم نسيان الذكر، اشتغالهم بالاستهزاء بهم، كما أن نسيانهم للذكر، يحثهم على الاستهزاء، فكل من الأمرين يمد الآخر، فهل فوق هذه الجراءة جراءة ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ على طاعتي، وعلى أذاكم، حتى وصلوا إلي ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ بالنعيم المقيم، والنجاة من الجحيم ﴿ قَالَ ﴾ لهم على وجه اللوم ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ كلامهم هذا، مبني على استقصارهم جدا، لمدة مكثهم في الدنيا وأفاد ذلك، لكنه لا يفيد مقداره، ولا يعينه، فلهذا قالوا ﴿ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴾ أي الضابطين لعدده، وأما هم ففي شغل شاغل وعذاب مذهل عن معرفة عدده، فـ ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ سواء عينتم عدده، أم لا ﴿ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿115 - 116 ﴾ ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ ﴾ أيها الخلق ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ سدى وباطلا ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ لا يخطر هذا ببالكم ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ ﴾ تعاظم عن هذا الظن الباطلا ﴿ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ فكونه ملكا للخلق كلهم حقا ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الكريم ﴾ فما دونه من باب أولى، يمنع أن يخلقكم عبثا.

﴿117 - 118 ﴾ ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾

﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ فكل من دعا غير الله فليس له برهان على ذلك، بل دلت البراهين على بطلان ما ذهب إليه، فأعرض عنها ظلما وعنادا، فهذا سيقدم على ربه ولا ينيله من الفلاح شيئا لأنه كافر ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ فكفرهم منعهم من الفلاح ﴿ وَقُلْ ﴾ داعيا لربك مخلصا له الدين ﴿ رَبِّ اغْفِرْ ﴾ لنا حتى تنجينا من المكروه ﴿ وَارْحَمْ ﴾ نا، لتوصلنا برحمتك إلى كل خير ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾.

تم تفسير سورة المؤمنين

من فضل الله وإحسانه

24

مختصر تفسير سورة النور

عدد آياتها 64

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 ﴾ ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

هذه ﴿ سُورَةٌ ﴾ عظيمة القدر ﴿ أَنْزَلْنَاهَا ﴾ رحمة منا بالعباد، وحفظناها من كل شيطان ﴿ وَفَرَضْنَاهَا ﴾ قدرنا فيها ما قدرنا، من الحدود والشهادات وغيرها ﴿ وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أحكاما جليلة، وأوامر وزواجر، وحكما عظيمة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ حين نبين لكم، ونعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

﴿ 2 - 3 ﴾ ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ﴾ هذا الحكم في الزاني والزانية البكرين ﴿ فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ وأما الثيب، فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة، أن حده الرجم ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ ونهانا تعالى أن تأخذنا رأفة بهما في دين الله تمنعنا من إقامة الحد عليهم، سواء رأفة طبيعية، أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرأفة المانعة من إقامة أمر الله ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وأمر تعالى أن يحضر عذاب الزانيين طائفة أي جماعة من المؤمنين، ليشتهر ويحصل بذلك الخزي والارتداع، وليشاهدوا الحد فعلا ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ الزاني لا يقدم على نكاحه من النساء إلا أنثى زانية، تناسب حاله حالها. أو مشركة بالله، لا تؤمن ببعث ولا جزاء، ولا تلتزم أمر الله ﴿ وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ والزانية كذلك لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي حرم عليهم أن ينكحوا زانيا، أو ينكحوا زانية. وهذا دليل صريح على تحريم نكاح الزانية حتى تتوب، وكذلك إنكاح الزاني حتى يتوب.

﴿ 4 - 5 ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ النساء الأحرار العفائف، وكذاك الرجال، لا فرق بين الأمرين، والمراد بالرمي الرمي بالزنا بدليل السياق ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا ﴾ على ما رموا به ﴿ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ أي رجال عدول، يشهدون بذلك صريحا، ﴿ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ بسوط متوسط، يؤلم فيه، ولا يبالغ بذلك حتى يتلفه، لأن القصد التأديب لا الإتلاف، وفي هذا تقدير حد القذف، ولكن بشرط أن يكون المقذوف كما قال تعالى محصنا مؤمنا، وأما قذف غير المحصن، فإنه يوجب التعزير ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ﴾ أي لهم عقوبة أخرى، وهو أن شهادة القاذف غير مقبولة، ولو حد على القذف، حتى يتوب كما يأتي ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي الخارجون عن طاعة الله، وهذا دليل على أن القذف من كبائر الذنوب ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فالتوبة في هذا الموضع، أن يكذب القاذف نفسه، ويقر أنه كاذب فيما قال. وهو واجب عليه أن يكذب نفسه ولو تيقن وقوعه، حيث لم يأت بأربعة شهداء. فإذا تاب القاذف وأصلح عمله وبدل إساءته إحسانا، زال عنه الفسق، وكذلك تقبل شهادته على الصحيح. فإن الله غفور رحيم يغفر الذنوب جميعا، لمن تاب وأناب. وإنما يجلد القاذف، إذا لم يأت بأربعة شهداء إذا لم يكن زوجا، فإن كان زوجا، فقد ذكر بقوله:

﴿ 6 - 10 ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ أي الحرائر لا المملوكات. وإنما كانت شهادات الزوج على زوجته، دارئة عنه الحد. لأن الغالب أن الزوج لا يقدم على رمي زوجته، التي يدنسه ما يدنسها، إلا إذا كان صادقا. ولأن له في ذلك حقا، وخوفا من إلحاق أولاد ليسوا منه به، ولغير ذلك من الحكم المفقودة في غيره ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ﴾ على رميهم بذلك ﴿ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ﴾ بأن لم يقيموا شهداء، على ما رموهم به ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ سماها شهادة، لأنها نائبة مناب الشهود، بأن يقول: "أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميتها به" ﴿ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أي يزيد في الخامسة مع الشهادة المذكورة، مؤكدا تلك الشهادات، بأن يدعو على نفسه، باللعنة إن كان كاذبا، فإذا تم لعانه، سقط عنه حد القذف، ظاهر الآيات، ولو سمى الرجل الذي رماها به، فإنه يسقط حقه تبعا لها. وهل يقام عليها الحد، بمجرد لعان الرجل ونكولها أم تحبس؟ فيه قولان للعلماء، الذي يدل عليه الدليل، أنه يقام عليها الحد، بدليل قوله ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ ﴾ فلولا أن العذاب

وهو الحد قد وجب بلعانه، لم يكن لعانها دارئا له. ويدرأ عنها، أي يدفع عنها العذاب، إذ قابلت شهادات الزوج، بشهادات من جنسها ﴿ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ وتزيد في الخامسة، مؤكدة لذلك ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أن تدعو على نفسها بالغضب، فإذا تم اللعان بينهما، فرق بينهما إلى الأبد، وانتفى الولد الملاعن عليه، وظاهر الآيات يدل على اشتراط هذه الألفاظ عند اللعان، منه ومنها، واشتراط الترتيب فيها، وأن لا ينقص منها شيء، ولا يبدل شيء بشيء، وأن اللعان مختص بالزوج إذا رمى امرأته، لا بالعكس، وأن الشبه في الولد مع اللعان لا عبرة به، كما لا يعتبر مع الفراش، وإنما يعتبر الشبه حيث لا مرجح إلا هو ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ وجواب الشرط محذوف، يدل عليه سياق الكلام أي لأحل بأحد المتلاعنين الكاذب منهما، ما دعا به على نفسه. ومن رحمته وفضله ثبوت هذا الحكم الخاص بالزوجين، لشدة الحاجة إليه. وأن بين لكم شدة الزنا وفظاعته، وفظاعة القذف به. وأن شرع التوبة من هذه الكبائر وغيرها.

﴿ 11 –26 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ* لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّـهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّـهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّـهِ عَظِيمٌ *وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّـهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللَّـهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۚوَاللَّـهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّـهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّـهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّـهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّـهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ اللَّـهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّـهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّـهُ لَكُمْ وَاللَّـهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّـهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّـهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ * الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَـٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

لما ذكر فيما تقدم، تعظيم الرمي بالزنا عموما، صار ذلك كأنه مقدمة لهذه القصة، التي وقعت على أشرف النساء، أم المؤمنين رضي الله عنها، وهذه الآيات، نزلت في قصة الإفك المشهورة، الثابتة في الصحاح والسنن والمسانيد.

وحاصلها أن النبي صلى الله عليه وسلم، في بعض غزواته، ومعه زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق، فانقطع عقدها فانحبست في طلبه ورحلوا جملها وهودجها، فلم يفقدوها، ثم استقل الجيش راحلا، وجاءت مكانهم، وعلمت أنهم إذا فقدوها، رجعوا إليها فاستمروا في مسيرهم، وكان صفوان بن المعطل السلمي، من أفاضل الصحابة رضي الله عنه، قد عرس في أخريات القوم ونام، فرأى عائشة رضي الله عنها فعرفها، فأناخ راحلته، فركبتها من دون أن يكلمها أو تكلمه، ثم جاء يقود بها بعد ما نزل الجيش في الظهيرة، فلما رأى بعض المنافقين الذين في صحبة النبي صلى الله عليه وسلم، في ذلك السفر مجيء صفوان بها في هذه الحال، أشاع ما أشاع، ووشى الحديث، وتلقفته الألسن، حتى اغتر بذلك بعض المؤمنين، وصاروا يتناقلون هذا الكلام، وانحبس الوحي مدة طويلة عن الرسول صلى الله عليه وسلم. وبلغ الخبر عائشة بعد ذلك بمدة، فحزنت حزنا شديدا، فأنزل الله تعالى براءتها في هذه الآيات، ووعظ الله المؤمنين، وأعظم ذلك، ووصاهم بالوصايا النافعة. فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾ أي الكذب الشنيع، وهو رمي أم المؤمنين ﴿ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ أي جماعة منتسبون إليكم يا معشر المؤمنين، منهم المؤمن الصادق في إيمانه ولكنه اغتر بترويج المنافقين ومنهم المنافق ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ لما تضمن ذلك تبرئة أم المؤمنين ونزاهتها، والتنويه بذكرها، حتى تناول عموم المدح سائر زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، ولما تضمن من بيان الآيات المضطر إليها العباد، التي ما زال العمل بها إلى يوم القيامة، فكل هذا خير عظيم، لولا مقالة أهل الإفك لم يحصل ذلك، وإذا أراد الله أمرا جعل له سببا ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ﴾ وهذا وعيد للذين جاءوا بالإفك، وأنهم سيعاقبون على ما قالوا من ذلك، وقد حد النبي صلى الله عليه وسلم منهم جماعة ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ ﴾ أي معظم الإفك، وهو المنافق الخبيث، عبد الله بن أبي بن سلول –لعنه الله ﴿ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ألا وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ أي ظن المؤمنون بعضهم ببعض خيرا، وهو السلامة مما رموا به، وأن ما معهم من الإيمان المعلوم، يدفع ما قيل فيهم من الإفك الباطل ﴿ وَقَالُوا ﴾ بسبب ذلك الظن ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أي تنزيها لك من كل سوء، وعن أن تبتلي أصفياءك بالأمور الشنيعة ﴿ هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴾ كذب وبهت. فمن الواجب حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن مثل هذا الكلام أن يبرئه بلسانه، ويكذب القائل لذلك ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ أي هلا جاء الرامون على ما رموا به، بأربعة شهداء عدول مرضيين ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ ﴾ وإن كانوا في أنفسهم قد تيقنوا ذلك، فإنهم كاذبون في حكم الله، لأن الله حرم عليهم التكلم بذلك، من دون أربعة شهود، ولهذا قال ﴿ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ ولم يقل "فأولئك هم الكاذبون" ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ بحيث شملكم إحسانه فيهما، في أمر دينكم ودنياكم ﴿ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ ﴾ أي خضتم ﴿ فِيهِ ﴾ من شأن الإفك ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ لاستحقاقكم ذلك بما قلتم، ولكن من فضل الله عليكم ورحمته، أن شرع لكم التوبة، وجعل العقوبة مطهرة للذنوب ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ أي تلقفونه، ويلقيه بعضكم إلى بعض، وهو قول باطل ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ والأمران محظوران، التكلم بالباطل، والقول بلا علم

﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا ﴾ فلذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين الذين تابوا منه، وتطهروا بعد ذلك ﴿ وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ وهذا فيه الزجر البليغ، عن تعاطي بعض الذنوب على وجه التهاون بها، فإن العبد لا يفيده حسبانه شيئا، ولا يخفف من عقوبة الذنب، بل يضاعف الذنب، ويسهل عليه مواقعته مرة أخرى ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ أي وهلا إذ سمعتم -أيها المؤمنون- كلام أهل الإفك ﴿ قُلْتُمْ ﴾ منكرين لذلك، معظمين لأمره ﴿ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾ أي ما ينبغي لنا، وما يليق بنا الكلام، بهذا الإفك المبين، لأن المؤمن يمنعه إيمانه من ارتكاب القبائح ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ أي كذب عظيم ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ ﴾ أي لنظيره، من رمي المؤمنين بالفجور، فالله يعظكم وينصحكم عن ذلك ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ دل ذلك على أن الإيمان الصادق، يمنع صاحبه من الإقدام على المحرمات ﴿ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ﴾ يوضحها لكم توضيحا جليا ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي كامل العلم عام الحكمة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ ﴾ يحبون أن تشتهر الفاحشة أي الأمور الشنيعة المستقبحة ﴿ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أي موجع للقلب والبدن. فإذا كان هذا الوعيد، لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة، فكيف بما هو أعظم من ذلك، أي إظهاره ونقله؟ وسواء كانت الفاحشة، صادرة أو غير صادرة ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فلذلك علمكم، وبين لكم ما تجهلونه ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ قد أحاط بكم من كل جانب ﴿ وَرَحْمَتُهُ ﴾ عليكم ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ لما بين لكم هذه الأحكام والمواعظ، ولما أمهل من خالف أمره، ولكن فضله ورحمته. ولما نهى عن هذا الذنب بخصوصه، نهى عن الذنوب عموما ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ أي طرقه ووساوسه. وخطوات الشيطان يدخل فيها سائر المعاصي ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ ﴾ أي الشيطان ﴿ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ أي ما تستفحشه العقول والشرائع، من الذنوب العظيمة، مع ميل بعض النفوس إليه ﴿ وَالْمُنْكَرِ ﴾ وهو ما تنكره العقول ولا تعرفه ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ أي ما تطهر من اتباع خطوات الشيطان، بفعل الحسنات، فإن الزكاء يتضمن الطهارة والنماء، ولكن فضله ورحمته أوجبا أن يتزكى منكم من تزكى ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾ من يعلم منه أن يزكى بالتزكية، ولهذا قال ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. وَلَا يَأْتَلِ ﴾ أي لا يحلف ﴿ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾ كان من جملة الخائضين في الإفك "مسطح بن أثاثة" وهو قريب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان مسطح فقيرا من المهاجرين في سبيل الله، فحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه، لقوله الذي قال. فنزلت هذه الآية، ينهاهم عن هذا الحلف المتضمن لقطع النفقة عنه، ويحثه على العفو والصفح، ويعده بمغفرة الله إن غفر له، فقال ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ إذا عاملتم عبيده، بالعفو والصفح، عاملكم بذلك، فقال أبو بكر - لما سمع هذه الآية: بلى، والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع النفقة إلى مسطح، وفي هذه الآية دليل على النفقة على القريب، وأنه لا تترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان، والحث على العفو والصفح ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ أي العفائف عن الفجور ﴿ الْغَافِلَاتِ ﴾ التي لم يخطر ذلك بقلوبهن ﴿ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾

واللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير. وأكد اللعنة بأنها متواصلة عليهم في الدارين ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وهذا زيادة على اللعنة، أبعدهم عن رحمته، وأحل بهم شدة نقمته. وذلك العذاب يوم القيامة ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فكل جارحة تشهد عليهم بما عملته، ينطقها الذي أنطق كل شيء، فلا يمكنه الإنكار، ولقد عدل في العباد، من جعل شهودهم من أنفسهم ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾ أي جزاءهم على أعمالهم، الجزاء الحق ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ ويعلمون في ذلك الموقف العظيم، أن الله هو الحق المبين، فيعلمون انحصار الحق المبين في الله تعالى ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ﴾ أي كل خبيث من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب للخبيث، وموافق له، ومقترن به، ومشاكل له ﴿ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ وكل طيب من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب للطيب، وموافق له، ومقترن به، والأنبياء -خصوصا أولي العزم منهم، خصوصا سيدهم محمد صلى الله عليه وسلم، الذي هو أفضل الطيبين من الخلق على الإطلاق لا يناسبهم إلا كل طيب من النساء، فالقدح في عائشة رضي الله عنها بهذا الأمر قدح في النبي صلى الله عليه وسلم، وهو المقصود بهذا الإفك، من قصد المنافقين، فمجرد كونها زوجة للرسول صلى الله عليه وسلم، يعلم أنها لا تكون إلا طيبة طاهرة من هذا الأمر القبيح. فكيف وهي هي؟ صديقة النساء وأفضلهن وأعلمهن وأطيبهن، حبيبة رسول رب العالمين، التي لم ينزل الوحي عليه وهو في لحاف زوجة من زوجاته غيرها، ثم صرح بذلك، بحيث لا يبقى لمبطل مقالا، ولا لشك وشبهة مجالا، فقال ﴿ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ والإشارة إلى عائشة رضي الله عنها أصلا، وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعا ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ تستغرق الذنوب ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ في الجنة صادر من الرب الكريم.

﴿ 27 - 29 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا ﴾ يرشد الباري عباده المؤمنين أن لا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم بغير استئذان. فقد يقع البصر على العورات التي داخل البيوت. كما أن الدخول خفية يدل على الشر. وسمي الاستئذان استئناسا، لأن به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة ﴿ وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ وصفة ذلك ما جاء في الحديث: *"السلام عليكم، أأدخل"* ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ أي الاستئذان المذكور ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ لاشتماله على عدة مصالح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة، فإن أذن، دخل المستأذن ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ﴾ أي فلا تمتنعوا من الرجوع، ولا تغضبوا منه ﴿ هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ أي أشد لتطهيركم من السيئات، وتنميتكم بالحسنات ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ فيجازي

كل عامل بعمله، من كثرة وقلة، وحسن وعدمه. هذا الحكم في البيوت المسكونة، سواء كان فيها متاع للإنسان أم لا، وفي البيوت غير المسكونة، التي لا متاع فيها للإنسان ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ أي حرج وإثم ﴿ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ ﴾ فأسقط الحرج في الدخول إلى البيوت التي ليست ملكه وفيها متاعه، وليس فيها ساكن ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ أحوالكم الظاهرة والخفية، وعلم مصالحكم، فلذلك شرع لكم ما تحتاجون إليه وتضطرون، من الأحكام الشرعية.

﴿ 30 ﴾ ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي أرشد المؤمنين وقل لهم ﴿ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ عن النظر إلى العورات التي يخاف بالنظر إليها الفتنة، وإلى زينة الدنيا التي تفتن، وتوقع في المحذور ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ عن الوطء الحرام، في قبل أو دبر، أو ما دون ذلك، وعن التمكين من مسها، والنظر إليها ﴿ ذَلِكَ ﴾ الحفظ للأبصار والفروج ﴿ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ أطهر وأطيب، وأنمى لأعمالهم. وتأمل كيف أمر بحفظ الفرج مطلقا، لأنه لا يباح في حالة من الأحوال، وأما البصر فقال ﴿ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ أتى بأداة "من" الدالة على التبعيض، فإنه يجوز النظر في بعض الأحوال لحاجة، كنظر الشاهد والعامل والخاطب، ونحو ذلك ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ ذكرهم بعلمه بأعمالهم، ليجتهدوا في حفظ أنفسهم من المحرمات.

﴿ 31 ﴾ ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ عن النظر إلى العورات والمحرّمات والرجال، بشهوة ونحو ذلك من النظر الممنوع ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ من التمكين من جماعها أو مسها أو النظر المحرم إليها ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ كالثياب الجميلة والحلي، وجميع البدن كله من الزينة ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ أي الثياب الظاهرة التي جرت العادة بلبسها إذا لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الفتنة بها ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ وهذا لكمال الاستتار ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ أي أزواجهن ﴿ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ يشمل الأب بنفسه، والجد وإن علا ﴿ أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن ﴾ ويدخل فيه الأبناء وأبناء البعولة مهما نزلوا ﴿ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ ﴾ أشقاء، أو لأب أو لأم ﴿ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ أي يجوز للنساء أن ينظر بعضهن إلى

بعض مطلقا، ويحتمل أن الإضافة تقتضي الجنسية، أي: النساء المسلمات، اللاتي من جنسكم، ففيه دليل لمن قال: إن المسلمة لا يجوز أن تنظر إليها الذمية ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ فيجوز للمملوك إذا كان كله للأنثى، أن ينظر لسيدته، ما دامت مالكة له كله، فإن زال الملك أو بعضه، لم يجز النظر ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ أي أو الذين يتبعونكم، ويتعلقون بكم، من الرجال الذين لا إربة لهم في هذه الشهوة، كالمعتوه، وكالعنين الذي لم يبق له شهوة، لا في فرجه ولا في قلبه، فإن هذا لا محذور من نظره ﴿ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ أي الأطفال الذين دون التمييز، فإنه يجوز نظرهم للنساء الأجانب، وعلل تعالى ذلك، بأنهم لم يظهروا على عورات النساء، أي: ليس لهم علم بذلك، ولا وجدت فيهم الشهوة بعد ودل هذا، أن المميز تستتر منه المرأة، لأنه يظهر على عورات النساء ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ أي لا يضربن الأرض بأرجلهن، ليصوت ما عليهن من حلي، كخلاخل وغيرها، فتعلم زينتها بسببه، فيكون وسيلة إلى الفتنة[1] ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ لأن المؤمن يدعوه إيمانه إلى التوبة ثم علق على ذلك الفلاح، فقال ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فلا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة، وهي الرجوع مما يكرهه الله، ظاهرا وباطنا، إلى ما يحبه ظاهرا وباطنا.

﴿ 32 – 33 ﴾ ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ ﴾ يأمر تعالى الأولياء والأسياد، بإنكاح من تحت ولايتهم من الأيامى وهم: من لا أزواج لهم، من رجال، ونساء ثيب، وأبكار، فيجب على القريب وولي اليتيم، أن يزوج من يحتاج للزواج، ممن تجب نفقته عليه، وإذا كانوا مأمورين بإنكاح من تحت أيديهم، كان أمرهم بالنكاح بأنفسهم من باب أولى ﴿ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾ يحتمل أن المراد بالصالحين: صلاح الدين، وأن الصالح من العبيد والإماء –وهو الذي لا يكون فاجرا زانيا– مأمور سيده بإنكاحه. ويحتمل أن المراد بالصالحين الصالحون للتزوج المحتاجون إليه من العبيد والإماء، والله أعلم ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ ﴾ أي الأزواج والمتزوجين ﴿ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ فلا يمنعكم ما تتوهمون، من أنه إذا تزوج، افتقر بسبب كثرة العائلة ونحوه، وفيه حث على التزوج، ووعد للمتزوج بالغنى بعد الفقر ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴾ كثير الخير عظيم الفضل ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يستحق فضله الديني والدنيوي أو أحدهما، ممن لا يستحق، فيعطي كلا ما علمه واقتضاه حكمه ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ لا يقدرون نكاحا، إما

[1] ويؤخذ من هذا ونحوه، قاعدة سد الوسائل، وأن الأمر إذا كان مباحا، ولكنه يفضي إلى محرم، أو يخاف من وقوعه، فإنه يمنع منه، فالضرب بالرجل في الأرض، الأصل أنه مباح، ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة، منع منه.

لفقرهم أو فقر أوليائهم وأسيادهم، أو امتناعهم من تزويجهم. وهذا حكم العاجز عن النكاح، أمره الله أن يستعفف، أن يكف عن المحرم، ويفعل الأسباب التي تكفه عنه، من صرف دواعي قلبه بالأفكار التي تخطر بإيقاعه فيه، ويفعل أيضا، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء" ﴿ حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ وعد للمستعفف أن الله سيغنيه وييسر له أمره، وأمر له بانتظار الفرج، لئلا يشق عليه ما هو فيه ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ ﴾ من ابتغى وطلب منكم الكتابة، وأن يشتري نفسه، من عبيد وإماء، فأجيبوه إلى ما طلب، وكاتبوه ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ ﴾ أي في الطالبين للكتابة ﴿ خَيْرًا ﴾ قدرة على التكسب، وصلاحا في دينه ﴿ وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ يدخل في ذلك أمر سيده الذي كاتبه، أن يعطيه من كتابته أو يسقط عنه منها، وأمر الناس بمعونتهم ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ ﴾ إماءكم ﴿ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ أي أن تكون زانية ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ لأنه لا يتصور إكراهها إلا بهذه الحال، وأما إذا لم ترد تحصنا فإنها تكون بغيا، يجب على سيدها منعها من ذلك، وإنما هذا نهى لما كانوا يستعملونه في الجاهلية، من كون السيد يجبر أمته على البغاء، ليأخذ منها أجرة ذلك، ولهذا قال ﴿ لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فلا يليق بكم أن تكون إماؤكم خيرا منكم، وأعف عن الزنا، وأنتم تفعلون بهن ذلك، لأجل عرض الحياة ﴿ وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فليتب إلى الله، وليقلع عما صدر منه مما يغضبه، فإذا فعل ذلك، غفر الله ذنوبه، ورحمه كما رحم نفسه بفكاكها من العذاب، وكما رحم أمته بعدم إكراهها على ما يضرها.

﴿ 34 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ أي واضحات الدلالة، على كل أمر تحتاجون إليه، من الأصول والفروع، بحيث لا يبقى فيها إشكال ولا شبهة ﴿ وَ ﴾ أنزلنا إليكم أيضا ﴿ مَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ من أخبار الأولين، الصالح منهم والطالح، وصفة أعمالهم، وما جرى لهم وجرى عليهم ﴿ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وأنزلنا إليكم موعظة للمتقين، من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، يتعظ بها المتقون، فينكفون عما يكره الله إلى ما يحبه الله.

﴿ 35 ﴾ ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الحسي والمعنوي، وذلك أنه تعالى بذاته نور، وحجابه -الذي لولا لطفه، لأحرقت

سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه- نور، وبه استنار العرش والكرسي والشمس والقمر والنور، وبه استنارت الجنة. وكذلك النور المعنوي يرجع إلى الله، فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور. فلولا نوره تعالى لتراكمت الظلمات، ولهذا: كل محل، يفقد نوره فثمّ الظلمة والحصر ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ أي كوة ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق ذلك ﴿ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ ﴾ من صفائها وبهائها ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ أي مضيء إضاءة الدر ﴿ يُوقَدُ ﴾ ذلك المصباح، الذي في تلك الزجاجة الدرية ﴿ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾ أي يوقد من زيت الزيتون الذي ناره من أنور ما يكون ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار ﴿ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس أول النهار. وإذا انتفى عنها الأمران، كانت متوسطة من الأرض. كزيتون الشام، تصيبها الشمس أول النهار وآخره، فتحسن وتطيب، ويكون أصفى لزيتها، ولهذا قال ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا ﴾ من صفائه ﴿ يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ فإذا مسته النار، أضاء إضاءة بليغة ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ أي نور النار ونور الزيت[2] ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ممن يعلم زكاءه وطهارته، وأنه يزكي معه وينمو ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ ليعقلوا عنه ويفهموا، فإن الأمثال تقرب المعاني المعقولة من المحسوسة، فيعلمها العباد علما واضحا ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فعلمه محيط بجميع الأشياء، فلتعلموا أن ضربه الأمثال، ضرب من يعلم حقائق الأشياء وتفاصيلها، وأنها مصلحة للعباد، فليكن اشتغالكم بتدبرها وتعقلها، لا بالاعتراض عليها، ولا بمعارضتها، فإنه يعلم وأنتم لا تعلمون.

﴿ 36 - 38 ﴾ ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ *رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ أي يتعبد لله في أحب البقاع إليه وهي المساجد، لأن نور الإيمان والقرآن أكثر وقوع أسبابه في المساجد ﴿ أَذِنَ اللَّهُ ﴾ أي أمر ووصى ﴿ أَنْ تُرْفَعَ ﴾ هذان مجموع أحكام المساجد. ويدخل في رفعها: بناؤها وكنسها وتنظيفها من النجاسة والأذى وصونها من المجانين والصبيان الذين لا يتحرزون عن النجاسة، وعن الكافر، وأن تصان عن اللغو فيها، ورفع الأصوات بغير ذكر الله ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ يدخل في ذلك الصلاة كلها، فرضها ونفلها وقراءة القرآن والتسبيح والتهليل وغيره من أنواع الذكر، وتعلم العلم وتعليمه، والمذاكرة فيها، والاعتكاف، وغير ذلك من العبادات ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ﴾ إخلاصا ﴿ بِالْغُدُوِّ ﴾ أول النهار ﴿ وَالْآصَالِ ﴾ آخره،

---

[2] وجه هذا المثل الذي ضربه الله، وتطبيقه على حالة المؤمن، ونور الله في قلبه، أن فطرته التي فطر عليها، بمنزلة الزيت الصافي، ففطرته صافية، مستعدة للتعاليم الإلهية، والعمل المشروع، فإذا وصل إليه العلم والإيمان، اشتعل ذلك النور في قلبه، بمنزلة اشتعال النار في فتيلة ذلك المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصد، وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان، أضاء إضاءة عظيمة، لصفائه من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزجاجة الدرية، فيجتمع له نور الفطرة، ونور الإيمان، ونور العلم، وصفاء المعرفة، نور على نوره.

خص هذين الوقتين لشرفهما ولتيسر السير فيهما إلى الله وسهولته ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ﴾ وهذا يشمل كل تكسب يقصد به العوض، فيكون قوله ﴿ وَلَا بَيْعٌ ﴾ من باب عطف الخاص على العام، لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره. فهؤلاء الرجال، وإن اتجروا، وباعوا، واشتروا، فإن ذلك، لا محذور فيه. لكنه لا تلهيهم تلك بأن يقدموها ويؤثروها ﴿ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ من شدة هوله وإزعاجه للقلوب والأبدان ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ أعمالهم الحسنة الصالحة، لأنها أحسن ما عملوا ﴿ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ زيادة كثيرة عن الجزاء المقابل لأعمالهم ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله، بل ولا تبلغه أمنيته.

﴿ 39 - 40 ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بربهم وكذبوا رسله ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ أي بقاع لا شجر فيه ولا نبت وهذا مثال لقلوبهم، لا خير فيها ولا بر ﴿ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ﴾ شديد العطش ﴿ مَاءً ﴾ يقصده ليزيل ظمأه ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ فندم ندما شديدا، وازداد ما به من الظمأ، بسبب انقطاع رجائه. كذلك أعمال الكفار بمنزلة السراب يظنها الجاهل أعمالا نافعة، حتى إذ قدم على أعماله يوم الجزاء لم يجدها شيئا ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ لم يخف عليه من عمله نقير ولا قطمير، ولن يعدم منه قليلا ولا كثيرا ﴿ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ فلا يستبطئ الجاهلون ذلك الوعد، فإنه لا بد من إتيانه ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ بعيد قعره، طويل مداه ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ ظلمة البحر اللجي، ثم فوقه ظلمة الأمواج المتراكمة، ثم فوق ذلك ظلمة السحب المدلهمة، ثم فوق ذلك ظلمة الليل البهيم، فاشتدت الظلمة جدا، بحيث أن الكائن في تلك الحال ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ مع قربها إليه، فكيف بغيرها. كذلك الكفار، تراكمت على قلوبهم الظلمات، وهذا لأن الله تعالى خذلهم، فلم يعطهم من نوره ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ لأن نفسه ظالمة جاهلة. يحتمل أن هذين المثالين، لأعمال جميع الكفار، كل منهما، منطبق عليها، وعددهما لتعدد الأوصاف. ويحتمل أن كل مثال، لطائفة وفرقة. فالأول، للمتبوعين، والثاني، للتابعين، والله أعلم.

﴿ 41 - 42 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من حيوان وجماد ﴿ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ﴾ أي صافات أجنحتها، في جو السماء، تسبح ربها ﴿ كُلٌّ ﴾ من هذه المخلوقات ﴿ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ أي كل له صلاة وعبادة بحسب حاله اللائقة به، ويحتمل أن الضمير يعود إلى الله، وأن الله تعالى قد علم عباداتهم، وإن لم تعلموا –أيها العباد– منها، إلا ما أطلعكم الله عليه ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ علم جميع أفعالها ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خالقهما ورازقهما والمتصرف فيهما ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ مرجع الخلق ومآلهم، ليجازيهم بأعمالهم.

﴿ 43 – 44 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ *يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ ﴾ أي ألم تشاهد ببصرك، عظيم قدرة الله، وكيف ﴿ يُزْجِي ﴾ أي يسوق ﴿ سَحَابًا ﴾ قطعا متفرقة ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ بين تلك القطع ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾ فيجعله سحابا متراكما مثل الجبال ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ ﴾ أي الوابل والمطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ من خلال السحاب نقطا متفرقة، ليحصل بها الانتفاع من دون ضرر ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ ﴾ بحسب ما اقتضاه حكمه القدري، وحكمته التي يحمد عليها ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ أي يكاد ضوء برق ذلك السحاب، من شدته ﴿ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ. يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ ويديل الأيام بين عباده ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ لذوي البصائر، والعقول النافذة للأمور المطلوبة منها.

﴿ 45 ﴾ ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ ﴾ خلق جميع الدواب التي على وجه الأرض ﴿ مِنْ مَاءٍ ﴾ أي مادتها كلها الماء. فالحيوانات التي تتوالد، مادتها ماء النطفة، حين يلقح الذكر الأنثى. والحيوانات التي تتولد من الأرض، لا تتولد إلا من الرطوبات المائية، كالحشرات لا يوجد منها شيء يتولد من غير ماء أبدا ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ﴾ كالحية ونحوها ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ﴾ كالآدميين وكثير من الطيور ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ كبهيمة الأنعام ونحوها ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ من المخلوقات، على ما يشاؤه من الصفات ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿ 46 ﴾ ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ لقد رحمنا عبادنا وأنزلنا إليهم آيات بينات واضحات الدلالة ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ممن سبقت لهم سابقة الحسنى، وقدم الصدق ﴿ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ طريق واضح مختصر، موصل إليه، وإلى دار كرامته. عمم البيان التام لجميع الخلق، وخصص بالهداية من يشاء.

﴿ 47 - 50 ﴾ ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ﴾ يخبر تعالى عن حالة الظالمين، ممن في قلبه مرض وضعف إيمان، أو نفاق وريب وضعف علم، أنهم يقولون بألسنتهم، ويلتزمون الإيمان بالله والطاعة ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ ثم لا يقومون بما قالوا، ويتولى فريق منهم عن الطاعة توليا عظيما ﴿ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأن المتولي، قد يكون له نية عود ورجوع إلى ما تولى عنه، وهذا المتولي معرض ولا نظر لما تولى عنه ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ ودعوا إلى حكم الله ورسوله ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ يفضلون أحكام القوانين غير الشرعية على الأحكام الشرعية لعلمهم أن الحق عليهم ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ ﴾ إلى حكم الشرع ﴿ مُذْعِنِينَ ﴾ وليس ذلك لأجل أنه حكم شرعي، وإنما ذلك لأجل موافقة أهوائهم ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي علة أخرجت القلب عن صحته ﴿ أَمِ ارْتَابُوا ﴾ أي شكوا، وقلقت قلوبهم من حكم الله ورسوله، واتهموه أنه لا يحكم بالحق ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ أي يحكم عليهم حكما ظالما جائرا ﴿ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ وأما حكم الله ورسوله، ففي غاية العدالة والقسط، وموافقة الحكمة. وفي هذه الآيات، دليل على أن الإيمان، ليس هو مجرد القول حتى يقترن به العمل.

﴿ 51 - 52 ﴾ ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا ﴾ سواء وافق أهواءهم أو خالفها ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ سمعنا حكم الله ورسوله، وأجبنا من دعانا إليه، وأطعنا طاعة تامة ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ حصر الفلاح فيهم، ولا يفلح إلا من حكّم الله ورسوله وأطاع الله ورسوله ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيصدق خبرهما ويمتثل أمرهما ﴿ وَيَخْشَ اللَّهَ ﴾ يخافه خوفا مقرونا بمعرفة ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ بترك المحظور. لأن التقوى -عند الإطلاق- يدخل فيها، فعل المأمور، وترك المنهي عنه، وعند اقترانها بالبر أو الطاعة - كما في هذا الموضع - تفسر بتوقي عذاب الله، بترك معاصيه ﴿ فَأُولَئِكَ ﴾ الذين جمعوا بين طاعة الله

وطاعة رسوله، وخشية الله وتقواه ﴿ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ فالفوز محصور فيهم.

﴿ 53 - 54 ﴾ ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ يخبر تعالى عن حالة المتخلفين عن الرسول صلى الله عليه وسلم في الجهاد من المنافقين، ومن في قلوبهم مرض وضعف إيمان أنهم يقسمون بالله ﴿ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ ﴾ فيما يستقبل، أو لئن نصصت عليهم حين خرجت ﴿ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ والمعنى الأول أولى. قال الله –رادا عليهم ﴿ قُلْ لَا تُقْسِمُوا ﴾ أي لا نحتاج إلى إقسامكم ولا إلى أعذاركم ﴿ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ﴾ فإن الله قد نبأنا من أخباركم، وطاعتكم معروفة لا تخفى علينا، قد كنا نعرف منكم التثاقل والكسل من غير عذر ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيكم عليها أتم الجزاء، هذه حالهم في نفس الأمر، وأما الرسول عليه الصلاة والسلام، فوظيفته أن يأمركم وينهاكم ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ ﴾ امتثلوا، كان حظكم وسعادتكم وإن ﴿ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ من الرسالة، وقد أداها ﴿ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ﴾ من الطاعة، وقد بانت حالكم وظهرت، فبان ضلالكم وغيكم واستحقاقكم العذاب ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ إلى الصراط المستقيم، قولا وعملا، فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته، وبدون ذلك، لا يمكن، بل هو محال ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أي تبليغكم البين الذي لا يبقي لأحد شكا ولا شبهة. وإنما الذي يحاسبكم ويجازيكم هو الله تعالى، فالرسول ليس له من الأمر شيء، وقد قام بوظيفته.

﴿ 55 ﴾ ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ﴾ وهو دين الإسلام ﴿ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾ ارتضاه لهذه الأمة ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ فوعدهم الله هذه الأمور بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئا، ولا يخافون أحدا إلا الله، فمكنهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام والتمكين التام، وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح ﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ التمكين يا معشر المسلمين ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ الذين خرجوا عن طاعة الله، وفسدوا، فلم يصلحوا لصالح، ولم يكن

فيهم أهلية للخير.

﴿ 56 - 57 ﴾ ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ يأمر تعالى بإقامة الصلاة، بأركانها وشروطها وآدابها، ظاهرا وباطنا، وبإيتاء الزكاة من الأموال التي استخلف الله عليها العباد، ثم عطف عليهما الأمر العام، فقال ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ حين تقومون بذلك ﴿ تُرْحَمُونَ ﴾ فمن أراد الرحمة، فهذا طريقها ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فلا يغررك ما متعوا به في الحياة الدنيا، فإن الله، وإن أمهلهم فإنه لا يهملهم ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ بئس المآل مآل الكافرين.

﴿ 58 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أمر المؤمنين أن يستأذنهم مماليكهم ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ﴾ قد ذكر الله حكمته وأنه ﴿ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴾ ثلاث عورات للمستأذن عليهم ﴿ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ﴾ وقت نومهم بالليل بعد العشاء، وعند انتباههم قبل صلاة الفجر، فهذا -في الغالب- أن النائم يستعمل للنوم في الليل ثوبا غير ثوبه المعتاد. وأما نوم النهار أي للقائلة وسط النهار، فلما كان في الغالب قليلا، قد ينام فيه العبد بثيابه المعتادة، قيده بقوله ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ﴾ ففي ثلاثة هذه الأحوال، يكون المماليك والأولاد الصغار كغيرهم، لا يمكنون من الدخول إلا بإذن، وأما ما عدا هذه الأحوال الثلاثة فقال ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ ليسوا كغيرهم، فإنهم يحتاج إليهم دائما، فيشق الاستئذان منهم في كل وقت، ولهذا قال ﴿ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ يترددون عليكم في قضاء أشغالكم وحوائجكم ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ﴾ بيانا مقرونا بحكمته ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ له العلم المحيط بالواجبات والمستحيلات والممكنات ﴿ حَكِيمٌ ﴾ والحكمة التي وضعت كل شيء موضعه.

﴿ 59 ﴾ ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّـهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّـهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ ﴾ وهو إنزال المني يقظة أو مناما ﴿ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي

في سائر الأوقات ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ﴾ ويوضحها ويفصل أحكامها ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

﴿ 60 ﴾ ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ اللاتي قعدن عن الاستمتاع والشهوة ﴿ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ لا يطمعن في النكاح، ولا يطمع فيهن، وذلك لكونها عجوزا لا تشتهى، أو دميمة الخلقة لا تشتهي ولا تشتهى ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ ﴾ حرج وإثم ﴿ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ الظاهرة كالخمار ونحوه، فهؤلاء، يجوز لهن أن يكشفن وجوههن لآمن المحذور منها وعليها. ولما كان نفي الحرج عنهن في وضع الثياب، ربما توهم منه جواز استعمالها لكل شيء، دفع هذا الاحتراز بقوله ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ غير مظهرات للناس زينة ﴿ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ﴾ والاستعفاف: طلب العفة ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لجميع الأصوات ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بالنيات والمقاصد، فليحذرن من كل قول وقصد فاسد، وليعلمن أن الله يجازي على ذلك.

﴿ 61 ﴾ ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ ليس على هؤلاء جناح في ترك الأمور الواجبة، التي تتوقف على واحد منها، وذلك كالجهاد ونحوه، مما يتوقف على بصر الأعمى أو سلامة الأعرج أو صحة للمريض، ولهذا المعنى العام الذي ذكرناه، أطلق الكلام في ذلك، ولم يقيد، كما قيد قوله ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي حرج ﴿ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ بيوت أولادكم وليس بيت الإنسان نفسه، فإن هذا من باب تحصيل الحاصل ﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ ﴾ وهؤلاء معروفون ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ أي البيوت التي أنتم متصرفون فيها بوكالة ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ فإن هؤلاء المسمين قد جرت العادة والعرف بالمسامحة في الأكل منها، فلو قدر في أحد من هؤلاء عدم المسامحة والشح في الأكل المذكور، لم يجز الأكل ولم يرتفع الحرج، نظرا للحكمة والمعنى. وقوله ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ فكل ذلك جائز، أكل أهل البيت الواحد جميعا، أو أكل كل واحد منهم وحده، وهذا نفي للحرج، لا نفي للفضيلة وإلا فالأفضل الاجتماع على الطعام ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا ﴾ نكرة في سياق الشرط، يشمل بيت الإنسان وبيت غيره، سواء كان في البيت ساكن أم لا، فإذا دخلها الإنسان ﴿ فَسَلِّمُوا

عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ فليسلم بعضكم على بعض، لأن المسلمين كأنهم شخص واحد، فالسلام مشروع لدخول سائر البيوت، من غير فرق بين بيت وبيت ﴿ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ قد شرعها لكم، وجعلها تحيتكم ﴿ مُبَارَكَةً ﴾ لاشتمالها على السلامة من النقص، وحصول الرحمة والبركة والنماء والزيادة ﴿ طَيِّبَةً ﴾ لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله، الذي فيه طيبة نفس للمحيا، ومحبة وجلب مودة ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ ﴾ الدالات على أحكامه الشرعية وحكمها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ عنه فتفهمونها، وتعقلونها بقلوبكم.

﴿ 62 - 64 ﴾ ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ أي من ضرورته أو من مصلحته، أن يكونوا فيه جميعا، كالجهاد والمشاورة ونحو ذلك ﴿ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ فالمؤمن بالله ورسوله حقا لا يرجع لأهله، ولا يذهب لبعض الحوائج التي يشذ بها عنهم، إلا بإذن من الرسول أو نائبه من بعده، فجعل موجب الإيمان، عدم الذهاب إلا بإذن، ومدحهم على فعلهم هذا وأدبهم مع رسوله وولي الأمر منهم، فقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ فإذا كان له عذر واستأذن، فإن كان في قعوده وعدم ذهابه مصلحة برأيه، أو شجاعته، ونحو ذلك، لم يأذن له، ومع هذا إذا استأذن، وأذن له بشرطيه، أمر الله رسوله أن يستغفر له، لما عسى أن يكون مقصرا في الاستئذان، ولهذا قال ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يغفر لهم الذنوب ويرحمهم، بأن جوز لهم الاستئذان مع العذر ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ ﴾ لا تجعلوا دعاء الرسول إياكم ودعائكم للرسول ﴿ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ فإذا دعاكم فأجيبوه وجوبا، وكذلك لا تقولوا: "يا محمد" عند ندائكم، أو "يا محمد بن عبد الله" كما يقول ذلك بعضكم لبعض، بل من شرفه وفضله وتميزه صلى الله عليه وسلم عن غيره، أن يقال: يا رسول الله، يا نبي الله ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ توعد من ذهب من غير استئذان، فهو وإن خفي عليكم بذهابه على وجه خفي أي يلوذون وقت تسللهم وانطلاقهم بشيء يحجبهم عن العيون، فالله يعلمهم، وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء، ولهذا توعدهم بقوله ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ أي يذهبون إلى بعض شئونهم عن أمر الله ورسوله، فكيف بمن لم يذهب إلى شأن من شئونه؟ وإنما ترك أمر الله من دون شغل له ﴿ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أي شرك وشر ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ملكا وعبيدا، يتصرف فيهم بحكمه القدري، وحكمه الشرعي ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي قد أحاط علمه بما أنتم عليه، من خير وشر، وعلم جميع أعمالكم، أحصاها

علمه، وجرى بها قلمه، وكتبتها عليكم الحفظة الكرام الكاتبون ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ في يوم القيامة ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ يخبرهم بجميع أعمالهم، دقيقها وجليلها، إخبارا مطابقا لما وقع منهم، ويستشهد عليهم أعضاءهم، فلا يعدمون منه فضلا أو عدلا. ولما قيد علمه بأعمالهم، ذكر العموم بعد الخصوص، فقال ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

25

مختصر تفسير سورة الفرقان

عدد آياتها 77

وهي مكية عند الجمهور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 2 ﴾ ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾

﴿ تَبَارَكَ ﴾ تعاظم وكملت أوصافه وكثرت خيراته ﴿ الَّذِي ﴾ من أعظم خيراته ونعمه أن ﴿ نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ الفارق بين الحلال والحرام والهدى والضلال وأهل السعادة من أهل الشقاوة ﴿ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم الذي كمل مراتب العبودية وفاق جميع المرسلين ﴿ لِيَكُونَ ﴾ ذلك الإنزال للفرقان على عبده ﴿ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ ينذرهم بأس الله ونقمه ويبين لهم مواقع رضا الله من سخطه ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ له التصرف فيهما وحده، وجميع من فيهما مماليك وعبيد له مذعنون لعظمته خاضعون لربوبيته، فقراء إلى رحمته ﴿ وَ ﴾ الذي ﴿ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ وكيف يكون له ولد أو شريك وهو المالك وغيره مملوك، وهو القاهر وغيره مقهور وهو الغني بذاته من جميع الوجوه، والمخلوقون مفتقرون إليه فقرا ذاتيا من جميع الوجوه؟ وكيف يكون له شريك في الملك ونواصي العباد كلهم بيديه، فلا يتحركون أو يسكنون ولا يتصرفون إلا بإذنه فتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ شمل العالم العلوي والعالم السفلي من حيواناته ونباتاته وجماداته ﴿ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ أعطى كل مخلوق منها ما يليق به ويناسبه من الخلق وما تقتضيه حكمته من ذلك.

﴿ 3 ﴾ ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ أدل الدليل على سفههم ونقص عقولهم، بل أدل على ظلمهم وجراءتهم على ربهم أن اتخذوا آلهة ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ لا تقدر على خلق شيء بل هم مخلوقون، بل بعضهم مما عملته أيديهم ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ لا قليلا ولا كثيرا، لأنه نكرة في سياق النفي ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ بعثا بعد الموت.

﴿ 4 – 6 ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالله والذي أوجب لهم كفرهم أن قالوا في القرآن والرسول ﴿ إِنْ هَذَا ﴾ القرآن ﴿ إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ ﴾ كذب كذبه محمد وإفك افتراه على الله ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ فرد الله عليهم ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ ذلك بأن هذا مكابرة منهم وإقدام على الظلم والزور ﴿ وَقَالُوا ﴾ هذا الذي جاء به محمد ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾ أي هذا قصص الأولين وأساطيرهم التي تتلقاها الأفواه وينقلها كل أحد استنسخها محمد ﴿ فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ فلذلك رد عليهم ذلك بقوله ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي أنزله من أحاط علمه بما في السماوات وما في الأرض ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا ﴾ وصفه المغفرة لأهل الجرائم والذنوب، إذا فعلوا أسباب المغفرة وهي الرجوع عن معاصيه والتوبة منها ﴿ رَحِيمًا ﴾ بهم حيث لم يعاجلهم بالعقوبة وقد فعلوا مقتضاها، وحيث قبل توبتهم بعد المعاصي.

﴿ 7 – 14 ﴾ ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا * انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا * بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ ﴾ ما لهذا الذي ادعى الرسالة؟ تهكما منهم واستهزاء ﴿ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾ وهذا من خصائص البشر فهلا كان ملكا لا يأكل الطعام، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر ﴿ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ للبيع والشراء وهذا –بزعمهم– لا يليق بمن يكون رسولا ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ هلا أنزل معه ملك يساعده ويعاونه ﴿ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ وبزعمهم أنه غير كاف للرسالة ولا بطوقه وقدرته القيام بها ﴿ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ ﴾ مال مجموع من غير تعب ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ فيستغني بذلك عن مشيه في الأسواق لطلب الرزق ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ ﴾ حملهم على القول ظلمهم لا اشتباه منهم ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ هذا وقد علموا كمال عقله وحسن حديثه، وسلامته من جميع المطاعن ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ قالوا أقوالا متناقضة كلها جهل وضلال وسفه ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ ﴾ خيرا مما قالوا ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا ﴾ ولكنه تعالى – لما كانت الدنيا عنده في غاية البعد والحقارة – أعطى منها أولياءه ورسله ما اقتضته حكمته منها، واقتراح أعدائهم بأنهم هلا رزقوا منها رزقا كثيرا جدا ظلم وجراءة ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ

﴾ والمكذب المتعنت لا سبيل إلى هدايته وإنما له حيلة واحدة وهي نزول العذاب به ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ نارا عظيمة قد اشتد سعيرها ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قبل وصولهم ووصولها إليهم ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا ﴾ عليهم ﴿ وَزَفِيرًا ﴾ قد غضبت عليهم لغضب خالقها وقد زاد لهبها لزيادة كفرهم وشرهم ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ ﴾ وقت عذابهم وهم في وسطها، جمع في مكان بين ضيق المكان وتزاحم السكان وتقرينهم بالسلاسل والأغلال، فإذا وصلوا لذلك المكان النحس وحبسوا في أشر حبس ﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ دعوا على أنفسهم بالثبور والخزي والفضيحة وعلموا أنهم ظالمون معتدون، فيقال لهم ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ لو زاد ما قلتم أضعاف أضعافه ما أفادكم إلا الهم والغم والحزن.

﴿ 15 - 16 ﴾ ﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا * لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾

﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ أَذَلِكَ ﴾ الذي وصفت لكم من العذاب ﴿ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ التي زادها تقوى الله فمن قام بالتقوى فالله قد وعده إياها ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً ﴾ على تقواهم ﴿ وَمَصِيرًا ﴾ يستقرون فيها ويخلدون دائما أبدا ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ﴾ يطلبون وتتعلق بهم أمانيهم ومشيئتهم ﴿ كَانَ ﴾ دخولها والوصول إليها ﴿ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ يسأله إياها عباده المتقون بلسان حالهم ولسان مقالهم، فأي الدارين المذكورتين خير وأولى بالإيثار؟

﴿ 17 - 20 ﴾ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا * وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ أي المكذبين المشركين ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ﴾ الله مخاطبا للمعبودين على وجه التقريع لمن عبدهم ﴿ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ هل أمرتموهم بعبادتكم وزينتم لهم ذلك أم ذلك من تلقاء أنفسهم ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾ نزهوا الله عن شرك المشركين به وبرؤوا أنفسهم من ذلك ﴿ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا ﴾ أي لا يليق بنا ولا يحسن منا أن نتخذ من دونك من أولياء نتولاهم وإذا كنا محتاجين ومفتقرين إلى عبادتك متبرئين من عبادة غيرك، فكيف نأمر أحدا بعبادتنا؟ هذا لا يكون أو، سبحانك عن ﴿ أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ ثم ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين ﴿ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ ﴾ في لذات الدنيا وشهواتها ومطالبها ﴾

حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ ﴾ فحافظوا على دنياهم وضيعوا دينهم ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ بائرين لا خير فيهم ولا يصلحون لصالح ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ كذبوكم في ذلك الزعم وصاروا من أكبر أعدائكم فحق عليكم العذاب ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا ﴾ للعذاب عنكم بفعلكم أو بفداء أو غير ذلك ﴿ وَلَا نَصْرًا ﴾ لعجزكم وعدم ناصركم. وأما المعاند منهم الذي عرف الحق وصدف عنه فقال في حقه ﴿ وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ ﴾ بترك الحق ظلما وعنادا ﴿ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ لا يقادر قدره ولا يبلغ أمره ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ فما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما جعلناهم ملائكة، فلك فيهم أسوة، وأما الغنى والفقر فهو فتنة وحكمة من الله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ الرسولُ فتنةٌ للمرسل إليهم واختبارٌ للمطيعين من العاصين، والرسل فتناهم بدعوة الخلق، والغني فتنة للفقير والفقير فتنة للغني، وهكذا سائر أصناف الخلق في هذه الدار دار الفتن والابتلاء والاختبار والقصد من تلك الفتنة ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾ فتقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتبة فيثيبكم مولاكم أم لا تصبرون فتستحقون المعاقبة؟ ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ يعلم أحوالكم، ويصطفي من يعلمه يصلح لرسالته ويختصه بتفضيله ويعلم أعمالكم فيجازيكم عليها إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

الجزء التاسع عشر 19

﴿ 21 - 23 ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا * وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ قال المكذبون بوعد الله ووعيده ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ هلا نزلت الملائكة تشهد لك بالرسالة وتؤيدك عليها أو تنزل رسلا مستقلين، أو نرى ربنا فيكلمنا ويقول: هذا رسولي فاتبعوه؟ ﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ فمن أنتم يا فقراء ويا مساكين حتى تطلبوا رؤية الله وتزعموا أن الرسالة متوقف ثبوتها على ذلك؟ وأي كبر أعظم من هذا ﴿ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ قسوا عن الحق قساوة عظيمة، ولذلك بطلت أعمالهم واضمحلت ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ ﴾ التي اقترحوا نزولها ﴿ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ فأول ذلك عند الموت إذا تنزلت عليهم الملائكة، ثم في القبر حيث يأتيهم منكر ونكير فيسألهم عن ربهم ونبيهم ودينهم فلا يجيبون جوابا ينجيهم فيحلون بهم النقمة، ثم يوم القيامة حين تسوقهم الملائكة إلى النار ثم يسلمونهم لخزنة جهنم الذين يتولون عذابهم ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا. وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ﴾ أعمالهم التي رجوا أن تكون خيرا لهم وتعبوا فيها ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ باطلا مضمحلا قد خسروه وحرموا أجره وعوقبوا عليه وذلك لفقده الإيمان وصدوره عن مكذب لله ورسله.

﴿ 24 ﴾ ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾

﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ الذين آمنوا بالله وعملوا صالحا واتقوا ربهم، هم ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ في ذلك اليوم الهائل كثير البلابل ﴿ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا ﴾ من أهل النار ﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ مستقرهم في الجنة وراحتهم التي هي القيلولة، هو المستقر النافع والراحة التامة لاشتمال ذلك على تمام النعيم الذي لا يشوبه كدر.

﴿ 25 - 29 ﴾ ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا * وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ﴾ الذي ينزل الله فيه، ينزل من فوق السماوات فتنفطر له السماوات وتشقق ﴿ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴾ وتنزل ملائكة كل سماء فيقفون صفا صفا، إما صفا واحدا محيطا بالخلائق، وإما كل سماء يكونون صفا ثم السماء التي تليها صفا وهكذا. فالملائكة -على كثرتهم وقوتهم- ينزلون محيطين بالخلق مذعنين لأمر ربهم لا يتكلم منهم أحد إلا بإذن من الله ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم القيامة ﴿ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾ لا يبقى لأحد من المخلوقين ملك ولا صورة ملك. ومما تطمئن به النفس وينشرح له الصدر أن أضاف الملك في يوم القيامة لاسمه "الرحمن" الذي وسعت رحمته كل شيء وعمت كل حي، وغلبت الأسماء الدالة عليه الأسماء الدالة على الغضب وسبقت رحمته غضبه وغلبته، فلها السبق والغلبة. وهو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم فما ظنك بما يعاملهم به. ولا يهلك على الله إلا هالك ولا يخرج من رحمته إلا من غلبت عليه الشقاوة وحقت عليه كلمة العذاب ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا . وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ ﴾ بشركه وكفره وتكذيبه للرسل ﴿ عَلَى يَدَيْهِ ﴾ تأسفا وتحسرا وحزنا وأسفا ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ أي طريقا بالإيمان به وتصديقه واتباعه ﴿ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا ﴾ وهو الشيطان الإنسي أو الجني ﴿ خَلِيلًا ﴾ حبيبا مصافيا ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ حيث زين له ما هو عليه من الضلال بخدعه وتسويله ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ يزين له الباطل ويقبح له الحق، ويعده الأماني ثم يتخلى عنه ويتبرأ منه.

﴿ 30 - 31 ﴾ ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ ﴾ مناديا لربه وشاكيا له إعراض قومه عما جاء به، ومتأسفا على ذلك منهم ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي ﴾ الذي أرسلتني لهدايتهم وتبليغهم ﴿ اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ قد أعرضوا عنه وهجروه وتركوه. قال الله مسليا

لرسوله ومخبرا أن هؤلاء الخلق لهم سلف صنعوا كصنيعهم فقال ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ من الذين لا يصلحون للخير ولا يزكون عليه يعارضونهم ويردون عليهم ويجادلونهم بالباطل ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا ﴾ يهديك فيحصل لك المطلوب ومصالح دينك ودنياك ﴿ وَنَصِيرًا ﴾ ينصرك على أعدائك ويدفع عنك كل مكروه في أمر الدين والدنيا فاكتف به وتوكل عليه.

﴿ 32 - 33 ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ كما أنزلت الكتب قبله، ونزوله على هذا الوجه أكمل وأحسن ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أنزلناه متفرقا ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ لأنه كلما نزل عليه شيء من القرآن ازداد طمأنينة وثباتا ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ مهلناه ودرجناك فيه تدريجا. وهذا كله يدل على اعتناء الله بكتابه القرآن وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم حيث جعل إنزال كتابه جاريا على أحوال الرسول ومصالحه الدينية ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ يعارضون به الحق ويدفعون به رسالتك ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أنزلنا عليك قرآنا جامعا للحق في معانيه والوضوح والبيان التام في ألفاظه. وفي هذه الآية رد على المتكلفين من الجهمية ونحوهم ممن يرى أن كثيرا من نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها ولها معان غير ما يفهم منها، فإذا -على قولهم- لا يكون القرآن أحسن تفسيرا من غيره، وإنما التفسير الأحسن -على زعمهم- تفسيرهم الذي حرفوا له المعاني تحريفا.

﴿ 34 ﴾ ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ تسحبهم ملائكة العذاب ويجرونهم، وهذا حال المشركين الذين كذبوا الرسول ﴿ إِلَى جَهَنَّمَ ﴾ الجامعة لكل عذاب وعقوبة ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الذين بهذه الحالة ﴿ شَرٌّ مَكَانًا ﴾ ممن آمن بالله وصدق رسله ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾.

﴿ 35 - 40 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا * وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا * وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا * وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أشار تعالى إلى

هذه القصص ليحذر المخاطبين من استمرارهم على تكذيب رسولهم فيصيبهم ما أصاب هؤلاء الأمم الذين قريبا منهم ويعرفون قصصهم بما استفاض واشتهر عنهم ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ ومنهم من يرون آثارهم عيانا كقوم صالح في الحجر ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ وكالقرية التي أمطرت مطر السوء بحجارة من سجيل يمرون عليهم مصبحين وبالليل في أسفارهم، فإن أولئك الأمم ليسوا شرا منهم ورسلهم ليسوا خيرا من رسول هؤلاء.

﴿ 41 - 44 ﴾ ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا * أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ وإذا رآك يا محمد هؤلاء المكذبون لك المعاندون لآيات الله استهزءوا بك واحتقروك وقالوا غير مناسب أن يبعث الله هذا الرجل ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ والقصد من قدحهم فيه واستهزائهم به تصلبهم على باطلهم وغرورا لضعفاء العقول ولهذا قالوا ﴿ إِنْ كَادَ ﴾ هذا الرجل ﴿ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ بأن يجعل الآلهة إلها واحدا ﴿ لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ لأضلنا. كان هذا حكما منهم بأنهم المهتدون والرسول ضال ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ﴾ يعلمون علما حقيقيا ﴿ مَنْ ﴾ هو ﴿ أَضَلُّ سَبِيلًا. أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ ألا تعجب من حاله وتنظر ما هو فيه من الضلال؟ وهو يحكم لنفسه بالمنازل الرفيعة ﴿ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ إنما أنت منذر، وقد قمت بوظيفتك وحسابه على الله ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ سجل تعالى على ضلالهم البليغ بأن سلبهم العقول والأسماع وشبههم في ضلالهم بالأنعام السائمة، بل هم أضل من الأنعام، وهي أيضا أسلم عاقبة من هؤلاء.

﴿ 45 - 46 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك كمال قدرة ربك وسعة رحمته، أنه مد على العباد الظل وذلك قبل طلوع الشمس ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ ﴾ أي على الظل ﴿ دَلِيلًا ﴾ فلولا وجود الشمس لما عرف الظل فإن الضد يعرف بضده ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ فكلما ارتفعت الشمس تقلص الظل شيئا فشيئا، حتى يذهب بالكلية فتوالي الظل والشمس على الخلق الذي يشاهدونه عيانا وما يترتب على ذلك من

اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما وتعاقب الفصول، وحصول المصالح الكثيرة بسبب ذلك- من أدل دليل على قدرة الله وعظمته.

﴿ 47 ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ من رحمته بكم ولطفه أن جعل الليل لكم بمنزلة اللباس الذي يغشاكم، حتى تستقروا فيه ﴿ وَالنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾ وتهدؤوا بالنوم، فلولا الليل لما سكن العباد. ولو استمر أيضا الظلام لتعطلت عليهم معايشهم ومصالحهم ﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ ولكنه جعل النهار نشورا ينتشرون فيه لتجاراتهم وأسفارهم.

﴿ 48 - 50 ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ هو وحده الذي رحم عباده وأدر عليهم رزقه بأن أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته وهو المطر فثار بها السحاب وتألف وصار كسفا وألقحته وأدرته بإذن آمرها ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ يطهر من الحدث والخبث ويطهر من الغش والأدناس، وفيه بركة من بركته أنه أنزله ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ فتختلف أصناف النوابت والأشجار فيها مما يأ كل الناس والأنعام ﴿ وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ أي نسقيكموه أنتم وأنعامكم ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ مع ذلك أبى أكثر الخلق إلا كفورا، لفساد أخلاقهم وطبائعهم.

﴿ 51 - 52 ﴾ ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا * فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾ يخبر تعالى أنه لو شاء لبعث في كل قرية رسولا ينذرهم ويحذرهم ولكن اقتضت حكمته ورحمته بك وبالعباد -يا محمد- أن أرسلك إلى جميعهم ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ في ترك شيء مما أرسلت به بل ابذل جهدك في تبليغ ما أرسلت به ﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ ﴾ بالقرآن ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ أي لا تبق من مجهودك في نصر الحق وقمع الباطل إلا بذلته ولو رأيت منهم من التكذيب والجراءة ما رأيت.

﴿ 53 ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ هو وحده الذي مرج البحرين يلتقيان البحر العذب وهي الأنهار السارحة على وجه الأرض والبحر الملح وجعل منفعة كل واحد منهما مصلحة للعباد ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ﴾ حاجزا يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر ﴿ وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ حاجزا حصينا.

﴿ 54 ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ هو الله وحده لا شريك له الذي خلق الآدمي من ماء مهين، ثم نشر منه ذرية كثيرة وجعلهم أنسابا وأصهارا متفرقين ومجتمعين، والمادة كلها من ذلك الماء المهين، فهذا يدل على كمال اقتداره ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾.

﴿ 55 ﴾ ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ يعبدون أصناما وأمواتا لا تضر ولا تنفع ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ فالكافر عاونها وظاهرها على ربها وصار عدوا لربه مبارزا له في العداوة والحرب، هذا وهو الذي خلقه ورزقه وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، وهو –بجهله– مستمر على هذه المعاداة والمبارزة.

﴿ 56 – 60 ﴾ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا * الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا ﴾ يخبر تعالى أنه أرسل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿ مُبَشِّرًا ﴾ يبشر من أطاع الله بالثواب العاجل والآجل ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ ينذر من عصى الله بالعقاب العاجل ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ وإنك –يا محمد– لا تسألهم على إبلاغهم القرآن والهدى أجرا حتى يمنعهم ذلك من اتباعك ويتكلفون من الغرامة ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ أي إلا من شاء أن ينفق نفقة في مرضاة ربه وسبيله فهذا وإن رغبتكم فيه فلست أجبركم عليه وليس أيضا أجرا لي عليكم وإنما هو راجع لمصلحتكم وسلوككم للسبيل الموصلة إلى ربكم. ثم أمره أن يتوكل عليه ويستعين به ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ ﴾ الذي له الحياة الكاملة المطلقة ﴿ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ اعبده وتوكل عليه في الأمور المتعلقة بك والمتعلقة بالخلق ﴿ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ يعلمها ويجازي عليها ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى ﴾ بعد ذلك ﴿ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ الذي هو سقف المخلوقات وأعلاها وأوسعها وأجملها ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ استوى على عرشه الذي وسع السماوات والأرض باسمه الرحمن

الذي وسعت رحمته كل شيء فاستوى على أوسع المخلوقات، بأوسع الصفات. فأثبت بهذه الآية خلقه للمخلوقات واطلاعه على ظاهرهم وباطنهم وعلوه فوق العرش ومباينته إياهم ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة فهو الذي يعلم أوصافه وعظمته وجلاله، وقد أخبركم بذلك وأبان لكم من عظمته ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ ﴾ وحده الذي أنعم عليكم بسائر النعم ودفع عنكم جميع النقم ﴿ قَالُوا ﴾ جحدا وكفرا ﴿ وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ بزعمهم الفاسد أنهم لا يعرفون الرحمن ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ أي لمجرد أمرك إيانا. وهذا مبني منهم على التكذيب بالرسول واستكبارهم عن طاعته ﴿ وَزَادَهُمْ ﴾ دعوتهم إلى السجود للرحمن ﴿ نُفُورًا ﴾ هربا من الحق إلى الباطل وزيادة كفر وشقاء.

﴿ 61 - 62 ﴾ ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾

﴿ تَبَارَكَ ﴾ كرر تعالى في هذه السورة الكريمة قوله ﴿ تَبَارَكَ ﴾ ثلاث مرات لأن معناها كما تقدم أنها تدل على عظمة الباري وكثرة أوصافه، وكثرة خيراته وإحسانه ﴿ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ وهي النجوم عمومها أو منازل الشمس والقمر التي تنزل منزلة منزلة وهي بمنزلة البروج والقلاع للمدن في حفظها، كذلك النجوم بمنزلة البروج المجعولة للحراسة فإنها رجوم للشياطين ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا ﴾ فيه النور والحرارة وهو الشمس ﴿ وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ فيه النور لا الحرارة وهذا من أدلة عظمته، وكثرة إحسانه ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ يذهب أحدهما فيخلفه الآخر، هكذا أبدا لا يجتمعان ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ ﴾ ويعتبر ويستدل بهما على كثير من المطالب الإلهية ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ ويشكر الله على ذلك.

﴿ 63 - 77 ﴾ ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا *وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ ساكنين متواضعين لله والخلق ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ ﴾ خطاب جهل بدليل إضافة الفعل وإسناده لهذا الوصف ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ خاطبوهم خطابا يسلمون فيه من الإثم ومن مقابلة الجاهل بجهله. وهذا مدح لهم بالحلم الكثير ومقابلة المسيء بالإحسان ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ يكثرون من صلاة الليل مخلصين فيها لربهم متذللين له ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ ادفعه عنا بالعصمة من أسبابه ومغفرة ما وقع منا مما هو مقتض للعذاب ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ ملازما لأهلها ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ وهذا منهم على وجه التضرع لربهم، وبيان شدة حاجتهم إليه وأنهم ليس في طاقتهم احتمال هذا العذاب ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا ﴾ النفقات الواجبة والمستحبة ﴿ لَمْ يُسْرِفُوا ﴾ بأن يزيدوا على الحد فيدخلوا في قسم التبذير وإهمال الحقوق الواجبة ﴿ وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ فيدخلوا في باب البخل والشح ﴿ وَكَانَ ﴾ إنفاقهم ﴿ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ بين الإسراف والتقتير ﴿ قَوَامًا ﴾ يبذلون في الواجبات من الزكوات والكفارات والنفقات الواجبة، وفيما ينبغي على الوجه الذي ينبغي من غير ضرر ولا ضرار وهذا من عدلهم واقتصادهم ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ بل يعبدونه وحده مخلصين له الدين حنفاء مقبلين عليه معرضين عما سواه ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ وهي نفس المسلم والكافر المعاهد ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ كقتل النفس بالنفس ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ بل يحفظون فروجهم ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ الشرك بالله أو قتل النفس التي حرم الله بغير حق أو الزنا فسوف ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ ثم فسره بقوله ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ ﴾ أي في العذاب ﴿ مُهَانًا ﴾ فالوعيد بالخلود لمن فعلها كلها ثابت لا شك فيه وكذا لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كل واحد من هذه الثلاثة لكونها إما شرك وإما من أكبر الكبائر. وأما خلود القاتل والزاني في العذاب فإنه لا يتناوله الخلود لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار ولا يخلد فيها مؤمن ولو فعل من المعاصي ما فعل، ونص تعالى على هذه الثلاثة لأنها من أكبر الكبائر: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان والزنا فيه فساد الأعراض ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴾ عن هذه المعاصي وغيرها بأن أقلع عنها في الحال وندم على ما مضى له من فعلها وعزم عزما جازما أن لا يعود ﴿ وَآمَنَ ﴾ بالله إيمانا صحيحا يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات ﴿ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ مما أمر به الشارع إذا قصد به وجه الله ﴿ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ أي تتبدل أفعالهم وأقوالهم التي كانت مستعدة لعمل السيئات تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيمانا ومعصيتهم طاعة وتتبدل نفس السيئات التي عملوها ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة تبدل حسنات كما هو ظاهر الآية ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ﴾ لمن تاب يغفر الذنوب العظيمة ﴿ رَحِيمًا ﴾ بعباده حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم ثم وفقهم لها ثم قبلها منهم ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ فليعلم أن توبته في غاية الكمال ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ لا يحضرون الزور أي القول والفعل المحرم. ومن باب أولى وأحرى أن لا يقولوه ويفعلوه. وشهادة الزور داخلة في قول الزور تدخل في هذه الآية بالأولوية ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية ككلام السفهاء ونحوهم ﴿ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ أي نزهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه ورأوا أن

الخوض فيه وإن كان لا إثم فيه فإنه سفه ونقص للإنسانية والمروءة فربأوا بأنفسهم عنه ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ التي أمرهم باستماعها والاهتداء بها ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ أي لم يقابلوها بالإعراض عنها والصمم عن سماعها وصرف النظر والقلوب عنها ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ﴾ قرنائنا من أصحاب وأقران وزوجات ﴿ وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ تقر بهم أعيننا ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية، درجة الصديقين والكمل من عباد الله الصالحين وهي درجة الإمامة في الدين وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم يقتدى بأفعالهم، ويطمئن لأقوالهم ويسير أهل الخير خلفهم فيهدون ويهتدون ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أي المنازل الرفيعة الجامعة لكل ما يشتهى وتلذه الأعين وذلك بسبب صبرهم ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ من ربهم ومن ملائكته الكرام ومن بعض على بعض ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ ولما كان الله تعالى قد أضاف هؤلاء العباد إلى رحمته واختصهم بعبوديته لشرفهم وفضلهم ربما توهم متوهم أنه وأيضا غيرهم فلم لا يدخل في العبودية؟ فأخبر تعالى أنه لا يبالي ولا يعبأ بغير هؤلاء وأنه لولا دعاؤكم إياه دعاء العبادة ودعاء المسألة ما عبأ بكم ولا أحبكم فقال ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ عذابا يلزمكم لزوم الغريم لغريمه وسوف يحكم الله بينكم وبين عباده المؤمنين.

تم تفسير سورة الفرقان

فلله الحمد والثناء والشكر أبدا

26

مختصر تفسيرسورة الشعراء

عدد آياتها 227

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 – 9 ﴾ ﴿ طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

﴿ طسم ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ هذه آيات القرآن الموضّح لكل شيء الفاصل بين الهدى والضلال ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ لعلك – أيها الرسول – من شدة حرصك على هدايتهم مُهْلِك نفسك لأنهم لم يصدِّقوا بك ولم يعملوا بهديك، فلا تفعل ذلك ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ إن نشأ ننزل على المكذبين من قومك من الماء معجزة مخوِّفة لهم تلجئهم إلى الإيمان فتصير أعناقهم خاضعة ذليلة، ولكننا لم نشأ ذلك، فإن الإيمان النافع هو الإيمان بالغيب اختيارًا ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ وما يجيء هؤلاء المشركين المكذبين مِن ذِكْرٍ من الرحمن مُحْدَث إنزاله، شيئًا بعد شيء، يأمرهم وينهاهم، ويذكرهم بالدين الحق إلا أعرضوا عنه ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ فقد كذَّبوا بالقرآن واستهزؤوا به، فسيأتيهم أخبار الأمر الذي كانوا يستهزئون به ويسخرون منه، وسيحلُّ بهم العذاب جزاء تمردهم على ربهم ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ أكذبوا ولم ينظروا إلى الأرض التي أنبتنا فيها من كل نوع حسن نافع من النبات لا يقدر على إنباته إلا رب العالمين ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ إن في إخراج النبات من الأرض لَدلالة واضحة على كمال قدرة الله. وما كان أكثر القوم مؤمنين ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ وإن ربك لهو العزيز على كل مخلوق الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء.

﴿ 10–22 ﴾ ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ واذكر – أيها الرسول – لقومك إذ نادى ربك موسى: أن ائت القوم الظالمين ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ وقل لهم: ألا يخافون عقاب الله تعالى ويتركون ما هم عليه من الكفر والضلال ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ قال موسى: رب إني أخاف أن يكذبوني في الرسالة ويملأ صدري الغمُّ لتكذيبهم إياي ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴾ ولا ينطلق لساني بالدعوة فأرسِلْ جبريل بالوحي إلى أخي هارون ليعاونني ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ ولهم علي ذنب في قتل رجل منهم، وهو القبطي، فأخاف أن يقتلوني به ﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ قال الله لموسى: كلَّا لن يقتلوك. وقد أجبت طلبك في هارون. فاذهبا بالمعجزات الدالة على صدقكما. إنا معكم بالعلم والحفظ والنصرة مستمعون ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فأتِيا فرعون فقولا له: إنا مرسَلان إليك وإلى قومك من رب العالمين ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أن اترك بني إسرائيل ليذهبوا معنا ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ قال فرعون لموسى ممتنًا عليه: ألم نُرَبِّك في منازلنا صغيرًا ومكثت في رعايتنا سنين من عُمُرك ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ وارتكبت جنايةً بقتلك رجلًا من قومي حين ضربته ودفعته، وأنت من الجاحدين نعمتي المنكرين ربوبيتي ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ قال موسى مجيبًا لفرعون: فعلتُ ما ذكرتَ قبل أن يوحي الله إلي ويبعثني رسولًا ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فخرجت من بينكم فارًّا إلى "مدين" لمَّا خفت أن تقتلوني بما فعلتُ من غير عَمْد. فوهب لي ربي تفضلًا منه النبوة والعلم، وجعلني من المرسلين ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وتلك التربية في بيتك تَعُدُّها نعمة منك عليَّ، وقد جعلت بني إسرائيل عبيدًا تذبح أبناءهم وتستحيي نساءهم؟

﴿ 23–31 ﴾ ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال فرعون لموسى: وما رب العالمين الذي تدَّعي أنك رسوله ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ قال موسى: هو مالك ومدبر السموات والأرض وما بينهما. إن كنتم موقنين بذلك، فآمِنوا ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ قال فرعون لمن حوله مِن أشراف قومه: ألا تسمعون مقالة موسى العجيبة بوجود رب سواي؟ ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ قال موسى: الرب الذي أدعوكم إليه هو الذي خلقكم وخلق أباءكم الأولين, فكيف تعبدون مَن هو مخلوق مثلكم، وله آباء قد فنوا كآبائكم ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ قال فرعون لخاصته يستثير غضبهم لتكذيب موسى إياه: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون, يتكلم كلامًا لا يُعْقَل ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ قال موسى: رب المشرق والمغرب وما بينهما وما يكون فيهما من نور وظلمة. وهذا يستوجب الإيمان به وحده إن كنتم من أهل العقل والتدبر ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ قال فرعون لموسى مهددًا له: لئن اتخذت إلهًا غيري لأسجننك مع مَن سجنت ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴾ قال موسى: أتجعلني من المسجونين, ولو جئتك ببرهان قاطع يتبين منه صدقي ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ قال فرعون: فأت به إن كنت من الصادقين في دعواك.

﴿ 32–40 ﴾ ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ* يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ* قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾

﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ فألقى موسى عصاه فتحولت ثعبانًا حقيقيًا، ليس تمويهًا كما يفعل السحرة ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ وأخرج يده مِن جيبه فإذا هي بيضاء كالثلج من غير برص تَبْهَر الناظرين ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ قال فرعون لأشراف قومه خشية أن يؤمنوا: إن موسى لَساحر ماهر ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ فأي شيء تشيرون به في شأنه أتبع رأيكم فيه ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ قال له قومه: أخِّر أمر موسى وهارون وأرسِلْ في المدائن جندًا جامعين للسحرة ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ أجاد السحر وتفوّق في معرفته ﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ هو وقت الضحى من يوم الزينة الذي يتفرغون فيه من أشغالهم، ويجتمعون ويتزيَّنون ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴾ وحُثَّ الناس على الاجتماع بموسى أملًا في أن تكون الغلبة للسحرة ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ إننا نطمع أن تكون الغلبة للسحرة، فنثبت على ديننا.

﴿ 41 – 51 ﴾ ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ

الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ من مال أو جاه ﴿ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ لموسى ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ نَعَمْ ﴾ لكم عندي ما طلبتم من أجر ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ لديَّ ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ ألقوا ما تريدون إلقاءه من السحر مريدًا إبطال سحرهم وإظهار أن ما جاء به ليس سحرًا ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ ﴾ فخُيّل للناس أنها حيّات تسعى ﴿ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ وأقسموا بعزة فرعون قائلين: إننا لنحن الغالبون ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ فألقى موسى عصاه فإذا هي حية عظيمة تبتلع ما صدر منهم من إفك وتزوير ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴾ فلما علموا أنه ليس من تمويه السحرة آمنوا بالله وسجدوا له و ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ. قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ قال فرعون للسحرة مستنكرًا: آمنتم لموسى بغير إذن مني. وقال موهمًا أنَّ فِعْل موسى سحر: إنه لكبيركم الذي علَّمكم السحر. فلسوف تعلمون ما ينزل بكم من عقاب: لأقطعنَّ أيديكم وأرجلكم من خلاف أي بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو عكس ذلك، ولأصلبنَّكم أجمعين ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾.

﴿ 52 – 56 ﴾ ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ أوحى الله إلى موسى عليه السلام أنْ سِرْ ليلًا بمن آمن من بني إسرائيل لأن فرعون وجنوده متبعوكم حتى لا يدركوكم قبل وصولكم إلى البحر ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ فأرسل فرعون جنده– حين بلغه مسير بني إسرائيل– يجمعون جيشه من مدائن مملكته. قال فرعون ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ إن بني اسرائيل الذين فرُّوا مع موسى لَطائفة حقيرة قليلة العدد ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ وإنهم لمالئون صدورنا غيظًا، حيث خالفوا ديننا، وخرجوا بغير إذننا ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ وإنا لجميع متيقظون مستعدون لهم.

﴿ 57 – 59 ﴾ ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ فأخرج الله فرعون وقومه من أرض مصر ذات البساتين وعيون الماء ﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ وخزائن المال والمنازل الحسان ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وكما أخرجناهم، جعلنا هذه الديار من بعدهم لبني إسرائيل.

﴿ 60 – 62 ﴾ ﴿ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

﴿ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ فلحق فرعون وجنده موسى ومَن معه وقت شروق الشمس ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ فلما رأى كل واحد من الفريقين الآخر قال أصحاب موسى: إنَّ جَمْعَ فرعون مُدْرِكنا ومهلكنا ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ قال موسى لهم: كلَّا ليس الأمر كما ذكرتم فلن تُدْرَكوا، إن معي ربي بالنصر، سيهديني لما فيه نجاتي ونجاتكم.

﴿ 63 – 68 ﴾ ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ فضرب، فانفلق البحر إلى اثني عشر طريقًا بعدد قبائل بني إسرائيل، فكانت كل قطعة انفصلت من البحر كالجبل العظيم ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴾ وقرَّبْنا هناك فرعون وقومه حتى دخلوا البحر ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ فاستمر البحر على انفلاقه حتى عبروا إلى البر ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ ثم أغرقنا فرعون ومن معه بإطباق البحر عليهم بعد أن دخلوا فيه متبعين موسى وقومه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ إن في ذلك الذي حدث لَعبرة عجيبة دالة على قدرة الله، وما صار أكثر أتباع فرعون مؤمنين مع هذه العلامة الباهرة. ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ إن ربك لهو العزيز الرحيم. بعزته أهلك الكافرين المكذبين. وبرحمته نجَّى موسى ومَن معه أجمعين.

﴿ 69 – 89 ﴾ ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ *الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ

هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ واقصص على الكافرين - أيها الرسول - خبر إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي شيء تعبدونه ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ فنَعْكُف على عبادتها ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ قال إبراهيم منبهًا على فساد مذهبهم: هل يسمعون دعاءكم إذ تدعونهم ﴿ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ أو يقدّمون لكم نفعًا إذا عبدتموهم، أو يصيبونكم بضر إذا تركتم عبادتهم ﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ فقلَّدناهم فيما كانوا يفعلون ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ أفأبصرتم بتدبر ما كنتم تعبدون من الأصنام التي لا تسمع ولا تنفع ولا تضر ﴿ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴾ من قبلكم ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ فإن ما تعبدونهم من دون الله أعداء لي. لكن رب العالمين ومالك أمرهم هو وحده الذي أعبده ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ هو الذي خلقني في أحسن صورة فهو يرشدني إلى مصالح الدنيا والآخرة ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ وهو الذي ينعم عليَّ بالطعام والشراب ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ وإذا أصابني مرض فهو الذي يَشْفيني ويعافيني منه ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ وهو الذي يميتني في الدنيا بقبض روحي ثم يحييني يوم القيامة، لا يقدر على ذلك أحد سواه ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ والذي أطمع أن يتجاوز عن ذنبي يوم الجزاء ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ قال إبراهيم داعيًا ربه: ربِّ امنحني العلم والفهم وألحقني بالصالحين واجمع بيني وبينهم في الجنة ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ واجعل لي ثناء حسنًا وذكرًا جميلًا في الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة ﴿ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ واجعلني من عبادك الذين تورثهم نعيم الجنة. ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ واصفح لأبي عن شركه بك ولا تعاقبه عليه. إنه كان ممن ضل عن سبيل الهدى فكفر بك. وهذا قبل أن يتبين لإبراهيم أن أباه عدو لله. فلما تبيَّن له أنه عدو لله تبرأ منه ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ ولا تُلْحق بي الذل يوم يخرج الناس من القبور للحساب والجزاء ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ أحداً من العباد ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ من الكفر والنفاق والرذيلة.

﴿ 90 - 104 ﴾ ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ * فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقُرِّبت الجنة للذين اجتنبوا الكفر والمعاصي وأقبلوا على الله بالطاعة ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ وأُظهرت النار للكافرين الذين ضَلُّوا عن الهدى وتجرَّؤوا على محارم الله وكذَّبوا رسله ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ وقيل لهم توبيخًا: أين آلهتكم التي كنتم تعبدونها مِن دون الله وتزعمون أنها تشفع لكم اليوم ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ هل ينصرونكم فيدفعون العذاب عنكم أو ينتصرون بدفع العذاب عن أنفسهم؟ لا شيء من ذلك ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ فجُمِعوا وأُلقوا في جهنم هم والذين أضلوهم ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ وأعوان إبليس الذين زيَّنوا لهم الشر لم يُفْلِت منهم أحد ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ قالوا معترفين بخطئهم وهم يتنازعون في جهنم مع مَن أضلوهم ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ في ضلال واضح لا خفاء فيه ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ المستحق للعبادة وحده ﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴾ وما أوقعنا في هذا المصير السيِّئ إلا المجرمون الذين دعونا إلى عبادة غير الله فاتبعناهم ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾ يخلِّصنا من العذاب ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ يَصْدُق في مودتنا ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فليت لنا رجعة إلى الدنيا فنصير من جملة المؤمنين الناجين ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ إن في نبأ إبراهيم السابق لَعبرة لِمن يعتبر. وما صار أكثر الذين سمعوا هذا النبأ مؤمنين ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ القادر على الانتقام من المكذبين الرحيم بعباده المؤمنين.

﴿ 105 – 122 ﴾ ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ* قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ * قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ* إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فكانوا بهذا مكذبين لجميع الرسل، لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ الله بترك عبادة غيره ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ فيما أبلغكم ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فاجعلوا الإيمان وقاية لكم من عذاب الله وأطيعوني فيما آمركم به من عبادته وحده ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ المتصرف في خلقه ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فاحذروا عقابه وأطيعوني بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ قال له قومه: كيف نصدِّقك ونتبعك والذين اتبعوك أراذل الناس وأسافلهم ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فأجابهم نوح عليه السلام بقوله: لست مكلفًا بمعرفة أعمالهم، إنما كُلفت أن أدعوهم إلى الإيمان، والاعتبار بالإيمان ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ ما حسابهم للجزاء

على أعمالهم وبواطنهم إلا على ربي المطَّلع على السرائر، لو كنتم تشعرون بذلك ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وما أنا بطارد الذين يؤمنون بدعوتي مهما تكن حالهم تلبية لرغبتكم كي تؤمنوا بي ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ ما أنا إلا نذير بيّن الإنذار ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ عدل قوم نوح عن المحاورة إلى التهديد. فقالوا له: لئن لم ترجع يا نوح عن دعوتك لتكوننَّ مِنَ المقتولين رميًا بالحجارة ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَ قَوْمِي كَذَّبُون ﴾ ربّ إن قومي أصروا على تكذيبي ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فاحكم بيني وبينهم حكمًا تُهلك به مَن جحد توحيدك وكذَّب رسولك ونجني ومَن معي من المؤمنين مما تعذب به الكافرين ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ في السفينة المملوءة بصنوف المخلوقات التي حملها معه. ثم أغرقنا الذين لم يؤمنوا مِن قومه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ إن في نبأ نوح لَعلامة وعبرةً عظيمة لمن بعدهم. وما كان أكثر الذين سمعوا هذه القصة مؤمنين بالله وبرسوله وشرعه ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ وإن ربك لهو العزيز في انتقامه ممن كفر به وخالف أمره، الرحيم بالتائب منهم أن يعاتبه بعد توبته.

﴿ 123 – 140 ﴾ ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّـهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّـهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴾ كذَّبت قبيلة عاد رسولهم هودًا عليه السلام فكانوا بهذا مكذِّبين لجميع الرسل، لاتحاد دعوتهم في أصولها وغايتها ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ألا تخشون الله فتخلصوا له العبادة؟ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ حفيظ على رسالة الله، أبلِّغها لكم كما أمرني ربي ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فخافوا عقاب الله وأطيعوني فيما جئتكم به من عند الله ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِين ﴾ وما أطلب منكم على إرشادكم إلى التوحيد أيَّ نوع من أنواع الأجر. ما أجري إلا على رب العالمين ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عاليًا تشرفون منه فتسخرون مِنَ المارة؟ وذلك عبث وإسراف لا يعود عليكم بفائدة في الدين أو الدنيا ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ وتتخذون قصورًا منيعة وحصونًا مشيَّدة كأنكم تخلدون في الدنيا ولا تموتون ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ وإذا بطشتم بأحد من الخلق قتلًا أو ضربًا فعلتم ذلك قاهرين ظالمين ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فخافوا الله وامتثلوا ما أدعوكم إليه فإنه أنفع لكم ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ واخشوا الله الذي أعطاكم من أنواع النعم ما لا خفاء فيه عليكم ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴾ أعطاكم الإبل

والبقر والغنم وأعطاكم الأولاد ﴿ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ وأعطاكم البساتين المثمرة، وفجَّر لكم الماء من العيون الجارية ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ قال هود عليه السَّلام محذرًا لهم: إني أخاف إن أصررتم على ما أنتم عليه من التكذيب والظلم وكُفْر النِّعم أن ينزل الله بكم عذابًا في يوم تعظم شدته من هول عذابه ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ يستوي عندنا تخويفك وتركه، فلن نؤمن لك ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وقالوا: ما هذا الذي نحن عليه إلا دين الأولين وعاداتهم ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ وما نحن بمعذبين على ما نفعل مما حَذَّرتنا منه من العذاب ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فاستمَرُّوا على تكذيبه. فأهلكهم الله بريح باردة شديدة. إن في ذلك الإهلاك لَعبرة لمن بعدهم. وما كان أكثر الذين سمعوا قصتهم مؤمنين بك ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ العزيز الغالب على ما يريده من إهلاك المكذبين، الرحيم بالمؤمنين.

﴿ 141- 159 ﴾ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّـهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ كذَّبت قبيلة ثمود أخاهم صالحًا في رسالته ودعوته إلى توحيد الله فكانوا بهذا مكذِّبين لجميع الرسل، لأنهم جميعًا يدعون إلى توحيد الله ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ألا تخشون عقاب الله فتُفرِدونه بالعبادة؟ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ حفيظ على هذه الرسالة كما تلقيتها عن الله ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فاحذروا عقابه تعالى وامتثلوا ما دعوتكم إليه ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وما أطلب منكم على نصحي وإرشادي لكم أي جزاء، ما جزائي إلا على رب العالمين ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَا هُنَا آمِنِينَ ﴾ أيترككم ربكم فيما أنتم فيه من النعيم مستقرين في هذه الدنيا آمنين من العذاب والزوال والموت ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ في حدائق مثمرة وعيون جارية ﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ وزروع كثيرة ونخل ثمرها يانع لين نضيج ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ وتنحتون من الجبال بيوتًا ماهرين بنحتها، أَشِرين بَطِرين ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فخافوا عقوبة الله واقبلوا نصحي ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ ولا تنقادوا لأمر المسرفين على أنفسهم المتمادين في معصية الله ﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ الذين دأبوا على الإفساد في الأرض إفسادًا لا إصلاح فيه ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ قالت ثمود لنبيها صالح: ما أنت إلا من الذين

سُحروا سِحْرًا كثيرًا، حتى غلب السحر على عقلك ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ما أنت إلا فرد مماثل لنا في البشرية من بني آدم. فكيف تتميز علينا بالرسالة؟ فأت بحجة واضحة تدل على ثبوت رسالتك إن كنت صادقًا في دعواك أن الله أرسلك إلينا ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ قال لهم صالح- وقد أتاهم بناقة أخرجها الله له من الصخرة: هذه ناقة الله لها نصيب من الماء في يوم معلوم، ولكم نصيب منه في يوم آخر. ليس لكم أن تشربوا في اليوم الذي هو نصيبها، ولا هي تشرب في اليوم الذي هو نصيبكم ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ولا تنالوها بشيء مما يسوءها كضَرْبٍ أو قتل أو نحو ذلك فيهلككم الله بعذابِ يومٍ تعظم شدته، بسبب ما يقع فيه من الهول والشدة ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ فنحروا الناقة فأصبحوا متحسرين على ما فعلوا لَمَّا أيقنوا بالعذاب فلم ينفعهم ندمهم ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ فنزل بهم عذاب الله الذي توعدهم به صالح عليه السلام، فأهلكهم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ إن في إهلاك ثمود لَعبرة لمن اعتبر بهذا المصير. وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ وإن ربك لهو العزيز القاهر المنتقم من أعدائه المكذبين، الرحيم بمن آمن من خلقه.

﴿ 160 – 175 ﴾ ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ برسالته فكانوا بهذا مكذبين لسائر رسل الله، لأن ما جاؤوا به من التوحيد وأصول الشرائع واحد ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ألا تخافون عذاب الله ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ على تبليغ رسالته إليكم ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فاحذروا عقاب الله على تكذيبكم رسوله واتبعوني فيما دعوتكم إليه ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وما أسألكم على دعوتي لهدايتكم أيَّ أجر، ما أجري إلا على رب العالمين ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أتنكحون الذكور مِن بني آدم ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ وتتركون ما خلق الله لاستمتاعكم وتناسلكم مِن أزواجكم؟ بل أنتم قوم بهذه المعصية- متجاوزون ما أباحه الله لكم من الحلال إلى الحرام ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ قال قوم لوط: لئن لم تترك يا لوط نَهْيَنا عن إتيان الذكور وتقبيح فعله، لتكونن من المطرودين من بلادنا ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ قال لوط لهم: إني لِعملكم الذي تعملونه من إتيان الذكور، لَمن المبغضين له بغضًا شديداً ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ ثم دعا لوط ربه حينما يئس من استجابتهم له قائلًا: ربِّ أنقذني وأنقذ أهلي مما يعمله قومي

مِن هذه المعصية القبيحة ومِن عقوبتك التي ستصيبهم ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ فنجيناه وأهل بيته والمستجيبين لدعوته أجمعين ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ وهي امرأته، لم تشاركهم في الإيمان فكانت من الباقين في العذاب والهلاك ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴾ ثم أهلكنا مَن عداهم من الكفرة أشدَّ إهلاك ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ وأنزلنا عليهم حجارة من السماء كالمطر أهلكتهم فقَبُحَ مطرُ من أنذرهم رسلهم ولم يستجيبوا لهم. فقد أُنزل بهم أشدُّ أنواع الهلاك والتدمير ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ إن في ذلك العقاب الذي نزل بقوم لوط لَعبرة وموعظة يتعظ بها المكذبون. وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ وإن ربك لهو العزيز الغالب الذي يقهر المكذبين، الرحيم بعباده المؤمنين.

﴿ 176 – 191 ﴾ ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ كذَّب أصحاب الأرض ذات الشجر الملتف رسولهم شعيبًا في رسالته فكانوا بهذا مكذِّبين لجميع الرسالات ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ألا تخافون عقاب الله على معاصيكم؟ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ إني مرسَل إليكم مِنَ الله لهدايتكم، حفيظ على ما أوحى الله به إليَّ من الرسالة ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فخافوا عقاب الله، اتبعوا ما دعوتكم إليه مِن هداية الله لترشدوا ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وما أطلب منكم على دعائي لكم إلى الإيمان بالله أيَّ جزاء، ما جزائي إلا على رب العالمين ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ قال لهم شعيب- وقد كانوا يُنْقِصون الكيل والميزان- أتمُّوا الكيل للناس وافيًا لهم، ولا تكونوا ممن يُنْقِصون الناس حقوقهم ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ وَزِنوا بالميزان العدل المستقيم ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ ولا تنقصوا الناس شيئًا مِن حقوقهم في كيل أو وزن أو غير ذلك، ولا تكثروا في الأرض الفساد بالشرك والقتل والنهب وتخويف الناس وارتكاب المعاصي ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾ واحذروا عقوبة الله الذي خلقكم وخلق الأمم المتقدمة عليكم ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ إنما أنت يا شعيب مِنَ الذين أصابهم السحر فذهب بعقولهم ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ وما أنت إلا واحد مثلنا في البشرية، فكيف تختص دوننا بالرسالة؟ وإن أكبر ظننا أنك من الكاذبين فيما تدَّعيه من الرسالة ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فإن كنت صادقًا في دعوى النبوة،

فادع الله أن يسقط علينا قطع عذاب من السماء تستأصلنا ﴿ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قال لهم شعيب: ربي أعلم بما تعملونه مِنَ الشرك والمعاصي، وبما تستوجبونه من العقاب ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فاستمَرُّوا على تكذيبه، فأصابهم الحر الشديد، وصاروا يبحثون عن ملاذ يستظلون به. فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردًا ونسيمًا. فلما اجتمعوا تحتها التهبت عليهم نارًا فأحرقتهم. فكان هلاكهم جميعًا في يوم شديد الهول ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ إن في ذلك العقاب الذي نزل بهم لَدلالة واضحة على قدرة الله في مؤاخذة المكذبين وعبرة لمن يعتبر. وما كان أكثرهم مؤمنين متعظين بذلك ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ العزيز في نقمته ممن انتقم منه من أعدائه، الكريم بعباده الموحدين.

﴿ 192 - 207 ﴾ ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ *عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ * كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وإن هذا القرآن الذي ذُكِرَتْ فيه هنا القصص الصادقة لَمنزَّل مِن خالق الخلق ومالك الأمر كلهَ ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ جبريل الأمين ﴿ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ حتى وعيته بقلبك حفظًا وفهمًا، لتكون مِن رسل الله الذين يخوِّفون قومهم عقاب الله، فتنذر بهذا التنزيل الإنس والجن أجمعين ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ بلغة عربية واضحة المعنى، ظاهرة الدلالة، فيما يحتاجون إليه في إصلاح شؤون دينهم ودنياهم ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ وإنَّ ذِكْرَ هذا القرآن لَمثبتٌ في كتب الأنبياء السابقين، قد بَشَّرَتْ به وصَدَّقَتْهْ ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أو لم يَكْفِ هؤلاء - في الدلالة على أنك رسول الله، وأن القرآن حق، عِلْمُ علماء بني إسرائيل صحة تلك، ومَن آمن منهم كعبد الله بن سلام ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾ ولو نَزَّلنا القرآن على بعض الذين لا يتكلمون بالعربية ﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ فقرأه على كفار قريش قراءة عربية صحيحة، لكفروا به أيضًا، وانتحلوا لجحودهم عذرًا ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ كذلك أدخلنا في قلوب المجرمين جحود القرآن، وصار متمكنًا فيها وذلك بسبب ظلمهم وإجرامه ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ فلا سبيل إلى أن يتغيروا عمَّا هم عليه من إنكار القرآن، حتى يعاينوا العذاب الشديد الذي وُعِدوا به ﴿ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فينزل بهم العذاب فجأة وهم لا يعلمون قبل ذلك بمجيئه ﴿ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴾ فيقولون عند مفاجأته به تحسُّرًا على ما فاتهم من الإيمان: هل نحن مُمْهَلون مُؤخَّرون، لنتوب إلى

الله مِن شركنا، ونستدرك ما فاتنا ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أغَرَّ هؤلاء إمهالي فيستعجلون نزول العذاب عليهم من السماء ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾ أفعلمت أيها الرسول إن مَتَّعناهم بالحياة سنين طويلة بتأخير آجالهم ﴿ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ ثم نزل بهم العذاب الموعود ﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ ما أغنى عنهم تمتعهم بطول العمر، وطيب العيش إذا لم يتوبوا من شركهم؟ فعذاب الله واقع بهم عاجلًا أم آجلًا.

﴿208–220﴾ ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ *ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ * وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ * فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّـهِ إِلَـٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ * وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِ* فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ* الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ* إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ وما أهلكنا مِن قرية من القرى في الأمم جميعاً إلا بعد أن نرسل إليهم رسلًا ينذرونهم ﴿ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ تذكرةً لهم وتنبيهاً على ما فيه نجاتهم. وما كنا ظالمين فنعذب أمة قبل أن نرسل إليها رسولاً ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ﴾ بالقرآن على محمد ﴿ الشَّيَاطِينُ ﴾ كما يزعم الكفرة ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ولا يصح منهم ذلك وما يستطيعونه ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ لأنهم عن استماع القرآن من السماء محجوبون مرجومون بالشهب ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ فلا تعبد مع الله معبودًا غيره، فينزل بك من العذاب ما نزل بهؤلاء الذين عبدوا مع الله غيره ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ حذِّر أيها الرسول الأقرب فالأقرب مِن قومك مِن عذابنا أن ينزل بهم ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وألِنْ جانبك وكلامك تواضعًا ورحمة لمن ظهر لك منه إجابة دعوتك ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فإن خالفوا أمرك ولم يتبعوك، فتبرَّأ من أعمالهم وما هم عليه من الشرك والضلال ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ وفَوِّض أمرك إلى الله العزيز الذي لا يغالَب، الرحيم الذي لا يخذل أولياءه ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ وهو الذي يراك حين تقوم للصلاة وحدك في جوف الليل ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ ويرى تقلُّبك مع الساجدين في صلاتهم معك قائمًا وراكعًا وساجدًا وجالسًا ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ السميع لتلاوتك وذكرك، العليم بنيتك وعملك.

﴿ 221 – 227 ﴾ ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ* وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ* أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّـهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ هل أخبركم- أيها الناس- على مَن تنزَّل الشياطين ﴿ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ تنزل على كل كذَّاب كثير الآثام من الكهنة ﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ يَسْتَرِقُ الشياطين السمع، يتخطفونه من الملأ الأعلى، فيلقونه إلى الكهان ومَن جرى مجراهم مِنَ الفسقة، وأكثر هؤلاء كاذبون، يَصْدُقَ أحدهم في كلمة فيزيد فيها أكثر مِن مائة كذبة ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ والشعراء يقوم شعرهم على الباطل والكذب، ويجاريهم الضالون الزائغون مِن أمثالهم ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ ألم تر أيها النبي أنهم يذهبون كالهائم على وجهه، يخوضون في كل فن مِن فنون الكذب والزور وتمزيق الأعراض والطعن في الأنساب وتجريح النساء العفائف ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ فيبالغون في مدح أهل الباطل، وينتقصون أهل الحق ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ استثنى الله من الشعراءِ الشعراءَ الذين اهتدَوْا بالإيمان وعملوا الصالحات، وأكثروا مِن ذِكْر الله ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أنفسهم بالشرك والمعاصي وظلموا غيرهم بغمط حقوقهم أو الاعتداء عليهم ﴿ أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ أي مرجع من مراجع الشر والهلاك يرجعون إليه؟ إنَّه منقلب سوء . نسأل الله السلامة والعافية.

27

مختصر تفسيرسورة النمل

عدد آياتها 93

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 6 ﴾ ﴿ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ *هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ *أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ * وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾

﴿ طس ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ آيات الكتاب العزيز، بينة المعنى واضحة الدلالة على ما فيه من العلوم والحكم والشرائع. فالقرآن هو الكتاب، جمع الله له بين الاسمين ﴿ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهي آيات ترشد إلى طريق الفوز في الدنيا والآخرة وتبشر بحسن الثواب للمؤمنين الذين صَدَّقوا بها واهتدَوْا بهديها ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ الذين يقيمون الصلوات الخمس كاملة الأركان ويؤدون الزكاة المفروضة لمستحقيها وهم يوقنون بالحياة الآخرة وما فيها مِن ثواب وعقاب ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ إن الذين لا يُصَدِّقون بالدار الآخرة ولا يعملون لها حسَّنَّا لهم أعمالهم السيئة فرأوها حسنة فهم يترددون فيها متحيّرين ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ أولئك الذين لهم العذاب السيّئ في الدنيا قتلًا وأَسْرًا وذلًّا وهزيمةً، وهم في الآخرة أشد الناس خسرانًا ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ وإنك أيها الرسول لتتلقى القرآن من عند الله الحكيم في خلقه وتدبيره الذي أحاط بكل شيء علمًا.

﴿ 7 - 14 ﴾ ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ * وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ اذكر قصة موسى حين قال لأهله في مسيره من مدين إلى مصر: إني أبصَرْتُ نارًا سآتيكم منها بخبر يدلنا على الطريق، أو آتيكم بشعلة نار كي تستدفئوا بها من البرد ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فلما جاء موسى النارَ ناداه الله وأخبره أن هذا مكانٌ قدَّسه الله وباركه فجعله موضعًا لتكليم موسى وإرساله وأن الله بارك مَن في النار ومَن حولها مِنَ الملائكة وتنزيهًا لله رب الخلائق عما لا يليق به ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ ﴾ المستحق للعبادة وحدي العزيز الغالب في انتقامي من أعدائي ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في تدبير خلقي ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ فألقاها فصارت حية ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ فلما رأها تتحرك في خفة ولَّى هاربًا ولم يرجع إليها، فطمأنه الله بقوله ﴿ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ الذين أرسلتهم برسالتي ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لكن مَن تجاوز الحدَّ بذنب، ثم تاب فبدَّل حُسْن التوبة بعد قبح الذنب، فإني غفور له رحيم به. فلا ييئس أحدٌ من رحمة الله ومغفرته ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء كالثلج من غير بَرَص في جملة تسع معجزات، وهي مع اليد: العصا، والسنون، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم لتأييدك في رسالتك إلى فرعون وقومه. إنهم كانوا قومًا خارجين عن أمر الله كافرين به ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ فلما جاءتهم هذه المعجزات ظاهرة بيّنة يبصر بها مَن نظر إليها حقيقةَ ما دلت عليه، قالوا: هذا سحرٌ واضحٌ بيّن ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ وكذَّبوا بالمعجزات التسع الواضحة الدلالة على صدق موسى في نبوته وصدق دعوته وأنكروا بألسنتهم أن تكون من عند الله، وقد استيقنوها في قلوبهم اعتداءً على الحق وتكبرًا على الاعتراف به. فانظر أيها الرسول كيف كان مصير الذين كفروا بآيات الله وأفسدوا في الأرض إذ أغرقهم الله في البحر. وفي ذلك عبرة لمن يعتبر.

﴿ 15 - 19 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا

مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾ فعملا به ﴿ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا ﴾ بهذا ﴿ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وفي الآية دليل على شرف العلم وارتفاع أهله ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ ﴾ أباه ﴿ دَاوُدَ ﴾ في النبوة والعلم والملك ﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا ﴾ وفُهِّمنا ﴿ مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ تدعو إليه الحاجة ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ الذي أعطانا الله تعالى إياه ﴿ لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ الواضح الذي يُمَيِّزنا على مَن سوانا ﴿ وَحُشِرَ ﴾ وجُمِع ﴿ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ ﴾ في مسيرة لهم ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ على كثرتهم لم يكونوا مهمَلين بل كان على كل جنس من يَرُدُّ أولهم على آخرهم كي يقفوا جميعًا منتظمين ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ ﴾ لا يهلكنَّكم ﴿ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وهم لا يعلمون بذلك ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ لفهمها واهتدائها إلى تحذير النمل، واستشعر نعمة الله عليه، فتوجَّه إليه داعيًا ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ ألْهِمْني ووفقني ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ في نعيم جنتك مع عبادك الصالحين الذين ارتضيت أعمالهم.

﴿ 20 – 28 ﴾ ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّـهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّـهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّـهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَب بِّكِتَابِي هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾

﴿ وَتَفَقَّدَ ﴾ سليمان حال ﴿ الطَّيْرَ ﴾ المسخرة له وحال ما غاب منها ﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ ﴾ وكان عنده هدهد متميز معروف فلم يجده، فقال: ما لي لا أرى الهدهد الذي أعهده، أَسَتَرَه ساتر عني ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ عني، فلم أره لغيبته ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ لغيابه تأديبًا له ﴿ أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ﴾ عقوبة على ما فعل حيث أخل بما سخر له ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ بحجة ظاهرة فيها عذر لغيبته ﴿ فَمَكَثَ ﴾ زمنًا ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ ثم حضر فعاتبه سليمان على مغيبه وتخلُّفه ﴿ فَقَالَ ﴾ له الهدهد ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ علمت ما لم تعلمه من الأمر على وجه الإحاطة، وجئتك من مدينة سبأ باليمن بخبر خطير الشأن، وأنا على يقين منه ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ تحكم أهل سبأ ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من أسباب الدنيا ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ ولها سرير عظيم القدر تجلس عليه لإدارة ملكها ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ ﴾ يعبدون الشمس ﴿ مِن دُونِ

اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ وحسَّن لهم الشيطان أعمالهم السيئة التي كانوا يعملونها فصرفهم عن الإيمان بالله وتوحيده، فهم لا يهتدون إلى الله وتوحيده وعبادته وحده ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ حسَّن لهم الشيطان ذلك، لئلا يسجدوا لله الذي يُخرج المخبوء المستور في السموات والأرض من المطر والنبات وغير ذلك، ويعلم ما تُسرُّون وما تظهرون ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ الله الذي لا معبود يستحق العبادة سواه، رب العرش العظيم ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ قال سليمان للهدهد: سنتأمل فيما جئتنا به من الخبر أصدقت في ذلك أم كنت من الكاذبين فيه ﴿ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَٰذَا ﴾ إلى أهل سبأ ﴿ فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ﴾ فأعطهم إياه ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ ثم تنحَّ عنهم قريبًا منهم بحيث تسمع كلامهم ﴿ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ فتأمل ما يتردد بينهم من الكلام.

﴿ 29 – 35 ﴾ ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ ذهب الهدهد وألقى الكتاب إلى الملكة فقرأته، فجمعت أشراف قومها، وسمعها تقول لهم: إني وصل إليَّ كتاب جليل المقدار من شخص عظيم الشأن ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ثم بيَّنت ما فيه فقالت: إنه من سليمان، وإنه مفتتح بـ "بسم الله الرحمن الرحيم" ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ ألا تتكبروا ولا تتعاظموا عما دعوتكم إليه وأقْبِلوا إليَّ منقادين لله بالوحدانية والطاعة مسلمين له ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ قالت: يا أيها الأشراف أشيروا عليَّ في هذا الأمر، ما كنت لأفصل في أمر إلا بمحضركم ومشورتكم ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ قالوا مجيبين لها: نحن أصحاب قوة في العدد والعُدَّة والأمر موكول إليكِ وأنتِ صاحبة الرأي. فتأملي ماذا تأمريننا به؟ فنحن سامعون لأمرك مطيعون لك ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ قالت محذرةً لهم من مواجهة سليمان بالعداوة، ومبيِّنة لهم سوء مغبَّة القتال: إن الملوك إذا دخلوا بجيوشهم قريةً عنوةً وقهرًا خرَّبوها وصيَّروا أعزَّة أهلها أذلة وقتلوا وأسروا وهذه عادتهم المستمرة الثابتة لحمل الناس على أن يهابوهم ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ وإني مرسلة إلى سليمان وقومه بهديَّة مشتملة على نفائس الأموال أصانعه بها ومنتظرة ما يرجع به الرسل.

﴿ 36 – 41 ﴾ ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّـهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ * قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ * قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ فلمَّا جاء رسول الملكة بالهديَّة إلى سليمان قال مستنكرًا ذلك متحدثًا بأَنْعُمِ الله عليه: أتمدونني بمالٍ تَرْضيةً لي؟ فما أعطاني الله من النبوة والملك والأموال الكثيرة خير وأفضل مما أعطاكم، بل أنتم الذين تفرحون بالهدية لأنكم أهل مفاخرة بالدنيا ومكاثرة بها ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ وقال سليمان عليه السلام لرسول أهل سبأ: ارجع إليهم، فوالله لنأتينَّهم بجنود لا طاقة لهم بمقاومتها ومقابلتها، ولنخرجنَّهم مِن أرضهم أذلة وهم صاغرون مهانون إن لم ينقادوا لدين الله وحده ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ قال سليمان مخاطبًا من سَخَّرهم الله له من الجن والإنس: أيُّكم يأتيني بسرير ملكها العظيم قبل أن يأتوني منقادين طائعين؟ ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ قال مارد قويٌّ شديد من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مجلسك هذا. وإني لقويٌّ على حَمْله، أمين على ما فيه ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أنا آتيك بهذا العرش قبل ارتداد أجفانك إذا تحرَّكَتْ للنظر في شيء. فأذن له سليمان فدعا الله فأتى بالعرش ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ الذي خلقني وخلق الكون كله ﴿ لِيَبْلُوَنِي ليختبرني ﴿ أَأَشْكُرُ ﴾ بذلك اعترافًا بنعمته تعالى عليَّ ﴿ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ بترك الشكر ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ فإنَّ نَفْعَ ذلك يرجع إليه ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ ومن جحد النعمة وترك الشكر فإن ربي غني عن شكره ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ قال سليمان لمن عنده: غيّروا سرير ملكها الذي تجلس عليه إلى حال تنكره إذا رأته، لنرى أتهتدي إلى معرفته أم تكون من الذين لا يهتدون؟

﴿ 42 – 44 ﴾ ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّـهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّـهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ فلما جاءت ملكة سبأ إلى سليمان في مجلسه قيل لها: أهكذا عرشك؟ قالت: إنه يشبهه ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ فظهر لسليمان أنها أصابت في جوابها وقد علمت قدرة الله وصحة نبوة سليمان عليه السلام. فقال: وأوتينا العلم بالله وبقدرته مِن قبلها، وكنا منقادين لأمر الله متبعين لدين الاسلام ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ ومَنَعَها عن عبادة الله وحده ما كانت تعبده مِن دون الله تعالى، إنها كانت كافرة ونشأت بين قوم كافرين واستمرت على دينهم، وإلا فلها من الذكاء والفطنة ما تعرف به الحق من الباطل ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ﴾ ادخلي القصر، وكان صحنه مِن زجاج تحته ماء ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ﴾ ظنته ماء تتردد أمواجه ﴿ وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ﴾ لتخوض الماء ﴿ قَالَ ﴾ لها سليمان ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ﴾ إنه صحن أملس من زجاج صاف والماء تحته. فأدركت عظمة ملك سليمان ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ بما كنت عليه من الشرك ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وانقدت متابعة لسليمان داخلة في دين رب العالمين أجمعين.

﴿ 45 – 53 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّـهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ * قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّـهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّـهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ * وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّـهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ فلما أتاهم داعيًا ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أحدهما مؤمن به والآخر كافر بدعوته ﴿ قَالَ ﴾ صالح للفريق الكافر ﴿ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ لِمَ تبادرون الكفر وعمل السيئات الذي يجلب لكم العذاب وتؤخرون الإيمان وفِعْل الحسنات الذي يجلب لكم الثواب ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ هلا تطلبون المغفرة من الله ابتداء وتتوبون إليه رجاء أن ترحموا ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ قال قوم صالح له: تَشاءَمْنا بك وبمن معك ممن دخل في دينك ﴿ قَالَ ﴾ لهم صالح ﴿ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ ما أصابكم الله مِن خير أو شر فهو مقدِّره عليكم ومجازيكم به. بل أنتم قوم تُخْتَبرون بالسراء والضراء والخير والشر ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ وكان في مدينة صالح -وهي "الحِجْر" الواقعة في شمال غرب جزيرة العرب- تسعة رجال شأنهم الإفساد في الأرض الذي لا يخالطه شيء من الصلاح ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ قال هؤلاء التسعة بعضهم لبعض: تقاسموا بالله بأن يحلف كل واحد للآخرين: لنأتينَّ صالحًا بغتة في الليل فنقتله ونقتل أهله، ثم لنقولَنَّ لوليّ الدم مِن قرابته: ما حضرنا قتلهم، وإنا لصادقون فيما قلناه ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا

يَشْعُرُونَ ﴾ ودبَّروا هذه الحيلة لإهلاك صالح وأهله مكرًا منهم. فنصرنا نبينا صالحًا عليه السلام، وأخذناهم بالعقوبة على غِرَّة وهم لا يتوقعون كيدنا لهم جزاءً على كيدهم ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فانظر أيها الرسول نظرة اعتبار إلى عاقبة غَدْر هؤلاء الرهط بنبيهم صالح؟ أنا أهلكناهم وقومهم أجمعين ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فتلك مساكنهم خالية ليس فيها منهم أحد، أهلكهم الله بسبب ظلمهم لأنفسهم بالشرك وتكذيب نبيهم. إن في ذلك التدمير والإهلاك لَعظة لقوم يعلمون ما فعلناه بهم، وهذه سنتنا فيمن يكذب المرسلين ﴿ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ وأنجينا مما حلَّ بثمود من الهلاك صالحًا والمؤمنين به الذين كانوا يتقون بإيمانهم عذاب الله.

تفسير الجزء العشرون20

{ 54 – 58 } ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ واذكر عبدنا ورسولنا لوطا ونبأه الفاضل حين قال لقومه – داعيا إلى الله وناصحا ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ الفعلة الشنعاء التي تستفحشها العقول والفطر وتستقبحها الشرائع ﴿ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ ذلك وتعلمون قبحه فعاندتم وارتكبتم ذلك ظلما منكم وجرأة على الله ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴾ كيف توصلتم إلى هذه الحال، صارت شهوتكم للرجال وأدبارهم محل الغائط والنجو والخبث، وتركتم ما خلق الله لكم من النساء من المحال الطيبة التي جبلت النفوس إلى الميل إليها وأنتم انقلب عليكم الأمر فاستحسنتم القبيح واستقبحتم الحسن ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ متجاوزون لحدود الله متجرئون على محارمه ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ جواب قبول ولا انزجار ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ﴾ إنما كان جوابهم التوعد لنبيهم الناصح ورسولهم الأمين بالإجلاء عن وطنه. وكأنه قيل: ما نقمتم منهم وما ذنبهم الذي أوجب لهم الإخراج، فقالوا ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ يتنزهون عن اللواط وأدبار الذكور، فقبحهم الله جعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقبح السيئات. ولهذا قال تعالى ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ وذلك لما جاءته الملائكة في صورة أضياف وسمع بهم قومه فجاءوا إليه يريدونهم بالشر وأغلق الباب دونهم واشتد الأمر عليه، ثم أخبرته الملائكة عن جلية الحال وأنهم جاءوا لاستنقاذه وإخراجه من بين أظهرهم وأنهم يريدون إهلاككم وأن موعدهم الصبح، وأمروه أن يسري بأهله ليلا إلا امرأته فإنه سيصيبها

ما أصابهم فخرج بأهله ليلا فنجوا وصبحهم العذاب، فقلب الله عليهم ديارهم ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك.

﴿ 59 ﴾ ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الذي يستحق كمال الحمد والمدح والثناء ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ وسلم أيضا على عباده الذين تخيرهم واصطفاهم على العالمين من الأنبياء والمرسلين وصفوة الله من العالمين ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أما يُشْرِكُونَ ﴾ وهذا استفهام قد تقرر وعرف، أي: هل الله الرب العظيم كامل الأوصاف خير أم الأصنام والأوثان التي عبدوها معه، وهي ناقصة من كل وجه، فالله خير مما يشركون.

﴿60﴾ ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أمن خلق السماوات وما فيها ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ ﴾ أي لأجلكم ﴿ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ﴾ بساتين ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ حسنة المنظر ﴿ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ لولا منة الله عليكم بإنزال المطر ﴿ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ فعل هذه الأفعال حتى يعبد معه ويشرك به ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾.

﴿ 61 ﴾ ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ يستقر عليها العباد ﴿ وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ﴾ ينتفع بها العباد ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالا ترسيها وتثبتها لئلا تميد ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ البحر المالح والبحر العذب ﴿ حَاجِزًا ﴾ يمنع من اختلاطهما فتفوت المنفعة المقصودة من كل منهما ﴿ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ فعل ذلك حتى يعدل به الله ويشرك به معه ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فيشركون بالله تقليدا لرؤسائهم وإلا فلو علموا حق العلم لم يشركوا به شيئا.

﴿ 62 ﴾ ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ هل يجيب المضطرب الذي أقلقته الكروب إلا الله وحده ﴿ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ أي البلاء والشر والنقمة إلا الله وحده ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ يمكنكم منها ويمد لكم بالرزق ويوصل إليكم نعمه وتكونون خلفاء من قبلكم كما أنه سيميتكم ويأتي بقوم بعدكم ﴿ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ يفعل هذه الأفعال؟ لا أحد يفعل مع الله شيئا من ذلك حتى بإقراركم أيها المشركون، ولهذا كانوا إذا مسهم الضر دعوا الله مخلصين له الدين لعلمهم أنه

وحده المقتدر على دفعه وإزالته ﴿ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ قليل تذكركم وتدبركم للأمور التي إذا تذكرتموها ادَّكرتم ورجعتم إلى الهدى، ولكن الغفلة والإعراض شامل لكم فلذلك ما أرعويتم ولا اهتديتم.

﴿ 63 ﴾ ﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ حيث لا دليل ولا وسيلة إلى النجاة إلا هدايته لكم ﴿ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ بين يدي المطر، فيرسلها فتثير السحاب فيستبشر بذلك العباد قبل نزول المطر ﴿ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ فعل ذلك؟ أم هو وحده الذي انفرد به؟ فلم أشركتم معه غيره وعبدتم سواه ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تعاظم وتنزه وتقدس عن شركهم وتسويتهم به غيره.

﴿ 64 ﴾ ﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ من هو الذي يبدأ الخلق وينشئ المخلوقات ويبتدئ خلقها، ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور ﴿ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ بالمطر والنبات ﴿ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ يفعل ذلك ويقدر عليه ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أي حجتكم ودليلكم على ما قلتم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وإلا فاعرفوا أنكم مبطلون لا حجة لكم، وارجعوا إلى الأدلة اليقينية والبراهين القطعية الدالة على أن الله هو المتفرد بجميع التصرفات وأنه المستحق أن تصرف له جميع أنواع العبادات.

﴿ 65 - 68 ﴾ ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾

﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بعلم غيب السماوات والأرض علمه بالسرائر والبواطن والخفايا. لذلك فهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ثم أخبر تعالى عن ضعف علم المكذبين بالآخرة منتقلا من شيء إلى ما هو أبلغ منه فقال ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي وما يدرون ﴿ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ متى البعث والنشور والقيام من القبور، أي فلذلك لم يستعدوا ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ بل ضعف، ليس عندهم علم قوي ولا ضعيف ﴿ بَلْ ﴾ وإنما ﴿ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴾ أي من الآخرة، والشك زال به العلم لأن العلم بجميع مراتبه لا يجامع

الشك ﴿ بَلْ هُمْ مِنْهَا ﴾ أي من الآخرة ﴿ عَمُونَ ﴾ قد عميت عنها بصائرهم، بل أنكروها واستبعدوها ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ هذا بعيد غير ممكن لأنهم قاسوا قدرة كامل القدرة بقدرهم الضعيفة ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا ﴾ أي البعث ﴿ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي فلم يجئنا ولا رأينا منه شيئا ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي قصصهم وأخبارهم.

﴿ 69 ﴾ ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ فلا تجدون مجرما قد استمر على إجرامه، إلا وعاقبته شر عاقبة وقد أحل الله به من الشر والعقوبة ما يليق بحاله.

﴿ 70 - 72 ﴾ ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ لا تحزن يا محمد على هؤلاء المكذبين، ولا يضق صدرك ولا تقلق نفسك بمكرهم فإن مكرهم سيعود عاقبته عليهم ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ أي المكذبون بالمعاد وبالحق الذي جاء به الرسول مستعجلين للعذاب ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم فإن وقوعه ووقته قد أجله الله بأجله وقدره بقدر، فلا يدل عدم استعجاله على بعض مطلوبهم. ولكن مع هذا قال تعالى محذرا لهم وقوع ما استعجلوه ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ أي قرب منكم وأوشك أن يقع بكم ﴿ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ من العذاب.

﴿73 - 75 ﴾ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ينبه عباده على سعة جوده وكثرة أفضاله ويحثهم على شكرها، ومع هذا فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر واشتغلوا بالنعم عن المنعم ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ ﴾ أي تنطوي عليه ﴿ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ فليحذروا من عالم السرائر والظواهر وليراقبوه ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ خفية وسر من أسرار العالم العلوي والسفلي ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة، فكل حادث يحدث جلي أو خفي إلا وهو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ.

﴿ 76 - 77 ﴾ ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ وهذا خبر عن هيمنة القرآن على الكتب السابقة وتفصيله وتوضيحه، لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بني إسرائيل ﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ نفعه ونوره وهداه مختص بالمؤمنين من الضلالة والغي والشبه، وَرَحْمَةٌ تستقيم به أمورهم الدينية والدنيوية.

﴿ 78 ﴾ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ﴾ إن الله تعالى سيحكم بين المختلفين بحكمه العدل وقضائه القسط، فالأمور وإن حصل فيها اشتباه في الدنيا بين المختلفين لخفاء الدليل أو لبعض المقاصد فإنه سيبين فيها الحق المطابق للواقع حين يحكم الله فيها ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي قهر الخلائق فأذعنوا له ﴿ العَلِيمُ ﴾ بجميع الأشياء وبأقوال المختلفين وعن ماذا صدرت وعن غاياتها ومقاصدها وسيجازي كلا بما علمه فيه.

﴿ 79 - 81 ﴾ ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ * إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ اعتمد على ربك في جلب المصالح ودفع المضار وفي تبليغ الرسالة وإقامة الدين وجهاد الأعداء ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ الواضح. والذي على الحق يدعو إليه ويقوم بنصرته أحق من غيره بالتوكل. وإذا قمت بما حملت وتوكلت على الله في ذلك فلا يضرك ضلال من ضل وليس عليك هداهم ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ حين تدعوهم وتناديهم، وخصوصا ﴿ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ فإنه يكون أبلغ في عدم إسماعهم ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أي هؤلاء الذين ينقادون لك، الذين يؤمنون بآيات الله وينقادون لها بأعمالهم واستسلامهم.

﴿ 82 ﴾ ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ إذا وقع على الناس القول الذي حتمه الله وفرض وقته ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً ﴾ خارجة ﴿ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أو دابة من دواب الأرض ليست من السماء. وهذه الدابة ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ تكلم العباد ﴿ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ أي لأجل أن الناس ضعف علمهم ويقينهم بآيات الله، فإظهار الله هذه الدابة من آيات الله العجيبة ليبين للناس ما كانوا فيه يمترون. وهذه الدابة هي الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان وتكون من أشراط الساعة كما تكاثرت بذلك الأحاديث. ولم يأت دليل يدل على أي نوع هي وإنما دلت الآية الكريمة على أن الله

يخرجها للناس وأن هذا التكليم منها خارق للعوائد المألوفة وأنه من الأدلة على صدق ما أخبر الله به في كتابه والله أعلم.

﴿ 83 – 85 ﴾ ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ يخبر تعالى عن حالة المكذبين في موقف القيامة وأن الله يجمعهم، ويحشر من كل أمة من الأمم فوجا وطائفة ﴿ مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ يجمع أولهم على آخرهم وآخرهم على أولهم ليعمهم السؤال والتوبيخ واللوم ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوا ﴾ وحضروا قال لهم موبخا ومقرعا ﴿ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا ﴾ العلم أي الواجب عليكم التوقف حتى ينكشف لكم الحق وأن لا تتكلموا إلا بعلم، فكيف كذبتم بأمر لم تحيطوا به علما ﴿ أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يسألهم عن علمهم وعن عملهم فيجد عليهم تكذيبا بالحق، وعملهم لغير الله أو على غير سنة رسولهم ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ أي حقت عليهم كلمة العذاب بسبب ظلمهم الذي استمروا عليه وتوجهت عليهم الحجة ﴿ فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ لأنه لا حجة لهم.

﴿ 86 ﴾ ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ ألم يشاهدوا هذه الآية العظيمة والنعمة الجسيمة وهو تسخير الله لهم الليل والنهار، هذا بظلمته ليسكنوا فيه ويستريحوا من التعب ويستعدوا للعمل، وهذا بضيائه لينتشروا فيه في معاشهم وتصرفاتهم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ على كمال وحدانية الله وسبوغ نعمته.

﴿ 87 – 90 ﴾ ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ * وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ * مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ ﴾ بسبب النفخ فيه ﴿ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ انزعجوا وارتاعوا وماج بعضهم ببعض خوفا مما هو مقدمة له ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ ممن أكرمه الله وثبته وحفظه من الفزع ﴿ وَكُلٌّ ﴾ من الخلق عند النفخ في الصور ﴿ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ صاغرين ذليلين. ومن هوله أنك ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ لا تفقد شيئا منها وتظنها باقية على الحال المعهودة وهي قد بلغت منها الشدائد والأهوال كل مبلغ وقد تفتت ثم تضمحل وتكون هباء منبثا. ولهذا قال ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ من خفتها وشدة ذلك الخوف وذلك ﴿ صُنْعَ اللَّهِ

الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ فيجازيكم بأعمالكم. ثم بين كيفية جزائه فقال ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ﴾ اسم جنس يشمل كل حسنة قولية أو فعلية أو قلبية ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ هذا أقل التفضيل ﴿ وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ أي من الأمر الذي فزع الخلق لأجله آمنون، وإن كانوا يفزعون معهم ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ اسم جنس يشمل كل سيئة ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ أي ألقوا في النار على وجوههم ويقال لهم ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿91 - 93 ﴾ ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ * وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

قل لهم يا محمد ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ أي مكة المكرمة التي حرمها وأنعم على أهلها فيجب أن يقابلوا ذلك بالشكر والقبول ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ من العلويات والسفليات أتى به لئلا يتوهم اختصاص ربوبيته بالبيت وحده ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي أبادر إلى الإسلام، وقد فعل صلى الله عليه وسلم فإنه أول هذه الأمة إسلاما وأعظمها استسلاما ﴿ وَ ﴾ أمرت أيضا ﴿ أَنْ أَتْلُوَ ﴾ عليكم ﴿ الْقُرْآنُ ﴾ لتهتدوا به وتقتدوا وتعلموا ألفاظه ومعانيه فهذا الذي علي وقد أديته ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ نفعه يعود عليه وثمرته عائدة إليه ﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ وليس بيدي من الهداية شيء ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الذي له الحمد في الأولى والآخرة ومن جميع الخلق، خصوصا أهل الاختصاص والصفوة من عباده ﴿ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ معرفة تدلكم على الحق والباطل، فلا بد أن يريكم من آياته ما تستنيرون به في الظلمات ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بل قد علم ما أنتم عليه من الأعمال والأحوال وعلم مقدار جزاء تلك الأعمال وسيحكم بينكم حكما تحمدونه عليه ولا يكون كم حجة بوجه من الوجوه عليه.

تم تفسير سورة النمل بفضل الله وإعانته وتيسيره.

ونسأله تعالى أن لا تزال ألطافه ومعونته مستمرة علينا وواصلة منه إلينا، فهو أكرم الأكرمين وخير الراحمين وموصل المنقطعين ومجيب السائلين.

ميسر الأمور العسيرة وفاتح أبواب بركاته والمجزل في جميع الأوقات هباته، ميسر القرآن للمتذكرين ومسهل طرقه وأبوابه للمقبلين وممد مائدة خيراته ومبراته للمتفكرين والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

على يد جامعه وممليه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، وذلك في 22 رمضان سنة 1343.

المجلد السادس من تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان
من منن الله على الفقير إلى المعيد المبدي: عبده وابن عبده وابن أمته
عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له آمين.

28

مختصر تفسير سورة القصص

عدد آياتها 88

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-6 ﴾ ﴿ طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾

﴿ طسم ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ تِلْكَ ﴾ الآيات المستحقة للتعظيم والتفخيم ﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ لكل أمر يحتاج إليه العباد، من معرفة، فهذا القرآن قد بينها غاية التبيين ووضحها. ومن جملة ما أبان قصة موسى وفرعون، فإنه أبداها، وأعادها في عدة مواضع، وبسطها في هذا الموضع ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾ فإن نبأهما غريب ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فإليهم يساق الخطاب، يزدادون به إيمانا ويقينا، وخيرا إلى خيرهم. وأما من عداهم، فلا يستفيدون منه إلا إقامة الحجة عليهم. فأول هذه القصة ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ في ملكه وسلطانه وجنوده وجبروته، فصار من أهل العلو فيها، لا من الأعلين فيها ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ طوائف متفرقة، يتصرف فيهم بشهوته، وينفذ فيهم ما أراد من قهره وسطوته ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ ﴾ وهم بنو إسرائيل الذين فضلهم الله على العالمين. فصار لا يبالي بهم وبلغت به الحال إلى أنه ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ خوفا من أن يكثروا، فيغمروه في بلاده، ويصير لهم الملك ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ الذين لا قصد لهم في إصلاح الدين، ولا إصلاح الدنيا، وهذا من إفساده في الأرض ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ بأن نزيل عنهم

مواد الاستضعاف، ونهلك من قاومهم ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ في الدين، وذلك لا يحصل مع استضعاف، بل لا بد من تمكين في الأرض، وقدرة تامة ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ للأرض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ فهذه الأمور كلها، قد تعلقت بها إرادة الله، وجرت بها مشيئته ﴿ وَ ﴾ كذلك نريد أن ﴿ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾ وزيره ﴿ وَجُنُودَهُمَا ﴾ التي بها صالوا وجالوا، وعلوا وبغوا ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أي من هذه الطائفة المستضعفة ﴿ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ من إخراجهم من ديارهم، ولذلك كانوا يسعون في قمعهم، وكسر شوكتهم، وتقتيل أبنائهم.

﴿ 7 – 13 ﴾ ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ لما أوجد الله رسوله موسى، الذي جعل استنقاذ هذا الشعب الإسرائيلي على يديه وبسببه، وكان في وقت تلك المخافة العظيمة، التي يذبحون بها الأبناء، أوحى إلى أمه أن ترضعه، ويمكث عندها ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ بأن أحسست أحدا تخافين عليه منه أن يوصله إليهم ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ أي نيل مصر، في وسط تابوت مغلق ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فبشرها بأنه سيرده عليها، وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم، ويجعله الله رسولا. وهذا ليطمئن قلبها فإنها خافت عليه، وفعلت ما أمرت به، ألقته في اليم، فساقه الله تعالى ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ ﴾ فصار من لقطهم ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ أي لتكون العاقبة والمآل من هذا الالتقاط، أن يكون عدوا لهم وحزنا يحزنهم، بسبب أن الحذر لا ينفع من القدر، وأن الذي خافوا منه من بني إسرائيل، قيض الله أن يكون زعيمهم، يتربى تحت أيديهم، وعلى نظرهم، وبكفالتهم. ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف أن صار بعض أفراده، ينازع ذلك الشعب القاهر العالي في الأرض، كما سيأتي بيانه.

فإن الله تعالى من سنته الجارية، أن جعل الأمور تمشي على التدريج شيئا فشيئا، ولا تأتي دفعة واحدة ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ أي فأردنا أن نعاقبهم على خطئهم جزاء على مكرهم وكيدهم. فلما التقطه آل فرعون، حنَّن الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة المؤمنة "آسية بنت مزاحم" ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ ﴾ هذا الولد ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ أي أبقه لنا لتقرَّ به أعيننا ﴿ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ أي إما أن يكون بمنزلة الخدم، الذين يسعون في نفعنا وخدمتنا، أو نرقيه منزلة أعلى من ذلك، نجعله ولدا لنا، ونكرمه، ونجله.

فقدَّر الله تعالى، أنه نفع امرأة فرعون، التي قالت تلك المقالة، فإنه لما صار قرة عين لها، وأحبته حبا شديدا، فلم يزل لها بمنزلة الولد الشفيق حتى كبر ونبأه الله وأرسله، فبادرت إلى الإسلام والإيمان به، رضي الله عنها وأرضاها

﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ما جرى به القلم ومضى به القدر من وصوله إلى ما وصل إليه، وهذا من لطفه تعالى، فإنهم لو شعروا لكان لهم وله شأن آخر ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾ ولما فقدت موسى أمه، حزنت حزنا شديدا، وأصبح فؤادها فارغا من القلق على مقتضى الحالة البشرية، مع أن الله تعالى نهاها عن الحزن والخوف ووعدها برده ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أي بما في قلبها ﴿ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ فثبتناها فصبرت ولم تبد به ﴿ لِتَكُونَ ﴾ بذلك الصبر والثبات ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت ازداد بذلك إيمانه ﴿ وَقَالَتْ ﴾ أم موسى ﴿ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ أي اذهبي فقصي الأثر عن أخيك من غير أن يحس بك أحد أو يشعروا بمقصودك ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي أبصرته على وجه، كأنها مارة لا قصد لها فيه ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ وهذا جُلُّ غرضهم، فإنهم أحبوه حبا شديدا، وقد منعه الله من المراضع فخافوا أن يموت، فلما قالت لهم أخته تلك المقالة، المشتملة على الترغيب، في أهل هذا البيت، بتمام حفظه وكفالته والنصح له، بادروا إلى إجابتها، فأعلمتهم ودلتهم على أهل هذا البيت ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ ﴾ كما وعدناها بذلك ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ بحيث إنه تربى عندها على وجه تكون فيه آمنة مطمئنة، تفرح به، وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ فأريناها بعض ما وعدناها به عيانا، ليطمئن بذلك قلبها، ويزداد إيمانها، ولتعلم أنه سيحصل وعد الله في حفظه ورسالته ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فإذا رأوا السبب متشوشا، شوش ذلك إيمانهم، لعدم علمهم الكامل، أن الله تعالى يجعل المحن الشاقة والعقبات الشاقة، بين يدي الأمور العالية والمطالب الفاضلة. فاستمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون، يتربى في سلطانهم، ويركب مراكبهم، ويلبس ملابسهم، وأمه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستنكر ملازمته إياها وحنوها عليها.

﴿ 14 - 21 ﴾ ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ *فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ * وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ من القوة والعقل واللب، وذلك نحو أربعين سنة في الغالب ﴿ وَاسْتَوَىٰ ﴾ كملت فيه تلك الأمور ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا ﴾ يعرف به الأحكام الشرعية ويحكم به بين الناس ﴿ وَعِلْمًا ﴾ كثيرا ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

﴿ في عبادة الله، المحسنين لخلق الله، نعطيهم علما وحكما بحسب إحسانهم، ودل هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ إما وقت القائلة، أو غير ذلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ يتخاصمان ويتضاربان ﴿ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ أي من بني إسرائيل ﴿ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ القبط ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ لأنه قد اشتهر، وعلم الناس أنه من بني إسرائيل، واستغاثته لموسى، دليل على أنه بلغ موسى عليه السلام مبلغا يخاف منه، ويرجى من بيت المملكة والسلطان ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى ﴾ أي وكز الذي من عدوه، استجابة لاستغاثة الإسرائيلي، ﴿ فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ أي أماته من تلك الوكزة، لشدتها وقوة موسى. فندم موسى عليه السلام على ما جرى منه، و ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ أي من تزيينه ووسوسته ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ فلذلك أجريت ما أجريت بسبب عداوته البينة، وحرصه على الإضلال. ثم استغفر ربه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ خصوصا للمخبتين، المبادرين للإنابة والتوبة، كما جرى من موسى عليه السلام. فـ ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ بالتوبة والمغفرة، والنعم الكثيرة ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا ﴾ معينا ومساعدا ﴿ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي لا أعين أحدا على معصية، وهذا وعد من موسى عليه السلام، بسبب منة الله عليه، أن لا يعين مجرما، كما فعل في قتل القبطي ﴿ فـ ﴾ لما جرى منه قتل الذي هو من عدوه ﴿ أَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ هل يشعر به آل فرعون، أم لا؟ وإنما خاف، لأنه قد علم، أنه لا يتجرأ أحد على مثل هذه الحال سوى موسى من بني إسرائيل. فبينما هو على تلك الحال ﴿ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ ﴾ على عدوه ﴿ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ على قبطي آخر ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى ﴾ موبخا له على حاله ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ أي بين الغواية، ظاهر الجراءة ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ ﴾ موسى ﴿ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا ﴾ أي له وللمخاصم المستصرخ، أي لم يزل اللجاج بين القبطي والإسرائيلي، وهو يستغيث بموسى، فأخذته الحمية، حتى هم أن يبطش بالقبطي ﴿ قَالَ ﴾ له القبطي زاجرا له عن قتله ﴿ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ لأن من أعظم آثار الجبار في الأرض، قتل النفس بغير حق ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ وإلا، فلو أردت الإصلاح لحلت بيني وبينه من غير قتل أحد، فانكف موسى عن قتله، وارعوى لوعظه وزجره، وشاع الخبر بما جرى من موسى في هاتين القضيتين، حتى تراود ملأ فرعون، وفرعون على قتله، وتشاوروا على ذلك. وقيض الله ذلك الرجل الناصح، وبادرهم إلى الإخبار لموسى بما اجتمع عليه رَأْيُ ملئهم. فقال ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ أي ركضا على قدميه من نصحه لموسى، وخوفه أن يوقعوا به، قبل أن يشعر، فـ ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ ﴾ أي يتشاورون فيك ﴿ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ﴾ عن المدينة ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ فامتثل نصحه ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أن يوقع به القتل، ودعا الله، و ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ فإنه قد تاب من ذنبه وفعله غضبا من غير قصد منه للقتل، فَتَوعُّدُهُمْ له ظلم منهم وجراءة.

﴿ 22 - 28 ﴾ ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ أي قاصدا بوجهه مدين، وهو جنوبي فلسطين، حيث لا ملك لفرعون ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أي وسط الطريق المختصر، الموصل إليها بسهولة ورفق، فهداه الله سواء السبيل، فوصل إلى مدين ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ مواشيهم، وكانوا أهل ماشية كثيرة ﴿ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ ﴾ أي دون تلك الأمة ﴿ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ غنمهما عن حياض الناس، لعجزهما عن مزاحمة الرجال وبخلهم، وعدم مروءتهم عن السقي لهما ﴿ قَالَ ﴾ لهما موسى ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أي ما شأنكما بهذه الحالة ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾ أي قد جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقي حتى يصدر الرعاء مواشيهم، فإذا خلا لنا الجو سقينا ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾[1] أي لا قوة له على السقي، فليس فينا قوة، نقتدر بها، ولا لنا رجال يزاحمون الرعاء. فرق لهما موسى عليه السلام ورحمهما ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ غير طالب منهما الأجرة، ولا له قصد غير وجه الله تعالى. فلما سقى لهما، وكان ذلك وقت شدة حر، وسط النهار، بدليل قوله ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ ﴾ مستريحا بعد التعب ﴿ فَقَالَ ﴾ في تلك الحالة، مسترزقا ربه ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ أي إني مفتقر للخير الذي تسوقه إليَّ وتيسره لي. وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، فلم يزل في هذه الحالة داعيا ربه متملقا. وأما المرأتان، فذهبتا إلى أبيهما، وأخبرتاه بما جرى. فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ وهذا يدل على كرم عنصرها، وخلقها الحسن، فإن الحياء من الأخلاق الفاضلة، وخصوصا في النساء فـ ﴿ قَالَتْ ﴾ له ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ أي أن يكافئك على إحسانك، فأجابها موسى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ من ابتداء السبب الموجب لهربه، إلى أن وصل إليه ﴿ قَالَ ﴾ مسكنا روعه، جابرا قلبه ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي ليذهب خوفك

---

[1] وهذا الرجل، أبو المرأتين، صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف، كما اشتهر عند كثير من الناس، فإن هذا، قول لم يدل عليه دليل، وغاية ما يكون، أن شعيبا عليه السلام، قد كانت بلده مدين، وهذه القضية جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين؟ وأيضا، فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب، فكيف بشخصه؟ ولو كان ذلك الرجل شعيبا، لذكره الله تعالى، ولسمته المرأتان، وأيضا فإن شعيبا عليه الصلاة والسلام، قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه، ولم يبق إلا من آمن به، وقد أعاذ الله المؤمنين أن يرضوا لبنتي نبيهم، بمنعهما عن الماء، وصد ماشيتهما، حتى يأتيهما رجل غريب، فيحسن إليهما، ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيب، ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادما له، وهو أفضل منه وأعلى درجة، والله أعلم. إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى فلا منافاة وعلى كل حال لا يعتمد على أنه شعيب النبي بغير نقل صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ورَوعك، فإن الله نجاك منهم، حيث وصلت إلى هذا المحل، الذي ليس لهم عليه سلطان ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا ﴾ أي إحدى ابنتيه ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ أي اجعله أجيرا عندك، يرعى الغنم ويسقيها ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ أي إن موسى أولى من استؤجر، فإنه جمع القوة والأمانة ﴿ قَالَ ﴾ صاحب مدين لموسى ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ﴾ أي تصير أجيرا عندي ﴿ ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ أي ثماني سنين ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ تبرع منك، لا شيء واجب عليك ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ فأحتم عشر السنين، أو ما أريد أن أستأجرك لأكلفك أعمالا شاقة، وإنما استأجرك لعمل سهل يسير لا مشقة فيه ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فرغبه في سهولة العمل، وفي حسن المعاملة. فـ ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام مجيبا له فيما طلبه منه ﴿ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ أي هذا الشرط الذي أنت ذكرت، رضيت به، وقد تم فيما بيني وبينك ﴿ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ سواء قضيت الثماني الواجبة، أم تبرعت بالزائد عليها ﴿ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ حافظ يراقبنا ويعلم ما تعاقدنا عليه.

﴿ 29 - 35 ﴾ ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ * اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾

﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ ﴾ يحتمل أنه قضى الأجل الواجب، أو الزائد عليه، كما هو الظن بموسى ووفائه، اشتاق إلى الوصول إلى أهله ووالدته وعشيرته، ووطنه، وعلم من طول المدة، أنهم قد تناسوا ما صدر منه ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ قاصدا مصر ﴿ آنَسَ ﴾ أي أبصر ﴿ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ وكان قد أصابهم البرد، وتاهوا الطريق ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ فأخبر بألوهيته وربوبيته، ويلزم من ذلك أن يأمره بعبادته وتألهه ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ فألقاها ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ ﴾ تسعى سعيا شديدا، ولها سورة مُهيلة ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ وهو ذَكَرُ الحيات العظيم ﴿ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي يرجع، لاستيلاء الروع على قلبه، فقال الله له ﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التأمين، وعدم الخوف. فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئنا، واثقا بخبر ربه، قد ازداد إيمانه، وتم يقينه، فهذه آية، أراه الله إياها قبل ذهابه إلى فرعون، ليكون على يقين تام، فيكون أجرأ له، وأقوى وأصلب. ثم أراه الآية

الأخرى فقال ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ ﴾ أي أدخلها ﴿ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ فسلكها وأخرجها، كما ذكر الله تعالى ﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ أي ضم جناحك وهو عضدك إلى جنبك يزول عنك الرهب والخوف ﴿ فَذَانِكَ ﴾ انقلاب العصا حية، وخروج اليد بيضاء من غير سوء ﴿ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ حجتان قاطعتان من الله ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ فلا يكفيهم مجرد الإنذار وأمر الرسول إياهم، بل لا بد من الآيات الباهرة، إن نفعت. فـ ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام معتذرا من ربه، وسائلا له المعونة على ما حمله، وذاكرا له الموانع التي فيه، ليزيل ربه ما يحذره منها ﴿ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا ﴾ أي ﴿ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا ﴾ أي معاونا ومساعدا ﴿ يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ فإنه مع تضافر الأخبار يقوى الحق فأجابه الله إلى سؤاله فـ ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أي نعاونك به ونقويك. ثم أزال عنه محذور القتل، فقال ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ أي تسلطا وتمكنا من الدعوة، بالحجة والهيبة الإلهية من عدوهما لهما ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ وذلك بسبب آياتنا، وما دلت عليه من الحق، وما أزعجت به من باشرها ونظر إليها، فهي التي بها حصل لكما السلطان، واندفع بها عنكم كيد عدوكم وصارت لكم أبلغ من الجنود أولي الْعَدَدِ والْعُدَدِ ﴿ أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ وهذا وعد لموسى في ذلك الوقت، وهو وحده فريد، وقد رجع إلى بلده، بعد ما كان شريدا، فلم تزل الأحوال تتطور، والأمور تنتقل، حتى أنجز الله له موعوده، ومكنه من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعه الغلبة والظهور.

﴿ 36 - 42 ﴾ ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات الدلالة على ما قال لهم، ليس فيها قصور ولا خفاء ﴿ قَالُوا ﴾ على وجه الظلم والعلو والعناد ﴿ مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ وقد كذبوا في ذلك، فإن الله أرسل يوسف عليه السلام قبل موسى ﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ حين زعموا أن الذي جاءهم به سحر وضلال، وأن ما هم عليه هو الهدى ﴿ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ إذا لم تفد المقابلة معكم، وتبيين الآيات البينات، وأبيتم إلا التمادي في غيكم واللجاج على كفركم، فالله تعالى العالم بالمهتدي وغيره، ومن تكون له عاقبة الدار، نحن أم أنتم ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ فصار عاقبة الدار لموسى وأتباعه وصار لأولئك الخسار وسوء العاقبة والهلاك ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ متجرئا على ربه، ومموها على قومه السفهاء، أخفاء

العقول ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ أي أنا وحدي، إلهكم ومعبودكم، ولو كان ثَمَّ إله غيري، لعلمته. فلما قال هذه المقالة، التي قد تحتمل أن ثَمَّ إلها غيره، أراد أن يحقق النفي، الذي جعل فيه ذلك الاحتمال، فقال لـ "هامان" ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ ﴾ ليجعل له لبنا من فخار ﴿ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا ﴾ أي بناء ﴿ لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ولكن سنحقق هذا الظن، ونريكم كذب موسى. فانظر هذه الجراءة العظيمة على الله، التي ما بلغها آدمي: كذّب موسى، وادَّعى أنه إله، ونفى أن يكون له علم بالإله الحق، وفعل الأسباب ليتوصل إلى إله موسى. وكل هذا ترويج، ولكن العجب من هؤلاء الملأ، الذين يزعمون أنهم كبار المملكة المدبرون لشئونها، كيف لعب هذا الرجل بعقولهم، وهذا لفسقهم الذي صار صفة راسخة فيهم ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ استكبروا على عباد الله، وساموهم سوء العذاب، واستكبروا على رسل الله، وما جاءوهم به من الآيات، فكذبوها، وزعموا أن ما هم عليه أعلى منها وأفضل ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ فلذلك تجرأوا، وإلا فلو علموا، أو ظنوا أنهم يرجعون إلى الله، لما كان منهم ما كان ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ ﴾ عندما استمر عنادهم وبغيهم ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ كانت شر العواقب وأخسرها عاقبة أعقبتها العقوبة الدنيوية المستمرة، المتصلة بالعقوبة الأخروية ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ أي جعلنا فرعون وملأه من الأئمة الذين يقتدي بهم ويمشي خلفهم إلى دار الخزي والشقاء ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ من عذاب الله وليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أي وأتبعناهم، زيادة في عقوبتهم وخزيهم، في الدنيا لعنة، يلعنون، ولهم عند الخلق الثناء القبيح والمقت والذم، وهذا أمر مشاهد، فهم أئمة الملعونين في الدنيا ومقدمتهم ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ المبعدين، المستقذرة أفعالهم، الذين اجتمع عليهم مقت الله ومقت خقه، ومقت أنفسهم.

﴿ 43 - 47 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ وهو التوراة ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾ الذين كان خاتمتهم في الإهلاك العام، فرعون وجنوده. وهذا دليل على أنه بعد نزول التوراة، انقطع الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ أي كتاب الله الذي أنزله على موسى فيه بصائر للناس، أمور يبصرون بها ما ينفعهم، وما يضرهم ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ولما قص الله على رسوله هذه الأخبار الغيبية، نبه العباد على أن هذا خبر إلهي محض، ليس للرسول، طريق إلى علمه إلا من جهة الوحي ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى

﴿ الْأَمْرَ ﴾ أي بجانب الطور الغربي وقت قضائنا لموسى الأمر ﴿ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ على ذلك، حتى يقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق ﴿ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ فاندرس العلم، ونسيت آياته، فبعثناك في وقت اشتدت الحاجة إليك وإلى ما علمناك وأوحينا إليك ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا ﴾ أي مقيما ﴿ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ أي تعلمهم وتتعلم منهم، حتى أخبرت بما أخبرت من شأن موسى في مدين ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أي ولكن ذلك الخبر الذي جئت به عن موسى، أثر من آثار إرسالنا إياك، وَوَحْيٌ لا سبيل لك إلى علمه، بدون إرسالنا ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ موسى، وَأمرناه أن يأتي القوم الظالمين، ويبلغهم رسالتنا. والمقصود أن ماجرى لموسى عليه الصلاة والسلام جاءك من قِبَلِ الله ووحيه وإرساله، فثبت بالدليل القطعي، صحة رسالتك، ورحمة الله بك للعباد ﴿ وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أي العرب وقريش، فإن الرسالة عندهم لا تعرف وقت إرسال الرسول وقبله بأزمان متطاولة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ تفصيل الخير فيفعلونه، والشر فيتركونه. فإذا كنت بهذه المنزلة، كان الواجب عليهم، المبادرة إلى الإيمان بك، وشكر هذه النعمة، التي لا يقادر قدرها، ولا يدرك شكرها. وإنذاره للعرب لا ينفي أن يكون مرسلا لغيرهم، فكانت رسالته إليهم أصلا، ولغيرهم تبعا ﴿ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي فأرسلناك يا محمد، لدفع حجتهم، وقطع مقالتهم.

﴿ 48 – 51 ﴾ ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ * قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّـهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّـهِ إِنَّ اللَّـهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ الذي لا شك فيه ﴿ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ وهو القرآن الذي أوحيناه إليك ﴿ قَالُوا ﴾ مكذبين له، ومعترضين بما ليس يعترض به ﴿ لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ﴾ أي أنزل عليه كتاب من السماء جملة واحدة. فأما ما دام ينزل متفرقا، فإنه ليس من عند الله. بل من كمال هذا القرآن، واعتناء الله بمن أنزل عليه، أن نزل متفرقا، ليثبت الله به فؤاد رسوله، ويحصل زيادة الإيمان للمؤمنين ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ أي القرآن والتوراة، تعاونا في سحرهما، وإضلال الناس ﴿ وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴾ فثبت بهذا أن القوم يريدون إبطال الحق بما ليس ببرهان، وينقضونه بما لا ينقض، وهذا شأن كل كافر ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا ﴾ أي من التوراة والقرآن ﴿ أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ولا سبيل لهم ولا لغيرهم أن يأتوا بمثلهما ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي فاعلم أن تركهم اتباعك، ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه، ولا إلى هدى، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ فهذا من أضل الناس، حيث عرض عليه الهدى، والصراط المستقيم، الموصل إلى الله وإلى

دار كرامته، فلم يلتفت إليه ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء فاتبعه وترك الهدى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي الذين صار الظلم لهم وصفا والعناد لهم نعتا، جاءهم الهدى فرفضوه، وعرض لهم الهوى، فتبعوه ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ أي تابعناه وواصلناه، وأنزلناه شيئا فشيئا، رحمة بهم ولطفا ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ حين تتكرر عليهم آياته، وتنزل عليهم بيناته وقت الحاجة إليها. فصار نزوله متفرقا رحمة بهم، فلم اعترضوا على ما هو من مصالحهم؟

﴿ 52 - 55 ﴾ ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ وهم أهل التوراة والإنجيل الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ﴿ هُمْ بِهِ ﴾ أي بهذا القرآن ومن جاء به ﴿ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ استمعوا له وأذعنوا و ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ﴾ لموافقته ما جاءت به الرسل، ومطابقته لما ذكر في الكتب، واشتماله على الأخبار الصادقة والأوامر والنواهي الموافقة لغاية الحكمة ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ فلذلك ثبتنا على ما مَنَّ الله به علينا من الإيمان، فصدقنا بهذا القرآن، آمنا بالكتاب الأول والكتاب الآخر ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الذين آمنوا بالكتابين ﴿ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ ﴾ أجرا على الإيمان الأول، وأجرا على الإيمان الثاني ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ على الإيمان، وثبتوا على العمل ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أي دأبهم وطريقتهم الإحسان لكل أحد، حتى للمسيء إليهم بالقول والفعل، يقابلونه بالقول الحميد والفعل الجميل ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ ﴾ من جاهل خاطبهم به ﴿ قَالُوا ﴾ مقالة عباد الرحمن أولي الألباب ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ أي كُلٌّ سَيُجازَى بعمله الذي عمله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء. ولزم من ذلك أنهم يتبرءون مما عليه الجاهلون من اللغو والباطل والكلام الذي لا فائدة فيه ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي لا تسمعون منا إلا الخير ﴿ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ من كل وجه.

﴿ 56 ﴾ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ إنك يا محمد -وغيرك من باب أولى- لا تقدر على هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ يهدي من يشاء، وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ممن لا يصلح لها فيبقيه على ضلاله. والرسول يبين الصراط المستقيم، ويرغب فيه.

﴿ 57 – 59 ﴾ ﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾

﴿ وَقَالُوا ﴾ للرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ فلو تابعناك لتعرضنا لمعاداة الناس كلهم، ولم يكن لنا بهم طاقة. وهذا يدل على سوء الظن بالله تعالى، وظنوا أن الباطل سيعلو على الحق. فقال ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ﴾ أي أولم نجعلهم متمكنين في حرم يقصده الزائرون. وكل ما حولهم من الأماكن أهلها غير آمنين ولا مطمئنين، فَلْيَحْمَدُوا ربهم على هذا الأمن التام، وعلى الرزق الكثير ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وإياهم وتكذيبه، والبطر بنعمة الله، ولهذا توعدهم بما فعل بالأمم قبلهم ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ اشتغلت بها عن الإيمان بالرسل، فأهلكهم الله وأزال عنهم النعمة وأحل بهم النقمة ﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ لتوالي الهلاك والتلف عليهم، وإيحاشها من بعدهم ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ للعباد، نميتهم ثم يرجع إلينا جميع ما متعناهم به من النعم، ثم نعيدهم إلينا فنجازيهم بأعمالهم ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى ﴾ بكفرهم وظلمهم ﴿ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا ﴾ في القرية والمدينة التي إليها يرجعون ﴿ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ الدالة على صحة ما جاء به، وصدق ما دعاهم إليه ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ بالكفر والمعاصي، مستحقون للعقوبة.

﴿ 60 – 61 ﴾ ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ﴾ يتمتع به وقتا قصيرا محشوا بالمنغصات ويزين به زمانا يسيرا للفخر والرياء، ثم يزول ذلك سريعا ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ من النعيم المقيم ﴿ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أفضل، وهو دائم ومستمر أبدا ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أفلا يكون لكم عقول، بها تزنون أي الأمور أولى بالإيثار، وأي الدارين أحق للعمل ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ ﴾ أي هل يستوي مؤمن ساع للآخرة سعيها، قد عمل على وعد ربه له بالثواب الحسن الذي هو الجنة فهو لاقيه من غير شك لأنه وعد من كريم صادق الوعد، لا يخلف الميعاد ﴿ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فهو يأخذ فيها ويعطي، قد اشتغل بدنياه عن آخرته ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ للحساب، فما ظنكم إلى ما يصير إليه؟

﴿ 62 – 66 ﴾ ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ أي من أشركوا به شركاء يعبدونهم ليبين لهم عجزها وضلالهم ﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ﴾ وليس لله شريك ﴿ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ فأين هم، بذواتهم، وأين نفعهم وأين دفعهم؟ ﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ الرؤساء والقادة، في الكفر والشر، مقرين بغوايتهم وإغوائهم ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ ﴾ التابعون ﴿ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ أي كلنا قد اشترك في الغواية، وحق عليه كلمة العذاب ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ﴾ من عبادتهم، أي نحن براء منهم ومن عملهم ﴿ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ وإنما كانوا يعبدون الشياطين ﴿ وَقِيلَ ﴾ لهم ﴿ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ على ما أملتم فيهم من النفع فأمروا بدعائهم في ذلك الوقت الحرج، الذي يضطر فيه العابد إلى من عبده ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ لينفعوهم، أو يدفعوا عنهم من عذاب الله من شيء ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ فعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين مستحقين للعقوبة ﴿ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ الذي سيحل بهم عيانا، بأبصارهم بعد ما كانوا مكذبين به، منكرين له ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ أي لما حصل عليهم ما حصل، ولهدوا إلى صراط الجنة، كما اهتدوا في الدنيا، ولكن لم يهتدوا، فلم يهتدوا ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ هل صدقتموهم، أم كذبتموهم وخالفتموهم ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أي لم يحيروا عن هذا السؤال جوابا، ولم يهتدوا إلى الصواب.

﴿ 67 ﴾ ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾

﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ لا نجاة إلا لمن اتصف بالتوبة من الشرك والمعاصي، وآمن بالله فعبده، وآمن برسله فصدقهم، وعمل صالحا متبعا فيه للرسل ﴿ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ ﴾ من جمع هذه الخصال ﴿ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ الناجحين بالمطلوب، الناجين من المرهوب، فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور.

﴿ 68 – 70 ﴾ ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ هذه الآيات فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات، ونفوذ مشيئته بجميع البريات ﴿ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وانفراده باختيار من يختاره ويختصه من الأشخاص، والأوامر والأزمان والأماكن، وأن أحدا ليس له من الأمر والاختيار شيء، وأنه تعالى منزه عن كل ما يشركون به ﴿ وَرَبُّكَ

﴿ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ وأنه العالم بما أكنته الصدور وما أعلنوه ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ﴾ وأنه وحده المعبود المحمود في الدنيا والآخرة، على ماله من صفات الجلال والجمال، وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال ﴿ وَلَهُ الْحُكْمُ ﴾ وأنه هو الحاكم في الدارين، في الدنيا وفي الآخرة ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازي كلا منكم بعمله من خير وشر.

﴿ 71 - 73 ﴾ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ ﴾ هذا امتنان من الله على عباده، يدعوهم به إلى شكره، والقيام بعبوديته وحقه. فهل أحد يقدر على شيء لو جعل ﴿ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ جعل الليل ليهدأوا فيه ويسكنوا، وتستريح أبدانهم وأنفسهم من تعب التصرف في النهار ﴿ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ مواعظ الله وآياته سماع فهم وقبول وانقياد ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ جعل لهم من رحمته النهار ليبتغوا من فضل الله، وينتشروا لطلب أرزاقهم ومعايشهم في ضيائه ﴿ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ مواقع العبر، ومواضع الآيات، فتستنير بصائركم، وتسلكوا الطريق المستقيم. ولنلاحظ أنه تعالى قال في الليل ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ وفي النهار ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ فيوازن العبد بين حالة وجود نعم الله عليه، وبين حالة عدمها فيتنبه عقله لموضع المنة.

﴿ 74 - 75 ﴾ ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ ويوم ينادي الله المشركين به، الذين يزعمون أن له شركاء. أراد الله أن يظهر جراءتهم وكذبهم في زعمهم. فإذا حضروا وإياهم ﴿ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم المكذبة ﴿ شَهِيدًا ﴾ يشهد على ما جرى في الدنيا. أي انتخبنا من رؤساء المكذبين من يتصدى للخصومة عنهم، فإذا برزوا للمحاكمة ﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ حجتكم ودليلكم على صحة شرككم، فليفعلوا إن كان لهم قدرة ﴿ فَعَلِمُوا ﴾ حينئذ بطلان قولهم وفساده، و ﴿ أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ تعالى ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من الكذب والإفك وعلموا أن الله قد عدل فيهم، حيث لم يضع العقوبة إلا بمن استحقها واستأهلها.

﴿ 76 - 82 ﴾ ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ

مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّـهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّـهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّـهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّـهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّـهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّـهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّـهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ﴾ من بني إسرائيل الذين فُضِّلوا على العالمين، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا ﴿ فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَ ﴾ طغى بما ﴿ آتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ الأموال شيئا كثيرا ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾ حتى أن مفاتح خزائن أمواله لتثقل الجماعة القوية عن حملها، فما ظنك بالخزائن ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ﴾ ناصحين له محذرين له عن الطغيان ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ أي لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة وتفتخر بها وتلهيك عن الآخرة، فإن الله لا يحب الفرحين بها، المنكبين على محبتها ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ﴾ أي قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله، وتصدق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات ﴿ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ أي لا نأمرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعا، بل أنفق لآخرتك، واستمتع بدنياك استمتاعا لا يضر بآخرتك ﴿ وَأَحْسِن ﴾ إلى عباد الله ﴿ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ بهذه الأموال ﴿ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنعم عن المنعم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ بل يعاقبهم على ذلك، أشد العقوبة. فـ ﴿ قَالَ ﴾ قارون رادا لنصيحتهم، كافرا بنعمة ربه ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ أي إنما أدركت هذه الأموال بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب وحذقي، أو على علم من الله بحالي، يعلم أني أهل لذلك، فلم تنصحوني على ما أعطاني لله تعالى؟ قال تعالى مبينا أن عطاءه ليس دليلا على حسن حالة المعطي ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ فما المانع من إهلاك قارون، مع مُضِيّ عادتنا وسنتنا بإهلاك من هو مثله وأعظم، إذ فعل ما يوجب الهلاك ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ بل يعاقبهم الله، ويعذبهم على ما يعلمه منهم ﴿ فَخَرَجَ ﴾ ذات يوم ﴿ فِي زِينَتِهِ ﴾ أي بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه، فانقسم فيه الناظرون قسمين كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة فـ ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ الذين تعلقت إرادتهم فيها ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ﴾ من الدنيا ومتاعها ﴿ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ وصدقوا إنه لذو حظ عظيم، لو كان الأمر منتهيا إلى رغباتهم، وأنه ليس وراء الدنيا دار أخرى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ الذين عرفوا حقائق الأشياء، ونظروا إلى باطن الدنيا، حين نظر أولئك إلى ظاهرها ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ منكرين لمقالهم ﴿ ثَوَابُ اللَّهِ ﴾ العاجل،

من لذة العبادة ومحبته، والإنابة إليه ﴿ خَيْرٌ ﴾ من هذا الذي تمنيتم ورغبتم فيه ﴿ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ وما يُلَقَّى ذلك ويوفق له إلا الصابرون الذين حبسوا أنفسهم على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها، أن تشغلهم عن ربهم. فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر، وازَّيَّنَتْ الدنيا عنده، وكثر بها إعجابه، بغته العذاب ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ جزاء من جنس عمله، فكما رفع نفسه على عباد الله، أنزله الله أسفل سافلين، هو وما اغتر به من داره وأثاثه ومتاعه ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ ﴾ أي جماعة وخدم وجنود ﴿ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴾ أي جاءه العذاب، فما نصر ولا انتصر ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ ﴾ أي الذين يريدون الحياة الدنيا ﴿ يَقُولُونَ ﴾ متوجعين ومعتبرين، وخائفين من وقوع العذاب بهم ﴿ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يضيق الرزق على من يشاء، فعلمنا حينئذ أن بسطه لقارون، ليس دليلا على خير فيه و ﴿ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ فلم يعاقبنا على ما قلنا، فلولا فضله ومنته ﴿ لَخَسَفَ بِنَا ﴾ فصار هلاك قارون عقوبة له، وعبرة وموعظة لغيره، حتى إن الذين غبطوه، سمعت كيف ندموا، وتغير فكرهم الأول ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ أي لا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿ 83 ﴾ ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ ﴾ التي أخبر الله بها في كتبه التي جمعت كل نعيم، واندفع عنها كل مكدر ومنغص ﴿ نَجْعَلُهَا ﴾ دارا وقرارا ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والتكبر عليهم وعلى الحق ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ وهذا شامل لجميع المعاصي ﴿ وَالْعَاقِبَةُ ﴾ حالة الفلاح والنجاح، التي تستقر وتستمر، إنما هي ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فإرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق والعمل الصالح. أما غيرهم فإن حصل لهم بعض الظهور والراحة - فإنه لا يطول وقته ويزول. وعلم من هذا الحصر في الآية الكريمة أن الذين يريدون العلو في الأرض أو الفساد ليس لهم في الدار الآخرة نصيب.

﴿ 84 ﴾ ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ﴾ ولا يجيئ بها من يعملها ولا تقبل منه أو يبطلها. والحسنة: اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله تعالى وحق عباده ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا

﴾ أعظم وأجل. وقد يقترن بذلك من الأسباب ما تزيد به المضاعفة ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ وهي كل ما نهى الشارع عنه، نَهْيَ تحريم ﴿ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ 85 - 88 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ * وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ ﴾ أنزله وفرض فيه الأحكام وأمرك بتبليغه للعالمين، لا يليق بحكمته أن تكون الحياة هي الحياة الدنيا فقط ﴿ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ من غير أن يثاب العباد ويعاقبوا، بل لا بد أن يردك إلى معاد، يجازي فيه المحسنون بإحسانهم، والمسيئون بمعصيتهم ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ ﴾ أي لم تكن متحريا لنزول هذا الكتاب عليك ولا مستعدا له ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ بك وبالعباد. فأرسلك بهذا الكتاب، الذي رحم به العالمين، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴾ معينا لهم على ما هو من شعب كفرهم ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ بل أبلغها وأنفذها، ولا تبال بمكرهم، ولا تتبع أهواءهم ﴿ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أي اجعل الدعوة إلى ربك غاية عملك، فكل ما خالف ذلك فارفضه، من رياء أو سمعة أو موافقة أغراض أهل الباطل، فإن ذلك داع إلى الكون معهم ومساعدتهم على أمرهم ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ لا في شركهم، ولا في فروعه وشعبه، التي هي جميع المعاصي ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ بل أخلص لله عبادتك، فإنه ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فلا أحد يستحق أن يؤله ويحب ويعبد إلا الله الكامل الباقي الذي ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ وإذا كان كل شيء هالكا، فعبادة الهالك الباطل باطلة ببطلان غايتها ﴿ لَهُ الْحُكْمُ ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ لا إلى غيره ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ إليه مرجع الخلائق كلهم، ليجازيهم بأعمالهم. فمن له عقل عبد الله وحده لا شريك له، وعمل لما يقربه وحذر من سخطه وعقابه.

تم تفسير سورة القصص

ولله الحمد والثناء والمجد دائما أبدا

29

مختصر تفسير سورة العنكبوت

عدد آياتها 69

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 – 3 ﴾ ﴿ الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾

﴿ الم ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ يخبر تعالى عن تمام حكمته وأن حكمته لا تقتضي أن كل من قال " إنه مؤمن " وادعى لنفسه الإيمان، أن يبقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ولكن سنته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة أن يبتليهم بالسراء والضراء ونحو ذلك من الفتن التي ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ فمن كان عند ورود الشبهات والشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب، أو الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله، يثبت إيمانه ولا يتزلزل، ويدفعها بما معه من الحق ويعمل بمقتضى الإيمان ويجاهد شهوته، دل ذلك على صدق إيمانه وصحته ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه شكا وريبا، وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي أو تصدفه عن الواجبات، دلَّ ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه[1].

﴿ 4 ﴾ ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أحسب الذين همهم فعل السيئات أن أعمالهم ستهمل و ﴿ أَنْ يَسْبِقُونَا ﴾ وأن الله سيغفل عنهم، أو يفوتونه، فلذلك أقدموا عليها، وسهل عليهم عملها ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ ساء حكمهم الجائر، لتضمنه إنكار قدرة الله وحكمته، وأن لديهم قدرة يمتنعون بها من عقاب الله، وهم أضعف شيء وأعجزه.

[1] والناس في هذا المقام درجات لا يحصيها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فنسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه، فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكير، يخرج خبثها وطيبها.

﴿ 5 – 6 ﴾ ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ يا أيها المحب لربه المشتاق لقربه ولقائه إن الله عليم بالنيات، فمن كان صادقا في ذلك أناله ما يرجو، ومن كان كاذبا لم تنفعه دعواه، وهو العليم بمن يصلح لحبه ومن لا يصلح ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ ﴾ نفسه وشيطانه، وعدوه الكافر ﴿ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ لأن نفعه راجع إليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ لم يأمرهم بما أمرهم به لينتفع به، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بُخْلًا عليهم.

﴿ 7 ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ الذين منَّ الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح سيكفر الله عنهم سيئاتهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وهي أعمال الخير، من واجبات ومستحبات فهي أحسن ما يعمل العبد، لأنه يعمل المباحات أيضا وغيرها.

﴿ 8 ﴾ ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ أمرنا الإنسان ووصيناه ببرهما والإحسان إليهما وألا يعقهما ويسيء إليهما بالقول والعمل ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ وليس لأحد علم بصحة الشرك بالله، وهذا تعظيم لأمر الشرك ﴿ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فأجازيكم بأعمالكم، فبروا والديكم وقدموا طاعتهما، إلا على طاعة الله ورسوله، فإنها مقدمة على كل شيء.

﴿ 9 ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ الإيمان الصحيح والعمل الصالح عنوان على سعادة صاحبه ﴿ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ فإن الله وعدهم أن يدخلهم الجنة.

﴿ 10-11 ﴾ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ ﴾ بضرب، أو أخذ مال، أو تعيير، ليرتد عن دينه، وليراجع الباطل ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ أي يجعلها صادَّة له عن الإيمان والثبات عليه، كما أن العذاب صادٌّ عما هو سببه ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ لأنه موافق للهوى ﴿ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ حيث أخبركم بهذا الفريق، الذي حاله كما وصف لكم، فتعرفون بذلك كمال علمه وسعة حكمته ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ فلذلك قَدَّرَ مِحَنًا وابتلاء، ليظهر علمه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم لأنهم قد يحتجون أنهم لو ابتُلوا لَثَبَتُوا.

﴿ 12-13 ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا ﴾ اتركوا دينكم أو بعضه واتبعونا في ديننا، فإننا نضمن لكم الأمر ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ وهذا الأمر ليس بأيديهم، فلهذا قال ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ لا قليل ولا كثير. فهذا التحمل، ولو رضي به صاحبه فإنه لا يفيد شيئا، فإن الحق لله، والله تعالى لم يمكن العبد من التصرف في حقه إلا بأمره وحكمه. وقد يتوهم المرء هنا أن الكفار الداعين إلى كفرهم ليس عليهم إلا ذنبهم الذي ارتكبوه، دون الذنب الذي فعله غيرهم، ولو كانوا متسببين فيه، فقال ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ﴾ أي أثقال ذنوبهم التي عملوها ﴿ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ وهي الذنوب التي بسببهم ومن جرائهم، كما أن الحسنة إذا فعلها التابع له أجرها بالمباشرة، وللداعي أجره بالتسبب ﴿ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من الشر وتزيينه.

﴿ 14 - 15 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ أرسل الله عبده ورسوله نوحا عليه الصلاة السلام إلى قومه، يدعوهم إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة، والنهي عن الأنداد والأصنام ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ ﴾ نبيا داعيا ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ وهو لا يَنِي بدعوتهم، ولا يفتر في نصحهم، يدعوهم ليلا ونهارا وسرا وجهارا، فلم يرشدوا ولم يهتدوا، بل استمروا على كفرهم وطغيانهم، حتى دعا عليهم نبيهم نوح عليه الصلاة والسلام، مع شدة صبره وحلمه واحتماله ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ ﴾ الماء الذي نزل من السماء بكثرة، ونبع من الأرض بشدة ﴿ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ مستحقون للعذاب ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ الذين ركبوا معه، أهله ومن آمن به ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ أي السفينة، أو قصة نوح ﴿ آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ يعتبرون بها.

﴿ 16-22 ﴾ ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ يذكر تعالى أنه أرسل خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى قومه، يدعوهم إلى الله، فقال لهم ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أي وحّدوه، وأخلصوا له العبادة، وامتثلوا ما أمركم به ﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾ أن يغضب عليكم، فيعذبكم وذلك بترك ما يغضبه من المعاصي ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ أي عبادة الله وتقواه ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من ترك ذلك، وهذا من باب إطلاق أفعل التفضيل بما ليس في الطرف الآخر منه شيء، فإن ترك عبادة الله وترك تقواه لا خير فيه بوجه، وإنما كانت عبادة الله وتقواه خيرا للناس ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك، فاعلموا الأمور وانظروا ما هو أولى بالإيثار. فلما أمرهم بعبادة الله وتقواه، نهاهم عن عبادة الأصنام، وبيَّن لهم نقصها وعدم استحقاقها للعبودية ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ تنحتونها وتخلقونها بأيديكم وتخلقون لها أسماء الآلهة وتختلقون الكذب بالأمر بعبادتها والتمسك بذلك ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ في نقصه، وأنه ليس فيه ما يدعو إلى عبادته ﴿ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ﴾ هذه الأوثان لا تملك نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ فإنه هو الميسر له، المقدر، المجيب لدعوة من دعاه في أمر دينه ودنياه ﴿ وَاعْبُدُوهُ ﴾ وحده لا شريك له، لكونه الكامل النافع الضار، المتفرد بالتدبير ﴿ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ وحده ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يجازيكم على ما عملتم ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ يوم القيامة ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. قُلْ ﴾ لهم، إن حصل معهم ريب وشك في الابتداء ﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ فإنكم ستجدون أمما من الآدميين والحيوانات، مستمرة في تجددها، بل الخلق دائما في بدء وإعادة. فانظر إليهم وقت موتتهم الصغرى –النوم– حتى انفلق الإصباح، فانتبهوا من رقدتهم، وبعثوا من موتتهم ﴿ ثُمَّ اللَّهُ ﴾ بعد الإعادة ﴿ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ وهي النشأة التي لا تقبل موتا ولا نوما، وإنما هو الخلود والدوام في إحدى الدارين ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فقدرته تعالى لا يعجزها شيء وكما قدر بها على ابتداء الخلق، فقدرته على الإعادة من باب أولى وأحرى ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ هو المنفرد بالحكم الجزائي، وهو إثابة الطائعين ورحمتهم، وتعذيب العاصين والتنكيل بهم ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ ترجعون إلى الدار، التي بها تجري عليكم أحكام عذابه ورحمته. فاكتسبوا في هذه الدار، ما هو من أسباب رحمته من الطاعات، وابتعدوا من أسباب عذابه، وهي المعاصي ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي

السَّمَاءِ ﴾ أي يا هؤلاء المكذبون لا تغرنكم قدرتكم وما زينت لكم أنفسكم وخدعتكم من النجاة من عذاب الله، فلستم بمعجزين الله ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ يتولاكم ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ينصركم، فيدفع عنكم المكاره.

﴿ 23 ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ﴾ زال عنهم الخير، وحصل لهم الشر، وكفروا بالله وبرسله، لأنه ليس في قلوبهم ما يخوفهم من عاقبة ذلك ﴿ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي ﴾ والإياس من رحمة الله من أعظم المحاذير، وهو نوعان: إياس الكفار منها، وإياس العصاة بسبب كثرة جناياتهم أوحشتهم ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم موجع. وكأن هذه الآيات معترضات بين كلام إبراهيم عليه السلام لقومه، وردهم عليه، والله أعلم بذلك.

﴿ 24 - 25 ﴾ ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ قوم إبراهيم حين دعاهم إلى ربه قبول دعوته ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ أشنع القتلات، وهم أناس مقتدرون، فألقوه في النار ﴿ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ ﴾ منها ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فيعلمون صحة ما جاءت به الرسل، وبِرَّهُمْ ونصحهم ﴿ وَقَالَ ﴾ لهم إبراهيم في جملة ما قاله من نصحه ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ غاية ذلك مودة في الدنيا ستنقطع وتضمحل ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ يتبرأ كل من العابدين والمعبودين من الآخر ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ فكيف تتعلقون بمن يعلم أنه سيتبرأ من عابديه ويلعنهم ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ مأوى العابدين والمعبودين النَّار لا أحد ينصرهم من عذاب الله ولا يدفع عنهم عقابه.

﴿ 26 - 27 ﴾ ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ آمن له بدعوته لوط، الذي نبأه الله وأرسله إلى قومه ﴿ وَقَالَ ﴾ إبراهيم حين رأى أن دعوة قومه لا تفيدهم شيئا ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ هاجر أرض السوء، ومهاجر إلى الأرض المباركة وهي الشام ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي له القوة وهو يقدر على هدايتكم ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ ما اقتضت حكمته ذلك. ولما اعتزلهم وفارقهم، وهم بحالهم، لم يذكر الله عنهم أنه أهلكهم بعذاب، بل ذكر اعتزاله إياهم، وهجرته من بين أظهرهم. وهو لم يدع على قومه، ومما يدل على ذلك، أنه راجع الملائكة في إهلاك قوم لوط، وجادلهم، ودافع عنهم، وهم ليسوا قومه، والله

أعلم بالحال ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أي بعد ما هاجر إلى الشام ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ فلم يأت بعده نبي إلا من ذريته، ولا نزل كتاب إلا على ذريته، حتى ختموا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ من الزوجة الجميلة والرزق الواسع والأولاد، ومعرفة الله ومحبته، والإنابة إليه ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ بل هو ومحمد صلى الله عليهما وسلم أفضل الصالحين على الإطلاق، وأعلاهم منزلة، فجمع الله له بين سعادة الدنيا والآخرة.

﴿ 28 – 35 ﴾ ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أرسل الله لوطا إلى قومه الذين أشركوا ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ فنصحهم لوط عن هذه الأمور وبيَّن لهم قبائحها في نفسها وما تئول إليه من العقوبة البليغة، فلم يرعووا ولم يذكروا ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فأيس منهم نبيهم، وعلم استحقاقهم العذاب، وجزع من شدة تكذيبهم له فدعا عليهم و ﴿ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ فاستجاب الله دعاءه، فأرسل الملائكة لإهلاكهم ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ فمروا بإبراهيم قبل، وبشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. ثم سألهم إبراهيم أين يريدون؟ فأخبروه أنهم يريدون إهلاك قوم لوط، فجعل يراجعهم و ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ فـ ﴿ قَالُوا ﴾ له ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ ثم مضوا حتى أتوا لوطا ﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ فلم يعرفهم فساءه مجيئهم، وخاف عليهم من قومه ﴿ وَقَالُوا ﴾ له ﴿ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ وأخبروه أنهم رسل الله ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ. إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا ﴾ عذابا ﴿ مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ فأمروه أن يسري بأهله ليلا، فلما أصبحوا، قلب الله عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل متتابعة حتى أبادتهم وأهلكتهم ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ تركنا من ديار قوم لوط آثارا بينة لقوم يعقلون العِبر بقلوبهم، فينتفعون بها.

﴿ 36 - 37 ﴾ ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾

﴿ وَ ﴾ أرسلنا ﴿ إِلَى مَدْيَنَ ﴾ القبيلة المعروفة المشهورة ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بالبعث ورجائه، والعمل له، ونهاهم عن الإفساد في الأرض، ببخس المكاييل والموازين، والسعي بقطع الطرق ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ فأخذهم عذاب الله.

﴿ 38 - 40 ﴾ ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ﴾ علمتم قصصهم، وتبين لكم بأبصاركم من مساكنهم وآثارهم التي بانوا عنها، وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينات فكذبوهم وجادلوهم ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ حتى ظنوا أنها أفضل مما جاءتهم به الرسل ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾ الله، ولا فائتين، بل سلموا واستسلموا ﴿ فَكُلًّا ﴾ من هؤلاء الأمم المكذبة ﴿ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ﴾ على قدره، وبعقوبة مناسبة له ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ عذابا يحصبهم، كقوم عاد حين أرسل الله عليهم الريح العقيم ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ كقوم صالح ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ كقارون ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ كفرعون وهامان وجنودهما. ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ ما ينبغي ولا يليق به تعالى أن يظلمهم لكمال عدله، وغناه التام عن جميع الخلق ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ خلقها الله لعبادته وحده، فأشغلوها بالشهوات والمعاصي، فضروها غاية الضرر من حيث ظنوا أنهم ينفعونها.

﴿ 41 - 43 ﴾ ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ هذا مثل ضربه الله لمن عبد معه غيره، يقصد به التعزز والتَّقَوِّي والنفع، وأن الأمر بخلاف مقصوده، فإن مثله كمثل العنكبوت، اتخذت بيتا ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ

﴿ الْبُيُوتِ ﴾ أضعفها وأوهاها ﴿ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ﴾ فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفا. كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء من دونه يتعززون بهم ويستنصرونهم، ازدادوا ضعفا إلى ضعفهم، ووهنا إلى وهنهم ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ حالهم وحال من اتخذوهم، لم يتخذوهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي إنه تعالى عالم الغيب والشهادة ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي له القوة جميعا، التي قهر بها جميع المخلوقات ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وأحسن كل شيء خلقه ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم ﴿ وَ ﴾ لكن ﴿ مَا يَعْقِلُهَا ﴾ بفهمها وتدبرها، وتطبيقها على ما ضربت له، وعقلها في القلب ﴿ إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ أهل العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلى قلوبهم.

﴿ 44 ﴾ ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ هو تعالى المنفرد بخلق السماوات بالحق، لم يخلقها عبثا ولا لغير فائدة. وإنما ليقوم أمره وشرعه، ولتتم نعمته على عباده، وليروا من حكمته وقهره وتدبيره، ما يدلهم على أنه وحده معبودهم ومحبوبهم وإلههم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إذا تدبرها المؤمن رأى ذلك فيها عيانا.

﴿ 45 ﴾ ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله، وامتثال ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه. وتلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه، وإقامة الدين كله، داخلة في تلاوة الكتاب. فيكون قوله ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ من باب عطف الخاص على العام، لفضل الصلاة وشرفها، وآثارها الجميلة ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ ﴾ وهي كل ما استعظم واستفحش من المعاصي التي تشتهيها النفوس ﴿ وَالْمُنْكَرِ ﴾ كل معصية تنكرها العقول والفطر. ذلك أن العبد المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها وخشوعها، يستنير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تعدم رغبته في الشر، فبالضرورة، مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه، تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ وثَمَّ في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر، وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب واللسان والبدن. فإن الله تعالى، إنما خلق الخلق لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة. ويحتمل أن ذكره تعالى خارج الصلاة أكبر من الصلاة، كما هو قول جمهور المفسرين، لكن الأول أولى، لأن الصلاة أفضل من الذكر خارجها، ولأنها -كما تقدم- بنفسها من أكبر الذكر ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ من خير وشر، فيجازيكم على ذلك أكمل الجزاء وأوفاه.

﴿ 46 ﴾ ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب، إذا كانت من غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية، وأن لا يجادلوا إلا بحسن خلق ولطف ولين كلام. وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو. إلا من ظلم من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصده وحاله، أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ ﴾ ولتكن مجادلتكم لأهل الكتاب مبنية على الإيمان بما أنزل إليكم وأنزل إليهم، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم، وعلى أن الإله واحد، ولا تكن مناظرتكم إياهم على وجه يحصل به القدح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ منقادون مستسلمون لأمره.

﴿ 47 – 48 ﴾ ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ يا محمد هذا ﴿ الْكِتَابَ ﴾ الكريم المبين كل نبأ عظيم، الداعي إلى كل خلق فاضل ﴿ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ فعرفوه حق معرفته، ولم يداخلهم حسد وهوى ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ لأنهم تيقنوا صدقه، بما لديهم من الموافقات ﴿ وَمِنْ هَؤُلَاءِ ﴾ الموجودين ﴿ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ إيمانا عن بصيرة، لا عن رغبته ولا رهبته ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴾ الذين دأبهم الجحود للحق والعناد له. ومما يدل على صحته أنه جاء به هذا النبي الأمين، الذي عرف قومه صدقه وأمانته ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو ﴾ أي تقرأ ﴿ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا ﴾ لو كنت بهذه الحال ﴿ لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ فقالوا تعلمه من الكتب السابقة، أو استنسخه منها، فأما وقد نزل على قلبك، كتابا جليلا، تحديت به الفصحاء والبلغاء أن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا غاية العجز.

﴿ 49 ﴾ ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾

﴿ بَلْ هُوَ ﴾ هذا القرآن ﴿ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ لا خفيات ﴿ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ وهم سادة الخلق، وعقلاؤهم ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ لأنه لا يجحدها إلا جاهل وإما متجاهل عرف أنه حق فعانده، وعرف صدقه فخالفه.

﴿ 50 – 52 ﴾ ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ واعترض هؤلاء الظالمون المكذبون للرسول ولما جاء به، واقترحوا عليه نزول آيات عينوها ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ إن شاء أنزلها أو منعها ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ وليس لي مرتبة فوق هذه المرتبة ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ ﴾ في علمهم بصدقك وصدق ما جئت به ﴿ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ وهذا كلام مختصر جامع، فيه من الآيات البينات شيء كثير ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير وتزكية القلوب والأرواح ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ فأنا قد استشهدته، فإن كنت كاذبا أَحَلَّ بي ما به تعتبرون، وإن كان يؤيدني وينصرني وييسر لي الأمور فلتكفكم هذه الشهادة الجليلة من الله، فإنه ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ومن جملة معلوماته حالي وحالكم، ومقالي لكم فلو كنت متقولا عليه، مع علمه بذلك وقدرته على عقوبتي لكان قدحا في علمه وقدرته وحكمته ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ خسروا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فخسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

﴿ 53 – 55 ﴾ ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ زيادة في التكذيب ﴿ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ مضروب لنزوله، ولم يأت بعد ﴿ لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ بسبب تكذيبهم الحق، ولكن –مع ذلك– فلا يستبطئون نزوله، فإنه سيأتيهم ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وقد حدث هذا في بدر عندما قدموا بطرين مفاخرين، ظانين أنهم قادرون على مقصودهم، فأهانهم الله، وأتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا، وهم لا يشعرون ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ وإن أمامهم العذاب الأخروي الذي لا يخلص منهم أحد منه، سواء عوجل بعذاب الدنيا أو أمهل ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ليس لهم عنها معدل ولا متصرف، قد أحاطت بهم من كل جانب، كما أحاطت بهم ذنوبهم وسيئاتهم وكفرهم، وذلك هو العذاب الشديد ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فإن أعمالكم انقلبت عليكم عذابا، وشملكم العذاب كما شملكم الكفر والذنوب.

﴿ 56 – 59 ﴾ ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بي وصدقوا رسولي ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ فإذا تعذرت عليكم عبادة ربكم في أرض، فارتحلوا منها إلى أرض أخرى، حيث كانت العبادة لله وحده ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ والموت لا بد أن ينزل بكم ثم ترجعون إلى ربكم، فيجازي من أحسن عبادته وجمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ فـ ﴿ نِعْمَ ﴾ تلك المنازل في جنات النعيم ﴿ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ لله ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ على عبادة الله ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ في ذلك.

﴿ 60 ﴾ ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

﴿ وَكَأَيِّنْ ﴾ فكم ﴿ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ في الأرض ضعيفة القوى ضعيفة العقل ﴿ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ ولا تدخره، بل لم تزل لا شيء معها من الرزق ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ ولا يزال الله يسخر لها الرزق في كل وقت بوقته. فقد تكفل الباري تبارك وتعالى بأرزاق الخلائق كلهم، قويهم وعاجزهم فكلكم عيال الله القائم برزقكم، كما قام بخلقكم وتدبيركم ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فلا يخفى عليه خافية، ولا تهلك دابة من عدم الرزق بسبب أنها خافية عليه.

﴿ 61 – 63 ﴾ ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ لو سألتهم من خلق السماوات والأرض، ومن بيده تدبير جميع الأشياء ﴿ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ وحده ولَاعْتَرَفُوا بعجز الأوثان ومن عبدوه مع الله على شيء من ذلك ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ فاعجب لإفكهم وكذبهم، وعدولهم إلى من أقروا بعجزه ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ* وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ وقل الحمد لله الذي خلق العالم العلوي والسفلي، وقام بتدبيرهم ورزقهم، وبسط الرزق على من يشاء، وضيقه على من يشاء، حكمة منه، ولعلمه بما يصلح عباده وما ينبغي لهم.

﴿ 64 – 69 ﴾ ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ * وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ في الحقيقة ﴿ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان، بسبب ما جعل الله فيها من الزينة واللذات والشهوات الخالبة للقلوب ثم تزول سريعا ولم يحصّل منها محبها إلا على الندم والحسرة والخسران ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ ﴾ فإنها، أو ﴿ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ أي الحياة الكاملة حيث في أبدان أهلها كل ما تكمل به الحياة وتتم به اللذات ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ لما آثروا الدنيا على الآخرة ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ ثم ألزم تعالى المشركين بإخلاصهم لله تعالى. ففي حالة الشدة عند ركوب البحر وتلاطم أمواجه وخوفهم الهلاك، يتركون إذاً أندادهم ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له، فلما زالت عنهم الشدة، ونجى من أخلصوا له الدعاء إلى البر، أشركوا به فهلا أخلصوا لله الدعاء في حال الرخاء والشدة، ليكونوا مؤمنين به حقا، مستحقين ثوابه، مندفعا عنهم عقابه ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ ولكن شركهم هذا بعد نعمتنا عليهم، ومقابلة النعمة بالإساءة، وليكملوا تمتعهم في الدنيا الذي هو كتمتع الأنعام ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ حين ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة، شدة الأسف وأليم العقوبة ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ ثم امتن عليهم بحرمه الآمن، وأنهم أهله في أمن وسعة ورزق، والناس من حولهم يتخطفون ويخافون، أفلا يعبدون الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهو ما هم عليه من الشرك ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ ﴾ هم ﴿ يَكْفُرُونَ ﴾ فأين ذهبت عقولهم، حيث آثروا الضلال على الهدى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ فنسب ما هو عليه من الضلال والباطل إلى الله ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ على يد رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ الذين لا يخرجون منه ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ وهم الذين هاجروا في سبيل الله، وجاهدوا أعداءهم ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ الطرق الموصلة إلينا، وذلك لأنهم محسنون ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ بالعون والنصر والهداية. دل هذا على أن أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية، فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله.

تم تفسير سورة العنكبوت

بحمد الله وعونه

30

مختصر تفسير سورة الروم

عدد آياتها 60

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 7 ﴾ ﴿ الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾

﴿ الم ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ كانت الفرس والروم في ذلك الوقت من أقوى دول الأرض، وكان يكون بينهما من الحروب والقتال ما يكون بين الدول المتوازنة ﴿ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ فظهر الفرس على الروم فغلبوهم غلبا لم يحط بملكهم بل بأدنى أرضهم، ففرح بذلك مشركو مكة وحزن المسلمون، فأخبرهم الله ووعدهم أن الروم ستغلب الفرس ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ تسع أو ثمان ونحو ذلك مما لا يزيد على العشر، ولا ينقص عن الثلاث، وأن غلبة الفرس للروم ثم غلبة الروم للفرس كل ذلك بمشيئته وقدره ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ فليس الغلبة والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هي لا بد أن يقترن بها القضاء والقدر ﴿ وَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم يغلب الروم الفرس ويقهرونهم ﴿ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي يفرحون بانتصارهم على الفرس ويحزن يومئذ المشركون. وكانت الفرس مشركين يعبدون النار، وكانت الروم أهل كتاب ينتسبون إلى التوراة والإنجيل وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس فكان المؤمنون يحبون غلبتهم وظهورهم على الفرس، وكان المشركون يحبون ظهور الفرس على الروم ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي له العزة التي قهر بها الخلائق أجمعين يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بعباده المؤمنين حيث قيض لهم من الأسباب التي تسعدهم وتنصرهم ما لا يدخل في الحساب ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ فتيقنوا ذلك واجزموا به واعلموا أنه لا بد من وقوعه. فلما نزلت هذه الآيات تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين على مدة سنين عينوها، فلما جاء الأجل الذي ضربه الله انتصر الروم على الفرس. وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها الله قبل وقوعها ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن ما وعد الله به حق فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بوعد الله، ويكذبون آياته ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ

﴿ الدُّنْيَا ﴾ فهم واقفون مع الأسباب غير ناظرين إلى مسببها المتصرف فيها ﴿ وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها فعملت لها وسعت[1].

﴿ 8 - 10 ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ هؤلاء المكذبون لرسل الله ولقائه ﴿ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ فإن في أنفسهم آيات يعرفون بها أن الذي أوجدهم من العدم سيعيدهم بعد ذلك ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴿ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ مؤقت، إلى أجل تنقضي به الدنيا وتجيء به القيامة ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ فلذلك لم يستعدوا للقائه ولم يصدقوا رسله التي أخبرت به ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ نبههم على السير في الأرض والنظر في عاقبة الذين كذبوا رسلهم وخالفوا أمرهم ممن هم أشد من هؤلاء قوة وأكثر آثارا في الأرض من بناء قصور ومصانع، فلم تغن عنهم قوتهم ولا نفعتهم آثارهم. وكل هذه الأمم المهلكة لم يظلمهم الله بذلك الإهلاك وإنما ظلموا أنفسهم وتسببوا في هلاكها ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السوأى ﴾ الحالة السيئة الشنيعة، وصار ذلك داعيا لهم ﴿ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ فهذا عقوبة لسوئهم وذنوبهم. ثم ذلك الاستهزاء والتكذيب يكون سببا لأعظم العقوبات وأعضل المثلات.

﴿ 11 - 16 ﴾ ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ *وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ هو المتفرد بإبداء المخلوقات ثم يعيدهم ثم إليه يرجعون بعد إعادتهم ليجازيهم بأعمالهم ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ يقوم الناس لرب العالمين ويردون القيامة عيانا، يومئذ ﴿ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ييأسون من كل خير. وذلك أنهم ما قدموا لذلك اليوم إلا الذنوب، من كفر وشرك ومعاصي ﴿ وَلَمْ

[1] ومن العجب أن هذا القسم من الناس قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا إلى أمر يحير العقول. وأظهروا من العجائب الذرية والكهربائية والمراكب البرية والبحرية والهوائية ما فاقوا به وبرزوا وأعجبوا بعقولهم. وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم وأشدهم غفلة عن آخرتهم وأقلهم معرفة بالعواقب، في ضلالهم يعمهون نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون.

﴿ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ ﴾ التي عبدوها مع الله ﴿ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ تبرأ المشركون ممن أشركوهم مع الله وتبرأ المعبودون ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ آمنوا بقلوبهم وصدقوا ذلك بالأعمال الصالحة ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ ﴾ فيها أصناف المشتهيات ﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ يسرون وينعمون بما لا يقدر أحد أن يصفه ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وجحدوا نعمه وقابلوها بالكفر ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ التي جاءتهم بها رسلنا ﴿ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ فيه، قد أحاطت بهم جهنم من جميع جهاتهم واطَّلع العذاب الأليم على أفئدتهم.

﴿ 17 - 19 ﴾ ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ فهذه الأوقات الخمسة هي أوقات الصلوات الخمس. أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد، ويدخل في ذلك الواجب منه كالمشتملة عليه الصلوات الخمس، والمستحب كأذكار الصباح والمساء وأدبار الصلوات وما يقترن بها من النوافل. ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ كما يخرج النبات من الأرض الميتة والسنبلة من الحبة والشجرة من النواة والفرخ من البيضة والمؤمن من الكافر، ونحو ذلك ﴿ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ بعكس المذكور ﴿ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فينزل عليها المطر وهي ميتة هامدة ﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ من قبوركم.

﴿ 20 - 21 ﴾ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ وذلك بخلق أصل النسل آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ ففي ذلك آيات على أن الذي أنشأكم من هذا الأصل وبثكم في أقطار الأرض هو الرب المعبود الذي سيعيدكم بالبعث بعد الموت ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على رحمته وعنايته بعباده وحكمته العظيمة وعلمه المحيط ﴿ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ تناسبكم وتناسبونهن ﴿ لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ فلا تجد بين أحد مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يُعملون أفكارهم ويتدبرون آيات الله.

﴿ 22 ﴾ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فذلك دال على عظمة سلطان الله وكمال اقتداره، وهذه أدلة عقلية نبه الله العقول إليها وأمرها بالتفكر واستخراج العبرة منها. فهو وحده الذي يستحق أن يعبد ويوحد لأنه المنفرد بالخلق فيجب

أن يفرد بالعبادة ﴿ وَ﴾ كذلك في ﴿ اخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ على كثرتكم وتباينكم ومع ذلك لا تجد صوتين متفقين من كل وجه ولا لونين متشابهين من كل وجه إلا وتجد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ وهذا دال على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته.

﴿ 23 ﴾ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي سماع تدبر وتعقل للمعاني والآيات في ذلك، وهو دليل على رحمة الله تعالى إذ حكمته اقتضت سكون الخلق في وقت ليستريحوا به ويستجموا وانتشارهم في وقت لمصالحهم الدينية والدنيوية ولا يتم ذلك إلا بتعاقب الليل والنهار عليهم، والمنفرد بذلك هو المستحق للعبادة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾.

﴿ 24 ﴾ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ومن آياته أن ينزل عليكم المطر الذي تحيا به البلاد والعباد ويريكم قبل نزوله مقدماته من الرعد والبرق الذي يُخَاف ويُطْمَع فيه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ دالة على كمال إتقانه وعظيم حكمته وأنه يحيي الموتى كما أحيا الأرض بعد موتها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ لهم عقول تعقل بها ما تسمعه وتراه وتحفظه، وتستدل به عل ما جعل دليلا عليه.

﴿ 25 - 27 ﴾ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ * وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ قامت السماوات والأرض واستقرتا وثبتتا بأمره، فقدرته العظيمة هذه يقدر بها أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض إذا هم يخرجون ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الكل خلقه ومماليكه المتصرف فيهم من غير منازع ولا معاون ولا معارض ﴿ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ لجلاله خاضعون لكماله ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ ﴾ أي إعادة الخلق بعد موتهم ﴿ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ من ابتداء خلقهم، فإذا كان قادرا على الابتداء الذي تقرون به كانت قدرته على الإعادة التي أهون أولى وأولى ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وهو كل صفة كمال، فالمثل الأعلى هو وصفه

الأعلى وما ترتب عليه ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الحكيم ﴾ فعزته أوجد بها المخلوقات وحكمته أتقن بها ما صنعه وأحسن فيها ما شرعه.

﴿ 28 - 29 ﴾ ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ هل أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء يشارككم في رزقكم وترون أنكم وهم فيه على حد سواء ﴿ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي كالأحرار الشركاء في الحقيقة الذين يخاف من قسمه واختصاص كل شيء بحاله؟ ليس الأمر كذلك فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم شريكا لكم فيما رزقكم الله تعالى. هذا، ولستم الذين خلقتموهم ورزقتموهم وهم أيضا مماليك مثلكم، فكيف ترضون أن تجعلوا لله شريكا من خلقه وتجعلونه بمنزلته، وعديلا له في العبادة وأنتم لا ترضون مساواة مماليككم لكم ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ بتوضيحها بأمثلتها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الحقائق، فأهل العقول والألباب هم الذين يساق إليهم الكلام ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ هويت أنفسهم الناقصة أمرا يجزم العقل بفساده بغير علم دلهم عليه ﴿ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ فإن الله تعالى أضلهم بظلمهم ولا طريق لهداية من أضل الله ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ ينصرونهم حين تحق عليهم كلمة العذاب.

﴿ 30 - 32 ﴾ ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ انصبه ووجهه إلى الدين الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان بأن تتوجه بقلبك وقصدك وبدنك إلى إقامة شرائع الدين الظاهرة والباطنة. وخص الله إقامة الوجه لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب ويترتب على الأمرين سَعْيُ البدن ولهذا قال ﴿ حَنِيفًا ﴾ أي مقبلا على الله في ذلك معرضا عما سواه. وهذا الأمر الذي أمرناك به هو ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ ووضع في عقولهم حسنها واستقباح غيرها ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ أي لا أحد يبدل خلق الله فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وضعه الله ﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي أمرنا به ﴿ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أي الطريق المستقيم الموصل إلى الله وإلى كرامته ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فلا يتعرفون الدين القيم وإن عرفوه لم يسلكوه ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ إنابة القلب ﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾ فهذا يشمل فعل المأمورات وترك

المنهيات ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ وخص من المأمورات الصلاة لكونها تدعو إلى الإنابة والتقوى. وخص من المنهيات أصلها والذي لا يقبل معه عمل وهو الشرك فقال ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ثم ذكر حالة المشركين مهجنا لها ومقبحا فقال ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ مع أن الدين واحد وهو إخلاص العبادة لله وحده وهؤلاء المشركون فرقوه، منهم من يعبد الأوثان والأصنام. ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين ومنهم يهود ومنهم نصارى. ولهذا قال ﴿ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾ أي كل فرقة من فرق الشرك تألفت وتعصبت على نصر ما معها من الباطل ومنابذة غيرهم ومحاربتهم ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ من العلوم المخالفة لعلوم الرسل ﴿ فَرِحُونَ ﴾ به يحكمون لأنفسهم بأنه الحق وأن غيرهم على باطل. وفي هذا تحذير للمسلمين من تشتتهم وتفرقهم فرقا، بل الدين واحد والرسول واحد والإله واحد. [2]

﴿ 33 - 35 ﴾ ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ ﴾ مرض أو خوف من هلاك ونحوه ﴿ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ ونسوا ما كانوا به يشركون في تلك الحال لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله ﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ شفاهم من مرضهم وآمنهم من خوفهم ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ. لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ينقضون تلك الإنابة التي صدرت منهم ويشركون به، فهلا قابلوا هذه النعمة الجليلة بالشكر والدوام على الإخلاص له في جميع الأحوال ﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ﴾ أي حجة ظاهرة ﴿ فَهُوَ ﴾ أي ذلك السلطان ﴿ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ فهل ذلك السلطان موجود عندهم حتى يوجب لهم شدة التمسك بالشرك؟ فشرك هؤلاء بغير حجة ولا برهان وإنما هو أهواء النفوس ونزغات الشيطان.

﴿ 36 - 37 ﴾ ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ﴾ يخبر تعالى عن طبيعة أكثر الناس في حالي الرخاء والشدة أنهم إذا أذاقهم الله منه رحمة من صحة وغنى ونصر ونحو ذلك فرحوا بذلك فرح بطر، لا فرح شكر وتبجح بنعمة الله ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي حال تسوؤهم وذلك ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من المعاصي ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ ييأسون من زوال ذلك الفقر والمرض ونحوه. وهذا جهل منهم وعدم معرفة ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ فالقنوط

[2] فما بال ذلك كله يُلْغَى ويُبْنَى التفرق والشقاق بين المسلمين على فروع خلافية يضلل بها بعضهم بعضا؟ فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشيطان التي كاد بها للمسلمين؟ وهل السعي في جمع كلمتهم وإزالة ما بينهم من الشقاق المبني على ذلك الأصل الباطل، إلا من أفضل الجهاد في سبيل الله وأفضل الأعمال المقربة إلى الله؟

ليس له محل، بعد ما علم أن الخير والشر من الله، والرزق سعته وضيقه من تقديره ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فهم الذين يعتبرون بسط الله لمن يشاء وقبضه، ويعرفون بذلك حكمة الله ورحمته.

﴿ 38 - 39 ﴾ ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ﴾ فأعط القريب منك على حسب قربه وحاجته حقه الذي أوجبه الشارع، أو حض عليه من النفقة الواجبة والصدقة والهدية والبر والسلام والإكرام والعفو عن زلته والمسامحة عن هفوته. وكذلك ﴿ وَالْمِسْكِينَ ﴾ الذي أسكنه الفقر والحاجة، من إطعامه وسقيه وكسوته ﴿ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ الغريب المنقطع به في غير بلده الذي في مظنة شدة الحاجة ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل ﴿ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ ﴾ بذلك العمل ﴿ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ أي خير غزير وثواب كثير لأنه من أفضل الأعمال الصالحة ﴿ وَأُولَئِكَ ﴾ الذين عملوا هذه الأعمال وغيرها لوجه الله ﴿ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بثواب الله الناجون من عقابه ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ ﴾ ما أعطيتم من أموالكم الزائدة عن حوائجكم، وقصدكم بذلك أن يربو أي يزيد في أموالكم بأن تعطوها لمن تطمعون أن يعاوضكم عنها بأكثر منها ﴿ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ ﴾ فهذا العمل لا يربو أجره عند الله لكونه معدوم الشرط الذي هو الإخلاص. ومثل ذلك العمل الذي يراد به الزيادة في الجاه والرياء عند الناس فهذا كله لا يربو عند الله ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ ﴾ أي مال يطهركم من الأخلاق الرذيلة ويطهر أموالكم من البخل بها ويزيد في دفع حاجة الْمُعْطَى ﴿ تُرِيدُونَ ﴾ بذلك ﴿ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ المضاعف لهم الأجر ويربيها الله لهم حتى تكون شيئا كثيرا.

﴿ 40 ﴾ ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ يخبر تعالى أنه وحده المنفرد بخلقكم ورزقكم وإماتتكم وإحيائكم ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وأنه ليس أحد من الشركاء التي يدعوهم المشركون من يشارك الله في شيء من هذه الأشياء.

﴿ 41 ﴾ ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ فساد معايشهم ونقصها وحلول الآفات بها، وفي أنفسهم من الأمراض والوباء وغير ذلك، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال الفاسدة المفسدة بطبعها. هذه المذكورة ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ ليعلموا أنه المجازي على الأعمال فعجل لهم نموذجا من جزاء أعمالهم في الدنيا ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن أعمالهم التي أثرت لهم من الفساد ما أثرت، فتصلح أحوالهم ويستقيم أمرهم.

﴿ 42 ﴾ ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴾

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ السير في الأرض بالأبدان والقلوب للنظر والتأمل بعواقب المتقدمين ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴾ تجدون عاقبتهم شر العواقب، فاحذروا أن تفعلوا فعالهم يُحْذَى بكم حذوهم.

﴿ 43 - 45 ﴾ ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ * مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ أقبل بقلبك وتوجه بوجهك واسع ببدنك لإقامة الدين القيم المستقيم ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ وهو يوم القيامة الذي إذا جاء لا يمكن رده ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ يتفرقون عن ذلك اليوم ويصدرون أشتاتا متفاوتين لِيُرَوْا أعمالهم ﴿ مَنْ كَفَرَ ﴾ منهم ﴿ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ ويعاقب هو بنفسه لا تزر وازرة وزر أخرى ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا ﴾ من الحقوق التي لله أو التي للعباد الواجبة والمستحبة ﴿ فَلِأَنْفُسِهِمْ ﴾ لا لغيرهم ﴿ يَمْهَدُونَ ﴾ يهيئون ولأنفسهم يعمرون آخرتهم ويستعدون للفوز ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ يجزيهم الله من فضله الممدود وكرمه غير المحدود ما لا تبلغه أعمالهم. وذلك لأنه أحبهم وإذا أحب الله عبدا صب عليه الإحسان صبا. وهذا بخلاف الكافرين فإن الله لما أبغضهم ومقتهم عاقبهم وعذبهم ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿ 46 ﴾ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ ﴾ أمام المطر، وهذه من الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى ﴿ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ بإثارتها للسحاب ثم جمعها فتبشر بذلك النفوس قبل نزوله ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ فينزل عليكم من رحمته مطرا تحيا به البلاد والعباد ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ ﴾ في البحر ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ القدري ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ بالتصرف في معايشكم

ومصالحكم ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ من سخر لكم الأسباب وسير لكم الأمور. فهذا المقصود من النعم أن تقابل بشكر الله تعالى ليزيدكم الله منها ويبقيها عليكم.

﴿ 47 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ﴾ في الأمم السابقين ﴿ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ ﴾ يدعونهم إلى التوحيد ﴿ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ فلم يؤمنوا ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ ونصرنا المؤمنين أتباع الرسل ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أوجبنا ذلك على أنفسنا ووعدناهم به فلا بد من وقوعه. فأنتم أيها المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم إن بقيتم على تكذيبكم حلَّت بكم العقوبة ونصرناه عليكم.

﴿ 48 - 50 ﴾ ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ اللَّهُ ﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام نعمته أنه ﴿ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ من الأرض ﴿ فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ ﴾ يمده ويوسعه ﴿ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ على أي حالة أرادها من ذلك ﴿ وَ ﴾ ثم ﴿ يَجْعَلُهُ ﴾ أي ذلك السحاب الواسع ﴿ كِسَفًا ﴾ سحابا ثخينا قد طبق بعضه فوق بعض ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ أي السحاب نقطا صغارا متفرقة ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ ﴾ بذلك المطر ﴿ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يبشر بعضهم بعضا بنزوله وذلك لشدة حاجتهم وضرورتهم إليه ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ آيسين قانطين لتأخر وقت مجيئه ﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج كريم ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها ﴿ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فقدرته تعالى لا يتعاصى عليها.

﴿ 51 - 53 ﴾ ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ * فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا ﴾ لو أرسلنا على هذا النبات الناشئ عن المطر وعلى زروعهم ريحا مضرة متلفة أو منقصة ﴿ فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ قد تداعى إلى التلف ﴿ لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ فينسون النعم الماضية ويبادرون إلى

الكفر. هؤلاء لا ينفع فيهم وعظ ولا زجر ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ وبالأولى ﴿ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ فإن الموانع قد توفرت فيهم عن الانقياد والسماع النافع كتوفر هذه الموانع المذكورة عن سماع الصوت الحسي ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ﴾ لأنهم لا يقبلون الإبصار بسبب عماهم ﴿ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ فهؤلاء الذين ينفع فيهم إسماع الهدى المؤمنون بآياتنا بقلوبهم المنقادون لأوامرنا المسلمون لنا.

﴿ 54 ﴾ ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ بدأ خلق الآدميين من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى أن صار حيوانا في الأرحام إلى أن ولد في غاية الضعف. ثم ما زال الله يزيد في قوته شيئا فشيئا حتى بلغ سن الشباب واستوت قوته وكملت قواه الظاهرة والباطنة، ثم انتقل من هذا الطور ورجع إلى الضعف والشيبة والهرم ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ بحسب حكمته. ومن حكمته أن يري العبد ضعفه وأن قوته محفوفة بضعفين وأنه ليس له من نفسه إلا النقص، ولولا تقوية الله له لما وصل إلى قوة وقدرة ولو استمرت قوته في الزيادة لطغى وبغى وعتا ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ .

﴿ 55 – 57 ﴾ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ وأنه إذا قامت الساعة ﴿ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ بالله أنهم ﴿ مَا لَبِثُوا ﴾ في الدنيا ﴿ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ وذلك اعتذار منهم لعله ينفعهم العذر واستقصار لمدة الدنيا ﴿ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ ففي الدنيا كذَّبوا الحق الذي جاءتهم به المرسلون، وفي الآخرة أنكروا اللبث الطويل في الدنيا ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ ﴾ أي مَنَّ الله عليهم بهما وصار قولهم مطابقا للواقع مناسبا لأحوالهم ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أي في قضائه وقدره، الذي كتبه الله عليكم وفي حكمه ﴿ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ أي عمرتم عُمْرًا يتدبر فيه المتدبر حتى صار البعث ووصلتم إلى هذه الحال ﴿ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فلذلك أنكرتموه في الدنيا وأنكرتم إقامتكم في الدنيا وقتا تتمكنون فيه من الإنابة والتوبة ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ فإنه فات وقت الإعذار فلا تقبل معذرتهم ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي يزال عتبهم والعتاب عنهم.

﴿ 58 - 60 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ * كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا ﴾ لأجل عنايتنا ورحمتنا ولطفنا وحسن تعليمنا ﴿ لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ تتضح به الحقائق وتعرف به الأمور وتنقطع به الحجة. ولكن أبى الظالمون الكافرون إلا معاندة الحق الواضح ﴿ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ ﴾ تدل على صحة ما جئت به ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ أي قالوا للحق إنه باطل. وهذا من كفرهم وجراءتهم وطَبْعِ الله على قلوبهم وجهلهم المفرط ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فلا يدخلها خير ولا تدرك الأشياء على حقيقتها بل ترى الحق باطلا والباطل حقا ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ على ما أمرت به وعلى دعوتهم إلى الله، ولو رأيت منهم إعراضا فلا يصدنك ذلك ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي لا شك فيه وهذا مما يعين على الصبر ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أي قد ضعف إيمانهم وقل يقينهم فخفت لذلك أحلامهم وقل صبرهم، فإياك أن يستخفك هؤلاء فإنك إن لم تجعلهم منك على بال وتحذر منهم وإلا استخفوك وحملوك على عدم الثبات على الأوامر والنواهي.

فالله المستعان.

31

مختصر تفسيرسورة لقمان

عدد آياتها 34

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 5 ﴾ ﴿ الم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

﴿ الم ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ أي آياته محكمة، صدرت من حكيم خبير. فإنه ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ يهديهم إلى الصراط المستقيم، ويحذرهم من طرق الجحيم وَرَحْمَة لهم تحصل لهم به السعادة في الدنيا والآخرة ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ وخص عملين فاضلين: الصلاة والزكاة، فـ ﴿ أُولَئِكَ ﴾ هم المحسنون الجامعون بين العلم التام والعمل ﴿ عَلَى هُدًى ﴾ أي عظيم كما يفيده التنكير، وذلك الهدى حاصل لهم، وواصل إليهم ﴿ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ الذي لم يزل يربيهم بالنعم ويدفع عنهم النقم ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الذين أدركوا رضا ربهم وثوابه الدنيوي والأخروي، وسلموا من سخطه وعقابه، وذلك لسلوكهم طريق الفلاح، الذي لا طريق له غيرها.

﴿ 6 - 9 ﴾ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا

﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ ﴾ هو محروم مخذول ﴿ يَشْتَرِي ﴾ يختار ويرغب رغبة من يبذل الثمن في الشيء ﴿ لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ الأحاديث الملهية للقلوب، التي لا نفع فيها في دين ولا دنيا ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ الناس ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي بعدما ضل بفعله، أضل غيره، لأن الإضلال، ناشئ عن الضلال ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ ويتخذ آيات الله هزوا ويسخر بها، وبمن جاء بها ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ بما ضلوا وأضلوا، واستهزءوا بآيات الله وكذبوا الحق الواضح ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ﴾ ليؤمن بها وينقاد لها ﴿ وَلَّى مُسْتَكْبِرًا ﴾ أدبر إدبار مستكبر عنها، رادٍّ لها ﴿ كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ﴾ بل ﴿ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ أي صمما لا تصل إليه الأصوات ﴿ فَبَشِّرْهُ ﴾ بشارة تؤثر في قلبه الحزن والغم ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ مؤلم لقلبه ولبدنه. وأما بشارة أهل الخير ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ جمعوا بين عبادة الباطن بالإيمان، والظاهر بالإسلام، والعمل الصالح ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ بشارة لهم بما قدموه ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي في جنات النعيم، نعيم القلب والروح والبدن ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ لا يمكن أن يخلف، ولا يغير، ولا يتبدل ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ كامل العزة، كامل الحكمة.

﴿ 10 - 11 ﴾ ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

﴿ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ ﴾ السبع ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ ليس لها عمد وإنما استقرت بقدرة الله تعالى ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ جبالا عظيمة ركزها في أرجائها لئلا ﴿ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ فلولا الجبال الراسيات لمادت الأرض ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ نشر في الأرض الواسعة من جميع أصناف الدواب المسخرة لبني آدم ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ مباركا ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ المنظر نافع مبارك، فرتعت فيه الدواب المنبثة وسكن إليه كل حيوان ﴿ هَذَا ﴾ أي خلق العالم العلوي والسفلي، من جماد وحيوان وسَوْقِ أرزاق الخلق إليهم ﴿ خَلْقُ اللَّهِ ﴾ وحده لا شريك له، كل مقر

بذلك حتى أنتم يا معشر المشركين ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي الذين جعلتموهم له شركاء تدعونهم وتعبدونهم، يلزم على هذا أن يكون لهم خلق كخلقه، ورزق كرزقه، فإن كان لهم شيء من ذلك فأرونيه ليصح ما ادعيتم فيهم من استحقاق العبادة ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ جَلِيٍّ واضح حيث عبدوا من لا يملك نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، وتركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك لكل الأمور.

﴿ 12 - 19 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّـهُ إِنَّ اللَّـهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّـهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ يخبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل لقمان بالحكمة وهي مستلزمة للعلم وللعمل، ولهذا فسرت بالعلم النافع والعمل الصالح ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ ثم أمره أن يشكره على ما أعطاه، ليبارك له فيه، وليزيده من فضله ﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ وأخبره أن شكر الشاكرين يعود نفعه عليهم ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ وأن من كفر فلم يشكر الله، عاد وبال ذلك عليه. والله غني عنه حميد فيما يقدره ويقضيه. واختلف المفسرون، هل كان لقمان نبيا، أو عبدا صالحا؟ والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمة، وذكر بعض ما يدل على حكمته في وعظه لابنه ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ أمره بالإخلاص ونهاه عن الشرك ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ فلا أفظع وأبشع ممن سَوَّى الذي لا يملك من الأمر شيئا بمن له الأمر كله. ثم أمر بالقيام بحق الوالدين ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ عهدنا إليه فوصيناه ﴿ بِوَالِدَيْهِ ﴾

ثم ذكر السبب الموجب لبر الوالدين في الأم ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ مشقة على مشقة ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ وهو ملازم لحضانة أمه وكفالتها ورضاعها. وقلنا له ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي ﴾ بالقيام بعبوديتي، وأداء حقوقي، وأن لا تستعين بنعمي على معصيتي ﴿ وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ بالإحسان إليهما بالقول اللين، والفعل الجميل والتواضع لهما وإجلالهما والقيام بمئونتهما واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه، بالقول والفعل. وأخبرناه أن ﴿ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ سترجع أيها الإنسان إلى من وصاك، وكلفك بهذه الحقوق، فيسألك: هل قمت بها، فيثيبك الثواب الجزيل؟ أم ضيعتها، فيعاقبك العقاب الوبيل ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ ﴾ أي اجتهد والداك ﴿ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ولا تظن أن هذا داخل في الإحسان إليهما فـ"لا طاعة لمخلوق، في معصية الخالق". ولم يقل "فعقهما" بل قال ﴿ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ أي بالشرك، وأما برهما فاستمر عليه، ولهذا قال ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ أي صحبة إحسان إليهما بالمعروف، وأما اتباعهما وهما بحالة الكفر والمعاصي فلا تتبعهما ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله المستسلمون لربهم المنيبون إليه ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ الطائع والعاصي والمنيب وغيره ﴿ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فلا يخفى على الله من أعمالهم خافية ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ﴾ التي هي أصغر الأشياء ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾ أي في وسطها ﴿ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ ﴾ في أي جهة من جهاتهما ﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ لسعة علمه وتمام خبرته وكمال قدرته ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ لطف في علمه وخبرته، حتى اطلع على البواطن والأسرار. والمقصود من هذا الحث على مراقبة الله والعمل بطاعته، مهما أمكن والترهيب من عمل القبيح قَلَّ أو كَثُرَ ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ حثه عليها، وخصها لأنها أكبر العبادات البدنية ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ وذلك يستلزم العلم بالمعروف ليأمر به، والعلم بالمنكر لينهى عنه ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس أمره بالصبر على ذلك ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ الذي وعظ به لقمان ابنه ﴿ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ أي من الأمور التي يعزم عليها، ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ لا تُمِلْهُ وتعبس بوجهك الناس تكبُّرًا عليهم وتعاظما ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ بطرا، فخرا بالنعم، ناسيا المنعم، معجبا بنفسك ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ ﴾ في نفسه وهيئته وتعاظمه ﴿ فَخُورٍ ﴾ بقوله ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ امش متواضعا مستكينا، لا مَشْيَ البطر

والتكبر ولا مشي التماوت ﴿ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾ أدبا مع الناس ومع الله ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ ﴾ أبشعها ﴿ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة، لما اختص بذلك الحمار. وهذه الوصايا، التي وصى بها لقمان لابنه، تجمع أمهات الحكم، وتستلزم ما لم يذكر منها، وكل وصية يقرن بها ما يدعو إلى فعلها، إن كانت أمرا، وإلى تركها إن كانت نهيا.

﴿ 20 - 21 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَوْا ﴾ تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم وقلوبكم ﴿ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ من الشمس والقمر والنجوم ﴿ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ من الحيوانات والأشجار والزروع والأنهار والمعادن ونحوها ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ ﴾ عمّكم وغمركم ﴿ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ التي نعلم بها والتي تخفى علينا، نعم الدنيا ونعم الدين، فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم بمحبة المنعم والخضوع له وصرفها في الاستعانة على طاعته، وأن لا يستعان بشيء منها على معصيته ﴿ وَ ﴾ لكن مع توالي هذه النعم فهناك ﴿ مِنَ النَّاسِ مَنْ ﴾ لم يشكرها بل كفرها وكفر بمن أنعم بها فجعل ﴿ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ ﴾ أي يجادل عن الباطل ليدحض به الحق ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ وهذا المجادل على غير بصيرة ﴿ وَلَا هُدًى ﴾ يقتدي به بالمهتدين ﴿ وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ وإنما جداله في الله مبني على تقليد آباء غير مهتدين ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ على أيدي رسله، فإنه الحق، وبينت لهم أدلته الظاهرة ﴿ قَالُوا ﴾ معارضين ذلك ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ فلا نترك ما وجدنا عليه آباءنا لقول أحد كائنا من كان ﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ فاستجاب له آباؤهم وصاروا من تلاميذ الشيطان.

﴿ 22 - 24 ﴾ ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ * وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾

﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ يخضع له وينقاد له بفعل الشرائع مخلصا له دينه ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ بأن كان عمله مشروعا، قد اتبع فيه الرسول صلى الله عليه وسلم. أو: ومن يسلم وجهه إلى الله، بفعل جميع العبادات، وهو محسن فيها، بأن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه، فإنه يراه. أو ومن يسلم وجهه إلى الله، بالقيام بحقوقه، وهو محسن إلى عباد الله، قائم بحقوقهم. فمن فعل ذلك فقد أسلم و ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ التي من تمسك بها توثق ونجا وسلم من الهلاك وفاز بكل خير ﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ رجوعها وموئلها ومنتهاها ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ ﴾ فإذا لم يهتد فقد وجب أجرك على الله، ولم يبق للحزن موضع على عدم اهتدائه، لأنه لو كان فيه خير لهداه الله. فإن ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ من كفرهم وعداوتهم، وسعيهم في إطفاء نور الله وأذى رسله ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ فكيف بما ظهر، وكان شهادة ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ﴾ في الدنيا ليزداد إثمهم، ويتوفر عذابهم ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ أي نلجئهم ﴿ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أي متناه في فظاعته وألمه.

﴿ 25 - 28 ﴾ ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾ هؤلاء المشركين المكذبين بالحق ﴿ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ لعلموا أن أصنامهم، ما خلقت شيئا من ذلك ﴿ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ الذي خلقهما وحده. فـ ﴿ قُلِ ﴾ لهم ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الذي بيَّن النور وأظهر الاستدلال عليكم من أنفسكم ولكن ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فلذلك أشركوا به غيره، ورضوا بتناقض ما ذهبوا إليه ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يتصرف فيهم فكلهم عبيد ليس لهم من الملك شيء ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ واسع الغنى، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ فهو حميد في ذاته حميد في صفاته ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ يكتب بها ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ مدادا يستمد بها ﴿ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ لتكسرت تلك الأقلام ولفني ذلك المداد ولم تنفد كَلِمَاتُ اللَّهِ تعالى. وهذا التمثيل من

باب تقريب المعنى الذي لا يطاق الوصول إليه إلى الأفهام والأذهان. وأما كلام الله تعالى فلا يتصور نفاده، وكل شيء ينتهي إلا الباري وصفاته ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ له العزة جميعا ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في خلقه وأمره ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ إن خلق جميع الخلق كخلقه نفسا واحدة، ثم ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات، وبصره لجميع المبصرات فقال ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾.

﴿ 29 - 30 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ إدخال أحدهما على الآخر، فإذا دخل أحدهما ذهب الآخر. وتسخيره للشمس والقمر، يجريان بتدبير ونظام، لم يختل منذ خلقهما. و ﴿ كُلّ ﴾ منهما يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ إذا جاء ذلك الأجل انقطع جريانهما في يوم القيامة ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من خير وشر ﴿ خَبِيرٌ ﴾ لا يخفى عليه شيء و ﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي بين لكم من عظمته وصفاته ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ في ذاته وفي صفاته، ودينه حق، ورسله حق، ووعده حق، ووعيده حق، وعبادته هي الحق ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ في ذاته وصفاته، فإذا كان باطلا كانت عبادته أبطل وأبطل ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ ﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته، وله الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض.

﴿ 31 - 32 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ ﴾ ألم تر من آثار قدرته ورحمته، وعنايته بعباده أن سخر البحر تجري فيه الفلك، بأمره القدري ولطفه وإحسانه ﴿ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ﴾ ففيها الانتفاع والاعتبار ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ فهم المنتفعون بالآيات، صبار على الضراء

شكور على السراء. صبار على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره، شكور لله على نعمه الدينية والدنيوية ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ وذكر تعالى حال الناس عند ركوبهم البحر، وغشيان الأمواج كالظلل فوقهم، أنهم يخلصون الدعاء لله والعبادة ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ﴾ انقسموا فريقين: ﴿ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ فرقة مقتصدة لم تقم بشكر الله على وجه الكمال، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم، وفرقة كافرة بنعمة الله، جاحدة لها، ولهذا قال ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ ﴾ أي غدار، ومن غدره أنه عاهد ربه لئن أنجيتنا من البحر وشدته، لنكونن من الشاكرين، فغدر ولم يف بذلك ﴿ كَفُورٍ ﴾ بنعم الله. فهل يليق بمن نجاهم الله من هذه الشدة، إلا القيام التام بشكر نعم الله؟

﴿ 33 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا ﴾ يأمر تعالى الناس بتقواه، التي هي امتثال أوامره وترك زواجره، ويستلفتهم لخشية يوم القيامة، اليوم الشديد الذي فيه كل أحد لا يهمه إلا نفسه فـ ﴿ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ لا يزيد في حسناته ولا ينقص من سيئاته، قد تم على كل عبد عمله، وتحقق عليه جزاؤه[1]. ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ فلا تمتروا فيه، ولا تعملوا عمل غير المصدق، فلهذا قال ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ بزينتها وزخارفها وما فيها من الفتن والمحن ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ الذي هو الشيطان الذي ما زال يخدع الإنسان ولا يغفل عنه في جميع الأوقات[2].

---

[1] فلفت النظر في هذا لهذا اليوم المهيل، مما يقوي العبد ويسهِّل عليه تقوى الله، وهذا من رحمة الله بالعباد، يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعدهم عليها الثواب، ويحذرهم من العقاب، ويزعجهم إليه بالمواعظ والمخوفات، فلك الحمد يا رب العالمين.

2 فإن لله على عباده حقا، وقد وعدهم موعدا يجازيهم فيه بأعمالهم، وهل وفوا حقه أم قصروا فيه. وهذا أمر يجب الاهتمام به وأن يجعله العبد نصب عينيه ورأس مال تجارته التي يسعى إليها. ومن أعظم العوائق عنه والقواطع دونه الدنيا الفتانة والشيطان الموسوس الْمُسَوِّل. فنهى تعالى عباده، أن تغرهم الدنيا أو يغرهم بالله الغرور.

﴿ 34 ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ يعلم متى مرساها ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ هو المنفرد بإنزاله ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ فهو الذي أنشأ ما فيها، وعلم ما هو ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ من كسب دينها ودنياها ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ بل الله تعالى، هو المختص بعلم ذلك جميعه. ولما خصص هذه الأشياء، عمم علمه بجميع الأشياء ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ محيط بالظواهر والبواطن، والخفايا والخبايا، والسرائر. ومن حكمته التامة أن أخفى علم هذه الخمسة عن العباد، لأن في ذلك من المصالح ما لا يخفى على من تدبر ذلك.

تم تفسير سورة لقمان

بفضل الله وعونه،

والحمد لله.

32

مختصر تفسيرسورة السجدة

عدد آياتها 30

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 3 ﴾ ﴿ الم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

﴿ الم ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يخبر تعالى أن هذا الكتاب الكريم تنزيل من رب العالمين، الذي رباهم بنعمته ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ ومع ذلك قال المكذبون للرسول: افتراه محمد، واختلقه من عند نفسه. قال الله رادًا على من قال: افتراه ﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل ﴿ مِنْ رَبِّكَ ﴾ الحكيم الحميد أنزله رحمة للعباد ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ فأنزلنا الكتاب عليك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ من ضلالهم، فيعرفون الحق فيؤثرونه.

﴿ 4 - 9 ﴾ ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ ﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته بخلق ﴿ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها الجمعة، مع قدرته على خلقها بلحظة، ولكنه تعالى رفيق حكيم ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، استواء يليق بجلاله ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ يتولاكم في أموركم فينفعكم ﴿ وَلَا شَفِيعٍ ﴾

يشفع لكم، إن توجه عليكم العقاب ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ فتعلمون أن خالق الأرض والسماوات، المستوي على العرش العظيم، الذي انفرد بتدبيركم، وتوليكم، وله الشفاعة كلها، هو المستحق لجميع أنواع العبادة ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ المتفرد بتدبيره ﴿ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ فَيُسْعِدُ ويُشْقِي، ويُغْنِي ويُفْقِرُ ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ أي الأمر ينزل من عنده، ويعرج إليه ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ وهو يعرج إليه، ويصله في لحظة ﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي خلق تلك المخلوقات العظيمة، الذي استوى على العرش العظيم، وانفرد بالتدابير هو ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أوجدها وأودع فيها من المنافع ما أودع، ولم يعسر عليه تدبيرها ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ وخلقه خلقًا يليق به ويوافقه ثم خص الآدمي لشرفه وفضله ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ وذلك بخلق آدم عليه السلام، أبي البشر ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ ﴾ ذرية آدم ناشئة ﴿ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ وهو النطفة الضعيفة ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ وأحسن خلقته ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾ بأن أرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ أي ما زال يعطيكم من المنافع شيئًا فشيئا، حتى أعطاكم السمع والأبصار ﴿ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ الذي خلقكم وصوركم.

﴿ 10 - 11 ﴾ ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ وَقَالُوا ﴾ المكذبون بالبعث على وجه الاستبعاد ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾ بَلِينَا وتمزقنا ﴿ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي لمبعوثون بعثًا جديدًا بزعمهم أن هذا من أبعد الأشياء، وذلك لقياسهم قدرة الخالق بقدرهم ﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ وإلا فلو كان قصدهم بيان الحق، لَبَيَّنَ لهم من الأدلة القاطعة على ذلك. ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ أي جعله الله وكيلاً على قبض الأرواح، وله أعوان ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازيكم بأعمالكم، وقد أنكرتم البعث، فانظروا ماذا يفعل الله بكم.

﴿ 12 - 14 ﴾ ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ * وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ﴾ الذين أصروا على الذنوب العظيمة ﴿ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ خاشعين خاضعين أذلاء، مقرين بجرمهم، سائلين الرجعة ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ بان لنا الأمر، ورأيناه عيانًا، فصار عين يقين ﴿ فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ صار عندنا الآن، يقين بما كنا نكذب به. أي لرأيت أمرا فظيعًا، وسؤلًا غير مجاب، لأنه قد مضى وقت الإمهال ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ لهدينا الناس كلهم وجمعناهم على الهدى،

فمشيئتنا صالحة لذلك، ولكن الحكمة، تأبى أن يكونوا كلهم على الهدى ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ أي وجب، وثبت ثبوتًا لا تغير فيه ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ فهذا الوعد، لا بد منه ولا محيد عنه، فلا بد من تقرير أسبابه من الكفر والمعاصي ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أي يقال للمجرمين، الذين سألوا الرجعة إلى الدنيا ليستدركوا ما فاتهم، قد فات وقت الرجوع ولم يبق إلا العذاب، فذوقوا العذاب الأليم، بما نسيتم لقاء يومكم هذا، وهذا النسيان نسيان ترك، أي: بما أعرضتم عنه، وتركتم العمل له، وكأنكم غير قادمين عليه، ولا ملاقيه ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ أي تركناكم بالعذاب، جزاء من جنس عملكم، فكما نَسِيتُمْ نُسِيتُمْ ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ أي العذاب غير المنقطع، عذاب جهنم أعاذنا الله منه ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من الكفر والفسوق والمعاصي.

﴿ 15 – 17 ﴾ ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ إيمانًا حقيقيًا، من يوجد منه شواهد الإيمان، وهم ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا ﴾ بآيات ربهم سمعوها فقبلوها، وانقادوا و ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ خاضعين لها، خضوع ذكر لله، وفرح بمعرفته ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ لا بقلوبهم ولا بأبدانهم، بل متواضعون لها قد تلقوها بالقبول والتسليم واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ أي ترتفع جنوبهم عن مضاجعها اللذيذة إلى ما هو ألذ عندهم منها وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل، ومناجاة الله تعالى ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ودفع مضارهما ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ خوفًا من عذاب الله وطمعًا في ثوابه ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ من الرزق، قليلاً كان أو كثيرًا ﴿ يُنْفِقُونَ ﴾ ولم يذكر قيد النفقة، ولا المنفق عليه، ليدل على العموم، فإنه يدخل فيه، النفقة الواجبة والنفقة المستحبة. وأما جزاؤهم، فقال ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ﴾ يدخل فيه جميع نفوس الخلق، لكونها نكرة في سياق النفي. أي فلا يعلم أحد ﴿ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ من الخير الكثير. فكما صلوا في الليل، ودعوا، وأخفوا العمل، جازاهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ 18 – 20 ﴾ ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾

﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا ﴾ قد عمر قلبه بالإيمان، وانقادت جوارحه لشرائعه ﴿ كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ﴾ قد خرب قلبه، وتعطل من الإيمان، وخرج بفسقه عن طاعة الله. أفيستوي هذان الشخصان ﴿ لَا يَسْتَوُونَ ﴾ عقلاً وشرعًا، وكذلك لا يستوي

ثوابهما في الآخرة ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ من فروض ونوافل ﴿ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى ﴾ مأوى اللذات والتمتع بقربه والنظر إلى وجهه ﴿ نُزُلًا ﴾ لهم أي ضيافة وقِرًى ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فأعمالهم التي تفضل الله بها عليهم هي التي أوصلتهم لتلك المنازل العالية ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ أي مقرهم النار التي جمعت كل عذاب وشقاء، ولا يُفَتَّرُ عنهم العقاب ساعة ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ فكلما حدثتهم إرادتهم بالخروج ردوا إليها، واشتد عليهم الكرب ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ فهذا عذاب النار، الذي يكون فيه مقرهم ومأواهم.

﴿ 21 ﴾ ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ ﴾ الفاسقين المكذبين نموذجًا ﴿ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى ﴾ وهو عذاب البرزخ، فنذيقهم طرفًا منه قبل أن يموتوا، كما جرى لأهل بدر من المشركين. وإما عند الموت، ثم يكمل لهم العذاب الأدنى في برزخهم. وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر، ودلالتها ظاهرة على أن ثَمَّ عذابًا أدنى ﴿ دُونَ ﴾ قبل ﴿ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾ وهو عذاب النار ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

﴿ 22 ﴾ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ أي لا أحد أظلم ممن ذكر بآيات ربه، التي أوصلها إليه ربه الذي يريد تربيته، وتكميل نعمته على أيدي رسله ﴿ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ وتركها وراء ظهره، فهذا من أكبر المجرمين، الذين يستحقون شديد النقمة ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾.

﴿ 23 - 25 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ الذي هو التوراة المصدقة للقرآن، التي قد صدقها القرآن ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾ لأنه قد تواردت أدلة الحق وبيناته، فلم يبق للشك والمرية محل ﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ أي الكتاب الذي آتيناه موسى ﴿ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ يهتدون به في أصول دينهم وفروعه وشرائعه موافقة لذلك الزمان في بني إسرائيل ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ ﴾ أي من بني إسرائيل ﴿ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ أي علماء بالشرع، مهتدين في أنفسهم، يهدون غيرهم بذلك الهدى ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ أي وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين، وهو العلم التام، الموجب للعمل. وثَمَّ مسائل اختلف فيها بنو إسرائيل، منهم من أصاب فيها الحق، ومنهم من أخطأه خطأ أو

عمدًا ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ وهذا القرآن يقص على بني إسرائيل، بعض الذي يختلفون فيه، فكل خلاف وقع بينهم، ووجد في القرآن تصديق لأحد القولين، فهو الحق، وما عداه مما خالفه، باطل.

﴿ 26 - 27 ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ أولم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسول ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ الذين سلكوا مسلكهم ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ فيشاهدونها عيانًا، كقوم هود، وصالح، وقوم لوط ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ يستدل بها على صدق الرسل التي جاءتهم، وبطلان ما هم عليه من الشرك والشر، وعلى أن من فعل مثل فعلهم، فُعِلَ بهم كما فُعِلَ بأشياعه من قبل ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ آيات الله فيعونها، فينتفعون بها ﴿ أَوَلَمْ يرَوْا ﴾ بأبصارهم نعمتنا، وكمال حكمتنا ﴿ أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ التي لا نبات فيها، فيسوق الله المطر، الذي لم يكن قبل موجودًا فيها، فيفرغه فيها، من السحاب، أو من الأنهار ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا ﴾ نباتًا، مختلف الأنواع ﴿ تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ ﴾ وهو نبات البهائم ﴿ وَأَنْفُسهمْ ﴾ وهو طعام الآدميين ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ تلك المنة التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستبصرون فيهتدون.

﴿ 28 - 30 ﴾ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ ﴾ الذي يفتح بيننا وبينكم، بتعذيبنا على زعمكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ ﴾ أيها الرسل ﴿ صَادِقِينَ ﴾ في دعواكم ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ ﴾ الذي يحصل به عقابكم، لا تستفيدون به شيئًا، فـ ﴿ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ ﴾ لأنه صار إيمان ضرورة ﴿ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ أي يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب، فيستدركون أمرهم ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ لما وصل خطابهم إلى حالة الجهل، واستعجال العذاب ﴿ وَانْتَظِرْ ﴾ الأمر الذي يحل بهم، فإنه لا بد منه، ولكن له أجل، إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾ بك ريب المنون، ومتربصون بكم دوائر السوء، والعاقبة للتقوى.

تم تفسير سورة السجدة

بحول الله ومنه

فله تعالى كمال الحمد والثناء والمجد.

33

مختصر تفسير سورة الأحزاب

عدد آياتها 73

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿1 - 3 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ يا أيها الذي منَّ الله عليه بالنبوة، واختصه بوحيه، وفضله على سائر الخلق، اشكر نعمة ربك عليك باستعمال تقواه، فامتثل أوامره ونواهيه، وبلغ رسالاته ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ ولا يصدنك عن هذا المقصود صاد فلا تطع كل كافر أظهر العداوة لله ورسوله ﴿ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ ولا منافق استبطن التكذيب والكفر وأظهر ضده ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا. وَ ﴾ لكن ﴿ اتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ فإنه هو الهدى والرحمة، وَارْجُ بذلك ثواب ربك ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فإنه بما تعملون خبير، يجازيكم بحسب ما يعلمه منكم، من الخير والشر ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ بأن تعتمد على ربك اعتماد من لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، وثق بالله ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ توكل إليه الأمور، فيقوم بها بما هو أصلح للعبد، وذلك لعلمه بمصالح عبده من حيث لا يعلم العبد، وقدرته على إيصالها إليه من حيث لا يقدر عليها العبد.

﴿4 - 5 ﴾ ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ فإياكم أن تقولوا عن أحد: إن له قلبين في جوفه، فتكونوا كاذبين على الخلقة الإلهية ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ ﴾ بأن يقول أحدكم لزوجته: "أنت عَلَيَّ كظهر أمي أو كأمي" فما جعلهن الله ﴿ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ فأمك من ولدتك، وصارت أعظم النساء عليك حرمة وتحريمًا، وزوجتك أحل

النساء لك، فكيف تشبه أحد المتناقضين بالآخر؟ هذا أمر لا يجوز ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ والأدعياء، الولد الذي كان الرجل يدعيه وهو ليس له، أو يُدْعَى إليه بسبب تبنيه إياه، كما كان الأمر بالجاهلية وأول الإسلام. فإن أبناءكم في الحقيقة من ولدتموهم وكانوا منكم، وأما هؤلاء الأدعياء من غيركم، فلا جعل الله هذا كهذا ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ القول الذي تقولون في الدعي ﴿ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ أي قول، لا حقيقة له ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ أي اليقين والصدق ﴿ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ لأنه لا يهدي إلا إلى السبيل المستقيمة ﴿ ادْعُوهُمْ ﴾ أي الأدعياء ﴿ لِآبَائِهِمْ ﴾ الذين ولدوهم ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي أعدل وأقوم وأهدى ﴿ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ ﴾ الحقيقيين ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ أي إخوتكم في دين الله ومواليكم في ذلك، فادعوهم بالأخوة الإيمانية الصادقة، والموالاة على ذلك. فترك الدعوة إلى من تبناهم حتم لا يجوز فعلها ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ﴾ بأن سبق على لسان أحدكم، دعوته إلى من تبناه، فهذا غير مؤاخذ به. أو علم أبوه ظاهرًا فدعوتموه إليه وهو في الباطن غير أبيه، فليس عليكم في ذلك حرج، إذا كان خطأ ﴿ وَلَكِنْ ﴾ يؤاخذكم ﴿ بِمَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ من الكلام بما لا يجوز ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ غفر لكم ورحمكم، حيث لم يعاقبكم بما سلف، وسمح لكم بما أخطأتم به، ورحمكم حيث بيَّن لكم أحكامه التي تصلح دينكم ودنياكم، فله الحمد تعالى.

﴿6 ﴾ ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ فالرسول أولى بهم من نفسهم. فلذلك وجب عليهم إذا تعارض مراد النفس، أو مراد أحد من الناس، مع مراد الرسول، أن يقدم مراد الرسول، وأن لا يعارض قول الرسول، بقول أحد. وترتب على أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين، أنهن لا يحللن لأحد من بعده ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ ﴾ الأقارب، قربوا أو بعدوا ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أي في حكمه، فيرث بعضهم بعضًا. فقطع تعالى توارث الأدعياء الذين كانوا من قبل يرثون بهذه الأسباب، دون ذوي الأرحام، وجعله للأقارب ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ أي سواء كان الأقارب مؤمنين مهاجرين وغير مهاجرين، فإن ذوي الأرحام مقدمون في ذلك ﴿ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾ أي ليس لهم حق مفروض، وإنما هو بإرادتكم إن شئتم أن تتبرعوا لهم تبرعًا، وتعطوهم معروفًا منكم ﴿ كَانَ ذَلِكَ ﴾ الحكم المذكور ﴿ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ أي قد سطر، وكتب، وقدره الله، فلا بد من نفوذه.

﴿7 – 8 ﴾ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾ يخبر تعالى أنه أخذ من النبيين عمومًا ﴿ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ ومن أولي العزم –وهم هؤلاء الخمسة المذكورون– خصوصًا، ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل المؤكد، على القيام بدين الله والجهاد في سبيله ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ وسيسأل الله الأنبياء وأتباعهم، عن هذا العهد الغليظ هل وفوا فيه، وصدقوا؟ فيثيبهم جنات النعيم ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أم كفروا فيعذبهم العذاب الأليم.

﴿ 9 - 11 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ يذكر تعالى عباده المؤمنين نعمته عليهم ويحثهم على شكرها﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ وتعاهدوا على استئصال الرسول والصحابة، في وقعة الخندق ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا. جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ جاءتهم جنود أهل مكة والحجاز من فوقهم، وأهل نجد من أسفل منهم، ومالأتهم طوائف [اليهود الذين حوالي المدينة. وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة، فحصروا المدينة واشتد الأمر ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ ﴾ أي الظنون السيئة، أن الله لا ينصر دينه، ولا يتم كلمته، ذلك لما رأوا من الأسباب المستحكمة والشدائد الشديدة، فلم يزل الحصار على المدينة مدة طويلة ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ بهذه الفتنة العظيمة ﴿ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ بالخوف والقلق والجوع، ليتبين إيمانهم، ويزيد إيقانهم. فظهر ولله الحمد من إيمانهم، وشدة يقينهم ما فاقوا فيه الأولين والآخرين. وعندما اشتد الكرب، وتفاقمت الشدائد، صار إيمانهم عين اليقين.

﴿12 - 17 ﴾ ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا* وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّـهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّـهِ مَسْئُولًا * قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّـهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّـهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ وهنالك تبين نفاق المنافقين، وظهر ما كانوا يضمرون. وهذه عادة المنافق عند الشدة والمحنة، لا يثبت إيمانه وينظر بعقله القاصر إلى الحالة

القاصرة ويصدق ظنه ﴿ إِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ﴾ من المنافقين، بعد ما جزعوا وقلَّ صبرهم، وصاروا من المخذولين ولا تركوا الناس من شرهم، فقالت هذه الطائفة ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ يريدون أهل المدينة نادوهم باسم الوطن إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية ليس له في قلوبهم قدر ﴿ لَا مُقَامَ لَكُمْ ﴾ في موضعكم الذي خرجتم إليه خارج المدينة، وكانوا عسكروا دون الخندق، وخارج المدينة ﴿ فَارْجِعُوا ﴾ إلى المدينة. فهذه الطائفة تخذل عن الجهاد، وتبين أنهم لا قوة لهم بقتال عدوهم، ويأمرونهم بترك القتال. فهذه الطائفة شر الطوائف وأضرها. وطائفة أخرى دونهم ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ أي عليها الخطر، ونخاف عليها أن يهجم عليها الأعداء ونحن غُيَّبٌ عنها، فَأْذَنْ لنا نرجع إليها فنحرسها، وهم كذبة في ذلك ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ ﴾ أي ما قصدهم ﴿ إِلَّا فِرَارًا ﴾ ولكن جعلوا هذا الكلام وسيلة وعذرًا ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ المدينة ﴿ مِنْ أَقْطَارِهَا ﴾ أي لو دخل الكفار إليها من نواحيها، واستولوا عليها -لا كان ذلك ﴿ ثُمَّ سُئِلُوا ﴾ سئل هؤلاء ﴿ الْفِتْنَةَ ﴾ أي الانقلاب عن دينهم، والرجوع إلى دين المستولين المتغلبين ﴿ لَآتَوْهَا ﴾ أي لأعطوها مبادرين ﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴾ أي ليس لهم منعة ولا تَصلُّبٌ على الدين، بل بمجرد ما تكون الدولة للأعداء، يعطونهم ما طلبوا، ويوافقونهم على كفرهم، وهذه حالهم. رغم ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ سيسألهم عن ذلك العهد، فيجدهم قد نقضوه ﴿ قُلْ ﴾ لهم لائمًا على فرارهم، ومخبرًا أنهم لا يفيدهم ذلك شيئًا ﴿ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ﴾ فلو كنتم في بيوتكم، لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعكم ﴿ وَإِذًا ﴾ حين فررتم لتسلموا من الموت والقتل، ولتنعموا في الدنيا فإنكم ﴿ لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ متاعًا، لا يسوى فراركم وترككم أمر الله، وتفويتكم على أنفسكم التمتع الأبدي في النعيم السرمدي ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ ﴾ يمنعكم ﴿ من اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا ﴾ شرًا ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ فإنه هو المعطي المانع الضار النافع، الذي لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفع السوء إلا هو ﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا ﴾ يتولاهم، فيجلب لهم النفع ﴿ وَلَا نَصِيرًا ﴾ ينصرهم، فيدفع عنهم المضار.

﴿18-20﴾ ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّـهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَـٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّـهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّـهِ يَسِيرًا * يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ ﴾ عن الخروج لمن لم يخرجوا ﴿ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ الذين خرجوا ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ أي ارجعوا. وهم مع تعويقهم وتخذيلهم ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ ﴾ أي القتال والجهاد بأنفسهم ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فهم أشد الناس حرصًا على التخلف ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ بأبدانهم عند القتال، وبأموالهم عند النفقة فيه، فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى ﴾ نظر المغشى عليه ﴿ مِنَ

﴿ الْمَوْتِ ﴾ من شدة الجبن والقلق وخوفًا من إجبارهم على ما يكرهون من القتال ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ ﴾ وصاروا في حال الأمن والطمأنينة ﴿ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ خاطبوكم بكلام حديد، ودعاوى غير صحيحة ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ﴾ الذي يراد منهم، وهذا شر ما في الإنسان، أن يكون شحيحًا بماله وبدنه وبجاهه وبعلمه ونصيحته ورأيه ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الذين بتلك الحالة ﴿ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ فأحبط الله أعمالهم ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ وأما المؤمنون فقد وقاهم الله شح أنفسهم، ووفقهم لبذل ما أمروا به ﴿ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ أي يظنون أن هؤلاء الأحزاب، الذين تحزبوا على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، لم يذهبوا حتى يستأصلوهم، فخاب ظنهم، وبطل حسبانهم ﴿ وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ ﴾ مرة أخرى ﴿ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ ﴾ أي لو أتى الأحزاب مرة ثانية مثل هذه المرة، ودَّ هؤلاء المنافقون، أنهم ليسوا في المدينة، ولا في القرب منها، وأنهم مع الأعراب في البادية، يستخبرون عن أخباركم، ويسألون عن أنبائكم، ماذا حصل عليكم؟ فتبًا لهم وبعدًا، فليسوا ممن يبالى بحضورهم ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فلا تبالوهم، ولا تأسوا عليهم.

﴿21 - 24﴾ ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّـهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّـهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّـهَ كَثِيرًا * وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّـهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّـهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا * مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّـهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا * لِّيَجْزِيَ اللَّـهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّـهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ فكيف تشحون بأنفسكم، عن أمر جاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، بنفسه فيه؟ ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّـهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّـهَ كَثِيرًا ﴾ واستدل الأصوليون في هذه الآية أن الأصل أن أمته أسوته في الأحكام، إلا ما دل الدليل الشرعي على الاختصاص به ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ ﴾ الذين تحزبوا، ونزلوا منازلهم، وانتهى الخوف ﴿ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ فإنا رأينا ما أخبرنا به ﴿ وَمَا زَادَهُمْ ﴾ ذلك الأمر ﴿ إِلَّا إِيمَانًا ﴾ في قلوبهم ﴿ وَتَسْلِيمًا ﴾ في جوارحهم، وانقيادًا لأمر الله ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ أي وفوا به وأتموه وأكملوه ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ﴾ أي إرادته ومطلوبه وما عليه من الحق، فقتل في سبيل الله أو مات مؤديًا لحقه، لم ينقصه شيئاً ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ تكميل ما عليه، فهو شارع في قضاء ما عليه ووفاء نحبه ولما يكمله ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ كما بدل غيرهم، بل لم يزالوا على العهد لا يلوون ولا يتغيرون ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أي بسبب صدقهم، في أقوالهم وأحوالهم ومعاملتهم مع الله، واستواء ظاهرهم وباطنهم. والمعنى: قدرنا ما قدرنا، من هذه الفتن والمحن والزلازل، ليتبين الصادق من الكاذب، فيجزي الصادقين بصدقهم ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ الذين تغيرت قلوبهم وأعمالهم عند حلول الفتن، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه ﴿ إِنْ شَاءَ ﴾ تعذيبهم، بأن لم يشأ هدايتهم، بل علم أنهم لا خير فيهم، فلم يوفقهم ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ بأن يوفقهم للتوبة والإنابة، وهذا هو الغالب على كرم الكريم،

ولهذا ختم الآية باسمين دالين على المغفرة والفضل والإحسان ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا ﴾ غفورًا لذنوب المسرفين على أنفسهم، ولو أكثروا من العصيان، إذا أتوا بالمتاب ﴿ رَحِيمًا ﴾ بهم، حيث وفقهم للتوبة، ثم قبلها منهم، وستر عليهم ما اجترحوه.

﴿25 - 27 ﴾ ﴿ وَرَدَّ اللَّـهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّـهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّـهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّـهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾ ردهم خائبين، لم يحصل لهم الأمر الذي كانوا حنقين عليه. فأرسل الله عليهم ريحًا عظيمة، وهي ريح الصبا، فزعزعت مراكزهم وأزعجتهم، وضربهم الله بالرعب، فانصرفوا بغيظهم، وهذا من نصر الله لعباده المؤمنين ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ بما صنع لهم من الأسباب العادية والقدرية ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ لا يغالبه أحد إلا غُلِبَ، ولا يستنصره أحد إلا غَلَبَ، ولا يعجزه أمر أراده ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ ﴾ أي عاونوهم ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ أي اليهود ﴿ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ أنزلهم من حصونهم، نزولاً مظفورًا بهم، مجعولين تحت حكم الإسلام ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ فلم يقووا على القتال، بل استسلموا وخضعوا وذلوا ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ وهم الرجال المقاتلون ﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ مَنْ عداهم من النساء والصبيان ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ ﴾ أي غنَّمكم ﴿ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا ﴾ أي أرضا كانت من قبل، من شرفها وعزتها عند أهلها، لا تتمكنون من وطئها، فمكنكم الله وخذلهم وغنمتم أموالهم وقتلتموهم وأسرتموهم ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ لا يعجزه شيء، ومن قدرته، قدَّر لكم ما قدر[1].

﴿28 - 29 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

﴿ يَا[2] أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ليس لكن في غيرها مطلب، فليس لي فيكن أرب وحاجة وأنتن بهذه الحال ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ ﴾ شيئا مما عندي، من الدنيا ﴿ وَأُسَرِّحْكُنَّ ﴾ أي أفارقكن ﴿ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ بسعة صدر ﴿ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ﴾ أي هذه الأشياء مرادكن، وإذا حصل لَكُنَّ الله

---

1 وكانت هذه الطائفة من أهل الكتاب، هم بنو قريظة من اليهود، في قرية غير بعيدة خارج المدينة. وكان النبي صلى الله عليه وسلم حين هاجر إلى المدينة، هادنهم، وهم باقون على دينهم. فلما رأوا يوم الخندق الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله وكثرتهم، وقلة المسلمين، وساعد على ذلك تدجيل بعض رؤسائهم عليهم، فنقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومالؤوا المشركين على قتاله. فلما خذل الله المشركين تفرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم لقتالهم، فحاصرهم في حصنهم. فنزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتغنم أموالهم. فأتم الله لرسوله والمؤمنين المنة، بخذلان من انخذل من أعدائهم.

2 لما اجتمع نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغيرة، وطلبن منه النفقة والكسوة، طلبن منه أمرًا لا يقدر عليه في كل وقت، ولم يزلن في طلبهن متفقات، في مرادهن متعنتات، شَقَّ ذلك على الرسول، حتى وصلت به الحال إلى أنه آلى منهن شهرًا. فأراد الله أن يسهل الأمر على رسوله، وأن يرفع درجة زوجاته، ويُذْهِبَ عنهن كل أمر ينقص أجرهن، فأمر رسوله أن يخيرهن: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ.....

ورسوله والجنة، وقنعتن من رسول الله بما تيسر، ولم تطلبن منه ما يشق عليه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ رتب الأجر على وصفهن بالإحسان لأنه السبب الموجب لذلك، لا لكونهن زوجات للرسول فإن مجرد ذلك لا يفيد شيئًا مع عدم الإحسان، فخيَّرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك، فاخترن الله ورسوله، والدار الآخرة، كلهن، ولم يتخلف منهن واحدة، رضي الله عنهن.

تفسير الجزء الثاني والعشرون 22

﴿30 - 31 ﴾ ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا *وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ ذكر مضاعفة وزرهن وإثمهن لو جرى منهن، ليزداد حذرهن، وشكرهن الله تعالى، فجعل من أتى منهن بفاحشة ظاهرة، لها العذاب ضعفين ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ ﴾ أي تطيع ﴿ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ قليلا أو كثيرًا ﴿ نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ مثل ما نعطي غيرها مرتين ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ وهي الجنة، فقنتن لله ورسوله وعملن صالحًا، فعلم بذلك أجرهن.

﴿32 - 34 ﴾ ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ ﴾ خطاب لهن كلهن ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ﴾ الله، فإنكن بذلك تفقن النساء، فكملن التقوى بجميع وسائلها ومقاصدها. فلهذا أرشدهن إلى قطع وسائل المحرم ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ ولم يقل: "فلا تَلِنَّ بالقول" في مخاطبة الرجال، وتتكلمن بكلام رقيق فيه خضوع يدعو ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ أي مرض شهوة الزنا، فإنه مستعد، ينظر أدنى محرك يحركه، لأن قلبه غير صحيح لا يتحمل ما يتحمل الصحيح. فأدنى سبب يدعوه إلى الحرام، يجيب دعوته. فهذا دليل على أن الوسائل، لها أحكام المقاصد. ولهذا ينبغي للمرأة أن لا تلينَ القول في مخاطبة الرجال. ولما نهاهن عن الخضوع في القول، فربما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول، دفع هذا بقوله ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ أي غير غليظ، ولا جاف كما أنه ليس بلَيِّنٍ خاضع[3] ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾

[3] ودل قوله: { فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ } أنه ينبغي للعبد، إذا رأى من نفسه هذه الحالة، وأنه يهش لفعل المحرم ويجد دواعي طمعه قد انصرفت إلى الحرام، فَلْيَعْرِفْ أن ذلك مرض. فَلْيَجْتَهِدْ في إضعافه ومجاهدة نفسه على سلامتها من هذا الخطر، وسؤال الله العصمة والتوفيق، وأن ذلك من حفظ الفرج المأمور به.

اقررن فيها، لأنه أسلم وأحفظ لَكُنَّ ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ لا تخرجن متجملات أو متطيبات، كأهل الجاهلية الأولى، فكل هذا دفع للشر وأسبابه ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ثم أمرهن بالطاعة عمومًا، ويدخل في طاعة الله ورسوله كل أمر إيجاب أو استحباب ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ ﴾ بأمركن بما أَمَرَكُنَّ به، ونهيكن بما نهاكُنَّ عنه ﴿ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ ﴾ أي الأذى والشر والخبث، يا ﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ حتى تكونوا طاهرين مطهرين ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ والمراد بآيات الله القرآن. والحكمة أسراره وسنة رسوله. وأمرهن بذكره، يشمل ذكر لفظه بتلاوته، وذكر معناه بتدبره والتفكر فيه، واستخراج أحكامه وحكمه، وذكر العمل به وتأويله ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ يدرك أسرار الأمور، وخبايا السماوات والأرض، فلطفه وخبرته، يقتضي حثهن على الإخلاص وإسرار الأعمال، ومجازاة الله على تلك الأعمال. واللطيف الذي يسوق عبده إلى الخير، ويعصمه من الشر، ما يكون ذلك طريقا له إلى أعلى الدرجات.

﴿ 35 ﴾ ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ ولما كان حكمهن والرجال واحدًا، جعل الحكم مشتركًا وهذا في الشرائع الظاهرة، إذا كانوا قائمين بها ﴿ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ وهذا في الأمور الباطنة، من عقائد القلب وأعماله ﴿ وَالْقَانِتِينَ ﴾ أي المطيعين لله ولرسوله ﴿ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ ﴾ في مقالهم وفعالهم ﴿ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ ﴾ على الشدائد والمصائب ﴿ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ ﴾ في جميع أحوالهم، خصوصًا في عباداتهم وصلواتهم ﴿ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ فرضًا ونفلاً ﴿ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ﴾ شمل ذلك الفرض والنفل ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ ﴾ عن الزنا ومقدماته ﴿ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ أي في أكثر الأوقات، خصوصًا أوقات الأوراد المقيدة كالصباح والمساء، وأدبار الصلوات المكتوبات ﴿ وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ أي لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة فجازاهم على عملهم بالـ ﴿ مَغْفِرَةً ﴾ لذنوبهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات ﴿ وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ لا يقدر قدره، إلا الذي أعطاه، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

﴿ 36 ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ لا ينبغي ولا يليق بمؤمن ولا مؤمنة ﴿ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ﴾ من الأمور، وحتّما به وألزما به ﴿ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ أي الخيار، هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة

أن الرسول أولى به من نفسه، فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجابًا بينه وبين أمر الله ورسوله ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ أي بَيّنًا، لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله إلى غيرها، من الطرق الموصلة للعذاب الأليم.

﴿ 37 ﴾ ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

﴿ وَإِذْ[4] تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ بالإسلام ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ بالعتق حين جاءك مشاورًا في فراقها، فقلت له ناصحًا له ومخبرًا بمصلحته مع وقوعها في قلبك ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ أي لا تفارقها، واصبر على ما جاءك منها ﴿ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ تعالى في أمورك عامة، وفي أمر زوجك خاصة، فإن التقوى تحث على الصبر، وتأمر به ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ والذي أخفاه أنه لو طلقها زيد لتزوجها صلى الله عليه وسلم ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ في عدم إبداء ما في نفسك ﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ وأن لا تباليهم شيئًا ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا ﴾ أي طابت نفسه، ورغب عنها وفارقها ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ وإنما فعلنا ذلك لفائدة عظيمة هي ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ ﴾ حيث رأوك تزوجت، زوج زيد بن حارثة الذي كان من قبل ينتسب إليك. وقد قيد ذلك بانقضاء وطره منها ﴿ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أي لا بد من فعله، ولا عائق له. وفي هذه الآيات فوائد منها[5]

﴿38 – 39 ﴾ ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا * الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي إثم وذنب ﴿ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ أي قدر له من الزوجات، فإن هذا، قد أباحه الله للأنبياء قبله ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ أي لا بد من وقوعه ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ

---

4 كان زيد بن حارثة يدعى "زيد بن محمد" قد تبناه النبي صلى الله عليه وسلم، فصار يدعى إليه حتى نزل {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ} فقيل له: "زيد بن حارثة". وكانت تحته زينب بنت جحش، ابنة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان قد وقع في قلب الرسول، لو طلقها زيد، لتزوَّجها. فقدر الله أن يكون بينها وبين زيد، ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في فراقها.
قال الله: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي...

5- الثناء على زيد بن حارثة أن الله سماه في القرآن، ولم يسم من الصحابة باسمه غيره.
- أن المحبة التي في قلب العبد لغير زوجته ومملوكته ومحارمه، إذا لم يقترن بها محذور، لا يأثم عليها العبد. ولو اقترن بذلك أمنيته، أن لو طلقها زوجها، لتزوجها من غير أن يسعى في فرقة بينهما.
- أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يدع شيئًا مما أوحي إليه إلا وبلغه، حتى هذا الأمر، الذي فيه عتابه.
- أن المستشار إذا استشير في أمر من الأمور- أن يشير بما يعلمه أصلح للمستشير، وتقدم مصلحة المستشير على هوى نفسه وغرضه.
- أن من الرأي الحسن لمن استشار في فراق زوجته أن يؤمر بإمساكها مهما أمكن صلاح الحال، فهو أحسن من الفرقة.
- فضيلة زينب رضي الله عنها أم المؤمنين، حيث تولى الله تزويجها من رسوله صلى الله عليه وسلم، ولهذا كانت تفتخر بذلك على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقول زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات.

﴿ رِسَالَاتِ اللَّهِ ﴾ فيتلون على العباد آيات الله ويدعونهم إلى الله ﴿ وَيَخْشَوْنَهُ ﴾ وحده لا شريك له ﴿ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ محاسبًا عباده، مراقبًا أعمالهم.

﴿ 40 ﴾ ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ ﴾ لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ أيها الأمة فقطع انتساب زيد بن حارثة منه. وقد كان تقرر فيما تقدم أن الرسول صلى الله عليه وسلم أب للمؤمنين كلهم، وأزواجه أمهاتهم، فاحترز أن يدخل في هذا النوع، بعموم النهي المذكور، فقال ﴿ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ المطاع المتبوع، المهتدى به كأنه أب لهم ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أي قد أحاط علمه بجميع الأشياء، ويعلم حيث يجعل رسالاته، ومن يصلح لفضله، ومن لا يصلح.

﴿41 - 44 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ يأمر تعالى المؤمنين بذكره ذكرا كثيرًا، من كل قول فيه قربة إلى الله في جميع الأوقات، على جميع الأحوال، فإن ذلك عبادة وداع إلى محبة الله ومعرفته، وعون على الخير، وكف اللسان عن الكلام القبيح ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أول النهار وآخره لفضلها وشرفها ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم، أن جعل من صلاته عليهم وثنائه، وصلاة ملائكته ودعائهم، ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل، إلى نور الإيمان والتوفيق والعلم والعمل. فهذه أعظم نعمة تستدعي منهم شكرها، والإكثار من ذكر الله ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ فهذه رحمته بهم في الآخرة: الفوز برضا ربهم وتحيته، واستماع كلامه الجليل، ورؤية وجهه الجميل.

﴿ 45 - 48 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا * وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ هذه الأشياء، التي وصف الله بها رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم هي المقصود من رسالته، وهي خمسة أشياء، كونه: ﴿ شَاهِدًا ﴾ على أمته بما عملوه من خير وشر، فهو صلى الله عليه وسلم شاهد عدل مقبول ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ والمبشَّر هم المؤمنون المتقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح وترك المعاصي ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ والْمنْذَر هم المجرمون الظالمون ينذرهم بالعقوبات الدنيوية والدينية، وفي الأخرى بالعقاب الوبيل ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ ﴾ أرسله ليدعو الخلق إلى ربهم بأقرب طريق موصل إليه، وإخلاص الدعوة إلى الله ﴿

﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ فأضاء الله به الظلمات، وهدى به ضُلَّالًا إلى الصراط المستقيم ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ المبشَّرون هم المؤمنون. وعند ذكر الإيمان بمفرده تدخل فيه الأعمال الصالحة. والمبشَّر به هو الفضل الكبير من النصر في الدنيا وهداية القلوب وغفران الذنوب وكشف الكروب وكثرة الأرزاق الدَّارَّة وحصول النعم السارة، والفوز برضا ربهم وثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ فلا تطعهم في كل أمر يصد عن سبيل الله ﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ ولكن لا يقتضي هذا أذاهم. فإن ذلك جالب لهم، وداع إلى قبول الإسلام، وإلى كف كثير من أذيتهم له ولأهله ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ في إتمام أمرك، وخذلان عدوك ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ تُوكَلُ إليه الأمور المهمة فيسهلها على عبده.

﴿ 49 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ فليس عليهن في ذلك عدة يعتدها أزواجهن عليهن ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ وأمرهم بتمتيعهن بهذه الحالة بشيء من متاع الدنيا، الذي يكون فيه جبر لخواطرهن لأجل فراقهن ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ وأن يفارقوهن فراقًا جميلاً من غير مخاصمة ولا مشاتمة ولا مطالبة، ولا غير ذلك. وهل المراد بالدخول والمسيس، الوطء كما هو مجمع عليه؟ أو وكذلك الخلوة، ولو لم يحصل معها وطء، كما أفتى بذلك الخلفاء الراشدون، وهو الصحيح. فمن دخل عليها، وطئها، أم لا، إذا خلا بها، وجب عليها العدة.

﴿50﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي أعطيتهن مهورهن من الزوجات، وهذا من الأمور المشتركة بينه وبين المؤمنين ﴿ وَ ﴾ كذلك أحللنا لك ﴿ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ أي الإماء التي ملكت ﴿ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ من غنيمة الكفار من عبيدهم، والأحرار من لهن زوج منهم، ومن لا زوج لهن. وكذلك من المشترك قوله ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ ﴾ القريبين والبعيدين، وهذا حصر المحللات. يؤخذ من مفهومه أن ما عداهن من الأقارب غير محلل، كما تقدم في سورة النساء. فإنه لا يباح من الأقارب من النساء غير هؤلاء الأربع، وما عداهن من الفروع مطلقًا، والأصول مطلقًا، وفروع الأب والأم، وإن نزلوا، وفروع من فوقهم لصلبه، فإنه

لا يباح. وقوله ﴿ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ قيد لحل هؤلاء للرسول، كما هو الصواب من القولين، في تفسير هذه الآية، وأما غيره عليه الصلاة والسلام، فقد علم أن هذا قيد لغير الصحة ﴿ و ﴾ أحللنا لك ﴿ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ بمجرد هبتها نفسها ﴿ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ﴾ أي هذا تحت الإرادة والرغبة ﴿ خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني إباحة الموهبة، وأما المؤمنون فلا يحل لهم أن يتزوجوا امرأة، بمجرد هبتها نفسها لهم ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أي قد علمنا ما على المؤمنين ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ وهذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أي لم يزل متصفًا بالمغفرة والرحمة، وينزل على عباده من مغفرته ورحمته وجوده ما اقتضته حكمته، ووجدت منهم أسبابه.

﴿51﴾ ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾

﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ أي تؤخر من أردت من زوجاتك فلا تؤويها إليك، ولا تبيت عندها ﴿ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ أي تضمها وتبيت عندها ﴿ وَ ﴾ مع ذلك لا يتعين هذا الأمر ﴿ مَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ ﴾ أي أن تؤويها ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ والمعنى أن الخيرة بيدك في ذلك كله. وقال كثير من المفسرين: إن هذا خاص بالواهبات، له أن يزجي من يشاء ويؤوي من يشاء، أي إن شاء قبل من وهبت نفسها له، وإن شاء لم يقبلها، والله أعلم. ثم بين الحكمة في ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي التوسعة عليك، وكون الأمر راجعًا إليك وبيدك، وكون ما جاء منك إليهن تبرعًا منك ﴿ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ لعلمهن أنك لم تترك واجبًا، ولم تفرط في حق لازم ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة والمستحبة، وعند المزاحمة في الحقوق، فلذلك شرع لك التوسعة يا رسول الله، لتطمئن قلوب زوجاتك ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ أي واسع العلم، كثير الحلم.

﴿52﴾ ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ زوجاتك الموجودات ﴿ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾ أي ولا تطلق بعضهن، فتأخذ بدلها. فحصل بهذا أمنهن من الضرائر ومن الطلاق، لأن الله قضى أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، لا يكون بينه وبينهن فرقة ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ أي حسن غيرهن، فلا يحللن لك ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ أي السراري، فذلك جائز لك، لأن المملوكات، في كراهة الزوجات، لسن بمنزلة الزوجات، في الإضرار للزوجات ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾ أي مراقبًا للأمور، وعالمًا بما إليه تؤول، وقائمًا بتدبيرها على أكمل نظام، وأحسن إحكام.

﴿53 - 54 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا * إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ ﴾ أي لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها، لأجل الطعام. وأيضًا لا تكونوا ﴿ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ أي منتظرين ومتأنين لانتظار نضجه، أو سعة صدر بعد الفراغ منه. والمعنى: الإذن لكم بالدخول، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة، ولهذا قال ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ أي قبل الطعام وبعده. ثم بين حكمة النهي وفائدته ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ ﴾ أي انتظاركم الزائد على الحاجة ﴿ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ ﴾ أي يتكلف منه ويشق عليه حبسكم إياه عن شئون بيته، واشتغاله فيه ﴿ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ﴾ أن يقول لكم اخرجوا، فأهل الكرم منهم يستحيون أن يخرجوا الناس من مساكنهم ﴿ وَ ﴾ لكن ﴿ اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ وأما أدبهم معه في خطاب زوجاته ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ أي يكون بينكم وبينهن ستر، يستر عن النظر، لعدم الحاجة إليه. فصار النظر إليهن ممنوعًا بكل حال، ثم ذكر حكمة ذلك بقوله ﴿ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ لأنه أبعد عن الريبة، وكلما بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر، فإنه أسلم له، وأطهر لقلبه. ثم قال كلمة جامعة وقاعدة عامة ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ ﴾ أي غير لائق ولا مستحسن منكم يا معشر المؤمنين ﴿ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾ أي أذية قولية أو فعلية، بجميع ما يتعلق به ﴿ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ﴾ هذا من جملة ما يؤذيه، فإنه صلى الله عليه وسلم، له مقام التعظيم وتزوج زوجاته بعده مخل بهذا المقام ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ وقد امتثلت هذه الأمة، هذا الأمر، واجتنبت ما نهى الله عنه منه، ولله الحمد والشكر ﴿ إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا ﴾ أي تظهروه ﴿ أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ يعلم ما في قلوبكم، وما أظهرتموه، فيجازيكم عليه.

﴿ 55 ﴾ ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ ﴾ في عدم الاحتجاب ﴿ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ ﴾ لما ذكر أنهن لا يسألن متاعًا إلا من وراء حجاب، وكان اللفظ عامًا لكل أحد احتيج أن يستثنى منه هؤلاء المذكورون من المحارم. ولم يذكر فيها الأعمام والأخوال لأنهن إذا لم يحتجبن عمن هن عماته ولا خالاته، من أبناء الإخوة والأخوات، مع رفعتهن عليهم، فعدم احتجابهن عن عمهن وخالهن، من باب أولى، ولأن منطوق الآية

الأخرى، المصرحة بذكر العم والخال، مقدمة، على ما يفهم من هذه الآية. وقوله ﴿ وَلَا نِسَائِهِنَّ ﴾ أي لا جناح عليهن ألا يحتجبن عن نسائهن، أي اللاتي من جنسهن في الدين، فيكون ذلك مخرجًا لنساء الكفار، ويحتمل أن المراد جنس النساء، فإن المرأة لا تحتجب عن المرأة ﴿ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ ما دام العبد في ملكها جميعه. ولما رفع الجناح عن هؤلاء، شرط فيه وفي غيره، لزوم تقوى الله، وأن لا يكون في محذور شرعي ﴿ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ﴾ أي استعملن تقواه في جميع الأحوال ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ يشهد أعمال العباد، ظاهرها وباطنها، ويسمع أقوالهم، ويرى حركاتهم، ثم يجازيهم على ذلك، أتم الجزاء وأوفاه.

﴿ 56 ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ ﴾ تعالى ﴿ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ يثني الله عليه بين الملائكة، وفي الملأ الأعلى، لمحبته تعالى له، وتثني عليه الملائكة المقربون، ويدعون له ويتضرعون ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ اقتداء بالله وملائكته، وجزاء له على بعض حقوقه عليكم، وتكميلاً لإيمانكم، وتعظيمًا له صلى الله عليه وسلم، ومحبة وإكرامًا، وزيادة في حسناتكم، وتكفيرًا من سيئاتكم. وهذا الأمر بالصلاة والسلام[6] عليه مشروع في جميع الأوقات، وأوجبه كثير من العلماء في الصلاة.

﴿57 – 58 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وهذا يشمل كل أذية، قولية أو فعلية، من سب وشتم أو تنقص له أو لدينه أو ما يعود إليه بالأذى ﴿ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ أي أبعدهم وطردهم، ومن لعنهم في الدنيا أنه يحتم قتل من شتم الرسول وآذاه ﴿ وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ جزاء له على أذاه، أن يؤذى بالعذاب الأليم. فأذية الرسول، ليست كأذية غيره. فلا يؤمن العبد بالله، حتى يؤمن برسوله صلى الله عليه وسلم. كذلك فإن أذية المؤمنين عظيمة، وإثمها عظيمًا ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ﴾ بغير جناية منهم موجبة للأذى ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا ﴾ على ظهورهم ﴿ بُهْتَانًا ﴾ حيث آذوهم بغير سبب ﴿ وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ حيث تعدوا عليهم، وانتهكوا حرمة أمر الله باحترامها. ولهذا فتعزير من سب الصحابة أبلغ، وتعزير من سب العلماء، وأهل الدين، أعظم من غيرهم.

[6] وأفضل هيئات الصلاة عليه عليه الصلاة والسلام، ما علم به أصحابه: "اللّهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد"

﴿59 - 62﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذه الآية، التي تسمى آية الحجاب، فأمر الله نبيه، أن يأمر النساء عمومًا، ويبدأ بزوجاته وبناته، لأنهن آكد من غيرهن، ولأن الآمر لغيره ينبغي أن يبدأ بأهله، قبل غيرهم أن ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ وهن اللاتي يكن فوق الثياب من ملحفة وخمار ورداء ونحوه، أي يغطين بها، وجوههن وصدورهن. ثم ذكر الحكمة من هذا ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ دل على وجود أذية، إن لم يحتجبن، وذلك، لأنهن إذا لم يحتجبن، ربما ظن أنهن غير عفيفات، فيتعرض لهن من في قلبه مرض، فيؤذيهن، وربما تهاون بهن من يريد الشر. فالاحتجاب حاسم لمطامع الطامعين فيهن ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ حيث غفر لكم ما سلف، ورحمكم، بأن بين لكم الأحكام، وأوضح الحلال والحرام، فهذا سد للباب من جهتهن. وأما من جهة أهل الشر فقد توعدهم ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي مرض شك أو شهوة ﴿ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ المخوفون المحدثون بكثرتهم وقوتهم وضعف المسلمين ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ نأمرك بعقوبتهم وقتالهم، ونسلطك عليهم، ثم إذا فعلنا ذلك، لا طاقة لهم بك، وليس لهم قوة ولا امتناع ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ لا يجاورونك في المدينة إلا قليلاً، بأن تقتلهم أو تنفيهم. وهذا فيه دليل لنفي أهل الشر الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين، فإن ذلك أحسم للشر ويكونون ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴾ أي مبعدين أين وجدوا، لا يحصل لهم أمن، يخشون أن يقتلوا أو يحبسوا أو يعاقبوا ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ أن من تمادى في العصيان وتجرأ على الأذى ولم ينته منه، فإنه يعاقب عقوبة بليغة ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أي تغييرًا، بل سنته تعالى وعادته، جارية مع الأسباب المقتضية لأسبابها.

﴿ 63 - 68 ﴾ ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا * إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ يستخبرك الناس عن الساعة استعجالاً لها، وبعضهم تكذيبًا لوقوعها، وتعجيزًا للذي أخبر بها ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ لا يعلمها إلا الله، فليس لي، ولا لغيرى بها علم، ومع هذا

فلا تستبطؤوها ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ ومجرد مجيء الساعة، قرباً وبعدًا، ليس تحته نتيجة ولا فائدة، وإنما النتيجة والربح والشقا: هل يستحق العبد العذاب، أو يستحق الثواب؟ فهذه سأخبركم بها، وأصف لكم مستحقها. فوصف مستحق العذاب، ووصف العذاب، لأن الوصف المذكور، منطبق على هؤلاء المكذبين بالساعة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ ﴾ بالله وبرسله، فأبعدهم في الدنيا والآخرة من رحمته، وكفى بذلك عقابًا ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ نارًا موقدة، تسعر في أجسامهم ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ يخلدون في ذلك العذاب الشديد، ولا يُفَتَّر عنهم ساعة ﴿ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا ﴾ فيعطيهم ما طلبوه ﴿ وَلَا نَصِيرًا ﴾ يدفع عنهم العذاب ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ فيذوقون حرها، ويشتد عليهم أمرها، ويتحسرون على ما أسلفوا ﴿ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ ﴾ فسلمنا من هذا العذاب. ولكن أمنية فات وقتها، فلم تفدهم إلا حسرة وندمًا ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا ﴾ وقلدناهم على ضلالهم ﴿ فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴾ ولما علموا أنهم هم وكبراء هم مستحقون للعقاب، أرادوا أن يشتفوا ممن أضلوهم ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ فيقول الله لكل ضعف، فكلكم اشتركتم في الكفر والمعاصي، فتشتركون في العقاب، وإن تفاوت عذاب بعضكم على بعض بحسب تفاوت الجرم.

﴿ 69 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى ﴾ يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أذية رسولهم محمد صلى الله عليه وسلم، فيقابلوه بضد ما يجب له من الإكرام والاحترام، وأن لا يتشبهوا بحال الذين آذوا موسى بن عمران، كليم الرحمن ﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ من الأذية، أي أظهر الله لهم براءته ﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ فاحذروا أيها المؤمنون أن تتشبهوا بهم في ذلك[7].

﴿ 70 – 71 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ يأمر تعالى المؤمنين بتقواه في جميع أحوالهم، في السر والعلانية، ويخص منها القول الموافق للصواب، أو المقارب له، عند تعذر اليقين، وسلوك كل طريق يوصل لذلك. ومن القول السديد لين الكلام ولطفه، في مخاطبة الأنام، والقول المتضمن للنصح والإشارة بما هو الأصلح ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ

[7] والأذية المشار إليها هي قول بني إسرائيل لموسى لما رأوا شدة حيائه وتستره عنهم: "إنه ما يمنعه من ذلك إلا أنه آدر" أي: كبير الخصيتين، واشتهر ذلك عندهم، فأراد الله أن يبرئه منهم، فاغتسل يومًا، ووضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فأهوى موسى عليه السلام في طلبه، فمر به على مجالس بني إسرائيل، فرأوه أحسن خلق الله، فزال عنه ما رموه به.

﴾ يكون ذلك سببًا لصلاحها، وطريقًا لقبولها. كما أن الإخلال بالتقوى، والقول السديد سبب لفساد الأعمال، وعدم قبولها، وعدم تَرَتُّبِ آثارها عليها ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أيضًا ﴿ ذُنُوبَكُمْ ﴾ التي هي السبب في هلاككم، فالتقوى تستقيم بها الأمور، ويندفع بها كل محذور ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

﴿72 - 73 ﴾ ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ يعظم تعالى شأن الأمانة وهي امتثال الأوامر واجتناب المحارم، في حال السر والخفية كحال العلانية. وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة، السماوات والأرض والجبال، عرض تخيير لا تحتيم ﴿ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ خوفًا أن لا يقمن بما حُمِّلْنَ، لا عصيانًا لربهن، ولا زهدًا في ثوابه ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ وعرضها الله على الإنسان، على ذلك الشرط المذكور فقبلها وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل. فانقسم الناس -بحسب قيامهم بها وعدمه- إلى ثلاثة أقسام: منافقون أظهروا أنهم قاموا بها ظاهرًا لا باطنًا، ومشركون تركوها ظاهرًا وباطنًا، ومؤمنون قائمون بها ظاهرًا وباطنًا. فذكر الله تعالى أعمال هؤلاء الأقسام الثلاثة، وما لهم من الثواب والعقاب ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾. فله الحمد تعالى، حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين الدالين على تمام مغفرة الله، وسعة رحمته، وعموم جوده.

تم تفسير سورة الأحزاب.

بحمد الله وعونه.

34

مختصر تفسي رسورة سبأ

عدد آياتها 54

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 2 ﴾ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ تعالى، الحمد أي الثناء بالصفات الحميدة والأفعال الحسنة ﴿ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ملكا وعبيدا، يتصرف فيهم بحمده ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ فإذا قضى الله تعالى ورأى الخلق كلهم ما حكم به، وكمال عدله وقسطه ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ في ملكه وتدبيره، الحكيم في أمره ونهيه ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ المطلع على سرائر الأمور ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ﴾ من مطر وبذر وحيوان ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من أنواع النباتات وأصناف الحيوانات ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من الأملاك والأرزاق والأقدار ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ من الملائكة والأرواح وغير ذلك ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ أي الذي الرحمة والمغفرة وصفه، ولم تزل آثارهما تنزل على عباده كل وقت بحسب ما قاموا به من مقتضياتهما.

﴿ 3 - 5 ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالله وبرسله وبما جاءوا به ﴿ لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾ أي ما هي إلا هذه الحياة الدنيا، نموت ونحيا ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ فأمر الله رسوله أن يرد قولهم ويبطله، ويقسم على البعث وأنه سيأتيهم، واستدل على ذلك بدليل علمه تعالى الواسع العام فقال ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ ﴾ أي الأمور الغائبة عن أبصارنا وعن علمنا، فكيف بالشهادة ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ لا يغيب عن علمه ﴿ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ فجميع الأشياء بذواتها وأجزائها، حتى أصغر المثاقيل منها ﴿ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ أي قد أحاط به

علمه، وجرى به قلمه، وتضمنه الكتاب المبين الذي هو اللوح المحفوظ ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بقلوبهم، صدقوا الله وصدقوا رسله تصديقا جازما ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ تصديقا لإيمانهم ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم بسبب إيمانهم وعملهم ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ بإحسانهم ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ سعوا فيها كفرا بها، وتعجيزا لمن جاء بها ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم لأبدانهم وقلوبهم.

﴿ 6 ﴾ ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ أي الحق منحصر فيه، وما خالفه وناقضه، فإنه باطل، لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين ﴿ وَيَهْدِي ﴾ في أوامره ونواهيه ﴿ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ وذلك أنهم جزموا بصدق ما أخبر به.

﴿ 7 - 9 ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ * أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ على وجه التكذيب والاستهزاء والاستبعاد ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه رجل أتى بما يستغرب منه يقول ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ بعدما مزقكم البلى، وتفرقت أوصالكم، واضمحلت أعضاؤكم؟ فهذا الرجل الذي يأتي بذلك، هل ﴿ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ فتجرأ عليه وقال ما قال ﴿ أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ وكل هذا منهم على وجه العناد والظلم. فرأوا الحق باطلا، والباطل والضلال حقا وهدى ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ فلو نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض وأن خلقهما أعظم من إعادة الناس من قبورهم ﴿ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي من العذاب، فاحذروا إصراركم على تكذيبكم، فنعاقبكم أشد العقوبة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي خلق السماوات والأرض، وما فيهما من المخلوقات ﴿ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله كان انتفاعه بالآيات أعظم.

﴿ 10 - 11 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ ولقد مننا على عبدنا ورسولنا داود عليه الصلاة والسلام، وآتيناه فضلا من العلم النافع والعمل الصالح ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ قال كثير من العلماء، أن الله تعالى أعطاه حسن الصوت، وكان إذا رجَّع التسبيح والتهليل والتحميد بذلك الصوت الرخيم الشجيّ المطرب طرب كل من سمعه من الإنس والجن حتى الطيور والجبال وسبحت بحمد ربها ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ ومن فضله عليه أن ألان له الحديد ﴿ أَنِ اعْمَلْ ﴾ الدروع الـ ﴿ سَابِغَاتٍ ﴾ ليعمل وعلمه تعالى كيفية صنعته ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ أي يقدره حلقا، ويصنعه كذلك، ثم يدخل بعضها ببعض ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ولما ذكر ما امتن به عليه وعلى آله، أمره بشكره، وأن يعملوا صالحا، ويراقبوا الله تعالى فيه، بإصلاحه وحفظه من المفسدات، فإنه بصير بأعمالهم، مطلع عليهم، لا يخفى عليه منها شيء.

﴿ 12 – 14 ﴾ ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ * فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ ﴾ ذكر فضله على ابنه سليمان عليه الصلاة والسلام، وأن الله سخر له الريح تجري بأمره، وتحمله وتحمل جميع ما معه، وتقطع المسافة البعيدة جدا في مدة يسيرة، فتسير في اليوم مسيرة شهرين ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ ﴾ أي أول النهار إلى الزوال ﴿ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ من الزوال إلى آخر النهار ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ أي سخرنا له عين النحاس، وسهلنا له الأسباب، في استخراج ما يستخرج منها من الأواني وغيرها ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ وسخر الله له أيضا الشياطين والجن لا يقدرون أن يستعصوا عن أمره ﴿ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ وأعمالهم كل ما شاء سليمان، عملوه ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ ﴾ وهو كل بناء يعقد، وتحكم به الأبنية، فهذا فيه ذكر الأبنية الفخمة ﴿ وَتَمَاثِيلَ ﴾ أي صور الحيوانات والجمادات، من إتقان صنعتهم وقدرتهم على ذلك وعملهم لسليمان ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ ﴾ أي كالبرك الكبار، يعملونها لسليمان للطعام، لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره ويعملون له قدورا راسيات لا تزول عن أماكنها من عظمتها. فلما ذكر منته عليهم، أمرهم بشكرها ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ ﴾ وهم داود وأولاده وأهله، وكثير من هذه المصالح عائد لكلهم ﴿ شُكْرًا ﴾ لله على ما أعطاهم، ومقابلة لما أولاهم ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ فأكثرهم، لم يشكروا الله تعالى على ما أولاهم من نعمه، ودفع عنهم من النقم ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ وكانت الشياطين قد موهوا على الإنس وأخبروهم أنهم يعلمون الغيب، فأراد الله تعالى أن يُرِيَ العباد كذبهم في هذه الدعوى. فمكثوا يعملون على عملهم وقضى الله الموت على سليمان عليه السلام، واتَّكأ على عصاه، وهي المنسأة، فصاروا إذا مروا

به وهو متكئ عليها، ظنوه حيا، وهابوه. فغدوا على عملهم كذلك سنة كاملة على ما قيل، حتى سلطت دابة الأرض على عصاه، فلم تزل ترعاها، حتى سقط سليمان عليه السلام. فلو علموا الغيب لعلموا موت سليمان.

﴿ 15 - 21 ﴾ ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ﴾ سبأ قبيلة معروفة في أداني اليمن مسكنهم مأرب ﴿ آيَةٌ ﴾ هي ما أدرَّ الله عليهم من نعم يقتضي أن يعبدوا الله ويشكروه عليها ﴿ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ غالب أقواتهم منهما. وكان لهم واد عظيم تأتيه سيول كثيرة، بنوا عليه سدا محكما يجتمع فيه الماء ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ فأمرهم الله بشكر نعمه التي أدرَّها عليهم ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ بأن جعل بلدهم بلدة طيبة ﴿ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ ووعدهم إن شكروه أن يغفر لهم ويرحمهم ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ عن المنعم وعن عبادته، وبطروا النعمة ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ أي السيل المتوعر الذي خرب سدهم وأتلف جناتهم ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ أي شيء قليل من الأكل ﴿ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ فتبدلت تلك الجنات وصار بدلها أشجار لا نفع فيها ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ فجزيناهم كما بدلوا الشكر بالكفر. وهل نجازي جزاء العقوبة إلا من كفر بالله وبطر النعمة ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ لما علم الله احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة، والظاهر أنها قرى صنعاء وقيل إنها الشام، هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها بغاية السهولة، من الأمن وتواصل القرى بينهم وبينها، بحيث لا يكون عليهم مشقة بحمل الزاد والمزاد ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا ﴾ أي سيرا مقدرا يعرفونه بحيث لا يتيهون عنه ﴿ لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ مطمئنين في السير في تلك الليالي والأيام ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ لكنهم ملّو نعمة الله، حتى إنهم طلبوا وتمنوا أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى، التي كان السير فيها متيسرا ﴿ وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بكفرهم بالله وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى فأبادها عليهم ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ فلما أصابهم ما أصابهم تفرقوا وتمزقوا، وجعلهم الله أحاديث وأسمارا للناس ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ على المكاره والشدائد، يتحملها لوجه الله، ولا يتسخطها بل يصبر عليها ﴿ شَكُورٍ ﴾ لنعمة الله تعالى يُقِرُّ بها ويعترف ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ كان قوم سبأ من الذين صدَّق عليهم إبليس ظنه. وهو ظن لا يقين، لأنه لا يعلم الغيب، ولم يأته خبر من الله أنه سيغويهم أجمعين ﴾

﴿ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ممن لم يكفر بنعمة الله، فإنه لم يدخل تحت ظن إبليس[1] ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ ﴾ أي لإبليس ﴿ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي تسلط وقهر، وقسر على ما يريده منهم، ولكن حكمة الله تعالى اقتضت تسليطه وتسويله لبني آدم ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ أي ليعلم الصادق من الكاذب، ويظهر الخبيث من الطيب ﴿ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ يحفظ العباد ويحفظ عليهم أعمالهم، ويحفظ تعالى جزاءها، فيوفيهم إياها، كاملة موفرة.

﴿ 22 – 23 ﴾ ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ يا أيها الرسول للمشركين بالله غيره من المخلوقات التي لا تنفع ولا تضر، ملزما لهم بعجزها ومبينا لهم بطلان عبادتها ﴿ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي زعمتموهم شركاء لله، إن كان دعاؤكم ينفع، فإنهم ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ على وجه الاستقلال، ولا على وجه الاشتراك ﴿ وَمَا لَهُمْ ﴾ أي لتلك الآلهة الذين زعمتم ﴿ فِيهِمَا ﴾ أي في السماوات والأرض ﴿ مِنْ شِرْكٍ ﴾ فليس لهم ملك، ولا شركة ملك ﴿ وَمَا لَهُ ﴾ أي لله تعالى الواحد القهار ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من هؤلاء المعبودين ﴿ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ معاون ووزير يساعده على الملك والتدبير. فلم يبق إلا الشفاعة فنفاها بقوله ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ فهذه أنواع التعلقات، قطعها الله وبيَّن بطلانها، تبيينا حاسما لمواد الشرك، قاطعا لأصوله[2] ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ يحتمل أن الضمير في هذا الموضع يعود إلى المشركين لأنهم مذكورون في اللفظ، والقاعدة في الضمائر أن تعود إلى أقرب مذكور. ويكون المعنى: إذا كان يوم القيامة، وزال الفزع عن قلوب المشركين وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم عن تكذيبهم للحق الذي جاءت به الرسل، أنهم يقرون أن ما هم عليه من الكفر والشرك باطل، وأن ما قال الله وأخبرت به عنه رسله هو الحق ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ ﴾ بذاته فوق جميع مخلوقاته ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ في ذاته وصفاته، تذعن له حتى نفوس المتكبرين والمشركين. وهذا المعنى أظهر، وهو الذي يدل عليه السياق. ويحتمل أن الضمير يعود إلى الملائكة، وذلك أن الله تعالى إذا تكلم بالوحي، سمعته الملائكة، فصعقوا، وخروا لله سجدا. وإذا زال الصعق والفزع، فيسأل بعضهم بعضا عن ذلك الكلام الذي صعقوا منه: ماذا قال ربكم؟ فيقول بعضهم لبعض:

---

[1] ويحتمل أن قصة سبأ، انتهت عند قوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ . ثم ابتدأ فقال ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على جنس الناس، فتكون الآية عامة في كل من اتبعه.

[2] والعجب، أن المشرك استكبر عن الانقياد للرسل، بزعمه أنهم بشر، ورضي أن يعبد ويدعو الشجر، والحجر، استكبر عن الإخلاص للملك الرحمن الديان، ورضي بعبادة من ضره أقرب من نفعه، طاعة لأعدى عدو له وهو الشيطان.

قال الحق، إما إجمالا، لعلمهم أنه لا يقول إلا حقا، وإما أن يقولوا: قال كذا وكذا، للكلام الذي سمعوه منه، وذلك من الحق. فما بال هؤلاء المشركين استكبروا عن عبادة من هذا شأنه. فتعالى العلي الكبير عن شرك المشركين وإفكهم.

﴿ 24 - 27 ﴾ ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ * قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ يأمر تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول لمن أشـ رك بالله ويسأله عن حجة شركه ﴿ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فإنهم لا بد أن يقروا أنه الله، ولئن لم يقروا فـ ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ فإنك لا تجد من يدفع هذا القول ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أي إحدى الطائفتين منا ومنكم على الهدى أو في ضلال مبين. وهذا الكلام يقوله من تبين له الحق وبطلان ما عليه خصمه. حتى إنه يصير التعيين بعد ذلك لا فائدة فيه ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ﴾ أي عن إجرامنا وذنوبنا لو أذنبنا ﴿ وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ونحن لا نسأل عن أعمالكم. فكل منا ومنكم له عمله، فليكن المقصود منا ومنكم طلب الحقائق وسلوك طريق الإنصاف ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أي يحكم بيننا حكما، يتبين به الصادق من الكاذب، والمستحق للثواب من المستحق للعقاب ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ وخير الفاتحين ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا أيها الرسول، ومن ناب منابك ﴿ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ﴾ أين هم؟ وأين السبيل إلى معرفتهم؟ وهذا السؤال لا يمكنهم الإجابة عنه، ولهذا قال ﴿ كَلَّا ﴾ ليس لله شريك ولا ند ولا ضد ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ ﴾ الذي لا يستحق التأله والتعبد إلا هو ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الذي قهر كل شيء ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي أتقن ما خلقه وأحسن ما شرعه.

﴿ 28 - 30 ﴾ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ إلا ليبشر جميع الناس بثواب الله وينذرهم عقاب الله. فليس لك من الأمر شيء إنما ذلك بيد الله تعالى ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ليس لهم علم صحيح ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وهذا ظلم منهم. فأي ملازمة بين صدقه، وبين الإخبار بوقت وقوعه؟ وهل هذا إلا رد للحق، وسفه في العقل ﴿ قُلْ ﴾ لهم مخبرا بوقت وقوعه الذي لا شك فيه ﴿ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ فاحذروا ذلك اليوم، وأعدوا له عدته.

﴿ 31 - 33 ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴾ ذكر هنا حالهم في ذلك اليوم، ولو رأيت حالهم إذا وقفوا عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول فـ ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ وهم الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم القادة ﴿ لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ ولكنكم حُلْتُم بيننا وبين الإيمان، وزينتم لنا الكفر ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ أن الجميع مشتركون في الجرم ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ﴾ أي بقوتنا وقهرنا لكم ﴿ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴾ أي مختارين للإجرام، لستم مقهورين عليه، وإن كنا قد زينا لكم، فما كان لنا عليكم من سلطان ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ أي بل الذي دهانا منكم ما دبرتموه من المكر في الليل والنهار، إذ تُحَسِّنون لنا الكفر وتدعوننا إليه، وتقدحون في الحق وتهجنونه وتزعمون أنه الباطل، فما زال مكركم بنا حتى أغويتمونا وفتنتمونا ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ فندم كل منهم غاية الندم، وتمنى أن لو كان على الحق ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يغلون كما يغل المسجون الذي سيهان في سجنه ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ ﴾ في هذا العذاب والنكال ﴿ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من الكفر والفسوق والعصيان.

﴿ 34 - 39 ﴾ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ * وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ إذا أرسل الله رسولا في قرية من القرى كفر به مترفوها، وأبطرتهم نعمتهم ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ﴾ ممن اتبع الحق ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ فنحن لسنا بمبعوثين، فإن بعثنا فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا سيعطينا أكثر من ذلك في الآخرة ولا يعذبنا ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فأجابهم الله تعالى بأن الرزق تحت مشيئة الله، إن شاء بسطه لعبده وإن شاء ضيقه ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى ﴾ وليست

الأموال والأولاد بالتي تقرب إلى الله زلفى وتدني إليه ﴿ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ﴾ وإنما الذي يقرب منه زلفى الإيمان بما جاء به المرسلون، والعمل الصالح ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ﴾ أي في المنازل العاليات المرتفعات ساكنين فيها مطمئنين ﴿ آمِنُونَ ﴾ من المكدرات والمنغصات ﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ سعوا في آياتنا على وجه التعجيز لنا ولرسلنا والتكذيب فـ ﴿ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ ثم أعاد تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ ليرتب عليه قوله ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ نفقة واجبة أو مستحبة ﴿ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ وعد بالخلف للمنفق، وهو يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ فاطلبوا الرزق منه، واسعوا في الأسباب التي أمركم بها.

﴿ 40 - 42 ﴾ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ * فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ العابدين لغير الله والمعبودين من دونه من الملائكة ﴿ ثُمَّ يَقُولُ ﴾ الله ﴿ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ على وجه التوبيخ لمن عبدهم ﴿ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُون ﴾ فتبرأوا من عبادتهم و ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾ أي تنزيها لك وتقديسا أن يكون لك شريك أو ند ﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ﴾ فنحن مفتقرون إلى ولايتك، مضطرون إليها، فكيف ندعو غيرنا إلى عبادتنا؟ أم كيف نصلح لأن نتخذ من دونك أولياء وشركاء؟ ولكن هؤلاء المشركون ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ أي الشياطين الذين يأمرون بعبادتنا أو عبادة غيرنا فيطيعونهم بذلك. وطاعتهم هي عبادتهم ﴿ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُون ﴾ مصدقون للجن، منقادون لهم، لأن الإيمان هو التصديق الموجب للانقياد. فلما تبرأوا منهم قال تعالى ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ تقطعت بينكم الأسباب، وانقطع بعضكم من بعض ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالكفر والمعاصي بعد ما ندخلهم النار ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ فاليوم عاينتموها ودخلتموها جزاء لتكذيبكم.

﴿ 43 - 45 ﴾ ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ * وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾ يأمركم بالإخلاص لله لتتركوا عوائد آبائكم، الذين تعظمون وتمشون خلفهم ﴿ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى ﴾ أي كذب افتراه هذا الرجل

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ سحر ظاهر بيّن لكل أحد، تكذيبا بالحق. ثمّ ذكر أنهم وإن أراد أحد أن يحتج لهم، فإنهم لا مستند لهم، ولا لهم شيء يعتمدون عليه أصلا ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ حتى تكون عمدة لهم ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ حتى يكون عندهم من أقواله وأحواله ما يدفعون به ما جئتهم به ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا ﴾ ما بلغ هؤلاء المخاطبون ﴿ مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا ﴾ أي الأمم الذين من قبلهم ﴿ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي إنكاري عليهم، وعقوبتي إياهم. قد أعلمنا ما فعل بهم من النكال، فاحذروا يا هؤلاء المكذبون أن تدوموا على التكذيب فيأخذكم كما أخذ من قبلكم ويصيبكم ما أصابهم.

﴿ 46 - 50 ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ * قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ يا أيها الرسول، لهؤلاء المكذبين المعاندين ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾ بخصلة واحدة، ولست أدعوكم بها إلى اتباع قولي، ولا إلى ترك قولكم من دون موجب لذلك، وهي ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ أي تنهضوا بهمة لاتباع الصواب، مجتمعين ومتناظرين وفرادى ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ فإذا استعملتم فكركم وتدبرتم أحوال رسولكم ﴿ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ هل فيه صفات المجانين من كلامه وهيئته وصفته ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ أم هو نبي صادق، منذر لكم مما أمامكم من العذاب الشديد؟ فكل من تدبر أحواله جزم بأنه رسول الله حقا، ونبيه صدقا. وثمَّ بين الله تعالى نزاهة رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾ على اتباعكم للحق ﴿ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ أي فأشهدكم أن ذلك الأجر - على التقدير - أنه لكم ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ محيط علمه بما أدعو إليه: فلو كنت كاذبا لأخذني بعقوبته، وشهيد أيضا على أعمالكم سيحفظها عليكم، ثم يجازيكم بها ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي ﴾ أخبر تعالى أن هذه سنته وعادته أن ﴿ يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ﴾ فإنك ترى كيف اضمحلت أقوال المكذبين، وتبين كذبهم وعنادهم، وظهر الحق وسطع، وذلك بسبب بيان ﴿ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ الذي يعلم ما تنطوي عليه القلوب فيعلم بها عباده، ويبينها لهم ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ ظهر وبان ﴿ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ اضمحل وبطل أمره، فلا يبدئ ولا يعيد ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي ﴾ أخبرهم أن رميهم له بالضلال، ليس بضائر الحق شيئا، ولا دافع ما جاء به. وأنه إن ضل - وحاشاه من ذلك - فإنما ضلاله قاصر على نفسه، غير متعد إلى غيره ﴿ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ ﴾ فليس ذلك من نفسي وحولي وقوتي وإنما هدايتي ﴿ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ فهو مادة هدايتي، كما هو مادة هداية غيري ﴿ إِنَّهُ ﴾ ربي ﴿ سَمِيعٌ ﴾ للأقوال والأصوات كلها ﴿ قَرِيبٌ ﴾ ممن دعاه وسأله وعبده.

﴿ 51 - 54 ﴾ ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ * وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ * وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾

﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ أيها الرسول ومن قام مقامك حال هؤلاء المكذبين ﴿ إِذْ فَزِعُوا ﴾ حين رأوا العذاب ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ فليس لهم عنه مهرب ولا فوت ﴿ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ ليس بعيدا عن محل العذاب، بل يقذفون في النار ﴿ وَقَالُوا ﴾ في تلك الحال ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ بالله وصدقنا ما به كذبنا ﴿ وَ ﴾ لكن ﴿ أَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ ﴾ أي تناول الإيمان ﴿ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قد حيل بينهم وبينه، ولكنهم ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ ﴾ أي يرمون ﴿ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ بقذفهم الباطل ليدحضوا به الحق، ولكن من المحال أن يغلب الحق أو يدفعه، فإذا برز الحق، وقاوم الباطل قمعه ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ من الشهوات والأولاد والأموال والخدم والجنود، وجاءوا فرادى كما خلقوا، وتركوا ما خولوا وراء ظهورهم ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ من الأمم السابقين حين جاءهم الهلاك حيل بينهم وبين ما يشتهون ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾ أي محدث الريبة وقلق القلب فلذلك لم يؤمنوا، ولم يعتبوا حين استعتبوا.

تم تفسير سورة سبأ

ولله الحمد والمنة والفضل

ومنه العون وعليه التوكل وبه الثقة.

35

مختصر تفسير سورة فاطر

عدد آياتها 45

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 2 ﴾ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يمدح الله تعالى نفسه الكريمة المقدسة على خلقه السماوات والأرض، لأن ذلك دليل على كمال قدرته وسعة ملكه وعموم رحمته وبديع حكمته وإحاطة علمه ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾ في تدبير أوامره القدرية، ووسائط بينه وبين خلقه في تبليغ أوامره الدينية ﴿ أُولِي أَجْنِحَةٍ ﴾ تطير بها، فتسرع بتنفيذ ما أمرت به ﴿ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ منهم من له جناحان وثلاثة وأربعة، بحسب ما اقتضته حكمته ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ يزيد بعض مخلوقاته على بعض في صفة خلقها وفي القوة وفي الحسن وفي زيادة الأعضاء المعهودة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فقدرته تعالى تأتي على ما يشاؤه، ولا يستعصي عليها شيء. ثم ذكر انفراده تعالى بالتدبير والعطاء والمنع ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ ﴾ من رحمته عنهم ﴿ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ فهذا يوجب التعلق بالله تعالى، والافتقار إليه من جميع الوجوه، وأن لا يدعى إلا هو، ولا يخاف ويرجى إلا هو ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي قهر الأشياء كلها ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها.

﴿ 3 - 4 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ يأمر تعالى جميع الناس أن يذكروا نعمته عليهم ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ فلا أحد يخلق ويرزق إلا الله ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ أي تصرفون عن

عبادة الخالق الرازق لعبادة المخلوق المرزوق ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ﴾ يا أيها الرسول، فلك أسوة بمن قبلك من المرسلين ﴿ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ فأهلك المكذبون، ونجى الله الرسل وأتباعهم ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾.

﴿ 5 - 7 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ * إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ * الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بالبعث والجزاء على الأعمال ﴿ حَقٌّ ﴾ لا شك فيه ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ بلذاتها وشهواتها ومطالبها النفسية، فتلهيكم عما خلقتم له ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ الذي هو الشَّيْطَانُ ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ هو عدوكم في الحقيقة ﴿ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ أي لتكن منكم عداوته على بال، ولا تهملوا محاربته كل وقت، فإنه يراكم وأنتم لا ترونه، وهو دائما لكم بالمرصاد ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ هذا غايته ومقصوده ممن تبعه، أن يهان غاية الإهانة بالعذاب الشديد. ثم ذكر أن الناس انقسموا بحسب طاعة الشيطان وعدمها إلى قسمين، وذكر جزاء كل منهما ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ جحدوا ما جاءت به الرسل، ودلت عليه الكتب ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ في نار جهنم خالدون فيها أبدا ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بقلوبهم، بما دعا الله إلى الإيمان به ﴿ وَعَمِلُوا ﴾ بجوارحهم بمقتضى ذلك الإيمان ﴿ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم، يزول بها عنهم الشر والمكروه ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ يحصل به المطلوب.

﴿ 8 ﴾ ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾

﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ القبيح، زينه له الشيطان وحسنه في عينه ﴿ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ أي كمن هداه الله إلى الصراط المستقيم، فهل يستوي هذا وهذا؟ فالأول عمل السيئ ورأى الحق باطلا والباطل حقا، والثاني: عمل الحسن ورأى الحق حقا، والباطل باطلا ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ولكن الهداية والإضلال بيد الله تعالى ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على الضالين الذين صدهم الشيطان عن الحق ﴿ حَسَرَاتٍ ﴾ فليس عليك إلا البلاغ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾.

﴿ 9 ﴾ ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ فأنزله الله عليها ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فحييت البلاد والعباد ﴿ كَذَلِكَ ﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها ﴿ النُّشُورُ ﴾ ينشر الله الأموات من قبورهم. فيسوق

إليهم مطرا، كما ساقه إلى الأرض الميتة، فينزله عليهم فتحيا الأجساد والأرواح من القبور، ويأتون للقيام بين يدي الله ليحكم بينهم، ويفصل بحكمه العدل.

﴿ 10 ﴾ ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ العزة بيد الله، ولا تنال إلا بطاعته، وقد ذكرها بقوله ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ من قراءة وتسبيح وتحميد وتهليل وكل كلام حسن طيب، فيرفع إلى الله ويعرض عليه ويثني الله على صاحبه بين الملأ الأعلى ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ ﴾ من أعمال القلوب وأعمال الجوارح ﴿ يَرْفَعُهُ ﴾ الله تعالى إليه أيضا، كالكلم الطيب. وقيل: رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة، فهي التي ترفع كلمه الطيب، فإذا لم يكن له عمل صالح، لم يرفع له قول إلى الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ يهانون فيه غاية الإهانة ﴿ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ يهلك ويضمحل، لأنه مكر بالباطل لأجل الباطل.

﴿ 11 ﴾ ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ يذكر تعالى خلقه الآدمي وتنقله في هذه الأطوار، من تراب إلى نطفة وما بعدها ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ حتى أوصلكم إلى أن كنتم أزواجا، ذكرا يتزوج أنثى، ويراد بالزواج الذرية والأولاد، فهو وإن كان النكاح من الأسباب فيه، فإنه مقترن بقضاء الله وقدره وعلمه ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ وكذلك أطوار الآدمي، كلها بعلمه وقضائه ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ أي عمر الذي كان معمرا عمرا طويلا ﴿ إِلَّا ﴾ بعلمه تعالى. أو ما ينقص من عمر الإنسان الذي هو بصدد أن يصل إليه، لولا ما سلكه من أسباب قصر العمر، كالزنا وعقوق الوالدين وقطيعة الأرحام ونحو ذلك مما ذكر أنها من أسباب قصر العمر. والمعنى أن طول العمر وقصره بسبب وبغير سبب كله بعلمه تعالى، وقد أثبت ذلك ﴿ فِي كِتَابٍ ﴾ حوى ما يجري على العبد، في جميع أوقاته وأيام حياته ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أي إحاطة علمه بتلك المعلومات الكثيرة، وإحاطة كتابه فيها، وقد نبه الله عليها في هذه الآيات: إحياء الأرض بعد موتها، وأن الذي أحياها سيحيي الموتى، وتنقل الآدمي في تلك الأطوار.

﴿ 12 - 14 ﴾ ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا

يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ لم يسوِّ بين البحرين لأن المصلحة تقتضي أن تكون الأنهار عذبة فراتا سائغا شرابها، وأن يكون البحر ملحا أجاجا لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض بروائح ما يموت في البحر من الحيوانات ولأنه ساكن لا يجري، فملوحته تمنعه من التغير ﴿ وَمِنْ كُلٍّ ﴾ من البحر الملح والعذب ﴿ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ وهو السمك ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ من لؤلؤ ومرجان وغيرهما ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ سخر الله تعالى البحر يحمل الفلك من السفن والمراكب، فتحمل السائرين وأثقالهم وتجاراتهم ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ يزيد أحدهما وينقص الآخر ويتساويان، فيقوم بذلك ما يقوم من مصالح العباد ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ الضياء والنور، والحركة والسكون، وانتشار العباد في طلب فضله ﴿ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ كل من الشمس والقمر يسيران في فلكهما ما شاء الله أن يسيرا، فإذا قرب انقضاء الدنيا انقطع سيرهما ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ الذي انفرد بخلق هذه المذكورات وتسخيرها هو الرب المألوه المعبود ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ من الأوثان والأصنام ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ لا يملكون حتى القطمير[1]، وهذا من تنصيص النفي وعمومه. ومع هذا ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ لأنهم ما بين جماد وأموات وملائكة مشغولين بطاعة ربهم ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا ﴾ على وجه الفرض والتقدير ﴿ مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ لأنهم لا يملكون شيئا، ولا يرضى أكثرهم بعبادة من عبده ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ يتبرأون منكم ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ أي لا أحد ينبئك، أصدق من الله العليم الخبير. فاجزم بأن هذا الأمر الذي نبأ به كأنه رَأْيُ عين.

﴿ 15 – 18 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ * وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ يخاطب تعالى جميع الناس، ويخبرهم بحالهم ووصفهم، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ له الغنى التام من جميع الوجوه، وذلك لكمال صفاته وكونها كلها صفات كمال ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ في ذاته وأسمائه، الحميد على ما فيه وعلى ما منه ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ يحتمل أن المراد: إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بغيركم من الناس، أطوع لله منكم، ويكون في هذا تهديد لهم بالهلاك والإبادة، وأن مشيئته غير قاصرة عن ذلك. ويحتمل أن المراد بذلك إثبات البعث والنشور، وأن مشيئة الله تعالى نافذة في كل شيء ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ بممتنع، ولا معجز له. ويدل على المعنى الأخير، ما ذكره بعده في قوله ﴿ وَلَا

---

[1] جاء في تفسير ابن كثير: القطمير هو اللفافة التي تكون على نواة التمرة. أي لا يملكون من السماوات والأرض شيئا ولا بمقدار قطمير. (م)

تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ أي في يوم القيامة كل أحد يجازى بعمله، ولا يحمل أحد ذنب أحد ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا ﴾ أي نفس مثقلة بالخطايا والذنوب، تستغيث بمن يحمل عنها بعض أوزارها ﴿ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ فإنه لا يحمل عن قريب ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ هؤلاء الذين يقبلون النذارة وينتفعون بها، الذين يخشونه في حال السر والعلانية، وأهل إقامة الصلاة فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴿ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ﴾ ومن زكى نفسه بالتنقِّي من العيوب، وتحلَّى بالأخلاق الجميلة، فإن تزكيته يعود نفعها إليه ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ فيجازي الخلائق على ما أسلفوه، ويحاسبهم على ما قدموه وعملوه.

﴿ 19 - 24 ﴾ ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى ﴾ فاقد البصر ﴿ وَالْبَصِيرُ. وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ. وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ. وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ هذه المذكورات لا تتساوى، فكذلك لا يستوي المؤمن والكافر، ولا المهتدي والضال، ولا العالم والجاهل، ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار، ولا أحياء القلوب وأمواتها، فبين هذه الأشياء من التفاوت والفرق ما لا يعلمه إلا الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ سماع فهم وقبول ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ أموات القلوب. أو كما أن دعاءك لا يفيد سكان القبور شيئا، كذلك لا يفيد المعرض المعاند شيئا ﴿ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ وظيفتك النذارة، وإبلاغ ما أرسلت به، قبل منك أم لا ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ ما بعثناك به من الدين القويم حق وصدق ﴿ بَشِيرًا ﴾ لمن أطاعك ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ لمن عصاك ﴿ وَإِنْ ﴾ فما ﴿ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم الماضية ﴿ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ يقيم عليهم حجة الله.

﴿ 25 - 26 ﴾ ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ﴾ أيها الرسول هؤلاء المشركون، فلست أول رسول كُذِّب ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ الدالات على الحق، وعلى صدقهم فيما أخبروهم به ﴿ وَبِالزُّبُرِ ﴾ الكتب المكتوبة، المجموع فيها كثير من الأحكام ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ المضيء في أخباره الصادقة، فلم يكن تكذيبهم إياهم ناشئا عن اشتباه، أو قصور بما جاءتهم به الرسل، بل بسبب ظلمهم وعنادهم ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بأنواع العقوبات ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ عليهم؟ كان أشد النكير وأعظم التنكيل.

﴿ 27 - 28 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ ﴾ يذكر تعالى خلقه للأشياء المتضادات، التي أصلها واحد، ومادتها واحدة، وفيها من التفاوت والفرق ما هو مشاهد معروف، ليدل العباد على كمال قدرته وبديع حكمته ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ والماء واحد والأرض واحدة ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴾ خلق الجبال وجعلها أوتادا للأرض، وفيها ألوان وجدد أي طرائق، بيض وصفر وحمر ﴿ وَ ﴾ فيها ﴿ غَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ أي شديدة السواد. كذلك ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ﴾ فيها من اختلاف الألوان والأوصاف والأصوات والهيئات، والكل من أصل واحد ومادة واحدة. فتفاوتها دليل عقلي على قدرة الله تعالى حيث أوجدها كذلك، وحكمته ورحمته حيث كان ذلك الاختلاف والتفاوت فيه من المصالح والمنافع ما هو معلوم ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ فكل من كان بالله أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية الله، الانكفاف عن المعاصي ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ كامل العزة، ومن عزته خلق هذه المخلوقات المتضادات ﴿ غَفُورٌ ﴾ لذنوب التائبين.

﴿ 29 - 30 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ أي يتبعونه في أوامره فيمتثلونها ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ عماد الدين ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ على الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ في جميع الأوقات ﴿ يَرْجُونَ ﴾ بذلك ﴿ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ﴾ لن تكسد وتفسد، ألا وهي رضا ربهم ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أجور أعمالهم، على حسب قلتها وكثرتها، وحسنها وعدمه ﴿ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ زيادة عن أجورهم ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ غفر لهم السيئات، وقبل منهم القليل من الحسنات.

﴿ 31 - 35 ﴾ ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أوحاه الله إلى رسوله ﴿ هُوَ الْحَقُّ ﴾ وكل ما دل عليه من المسائل الإلهية والغيبية وغيرها مطابق لما في الواقع، فلا يجوز أن يراد به ما يخالف ظاهره وما دل عليه ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب والرسل ولهذا لا يمكن أحدا أن يؤمن بالكتب السابقة وهو كافر بالقرآن أبدا ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ ولهذا اصطفى الله تعالى دين الإسلام، والكتاب المهيمن على سائر الكتب ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وهم هذه الأمة ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ بالمعاصي التي هي دون الكفر ﴿ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ أي سارع فيها واجتهد، فسبق غيره، وهو المؤدي للفرائض المكثر من النوافل التارك للمحرم والمكروه. فكلهم اصطفاه الله تعالى لوراثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم. والمراد بوراثة الكتاب وراثة علمه وعمله ودراسة ألفاظه واستخراج معانيه ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ والكلام راجع إلى السابق إلى الخيرات لئلا يغتر بعمله، فهو ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ فوراثة الكتاب الجليل لمن اصطفى تعالى من عباده هو الفضل الكبير ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ جزاء الذين أورثهم كتابه أي جنات في أبد لا يزول وعيش لا ينفد. ومعنى جنات عدن أي جنات إقامة، أضافها للإقامة لأن الإقامة والخلود وصفها ووصف أهلها ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ وهو الحلي الذي يجعل في اليدين، على ما يحبون، ويرون أنه أحسن من غيره، الرجال والنساء في الحلية في الجنة سواء ﴿ وَ ﴾ يحلون فيها ﴿ لُؤْلُؤًا ﴾ ينظم في ثيابهم وأجسادهم ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ من سندس ومن إستبرق أخضر ﴿ وَ ﴾ لما تم نعيمهم ﴿ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾ وهذا يشمل كل حزن، فهم في نعيم ما يرون عليه مزيدا، وهو في تزايد أبد الآباد ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ ﴾ حيث غفر لنا الزلات ﴿ شَكُورٌ ﴾ حيث قبل منا الحسنات وضاعفها ﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا ﴾ أي أنزلنا نزول حلول واستقرار، لا نزول معبر واعتبار ﴿ دَارَ الْمُقَامَةِ ﴾ أي الدار التي تدوم فيها الإقامة ﴿ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ علينا وكرمه، لا بأعمالنا ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ لا تعب في الأبدان ولا في القلب والقوى، ولا هم ولا حزن. ويدل على أنهم لا ينامون في الجنة لأن النوم فائدته زوال التعب، ولأنه موت أصغر، وأهل الجنة لا يموتون، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

﴿ 36 - 37 ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي جحدوا ما جاءتهم به رسلهم من الآيات، وأنكروا لقاء ربهم ﴿ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ يعذبون فيها أشد العذاب ﴿ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ ﴾ بالموت ﴿ فَيَمُوتُوا ﴾ فيستريحوا ﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ فشدة العذاب وعظمه، مستمر عليهم في جميع الآنات واللحظات ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ. وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أي يصرخون ويتصايحون ويستغيثون ويقولون ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ فاعترفوا بذنبهم، وعرفوا أن

الله عدل فيهم، ولكن سألوا الرجعة في غير وقتها، فيقال لهم ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا ﴾ أي دهرا وعمرا ﴿ يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ أي يتمكن فيه من أراد التذكر من العمل: متعناكم في الدنيا، وأوصلنا إليكم النذر، وابتليناكم بالسراء والضراء، لترجعوا إلينا، فلم ينجع فيكم إنذار حتى وصلتم إلى دار الجزاء على الأعمال، سألتم الرجعة؟ فات وقت الإمكان، وغضب عليكم الرحيم الرحمن ﴿ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ ينصرهم فيخرجهم منها، أو يخفف عنهم من عذابها.

﴿ 38 ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أخبر تعالى عن سعة علمه تعالى، واطلاعه على غيب السماوات والأرض ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ وأنه عالم بالسرائر، وما تنطوي عليه الصدور من الخير والشر والزكاء وغيره، فيعطي كلا ما يستحقه، وينزل كل أحد منزلته.

﴿ 39 ﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ يخبر تعالى عن كمال حكمته ورحمته بعباده، أنه قدر بقضائه السابق أن يجعل بعضهم يخلف بعضا في الأرض، ويرسل لكل أمة من الأمم النذر فينظر كيف يعملون ﴿ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ فمن كفر بالله وبما جاءت به رسله فإن كفره عليه ﴿ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ﴾ وعليه إثمه وعقوبته ﴿ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ أي يخسرون أنفسهم وأهليهم وأعمالهم ومنازلهم في الجنة، فالكافر لا يزال في زيادة من الشقاء والخسران، والخزي عند الله وعند خلقه والحرمان.

﴿ 40 ﴾ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾

﴿ قُلْ ﴾ لهم يا أيها الرسول ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أي أخبروني ﴿ شُرَكَاءَكُمُ الذين تدعون من دون الله ﴾ هل هم مستحقون للدعاء والعبادة فـ ﴿ أَرُونِي ﴾ إذن ﴿ مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ فسيقرون أن الخالق لجميع الأشياء هو الله تعالى ﴿ أَمْ ﴾ هل لشركائكم ﴿ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ أي شِرْكَةٌ في خلقها وتدبيرها؟ فإذا لم يخلقوا شيئا، ولم يشاركوا الخالق في خلقه، فلم عبدتموهم ودعوتموهم مع إقراركم بعجزهم ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا ﴾ يتكلم بما كانوا به يشركون، يأمرهم بالشرك وعبادة الأوثان ﴿ فَهُمْ ﴾ في شركهم ﴿ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ ﴾ من ذلك الكتاب الذي نزل عليهم في صحة

الشرك ﴿ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ ليس لهم حجة، وإنما ذلك تزيين بعضهم لبعض، وأمانيّ منّاها الشيطان.

﴿ 41 ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته ورحمته وحلمه ومغفرته، وأنه تعالى يمسك السماوات والأرض عن الزوال ﴿ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ فإنهما لو زالتا ما أمسكهما أحد من الخلق، ولكنه تعالى قضى أن يكونا كما وجدا، ليحصل للخلق القرار والنفع والاعتبار وليعلموا من عظيم سلطانه وقوة قدرته، ما به تمتلئ قلوبهم له إجلالا وتعظيما مع أنه لو أمر السماء لحصبتهم، ولو أذن للأرض لابتلعتهم، ولكن وسعتهم مغفرته وحلمه وكرمه ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾.

﴿ 42 - 43 ﴾ ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ أي الذين كذبوك يا رسول الله قسما اجتهدوا فيه بالأيمان الغليظة ﴿ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ أي أهدى من اليهود والنصارى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ لم يهتدوا، بل لم يدوموا على ضلالهم الذي كان، بل ﴿ مَا زَادَهُمْ ﴾ ذلك ﴿ إِلَّا نُفُورًا ﴾ وزيادة ضلال وبغي وعناد ﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾ وليس إقسامهم المذكور لقصد حسن وطلب للحق، وإلا لوفقوا له، ولكنه صادر عن استكبار في الأرض على الخلق، وعلى الحق، يريدون به المكر والخداع ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ ﴾ الذي مقصوده سيئ ﴿ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ فمكرهم إنما يعود عليهم ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ وقد أبان الله لعباده في هذه المقالات أنهم كذبة في ذلك مزورون، فرد الله كيدهم في صدورهم.

﴿ 44 - 45 ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا * وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يحض تعالى على السير في الأرض، في القلوب والأبدان للاعتبار لا غفلة، وأن ينظروا إلى عاقبة الذين من قبلهم ممن كذبوا الرسل ﴿ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً

﴾ وكانوا أكثر منهم أموالا وأولادا وأشد قوة، وعمروا الأرض أكثر مما عمرها هؤلاء. فلما جاء هم العذاب لم تنفعهم قوتهم ولم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا، ونفذت فيهم قدرة الله ومشيئته ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ لكمال علمه وقدرته ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ ثم ذكر تعالى كمال حلمه وشدة إمهاله ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا ﴾ من الذنوب ﴿ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أي لاستوعبت العقوبة حتى الحيوانات غير المكلفة ﴿ وَلَكِنْ ﴾ يمهلهم تعالى ولا يهملهم و ﴿ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ فيجازيهم بحسب ما علمه منهم، من خير وشر.

تم تفسير سورة فاطر

والحمد لله رب العالمين

36

مختصر تفسير سورة يس

عدد آياتها 83

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 12 ﴾ ﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾

﴿ يس ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ هذا قسم من الله تعالى بالقرآن الحكيم الذي وصفه الحكمة وهي وضع كل شيء موضعه ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فلست ببدع من الرسل. ولا يخفى ما بين المقسم به وهو القرآن الحكيم، وبين المقسم عليه وهو رسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من الاتصال. بل القرآن العظيم أقوى الأدلة المتصلة المستمرة على رسالة الرسول. ثم أخبر بأعظم أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم الدالة على رسالته وهو أنه ﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ معتدل موصل إلى الله وإلى دار كرامته. وهو ﴿ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أنزل به كتابه، وأنزله طريقا لعباده، موصلا لهم إليه، فحماه بعزته عن التغيير والتبديل، ورحم به عباده. ولهذا ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين: العزيز. الرحيم ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ وهم العرب الأميون، أرسل الله إليهم رسولا من أنفسهم، ولكن هؤلاء بعدما أنذرتهم انقسموا قسمين: قسم لم يقبل النذارة، وهم الذين قال الله فيهم ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بعد أن عرض عليهم الحق فرفضوه، فحينئذ عوقبوا بالطبع على قلوبهم. وذكر الموانع من وصول الإيمان لقلوبهم: إ﴿ نَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا ﴾ وهي جمع "غل" و "الغل" ما يغل به العنق، فهو للعنق بمنزلة القيد للرجل، وهذه الأغلال التي في الأعناق عظيمة ﴿ فَهِيَ ﴾ قد وصلت ﴿ إِلَى الْأَذْقَانِ ﴾ ورفعت رءوسهم ﴿ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ أي رافعو رءوسهم من شدة الغل الذي في أعناقهم، فلا يستطيعون أن يخفضوها ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ أي حاجزا يحجزهم عن الإيمان ﴿ فَهُمْ

﴿ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ قد غمرهم الجهل والشقاء من جميع جوانبهم، فلم تفد فيهم النذارة ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وكيف يؤمن من طبع على قلبه، ورأى الحق باطلا والباطل حقا؟ وقسم قبلوا النذارة ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ ﴾ إنما تنفع نذارتك، ويتعظ بنصحك ﴿ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ أي من قصده اتباع الحق وما ذكر به ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ اتصف بهذين الأمرين: القصد الحسن في طلب الحق، وخشية الله تعالى ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ لذنوبه ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ لأعماله الصالحة ونيته الحسنة ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ نبعثهم بعد موتهم لنجازيهم على الأعمال ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ أعمالهم التي عملوها من الخير والشر حال حياتهم ﴿ وَآثَارَهُمْ ﴾ وهي آثار الخير وآثار الشر، التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم، وتلك الأعمال التي نشأت من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فكل خير عمل به أحد من الناس، بسبب علم العبد وتعليمه ونصحه، أو أمره بالمعروف، أو نهيه عن المنكر، أو علم أودعه عند المتعلمين، أو في كتب ينتفع بها في حياته وبعد موته، أو عمل خيرا، من صلاة أو زكاة أو صدقة أو إحسان، فاقتدى به غيره، أو عمل مسجدا، أو محلا من المحال التي يرتفق بها الناس، وما أشبه ذلك، فإنها من آثاره التي تكتب له، وكذلك عمل الشر ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ ﴾ من الأعمال والنيات وغيرها ﴿ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ كتاب هو أم الكتب وإليه مرجع الكتب، التي تكون بأيدي الملائكة، وهو اللوح المحفوظ.

﴿ 13 – 30 ﴾ ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ * وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ * إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ * يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾ واضرب لهؤلاء المكذبين برسالتك مثلا يعتبرون به، مثل أصحاب القرية وما جرى منهم من التكذيب لرسل الله، وما جرى عليهم من عقوبته ونكاله. وتعيين تلك القرية، لو كان فيه فائدة لعينها الله، فالتعرض لذلك وما أشبهه من باب التكلف والتكلم بلا علم ﴿ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ من الله تعالى يأمرونهم بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له وينهونهم عن الشرك والمعاصي ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أي قويناهما بثالث، فصاروا ثلاثة رسل، اعتناء من الله بهم، وإقامة للحجة بتوالي الرسل إليهم ﴿ فَقَالُوا ﴾ لهم ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴾ فأجابوهم بالجواب الذي ما زال مشهورا عند من رد دعوة الرسل فـ ﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ

مِثْلُنَا ﴾ أي فما الذي فضلكم علينا وخصكم من دوننا ﴿ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي أنكروا عموم الرسالة، ثم أنكروا أيضا المخاطبين لهم، فقالوا ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ فقالت هؤلاء الرسل الثلاثة ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ فلو كنا كاذبين، لأظهر الله خزينا ولبادرنا بالعقوبة ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ الذي يحصل به توضيح الأمور المطلوب بيانها، فإن اهتديتم فهو حظكم وتوفيقكم، وإن ضللتم فليس لنا من الأمر شيء ﴿ قَالُوا ﴾ أصحاب القرية لرسلهم ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ لم نر على قدومكم علينا واتصالكم بنا إلا الشر، واستشأموا ثم توعدوهم ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ نقتلنكم رجما بالحجارة ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فـ ﴿ قَالُوا ﴾ أي رسلهم ﴿ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ أي شرككم والشر المقتضي لوقوع المكروه والنقمة ﴿ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ ﴾ أي هل بسبب أنا ذكرناكم ما فيه صلاحكم قلتم لنا ما قلتم ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ متجاوزون للحد ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ حرصا على نصح قومه حين سمع ما دعت إليه الرسل وآمن به، وعلم ما رد به قومه عليهم فـ ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ فأمرهم باتباعهم ونصحهم على ذلك، وشهد لهم بالرسالة، ثم ذكر تأييدا لما شهد به ودعا إليه، فقال ﴿ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ اتبعوا من نصحكم ولا يريد منكم أجرا على نصحه وإرشاده ﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ فكأن قومه لم يقبلوا نصحه فقال ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فالذي بيده الخلق هو الذي يستحق أن يعبد ﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴾ لأنه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه ﴿ إِنِّي إِذًا ﴾ إن عبدت آلهة هذا وصفها ﴿ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ فجمع في هذا الكلام بين نصحهم والشهادة للرسل بالرسالة، والاهتداء والإخبار بتعيُّن عبادة الله وحده، والإعلان بإيمانه جهرا، مع خوفه الشديد من قتلهم، فقال ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ فقتله قومه، لما سمعوا منه وراجعهم بما راجعهم به فـ ﴿ قِيلَ ﴾ له في الحال ﴿ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ فـ ﴿ قَالَ ﴾ مخبرا بما وصل إليه من الكرامة على توحيده وإخلاصه، وناصحا لقومه بعد وفاته، كما نصح لهم في حياته ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾ أي بأي شيء غفر لي، فأزال عني أنواع العقوبات ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ بأنواع المثوبات والمسرات، أي لو وصل علم ذلك إلى قلوبهم، لم يقيموا على شركهم. قال الله في عقوبة قومه ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ ما احتجنا أن نتكلف في عقوبتهم، فننزل جندا من السماء لإتلافهم ﴿ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ لعدم الحاجة إلى ذلك، وعظمة اقتدار الله تعالى، وشدة ضعف بني آدم، وأنهم أدنى شيء يصيبهم من عذاب الله يكفيهم ﴿ إِنْ كَانَتْ ﴾ أي عقوبتهم ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ أي صوتا واحدا، تكلم به بعض ملائكة الله ﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ قد تقطعت قلوبهم في أجوافهم، فأصبحوا خامدين بعد ذلك العتو والاستكبار، ومقابلة أشرف الخلق بذلك الكلام القبيح. قال الله متوجعا للعباد ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي ما أعظم شقاءهم وأشد جهلهم، حيث كانوا بهذه الصفة القبيحة سبب لكل شقاء وعذاب.

﴿ 31 – 32 ﴾ ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ * وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ ألم ير هؤلاء ويعتبروا بمن قبلهم من القرون المكذبة، التي أهلكها الله تعالى وأوقع بها عقابها ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ وأن جميعهم قد باد وهلك ﴿ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ وسيعيد الله الجميع ويحضرون بين يديه تعالى، ليحكم بينهم بحكمه العدل.

﴿ 33 – 36 ﴾ ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ * سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ ﴾ على البعث والنشور هذه ﴿ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ ﴾ أنزل الله عليها المطر فأحياها ﴿ أَحْيَيْنَاهَا ﴾ بعد موتها ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ من جميع أصناف الزروع، والنبات لتأكله أنعامهم ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾ أي في تلك الأرض الميتة ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ بساتين ﴿ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ خصوصا وهما أشرف الأشجار ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا ﴾ أي في الأرض ﴿ مِنَ الْعُيُونِ ﴾ جعلنا في الأرض تلك الأشجار ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ﴾ قوتا وفاكهة ﴿ وَ ﴾ الحال أن تلك الثمار ﴿ مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ إن هو إلا صنعة أحكم الحاكمين وخير الرازقين ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ من ساق لهم هذه النعم وأسبغ عليهم من جوده وإحسانه، ما به تصلح أمور دينهم ودنياهم ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ أي الأصناف كلها ﴿ مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ﴾ فنوع فيها من الأصناف ما يعسر تعداده ﴿ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ فنوعهم إلى ذكر وأنثى، وفاوت بين خلقهم وخُلُقِهِمْ وأوصافهم الظاهرة والباطنة ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ من المخلوقات التي قد خلقت وغابت عن علمنا، والتي لم تخلق بعد فسبحانه وتعالى أن يكون له شريك.

﴿ 37 – 40 ﴾ ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ ﴾ على نفوذ مشيئة الله وكمال قدرته وإحيائه الموتى بعد موتهم ﴿ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ نزيل الضياء العظيم الذي طبق الأرض، فنبدله بالظلمة ونحلها محله ﴿ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾ وكذلك نزيل هذه الظلمة التي عمتهم وشملتهم، فتطلع الشمس ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ أي دائما تجري لمستقر لها قدره الله لها لا تتعداه ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ ﴾ الذي بعزته دبر هذه المخلوقات العظيمة ﴿ الْعَلِيمِ ﴾ الذي بعلمه جعلها مصالح لعباده، ومنافع في دينهم ودنياهم ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ ينزل بها، كل ليلة ينزل منها واحدة ﴿ حَتَّى

عَادَ ﴾ يصغر جدا فيعود ﴿ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ أي عرجون النخلة، الذي من قدمه نش وصغر حجمه وانحنى. ثم بعد ذلك ما زال يزيد شيئا فشيئا حتى يتسق ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ أي في سلطانه الذي هو الليل، فلا يمكن أن توجد الشمس في الليل ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ فيدخل عليه قبل انقضاء سلطانه ﴿ وَكُلٌّ ﴾ من الشمس والقمر والنجوم ﴿ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أي يترددون على الدوام، فكل هذا دليل ظاهر على عظمة الخالق.

﴿ 41 - 50 ﴾ ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ * وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ * إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾

﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ ﴾ أي ودليل لهم وبرهان، على أن الله وحده المعبود، لأنه المنعم بالنعم، الصارف للنقم، الذي من جملة نعمه ﴿ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أي المملوء ركبانا وأمتعة. وقال كثير من المفسرين المراد بذلك آباؤهم. فذكر نعمته على الآباء بحملهم في السفن، لأن النعمة عليهم، نعمة على الذرية. وهذا الموضع من أشكل المواضع عليَّ في التفسير. فإن ما ذكره كثير من المفسرين من أن المراد بالذرية الآباء، مما لا يعهد في القرآن إطلاق الذرية على الآباء، بل فيها من الإيهام وإخراج الكلام عن موضوعه ما يأباه كلام رب العالمين، وإرادته البيان والتوضيح لعباده. وثَمَّ احتمال أحسن من هذا، وهو أن المراد بالذرية الجنس، وأنهم هم بأنفسهم، لأنهم هم من ذرية بني آدم ولكن ينقض هذا المعنى قوله ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ[1] ﴾ أي للموجودين من بعدهم ﴿ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ به. إن أريد: وخلقنا من مثل ذلك الفلك، أي لهؤلاء المخاطبين، ما يركبون من أنواع الفلك، فيكون ذلك تكريرا للمعنى، تأباه فصاحة القرآن. فإن أريد بقوله: { وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ } الإبل، التي هي سفن البر، استقام المعنى واتضح، إلا أنه يبقى أيضا، أن يكون الكلام فيه تشويش، فإنه لو أريد هذا المعنى، لقال: وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَاهم فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ، فأما أن يقول في الأول: وحملنا ذريتهم، وفي الثاني: حملناهم، فإنه لا يظهر المعنى، إلا أن يقال: الضمير عائد إلى الذرية، والله أعلم بحقيقة الحال[2]. فحملهم

---

[1] فلما خاطبهم الله تعالى بالقرآن، وذكر حالة الفلك، وعلم تعالى أنه سيكون أعظم آيات الفلك في غير وقتهم، وفي غير زمانهم، حين يعلمهم [صنعة]الفلك [البحرية] الشراعية منها والنارية، والجوية السابحة في الجو، كالطيور ونحوها، [والمراكب البرية] مما كانت الآية العظمى فيه لم توجد إلا في الذرية.

[2] فلما وصلت في الكتابة إلى هذا الموضع، ظهر لي معنى ليس ببعيد من مراد الله تعالى، وذلك أن من عرف جلالة كتاب الله وبيانه التام من كل وجه، للأمور الحاضرة والماضية والمستقبلة، وأنه يذكر من كل معنى أعلاه وأكمل ما يكون من أحواله، وكانت الفلك من آياته تعالى ونعمه على عباده، من حين أنعم عليهم بتعلمها إلى يوم القيامة، ولم تزل موجودة في كل زمان، إلى زمان المواجهين بالقرآن.

الله تعالى، ونجاهم بالأسباب التي علمهم الله بها، من الغرق، ولهذا نبههم على نعمته عليهم حيث أنجاهم مع قدرته على ذلك، فقال ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أي: لا أحد يصرخ لهم فيعاونهم على الشدة، ولا يزيل عنهم المشقة ﴿ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴾ مما هم فيه ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ حيث لم نغرقهم، لطفا بهم، وتمتيعا لهم إلى حين ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ أي من أحوال البرزخ والقيامة، وما في الدنيا من العقوبات ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ فأعرضوا عن ذلك ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ وفي إضافة الآيات إلى ربهم، دليل على كمالها ووضوحها ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ من الرزق الذي منَّ به الله عليكم ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ معارضين للحق، محتجين بالمشيئة ﴿ أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ حيث تأمروننا بذلك. وهذا مما يدل على تجاهلهم، فإنه وإن كان ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فإنه تعالى مكَّن العباد، فإذا تركوا ما أمروا به، كان ذلك اختيارا منهم، لا جبرا لهم ولا قهرا ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ على وجه التكذيب والاستعجال ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قال الله تعالى: لا يستبعدوا ذلك، فإنه قريب ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ وهي نفخة الصور ﴿ تَأْخُذُهُمْ ﴾ أي تصيبهم ﴿ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أي وهم لا هون عنها لم تخطر على قلوبهم في حال خصومتهم. وإذا أخذتهم وقت غفلتهم فإنهم لا ينظرون ولا يمهلون ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ لا قليلة ولا كثيرة ﴿ وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

﴿ 51 - 54 ﴾ ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ * فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ النفخة الأولى هي نفخة الفزع والموت، وهذه نفخة البعث والنشور. فإذا نفخ في الصور خرجوا من الأجداث والقبور ينسلون إلى ربهم، أي يسرعون للحضور بين يديه، لا يتمكنون من التأنِّي والتأخر. وفي تلك الحال يحزن المكذبون، ويظهرون الحسرة والندم و ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ أي من رقدتنا في القبور، لأنه ورد في بعض الأحاديث، أن لأهل القبور رقدة قبيل النفخ في الصور، فيجابون ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ هذا الذي وعدكم الله به، ووعدتكم به الرسل، فظهر صدقهم رَأْيَ عين. ولا تحسب أن ذكر الرحمن في هذا الموضع لمجرد الخبر عن وعده، وإنما ذلك للإخبار بأنه في ذلك اليوم العظيم، سيرون من رحمته ما لا يخطر على الظنون ﴿ إِنْ كَانَتْ ﴾ البعثة من القبور ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ ينفخ فيها إسرافيل في الصور، فتحيا الأجساد ﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ الأولون والآخرون، والإنس والجن، ليحاسبوا على أعمالهم ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ لا ينقص من حسناتها، ولا يزاد

في سيئاتها ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من خير أو شر، فمن وجد خيرا فليحمد الله على ذلك، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

﴿ 55 - 58 ﴾ ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ * سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ هم ﴿ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾ أي في شغل مفكه للنفس، مُلِذٍّ لها ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ ﴾ من الحور العين ﴿ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ أي على السرر المزينة باللباس المزخرف الحسن ﴿ مُتَّكِئُونَ ﴾ عليها على كمال الراحة والطمأنينة واللذة ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ كثيرة من جميع أنواع الثمار اللذيذة ﴿ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴾ أي يطلبون، فمهما طلبوه وتمنوه أدركوه. ولهم أيضا ﴿ سَلَامٌ ﴾ حاصل لهم ﴿ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾ إذا سلم عليهم الرب الرحيم، حصلت لهم السلامة التامة من جميع الوجوه، وحصلت لهم تحية ملك الملوك الرب العظيم الرءوف الرحيم، لأهل دار كرامته، الذي أحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبدا. فنرجو ربنا أن لا يحرمنا ذلك النعيم، وأن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم.

﴿ 59 - 67 ﴾ ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ * هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾

﴿ وَ ﴾ يقال يوم القيامة ﴿ امْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي تميزوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة، ليوبخهم ويقرعهم على رءوس الأشهاد قبل أن يدخلهم النار، فيقول لهم ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ أي آمركم وأوصيكم على ألسنة رسلي ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ أي لا تطيعوه؟ وهذا التوبيخ، يدخل فيه التوبيخ عن جميع أنواع الكفر والمعاصي، لأنها كلها طاعة للشيطان وعبادة له ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ فحذرتكم منه غاية التحذير، وأنذرتكم عن طاعته، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه ﴿ وَ ﴾ أمرتكم ﴿ أَنِ اعْبُدُونِي ﴾ بامتثال أوامري وترك زواجري ﴿ هَذَا ﴾ أي عبادتي وطاعتي، ومعصية الشيطان ﴿ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ فعلوم الصراط المستقيم وأعماله ترجع إلى هذين الأمرين. أي فلم تحفظوا عهدي، ولم تعملوا بوصيتي، فواليتم عدوكم ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ أي خلقا كثيرا ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ فلو كان لكم عقل صحيح لما فعلتم ذلك. فإذا أطعتم الشيطان وحق عليكم القول بالعذاب فـ ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ وتكذبون بها، فانظروا إليها عيانا، فهناك يحصل الفزع الأكبر. ثم يكمل ذلك،

بأن يؤمر بهم إلى النار ويقال لهم ﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي ادخلوها على وجه تصلاكم ويحيط بكم حرها بسبب كفركم بآيات الله. قال الله تعالى في بيان وصفهم الفظيع في دار الشقاء ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ بأن نجعلهم خرسا فلا يتكلمون، فلا يقدرون على إنكار ما عملوه من الكفر والتكذيب ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوه، وينطقها الذي أنطق كل شيء ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ ﴾ بأن نُذْهِبَ أبصارهم، كما طمسنا على نطقهم ﴿ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ ﴾ أي فبادروا إليه لأنه الطريق إلى الوصول إلى الجنة ﴿ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ وقد طمست أبصارهم ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ ﴾ أي لأذهبنا حركتهم ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا ﴾ إلى الأمام ﴿ وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ إلى ورائهم ليبعدوا عن النار. والمعنى أن هؤلاء الكفار، حقت عليهم كلمة العذاب، ولم يكن بُدٌّ من عقابهم. في ذلك الموطن ما ثَمَّ إلا النار قد برزت، وليس لأحد نجاة إلا بالعبور على الصراط، وهذا لا يستطيعه إلا أهل الإيمان، الذين يمشون في نورهم، وأما هؤلاء، فليس لهم عند الله عهد في النجاة من النار؛ فإن شاء طمس أعينهم وأبقى حركتهم، فلم يهتدوا إلى الصراط لو استبقوا إليه وبادروه، وإن شاء أذهب حراكهم فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر. المقصود أنهم لا يعبرونه، فلا تحصل لهم النجاة.

﴿ 68 ﴾ ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾

﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ ﴾ من بني آدم ﴿ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ أي يعود إلى ضعف العقل والقوة ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ أن الآدمي ناقص من كل وجه، فيتداركوا قوتهم وعقولهم، فيستعملونها في طاعة ربهم.

﴿ 69 - 70 ﴾ ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ من جنس المحال أن يكون شاعرا، لأنه رشيد مهتد ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ أي ما هذا الذي جاء به إلا ذكر يتذكر به أولو الألباب جميع المطالب الدينية ﴿ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾ أي مبين لما يطلب بيانه. ولهذا حذف المعمول، ليدل على أنه مبين لجميع الحق، بأدلته التفصيلية والإجمالية، والباطل وأدلة بطلانه، أنزله الله كذلك على رسوله ﴿ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾ حي القلب واعيه، فهو الذي يزداد من العلم منه والعمل، ويكون القرآن لقلبه بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ لأنهم قامت عليهم به حجة الله.

﴿ 71 - 73 ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ سخر الأنعام وذللها وجعلهم مالكين لها، مطاوعة لهم في كل أمر يريدونه منها ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ﴾ وجعل لهم فيها منافع كثيرة من حملهم وحمل أثقالهم، ومن أكلهم منها، وفيها دفء، ومن أوبارها وأشعارها وأصوافها أثاثا ومتاعا ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ الله تعالى الذي أنعم بهذه النعم، ويخلصون له العبادة.

﴿ 74 - 75 ﴾ ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ﴾

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ هذا بيان لبطلان آلهة المشركين، التي اتخذوها مع الله تعالى، ورجوا نصرها وشفعها، فإنها في غاية العجز ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ ولا أنفسهم ينصرون ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ﴾ أي محضرون هم وهم في العذاب، ومتبرئ بعضهم من بعض.

﴿ 76 ﴾ ﴿ فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

﴿ فَلَا يَحْزُنْكَ ﴾ يا أيها الرسول ﴿ قَوْلُهُمْ ﴾ قول المكذبين، كل قول يقدحون فيه في الرسول، أو فيما جاء به. أي فلا تشغل قلبك بالحزن عليهم ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ فنجازيهم على حسب علمنا بهم، وإلا فقولهم لا يضرك شيئا.

﴿ 77 - 83 ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ ﴾ المنكر للبعث والشاك فيه، أمرا يفيده اليقين التام بوقوعه ﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ ﴾ ابتداء خلقه ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ ثم تنقله في الأطوار شيئا فشيئا، حتى كبر وشب، وتم عقله واستتب ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ فلينظر التفاوت بين هاتين الحالتين، وليعلم أن الذي أنشأه من العدم قادر على أن يعيده بعد ما تفرق وتمزق ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴾ لا ينبغي لأحد أن يضربه ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ وهو قياس قدرة الخالق بقدرة المخلوق، وأن الأمر المستبعد على قدرة المخلوق مستبعد على قدرة الخالق ﴿ قَالَ ﴾ ذلك الإنسان ﴿ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ أي لا أحد يحييها بعد ما بليت وتلاشت. فأجاب تعالى ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ قادر على الإعادة ثاني مرة، وهو

أهون على القدرة إذا تصوره المتصور ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ هذا أيضا دليل ثان من صفات الله تعالى، وهو أن علمه تعالى محيط بجميع مخلوقاته في جميع أحوالها، في جميع الأوقات. ثم ذكر دليلا ثالثا ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ فإذا أخرج النار من الشجر الأخضر، الذي هو في غاية الرطوبة، مع تضادهما وشدة تخالفهما، فإخراجه الموتى من قبورهم مثل ذلك. ثم ذكر دليلا رابعا فقال ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ على سعتهما وعظمهما ﴿ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ أي أن يعيدهم ﴿ بَلَى ﴾ قادر على ذلك، فإن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ﴿ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ وهذا دليل خامس، فإنه تعالى الخلاق، الذي جميع المخلوقات، متقدمها ومتأخرها، صغيرها وكبيرها، كلها أثر من آثار خلقه وقدرته، وأنه لا يستعصي عليه مخلوق أراد خلقه ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا ﴾ نكرة في سياق الشرط، فتعم كل شيء ﴿ أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أي في الحال من غير تمانع ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وهذا دليل سادس، فإنه تعالى هو الملك المالك لكل شيء. فإعادته إياهم بعد موتهم، لينفذ فيهم حكم الجزاء، من تمام ملكه، ولهذا قال ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ من غير امتراء ولا شك. فتبارك الذي جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور.

تم تفسير سورة يس

فللّه تعالى الحمد كما ينبغي لجلاله

وله الثناء كما يليق بكماله

وله المجد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه

وصلى الله على محمد وآله وسلم

37

مختصر تفسير سورة الصافات

عدد آياتها 182

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 11 ﴾ ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ * إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ * فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ هذا قسم منه تعالى بالملائكة الكرام صفوفا في خدمة ربهم ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴾ الملائكة يزجرون السحاب وغيره بأمر الله ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ الملائكة الذين يتلون كلام الله تعالى، متعبدين في خدمته ولا يعصونه طرفة عين، فأقسم بهم على ألوهيته ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ ليس له شريك في الإلهية، فأخلصوا له الحب والخوف والرجاء وسائر أنواع العبادة ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ هو الخالق لهذه المخلوقات، المدبر لها. فكما أنه لا شريك له في ربوبيته إياها، فكذلك لا شريك له في ألوهيته. وخص الله المشارق بالذكر، لدلالتها على المغارب، أو لأنها مشارق النجوم التي سيذكرها، فلهذا قال ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ زينة للسماء ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر ﴿ وَحِفْظًا ﴾ حراسة السماء ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ. لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى ﴾ يصل بتمرده إلى استماع الملأ الأعلى وهم الملائكة. فإذا استمع ﴿ وَيُقْذَفُونَ ﴾ بالشهب الثواقب ﴿ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴾ طردا لهم ﴿ دُحُورًا ﴾ وإبعادا عن استماع ما يقول الملأ الأعلى ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ أي دائم معد لهم، لتمردهم عن طاعة ربهم ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ﴾ إلا من تلقف من الشياطين المردة، الكلمة الواحدة على وجه الخفية والسرقة ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ تارة يدركه قبل أن يوصلها إلى أوليائه، فينقطع خبر السماء، وتارة يخبر بها قبل أن يدركه الشهاب، فيكذبون معها مائة كذبة يروجونها بسبب الكلمة التي سمعت من السماء ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ أي اسأل منكري خلقهم بعد موتهم ﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ﴾ أي إيجادهم بعد موتهم، أشد خلقا وأشق ﴿ أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾ من هذه المخلوقات؟ فلا بد أن يقروا أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ ﴾ إن ابتداء خلقهم ﴿ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ قوي شديد، أصعب عند التفكر من إنشائهم بعد موتهم.

﴿12 - 21 ﴾ ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ * وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ * وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا

سِحْرٌ مُبِينٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ * وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾

﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ يا أيها الرسول وأيها الإنسان، من تكذيب من كذب بالبعث بعد أن أريتهم من الآيات العظيمة ﴿ وَ ﴾ أعجب من إنكارهم وأبلغ منه أنهم ﴿ يَسْخَرُونَ ﴾ ممن جاء بالخبر عن البعث ﴿ وَ ﴾ من العجب أيضا أنهم ﴿ إِذَا ذُكِّرُوا ﴾ ما يعرفون في فطرهم وعقولهم، وألفت نظرهم إليه ﴿ لَا يَذْكُرُونَ ﴾ ذلك. فإن كان جهلا، فهو من أدل الدلائل على شدة بلادتهم العظيمة، وإن كان تجاهلا وعنادا فهو أعجب وأغرب ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ ومن العجب أيضا أنهم إذا أقيمت عليهم الأدلة، يسخرون منها ويعجبون. ومن العجب أيضا أن ﴿ وَقَالُوا ﴾ للحق لما جاءهم ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ فجعلوا أعلى الأشياء وأجلها، وهو الحق، في رتبة أخس الأشياء وأحقرها. ومن العجب أيضا، قياسهم قدرة رب الأرض والسماوات، على قدرة الآدمي الناقص من جميع الوجوه، فقالوا استبعادا وإنكارا ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ ولما كان هذا منتهى ما عندهم، وغاية ما لديهم، أمر الله رسوله أن يجيبهم بجواب مشتمل على ترهيبهم فقال ﴿ قُلْ نَعَمْ ﴾ ستبعثون، أنتم وآباؤكم الأولون ﴿ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ ذليلون صاغرون، لا تمتنعون، ولا تستعصون على قدرة الله ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ ينفخ إسرافيل فيها في الصور ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ مبعوثون من قبورهم ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ كما ابتدئ خلقهم، بعثوا بجميع أجزائهم، حفاة عراة غرلا، وفي تلك الحال، يظهرون الندم والخزي والخسار ﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ أقروا بما كانوا في الدنيا به يستهزءون. فيقال لهم ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ بين العباد فيما بينهم وبين ربهم من الحقوق، وفيما بينهم وبين غيرهم من الخلق ﴿ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

﴿22 - 26 ﴾ ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾

﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي ﴿ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ الذين من جنس عملهم، كل يضم إلى من يجانسه في العمل ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ من الأصنام والأنداد التي زعموها، فاجمعوهم جميعا ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ أي سوقوهم سوقا عنيفا إلى جهنم ﴿ وَقِفُوهُمْ ﴾ قبل أن توصلوهم إلى جهنم ﴿ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ عما كانوا يفترونه في الدنيا، ليظهر على رءوس الأشهاد كذبهم وفضيحتهم. فيقال لهم ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ لا ينصر بعضكم بعضا، بعدما كنتم تزعمون في الدنيا أن آلهتكم تشفع لكم عند الله. فكأنهم لا يجيبون هذا السؤال، فلم ينطقوا ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ .

﴿27 - 39 ﴾ ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

﴿ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ * بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ * إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ هم وأزواجهم وآلهتهم، يلوم بعضهم بعضا على إضلالهم وضلالهم ﴿ قَالُوا ﴾ فقال الأتباع للمتبوعين الرؤساء ﴿ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ أي بالقوة والغلبة، فتضلونا ﴿ قَالُوا ﴾ لهم ﴿ بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي ما زلتم مشركين، كما نحن مشركون، فأي شيء يوجب لومنا؟ ﴿ وَ ﴾ الحال أنه ﴿ مَا كَانَ لنا عليكم مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي قهر لكم على اختيار الكفر ﴿ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴾ متجاوزين للحد ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا ﴾ نحن وإياكم ﴿ قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ العذاب أي حق علينا قدر ربنا وقضاؤه، أنا وإياكم سنذوق العذاب، ونشترك في العقاب ﴿ فَـ ﴾ لذلك ﴿ أَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ أي دعوناكم إلى طريقتنا التي نحن عليها، وهي الغواية، فاستجبتم لنا، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم. قال تعالى ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ وإن تفاوتت مقادير عذابهم بحسب جرمهم ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ ثم ذكر أن إجرامهم، قد بلغ الغاية وجاوز النهاية فقال ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ فدعوا إليها، وأمروا بترك إلهية ما سواه ﴿ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عنها وعلى من جاء بها ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ معارضة لها ﴿ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا ﴾ التي لم نزل نعبدها نحن وآباؤنا ﴿ لِـ ﴾ قول ﴿ شَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم. فلم يكفهم – قبحهم الله – الإعراض عنه، ولا مجرد تكذيبه، حتى حكموا عليه بأظلم الأحكام، وجعلوه شاعرا مجنونا، وهو أعقل خلق الله، وأعظمهم رأيا. ولهذا قال تعالى ﴿ بَلْ جَاءَ ﴾ محمد ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي مجيئه حق، وما جاء به من الشرع والكتاب حق ﴿ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ بأن جاء بما جاءوا به وأخبر بصحة رسالتهم ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾ المؤلم الموجع ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ ﴾ في إذاقة العذاب الأليم ﴿ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فلم نظلمكم.

﴿40 – 49 ﴾ ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ فإنهم غير ذائقي العذاب الأليم، لأنهم أخلصوا لله الأعمال، فأختصهم برحمته وجاد عليهم بلطفه ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴾ غير مجهول عظيم جليل ﴿ فَوَاكِهُ ﴾ تتفكه بها النفس للذتها في لونها وطعمها ﴿ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴾ لا مهانون محتقرون، بل معظمون مجلون موقرون ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ جناتِ النعيمُ وصفها. ومن كرامتهم عند ربهم، وإكرام بعضهم بعضا، أنهم ﴿ عَلَى سُرُرٍ ﴾ على مجالس مرتفعة مزخرفة، متكئون على وجه الراحة والطمأنينة، والفرح ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ فيما بينهم، فإن مقابلة وجوههم تدل على تقابل قلوبهم ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ أي بالكاسات الجميلة المنظر، المترعة من الرحيق المختوم بالمسك، تخالف خمر الدنيا من كل وجه، فإنها في لونها ﴿ بَيْضَاءَ ﴾ من أحسن الألوان، وفي طعمها ﴿ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ يتلذذ شاربها بها وقت شربها وبعده ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾ وأنها سالمة من غول العقل وذهابه، ونزفه ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ وعند أهل دار النعيم حور حسان، قاصرات الطرف، قصرت طرفها على زوجها، لعفتها وعدم مجاوزته لغيره، ولجمال زوجها وكماله، بحيث لا تطلب في الجنة سواه، ولا ترغب إلا به. وهذا يدل على جمال الرجال

والنساء في الجنة، ومحبة بعضهم بعضا ﴿ عِينٌ ﴾ أي حسان الأعين جميلاتها، ملاح الحدق ﴿ كَأَنَّهُنَّ ﴾ أي الحور ﴿ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ أي مستور.

﴿50 - 61 ﴾ ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ حذف المعمول، والمقام مقام لذة وسرور، فدل ذلك على أنهم يتساءلون بكل ما يلتذون بالتحدث به، ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية في الجنة ما لا يمكن التعبير عنه ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ في الدنيا، ينكر البعث، ويلومني على تصديقي به و﴿ يَقُولُ ﴾ لي ﴿ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ. أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ كيف تصدق بهذا الأمر البعيد، وهو أننا إذا تمزقنا نبعث ونعاد، ثم نحاسب ونجازى بأعمالنا؟ فـ ﴿ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴾ لننظر إليه رَأْيَ عين؟ والظاهر من حال أهل الجنة وموافقة بعضهم بعضا أنهم ذهبوا تبعا له للاطلاع على قرينه ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ ﴾ فرأى قرينه ﴿ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ أي في وسط العذاب وغمراته فـ ﴿ قَالَ ﴾ له لائما على حاله، وشاكرا لله على نعمته أن نجاه من كيده ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ﴾ أي تهلكني بسبب ما أدخلت عليَّ من الشُّبَه بزعمك ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي ﴾ على أن ثبتني على الإسلام ﴿ لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ في العذاب معك ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ. إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ استفهام بمعنى الإثبات والتقرير أي يقول لقرينه المعذب: أفتزعم أننا لسنا نموت سوى الموتة الأولى، ولا بعث بعدها ولا عذاب ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذي حصل لهم به كل خير وكل ما تهوى النفوس ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ فهو أولى ما شمر إليه العارفون، والحسرة أن يمضي على الحازم وقت وهو غير مشتغل بالعمل الذي يقرب لهذه الدار.

﴿62 - 74 ﴾ ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ * إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ * وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾

﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا ﴾ ذلك النعيم الذي وصفناه لأهل الجنة خير، أم العذاب الذي يكون في الجحيم من جميع أصناف العذاب؟ فأي الطعامين أولى؟ الذي وصف في الجنة ﴿ أَمْ ﴾ طعام أهل النار؟ وهو ﴿ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ. إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً ﴾ أي عذابا ونكالا ﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ وسطه فهذا مخرجها، ومعدنها أشر المعادن وأسوؤها، ولهذا نبهنا الله على شرها بما ذكر أين تنبت، وصفة ثمرتها وأن ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ فلا تسأل بعد هذا عن طعمها، وما تفعل في أجوافهم وبطونهم، وليس لهم عنها مندوحة ولا معدل ﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ فهذا طعام أهل النار ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا ﴾ أي على أثر

هذا الطعام ﴿ لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أي: ماء حارا ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ ﴾ مآلهم ومأواهم ﴿ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ ليذوقوا من عذابه الشديد ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ﴾ وجدوا ﴿ آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ. فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ يسرعون في الضلال، فلم يلتفتوا إلى ما دعتهم إليه الرسل، بل عارضوهم ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ ﴾ أي قبل هؤلاء المخاطبين ﴿ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وقليل منهم آمن واهتدى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ ينذرونهم عن غيهم وضلالهم ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ كانت عاقبتهم الهلاك والخزي، فليحذر هؤلاء أن يستمروا على ضلالهم، فيصيبهم مثل ما أصابهم. ولما كان المنذرون ليسوا كلهم ضالين، بل منهم من آمن وأخلص الدين لله، استثناه الله من الهلاك فقال ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي الذين أخلصهم الله، وخصهم برحمته لإخلاصهم، فإن عواقبهم صارت حميدة.

﴿75 - 82 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾ يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام أول الرسل، أنه لما دعا قومه إلى الله تلك المدة الطويلة فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارا، أنه نادى ربه فاستجاب له، ومدح تعالى نفسه فقال ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ لدعاء الداعين ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ ونجاه وأهله من الكرب العظيم، وأغرق جميع الكافرين ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ وأبقى نسله وذريته فجميع الناس من ذرية نوح عليه السلام ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ وجعل له ثناء حسنا مستمرا إلى وقت الآخرين ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وذلك لأنه محسن في عبادة الخالق، محسن إلى الخلق.

﴿ 83 - 113 ﴾ ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّـهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّـهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ * وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّـهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ وإن من شيعة نوح عليه السلام، إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ من الشرك والشبه، ولهذا نصح الخلق في الله ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ هذا استفهام

بمعنى الإنكار، وإلزام لهم بالحجة ﴿ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ أي أتعبدون من دونه آلهة كذبا، ليست بآلهة، ولا تصلح للعبادة ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أن يفعل بكم وقد عبدتم معه غيره؟ وما الذي ظننتم برب العالمين من النقص حتى جعلتم له أندادا وشركاء . فأراد عليه السلام، أن يكسر أصنامهم، ويتمكن من ذلك، فانتهز الفرصة في حين غفلة منهم، لما ذهبوا إلى عيد من أعيادهم، فخرج معهم ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ. فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ والقصد أنه تخلف عنهم، ليتم له الكيد بآلهتهم ﴿ فَـ ﴾ لهذا ﴿ تَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ فلما وجد الفرصة ﴿ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ ﴾ أسرع إليها على وجه الخفية والمراوغة ﴿ فَقَالَ ﴾ متهكما بها ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ. مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴾ أي: فكيف يليق أن تعبد، وهي جماد لا تأكل ولا تكلم ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ أي جعل يضربها بقوته ونشاطه، حتى جعلها جذاذا، إلا كبيرا لهم، لعلهم إليه يرجعون ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ أي يسرعون يريدون أن يوقعوا به ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ بأيديكم وتصنعونه؟ فكيف تعبدونهم، وأنتم الذين صنعتموهم، وتتركون الإخلاص لله ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ. قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا ﴾ عاليا مرتفعا وأوقدوا فيها النار ﴿ فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ جزاء على ما فعل من تكسير آلهتهم ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ رد الله كيدهم في نحورهم، وجعل النار على إبراهيم بردا وسلاما ﴿ وَ ﴾ لما فعلوا فيه هذا الفعل، وأقام عليهم الحجة ﴿ قال إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي ﴾ أي مهاجر إليه، قاصد إلى الأرض المباركة أرض الشام ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ يدلني إلى ما فيه الخير لي من أمر ديني ودنياي ﴿ رَبِّ هَبْ لِي ﴾ ولدا يكون ﴿ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ دعا الله أن يهب له غلاما صالحا فاستجاب الله له وقال ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ وهذا إسماعيل عليه السلام بلا شك ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ ﴾ الغلام ﴿ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ أي أدرك أن يسعى معه، قد ذهبت مشقته وأقبلت منفعته ﴿ قَالَ ﴾ له إبراهيم عليه السلام ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ أي قد رأيت في النوم والرؤيا، أن الله يأمرني بذبحك، ورؤيا الأنبياء وحي ﴿ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ فإن أمر الله تعالى لا بد من تنفيذه ﴿ قَالَ ﴾ إسماعيل صابرا محتسبا، مرضيا لربه، وبارا بوالده ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ أي امض لما أمرك الله ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ أخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ أي إبراهيم وابنه إسماعيل، جازما بقتل ابنه وثمرة فؤاده والابن قد وطَّن نفسه على الصبر، وهانت عليه في طاعة ربه ورضا والده ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أي تل إبراهيم إسماعيل على جبينه، ليضجعه فيذبحه، وقد انكب لوجهه، لئلا ينظر وقت الذبح إلى وجهه ﴿ وَنَادَيْنَاهُ ﴾ في تلك الحال المزعجة، والأمر المدهش ﴿ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ أي قد فعلت ما أمرت به، فإنك وطَّنت نفسك على ذلك، وفعلت كل سبب، ولم يبق إلا إمرار السكين على حلقه ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ في عبادتنا، المقدمين رضانا على شهوات أنفسهم ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ الذي امتحنا به إبراهيم عليه السلام ﴿ لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ أي الواضح، الذي تبين به صفاء إبراهيم وكمال محبته لربه وخلته ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ أي صار بدله ذبح من الغنم عظيم ذبحه إبراهيم. فكان عظيما من جهة أنه كان فداء لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قربانا وسنة إلى يوم القيامة ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أي وأبقينا عليه ثناء صادقا في الآخرين ﴿ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ تحيته عليه ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ في عبادة الله، ومعاملة خلقه ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بما أمر الله بالإيمان به ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ هذه البشارة الثانية بإسحاق، الذي من ورائه يعقوب، فبشر بوجوده وبقائه، ووجود ذريته، وكونه نبيا من الصالحين، فهي بشارات متعددة ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ ﴾ أي أنزلنا عليهما البركة

فنشر الله من ذريتهما ثلاث أمم عظيمة: أمة العرب من ذرية إسماعيل، وأمة بني إسرائيل وأمة الروم من ذرية إسحاق ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ منهم الصالح والطالح، والله أعلم.

﴿114 - 122 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ ابني عمران بالنبوة والرسالة ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ ونجاتهما وقومهما من عدوهما فرعون ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ ونصرهما عليه حتى أغرقه الله وهم ينظرون ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴾ وهو التوراة التي فيها الأحكام والمواعظ وتفصيل كل شيء ﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ بأن شرع لهما دينا ذا أحكام وشرائع مستقيمة موصلة إلى الله، ومَنَّ عليهما بسلوكه ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ أي أبقى عليهما ثناء حسنا، وتحية في الآخرين، ومن باب أولى وأحرى في الأولين ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿123 - 132 ﴾ ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ يمدح تعالى عبده ورسوله إلياس عليه الصلاة والسلام بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أمر قومه بالتقوى وعبادة الله وحده ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ ونهاهم عن عبادتهم صنما لهم يقال له "بعل" ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وتركهم عبادة الله الذي خلق الخلق وأحسن خلقهم ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فيما دعاهم إليه. قال الله متوعدا لهم ﴿ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ يوم القيامة في العذاب ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ الذين أخلصهم الله ومنَّ عليهم باتباع نبيهم، فإن لهم من الله جزيل الثواب ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ ﴾ على إلياس ﴿ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ثناء حسنا ﴿ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ﴾ تحية من الله، ومن عباده عليه ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فأثنى الله عليه كما أثنى على إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿133 - 138 ﴾ ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله، لوط بالنبوة والرسالة، ودعوته إلى الله قومه، ونهيهم عن الشرك، وفعل الفاحشة ﴿ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ فلما لم ينتهوا نجاه الله وأهله أجمعين، فسروا ليلا

فنجوا ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ أي الباقين المعذبين، وهي زوجة لوط لم تكن على دينه ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴾ بأن قلبنا عليهم ديارهم حتى همدوا وخمدوا ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على ديار قوم لوط ﴿ مُصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ ﴾ أي في هذه الأوقات يكثر مروركم بها، فلم تقبل الشك والمرية ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ الآيات والعبر وتنزجرون عما يوجب الهلاك؟

﴿139 - 148 ﴾ ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله يونس بن متى، كما أثنى على إخوانه المرسلين بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله ﴿ إِذْ أَبَقَ ﴾ من ربه مغاضبا له، فعاقبه الله مع كونه من الرسل الكرام ﴿ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ بالركاب والأمتعة، فلما ثقلت السفينة اقترعوا على أن من قرع وغلب ألقي في البحر، فلما أصابت القرعة يونس ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ أي المغلوبين فألقي في البحر ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ ﴾ وقت التقامه ﴿ مُلِيمٌ ﴾ أي فاعل ما يلام عليه، وهو مغاضبته لربه ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ في وقته السابق وفي بطن الحوت ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ لكانت مقبرته، ولكن نجاه الله تعالى ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ ﴾ بأن قذفه الحوت من بطنه بالعراء، وهي الأرض الخالية العارية من كل أحد، بل ربما كانت عارية من الأشجار والظلال ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ قد سقم ومرض، بسبب حبسه في بطن الحوت ﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴾ تظله بظلها الظليل، لأنها باردة الظلال ولا يسقط عليها ذباب، وهذا من لطفه به وبره. ثم لطف به لطفا آخر، وامْتَنَّ عليه مِنّة عظمى ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ ﴾ من الناس ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ عنها، والمعنى أنهم إن ما زادوا لم ينقصوا، فدعاهم إلى الله تعالى ﴿ فَآمَنُوا ﴾ فصاروا في موازينه، لأنه الداعي لهم ﴿ فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ بأن صرف الله عنهم العذاب بعدما انعقدت أسبابه.

﴿149 - 157 ﴾ ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ اسأل المشركين بالله غيره، الذين عبدوا الملائكة، وزعموا أنها بنات الله، فجمعوا بين الشرك بالله، ووصفه بما لا يليق بجلاله ﴿ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ أي هذا قول جائر، من جهة جعلهم الولد لله تعالى، ومن جهة جعلهم الملائكة بنات الله، وحكمهم بذلك. قال تعالى في بيان كذبهم ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ خلقهم؟ ليس الأمر كذلك ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ ﴾ كذبهم الواضح ﴿ لَيَقُولُونَ. وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. أَصْطَفَى ﴾ أي اختار ﴿ الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ. مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ هذا الحكم الجائر ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ وتميزون فإنكم لو

تذكرتم لم تقولوا هذا القول ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴾ حجة ظاهرة على قولكم، من كتاب أو رسول. وكل هذا غير واقع ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فإن من يقول قولا لا يقيم عليه حجة شرعية فإنه كاذب متعمد.

﴿158 - 160 ﴾ ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، وأن أمهاتهم سروات الجن ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ والحال أن الجنة قد علمت أنهم محضرون بين يدي الله ليجازيهم عبادا أذلاء. فلو كان بينهم وبينه نسب، لم يكونوا كذلك ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ الملك العظيم ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ عما يصفه به المشركون ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ لأنهم لم يصفوه إلا بما يليق بجلاله، وبذلك كانوا مخلصين.

﴿161 - 163 ﴾ ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَحِيمِ ﴾

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ أيها المشركون ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴾ لا تقدرون أن تفتنوا وتضلوا أحدا ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَحِيمِ ﴾ إلا من قضى الله أنه من أهل الجحيم. والمقصود بيان عجزهم وعجز آلهتهم عن إضلال أحد، وبيان كمال قدرة الله تعالى. أي فلا تطمعوا بإضلال عباد الله المخلصين.

﴿164 - 166 ﴾ ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ هذا بيان براءة الملائكة عليهم السلام عما قاله فيهم المشركون، وأنهم عباد الله لا يعصونه طرفة عين. فما منهم من أحد إلا له مقام وتدبير قد أمره الله به لا يتعداه ولا يتجاوزه، وليس لهم من الأمر شيء ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ في طاعة الله وخدمته ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ لله عما لا يليق به.

﴿167 - 182 ﴾ ﴿ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ * وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ * سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّـهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴾ لو جاءنا ﴿ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ من الذكر والكتب ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ لأخلصنا لله العبادة. وهم كَذَبَة في ذلك، فقد جاءهم أفضل الكتب ﴿ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ العذاب حين يقع بهم، ولا يحسبوا أيضا أنهم في الدنيا غالبون ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ بل قد سبقت كلمة الله التي لا مرد لها لعباده المرسلين ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ من ربهم ﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ وهذه بشارة

عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴾ أمر رسوله بالإعراض عمن عاندوا ولم يقبلوا الحق، وأنه ما بقي إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ من يحل به النكال، فإنه سيحل بهم ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ. فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ أي نزل عليهم، وقريبا منهم ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ لأنه صباح الشر والعقوبة، والاستئصال ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴾ ثم كرر الأمر بالتَّولي عنهم، وتهديدهم بوقوع العذاب ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ ﴾ أي تنزه وتعالى ﴿ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ الذي عز فقهر كل شيء، واعتز عن كل سوء يصفونه به ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ لسلامتهم من الذنوب والآفات، وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسماوات ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الألف واللام للاستغراق، فجميع أنواع الحمد لله تعالى.

تم تفسير سورة الصافات

في 6 شوال سنة 1343هـ

على يد جامعه

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليما

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

المجلد السابع من تيسير الكريم المنان في تفسير آيات القرآن لجامعه: عبد الرحمن بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين.

38

مختصر تفسيرسورة ص

عدد آياتها 88
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 11 ﴾ ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ * وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ * أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ * أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ * جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾

﴿ ص ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ ذي القدر العظيم والشرف، المُذَكِّر للعباد كل ما يحتاجون إليه من العلم. وهنا لا يحتاج إلى ذكر المقسم عليه، فإن حقيقة الأمر، أن المقسم به وعليه شيء واحد، وهو هذا القرآن. فهدى الله من هدى لهذا ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ امتناع عن الإيمان به واستكبار وشقاق له، أي مشاقة ومخاصمة في رده وإبطاله ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ فتوعدهم بإهلاك القرون الماضية المكذبة بالرسل، وأنهم حين جاءهم الهلاك ﴿ فَنَادَوْا ﴾ واستغاثوا في صرف العذاب عنهم ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ أى وليس الوقت وقت خلاص مما وقعوا فيه، فَلْيَحْذَرْ هؤلاء أن يدوموا على عزتهم وشقاقهم، فيصيبهم ما أصابهم ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ أي عجب هؤلاء المكذبون أن جاءهم منذر منهم، ولكنهم عكسوا القضية فتعجبوا تعجب إنكار ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ وذنبه عندهم أنه ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ كيف ينهى عن اتخاذ الشركاء والأنداد ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ الذي جاء به ﴿ لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ لبطلانه وفساده ﴿ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ ﴾ محرضين قومهم على التمسك بما هم عليه من الشرك ﴿ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ﴾ أى استمروا عليها ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ الذي جاء به محمد من النهي عن عبادتها ﴿ لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ أي له قصد ونية غير صالحة في ذلك ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا ﴾ القول الذي قاله، والدين الذي دعا إليه ﴿ فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ فلا أدركنا عليه آباءنا ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ فامضوا على الذي مضى عليه آباؤكم ﴿ أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ أي ما الذي فضله علينا، حتى ينزل

الذكر عليه من دوننا، ويخصه الله به ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ﴾ ليس عندهم علم ولا بينة ﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ أيتجرأوا وقالوا هذه الأقوال، حيث لم يصبهم من عذاب الله شيء، فلو ذاقوا عذابه لم يتجرأوا ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ فيعطون منها من شاءوا، ويمنعون منها من شاءوا ﴿ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ بحيث يكونون قادرين على ما يريدون ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ الموصلة لهم إلى السماء، فيقطعوا الرحمة عن رسول الله، فكيف يتكلمون، بل سعيهم خائب، وجندهم مهزوم ﴿ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾.

﴿ 12 - 15 ﴾ ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ * إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ * وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ يحذرهم تعالى أن يفعل بهم ما فعل بالأمم من قبلهم ﴿ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ ﴾ قوم هود ﴿ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴾ أى الجنود العظيمة والقوة الهائلة ﴿ وَثَمُود ﴾ قوم صالح ﴿ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴾ أي الأشجار والبساتين الملتفة وهم قوم شعيب ﴿ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴾ الذين اجتمعوا بقوتهم وعَدَدِهمْ وعُدَدِهمْ على رد الحق، فلم تغن عنهم شيئا ﴿ إِنْ كُلٌّ ﴾ من هؤلاء ﴿ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ ﴾ عليهم ﴿ عِقَابِ ﴾ الله، فما الذي يزكي هؤلاء أن لا يصيبهم ما أصاب أولئك، فلينتظروا ﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ أي من رجوع ورد، تهلكهم إن أقاموا على ما هم عليه.

﴿ 16 - 17 ﴾ ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ * اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾

﴿ وَقَالُوا ﴾ هؤلاء المكذبون مستعجلين للعذاب ﴿ رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا ﴾ ما قسم لنا من العذاب عاجلا ﴿ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ وزعموا أن علامة صدقك يا محمد أن تأتينا بالعذاب، فقال لرسوله ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ كما صبر مَنْ قبلك من الرسل ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ﴾ نبي الله داود عليه الصلاة والسلام من أعظم العابدين ﴿ ذَا الْأَيْدِ ﴾ أي القوة العظيمة على عبادة الله تعالى في بدنه وقلبه ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ رجَّاع إلى الله في جميع الأمور بالإنابة إليه. ومن شدة إنابته لربه وعبادته

﴿ 18 - 20 ﴾ ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ ﴾ فقد أكرم الله نبيه داود عليه السلام بحسن الصوت العظيم فجعل الله بسببه الجبال الصم والطيور البهم، يجاوبنه إذا رجَّع صوته بالتسبيح، ويسبحن معه ﴿ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ أول النهار وآخره ﴿ وَ ﴾ سخر ﴿ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ مجموعة معه ﴿ كُلٌّ ﴾ من الجبال والطير لله تعالى ﴿ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ فهذه مِنَّةُ الله عليه بالعبادة ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ أي قويناه بما أعطيناه من الأسباب وكثرة الْعَدَد والْعُدَدِ التي بها قوَّى الله ملكه. ثم ذكر منته عليه بالعلم ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ أي النبوة والعلم العظيم ﴿ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ أي

الخصومات بين الناس.

﴿ 21 - 26 ﴾ ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ * يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ﴾ فإنه نبأ عجيب ﴿ إِذْ تَسَوَّرُوا ﴾ على داود ﴿ الْمِحْرَابَ ﴾ أي محل عبادته من غير إذن ولا استئذان، ولم يدخلوا عليه مع باب ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ فلذلك لما دخلوا عليه بهذه الصورة، فزع منهم وخاف، فـ ﴿ قَالُوا ﴾ له ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ نحن ﴿ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾ بالظلم ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أي بالعدل، ولا تمل مع أحدنا ﴿ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ فقال أحدهما ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي ﴾ نص على الأخوة في الدين أو النسب أو الصداقة، لاقتضائها عدم البغي، وأن بغيه الصادر منه أعظم من غيره ﴿ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ أي زوجة، وذلك خير كثير، يوجب عليه القناعة بما آتاه الله ﴿ وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ فطمع فيها ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ أي دعها لي، وخلها في كفالتي ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ أي غلبني في القول، فلم يزل بي حتى أدركها أو كاد. فـ ﴿ قَالَ ﴾ داود ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ وهذه عادة الخلطاء والقرناء الكثير منهم، فقال ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ لأن الظلم من صفة النفوس ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فإن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح، يمنعهم من الظلم ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ ﴾ حين حكم بينهما ﴿ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ أي اختبرناه ودبرنا عليه هذه القضية ليتنبه ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ﴾ لما صدر منه ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ أي ساجدا ﴿ وَأَنَابَ ﴾ لله تعالى بالتوبة النصوح والعبادة. وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام، لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ الذي صدر منه، وأكرمه الله بأنواع الكرامات ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى ﴾ أي منزلة عالية، وقربة منا ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أي مرجع ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ تنفذ فيها القضايا الدينية والدنيوية ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ أي العدل ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى ﴾ فتميل مع أحد، لقرابة أو صداقة أو محبة، أو بغض للآخر ﴿ فَيُضِلَّكَ ﴾ الهوى ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ويخرجك عن الصراط المستقيم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ خصوصا المتعمدين منهم ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ فلو ذكروه ووقع خوفه في قلوبهم، لم يميلوا مع الهوى الفاتن.

﴿ 27 - 29 ﴾ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ * كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ أي عبثا ولعبا من غير فائدة ولا مصلحة وإنما خلقها بالحق وللحق ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بربهم، حيث ظنوا ما لا يليق بجلاله ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ فإنها التي تأخذ الحق منهم. ولا يظن الجاهل بحكمة الله أن يسوي الله بينهما في حكمه، ولهذا قال ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ هذا غير لائق بحكمتنا وحكمنا ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾ فيه خير كثير، وكل هدى من ضلالة، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أولو العقول الصحيحة، فدل هذا على أنه بحسب لب الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب.

﴿ 30 - 40 ﴾ ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ * وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ﴾ أنعمنا به عليه، وأقررنا به عينه ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ سليمان عليه السلام، فإنه اتصف بما يوجب المدح، وهو ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي رجّاع إلى الله في جميع أحواله ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ عرضت عليه الخيل الجياد السبق الصافنات أي التي من وصفها الصفون، وهو رفع إحدى قوائمها عند الوقوف، وكان لها منظر رائق، وجمال معجب فألهته عن صلاة المساء وذكره ﴿ فَقَالَ ﴾ ندما وتقديما لحب الله على حب غيره ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ ﴾ أي آثرت حب الخير الذي هو المال عموما، وفي هذا الموضع المراد الخيل ﴿ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ غابت الشمس في الحجاب ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ فردوها ﴿ فَطَفِقَ ﴾ فيها ﴿ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ أي جعل يعقرها بسيفه، في سوقها وأعناقها ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ أي ابتليناه واختبرناه بذهاب ملكه وانفصاله عنه بسبب خلل اقتضته الطبيعة البشرية ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ أي شيطانا قضى الله وقدر أن يجلس على كرسي ملكه، ويتصرف في الملك في مدة فتنة سليمان ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ سليمان إلى الله تعالى وتاب ف ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ فاستجاب الله له وغفر له، ورد عليه ملكه، وزاده ملكا لم يحصل لأحد من بعده ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ . وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ وهو تسخير الشياطين له، يبنون ما يريد، ويغوصون له في البحر، يستخرجون الدر والحلي ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ ومن عصاه منهم قرنه في الأصفاد وأوثقه. وقلنا له ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا ﴾ فَقَرَّ به عينا ﴿ فَامْنُنْ ﴾ على من شئت ﴿ أَوْ أَمْسِكْ ﴾ من شئت

﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي لا حرج عليك في ذلك ولا حساب، لعلمه تعالى بكمال عدله، وحسن أحكامه، ولا تحسبن هذا لسليمان في الدنيا دون الآخرة، بل له في الآخرة خير عظيم ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أي هو من المقربين عند الله المكرمين بأنواع الكرامات لله.

﴿ 41 - 44 ﴾ ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ *وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾

﴿ وَاذْكُرْ ﴾ في هذا الكتاب ذي الذكر ﴿ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾ وأثن عليه بأحسن الثناء، حين صبر على ضره، فلم يشتك لغير ربه، ولا لجأ إلا إليه ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ داعيا، وإليه لا إلى غيره شاكيا: رب ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ أي بأمر مشق متعب معذب، وكان سلط على جسده فنفخ فيه حتى تقرح، ثم تقيح بعد ذلك واشتد به الأمر، وكذلك هلك أهله وماله. فقيل له ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ أي اضرب الأرض بها لينبع لك منها ﴿ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ فيذهب عنك الضر والأذى، ففعل ذلك، فذهب عنه الضر، وشفاه الله تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ ﴾ قيل إن الله تعالى أحياهم له ﴿ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ في الدنيا، وأغناه الله، وأعطاه مالا عظيما ﴿ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ بعبدنا أيوب، حيث صبر فأثبناه من رحمتنا ثوابا عاجلا وآجلا ﴿ وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي وليتذكر أولو العقول بحالة أيوب ويعتبروا، فيعلموا أن من صبر على الضر، أن الله تعالى يثيبه ثوابا عاجلا وآجلا ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾ أي حزمة شماريخ ﴿ فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ قال المفسرون: وكان في مرضه وضره قد غضب على زوجته في بعض الأمور، فحلف: لئن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة، فلما شفاه الله، وكانت امرأته صالحة محسنة إليه، رحمها الله ورحمه، فأفتاه أن يضربها بضغث فيه مائة شمراخ ضربة واحدة، فيبر في يمينه ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ ﴾ أي أيوب ﴿ صَابِرًا ﴾ أي ابتليناه بالضر العظيم، فصبر لوجه الله تعالى ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ الذي كمل مراتب العبودية، في حال السراء والضراء، والشدة والرخاء ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي كثير الرجوع إلى الله.

﴿ 45 - 47 ﴾ ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا ﴾ الذين أخلصوا لنا العبادة ذكرا حسنا ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ الخليل ﴿ وَ ﴾ ابنه ﴿ إِسْحَاقَ وَ ﴾ ابن ابنه ﴿ يَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي ﴾ أي القوة على عبادة الله تعالى ﴿ وَالْأَبْصَارِ ﴾ أي البصيرة في دين الله. فوصفهم بالعلم النافع، والعمل الصالح الكثير ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ﴾ عظيمة، وخصيصة جسيمة، وهي ﴿ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ جعلنا ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم، وجعلناهم ذكرى الدار يتذكر بأحوالهم المتذكر ويذكرون بأحسن الذكر ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ ﴾ الذين اصطفاهم الله من صفوة خلقه ﴿ الْأَخْيَارِ ﴾ الذين لهم كل خلق كريم، وعمل مستقيم.

﴿ 48 - 54 ﴾ ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ * هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ

جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ * مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ * وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ * إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾

﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾ واذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر، وأثن عليهم أحسن الثناء، فإن كلا منهم من الأخيار الذين اختارهم الله من الخلق ﴿ هَذَا ﴾ أي ذكر هؤلاء الأنبياء الصفوة ﴿ ذِكْرٌ ﴾ يتذكر بأحوالهم المتذكرون ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ربهم بامتثال الأوامر واجتناب النواهي ﴿ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أي لمآبا حسنا، ومرجعا مستحسنا ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ أي جنات إقامة ليسوا بخارجين منها ولا بمخرجين ﴿ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾ أي لا يحتاجون أن يفتحوها هم بل هم مخدومون ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ على الأرائك والمجالس المزخرفات ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا ﴾ يأمرون خدامهم أن يأتوا ﴿ بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ من كل ما تشتهيه نفوسهم ﴿ وَعِنْدَهُمْ ﴾ من أزواجهم الحور العين ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ على أزواجهن، وطرف أزواجهن عليهن، لجمالهم كلهم، ومحبة كل منهما للآخر ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ أي على سن واحد، أعدل سن الشباب وأحسنه وألذه ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾ أيها المتقون ﴿ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ جزاء على أعمالكم الصالحة ﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا ﴾ الذي أوردناه على أهل دار النعيم ﴿ مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ أي انقطاع.

﴿ 55 - 64 ﴾ ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ * هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ * قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ * وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ * إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾

﴿ هَذَا ﴾ الجزاء للمتقين ما وصفناه ﴿ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ ﴾ أي المتجاوزين للحد في الكفر والمعاصي ﴿ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ أي لشر مرجع ومنقلب ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ التي جمع فيها كل عذاب ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يعذبون فيها عذابا يحيط بهم من كل وجه ﴿ فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ المعد لهم مسكنا ومستقرا ﴿ هَذَا ﴾ العذاب الشديد ﴿ فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ ﴾ ماء حار يشربونه فيقطعُ أمعاءهم ﴿ وَغَسَّاقٌ ﴾ وهو قيح وصديد كريه الرائحة ﴿ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ ﴾ من نوعه ﴿ أَزْوَاجٌ ﴾ أصناف من العذاب. وعند تواردهم على النار يشتم بعضهم بعضا، ويقول بعضهم لبعض ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ﴾ النار ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ. قَالُوا ﴾ أي الفوج المقبل المقتحم ﴿ بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ ﴾ أي العذاب ﴿ لَنَا ﴾ بدعوتكم لنا، وفتنتكم ﴿ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ قرار السوء والشر. ثم دعوا على المغوين لهم، فـ ﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ . وَقَالُوا ﴾ وهم في النار ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴾ أي كنا نزعم أنهم من الأشرار، المستحقين لعذاب النار، وهم المؤمنون، تفقدهم أهل النار - قبحهم الله - هل يرونهم في النار؟ ﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴾ إما أننا غالطون في عدنا إياهم من الأشرار من باب السخرية والاستهزاء بهم ، بل هم من الأخيار. أو فهم معنا معذبون ولكن تجاوزتهم أبصارنا ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ الذي ذكرت لكم ﴿ لَحَقٌّ ﴾ ما فيه شك ولا مرية ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ .

﴿ 65 - 88 ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ * قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين، إن طلبوا منك ما ليس لك ولا بيدك ﴿ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ ﴾ هذا نهاية ما عندي، وأما الأمر فلله تعالى ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ أي ما أحد يؤله ويعبد بحق إلا الله ﴿ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ هذا تقرير لألوهيته بهذا البرهان القاطع وهو وحدته تعالى وقهره لكل شيء﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي خالقهما، ومربيهما ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الذي له القوة، التي بها خلق المخلوقات العظيمة ﴿ الْغَفَّارُ ﴾ لجميع الذنوب لمن تاب إليه ﴿ قُلْ ﴾ لهم مخوفا ومحذرا ومنذرا ﴿ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ ما أنبأتكم به من البعث والنشور والجزاء خبر عظيم لا ينبغي إغفاله ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى ﴾ أي الملائكة ﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ لولا تعليم الله إياي ﴿ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ ظاهر النذارة، جليها، فلا نذير أبلغ من نذارته صلى الله عليه ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ على وجه الإخبار ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾ مادته من طين ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ سويت جسمه وتم ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ فلما تم خلقه في بدنه وروحه وامتحن الله آدم والملائكة في العلم وظهر فضله عليهم أمرهم الله بالسجود ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ ﴾ عن أمر ربه واستكبر على آدم ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ في علم الله تعالى فـ ﴿ قَالَ ﴾ الله موبخا ومعاتبا ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ أي شرفته وكرمته واختصصته بهذه الخصيصة، التي اختص بها عن سائر الخلق، وذلك يقتضي عدم التكبر عليه ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ ﴾ في امتناعك ﴿ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ. قَالَ ﴾ إبليس معارضا لربه ومناقضا ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ وبزعمه أن عنصر النار خير من عنصر الطين، وهذا من القياس الفاسد فـ ﴿ قَالَ ﴾ الله له ﴿ فَاخْرُجْ مِنْهَا ﴾ أي من السماء والمحل الكريم ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ مبعد مدحور ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ﴾ طردي وإبعادي ﴿ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ دائما أبدا ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ لشدة عداوته لآدم وذريته، ليتمكن من إغواء من قدر الله أن يغويه فـ ﴿ قَالَ ﴾ الله مجيبا لدعوته، حيث اقتضت حكمته ذلك ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ حين تستكمل الذرية، يتم الامتحان. فلما علم أنه منظر، بادى ربه، من خبثه، بشدة العداوة لربه ولآدم وذريته، فـ ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يحتمل أن الباء للقسم، وأنه أقسم بعزة الله ليغوينهم كلهم أجمعين ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ علم أن الله سيحفظهم من كيده. ويحتمل أن الباء للاستعانة، وأنه لما علم أنه عاجز من كل وجه،

وأنه لا يضل أحدا إلا بمشيئة الله تعالى، فاستعان بعزة الله على إغواء ذرية آدم هذا، وهو عدو الله حقا[1] ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾ أي الحق وصفي، والحق قولي ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فلما بين الرسول للناس الدليل ووضح لهم السبيل قال الله له ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على دعائي إياكم ﴿ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ أدعي أمرا ليس لي، وأقفو ما ليس لي به علم، لا أتبع إلا ما يوحى إليَّ ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي هذا الوحي والقرآن ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ يتذكرون به كل ما ينفعهم، من مصالح دينهم ودنياهم، فيكون شرفا ورفعة للعاملين به، وإقامة حجة على المعاندين ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ ﴾ أي خبره ﴿ بَعْدَ حِينٍ ﴾ وذلك حين يقع عليهم العذاب وتتقطع عنهم الأسباب.

فهذه السورة العظيمة، أكثر التذكير بها كقوله: واذكر عبدنا – واذكر عبادنا – رحمة من عندنا وذكرى – هذا ذكر.

اللّهم علمنا منه ما جهلنا، وذكرنا منه ما نسينا، نسيان غفلة ونسيان ترك.

تم تفسير سورة ص

بمنه تعالى وعونه

---

[1] ونحن يا ربنا العاجزون المقصرون، المقرون لك بكل نعمة، ذرية من شرفته وكرمته، فنستعين بعزتك العظيمة، وقدرتك، ورحمتك الواسعة لكل مخلوق، ورحمتك التي أوصلت إلينا بها، ما أوصلت من النعم الدينية والدنيوية، وصرفت بها عنا ما صرفت من النقم، أن تعيننا على محاربته وعداوته، والسلامة من شره وشركه، ونحسن الظن بك أن تجيب دعاءنا، فقد دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا ﴿ إنك لا تخلف الميعاد ﴾ .

39

مختصر تفسير سورة الزمر

عدد آياتها 75

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 3 ﴾ ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ يخبر تعالى عن عظمة القرآن وأنه نزل من الله العزيز الحكيم الكامل من كل وجه، فكذلك كلامه كامل من كل وجه ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ ولكنه زاد بيانا لكماله بمن نزل عليه، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، الذي هو أشرف الخلق فعلم أنه أشرف الكتب، نزل ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ الذي لا مرية فيه﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ أي أخلص لله تعالى جميع دينك، لا غير ذلك من المقاصد ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ ارتضاه تعالى لنفسه، وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ أي يتولونهم بعبادتهم ودعائهم، معتذرين عن أنفسهم قائلين ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ أي لترفع حوائجنا

لله، وتشفع لنا عنده. لكن الرب تعالى أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها ولا يحتاج من يخبره بأحوال رعيته وعباده. وجميع الشفعاء يخافونه، فلا يشفع منهم أحد إلا بإذنه، وله الشفاعة كلها. ولهذا قال حاكما بين المخلصين والمشركين، وفي ضمنه التهديد للمشركين ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ وقد علم أن المؤمنين المخلصين في جنات النعيم، ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي ﴾ أي لا يوفق للهداية إلى الصراط المستقيم ﴿ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أي وصفه الكذب أو الكفر.

﴿ 4 ﴾ ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ كما زعم سفهاء الخلق ﴿ لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ وجعله بمنزلة الولد، ولم يكن حاجة إلى اتخاذ الصاحبة ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ عما ظنه به الكافرون، أو نسبه إليه الملحدون ﴿ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ ﴾ في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته وفي أفعاله، فلا شبيه له في شيء، فلو كان له ولد لاقتضى أن يكون شبيها له في وحدته، لأنه بعضه، وجزء منه ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ فلو كان له ولد لم يكن مقهورا، ولكان له إدلال على أبيه ومناسبة منه. ووحدته تعالى وقهره متلازمان، فالواحد لا يكون إلا قهارا، والقهار لا يكون إلا واحدا، وذلك ينفي الشركة له من كل وجه.

﴿ 5 – 7 ﴾ ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا

هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ *خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ * إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ بالحكمة والمصلحة، وليأمر العباد وينهاهم، ويثيبهم ويعاقبهم ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ يدخل كلا منهما على الآخر ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ بتسخير منظم، وسير مقنن ﴿ كُلٌّ ﴾ من الشمس والقمر ﴿ يَجْرِي ﴾ متأثرا عن تسخيره تعالى ﴿ لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ وهو انقضاء هذه الدار وخرابها، فيخرب الله آلاتها وشمسها وقمرها، وينشئ الخلق نشأة جديدة ليستقروا في دار القرار، الجنة أو النار ﴿ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يغالب، القاهر لكل شيء، الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة وسخرها تجري بأمره ﴿ الْغَفَّارُ ﴾ لذنوب عباده التوابين المؤمنين. ومن عزته أن ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ على كثرتكم وانتشاركم في أنحاء الأرض ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ وذلك ليسكن إليها وتسكن إليه، وتتم بذلك النعمة ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ﴾ أي خلقها بقدر نازل منه، رحمة بكم ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ وهي التي ذكرها في سورة الأنعام من الضأن والمعز والإبل والبقر، وخصها بالذكر لكثرة نفعها ولاختصاصها بأشياء لا يصلح غيرها كالأضحية والهدي والعقيقة، ووجوب الزكاة فيها واختصاصها بالدية. ولما ذكر خلق أبينا وأمنا، ذكر ابتداء خلقنا، فقال

﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ أي طورا بعد طور، وأنتم في حال لا يد مخلوق تمسكم، ولا عين تنظر إليكم، وهو قد رباكم في ذلك المكان الضيق ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ ظلمة البطن ثم ظلمة الرحم ثم ظلمة المشيمة ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ الذي خلق السماوات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وخلقكم وخلق لكم الأنعام والنعم ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ المألوه المعبود، الذي رباكم ودبركم ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ بعد هذا البيان ببيان استحقاقه تعالى للإخلاص وحده إلى عبادة الأوثان، التي لا تدبر شيئا، وليس لها من الأمر شيء ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ﴾ لا يضره كفركم، كما لا ينتفع بطاعتكم ﴿ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ لكمال إحسانه بهم، وعلمه أن الكفر يشقيهم شقاوة لا يسعدون بعدها ﴿ وَإِنْ تَشْكُرُوا ﴾ لله تعالى بتوحيده، وإخلاص الدين له ﴿ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ لرحمته بكم، ومحبته للإحسان عليكم، ولفعلكم ما خلقكم لأجله ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ كل أحد منكم له عمله، من خير وشر ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ ﴾ في يوم القيامة ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ إخبارا أحاط به علمه، وجرى عليه قلمه، وكتبته عليكم الحفظة الكرام، وشهدت به عليكم الجوارح، فيجازي كلا منكم ما يستحقه ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي بنفس الصدور. والمقصود من هذا الإخبار بالجزاء بالعدل التام.

﴿ 8 ﴾ ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ حين يمسه مرض أو فقر أو وقوع في كربة يعلم أنه لا ينجيه إلا الله، فيدعوه متضرعا منيبا، ويستغيث به ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ ﴾ الله ﴿ نِعْمَةً مِنْهُ ﴾ بأن كشف ما به من الضر والكربة ﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ نسي ذلك الضر الذي دعا الله لأجله، ومر كأنه ما أصابه ضر، واستمر على شركه ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أي ليضل بنفسه، ويضل غيره، لأن الإضلال فرع عن الضلال ﴿ قُلْ ﴾ لهذا العاتي الذي بدل نعمة الله كفرا ﴿ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ فلا يغنيك ما تتمتع به إذا كان المآل النار.

﴿ 9 ﴾ ﴿ أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

﴿ أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴾ فليس المعرض عن طاعة ربه كمن هو قانت مطيع لله بأفضل العبادات وهي الصلاة، وأفضل الأوقات وهو أوقات الليل. هذا من عمله الظاهر. أمّا عمله الباطن فهو الخوف ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ ﴾ على ما سلف من الذنوب ﴿ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ ورجاء رحمة الله ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ ﴾ ربهم ويعلمون دينه الشرعي ودينه الجزائي، وما له في ذلك من الأسرار والحكم ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ شيئا من ذلك؟ لا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ إذا ذكروا ﴿ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أهل العقول الذين يؤثرون العلم على الجهل، وطاعة الله على مخالفته. لأن لهم عقولا ترشدهم للنظر في العواقب، بخلاف من لا لب له ولا

عقل، فإنه يتخذ إلهه هواه.

﴿ 10 ﴾ ﴿ قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ قل مناديا لأشرف الخلق، وهم المؤمنون، آمرا لهم بأفضل الأوامر، وهي التقوى. كما تقول: أيها الكريم تصدق، وأيها الشجاع قاتل. وذكر لهم الثواب المنشط في الدنيا فقال ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ﴾ بعبادة ربهم ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ ورزق واسع، ونفس مطمئنة ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ إذا منعتم من عبادته في أرض، فهاجروا إلى غيرها، تعبدون فيها ربكم، وتتمكنون من إقامة دينكم ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي بغير حد ولا عد ولا مقدار. وهذا عام في جميع أنواع الصبر، الصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤديها.

﴿ 11 - 16 ﴾ ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ * لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ يا أيها الرسول للناس ﴿ إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له

الدين. ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ لأني الداعي الهادي للخلق إلى ربهم، فيقتضي أني أول من ائتمر بما آمر به، وأول من أسلم ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ في ما أمرني به من الإخلاص والإسلام ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يخلد فيه من أشرك، ويعاقب فيه من عصى ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ ﴾ حقيقة هم ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ حيث حرموها الثواب، واستحقت بسببهم وخيم العقاب ﴿ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي فرق بينهم وبينهم، واشتد عليهم الحزن، وعظم الخسران ﴿ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ الذي لا ربح بعده ولا سلامة ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ أي قطع عذاب كالسحاب العظيم ﴿ ذَلِكَ ﴾ الوصف الذي وصفنا به عذاب أهل النار ﴿ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ سوط يسوق الله به عباده إلى رحمته ﴿ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ أي جعل ما أعده لأهل الشقاء من العذاب داع يدعو عباده إلى التقوى، وزاجر عما يوجب العذاب.

﴿ 17 - 18 ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ عبادة غير الله ﴿ أَنْ يَعْبُدُوهَا ﴾ فاجتنبوها في عبادتها. والمدح يتناول المجتنب لها في عبادتها ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ بعبادته وإخلاص الدين له ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾ في الحياة الدنيا بالثناء الحسن والعناية الربانية من الله، وفي الآخرة عند الموت وفي القبر وفي

القيامة من دوام رضوانه وبره وإحسانه وحلول أمانه في الجنة ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ. الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ ﴾ يستمعون جنس القول ليميزوا بين ما ينبغي إيثاره مما ينبغي اجتنابه ﴿ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ فمن حزمهم وعقلهم يتبعون أحسنه ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ﴾ لأحسن الأخلاق والأعمال ﴿ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أي العقول الزاكية. فإن الذي لا يميز بين الأقوال، حسنها وقبيحها، ليس من أهل العقول الصحيحة. أو الذى يميز، وبقي عقله تابعا لشهوته فلم يؤثر الأحسن، كان ناقص العقل.

﴿ 19 – 20 ﴾ ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ * لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ﴾ باستمراره على غيه وعناده وكفره ﴿ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ فإنه لا حيلة لك في هدايته ولا تقدر تنقذ من في النار ﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ﴾ أعد لهم أنواع النعيم ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ ﴾ أي منازل عالية مزخرفة يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ومن علوها وارتفاعها ﴿ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ ﴾ بعضها فوق بعض ﴿ مَبْنِيَّةٌ ﴾ بذهب وفضة وملاطها المسك الأذفر ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ المتدفقة ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ فليوفوا بخصال التقوى ليوفيهم أجورهم.

﴿ 21 ﴾﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي

ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أودعه فيها ينبوعا، يستخرج بسهولة ويسر ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ من بر وذرة، وشعير وأرز، وغير ذلك ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ ييبس، عند استكماله أو عند حدوث آفة فيه ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ﴾ متكسرا ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ يذكرون بها عناية ربهم ورحمته بعباده.

﴿ 22 ﴾ ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ أفيستوي من شرح الله صدره للإسلام، فاتسع لتلقي أحكام الله والعمل بها ﴿ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ كمن ليس كذلك، بدليل قوله ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ لا تلين لكتابه، ولا تتذكر آياته، ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن ربها ﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ وأي ضلال أعظم من ضلال من أعرض عن وليه؟

﴿ 23 ﴾ ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ ﴾ كتابه ﴿ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ على الإطلاق. وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن. ألفاظه أفصح الألفاظ وأوضحها، ومعانيه أجل المعاني ﴿ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾ في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف.

اتفاقه حتى في معانيه الغامضة يبهر الناظرين، لا يصدر إلا من حكيم عليم ﴿ مَثَانِيَ ﴾ أي تثنى فيه القصص والأحكام، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتثنى فيه أسماء الله وصفاته، وهذا من جلالته، وحسنه. وهكذا ينبغي للقارئ للقرآن أن لا يدع التدبر في جميع المواضع منه ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ لما فيه من التخويف والترهيب ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ عند ذكر الرجاء والترغيب ﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي ذكره الله من تأثير القرآن فيهم أو القرآن الذي وصفناه لكم ﴿ هُدَى اللَّهِ ﴾هداية منه لعباده ﴿ يَهْدِي بِهِ ﴾ أي بسبب ذلك ﴿ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ممن حسن قصده ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه للإقبال على كتابه.

﴿ 24 - 26 ﴾ ﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ * كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أفيستوي هذا الذي هداه الله كمن كان في الضلال واستمر على عناده حتى جاءه العذاب العظيم فجعل يتقي بوجهه الذي هو أشرف الأعضاء ﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ﴾ أنفسهم، بالكفر والمعاصي، توبيخا وتقريعا ﴿ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ. كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم كما كذب هؤلاء ﴿ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ جاءهم في غفلة أو هم قائلون ﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ ﴾ بذلك العذاب ﴿ الْخِزْيَ

﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فافتضحوا عند الله وعند خلقه ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ فليحذر هؤلاء من التكذيب فيصيبهم ما أصاب أولئك من التعذيب.

﴿ 27 - 31 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ يقرب حقائق الأشياء ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ عندما نوضح لهم الحق فيعلمون ويعملون ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ واضح الألفاظ، سهل المعاني ﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ ليس فيه خلل ولا نقص لا في ألفاظه ولا في معانيه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الله تعالى. ثم ضرب مثلا للشرك والتوحيد فقال ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا ﴾ أي عبدا ﴿ فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ كثيرون، متنازعون فيه، فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟ ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ ﴾ أي خالصا له، قد عرف مقصود سيده ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ أي هذان الرجلان ﴿ مَثَلًا ﴾ لا يستويان. كذلك المشرك، يدعو هذا ثم يدعو هذا، فتراه لا يطمئن قلبه في موضع، والموحد مخلص لربه، قد خلصه الله من الشركة لغيره، فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة، فـ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على تبيين الحق من الباطل، وإرشاد الجهال ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ أي كلكم

لا بد أن يموت ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ فيما تنازعتم فيه فيفصل بينكم بحكمه العادل ويجازي كُلًّا ما عمله.

﴿ 32 - 35 ﴾ ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ * وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ لا أظلم وأشد ظلما ﴿ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ﴾ إما بنسبته إلى ما لا يليق بجلاله، أو بادعاء النبوة، أو الإخبار بأن الله تعالى قال كذا، أو أخبر بكذا، أو حكم بكذا وهو كاذب ﴿ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ﴾ فإن كان جامعا بين الكذب على الله والتكذيب بالحق، كان ظلما على ظلم ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ يحصل بها أخذ حق الله من كل ظالم وكافر[1]، ثمّ ذكر الصادق المصدق وثوابه ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾ في قوله وعمله ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ أي بالصدق لأنه قد يجيء الإنسان بالصدق، ولكن قد لا يصدق به بسبب استكباره، أو احتقاره لمن قاله وأتى به ﴿ أُولَئِكَ ﴾ أي الذين وفقوا للجمع بين الأمرين ﴿ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ فإن جميع خصال التقوى ترجع إلى الصدق بالحق والتصديق به ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ من الثواب ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ إلى عباد الله ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ أي ذنوبهم الصغار بسبب إحسانهم وتقواهم ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي بحسناتهم كلها. والأسوأ المعاصي

---

[1] ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

كلها، والأحسن الطاعات كلها.

﴿ 36 - 37 ﴾ ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴾

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم، فإن الله تعالى سيكفيه في أمر دينه ودنياه، ويدفع عنه من ناوأه بسوء ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ من الأصنام والأنداد أن تنالك بسوء ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ. وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴾ لأنه تعالى الذي بيده الهداية والإضلال، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ﴾ له العزة الكاملة التي قهر بها كل شيء، وبعزته يكفي عبده ويدفع عنه مكرهم ﴿ ذِي انْتِقَامٍ ﴾ ممن عصاه، فاحذروا موجبات نقمته.

﴿ 38 ﴾ ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾ الذين يخوفونك بالذين من دونه، فقلت ﴿ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ لم يثبتوا لآلهتهم من خلقها شيئا ﴿ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ الذي خلقها. وحده ﴿ قُلْ ﴾ لهم مقررا عجز آلهتهم، بعد ما تبينت قدرة الله ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ أي أخبروني ﴿ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ أيَّ ضر كان ﴿ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ بإزالته بالكلية، أو

بتخفيفه من حال إلى حال؟ ﴿ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ ﴾ يوصل إليَّ بها منفعة في ديني أو دنياي ﴿ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ ومانعاتها عني؟ سيقولون لا يكشفون الضر ولا يمسكون الرحمة ﴿ قُلْ ﴾ لهم مستجلبا كفايته، مستدفعا مكرهم وكيدهم ﴿ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ عليه يعتمد المعتمدون في جلب مصالحهم ودفع مضارهم. فالذي بيده وحده الكفاية هو حسبي، سيكفيني كل ما أهمني وما لا أهتم به.

﴿ 39 - 40 ﴾ ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ لهم يا أيها الرسول ﴿ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي على حالتكم التي رضيتموها لأنفسكم، من عبادة من لا يستحق من العبادة شيئا ولا له من الأمر شيء ﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ على ما دعوتكم إليه، من إخلاص الدين لله تعالى وحده ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ لمن العاقبة و ﴿ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ في الدنيا ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ ﴾ في الأخرى ﴿ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ لا يحول عنه ولا يزول.

﴿ 41 ﴾ ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ أنزل على رسوله الكتاب المشتمل على الحق، في أخباره وأوامره ونواهيه ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى ﴾ بنوره واتبع أوامره ﴿ فَلِنَفْسِهِ ﴾ فإن نفع ذلك يعود إلى نفسه ﴿ وَمَنْ ضَلَّ ﴾

بعدما تبين له الهدى ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ لا يضر الله شيئا ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها، وإنما أنت مبلغ تؤدي إليهم ما أمرت به.

﴿ 42 ﴾ ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ الوفاة الكبرى، وفاة الموت. وإضافة الفعل إلى نفسه لا ينافي أنه قد وكل بذلك ملك الموت وأعوانه لأنه تعالى الخالق المدبر ﴿ وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ وهذه الموتة الصغرى، أي يُمْسِكُ النفس التي لم تمت في منامها ﴿ فَيُمْسِكُ ﴾ من هاتين النفسين النفس ﴿ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ وهي نفس من كان مات، أو قضي أن يموت في منامه ﴿ وَيُرْسِلُ ﴾ النفس ﴿ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ إلى استكمال رزقها وأجلها ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ على كمال اقتداره، وإحيائه الموتى بعد موتهم. وفي هذه الآية دليل على أن الروح والنفس جسم قائم بنفسه، مخالف جوهره جوهر البدن، وأنها مخلوقة مدبرة، يتصرف الله فيها في الوفاة والإمساك والإرسال، وأن أرواح الأحياء والأموات تتلاقى في البرزخ، فتجتمع، فتتحادث، فيرسل الله أرواح الأحياء، ويمسك أرواح الأموات.

﴿ 43 - 44 ﴾ ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ﴾ يتعلق بهم ويسألهم ويعبدهم ﴿ قُلْ ﴾ لهم مبينا جهلهم، وأنها لا تستحق شيئا من العبادة ﴿ أَوَلَوْ كَانُوا ﴾ أي من اتخذتم من الشفعاء ﴿ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ﴾ لا مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ﴿ وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ بل وليس لهم عقل ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ لأن الأمر كله لله ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ جميع ما فيهما من الذوات والأفعال والصفات ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازي المخلص له بالثواب الجزيل، ومن أشرك به بالعذاب الوبيل.

﴿ 45 - 46 ﴾ ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ توحيدا له، وترك ما يعبد من دونه ﴿ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ يشمئزون وينفرون ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ من الأصنام والأنداد، ودعا الداعي إلى عبادتها ومدحها ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ بذلك، فرحا بذكر معبوداتهم ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خالقهما ومدبرهما ﴿ عَالِمَ الْغَيْبِ ﴾ الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا ﴿ وَالشَّهَادَةِ ﴾ الذي نشاهده ﴿ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ اختلاف الموحدين والمشركين.

﴿ 47 - 48 ﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ على الفرض والتقدير لو كان لهم يوم القيامة ما في الأرض جميعا ومثله معه ﴿ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ ﴾ أي أشده وأفظعه، كما قالوا أشد الكفر وأشنعه، ذلك ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ما قبل منهم، ولا أغنى عنهم من عذاب الله شيئا ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ أي يظنون من السخط العظيم، والمقت الكبير، وقد كانوا يحكمون لأنفسهم بغير ذلك ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أي الأمور التي تسوؤهم، بسبب صنيعهم وكسبهم ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ الوعيد والعذاب الذي نزل بهم ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

﴿ 49 - 52 ﴾ ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ ﴾ يخبر تعالى عن حالة الإنسان وطبيعته، أنه حين يمسه ضر، من مرض أو شدة أو كرب ﴿ دَعَانَا ﴾ ملحا في تفريج ما نزل به ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا ﴾ فكشفنا ضره وأزلنا مشقته، عاد بربه

كافرا و ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ أي علم من الله، وأني مستحق له لأني كريم عليه، أو على علم مني بطرق تحصيله ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ يبتلي الله به عباده، لينظر من يشكره ممن يكفره ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فلذلك يعدون الفتنة منحة، ويشتبه عليهم الخير المحض، بما قد يكون سببا للخير أو للشر ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ فما زالت متوارثة عند المكذبين، لا يقرون بنعمة ربهم ولا يرون له حقا، فلم يزل دأبهم حتى أهلكوا ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ حين جاءهم العذاب ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ والسيئات في هذا الموضع: العقوبات، لأنها تسوء الإنسان وتحزنه ﴿ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ ولما ذكر أنهم اغتروا بالمال، وزعموا بجهلهم أنه يدل على حسن حال صاحبه، أخبرهم تعالى أن رزقه لا يدل على ذلك ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ من عباده سواء كان صالحا أو طالحا ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ الرزق أي يضيقه فرزقه مشترك بين البرية. والإيمان والعمل الصالح يخص به خير البرية ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي بسط الرزق وقبضه، لعلمهم أن مرجع ذلك عائد إلى الحكمة والرحمة، وأنه أعلم بحال عبيده، والله أعلم.

﴿ 53 - 59 ﴾ ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ *

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ}

﴿ قُلْ ﴾ يا أيها الرسول ومن قام مقامه ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ لا تيأسوا منها وتقولوا قد كثرت ذنوبنا، فليس لها طريق يزيلها، فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ واعلموا أنه يغفر الذنوب الكبار والصغار جميعا ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أي وصفه المغفرة والرحمة، وصفان لازمان ذاتيان لا تنفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية في الوجود. ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما سبب: الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ بقلوبكم ﴿ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ بجوارحكم. فمن دون إخلاص، لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة شيئا ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ﴾ مجيئا لا يدفع ﴿ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾ فكأنه قيل: ما هي الإنابة والإسلام؟ وما جزئياتها وأعمالها؟ فأجاب تعالى بقوله ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ مما أمركم من الأعمال الباطنة والظاهرة، فالمتبع لأوامر ربه في هذه الأمور ونحوها هو المنيب المسلم ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ وكل هذا حثٌّ على المبادرة وانتهاز الفرصة. ثم حذرهم ﴿ أَن ﴾ يستمروا على غفلتهم، حتى يأتيهم يوم يندمون فيه، ولا تنفع الندامة و ﴿ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ

﴿ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾ أي في جانب حقه ﴿ وَإِنْ كُنْتُ ﴾ في الدنيا ﴿ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ في إتيان الجزاء، حتى رأيته عيانا ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ و"لو" في هذا الموضع للتمني، أي: ليت أن الله هداني فأكون متقيا له فأسلم من العقاب وأستحق الثواب، وليست "لو" هنا شرطية، لأنها لو كانت شرطية، لكانوا محتجين بالقضاء والقدر على ضلالهم، وهو حجة باطلة، ويوم القيامة تضمحل كل حجة باطلة ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ ﴾ وتجزم بوروده ﴿ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً ﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿ فَأَكُونَ ﴾ لكنت ﴿ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قال تعالى: إن ذلك غير ممكن ولا مفيد ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي ﴾ الدالة على الحق ﴿ فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ ﴾ عن اتباعها ﴿ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ فسؤال الرد إلى الدنيا عبث.

﴿ 60 - 61 ﴾ ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ * وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ﴾ فكما سوَّدوا وجه الحق بالكذب، سود الله وجوههم، جزاء من جنس عملهم. ولهم العذاب الشديد في جهنم ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ عن الحق، وعن عبادة ربهم؟ بلى والله ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ أي بنجاتهم، وذلك لأن معهم آلة النجاة، وهي تقوى الله تعالى، التي هي العدة عند كل هول وشدة ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ﴾ أي العذاب الذي يسوؤهم ﴿ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ ﴾ فنفى عنهم مباشرة العذاب وخوفه، وهذا غاية الأمان. فلهم الأمن التام يصحبهم حتى يوصلهم إلى دار السلام.

﴿ 62 - 63 ﴾ ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ لجميع العالم العلوي والسفلي. وجميع الأشياء غير الله مخلوقة. ففيها رد على الفلاسفة القائلين بقدم الأرض والسماوات، وبقدم الأرواح. وليس كلام الله من الأشياء المخلوقة، لأن الكلام صفة المتكلم، والله تعالى بأسمائه وصفاته أول ليس قبله شيء، فأخذ أهل الاعتزال من هذه الآية ونحوها أنه مخلوق، من أعظم الجهل، فإنه تعالى لم يزل بأسمائه وصفاته، ولم يحدث له صفة من صفاته، ولم يكن معطلا عنها بوقت من الأوقات ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ والوكالة التامة لا بد فيها من علم الوكيل، بما كان وكيلا عليه، وإحاطته بتفاصيله، ومن قدرة تامة على ما هو وكيل عليه، ليتمكن من التصرف فيه، ومن حفظ لما هو وكيل عليه ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ الدالة على الحق اليقين والصراط المستقيم ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ خسروا ما به تصلح القلوب من التأله وا إخلاص لله، وخسروا جنات النعيم، وتعوضوا عنها بالعذاب الأليم.

﴿ 64 - 66 ﴾ ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين، الذين دعوك إلى عبادة غير الله: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ أي هذا الأمر صدر من جهلكم، وإلا لم تأمروني بذلك ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ من جميع الأنبياء ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ ففي نبوة جميع الأنبياء أن الشرك محبط لجميع الأعمال ﴿ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ دينك وآخرتك، فبالشرك تحبط الأعمال ويستحق العقاب ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ ﴾ أخلص له العبادة وحده لا شريك له ﴿ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ لله على توفيق الله تعالى.

﴿ 67 ﴾ ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ولا عظموه حق تعظيمه ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ من عظمته الباهرة، وقدرته القاهرة، أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ على سعتها وعظمها مطويات بيمينه، فلا عظمه حق عظمته من سوَّى به غيره، ولا أظلم منه ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تنزه وتعاظم عن شركهم به.

﴿ 68 - 70 ﴾ ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ

﴾

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ وهو قرن عظيم، لا يعلم عظمته إلا خالقه، ومن أطلعه الله على علمه من خلقه،. فينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، أحد الملائكة المقربين، وأحد حملة عرش الرحمن ﴿ فَصَعِقَ ﴾ أي غشي أو مات، على اختلاف القولين ﴿ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي كلهم، لما سمعوا نفخة الصور أزعجتهم من شدتها وعظمها، وما يعلمون أنها مقدمة له ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ ممن ثبته الله عند النفخة كالشهداء أو بعضهم، وغيرهم. وهذه النفخة الأولى، نفخة الصعق، ونفخة الفزع ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى ﴾ النفخة الثانية نفخة البعث ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ ﴾ قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابهم، قد تمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح، وشخصت أبصارهم ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ ماذا يفعل الله بهم ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ أخبر الله أن الشمس تكور، والقمر يخسف، والنجوم تندثر، ويكون الناس في ظلمة، فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربها، عندما يتجلى وينزل للفصل بينهم، وذلك اليوم يجعل الله للخلق قوة، وينشئهم نشأة يَقْوَوْنَ على أن لا يحرقهم نوره، ويتمكنون أيضا من رؤيته، وإلا، فنوره تعالى عظيم، لو كشفه، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ أي كتاب الأعمال وديوانه، وضع ونشر، ليقرأ ما فيه من الحسنات والسيئات ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ ﴾ ليسألوا عن التبليغ، وعن أممهم، ويشهدوا عليهم ﴿ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ من الملائكة، والأعضاء والأرض ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أي العدل التام، حكم يقر به الخلق، ويعترفون لله

بالحمد والعدل ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

﴿ 71 - 75 ﴾ ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ ﴾ سوقا عنيفا، يضربون بالسياط الموجعة، من الزبانية الغلاظ الشداد، إلى جهنم التي قد جمعت كل عذاب، يدفعون إليها دفعا، وذلك لامتناعهم من دخولها. ويساقون إليها ﴿ زُمَرًا ﴾ أي فرقا متفرقة، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها، وتشاكل سعيها، يلعن بعضهم بعضا، ويبرأ بعضهم من بعض ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا ﴾ أي وصلوا إلى ساحتها ﴿ فُتِحَتْ ﴾ لهم أي لأجلهم ﴿ أَبْوَابُهَا ﴾ لنزولهم. إشارة إلى أن أهل النار، بمجرد وصولهم إليها، فتحت لهم أبوابها من غير إنظار ولا إمهال، وليكون فتحها في وجوههم، وعلى وصولهم، أعظم لحرها، وأشد لعذابها ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ موبخين لهم على الأعمال التي

أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ أي من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم، وتتمكنون من التلقي عنهم ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ﴾ التي أرسلهم الله بها ﴿ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أي وهذا يوجب عليكم اتباعهم والحذر من عذاب هذا اليوم ﴿ قَالُوا ﴾ مقرين بذنبهم، وأن حجة الله قامت عليهم ﴿ بَلَى ﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبيناته، وبينوا لنا غاية التبيين، وحذرونا من هذا اليوم ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ بسبب كفرهم فـ ﴿ قِيلَ ﴾ لهم على وجه الإهانة والإذلال ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أبدا ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ بئس المقر النار. ثم قال عن أهل الجنة ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ﴾ بتوحيده والعمل بطاعته، سوق إكرام وإعزاز، يحشرون وفدا على النجائب ﴿ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ فرحين مستبشرين، كل زمرة مع الزمرة، التي تناسب عملها وتشاكله ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا ﴾ وصلوا لتلك الرحاب الرحيبة ﴿ وَفُتِحَتْ ﴾ لهم، بالواو، على عكس أهل النار، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى الله بمحمد صلى الله عليه وسلم، حتى يشفع، فيشفعه الله تعالى ﴿ أَبْوَابُهَا ﴾ فتح إكرام ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ تهنئة لهم وترحيبا ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ سلام من كل آفة وشر حال عليكم ﴿ طِبْتُمْ ﴾ أي طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبته وخشيته، وألسنتكم بذكره، وجوارحكم بطاعته ﴿ فـ ﴾ بسبب طيبكم ﴿ ادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ لأنها الدار الطيبة، ولا يليق بها إلا الطيبون. وفي الآيات دليل على أن النار والجنة لهما أبواب تفتح وتغلق، وأن لكل منهما خزنة، وهما الداران الخالصتان، اللتان لا يدخل

فيهما إلا من استحقهما، بخلاف سائر الأمكنة والدور ﴿ وَقَالُوا ﴾ عند دخولهم فيها واستقرارهم، حامدين ربهم على ما أولاهم ومنَّ عليهم وهداهم ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ أي وعدنا الجنة على ألسنة رسله، فوفَّى لنا بما وعدنا ﴿ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ ﴾ أرض الجنة ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ أي ننزل منها أي مكان شئنا، ونتناول منها أي نعيم أردنا، ليس ممنوعا عنا شيء نريده ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ الذين اجتهدوا بطاعة ربهم ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ ﴾ أيها الرائي ذلك اليوم العظيم ﴿ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ قاموا في خدمة ربهم، واجتمعوا حول عرشه، خاضعين لجلاله، معترفين بكماله، مستغرقين بجماله ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أي ينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين الأولين والآخرين من الخلق ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ الذي لا اشتباه فيه ولا إنكار، ممن عليه الحق ﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لم يذكر القائل من هو، ليدل ذلك على أن جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار، حمد فضل وإحسان، وحمد عدل وحكمة.

تم تفسير سورة الزمر

بحمد الله وعونه

40

مختصر تفسير سورة المؤمن / غافر

عدد آياتها 85

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 – 3 ﴾ ﴿ حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾

﴿ حم ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ﴾ تعالى، وكتابه العظيم صادر ومنزل من الله ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ قهر بعزته كل مخلوق ﴿ الْعَلِيمِ ﴾ بكل شيء ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ ﴾ للمذنبين ﴿ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ من التائبين ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ على من تجرأ على الذنوب ولم يتب منها ﴿ ذِي الطَّوْلِ ﴾ أي التفضل والإحسان الشامل. فلما قرر ما قرر من كماله وكان ذلك موجبًا لأن يكون وحده المألوه، الذي تخلص له الأعمال قال ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله الموصوف بهذه الأوصاف أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن من المعاني والمطالب العاليات.

﴿ 4 – 6 ﴾ ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ والمراد بالمجادلة هنا المجادلة لرد آيات الله ومقابلتها بالباطل، فهذا من صنيع الكفار ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾ أي ترددهم فيها بأنواع التجارات والمكاسب. ولا ينبغي للإنسان أن يغتر بحالة الإنسان الدنيوية، ويظن أن إعطاء الله إياه في الدنيا دليل على محبته له وأنه على الحق ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ هدد من جادل بآيات الله ليبطلها، كما فعل من قبله من الأمم من قوم نوح وعاد والأحزاب من بعدهم، الذين تحزبوا وتجمعوا على الحق ليبطلوه، وعلى الباطل لينصروه ﴿ وَ ﴾ أنه بلغت بهم الحال إلى أنه ﴿ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم ﴿ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ أي يقتلوه ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ فهل بعد هذا البغي والضلال والشقاء إلا العذاب العظيم الذي لا يخرجون منه؟ ولهذا قال في عقوبتهم الدنيوية والأخروية ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ بسبب تكذيبهم ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ كان أشد العقاب وأفظعه ﴿ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ كما حقت على أولئك، حقت عليهم كلمة الضلال التي نشأت عنها كلمة

العذاب، ولهذا قال ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾.

﴿ 7 – 9 ﴾ ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ ﴾ أي عرش الرحمن، الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها وأوسعها وأحسنها، وأقربها من الله تعالى، الذي وسع الأرض والسماوات والكرسي. وهؤلاء الملائكة قد وكلهم الله تعالى بحمل عرشه العظيم، فلا شك أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقواهم، واختيار الله لهم لحمل عرشه، وتقديمهم في الذكر، وقربهم منه، يدل على أنهم أفضل أجناس الملائكة عليهم السلام ﴿ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ من الملائكة المقربين في المنزلة والفضيلة ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ هذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله تعالى، وخصوصًا التسبيح والتحميد ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة جدًا، أن الملائكة الذين لا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان، فالمؤمن بإيمانه تسبب لهذا الفضل العظيم ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ ذكر تعالى صفة دعائهم لهم بالمغفرة، بذكر ما لا تتم إلا به: فعلمك قد أحاط بكل شيء، لا يخفى عليك خافية، ورحمتك وسعت كل شيء، فالكون علويه وسفليه قد امتلأ برحمة الله تعالى ووسعتهم، ووصل إلى ما وصل إليه خلقه ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿ وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ باتباع رسلك، بتوحيدك وطاعتك ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ قهم العذاب نفسه وقهم أسباب العذاب ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ﴾ على ألسنة رسلك ﴿ وَمَنْ صَلَحَ ﴾ أي صلح بالإيمان والعمل الصالح ﴿ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ ﴾ زوجاتهم وأزواجهن وأصحابهم ورفقائهم ﴿ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ ﴾ القاهر لكل شيء، فبعزتك تغفر ذنوبهم، وتكشف عنهم المحذور، وتوصلهم بها إلى كل خير ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، ومن حكمتك المغفرة للمؤمنين ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي الأعمال السيئة وجزاءها، لأنها تسوء صاحبها﴿ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ لأن رحمتك لم تزل مستمرة على العباد، لا يمنعها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم، فمن وقيته السيئات وفقته للحسنات وجزائها الحسن ﴿ وَذَلِكَ ﴾ أي زوال المحذور بوقاية السيئات، وحصول المحبوب بحصول الرحمة ﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذي لا فوز مثله.

﴿ 10 – 12 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ * قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ * ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يشمل أنواع الكفر كلها، حين يدخلون النار ويقرون أنهم مستحقونها، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت ﴿ يُنَادَوْنَ ﴾ فيقال لهم ﴿ لَمَقْتُ اللَّهِ ﴾ إياكم ﴿ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ أي حين دعتكم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان، فكفرتم. فتمنوا الرجوع و ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ ﴾

يريدون الموتة الأولى وما بين النفختين على ما قيل، أو العدم المحض قبل إيجادهم، ثم أماتهم بعدما أوجدهم ﴿ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ الحياة الدنيا والحياة الأخرة ﴿ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ تحسروا وقالوا ذلك، فلم يفد ولم ينجع، ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ أي إذا دعي لتوحيده، وإخلاص العمل له، ونهي عن الشرك به ﴿ كَفَرْتُمْ ﴾ به ونفرتم غاية النفور ﴿ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ أي هذا الذي أنزلكم هذ المنزل أنكم تكفرون بالإيمان وتؤمنون بالكفر ﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ ﴾ الذي له العلو المطلق، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة والمجد.

﴿ 13 - 17 ﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ * فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ * يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ بتبيين الحق من الباطل، بما يُرِي عباده من آياته النفسية والآفاقية والقرآنية ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾ مطرًا به ترزقون وتعيشون أنتم وبهائمكم ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ بالآيات حين يذكر بها ﴿ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾ إلى الله تعالى بالإقبال على محبته وخشيته وطاعته والتضرع إليه ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة. والإخلاص معناه: تخليص القصد لله تعالى في جميع العبادات الواجبه والمستحبة. أي أخلصوا لله تعالى في كل ما تدينونه به وتتقربون به إليه ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ فلا تبالوا بهم، فإن الكافرين يكرهون الإخلاص لله وحده غاية الكراهة ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ ﴾ العلي الأعلى الذي استوى على العرش واختص به، وارتفعت درجاته ارتفاعًا باين به مخلوقاته، وارتفع به قدره، وجلت أوصافه ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ ﴾ أي الوحي الذي للأرواح والقلوب بمنزلة الأرواح للأجساد، فكما أن الجسد بدون الروح لا يحيا ولا يعيش، فالروح والقلب بدون روح الوحي لا يصلح ولا يفلح ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ الذي فيه نفع العباد ومصلحتهم ﴿ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وهم الرسل الذين فضلهم الله واختصهم الله لوحيه ودعوة عباده ﴿ لِيُنْذِرَ ﴾ من ألقى الله إليه الوحي ﴿ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ يلتقي فيه الخالق والمخلوق والمخلوقون بعضهم مع بعض، والعاملون وأعمالهم وجزاؤهم. أي يخوف العباد بذلك، ويحثهم على الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ﴾ أي ظاهرون على الأرض، قد اجتمعوا في صعيد واحد لا عوج ولا أمت فيه ﴿ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ لا من ذواتهم ولا من أعمالهم، ولا من جزاء تلك الأعمال ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ أي من هو المالك لذلك اليوم العظيم الجامع للأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك، وتقطعت الأسباب، ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة؟ الملك ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ ﴾ المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه ﴿ الْقَهَّارِ ﴾ لجميع المخلوقات، خصوصًا في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم، يومئذ لا تَكَلَّمُ نفس إلا بإذنه ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ في الدنيا، من خير وشر، قليل وكثير ﴿ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ على أحد، بزيادة في سيئاته، أو نقص من حسناته ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أي لا تستبطئوا ذلك اليوم فإنه آت. وهو أيضا سريع المحاسبة لعباده يوم القيامة، لإحاطة

علمه وكمال قدرته.

﴿ 18 - 20 ﴾ ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ * يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ * وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ ﴾ أي يوم القيامة التي قد أزفت وقربت، وآن الوصول إلى أهوالها. ثم وصفها بالأوصاف المقتضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾ ارتفعت ووصلت القلوب من الروع والكرب إلى الحناجر، شاخصة أبصارهم ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ على ما في قلوبهم من الروع الشديد ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أي قريب ولا صاحب ﴿ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ لأن الشفعاء لا يشفعون في الظالم نفسه بالشرك، ولو قدرت شفاعتهم، فالله تعالى لا يرضى شفاعتهم، فلا يقبلها ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾ وهو النظر الذي يخفيه العبد من جليسه ومقارنه، وهو نظر المسارقة ﴿ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ مما لم يبينه العبد لغيره، فالله تعالى يعلم ذلك الخفي، فغيره من الأمور الظاهرة من باب أولى وأحرى ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ لأن قوله حق، وحكمه الشرعي حق، وحكمه الجزائي حق وهو المحيط علمًا وكتابة وحفظا بجميع الأشياء ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله ﴿ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ لعجزهم وعدم إرادتهم للخير واستطاعتهم لفعله ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لجميع الأصوات ﴿ الْبَصِيرُ ﴾ بما كان وما يكون وما يعلم العباد وما لا يعلمون.

﴿ 21 - 22 ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ بقلوبهم وأبدانهم سير نظر واعتبار ﴿ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من المكذبين، فسيجدونها عاقبة هلاك ودمار، وقد ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أشد قوة من هؤلاء في الْعَدَد والْعُدَد وكبر الأجسام ﴿ وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ من البناء والغرس، وقوة الآثار تدل على قوة المؤثر فيها وعلى تمنعه بها ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ﴾ بعقوبته ﴿ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ حين أصروا واستمروا عليها ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ فلم تغن قوتهم عند قوة الله شيئًا ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

﴿ 23 - 25 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ إلى جنس هؤلاء المكذبين ﴿ مُوسَى ﴾ ابن عمران ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ العظيمة، الدالة دلالة قطعية على حقية ما أرسل به، وبطلان ما عليه من أرسل إليهم من الشرك وما يتبعه ﴿ وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي حجة

بينة، تتسلط على القلوب فتذعن لها كالحية والعصا ونحوهما ﴿ إِلَى ﴾ المبعوث إليهم ﴿ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾ وزيره ﴿ وَقَارُونَ ﴾ من قوم موسى فبغى عليهم بماله. وكلهم ردوا عليه أشد الرد ﴿ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ. فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ وأيده الله بالمعجزات الباهرة، الموجبة لتمام الإذعان، لم يقابلوها بذلك. ولم يكفهم مجرد الترك والإعراض، بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم، بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلى أن ﴿ قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ ﴾ أي كل الكافرين، فضلاً عن هؤلاء الذين كادوا هذه المكيدة، وزعموا أنهم إذا قتلوا أبناءهم لم يقووا، وبقوا في رقهم وتحت عبوديتهم ﴿ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ حيث لم يتم لهم ما قصدوا، بل أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم.

﴿ 26-27 ﴾ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ * وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾

﴿ وقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ متكبرًا متجبرًا مغررًا لقومه السفهاء ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ زعم قبحه الله أنه لولا مراعاة خواطر قومه لقتله ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ وأنه لا يمنعه من دعاء ربه. ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله، وأنه نصح لقومه، وإزالة للشر في الأرض فقال ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ الذي أنتم عليه ﴿ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ وهذا من أعجب ما يكون أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق ﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ حين قال فرعون تلك المقالة الشنيعة، مستعينًا بربه ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ أي امتنعت بربوبيته التي دبر بها جميع الأمور ﴿ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أي يحمله تكبره وعدم إيمانه بيوم الحساب على الشر والفساد، يدخل فيه فرعون وغيره، كما هي القاعدة.

﴿ 28-33 ﴾ ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّـهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّـهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّـهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ * وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّـهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّـهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّـهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ وهو من آل فرعون من بيت المملكة، لا بد أن يكون له كلمة مسموعة، وخصوصًا إذا كان يظهر موافقتهم ويكتم إيمانه، فإنهم يراعونه في الغالب ما لا يراعونه لو خالفهم في الظاهر، كما منع الله رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم بعمه أبي طالب من قريش، حيث كان أبو طالب كبيرًا عندهم، موافقًا لهم على دينهم، ولو كان مسلمًا لم يحصل منه ذلك المنع. فقال ذلك الرجل المؤمن الموفق العاقل الحازم، مقبحًا فعل قومه، وشناعة ما عزموا عليه ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ أي كيف تستحلون قتله، وذنبه أنه يقول ربي الله، ولم يكن أيضا قولاً مجردًا عن البينات ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ لأن بينته اشتهرت عندهم اشتهارًا علم به الصغير والكبير، أي فهذا لا يوجب قتله ﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ

﴿ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ أي إذا كان موسى كاذبًا فكذبه عليه، وضرره مختص به، وإن كان صادقًا وقد جاءكم بالبينات، وأخبركم أنكم إن لم تجيبوه عذبكم الله عذابًا في الدنيا وعذابًا في الآخرة، فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وهو عذاب الدنيا. ثم انتقل رضي الله عنه وأرضاه وغفر له ورحمه إلى أمر أعلى من ذلك، وبيان قرب موسى من الحق ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ متجاوز الحد بترك الحق ﴿ كَذَّابٌ ﴾ بنسبته ما أسرف فيه إلى الله، فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ في الدنيا ﴿ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ على رعيتكم، تنفذون فيهم ما شئتم من التدبير، فهبكم حصل لكم ذلك وتم، ولن يتم ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ ﴾ أي عذابه ﴿ إِنْ جَاءَنَا ﴾ وهذا من حسن دعوته، حيث جعل الأمر مشتركًا بينه وبينهم ليفهمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه. فـ ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ معارضًا له في ذلك، ومغررًا لقومه أن يتبعوا موسى ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ وكذب في قوله، فإن هذا قلب للحق إذ زعم أن في اتباعه اتباع الحق وفي اتباع الحق، اتباع الضلال ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ ﴾ مكررًا دعوة قومه غير آيس من هدايتهم ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ يعني الأمم المكذبين، الذين تحزبوا على أنبيائهم، واجتمعوا على معارضتهم، ثم بينهم فقال ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي مثل عادتهم في الكفر والتكذيب وعادة الله فيهم بالعقوبة العاجلة في الدنيا قبل الآخرة ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴾ فيعذبهم بغير ذنب أذنبوه، ولا جرم أسلفوه. ولما خوفهم العقوبات الدنيوية، خوفهم العقوبات الأخروية، فقال ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ أي يوم القيامة، حين ينادي أهل الجنة أهل النار ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ أي: قد ذهب بكم إلى النار ﴿ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه من أحد ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ لأن الهدى بيد الله تعالى، فإذا منع عبده الهدى لخبثه فلا سبيل إلى هدايته.

﴿ 34-35 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّـهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّـهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّـهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّـهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّـهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ ﴾ بن يعقوب عليهما السلام ﴿ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ قبل إتيان موسى بالبينات الدالة على صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾ في حياته ﴿ حَتَّى إِذَا هَلَكَ ﴾ ازداد شككم وشرككم و ﴿ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ أي هذا ظنكم لباطل: ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ لا ينفك عنهما، لا يهديه الله، ولا يوفقه للخير، لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه الله، بأن يمنعه الهدى ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ التي بينت الحق من الباطل، يجادلون فيها على وضوحها، ليدفعوها ويبطلوها ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ بغير حجة وبرهان. وهذا وصف لازم لكل من جادل في آيات الله، فإنه من المحال أن يجادل بسلطان ﴿ كَبُرَ ﴾ ذلك القول المتضمن لرد الحق بالباطل ﴿ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ لأنه تضمن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل. وكذلك عباده المؤمنون يمقتون على ذلك أشد المقت موافقة لربهم ﴿ كَذَلِكَ ﴾ كما طبع على قلوب آل فرعون ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ ﴾ في

نفسه على الحق ﴿ جَبَّارٍ ﴾ بكثرة ظلمه وعدوانه.

﴿ 36-37 ﴾ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ معارضًا لموسى ومكذبًا له في دعوته ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا ﴾ أي بناء عظيمًا مرتفعًا، والقصد منه ﴿ لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ ﴾ لعلي أطلع ﴿ إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبًا ﴾ في دعواه أن لنا ربًا، وأنه فوق السماوات ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ فلم يزل الشيطان يزينه، وهو يدعو إليه ويحسنه، حتى رآه حسنًا ودعا إليه وناظر مناظرة المحقين، وهو من أعظم المفسدين ﴿ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ الحق، بسبب الباطل الذي زين له ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ ﴾ الذي أراد أن يكيد به الحق، ويوهم به الناس أنه محق، وأن موسى مبطل ﴿ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ أي خسار وبوار، لا يفيده إلا الشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿ 38-40 ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ ﴾ معيدًا نصيحته لقومه ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ لا كما يقول لكم فرعون، فإنه لا يهديكم إلا طريق الغي والفساد ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ يتمتع بها ويتنعم قليلاً، ثم تنقطع وتضمحل، فلا تغرنكم وتخدعكم عما خلقتم له ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ منزل السكون والاستقرار، فينبغي لكم أن تؤثروها، وتعملوا لها عملا يسعدكم فيها ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً ﴾ من شرك أو فسوق أو عصيان ﴿ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ أي لا يجازى إلا بما يسوؤه ويحزنه لأن جزاء السيئة السوء ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ من أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان ﴿ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ يعطون أجرهم بلا حد ولا عد، بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم.

﴿ 41-44 ﴾ ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ ﴾ بما قلت لكم ﴿ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ بترك اتباع نبي الله موسى عليه السلام. ثم فسر ذلك فقال ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ أنه يستحق أن يعبد من دون الله، والقول على الله بلا علم من أكبر الذنوب وأقبحها ﴿ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ ﴾ الذي له القوة كلها، وغيره ليس بيده من الأمر شيء ﴿ الْغَفَّارِ ﴾ الذي يسرف العباد على أنفسهم ويتجرؤون على مساخطه ثم إذا تابوا وأنابوا إليه، كفر عنهم السيئات والذنوب ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي حقًا يقينًا ﴿ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي

الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ لا يستحق من الدعوة إليه، في الدنيا ولا في الآخرة، لعجزه ونقصه، وأنه لا يملك نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة، ولا نشورًا ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ﴾ تعالى فسيجازي كل عامل بعمله ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ وهم الذين أسرفوا على أنفسهم بالتجرؤ على ربهم بمعاصيه والكفر به. فلما نصحهم وحذرهم وأنذرهم ولم يطيعوه ولا وافقوه قال لهم ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ من هذه النصيحة، وسترون مغبة عدم قبولها حين يحل بكم العقاب ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أي ألجأ إليه وأعتصم، وأتوكل عليه في دفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ يعلم أحوالهم وما يستحقون، يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني شركم، ويعلم أحوالكم فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشيئته، فإن سلطكم عليَّ فبحكمة منه تعالى.

﴿ 45 - 46 ﴾ ﴿ فَوَقَاهُ اللَّـهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾

﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾ أي وقى الله القويّ الرحيم ذلك الرجل المؤمن الموفق، عقوبات ما مكر فرعون وآله له. أرادوا به كيدًا فحفظه الله من كيدهم ومكرهم وانقلب كيدهم ومكرهم على أنفسهم ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ أغرقهم الله تعالى في صبيحة واحدة عن آخرهم. وفي البرزخ ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ فهذه العقوبات الشنيعة، التي تحل بالمكذبين لرسل الله، المعاندين لأمره.

﴿ 47 - 50 ﴾ ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ * وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ ﴾ يحتج التابعون بإغواء المتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من التابعين ﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ ﴾ أي الأتباع للقادة ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ على الحق، ودعوهم إلى ما استكبروا لأجله ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أنتم أغويتمونا وأضللتمونا وزينتم لنا الشرك والشر ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴾ أي ولو قليلاً ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ مبينين لعجزهم ونفوذ الحكم الإلهي في الجميع ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ وجعل لكل قسطه من من العذاب، فلا يزاد في ذلك ولا ينقص منه، ولا يغير ما حكم به الحكيم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ ﴾ من المستكبرين والضعفاء ﴿ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴾ لعله تحصل بعض الراحة فـ ﴿ قَالُوا ﴾ لهم موبخين ومبينين أن شفاعتهم لا تنفعهم، ودعاءهم لا يفيدهم شيئًا ﴿ أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ التي تبينتم بها الحق والصراط المستقيم، وما يقرب من الله وما يبعد منه ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ قد جاءونا بالبينات ﴿ قَالُوا ﴾ أي الخزنة لأهل النار، متبرئين من الدعاء لهم والشفاعة﴿ فَادْعُوا ﴾ أنتم ولكن هذا الدعاء هل يغني شيئا أم لا؟ قال تعالى ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أي باطل لاغ، لأن الكفر

محبط لجميع الأعمال صادّ لإجابة الدعاء.

﴿ 51 - 52 ﴾ ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بالحجة والبرهان والنصر ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ في الآخرة بالحكم لهم ولأتباعهم بالثواب، ولمن حاربهم بشدة العقاب ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ حين يعتذرون ﴿ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ أي الدار السيئة التي تسوء نازليها.

﴿ 53 - 55 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ * هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ﴾ أعطى موسى ﴿ الْهُدَى ﴾ أي الآيات والعلم بالأحكام الشرعية وغيرها، يهتدي به المهتدون ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ هُدًى وَذِكْرَى ﴾ التوراة، وجعلناه متوارثًا بينهم، وليس ذلك لكل أحد وإنما ﴿ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. فَاصْبِرْ﴾ يا أيها الرسول ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ ليس مشكوكًا فيه، حتى يعسر عليك الصبر، وإنما هو الحق المحض ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ فأمره بالصبر الذي فيه يحصل المحبوب، وبالاستغفار الذي فيه دفع المحذور ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ خصوصًا ﴿ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ وهما أفضل الأوقات، لأن في ذلك عونًا على جميع الأمور.

﴿ 56 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾ إن هذا صادر من كبر في صدورهم على الحق وعلى من جاء به، يريدون الاستعلاء عليه بما معهم من الباطل ﴿ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾ ولكن هذا لا يتم لهم وليسوا ببالغيه، فهذا نص صريح، وبشارة، بأن كل من جادل الحق أنه مغلوب، وكل من تكبر عليه فهو في نهايته ذليل ﴿ فَاسْتَعِذْ ﴾ أي اعتصم والجأ ﴿ بِاللَّهِ ﴾ ولم يذكر ما يستعيذ، إرادة للعموم أي استعذ بالله من الكبر الذي يوجب التكبر على الحق، واستعذ بالله من شياطين الإنس والجن، واستعذ بالله من جميع الشرور ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لجميع الأصوات ﴿ الْبَصِيرُ ﴾ بجميع المرئيات.

﴿ 57 - 59 ﴾ ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ * إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ فالذي خلق الأجرام العظيمة وأتقنها قادر على إعادة الناس بعد موتهم ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ولذلك لا يعتبرون بذلك ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ﴾ كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي من آمن بالله وعمل الصالحات، ومن كان مستكبرًا على عبادة ربه ﴿ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ وإلا لآثرتم الهدى على الضلال ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ قد أخبرت بها الرسل الذين هم أصدق الخلق ونطقت بها الكتب السماوية ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ مع هذه الأمور التي توجب كمال التصديق والإذعان.

﴿ 60 ﴾ ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أمرهم بدعائه دعاء العبادة ودعاء المسألة، ووعدهم أن يستجيب لهم، وتوعد من استكبر عنها ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ذليلين حقيرين، يجتمع عليهم العذاب والإهانة، جزاء على استكبارهم.

﴿ 61 – 65 ﴾ ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ ﴾ لأجلكم مظلمًا ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ من حركاتكم التي لو استمرت لضرت ﴿ وَ ﴾ جعل تعالى ﴿ النَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ منيرًا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ ﴾ عظيم، كما يدل عليه التنكير ﴿ عَلَى النَّاسِ ﴾ حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ بسبب جهلهم وظلمهم ﴿ ذَلِكُمُ ﴾ الذي فعل ما فعل ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ المنفرد بالإلهية وبالربوبية ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ تقرير لربوبيته ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ تقرير أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ كيف تصرفون عن عبادته وحده بعد ما أبان لكم الدليل ﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ صرفوا عن التوحيد والإخلاص عقوبة على جحدهم لآيات الله ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ قارة ساكنة، مهيأة لكل مصالحكم ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ سقفًا للأرض، جعل الله فيها ما تنتفعون به ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ فليس في جنس الحيوانات أحسن صورة من بني آدم ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ وهذا شامل لكل طيب من الطيبات التي يسرها الله لعباده ويسر لهم أسبابها ﴿ ذَلِكُمُ ﴾ الذي دبر الأمور، وأنعم عليكم بهذه النعم ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي تعاظم، وكثر خيره وإحسانه ﴿ هُوَ الْحَيُّ ﴾ الذي له الحياة الكاملة التامة ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا معبود بحق إلا وجهه الكريم ﴿ فَادْعُوهُ ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ اقصدوا بكل عبادة ودعاء وعمل وجه الله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ جميع المحامد والمدائح والثناء لله تعالى وحده لا شريك له.

﴿ 66 – 68 ﴾ ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ

أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ يا أيها النبي ﴿ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ من الأوثان وكل ما عبد من دون الله ﴿ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بقلبي ولساني وجوارحي ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ وذلك بخلقه لأصلكم وأبيكم آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ وهذا ابتداء خلق سائر النوع الإنساني ما دام في بطن أمه فنبه بالابتداء على بقية الأطوار ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ فالمضغة، فالعظام، فنفخ الروح ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ ثم هكذا تنتقلون في الخلقة الإلهية ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ من قوة العقل والبدن، وجميع قواه الظاهرة والباطنة ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ﴾ بلوغ الأشد ﴿ وَلِتَبْلُغُوا ﴾ بهذه الأطوار المقدرة ﴿ أَجَلًا مُسَمًّى ﴾ تنتهي عنده أعماركم ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أحوالكم، فتعلمون أن المطور لكم في هذه الأطوار كامل الاقتدار، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأنكم ناقصون من كل وجه ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ المنفرد بالإحياء والإماتة ﴿ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا ﴾ جليلاً أو حقيرًا ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ لا رد في ذلك ولا مثنوية ولا تمنع.

﴿ 69 – 76 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ * ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ * ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ * ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ الواضحة البينة متعجبًا من حالهم الشنيعة ﴿ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴾ أي كيف ينعدلون عنها ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ فبئس ما استبدلوا بتكذيبهم بالكتاب، وبما أرسل الله به رسله، الذين هم خير الخلق وأصدقهم. هؤلاء لا جزاء لهم سوى النار الحامية، ولهذا توعدهم الله بعذابها ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ. إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ لا يستطيعون معها حركة ﴿ وَالسَّلَاسِلُ ﴾ التي يقرنون بها هم وشياطينهم ﴿ يُسْحَبُونَ. فِي الحميم ﴾ أي الماء الذي اشتد غليانه وحره ﴿ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ يوقد عليهم اللهب العظيم، فيصلون بها ﴿ ثُمَّ قِيلَ ﴾ يوبخون على شركهم وكذبهم ﴿ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ هل نفعوكم، أو دفعوا عنكم بعض العذاب ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ غابوا ولم يحضروا. ولو حضروا لم ينفعوا ﴿ بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾ يحتمل أن مرادهم بذلك الإنكار، وظنوا أنه ينفعهم ويفيدهم، ويحتمل – وهو الأظهر– أن مرادهم بذلك، الإقرار على بطلان إلهية ما كانوا يعبدون ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ حتى إنهم بأنفسهم، يقرون ببطلانه يوم القيامة. ويقال لأهل النار ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ العذاب ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ تفرحون بالباطل وتمرحون على عباد الله بغيًا وعدوانًا ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ كل بطبقة من طبقاتها على قدر عمله ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ لا يخرجون منها أبدًا ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

مثوى يخزون فيه ويعذبون.

﴿ 77 ﴾ ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾

﴿ فَاصْبِرْ ﴾ يا أيها الرسول ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ سينصر دينه، ويُعْلِي كلمته، واستعن على ذلك بتوقع العقوبة بأعدائك في الدنيا والآخرة: ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ في الدنيا فذاك ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل عقوبتهم ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ فنجازيهم بأعمالهم.

﴿ 78 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا ﴾ كثيرين إلى قومهم، يدعونهم ويصبرون على أذاهم ﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ خبرهم ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ وكل الرسل مدبرون، ليس بيدهم شيء من الأمر ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ﴾ وما كان لأحد منهم ﴿ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ ﴾ من الآيات ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بمشيئته وأمره ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ بالفصل بين الرسل وأعدائهم والفتح ﴿ قُضِيَ ﴾ بينهم ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بإنجاء الرسل وأتباعهم وإهلاك المكذبين ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ﴾ أي وقت القضاء المذكور ﴿ الْمُبْطِلُونَ ﴾ الذين وصفهم الباطل، وما جاءوا به من العلم والعمل باطل.

﴿ 79 - 81 ﴾ ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من الأنعام التي بها ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ الركوب والحمل والأكل والشرب والدفء إلى غير ذلك من المنافع ﴿ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾ من الوصول إلى الأوطان البعيدة ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ أي على الرواحل البرية والفلك البحرية، يحملكم الله الذي سخرها ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على وحدانيته وأسمائه وصفاته، وهذا من أكبر نعمه ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ أي آية من آياته لا تعترفون بها؟

﴿ 82 - 85 ﴾ ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ يحث تعالى المكذبين لرسولهم على السير في الأرض بأبدانهم وقلوبهم وسؤال العالمين ﴿ فَيَنْظُرُوا ﴾ نظر فكر واستدلال ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم السالفة ﴿ كَانُوا أَكْثَرَ

مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ حين جاءهم أمر الله ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ من الكتب الإلهية والعلم النافع المبين للهدي من الضلال ﴿ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ المناقض لدين الرسل لشدة رضاهم به ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أي نزل ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ من العذاب ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ أي عذابنا، أقروا حيث لا ينفعهم الإقرار ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ من الأوثان وتبرأنا من كل ما خالف الرسل من علم أو عمل ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ أي في تلك الحال، وهذه ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ ﴾ وعادته ﴿ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ أن المكذبين حين ينزل بهم بأس الله وعقابه إذا آمنوا، كان إيمانهم غير صحيح ولا منجيًا لهم من العذاب، وذلك لأنه إيمان ضرورة ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ﴾ وقت الإهلاك وإذاقة البأس ﴿ الْكَافِرُونَ ﴾ دينهم ودنياهم وأخراهم، خسران يشقي في العذاب الشديد، والخلود فيه دائما أبدًا.

تم تفسير سورة المؤمن

بحمد الله ولطفه ومعونته

لا بحولنا وقوتنا

فله الشكر والثناء

41

مختصر تفسير سورة فصلت

عدد آياتها 54

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 8 ﴾ ﴿ حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾

﴿ حم ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها. هذا الكتاب الجليل ﴿ تَنْزِيلٌ ﴾ صادر ﴿ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ الذي من أعظم رحمته وأجلها إنزال هذا الكتاب، طريق للسعادة في الدارين ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ أي فصل كل شيء من أنواعه ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ باللغة الفصحى أكمل اللغات، فصلت آياته وجعل عربيًا ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ لأجل أن يتبين لهم معناه كما تبين لفظه، ويتضح لهم الهدى من الضلال ﴿ بَشِيرًا ﴾ بالثواب العاجل والآجل ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ بالعقاب العاجل والآجل ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ إعراض المستكبرين ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ له سماع قبول وإجابة، وإن كانوا قد سمعوه سماعًا، تقوم عليهم به الحجة الشرعية ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي هؤلاء المعرضون عنه ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾ أي أغطية مغشاة ﴿ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ أي صمم فلا نسمع لك ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ فلا نراك ﴿ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ أي كما رضيت بالعمل بدينك، فإننا راضون كل الرضا، بالعمل في ديننا ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا أيها النبي ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ أي ليس بيدي من الأمر شيء، وإنما فضلني الله عليكم وخصّني بالوحي ﴿ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ وأمرني بدعوتكم إليه ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ﴾ أي اسلكوا الصراط الموصل إلى الله تعالى ﴿ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ استغفاراً يتضمن التوبة ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الذين عبدوا من دونه من لا يملك نفعًا ولا ضرًا ﴿ الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ ودنسوا أنفسهم فلم يزكوها بتوحيد ربهم والإخلاص له، ولا نفعوا الخلق بالزكاة وغيرها ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هم كَافِرُونَ ﴾ لا يؤمنون بالبعث ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بهذا الكتاب وما اشتمل عليه مما دعا إليه من الإيمان ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ ﴾ عظيم ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ غير مقطوع ولا نافد.

﴿ 9 - 12 ﴾ ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ

دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ ﴾ الكثيفة العظيمة ثم دحاها ﴿ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ينكر تعالى ويعجّب من كفر الكافرين به ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ يشركونهم معه ﴿ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ويسوونهم بالرب العظيم ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا ﴾ ترسيها عن الزوال وعدم الاستقرار ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا ﴾ وأخرج ﴿ أَقْوَاتَهَا ﴾ وتوابع ذلك ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ. ثُمَّ ﴾ بعد أن خلق الأرض ﴿ اسْتَوَى ﴾ أي قصد ﴿ إِلَى ﴾ خلق ﴿ السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ قد ثار على وجه الماء ﴿ فَقَالَ لَهَا ﴾ ولما كان هذا التخصيص يوهم الاختصاص، عطف عليه بقوله ﴿ وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ انقادا لأمري طائعتين أو مكرهتين، فلا بد من نفوذه ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ ليس لنا إرادة تخالف إرادتك ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ فَتَمَّ خلق السماوات والأرض في ستة أيام، أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، فمن حكمته ورفقه أن جعل خلقها في هذه المدة المقدرة ﴿ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ الأمر والتدبير اللائق بها، الذي اقتضته حكمة أحكم الحاكمين ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ النجوم يستنار بها ويهتدى وتكون زينة وجمالاً للسماء ﴿ وَحِفْظًا ﴾ بجعلها رجومًا للشياطين لئلا يسترق السمع فيها ﴿ ذَلِكَ ﴾ المذكور من الأرض وما فيها والسماء وما فيها ﴿ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ ﴾ الذي عزته قهر بها الأشياء ودبرها وخلق بها المخلوقات ﴿ الْعَلِيمِ ﴾ الذي أحاط علمه بالمخلوقات، الغائب والشاهد.

﴿ 13 – 14 ﴾ ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ هؤلاء المكذبون بعد ما بين لهم ﴿ فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً ﴾ أي عذابًا يستأصلكم ويجتاحكم ﴿ مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ القبيلتين المعروفتين حيث اجتاحهم العذاب بظلمهم وكفرهم ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ يتبع بعضهم بعضا متوالين ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ يأمرونهم بالإخلاص لله وينهونهم عن الشرك ﴿ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ وأما أنتم فبشر مثلنا. وهذه من أوهى الشُّبَهِ ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ فردوا رسالتهم وكذبوهم.

﴿ 15 – 16 ﴾ ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾

﴿ فَأَمَّا عَادٌ ﴾ فكانوا مع كفرهم بالله ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ قاهرين لمن حولهم من العباد ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ قد أعجبتهم قوتهم ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ فلولا خلقه إياهم لم يوجدوا، فعاقبهم الله عقوبة تناسب قوتهم التي اغتروا بها ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ لها صوت كالرعد القاصف سخرها الله عليهم ﴿ فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ﴾ فدمرتهم وأهلكتهم، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم

﴿ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الذي اختزوا به وافتضحوا بين الخليقة ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ لا يمنعون من عذاب الله، ولا ينفعون أنفسهم.

﴿ 17 - 18 ﴾ ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ هداية بيان مبصرة باهرة رآها صغيرهم وكبيرهم، فلهذا خصهم بزيادة البيان والهدى ﴿ فَاسْتَحَبُّوا ﴾ الكفر و ﴿ الْعَمَى ﴾ من ظلمهم وشرهم ﴿ عَلَى الْهُدَى ﴾ الذي هو العلم والإيمان ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ لا ظلمًا من الله لهم ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ أي نجى الله صالحًا عليه السلام ومن اتبعه من المؤمنين المتقين.

﴿ 19 - 24 ﴾ ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ ﴾ الذين بارزوه بالكفر به وبآياته، وحالهم الشنيعة حين يحشرون أي يجمعون ﴿ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ يرد أولهم على آخرهم، ويتبع آخرهم أولهم، ويساقون إليها سوقا عنيفًا ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا ﴾ حتى إذا وردوا على النار وأنكروا ما عملوه من المعاصي ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ ﴾ عموم بعد خصوص ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ شهد عليهم كل عضو من أعضائهم، فكل عضو يقول: أنا فعلت كذا وكذا، يوم كذا وكذا. وخص هذه الأعضاء الثلاثة، لأن أكثر الذنوب، إنما تقع بها، أو بسببها. فإذا شهدت عليهم عاتبوها ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ ﴾ هذا دليل عل أن الشهادة تقع من كل عضو كما ذكرنا ﴿ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ فليس في إمكاننا الامتناع عن الشهادة حين أنطقنا الذي لا يستعصي عن مشيئته أحد ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فكما خلقكم بذواتكم وأجسامكم، خلق أيضا صفاتكم ومن ذلك الإنطاق ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ في الآخرة، فيجزيكم بما عملتم. ويحتمل أن المراد بذلك الاستدلال على البعث بالخلق الأول، كما هو طريقة القرآن ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ أي وما كنتم تختفون عن شهادة أعضائكم عليكم ﴿ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ ﴾ بإقدامكم على المعاصي ﴿ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر، وكان سبب هلاكهم وشقائهم ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ ﴾ ما لا يليق بجلاله ﴿ أَرْدَاكُمْ ﴾ أي أهلككم ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ لأنفسهم وأهليهم وأديانهم بسبب الأعمال التي أوجبها لكم ظنكم القبيح بربكم، فحقت عليكم كلمة العقاب والشقاء ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ فلا جَلَدَ عليها، ولا صبر، وكيف الصبر على نار زادت على نار الدنيا بسبعين ضعفًا، وزاد نتن صديدها، وتضاعف برد زمهريرها وعظمت سلاسلها وأغلالها، وكبرت مقامعها، وغلظ خُزَّانها، وزال

ما في قلوبهم من رحمتهم ﴿ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا ﴾ أي يطلبوا أن يزال عنهم العتب، ويرجعوا إلى الدنيا، ليستأنفوا العمل ﴿ فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ لأنه ذهب وقته، وعمروا، ما يعمر فيه من تذكر وجاءهم النذير وانقطعت حجتهم.

﴿ 25 ﴾ ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ ﴾ لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق ﴿ قُرَنَاءَ ﴾ من الشياطين ﴿ فَزَيَّنُوا ﴾ تزعجهم إلى المعاصي وتحثهم عليها بسبب ما زينوا ﴿ لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ فأقدموا على معاصي الله وربما أوقعوا عليهم الشُّبه بعدم وقوعها فترحَّل خوفها من قلوبهم فقادوهم إلى الكفر والبدع والمعاصي ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ أي وجب عليهم، ونزل القضاء والقدر بعذابهم ﴿ فِي ﴾ جملة ﴿ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ لأديانهم وآخرتهم.

﴿ 26 – 29 ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ * فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ ﴾ أعرضوا عنه بأسماعكم، فإن سمعتموه، فـ ﴿ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ أي تكلموا بالكلام الذي لا فائدة فيه، بل فيه المضرة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ إن فعلتم ذلك. ومفهوم كلامهم أنهم إن لم يلغوا فيه لا يغلبون ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وهو الكفر والمعاصي، فإنها أسوأ ما كانوا يعملون ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ ﴾ الذين حاربوه وحاربوا أولياءه بالكفر والتكذيب ﴿ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ الخلود الدائم ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ فأعظم الظلم وأكبر العناد، جحدها والكفر بها ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي الأتباع منهم، على وجه الحنق ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ أي الصنفين اللذين قادانا إلى الضلال والعذاب من شياطين الجن وشياطين الإنس ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ الأذلين المهانين كما أضلونا وفتنونا. فهذا بيان حنق بعضهم على بعض، وتبرّي بعضهم من بعض.

﴿ 30 – 32 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية الله تعالى واستسلموا لأمره ثم استقاموا على الصراط المستقيم علمًا وعملاً، فلهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ الكرام، أي يتكرر نزولهم عليهم، مبشرين لهم عند الاحتضار ﴿ أَلَّا تَخَافُوا ﴾ على ما يستقبل من أمركم ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ على ما مضى، فنفوا عنهم المكروه الماضي والمستقبل ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ فإنها قد وجبت لكم وثبتت،

وكان وعد الله مفعولاً ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ يحثونهم في الدنيا على الخير، ويرهبونهم عن الشر، ويدعون الله لهم، ويثبتونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصًا عند الموت وشدته، والقبر وظلمته، وفي القيامة وأهوالها، وعلى الصراط، وفي الجنة يهنئونهم بكرامة ربهم، ويدخلون عليهم من كل باب ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا ﴾ أي في الجنة ﴿ مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ﴾ قد أعد وهيئ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ أي تطلبون ﴿ نُزُلًا ﴾ أي هذا الثواب الجزيل نُزُلٌ وضيافة ﴿ مِن غَفُورٍ ﴾ غفر لكم السيئات ﴿ رَحِيمٍ ﴾ حيث وفقكم لفعل الحسنات، ثم قبلها منكم.

﴿ 33 ﴾ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا ﴾ استفهام بمعنى النفي المتقرر أي لا أحد أحسن كلامًا وطريقة وحالة ﴿ مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ بالأمر بعبادة الله ومن الدعوة إلى الله ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ بادر هو بنفسه إلى امتثال أمر الله بالعمل الصالح الذي يُرْضِي ربه ﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ المنقادين لأمر. وهذه مرتبة تمامها للصديقين الذين عملوا على تكميل أنفسهم وتكميل غيرهم، وحصلت لهم الوراثة التامة من الرسل.

﴿ 34 - 35 ﴾ ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصًا من له حق كبير عليك كالأقارب والأصحاب ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فَصِلْهُ، وإن ظلمك فاعف عنه، فإذا قابلت الإساءة بالإحسان، حصل فائدة عظيمة ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ كأنه قريب شفيق ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا ﴾ وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ نفوسهم على ما تكره، وأجبروها على ما يحبه الله ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ لكونها من خصال خواص الخلق التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة.

﴿ 36 - 39 ﴾ ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴾ أي وقت من الأوقات أحسست بشيء من نزغات الشيطان، من وساوسه ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ اسأله مفتقرًا إليه أن يعيذك ويعصمك منه ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فإنه يسمع قولك وتضرعك ويعلم حالك واضطرارك إلى عصمته وحمايته ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على كمال قدرته ﴿ اللَّيْلُ ﴾ بمنفعة ظلمه ﴿ وَالنَّهَارُ ﴾ بمنفعة ضيائه ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ اللذان لا تستقيم معايش العباد إلا بهما، وبهما من المصالح ما لا يحصى عدده ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ فإنهما مدبران مسخران مخلوقان ﴿ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾

اعبدوه وحده، لأنه الخالق العظيم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين له ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا ﴾ عن عبادة الله تعالى، ولم ينقادوا لها، فإنهم لن يضروا الله شيئًا، والله غني عنهم ﴿ فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ يعني الملائكة المقربين ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ لا يملون من عبادته، لقوتهم، وشدة الداعي القوي منهم إلى ذلك ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على كمال قدرته، وانفراده بالملك والتدبير والوحدانية ﴿ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ لا نبات فيها ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ ﴾ المطر ﴿ اهْتَزَّتْ ﴾ تحركت بالنبات ﴿ وَرَبَتْ ﴾ ثم أنبتت من كل زوج بهيج، فيحيي به العباد والبلاد ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا ﴾ بعد موتها وهمودها ﴿ لَمُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم ﴿ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فكما لم تعجز قدرته عن إحياء الأرض بعد موتها، لا تعجز عن إحياء الموتى.

﴿ 40-42 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ الإلحاد في آيات الله: الميل بها عن الصواب، بأي وجه كان: إما بإنكارها وجحودها، وتكذيب من جاء بها، وإما بتحريفها وتصريفها عن معناها الحقيقي، وإثبات معان لها، ما أرادها الله منها. فتوعَّد تعالى من ألحد فيها بأنه لا يخفى عليه، بل هو مطلع على ظاهره وباطنه، وسيجازيه على إلحاده بما كان يعمل ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ ﴾ مثل الملحد بآيات الله ﴿ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ من عذاب الله مستحقًا لثوابه؟ من المعلوم أن هذا خير ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ إن شئتم، فاسلكوا طريق الرشد الموصلة إلى رضا ربكم وجنته، وإن شئتم، فاسلكوا طريق الغيّ المسخطة لربكم، الموصلة إلى دار الشقاء ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ يجازيكم بحسب أحوالكم وأعمالكم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ ﴾ أي يجحدون القرآن الكريم ﴿ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم ﴿ وَ ﴾ الحال ﴿ إِنَّهُ لَكِتَابٌ ﴾ جامع لأوصاف الكمال ﴿ عَزِيزٌ ﴾ أي منيع من كل من أراده بتحريف أو سوء ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ ﴾ في خلقه وأمره ﴿ حَمِيدٌ ﴾ على ما له من صفات الكمال.

﴿ 43 ﴾ ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ ﴾ أيها الرسول ممن كذبك وعاندك ﴿ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أي من جنسها، لما تشابهت قلوبهم في الكفر تشابهت أقوالهم، وصبر الرسل عليهم السلام على أذاهم وتكذيبهم، فاصبر كما صبر من قبلك ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ عظيمة، يمحو بها كل ذنب لمن أقلع وتاب ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ لمن أصر واستكبر.

﴿ 44 ﴾ ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا ﴾ بلغة غير العرب لاعترض المكذبون و ﴿ لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ أي هلا بينت آياته ووضحت وفسرت ﴿ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ أي كيف يكون محمد عربيًا والكتاب أعجمي؟ فنفى الله تعالى كل أمر يكون

فيه شبهة لأهل الباطل عن كتابه ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ أي يهديهم لطريق الرشد والصراط المستقيم ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بالقرآن ﴿ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ أي صمم عن استماعه وإعراض ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ أي لا يهتدون به، ولا يزيدهم إلا ضلالاً، ازدادوا عمى إلى عماهم، وغيًّا إلى غيِّهم ﴿ أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أي ينادون إلى الإيمان، فلا يستجيبون. والمقصود أن الذين لا يؤمنون بالقرآن، لا ينتفعون بهداه، لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى.

﴿ 45-46 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ كما آتيناك الكتاب، فصنع به الناس ما صنعوا معك ﴿ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ فمنهم من آمن به واهتدى وانتفع، ومنهم من كذبه ولم ينتفع به. ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ بتأخير العذاب إلى أجل مسمى لا يتقدم عليه ولا يتأخر ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ بإهلاك الكافرين في الحال ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أي قد بلغ بهم إلى الريب الذي يقلقهم، فلذلك كذبوه وجحدوه. ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا ﴾ وهو العمل الذي أمر الله به ورسوله ﴿ فَلِنَفْسِهِ ﴾ نفعه وثوابه في الدنيا والآخرة ﴿ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ ضرره وعقابه في الدنيا والآخرة ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ فَيُحمِّل أحدًا فوق سيئاتهم.

﴿ 47-48 ﴾ ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ * وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ جميع الخلق ترد علمهم إلى الله تعالى، ويقرون بالعجز عنه ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا ﴾ أي وعائها الذي تخرج منه ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى ﴾ من بني آدم وغيرهم إلا بعلمه ﴿ وَلَا تَضَعُ ﴾ أنثى حملها ﴿ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ فكيف سوَّى المشركون به تعالى، من لا علم عنده ولا سمع ولا بصر ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ أي المشركين به يوم القيامة توبيخًا وإظهارًا لكذبهم ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِي ﴾ الذين زعمتم أنهم شركائي فعبدتموهم ﴿ قَالُوا ﴾ مقرين ببطلان إلهيتهم وشركتهم مع الله ﴿ آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴾ أي أعلمناك يا ربنا، واشهد علينا أنه ما منا أحد يشهد بصحة إلهيتهم وشركتهم، فكلنا الآن قد رجعنا إلى بطلان عبادتها، وتبرأنا منها ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ من دون الله، أي ذهبت عقائدهم وأعمالهم، ولم تغن عنهم شركاؤهم شيئًا ﴿ وَظَنُّوا ﴾ أي أيقنوا في تلك الحال ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أي منقذ ينقذهم ولا مغيث.

﴿ 49-51 ﴾ ﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾

﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ لا يمل دائمًا من دعاء الله، في الغنى والمال والولد، فلو حصل له من الدنيا ما حصل، لم يزل طالبًا للزيادة ﴿ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ المكروه كالمرض والفقر وأنواع البلايا ﴿ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ أي ييأس من رحمة الله تعالى، ويظن أن هذا البلاء هو القاضي عليه بالهلاك ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ ﴾ أي الإنسان ﴿ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ بعد ذلك الشر الذي أصابه فإنه لا يشكر الله تعالى، بل يبغى ويطغى ﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ أي أتاني لأني له أهل، وأنا مستحق له ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ وهذا إنكار منه للبعث، وكفر للنعمة والرحمة، التي أذاقها الله له ﴿ وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ أي على تقدير إتيان الساعة وأني سأرجع إلى ربي، فكما حصلت لي النعمة في الدنيا فإنها ستحصل لي في الآخرة ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أي شديد جدًا ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ ﴾ بصحة أو رزق أو غيرهما ﴿ أَعْرَضَ ﴾ عن ربه وعن شكره ﴿ وَنَأَى ﴾ ترفع ﴿ بِجَانِبِهِ ﴾ عجبا وتكبرًا ﴿ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ المرض أو الفقر أو غيرهما ﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ كثير جدًا، فلا صبر في الضراء ولا شكر في الرخاء، إلا من هداه الله ومنَّ عليه.

﴿ 52-54 ﴾ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ لهؤلاء المكذبين بالقرآن ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ من غير شك ولا ارتياب ﴿ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أي معاندة لله ولرسوله، لأنه تبين لكم الحق والصواب ثم عدلتم عنه، فإذا تكونون أضل الناس وأظلمهم ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ ﴾ فإن قلتم، أو شككتم بصحته وحقيقته، فسيقيم الله لكم، ويريكم من آياته في الآفاق كالآيات التي في السماء وفي الأرض ﴿ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ مما اشتملت عليه أبدانهم، من بديع آيات الله وعجائب صنعته ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ ﴾ من تلك الآيات، بيانًا لا يقبل الشك ﴿ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ وما اشتمل عليه حق ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي أولم يكفهم على أن القرآن حق، ومن جاء به صادق، بشهادة الله تعالى ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ أي في شك من البعث والقيامة ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ علما وقدرة وعزة.

تم تفسير سورة فصلت

بمنه تعالى

مختصر تفسيرسورة الشورى

عدد آياتها 53 وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-9 ﴾ ﴿ حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ * وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ حم * عسق ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يخبر تعالى أنه أوحى هذا القرآن العظيم إلى النبي الكريم، كما أوحى إلى من قبله من الأنبياء والمرسلين. ففيه بيان فضله بإنزال الكتب وإرسال الرسل. وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس ببدع من الرسل وما جاء به يشابه ما جاءوا به وهو تنزيل نزّله ﴿ اللَّهُ ﴾ من اتصف بالألوهية ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ والعزة العظيمة ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ والحكمة البالغة ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ وأن جميع العالم العلوي والسفلي ملكه وتحت تدبيره القدري والشرعي ﴿ وَهُوَ ﴾ وأنه ﴿ الْعَلِيُّ ﴾ بذاته وقدره وقهره ﴿ الْعَظِيمُ ﴾ الذي من عظمته ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ﴾ على عظمها وكونها جمادا ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ الكرام المقربون خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته، مذعنون بربوبيته ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ ويعظمونه عن كل نقص، ويصفونه بكل كمال ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ عما يصدر منهم مما لا يليق بعظمة ربهم وكبريائه ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ الذي لولا مغفرته ورحمته، لعاجل الخلق بالعقوبة المستأصلة ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يتولونهم بالعبادة والطاعة كما يعبدون الله ويطيعونه، فإنما اتخذوا الباطل وليسوا بأولياء على الحقيقة ﴿ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ يحفظ عليهم أعمالهم، فيجازيهم بخيرها وشرها ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ فتُسأل عن أعمالهم، وإنما أنت مبلغ أديت وظيفتك. ثم ذكر منته على رسوله وعلى الناس ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ بيّن الألفاظ والمعاني ﴿ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى ﴾ وهي مكة المكرمة ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ثم يسري هذا الإنذار إلى سائر الخلق ﴿ وَتُنْذِرَ ﴾ الناس ﴿ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾ الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، وتخبرهم أنه ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وأن الخلق ينقسمون فيه فريقين ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ ﴾ وهم الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين ﴿ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ وهم أصناف الكفرة المكذبين ﴿ وَ ﴾ مع هذا ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ ﴾ لجعل الناس ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ على الهدى، لأنه القادر الذي لا يمتنع عليه شيء ﴿ وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ من شاء من خواص خلقه ﴿ وَ ﴾ أما

﴿ الظَّالِمُونَ ﴾ الذين لا يصلحون لصالح، فإنهم محرومون من الرحمة، فـ ﴿ مَا لَهُمْ ﴾ من دون الله ﴿ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ يتولاهم، فيحصل لهم المحبوب ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يدفع عنهم المكروه ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يتولونهم بعبادتهم إياهم، فقد غلطوا أقبح غلط ﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴾ يتولى عباده عموما بتدبيره، ويتولى عباده المؤمنين خصوصا بإخراجهم من الظلمات إلى النور ﴿ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ المتصرف بالإحياء والإماتة ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ونفوذ المشيئة والقدرة، فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

﴿ 10-12 ﴾ ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ من أصول دينكم وفروعه، مما لم تتفقوا عليه ﴿ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ يرد إلى كتابه، وإلى سنة رسوله، فما حكما به فهو الحق، وما خالف ذلك فباطل ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي ﴾ أي فكما أنه تعالى الرب الخالق الرازق المدبر، فهو تعالى الحاكم بين عباده بشرعه في جميع أمورهم. ومفهوم الآية الكريمة: أن اتفاق الأمة حجة قاطعة، لأن الله تعالى لم يأمرنا أن نرد إليه إلا ما اختلفنا فيه ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ اعتمدت بقلبي عليه في جلب المنافع ودفع المضار ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أتوجه بقلبي وبدني إليه، وإلى طاعته وعبادته ﴿ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خالقهما بقدرته ومشيئته وحكمته ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ لتسكنوا إليها، وتنتشر منكم الذرية ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ﴾ ذكرا وأنثى، لتبقى وتنمو لمنافعكم الكثيرة، ولهذا عداها باللام الدالة على التعليل، أي: جعل ذلك لأجلكم، ولأجل النعمة عليكم ﴿ يذرؤكم فيه ﴾ يبثكم ويكثركم ويكثر مواشيكم، بسبب أن جعل لكم من أنفسكم وجعل لكم من الأنعام أزواجا ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسماءه كلها حسنى، وصفاته صفة كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء، لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لجميع الأصوات ﴿ الْبَصِيرُ ﴾ يرى دبيب النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء، ويرى سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة جدا، وسريان الماء في الأغصان الدقيقة ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ له ملك السماوات والأرض، وبيده مفاتيح الرحمة والأرزاق، والنعم الظاهرة والباطنة. والله تعالى هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع الشر إلا هو ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ يوسعه ويعطيه من أصناف الرزق ما شاء ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ يضيق على من يشاء، حتى يكون بقدر حاجته، لا يزيد عنها، وكل هذا تابع لعلمه وحكمته ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فيعلم أحوال عباده، فيعطي كلا ما يليق بحكمته وتقتضيه مشيئته.

﴿ 13 ﴾ ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﴾ هذه أكبر منة أنعم الله بها على عباده أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها، دين الإسلام ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ أمركم أن

تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه، تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم ﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ شق عليهم غاية المشقة، حيث دعوتهم إلى الإخلاص لله وحده ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ يختار من خليقته من يعلم أنه يصلح للاجتباء لرسالته وولايته ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ فحسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها. وبما أنه تعالى يهدي من ينيب إليه وأنه أمرنا باتباع سبيل من أناب إليه، وبما أننا نعلم بأحوال الصحابة رضي الله عنهم، وشدة إنابتهم، فهذا دليل على أن قولهم حجة، خصوصا الخلفاء الراشدين، رضي الله عنهم أجمعين.

﴿ 14-15 ﴾ ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ * فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ لما أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم، ونهاهم عن التفرق، أخبرهم أنكم لا تغتروا بما أنزل الله عليكم من الكتاب، فإن أهل الكتاب لم يتفرقوا حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، فاحذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ بتأخير العذاب القاضي ﴿ إلى أجل مسمى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ ولكن حكمته وحلمه، اقتضى تأخير ذلك عنه ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ الذين ورثوهم وصاروا خلفا لهم ممن ينتسب إلى العلم منهم ﴿ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ لفي اشتباه كثير يوقع في الاختلاف، حيث اختلف سلفهم بغيا وعنادا، فإن خلفهم اختلفوا شكا وارتيابا، والجميع مشتركون في الاختلاف المذموم ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ ﴾ أي فللدين القويم والصراط المستقيم ﴿ وَاسْتَقِمْ ﴾ بنفسك ﴿ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ استقامة موافقة لأمر الله ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي أهواء المنحرفين عن الدين ﴿ وَقُلْ ﴾ لهم عند جدالهم ومناظرتهم ﴿ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ لتكن مناظرتك لهم مبنية على هذا الأصل العظيم، لأن الكتاب الذي يدعون إليه من شرطه أن يكون مصدقا بهذا القرآن وبمن جاء به ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ في الحكم فيما اختلفتم فيه. فلا تمنعني عداوتكم وبغضكم يا أهل الكتاب من العدل بينكم ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ هو رب الجميع، لستم بأحق به منا ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ من خير وشر ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ لم يبق للجدال والمنازعة محل بعد ما اتضح الحق من الباطل. وليس المراد بهذا أن أهل الكتاب لا يجادلون ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ يوم القيامة، فيجزي كلا بعمله، ويتبين حينئذ الصادق من الكاذب.

﴿ 16 ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾

وهذا تقرير لقوله: لا حجة بيننا وبينكم ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ ﴾ بالحجج الباطلة ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ ﴾ من بعد ما استجاب لله أولو الألباب والعقول ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ﴾ باطلة مدفوعة ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ لأنها مشتملة على

رد الحق وكل ما خالف الحق، فهو باطل ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ لعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله وبيناته وتكذيبها ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ فهذه عقوبة كل مجادل للحق بالباطل.

﴿ 17-18 ﴾ ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ هذا القرآن العظيم نزل بالحق، واشتمل على الحق والصدق واليقين ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ العدل والاعتبار بالقياس الصحيح. فكل الدلائل العقلية داخلة في الميزان الذي أنزله الله تعالى ووضعه بين عباده، ليزنوا به ما اشتبه من الأمور، ويعرفوا به صدق ما أخبر به وأخبرت رسله. ثم قال تعالى مخوفا للمستعجلين لقيام الساعة المنكرين ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ ليس بمعلوم بعدها، ولا متى تقوم، فهي في كل وقت متوقع وقوعها، مخوف وجبتها ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ عنادا وتكذيبا، وتعجيزا لربهم ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ خائفون، لمعرفتهم بربهم أن لا تكون أعمالهم منجية لهم ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ الذي لا مرية فيه ﴿ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ ﴾ بعد ماروا الرسل وأتباعهم بإثباتها ﴿ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ فهم في غاية البعد عن الحق.

﴿ 19-20 ﴾ ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾

﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ يدرك الضمائر والسرائر ويوصل عباده وخصوصا المؤمنين إلى ما فيه الخير لهم من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون ﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ بحسب اقتضاء حكمته ولطفه، فإذا علم أن الدنيا تقطع عبده عن طاعته أو تحمله على معصية، صرفها عنه وقدر عليه رزقه ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ ﴾ الذي له القوة كلها ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الذي دانت له جميع الأشياء ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ ﴾ أي أجرها وثوابها، فآمن بها وصدق وسعى لها سعيها ﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ بأن نضاعف عمله وجزاءه أضعافا كثيرة ﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا ﴾ بأن كانت الدنيا هي مقصوده وغاية مطلوبه ﴿ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ نصيبه الذي قسم له ﴿ وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ قد حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها.

﴿ 21-23 ﴾ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ يخبر تعالى أن المشركين اتخذوا شركاء يوالونهم ويشتركون هم وإياهم في الكفر وأعماله ﴿ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ من الشرك والبدع ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ لولا الأجل المسمى الذي ضربه الله، وأنه سيؤخرهم إليه، لقضي بينهم في الوقت الحاضر بسعادة المحق

وإهلاك المبطل. وفي ذلك اليوم ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين وجلين ﴿ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ أن يعاقبوا عليه. ولما كان الخائف قد يقع به ما أشفق منه وخافه، وقد لا يقع، أخبر أنه ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ العقاب الذي خافوه ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بقلوبهم بالله وبكتبه ورسله ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ يشمل كل عمل صالح فهؤلاء ﴿ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ﴾ الروضات مضافة إلى الجنات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه، فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ فمهما أرادوا في الجنات فهو حاصل ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ وهل فوز أكبر من الفوز برضا الله تعالى، والتنعم بقربه في دار كرامته ﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ هذه البشارة العظيمة بشر بها الرحيم الرحمن على يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على تبليغي إياكم هذا القرآن ودعوتكم إلى أحكامه ﴿ أَجْرًا ﴾ فلست أريد أخذ أموالكم، ولا التولي عليكم والترأس، ولا غير ذلك من الأغراض ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ يحتمل أن المراد: لا أسألكم عليه أجرا إلا أجرا واحدا، عائد نفعه إليكم، وهو أن تودوني وتحبوني لأجل القرابة والمودة الزائدة على مودة الإيمان. ويحتمل أن المراد إلا مودة الله تعالى الصادقة ﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ من صلاة أو صوم أو حج، أو إحسان إلى الخلق ﴿ نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ بأن يشرح الله صدره، وييسر أمره، وتكون سببا للتوفيق لعمل آخر ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ يغفر الذنوب العظيمة ويستر العيوب ﴿ شَكُورٌ ﴾ ويشكر على العمل القليل بالأجر الكثير، ويتقبل الحسنات ويضاعفها أضعافا كثيرة.

﴿ 24 ﴾ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ المكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ بادعاء النبوة والنسبة إلى الله ما هو بريء منه ﴿ فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ وإذا ختم على قلبه انحسم الأمر كله وانقطع ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ الكونية التي لا تغير ولا تبدل، ووعده الصادق ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ بما فيها، وما اتصفت به من خير وشر، وما أكنته ولم تبده.

﴿ 25-28 ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ * وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ * وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ حين يقلعون عن ذنوبهم ويندمون عليها، ويعزمون على أن لا يعاودوها ﴿ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ ويمحوها، ويمحو أثرها من العيوب، وما اقتضته من العقوبات ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ لأن التوبة قد تكون كاملة أو ناقصة وقد تكون فاسدة، ومحل ذلك القلب الذي لا يعلمه إلا الله ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ يستجيبون لربهم لما دعاهم إليه ويلبون دعوته، لذلك ﴿ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أمّا غير المستجيبين لله ﴿ وَ ﴾ هم ﴿ الْكَافِرُونَ ﴾ المعاندون فـ ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ

الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي: لغفلوا عن طاعة الله وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا. وهذا من لطفه بعباده، أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة، تضر بأديانهم ﴿ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ﴾ بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته ﴿ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ[1]. وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ أي المطر الغزير الذي به يغيث البلاد والعباد ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ وانقطع عنهم مدة ظنوا أنه لا يأتيهم ﴿ وَيَنْشُرُ ﴾ به ﴿ رَحْمَتَهُ ﴾ من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم ﴿ وَهُوَ الْوَلِيُّ ﴾ الذي يتولى عباده بأنواع التدبير ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ على ما له من الكمال، وما أوصله إلى خلقه من أنواع الإفضال.

﴿ 29 ﴾ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ أدلة قدرته العظيمة، وأنه سيحيي الموتى بعد موتهم ﴿ خَلْقُ ﴾ هذه ﴿ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ على عظمهما وسعتهما ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ نشر في السماوات والأرض من أصناف الدواب التي جعلها الله مصالح ومنافع لعباده ﴿ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ ﴾ جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة ﴿ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ فقدرته ومشيئته صالحان لذلك، ويتوقف وقوعه على وجود الخبر الصادق.

﴿ 30-31 ﴾ ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ ﴾ ما أصاب العباد ﴿ مِنْ مُصِيبَةٍ ﴾ في أبدانهم وأموالهم وأولادهم وفيما يحبون ويكون عزيزا عليهم ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ من السيئات ﴿ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ ما يعفو الله عنه أكثر، فإن الله لا يظلم العباد، ولكن أنفسهم يظلمون ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي معجزين قدرة الله عليكم، بل أنتم عاجزون في الأرض، ليس عندكم امتناع عما ينفذه الله فيكم ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ يتولاكم، فيحصل لكم المنافع ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يدفع عنكم المضار.

﴿ 32-35 ﴾ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ * وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ ومن أدلة رحمته وعنايته بعباده ﴿ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ ﴾ من السفن، والمراكب النارية والشراعية، التي من عظمها ﴿ كَالْأَعْلَامِ ﴾ وهي الجبال الكبار، التي سخر لها البحر العجاج، وجعلها تحملكم وتحمل أمتعتكم الكثيرة إلى البلدان والأقطار البعيدة ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ ﴾ التي جعلها الله سببا لمشيها ﴿ فَيَظْلَلْنَ ﴾ أي الجوار ﴿ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ على ظهر البحر، لا تتقدم ولا تتأخر، ولا ينتقض هذا بالمراكب النارية، فإن من شرط مشيها وجود

[1] وفي بعض الآثار أن الله تعالى يقول: "إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أمرضته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا المرض ولو عافيته لأفسده ذلك، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إني خبير بصير"

الريح ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ كثير الصبر على ما تكرهه نفسه ويشق عليها ﴿ شَكُورٍ ﴾ يعترف بنعمة ربه ويخضع له ويصرفها في مرضاته، فهذا الذي ينتفع بآيات الله ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ وإن شاء الله تعالى أوبق الجوار بما كسب أهلها، أي أغرقها في البحر وأتلفها ﴿ وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ ولكنه يحلم ويعفو عن كثير ﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ ليبطلوها بباطلهم ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أي لا ينقذهم منقذ مما حل بهم من العقوبة.

﴿ 36-39 ﴾ ﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾

﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ من ملك ورياسة وأموال وبنين وصحة وعافية بدنية ﴿ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ لذة منغصة منقطعة ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ من الثواب الجزيل ﴿ خَيْرٌ ﴾ من لذات الدنيا ﴿ وَأَبْقَى ﴾ لأنه نعيم لا منغص فيه ولا انتقال ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي جمعوا بين الإيمان الصحيح والتوكل وهو الاعتماد بالقلب على الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ الفواحش هي الذنوب الكبار التي في النفوس داع إليها، كالزنا ونحوه، والكبائر ما ليس كذلك، هذا عند الاقتران، وأما مع إفراد كل منهما عن الآخر فإن الآخر يدخل فيه ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ إذا أغضبهم أحد بمقاله أو فعاله، كظموا ذلك الغضب ولم يقابلوا المسيء إلا بالإحسان والعفو والصفح ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ انقادوا لطاعته، ولبَّوْا دعوته وصار قصدهم رضوانه والفوز بقربه ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ ظاهرها وباطنها، فرضها ونفلها ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ من النفقات الواجبة والمستحبة ﴿ وَأَمْرُهُمْ ﴾ الديني والدنيوي ﴿ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ أي لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ ﴾ أي وصل إليهم من أعدائهم ﴿ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ لقوتهم وعزتهم، ولم يكونوا أذلاء عاجزين عن الانتصار.

﴿ 40-43 ﴾ ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ ذكر الله في هذه الآية مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل وفضل وظلم. فمرتبة العدل: جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص. ومرتبة الفضل ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ العفو والإصلاح عن المسيء، وشرط الله في العفو الإصلاح فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأمورا به. وأما مرتبة الظلم: ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ الذين يجنون على غيرهم ابتداء، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم ﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ أي انتصر ممن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه ﴿ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ لا حرج عليهم في ذلك ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ ﴾ إنما تتوجه الحجة بالعقوبة الشرعية ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾

وهذا شامل للظلم والبغي على الناس، في دمائهم وأموالهم وأعراضهم ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ موجع للقلوب والأبدان، بحسب ظلمهم وبغيهم ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ ﴾ على ما يناله من أذى الخلق ﴿ وَغَفَرَ ﴾ لهم بأن سمح لهم عما يصدر منهم ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم وذوو الألباب والبصائر.

﴿ 44-46 ﴾ ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ * وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ * وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴾

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾ بسبب ظلمه ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ يتولى أمره ويهديه ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ مرأى ومنظرا فظيعا، يظهرون الندم والحزن على ما سلف منهم و ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ هل لنا طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا، لنعمل غير الذي كنا نعمل، وهذا طلب للأمر المحال ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي على النار ﴿ خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ ﴾ ترى أجسامهم خاشعة للذل الذي في قلوبهم ﴿ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ ينظرون إلى النار مسارقة وشزرا، من هيبتها وخوفها ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ حيث ظهرت عواقب الخلق، وتبين أهل الصدق من غيرهم ﴿ إِنَّ الْخَاسِرِينَ ﴾ على الحقيقة ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ حيث حصلوا على أليم العقاب وفرق بينهم وبين أهليهم، فلم يجتمعوا بهم ﴿ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾ منغمرين لا يخرجون منه أبدا ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ كما كانوا في الدنيا يمنون بذلك أنفسهم، ففي القيامة يتبين لهم ولغيرهم أن أسبابهم التي أملوها تقطعت ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ تحصل به هدايته، فهؤلاء ضلوا حين زعموا في شركائهم النفع ودفع الضر، فتبين حينئذ ضلالهم.

﴿ 47-48 ﴾ ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ * فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ ﴾ يأمر تعالى عباده بالاستجابة له بامتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه، وبالمبادرة بذلك وعدم التسويف ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمِ القيامة الذي إذا جاء لا يمكن رده واستدراك الفائت ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴾ وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه، فيفوت ربه، ويهرب منه. وهذه الآية ونحوها، فيها ذم الأمل، والأمر بانتهاز الفرصة في كل عمل يعرض للعبد، فإن للتأخير آفات ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ عما جئتهم به بعد البيان التام ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ تحفظ أعمالهم وتسأل عنها ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ فإذا أديت ما عليك فقد وجب أجرك على الله، سواء استجابوا أم أعرضوا ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ ثم ذكر تعالى حالة الإنسان وأنه إذا أذاقه الله رحمة من صحة بدن ورزق رغد وجاه ونحوه ﴿ فَرِحَ بِهَا ﴾ أي فرح فرحا مقصورا عليها لا يتعداها، ويلزم من ذلك طمأنينته بها وإعراضه عن المنعم ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ

﴿ سَيِّئَةٌ ﴾ أي مرض أو فقر أو نحوهما ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ أي طبيعته كفران النعمة السابقة، والتسخط لما أصابه من السيئة.

﴿ 49-50 ﴾ ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ هذه الآية فيها الإخبار عن سعة ملكه تعالى ونفوذ تصرفه في الملك في الخلق لما يشاء، والتدبير لجميع الأمور ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ فمن الخلق من يهب له إناثا ومنهم من يهب له ذكورا ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ ومنهم من يزوجه أي يجمع له ذكورا وإناثا ﴿ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ ومنهم من يجعله عقيما لا يولد له ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بكل شيء ﴿ قَدِيرٌ ﴾ على كل شيء، فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء، وبقدرته في مخلوقاته.

﴿ 51-53 ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ * وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ ﴾ تكليمه تعالى لا يكون إلا لخواص خلقه، للأنبياء والمرسلين، وصفوته من العالمين، وأنه يكون ﴿ إِلَّا وَحْيًا ﴾ بأن يلقي الوحي في قلب الرسول، من غير إرسال ملك، ولا مخاطبة منه شفاها ﴿ أَوْ ﴾ يكلمه منه شفاها، لكن ﴿ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ كما حصل لموسى بن عمران، كليم الرحمن ﴿ أَوْ ﴾ يكلمه الله بواسطة الرسول الملكي فـ ﴿ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ كجبريل أو غيره من الملائكة ﴿ فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ أي بإذن ربه، لا بمجرد هواه ﴿ إِنَّهُ ﴾ تعالى ﴿ عَلِيٌّ ﴾ الذات والأوصاف والأفعال ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في وضعه كل شيء في موضعه، من المخلوقات والشرائع ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ حين أوحينا إلى الرسل قبلك ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ وهو هذا القرآن الكريم، سماه روحا لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح ومصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي ﴾ قبل نزوله عليك ﴿ مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية، بل كنت أميا لا تخط ولا تقرأ ﴿ وَلَكِنْ ﴾ فجاءك هذا الكتاب الذي ﴿ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ويهتدون به إلى الصراط المستقيم تبينه لهم وتوضحه ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي الصراط الذي نصبه الله لعباده، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ أي ترجع جميع أمور الخير والشر، فيجازي كُلًّا بحسب عمله، إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

تم تفسير سورة الشورى

43

مختصر تفسيرسورة الزخرف

عدد آياتها 89

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-5 ﴾ ﴿ حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ * أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴾

﴿ حم ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين وأطلق، ولم يذكر المتعلق، ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين والآخرة ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ هذا المقسم عليه، أنه جعل بأفصح اللغات وأوضحها وأبينها، وهذا من بيانه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ألفاظه ومعانيه لتيسرها وقربها من الأذهان ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا ﴾ في الملأ الأعلى في أعلى الرتب وأفضلها ﴿ لَعَلِيٌّ ﴾ في قدره وشرفه ومحله ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا ﴾ أفنعرض عنكم ونترك إنزال الذكر إليكم، ونضرب عنكم صفحا ﴿ أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴾ لعدم انقيادكم له؟ بل ننزل عليكم الكتاب، فإن آمنتم به واهتديتم فهو من توفيقكم، وإلا قامت عليكم الحجة، وكنتم على بينة من أمركم.

﴿ 6-8 ﴾ ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴾ يأمرونهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ولم يزل التكذيب موجودا في الأمم ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ جحدا لما جاء به، وتكبرا على الحق ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ ﴾ من هؤلاء ﴿ بَطْشًا ﴾ قوة وأفعالا وآثارا في الأرض ﴿ وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾ مضت أمثالهم وأخبارهم، وبينا لكم منها ما فيه عبرة ومزدجر عن التكذيب والإنكار.

﴿ 9-14 ﴾ ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ﴾ الله وحده لا شريك له ﴿ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ ﴾ الذي دانت لعزته جميع المخلوقات ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بظواهر الأمور وبواطنها ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ وجعلها قرارا للعباد، يتمكنون فيها من كل ما يريدون ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ جعل منافذ بين سلاسل الجبال المتصلة، تنفذون منها إلى ما وراءها من الأقطار ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ في السير في الطرق ولا تضيعون، ولعلكم تهتدون أيضا في الاعتبار بذلك والادكار فيه ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ لا يزيد ولا ينقص، بمقدار الحاجة ﴿ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ أي أحييناها بعد موتها ﴿ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ أي فكما أحيا الأرض الميتة الهامدة بالماء، كذلك يحييكم بعد ما تستكملون في البرزخ، ليجازيكم بأعمالكم ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ أي الأصناف جميعها ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ ﴾ السفن ﴿ والأنعام ما تركبون لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ وهذا شامل لظهور الفلك ولظهور الأنعام، أي لتستقروا عليها ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ بالاعتراف بالنعمة لمن سخرها، والثناء عليه تعالى بذلك ﴿ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ أي لولا تسخيره لنا ما سخر من الفلك والأنعام، ما كنا مطيقين لذلك وقادرين عليه. والمقصود من هذا بيان أن الرب الموصوف بما ذكره هو الذي يستحق أن يعبد ﴿ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾.

﴿ 15-25 ﴾ ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ * أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ * وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ يخبر تعالى عن شناعة قول المشركين الذين جعلوا لله تعالى ولدا، وإن ذلك باطل لأن الخلق كلهم عباده، والعبودية تنافي الولادة. كما أن الولد جزء من والده، والله تعالى بائن من خلقه، مباين لهم في صفاته ونعوت جلاله ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴾ وهم يزعمون أن الملائكة بنات الله، فكيف يكون لله البنات، ويصطفيهم بالبنين، ويفضلهم بها؟! فإذا يكونون أفضل من الله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ﴾ أي بالبنات ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ من كراهته وشدة بغضه، فكيف يجعلون لله ما يكرهون ﴿ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ ﴾ أي يجمل فيها بأمر خارج عنه؟ ﴿ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ ﴾ أي عند الخصام ﴿ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أي غير مبين لحجته، فكيف ينسبونهن لله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾ فتجرأوا على الملائكة، العباد المقربين، ورقوهم عن مرتبة العبادة والذل، إلى مرتبة المشاركة لله، في شيء من خواصه، ووضعوهم في مرتبة الأنوثية ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ فرد عليهم بأنهم لم يشهدوا خلق الله لملائكته، فكيف يتكلمون بأمر ليس لهم به علم ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ لا بد أن يسألوا عن هذه الشهادة، وستكتب عليهم، ويعاقبون عليها ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ فاحتجوا على عبادتهم الملائكة بالمشيئة وهي حجة باطلة في نفسها عقلا وشرعا. أبطل الله تعالى الاحتجاج بها ﴿ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ يتخرصون تخرصا لا دليل عليه، ويتخبطون خبط عشواء ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ ﴾

يخبرهم بصدق أقوالهم ﴿ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ ليس الأمر كذلك ﴿ بَلْ قَالُوا ﴾ بل لهم شبهة من أوهى الشُّبَه ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ أي على دين وملة آبائهم الضالين ﴿ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ أي فلا نتبع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ أي منعموها، وملأها الذين أطغتهم الدنيا، وغرتهم الأموال، واستكبروا على الحق ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ أي ليسوا بأول من قال هذه المقالة. ولهذا كل رسول يقول لمن عارضه بهذه الشبهة الباطلة ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ أي فهل تتبعوني لأجل الهدى ﴿ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ فعلم بهذا أن قصدهم اتباع الباطل والهوى ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ بتكذيبهم الحق ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم، فيصيبهم ما أصابهم.

﴿ 26-32 ﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ﴾ الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم ويتقربون إليهم ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ أي مبغض له، مجتنب معاد لأهله ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ فإني أتولاه﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ لما يصلح ديني وآخرتي. ﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ أي إخلاص العبادة لله وحده﴿ كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ أي ذريته ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ إليها ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ لشهرتها عنه، وتوصيته لذريته. فلم تزل هذه الكلمة موجودة في ذريته عليه السلام حتى دخلهم الترف والطغيان. ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ ﴾ بأنواع الشهوات، حتى صارت صفات راسخة ﴿ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ الذي لا شك فيه ﴿ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ أي بين الرسالة، ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ الذي يوجب على من له أدنى دين ومعقول أن يقبله وينقاد له ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ فلم يكتفوا بمجرد جحده، حتى جعلوه بمنزلة السحر الباطل ﴿ وَقَالُوا ﴾ مقترحين على الله بعقولهم الفاسدة ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أي معظم عندهم مبجل من أهل مكة، أو أهل الطائف، كالوليد بن المغيرة ونحوه. ولو عرفوا الصفات التي بها يعرف علو قدر الرجل، وعظم منزلته عند الله وعند خلقه، لعلموا أن محمد صلى الله عليه وسلم هو أعظم الرجال قدرا ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ أي أهم الخزان لرحمة الله فيعطون النبوة والرسالة من يشاءون، ويمنعونها ممن يشاءون ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ وفي هذه الآية تنبيه على حكمة الله تعالى في تفضيل الله بعض العباد على بعض في الدنيا ﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ أي ليسخر بعضهم بعضا، في الأعمال والحرف والصنائع. فلو تساوى الناس في الغنى، ولم يحتج بعضهم إلى بعض، لتعطلت كثير من مصالحهم ومنافعهم. وفيها دليل على أن نعمته الدينية خير من النعمة الدنيوية ﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾.

﴿ 33-35 ﴾ ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ *وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ ﴾ لولا لطفه ورحمته بعباده، التي لا يقدم عليها شيئا، لوسَّع الدنيا على الذين كفروا توسيعا عظيما، ولجعل ﴿ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ ﴾ أي درجا من فضة ﴿ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ على سطوحهم ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا ﴾ من فضة عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ. و ﴾ لجعل لهم ﴿ زُخْرُفًا ﴾ أي لزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف، وأعطاهم ما يشتهون ﴿ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ولكن منعه من ذلك رحمته بعباده وأن كل هذه المذكورات متاع الحياة الدنيا، وأن الآخرة عند الله تعالى خير للمتقين لربهم، لأن نعيمها تام كامل من كل وجه.

﴿ 36-39 ﴾ ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ * وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾

﴿ وَمَنْ يَعْشُ ﴾ يعرض ويصد ﴿ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ الذي هو القرآن العظيم، الذي هو أعظم رحمة رحم بها الرحمن عباده، فمن أعرض عنها وردها ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ قيَّض له الرحمن شيطانا مريدا يقارنه ويصاحبه، ويعده ويمنيه، ويؤزه إلى المعاصي أزا ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ الصراط المستقيم والدين القويم ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ بسبب تزيين الشيطان للباطل وتحسينه له، وإعراضهم عن الحق، فاجتمع هذا وهذا ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ وأما حاله إذا جاء ربه في الآخرة، فهو إظهار الندم والتحسر، والحزن الذي لا يجبر مصابه، والتبرّي من قرينه ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ أي ولا ينفعكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب، أنتم وقرناؤكم وأخلاؤكم. فمصيبة الآخرة جمعت كل عقاب، ما فيه أدنى راحة. نسألك يا ربنا العافية، وأن تريحنا برحمتك.

﴿ 40-45 ﴾ ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ * فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ * وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾

﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ﴾ الذين لا يسمعون ﴿ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ ﴾ الذين لا يبصرون، ﴿ و ﴾ تهدي ﴿ مَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ بَيّنٌ واضح، لعلمه بضلاله، ورضاه به. ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴾ أي فإن ذهبنا بك قبل أن نريك ما نعدهم من العذاب، فاعلم بخبرنا الصادق أنا منهم منتقمون ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ ﴾ من العذاب ﴿ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴾ ولكن ذلك متوقف على اقتضاء الحكمة لتعجيله أو تأخيره، فهذه حالك وحال

هؤلاء المكذبين. وأما أنت ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ فعلا واتصافا، ﴿ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وهذا مما يوجب عليك زيادة التمسك به والاهتداء ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي هذا القرآن الكريم ﴿ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أي فخر لكم ونعمة، ويذكركم أيضا ما فيه الخير الدنيوي والأخروي، ويحثكم عليه، ويذكركم الشر ويرهبكم عنه ﴿ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ عنه، هل قمتم به فارتفعتم وانتفعتم، أم لم تقوموا به فيكون حجة عليكم، وكفرا منكم بهذه النعمة ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ فإنك لو سألتهم واستخبرتهم عن أحوالهم، لم تجد أحدا منهم يدعو إلى اتخاذ إله آخر مع الله.

﴿ 46-56 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ * وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ التي دلت دلالة قاطعة على صحة ما جاء به، كالعصا، والحية، وإرسال الجراد، والقمل، إلى آخر الآيات ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فدعاهم إلى الإقرار بربهم، ونهاهم عن عبادة ما سواه ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ أنكروها واستهزأوا بها، ظلما وعلوا ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ أي الآية المتأخرة أعظم من السابقة ﴿ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ ﴾ كالجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ إلى الإسلام ويذعنون له ﴿ وَقَالُوا ﴾ عندما نزل عليهم العذاب ﴿ يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ﴾ يعنون موسى عليه السلام، وهذا إما من باب التهكم به، وإما أن يكون هذا الخطاب عندهم مدحا، فتضرعوا إليه بأن خاطبوه بما يخاطبون به من يزعمون أنهم علماؤهم، وهم السحرة ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ أي بما خصك الله به من الفضائل والمناقب أن يكشف عنا العذاب ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ إن كشف الله عنا ذلك ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ لم يفوا بما قالوا، بل غدروا، واستمروا على كفرهم ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ ﴾ مستعليا بباطله، قد غره ملكه، وأطغاه ماله وجنوده ﴿ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ أي ألست المالك لذلك، المتصرف فيه ﴿ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ أي الأنهار المنسحبة من النيل، في وسط القصور والبساتين ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ هذا الملك الطويل العريض، وهذا من جهله البليغ، حيث افتخر بأمر خارج عن ذاته، ولم يفخر بأوصاف حميدة، ولا أفعال سديدة ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾ يعني قبحه الله بالمهين، موسى بن عمران، كليم الرحمن، الوجيه عند الله، أي أنا العزيز، وهو الذليل المهان المحتقر، فأينا خير؟ ﴿ وَ ﴾ مع هذا فـ ﴿ لَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ عما في ضميره بالكلام، لأنه ليس بفصيح اللسان، وهذا ليس من العيوب في شيء، إذا كان يبين ما في قلبه ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ فهلا كان موسى بهذه الحالة، أن يكون مزينا مجملا بالحلي والأساور ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ يعاونونه على دعوته، ويؤيدونه على قوله ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ استخف عقولهم بما أبدى لهم من هذه الشبه، التي لا حقيقة تحتها ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ فبسبب فسقهم، قيض لهم فرعون، يزين لهم الشرك والشر ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا ﴾ أي أغضبونا بأفعالهم

﴿ انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴾ ليعتبر بهم المعتبرون، ويتعظ بأحوالهم المتعظون.

﴿ 57-65 ﴾ ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ * وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾ أي نهي عن عبادته، وجعلت عبادته بمنزلة عبادة الأصنام والأنداد ﴿ إِذَا قَوْمُكَ ﴾ المكذبون لك ﴿ مِنْهُ ﴾ أي من أجل هذا المثل المضروب ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ أي يستلجون في خصومتهم لك ﴿ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ يعني عيسى، حيث نهي عن عبادة الجميع، وشورك بينهم بالوعيد على من عبدهم. ووجه حجتهم الظالمة أنهم قالوا: قد تقرر عندنا وعندك يا محمد، أن عيسى من عباد الله المقربين، الذين لهم العاقبة الحسنة، فلم سويت بينه وبينها في النهي عن عبادة الجميع؟ فلولا أن حجتك باطلة لم تتناقض. وليس تفضيل عيسى عليه السلام، وكونه مقربا عند ربه ما يدل على الفرق بينه وبينها في هذا الموضع ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ بالنبوة والحكمة ﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ يعرفون به قدرة الله تعالى على إيجاده من دون أب ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ أي لجعلنا بدلكم ملائكة يخلفونكم في الأرض، ويكونون في الأرض حتى نرسل إليهم ملائكة من جنسهم، وأما أنتم يا معشر البشر، فلا تطيقون أن ترسل إليكم الملائكة ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ﴾ أي وإن عيسى عليه السلام، لدليل على الساعة، وأن القادر على إيجاده من أم بلا أب، قادر على بعث الموتى من قبورهم، أو وإن عيسى عليه السلام، سينزل في آخر الزمان، ويكون نزوله علامة من علامات الساعة ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ أي لا تشكن في قيام الساعة، فإن الشك فيها كفر ﴿ وَاتَّبِعُونِ ﴾ بامتثال ما أمرتكم، واجتناب ما نهيتكم ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ موصل إلى الله عز وجل ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ عما أمركم الله به، فإن الشيطان ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ حريص على إغوائكم ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ الدالة على صدق نبوته وصحة ما جاءهم به، من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص ﴿ قَالَ ﴾ لبني إسرائيل ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ﴾ النبوة والعلم، بما ينبغي على الوجه الذي ينبغي ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ أي أبين لكم صوابه وجوابه، فيزول عنكم بذلك اللبس، فجاء عليه السلام مكملا ومتمما لشريعة موسى عليه السلام، ولأحكام التوراة. وأتى ببعض التسهيلات الموجبة للانقياد له، وقبول ما جاءهم به ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ اعبدوا الله وحده لا شريك له وصدقوني وأطيعون ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ أمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإخبار عيسى عليه السلام أنه عبد من عباد الله، ليس "ابن الله أو ثالث ثلاثة" ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ موصل إلى الله وإلى جنته. فلما جاءهم عيسى عليه السلام بهذا ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ ﴾ المتحزبون على التكذيب ﴿ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ كل قال بعيسى

عليه السلام مقالة باطلة، ورد ما جاء به، إلا من هدى الله من المؤمنين ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا من عذاب يوم أليم ﴾ أي ما أشد حزن الظالمين وما أعظم خسارهم في ذلك اليوم.

﴿ 66-73 ﴾ ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ * يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ أي هل يتوقع المكذبون ﴿ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي فإذا جاءت، فلا تسأل عن أحوال من كذب بها، واستهزأ بمن جاء بها ﴿ الْأَخِلَّاءُ ﴾ المتخالين على الكفر ومعصية الله ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ لأن خلتهم ومحبتهم في الدنيا لغير الله، فانقلبت يوم القيامة عداوة ﴿ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ للشرك والمعاصي، فإن محبتهم تدوم وتتصل، بدوام من كانت المحبة لأ جله ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ أي لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور، ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ وصفهم الإيمان بآيات الله، وذلك ليشمل التصديق بها، وما لا يتم التصديق إلا به، من العلم بمعناها والعمل بمقتضاها، فجمعوا بين الاتصاف بعمل الظاهر والباطن ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ التي هي دار القرار ﴿ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ ﴾ أي من كان على مثل عملكم، من كل مقارن لكم، من زوجة، وولد، وصاحب، وغيرهم ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ أي تنعمون وتكرمون ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أي تدور عليهم خدامهم من الولدان المخلدين، بطعامهم بأحسن صحاف الذهب، وشرابهم بأصفى أواني الفضة ﴿ وَفِيهَا ﴾ أي الجنة ﴿ مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ وهذا لفظ جامع يأتي على كل نعيم وفرح وقرة عين وسرور قلب ﴿ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَتِلْكَ الْجَنَّةُ ﴾ الموصوفة بأكمل الصفات، هي ﴿ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي أورثكم الله إياها بأعمالكم، وجعلها من فضله جزاء لها ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي مما تتخيرون من تلك الفواكه الشهية، والثمار اللذيذة تأكلون.

﴿ 74-78 ﴾ ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ * وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ * لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم ﴿ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ ﴾ محيط بهم العذاب من كل جانب ﴿ خَالِدُونَ ﴾ فيه لا يخرجون منه أبدا و ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ العذاب ساعة، بإزالته ولا بتهوين عذابه ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ غير راجين للفرج ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ والله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ الذين ظلموا أنفسهم. ﴿ وَنَادَوْا ﴾ وهم في النار، لعلهم يحصل لهم استراحة ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ أي ليمتنا فنستريح، فإننا في عذاب لا صبر لنا عليه، فـ ﴿ قَالَ ﴾ لهم مالك ﴿ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴾ مقيمون فيها لا تخرجون

عنها أبدا. ثم وبخهم بما فعلوا ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ فلو تبعتموه لفزتم وسعدتم ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ فلذلك شقيتم شقاوة لا سعادة بعدها.

﴿ 79-80 ﴾ ﴿ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ * أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾

﴿ أَمْ أَبْرَمُوا ﴾ أي المكذبون بالحق المعاندون له ﴿ أَمْرًا ﴾ أي كادوا كيدا، ومكروا للحق ولمن جاء بالحق ﴿ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ أي محكمون أمرا، ومدبرون تدبيرا يعلو تدبيرهم، وينقضه ويبطله ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ ﴾ بجهلهم وظلمهم ﴿ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ﴾ الذي لم يتكلموا به، بل هو سر في قلوبهم ﴿ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ أي كلامهم الخفي الذي يتناجون به. فلذلك أقدموا على المعاصي، وظنوا أنها لا تبعة لها ولا مجازاة على ما خفي منها. ﴿ بَلَى ﴾ أي إنا نعلم سرهم ونجواهم ﴿ وَرُسُلُنَا ﴾ الملائكة الكرام ﴿ لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ كل ما عملوه، وسيحفظ ذلك عليهم.

﴿ 81-83 ﴾ ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ * سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ لذلك الولد، لأنه جزء من والده. ويحتمل أن معنى الآية: لو كان للرحمن ولد، فأنا أول العابدين لله، أي لو كان حقا، لكنت أول مثبت له، فعلم بذلك بطلان دعوى المشركين وفسادها، عقلا ونقلا ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ من الشريك والظهير، والعوين، والولد، وغير ذلك، مما نسبه إليه المشركون ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ أي يخوضوا بالباطل ويلعبوا ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ فسيعلمون فيه ماذا حصلوا عليه من الشقاء الدائم والعذاب المستمر.

﴿ 84-89 ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ * فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ يخبر تعالى أنه وحده المألوه المعبود في السماوات والأرض فأهل السماوات كلهم، والمؤمنون من أهل الأرض، يعبدونه، ويعظمونه، ويخضعون لجلاله، ويفتقرون لكماله ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ الذي أحكم ما خلقه، وأتقن ما شرعه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بكل شيء، يعلم السر وأخفى ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ تبارك بمعنى تعالى وتعاظم، وكثر خيره، واتسعت صفاته، وعظم ملكه. ولهذا ذكر سعة ملكه للسموات والأرض وما بينهما، وسعة علمه، وأنه بكل شيء عليم، حتى إنه تعالى، انفرد بعلم كثير من الغيوب، التي لم يطلع عليها أحد من الخلق، لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولهذا قال ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ قدم الظرف، ليفيد الحصر، أي: لا يعلم متى تجيء الساعة إلا هو، ومن تمام ملكه وسعته، أنه مالك الدنيا والآخرة، ولهذا قال ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي في الآخرة فيحكم بينكم بحكمه العدل، ومن تمام ملكه، أنه لا يملك أحد من خلقه

من الأمر شيئا ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾ أي كل من دعي من دون الله، من الأنبياء والملائكة وغيرهم، لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بإذن الله، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى و ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ ويشترط أن تكون شهادته بالحق ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ وهو عالم بما شهد به ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهم لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية، ومن هو الخالق، لأقروا أنه الله وحده لا شريك له ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف يصرفون عن عبادة الله والإخلاص له وحده ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ هذا معطوف على قوله:{وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} أي: وعنده علم قيله، أي الرسول صلى الله عليه وسلم، شاكيا لربه تكذيب قومه، متحزنا على ذلك، فالله تعالى عالم بهذه الحال، قادر على معاجلتهم بالعقوبة، ولكنه تعالى حليم، يمهل العباد ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ﴾ أي اصفح عنهم ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية، واعف عنهم، ولا يبدر منك لهم إلا السلام. فامتثل صلى الله عليه وسلم لأمر ربه، وتلقى ما يصدر إليه من قومه وغيرهم من الأذى بالعفو والصفح ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ غِبَّ ذنوبهم، وعاقبة جرمهم.

تم تفسير سورة الزخرف

44

عدد آياتها 59

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 16-1 ﴾ ﴿ حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ * فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾

﴿ حم ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلى بيانه ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ أنه أنزله ﴿ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ كثيرة الخير، فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليالي، ليلة القدر، على أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام لينذر به قوما عمتهم الجهالة ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾ فيستضيئوا بنوره ويقتبسوا من هداه فيحصل لهم الخير الدنيوي والخير الأخروي ولهذا قال: ﴿ فِيهَا ﴾ أي في تلك الليلة الفاضلة التي نزل فيها القرآن ﴿ يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ أي يفصل ويميز. ويكتب كل أمر قدري وشرعي حكم الله به، وهذه الكتابة والفرقان، الذي يكون في ليلة القدر أحد الكتابات التي تكتب وتميز فتطابق الكتاب الأول الذي كتب الله به مقادير الخلائق وآجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وأحوالهم، ثم إن الله تعالى قد وكل ملائكة تكتب ما سيجري على العبد وهو في بطن أمه، ثم وكلهم بعد وجوده إلى الدنيا وكل به كراما كاتبين يكتبون ويحفظون عليه أعماله، ثم إنه تعالى يقدر في ليلة القدر ما يكون في السنة، وكل هذا من تمام علمه وكمال حكمته وإتقان حفظه واعتنائه تعالى بخلقه ﴿ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا ﴾ أي هذا الأمر الحكيم أمر صادر من عندنا ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ للرسل ومنزلين للكتب ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي إن إرسال الرسل وإنزال الكتب التي أفضلها القرآن رحمة من رب العباد بالعباد ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ يسمع جميع الأصوات ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رسله وكتبه فرحمهم بذلك ﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي خالق ذلك ومدبره والمتصرف فيه بما شاء ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ أي عالمين بذلك علما مفيدا لليقين فاعلموا أن الرب للمخلوقات هو إلهها الحق ولهذا قال ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا معبود إلا وجهه ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أي هو المتصرف وحده بالإحياء والإماتة ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ رب الأولين والآخرين ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ أخبر أن الكافرين مع هذا البيان منغمرون في الشكوك والشبهات غافلون عما خلقوا له ﴿ فَارْتَقِبْ ﴾ أي انتظر فيهم العذاب فإنه قد قرب وآن أوانه ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ

يَغْشَى النَّاسَ ﴾ أي يعمهم ذلك الدخان ويقال لهم: ﴿ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. واختلف المفسرون في المراد بهذا الدخان. فقيل: إنه الدخان الذي يغشى الناس ويعمهم حين تقرب النار من المجرمين في يوم القيامة وأن الله توعدهم بعذاب يوم القيامة وأمر نبيه أن ينتظر بهم ذلك اليوم. وقيل إن المراد بذلك ما أصاب كفار قريش حين امتنعوا من الإيمان فدعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال:"اللهم أعني عليهم بسنين كسني يوسف" فأرسل الله عليهم الجوع العظيم حتى أكلوا الميتات والعظام وصاروا يرون الذي بين السماء والأرض كهيئة الدخان وليس به، وذلك من شدة الجوع. ولم يزالوا بهذه الحالة حتى استرحموا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوه أن يدعو الله لهم أن يكشفه الله عنهم فدعا ربه فكشفه الله عنهم. وقيل إن المراد بذلك أن ذلك من أشراط الساعة وأنه يكون في آخر الزمان دخان يأخذ بأنفاس الناس ويصيب المؤمنين منهم كهيئة الدخان. والقول هو الأول، وأن هذا كله يكون يوم القيامة. وفي الآية احتمال أن المراد بقوله: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴾ وأن قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ أن هذا ما وقع لقريش كما تقدم. وإذا نزلت هذه الآيات على هذين المعنيين لم تجد في اللفظ ما يمنع من ذلك. بل تجدها مطابقة لهما أتم المطابقة وهذا الذي يظهر عندي ويترجح والله أعلم.

﴿ 17-33 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّـهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّـهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ * وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَـٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ * فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ * وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴾

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي ابتليناهم واختبرناهم ﴿ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ بإرسال رسولنا موسى بن عمران إليهم الذي فيه من الكرم ومكارم الأخلاق ما ليس في غيره ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴾ أي قال لفرعون وملئه: أدوا إلي عباد الله، يعني بهم بني إسرائيل أي أرسلوهم وأطلقوهم من عذابكم. ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أي رسول من رب العالمين أمين على ما أرسلني به ﴿ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ بالاستكبار عن عبادته والعلو على عباد الله ﴿ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي بحجة بينة ظاهرة وهو ما أتى به من المعجزات الباهرات، فكذبوه وهموا بقتله فلجأ بالله من شرهم فقال ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴾ أي تقتلوني أشر القتلات بالرجم بالحجارة ﴿ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ أي لكم ثلاث مراتب: الإيمان بي وهو مقصودي منكم، فإن لم تحصل منكم هذه المرتبة فاعتزلوني واكفوني شركم. فلم تحصل منهم المرتبة الأولى ولا الثانية بل لم يزالوا متمردين ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾ أي قد أجرموا جرما يوجب تعجيل العقوبة ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا ﴾ فأمره الله أن يسري بعباده ليلا ﴿ إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ فلما سلكه موسى وقومه وخرجوا منه أمره الله أن يتركه رهوا أي بحاله ليسلكه فرعون وجنوده ﴿ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴾ فلما تكامل قوم موسى خارجين منه وقوم فرعون

داخلين فيه أمره الله تعالى أن يلتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم وتركوا ما متعوا به من الحياة الدنيا وأورثه الله بني إسرائيل الذين كانوا مستعبدين لهم ولهذا قال ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا ﴾ أي هذه النعمة المذكورة ﴿ قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ أي لما أتلفهم الله وأهلكهم لم يحزن عليهم ﴿ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ أي ممهلين عن العقوبة. ثم امتن تعالى على بني إسرائيل فقال ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ الذي كانوا فيه ﴿ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴾ إذ يذبح أبناء هم ويستحيي نساء هم ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا ﴾ مستكبرا في الأرض بغير الحق ﴿ مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ المتجاوزين لحدود الله المتجرئين على محارمه ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ ﴾ أي اصطفيناهم وانتقيناهم ﴿ عَلَى عِلْمٍ ﴾ منا بهم وباستحقاقهم لذلك الفضل ﴿ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أي عالمي زمانهم ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ ﴾ أي بني إسرائيل ﴿ مِنَ الْآيَاتِ ﴾ الباهرة والمعجزات الظاهرة ﴿ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴾ أي إحسان كثير ظاهر منا عليهم وحجة عليهم على صحة ما جاء هم به نبيهم موسى عليه السلام.

﴿ 34-37 ﴾ ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ * فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ ﴾ المكذبين ﴿ لَيَقُولُونَ ﴾ مستبعدين للبعث والنشور: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴾ أي ما هي إلا الحياة الدنيا فلا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار. ثم قالوا ﴿ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وهذا من اقتراح الجهلة المعاندين. قال تعالى: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ ﴾ أي هؤلاء المخاطبون ﴿ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ فإنهم ليسوا خيرا منهم وقد اشتركوا في الإجرام فليتوقعوا من الهلاك ما أصاب إخوانهم المجرمين.

﴿ 38-42 ﴾ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ لعبا ولا لهوا أو سدى من غير فائدة ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ فنفس خلقهما بالحق، وخلقهما مشتمل على الحق، وأنه أوجدهما ليعبدوه وحده لا شريك له وليأمر العباد وينهاهم ويثيبهم ويعاقبهم ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فلذلك لم يتفكروا في خلق السماوات والأرض ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ وهو يوم القيامة الذي يفصل الله به بين الأولين والآخرين وبين كل مختلفين ﴿ مِيقَاتُهُمْ ﴾ أي الخلائق ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ يحضرهم ويحضر أعمالهم ويكون الجزاء عليها ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ لأن أحدا من الخلق لا يملك من الأمر شيئا ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ فإنه هو الذي ينتفع ويرتفع برحمة الله تعالى.

﴿ 43–50 ﴾ ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾

﴿ إِنَّ ﴾ طعامهم يوم القيامة، أي الآثمون بعمل الكفر والمعاصي ﴿ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ﴾ شر الأشجار، وهي ﴿ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴾ وأن طعمها ﴿ كَالْمُهْلِ ﴾ كالصديد المنتن خبيث الريح والطعم، شديد الحرارة ﴿ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴾ يغلي في بطونهم ﴿ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴾ ويقال ﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ. ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ. ذُقْ ﴾ أيها المعذّب هذا العذاب الأليم ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ ﴾ أي بزعمك أنك عزيز ستمتنع من عذاب الله ﴿ الْكَرِيمُ ﴾ وأنك كريم على الله لا يصيبك بعذاب، فاليوم تبين لك أنك أنت الذليل المهان الخسيس ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ العذاب العظيم ﴿ مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ أي تشكون، فالآن صار عندكم حق اليقين.

﴿ 51–59 ﴾ ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴾

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ الذين اتقوا سخطه وعذابه بتركهم المعاصي وفعلهم الطاعات ﴿ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ ثبت لهم الرضا من الله والثواب العظيم ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ في ظل ظليل. وأضاف الجنات إلى النعيم لأن كل ما اشتملت عليه نعيم ما فيه منغص ولا مكدر ﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ غليظ الحرير ورقيقه مما تشتهيه أنفسهم ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ في قلوبهم ووجوههم ﴿ كَذَلِكَ ﴾ النعيم التام والسرور الكامل ﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ ﴾ يحار الطرف في حسنهن ﴿ عِينٍ ﴾ ضخام الأعين حسانها ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا ﴾ أي الجنة ﴿ بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ﴾ مما له اسم وما له اسم ولا نظير في الدنيا، فمهما طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها أحضر لهم في الحال من غير تعب ولا كلفة ﴿ آمِنِينَ ﴾ من انقطاع ذلك ومن مضرته ومن كل مكدر ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ أي ليس فيها موت بالكلية، ولو كان فيها موت يستثنى لم يستثن الموتة الأولى التي هي الموتة في الدنيا ﴿ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ. فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي حصول النعيم واندفاع العذاب عنهم من فضل الله عليهم وكرمه ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ وأي فوز أعظم من نيل رضوان الله وجنته والسلامة من عذابه وسخطه ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ ﴾ أي القرآن ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾ أي سهلناه بلسانك الذي هو أفصح الألسنة على الإطلاق وأجلها فتيسر به لفظه وتيسر معناه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ما فيه نفعهم فيفعلونه وما فيه ضررهم فيتركونه ﴿ فَارْتَقِبْ ﴾ أي انتظر ما وعدك ربك من الخير والنصر ﴿ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴾ ما يحل بهم من العذاب وفرق بين الارتقابين: رسول الله وأتباعه يرتقبون الخير في الدينا والآخرة، وضدهم يرتقبون الشر في الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة الدخان

ولله الحمد والمنة

مختصر تفسير سورة الجاثية

عدد آياتها 37

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-11 ﴾ ﴿ حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ * وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴾

﴿ حم ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ تَنْزِيلُ ﴾ يتضمن الأمر تعظيم القرآن لأنه تنزيل ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ المألوه المعبود ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ الذي له العزة الكاملة ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ والحكمة التامة ﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ فهذه كلها آيات بينات على صدق هذا القرآن العظيم وعلى ما لله تعالى من الكمال وعلى البعث والنشور. وقد قسم تعالى الناس بالنسبة إلى الانتفاع بآياته وعدمه إلى قسمين: قسم يستدلون بها ويتفكرون بها وينتفعون فيرتفعون. وقسم يسمع آيات الله ، ويتخذها هزوا. فتوعده الله تعالى بالويل ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ ﴾ كذاب في مقاله ﴿ أَثِيمٍ ﴾ في فعاله. فهو ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ﴾ فتقوم به الحجة عليه ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا ﴾ يعرض عنها ويستكبر﴿ كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ خاصة أنه ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ وأن ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ تكفي في عقوبتهم البليغة وأنه ﴿ لا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا ﴾ من الأموال ﴿ شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يستنصرون بهم فخذلوهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هَذَا هُدًى ﴾ هذا وصف عام لجميع القرآن فإنه يهدي إلى معرفة الله تعالى بصفاته المقدسة وأفعاله الحميدة، ويهدي إلى معرفة رسله وأوليائه وأعدائه، وأوصافهم، ويهدي إلى الأعمال الصالحة ويدعو إليها ويبين الأعمال السيئة وينهى عنها، ويهدي إلى بيان الجزاء على الأعمال ويبين الجزاء الدنيوي والأخروي، فالمهتدون اهتدوا به فأفلحوا وسعدوا ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ الواضحة القاطعة ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴾.

{ 12-13 } ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ يخبر تعالى بفضله على عباده بتسخير البحر لسير المراكب والسفن بأمره وتيسيره ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ بأنواع التجارات والمكاسب ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الله تعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ وهذا شامل لما أودع الله فيهما مما هو معد لمصالح بني آدم ﴿ مِنْهُ ﴾ أي من فضله وإحسانه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أدلة عقلية واضحة لا تقبل ريبا ولا شكا ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

{ 14-15 } ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بحسن الخلق والصبر على أذية المشركين به، الذين لا يرجون أيام الله أي لا يرجون ثوابه ولا يخافون وقائعه في العاصين. فأنتم يا معشر المؤمنين يجزيكم على إيمانكم وصفحكم وصبركم ثوابا جزيلا ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾.

{ 16-17 } ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أنعمنا على بني إسرائيل نعما لم تحصل لغيرهم من الناس، وآتيناهم ﴿ الْكِتَابَ ﴾ أي التوراة والإنجيل ﴿ وَالْحُكْمَ ﴾ بين الناس ﴿ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ صارت النبوة في ذرية إبراهيم عليه السلام، أكثرهم من بني إسرائيل ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ من مآكل ومشارب وملابس وإنزال المن والسلوى ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ على الخلق بهذه النعم ويخرج من هذا العموم اللفظي هذه الأمة فإنهم خير أمة أخرجت للناس. فإن هذا الكتاب مهيمن على سائر الكتب السابقة، ومحمد صلى الله عليه وسلم مصدق لجميع المرسلين ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ ﴾ أي آتينا بني إسرائيل ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ دلالات تبين الحق من الباطل ﴿ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ القدري الذي أوصله الله إليهم. ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ أي الموجب لعدم الاختلاف، وإنما حملهم على الاختلاف البغي من بعضهم على بعض والظلم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فيميز المحق من المبطل والذي حمله على الاختلاف الهوى أو غيره.

﴿ 18-19 ﴾ ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل خير وتنهى عن كل شر من أمرنا الشرعي ﴿ فَاتَّبِعْهَا ﴾ فإن في اتباعها السعادة الأبدية والصلاح والفلاح ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وهم كل من خالف شريعة الرسول صلى الله عليه وسلم هواه وإرادته فإنه من أهواء الذين لا يعلمون ﴿ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أي لا ينفعونك عند الله فيحصلوا لك الخير ويدفعوا عنك الشر إن اتبعتهم على أهوائهم﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ يخرجهم من الظلمات إلى النور بسبب تقواهم وعملهم بطاعته.

﴿ 20 ﴾ ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

﴿ هَذَا ﴾ القرآن الكريم ﴿ بَصَائِرُ لِلنَّاسِ ﴾ يحصل به التبصرة في جميع الأمور ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ فيهتدون به إلى الصراط المستقيم.

﴿ 21 ﴾ ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ المسيئون المكثرون من الذنوب ﴿ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ بأن قاموا بحقوق ربهم، أي أحسبوا أن يكونوا ﴿ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ في الدنيا والآخرة؟ ساء ما ظنوا وحسبوا ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ وساء ما حكموا به.

﴿ 22 ﴾ ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ خلق الله السماوات والأرض بالحكمة وليعبد وحده لا شريك له ﴿ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ثم يجازي بعد ذلك من أمرهم بعبادته وأنعم عليم بالنعم الظاهرة والباطنة هل شكروا الله تعالى وقاموا بالمأمور؟ أم كفروا ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ فاستحقوا جزاء الكفور؟

﴿ 23-26 ﴾ ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ الرجل الضال ﴿ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ فما هويه سلكه سواء كان يرضي الله أو يسخطه ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ من الله تعالى أنه لا تليق به الهداية ولا يزكو عليها ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ ﴾ فلا يسمع ما ينفعه ﴿ وَقَلْبِهِ ﴾ فلا يعي الخير ﴿ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ تمنعه من نظر الحق ﴿ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾ لا أحد يهديه وقد سد الله عليه أبواب الهداية وفتح له أبواب الغواية ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ما ينفعكم فتسلكونه وما يضركم

فتجتنبونه ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي منكرو البعث ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ أي إن هي إلا عادات وجري على رسوم الليل والنهار يموت أناس ويحيا أناس وما مات فليس براجع إلى الله ولا مجازى بعمله ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ وقولهم هذا من غير دليل دلهم على ذلك ولا برهان ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ زعموا أن صدق رسل الله متوقف على الإتيان بآبائهم ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وإلا فلو وصل العلم باليوم الآخر إلى قلوبهم، لعملوا له أعمالا وتهيئوا له.

﴿ 27-37 ﴾ ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ * وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يخبر تعالى عن سعة ملكه وانفراده بالتصرف والتدبير في جميع الأوقات ﴿ وَ ﴾ أنه ﴿ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ ويجمع الخلائق لموقف القيامة ﴿ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ الذين أتوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة لأنها متعلقة بالباطل فبطلت في يوم القيامة ﴿ وَتَرَى ﴾ أيها الرائي لذلك اليوم ﴿ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ على ركبها خوفا وذعرا وانتظارا لحكم الملك الرحمن ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾ أي إلى شريعة نبيهم الذي جاء هم من عند الله، ويحتمل أن المراد أي إلى كتاب أعمالها وما سطر عليها من خير وشر وأن كل أحد يجازى بما عمله بنفسه. ويحتمل أن المعنيين كليهما مراد من الآية ويدل على هذا قوله ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أي هذا كتابنا الذي أنزلنا عليكم، يفصل بينكم بالحق الذي هو العدل ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فهذا كتاب الأعمال. ولهذا فصل ما يفعل الله بالفريقين فقال: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إيمانا صحيحا وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة من واجبات ومستحبات ﴿ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ التي محلها الجنة ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ المفاز والنجاة والربح والفلاح الواضح. ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالله فيقال لهم توبيخا وتقريعا ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ وهي أكبر نعمة وصلت إليكم لو وفقتم لها ﴿ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ ولكن استكبرتم عنها فاليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ ﴾ منكرين لذلك ﴿ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ فهذه حالهم في الدنيا ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ وظهر لهم يوم القيامة عقوبات أعمالهم ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أي نزل ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي نزل بهم العذاب الذي كانوا في الدنيا يستهزئون به وبوقوعه وبمن جاء به ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ ﴾ نتركم في العذاب ﴿ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أي هي مقركم ومصيركم ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ ينصرونكم من عذاب الله ويدفعون عنكم عقابه ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ الذي حصل لكم من العذاب ﴿ بِـ ﴾ سبب ﴿ أَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ

آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ﴾ مع أنها موجبة للجد والاجتهاد ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ بزخارفها ولذاتها وشهواتها فاطمأننتم إليها، ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ ولا يمهلون ولا يردون إلى الدنيا ليعملوا صالحا ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ ﴾ كما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه ﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ له الحمد على ربوبيته لسائر الخلائق حيث خلقهم ورباهم وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ له الجلال والعظمة والمجد ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ القاهر لكل شيء ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يشرعه ما يشرعه إلا لحكمة ومصلحة ولا يخلق ما يخلقه إلا لفائدة ومنفعة.

تم تفسير سورة الجاثية

ولله الحمد والنعمة والفضل

46

مختصر تفسير سورة الأحقاف

عدد آياتها 35

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-3 ﴾ ﴿ حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾

﴿ حم ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ثناء منه تعالى على كتابه العزيز وتعظيم له ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ لا عبثا ولا سدى بل ليعرف العباد عظمة خالقهما ﴿ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ مع ذلك ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أبوا إلا إعراضا ﴿ عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾ عن الحق.

﴿ 4-6 ﴾ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ *وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله أوثانا وأندادا ﴿ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ هل خلقوا شيئا؟ هل كان منهم معاونة على خلق شيء؟ لا شيء من ذلك بإقرارهم على أنفسهم ﴿ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ الكتاب يدعو إلى الشرك ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ موروث عن الرسل يأمر بذلك ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ بل نجزم ونتيقن أن جميع الرسل دعوا إلى توحيد ربهم ونهوا عن الشرك به ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ أي مدة مقامه في الدنيا لا ينتفع به بمثقال ذرة ﴿ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ لا يسمعون منهم دعاء ولا يجيبون لهم نداء هذا حالهم في الدنيا، ويوم القيامة يكفرون بشركهم ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ﴾ يلعن بعضهم بعضا ويتبرأ بعضهم من بعض ﴿ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾.

﴿ 7-10 ﴾ ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ

* ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ على المكذبين ﴿ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ على وجه لا يمترى بها ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من إفكهم وافترائهم ﴿ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أي ظاهر لا شك فيه وهذا من باب قلب الحقائق الذي لا يروج إلا على ضعفاء العقول ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ أي افترى محمد هذا القرآن من عند نفسه فليس هو من عند الله ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ إِنِ افْتَرَيْتُهُ ﴾ فالله علي قادر وبما تفيضون فيه عالم، فكيف لم يعاقبني على افترائي الذي زعمتم ﴿ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ إن أرادني الله بضر أو أرادني برحمة ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ فلو كنت متقولا عليه لعاقبني عقابا يراه كل أحد ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ فتوبوا إليه وأقلعوا عما أنتم فيه يغفر لكم ذنوبكم ويرحمكم فيوفقكم للخير ويثيبكم جزيل الأجر ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ﴾ لست بأول رسول جاءكم حتى تستنكروا دعوتي ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ لست إلا بشرا ليس بيدي من الأمر شيء ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ ولست الآتي بالشيء من عندي والله تعالى هو المتصرف بي وبكم ﴿ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ وقد أنذرتكم ومن أنذر فقد أعذر ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أخبروني لو كان هذا القرآن من عند الله وشهد على صحته الذين عندهم من الحق ما يعرفون أنه الحق فآمنوا به واهتدوا واستكبرتم أيها الجهلاء فهل هذا إلا أعظم الظلم وأشد الكفر ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ومن الظلم الاستكبار عن الحق بعد التمكن منه.

﴿ 11-12 ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ * وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قال الكفار بالحق معاندين له ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ ما سبقنا إليه المؤمنون ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ لما لم يهتدوا بهذا القرآن قدحوا فيه بأنه كذب وهو الحق الذي لا شك فيه ولا امتراء يعتريه ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى ﴾ الذي قد وافق التوراة التي أنزلها الله على موسى ﴿ إِمَامًا ﴾ يقتدي بها بنو إسرائيل ويهتدون بها ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ فيحصل لهم خير الدنيا والآخرة ﴿ وَهَذَا ﴾ القرآن ﴿ كِتَابٌ مُصَدِّقٌ ﴾ للكتب السابقة شهد بصدقها وصدَّقها بموافقته لها وجعله الله ﴿ لِسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ ليسهل تناوله ويتيسر تذكره ﴿ لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أنفسهم بالكفر ﴿ وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ بالثواب الجزيل في الدنيا والآخرة.

﴿ 13-14 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ إن الذين أقروا بربهم وشهدوا له بالوحدانية ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ مدة حياتهم ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من كل شر أمامهم ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما خلفوا وراءهم. ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ أي أهلها

الملازمون لها ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من الإيمان بالله المقتضى للأعمال الصالحة التي استقاموا عليها.

﴿ 15-16 ﴾ ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾ وصى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف والكلام اللين وبذل المال والنفقة وغير ذلك من وجوه الإحسان. ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ﴾ ثم ذكر السبب الموجب لذلك فذكر ما تحملته الأم وقت حملها ثم مشقة ولادتها ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانة، خلال مدة طويلة قدرها ﴿ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ للحمل تسعة أشهر ونحوها والباقي للرضاع هذا هو الغالب[1]﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ أي نهاية قوته وشبابه وكمال عقله ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ أي ألهمني ووفقني ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾ أي نعم الدين ونعم الدنيا، وشكره بصرف النعم في طاعة مسديها ومموليها ومقابلته منته بالاعتراف والعجز عن الشكر والاجتهاد في الثناء بها على الله، والنعم على الوالدين نعم على أولادهم وذريتهم لأنهم لا بد أن ينالهم منها ومن أسبابها وآثارها، خصوصا نعم الدين فإن صلاح الوالدين بالعلم والعمل من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ بأن يكون جامعا لما يصلحه سالما مما يفسده ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ لما دعا لنفسه بالصلاح دعا لذريته أن يصلح الله أحوالهم، وذكر أن صلاحهم يعود نفعه على والديهم ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ من الذنوب والمعاصي ورجعت إلى طاعتك ﴿ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ. أُولَئِكَ ﴾ الذين ذكرت أوصافهم ﴿ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ وهو الطاعات لأنهم يعملون أيضا غيرها ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي ﴾ جملة ﴿ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ فحصل لهم الخير والمحبوب وزال عنهم الشر والمكروه ﴿ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ أي هذا الوعد الذي وعدناهم هو وعد صادق من أصدق القائلين الذي لا يخلف الميعاد.

﴿ 17-19 ﴾ ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ ﴾ ذكر حالة العاق لوالديه إذ دعواه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر وخوفاه الجزاء، فقابلهما بأقبح مقابلة فقال ﴿ أُفٍّ لَكُمَا ﴾ تبا لكما ولما جئتما به ﴿ أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ﴾ من قبري إلى يوم القيامة ﴿ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ﴾ على التكذيب ﴿ وَهُمَا ﴾ أي والداه ﴿ يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ ﴾ عليه ويقولان له ﴿ وَيْلَكَ آمِنْ ﴾

[1] ويستدل بهذه الآية مع قوله: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ} أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأن مدة الرضاع -وهي سنتان- إذا سقطت منها السنتان بقي ستة أشهر مدة للحمل

يستغيثان الله له استغاثة الغريق ويبينان له الحق ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ ثم يقيمان عليه من الأدلة ما أمكنهما ﴿ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي إلا منقول من كتب المتقدمين ليس من عند الله ولا أوحاه الله إلى رسوله ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ ﴾ بهذه الحالة الذميمة ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ حقت عليهم كلمة العذاب ﴿ فِي ﴾ جملة ﴿ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ على الكفر والتكذيب فسيدخل هؤلاء في غمارهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ والخسران فوات رأس مال الإنسان، فهم قد فاتهم الإيمان ولم يحصلوا على شيء من النعيم ولا سلموا من عذاب الجحيم. ﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ من أهل الخير وأهل الشر ﴿ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ كل على حسب مرتبته من الخير والشر ومنازلهم في الدار الآخرة على قدر أعمالهم ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بأن لا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم.

﴿ 20 ﴾ ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ حين يوبخون ويقرعون فيقال لهم ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ حيث اطمأننتم إلى الدنيا، وألهتكم طيباتها عن السعي لآخرتكم ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ أي العذاب الشديد الذي يهينكم ويفضحكم ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أي تتكبرون عن طاعته ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ فجمعوا بين قول الباطل والعمل بالباطل.

﴿ 21-26 ﴾ ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّـهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَـكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّـهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

﴿ وَاذْكُرْ ﴾ بالثناء الجميل ﴿ أَخَا عَادٍ ﴾ وهو هود عليه السلام، من الرسل الكرام ﴿ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ ﴾ وهم عاد ﴿ بِالْأَحْقَافِ ﴾ أي في منازلهم المعروفة بالأحقاف وهي الرمال الكثيرة في أرض اليمن ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ فلم يكن بدعا منهم ولا مخالفا لهم ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فأمرهم بعبادة الله، ونهاهم عن الشرك، وخوفهم -إن لم يطيعوه- العذاب الشديد فلم تفد فيهم تلك الدعوة ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ أي أنك حسدتنا على آلهتنا فأردت أن تصرفنا عنها ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وهذا غاية الجهل والعناد ﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ بيده الأمور ومقاليدها وهو الذي يأتيكم بالعذاب إن شاء ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ أي: ليس علي إلا البلاغ المبين ﴿ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر من الجرأة الشديدة، فأرسل الله عليهم العذاب العظيم وهو الريح التي دمرتهم وأهلكتهم ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾

أي العذاب ﴿ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ أي معترضا كالسحاب قد أقبل على أوديتهم ﴿ قَالُوا ﴾ مستبشرين ﴿ هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾ أي هذا السحاب سيمطرنا. قال تعالى ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ﴾ أي هذا الذي جنيتم به على أنفسكم ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ. تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ تمر عليه من شدتها ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي بإذنه ومشيئته ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾ قد تلفت مواشيهم وأموالهم وأنفسهم ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ بسبب جرمهم وظلمهم ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ أي مكناهم في الأرض يتناولون طيباتها ويتمتعون بشهواتها ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴾ أي لا قصور في أسماعهم ولا أبصارهم ولا أذهانهم حتى يقال إنهم تركوا الحق جهلا منهم وعدم تمكن من العلم به ولا خلل في عقولهم ولكن التوفيق بيد الله ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ الدالة على توحيده وإفراده بالعبادة ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي نزل بهم العذاب الذي يكذبون بوقوعه ويستهزئون بالرسل الذين حذروهم منه.

﴿ 27-28 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ ﴾ يحذر تعالى مشركي العرب وغيرهم بإهلاك الأمم المكذبين الذين هم حول ديارهم، بل كثير منهم في جزيرة العرب كعاد وثمود ونحوهم وأن الله تعالى صرف لهم الآيات أي: نوعها من كل وجه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عما هم عليه من الكفر والتكذيب. فلما لم يؤمنوا أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ولم تنفعهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ﴾ أي يتقربون إليهم ويتألهونهم لرجاء نفعهم ﴿ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴾ فلم يجيبوهم ولا دفعوا عنهم ﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من الكذب الذي يمنون به أنفسهم حيث يزعمون أنهم على الحق وأن أعمالهم ستنفعهم فضلت وبطلت.

﴿ 29-32 ﴾ ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ ﴾ كان الله تعالى قد أرسل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الخلق إنسهم وجنهم. فالإنس يمكنه عليه الصلاة والسلام دعوتهم وإنذارهم، وأما الجن فصرفهم الله إليه بقدرته وأرسل إليه ﴿ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ أي وصى بعضهم بعضا بذلك ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ ﴾ وقد وعوه وأثر ذلك فيهم ﴿ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ نصحا منهم لهم وإقامة لحجة الله عليهم وقيضهم الله معونة لرسوله صلى الله عليه وسلم في نشر دعوته في الجن ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ لأن كتاب موسى أصل للإنجيل وعمدة لبني إسرائيل في أحكام الشرع، وإنما الإنجيل متمم ومكمل ومغير لبعض الأحكام ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ هذا الكتاب الذي سمعناه ﴿ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾ وهو الصواب في كل مطلوب وخبر ﴿ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ موصل إلى الله وإلى جنته ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ الذي يدعوكم إلى ربكم ليثيبكم ويزيل عنكم كل

شر ﴿ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فهذا جزاء من أجاب داعي الله ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ فإن الله على كل شيء قدير ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ وأي ضلال أبلغ من ضلال من نادته الرسل ووصلت إليه النذر فأعرض واستكبر؟

﴿ 33 ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ هذا استدلال منه تعالى على الإعادة بعد الموت بما هو أبلغ منها، وهو أنه الذي خلق السماوات والأرض على عظمهما وسعتهما وإتقان خلقهما ﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ من دون أن يكترث بذلك ﴿ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ فكيف تعجزه إعادتكم بعد موتكم ﴿ بَلَى إِنَّهُ ﴾ وهو ﴿ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

﴿ 34-35 ﴾ ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ يخبر تعالى عن حال الكفار الفظيعة عند عرضهم على النار التي كانوا يكذبون بها وأنهم يوبخون ويقال لهم ﴿ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ﴾ فقد حضرتموه وشاهدتموه عيانا ﴿ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ﴾ فاعترفوا بذنبهم وتبين كذبهم ﴿ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي عذابا لازما دائما كما كان كفركم صفة لازمة ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ أي لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب فإن هذا من جهلهم وحمقهم، ولا يحملك ما ترى من استعجالهم على أن تدعو الله عليهم بذلك فإن كل ما هو آت قريب، و ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ في الدنيا ﴿ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾ فلا يحزنك تمتعهم القليل وهم صائرون إلى العذاب الوبيل ﴿ بَلَاغٌ ﴾ أي هذه الدنيا متاعها وشهوتها ولذاتها بلغة منغصة ودفع وقت حاضر قليل. أو هذا القرآن العظيم الذي بينا لكم فيه البيان التام بلاغ لكم، وهو أفضل زاد يتزوده الخلائق وأجل نعمة أنعم الله بها عليهم ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ ﴾ بالعقوبات ﴿ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي الذين لا خير فيهم وقد خرجوا عن طاعة ربهم ولم يقبلوا الحق الذي جاءتهم به الرسل. وأعذر الله لهم وأنذرهم فبعد ذلك إذ يستمرون على تكذيبهم وكفرهم نسأل الله العصمة.

آخر تفسير سورة الأحقاف

والحمد لله رب العالمين

47

مختصر تفسير سورة محمد

عدد آياتها 38

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-3 ﴾ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وهؤلاء رؤساء الكفر، وأئمة الضلال، جمعوا بين الكفر بالله وآياته، والصد عن سبيل الله، فهؤلاء ﴿ أَضَلَّ ﴾ الله ﴿ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أبطلها وأشقاهم بسببها ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بما أنزل الله على رسله عموما، وعلى محمد صلى الله عليه وسلم خصوصا ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ بأن قاموا بما عليهم من حقوق الله، وحقوق العباد الواجبة والمستحبة ﴿ كَفَّرَ ﴾ الله ﴿ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ صغارها وكبارها، فنجوا من عذاب الدنيا والآخرة ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أصلح دينهم ودنياهم، وقلوبهم وأعمالهم، وأصلح ثوابهم، بتنميته وتزكيته، وأصلح جميع أحوالهم، والسبب في ذلك ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتبعوا الْحَقَّ ﴾ الذي هو الصدق واليقين، وما اشتمل عليه هذا القرآن العظيم الصادر ﴿ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ الذي رباهم بنعمته ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ حيث بين لهم تعالى أهل الخير وأهل الشر، وذكر لكل منهم صفة يعرفون بها ويتميزون.

﴿ 4-6 ﴾ ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ في الحرب والقتال، ﴿ فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ فاصدقوهم القتال ﴿ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ ﴾ وكسرتم شوكتهم، ورأيتم الأسر أولى وأصلح ﴿ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴾ أي الرباط، فإذا شد منهم الوثاق اطمأن المسلمون من هربهم ومن شرهم، فإذا كانوا تحت أسركم ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ ﴾ فأنتم بالخيار بين المن عليهم، وإطلاقهم بلا مال ولا فداء ﴿ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ وإما أن تفدوهم بأن لا تطلقوهم حتى يشتروا أنفسهم، أو يشتريهم أصحابهم بمال، أو بأسير مسلم عندهم. وهذا الأمر مستمر ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ أي حتى لا يبقى حرب. فإذا كان في بعض الأوقات، لا حرب فيه لسبب من الأسباب، فلا قتل ولا أسر ﴿ ذَلِكَ ﴾ الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، ومداولة الأيام بينهم، وانتصار بعضهم على بعض ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ فإنه تعالى على كل شيء قدير وقادر على أن لا ينتصر الكفار ﴿ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ ليتبين بذلك الصادق من الكاذب، وليؤمن من آمن إيمانا

صحيحا عن بصيرة ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ لهم ثواب جزيل ﴿ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ لن يحبطها ويبطلها، بل يتقبلها وينميها لهم ﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الجنة ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ أي حالهم وأمورهم ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ بأن شوقهم إليها، وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها، ثم إذا دخلوا الجنة عرفهم منازلهم وما احتوت عليه من النعيم المقيم.

﴿ 7-9 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ هذا أمر منه تعالى للمؤمنين ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ ﴾ بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه ﴿ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ أي يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصبر أجسامهم على ذلك، ويعينهم على أعدائهم ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ ﴾ فإنهم في تعس، أي انتكاس من أمرهم وخذلان ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ فرجع كيدهم في نحورهم، وبطلت أعمالهم التي يزعمون أنهم يريدون بها وجه الله ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ من القرآن الذي أنزله الله، صلاحا للعباد ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾.

﴿ 10-11 ﴾ ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أفلا يسير هؤلاء المكذبون بالرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ قد بادوا وهلكوا، ودمر الله عليهم أموالهم وديارهم، بل دمر أعمالهم ومكرهم، وللكافرين في كل زمان ومكان، أمثال هذه العواقب الوخيمة، والعقوبات الذميمة. وأما المؤمنون، فإن الله تعالى ينجيهم من العذاب ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ تولاهم برحمته، فأخرجهم من الظلمات إلى النور، وتولى جزاءهم ونصرهم ﴿ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ ﴾ بالله تعالى ﴿ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ يهديهم إلى سبل السلام، ولا ينجيهم من عذاب الله وعقابه.

﴿ 12 ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ لما ذكر تعالى أنه ولي المؤمنين، ذكر ما يفعل بهم في الآخرة من دخول الجنات ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾ ولما ذكر أن الكافرين لا مولى لهم، ذكر أنهم وُكِلُوا إلى أنفسهم، وصاروا كالأنعام، جل همهم ومقصدهم التمتع بلذات الدنيا وشهواتها ﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ أي منزلا معدا، لا يخرجون منها ولا يفتر عنهم عذابها.

﴿ 13 ﴾ ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ من قرى المكذبين ﴿ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ﴾ في الأموال والأولاد ﴿ أهلكناهم ﴾ حين كذبوا رسلنا، ولم تفد فيهم المواعظ ﴿ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ فلا نجد لهم ناصرا، ولم تغن عنهم قوتهم من عذاب الله شيئا.

﴿ 14 ﴾ ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أي لا يستوي من هو على بصيرة من أمر دينه علما وعملا، ﴿ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ كمن هو أعمى القلب، قد رفض الحق وأضله، واتبع هواه ومع ذلك يرى أن ما هو عليه من الحق، فما أبعد الفرق بين أهل الحق وأهل الغي!

﴿ 15 ﴾ ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ أعدها الله لعباده الذين اتقوا سخطه واتبعوا رضوانه ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ غير متغير، بل هو أعذب المياه وأصفاها ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ بحموضة ولا غيرها ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ يلتذ به شاربه، لا كخمر الدنيا الذي يكره مذاقه ويصدع الرأس، ويغول العقل ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ من شمعه، وسائر أوساخه ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ مما لا نظير له في الدنيا ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ يزول بها عنهم المرهوب ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ﴾ فأي هؤلاء خير أم من هو خالد في النار ﴿ وَسُقُوا ﴾ فيها ﴿ مَاءً حَمِيمًا ﴾ حارا جدا ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ فسبحان من فاوت بين الدارين والجزاءين، والعاملين والعملين.

﴿ 16–17 ﴾ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾

﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ من المنافقين ﴿ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ ما تقول استماعا، معرضة قلوبهم عنه ﴿ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ مستفهمين عما قلت، وما سمعوا، مما لم يكن لهم فيه رغبة ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾ أي قريبا، وهذا في غاية الذم لهم، فإنهم لو كانوا حريصين على الخير لألقوا إليه أسماعهم ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ ختم عليها بسبب أنهم ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ التي لا يهوون فيها إلا الباطل ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا ﴾ بالإيمان والانقياد، واتباع ما يرضي الله ﴿ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ شكرا منه تعالى لهم على ذلك ﴿ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ وفقهم للخير، وحفظهم من الشر، فذكر للمهتدين جزاءين: العلم النافع، والعمل الصالح.

﴿ 18 ﴾ ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ هؤلاء المكذبون أو ينتظرون ﴿ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة، وهم لا يشعرون ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أي علاماتها الدالة على قربها ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ أي من أين لهم، إذا جاءتهم الساعة وانقطعت آجالهم أن يتذكروا ويستعتبوا؟

﴿ 19 ﴾ ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته، بمعنى ما طلب منه علمه، وتمامه أن يعمل بمقتضاه. وهذا العلم بتوحيد الله فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنا من كان. كما أن تدبر القرآن العظيم، هو باب العلم بالتوحيد ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ اطلب من الله المغفرة لذنبك، بأن تفعل أسباب المغفرة من التوبة والدعاء بالمغفرة، والحسنات الماحية، وترك الذنوب والعفو عن الجرائم ﴿ وَ ﴾ استغفر أيضا ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ فإن لهم حق على كل مسلم ومسلمة، ومن جملة حقوقهم أن يدعو لهم ويستغفر لذنوبهم، والنصح لهم، وأن يحب لهم من الخير ما يحب لنفسه. ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ تصرفاتكم وحركاتكم ﴿ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ الذي به تستقرون.

﴿ 20-23 ﴾ ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ * فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ استعجالا ومبادرة للأوامر الشاقة ﴿ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ فيها أمر بالقتال ﴿ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ ﴾ تفرض العمل بها ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ﴾ الذي هو أشق شيء على النفوس، لم يثبت ضعفاء الإيمان على امتثال هذه الأوامر، لذلك ﴿ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ من كراهتهم لذلك وشدته عليهم. ﴿ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴾ كان من الأجدر بهم ﴿ طَاعَةٌ ﴾ أن يمتثلوا ويطيعوا ما فرض عليهم وأن يجمعوا عليه هممهم ﴿ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم، وليفرحوا بعافية الله تعالى وعفوه﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾ أي جاء هم أمرٌ جدٌّ محتم، ففي هذه الحال ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ ﴾ لو صدقوا الله بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ من حالهم الأولى، وذلك لأن العبد ناقص لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده. كما ينبغي أن يجمع العبد همه ونشاطه على وقته الحاضر، فيؤدي وظيفته بحسب قدرته. ثم كلما جاء وقت استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعينا بربه في ذلك ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ أي فهما أمران: إما التزام لطاعة الله وامتثال لأوامره، فثم الخير والرشد والفلاح، وإما إعراض عن ذلك، وتولٍ عن طاعة الله، فما ثم إلا الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي وقطيعة الأرحام ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ ﴾ أفسدوا في الأرض، وقطعوا أرحامهم ﴿ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ بأن أبعدهم عن

رحمته، وقربوا من سخط الله ﴿ فَأَصَمَّهُمْ ﴾ جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ﴿ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ فلا يبصرون بها العبر والآيات.

﴿ 24 ﴾ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ فهلا يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، فإنهم لو تدبروه لدلهم على كل خير ﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ أي قد أغلق على ما فيها من الشر وأقفلت، فلا يدخلها خير أبدا؟ هذا هو الواقع.

﴿ 25-28 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ * فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ﴾ المرتدين عن الإيمان على أعقابهم إلى الضلال ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾ فزهدوا فيه ورفضوه بتسويل من عدوهم ﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ زين لهم ﴿ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴾ وإملاء منه لهم. و ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ ﴾ من المبارزين العداوة لله ولرسوله ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ أي الذي يوافق أهواء هم، فلذلك عاقبهم الله بالضلال ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ فلذلك فضحهم، وبينها لعباده المؤمنين، لئلا يغتروا بها ﴿ فَكَيْفَ ﴾ لو ترى حالهم الشنيعة ﴿ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ الموكلون بقبض أرواحهم ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ بالمقامع الشديدة ﴿ ذَلِكَ ﴾ العذاب الذي استحقوه ونالوه ﴿ بِ ﴾ سبب ﴿ أنهم اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ ﴾ من كل كفر وفسوق وعصيان ﴿ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ فلم يكن لهم رغبة فيما يقربهم إليه ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أبطلها وأذهبها.

﴿ 29-31 ﴾ ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ من شبهة أو شهوة تخرج القلب عن حال صحته واعتداله ﴿ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ ﴾ أن الله لا يخرج ما في قلوبهم ﴿ أَضْغَانَهُمْ ﴾ من الأضغان والعداوة للإسلام وأهله؟ فإنه لا بد أن يميز الصادق من الكاذب ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ أي: بعلاماتهم التي هي كالوسم في وجوههم ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ فإن الألسن مغارف القلوب، يظهر منها ما في القلوب من الخير والشر ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ فيجازيكم عليها ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ أي نختبر إيمانكم وصبركم ﴿ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ فمن امتثل أمر الله وجاهد في سبيل الله لنصر دينه وإعلاء كلمته فهو المؤمن حقا، ومن تكاسل عن ذلك، كان ذلك نقصا في إيمانه.

﴿ 32 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ هذا وعيد شديد لمن جمع أنواع الشر كلها، من الكفر بالله، وصد الخلق عن سبيل الله الذي نصبه موصلا إليه ﴿ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾ أي عاندوه وخالفوه عن عمد لا عن جهل فإنهم ﴿ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ﴾ فلا ينقص به ملكه ﴿ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي مساعيهم التي بذلوها في نصر الباطل، وأعمالهم التي يرجون بها الثواب لا تقبل لعدم وجود شرطها.

﴿ 33 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ يأمر تعالى المؤمنين بأمر به تتم أمورهم، وتحصل سعادتهم الدينية والدنيوية، وهو طاعته وطاعة رسوله في أصول الدين وفروعه، والطاعة هي امتثال الأمر، واجتناب النهي على الوجه المأمور به بالإخلاص وتمام المتابعة ﴿ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ يشمل النهي عن إبطالها بعد عملها بما يفسدها.

﴿ 34-35 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ * فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿ وَصَدُّوا ﴾ الخلق ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ بتزهيدهم إياهم بالحق، ودعوتهم إلى الباطل وتزيينه ﴿ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ لم يتوبوا منه ﴿ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ لا بشفاعة ولا بغيرها. ومفهوم الآية الكريمة أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم، فإن الله يغفر لهم ويرحمهم، ويدخلهم الجنة، ولو كانوا مفنين أعمارهم في الكفر به والصد عن سبيله، والإقدام على معاصيه، فسبحان من فتح لعباده أبواب الرحمة، ولم يغلقها عن أحد، ما دام حيا متمكنا من التوبة. وسبحان الحليم، الذي لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يعافيهم، ويرزقهم، كأنهم ما عصوه مع قدرته عليهم ﴿ فَلَا تَهِنُوا ﴾ أي لا تضعفوا عن قتال عدوكم، ﴿ وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ ﴾ ولا تدعوا إلى المسالمة والمتاركة بينكم وبين أعدائكم طلبا للراحة ﴿ وَ ﴾ الحال أنكم ﴿ أنتم الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ ﴾ أي ينقصكم ﴿ أَعْمَالَكُمْ ﴾ فهذه الأمور الثلاثة كل منها مقتض للصبر وعدم الوهن: كونهم الأعلين توفرت لهم أسباب النصر، ووعدوا من الله بالوعد الصادق. الثاني: أن الله مع المؤمنين بالعون والتأييد. الثالث: أن الله لا ينقصهم من أعمالهم شيئا، بل ويزيدهم من فضله، خصوصا عبادة الجهاد، فإن النفقة تضاعف فيه إلى سبع مائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

﴿ 36-38 ﴾ ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ هذا تزهيد منه لعباده في الحياة الدنيا بإخبارهم عن حقيقة أمرها، بأنها لعب في الأبدان ولهو في القلوب حتى تستكمل دنياه، ويحضره أجله، فإذا هذه الأمور قد ولت وفارقت. فالذي ينبغي أن يهتم به ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا ﴾ بالله ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ وتقوموا بتقواه والعمل بمرضاته ﴿ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ أي لا يريد تعالى أن يكلفكم ما يشق عليكم، ويعنتكم من أخذ أموالكم ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ ما في قلوبكم من الضغن، إذا طلب منكم ما تكرهون بذله ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الذي فيه مصلحتكم الدينية والدنيوية ﴿ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ﴾ أي فكيف لو سألكم، وطلب منكم أموالكم في غير أمر ترونه مصلحة عاجلة؟ أليس من باب أولى وأحرى امتناعكم من ذلك ﴿ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ لأنه حرم نفسه ثواب الله تعالى ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ تحتاجون إليه في جميع أوقاتكم، لجميع أموركم ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا ﴾ عن الإيمان بالله، وامتثال ما يأمركم به ﴿ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ في التولي، بل يحبون ويطيعون الله ورسوله.

تم تفسير سورة محمد

والحمد لله رب العالمين.

مختصر تفسير سورة الفتح

عدد آياتها 29

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-3 ﴾ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ في صلح الحديبية[1]، حين صد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم لما جاء معتمرا ثم صالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، وعلى أن يعتمر من

---

[1] ولنسق قصة الحديبية بطولها (هنا مختصرة) كما ساقها الإمام شمس الدين ابن القيم في { الهدي النبوي } فإن فيها إعانة على فهم هذه السورة، وتكلم على معانيها وأسرارها، قال -رحمه الله تعالى:-

فصل في قصة الحديبية

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية في رمضان سنة ست في ذي القعدة. وكان معه ألف وخمسمائة. فلما كانوا بذي الحليفة، قلد رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدي وأشعره، وأحرم بالعمرة. حتى إذا كانوا قريبا من عسفان، أتاه عينه، فقال: إني قد تركت كعب بن لؤي، قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جموعا، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت. واستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه: أترون أن نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم، فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين، وإن نجوا تكن عنقا قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت؟ فمن صدنا عنه قاتلناه؟ قال أبو بكر: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "فروحوا إذا" فراحوا، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش، فخذوا ذات اليمين" ، فوالله ما شعر بهم خالد، حتى إذا هو بغبرة الجيش، فانطلق يركض نذيرا لقريش. وسار النبي صلى الله عليه وسلم، حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت راحلته، فقال الناس: حل حل، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل" ثم قال: "والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتموها" ثم زجرها، فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية، على ثمد قليل الماء، إنما يتبرضه الناس تبرضا، فلم يلبث الناس أن نزحوه، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش. فانتزع سهما من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوها فيه، قال: فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنها، وفزعت قريش لنزوله عليهم، فأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليهم رجلا من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إليهم، فقال: يا رسول الله، ليس بمكة أحد من بني كعب يغضب لي، إن أوذيت، فأرسل عثمان بن عفان، فإن عشيرته بها، وإنه مبلغ ما أردت. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان، فأرسله إلى قريش، وقال: "أخبرهم أنا لم نأت لقتال، إنما جئنا عمارا، وادعهم إلى الإسلام". وأمره أن يأتي رجالا بمكة مؤمنين، ونساء مؤمنات، فيدخل عليهم ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان، فانطلق عثمان، فمر على قريش ببلدح، فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، ونخبركم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عمارا، قالوا: قد سمعنا ما تقول، فانفذ لحاجتك. وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحب به، وأسرج فرسه، فحمل عثمان على الفرس، فأجاره، وأردفه أبان حتى جاء مكة، وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان: خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون" فقالوا: وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص؟ قال: "ذاك ظني به، أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف معه" واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلا من الفريق الآخر، وكانت معركة، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كل واحد من الفريقين بمن فيهم، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عثمان قد قتل، فدعا إلى البيعة. فثار المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو تحت الشجرة، فبايعوه على أن لا يفروا، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد نفسه، وقال: "هذه عن عثمان" ولما تمت البيعة، رجع عثمان، فقال له المسلمون: اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت، فقال: بئسما ظننتم بي، والذي نفسي بيده، لو مكثت بها سنة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم، مقيم بالحديبية، ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد دعتني قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت، فقال المسلمون: رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان أعلمنا بالله، وأحسننا ظنا. وكان عمر أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم للبيعة تحت الشجرة. فبينما هم كذلك، إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي، في نفر من خزاعة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي، نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاءوا أماددهم ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما

العام المقبل، وعلى أن من أراد أن يدخل في عهد قريش وحلفهم دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقده فعل. وبسبب ذلك لما أمن الناس بعضهم بعضا، اتسعت دائرة الدعوة لدين الله عز وجل، وصار كل مؤمن بأي محل كان من تلك الأقطار، يتمكن من ذلك، وأمكن الحريص على الوقوف على حقيقة الإسلام، فدخل الناس في تلك المدة في دين الله أفواجا، فلذلك سماه الله فتحا، ووصفه بأنه فتح مبين أي: ظاهر جلي. ورتب الله على هذا الفتح عدة أمور، فقال ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ وذلك –والله أعلم– بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة، والدخول في الدين بكثرة، وبما تحمل صلى الله عليه وسلم من تلك الشروط التي لا يصبر عليها إلا أولو العزم من المرسلين، وهذا من أعظم مناقبه وكراماته صلى الله عليه وسلم، أن غفر الله له ما

دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن أبوا إلا القتال، فوالذي نفسي بيده، لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره" قال بديل: سأبلغهم ما تقول. فانطلق حتى أتى قريشا، فقال: إني قد جئتكم من عند هذا الرجل، وسمعته يقول قولا، فإن شئتم عرضته عليكم، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي: منهم: هات ما سمعته، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فقال عروة بن مسعود الثقفي: إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد، فاقبلوها، ودعوني آته، فقالوا: ائته، فأتاه، فجعل يكلمه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم نحوا من قوله لبديل، فقال له عروة عند ذلك: أي: محمد، أرأيت لو استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فوالله إني لأرى وجوها، وأرى أوباشا من الناس، خليقا أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟ قال: من ذا؟ قال: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها، لأجبتك. وجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم، وكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة على رأس النبي صلى الله عليه وسلم، ومعه السيف، وعليه المغفر فكلما أهوى عروة إلى لحية النبي صلى الله عليه وسلم، ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرفع عروة رأسه، وقال: من ذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، فقال: أي: غدر، أولست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة صحب قوما في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء". ثم إن عروة رجع إلى أصحابه فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، على كسرى، وقيصر، والنجاشي، والله ما رأيت ملكا يعظمه أصحابه، ما يعظم أصحاب محمد محمدا، والله ما تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم، خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيما له، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها. فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته، فقالوا: ائته. فلما أشرف على النبي صلى الله عليه وسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له" فبعثوها فاستقبله القوم يلبون، فلما رأى ذلك، قال: سبحان الله، لا ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فرجع إلى أصحابه، فقال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، وما أرى أن يصدوا عن البيت فقام مكرز بن حفص، وقال: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "هذا مكرز بن حفص، وهو رجل فاجر" فجعل يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبينا هو يكلمه، إذ جاء سهيل بن عمرو، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "قد سهل لكم من أمركم" فقال: هات، اكتب بيننا وبينك كتابا، فدعا الكاتب، فقال: "اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم" فقال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما ندري ما هو، ولكن اكتب: "باسمك اللهم" كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "اكتب باسمك اللهم"، ثم قال: "اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله " فقال سهيل: فوالله لو نعلم أنك رسول الله، ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إني رسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله " فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به" فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن لك من العام المقبل، فكتب. فقال سهيل: على أن لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك، إلا رددته علينا. فقال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما؟ فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما قاضيتك عليه، أن ترده، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنا لم نقض الكتاب بعد" فقال: فوالله إذا لا أصالحك على شيء أبدا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "فأجزه لي" فقال: ما أنا بمجيزه، فقال: "بلى فافعل" قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: قد أجزناه. فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين، أرد إلى المشركين وقد جئت مسلما، ألا ترون ما لقيت؟ وكان قد عذب في الله عذابا شديدا. قال عمر بن الخطاب: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله ألست نبي الله؟ قال: "بلى" قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: "بلى" فقلت: علام نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال: "إني رسول الله، وهو ناصري، ولست أعصيه" قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: "بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟" قلت: لا، قال: "فإنك آتيه ومطوف به". قال: فأتيت أبا بكر، فقلت له كما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ورد عليه أبو بكر كما رد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء، وزاد: فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله إنه لعلى الحق، قال عمر: فعملت لذلك أعمالا.

فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قوموا وانحروا، ثم احلقوا" فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا رسول الله أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحدا كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلق لك، فقام فخرج، فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما، ثم جاءت نسوة مؤمنات، فأنزل الله عز وجل: {إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ} حتى بلغ {بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ} فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية، والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع إلى المدينة. وفي مرجعه أنزل الله عليه: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} إلى آخرها، فقال عمر: أفتح هو يا رسول الله؟ فقال: "نعم" فقال الصحابة: هنيئا لك يا رسول الله، فما لنا؟ فأنزل الله عز وجل: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ}

تقدم من ذنبه وما تأخر ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ بإعزاز دينك، ونصرك على أعدائك ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ تنال به السعادة الأبدية ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ قويا لا يتضعضع فيه الإسلام، بل يحصل الانتصار التام.

﴿ 4-6 ﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا * وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ فالصحابة رضي الله عنهم لما جرى ما جرى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركين، من تلك الشروط التي ظاهرها أنها غضاضة عليهم، بما لا تكاد تصبر عليها النفوس، فلما صبروا عليها ووطنوا أنفسهم لها، ازدادوا بذلك إيمانا مع إيمانهم ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ جميعها في ملكه، وتحت تدبيره وقهره، فلا يظن المشركون أن الله لا ينصر دينه ونبيه ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فتقتضي حكمته تأخير نصر المؤمنين إلى وقت آخر ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين، أن يحصل لهم المرغوب المطلوب بدخول الجنات، ويزيل عنهم المحذور بتكفير السيئات ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ ﴾ الجزاء المذكور للمؤمنين ﴿ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ فهذا ما يفعل بالمؤمنين في ذلك الفتح المبين ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ فإن الله يعذبهم بذلك، ويريهم ما يسوءهم حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين ﴿ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ أنه لا ينصر دينه، ولا يعلي كلمته ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ فأدار الله عليهم ظنهم، وكانت دائرة السوء عليهم في الدنيا ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ بما اقترفوه من المحادة لله ولرسوله ﴿ وَلَعَنَهُمْ ﴾ أبعدهم وأقصاهم عن رحمته ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾.

﴿ 7 ﴾ ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ كرر الإخبار بأن له ملك السماوات والأرض وما فيهما من الجنود، ليعلم العباد أنه تعالى هو المعز المذل، وأنه سينصر جنوده ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا ﴾ قويا قاهرا لكل شيء ﴿ حَكِيمًا ﴾ في خلقه وتدبيره، يجري على ما تقتضيه حكمته وإتقانه.

﴿ 8-9 ﴾ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿ شَاهِدًا ﴾ لأمتك وعلى المقالات والمسائل ولله تعالى بالوحدانية والكمال ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ من أطاعك وأطاع الله بالثواب ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ لمن عصى الله بالعقاب العاجل والآجل ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أرسلناه لتقوموا بالإيمان بالله ورسوله ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ تعزروا وتعظموا الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ وتجلوه، وتقوموا بحقوقه ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ أي تسبحوا لله ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أول النهار وآخره. وفي

هذا تبيين – للحق المشترك بين الله وبين رسوله، أي الإيمان بهما، – والمختص بالرسول أي التعزير والتوقير، – والمختص بالله، أي التسبيح له والتقديس بصلاة أو غيرها.

﴿ 10 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾ في بيعة الرضوان التي بايع الصحابة رضي الله عنهم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، على أن لا يفروا عنه، ولو كانوا في حال يجوز الفرار فيها، فأخبر تعالى أنهم ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ ويعقدون العقد معه ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي كأنهم بايعوا الله وصافحوه بتلك المبايعة ﴿ فَمَنْ نَكَثَ ﴾ فلم يف بما عاهد الله عليه ﴿ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ لأن وبال ذلك راجع إليه ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ ﴾ أتى به كاملا ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ لا يعلم عظمه وقدره إلا الذي آتاه إياه.

﴿ 11-13 ﴾ ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا * وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴾

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ سيعتذرون بأن أموالهم وأهليهم شغلتهم عن الخروج في الجهاد، وأنهم طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لهم ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ إنما تخلفوا لأنهم ظنوا بالله ظن السوء ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ ذلك بأنهم ظنوا ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ أي إنهم سيقتلون ويستأصلون ﴿ وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ ولم يزل هذا الظن يزين في قلوبهم حتى استحكم، وسبب ذلك أنكم ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ أي هلكى لا خير فيهم فلو كان فيهم خير لم يكن هذا في قلوبهم ﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ثمّ ضعف إيمانهم وقلة يقينهم بوعد الله ﴿ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴾ فإنه كافر مستحق للعقاب.

﴿ 14 ﴾ ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يتصرف فيهما بما يشاء ﴿ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ وهو من قام بما أمره الله به ﴿ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ممن تهاون بأمر الله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أي وصفه اللازم الذي لا ينفك عنه المغفرة والرحمة.

﴿ 15 ﴾ ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إذا انطلقوا إلى غنائم لا قتال فيها ليأخذوها، طلبوا منهم الصحبة والمشاركة، ويقولون ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ ﴾ بذلك ﴿ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ حيث حكم بعقوبتهم، واختصاص الصحابة المؤمنين بتلك الغنائم، شرعا وقدرا ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ إنكم محرومون منها بما جنيتم على أنفسكم، وبما تركتم القتال أول مرة ﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾ مجيبين لهذا الكلام، الذي منعوا به عن الخروج: ﴿ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ على الغنائم، هذا منتهى علمهم في هذا الموضع، ولو فهموا لعلموا أن حرمانهم بسبب عصيانهم، وأن المعاصي لها عقوبات دنيوية ودينية ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

﴿ 16-17 ﴾ ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ ﴾ فارس والروم ومن أشبههم ﴿ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ سيدعوكم الرسول ومن ناب منابه كي ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ إما هذا وإما هذا: إذ لما أثخنهم المسلمون ذهب بأسهم، فصاروا إما أن يسلموا، وإما أن يبذلوا الجزية ﴿ فَإِنْ تُطِيعُوا ﴾ الداعي لكم إلى قتال هؤلاء ﴿ يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ وهو الأجر الذي رتبه الله ورسوله على الجهاد في سبيل الله ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ عن قتال من دعاكم الرسول إلى قتاله ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ثم ذكر الأعذار التي يعذر بها العبد عن الخروج إلى الجهاد ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ في التخلف عن الجهاد لعذرهم المانع ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في امتثال أمرهما ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ فيها ما تشتهيه الأنفس ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ عن طاعة الله ورسوله ﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فالسعادة كلها في طاعة الله، والشقاوة في معصيته ومخالفته.

﴿ 18-21 ﴾ ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ يقال لها "بيعة الرضوان" لرضا الله عن المؤمنين فيها، ويقال لها "بيعة أهل الشجرة". فأخبر تعالى أنه رضي عن المؤمنين في تلك الحال ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ من

الإيمان ﴿ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ شكرا لهم على ما في قلوبهم ﴿ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ وهو فتح خيبر، لم يحضره سوى أهل الحديبية، فاختصوا بخيبر وغنائمها ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا ﴾ له العزة والقدرة فلو شاء لانتصر من الكفار في كل وقعة ولكنه كان ﴿ حَكِيمًا ﴾ يبتلي بعضهم ببعض، ويمتحن المؤمن بالكافر. ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ وهذا يشمل كل غنيمة غنمها المسلمين إلى يوم القيامة ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ أي غنيمة خيبر، فلا تحسبوها وحدها بل ثم شيء كثير من الغنائم سيتبعها ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ القادرين والحريصين على قتالكم. فهي نعمة وتخفيف عنكم ﴿ وَلِتَكُونَ ﴾ هذه الغنيمة ﴿ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يستدلون بها على خبر الله الصادق، وأن الذي قدرها سيقدر غيرها ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ ﴾ بما يقيض لكم من الأسباب ﴿ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ من العلم والإيمان والعمل ﴿ وَأُخْرَى ﴾ أي وعدكم أيضا غنيمة أخرى ﴿ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا ﴾ وقت هذا الخطاب ﴿ قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ أي هو قادر عليها، وتحت تدبيره وملكه، وقد وعدكموها، فلا بد من وقوع ما وعد به ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ لكمال اقتدار الله تعالى.

﴿ 22-23 ﴾ ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ هذه بشارة من الله لعباده المؤمنين بنصرهم على أعدائهم الكافرين، وأنهم لو قابلوهم وقاتلوهم ﴿ لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا ﴾ يتولى أمرهم ﴿ وَلَا نَصِيرًا ﴾ ينصرهم ويعينهم على قتالكم ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ وهذه سنة الله في الأمم السابقة ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ .

﴿ 24-25 ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي أهل مكة ﴿ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ من بعد ما قدرتم عليهم، وهم نحو ثمانين رجلا انحدروا على المسلمين ليصيبوا منهم غرة، فوجدوا المسلمين منتبهين فأمسكوهم، فتركوهم ولم يقتلوهم، رحمة من الله بالمؤمنين إذ لم يقتلوهم ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، ويدبركم أيها المؤمنون بتدبيره الحسن ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ذكر تعالى الأمور المهيجة على قتال المشركين وهي كفرهم بالله ورسوله، وصدهم رسول الله ومن معه من المؤمنين أن يأتوا للبيت الحرام زائرين معظمين له بالحج والعمرة ﴿ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا ﴾ أي محبوسا ﴿ أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ وهو محل ذبحه وهو مكة، فمنعوه من الوصول إليه ظلما وعدوانا. وكل هذه أمور موجبة وداعية إلى قتالهم، ولكن ثمّ مانع وهو ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ ﴾ بين أظهر المشركين ﴿ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ وليسوا متميزين بمحلة أو مكان يمكن أن لا ينالهم أذى ﴿ أَنْ تَطَئُوهُمْ ﴾ أي خشية أن تطأوهم ﴿ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

بقتالهم ونيلهم بالأذى والمكروه ﴿ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ فيمنعكم من قتالهم فيدخل في رحمته من يشاء فيمنّ عليهم بالهدى بعد الضلال. ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ أي لو زالوا من بين أظهرهم ﴿ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ بأن نبيح لكم قتالهم، ونأذن فيه، وننصركم عليهم.

﴿ 26 ﴾ ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ حيث أنفوا من كتابة بسم الله الرحمن الرحيم وأنفوا من دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إليهم في تلك السنة، وهذه من أمور الجاهلية لم تزل في قلوبهم حتى أوجبت لهم المعاصي ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فلم يحملهم الغضب على مقابلة المشركين بما قابلوهم به، بل صبروا لحكم الله، والتزموا الشروط التي فيها تعظيم حرمات الله ولو كانت ما كانت، ولم يبالوا بقول القائلين، ولا لوم اللائمين ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ وهي "لا إله إلا الله" وحقوقها، ألزمهم القيام بها، فالتزموها وقاموا بها ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا ﴾ من غيرهم ﴿ وَ ﴾ كانوا ﴿ أهلها ﴾ الذين استأهلوها لما يعلم الله عندهم وفي قلوبهم من الخير ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

﴿ 27-28 ﴾ ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ﴾ أي لا بد من وقوعها وصدقها، ولا يقدح في ذلك تأخر تأويلها. وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في المدينة رؤيا أخبر بها أصحابه، أنهم سيدخلون مكة ويطوفون بالبيت، فلما جرى يوم الحديبية ما جرى ورجعوا من غير دخول لمكة، كثر في ذلك الكلام منهم، حتى إنهم قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ألم تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ فقال: " أخبرتكم أنه العام؟" قالوا: لا، قال: "فإنكم ستأتونه وتطوفون به" ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ أي في هذه الحال المقتضية لتعظيم هذا البيت الحرام، وأدائكم للنسك، وتكميله بالحلق والتقصير، و ﴿ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ ﴾ من المصلحة والمنافع ﴿ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ ﴾ الدخول بتلك الصفة ﴿ فَتْحًا قَرِيبًا. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ﴾ الذي هو العلم النافع، الذي يهدي من الضلالة، ويبين طرق الخير والشر ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ أي الدين الموصوف بالحق، وهو العدل والإحسان والرحمة ﴿ لِيُظْهِرَهُ ﴾ بما بعثه الله به ﴿ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ بالحجة والبرهان، ويكون داعيا لإخضاعهم بالسيف والسنان ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾

﴿ 29 ﴾ ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ

فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ يخبر تعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ أصحابه من المهاجرين والأنصار ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ مجتهدون في عداوتهم، ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي متحابون متراحمون متعاطفون. وأما معاملتهم مع الخالق فإنك ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ أي وصفهم كثرة الصلاة، التي أجل أركانها الركوع والسجود ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ بتلك العبادة ﴿ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ أي هذا مقصودهم بلوغ رضا ربهم، والوصول إلى ثوابه ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ أي قد أثرت العبادة من كثرتها وحسنها في وجوههم: لما استنارت بالصلاة بواطنهم، استنارت بالجلال ظواهرهم ﴿ ذَلِكَ ﴾ المذكور ﴿ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ﴾ أي هذا وصفهم الذي وصفهم الله به مذكور بالتوراة هكذا ﴿ وَ ﴾ أما ﴿ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ ﴾ فإنهم موصوفون بوصف آخر، فهم في كمالهم وتعاونهم ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ ﴾ فوازرته فراخه في الشباب والاستواء ﴿ فَاسْتَغْلَظَ ﴾ ذلك الزرع أي قوي ﴿ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ﴾ جمع ساق ﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾ من كماله واستوائه وحسنه. كذلك الصحابة رضي الله عنهم هم كالزرع في نفعهم للخلق واحتياج الناس إليهم، فقوة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه، وكون الصغير والمتأخر إسلامه، قد لحق الكبير السابق ووازره وعاونه على ما هو عليه، من إقامة دين الله والدعوة إليه ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ حين يرون اجتماعهم وشدتهم على دينهم، وحين يتصادمون معهم وهم في القتال ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ فالصحابة رضي الله عنهم، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جمع الله لهم بين المغفرة والأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

وهذا آخر تفسير سورة الفتح

ولله الحمد والمنة

المجلد الثامن
من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان
من به الله على عبده وابن عبده وابن أمته

عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي

49

مختصر تفسير سورة الحجرات

عدد آياتها 18
وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-3 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أمر الله عباده المؤمنين امتثال أوامر الله وأن يكونوا ماشين خلف أوامره متبعين لسنة رسوله في جميع أمورهم، ولا يقولوا حتى يقول، ولا يأمروا حتى يأمر. فإنه متى استبانت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجب اتباعها، وتقديمها على غيرها، كائنا ما كان. ثم أمر الله بتقواه عمومًا ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لجميع الأصوات ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بالظواهر والبواطن ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ لا يرفع المخاطب له صوته فوق صوته، ولا يجهر له بالقول ﴿ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ ولا يكون الرسول كأحدهم، بل يميزوه في خطابهم. فإن في عدم القيام بذلك خشية أن يحبط عمل العبد وهو لا يشعر ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ ابتلاها واختبرها فصلحت للتقوى ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ وعدهم المغفرة لذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يعلم وصفه إلا الله تعالى.

﴿ 4-5 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ نزلت هذه الآيات الكريمة في أناس من الأعراب وصفهم الله تعالى بالجفاء قدموا وافدين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجدوه في بيته وحجرات نسائه، فلم يصبروا ويتأدبوا حتى يخرج، بل نادوه: يا محمد يا محمد أي اخرج إلينا، فذمهم الله بعدم العقل ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى

﴿ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ لما صدر عن عباده من الذنوب ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بهم لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات والمثلات.

﴿ 6 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ إذا أخبرهم فاسق بخبر أن يتثبتوا في خبره، فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه عمل به وصدق. وإن دلت على كذبه كذب، ولم يعمل به. وفي هذا دليل على أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب مردود، وخبر الفاسق متوقف فيه كما ذكرنا. ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير من الخوارج، المعروفين بالصدق، ولو كانوا فساقًا ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ موجود بين أظهركم يريد بكم الخير وينصح لكم ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة، ما لا يوافقكم الرسول عليه، ولو يطيعكم في كثير من الأمر لشق عليكم وأعنتكم ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ بما أودع الله في قلوبكم من محبة الحق وإيثاره، وبما ينصب على الحق من الشواهد، والأدلة الدالة على صحته، وقبول القلوب والفطر له ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ ﴾ الذنوب الكبار ﴿ وَالْعِصْيَانَ ﴾ ما دون ذلك من الذنوب ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الذين زين الله الإيمان في قلوبهم ﴿ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ الذين صلحت علومهم وأعمالهم ﴿ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ ذلك الخير الذي حصل لهم هو بفضل الله عليهم وإحسانه، لا بحولهم وقوتهم ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بمن يشكر النعمة ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يضع فضله، حيث تقتضيه حكمته.

﴿ 9-10 ﴾ ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ نهي المؤمنين عن أن يبغي بعضهم على بعض، ويقاتل بعضهم بعضًا. وأنه إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين، فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير، بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك على أكمل وجه يقع به الصلح، ويسلكوا الطريق الموصلة إلى ذلك ﴿ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أي ترجع إلى ما حد الله ورسوله ﴿ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ﴾ هذا أمر بالصلح، وبالعدل في الصلح ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ العادلين في حكمهم بين الناس ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ هذا عقد عقده الله بين المؤمنين توجب أن يحب المؤمنون للمؤمن ما يحبون لأنفسهم ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ فليصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شنآنهم ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ثم أمر بالتقوى عمومًا ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ورتب الرحمة على القيام بحقوق المؤمنين وبتقوى الله. وعدم القيام بحقوق المؤمنين، من أعظم حواجب الرحمة[1].

[1] وفي هاتين الآيتين فوائد منها:

- الاقتتال بين المؤمنين مناف للأخوة الإيمانية، ومن أكبر الكبائر،
- الإيمان، والأخوة الإيمانية، لا تزول مع وجود القتال كغيره من الذنوب الكبار، التي دون الشرك،
- وجوب الإصلاح بين المؤمنين بالعدل، ووجوب قتال البغاة حتى يرجعوا إلى أمر الله،
- أموال البغاة معصومة، لأن الله أباح دماءهم وقت استمرارهم على بغيهم خاصة، دون أموالهم.

﴿ 11 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ ﴾ بكل كلام وقول وفعل دال على تحقير الأخ المسلم، فإن ذلك حرام لا يجوز، وهو دال على إعجاب الساخر بنفسه ﴿ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ عسى أن يكون المسخور به خيرًا من الساخر، كما هو الغالب والواقع، فإن السخرية، لا تقع إلا من قلب ممتلئ من مساوئ الأخلاق، متحل بكل خلق ذميم، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم "بحسب امرئ من الشر، أن يحقر أخاه المسلم" ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي لا يعب بعضكم على بعض[2]. وسمي الأخ المؤمن نفسًا لأخيه، لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هكذا حالهم كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره، أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ لا يعير أحدكم أخاه ويلقبه بلقب ذم يكرهه وهذا هو التنابز، وأما الألقاب غير المذمومة فلا تدخل في هذا ﴿ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ أي بئسما تبدلتم عن الإيمان والعمل بشرائعه باسم الفسوق والعصيان، الذي هو التنابز بالألقاب ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ فالناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب، وتائب مفلح، ولا ثم قسم ثالث غيرهما.

﴿ 12 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ ﴾ نهى الله تعالى عن كثير من الظن السوء بالمؤمنين، فـ ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة وكظن السوء، الذي يقترن به كثير من الأقوال والأفعال المحرمة ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ لا تفتشوا عن عورات المسلمين، ولا تتبعوها، واستعملوا التغافل عن أحوالهم التي إذا فتشت، ظهر منها ما لا ينبغي ﴿ وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ والغيبة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ذكرك أخاك بما يكره ولو كان فيه" ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ شبه أكل لحمه ميتًا باغتيابه، فكما أنكم تكرهون أكل لحمه ميتًا، فلتكرهوا غيبته وأكل لحمه حيًا ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ ﴾ يأذن بتوبة عبده فيوفقه لها، ثم يتوب عليه بقبول توبته ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بعباده، حيث دعاهم إلى ما ينفعهم، وقبل منهم التوبة[3].

﴿ 13 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ يخبر تعالى أنه خلق بني آدم من أصل واحد وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء. ولكن الله تعالى بث منهما رجالاً كثيرا ونساء ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ وفرقهم وجعلهم شعوبًا وقبائل لأجل أن يتعارفوا ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ولكن الكرم

---

[2] كما قال تعالى: { وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ } واللمز: بالقول، والهمز: بالفعل، وكلاهما منهي عنه حرام، متوعد عليه بالنار.
[3] وفي هذه الآية دليل على التحذير الشديد من الغيبة، وأن الغيبة من الكبائر، لأن الله شبهها بأكل لحم الميت، وذلك من الكبائر.

بالتقوى، فأكرمهم عند الله هو أكثرهم طاعة وانكفافًا عن المعاصي ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ والله تعالى عليم خبير، فيجازي كلا بما يستحق[4].

﴿ 14-18 ﴾ ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم * يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ﴾ الذين دخلوا في الإسلام في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم دخولاً من غير بصيرة ﴿ آمَنَّا ﴾ إيمانًا كاملاً ﴿ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ﴾ لا تدعوا لأنفسكم مقام الإيمان، ظاهرًا وباطنًا ﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ أي دخلنا في الإسلام، واقتصروا على ذلك ﴿ وَ ﴾ السبب في ذلك أنه ﴿ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ وإنما آمنتم خوفًا، أو رجاء، أو نحو ذلك. لكن كثيرًا منهم من الله عليهم بعد ذلك بالإيمان الحقيقي، والجهاد في سبيل الله ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ بفعل خير، أو ترك شر ﴿ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ﴾ لا ينقصكم منها مثقال ذرة، بل يوفيكم إياها ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لمن تاب إليه وأناب ﴿ رَحِيمٌ ﴾ به حيث قبل توبته ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي على الحقيقة ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِم في سبيل الله ﴾ أي من جمعوا بين الإيمان والجهاد في سبيله. وشرط تعالى في الإيمان الذي لا يعتريه شك بوجه من الوجوه ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة. فإثباته ونفيه من باب تعليم الله بما في القلب، وهذا سوء أدب وظن بالله، ولهذا قال ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وهذا شامل للأشياء كلها، التي من جملتها ما في القلوب من الإيمان والكفران، فإنه تعالى يعلم ذلك كله ويجازي عليه، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وقد يكون قصد من ادعى لنفسه الإيمان، وليس به، المنة على رسوله. لكن المنة لله تعالى عليهم بهدايتهم إلى الإسلام والإيمان ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي الأمور الخفية فيهما، التي تخفى على الخلق ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يحصي عليكم أعمالكم، ويوفيكم إياها.

تم تفسير سورة الحجرات

بعون الله ومنه وجوده وكرمه،

فلك اللهم من الحمد أكمله وأتمه،

ومن الجود أفضله وأعمه

---

[4] وفي هذه الآية دليل على أن معرفة الأنساب، مطلوبة مشروعة، لأن الله جعلهم شعوبًا وقبائل، لأجل ذلك.

مختصر تفسير سورة ق

عدد آياتها 45

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-4 ﴾ ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيد * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾

﴿ ق ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ يقسم تعالى بالقرآن المجيد أي وسيع المعاني عظيمها. والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها. ولكن أكثر الناس لا يقدر نعم الله قدرها، ولهذا قال تعالى ﴿ بَلْ عَجِبُوا ﴾ أي المكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ منهم ﴾ ينذرهم ما يضرهم، ويأمرهم بما ينفعهم، وهو من جنسهم، يمكنهم التلقي عنه ومعرفة أحواله وصدقه ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ الذين حملهم كفرهم وتكذيبهم ﴿ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ مستغرب ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ فقاسوا قدرته على إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير بقدرة العبد الفقير العاجز.

﴿ 5 ﴾ ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ ﴾ إنما كلامهم عناد وتكذيب للحق ﴿ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ أي مختلط مشتبه، لا يثبتون على شيء، فتارة يقولون عنك ساحر، وتارة مجنون، وتارة شاعر.

﴿ 6-11 ﴾ ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ ﴾ أي لا يحتاج ذلك النظر إلى كلفة، فينظرون ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ قبة مستوية الأرجاء، ثابتة البناء ﴿ وَزَيَّنَّاهَا ﴾ مزينة بالنجوم في غاية الحسن والملاحة ﴿ وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ لا ترى فيها عيبًا ولا فروجًا ﴿ وَ ﴾ إلى ﴿ الأرض كيف مَدَدْنَاهَا ﴾ ووسعناها ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ وأرساها بالجبال لتستقر ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ من كل صنف من أصناف النبات ﴿ تَبْصِرَةً ﴾ يتبصر بها من عمى الجهل ﴿ وَذِكْرَى ﴾ يتذكر بها ما ينفع في الدين والدنيا، ويتذكر بها ما أخبر الله به، وأخبرت به رسله، وليس ذلك لكل أحد بل ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ إلى الله أي مقبل عليه بالحب والخوف والرجاء، وأما المكذب والمعرض فما تغني الآيات

والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ. وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ كدليل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته ووحدانيته ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ وإحياء الأرض بعد موتها، دليل على إحياء الله الموتى، ليجازيهم بأعمالهم.

﴿ 12-15 ﴾ ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ * أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم وأنبياءهم كنوح كذبه قومه، وثمود كذبوا صالحًا وعاد كذبوا هودًا وإخوان لوط كذبوا لوطًا وأصحاب الأيكة كذبوا شعيبًا وقوم تبع[1] كذبوا الرسول الذي أرسله الله إليهم[2]. فحق عليهم وعيد الله وعقوبته. ثم استدل تعالى بالخلق الأول على الخلق الآخر، وهو النشأة الآخرة. فكما أنه الذي أوجدهم بعد العدم، كذلك يعيدهم بعد موتهم وصيرورتهم إلى الرفات والرمم، فقال ﴿ أَفَعَيِينَا ﴾ أي أفعجزنا وضعفت قدرتنا ﴿ بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾ ليس الأمر كذلك ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ فهذا الذي شكوا فيه، والتبس عليهم أمره، مع أنه لا محل للبس فيه، لأن الإعادة، أهون من الابتداء.

﴿ 16-18 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ هو تعالى المتفرد بخلق جنس الإنسان ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ يعلم أحواله وما يسره ويوسوس في صدره ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ أقرب شيء إلى الإنسان، وهو العرق المكتنف لثغرة النحر، وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، القريب منه فيستحي منه أن يراه حيث نهاه ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ يتلقيان عن العبد أعماله كلها، واحد ﴿ عَنِ الْيَمِينِ ﴾ يكتب الحسنات ﴿ وَ ﴾ الآخر ﴿ عن الشِّمَالِ ﴾ يكتب السيئات، وكل منهما ﴿ قَعِيدٌ ﴾ بذلك متهيئ لعمله الذي أعد له، ملازم له ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ ﴾ خير أو شر ﴿ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ مراقب له، حاضر لحاله.

﴿ 19-22 ﴾ ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾

﴿ وَجَاءَتْ ﴾ هذا الغافل المكذب بآيات الله ﴿ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ الذي لا مرد له ولا مناص ﴿ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ تتأخر وتنكص عنه ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ اليوم الذي يلحق الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ ﴾ يسوقها إلى موقف القيامة، فلا يمكنها أن تتأخر ﴿ وَشَهِيدٌ ﴾ يشهد

---

[1] وهم كل من مَلَكَ اليمن في الزمان السابق قبل الإسلام

[2] ولم يخبرنا الله من هو ذلك الرسول، وأي تبع من التبابعة، لأنه -والله أعلم- كان مشهورًا عند العرب لكونهم من العرب العرباء، الذين لا تخفى ماجرياتهم على العرب خصوصًا مثل هذه الحادثة العظيمة

عليها بأعمالها ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ﴾ أي يقال للمعرض المكذب يوم القيامة هذا الكلام توبيخًا، أي لقد كنت مكذبًا بهذا، تاركًا للعمل له فالآن ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ ﴾ الذي غطى قلبك ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ ينظر ما يزعجه ويروعه. أو هذا خطاب من الله للعبد، فإنه في الدنيا: في غفلة عما خلق له، ولكنه يوم القيامة ينتبه. ولكنه في وقت لا يمكنه أن يستدرك الفائت، وهذا كله تخويف من الله للعباد وترهيب، بذكر ما يكون على المكذبين، في ذلك اليوم العظيم.

﴿ 23-29 ﴾ ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ أي قرين هذا المكذب، من الملائكة الذين وكلهم الله على حفظه، وحفظ أعماله، فيحضره يوم القيامة ويحضر أعماله ويقول ﴿ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ أي قد أحضرته فيجازى بعمله. ويقال لمن استحق النار ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أي كثير الكفر والعناد لآيات الله، المكثر من المعاصي، المجترئ على المحارم والمآثم ﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ ﴾ يمنع الخير الذي عنده وأعظمه الإيمان بالله مناع لنفع ماله وبدنه ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ على عباد الله، وعلى حدوده ﴿ مُرِيبٍ ﴾ أي شاك في وعد الله ووعيده ﴿ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ عبد معه غيره ﴿ فَأَلْقِيَاهُ ﴾ أيها الملكان القرينان ﴿ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ الذي هو معظمها وأشدها وأشنعها ﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ الشيطان، متبرئًا منه، حاملاً عليه إثمه ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ لأني لم يكن لي عليه سلطان، ولا حجة ولا برهان ﴿ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ فهو الذي ضل وأبعد عن الحق باختياره ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى مجيبًا لاختصامهم ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ لا فائدة في اختصامكم عندي ﴿ وَ ﴾ الحال أني ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ جاءتكم رسلي بالآيات البينات ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ لا يمكن أن يخلف ما قاله الله وأخبر به ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ بل أجزيهم بما عملوا من خير وشر.

﴿ 30-35 ﴾ ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ * وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ ﴾ وذلك من كثرة ما ألقي فيها ﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ أي لا تزال تطلب الزيادة من المجرمين العاصين، حتى يضع رب العزة عليها قدمه الكريمة المنزهة عن التشبيه، فينزوي بعضها على بعض، وتقول: قط قط، قد اكتفيت وامتلأت ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ ﴾ قربت بحيث تشاهد وينظر ما فيها من النعيم المقيم ﴿ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ لأجل المتقين لربهم ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ هذه الجنة وما فيها هي التي وعد الله كل أواب أي رجاع إلى الله ﴿ حَفِيظٍ ﴾ يحافظ على ما أمر الله به ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ ﴾ خافه على وجه المعرفة بربه ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ في حال غيبه أي: مغيبه عن أعين الناس، وهذه هي الخشية الحقيقية النافعة، خشية الله في الغيب والشهادة. ويحتمل أن المراد بخشية الله بالغيب كالمراد بالإيمان بالغيب وأن هذا مقابل للشهادة ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ أي وصفه الإنابة إلى مولاه ويقال لهؤلاء الأتقياء الأبرار ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ﴾ دخولًا مقرونًا بالسلامة، فلا انقطاع لنعيمهم،

ولا كدر ولا تنغيص ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ الذي لا زوال له ولا موت. ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا ﴾ كل ما تعلقت به مشيئتهم، فهو حاصل فيها ولهم فوق ذلك ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ أي ثواب يمدهم به الرحمن الرحيم، وأعظم ذلك وأجله النظر إلى وجه الله الكريم، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم.

﴿ 36-37 ﴾ ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أي أمما كثيرة ﴿ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ أي قوة وآثارًا في الأرض ﴿ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ أي زرعوا وعمروا ودمروا، فلما كذبوا رسل الله، وجحدوا آيات الله، أخذهم الله بالعقاب الأليم، فـ ﴿ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ لا مفر لهم من عذاب الله ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ عظيم حي، فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله تذكر بها، وانتفع فارتفع ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ وكذلك من ألقى سمعه إلى آيات الله، واستمعها استماعًا يسترشد به ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ وقلبه حاضر، فهذا له أيضا ذكرى وموعظة، وشفاء وهدى.

﴿ 38-40 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ﴾ هذا إخبار منه تعالى عن قدرته العظيمة التي أوجد بها أعظم المخلوقات ﴿ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ من غير تعب، ولا إعياء، فالذي أوجدها قادر على إحياء الموتى ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ من الذم لك والتكذيب بما جئت به، واشتغل عنهم ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ واله بطاعة ربك وتسبيحه، أول النهار وآخره ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ وفي أوقات الليل، وأدبار الصلوات. فإن ذكر الله تعالى، مسل للنفس، مؤنس لها، مهون للصبر.

﴿ 41-45 ﴾ ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾

﴿ وَاسْتَمِعْ ﴾ بقلبك ﴿ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي ﴾ وهو إسرافيل عليه السلام، حين ينفخ في الصور ﴿ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ من الخلق ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ ﴾ كل الخلائق يسمعون تلك الصيحة ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ الذي لا شك فيه ولا امتراء ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ من القبور، الذي انفرد به القادر على كل شيء ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ. يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ ﴾ أي عن الأموات ﴿ سِرَاعًا ﴾ أي يسرعون لإجابة الداعي لهم إلى موقف القيامة ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أي هين على الله يسير ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ لك مما يحزنك ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ مسلط

عليهم ولهذا قال ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ ﴾ ما تقرر في العقول والفطر، من محبة الخير وإيثاره وفعله. وإنما يتذكر بالتذكير ﴿ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ الله.

آخر تفسير سورة (ق)

والحمد لله أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا

51

مختصر تفسير سورة الذاريات

عدد آياتها 60

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-6 ﴾ ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ﴾ هذا قسم من الله الصادق في قيله، بهذه المخلوقات العظيمة التي جعل الله فيها من المصالح والمنافع، وهي الرياح التي تذروا في هبوبها ﴿ ذَرْوًا ﴾ بلينها وقوتها ﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴾ السحاب، تحمل الماء الكثير، الذي ينفع الله به البلاد والعباد ﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾ النجوم، التي تجري على وجه اليسر والسهولة ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ الملائكة التي تقسم الأمر وتدبره بإذن الله، فكل منهم، قد جعله الله على تدبير أمر من أمور الدنيا وأمور الآخرة، لا يتعدى ما قدر له وما حد ورسم، ولا ينقص منه ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ[1] لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ[2] لَوَاقِعٌ ﴾

﴿ 7-9 ﴾ ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ والسماء ذات الطرائق الحسنة، التي تشبه حبك الرمال، ومياه الغدران حين يحركها النسيم ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أيها المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴾ منكم من يقول ساحر أو كاهن أو مجنون، إلى غير ذلك من الأقوال المختلفة الدالة على حيرتهم وشكهم، وأن ما هم عليه باطل ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أي يصرف عنه من صرف عن الإيمان، وانصرف قلبه عن أدلة الله اليقينية وبراهينه.

﴿ 10-14 ﴾ ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾

﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ قاتل الله الذين كذبوا على الله، ويقولون على الله ما لا يعلمون ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ﴾ في لجة من الكفر والجهل ﴿ سَاهُونَ. يَسْأَلُونَ ﴾ على وجه الشك والتكذيب ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ متى يبعثون، مستبعدين لذلك ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ يعذبون بسبب ما انطووا عليه من خبث الباطن والظاهر، ويقال لهم ﴿ ذُوقُوا

---

[1] منَ البعث (جواب القسم)
[2] الجزاء بعد الحساب

﴿ فَتَنَتَكُمْ ﴾ أي العذاب والنار، الذي هو أثر ما افتتنوا به، من الابتلاء الذي صيرهم إلى الكفر ﴿ هَذَا ﴾ العذاب الذي وصلتم إليه هو ﴿ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ فالآن تمتعوا بأنواع العقاب والنكال.

﴿ 15-19 ﴾ ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ الذين كانت التقوى شعارهم ﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ مشتملات على جميع أصناف الأشجار والفواكه ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ تشرب منها تلك البساتين ويشرب بها عباد الله ﴿ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ يحتمل أن المعنى أن أهل الجنة قد أعطاهم مولاهم جميع مناهم، فأخذوا ذلك راضين به لا يبغون عنه حولاً. ويحتمل أن هذا وصف المتقين في الدنيا، وأنهم آخذون منقادين لما أمر الله به بالامتثال. والمعنى الأول ألصق بسياق الكلام، لأنه ذكر وصفهم في الدنيا وأعمالهم بقوله ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ الوقت الذي وصلوا به إلى النعيم ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ وهذا شامل لإحسانهم بعبادة ربهم، وللإحسان إلى عباد الله ﴿ كَانُوا ﴾ أي المحسنون ﴿ قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ كان هجوعهم أي نومهم بالليل قليلاً، وأما أكثر الليل فإنهم قانتون لربهم ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ ﴾ قبيل الفجر ﴿ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ الله تعالى، وللاستغفار بالأسحار فضيلة ليست لغيره ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ ﴾ واجب ومستحب ﴿ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ أي للمحتاجين الذين يطلبون من الناس، والذين لا يطلبون منهم.

﴿ 20-23 ﴾ ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ وذلك شامل لنفس الأرض وما فيها، وكذلك في نفس العبد ما يدل على أن الله وحده الأحد ، وأنه لم يخلق الخلق سدى ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ﴾ أي مادة رزقكم الديني والدنيوي ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ من الجزاء في الدنيا والآخرة، فإنه ينزل من عند الله، كسائر الأقدار ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ فكما لا تشكون في نطقكم، فكذلك لا ينبغي الشك في البعث بعد الموت.

﴿ 24-37 ﴾ ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ * فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾

﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾ أي أما جاءك ﴿ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ ونبأهم الغريب وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم بالمرور على إبراهيم فجاؤوه في صورة أضياف ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ ﴾ مجيبًا لهم ﴿ سَلَامٌ ﴾ عليكم ﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ فأحب أن تعرفوني بأنفسكم، ولم يعرفهم إلا بعد ذلك ولهذا ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ

﴾ ذهب سريعًا في خفية ليحضر لهم قراهم ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ. فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ وعرض عليهم الأكل فـ ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ حين رأى أيديهم لا تصل إليه ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ وأخبروه بما جاؤوا له ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ وهو إسحاق عليه السلام. فلما سمعت البشارة ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ ﴾ فرحة مستبشرة ﴿ فِي صَرَّةٍ ﴾ أي صيحة ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ وهذا من جنس ما يجري من النساء عند السرور ونحوه من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أي أنى لي الولد وقد بلغت من السن ما لا تلد معه النساء، ومع ذلك، فأنا عقيم، غير صالح رحمي للولادة أصلاً ﴿ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ أي الله الذي قدر ذلك وأمضاه، فلا عجب في قدرة الله تعالى ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ وسع كل شيء علمًا ﴿ قَالَ ﴾ لهم إبراهيم عليه السلام ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ ما شأنكم وما تريدون؟ لأنه استشعر أنهم رسل، أرسلهم الله لبعض الشئون المهمة ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ وهم قوم لوط، قد أشركوا بالله، وكذبوا رسولهم، وأتوا الفاحشة الشنعاء ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي معلمة، على كل حجر منها سمة صاحبه لأنهم أسرفوا وتجاوزوا الحد. فجعل إبراهيم يجادلهم في قوم لوط، لعل الله يدفع عنهم العذاب ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وهم بيت لوط عليه السلام، إلا امرأته، فإنها من المهلكين ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ يعتبرون بها ويعلمون، أن الله شديد العقاب، وأن رسله صادقون، مصدقون.

﴿ 38-40 ﴾ ﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾

﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ وما أرسله الله به إلى فرعون وملئه ﴿ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ بالآيات البينات للذين يخافون العذاب الأليم، فلما أتى موسى بذلك السلطان المبين ﴿ فَتَوَلَّى ﴾ فرعون ﴿ بِرُكْنِهِ ﴾ أي أعرض بجانبه عن الحق ﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ أي موسى ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي مذنب طاغ، عات على الله، فأخذه عزيز مقتدر.

﴿ 41-42 ﴾ ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾

﴿ وفِي عَادٍ ﴾ القبيلة المعروفة آية عظيمة ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ أي التي لا خير فيها، حين كذبوا نبيهم هودا عليه السلام ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ البالية. فالذي أهلكهم على قوتهم وبطشهم، دليل على كمال قوته واقتداره.

﴿ 43-45 ﴾ ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾

﴿ وَفِي ثَمُودَ ﴾ آية عظيمة، حين أرسل الله إليهم صالحًا عليه السلام، فكذبوه وعاندوه، وبعث الله له الناقة، آية مبصرة، فلم يزدهم ذلك إلا عتوًا ونفورًا ﴿ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ. فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ أي

الصيحة العظيمة المهلكة ﴿ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ إلى عقوبتهم بأعينهم ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ ﴾ ينجون به من العذاب ﴿ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴾ لأنفسهم.

﴿ 46 ﴾ ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ وكذلك ما فعل الله بقوم نوح، حين كذبوا نوحًا عليه السلام وفسقوا عن أمر الله ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ فأرسل الله عليهم السماء والأرض بالماء المنهمر، فأغرقهم الله تعالى عن آخرهم، ولم يبق من الكافرين ديارًا، وهذه عادة الله وسنته، فيمن عصاه.

﴿ 47-51 ﴾ ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ * وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا ﴾ أي خلقناها وأتقناها ﴿ بِأَيْدٍ ﴾ أي بقوة وقدرة عظيمة ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ لأرجائها وأنحائها، وإنا لموسعون أيضا على عبادنا بالرزق ﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا ﴾ جعلناها فراشًا للخلق، ومهدها أحسن مهاد ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ الذي مهد لعباده ما اقتضته حكمته ورحمته وإحسانه ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ صنفين ذكر وأنثى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ النعم الله التي أنعم بها عليكم ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ ثمّ أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا، إلى ما يحبه، ظاهرًا وباطنًا. وسمى الله الرجوع إليه فرارًا ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ منذر لكم من عذاب الله ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ هذا أصل الفرار إليه أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير الله ويخلص لربه العبادة والإنابة ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾.

﴿ 52-53 ﴾ ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾

﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ ﴾ هذه الأقوال ما زالت دأبًا وعادة للمجرمين المكذبين للرسل فما أرسل الله من رسول ﴿ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ إلا رماه قومه بالسحر أو الجنون ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ فهل هي أقوال تواصوا بها، ولقن بعضهم بعضًا بها ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ تشابهت قلوبهم بالكفر والطغيان، فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم؟ وهذا هو الواقع.

﴿ 54-55 ﴾ ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ * وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي لا تبال بهم ولا تؤاخذهم ﴿ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ في ذنبهم، وإنما عليك البلاغ، وقد بلغت ما أرسلت به ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فكل أمر ونهي من الشرع، فإنه من التذكير. والنوع الثاني من التذكير:

تذكير بما هو معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيذكرون بذلك. وأخبر الله أن الذكرى تنفع المؤمنين. وأما من ليس له معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير، فهذا لا ينفع تذكيره حتى يروا العذاب الأليم.

﴿ 56-58 ﴾ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها هي عبادته، المتضمنة لمعرفته ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴾ تعالى الله هو الغني المغني عن الحاجة إلى أحد. وإنما جميع الخلق فقراء إليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴾ أي كثير الرزق، الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها ﴿ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ الذي له القوة والقدرة كلها، فسبحان القوي المتين.

﴿ 59-60 ﴾ ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ وكذبوا محمدًا صلى الله عليه وسلم، من العذاب والنكال ﴿ ذَنُوبًا ﴾ أي نصيبًا وقسطًا ﴿ مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ مثل ما فعل بأصحابهم من أهل الظلم والتكذيب ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ بالعذاب، فإن سنة الله في الأمم واحدة، فكل مكذب يدوم على تكذيبه من غير توبة وإنابة، فإنه لا بد أن يقع عليه العذاب، ولو تأخر عنه مدة ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ وهو يوم القيامة الذي قد وعدوا فيه بأنواع العذاب والنكال، فلا مغيث لهم، ولا منقذ من عذاب الله تعالى.

مختصر تفسير سورة الطور

عدد آياتها 49
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-16 ﴾ ﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ * يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا * فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَالطُّورِ ﴾ يقسم تعالى بالطور الذي هو الجبل الذي كلم الله عليه نبيه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ﴿ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ يحتمل أن المراد به اللوح المحفوظ، الذي كتب الله به كل شيء، ويحتمل أن المراد به القرآن الكريم، الذي هو أفضل كتاب أنزله الله ﴿ فِي رَقٍّ ﴾ أي ورق ﴿ مَنْشُورٍ ﴾ أي مكتوب مسطر، ظاهر غير خفي ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ وهو البيت الذي فوق السماء السابعة، المعمور مدى الأوقات بالملائكة الكرام، الذي يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامة وقيل: إن البيت المعمور هو بيت الله الحرام المعمور بالطائفين والمصلين والذاكرين كل وقت ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ أي السماء، التي جعلها الله سقفا للمخلوقات ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ أي المملوء ماء، قد سجره الله ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض. وقيل إن المراد بالمسجور، الموقد الذي يوقد يوم القيامة، فيصير نارا تلظى ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ لا بد أن يقع، ولا يخلف الله وعده وقيله ﴿ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ يدفعه، لأن قدرة الله تعالى لا يغالبها مغالب ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ أي تدور السماء وتضطرب، وتدوم حركتها بانزعاج وعدم سكون ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ أي تزول عن أماكنها، وتسير كسير السحاب ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ كلمة جامعة لكل عقوبة وحزن وعذاب وخوف ﴿ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ الذين استحقوا الويل ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أي خوض في الباطل ولعب به. فعلومهم ضارة متضمنة للتكذيب بالحق، وأعمالهم أعمال أهل الجهل ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ أي يدفعون إليها دفعا ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ فاليوم ذوقوا عذاب الخلد ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ قيل لهم تقريعاً: أهذا سحر لا حقيقة له فقد رأيتموه، أم كنتم في الدنيا لا تبصرون بل كنتم جاهلين بهذا الأمر؟ ويحتمل أن هذا إشارة إلى ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الحق المبين، والصراط المستقيم أي: هذا الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم سحر أم عدم بصيرة بكم، حتى اشتبه عليكم الأمر ﴿ اصْلَوْهَا ﴾ ادخلوا النار على وجه تحيط بكم ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ لا يفيدكم الصبر على النار شيئا. وإنما فعل بهم ذلك بسبب كسبهم ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ 17-20 ﴾ ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ لربهم، الذين اتقوا سخطه وعذابه ﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ بساتين اكتست رياضها ﴿ وَنَعِيمٍ ﴾ وهذا شامل لنعيم القلب والروح والبدن ﴿ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ معجبين به، متمتعين على وجه الفرح والسرور بما أعطاهم الله من النعيم ﴿ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ فنجاهم من المرهوب، لما فعلوا ما أحبه الله، وجانبوا ما يسخطه ويأباه ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ مما تشتهيه أنفسكم ﴿ هَنِيئًا ﴾ متهنئين بتلك المآكل والمشارب ببهجة وحبور ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فقد نلتم ما نلتم بسبب أعمالكم الحسنة ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ الاتكاء هو الجلوس على وجه التمكن والراحة ﴿ عَلَى سُرُرٍ ﴾ أرائك مزينة ﴿ مَصْفُوفَةٍ ﴾ لكثرتها وحسن تنظيمها واجتماع أهلها وسرورهم ﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ ﴾ نساء جمعن جمال الصورة والأخلاق الفاضلة ﴿ عِينٍ ﴾ حسان الأعين، صفا بياضها وسوادها.

﴿ 21-28 ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ * وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ من تمام نعيم أهل الجنة أن ألحق الله بهم ذريتهم بسبب الإيمان الصادر من آبائهم، ومن باب أولى إذا تبعتهم ذريتهم بإيمانهم الصادر منهم أنفسهم ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ومع ذلك لا ينقص الله الآباء من أعمالهم شيئا. وربما توهم متوهم أن أهل النار كذلك يلحق الله بهم أبناءهم وذريتهم، أخبر أنه ليس حكم الدارين حكما واحدا، ومن عدله تعالى أن لا يعذب أحدا إلا بذنب ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ مرتهن بعمله، فلا تزر وازرة وزر أخرى. فهذا اعتراض من فوائده إزالة الوهم المذكور ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ ﴾ أي أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع ورزقنا العميم ﴿ بِفَاكِهَةٍ ﴾ بأصناف الفواكه اللذيذة الزائدة على ما به يتقوتون ﴿ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ من كل ما طلبوه واشتهته أنفسهم ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ أي تدور كاسات الرحيق والخمر عليهم، وتطوف عليهم الولدان المخلدون بأكواب وأباريق وكأس ﴿ لَا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ أي ليس في الجنة كلام لغو، وهو الذي لا فائدة فيه ﴿ وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ وهو الذي فيه إثم ومعصية ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ ﴾ أي خدم شباب ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴾ من حسنهم وبهائهم ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ عن أمور الدنيا وأحوالها ﴿ قَالُوا ﴾ في ذكر الذي أوصلهم إلى ما هم فيه من الحبرة والسرور ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ ﴾ أي في دار الدنيا ﴿ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أي خائفين وجلين، فتركنا من خوفه الذنوب ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ بالهداية والتوفيق ﴿ وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ أي العذاب الحار ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ دعاء العبادة ودعاء المسألة أي لم نزل نتقرب إليه بأنواع القربات ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ فمن بره بنا ورحمته إيانا، أنالنا رضاه والجنة، ووقانا سخطه والنار.

﴿ 29-43 ﴾ ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ * أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

﴿ فَذَكِّرْ ﴾ يأمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يذكر الناس، مسلمهم وكافرهم، لتقوم حجة الله على الظالمين، وقد نفى عنه كل نقص رموه به ﴿ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ أي منّه ولطفه ﴿ بِكَاهِنٍ ﴾ أي له رئي من الجن يأتيه بأخبار بعض الغيوب التي يضم إليها مائة كذبة ﴿ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ فاقد للعقل، بل أنت أكمل الناس عقلا، وأبعدهم عن الشياطين، وأعظمهم صدقا، وأجلهم وأكملهم ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ فيه تارة إنه ﴿ شَاعِرٌ ﴾ يقول الشعر، والذي جاء به شعر ﴿ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ أي ننتظر به الموت ﴿ قُلْ ﴾ لهم جوابا لهذا الكلام السخيف ﴿ تَرَبَّصُوا ﴾ أي انتظروا بي الموت ﴿ فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ نتربص بكم، أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، أو بأيدينا ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا ﴾ أهذا التكذيب لك وماقالوا هل صدر عن عقولهم وأحلامهم ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أم الذي حملهم على ذلك ظلمهم وطغيانهم؟ وهو الواقع ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ أي تقول محمد القرآن، وقاله من تلقاء نفسه ﴿ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فلو آمنوا، لم يقولوا ما قالوا ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ وأنكم لو اجتمعتم، أنتم والإنس والجن، لم تقدروا على معارضته والإتيان بمثله، فحينئذ أنتم بين أمرين: إما مؤمنون به، مهتدون بهديه، وإما معاندون متبعون لما علمتم من الباطل ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ إما أنهم وجدوا من غير إيجاد ولا موجد، أم هم الخالقون لأنفسهم ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ وهذا استفهام يدل على تقرير النفي أي: ما خلقوا السماوات والأرض فيكونوا شركاء لله. ولكن المكذبين ﴿ بَل لَا يُوقِنُونَ ﴾ ليس عندهم يقين يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ أي أعند هؤلاء المكذبين خزائن رحمة ربك، فلذلك حجروا على الله أن يعطي النبوة عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ ﴾ المتسلطون على خلق الله وملكه، بالقهر والغلبة ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ أي ألهم اطلاع على الغيب، واستماع له بين الملأ الأعلى، فيخبرون عن أمور لا يعلمها غيرهم ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ ﴾ المدعي لذلك ﴿ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ وأنى له ذلك ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ ﴾ كما زعمتم ﴿ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ فهل بعد هذا التنقص لرب العالمين نهاية ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ ﴾ يا أيها الرسول ﴿ أَجْرًا ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿ فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ ليس الأمر كذلك، بل أنت الحريص على تعليمهم، تبرعا ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ فيكونون قد اطلعوا على ما لم يطلع عليه رسول الله، فعارضوه وعاندوه بما عندهم من علم الغيب ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ ﴾ بقدحهم فيك وفيما جئتهم به ﴿ كَيْدًا ﴾ يبطلون به دينك ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ أي كيدهم في نحورهم، وقد نصر الله نبيه ودينه عليهم وخذلهم ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ ألهم إله يدعى ويرجى نفعه غير الله تعالى ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوحدانية والعبادة، وأن ما عليه المشركون هو الباطل، وأن الذي ينبغي أن يعبد ويصلى له ويسجد ويخلص له دعاء العبادة ودعاء المسألة، هو الله المألوه المعبود، كامل الأسماء والصفات، ذو الجلال والإكرام الواحد الأحد الفرد الصمد الكبير الحميد المجيد.

﴿ 44-46 ﴾ ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ * فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾

﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا ﴾ أي لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة كسف أي قطع كبار من العذاب ﴿ يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴾ أي هذا سحاب متراكم على العادة فلا يبالون بما رأوا من الآيات، وهؤلاء لا دواء لهم إلا العذاب ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ وهو يوم القيامة الذي يصيبهم فيه من العذاب والنكال، ما لا يوصف أمره ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ لا قليلا ولا كثيرا ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ ولا ينتصرون من عذاب الله.

﴿ 47-49 ﴾ ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ لما ذكرالله عذاب الظالمين في القيامة، أخبر أن لهم عذابا دون عذاب يوم القيامة وذلك شامل لعذاب الدنيا، ولعذاب البرزخ والقبر ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فلذلك أقاموا على ما يوجب العذاب، وشدة العقاب ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن لا يعبأ بهم شيئا، وأن يصبر لحكم ربه القدري والشرعي بلزومه والاستقامة عليه، ووعده الله بالكفاية بقوله ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ بمرأى منا وحفظ. وأمره أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادة ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي من الليل، ففيه الأمر بقيام الليل، أو حين تقوم إلى الصلوات الخمس، بدليل قوله ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ آخر الليل، ويدخل فيه صلاة الفجر، والله أعلم.

تم تفسير سورة والطور

والحمد لله

53

مختصر تفسير سورة النجم

عدد آياتها 62

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-18 ﴾ ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ يقسم تعالى بالنجم عند هويه أي سقوطه في الأفق عند إدبار الليل وإقبال النهار. وأقسم بالنجوم على صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الوحي الإلهي، لأن في ذلك مناسبة عجيبة، فإن الله تعالى جعل النجوم زينة للسماء، فكذلك الوحي وآثاره زينة للأرض. فلولا العلم الموروث عن الأنبياء، لكان الناس في ظلمة أشد من الليل البهيم. ﴿ مَا ضَلَّ ﴾ والمقسم عليه تنزيه الرسول صلى الله عليه وسلم عن الضلال في علمه. وقال ﴿ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ لينبههم على ما يعرفونه منه، من الصدق والهداية ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ ليس نطقه صادرا عن هوى نفسه ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ أي لا يتبع إلا ما أوحى الله إليه من الهدى والتقوى. ودل هذا على أن السنة وحي من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ عَلَّمَهُ ﴾ أي نزل بالوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام ﴿ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ شديد القوة الظاهرة والباطنة، قوي على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه، قوي على إيصال الوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ومنعه من اختلاس الشياطين له، أو إدخالهم فيه ما ليس منه، وهذا من حفظ الله لوحيه، أن أرسله مع هذا الرسول القوي الأمين ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أي قوة، وخلق حسن، وجمال ظاهر وباطن ﴿ فَاسْتَوَى ﴾ جبريل عليه السلام ﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ أي أفق السماء الذي هو أعلى من الأرض، فهو من الأرواح العلوية، التي لا تنالها الشياطين ولا يتمكنون من الوصول إليها ﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ جبريل من النبي صلى الله عليه وسلم لإيصال الوحي إليه ﴿ فَتَدَلَّى ﴾ عليه من الأفق الأعلى ﴿ فَكَانَ ﴾ في قربه منه ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ أي قدر قوسين، والقوس معروف ﴿ أَوْ أَدْنَى ﴾ أي أقرب من القوسين، وهذا يدل على كمال المباشرة للرسول صلى الله عليه وسلم بالرسالة، وأنه لا واسطة بينه وبين جبريل عليه السلام ﴿ فَأَوْحَى ﴾ الله بواسطة جبريل عليه السلام ﴿ إِلَى عَبْدِهِ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مَا أَوْحَى ﴾ أي الذي أوحاه إليه من الشرع العظيم ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ أي اتفق فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم ورؤيته على الوحي الذي أوحاه الله إليه، وتواطأ عليه سمعه وقلبه وبصره، وهذا دليل على كمال الوحي الذي أوحاه الله إليه، وأنه تلقاه منه تلقيا لا شك فيه ولا شبهة ولا ريب، فلم يكذب فؤاده ما رأى بصره، ولم يشك بذلك. ويحتمل أن المراد بذلك ما رأى صلى الله عليه

وسلم ليلة أسري به من آيات الله العظيمة، وأنه تيقنه حقا بقلبه ورؤيته، هذا هو الصحيح في تأويل الآية الكريمة. وقيل: إن المراد بذلك رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم لربه ليلة الإسراء، وتكليمه إياه، وهذا اختيار كثير من العلماء رحمهم الله، فأثبتوا بهذا رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم لربه في الدنيا، ولكن الصحيح القول الأول، وأن المراد به جبريل عليه السلام، كما يدل عليه السياق ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ وأن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى جبريل في صورته الأصلية التي هو عليها مرتين، مرة في الأفق الأعلى، تحت السماء الدنيا كما تقدم، والمرة الثانية فوق السماء السابعة ليلة أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ أي رأى محمد جبريل مرة أخرى، نازلا إليه ﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ وهي شجرة عظيمة جدا، فوق السماء السابعة، سميت سدرة المنتهى، لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينزل إليها ما ينزل من الله، من الوحي وغيره، أو لانتهاء علم الخلق إليها أي: لكونها فوق السماوات والأرض، فهي المنتهى في علوها أو لغير ذلك، والله أعلم. فرأى محمد صلى الله عليه وسلم جبريل في ذلك المكان، الذي هو محل الأرواح العلوية الزاكية الجميلة، التي لا يقربها شيطان ولا غيره من الأرواح الخبيثة ﴿ عِنْدَهَا ﴾ عند تلك الشجرة ﴿ جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾ أي الجنة الجامعة لكل نعيم، تأوي إليها الرغبات، وهذا دليل على أن الجنة في أعلى الأماكن، وفوق السماء السابعة ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ أي: يغشاها من أمر الله، شيء عظيم لا يعلم وصفه إلا الله عز وجل ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ ﴾ أي ما زاغ يمنة ولا يسرة عن مقصوده ﴿ وَمَا طَغَى ﴾ وما تجاوز البصر، وهذا كمال الأدب منه صلوات الله وسلامه عليه، أن قام مقاما أقامه الله فيه، ولم يقصر عنه ولا تجاوزه ولا حاد عنه ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ من الجنة والنار، وغير ذلك من الأمور التي رآها صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به.

﴿ 19-25 ﴾ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى * أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى * فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ هذه الأنداد التي سموها بهذه الأسماء، زعموا أنها مشتقة من أوصاف هي متصفة بها، فسموا "اللات" من "الإله" المستحق للعبادة، و"العزى" من "العزيز" و "مناة" من "المنان" إلحادا في أسماء الله وتجريا على الشرك به، وهذه أسماء متجردة عن المعاني، فكل من له أدنى مسكة من عقل، يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ﴾ أي أتجعلون لله البنات بزعمكم، ولكم البنون ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ أي ظالمة جائرة تقتضي تفضيل العبد المخلوق على الخالق. تعالى عن قولهم علوا كبيرا ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي من حجة وبرهان ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ وإنما دلهم على قولهم الظن والجهل وما تهواه أنفسهم من الشرك ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ يرشدهم في باب التوحيد والنبوة، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة من بعد البيان والبرهان. ولهذا أنكر تعالى على من زعم أنه يحصل له ما تمنى وهو كاذب في ذلك، فقال ﴿ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى. فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ فيعطي منهما من يشاء، ويمنع من يشاء، فليس الأمر تابعا لأمانيهم، ولا موافقا لأهوائهم.

﴿ 26 ﴾ ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾

﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ من الملائكة المقربين، وكرام الملائكة ﴿ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾ أي لا تفيد من دعاها وتعلق بها ورجاها ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ أي لا بد من اجتماع الشرطين: إذنه تعالى في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له. فالمشركون إذا لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين، وقد سدوا على أنفسهم رحمة أرحم الراحمين.

﴿ 27-30 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى * وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا * فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ فتجرأوا على ما تجرأوا عليه من الأقوال والأفعال المحادة لله ولرسوله ﴿ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى. وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ لا عن الله ولا عن رسوله ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ ذلك القول القبيح ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ فإن الحق لا بد فيه من اليقين ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ أمر الله رسوله بالإعراض عمن تولى عن ذكره، الذي هو الذكر الحكيم والقرآن العظيم ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ فسعيهم مقصور على الدنيا ولذاتها وشهواتها ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ هذا منتهى علمهم وغايته ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ والله تعالى أعلم بمن لا يستحق الهداية فيكله إلى نفسه ويخذله ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ويضع فضله حيث يعلم المحل اللائق به.

﴿ 31-32 ﴾ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ يخبر تعالى أنه مالك الملك، وأن جميع من في السماوات والأرض ملك لله، ينفذ فيهم قدره ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ من الكفر فما دونه من أعمال الشر بالعقوبة البليغة ﴿ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى خلق الله ﴿ بِالْحُسْنَى ﴾ أي بالحالة الحسنة في الدنيا والآخرة ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ المحرمات الكبار، كالزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، والقتل، ونحو ذلك من الذنوب العظيمة ﴿ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ وهي الذنوب الصغار التي لا يصر صاحبها عليها، فهي تدخل تحت مغفرة الله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ فلولا مغفرته لهلكت البلاد والعباد ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ أي هو تعالى أعلم بأحوالكم وما جبلكم عليه من الضعف، إذ كنتم في بطون أمهاتكم ولم يزل موجودا فيكم ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي تخبرون الناس بطهارتها على وجه التمدح ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ فإن التقوى محلها القلب والله هو المطلع عليه.

﴿ 33–47 ﴾ ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى * أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى * أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى * وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا *وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ﴾

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴾ قبح حالةً من أُمر بعبادة ربه وتوحيده، فتولى عن ذلك وأعرض عنه ﴿ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴾ فإن سمحت نفسه ببعض الشيء القليل، فإنه لا يستمر عليه، بل يبخل ويكدى ويمنع. طبعه عدم الثبوت على فعل المعروف ﴿ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴾ الغيب ويخبر به، أم هو متقول على الله ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ ﴾ هذا المدعي ﴿ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى. وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ أي قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع. وفي تلك الصحف أحكام كثيرة من أهمها ما ذكره الله بقوله ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى. وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ أي كل عامل له عمله الحسن والسيئ ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ في الآخرة فيميز حسنه من سيئه. لكن ليس فيها ما يدل على أنه لا ينتفع بسعي غيره ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ أي المستكمل لجميع العمل الحسن الخالص بالحسنى، والسيئ الخالص بالسوأى، والمشوب ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ إليه تنتهي الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ هو الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ هو المنفرد بالإيجاد والإعدام ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ ﴾ فسر الزوجين بقوله ﴿ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ وهذا اسم جنس شامل لجميع الحيوانات، فهو المنفرد بخلقها ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾ أوجد تلك الحيوانات من نطفة ماء مهين، ثم نماها وكملها، حتى بلغت ما بلغت. ولهذا استدل بالبداءة على الإعادة، فقال ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ﴾ فيعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم ليوم الميقات، ويجازيهم على الحسنات والسيئات.

﴿ 48–62 ﴾ ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى * هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى * أَزِفَتِ الْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّـهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ * فَاسْجُدُوا لِلَّـهِ وَاعْبُدُوا ﴾

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى ﴾ العباد بتيسير أمورهم ﴿ وَأَقْنَى ﴾ أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها، ما يصيرون به مقتنين لها ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ وهي النجم المعروف بالشعرى العبور، المسماة بالمرزم. وخصها الله بالذكر لأن هذا النجم مما عبد في الجاهلية، فأخبر تعالى أن جنس ما يعبده المشركون مربوب مدبر مخلوق ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴾ وهم قوم هود عليه السلام حين كذبوا هودا ﴿ وَثَمُودَ ﴾ قوم صالح عليه السلام كذبوه ﴿ فَمَا أَبْقَى ﴾ منهم أحدا، بل أهلكهم الله عن آخرهم ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴾ من هؤلاء الأمم، فأهلكهم الله وأغرقهم في اليم ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ ﴾ وهم قوم لوط عليه السلام ﴿ أَهْوَى ﴾ أصابهم الله بعذاب ما عذب به أحدا من العالمين ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾ غشيها من العذاب ما لا يمكن وصفه ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ فبأي نعم الله وفضله تشك أيها الإنسان ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى ﴾ أي هذا الرسول القرشي الهاشمي محمد بن عبد الله، ليس ببدع من الرسل، فلأي شيء تنكر رسالته ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴾ أي قربت القيامة، ودنا وقتها، وبانت علاماتها

﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أي إذا أتت القيامة وجاءهم العذاب الموعود به ﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ ﴾ وهو خير الكلام وأفضله وأشرفه ﴿ تَعْجَبُونَ ﴾ هذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم ﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ أي: تستعملون الضحك والاستهزاء به، مع أن الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتبكي له العيون ﴿ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴾ غافلون عنه، لاهون عن تدبره ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ والسجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد ﴿ وَاعْبُدُوا ﴾ أمر بالعبادة الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

تم تفسير سورة النجم

والحمد لله الذي لا نحصي ثناء عليه

بل هو كما أثنى على نفسه

وفوق ما يثني عليه عباده

وصلى الله على محمد وسلم تسليما كثيرا

مختصر تفسير سورة القمر

عدد آياتها 55

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-5 ﴾ ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ وهي القيامة اقتربت وآن أوانها، ومع ذلك لم يزالوا مكذبين بها ﴿ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم أنه لما طلب منه المكذبون أن يريهم من خوارق العادات ما يدل على صدقه، أشار صلى الله عليه وسلم إلى القمر بإذن الله تعالى، فانشق فلقتين، فلقة على جبل أبي قبيس، وفلقة على جبل قعيقعان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية الكبرى ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ ولم يرد الله بهم خيرا، ففزعوا إلى بهتهم وطغيانهم ﴿ وَيَقُولُوا سِحْرٌ ﴾ سحرنا محمد. لكنه وإن قدر على سحركم، لا يقدر أن يسحر من ليس مشاهدا مثلكم، فسألوا كل من قدم، فأخبرهم بوقوع ذلك، فقالوا إن السحر ﴿ مُسْتَمِرٌّ ﴾ سحرنا محمد وسحر غيرنا ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ وإنما قصدهم اتباع الهوى ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴾ أي إلى الآن لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه، وسيصير الأمر إلى آخره، فالمصدق يتقلب في جنات النعيم والمكذب يتقلب في سخط الله وعذابه ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ ﴾ أي الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظاهرة ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أي زاجر يزجرهم عن غيهم وضلالهم، وذلك ﴿ حِكْمَةٌ ﴾ منه تعالى ﴿ بَالِغَةٌ ﴾ أي لتقوم حجته على المخالفين ﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾.

﴿ 6-8 ﴾ ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ وانتظر بهم يوما عظيما ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ﴾ إسرافيل عليه السلام ﴿ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ ﴾ إلى أمر فظيع تنكره الخليقة، ينفخ إسرافيل نفخة يخرج بها الأموات من قبورهم لموقف القيامة ﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ ﴾ من الهول والفزع ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ وهي القبور ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ من كثرتهم، وروجان بعضهم ببعض ﴿ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴾ مبثوث في الأرض ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ يأمرهم بالحضور لموقف القيامة فيلبون دعوته، ويسرعون إلى إجابته ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ ﴾ الذين قد حضر عذابهم ﴿ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ مفهوم ذلك أنه يسير سهل على المؤمنين.

﴿ 9–17 ﴾ ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ أول رسول بعثه الله إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ فامتنعوا من ترك الشرك ﴿ وَقَالُوا ﴾ إنه ﴿ مَجْنُونٌ ﴾ لزعمهم أن ما جاء به نوح عليه الصلاة والسلام لا يصدر إلا من المجانين ﴿ وَازْدُجِرَ ﴾ أي زجره قومه وعنفوه ﴿ فَدَعَا ﴾ نوح ﴿ رَبَّهُ ﴾ وقال ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ ﴾ لا قدرة لي على الانتصار منهم ﴿ فَانْتَصِرْ ﴾ اللهم لي منهم. فأجاب الله سؤاله، وانتصر له من قومه ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ فجعلت السماء ينزل منها من الماء شيء خارق للعادة متتابع ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ وتفجرت الأرض كلها، حتى التنور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه، فضلا عن كونه منبعا للماء، لأنه موضع النار ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ ﴾ أي ماء السماء والأرض ﴿ عَلَى أَمْرٍ ﴾ من الله له بذلك ﴿ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي قد كتبه الله في الأزل وقضاه، عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ أي ونجينا عبدنا نوحا على السفينة ذات الألواح والدسر أي المسامير التي قد سمرت بها ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي تجري بنوح برعاية من الله وحفظ ﴿ جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ أي فعلنا بنوح ما فعلنا من النجاة من الغرق العام، جزاء له حيث كذبه قومه وكفروا به. ويحتمل أن المراد: أنا أهلكنا قوم نوح، جزاء لهم على كفرهم، وهذا متوجه على قراءة من قرأها بفتح الكاف ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً ﴾ أي: ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آية يتذكر بها المتذكرون، على أن من عصى الرسل وعاندهم أهلكه الله بعقاب عام شديد. أو أن الضمير يعود إلى السفينة وجنسها، وأن أصل صنعتها تعليم من الله لعبده نوح عليه السلام، ثم أبقى الله تعالى صنعتها وجنسها بين الناس ليدل لك على رحمته بخلقه ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ أي فهل من متذكر للآيات ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أي فكيف رأيت أيها المخاطب عذاب الله الأليم وإنذاره الذي لا يبقي لأحد عليه حجة ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ أي ولقد يسرنا وسهلنا هذا القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر.

﴿ 18–22 ﴾ ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ القبيلة المعروفة باليمن، أرسل الله إليهم هودا عليه السلام فكذبوه ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ قال تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ شديدة ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ شديد العذاب والشقاء عليهم ﴿ مُسْتَمِرٍّ ﴾ عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ ﴾ من شدتها، فترفعهم إلى جو السماء، ثم تدفعهم بالأرض فتهلكهم، فيصبحون ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ أي كأن جثثهم بعد هلاكهم مثل جذوع النخل الخاوي الذي سقط على الأرض ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ كان والله العذاب الأليم ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ كرر ذلك تعالى رحمة بعباده وعناية بهم، حيث دعاهم إلى ما يصلح دنياهم وأخراهم.

﴿ 23–32 ﴾ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ * إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ *وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾ كذبت ثمود وهم القبيلة المعروفة في أرض الحجر، نبيهم صالحا عليه السلام، فكذبوه واستكبروا عليه، وقالوا ﴿ أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ ﴾ أي كيف نتبع بشرا، لا ملكا منا ﴿ إِنَّا إِذًا ﴾ إن اتبعناه ﴿ لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ لضالون أشقياء، وهذا الكلام من ضلالهم وشقائهم فإنهم أنفوا أن يتبعوا رسولا من البشر، ولم يأنفوا أن يكونوا عابدين للشجر والحجر والصور ﴿ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ أي كيف يخصه الله من بيننا وينزل عليه الذكر؟ ولهذا حكموا عليه بهذا الحكم الجائر ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ أي كثير الكذب والشر ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴾ لا جرم عاقبهم الله حين اشتد طغيانهم ﴿ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ ﴾ آية من آيات الله، ونعمة يحتلبون من ضرعها ما يكفيهم أجمعين ﴿ فِتْنَةً لَهُمْ ﴾ أي اختبارا وامتحانا ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ ﴾ اصبر على دعوتك إياهم ﴿ وَاصْطَبِرْ ﴾ وارتقب ما يحل بهم، أو ارتقب هل يؤمنون أو يكفرون ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ وأخبرهم أن موردهم الذي يستعذبونه قسمة بينهم وبين الناقة، لها شرب يوم ولهم شرب يوم آخر معلوم ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾ أي يحضره من كان قسمته، ويحظر على من ليس بقسمة له ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ ﴾ الذي باشر عقرها وهو أشقى القبيلة ﴿ فَتَعَاطَى ﴾ أي انقاد لما أمروه به من عقرها ﴿ فَعَقَرَ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ كان أشد عذاب: أرسل الله عليهم صيحة ورجفة أهلكتهم عن آخرهم، ونجى الله صالحا ومن آمن معه ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾.

﴿ 33–40 ﴾ ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ﴾ لوطا عليه السلام ﴿ بِالنُّذُرِ ﴾ دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن الشرك والفاحشة ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ تتبعهم بحجارة من سجيل منضود ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ ونجى الله لوطا وأهله من الكرب العظيم ﴿ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ جزاء لهم على شكرهم لربهم ﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ فكذبوه واستمروا على شركهم وقبائحهم ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ ﴾ حين سمع بهم قوم لوط بالملائكة الذين جاءوه بصورة أضياف، جاؤوهم مسرعين وراودوه عنهم ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ فأمر الله جبريل عليه السلام فطمس أعينهم بجناحه ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ لعنهم الله وقبحهم ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾.

﴿ 41-55 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ * أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ * إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ فرعون وقومه ﴿ النُّذُرُ ﴾ فأرسل الله إليهم موسى الكليم، وأيده بالآيات الباهرات ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا ﴾ فكذبوا بآيات الله كلها ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ فأغرقهم في اليم هو وجنوده. والمراد من ذكر هذه القصص تحذير الناس والمكذبين لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ ﴾ هؤلاء الذين كذبوا أفضل الرسل، خير من أولئك المكذبين الذين ذكر الله هلاكهم ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ أم أعطاكم الله عهدا وميثاقا في الكتب التي أنزلها على الأنبياء، فتعتقدون حينئذ أنكم الناجون بإخبار الله ووعده؟ وهذا غير ممكن عقلا وشرعا ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ فلم يبق إلا أن يكون بهم قوة ينتصرون بها ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴾ قال تعالى مبينا لضعفهم وأنهم مهزومون ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ فوقع كما أخبر، ونصر الله دينه ونبيه وحزبه المؤمنين ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ ومع ذلك فلهم موعد يجمع به أولهم وآخرهم ﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ أعظم وأشق ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الذين أكثروا من فعل الذنوب العظيمة من الشرك وغيره من المعاصي ﴿ فِي ضَلَالٍ ﴾ عن العلم والعمل ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ ويوم القيامة في العذاب الأليم والنار التي تتسعر بهم ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ التي هي أشرف الأعضاء، وألمها أشد من ألم غيرها ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ ذوقوا ألم النار ولهبها ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ خلقها الله تعالى وحده ولا مشارك له في خلقها، وخلقها بقضاء سبق به علمه، بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف، وذلك على الله يسير ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ فإذا أراد شيئا قال له كن فيكون كلمح البصر كما أراد ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ﴾ من الأمم السابقين الذين عملوا كما عملتم ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ أي متذكر يعلم أن سنة الله في الأولين والآخرين واحدة ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ أي كل ما فعلوه من خير وشر مكتوب عليهم في الكتب القدرية ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾ أي مسطر مكتوب، وهذا حقيقة القضاء والقدر، وأن جميع الأشياء كلها قد علمها الله تعالى وسطرها عنده في اللوح المحفوظ ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ لله بفعل أوامره وترك نواهيه ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ في جنات النعيم التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ فلا تسأل بعد هذا عما يعطيهم ربهم من كرامته وجوده، ويمدهم به من إحسانه ومنته. جعلنا الله منهم، ولا حرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا.

تم تفسير سورة القمر

ولله الحمد والشكر

55

مختصر تفسير سورة الرحمن

عدد آياتها 78

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-13 ﴾ ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ * وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ هذه السورة الكريمة الجليلة، افتتحها باسمه "الرَّحْمَنُ" الدال على سعة رحمته. ثم ذكر ما يدل على رحمته وأثرها الذي أوصله الله إلى عباده ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ أي علم عباده ألفاظه ومعانيه ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ أتقن البديع تعالى البديع خلقه أيّ إتقان، وميزه على سائر الحيوانات بأن ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ أي: التبيين عما في ضميره، وهذا شامل للتعليم النطقي والتعليم الخطي ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ خلق الله الشمس والقمر، وسخرهما يجريان بحساب وتقدير مقدر ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ أي نجوم السماء وأشجار الأرض تعرف ربها وتسجد له، وتنقاد لما سخرها له من مصالح عباده ومنافعهم ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ للمخلوقات الأرضية ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ أي العدل بين العباد في الأقوال والأفعال. ويدخل فيه الميزان المعروف والمكيال والمقادير والمساحات والحقائق التي يفصل بها بين المخلوقات ويقام بها العدل بينهم ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ لئلا تتجاوزوا الحد في الميزان ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ اجعلوه قائما بالعدل ﴿ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ لا تنقصوه وتعملوا بضده، وهو الجور والظلم والطغيان ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا ﴾ الله، على ما كانت عليه من الكثافة ﴿ لِلْأَنَامِ ﴾ للخلق ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ وهي جميع الأشجار التي تثمر ﴿ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾ ذات الوعاء الذي ينفلق عن القنوان التي تخرج شيئا فشيئا حتى تتم ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ﴾ ذو الساق الذي يداس، فينتفع بتبنه للأنعام وغيرها ﴿ وَالرَّيْحَانُ ﴾ يحتمل أن المراد بذلك جميع الأرزاق التي يأكلها الآدميون، ويحتمل أن المراد الريحان المعروف، وأن الله امتن على عباده بما يسره في الأرض من أنواع الروائح الطيبة. ولما ذكر جملة كثيرة من نعمه التي تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطاب للثقلين، الإنس والجن، قررهم تعالى بنعمه، فقال ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي فبأي نعم الله الدينية والدنيوية تكذبان؟ وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم هذه السورة، فما مر بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد، فهذا الذي ينبغي للعبد إذا تليت عليه نعم الله وآلاؤه، أن يقر بها ويشكر.

﴿ 14-16 ﴾ ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴾ أبا الإنس وهو آدم عليه السلام ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ من طين له صلصلة وصوت يشبه صوت الفخار الذي طبخ على النار ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ ﴾ أي أبا الجن، وهو إبليس اللعين ﴿ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ أي من لهب النار الصافي، أو الذي قد خالطه الدخان. ولما بين خلق الثقلين ومادة ذلك وكان ذلك منة منه تعالى على عباده قال ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

﴿ 17-18 ﴾ ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ هو تعالى رب كل ما أشرقت عليه الشمس والقمر والكواكب النيرة، وكل ما غربت عليه، فهي تحت تدبيره وربوبيته، وثناهما هنا لإرادة العموم مشرقي الشمس شتاء وصيفا، ومغربها كذلك ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ تأتي هذه الآية بعد كل جنس ونوع من نعمه، لينبه الثقلين لشكره.

﴿ 19-21 ﴾ ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ البحر العذب والبحر المالح، فهما يلتقيان كلاهما، ويختلطان ويمتزجان ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ ولكن الله تعالى جعل بينهما برزخا من الأرض، حتى لا يبغي أحدهما على الآخر ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

﴿ 24-25 ﴾ ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِي الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِي الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ وسخر تعالى لعباده السفن الجواري، فتكون من كبرها وعظمها كالأعلام، وهي الجبال العظيمة، فيركبها الناس، ويحملون عليها، وقد حفظها حافظ السماوات والأرض، وهذه من نعم الله الجليلة، فلذلك قال ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

﴿ 26-28 ﴾ ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا ﴾ كل من على الأرض من إنس وجن ودواب وسائر المخلوقات ﴿ فَانٍ ﴾ يموت ويبيد ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ الذي لا يموت ﴿ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ذو العظمة والكبرياء والمجد ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

﴿ 29-30 ﴾ ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

﴿ يَسْأَلُهُ ﴾ هو الغني بذاته ﴿ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ جميع مخلوقاته يسألونه جميع حوائجهم، وهو تعالى ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ يغني فقيرا، ويجبر كسيرا، ويعطي قوما، ويمنع آخرين، ويميت ويحيي، ويرفع ويخفض،

لا يشغله شأن عن شأن ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

﴿ 31-32 ﴾ ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

﴿ سَنَفْرُغُ لكم أيها الثقلان ﴾ أي سنفرغ لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم التي عملتموها في دار الدنيا، بعد أن تمت هذه الخليقة وأراد تعالى أن ينفذ فيهم أحكام الجزاء، وفرغ حينئذ لتنفيذ هذه الأحكام، التي جاء وقته ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾.

﴿ 33 ﴾ ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ جمعهم الله في موقف القيامة ﴿ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي تجدون منفذا مسلكا تخرجون به عن ملك الله وسلطانه ﴿ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ لا تخرجون عنه إلا بقوة وتسلط منكم، وكمال قدرة، وأنى لهم ذلك، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

﴿ 35-36 ﴾ ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا ﴾ في ذلك الموقف العظيم ﴿ شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ ﴾ يرسل عليكما لهب صاف من النار ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ وهو اللهب الذي خالطه الدخان. والمعنى أن هذين الأمرين الفظيعين يرسلان عليكما يا معشر الجن والإنس ﴿ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴾ لا بناصر من أنفسكم، ولا بأحد ينصركم من دون الله. ولما كان تخويفه لعباده نعمة منه عليهم، وسوطا يسوقهم به إلى أعلى المطالب امتن عليهم ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

﴿ 37- 40 ﴾ ﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ ﴾ يوم القيامة من شدة الأهوال ﴿ فَكَانَتْ ﴾ من شدة الخوف ﴿ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ كالمهل والرصاص المذاب ونحوه ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ سؤال استعلام بما وقع، لأنه تعالى عالم الغيب والشهادة والماضي والمستقبل. وإنما يسألهم تعالى سؤال توبيخ وتقرير بما وقع منهم، وهو أعلم به منهم، ولكنه تعالى يريد أن تظهر للخلق حجته البالغة، وحكمته الجليلة يجازي العباد بما علمه من أحوالهم ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

﴿ 41-42 ﴾ ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ وقد جعل لأهل الخير والشر يوم القيامة علامات يعرفون بها ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي

﴿ وَالْأَقْدَامِ ﴾ فيؤخذ بنواصي المجرمين وأقدامهم، فيلقون في النار ويسحبون فيها ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

﴿ 43-45 ﴾ ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ ﴾ يقال للمكذبين بالوعد والوعيد ﴿ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ فليذوقوا من عذابها ما هو جزاء لتكذيبهم ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا ﴾ بين أطباق الجحيم ولهبها ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ أي ماء حار جدا قد انتهى حره، وزمهرير قد اشتد برده وقره ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

﴿ 46-65 ﴾ ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ وقيامه عليه، فترك ما نهى عنه، وفعل ما أمره به، له ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ إحدى الجنتين جزاء على ترك المنهيات، والأخرى على فعل الطاعات ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ومن أوصاف تلك الجنتين أنهما ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ فيهما من ألوان النعيم الظاهر والباطن، أو جمع فن، أي صنف، فهما ذواتا أنواع النعيم وأصنافه ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فِيهِمَا ﴾ تلك الجنتين ﴿ عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ يفجرونها على ما يريدون ويشتهون ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ ﴾ من جميع أصناف الفواكه ﴿ زَوْجَانِ ﴾ أي صنفان، كل صنف له لذة ولون ليس للنوع الآخر ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ هذه صفة فرش أهل الجنة وجلوسهم عليها، وأنهم متكئون عليها، أي جلوس تمكن واستقرار. وتلك الفرش بطائنها التي تلي الأرض منها، من إستبرق، وهو أحسن الحرير وأفخره، فكيف بظواهرها التي تلي بشرتهم ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. وَجَنَى ﴾ الثمر المستوي ﴿ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ قريب التناول، يناله القائم والقاعد والمضطجع ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ قد قصرن طرفهن على أزواجهن، من حسنهم وجمالهم، وكمال محبتهن لهم، وقصرن أيضا طرف أزواجهن عليهن، من حسنهن وجمالهن ولذة وصالهن ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ لم ينلهن قبلهم أحد من الإنس والجن ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ وذلك لصفائهن وجمال منظرهن وبهائهن ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع عبيده، إلا أن يحسن إليه بالثواب الجزيل ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ[1] ﴾

[1] وهاتان الجنتان الأخيرتان دون الجنتين الأوليين، كما نص الله على ذلك بقوله: ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ وكما وصف الأوليين بعدة أوصاف لم يصف بها الأخريين، فقال في الأوليين: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ وفي الأخريين: ﴿ عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ ومن المعلوم الفرق بين الجارية والنضاخة. وقال في الأوليين ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ ولم يقل ذلك في الأخريين. وقال في الأوليين: ﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ وفي الأخريين ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ وقد علم ما بين الوصفين من التفاوت. وقال في الأوليين: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ ولم يقل ذلك في الأخيرتين، بل: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى

من فضة بنيانهما وآنيتهما وحليتهما وما فيهما لأصحاب اليمين ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وتلك الجنتان ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ أي سوداوان من شدة الخضرة ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

﴿66 –78﴾ ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ فوارتان ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ من جميع أصناف الفواكه ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فِيهِنَّ ﴾ أي في الجنات كلها ﴿ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ أي خيرات الأخلاق حسان الأوجه ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ أي محبوسات في خيام اللؤلؤ، ولا ينفي ذلك خروجهن في البساتين ورياض الجنة ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ أي أصحاب هاتين الجنتين، متكأهم على الرفرف الأخضر، وهي الفرش التي فوق المجالس العالية، التي قد زادت على مجالسهم ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ ﴾ نسبة لكل منسوج نسجا حسنا فاخرا ﴿ حِسَانٍ ﴾ لحسن المنظر، ونعومة الملمس ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ﴾ تعاظم وكثر خيره ﴿ ذِي الْجَلَالِ ﴾ له الجلال الباهر والمجد الكامل ﴿ وَالْإِكْرَامِ ﴾ لأوليائه.

تم تفسير سورة الرحمن

ولله الحمد والشكر

والثناء الحسن.

رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ < وقال في الأولين، في وصف نسائهم وأزواجهم: ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ وقال في الأخريين: ﴿ حور مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ وقد علم التفاوت بين ذلك. وقال في الأوليين ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ فدل ذلك أن الأوليين جزاء المحسنين، ولم يقل ذلك في الأخريين.ومجرد تقديم الأوليين على الأخريين، يدل على فضلهما. فبهذه الأوجه يعرف فضل الأوليين على الأخريين، وأنهما معدتان للمقربين من الأنبياء، والصديقين، وخواص عباد الله الصالحين، وأن الأخريين معدتان لعموم المؤمنين، وفي كل من الجنات لا يرى أحد أحدا أحسن حالا منه، ولا أعلى من نعيمه الذي هو فيه.

56

مختصر تفسير سورة الواقعة

عدد آياتها 96

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-12 ﴾ ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا * وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ وهي القيامة لا بد من وقوعها ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ لا شك فيها ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ خافضة لأناس في أسفل سافلين، رافعة لأناس في أعلى عليين، أو خفضت بصوتها فأسمعت القريب، ورفعت فأسمعت البعيد ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴾ حركت واضطربت ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾ فتتت ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴾ فأصبحت الأرض ليس عليها جبل ولا معلم ﴿ وَكُنْتُمْ ﴾ أيها الخلق ﴿ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ أي انقسمتم ثلاث فرق بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ تعظيم لشأنهم، وتفخيم لأحوالهم ﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ أي الشمال ﴿ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ تهويل لحالهم ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ السابقون في الدنيا إلى الخيرات، هم السابقون في الآخرة لدخول الجنات. أولئك الذين هذا وصفهم، المقربون عند الله في جنات النعيم، في أعلى عليين التي لا منزلة فوقها.

﴿ 13-26 ﴾ ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾

﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ وهؤلاء المذكورون جماعة كثيرون من المتقدمين من هذه الأمة وغيرهم ﴿ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ والمقربون هم خواص الخلق ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴾ أي مرمولة بالزينة التي لا يعلمها إلا الله تعالى ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا ﴾ أي على تلك السرر، جلوس تمكن وطمأنينة ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ وجه كل منهم إلى وجه صاحبه، من صفاء قلوبهم، وحسن أدبهم، وتقابل قلوبهم ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ يدور على أهل الجنة لخدمة وقضاء حوائجهم ﴿ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾ صغار الأسنان، مخلوقون للبقاء والخلد، لا يهرمون ولا يتغيرون. ويدورون عليهم شرابهم ﴿ بِأَكْوَابٍ ﴾ بآنية لا عرى لها ﴿ وَأَبَارِيقَ ﴾ الأواني التي لها عرى ﴿ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ أي من خمر لذيذ

المشرب، لا آفة فيها ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ أي لا تصدعهم رؤوسهم كما تصدع خمرة الدنيا رأس شاربها ﴿ وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ لا تنزف عقولهم، ولا تذهب أحلامهم منها. فجميع ما في الجنة من أنواع النعيم الموجود جنسه في الدنيا، لا يوجد في الجنة فيه آفة ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ أي مهما تخيروا، حصل لهم على أكمل وجه وأحسنه ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ من كل صنف من الطيور يشتهونه ﴿ وَحُورٌ ﴾ الحوراء: التي في عينها كحل وحسن ﴿ عِينٌ ﴾ حسان الأعين وضخامها ﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ ﴾ الأبيض الرطب الصافي البهي ﴿ الْمَكْنُونِ ﴾ المستور، لا عيب فيه بوجه من الوجوه ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فكما حسنت منهم الأعمال، أحسن الله لهم الجزاء ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ لا يسمعون في جنات النعيم كلاما يلغى، ولا يكون فيه فائدة، ولا كلاما يؤثم صاحبه ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ إلا كلاما طيبا، وذلك لأنها دار الطيبين، ولا يكون فيها إلا كل طيب. نسأل الله من فضله.

﴿ 27- 40 ﴾ ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ أي شأنهم عظيم ﴿ فِي سِدْرٍ ﴾ وللسدر من الخواص: الظل الظليل وراحة الجسم فيه ﴿ مَخْضُودٍ ﴾ مقطوع ما فيه من الشوك والأغصان الرديئة ﴿ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴾ والطلح[1] شجر كبار يكون بالبادية، تنضد أغصانه من الثمر اللذيذ الشهي ﴿ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴾ كثير من العيون والمياه المتدفقة ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ. لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ أي ليست بمنزلة فاكهة الدنيا بل هي على الدوام موجودة، وجناها قريب يتناوله العبد على أي حال يكون ﴿ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴾ مرفوعة فوق الأسرة ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴾ إنا أنشأنا نساء أهل الجنة نشأة كاملة لا تقبل الفناء ﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ وصف البكارة ملازم لهن في جميع الأحوال ﴿ عُرُبًا ﴾ العروب هي المرأة المتحببة إلى بعلها بحسن لفظها، وحسن هيئتها ودلالها وجمالها ﴿ أَتْرَابًا ﴾ على سن واحدة في نهاية سن الشباب ﴿ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ معدات لهم مهيئات ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ أي هذا القسم من أصحاب اليمين عدد كثير من الأولين، وعدد كثير من الآخرين.

﴿ 41-48 ﴾ ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ أصحاب النار والأعمال المشئومة ﴿ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ ذكر الله لهم من العقاب ما هم حقيقون به ﴿ فِي سَمُومٍ ﴾ أي ريح من حر نار جهنم، يأخذ بأنفاسهم ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ أي ماء حار يقطع أمعاءهم ﴿ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴾ لهب نار يختلط بدخان ﴿ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ لا برد فيه ولا كرم، والمقصود أن هناك الهم والغم، والحزن والشر ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ ألهاهم الأمل عن إحسان العمل، فهذا هو الترف الذي ذمهم

[1] ذكر مفسرون أنه الموز (م)

الله عليه ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ ﴾ يفعلون الذنوب الكبار ولا يتوبون منها ولا يندمون عليها ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ أي كيف نبعث بعد موتنا وقد بلينا، فكنا ترابا وعظاما.

﴿ 49-56 ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾

﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ والآخرين. لمجموعون إلى ميقات يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ أي قل إن متقدم الخلق ومتأخرهم، الجميع سيبعثهم الله ويجمعهم لميقات يوم معلوم ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ ﴾ عن طريق الهدى، التابعون لطريق الردى ﴿ الْمُكَذِّبُونَ ﴾ بالرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الحق والوعد والوعيد ﴿ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ﴾ وهو أقبح الأشجار وأنتنها ريحا ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ والذي أوجب لهم أكلها -مع ما هي عليه من الشناعة- الجوع المفرط. هذا الطعام الذي يدفعون به الجوع، وهو الذي لا يسمن ولا يغني من جوع ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾ يشربون على هذا الطعام من الماء الحميم الذي يغلي في البطون ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ شرب الإبل الهيم أي العطاش، أو أن الهيم داء يصيب الإبل، لا تروى معه ﴿ هَذَا ﴾ الطعام والشراب ﴿ نُزُلُهُمْ ﴾ أي ضيافتهم ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ وهي الضيافة التي قدموها لأنفسهم.

﴿ 57-62 ﴾ ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ نحن الذين أوجدناكم بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا، ولهذا وبخهم على عدم تصديقهم بالبعث، وهم يشاهدون ما هو أعظم منه وأبلغ ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ أفرأيتم ابتداء خلقتكم من المني الذي تمنون ﴿ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ فهل أنتم خالقون ذلك المني وما ينشأ منه ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ولهذا أحالهم الله تعالى على الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الأخرى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أن القادر على ابتداء خلقكم، قادر على إعادتكم.

﴿ 63-67 ﴾ ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ وهذا امتنان منه على عباده حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرث للزروع والثمار ﴿ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ أم الله الذي انفرد بذلك وحده، وأنعم به عليكم ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ ﴾ أي الزرع المحروث وما فيه من الثمار ﴿ حُطَامًا ﴾ لا نفع فيه ولا رزق ﴿ فَظَلْتُمْ ﴾ فصرتم بعد أن تعبتم فيه وأنفقتم

النفقات الكثيرة ﴿ تَفَكَّهُونَ ﴾ أي تندمون فتقولون ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ أي إنا قد نقصنا وأصابتنا مصيبة اجتاحتنا. ثم تعرفون بعد ذلك من أين أتيتم، وبأي سبب دهيتم، فتقولون ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ فاحمدوا الله تعالى حيث زرعه الله لكم، ثم أبقاه وكمله لكم، ولم يرسل عليه من الآفات ما به تحرمون نفعه وخيره.

﴿ 68-70 ﴾ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ لما ذكر تعالى نعمته على عباده بالطعام، ذكر نعمته عليهم بالشراب العذب الذي منه يشربون ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ وأنه الذي أنزله من المزن، وهو السحاب والمطر، ومن نعمته أن جعله عذبا فراتا تسيغه النفوس و ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾ لجعله ملحا أجاجا مكروها للنفوس ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ الله تعالى على ما أنعم به عليكم.

﴿ 71-74 ﴾ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ قررهم تعالى بالنار التي أوجدها في الأشجار ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ وأن الخلق لا يقدرون أن ينشئوا شجرها، وإنما الله تعالى الذي أنشأها من الشجر الأخضر ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ للعباد بنعمة ربهم، وتذكرة بنار جهنم التي أعدها الله للعاصين ﴿ وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾ أي المنتفعين أو المسافرين لأن الدنيا كلها دار سفر، والعبد من حين ولد فهو مسافر إلى ربه، فهذه النار، جعلها الله متاعا للمسافرين في هذه الدار، وتذكرة لهم بدار القرار ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أي: نزه ربك العظيم، كامل الأسماء والصفات.

﴿ 75-87 ﴾ ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ * فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ أقسم تعالى بالنجوم ومواقعها أي مساقطها في مغاربها، وما يحدث الله في تلك الأوقات، من الحوادث الدالة على عظمته وكبريائه وتوحيده ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ وإنما كان القسم عظيما، لأن في النجوم وجريانها، وسقوطها عند مغاربها، آيات وعبرا لا يمكن حصرها ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ وأما المقسم عليه فهو إثبات القرآن، وأنه حق لا ريب فيه، كريم كثير الخير ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ مستور عن أعين الخلق، أي إن هذا القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، معظم عند الله وعند ملائكته في الملأ الأعلى. ويحتمل أن المراد بالكتاب المكنون، هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة الذين ينزلهم الله بوحيه وتنزيله وأن المراد بذلك أنه مستور عن الشياطين، لا قدرة لهم على تغييره، ولا الزيادة والنقص منه واستراقه ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ أي

لا يمس القرآن إلا الملائكة الكرام، الذين طهرهم الله تعالى من الآفات، والذنوب والعيوب. ولهذا قيل أن الآية خبر بمعنى النهي أي: لا يمس القرآن إلا طاهر ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي إن هذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة هو تنزيل رب العالمين ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴾ أفبهذا الكتاب العظيم والذكر الحكيم أنتم تدهنون أي تختفون وتدلسون خوفا من الخلق وألسنتهم؟ هذا لا ينبغي ولا يليق. وأما القرآن الكريم، فهو الحق الذي لا يداهن به ولا يختفى، بل يصدع به ويعلن ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي تجعلون مقابلة منة الله عليكم بالرزق التكذيب والكفر لنعمة الله، فتقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وتضيفون النعمة لغير مسديها ومولیها، فهلا شكرتم الله تعالى على إحسانه، إذ أنزله الله إليكم ليزيدكم من فضله، فإن التكذيب والكفر داع لرفع النعم وحلول النقم ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ. وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ أي فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم، وأنتم تنظرون المحتضر في هذه الحالة، والحال أنا نحن أقرب إليه منكم، بعلمنا وملائكتنا، ولكن لا تبصرون ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ أي فهلا إذا كنتم تزعمون، أنكم غير مبعوثين ولا محاسبين ومجازين ﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ الروح إلى بدنها ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وأنتم تقرون أنكم عاجزون عن ردها إلى موضعها، فحينئذ إما أن تقروا بالحق الذي جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم، وإما أن تعاندوا وتعلم حالكم وسوء مآلكم.

﴿ 88-96 ﴾ ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ[2] ﴾ الميت ﴿ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ وهم الذين أدوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات ﴿ فَـ ﴾ لهم ﴿ رَوْحٌ ﴾ أي راحة وطمأنينة ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ وهو اسم جامع لكل لذة بدنية، من أنواع المآكل والمشارب وغيرهما، وقيل: الريحان هو الطيب المعروف، فيكون تعبيرا بنوع الشيء عن جنسه العام ﴿ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ جامعة للأمرين كليهما، فيبشر المقربون عند الاحتضار بهذه البشارة ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات ﴿ فَـ ﴾ يقال لأحدهم ﴿ سَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أي سلام حاصل لك من إخوانك أصحاب اليمين أو يقال له: سلام لك من الآفات والبليات والعذاب، لأنك من أصحاب اليمين ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴾ أي الذين كذبوا بالحق وضلوا عن الهدى ﴿ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أي ضيافتهم يوم قدومهم على ربهم تصلية الجحيم التي تحيط بهم، وتصل إلى أفئدتهم ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ الذي ذكره الله تعالى، من جزاء العباد بأعمالهم ﴿ لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أي الذي لا شك فيه ولا مرية، بل هو الحق الثابت ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ فسبحان ربنا العظيم، وتعالى وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا.

والحمد لله رب العالمين

حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه

تم تفسير سورة الواقعة

[2] ذكر الله تعالى أحوال الطوائف الثلاث: المقربين، وأصحاب اليمين، والمكذبين الضالين، في أول السورة في دار القرار. ثم ذكر أحوالهم في آخرها عند الاحتضار والموت

57

مختصر تفسير سورة الحديد

عدد آياتها 29

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-6 ﴾ ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ جميع ما في السماوات والأرض تسبح بحمد ربها، وتنزهه عما لا يليق بجلاله ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ فيه بيان عموم عزته وقهره للأشياء كلها ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ وعموم حكمته في خلقه وأمره. ثم أخبر عن عموم ملكه ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ هو الخالق لذلك الرازق ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ المدبر لها بقدرته ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ ﴾ الذي ليس قبله شيء ﴿ وَالْآخِرُ ﴾ الذي ليس بعده شيء ﴿ وَالظَّاهِرُ ﴾ الذي ليس فوقه شيء ﴿ وَالْبَاطِنُ ﴾ الذي ليس دونه شيء﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أحاط علمه بالظواهر والبواطن ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ استواء يليق بجلاله، فوق جميع خلقه ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ﴾ من حب وحيوان ومطر، وغير ذلك ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من نبات وشجر وحيوان وغير ذلك ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من الملائكة والأقدار والأرزاق ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ من الملائكة والأرواح والأدعية والأعمال وغير ذلك ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ معية علم واطلاع ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال، وما صدرت عنه تلك الأعمال ﴿ لَهُ ملك السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ملكا وخلقا وعبيدا، يتصرف فيهم بما شاءه من أوامره ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ من الأعمال والعمال ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ أي يدخل الليل على النهار، فيغشيهم الليل بظلامه، فيسكنون ويهدأون، ثم يدخل النهار على الليل، فيتحرك العباد، ويقومون إلى مصالحهم ومعايشهم، فتبارك الله رب العالمين ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي بما يكون في صدور العالمين.

﴿ 7-11 ﴾ ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ * وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ يأمر تعالى عباده بالإيمان به وبرسوله وبما جاء به، وبالنفقة في سبيله، من الأموال التي جعلها الله في أيديهم واستخلفهم عليها ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا ﴾ أي جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله، والنفقة في سبيله ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ أعظمه رضا ربهم ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي وما الذي يمنعكم من الإيمان، والرسول محمد صلى الله عليه وسلم يدعوكم، فهذا مما يوجب التلبية والإجابة للحق الذي جاء به، وقد أخذ عليكم العهد والميثاق بالإيمان إن كنتم مؤمنين ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ ظاهرات تدل على أنه حق اليقين ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ ﴾ بإرسال الرسول إليكم، وما أنزله الله على يده من الكتاب والحكمة ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ من ظلمات الجهل والكفر، إلى نور العلم والإيمان ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ. وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّـهِ ﴾ وما الذي يمنعكم من النفقة في سبيل الله، وهي طرق الخير كلها ﴿ وَ ﴾ الحال أنه ليس لكم شيء، بل ﴿ لله مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فجميع الأموال ستنتقل من أيديكم أو تنقلون عنها، ثم يعود الملك إلى مالكه تبارك وتعالى ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ لأنه أسلم قبل الفتح[1] ﴿ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ﴾ ممن لم يسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك. ولما كان التفضيل بين الأمور قد يتوهم منه نقص وقدح في المفضول، احترز تعالى من هذا بقوله ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ أي: الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده، كلهم وعده الله الجنة، وهذا يدل على فضل الصحابة كلهم، رضي الله عنهم، حيث شهد الله لهم بالإيمان، ووعدهم الجنة ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فيجازي كلا منكم على ما يعلمه من عمل ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ وهي النفقة الخالصة لوجه الله، من مال حلال طيب. ومن كرم الله تعالى أن سماه قرضا، والمال ماله والعبد عبده ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ ووعد بالمضاعفة عليه أضعافا كثيرة يوم القيامة.

﴿ 12-15 ﴾ ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ * فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ إذا كان يوم القيامة، وصار الناس في الظلمة، فحينئذ ترى المؤمنين والمؤمنات، يمشون بأيمانهم ونورهم في ذلك الموقف الهائل الصعب، كل على قدر إيمانه، ويبشرون عند ذلك بأعظم بشارة، فيقال ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ

[1] المراد بالفتح هنا هو فتح الحديبية، حين جرى من الصلح بين الرسول وبين قريش مما هو أعظم الفتوحات التي حصل بها نشر الإسلام، واختلاط المسلمين بالكافرين، والدعوة إلى الدين من غير معارض، فدخل الناس من ذلك الوقت في دين الله أفواجا، واعتز الإسلام عزا عظيما، وكان المسلمون قبل هذا الفتح لا يقدرون على الدعوة إلى الدين في غير البقعة التي أسلم أهلها، كالمدينة وتوابعها، وكان من أسلم من أهل مكة وغيرها من ديار المشركين يؤذى ويخاف، فلذلك كان من أسلم قبل الفتح وأنفق وقاتل، أعظم درجة وأجرا وثوابا ممن لم يسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك، كما هو مقتضى الحكمة، ولذلك كان السابقون وفضلاء الصحابة، غالبهم أسلم قبل الفتح.

الْعَظِيمُ. يَوْمَ ﴾ فإذا رأى المنافقون نور المؤمنين يمشون به وهم قد طفئ نورهم وبقوا في الظلمات حائرين ﴿ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قالوا للمؤمنين ﴿ انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ أي أمهلونا لننال من نوركم ما نمشي به، لننجو من العذاب، فـ ﴿ قِيلَ ﴾ لهم ﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ والحال أن ذلك من المحالات ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ ﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿ بِسُورٍ ﴾ أي حائط منيع ﴿ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ وهو الذي يلي المؤمنين ﴿ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ وهو الذي يلي المنافقين ﴿ يُنَادُونَهُمْ ﴾ فينادي المنافقون المؤمنين تضرعا وترحما ﴿ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ في الدنيا نقول: لا إله إلا الله ونصلي ونصوم ونجاهد ونعمل مثل عملكم ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ كنتم معنا في الدنيا، وعملتم في الظاهر مثل عملنا، ولكن أعمالكم أعمال المنافقين، من غير إيمان ولا نية صادقة صالحة ﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ ﴾ أي شككتم في خبر الله الذي لا يقبل شكا ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ الباطلة، حيث تمنيتم أن تنالوا منال المؤمنين، وأنتم غير موقنين ﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أي حتى جاءكم الموت وأنتم بتلك الحال الذميمة ﴿ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ وهو الشيطان، الذي زين لكم الكفر والريب، فاطمأننتم به، ووثقتم بوعده، وصدقتم خبره ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فلو افتديتم بمثل الأرض ذهبا ومثله معه، لما تقبل منكم ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أي مستقركم ﴿ هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾ التي تتولاكم وتضمكم إليها ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ النار.

﴿ 16-17 ﴾ ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ألم يجئ الوقت الذي تلين به قلوبهم ﴿ أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الذي هو القرآن، وتنقاد لأوامره وزواجره ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ﴾ ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه، ولا ثبتوا، بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ فالقلوب تحتاج في كل وقت إلى أن تذكر بما أنزل له الله ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ والذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الأموات بعد موتهم، والذي أحيا الأرض بعد موتها بماء المطر قادر على أن يحيي القلوب الميتة بما أنزله من الحق على رسوله، وهذه الآية تدل على أنه لا عقل لمن لم يهتد بآيات الله ولم ينقد لشرائع الله.

﴿ 18-19 ﴾ ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ *وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ ﴾ بالتشديد أي الذين أكثروا من الصدقات الشرعية، والنفقات المرضية ﴿ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ بأن قدموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون مدخرا لهم عند ربهم ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ الحسنة

بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ وهو ما أعده الله لهم في الجنة، مما لا تعلمه النفوس ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ والإيمان عند أهل السنة يشمل جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة. فالذين جمعوا بين هذه الأمور ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ الذين كملوا مراتب الإيمان والعمل الصالح ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ الذين قاتلوا في سبيل الله وبذلوا أنفسهم وأموالهم فقتلوا ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله.

﴿ 20-21 ﴾ ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ * سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا، تلعب بها الأبدان وتلهو بها القلوب ﴿ وَزِينَةٌ ﴾ أي تزين ﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ كل واحد من أهلها يريد مفاخرة الآخر ﴿ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ كل يريد أن يكون هو الكاثر لغيره في المال والولد ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ نزل على الأرض ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ أخذت الأرض زخرفها وأعجب نباته الكفار ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾ ويبس النبات ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ في نار جهنم وأهوالها لمن كانت الدنيا غايته ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ للسيئات ﴿ وَرِضْوَانٌ ﴾ من الله لمن سعى للآخرة سعيها ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ يتمتع به ولا يغتر به إلا أهل العقول الضعيفة الذين يغرهم بالله الغرور ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ بالسعي بأسباب المغفرة من التوبة النصوح والبعد عن الذنوب ومظانها والعمل الصالح ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ والإيمان بالله ورسله يدخل فيه أصول الدين وفروعها ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ ﴾ بالثواب الجزيل والأجر العظيم ﴿ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ من أعظم منته على عباده وفضله ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الذي لا يحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده

﴿ 22-24 ﴾ ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق من خير وشر ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ كتبت في اللوح المحفوظ ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ لكنه على الله يسير ﴿ لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ وأخبر الله عباده بذلك فلا يحزنوا على ما فاتهم ولا يفرحوا بما آتاهم الله ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ متكبر فخور بنعم الله، ينسبها إلى نفسه ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ وهو منع الحقوق الواجبة ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ فلم يكفهم بخلهم، حتى أمروا الناس بذلك ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ عن طاعة الله فلا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئا ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ

﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ له ملك السماوات والأرض، وهو الذي أغنى عباده ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ له كل اسم حسن، يستحق أن يحمد عليه ويعظم.

﴿ 25-27 ﴾ ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ وهي الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ما جاءوا به وحقيته ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ وهو العدل في الأقوال والأفعال وذلك ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ قياما بدين الله، وتحصيلا لمصالحهم، وهذا دليل على أن الرسل متفقون في القيام بالقسط، وإن اختلفت أنواع العدل بحسب الأزمنة والأحوال ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ من آلات الحرب، كالسلاح والدروع وغير ذلك ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أي ليقيم تعالى الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد، فيتبين من ينصره وينصر رسله في حال الغيب ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ لا يعجزه شيء، ومن قوته وعزته أن أنزل الحديد وأنه قادر على الانتصار من أعدائه. وقرن تعالى في هذا الموضع بين الكتاب والحديد، لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ أي الأنبياء المتقدمين والمتأخرين كلهم من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام، وكذلك الكتب كلها نزلت على ذرية هذين النبيين الكريمين ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أي ممن أرسلنا إليهم الرسل ﴿ مُهْتَدٍ ﴾ بدعوتهم ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أي خارجون عن طاعة الله والرسل والأنبياء ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا ﴾ أي أتبعنا ﴿ عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ خص الله عيسى عليه السلام؛ لأن السياق مع النصارى، الذين يزعمون اتباع عيسى عليه السلام ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ﴾ الذي هو من كتب الله الفاضلة ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ ولهذا كان النصارى ألين من غيرهم قلوبا، حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ والرهبانية: العبادة، فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة، ووظفوها على أنفسهم، والتزموا لوازم من تلقاء أنفسهم، قصدهم بذلك رضا الله تعالى، ومع ذلك ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أي ما قاموا بها ولا أدوا حقوقها، فقصروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم. فهذه الحال هي الغالب من أحوالهم ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ أي الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، مع إيمانهم بعيسى، كل أعطاه الله على حسب إيمانه ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾.

﴿ 28-29 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يحتمل أنه خطاب لأهل الكتاب الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ يأمرهم أن يعملوا بأن يتقوا الله فيتركوا معاصيه، ويؤمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وأنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم الله ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي نصيبين من الأجر نصيب على إيمانهم بالأنبياء الأقدمين، ونصيب على إيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم. أو أن التثنية المراد بها تكرار الإيتاء مرة بعد أخرى. ويحتمل أيضاً أن يكون الأمر عاما يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم، وهذا الظاهر، وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى الذي يدخل فيه جميع الدين ظاهره وباطنه أصوله وفروعه ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ أي يعطيكم علما وهدى ونورا تمشون به في ظلمات الجهل، ويغفر لكم السيئات ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ فلا يستكثر هذا الثواب على فضل ذي الفضل العظيم ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ أي بينا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيمانا عاما واتقى الله وآمن برسوله، لأجل أن أهل الكتاب لا يحجرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، فيقولون أنه لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا اليهود أَوْ النَصَارَى، فأخبر الله تعالى أن المؤمنين برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، المتقين لله، لهم كفلان من رحمته، ونور، ومغفرة، رغما على أنوف أهل الكتاب ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ممن اقتضت حكمته تعالى أن يؤتيه من فضله ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الذي لا يقادر قدره.

تم تفسير سورة الحديد

ولله الحمد والمنة

والحمد لله

مختصر تفسير سورة المجادلة

عدد آياتها 22

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-4 ﴾ ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ أي تخاطبكما[1] فيما بينكما ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ وهذا إخبار عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالأمور الدقيقة والجليلة، وفي ضمن ذلك الإشارة بأن الله تعالى سيزيل بلواها ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ المظاهرة من الزوجة: أن يقول الرجل لزوجته: "أنت علي كظهر أمي" أو غيرها من محارمه، أو "أنت علي حرام" وكان المعتاد عندهم في هذا لفظ "الظهر" ولهذا سماه الله "ظهارا" فقال ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ أي كيف يشبهون أزواجهم بأمهاتهم اللاتي ولدنهم ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ ﴾ شنيعا ﴿ وَزُورًا ﴾ أي كذبا ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ عمن صدر منه بعض المخالفات، فتداركها بالتوبة النصوح ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ اختلف العلماء في معنى العود، فقيل: معناه العزم على جماعِ مَن ظاهر منها. وقيل: معناه الوطء حقيقةً. وعلى كل من القولين ﴿ فَـ ﴾ كفارة العود ﴿ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ سالمة من العيوب المضرة بالعمل[2] ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ أي يلزم الزوج أن يترك وطء زوجته التي ظاهر منها حتى يكفر برقبة ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ الحكم الذي ذكرناه لكم ﴿ تُوعَظُونَ بِهِ ﴾ أي يبين لكم حكمه مع الترهيب المقرون به. فالذي يريد أن يظاهر، إذا ذكر أنه يجب عليه عتق رقبة كف نفسه عنه ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فيجازي كل عامل بعمله ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ﴾ رقبة يعتقها بأن لم يجدها أو لم يجد ثمنها ﴿ فَـ ﴾ عليه ﴿ صِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ﴾ الصيام ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ إما بأن يطعمهم من قوت بلده ما يكفيهم، كما هو قول كثير من المفسرين، وإما بأن يطعم كل مسكين مُدَّبُرٍّ أو نصف صاع من غيره مما يجزي في الفطرة، كما هو قول طائفة أخرى ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ الحكم الذي بيناه ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ

[1] نزلت هذه الآيات الكريمات في رجل من الأنصار اشتكته زوجته إلى الله، وجادلته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حرمها على نفسه، بعد الصحبة الطويلة، والأولاد، وكان هو رجلا شيخا كبيرا، فشكت حالها وحاله إلى الله وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكررت ذلك، وأبدت فيه وأعادت.

[2] تم تحديد هذا الشرط في آية أخرى.

﴿ وَرَسُولِهِ ﴾ وذلك بالتزام هذا الحكم وغيره من الأحكام، والعمل به ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ التي تمنع من الوقوع فيها، فيجب أن لا تتعدى ولا يقصر عنها[3] ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

﴿ 5 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ مخالفتهما ومعصيتهما، كمحادة الله ورسوله بالكفر، ومعاداة أولياء الله ﴿ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي أذلوا وأهينوا كما فعل بمن قبلهم ﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ فمن اتبعها وعمل عليها فهو من المهتدين الفائزين ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ بها ﴿ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ كما تكبروا عن آيات الله أهانهم الله وأذلهم.

﴿ 6-7 ﴾ ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ فيجازيهم بأعمالهم ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ من خير وشر لأنه علم ذلك ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ ﴾ وكتبه في اللوح المحفوظ، وأمر الملائكة الكرام الحفظة بكتابته ﴿ وَنَسُوهُ ﴾ العاملون قد نسوا ما عملوه ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ بالظواهر والسرائر ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أخبر عن سعة علمه وإحاطته بما في السماوات والأرض من دقيق وجليل، وأنه ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ﴾ والمراد بهذه المعية معية العلم والإحاطة بما تناجوا به وأسروه فيما بينهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

﴿ 8-9 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

---

[3] وفي هذه الآيات، عدة أحكام: منها: لطف الله بعباده واعتناؤه بهم، حيث ذكر شكوى هذه المرأة المصابة، وأزالها ورفع عنها البلوى، بل رفع البلوى بحكمه العام لكل من ابتلي بمثل هذه القضية.
ومنها: أن الظهار مختص بتحريم الزوجة، لأن الله قال { مِنْ نِسَائِهِمْ } فلو حرم أمته، لم يكن ذلك ظهارا، تجب فيه كفارة اليمين فقط.
ومنها: أن الظهار محرم، لأن الله سماه منكرا من القول وزورا.
ومنها: أنه يكره للرجل أن ينادي زوجته ويسميها باسم محارمه، كقوله { يا أمي } { يا أختي } ونحوه، لأن ذلك يشبه المحرم.
ومنها: أن الكفارة إنما تجب بالعود لما قال المظاهر، على اختلاف القولين السابقين، لا بمجرد الظهار.
ومنها: أنه يجزئ في كفارة الرقبة، الصغير والكبير، والذكر والأنثى، لإطلاق الآية في ذلك.
ومنها: أنه يجب إخراجها إن كانت عتقا أو صياما قبل المسيس، كما قيده الله. بخلاف كفارة الإطعام، فإنه يجوز المسيس والوطء في أثنائها.
ومنها: أنه لعل الحكمة في وجوب الكفارة قبل المسيس، أن ذلك أدعى لإخراجها، فإنه إذا اشتاق إلى الجماع، وعلم أنه لا يمكن من ذلك إلا بعد الكفارة، بادر لإخراجها.
ومنها: أنه لا بد من إطعام ستين مسكينا، فلو جمع طعام ستين مسكينا، ودفعها لواحد أو أكثر من ذلك، دون الستين لم يجز ذلك، لأن الله قال: { فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا }

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ﴾ وهي التناجي بين اثنين فأكثر، قد تكون في الخير أو في الشر. فأمر الله تعالى المؤمنين أن يتناجوا بالبر والتقوى. فالمؤمن لا تجده مناجيا ومتحدثا إلا بما يقربه من الله ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ ﴾ أي الفاجرون الذين نهوا عن النجوى بالشر ﴿ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ كالمنافقين الذين هذا دأبهم وحالهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ أي يسيئون الأدب[4] معك في تحيتهم لك ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي يسرون في أنفسهم ﴿ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ ومعنى ذلك أنهم يستدلون بعدم تعجيل العقوبة عليهم، أن ما يقولون غير محذور ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أي تكفيهم جهنم التي جمعت كل شقاء وعذاب تحيط بهم ﴿ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ مصيرهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

﴿ 10 ﴾ ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى ﴾ تناجي أعداء المؤمنين بالمؤمنين، بالمكر والخديعة ﴿ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ الذي كيده ضعيف ﴿ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ هذا غاية المكر ومقصوده ﴿ وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا ﴾ فإن ذلك لا يضر المؤمنين ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ إلا شيء قدره الله وقضا ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فإن من توكل على الله كفاه وتولى أمر دينه ودنياه.

﴿ 11 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ هذا تأديب من الله لعباده المؤمنين إذا اجتمعوا في مجلس و ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ ﴾ فإن من الأدب أن يفسحوا له ﴿ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ فإن من فسح فسح الله له، ومن وسع لأخيه، وسع الله عليه ﴿ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا ﴾ أي ارتفعوا وتنحوا عن مجالسكم لحاجة تعرض ﴿ فَانْشُزُوا ﴾ أي فبادروا للقيام لتحصيل تلك المصلحة، فإن القيام بمثل هذه الأمور من العلم والإيمان ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ والله تعالى يرفع أهل العلم والإيمان درجات بحسب ما خصهم الله به، من العلم والإيمان ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فيجازي كل عامل بعمله.

﴿ 12-13 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

---

[4] وهؤلاء المذكورون إما أناس من المنافقين يظهرون الإيمان، ويخاطبون الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب الذي يوهمون أنهم أرادوا به خيرا وهم كذبة في ذلك، وإما أناس من أهل الكتاب، الذين إذا سلموا على النبي صلى الله عليه وسلم، قالوا: "السام عليك يا محمد" يعنون بذلك الموت.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ يأمر تعالى المؤمنين بالصدقة، أمام مناجاة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم تأديبا لهم وتعليما، وتعظيما للرسول صلى الله عليه وسلم، فإن ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ أي بذلك يكثر خيركم وأجركم، وتحصل لكم الطهارة من الأدناس. فإنه إذا أمر بالصدقة بين يدي مناجاته صار هذا ميزانا لمن كان حريصا على الخير والعلم، فلا يبالي بالصدقة. أما من مقصوده مجرد كثرة الكلام، فينكف بذلك عن الذي يشق على الرسول. هذا في الواجد للصدقة ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا ﴾ الصدقة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أباح المناجاة بدون تقديم صدقة لا يقدر عليها ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ ثم لما رأى تبارك وتعالى مشقة الصدقات عليهم عند كل مناجاة سهل الأمر عليهم ولم يؤاخذهم لأن هذا الحكم ليس مقصودا لنفسه، وإنما المقصود هو الأدب مع الرسول والإكرام له، وأمرهم تعالى أن يقوموا بالمأمورات الكبار المقصودة بنفسها ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ أي لم يهن عليكم تقديم الصدقة، ولا يكفي هذا، فإنه ليس من شرط الأمر أن يكون هينا على العبد، ولهذا قيده بقوله ﴿ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي عفا لكم عن ذلك ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ بأركانها وشروطها ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ المفروضة ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وهذا أشمل ما يكون من الأوامر. والعبرة في ذلك على الإخلاص والإحسان ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فيعلم تعالى أعمالهم، فيجازيهم على حسب علمه بما في صدورهم.

﴿ 14-19 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ * اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال المنافقين الذين يتولون الكافرين ممن غضب الله عليهم ﴿ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ فليسوا مؤمنين لأن باطنهم مع الكفار، ولا مع الكفار لأن ظاهرهم مع المؤمنين ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يحلفون أنهم مؤمنون، وهم يعلمون أنهم ليسوا مؤمنين ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فجزاء هؤلاء الفجرة الكذبة أن الله أعد لهم عذابا شديدا ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ أي ترسا ووقاية، يتقون بها من لوم الله ورسوله والمؤمنين ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ استكبروا عن الإيمان بالله والانقياد لآياته فأهانهم بالعذاب السرمدي ﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ فلا تدفع عنهم شيئا من العذاب، ولا تحصل لهم قسطا من الثواب ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ الملازمون لها ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ لا يخرجون عنها ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ يوم القيامة ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ ﴾ حلفوا لله ﴿ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ كما حلفوا للمؤمنين ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾ غرتهم عقائدهم الباطلة حتى ظنوا أنهم على شيء يعتد به ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ والكذب لا يروج على عالم الغيب والشهادة ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ وهذا الذي جرى عليهم من استحواذ الشيطان الذي استولى عليهم، وزين لهم أعمالهم، وأنساهم ذكر الله ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الذين خسروا دينهم ودنياهم وأنفسهم وأهليهم.

﴿ 20-21 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ هذا وعيد لمن حاد الله ورسوله بالكفر والمعاصي أنه مخذول مذلول ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ ووعد لمن آمن به وبرسله، أن لهم الفتح والغلبة في الدنيا والآخرة ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ فإنه من الصادق الذي لا يعجزه شيء يريده.

﴿ 22 ﴾ ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فلا يكون العبد مؤمنا بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا كان عاملا على محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ ولو كان أقرب الناس إليه ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ رسمه وثبته وغرسه غرسا لا يتزلزل، ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك ﴿ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ قواهم الله بوحيه ومعونته ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ لهم الحياة الطيبة في هذه الدار ولهم جنات النعيم في دار القرار ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ يحل الله عليهم رضوانه ويرضون عن ربهم ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية، ولا فوقه نهاية.

تم تفسير سورة المجادلة

بحمد الله وعونه وتسديده

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على محمد وسلم تسليما

59

مختصر تفسير سورة الحشر

عدد آياتها 24

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-3 ﴾ ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ * وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ افتتح تعالى هذه السورة[1] بالإخبار أن جميع من في السماوات والأرض تسبح بحمد ربها ﴿ وَهُوَ

[1] هذه السورة تسمى ﴿سورة بني النضير﴾ وهم طائفة كبيرة من اليهود في جانب المدينة وقت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، كفروا به في جملة من كفر من اليهود، وهادنهم مع سائر طوائف جيرانه اليهود. وقد خرج إليهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد وقعة بدر بستة أشهر أو نحوها، وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس هاهنا حتى نقضي حاجتك، فخلا بعضهم ببعض، وسول لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم، فتآمروا بقتله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحى فيصعد فيلقيها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا، فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليخبرن بما هممتم به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه، وجاء الوحي على الفور إليه من ربه، بما هموا به، فنهض مسرعا، فتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه، فقالوا: نهضت ولم نشعر بك، فأخبرهم بما همت يهود به. وبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أن اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم عشرا، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه". فأقاموا أياما يتجهزون، وأرسل إليهم المنافق عبد الله بن أبي بن سلول: "أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان". وطمع رئيسهم حيي بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك. فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء. فأقاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم ابن أبي وحلفاؤهم من غطفان، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقطع نخلهم وحرق. فأرسلوا إليه: نحن نخرج من المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم، وذراريهم، وأن لهم ما حملت إبلهم إلا السلاح، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، الأموال والسلاح. وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم على يد رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فجلوا إلى خيبر، ودلت

﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الذي قد قهر كل شيء ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في خلقه وأمره ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ نصر الله رسوله صلى الله عليه وسلم على الذين كفروا من بني النضير حين غدروا برسوله فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ ﴾ أيها المسلمون ﴿ أَنْ يَخْرُجُوا ﴾ من ديارهم لحصانتها ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ ﴾ أعجبوا بها وحسبوا أنهم لا يقدر عليها أحد ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ وقدر الله تعالى وراء ذلك كله ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ من الأمر والباب الذي لم يخطر ببالهم أن يؤتوا منه ﴿ وَقَذَفَ ﴾ تعالى ﴿ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ وهو الخوف الشديد، وجند الله الأكبر الذي لا ينفع معه عدد ولا عدة ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وذلك أنهم صالحوا النبي صلى الله عليه وسلم على أن لهم ما حملت الإبل، فنقضوا لذلك كثيرا من سقوفهم التي استحسنوها، وسلطوا المؤمنين بسبب بغيهم على إخراب ديارهم وهدم حصونهم، فهم الذين جنوا على أنفسهم ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ البصائر النافذة، فإن في هذا معتبرا يعرف به صنع الله تعالى في المعاندين للحق حين جاءهم أمر الله. وتدل هذه الآية على الأمر بالاعتبار وقياس الشيء على مثله ﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾ فلولا أنه كتب عليهم الجلاء الذي أصابهم وقضاه عليهم، لكان لهم شأن آخر من عذاب الدنيا ونكالها، ولكن لهم ما أعد الله لهم من العذاب في الآخرة أعظم.

الآية الكريمة أن لهم حشرا وجلاء غير هذا، فقد وقع حين أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم من خيبر، ثم عمر رضي الله عنه، أخرج بقيتهم منها.

وكانت بنو النضير، خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يخمسها، لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، وأجلاهم إلى خيبر وفيهم حيي بن أخطب كبيرهم، واستولى على أرضهم وديارهم، وقبض السلاح، فوجد من السلاح خمسين درعا، وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفا، هذا حاصل قصتهم كما ذكرها أهل السير.

﴿ 4-7 ﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّـهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّـهَ فَإِنَّ اللَّـهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّـهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ * وَمَا أَفَاءَ اللَّـهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ اللَّـهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّـهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَّا أَفَاءَ اللَّـهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّـهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّـهَ إِنَّ اللَّـهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وعادوهما وحاربوهما، وسعوا في معصيتهما. وهذه عادته وسنته فيمن شاقه ﴿ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ولما زعم بنو النضير أن قطع النخيل من الفساد ولاموا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوصلوا إلى الطعن بالمسلمين، أخبر تعالى ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ﴾ اسم يشمل سائر النخيل على أصح الاحتمالات وأولاها ﴿ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّـهِ ﴾ أن قطعه أو إبقاءهم إياه هو بإذنه تعالى وأمره ﴿ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ حيث سلطكم على قطع نخلهم وتحريقها، ليكون ذلك نكالا لهم، وذلا يعرف به عجزهم التام، فما قدروا على استنقاذ نخلهم الذي هو مادة قوتهم ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ ﴾ الفيء في اصطلاح الفقهاء هو ما أخذ من مال الكفار بحق، من غير قتال ﴿ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ أي من بنو النضير ﴿ فـ ﴾ إنكم يا معشر المسلمين ﴿ ما أَوْجَفْتُمْ ﴾ أي ما أجلبتم وحشدتم ﴿ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ أي لم تتعبوا بتحصيلها بل قذف الله في قلوبهم الرعب، فأتتكم صفوا عفوا ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ

عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من تمام قدرته أنه لا يتعزز من دونه قوي ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ عموما، سواء أفاء الله في وقت رسوله أو بعده، فيقسم خمسة أقسام ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ يصرف في مصالح المسلمين ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى ﴾ من لا أب له ولم يبلغ ﴿ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ الغرباء المنقطع بهم في غير أوطانهم. وإنما قدر الله هذا التقدير، وحصر الفيء في هؤلاء المعينين لـ ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً ﴾ أي مدوالة واختصاصا ﴿ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ ولما حصل لغيرهم من العاجزين منه شيء، وفي ذلك من الفساد ما لا يعلمه إلا الله.
وقد أمر الله بالقاعدة الكلية والأصل العام ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ وهذا شامل لأصول الدين وفروعه ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ على من ترك التقوى، وآثر اتباع الهوى.

﴿ 8-9 ﴾ ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّـهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ أُولَـٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ ذكر تعالى الحكمة والسبب الموجب لجعله تعالى الأموال أموال الفيء لمن قدرها له وأنهم حقيقون بالإعانة، فهم أولا ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴾ هجروا الديار والأموال رغبة في الله ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّـهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ونصرة لدين الله ومحبة

لرسول الله ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة. والآخرون هم ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي الأنصار من الأوس والخزرج الذين آمنوا بالله ورسوله طوعا ومحبة واختيارا، وآووا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنعوه من الأذى، وتبوأوا دار الهجرة والإيمان حتى صارت موئلا يلجأ إليه المهاجرون ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ أحبوا أحباب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحبوا من نصر دينه ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ فدل على أن الله تعالى آتاهم أي المهاجرين ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم، ولأنهم جمعوا بين النصرة والهجرة. والأنصار لا يحسدون المهاجرين على ما آتاهم الله من فضله وخصهم به من الفضائل والمناقب التي هم أهلها، وهذا يدل على سلامة صدورهم، وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ومن أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، وببذل الأموال في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وفعلها طائعا منشرحا بها صدره ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وبذلك يحصل الفلاح والفوز.

﴿ 10-13 ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا

يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ * لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّـهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ أي من بعد المهاجرين والأنصار ﴿ يَقُولُونَ ﴾ على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين يدعو بعضهم لبعض ويحب بعضهم بعضا. ولهذا ذكر الله ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا ﴾ شامل لقليل الغل وكثيره ﴿ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ختموا دعاءهم باسمين كريمين، دالين على كمال رحمة الله وشدة رأفته وإحسانه بهم ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ تعجب تعالى من المنافقين ﴿ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ طمعوهم في نصرتهم وموالاتهم على المؤمنين ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ﴾ لا نطيع في عدم نصرتكم أحدا يعذلنا أو يخوفنا ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّـهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ في هذا الوعد الذي غروا به إخوانهم ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا ﴾ من ديارهم جلاء ونفيا ﴿ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ﴾ لعدم وفائهم بوعدهم ﴿ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ بل يخذلونهم وهم أحوج ما كانوا إليهم ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ على الفرض والتقدير ﴿ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ﴾ عن القتال والنصرة ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ ولا يحصل لهم نصر من الله ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّـهِ ﴾ فخافوا منكم أعظم مما يخافون الله ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ مراتب الأمور ولا يعرفون حقائق الأشياء، لأن الفقه أن يكون خوف الخالق مقدم على غيره.

﴿ 14-17 ﴾ ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ * كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا ﴾ أي في حال الاجتماع ﴿ لَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ لا يعزمون على قتالكم إلا اعتمادا على حصونهم وجدرهم، لا شجاعة بأنفسهم ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ أي لا آفة في أبدانهم ولا في قوتهم، وإنما الآفة في ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كلمتهم، ولهذا قال ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا ﴾ حين تراهم مجتمعين ﴿ وَ ﴾ لكن ﴿ قلوبهم شَتَّى ﴾ أي متفرقة متشتتة ﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي أوجب لهم اتصافهم بما ذكر ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي لا عقل عندهم ولا لب ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ﴾ مثل هؤلاء المخذولين من أهل الكتاب، وعدم نصر من وعدهم بالمعاونة كَمَثَلِ كفار قريش ﴿ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ غرتهم أنفسهم وغرهم الذين لم ينفعوهم، حتى أتوا "بدرا" بفخرهم وخيلائهم ظانين أنهم مدركون برسول الله والمؤمنين أمانيهم. وذاقوا بذلك وبال أمرهم وعاقبة شركهم وبغيهم، هذا في الدنيا ﴿ وَلَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في النار. ومثل هؤلاء المنافقين الذين غروا إخوانهم من أهل الكتاب ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ ﴾ أي زين له الكفر وحسنه ودعاه إليه ﴿ فَلَمَّا ﴾ اغتر به و ﴿ كَفَرَ ﴾ تبرأ منه و

﴿ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ليس لي قدرة على دفع العذاب عنك ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا ﴾ أي الداعي الذي هو الشيطان، والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه ﴿ أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ الذين اشتركوا في الظلم والكفر، وإن اختلفوا في شدة العذاب وقوته. وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه، فإنه يدعوهم ويدليهم إلى ما يضرهم بغرور، حتى إذا وقعوا في الشباك تبرأ منهم.

﴿ 18-21 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ * لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه، سرا وعلانية. وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأى زللا تداركه بالإقلاع عنه، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه. وإن رأى نفسه مقصرا في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ والحرمان كل الحرمان أن يغفل العبد ويشابه قوما نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، فلم يحصلوا على

طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم وأغفلهم عن منافعها فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبنا لا يمكنهم تداركه ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. لَا يَسْتَوِي ﴾ فهل يستوي ﴿ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ ممن استحق العذاب في الآخرة ﴿ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ ممن حافظ على تقوى الله فاستحق جنات النعيم ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ ولما بين تعالى لعباده ما بين، كان هذا موجبا لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ لكمال تأثيره في القلوب ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ ويوضح لعباده الحلال والحرام، لأجل أن يتفكروا في آياته ويتدبروها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فلا أنفع للعبد من التفكر في القرآن والتدبر لمعانيه.

﴿ 22-24 ﴾ ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أخبر أنه الله المألوه المعبود، الذي لا إله إلا هو، وذلك لكماله العظيم ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه ﴿ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ وبعموم رحمته التي وسعت كل شيء ووصلت إلى كل حي ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ ﴾ ثم كرر ذكر عموم إلهيته وانفراده بها، وأنه المالك

لجميع الممالك ﴿ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ ﴾ أي المقدس السالم من كل عيب وآفة ونقص، المعظم الممجد، لأن القدوس يدل على التنزيه عن كل نقص، والتعظيم لله في أوصافه وجلاله ﴿ الْمُؤْمِنُ ﴾ أي المصدق لرسله وأنبيائه بما جاءوا به ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، قهر كل شيء، وخضع له كل شيء ﴿ الْجَبَّارُ ﴾ الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائر الخلق، الذي يجبر الكسير، ويغني الفقير ﴿ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة، المتنزه عن جميع العيوب والظلم والجور ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ ﴾ لجميع المخلوقات ﴿ الْبَارِئُ ﴾ للمبروءات ﴿ الْمُصَوِّرُ ﴾ للمصورات. وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كله قد انفرد الله به، لم يشاركه فيه مشارك ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ أي له الأسماء الكثيرة جدا، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا الله هو، وكلها حسنى تدل على أكمل الصفات وأعظمها لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه، ومن حسنها أن الله يحبها ويحب من يحبها ويحب من عباده أن يدعوه ويسألوه بها ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الذي لا يريد شيئا إلا ويكون، ولا يكون شيئا إلا لحكمة ومصلحة.

تم تفسير سورة الحشر

فلله الحمد على ذلك

والمنة والإحسان

60

مختصر تفسير سورة الممتحنة

عدد آياتها 13

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-9 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ اعملوا بمقتضى إيمانكم[1] و ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ تسارعون في مودتهم وفي السعي بأسبابها ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ فإنهم قد كفروا بأصل دينكم الحق، وزعموا أنكم ضلال على غير هدى. ومن عداوتهم البليغة أنهم ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ أيها المؤمنون من دياركم، ويشردونكم من أوطانكم، ولا ذنب لكم في ذلك عندهم، إلا ﴿ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ الذي يتعين على الخلق كلهم القيام بعبوديته، وهو الله تعالى. فلما أعرضوا عن هذا الأمر، وقمتم به عادوكم وأخرجوكم من أجله من دياركم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ﴾ أي إن كان مقصود خروجكم إعلاء كلمة الله، فاعملوا بمقتضى هذا ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ أي كيف تسرون

[1] ذكر كثير من المفسرين رحمهم الله أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة، حين غزا النبي صلى الله عليه وسلم غزوة الفتح، فكتب حاطب إلى قريش يخبرهم بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، ليتخذ بذلك يدا عندهم لا شكا ونفاقا، وأرسله مع امرأة، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بشأنه، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب. وعاتب حاطبا، فاعتذر رضي الله عنه بعذر قبله النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالاة الكفار من المشركين وغيرهم، وإلقاء المودة إليهم، وأن ذلك مناف للإيمان، ومخالف لملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومناقض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو، الذي لا يبقي من مجهوده في العداوة شيئا، وينتهز الفرصة في إيصال الضرر إلى عدوه.

المودة للكافرين وتخفونها، مع علمكم أن الله عالم بما تخفون وما تعلنون ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ ﴾ أي موالاة الكافرين بعد ما حذركم الله منها ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ لأنه سلك مسلكا مخالفا للشرع وللعقل ﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ ﴾ أي يجدوكم وتسنح لهم الفرصة في أذاكم ﴿ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً ﴾ ظاهرين ﴿ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ بالقتل والضرب ﴿ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ﴾ من شتم وغيره ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ فإن هذا غاية ما يريدون منكم ﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ﴾ فإن احتججتم وقلتم: نوالي الكفار لأجل القرابة والأموال ف ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ لن تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئا، والله ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فلذلك حذركم من موالاة الكافرين الذين تضركم موالاتهم ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أي قدوة صالحة ﴿ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ من المؤمنين ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين من قومهم المشركين ومما يعبدون من دون الله ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا ﴾ أي ظهر وبان ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ ﴾ البغض بالقلوب ﴿ وَالْبَغْضَاءُ ﴾ والعداوة بالأبدان ﴿ أَبَدًا ﴾ ما دمتم مستمرين على كفركم ﴿ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ أي فإذا آمنتم بالله وحده انقلبت البغضاء مودة. فلكم أيها المؤمنون أسوة في إبراهيم ومن معه في كل شيء ﴿ إِلَّا ﴾ في خصلة واحدة وهي ﴿ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ آزر المشرك الكافر حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد فامتنع، فقال إبراهيم ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا ﴾ الحال أني لا ﴿ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ لكني أدعو ربي. فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في هذه الحالة، وليس لكم أن تدعوا للمشركين. ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه، حين قالوا ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ أي اعتمدنا عليك ﴿ وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ أي رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا، ويفتنون أيضا بأنفسهم إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم على الحق وأنا على الباطل، فازدادوا كفرا وطغيانا ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا ﴾ ما اقترفنا من الذنوب والسيئات ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ ﴾ القاهر لكل شيء ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب يوجب له الإكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ عن طاعة الله والتأسي برسل الله فلن يضر إلا نفسه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ لا يحتاج إلى أحد ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً ﴾ سببها رجوعهم إلى الإيمان ﴿ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ﴾ على كل شيء، ومن ذلك هداية القلوب ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ لا يتعاظمه ذنب أن يغفره ﴿ رَحِيمٌ ﴾ لا يكبر عليه عيب أن يستره. ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ أي لا ينهاكم الله عن البر والصلة والمكافأة بالمعروف والقسط للمشركين من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم ينتصبوا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ ﴾ عداوة ﴿ فِي الدِّينِ ﴾ لدين الله ﴿ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا ﴾ عاونوا غيرهم ﴿ عَلَى إِخْرَاجِكُمْ ﴾ نهاكم الله ﴿ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ﴾ بالمودة والنصرة، بالقول والفعل. وأما بركم وإحسانكم الذي ليس بتولٍ للمشركين، فلم ينهكم الله عنه فذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ وذلك الظلم يكون بحسب التولي، فإن كان توليا تاما، صار ذلك كفرا مخرجا عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ، وما هو دون ذلك.

﴿ 10-11 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ بعد صلح الحديبية[2] أمر الله المؤمنين إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات، وشكوا في صدق إيمانهن، أن يمتحنوهن ويختبروهن، بما يظهر به صدقهن، من أيمان مغلظة وغيرها، فإنه يحتمل أن يكون إيمانها غير صادق بل رغبة في زوج أو بلد أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية. فإن كن بهذا الوصف، تعين ردهن وفاء بالشرط، من غير حصول مفسدة، وإن امتحنوهن، فوجدن صادقات، أو علموا ذلك منهن من غير امتحان، فلا يرجعوهن إلى الكفار ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ فهذه مفسدة كبيرة في ردهن راعاها الشارع، وراعى أيضا الوفاء بالشرط ﴿ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا ﴾ بأن يعطوا الكفار أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهر وتوابعه ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ على المسلمين ﴿ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ ولو كان لهن أزواج في دار الشرك، ولكن ﴿ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ من المهر والنفقة. وكما أن المسلمة لا تحل للكافر، فكذلك الكافرة لا تحل للمسلم أن يمسكها ما دامت على كفرها، غير أهل الكتاب، ولهذا قال تعالى ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ وإذا نهى عن الإمساك بعصمتها فالنهي عن ابتداء تزويجها أولى ﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ ﴾ أيها المؤمنون حين ترجع زوجاتكم مرتدات إلى الكفار ﴿ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ﴾ الذي ذكره وبينه لكم، يحكم به بينكم ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ يعلم ما يصلح لكم من الأحكام ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يشرع لكم ما تقتضيه الحكمة ﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ بأن ذهبن مرتدات ﴿ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴾ إذا كان الكفار يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهم إلى المسلمين، فمن ذهبت زوجته من المسلمين إلى الكفار وفاتت عليه، لزم أن يعطيه المسلمون من الغنيمة بدل ما أنفق ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ فإيمانكم بالله، يقتضي منكم أن تكونوا ملازمين للتقوى على الدوام.

﴿ 12 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ هذه شروط "مبايعة النساء"، إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا جاءته النساء يبايعنه، والتزمن بهذه الشروط بايعهن ﴿ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا ﴾ بأن يفردن الله وحده بالعبادة ﴿ وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ كما كان ذلك موجودا كثيرا في البغايا وذوات الأخدان ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ كما يجري لنساء الجاهلية الجهلاء ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ والبهتان: الافتراء على

---

2 لما كان صلح الحديبية، صالح النبي صلى الله عليه وسلم المشركين، على أن من جاء منهم إلى المسلمين مسلما، أنه يرد إلى المشركين، وكان هذا لفظا عاما، [مطلقا] يدخل في عمومه النساء والرجال، فأما الرجال فإن الله لم ينه رسوله عن ردهم، إلى المشركين وفاء بالشرط وتتميما للصلح الذي هو من أكبر المصالح، وأما النساء فلما كان ردهن فيه مفاسد كثيرة،

الغير أي: لا يفترين بكل حالة تعلقت بهن أو أزواجهن أو بغيرهم ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ تأمرهن به لأن أمرك لا يكون إلا بمعروف ﴿ فَبَايِعْهُنَّ ﴾ إذا التزمن بجميع ما ذكر ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ﴾ عن تقصيرهن، وتطييبا لخواطرهن ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ كثير المغفرة للعاصين، والإحسان إلى المذنبين التائبين ﴿ رَحِيمٌ ﴾ وسعت رحمته كل شيء.

﴿ 13 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إن كنتم مؤمنين بربكم، ومتبعين لرضاه ومجانبين لسخطه ﴿ لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ لكفرهم، وهذا شامل لجميع أصناف الكفار ﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ ﴾ حرموا من خير الآخرة فليس لهم منها نصيب. ويحتمل أن المعنى: قد يئسوا من الآخرة أي: قد أنكروها وكفروا بها، فلا يستغرب حينئذ منهم الإقدام على مساخط الله وموجبات عذابه. فاحذروا أن تولوهم فتحرموا خير الآخرة كما حرموا و ﴿ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ ﴾ المنكرون للبعث ﴿ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ من رجوع أصحاب القبور إلى الله تعالى.

تم تفسير سورة الممتحنة

والحمد لله رب العالمين

61

تفسير سورة الصف

عدد آياتها 14

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-3 ﴾ ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلنَ ﴾

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ وهذا بيان لعظمته تعالى وقهره، وأن جميع من في السماوات والأرض يسبحون بحمد الله ويعبدونه ويسألونه حوائجهم ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي قهر الأشياء بعزته وسلطانه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في خلقه وأمره ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ لم تقولون الخير وأنتم لا تفعلونه، وتنهون عن الشر وأنتم متلوثون به ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ولهذا ينبغي للآمر بالخير أن يكون أول الناس إليه مبادرة، وللناهي عن الشر أن يكون أبعد الناس منه.

﴿ 4 ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ هذا حث من الله لعباده على الجهاد في سبيله ﴿ كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ وتعليم لهم كيف يصفوا في الجهاد صفا متراصا متساويا. ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حضر القتال، صف أصحابه ورتبهم بحيث تكون كل طائفة منهم مهتمة بمركزها وقائمة بوظيفتها.

﴿ 5 ﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ موبخا لهم ﴿ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي ﴾ بالأقوال والأفعال ﴿ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ والرسول من حقه الإكرام والإعظام ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا ﴾ أي انصرفوا عن الحق بقصدهم ﴿ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ ولم يوفقهم للهدى ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي الذين لم يزل الفسق وصفا لهم. وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعباده ليس ظلما منه، وإنما ذلك بسبب منهم.

﴿ 6-9 ﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى

اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ يقول تعالى مخبرا عن عناد بني إسرائيل المتقدمين، الذين دعاهم عيسى ابن مريم، وقال لهم ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ أرسلني لأدعوكم إلى الخير وأنهاكم عن الشر. ومما يدل على صدقي، كوني ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ أي جئت بما جاء به موسى من التوراة، وجئت وبعثت مصداقا لها ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي الهاشمي. فعيسى عليه الصلاة والسلام، كالأنبياء يصدق بالنبي السابق، ويبشر بالنبي اللاحق، بخلاف الكذابين ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم الذي بشر به عيسى ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي الأدلة الواضحة ﴿ قَالُوا ﴾ معاندين للحق مكذبين له ﴿ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ وهل في الافتراء أعظم من هذا الافتراء ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ بهذا وغيره ﴿ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ﴾ ويبين له ببراهينه وبيناته ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ خصوصا هؤلاء الظلمة القائمين بمقابلة الحق ليردوه ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي بما يصدر منهم من المقالات الفاسدة ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ ﴾ تكفل بنصر دينه ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ فإنهم مغلوبون ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ الدين الذي يدان به، ويتعبد لرب العالمين الذي هو حق وصدق ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أي ليعليه على سائر الأديان، فلا يمكن أن يغالبه مغالب. وأما المنتسبون إليه، فإنهم إذا قاموا به، لا بد أن يظهروا على أهل الأديان، وإذا ضيعوه واكتفوا منه بمجرد الانتساب إليه، لم ينفعهم ذلك ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾.

﴿ 10-14 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين ﴿ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ ﴾ يحصل بها النجاة ﴿ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ والفوز بالنعيم المقيم. فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟ فقال ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ بالتصديق الجازم المستلزم لأعمال الجوارح، فلهذا قال ﴿ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ فإن ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ ولو كان كريها للنفوس شاقا عليها فإنه ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فإن فيه الخير الدنيوي، وفي الآخرة الفوز بثواب الله ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله، مكفر للذنوب ولو كانت كبائر ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي من تحت مساكنها ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ جمعت كل طيب ﴿ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ لأن أهلها مقيمون فيها، لا يخرجون منها أبدا ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. ﴾ وأما الثواب الدنيوي لهذه التجارة ﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا ﴾ أي ويحصل لكم خصلة أخرى تحبونها وهي

﴿ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ لكم على الأعداء ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ تتسع به دائرة الإسلام ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالثواب العاجل والآجل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ ﴾ بالأقوال والأفعال ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أي قال لهم من يعاونني ويقوم معي في نصرتي لدين الله؟ فـ ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ فمضى عيسى عليه السلام على أمر الله ونصر دينه، هو ومن معه من الحواريين ﴿ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ بسبب دعوة عيسى والحواريين ﴿ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ﴾ فلم ينقادوا لدعوتهم، فجاهد المؤمنون الكافرين ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ ﴾ أي قويناهم ونصرناهم عليهم ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ عليهم وقاهرين لهم.

فأنتم يا أمة محمد، كونوا أنصار الله ودعاة دينه، ينصركم الله كما نصر من قبلكم، ويظهركم على عدوكم.

تمت ولله الحمد

62

تفسير سورة الجمعة

عدد آياتها 11

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 ﴾ ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ ﴾ وينقاد لأمره ويتألهه ويعبده جميع ﴿ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ ﴾ الجميع مماليكه وتحت تدبيره ﴿ الْقُدُّوسِ ﴾ المعظم، المنزه عن كل آفة ونقص ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ القاهر للأشياء كلها ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ في خلقه وأمره.

﴿ 2-4 ﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ ﴾ الذين لا كتاب عندهم، ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم ﴿ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ يعرفون نسبه وأوصافه الجميلة وصدقه، وأنزل عليه كتابه ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ القاطعة الموجبة للإيمان واليقين ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ يحثهم على الأخلاق الفاضلة ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾ علم القرآن ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ علم السنة ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ فكانوا بعد هذا التعليم والتزكية منه أئمة أهل العلم والدين المهتدين ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ من غير الأميين، ومن أهل الكتاب ﴿ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ يحتمل في الفضل، ويحتمل أن يكونوا لما يلحقوا بهم في الزمان. وكلا المعنيين صحيح ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ فإن الذين بعث الله فيهم رسوله وشاهدوه وباشروا دعوته، حصل لهم من الخصائص والفضائل ما لا يمكن أحدًا أن يلحقهم فيها، وهذا من عزته وحكمته، حيث لم يترك عباده هملاً ولا سدى، بل ابتعث فيهم الرسل، وأمرهم ونهاهم ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ وذلك من فضل الله العظيم، الذي يؤتيه من يشاء من عباده. فلا أعظم من نعمة الدين التي هي مادة الفوز والسعادة، الأبدي.

﴿ 5-8 ﴾ ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ

مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ أنهم لا فضيلة لهم ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ فوق ظهره أسفارًا من كتب العلم، فهل يستفيد ذلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟ فهذا مثل علماء اليهود الذين لم يعملوا بما في التوراة ﴿ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ الدالة على صدق رسولنا وصدق ما جاء به ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ما دام الظلم لهم وصفًا، ومن ظلم اليهود وعنادهم، أنهم يعلمون أنهم على باطل، ويزعمون أنهم على حق، وأنهم أولياء الله من دون الناس ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ ﴾ إن كنتم صادقين في زعمكم ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فإنهم لو علموا أنهم على حق لما توقفوا عن هذا التحدي الذي جعله الله دليلاً على كذبهم إن لم يتمنوه ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من الذنوب والمعاصي ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ فلا يخفى عليه من ظلمهم شيء ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ ﴾ فإن ذلك لا ينجيهم ﴿ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾ لا بد أن يلاقيهم الموت الذي قد حتمه الله على العباد ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ ﴾ يرد الخلق كلهم يوم القيامة ﴿ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من خير وشر، قليل وكثير.

﴿ 9-11 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها، من حين ينادى لها والسعي إليها، والمراد بالسعي هنا: المبادرة إليها والاهتمام لها، وجعلها أهم الأشغال، لا العدو الذي قد نهي عنه عند المضي إلى الصلاة ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ اتركوا البيع إذا نودي للصلاة وامضوا إليها ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من اشتغالكم بالبيع، وتفويتكم الصلاة الفريضة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أن ما عند الله خير وأبقى ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ لطلب المكاسب والتجارات. ولما كان الاشتغال في التجارة مظنة الغفلة عن ذكر الله، أمر الله بالإكثار من ذكره، فقال ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ أي في حال قيامكم وقعودكم وعلى جنوبكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ خرجوا من المسجد، حرصًا على ذلك اللهو، وتلك التجارة ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ تخطب الناس[1] ﴿ قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ من الأجر والثواب ﴿ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ فمن اتقى الله رزقه من حيث لا يحتسب.

تم تفسير سورة الجمعة

ولله الحمد والثناء

---

[1] إذ قدم المدينة في يوم جمعة، بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب الناس، عير تحمل تجارة. فلما سمع الناس بها وهم في المسجد، انفضوا من المسجد، وتركوا النبي صلى الله عليه وسلم يخطب استعجالاً لما لا ينبغي أن يستعجل له

مختصر تفسير سورة المنافقون

عدد آياتها 11

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-6 ﴾ ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ *وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا ﴾ على وجه الكذب[1]والنفاق ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَ ﴾ لا حاجة لشهادتهم في تأييد رسوله فإن ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ في قولهم ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ أي ترسًا يتترسون بها من نسبتهم إلى النفاق ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ بأنفسهم وصدوا غيرهم ممن يخفى عليه حالهم ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وأقسموا على ذلك وأوهموا صدقهم ﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي زين لهم النفاق ﴿ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ بحيث لا يدخلها الخير أبدًا ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ما ينفعهم ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ من نضارتها ﴿ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ من حسن منطقهم. ولكن ليس وراء ذلك من الهدى شيء ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ﴾ لا منفعة فيها ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ ﴾ هي ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ وذلك لجبنهم والريب الذي في قلوبهم، يخافون أن يطلع عليهم. فهؤلاء ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ ﴾ على الحقيقة. لأن العدو المبين أهون من العدو المخادع الذي يزعم أنه ولي ﴿ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي كيف يصرفون عن الدين الإسلامي إلى الكفر والشقاء ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ لهؤلاء المنافقين ﴿ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ عما صدر منكم ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ امتناعًا من طلب الدعاء من الرسول ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ ﴾ عن الحق بغضًا له ﴿ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن اتباعه بغيًا وعنادًا ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ لأنهم خارجون عن طاعة الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ فلذلك لا ينفع فيهم استغفار الرسول لو استغفر لهم.

[1] لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وكثر المسلمون في المدينة واعتز الإسلام بها ، صار أناس من أهلها من الأوس والخزرج، يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ليبقى جاههم، وتحقن دماؤهم، وتسلم أموالهم، فذكر الله من أوصافهم ما به يعرفون، لكي يحذر العباد منهم، ويكونوا منهم على بصيرة.

﴿ 7-8 ﴾ ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ بزعمهم الفاسد ﴿ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا ﴾ زعموا لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم لما اجتمعوا في نصرة دين الله ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يؤتي الرزق من يشاء ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ إذ قالوا أن خزائن الرزق في أيديهم، وتحت مشيئتهم ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ قال[2] كبير المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ زعم أنه هو وإخوانه من المنافقين الأعزون، وأن رسول الله ومن معه هم الأذلون ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فهم الأعزاء، والمنافقون والكفار هم الأذلاء ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ 9-11 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ فإن محبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتقدمها على محبة الله ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ يلهه ماله وولده عن ذكر الله ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ للسعادة الأبدية ﴿ وَأَنْفِقُوا ﴾ النفقات الواجبة والمستحبة ﴿ مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أمرهم بإخراج جزء مما رزقهم الله ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ ﴾ متحسرًا ﴿ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ لأتدارك ما فرطت فيه ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ من مالي ﴿ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وهذا قد فات وقته ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ المحتوم ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

تم تفسير سورة المنافقون

ولله الحمد

[2] وذلك في غزوة المريسيع، حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار، بعض كلام كدّر الخواطر. وقال كبير المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول: "ما مثلنا ومثل هؤلاء -يعني المهاجرين- إلا كما قال القائل: "غذ كلبك يأكلك".

64

مختصر تفسير سورة التغابن

عدد آياتها 18

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-4 ﴾ ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ بحمد ربها ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ كله لله ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ على ما له من صفات الكمال وأوجده من الأشياء وشرعه من الأحكام وأسداه من النعم ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وقدرته شاملة، فلا يعجزه شيء يريده ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ أيها العباد ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ فإيمانهم وكفرهم كله بقضاء الله وقدره، بأن جعل لهم قدرة وإرادة بها يتمكنون من كل ما يريدون من الأمر والنهي ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ وجميع ما فيهما ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي بالحكمة والغاية المقصودة ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ فالإنسان أحسن المخلوقات صورة، وأبهاها منظرًا ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي المرجع يوم القيامة ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من الغيب والشهادة ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ وما فيها من الأسرار والخبايا والنيات والمقاصد.

﴿ 5-6 ﴾ ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ حين جاءتهم الرسل بالحق كذبوهم وعاندوهم ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ في الدنيا وأخزاهم فيها ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة ﴿ ذَلِكَ ﴾ الوبال ﴿ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالآيات الواضحات فاستكبروا على رسلهم ﴿ فقالوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أي فليس لهم فضل علينا واستكبروا عن الانقياد لهم ﴿ فَكَفَرُوا ﴾ بالله ﴿ وَتَوَلَّوْا ﴾ عن طاعه الله ﴿ وَاسْتَغْنَى اللَّهُ ﴾ عنهم فلا يبالي بهم، ولا يضره ضلالهم شيئًا ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ ﴾ له الغنى التام المطلق ﴿ حَمِيدٌ ﴾ في أقواله وأفعاله وأوصافه.

﴿ 7 ﴾ ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ﴾ يخبر تعالى عن عناد الكافرين وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدى ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ أمر أشرف خلقه أن يقسم بربه على بعثهم ﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ وجزائهم بأعمالهم الخبيثة ﴿ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ فإنه إذا أراد أمرًا فإنما يقول له كن فيكون.

﴿ 8 ﴾ ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ بما يعصم من الهلكة والشقاء ﴿ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ فما في الكتاب الذي أنزله الله من الأحكام والشرائع والأخبار، أنوار يهتدى بها في ظلمات الجهل ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فيجازيكم بأعمالكم الصالحة والسيئة.

﴿ 9-10 ﴾ ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، فحينئذ يظهر الفرق والتفاوت بين الخلائق نتيجة ما قدموه لأنفسهم ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلائق، ويغبن المؤمنون الفاسقين ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ ﴾ إيمانًا شاملاً لجميع ما أمر الله بالإيمان به ﴿ وَيَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ من الفرائض والنوافل، وأداء حقوق الله وعباده ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ فيها ما تشتهيه الأنفس ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ويكون نهاية كل مرغوب ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ جاءتهم الأدلة والبينات، فكذبوا بها، وعاندوا ما دلت عليه ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ لأنها جمعت كل بؤس وعذاب.

﴿ 11-13 ﴾ ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ فجميع ما أصاب العباد، فبقضاء الله وقدره، قد سبق بذلك علم الله تعالى، وجرى به قلمه، ونفذت به مشيئته، واقتضته حكمته ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ ﴾ فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك وسلم لأمره ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ فاطمأن ولم ينزعج عند المصائب وعلم من هذا أن من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب، يخذل ويكله الله إلى نفسه، والنفس ليس عندها إلا الجزع. كما أن كل من آمن الإيمان المأمور به، وصدق إيمانه بما يقتضيه الإيمان من القيام بلوازمه وواجباته، فهذا أكبر سبب لهداية الله له ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يثبت المؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ فإن في امتثال أمرهما مدار السعادة وعنوان الفلاح ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ عن طاعة الله ورسوله ﴿ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ يبلغكم ما أرسل به إليكم، وليس بيده من هدايتكم ولا من حسابكم من شيء ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ المستحق للعبادة والألوهية ﴿ وَعَلَى

اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ في كل أمر نابهم، وفيما يريدون القيام به. ولا يتم الاعتماد على الله، حتى يحسن العبد ظنه بربه، وكلما قوي الإيمان قوي التوكل.

﴿ 14-15 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ هذا تحذير من الله للمؤمنين، من الاغترار بالأزواج والأولاد والنفس مجبولة على محبتهم. ورغبهم في تقديم مرضاته وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية. ولما كان النهي عن طاعة الأزواج والأولاد، فيما هو ضرر على العبد قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم، أمر تعالى ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لأن الجزاء من جنس العمل. فمن عفا عفا الله عنه، ومن صفح صفح الله عنه، ومن غفر غفر الله له ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿ 16-18 ﴾ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ يأمر تعالى بتقواه ويقيد ذلك بالاستطاعة والقدرة. فهذه الآية تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد، أنه يسقط عنه. وأنه إذا قدر على بعض المأمور، وعجز عن بعضه، فإنه يأتي بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه ﴿ وَاسْمَعُوا ﴾ ما يعظكم الله به ﴿ وَأَطِيعُوا ﴾ الله ورسوله في جميع أموركم ﴿ وَأَنْفِقُوا ﴾ من النفقات الشرعية الواجبة والمستحبة، ويكن ذلك الفعل منكم ﴿ خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ فإنها تشح بالمال وتحب وجوده ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ لأنهم أدركوا المطلوب ونجوا من المرهوب، بل لعل ذلك، شامل لكل ما أمر به العبد، ونهي عنه ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ وهو كل نفقة كانت من الحلال، إذا قصد بها العبد وجه الله تعالى وطلب مرضاته، ووضعها في موضعها ﴿ يُضَاعِفْهُ لَكُمْ ﴾ النفقة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ﴿ وَ ﴾ مع المضاعفة أيضًا ﴿ يغفر لَكُمْ ﴾ بسبب الإنفاق والصدقة ذنوبكم، فإن الذنوب يكفرها الله بالصدقات والحسنات ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ ﴾ يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه الكثير من الأجر ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعاجل من عصاه، بل يمهله ولا يهمله ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ ما غاب عن العباد من الجنود التي لا يعلمها إلا هو ﴿ وَالشَّهَادَةِ ﴾ وما يشاهدونه من المخلوقات ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الذي قهر كل الأشياء ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها.

تم تفسير سورة التغابن

ولله الحمد

65

مختصر تفسير سورة الطلاق

عدد آياتها 12

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-3 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا * فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ أردتم طلاقهن ﴿ فَـ ﴾ لا تبادروا بالطلاق من غير مراعاة لأمر الله بل ﴿ طَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ أي وهي في طهر لم يجامعها فيه، فهذا الطلاق هو الذي تكون العدة فيه واضحة بينة، بخلاف ما لو طلقها وهي حائض فإنها لا تحتسب تلك الحيضة التي وقع فيها الطلاق، وتطول عليها العدة بسبب ذلك، وكذلك لو طلقها في طهر وطئ فيه فإنه لا يؤمن حملها فلا يتبين و لا يتضح بأي عدة تعتد ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ أي ضبطها بالحيض إن كانت تحيض، أو بالأشهر إن لم تكن تحيض وليست حاملاً. فإن في إحصائها أداء لحق الله وحق الزوج المطلق، وحق من سيتزوجها بعد، وحقها في النفقة ونحوها. وهذا الأمر بإحصاء العدة، يتوجه للزوج وللمرأة، إن كانت مكلفة، فلوليها ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ أي في جميع أموركم، وخافوه في حق الزوجات المطلقات فـ ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾ مدة العدة، بل يلزمن بيوتهن الذي طلقها زوجها وهي فيها ﴿ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ أي لا يجوز لهن الخروج منها. أما النهي عن إخراجها، فلأن المسكن، يجب على الزوج للزوجة، لتكمل فيه عدتها التي هي حق من حقوقه. وأما النهي عن خروجها فلعدم إضاعة حق الزوج وعدم صونه. ويستمر هذا النهي عن الخروج من البيوت والإخراج إلى تمام العدة ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ أي بأمر قبيح واضح موجب لإخراجها، بحيث يدخل على أهل البيت الضرر من عدم إخراجها، كالأذى بالأقوال والأفعال الفاحشة. ففي هذه الحال يجوز لهم إخراجها، لأنها هي التي تسببت لإخراج نفسها. وهذا في المعتدة الرجعية، وأما البائن، فليس لها سكنى واجبة، لأن السكن تبع للنفقة، والنفقة تجب للرجعية دون البائن ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ التي حددها لعباده وشرعها لهم ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ ﴾ بأن لم يقف معها، بل تجاوزها، أو قصر عنها ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ أي أضاع نصيبه من اتباع حدود الله التي هي الصلاح في الدنيا والآخرة ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ أي شرع الله العدة، وحدد الطلاق بها، لحكم عظيمة: فمنها: أنه لعل الله يحدث في قلب المطلق الرحمة والمودة، فيراجع من طلقها، ويستأنف عشرتها، فيتمكن من ذلك مدة العدة، أولعله يطلقها لسبب منها، فيزول ذلك السبب في مدة العدة، فيراجعها لانتفاء سبب

الطلاق. ومن الحكم أن في مدة التربص يعلم براءة رحمها من زوجها ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي إذا قارين انقضاء العدة، لأنهن لو خرجن من العدة، لم يكن الزوج مخيرًا بين الإمساك والفراق ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي على وجه المعاشرة الحسنة لا على وجه الضرار وإرادة الحبس، فإن إمساكها على هذا الوجه لا يجوز ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي فراقًا لا محذور فيه، من غير تشاتم ولا تخاصم، ولا قهر لها على أخذ شيء من مالها ﴿ وَأَشْهِدُوا ﴾ على طلاقها ورجعتها ﴿ ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ أي رجلين مسلمين عدلين، لأن في الإشهاد المذكور، سدًا لباب المخاصمة، وكتمان كل منهما ما يلزمه بيانه ﴿ وَأَقِيمُوا ﴾ أيها الشهداء ﴿ الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ أي ائتوا بها على وجهها، من غير زيادة ولا نقص، واقصدوا بإقامتها وجه الله وحده ولا تراعوا بها قريبًا لقرابته، ولا صاحبًا لمحبته ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ الذي ذكرنا لكم من الأحكام والحدود ﴿ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فإنه يتعظ بمواعظ الله، وأن يقدم لآخرته من الأعمال الصالحة ما يتمكن منها ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ لأن الطلاق قد يوقع في الضيق والكرب، لكن من اتقاه في الطلاق وغيره فإن الله يجعل له فرجًا ومخرجًا[1] ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ يسوق الله الرزق للمتقي، من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أي كافيه الأمر الذي توكل عليه به، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيره إلى الوقت المناسب له ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ أي لا بد من نفوذ قضائه وقدره، ولكنه ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ أي وقتًا ومقدارًا، لا يتعداه ولا يقصر عنه.

﴿ 4-5 ﴾ ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا * ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾

﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ ﴾ بأن كن يحضن، ثم ارتفع حيضهن، لكبر أو غيره ولم يرج رجوعه ﴿ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ كل شهر مقابلة حيضة ﴿ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ أي لم يأتهن الحيض بعد، والبالغات اللاتي لم يأتهن حيض بالكلية، فإنهن كالآيسات عدتهن ثلاثة أشهر ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ ﴾ أي عدتهن ﴿ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ أي جميع ما في بطونهن، من واحد ومتعدد، ولا عبرة حينئذ، بالأشهر ولا غيرها ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ يسر له الأمور وسهل عليه كل عسير ﴿ ذَلِكَ ﴾ الحكم الذي بينه الله لكم ﴿ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ لتمشوا عليه وتقوموا به وتعظموه ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ يندفع عنه المحذور، ويحصل له المطلوب.

﴿ 6-7 ﴾ ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى

---

[1] فإذا أراد العبد الطلاق، ففعله على الوجه الشرعي، بأن أوقعه طلقة واحدة، في غير حيض ولا طهر قد وطئ فيه فإنه لا يضيق عليه الأمر، بل جعل الله له فرجًا وسعة يتمكن بها من مراجعة النكاح إذا ندم على الطلاق، والآية، وإن كانت في سياق الطلاق والرجعة، فإن العبرة بعموم اللفظ، فكل من اتقى الله تعالى، ولازم مرضاة الله في جميع أحواله، فإن الله يثيبه في الدنيا والآخرة. ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجًا ومخرجًا من كل شدة ومشقة، وكما أن من اتقى الله جعل له فرجًا ومخرجًا، فمن لم يتق الله، وقع في الشدائد والآصار والأغلال، التي لا يقدر على التخلص منها والخروج من تبعتها، واعتبر ذلك بالطلاق، فإن العبد إذا لم يتق الله فيه، بل أوقعه على الوجه المحرم، كالثلاث ونحوها، فإنه لا بد أن يندم ندامة لا يتمكن من استدراكها والخروج منها.

* لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ ﴾ بالمعروف ﴿ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ ﴾ البيت الذي يسكنه مثله ومثلها ﴿ مِنْ وُجْدِكُمْ ﴾ بحسب وجد الزوج وعسره ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ ﴾ عند سكناهن بالقول أو الفعل ﴿ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ لأجل أن يملَلن فيخرجن من البيوت قبل تمام العدة، فتكونوا أنتم المخرجين لهن. وحاصل هذا أنه نهى عن إخراجهن، ونهاهن عن الخروج، وأمر بسكناهن على وجه لا يحصل به عليهن ضرر ولا مشقة، وذلك راجع إلى العرف ﴿ وَإِنْ كُنَّ ﴾ أي المطلقات ﴿ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ وذلك لأجل الحمل الذي في بطنها، إن كانت بائنًا، ولها ولحملها إن كانت رجعية، ومنتهى النفقة حتى يضعن حملهن. فإذا وضعن حملهن، فإما أن يرضعن أولادهن أو لا ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ المسماة لهن، إن كان مسمى، وإلا فأجر المثل ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي وليأمر كل واحد من الزوجين ومن غيرهما الآخر بالمعروف وتعاون على البر والتقوى. خاصة أنه يحصل في الغالب بين الزوجين عند الفراق تنازع وتشاجر لأجل النفقة عليها وعلى الولد ﴿ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ ﴾ بأن لم يتفقوا على إرضاعها لولدها ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ﴾ غيرها. فإن لم يقبل الولد إلا ثدي أمه، تعينت لإرضاعه ووجب عليها، وأجبرت إن امتنعت، وكان لها أجرة المثل إن لم يتفقا على مسمى. فإن الولد لما كان في بطن أمه مدة الحمل، ليس له خروج منه عين تعالى على وليه النفقة، فلما ولد، وكان يمكن أن يتقوت من أمه، ومن غيرها، أباح تعالى، الأمرين، فإذا كان بحالة لا يمكن أن يتقوت إلا من أمه، كان بمنزلة الحمل، وتعينت أمه طريقًا لقوته ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ﴾ أي لينفق الغني من غناه، فلا ينفق نفقة الفقراء ﴿ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ أي ضيق عليه ﴿ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾ من الرزق ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، في باب النفقة وغيرها ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾

﴿ 8-11 ﴾ ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ﴾ يخبر تعالى عن إهلاكه الأمم العاتية المكذبة للرسل أن كثرتهم وقوتهم لم تنفعهم شيئًا ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا ﴾ بسبب أعمالهم السيئة ﴿ وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا. فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا. أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ يا ذوي العقول ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ذكّر عباده المؤمنين ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ كتابه الذي أنزله ﴿ رَسُولًا ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ من ظلمات الكفر ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ نور العلم والإيمان ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ من الواجبات والمستحبات ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ فيها النعيم المقيم ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾.

﴿ 12 ﴾ ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ ومن فيهن ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ ومن فيهن، وما بينهن ﴿ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ فالغاية المقصودة من الخلق معرفة الله وعبادته. فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك الظالمون المعرضون.

تم تفسيرها والحمد لله

مختصر تفسير سورة التحريم

عدد آياتها 12

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1-5 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾

﴿ [1]يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ الذي أنعم الله عليه بالنبوة والوحي والرسالة ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ من الطيبات، التي أنعم الله بها عليك ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ﴾ بذلك التحريم ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ غفر لرسوله ورفع عنه اللوم ورحمه، وصار ذلك التحريم الصادر منه، سببًا لشرع حكم عام لجميع الأمة، فقال تعالى حاكما حكما عاما في جميع الأيمان ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ شرع لكم وقدر ما به تنحل أيمانكم قبل الحنث، وما به الكفارة بعد الحنث ﴿ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ﴾ أي متولي أموركم، فلذلك فرض لكم تحلة أيمانكم، لتبرأ ذممكم ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ ﴾ الذي أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في جميع ما خلقه وحكم به ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ﴾ قال كثير من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، أسر لها النبي صلى الله عليه وسلم حديثًا، وأمر أن لا تخبر به أحدًا ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ ﴾ عائشة رضي الله عنهما ﴿ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ وأخبره الله بذلك الخبر الذي أذاعته ﴿ عَرَّفَ ﴾ صلى الله عليه وسلم ﴿ بَعْضَهُ ﴾ ببعض ما قالت ﴿ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ كرمًا منه صلى الله عليه وسلم وحلمًا فـ ﴿ قَالَتْ ﴾ له ﴿ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا ﴾ الخبر الذي لم يخرج منا ﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ الخطاب للزوجتين الكريمتين من أزواجه صلى الله عليه وسلم عائشة وحفصة رضي الله عنهما، كانتا سببًا لتحريم النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه ما يحبه، فعرض الله عليهما التوبة، وعاتبهما على ذلك، وأخبرهما أن قلوبهما قد صغت أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن، من الورع والأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم واحترامه، وأن لا يشققن عليه ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ أي تعاونا على ما يشق عليه، ويستمر هذا الأمر منكن ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ أي الجميع أعوان للرسول مظاهرون، ومن كان هؤلاء أعوانه فهو المنصور. ثم خوفهما أيضا بالطلاق الذي هو أكبر شيء عليهن ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ﴾ فلا ترفعن عليه، فإنه لو طلقكن، فإنه سيلقى ويبدله الله

---

[1] هذا عتاب من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، حين حرم على نفسه سريته "مارية" أو شرب العسل، مراعاة لخاطر بعض زوجاته، في قصة معروفة

أزواجًا خيرًا منكن ﴿ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ ﴾ القنوت هو دوام الطاعة واستمرارها ﴿ تَائِبَاتٍ ﴾ عما يكرهه الله ﴿ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ فلما سمعن رضي الله عنهن هذا التخويف والتأديب، بادرن إلى رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما اختار الله لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه دل على أنهن خير النساء وأكملهن.

﴿ 6 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يا من من الله عليهم بالإيمان، قوموا بلوازمه وشروطه و ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ ووصف الله النار بهذه الأوصاف ليزجر عباده عن التهاون بأمره ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ ﴾ أخلاقهم ﴿ شِدَادٌ ﴾ يخيفون بمرآهم ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ وهذا فيه أيضًا مدح للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر الله وطاعتهم له في كل ما أمرهم به.

﴿ 7 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ﴾ فإنه ذهب وقت الاعتذار ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وأنتم لم تقدموا إلا الكفر بالله ومحاربة رسله وأوليائه.

﴿ 8 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ أمر الله بالتوبة النصوح العامة الشاملة للذنوب كلها ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ ووعد عليها بتكفير السيئات ﴿ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ودخول الجنات ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ يمشون بضيائه ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيستجيب الله دعوتهم ويوصلهم بما معهم من النور واليقين، إلى جنات النعيم.

﴿ 9 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار والمنافقين ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ والإغلاظ عليهم في ذلك، وهذا شامل لجهادهم بإقامة الحجة عليهم ودعوتهم بالموعظة الحسنة، وجهادهم بالسلاح والقتال لمن أبى أن يجيب دعوة الله وينقاد لحكمه، فإن هذا يجاهد ويغلظ له ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾.

﴿ 10 - 12 ﴾ ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا ﴾ أي المرأتان ﴿ تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ ﴾ وهما نوح، ولوط عليهما السلام ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ في الدين، بأن كانتا على غير دين زوجيهما ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا ﴾ أي نوح ولوط ﴿ عَنْهُمَا ﴾ أي عن امرأتيهما ﴿ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ﴾ لهما ﴿ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ فكأن في ذلك إشارة وتحذيرًا لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم عن المعصية، وأن اتصالهن به صلى الله عليه وسلم، لا ينفعهن شيئًا مع الإساءة ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ ﴾ وهي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها ﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ فوصفها الله بالإيمان والتضرع لربها، فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمان كامل، وثبات تام، ونجاة من الفتن ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ صانته وحفظته عن الفاحشة، لكمال ديانتها وعفتها ونزاهتها ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ بأن نفخ جبريل عليه السلام في جيب درعها فوصلت نفخته إلى مريم، فجاء منها عيسى ابن مريم عليه السلام، الرسول الكريم والسيد العظيم ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ﴾ الدينية والقدرية ﴿ وَكُتُبِهِ ﴾ معرفة ما به يحصل التصديق ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ المطيعين لله، فإنها رضي الله عنها صديقة، والصديقية: هي كمال العلم والعمل.

تمت ولله الحمد

مختصر تفسير سورة الملك

عدد آياتها 30

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 4 ﴾ ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ تعاظم وتعالى، وكثر خيره، وعم إحسانه. من عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، خلقه ويتصرف فيه بما شاء ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومن عظمته كمال قدرته التي يقدر بها على كل شيء ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة، كالسماوات والأرض. وخلق الموت والحياة فقدر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أخلصه وأصوبه: فمن انقاد لأمر الله وأحسن العمل، أحسن الله له الجزاء في الدارين. ومن مال مع شهوات النفس، ونبذ أمر الله فله شر الجزاء ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي له العزة كلها، التي قهر بها جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات ﴿ الْغَفُورُ ﴾ عن المسيئين والمقصرين والمذنبين. خصوصًا إذا تابوا وأنابوا ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ كل واحدة فوق الأخرى. ولسن طبقة واحدة، وخلقها في غاية الحسن والإتقان ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ خلل ونقص. حسنة كاملة، متناسبة من كل وجه. ولما كان كمالها معلومًا، أمر الله تعالى بتكرار النظر إليها والتأمل في أرجائها ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ ﴾ أعده إليها، ناظرًا معتبرًا ﴿ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾ نقص واختلال ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ المراد بذلك كثرة التكرار ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ عاجزًا عن أن يرى خللًا أو فطورًا، ولو حرص غاية الحرص.

﴿ 5 - 10 ﴾ ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ * وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ﴾ ولقد جملنا ﴿ السَّمَاءَ الدُّنْيَا ﴾ التي ترونها وتليكم ﴿ بِمَصَابِيحَ ﴾ النجوم. جعلها الله زينة للسماء، ونورًا وهداية يهتدى بها في ظلمات البر والبحر. ولا ينافي إخباره أنه زين السماء الدنيا بمصابيح، أن يكون كثير من النجوم فوق السماوات السبع، فإن السماوات شفافة، وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا، وإن لم تكن الكواكب فيها ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ المصابيح ﴿ رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ جعل الله هذه النجوم حراسة للسماء عن تلقف الشياطين أخبار

الأرض. وقد أعدها الله في الدنيا للشياطين ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ لأنهم تمردوا على الله، وأضلوا عباده. ولهذا كان أتباعهم من الكفار مثلهم، قد أعد الله لهم عذاب السعير، فلهذا قال ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ الذي يهان أهله غاية الهوان ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا ﴾ على وجه الإهانة والذل ﴿ سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا ﴾ صوتًا عاليًا فظيعًا ﴿ وَهِيَ تَفُورُ. تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضًا وتتقطع من شدة غيظها على الكفار. فما ظنك ما تفعل بهم إذا أصبحوا فيها؟ ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ حالكم هذا واستحقاقكم النار، كأنكم لم تخبروا عنها، ولم تحذركم النذر منها ﴿ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ فجمعوا بين تكذيبهم الخاص، والتكذيب العام بكل ما أنزل الله. ولم يكفهم ذلك حتى أعلنوا بضلال الرسل المنذرين وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، بل جعلوا ضلالهم، ضلالًا كبيرًا، فأي عناد وتكبر وظلم، يشبه هذا ﴿ وَقَالُوا ﴾ معترفين بعدم أهليتهم للهدى والرشاد ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ فنفوا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل الله، وجاءت به الرسل ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ بعدًا لهم وخسارة وشقاء.

﴿ 12 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾ في جميع أحوالهم، حتى في الحالة التي لا يطلع عليهم فيها إلا الله ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم. وإذا غفر الله ذنوبهم وقاهم شرها، ووقاهم عذاب الجحيم ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ولهم أجر كبير وهو ما أعده لهم في الجنة من النعيم المقيم. وأعظم من ذلك وأكبر رضا الرحمن.

﴿ 13 – 14 ﴾ ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ﴾ كلها سواء لديه، لا يخفى عليه منها خافية، فـ ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ بما فيها من النيات، والإرادات، فكيف بالأقوال والأفعال ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ فمن خلق الخلق وأتقنه وأحسنه، كيف لا يعلمه ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ الذي لطف علمه وخبره، حتى أدرك السرائر والضمائر.

﴿ 15 ﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾ هو الذي سخر لكم الأرض وذللها، لتدركوا منها كل ما تعلقت به حاجتكم ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ لطلب الرزق والمكاسب ﴿ وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ بعد أن تنتقلوا من هذه الدار التي جعلها الله امتحانًا، تبعثون بعد موتكم وتحشرون إلى الله ليجازيكم بأعمالكم الحسنة والسيئة.

﴿ 16 – 18 ﴾ ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ * وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ[1] ﴾ وهو الله تعالى، العالي على خلقه ﴿ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ بكم وتضطرب، حتى تتلفكم وتهلككم ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ عذابًا من السماء يحصبكم، وينتقم الله منكم ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ كيف يأتيكم ما أنذرتكم به الرسل والكتب.

﴿ 19 ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ وهذا عتاب وحث على النظر إلى حالة الطير التي سخرها الله، وسخر لها الجو والهواء، تصف فيه أجنحتها للطيران، وتقبضها للوقوع، فتظل سابحة في الجو، مترددة فيه بحسب إرادتها وحاجتها ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ ﴾ فإنه الذي سخر لهن الجو، وجعل أجسادهن وخلقتهن في حالة مستعدة للطيران. فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها، دلته على قدرة الباري، وعنايته الربانية، وأنه الواحد الأحد، الذي لا تنبغي العبادة إلا له ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ فهو المدبر لعباده بما يليق بهم، وتقتضيه حكمته.

﴿ 20 – 21 ﴾ ﴿ أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ * أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ﴾ من الذي ينصركم على أعدائكم غير الرحمن؟ فإنه تعالى هو الناصر المعز المذل ﴿ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ فاستمرار الكافرين على كفرهم، بعد أن علموا أنه لا ينصرهم أحد من دون الرحمن، غرور وسفه ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ فلو أمسك عنكم رزقه، فمن الذي يرسله لكم؟ فإن الخلق لا يقدرون على رزق أنفسهم، فكيف بغيرهم ﴿ بَلْ ﴾ الكافرون ﴿ لَجُّوا ﴾ استمروا ﴿ فِي عُتُوٍّ ﴾ قسوة وعدم لين للحق ﴿ وَنُفُورٍ ﴾ شرود عن الحق.

﴿ 22 ﴾ ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ أَفَمَنْ ﴾ أي الرجلين ﴿ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى ﴾ من كان تائها في الضلال، غارقًا في الكفر قد انتكس قلبه، فصار الحق عنده باطلًا، والباطل حقًا ﴿ أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ومن كان عالمًا بالحق، مؤثرًا له، عاملًا به، يمشي على الصراط المستقيم في أقواله وأعماله وجميع أحواله؟

﴿ 23 – 26 ﴾ ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ * قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

[1] هذا تهديد ووعيد، لمن استمر في طغيانه وتعديه، وعصيانه الموجب للنكال وحلول العقوبة

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ ﴾ أوجدكم من العدم، من غير معاون له ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ﴾ ثم كمل لكم الوجود بـ ﴿ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ التي هي أنفع أعضاء البدن وأكمل القوى الجسمانية. لكنكم مع هذا الإنعام ﴿ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ الله، قليل منكم الشاكر، وقليل منكم الشكر ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ بثكم في أقطارها، وأسكنكم في أرجائها، وأمركم، ونهاكم، وأسدى عليكم من النعم، ما به تنتفعون ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ثم بعد ذلك يحشركم ليوم القيامة. ولكن هذا الوعد بالجزاء، ينكره هؤلاء المعاندون ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ تكذيبًا ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ جعلوا علامة صدقهم أن يخبروا بوقت مجيئه، وهذا ظلم وعناد ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ فإنما العلم عند الله لا عند أحد من الخلق. ولا ملازمة بين صدق هذا الخبر وبين الإخبار بوقته.

﴿ 27 – 30 ﴾ ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾ فإذا كان يوم الجزاء ورأوا العذاب ﴿ زُلْفَةً ﴾ منهم قريبًا ﴿ سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ساءهم ذلك وأفظعهم، ووبخوا على تكذيبهم ﴿ وَقِيلَ ﴾ لهم ﴿ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ وتكذبون ، فاليوم رأيتموه عيانًا، وانجلى لكم الأمر. ولما كان المكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم ينتظرون هلاكه، أمره الله أن يقول لهم ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا ﴾ أنتم وإن حصلت لكم أمانيكم وأهلكني الله ومن معي، فليس ذلك بنافع لكم شيئًا. لأنكم كفرتم بآيات الله، واستحققتم العذاب ﴿ فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قد تحتم وقوعه بكم؟ وأمر الله نبيه أن يقولوا ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ والإيمان يشمل التصديق الباطن، والأعمال الباطنة والظاهرة. وقد خص الله التوكل من بين سائر الأعمال، رغم أنه داخل في الإيمان ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ثم أخبر عن انفراده بالنعم، خصوصًا بالماء الذي جعل الله منه كل شيء حي فقال ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ غائرًا ﴿ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ تشربون منه، وتسقون أنعامكم وزروعكم؟ وهذا استفهام بمعنى النفي: لا يقدر أحد على ذلك غير الله تعالى.

تمت ولله الحمد.

68

مختصر تفسير سورة القلم

عدد آياتها 52

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 – 7 ﴾ ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

﴿ ن ﴾ من الأسلم السكوت عن التعرض لمعنى الحروف المتقطّعة في أوائل السور، مع الجزم بأن الله تعالى أنزلها لحكمة لا نعلمها ﴿ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ يقسم تعالى بالقلم، وما يسطرون به من أنواع الكلام من آيات الله العظيمة التي تستحق أن يقسم الله بها ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ فنفى عنه الجنون بنعمة ربه عليه وإحسانه، حيث منّ عليه بالعقل الكامل، والكلام الفصل الذي هو أحسن ما جرت به الأقلام ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا ﴾ عظيمًا، كما يفيده التنكير ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير مقطوع ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ عاليًا به، مستعليًا بخلقك الذي من الله عليك به ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ. بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ وقد تبين أنه أهدى الناس، وأكملهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضل الناس وشر الناس للناس ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ وأنهم هم الذين فتنوا عباد الله، وأضلوهم عن سبيله، وكفى بعلم الله بذلك ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ وهذا فيه تهديد للضالين، ووعد للمهتدين، وبيان لحكمة الله، حيث كان يهدي من يصلح للهداية، دون غيره.

﴿ 8 – 16 ﴾ ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾

﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ الذين كذبوك وعاندوا الحق، فإنهم ليسوا أهلًا لأن يطاعوا، لأنهم لا يأمرون إلا بما يوافق أهواءهم ﴿ وَدُّوا ﴾ أي المشركون ﴿ لَوْ تُدْهِنُ ﴾ أي توافقهم على بعض ما هم عليه، إما بالقول أو الفعل أو بالسكوت عما يتعين الكلام فيه ﴿ فَيُدْهِنُونَ. وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ ﴾ كثير الحلف، فإنه لا يكون كذلك إلا وهو كذاب، ولا يكون كذابًا إلا وهو ﴿ مُهِينٌ ﴾ أي خسيس النفس ﴿ هَمَّازٍ ﴾ أي كثير العيب للناس والطعن فيهم بالغيبة والاستهزاء ﴿ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ أي يمشي بين الناس بالنميمة، وهي نقل كلام بعض الناس لبعض، لقصد الإفساد بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء ﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ ﴾ الذي يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ على الخلق في ظلمهم ﴿ أَثِيمٍ ﴾ كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله تعالى ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾

أي غليظ شرس الخلق قاس غير منقاد للحق ﴿ زَنِيمٍ ﴾ أي دعي، ليس له أصل، له زنمة أي علامة في الشر، يعرف بها ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾[1] استكبر عن الحق لأجل كثرة ماله وولده ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ التي يمكن صدقها وكذبها ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ توعد تعالى من جرى منه ما وصف الله، بأن الله سيسمه على خرطومه ويعذبه عذابًا ظاهرًا يكون عليه سمة وعلامة في أشق الأشياء عليه، وهو وجهه.

﴿ 17 – 33 ﴾ ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ* فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ* قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ * كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ هؤلاء المكذبين، بالخير وأمهلناهم ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ فاغترارهم بذلك نظير اغترار أصحاب الجنة ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا ﴾ حين أينعت أشجارها وجزموا أنها في أيديهم ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أي يجذونها مصبحين ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ حِصّة المساكين ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ ﴾ عذاب نزل عليها ليلًا ﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ فأبادها وأتلفها ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ كالليل المظلم، ذهبت الأشجار والثمار ﴿ فَتَنَادَوْا ﴾ تنادوا فيما بينهم ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ لما أصبحوا، يقول بعضهم لبعض ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ ﴾ بكّروا قبل انتشار الناس ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ. فَانْطَلَقُوا ﴾ قاصدين له ﴿ وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴾ مخافتة، خوفًا أن يسمعهم أحد ﴿ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ ﴾ تواصوا بمنع الفقراء والمساكين ﴿ وَغَدَوْا ﴾ في هذه القسوة ﴿ عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾ على منع حق الله، جازمين بقدرتهم عليها ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾ على الوصف الذي ذكر الله كالصريم ﴿ قَالُوا ﴾ من الحيرة والانزعاج ﴿ إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ أي تائهون عنها، لعلها غيرها. فلما تحققوها قالوا ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ فعرفوا حينئذ أنه عقوبة، فـ ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أي أعدلهم، وأحسنهم طريقة ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أي تنزهون الله عما لا يليق به، ومن ذلك، ظنكم أن قدرتكم مستقلة، فـ ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ استدركوا بعد ذلك، ولكن بعد ما وقع العذاب على جنتهم ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴾ فيما أجروه وفعلوه ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ متجاوزين للحد في حق الله، وحق عباده ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ فهم رجوا الله أن يبدلهم خيرًا منها، ووعدوا أنهم سيرغبون إلى الله. فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيرًا منها لأن من دعا الله صادقًا أعطاه سؤله. قال تعالى مبينا ما وقع ﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ ﴾ أي الدنيوي لمن أتى بأسباب العذاب ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ من عذاب الدنيا ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾.

---

[1] نزلت هذه الآيات في بعض المشركين، كالوليد بن المغيرة أو غيره. لكنها آيات عامة في كل من اتصف بهذا الوصف

﴿ 34 - 41 ﴾ ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ والعيش في جوار أكرم الأكرمين ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ حكمته تعالى لا تقتضي أن يجعل المسلمين القانتين لربهم، كالمجرمين الذين أوضعوا في معاصيه والكفر بآياته ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ من ظن أنه يسويهم في الثواب، فإنه قد أساء الحكم ﴿ أَمْ لَكُمْ ﴾ للمجرمين إذا ادعوا ذلك ﴿ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ فليس لهم كتاب فيه يدرسون ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ ويتلون أنهم من أهل الجنة، وأن لهم ما طلبوا وتخيروا ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ وليس لهم عند الله عهد ويمين بالغة إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴾ أيهم الكفيل بهذه الدعوى الفاسدة ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ ومن المعلوم أن جميع ذلك منتف، فليس لهم كتاب، ولا لهم عهد عند الله في النجاة، ولا لهم شركاء يعينونهم، فعلم أن دعواهم باطلة فاسدة.

﴿ 42 - 43 ﴾ ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ إذا كان يوم القيامة، وانكشف فيه من القلاقل والأهوال ما لا يدخل تحت الوهم، وأتى الباري لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه، فحينئذ يدعون إلى السجود لله. فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجدون لله، طوعًا واختيارًا ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ ويذهب الفجار المنافقون ليسجدوا فلا يقدرون على السجود، وتكون ظهورهم كصياصي البقر لا يستطيعون الانحناء ﴿ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ وهذا الجزاء من جنس عملهم، فإنهم كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود لله وتوحيده وعبادته وهم سالمون، لا علة فيهم، فيستكبرون عن ذلك ويأبون. فلا تسأل يومئذ عن حالهم وسوء مآلهم، فإن الله قد سخط عليهم، وحقت عليهم كلمة العذاب.

﴿ 44 - 52 ﴾ ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾

﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ دعني والمكذبين بالقرآن العظيم فإن علي جزاءهم، ولا تستعجل لهم، ف ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فنمدهم ليغتروا ويستمروا على ما يضرهم ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ فإن هذا من كيد الله لهم، وكيد الله لأعدائه متين قوي ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ فإنك تدعوهم إلى الله

لمحض مصلحتهم، من غير أن تطلبهم من أموالهم مغرمًا يثقل عليهم ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ما كان عندهم من الغيوب، وقد وجدوا فيها أنهم على حق، وأن لهم الثواب عند الله، فهذا أمر ما كان. فلم يبق إلا الصبر لأذاهم والاستمرار على دعوتهم ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أي لما حكم به شرعًا وقدرًا، فالحكم القدري، يصبر على المؤذي منه، ولا يتلقى بالسخط والجزع، والحكم الشرعي، يقابل بالقبول والتسليم، والانقياد التام لأمره ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ وهو يونس بن متى، عليه الصلاة والسلام أي ولا تشابهه في عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضبًا لربه حتى ركب في البحر، فاقترع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها أيهم يلقون لكي تخف بهم، فوقعت القرعة عليه فالتقمه الحوت ﴿ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ وهو في بطنها قد كظمت عليه، أو نادى وهو مغتم مهتم ﴿ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ ﴾ أي لطرح في العراء، وهي الأرض الخالية ﴿ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ ولكن الله تغمده برحمته فنبذ وهو ممدوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى، ولهذا قال ﴿ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ ﴾ أي اختاره واصطفاه ونقاه من كل كدر ﴿ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم. فامتثل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، أمر ربه، فصبر لحكم ربه صبرًا لا يدركه فيه أحد من العالمين ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ﴾ فجعل الله له العاقبة ولم يدرك أعداؤه فيه إلا ما يسوءهم، حتى إنهم حرصوا على أن يزلقوه بأبصارهم أي يصيبوه بأعينهم، من حسدهم وغيظهم وحنقهم، هذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعلي، وأما الأذى القولي ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ قال تعالى ﴿ وَمَا هُوَ ﴾ هذا القرآن الكريم ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم.

تم تفسير سورة القلم

والحمد لله رب العالمين

مختصر تفسير سورة الحاقة

عدد آياتها 52

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 8 ﴾ ﴿ الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾

﴿ الْحَاقَّةُ ﴾ من أسماء يوم القيامة، لأنها تحق وتنزل بالخلق. عظم تعالى شأنها وفخمه، بما كرره من قوله ﴿ مَا الْحَاقَّةُ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ فإن لها شأنا عظيما. ثم ذكر نموذجا من أحوالها الموجودة في الدنيا المشاهدة فيها، وهو ما أحله من العقوبات البليغة بالأمم العاتية ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ﴾ وهم القبيلة[1] المشهورة ﴿ وَعَادٌ ﴾ الأولى سكان[2] حضرموت ﴿ بِالْقَارِعَةِ ﴾ التي تقرع الخلق بأهوالها، فأهلك الله الطائفتين بالهلاك المعجل ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ وهي الصيحة العظيمة التي زهقت لها أرواحهم فأصبحوا موتى لا يرى إلا مساكنهم وجثثهم ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ أي قوية شديدة الهبوب لها صوت أبلغ من صوت الرعد ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ عتت على خزانها، على قول كثير من المفسرين، أو عتت على عاد وزادت على الحد كما هو الصحيح ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ نحسا وشرا فظيعا عليهم فدمرتهم وأهلكتهم ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى ﴾ هلكى موتى ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ كأنهم جذوع النخل التي قد قطعت رءوسها الخاوية ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي المتقرر.

﴿ 9 - 12 ﴾ ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً * إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾

﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ ﴾ وكذلك غير هاتين الأمتين الطاغيتين عاد وثمود جاء غيرهم من الطغاة العتاة كفرعون مصر[3] ﴿ وَمَنْ قَبْلَهُ ﴾ من المكذبين ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ ﴾ أي قرى قوم لوط، الجميع جاءوا ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ أي بالفعلة الطاغية وهي الكفر وأنواع الفواحش ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ وهذا اسم جنس أي كل من هؤلاء كذب الرسول الذي أرسله الله إليهم ﴿ فَأَخَذَهُمْ ﴾ جميعهم ﴿ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ أي زائدة على الحد والمقدار الذي يحصل به هلاكهم ﴿ إِنَّا لَمَّا

---

1 سكان الحجر الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحا عليه السلام، ينهاهم عما هم عليه من الشرك، ويأمرهم بالتوحيد، فردوا دعوته وكذبوه وكذبوا ما أخبرهم به من يوم القيامة

2 حين بعث الله إليهم رسوله هودا عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده فكذبوه وكذبوا بما أخبر به من البعث

3 الذي أرسل الله إليه عبده ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام وأراه من الآيات البينات ما تيقنوا بها الحق ولكن جحدوا وكفروا ظلما وعلوا

طَغَى الْمَاءُ ﴾ ومن جملة أولئك قوم نوح أغرقهم الله في اليم ﴿ حَمَلْنَاكُمْ ﴾ وامتن الله على الخلق الموجودين بعدهم أن الله حملهم ﴿ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ وهي السفينة، في أصلاب آبائهم وأمهاتهم الذين نجاهم الله. فاحمدوا الله واعتبروا بآياته الدالة على توحيده ولهذا قال ﴿ لِنَجْعَلَهَا ﴾ أي الجارية والمراد جنسها ﴿ لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ تذكركم كيف نجى الله من آمن به ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ تعقلها أولو الألباب ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها.

﴿ 13 – 18 ﴾ ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾

﴿ فَإِذَا نُفِخَ ﴾ ينفخ إسرافيل ﴿ فِي الصُّورِ ﴾ إذا تكاملت الأجساد نابتة ﴿ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ فتخرج الأرواح فتدخل كل روح في جسدها فإذا الناس قيام لرب العالمين ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ فتتت الجبال واضمحلت وخلطت بالأرض ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ ﴾ فإنها تضطرب وتمور وتتشقق ويتغير لونها ﴿ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ لأمر عظيم أوهاها وأضعفها ﴿ وَالْمَلَكُ ﴾ أي الملائكة الكرام ﴿ عَلَى أَرْجَائِهَا ﴾ أي على جوانب السماء ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ أملاك ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ على الله ﴿ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ لا من أجسامكم ولا من أعمالكم.

﴿ 19 – 24 ﴾ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ وهؤلاء هم أهل السعادة يعطون كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة ﴿ فَيَقُولُ ﴾ محبة أن يطلع الخلق على ما من الله عليه به من الكرامة ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ أي دونكم كتابي فاقرأوه فإنه يبشر بالجنات ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ أي أيقنت، فالظن هنا بمعنى اليقين ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ أي جامعة لما تشتهيه الأنفس ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ المحل ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ ثمرها وجناها قريبة سهلة التناول. ويقال لهم إكراما ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ من كل طعام لذيذ وشراب شهي ﴿ هَنِيئًا ﴾ تاما كاملا من غير مكدر ﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ من الأعمال الصالحة.

﴿ 25 – 37 ﴾ ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَا هُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾ هؤلاء أهل الشقاء يعطون كتب أعمالهم السيئة بشمالهم تمييزا لهم وخزيا ﴿ فَيَقُولُ ﴾ أحدهم من الهم ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴾ لأنه يبشر بدخول النار ﴿ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾ ليتني كنت نسيا منسيا ﴿ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ موتة التي لا بعث بعدها ﴿ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ﴾ ما نفعني لا في

الدنيا، لم أقدم منه شيئا، ولا في الآخرة، قد ذهب وقت نفعه ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ ذهب واضمحل كله أدراج الرياح. فحينئذ يؤمر بعذابه ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ اجعلوا في عنقه غلا يخنقه ﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ قلبوه على جمرها ولهبها ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا ﴾ من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ انظموه فيها بأن تدخل في دبره وتخرج من فمه ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ بأن كان كافرا بربه ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ فلا يطعم الفقراء والمساكين من ماله ولا يحض غيره على إطعامهم ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا ﴾ يوم القيامة ﴿ حَمِيمٌ ﴾ قريب أو صديق يشفع له ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ وهو صديد أهل النار، في غاية الحرارة، نتن الريح ﴿ لَا يَأْكُلُهُ ﴾ هذا الطعام الذميم ﴿ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ الذين أخطأوا الصراط المستقيم.

﴿ 38 - 52 ﴾ ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ * وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ * وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴾ أقسم تعالى بما يبصر الخلق من جميع الأشياء ﴿ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ فدخل في ذلك كل الخلق بل يدخل في ذلك نفسه المقدسة ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ على صدق الرسول بما جاء به وأنه بلغه عن الله تعالى ﴿ وَمَا هُوَ ﴾ ونزه الله رسوله عما رماه به أعداؤه من أنه ﴿ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ أو ساحر ﴿ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴾ وأن الذي حملهم على ذلك عدم إيمانهم ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فلو آمنوا وتذكروا، لعلموا انه ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وهذا أيضا ظن منهم بما لا يليق بالله وحكمته فإنه ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا ﴾ وافترى ﴿ بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴾ الكاذبة ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ وهو عرق متصل بالقلب إذا انقطع مات منه الإنسان. فلو قدر أن الرسول -حاشا وكلا- تقول على الله لعاجله بالعقوبة، وأخذه أخذ عزيز مقتدر، لأنه حكيم، على كل شيء قدير، فحكمته تقتضي أن لا يمهل الكاذب عليه ﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ لو أهلكه، ما امتنع هو بنفسه، ولا قدر أحد أن يمنعه من عذاب الله ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي القرآن الكريم ﴿ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم، فيعرفونها ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴾ به، وهذا فيه تهديد ووعيد للمكذبين، فإنه سيعاقبهم على تكذيبهم بالعقوبة البليغة ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ فإنهم لما رأوا ما وعدهم به تحسروا إذ لم يهتدوا به ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أعلى مراتب العلم الثابت[4] ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أي نزهه عما لا يليق بجلاله، وقدسه بذكر أوصاف جلاله وجماله وكماله.

تم تفسير سورة الحاقة
والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا
على كماله وأفضاله وعدله

[4] واليقين مراتبه ثلاثة، كل واحدة أعلى مما قبلها:
1. علم اليقين، وهو العلم المستفاد من الخبر.
2. عين اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة البصر.
3. حق اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة.
وهذا القرآن الكريم، بهذا الوصف، فإن ما فيه من العلوم المؤيدة بالبراهين القطعية، وما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانية، يحصل به لمن ذاقه حق اليقين

70

مختصر تفسير سورة المعارج

عدد آياتها 44

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 7 ﴾ ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾

يقول تعالى مبينا لجهل المعاندين واستعجالهم لعذاب الله، استهزاء وتعنتا ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ ﴾ أي دعا واستفتح مستفتح ﴿ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ. لِلْكَافِرِينَ ﴾ لاستحقاقهم له بكفرهم وعنادهم ﴿ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ أي ليس لهذا العذاب الذي استعجل به من استعجل من متمردي المشركين[1] أحد يدفعه قبل نزوله، أو يرفعه بعد نزوله ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ فلو عرفوا الله وعظمته لما استعجلوا ولتأدبوا، ولهذا أخبر تعالى من عظمته ما يضاد أقوالهم القبيحة فقال ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ ذو العلو والجلال والعظمة والتدبير لسائر الخلق، الذي ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ وهذا اسم جنس يشمل الأرواح كلها[2]، برها وفاجرها. ثم ذكر المسافة التي تعرج إلى الله فيها الملائكة والأرواح ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ وأنها تعرج في يوم بما أعانها عليه من الخفة وسرعة السير، مع أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى ما تنتهي إليه من الملأ الأعلى. هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية الكريمة فيكون هذا العروج والصعود في الدنيا، لأن السياق الأول يدل على هذا. ويحتمل أن هذا في يوم القيامة، وأن الله تبارك وتعالى يظهر لعباده في يوم القيامة من عظمته وجلاله وكبريائه، ما هو أكبر دليل على معرفته، مما يشاهدونه من عروج الأملاك والأرواح صاعدة ونازلة بالتدابير الإلهية في ذلك اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة من طوله وشدته، لكن الله تعالى يخففه على المؤمن ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ على دعوتك لقومك ﴿ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ ولا يمنعك عنهم ما ترى من عدم انقيادهم ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴾ الضمير يعود إلى البعث الذي يقع فيه عذاب السائلين بالعذاب أي غلبت عليهم الشقوة والسكرة، حتى تباعد جميع ما أمامهم من البعث والنشور ﴿ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ والله يراه قريبا، ويعلم أنه لا بد أن يكون.

---

[1] وهذا حين دعا النضر بن الحارث القرشي أو غيره من المشركين فقال: ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ إلى آخر الآيات.

[2] وهذا عند الوفاة، فأما الأبرار فتعرج أرواحهم إلى الله، فيؤذن لها من سماء إلى سماء، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله عز وجل، فتحيي ربها وتسلم عليه، وتحظى بقربه، وتبتهج بالدنو منه. وأما أرواح الفجار فتعرج، فإذا وصلت إلى السماء استأذنت فلم يؤذن لها، وأعيدت إلى الأرض.

﴿ 8 - 18 ﴾ ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ * كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِلشَّوَى * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾

﴿ يَوْمَ ﴾ القيامة ﴿ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾ وهو الرصاص المذاب من تشققها ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذاك هباء منثورا فتضمحل ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا. يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ أي يشاهد القريب حميمه، فلا يبقى في قلبه متسع لسؤال حميمه عن حاله، ولا يهمه إلا نفسه ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ ﴾ الذي حق عليه العذاب ﴿ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ ﴾ أي زوجته ﴿ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ ﴾ أي قرابته ﴿ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴾ أي التي جرت عادتها في الدنيا أن تتناصر ويعين بعضها بعضا، ففي يوم القيامة لا ينفع أحد أحدا، ولا يشفع أحد إلا بإذن الله ﴿ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴾ بل لو يفتدي المجرم المستحق للعذاب بجميع ما في الأرض ثم ينجيه لم ينفعه ذلك ﴿ كَلَّا ﴾ أي لا حيلة ولا مناص لهم، قد حقت عليهم كلمة ربك على الذين فسقوا ﴿ إِنَّهَا لَظَى. نَزَّاعَةً لِلشَّوَى ﴾ أي للأعضاء الظاهرة والباطنة من شدة عذابها ﴿ تَدْعُوا ﴾ إليها ﴿ مَنْ أَدْبَرَ ﴾ عن اتباع الحق ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ وأعرض عنه ﴿ وجمع فأوعى ﴾ وجمع الأموال وأوعاها، فلم ينفق منها، فإن النار تدعوهم إلى نفسها وتستعد للالتهاب بهم.

﴿ 19 - 35 ﴾ ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴾

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ وهذا الوصف للإنسان من حيث هو وصف طبيعته الأصلية. وفسر الهلوع بأنه ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ إن أصابه شر ولم يستعمل الصبر والرضا بما قضى الله ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ فلا ينفق مما آتاه الله، فيجزع في الضراء ويمنع في السراء ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ إذا مسهم الخير شكروا الله وأنفقوا، وإذا مسهم الشر صبروا واحتسبوا، فإنهم ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ مداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومكملاتها ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾ من زكاة وصدقة ﴿ لِلسَّائِلِ ﴾ الذي يتعرض للسؤال ﴿ وَالْمَحْرُومِ ﴾ وهو المسكين الذي لا يسأل الناس، ولا يفطن له ﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ يؤمنون بما أخبر الله به وبالرسل، وبما جاءوا به من الكتب ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ خائفون وجلون، فيتركون لذلك كل ما يقربهم من عذاب الله ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ هو العذاب الذي يخشى ويحذر ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ فلا يطأون بها وطأ محرما، ويحفظونها، ويتركون أيضا وسائل المحرمات الداعية لفعل الفاحشة ﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أي سرياتهم ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ في وطئهن في المحل الذي هو محل الحرث ﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ أي غير الزوجة وملك اليمين ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ المتجاوزون ما أحل الله إلى ما حرم الله ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ

﴿ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ مراعون لها، حافظون مجتهدون على أدائها والوفاء بها، وهذا شامل لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربه، وبين الخلق، وكذلك شامل للعهد الذي عاهد عليه الله، والخلق ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ لا يشهدون إلا بما يعلمونه، من غير زيادة ولا نقص ولا كتمان ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ بمداومتها على أكمل وجوهها ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴾ أوصل الله لهم الكرامة والنعيم المقيم.

﴿ 36 - 39 ﴾ ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ أي مسرعين، ليبين تعالى اغترار الكافرين ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ أي قطعا متفرقة وجماعات متوزعة، كل منهم بما لديه فرح ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ أي سبب أطمعهم، وهم لم يقدموا سوى الكفر والجحود برب العالمين ﴿ كَلَّا ﴾ ليس الأمر بأمانيهم ولا إدراك ما يشتهون بقوتهم ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أي من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب، فهم ضعفاء، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا.

﴿ 40 - 44 ﴾ ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ * يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴾ هذا إقسام منه تعالى بالمشارق والمغارب، لما فيها من الآيات الباهرات على البعث ﴿ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ وقدرته على تبديل أمثالهم ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي ما أحد يسبقنا ويفوتنا ويعجزنا إذا أردنا أن نعيده ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ يخوضوا بالأقوال الباطلة ويأكلوا ويشربوا ويتمتعوا ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ فإن الله قد أعد لهم فيه من النكال والوبال ما هو عاقبة خوضهم ولعبهم ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ أي القبور ﴿ سِرَاعًا ﴾ مجيبين لدعوة الداعي، مهطعين إليها ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ يؤمون ويسرعون ويأتون أذلاء مقهورين للقيام بين يدي رب العالمين ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ ملكت قلوبهم، فخشعت منهم الأبصار، وسكنت منهم الحركات. فهذه الحال والمآل: هو ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ ولا بد من الوفاء بوعد الله

تمت والحمد لله

مختصر تفسير سورة نوح عليه السلام

عدد آياتها 28

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 4 ﴾ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّـهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّـهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ رحمة بهم ﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فيهلكهم الله هلاكا أبديا. فامتثل نوح عليه السلام لذلك ف ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ واضح النذارة بيّنها ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ تعالى بالتوحيد والعبادة، والبعد عن الشرك وطرقه ﴿ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ فإنهم إذا اتقوا الله ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أي يمتعكم في هذه الدار إلى أجل مقدر ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فإن الموت لا بد منه.

﴿ 5 - 7 ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ فلم يجيبوا لدعوته، ولا انقادوا لأمره ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴾ أي نفورا عن الحق وإعراضا ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ أي لأجل أن يستجيبوا فإذا استجابوا غفرت لهم ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ حذر سماع ما يقول لهم نبيهم نوح عليه السلام ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ أي تغطوا بها غطاء يغشاهم بعدا عن الحق وبغضا له ﴿ وَأَصَرُّوا ﴾ على كفرهم وشرهم ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا ﴾ على الحق ﴿ اسْتِكْبَارًا ﴾ فشرهم ازداد، وخيرهم بعد.

﴿ 8 - 12 ﴾ ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ أي بمسمع منهم كلهم ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ كل هذا حرص ونصح، وإتيانهم بكل باب يظن أن يحصل منه المقصود ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب، واستغفروا الله منها ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ كثير المغفرة لمن تاب واستغفر. ورغبهم أيضا بخير الدنيا العاجل ﴿ يُرْسِلِ

السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ أي مطرا متتابعا ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ ﴾ تدركون بها ما تطلبون من الدنيا ﴿ وَبَنِينَ ﴾ يكثر أولادكم ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ وهذا من أبلغ ما يكون من لذات الدنيا ومطالبها.

﴿ 13 - 20 ﴾ ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّـهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّـهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّـهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّـهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ أي لا تخافون لله عظمة، وليس لله عندكم قدر ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ خلقا من بعد خلق ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ كل سماء فوق الأخرى ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ لأهل الأرض ﴿ وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ ففيه تنبيه على عظم خلق هذه الأشياء، وكثرة المنافع في الشمس والقمر الدالة على رحمته وسعة إحسانه، فالعظيم الرحيم، يستحق أن يعظم ويحب ويعبد ويخاف ويرجى ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ حين خلق أباكم آدم وأنتم في صلبه ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ عند الموت ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ للبعث والنشور، فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ أي مبسوطة مهيأة للانتفاع بها ﴿ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ لحرثها وغرسها وزرعها والبناء والسكون على ظهرها.

﴿ 21 - 25 ﴾ ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا * مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّـهِ أَنصَارًا ﴾

﴿ قَالَ نُوحٌ ﴾ شاكيا ﴿ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ﴾ ما نجع هذا الكلام والوعظ والتذكير فيهم ﴿ وَاتَّبَعُوا ﴾ الملأ والأشراف ﴿ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ أي هلاكا ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ مكرا كبيرا بليغا في معاندة الحق ﴿ وَقَالُوا ﴾ لهم داعين إلى الشرك مزينين له ﴿ لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ﴾ أن لا يدعوا ما عليه آباؤهم الأقدمون، ثم عينوا آلهتهم فقالوا ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ أوصى رؤساؤهم للتابعين لهم أن لا يدعوا عبادة هذه الآلهة[1] ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ أي أضل الكبار والرؤساء بدعوتهم كثيرا من الخلق ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ ولكن لا يزيدون بدعوة الرؤساء إلا ضلالا[2] ولم يبق محل لنجاحهم ولا لصلاحهم: ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا ﴾ في اليم الذي أحاط بهم ﴿ فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ فذهبت أجسادهم في الغرق وأرواحهم للنار والحرق ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ ينصرونهم حين نزل بهم الأمر.

﴿ 26 - 28 ﴾ ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا * رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾

---

1 وهذه أسماء رجال صالحين لما ماتوا زين الشيطان لقومهم أن يصوروا صورهم لينشطوا -بزعمهم- على الطاعة إذا رأوها، ثم طال الأمد، وجاء غير أولئك فقال لهم الشيطان: إن أسلافكم يعبدونهم، ويتوسلون بهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم

2 جاء في تفسير ابن كثير أن هذا دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم ، كما دعا موسى على فرعون

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ **يدور على وجه الأرض** ﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ **أي بقاؤهم مفسدة محضة، لهم ولغيرهم. قال نوح عليه السلام ذلك، لأنه علم نتيجة أعمالهم** ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا ﴾ **خص المذكورين لتأكد حقهم وتقديم برهم، ثم عمم الدعاء، فقال** ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ **أي خسارا ودمارا وهلاكا.**

تم تفسير سورة نوح عليه السلام

والحمد لله

مختصر تفسير سورة الجن

عدد آياتها 28

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 – 13 ﴾ ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا * وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا * وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا * وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا * وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا * وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾

﴿ قُلْ ﴾ يا أيها الرسول للناس ﴿ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ﴾ صرفهم الله إلى رسوله لسماع آياته ويكونوا نذرا لقومهم. وأمر الله رسوله أن يقص نبأهم على الناس، وذلك أنهم لما حضروه، قالوا: أنصتوا، فلما أنصتوا فهموا معانيه، ووصلت حقائقه إلى قلوبهم ﴿ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ أي من العجائب الغالية، والمطالب العالية ﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ والرشد: اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم ﴿ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ جعلوا السبب الداعي لهم إلى الإيمان وتوابعه، ما علموه من إرشادات القرآن ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ أي تعالت عظمته وتقدست أسماؤه ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ فعلموا من جد الله وعظمته، ما دلهم على بطلان من يزعم أن له صاحبة أو ولدا ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ أي قولا جائرا عن الصواب ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي غرّنا القادة والرؤساء من الجن والإنس وظنناهم لا يتجرأون على الكذب على الله ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أي كان الإنس يعبدون الجن ويستعيذون بهم عند المخاوف، فزاد الإنس الجن طغيانا وتكبرا لما رأوا الإنس يعبدونهم ويستعيذون بهم. ويحتمل أن الضمير في زادوهم يرجع إلى الجن ضمير الواو أي زاد الجن الإنسَ ذعرا وتخويفا ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴾ أي فلما أنكروا البعث أقدموا على الشرك والطغيان ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ ﴾ أي أتيناها واختبرناها ﴿ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا ﴾ عن الوصول إلى أرجائها والدنو منها ﴿ وَشُهُبًا ﴾ يرمى بها من استرق السمع ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾ فنتلقف من أخبار السماء ﴿ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴾ أي مرصدا له، معدا لإتلافه وإحراقه ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ أي لا بد من هذا أو هذا، لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيرا أنكروه، فعرفوا بفطنتهم أن هذا الأمر يريده الله، ويحدثه

في الأرض، وفي هذا بيان لأدبهم، إذ أضافوا الخير إلى الله تعالى، والشر حذفوا فاعله تأدبا مع الله ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي فساق وفجار وكفار ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾ أي فرقا متنوعة ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ أي وأنا في وقتنا الآن تبين لنا كمال قدرة الله وكمال عجزنا، وأن نواصينا بيد الله فلن نعجزه في الأرض ولن نعجزه إن هربنا وسعينا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته، لا ملجأ منه إلا إليه ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى ﴾ وهو القرآن الكريم، أثر في قلوبنا فـ ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ ثم ذكروا ما يرغب المؤمن ﴿ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ ﴾ إيمانا صادقا ﴿ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ لا نقصا ولا طغيانا ولا أذى يلحقه.

﴿ 14 - 19 ﴾ ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا * وَأَن لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚوَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا * وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّـهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّـهِ أَحَدًا * وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّـهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ أي الجائرون العادلون عن الصراط المستقيم ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ أي أصابوا طريق الرشد ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ وذلك جزاء على أعمالهم، لا ظلم من الله لهم ﴿ وَأَن لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ المثلى ﴿ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ هنيئا مريئا، ولم يمنعهم ذلك إلا ظلمهم وعدوانهم ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أي لنختبرهم فيه ونمتحنهم ليظهر الصادق من الكاذب ﴿ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ ﴾ الذي هو كتابه ﴿ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ أي شديدا بليغا ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة، فإن المساجد مبنية على الإخلاص لله ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ أي يسأله ويتعبد له ويقرأ القرآن ﴿ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ كاد الجن من تكاثرهم عليه أن يكونوا عليه متلبدين متراكمين حرصا على سماع ما جاء به من الهدى.

﴿ 20 - 24 ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا * قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّـهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا * إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّـهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا * حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾

﴿ قُلْ ﴾ لهم يا أيها الرسول، مبينا حقيقة ما تدعو إليه ﴿ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ أوحده وحده لا شريك له ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ فإني عبد ليس لي من الأمر ولا من التصرف شيء ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ﴾ لا أحد أستجير به ينقذني من عذاب الله ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ أي ملجأ ومنتصرا ﴿ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ﴾ أي ليس لي مزية على الناس، إلا أن الله خصني بإبلاغ رسالاته ودعوة الخلق إلى الله ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ وهذا المراد به المعصية الكفرية، كما قيدتها النصوص الأخر المحكمة. وأما مجرد المعصية، فإنه لا يوجب الخلود في النار، كما دلت على ذلك آيات القرآن، والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأجمع عليه سلف الأمة وأئمة هذه الأمة ﴿ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ﴾ أي شاهدوه عيانا،

وجزموا أنه واقع بهم ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ في ذلك الوقت حقيقة المعرفة ﴿ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ حين لا ينصرهم غيرهم ولا أنفسهم ينتصرون.

﴿ 25 - 28 ﴾ ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا * عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾

﴿ قُلْ ﴾ لهم إن سألوك ﴿ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴾ أي غاية طويلة، فعلم ذلك عند الله ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ من الخلق، بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار والغيب ﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ فإنه يخبره بما اقتضت حكمته أن يخبره به ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ يحفظونه بأمر الله ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ بذلك ﴿ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ بما جعله لهم من الأسباب ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ أي بما عندهم، وما أسروه وأعلنوه[1] ﴿ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾.

[1] وفي هذه السورة فوائد كثيرة، منها:

- وجود الجن، وأنهم مكلفون مأمورون مكلفون
- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول إلى الجن، كما هو رسول إلى الإنس
- ذكاء الجن ومعرفتهم بالحق، وأن الذي ساقهم إلى الإيمان هو ما تحققوه من هداية القرآن، وحسن أدبهم في خطابهم.
- اعتناء الله برسوله، وحفظه لما جاء به، فحين ابتدأت بشائر نبوته، والسماء محروسة بالنجوم، والشياطين قد هربت عن أماكنها، وأن الله رحم به الأرض وأهلها.
- شدة حرص الجن لاستماع الرسول صلى الله عليه وسلم، وتراكمهم عليه.

73

مختصر تفسير سورة المزمل

عدد آياتها 20

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 – 11 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا * وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ المتغطي بثيابه كالمدثر[1] ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فأمره هنا بأشرف العبادات، وهي الصلاة، وبآكد الأوقات وأفضلها، وهو قيام الليل. ومن رحمته تعالى، أنه لم يأمره بقيام الليل كله. ثم قدر ذلك فقال ﴿ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ ﴾ أي من النصف ﴿ قَلِيلًا ﴾ بأن يكون الثلث ونحوه ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ على النصف، فيكون الثلثين ونحوها ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكر والتهيؤ والاستعداد التام له ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ نوحي إليك هذا القرآن الثقيل، أي العظيمة معانيه، وما كان بهذا الوصف حقيق أن يتهيأ له، ويرتل. ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ﴾ الصلاة فيه بعد النوم ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا ﴾ يتواطأ على القرآن القلب واللسان ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ أقرب إلى تحصيل مقصود القرآن، ويفهم ما يقول ﴿ إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ أي ترددا على حوائجك ومعاشك، يوجب اشتغال القلب وعدم تفرغه التفرغ التام ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ ﴾ شامل لأنواع الذكر كلها ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ انقطع إلى الله تعالى بالانفصال بالقلب عن الخلائق ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ وهذا اسم جنس، فهو رب كل شيء وخالقه ومدبره ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا معبود إلا وجهه الأعلى ﴿ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ حافظا ومدبرا لأمورك كلها ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ المعاندون له ويسبونه ويسبون ما جاء به ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ فيقابلهم بالهجر والإعراض عنهم وعن أقوالهم التي تؤذيه، وأمره بجدالهم بالتي هي أحسن ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ ﴾ اتركني وإياهم، فسأنتقم منهم، وإن أمهلتهم فلا أهملهم، وقوله ﴿ أُولِي النَّعْمَةِ﴾ أي أصحاب النعمة والغنى، الذين طغوا حين وسع الله عليهم من رزقه، وأمدهم من فضله ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾.

[1] وهذا الوصف حصل من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أكرمه الله برسالته، وابتدأه بإنزال وحيه بإرسال جبريل إليه، فرأى أمرا لم ير مثله، ولا يقدر على الثبات له إلا المرسلون، فاعتراه في ابتداء ذلك انزعاج حين رأى جبريل عليه السلام، فأتى إلى أهله، فقال: " زملوني زملوني " وهو ترعد فرائصه، ثم جاءه جبريل فقال: " اقرأ " فقال: " ما أنا بقارئ " فغطه حتى بلغ منه الجهد، وهو يعالجه على القراءة، فقرأ صلى الله عليه وسلم، ثم ألقى الله عليه الثبات، وتابع عليه الوحي، حتى بلغ مبلغا ما بلغه أحد من المرسلين. فسبحان الله، ما أعظم التفاوت بين ابتداء نبوته ونهايتها، ولهذا خاطبه الله بهذا الوصف الذي وجد منه في أول أمره.

﴿ 12 – 14 ﴾ ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴾

﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا ﴾ عذابا شديدا للذي لا يزال مستمرا على الذنوب ﴿ وَجَحِيمًا ﴾ نارا حامية ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ وذلك لمرارته وكراهة طعمه وريحه الخبيث المنتن ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ موجعا مفظعا، وذلك ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ من الهول العظيم ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ ﴾ الراسيات الصم الصلاب ﴿ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴾ بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تبس بعد ذلك، فتكون كالهباء المنثور.

﴿ 15 – 16 ﴾ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا ﴾ احمدوا ربكم على إرسال هذا النبي الأمي العربي البشير النذير ﴿ شَاهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ على الأمة بأعمالهم ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ ولا تكونوا كفرعون حين أرسل الله إليه موسى بن عمران، فدعاه إلى الله، وأمره بالتوحيد ﴿ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ﴾ فلم يصدقه، بل عصاه ﴿ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ أي شديدا بليغا.

﴿ 17 – 18 ﴾ ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ ﴾ فكيف يحصل لكم الفكاك والنجاة ﴿ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا ﴾ يوم القيامة ﴿ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ الذي يشيب الولدان، وتذوب له الجمادات العظام ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ﴾ وتنتثر به نجومها ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ لا بد من وقوعه، ولا حائل دونه.

﴿ 19 ﴾ ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾

﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴾ موعظة نبأ الله أحوال يوم القيامة وأهواله ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ طريقا موصلا إليه، وذلك باتباع شرعه. وفي هذا دليل على أن الله تعالى أقدر العباد على أفعالهم، ومكنهم منها، لا كما يقوله الجبرية: إن أفعالهم تقع بغير مشيئتهم، فإن هذا خلاف النقل والعقل.

﴿ 20 ﴾ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ ذكر الله في أول هذه السورة أنه أمر رسوله بقيام نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه. وذكر في هذا الموضع أنه امتثل ذلك هو ﴿ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ من المؤمنين ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أي سهل عليهم في ذلك وهو يعلم مقاديرهما وما يمضي منهما ويبقى ﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ

تُحْصُوهُ ﴾ أي لن تعرفوا مقداره من غير زيادة ولا نقص، فخفف عنكم، وأمركم بما تيسر عليكم، سواء زاد على المقدر أو نقص ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ مما تعرفون ومما لا يشق عليكم. ولهذا كان المصلي بالليل مأمورا بالصلاة ما دام نشيطا، فإذا فتر أو كسل أو نعس، فليسترح، ليأتي الصلاة بطمأنينة وراحة ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى ﴾ يشق عليهم صلاة ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه، فليصل المريض المتسهل عليه، ولا يكون أيضا مأمورا بالصلاة قائما عند مشقة ذلك، بل لو شقت عليه الصلاة النافلة، فله تركها وله أجر ما كان يعمل صحيحا ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ وعلم أن منكم مسافرين. ولهذا خفف عنهم في صلاة الفرض، فأبيح لهم جمع الصلاتين في وقت واحد، وقصر الصلاة الرباعية ﴿ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ من قتال أو جهاد أو حج أو عمرة ونحو ذلك[2] ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ بأركانها وشروطها ومكملاتها ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ خالصا لوجه الله، ويدخل في هذا الصدقة الواجبة والمستحبة. ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير، فائدة كبيرة، وذلك أن العبد ما يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلا أو يفعله على وجه ناقص، فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار.

تم تفسير سورة المزمل

[2] فذكر تعالى تخفيفين، تخفيفا للصحيح المقيم، يراعي فيه نشاطه، من غير أن يكلف عليه تحرير الوقت، بل يتحرى الصلاة الفاضلة، وهي ثلث الليل بعد نصفه الأول. وتخفيفا للمريض أو المسافر، سواء كان سفره للتجارة، أو لعبادة.

مختصر تفسير سورة المدثر

عدد آياتها 56
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 7 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ المزمل والمدثر بمعنى واحد، أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم في سورة المزمل بالعبادات الفاضلة القاصرة، والصبر على أذى قومه، وأمره هنا بإعلان الدعوة ﴿ قُمْ ﴾ أي بجد ونشاط ﴿ فَأَنْذِرْ ﴾ الناس بالأقوال والأفعال ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ عظمه بالتوحيد ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ يحتمل أن المراد بثيابه أعماله كلها، وبتطهيرها تخليصها والنصح بها، وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات، مما يؤمر العبد باجتنابه في عباداته. ويدخل في ذلك تطهير الثياب من النجاسة، فإن ذلك من تمام التطهير للأعمال خصوصا في الصلاة، التي قال كثير من العلماء: إن إزالة النجاسة عنها شرط من شروط الصلاة. فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ يحتمل أن المراد بالرجز الأصنام والأوثان، التي عبدت مع الله، فأمره بتركها، والبراءة. ويحتمل أن المراد بالرجز أعمال الشر كلها وأقواله، فيدخل في ذلك الشرك وما دونه ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ لا تمنن على الناس بما أسديت إليهم من النعم الدينية والدنيوية، فتتكثر بتلك المنة، وترى لك الفضل عليهم بإحسانك المنة، بل أحسن إلى الناس مهما أمكنك، واجعل من أحسنت إليه وغيره على حد سواء. وقد قيل: إن معنى هذا، لا تعط أحدا شيئا، وأنت تريد أن يكافئك عليه بأكثر منه، فيكون هذا خاصا بالنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ أي احتسب بصبرك، واقصد به وجه الله تعالى.

﴿ 8 - 10 ﴾ ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ في الصور للقيام من القبور، وجمع الخلق للبعث والنشور ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ لكثرة أهواله وشدائده ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ لأنهم قد أيسوا من كل خير، وأيقنوا بالهلاك والبوار. ومفهوم ذلك أنه على المؤمنين يسير.

﴿ 11 - 31 ﴾ ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ

سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ خلقته[1] منفردا بلا مال ولا أهل ولا غيره ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴾ كثيرا ﴿ و ﴾ جعلت له ﴿ بَنِينَ ﴾ ذكورا ﴿ شُهُودًا ﴾دائما حاضرين عنده ﴿ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ مكنته من الدنيا وأسبابها ﴿ ثُمَّ ﴾ مع هذه النعم والإمدادات ﴿ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ يطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا ﴿ كَلَّا ﴾ ليس الأمر كما طمع، بل هو بخلاف مقصوده ومطلوبه ﴿ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ معاندا، عرفها ثم أنكرها، بل جعل يحاربها ويسعى في إبطالها ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ ﴾ في نفسه ﴿ وَقَدَّرَ ﴾ ما فكر فيه، ليقول قولا يبطل به القرآن ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ لأنه قدر أمرا ليس في طوره، وتسور على ما لا يناله هو و لا أمثاله ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ ما يقول ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ في وجهه، وظاهره نفرة عن الحق وبغضا له ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ تولى ﴿ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ نتيجة سعيه الفكري والعملي والقولي ﴿ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ ما هذا كلام الله، بل كلام بشر من كل كاذب سحار ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ. لَا تُبْقِي ﴾ من الشدة ﴿ وَلَا تَذَرُ ﴾ على المعذب شيئا إلا وبلغته ﴿ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴾ تلوحهم وتصليهم في عذابها ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ من الملائكة، خزنة لها ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾ لشدتهم وقوتهم ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يحتمل أن المراد: إلا لعذابهم وعقابهم في الآخرة، والعذاب يسمى فتنة. ويحتمل أن المراد: أنا ما أخبرناكم بعدتهم، إلا لنعلم من يصدق ومن يكذب، ويدل على هذا ما ذكر بعده في قوله ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ فإنهم إذا وافق ما عندهم وطابقه ازداد يقينهم بالحق ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ والمؤمنون كلما أنزل الله آية، فآمنوا بها وصدقوا ازداد إيمانهم ﴿ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ ليزول عنهم الريب والشك ﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ شك وشبهة ونفاق ﴿ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ وهذا على وجه الحيرة والشك، والكفر منهم بآيات الله ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ فجعل ما أنزله على رسوله زيادة شقاء عليه وحيرة ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ فجعل ما أنزله الله على رسوله رحمة في حقه ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ فعليكم أن تصدقوا خبره، من غير شك ولا ارتياب ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ فما ينفعهم يفعلونه، وما يضرهم فيتركونه.

﴿ 32 - 56 ﴾ ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ * كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ * فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ

[1] هذه الآيات، نزلت في الوليد بن المغيرة، معاند الحق، والمبارز لله ولرسوله بالمحاربة والمشاقة، فذمه الله ذما لم يذمه غيره، وهذا جزاء كل من عاند الحق ونابذه، أن له الخزي في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى.

مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً * كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ * كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾

﴿ كَلَّا ﴾ بمعنى حقا، أو بمعنى ألا الاستفتاحية ﴿ وَالْقَمَرِ ﴾ فأقسم تعالى بالقمر ﴿ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ وبالليل وقت إدباره ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ والنهار وقت إسفاره، لاشتمال المذكورات على آيات الله العظيمة، الدالة على كمال قدرة الله وحكمته. والمقسم عليه قوله ﴿ إِنَّهَا ﴾ أي النار ﴿ لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴾ أي لإحدى العظائم الطامة والأمور الهامة ﴿ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ. لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ ﴾ فيعمل بما يقربه من ربه ﴿ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ عما يحبه الله فيعمل بالمعاصي ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ من أعمال السوء وأفعال الشر ﴿ رَهِينَةٌ ﴾ بها ﴿ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ فإنهم لم يرتهنوا، بل أطلقوا وفرحوا ﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ حصل لهم بها جميع مطلوباتهم ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ حال وصلوا إليها ﴿ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ فاطلعوا عليهم في وسط الجحيم يعذبون، فقالوا لهم ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ أي شيء أدخلكم فيها؟ فـ ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ فلا إخلاص للمعبود، ولا نفع للخلق المحتاجين ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ بالباطل، ونجادل به الحق ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ هذا آثار الخوض بالباطل، وهو التكذيب بالحق ﴿ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ أي الموت، فلما ماتوا على الكفر تعذرت حينئذ عليهم الحيل ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ صادين غافلين عنها ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ في نفرتهم الشديدة منها ﴿ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴾ كأنهم حمر وحش نفرت وزاد عدوها ﴿ فَرَّتْ ﴾ من صائد ورام يريدها ﴿ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ أو من أسد ونحوه، وهذا من أعظم ما يكون من النفور عن الحق، ومع هذا الإعراض وهذا النفور، يدعون الدعاوى الكبار: فـ ﴿ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً ﴾ نازلة عليه من السماء، يزعم أنه لا ينقاد للحق إلا بذلك ﴿ كَلَّا ﴾ أن نعطيهم ما طلبوا، وهم ما قصدوا بذلك إلا التعجيز ﴿ بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴾ فلو كانوا يخافونها لما جرى منهم ما جرى ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾ الضمير إما أن يعود على هذه السورة، أو على ما اشتملت عليه من هذه الموعظة ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ لأنه قد بين له السبيل، ووضح له الدليل ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ فإن مشيئته نافذة عامة، لا يخرج عنها حادث قليل ولا كثير، ففيها رد على القدرية، الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة الله، والجبرية الذين يزعمون أنه ليس للعبد مشيئة، ولا فعل حقيقة، وإنما هو مجبور على أفعاله، فأثبت تعالى للعباد مشيئة حقيقة وفعلا، وجعل ذلك تابعا لمشيئته ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى ﴾ هو أهل أن يتقى ويعبد ﴿ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ وأهل أن يغفر لمن اتقاه واتبع رضاه.

تم تفسير سورة المدثر

ولله الحمد

مختصر تفسير سورة القيامة

عدد آياتها 40

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 – 6 ﴾ ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ * بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾

﴿ لَا ﴾ للاستفتاح والاهتمام بما بعدها ﴿ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ المقسم عليه هو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ لكثرة ترددها وتلومها وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها، ولأنها عند الموت تلوم صاحبها على ما عملت. بل نفس المؤمن تلوم صاحبها في الدنيا على ما حصل منه، من تفريط أو تقصير في حق من الحقوق، أو غفلة ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أن لَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ بعد الموت. فرد عليه بقوله ﴿ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ أي أطراف أصابعه وعظامه، لأنها إذا وجدت فقد تمت خلقة الجسد ﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ ﴾ الفجور هو الكذب مع التعمد ﴿ أَمَامَهُ ﴾ يكذب بما أمامه، ولذلك فإنه ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ يكذب بالبعث.

﴿ 7 – 15 ﴾ ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾

﴿ فَإِذَا ﴾ كانت القيامة ﴿ بَرِقَ الْبَصَرُ ﴾ من الهول العظيم، وشخصت فلا تطرف ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ ذهب نوره وسلطانه ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالى، فيجمع الله بينهما يوم القيامة، ثم يقذفان في النار، ليرى العباد أنهما عبدان مسخران، وليرى من عبدهما أنهم كانوا كاذبين ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ ﴾ حين يرى تلك القلاقل المزعجات ﴿ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ أين الخلاص والفكاك ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾ لا ملجأ لأحد دون الله ﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ لسائر العباد فليس في إمكان أحد أن يستتر أو يهرب ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ بجميع عمله الحسن والسيء ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ شاهد ومحاسب ﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ فالعبد وإن أنكر، أو اعتذر عما عمله، فإنكاره واعتذاره لا يفيدانه شيئا.

﴿ 16 – 19 ﴾ ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا جاءه جبريل بالوحي، وشرع في تلاوته عليه، بادره النبي صلى الله عليه وسلم من الحرص قبل أن يفرغ، وتلاه مع تلاوة جبريل إياه، فنهاه الله عن هذا ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ فالحرص الذي في خاطرك، إنما الداعي له حذر الفوات والنسيان، فإذا ضمنه الله لك فلا موجب لذلك ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ أي إذا كمل جبريل قراءة ما أوحى الله إليك، فحينئذ اتبع ما قرأه وأقرأه ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ بيان معانيه، فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه، وهذا أعلى ما يكون، فامتثل صلى الله عليه وسلم لأدب ربه، فكان إذا تلا عليه جبريل القرآن بعد هذا، أنصت له، فإذا فرغ قرأه.

﴿ 20 – 25 ﴾ ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾

﴿ كَلَّا بَلْ ﴾ هذا الذي أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره أنكم ﴿ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ وتسعون فيما يحصلها ﴿ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾ وتؤثرونها على الآخرة، فتذرون العمل لها، لأن الآخرة متأخر ما فيها من النعيم المقيم، فلذلك غفلتم عنها وتركتموها، كأنكم لم تخلقوا لها. ثم ذكر ما يدعو إلى إيثار الآخرة ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾ أي حسنة بهية ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ تنظر إلى ربها فإذا رأوه نضرت وجوههم فنسأل الله الكريم أن يجعلنا معهم. وقال في المؤثرين العاجلة على الآجلة ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ معبسة ومكدرة ﴿ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ عقوبة وعذاب أليم.

﴿ 26 – 40 ﴾ ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ * فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى * أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾

﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ إذا بلغت روحه التراقي، وهي العظام المكتنفة لثغرة النحر، فحينئذ يشتد الكرب، ويطلب كل وسيلة وسبب، يظن أن يحصل به الشفاء والراحة ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ أي من يرقيه، من الرقية، لأنهم انقطعت آمالهم من الأسباب العادية، فلم يبق إلا الأسباب الإلهية ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴾ للدنيا ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ اجتمعت الشدائد والتفت ﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ فتساق إلى الله تعالى حتى يجازيها بأعمالها ﴿ فَلَا صَدَّقَ ﴾ لا آمن بالله ﴿ وَلَا صَلَّى. وَلَكِنْ كَذَّبَ ﴾ بالحق في مقابلة التصديق ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ عن الأمر والنهي وهو مطمئن قلبه، غير خائف من ربه ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ ليس على باله شيء. فتوعده بقوله ﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى. ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾ كررها لتكرير وعيده، ثم ذكر الإنسان بخلقه الأول، فقال ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ أي معطلا، لا يثاب ولا يعاقب ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى. ثُمَّ كَانَ ﴾ بعد المني ﴿ عَلَقَةً ﴾ أي دما ﴿ فَخَلَقَ ﴾ الله منها الحيوان ﴿ فَسَوَّى ﴾ أتقنه وأحكمه ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى. أَلَيْسَ ذَلِكَ ﴾ الذي خلق الإنسان ﴿ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ بلى إنه على كل شيء قدير.

تم تفسير سورة القيامة

ولله الحمد والمنة

وذلك في 16 صفر سنة 1344

المجلد التاسع

من تيسير الكريم الرحمن في تفسير القرآن

لجامعه الفقير إلى الله

عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين آمين

76

مختصر تفسير سورة الإنسان

عدد آياتها 31

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 3 ﴾ ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾ ذكر الله في هذه السورة الكريمة أول حالة الإنسان ومبتدأها ومتوسطها ومنتهاها. فذكر أنه مر عليه دهر طويل قبل وجوده وهو معدوم، بل ليس مذكورا ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ ثم خلق أباه آدم من طين، ثم جعل نسله متسلسلا ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ أي: ماء[1] مهين مستقذر ﴿ نَبْتَلِيهِ ﴾ بذلك لنعلم هل يرى حاله الأولى ويتفطن لها أم ينساها وتغره نفسه ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ فأنشأه الله وخلق له القوى الباطنة والظاهرة، كالسمع والبصر وسائر الأعضاء، يتمكن بها من تحصيل مقاصده ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ ثم هداه الطريق الموصلة إلى الله، وأخبره بالطريق الموصلة إلى الهلاك، وابتلاه بذلك، فانقسم الناس إلى شاكر لنعمة الله عليه، وإلى كفور.

﴿ 4 - 22 ﴾ ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا * إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّـهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّـهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا

---

[1] جاء في تفسير ابن كثير: الأمشاج : هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة (م)

وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ ﴾ هيأنا وأرصدنا لمن كفر بالله ﴿ سَلَاسِلَا ﴾ في نار جهنم ﴿ وَأَغْلَالًا ﴾ يوثقون بها ﴿ وَسَعِيرًا ﴾ نارا تستعر بها أجسامهم ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ ﴾ وهم الذين برت قلوبهم بما فيها من محبة الله ومعرفته ﴿ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ ﴾ شراب لذيذ من خمر ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ قد مزج بكافور ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ أي ذلك الكأس اللذيذ الذي يشربون به، له مادة لا تنقطع ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أنى شاءوا، وكيف أرادوا ﴿ يُوفُونَ ﴾ بما ألزموا به أنفسهم ﴿ بِالنَّذْرِ ﴾ لله من النذور والمعاهدات ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ منتشرا فاشيا، فخافوا أن ينالهم شره، فتركوا كل سبب موجب لذلك ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ وهم في حال يحبون فيها المال والطعام، لكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم، ويتحرون في إطعامهم أولى الناس وأحوجهم ﴿ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ ويقولون بلسان الحال ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً ﴾ ماليا ﴿ وَلَا شُكُورًا ﴾ ولا ثناء قوليا ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا ﴾ شديد الجهمة والشر﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ ضنكا ضيقا ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴾ فلا يحزنهم الفزع الأكبر، وتتلقاهم الملائكة ﴿ وَلَقَّاهُمْ ﴾ أكرمهم وأعطاهم ﴿ نَضْرَةً ﴾ في وجوههم ﴿ وَسُرُورًا ﴾ في قلوبهم، فجمع لهم بين نعيم الظاهر والباطن ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا ﴾ على طاعة الله فعملوا ما أمكنهم منها، وعن معاصي الله فتركوها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلم يتسخطوها ﴿ جَنَّةً ﴾ جامعة لكل نعيم ﴿ وَحَرِيرًا ﴾ ولعل الله خص الحرير، لأنه لباسهم الظاهر الدال على حال صاحبه ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ الاتكاء: التمكن من الجلوس، في حال الرفاهية والطمأنينة، والأرائك هي السرر التي عليها اللباس المزين ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا ﴾ أي في الجنة ﴿ شَمْسًا ﴾ يضرهم حرها ﴿ وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ بردا شديدا ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ أي قربت ثمراتها من مريدها تقريبا ينالها وهو قائم أو قاعد أو مضطجع ﴿ وَيُطَافُ ﴾ يدور ﴿ عَلَيْهِم ﴾ أهل الجنة ﴿ بِآنِيَةٍ ﴾ مادتها ﴿ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴾ وهي من صفاء جوهرها على صفاء القوارير ﴿ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ أي قدروا الأواني المذكورة على قدر ريهم، لا تزيد ولا تنقص، لأنها لو زادت نقصت لذتها، ولو نقصت لم تف بريهم. ويحتمل أن المراد: قدرها أهل الجنة بنفوسهم بمقدار يوافق لذاتهم، فأتتهم على ما قدروا في خواطرهم ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا ﴾ أي في الجنة ﴿ كَأْسًا ﴾ إناء مملوء من خمر ورحيق ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا ﴾ أي خلطها ﴿ زَنْجَبِيلًا ﴾ ليطيب طعمه وريحه ﴿ عَيْنًا فِيهَا ﴾ أي في الجنة ﴿ تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴾ سميت بذلك لسلاستها ولذتها وحسنها ﴿ وَيَطُوفُ ﴾ على أهل الجنة، في طعامهم وشرابهم وخدمتهم ﴿ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾ خلقوا من الجنة للبقاء، لا يتغيرون ولا يكبرون ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ ﴾ منتشرين في خدمتهم ﴿ حَسِبْتَهُمْ ﴾ من حسنهم ﴿ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا ﴾ وهذا من تمام لذة أهل الجنة ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ ﴾ أي هناك في الجنة، ورمقت ما هم فيه من النعيم ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ فتجد الواحد منهم، عنده ما يأخذ بالقلوب، ويفرح النفوس ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ ﴾ الديباج ما غلظ من أنواع الحرير ﴿ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ ما رق منه ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ حلوا في أيديهم أساور الفضة، ذكورهم وإناثهم ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ لا كدر فيه بوجه من الوجوه، مطهرا ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ العطاء الجميل ﴿ كَانَ لَكُمْ جَزَاءً ﴾ على ما أسلفتموه من الأعمال ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴾ أي القليل منه، يجعل الله لكم به من النعيم المقيم ما لا يمكن حصره.

﴿ 23 - 26 ﴾ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾

وقوله تعالى لما ذكر نعيم الجنة ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ فيه الأمر بالقيام بأوامره وشرائعه والصبر على ذلك ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ اصبر لحكمه القدري، فلا تسخطه، ولحكمه الديني، ولا يعوقك عنه عائق ﴿ وَلَا تُطِعْ ﴾ من المعاندين، الذين يريدون أن يصدوك ﴿ آثِمًا ﴾ فاعلا إثما ومعصية ولا ﴿ كَفُورًا ﴾ فإنهم لا يأمرون إلا بما تهواه أنفسهم ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أول النهار وآخره، فدخل في ذلك، الصلوات المكتوبات وما يتبعها ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ ﴾ أي أكثر السجود، ولا يكون ذلك إلا بالإكثار من الصلاة ﴿ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ وقد تقدم تقييد هذا المطلق بقوله: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا}.

﴿ 27 - 31 ﴾ ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا * نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا * إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ ﴾ المكذبين لك أيها الرسول لا يزالون يؤثرون و ﴿ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ ويطمئنون إليها ﴿ وَيَذَرُونَ ﴾ يتركون العمل ويهملون ﴿ وَرَاءَهُمْ ﴾ أي أمامهم ﴿ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ وهو يوم القيامة، فكأنهم ما خلقوا إلا للدنيا والإقامة فيها ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ ﴾ أوجدناهم من العدم ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ أحكمنا خلقتهم حتى تم الجسم واستكمل ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ أنشأناكم للبعث نشأة أخرى، وأعدناكم بأعيانكم، وهم بأنفسهم أمثالهم ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴾ يتذكر بها المؤمن ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ طريقا موصلا إليه. فالله يبين الحق والهدى، ثم يخير الناس بين الاهتداء بها أو النفور عنها ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ فإن مشيئة الله نافذة ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فله الحكمة في هداية المهتدي، وإضلال الضال ﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ فيوفقه لأسباب السعادة ويهديه لطرقها ﴿ وَالظَّالِمِينَ ﴾ الذين اختاروا الشقاء على الهدى ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ بظلمهم وعدوانهم.

تم تفسير سورة الإنسان

ولله الحمد والمنة

77

مختصر تفسير سورة المرسلات

عدد آياتها 50

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 15 ﴾ ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ * فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ ﴾ أقسم تعالى بالملائكة التي يرسلها الله تعالى بشئونه القدرية وتدبير العالم، وبشئونه الشرعية ووحيه إلى رسله ﴿ عُرْفًا ﴾ حال من المرسلات أي أرسلت بالعرف والحكمة والمصلحة، لا بالنكر والعبث ﴿ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴾ وهي أيضا الملائكة التي يرسلها الله تعالى كالريح العاصف في سرعة تنفيذ أوامره. أو أن العاصفات، الرياح الشديدة، التي يسرع هبوبها ﴿ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴾ يحتمل أنها الملائكة تنشر ما دبرت على نشره، أو أنها السحاب التي ينشر بها الله الأرض، فيحييها بعد موتها ﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴾ الملائكة تأتي بالوحي فُرقانا بين الحقّ والباطل ﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ الملائكه تلقي الذكر إلى الرسل ﴿ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ تنذر الناس ما أمامهم من المخاوف وتقطع معذرتهم ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ من البعث والجزاء على الأعمال ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ متحتم وقوعه، من غير شك. فإذا وقع حصل من التغير للعالم والأهوال الشديدة ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ تتناثر وتزول عن أماكنها ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ شُقّت أو فُتِحَتْ فكانت أبوابا ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ فتكون كالهباء المنثور ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ وأجلت للحكم بينها وبين أممها ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ استفهام للتعظيم والتفخيم والتهويل. ثم أجاب بقوله ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ بين الخلائق، بعضهم لبعض، وحساب كل منهم منفردا ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ يا حسرتهم، وشدة عذابهم.

﴿ 16 - 19 ﴾ ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴾ أما أهلكنا المكذبين السابقين ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴾ بإهلاك من كذب من الآخرين ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ وهذه سنته السابقة واللاحقة في كل مجرم لا بد من عذابه ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بعدما شاهدوا من الآيات البينات.

﴿ 20 - 24 ﴾ ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾

﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّمْ ﴾ أما خلقناكم أيها الآدميون ﴿ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ أي في غاية الحقارة، خرج من بين الصلب والترائب ﴿ فَجَعَلْنَاهُ ﴾ حتى جعله الله ﴿ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ وهو الرحم ﴿ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ ووقت مقدر ﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ قدرنا ودبرنا ذلك الجنين، في تلك الظلمات ﴿ فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ يعني بذلك نفسه المقدسة حيث كان قدرا تابعا للحكمة ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بعدما بين الله لهم الآيات.

﴿ 25 – 28 ﴾ ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ ﴾ بتسخيرها لمصالحكم، فجعلناها ﴿ كِفَاتًا ﴾ وعاء لكم ﴿ أَحْيَاءً ﴾ في الدور ﴿ وَأَمْوَاتًا ﴾ في القبور ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ﴾ جبالا عالية ترسي الأرض ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾ عذبا زلالا ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ مع ما أراهم الله من النعم فقابلوها بالتكذيب.

﴿ 29 – 34 ﴾ ﴿ انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾

﴿ انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ ثم فسر ذلك بقوله ﴿ انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴾ إلى ظل نار جهنم، التي تتمايز في خلاله ثلاث شعب أي قطع من النار تتناوبه وتجتمع به ﴿ لَا ظَلِيلٍ ﴾ ذلك الظل أي لا راحة فيه ولا طمأنينة ﴿ وَلَا يُغْنِي ﴾ من مكث فيه ﴿ مِنَ اللَّهَبِ ﴾ بل اللهب قد أحاط به ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ ذكر عظم شرر النار وفظاعتها ﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ﴾ إبل سود تضرب إلى لون فيه صفرة. وهذا يدل على أن النار مظلمة سوداء، كريهة المرأى، شديدة الحرارة، نسأل الله العافية منها ومن الأعمال المقربة منها ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾.

﴿ 35 – 40 ﴾ ﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ * فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾

﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ هذا اليوم الشديد على المكذبين لا ينطقون فيه من الخوف والوجل الشديد ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ لا تقبل معذرتهم، ولو اعتذروا ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ لنفصل بينكم، ونحكم بين الخلائق ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ ﴾ تقدرون على الخروج من ملكي وتنجون به من عذابي ﴿ فَكِيدُونِ ﴾ ليس لكم قدرة ولا سلطان ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ففي ذلك اليوم تبطل حيل الظالمين، ويبين لهم كذبهم في تكذيبهم.

﴿ 41 – 45 ﴾ ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي للتكذيب، المتصفين بالتصديق في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم ﴿ فِي ظِلَالٍ ﴾ من كثرة الأشجار المتنوعة ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ جارية ﴿ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ من خيار الفواكه وطيبها ﴿ كُلُوا ﴾ من المآكل الشهية ﴿ وَاشْرَبُوا ﴾ الأشربة اللذيذة ﴿ هَنِيئًا ﴾ من غير منغص ولا مكدر، ولا يتم هناؤه حتى يسلم الطعام والشراب من كل آفة ونقص، وحتى يجزموا أنه غير منقطع ولا زائل ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فأعمالكم هي السبب الموصل لكم إلى هذا النعيم ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ولو لم يكن لهم من هذا الويل إلا فوات هذا النعيم، لكفى به حرمانا.

﴿ 46 - 50 ﴾ ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴾ هذا تهديد ووعيد للمكذبين، أنهم وإن أكلوا في الدنيا وشربوا وتمتعوا باللذات فإنهم يستحقون ما يستحقه المجرمون ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ومن إجرامهم أنهم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ إذا أمروا بالصلاة أشرف العبادات، وقيل لهم ﴿ ارْكَعُوا ﴾ امتنعوا من ذلك ﴿ لَا يَرْكَعُونَ ﴾ فأي تكذيب يزيد على هذا ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ فإنهم إذا كذبوا هذا القرآن الكريم، الذي هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾

نسأل الله العفو والعافية

إنه جواد كريم

تمت

78

مختصر تفسير سورة النبأ

عدد آياتها 40

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 – 5 ﴾ ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ * كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ عن أي شيء يتساءل المكذبون بآيات الله ﴿ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ عن الخبر العظيم ﴿ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ انتشر فيه خلافهم على وجه التكذيب والاستبعاد ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ إذا نزل بهم العذاب ما كانوا به يكذبون ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ حين يدعون إلى نار جهنم دعا.

﴿ 6 – 16 ﴾ ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ﴾ أما أنعمنا عليكم بنعم جليلة، فجعلنا لكم ﴿ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ ممهدة مهيأة لكم ولمصالحكم ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ تمسك الأرض لئلا تضطرب بكم وتميد ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ ذكورا وإناثا تنشأ عنهما الذرية ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ يغشى الناس لتحصل راحتهم النافعة ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ سبع سموات في غاية القوة أمسكها الله بقدرته ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ الشمس، نبه بالسراج على النعمة بنورها، وبالوهاج على حرارتها وما فيها من المصالح ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ السحاب ﴿ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ كثيرا جدا ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا ﴾ مما يأكله الآدميون ﴿ وَنَبَاتًا ﴾ جعله الله قوتا لمواشيهم ﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ بساتين ملتفة. فكيف تكذبون ما أخبركم به من البعث والنشور؟ أم كيف تستعينون بنعمه على معاصيه وتجحدونها؟

﴿ 17 – 30 ﴾ ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا * وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا * وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا * إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ يوم القيامة الذي يتساءل عنه المكذبون، أنه يوم عظيم ﴿ كَانَ ﴾ جعله ﴿ مِيقَاتًا ﴾ للخلق ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا. وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ ﴾ وتشقق السماء ﴿ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ حتى تكون أبوابا ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ ﴾ فتسير الجبال ﴿ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ حتى تكون كالهباء المبثوث ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾

ويفصل الله بين الخلائق بحكمه الذي لا يجور، وتوقد نار جهنم التي أرصدها الله ﴿ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴾ وأعدها للطاغين، وجعلها مثوى لهم ومآبا ﴿ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ وأنهم يلبثون فيها أحقابا كثيرة والحقب على ما قاله كثير من المفسرين: ثمانون سنة ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا ﴾ يبرد جلودهم ﴿ وَلَا شَرَابًا ﴾ يدفع ظمأهم ﴿ إِلَّا حَمِيمًا ﴾ ماء حارا يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم ﴿ وَغَسَّاقًا ﴾ صديد أهل النار، وهو في غاية النتن ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ استحقوا هذه العقوبات الفظيعة جزاء لهم ووفاقا على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليها. لم يظلمهم الله، ولكن ظلموا أنفسهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ لا يؤمنون بالبعث فلذلك أهملوا العمل للآخرة ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴾ كذبوا بها تكذيبا واضحا صريحا وجاءتهم البينات فعاندوها ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ ﴾ من قليل وكثير، وخير وشر ﴿ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ كتبناه في اللوح المحفوظ، فلا يحسبوا أنه يضيع من أعمالهم شيء، أو ينسى منها مثقال ذرة ﴿ فَذُوقُوا ﴾ أيها المكذبون هذا العذاب الأليم ﴿ فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ وكل وقت وحين يزداد عذابهم. وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار أجارنا الله منها.

﴿ 31 - 36 ﴾ ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا * جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين اتقوا سخط ربهم بالتمسك بطاعته، والانكفاف عما يكرهه لهم ﴿ مَفَازًا ﴾ ومنجي، وبعد عن النار، فيه لهم ﴿ حَدَائِقَ ﴾ بساتين جامعة لأشجار وثمار وأنهار ﴿ وَأَعْنَابًا ﴾ وخص الأعناب لشرفها وكثرتها في تلك الحدائق ﴿ وَكَوَاعِبَ ﴾ زوجات نواهد ﴿ أَتْرَابًا ﴾ على سن واحد متقارب، ومن عادة الأتراب أن يكن متآلفات متعاشرات ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ مملوءة من رحيق، لذة للشاربين ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ كلاما لا فائدة فيه ﴿ وَلَا كِذَّابًا ﴾ إثما. وإنما أعطاهم الله هذا الثواب الجزيل ﴿ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ ﴾ لهم ﴿ عَطَاءً ﴾ بسبب أعمالهم التي وفقهم الله لها ﴿ حِسَابًا ﴾ جعلها ثمنا لجنته ونعيمها.

﴿ 37 - 40 ﴾ ﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا * يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا * ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا * إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾

﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أعطاهم هذه العطايا الذي خلقها ودبرها ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ وسعت رحمت كل شيء ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ من عظمته يوم القيامة جميع الخلق كلهم ساكتون ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ ﴾ جبريل عليه السلام ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ يقوم الجميع ﴿ صَفًّا ﴾ خاضعين لله ﴿ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ إلا بما أذن لهم الله به ﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ فلا يتكلم أحد إلا بهذين الشرطين: أن يأذن الله له في الكلام، وأن يكون ما تكلم به صوابا، لأن ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ ﴾ هو ﴿ الْحَقُّ ﴾ الذي لا يروج فيه الباطل، ولا ينفع فيه الكذب ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا ﴾ عملا، وقدم صدق يرجع إليه يوم القيامة ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ لأنه قد أزف مقبلا، وكل ما هو آت فهو قريب ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ هذا الذي يهمه ويفزع إليه، فلينظر في هذه الدنيا إليه. فإن وجد خيرا فليحمد

الله ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ وإن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، ولهذا كان الكفار يتمنون الموت من شدة الحسرة والندم. نسأل الله أن يعافينا من الكفر والشر كله، إنه جواد كريم.

تم تفسير سورة النبأ

والحمد لله رب العالمين

مختصر تفسير سورة النازعات

عدد آياتها 46

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 14 ﴾ ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا[1] ﴾ الملائكة التي تنزع الأرواح بقوة، وتغرق في نزعها حتى تخرج الروح، فتجازى بعملها ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ وهم الملائكة أيضا، تجتذب الأرواح بقوة ونشاط. أو أن النزع يكون لأرواح المؤمنين، والنشط لأرواح الكفار ﴿ وَالسَّابِحَاتِ ﴾ المترددات في الهواء صعودا ونزولا ﴿ سَبْحًا. فَالسَّابِقَاتِ ﴾ لغيرها ﴿ سَبْقًا ﴾ فتبادر لأمر الله، وتسبق الشياطين في إيصال الوحي إلى رسل الله حتى لا تسترقه ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ الملائكة، الذين وكلهم الله أن يدبروا كثيرا من أمور العالم العلوي والسفلي، من الأمطار، والنبات، والأشجار، والرياح، والبحار، والأجنة، والحيوانات، والجنة، والنار وغير ذلك ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ وهي قيام الساعة ﴿ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ الرجفة الأخرى التي تردفها وتأتي تلوها ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ موجفة ومنزعجة من شدة ما ترى وتسمع ﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ ذليلة حقيرة، قد ملك قلوبهم الخوف، وأذهل أفئدتهم الفزع ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أي الكفار في الدنيا، على وجه التكذيب ﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴾ أي بالية فتاتا ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ أي استبعدوا أن يبعثهم الله ويعيدهم بعدما كانوا عظاما نخرة، جهلا منهم بقدرة الله. فقال الله في بيان سهولة هذا الأمر عليه ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ ينفخ فيها في الصور ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ الخلائق كلهم ﴿ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ على وجه الأرض قيام ينظرون فيجمعهم الله ويقضي بينهم بحكمه العدل.

﴿ 15 - 26 ﴾ ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾

---

[1] هذه الإقسامات بالملائكة الكرام، وأفعالهم الدالة على كمال انقيادهم لأمر الله، وإسراعهم في تنفيذ أمره، يحتمل أن المقسم عليه، الجزاء والبعث، بدليل الإتيان بأحوال القيامة بعد ذلك. ويحتمل أن المقسم عليه والمقسم به متحدان، وأنه أقسم على الملائكة، لأن الإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة، ولأن في ذكر أفعالهم هنا ما يتضمن الجزاء الذي تتولاه الملائكة عند الموت وقبله وبعده.

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ وهذا الاستفهام عن أمر عظيم متحقق وقوعه. أي: هل أتاك حديثه ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ وهو المحل الذي كلمه الله فيه، وامتن عليه بالرسالة، واختصه بالوحي والاجتباء فقال له ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ فانهه عن طغيانه وشركه وعصيانه، بقول لين، وخطاب لطيف، لعله يتذكر أو يخشى ﴿ فَقُلْ ﴾ له ﴿ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ هل لك أن تزكي نفسك وتطهرها من دنس الكفر والطغيان، إلى الإيمان والعمل الصالح ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أدلك عليه، وأبين لك مواقع رضاه، من مواقع سخطه ﴿ فَتَخْشَى ﴾ الله إذا علمت الصراط المستقيم، فامتنع فرعون مما دعاه إليه موسى ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴾ أي: جنس الآية الكبرى، فلا ينافي تعددها ﴿ فَكَذَّبَ ﴾ بالحق ﴿ وَعَصَى ﴾ الأمر ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴾ أي: يجتهد في مبارزة الحق ومحاربته ﴿ فَحَشَرَ ﴾ جنوده جمعهم ﴿ فَنَادَى. فَقَالَ ﴾ لهم ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ فأذعنوا له وأقروا بباطله حين استخفهم ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ صارت عقوبته دليلا وزاجرا، ومبينة لعقوبة الدنيا والآخرة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ فإذا رأى عقوبة فرعون عرف أن كل من تكبر وعصى عاقبه في الدنيا والآخرة.

﴿ 27 - 33 ﴾ ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾

﴿ أَأَنْتُمْ ﴾ أيها البشر ﴿ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ﴾ ذات الجرم العظيم، والخلق القوي، والارتفاع الباهر ﴿ بَنَاهَا ﴾ الله. ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ جرمها وصورتها ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ بإحكام وإتقان يحير العقول ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ أظلمه، فأظلم وجه الأرض ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أظهر فيه النور العظيم، حين أتى بالشمس، فامتد الناس في مصالح دينهم ودنياهم ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ بعد خلق السماء ﴿ دَحَاهَا ﴾ أودع فيها منافعها. وفسر ذلك بقوله ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ ثبتها في الأرض. فدحى الأرض بعد خلق السماء، كما هو نص هذه الآيات الكريمة. وأما خلق نفس الأرض، فمتقدم على خلق السماء. فالذي خلق السماوات العظام والأرض ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ وما فيها من ضروريات الخلق ومنافعهم لا بد أن يبعث الخلق المكلفين، فيجازيهم على أعمالهم.

﴿ 34 - 41 ﴾ ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى * فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴾ إذا جاءت القيامة الكبرى يهون عندها كل شدة، فحينئذ يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه. و ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴾ في الدنيا، من خير وشر، فيتمنى زيادة مثقال ذرة في حسناته، ويغمه ويحزن لزيادة مثقال ذرة في سيئاته ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴾ ظاهرة برزت لأهلها، واستعدت لأخذهم، منتظرة لأمر ربها ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴾ جاوز الحد، بأن تجرأ على المعاصي الكبار، ولم يقتصر على ما حده الله ﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ على الآخرة فصار سعيه لها، ونسي الآخرة وترك العمل لها ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ المقر والمسكن لمن هذه حاله ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ فأثر هذا الخوف في قلبه ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ

﴿ الْهَوَى ﴾ فنهى نفسه عن هواها وجاهد الهوى والشهوة الصادين عن الخير ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ ﴾ المشتملة على كل خير وسرور ونعيم ﴿ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ لمن هذا وصفه.

﴿ 42 - 46 ﴾ ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾

﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ المتعنتون المكذبون بالبعث ﴿ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ متى وقوعها و ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ فأجابهم الله بقوله ﴿ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴾ ما الفائدة لك ولهم في ذكرها ومعرفة وقت مجيئها؟ فليس تحت ذلك نتيجة. ولهذا لما كان علم العباد للساعة ليس لهم فيه مصلحة دينية ولا دنيوية، بل المصلحة في خفائه عليهم، طوى علم ذلك عن جميع الخلق، واستأثر بعلمه فقال ﴿ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴾ إليه ينتهي علمها ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ إنما نذارتك نفعها لمن يخشى مجيء الساعة، ويخاف الوقوف بين يديه، فهم الذين لا يهمهم سوى الاستعداد لها والعمل لأجلها. وأما من لا يؤمن بها، فلا يبالي به ولا بتعنته، لأنه تعنت مبني على العناد والتكذيب، وإذا وصل إلى هذه الحال، كان الإجابة عنه عبثا ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾.

والحمد لله رب العالمين.

80

مختصر تفسير سورة عبس

عدد آياتها 42

وهي مكية

﴿ 1 - 10 ﴾ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾

﴿ عَبَسَ ﴾[1] في وجهه ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ في بدنه ﴿ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ بسبب مجيء الأعمى ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ ﴾ الأعمى ﴿ يَزَّكَّى ﴾ يتطهر عن الأخلاق الرذيلة، ويتصف بالأخلاق الجميلة ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ يتذكر ما ينفعه، فيعمل بتلك الذكرى ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ وهذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الرسل. فإقبالك على من جاء بنفسه مفتقرا لذلك منك هو الواجب. وأما تصديك وتعرضك للغني المستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير، مع تركك من هو أهم منه، فإنه لا ينبغي لك، فلو لم يتزك، فلست بمحاسب على ما عمله من الشر. وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم، الحريص عليه أكثر من غيره.

﴿ 11 - 32 ﴾ ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ * قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ * فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾

﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ هذه الموعظة تذكرة من الله، يذكر بها عباده، ويبين لهم في كتابه ما يحتاجون إليه ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ عمل به. ثم ذكر عظمة هذه التذكرة، فهي ﴿ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ ﴾ القدر والرتبة ﴿ مُطَهَّرَةٌ ﴾ عن أن تنالها أيدي الشياطين بل هي ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ الملائكة السفراء بين الله وبين عباده ﴿ كِرَامٍ ﴾ كثيري الخير والبركة ﴿ بَرَرَةٍ ﴾ قلوبهم وأعمالهم. وذلك كله حفظ من الله لكتابه. ولكن مع هذا أبى الإنسان إلا كفورا ﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ لنعمة الله وما أشد معاندته للحق بعدما تبين ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ وهو ما هو؟ هو من أضعف الأشياء، خلقه الله من ماء مهين، ثم قدر خلقه، وسواه بشرا سويا، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ يسر

---

[1] وسبب نزول هذه الآيات الكريمات، أنه جاء رجل من المؤمنين أعمى يسأل النبي صلى الله عليه ويتعلم منه. وجاءه رجل من الأغنياء، وكان صلى الله عليه وسلم حريصا على هداية الخلق، فمال صلى الله عليه وسلم وأصغى إلى الغني. وصد عن الأعمى الفقير، رجاء لهداية ذلك الغني، وطمعا في تزكيته. فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف

له الأسباب الدينية والدنيوية، وهداه السبيل، وامتحنه بالأمر والنهي ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أكرمه بالدفن، ولم يجعله كسائر الحيوانات التي تكون جيفها على وجه الأرض ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ بعثه بعد موته للجزاء. فالله هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه بهذه التصاريف، لم يشاركه فيه مشارك ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ وهو –مع هذا– لا يقوم بما أمره الله، ولم يقض ما فرضه عليه، بل لا يزال مقصرا تحت الطلب. ثم أرشده تعالى إلى النظر والتفكر في طعامه، وكيف وصل إليه بعدما تكررت عليه طبقات عديدة، ويسره له فقال ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ. أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ أنزلنا المطر على الأرض بكثرة ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ ﴾ للنبات شقًّا. فَأَنْبَتْنَا فِيهَا ﴾ أنواع الأطعمة ﴿ حبًّا ﴾ وهذا شامل لسائر الحبوب ﴿ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ وهو القت ﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴾ وخص هذه الأربعة لكثرة فوائدها ومنافعها ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ بساتين فيها الأشجار الكثيرة الملتفة ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ الفاكهة: ما يتفكه فيه الإنسان. والأبّ ما تأكله البهائم والأنعام ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ التي خلقها الله وسخرها لكم.

﴿ 33 – 42 ﴾ ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾ صيحة القيامة، التي تصخ لهولها الأسماع مما يرى الناس من الأهوال ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ ﴾ من أعز الناس إليه ﴿ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ ﴾ زوجته ﴿ وَبَنِيهِ ﴾ وذلك لأنه ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ قد شغلته نفسه، واهتم لفكاكها، ولم يكن له التفات إلى غيرها. فحينئذ ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء، فأما السعداء، فـ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴾ قد ظهر فيها السرور والبهجة، من ما عرفوا من نجاتهم، وفوزهم بالنعيم ﴿ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ. وَوُجُوهٌ ﴾ للأشقياء ﴿ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ. تَرْهَقُهَا ﴾ تغشاها ﴿ قَتَرَةٌ ﴾ فهي سوداء مظلمة مدلهمة، قد أيست من كل خير، وعرفت شقاءها وهلاكها ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الذين بهذا الوصف ﴿ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ الذين كفروا بنعمة الله وكذبوا بآيات الله، وتجرأوا على محارمه.

نسأل الله العفو والعافية

إنه جواد كريم

والحمد لله رب العالمين

مختصر تفسير سورة التكوير

عدد آياتها 29

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 14 ﴾ ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ يوم القيامة، أي تجمع وتلف، ويخسف القمر، ويلقيان في النار ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ تغيرت، وتساقطت من أفلاكها ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ عن أماكنها وصارت كثيبا مهيلا، ثم صارت كالعهن المنفوش، ثم تغيرت وصارت هباء منبثا وسيرت ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ العشار هي النوق التي تتبعها أولادها، وهي أنفس أموال العرب إذ ذاك عندهم، نبه بها على ما هو في معناها من كل نفيس. أي عطل الناس حينئذ نفائس أموالهم فجاءهم ما يذهلهم عنها ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ أي: جمعت ليوم القيامة، ليقتص الله من بعضها لبعض، ويرى العباد كمال عدله، حتى إنه ليقتص من القرناء للجماء ثم يقول لها: كوني ترابا ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ أوقدت فصارت -على عظمها- نارا تتوقد ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قرن كل صاحب عمل مع نظيره، فجمع الأبرار مع الأبرار، والفجار مع الفجار، وزوج المؤمنون بالحور العين، والكافرون بالشياطين ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴾ وهو الذي كانت الجاهلية الجهلاء تفعله من دفن البنات وهن أحياء من غير سبب، إلا خشية الفقر، فتسأل ﴿ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ ومن المعلوم أنها ليس لها ذنب، ففي هذا توبيخ وتقريع لقاتليها ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ ﴾ المشتملة على ما عمله العاملون من خير وشر ﴿ نُشِرَتْ ﴾ وفرقت على أهلها، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله، أو من وراء ظهره ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ أزيلت ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ أوقد عليها فاستعرت، والتهبت التهابا لم يكن لها قبل ذلك ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ قربت للمتقين ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ أي: كل نفس، لإتيانها في سياق الشرط ﴿ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ أي: ما حضر لديها من الأعمال التي قدمتها[1].

﴿ 15 - 29 ﴾ ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾.

[1] ولهذا قال بعض السلف: من أراد أن ينظر ليوم القيامة كأنه رأي عين، فليتدبر سورة { إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ }

﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ أقسم تعالى ﴿ بِالْخُنَّسِ ﴾ وهي الكواكب التي تخنس أي: تتأخر عن سير الكواكب المعتاد إلى جهة المشرق[2] فأقسم الله بها في حال خنوسها أي تأخرها ﴿ الْجَوَارِي الْكُنَّسِ ﴾ وفي حال جريانها، وفي حال كنوسها أي: استتارها بالنهار، ويحتمل أن المراد بها جميع النجوم الكواكب السيارة وغيرها ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ أي أدبر وقيل: أقبل ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أي بانت علائم الصبح، وانشق النور شيئا فشيئا حتى يستكمل وتطلع الشمس. وهذه آيات عظام، أقسم الله بها على علو سند القرآن وجلالته، وحفظه من كل شيطان رجيم فقال: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ وهو جبريل عليه السلام، نزل به من الله تعالى. ووصفه الله بالكريم لكرم أخلاقه، وكثره خصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة، وأعظمهم رتبة عند ربه ﴿ ذِي قُوَّةٍ ﴾ على ما أمره الله به. ومن قوته أنه قلب ديار قوم لوط بهم فأهلكهم ﴿ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ ﴾ أي جبريل مقرب عند الله، له منزلة رفيعة، وخصيصة من الله اختصه بها ﴿ مَكِينٍ ﴾ أي: له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ ﴾ أي جبريل مطاع في الملأ الأعلى، لديه من الملائكة المقربين جنود، نافذ فيهم أمره، مطاع رأيه ﴿ أَمِينٍ ﴾ ذو أمانة وقيام بما أمر به، لا يزيد ولا ينقص، ولا يتعدى ما حد له. ولما ذكر فضل الرسول الملكي الذي جاء بالقرآن، ذكر فضل الرسول البشري الذي نزل عليه القرآن، ودعا إليه الناس فقال ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ بِمَجْنُونٍ ﴾ كما يقوله أعداؤه المكذبون برسالته، بل هو أكمل الناس عقلا ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ أي رأى محمد صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام بالأفق البين، الذي هو أعلى ما يلوح للبصر ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ أي وما هو على ما أوحاه الله إليه بمتهم يزيد فيه أو ينقص أو يكتم بعضه، بل هو صلى الله عليه وسلم أمين أهل السماء وأهل الأرض ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ دفع عنه كل آفة ونقص مما يقدح في صدقه، أي في غاية البعد عن الله وعن قربه ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ أي كيف يخطر هذا ببالكم، حتى جعلتم الحق الذي هو في أعلى درجات الصدق بمنزلة الكذب، الذي هو أنزل وأسفل الباطل؟ هل هذا إلا من انقلاب الحقائق ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ يتذكرون به ربهم، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من النقائص، ويتذكرون به مصالح الدارين ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ بعدما تبين الرشد من الغي، والهدى من الضلال ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ فمشيئته نافذة، لا يمكن أن تعارض أو تمانع. وفي هذه الآية وأمثالها رد على فرقتي القدرية النفاة، والقدرية المجبرة.

والله أعلم والحمد لله

[2] وهي النجوم السبعة السيارة: الشمس والقمر والزهرة والمشترى والمريخ وزحل وعطارد، فهذه السبعة لها سيران: سير إلى جهة المغرب مع باقي الكواكب والأفلاك، وسير معاكس لهذا من جهة المشرق تختص به هذه السبعة دون غيرها.

مختصر تفسير سورة الإنفطار

عدد آياتها 19
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 – 5 ﴾ ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ إذا انشقت السماء وانفطرت ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾ وانتثرت نجومها ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ فصارت بحرا واحدا ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ بأن أخرجت ما فيها من الأموات، وحشروا للموقف بين يدي الله للجزاء على الأعمال ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ فحينئذ ينكشف الغطاء، ويزول ما كان خفيا، وتعلم كل نفس ما معها من الأرباح والخسران.

﴿ 6 – 12 ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ * كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ أتهاونا منك في حقوقه؟ أم احتقارا منك لعذابه؟ أم عدم إيمان منك بجزائه ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ ﴾ في أحسن تقويم ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ في أحسن الأشكال ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ فاحمد الله أن لم يجعل صورتك صورة كلب أو حمار، أو نحوهما من الحيوانات ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ أي مع هذا الوعظ والتذكير لا تزالون مستمرين على التكذيب بالجزاء ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ وقد أقام الله عليكم ملائكة كراما ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ يكتبون أقوالكم وأفعالكم ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ ويعلمون أفعالكم. ودخل في هذا أفعال القلوب، وأفعال الجوارح، فاللائق بكم أن تكرموهم وتجلوهم وتحترموهم.

﴿ 13 – 19 ﴾ ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ ﴾ القائمون بحقوق الله وحقوق عباده ﴿ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ جزاؤهم النعيم في القلب والروح والبدن، في دار الدنيا وفي دار البرزخ وفي دار القرار ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ ﴾ الذين قصروا في حقوق الله وحقوق عباده، فجرت قلوبهم ففجرت أعمالهم ﴿ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ أي عذاب أليم في دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ ويعذبون بها أشد العذاب ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أي يوم الجزاء على الأعمال ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ بل هم ملازمون لها، لا يخرجون منها ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ. ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ ففي هذا تهويل لذلك اليوم الشديد ﴿ يَوْمَ لَا

تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ﴾ ولو كانت لها قريبة فكل مشتغل بنفسه لا يطلب الفكاك لغيرها ﴿ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ فهو الذي يفصل بين العباد، ويأخذ للمظلوم حقه من ظالمه.

والله أعلم.

83

مختصر تفسير سورة المطففين

عدد آياتها 36

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 6 ﴾ ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ وَيْلٌ ﴾ كلمة عذاب ووعيد ﴿ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ وفسر الله المطففين بقوله ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ أي أخذوا منهم وفاء عما ثبت لهم قبلهم ﴿ يَسْتَوْفُونَ ﴾ يستوفونه كاملا من غير نقص ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ ﴾ أي إذا أعطوا الناس حقهم، الذي للناس عليهم بكيل أو وزن ﴿ يُخْسِرُونَ ﴾ أي ينقصونهم ذلك[1]﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ. لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فالذي جرأهم على التطفيف عدم إيمانهم باليوم الآخر.

﴿ 7 - 17 ﴾ ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ ﴾ كل فاجر من الكفرة والمنافقين والفاسقين ﴿ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ ثم فسر ذلك بقوله ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ. كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ مذكور فيه أعمالهم الخبيثة، والسجين: المحل الضيق الضنك، وقيل إنه أسفل الأرض السابعة، مأوى الفجار ومستقرهم في معادهم ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ثم بين المكذبين بأنهم ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ يوم الجزاء، يوم يدين الله فيه الناس بأعمالهم ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ ﴾ على محارم الله ﴿ أَثِيمٍ ﴾ كثير الإثم ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ﴾ الدالة على الحق كذبها وعاندها و ﴿ قَالَ ﴾ هذه ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ من أخبار الأمم الغابرين، ليس من عند الله، تكبرا وعنادا ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ الذنوب ترين على القلب وتغطيه حتى ينطمس نوره ﴿ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ وغطتهم معاصيهم ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ عن الحق، حجبوا عن الله، كما حجبوا قلوبهم في الدنيا عن آيات الله ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ ﴾ مع هذه العقوبة

---

[1] وإذا كان هذا الوعيد على الذين يبخسون الناس بالمكيال والميزان، فالذي يأخذ أموالهم قهرًا أو سرقة، أولى بهذا الوعيد من المطففين.
ودلت الآية الكريمة، على أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له، يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات، بل يدخل في عموم هذا الحجج والمقالات، فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد منهما يحرص على ماله من الحجج، فيجب عليه أيضًا أن يبين ما لخصمه من الحجج التي لا يعلمها، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الموضع يعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه، وتواضعه من كبره، وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق لكل خير.

البليغة ﴿ لَصَالُوا الْجَحِيمِ. ثُمَّ يُقَالُ ﴾ لهم توبيخا وتقريعًا ﴿ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الجحيم، وعذاب التوبيخ، واللوم.

﴿ 18 – 28 ﴾ ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ لما ذكر أن كتاب الفجار في أسفل الأمكنة وأضيقها، ذكر أن كتاب الأبرار في أعلاها وأوسعها ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ وهذا اسم أيضاً لأعلى الجنة. كتابهم ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ. يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ من الملائكة الكرام، وأرواح الأنبياء، والصديقين والشهداء، وينوه الله بذكرهم في الملأ الأعلى ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ اسم جامع لنعيم القلب والروح والبدن ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ على السرر المزينة ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ إلى وجه ربهم الكريم وإلى ما أعد الله لهم من النعيم ﴿ تَعْرِفُ ﴾ أيها الناظر إليهم ﴿ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ بهاءه ونضارته ورونقه ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ ﴾ وهو من أطيب الأشربة وألذها ﴿ مَخْتُومٍ ﴾ يحتمل أن المراد مختوم عن أن يداخله شيء ينقص لذته أو يفسد طعمه ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ ويحتمل أن المراد أنه مسك في آخر الإناء ﴿ وَفِي ذَلِكَ ﴾ النعيم المقيم ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ يتسابقوا في المبادرة إليه بالأعمال الموصلة إليه ﴿ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ مزاج هذا الشراب من تسنيم ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ صرفا، وهي أعلى أشربة الجنة على الإطلاق، فلذلك كانت خالصة للمقربين، الذين هم أعلى الخلق منزلة.

﴿ 29 – 36 ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ *عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا ﴾ في الدنيا ﴿ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ يسخرون بالمؤمنين ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ ويتغامزون بهم عند مرورهم عليهم، احتقارا لهم وازدراء ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ ﴾ صباحًا أو مساء ﴿ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ مسرورين مغتبطين، جمعوا بين غاية الإساءة والأمن في الدنيا ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ يحرصون على رميهم بالضلال، وما هذا منهم إلا تعنت وعناد وتلاعب ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين ملزمين بحفظ أعمالهم ولهذا كان جزاؤهم في الآخرة من جنس عملهم ﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ يوم القيامة ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ حين يرونهم في غمرات العذاب يتقلبون، والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ وهي السرر المزينة ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ إلى وينظرون إلى وجه ربهم الكريم وإلى ما أعد لهم من النعيم ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ هل جوزوا من جنس عملهم؟ فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، ورأوهم في العذاب، عقوبة الغي والضلال. نعم، ثوبوا ما كانوا يفعلون، عدلًا من الله وحكمة، والله عليم حكيم.

84

مختصر تفسير سورة الانشقاق

عدد آياتها 25

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 15 ﴾ ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا * إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ * بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾ انفطرت وتمايز بعضها من بعض، وانتثرت نجومها، وخسف بشمسها وقمرها ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ استمعت لأمره ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ وحق لها ذلك، فإنها مسخرة مدبرة تحت مسخر ملك عظيم ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ رجفت وارتجت، فسويت ومدها الله تعالى مد الأديم، حتى صارت واسعة جدًا، تسع أهل الموقف على كثرتهم ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ﴾ من الأموات والكنوز ﴿ وَتَخَلَّتْ ﴾ منهم ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ وحق لها ذلك ﴿ يَا أَيُّهَاالْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ إنك ساع إلى الله، ومتقرب إليه ثم تلاقي الله يوم القيامة، فلا تعدم منه جزاء بالفضل إن كنت سعيدًا، أو بالعدل إن كنت شقيًا. ولهذا ذكر تفضيل الجزاء ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ وهم أهل السعادة ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ وهو العرض اليسير على الله، فيقرره الله بذنوبه، حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك، قال الله تعالى له: "إني قد سترتها عليك في الدنيا، فأنا أسترها لك اليوم" ﴿ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ في الجنة ﴿ مَسْرُورًا ﴾ لأنه نجا من العذاب وفاز بالثواب ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ أي بشماله من خلفه ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴾ من الخزي والفضيحة، وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدمها ولم يتب منها ﴿ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾ أي تحيط به السعير من كل جانب، وذلك فـ ﴿ إِنَّهُ ﴾ في الدنيا ﴿ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ لا يخطر البعث على باله ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ ولم يظن أنه راجع إلى ربه وموقوف بين يديه ﴿ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ فلا يحسن أن يتركه سدى، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب.

﴿ 16 - 25 ﴾ ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ * فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾ أقسم في هذا الموضع بآيات الليل، فأقسم بالشفق الذي هو بقية نور الشمس، مفتتح الليل ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ أي احتوى عليه من حيوانات وغيرها ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ امتلأ نورًا بإبداره، والمقسم عليه قوله ﴿ لَتَرْكَبُنَّ ﴾ أيها الناس ﴿ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ أطوارا متعددة وأحوالا متباينة، من النطفة إلى أن يبعث ويجازى بأعماله، فهذه الطبقات المختلفة الجارية على العبد، دالة على أن الله وحده هو المعبود ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ أي لا يخضعون للقرآن، ولا ينقادون لأوامره ونواهيه ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ أي يعاندون الحق بعدما تبين، فلا يستغرب عدم إيمانهم وعدم انقيادهم للقرآن ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ أي بما يعملونه وينوونه سرًا، فالله يعلم سرهم وجهرهم ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وسميت البشارة بشارة، لأنها تؤثر في البشرة سرورًا أو غمًا. ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ ومن الناس فريق هداهم الله، فآمنوا بالله، فهؤلاء لهم أجر غير ممنون أي غير مقطوع بل هو أجر دائم.

تم تفسير السورة

ولله الحمد

85

مختصر تفسير سورة البروج

عدد آياتها 22

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 22 ﴾ ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ * إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ * وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ * بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ ذات المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر، والكواكب المنتظمة في سيرها، على أكمل ترتيب ونظام ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ وشمل هذا كل مبصر ومبصر، وحاضر ومحضور، وراء ومرئي، والمقسم عليه، ما تضمنه هذا القسم من آيات الله الباهرة، وحكمه الظاهرة، ورحمته الواسعة. وقيل: إن المقسم عليه قوله ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ وهذا دعاء عليهم بالهلاك، والأخدود[1] الحفر التي تحفر في الأرض ﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ. إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ. وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها، ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهذا العذاب، وحضورهم إياهم عند إلقائهم فيها ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ ﴾ من المؤمنين ﴿ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾ الذي له العزة التي قهر بها كل شيء ﴿ الْحَمِيدِ ﴾ في أقواله وأوصافه وأفعاله ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خلقًا وعبيدًا، يتصرف فيهم تصرف المالك بملكه ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ علمًا وسمعًا وبصرًا. ثم وعدهم، وأوعدهم، وعرض عليهم التوبة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ العذاب الشديد المحرق ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بقلوبهم ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ بجوارحهم ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ الذي حصل به الفوز برضا الله ودار كرامته ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أي إن عقوبته لأهل الجرائم شديدة، ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادته، فلا مشارك له في ذلك ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ ﴾ الذي يغفر الذنوب جميعها لمن تاب ﴿ الْوَدُودُ ﴾ الواد لأحبابه، يحبه أحبابه، محبته أصل العبودية، تتقدم جميع المحاب وتغلبها. وقد قرن الودود بالغفور، ليدل ذلك

[1] وكان أصحاب الأخدود هؤلاء قومًا كافرين، ولديهم قوم مؤمنون، فراودوهم للدخول في دينهم، فامتنع المؤمنون من ذلك، فشق الكافرون أخدودًا في الأرض، وقذفوا فيها النار، وقعدوا حولها، وفتنوا المؤمنين، وعرضوهم عليها، فمن استجاب لهم أطلقوه، ومن استمر على الإيمان قذفوه في النار، وهذا في غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين، ولهذا لعنهم الله وأهلكهم وتوعدهم فقال: { قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ }

على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ صاحب العرش العظيم، الذي وسع السماوات والأرض والكرسي، فهي بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في فلاة، بالنسبة لسائر الأرض. وخص الله العرش بالذكر، لعظمته، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه تعالى. وهذا على قراءة الجر، يكون المجيد نعتا للعرش. وأما على قراءة الرفع، فإن المجيد نعت لله، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها ﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ. فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ وكيف كذبوا المرسلين، فجعلهم الله من المهلكين ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴾ لا يزالون مستمرين على التكذيب والعناد ﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ أحاط بهم علمًا وقدرة، ففيه الوعيد الشديد للكافرين، من عقوبة من هم في قبضته، وتحت تدبيره ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾ وسيع المعاني عظيمها، كثير الخير والعلم ﴿ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ من التغيير والزيادة والنقص، ومحفوظ من الشياطين، وهو: اللوح المحفوظ الذي قد أثبت الله فيه كل شيء. وهذا يدل على جلالة القرآن ورفعة قدره عند الله تعالى، والله أعلم.

تم تفسير السورة

86

مختصر تفسير سورة الطارق

عدد آياتها 17

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 17 ﴾ ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ * فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ * إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ فسر الطارق بقوله ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ أي المضيء الذي يثقب نوره، فيخرق السماوات فينفذ حتى يرى في الأرض، والصحيح أنه اسم جنس يشمل سائر النجوم الثواقب. وقد قيل إنه "زحل" الذي يخرق السماوات السبع وينفذ فيها فيرى منها. وسمي طارقًا، لأنه يطرق ليلًا. والمقسم عليه قوله ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة، وستجازى بعملها المحفوظ عليها ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ فليتدبر خلقته ومبدأه، فإنه ﴿ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ وهو المني الذي ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ يحتمل أنه من بين صلب الرجل وترائب المرأة، وهي ثدياها. ويحتمل أن المراد مني الرجل الذي يخرج منه ما بين صلبه وترائبه، ولعل هذا أولى، وكذلك فإن الترائب للرجل بمنزلة الثديين للأنثى، والله أعلم ﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ فالذي أوجد الإنسان من ماء دافق، يخرج من هذا الموضع الصعب، قادر على رجعه في الآخرة، وإعادته للبعث. وقد قيل: إن معناه، أن الله على رجع الماء المدفوق في الصلب لقادر، وهذا - وإن كان المعنى صحيحاً - فليس هو المراد من الآية، ولهذا قال بعده ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ أي تختبر سرائر الصدور ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ يدفع بها عن نفسه ﴿ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ خارجي ينتصر به. أقسم قسمًا ثانيًا على صحة القرآن، فقال ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ ترجع السماء بالمطر كل عام وترجع السماء أيضًا بالأقدار والشئون الإلهية كل وقت ﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ وتنصدع الأرض للنبات، فيعيش بذلك الآدميون والبهائم، وتنصدع الأرض عن الأموات ﴿ إِنَّه ﴾ أي القرآن ﴿ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ أي حق وصدق بين واضح ﴿ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ جد ليس بالهزل ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي المكذبين للرسول صلى الله عليه وسلم وللقرآن ﴿ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ ليدفعوا بكيدهم الحق، ويؤيدوا الباطل ﴿ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ لإظهار الحق، ولو كره الكافرون ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ أي قليلًا، فسيعلمون عاقبة أمرهم حين ينزل بهم العقاب.

تم تفسير سورة الطارق

والحمد لله رب العالمين

مختصر تفسير سورة الأعلى

عدد آياتها 19

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 – 19 ﴾ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى * سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى * وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى * فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى *بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ يأمر تعالى بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته تسبيحا، يليق بعظمة الله تعالى، بأن تذكر أسماؤه الحسنى العالية ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ وتذكر أفعاله التي منها أنه خلق المخلوقات فسواها، أي أتقنها وأحسن خلقها ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ ﴾ تقديرًا، تتبعه جميع المقدرات ﴿ فَهَدَى ﴾ إلى ذلك جميع المخلوقات، كل مخلوق لمصلحته. وذكر نعمه الدنيوية ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ أنزل من السماء ماء فأنبت به أنواع النبات والعشب الكثير ثم ألوى نباته وصوح عشبه ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ أي أسود هشيمًا رميمًا. وذكر نعمه الدينية، ولهذا امتن الله بأصلها ومنشئها، وهو القرآن ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ سنحفظ ما أوحينا إليك من الكتاب، ونوعيه قلبك، فلا تنسى منه شيئًا، وهذه بشارة كبيرة من الله لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، أن الله سيعلمه علمًا لا ينساه ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ مما اقتضت حكمته أن ينسيكه لمصلحة بالغة ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴾ ومن ذلك أنه يعلم ما يصلح عباده أي فلذلك يشرع ما أراد، ويحكم بما يريد ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾ وهذه أيضًا بشارة كبيرة أن الله ييسر رسوله صلى الله عليه وسلم لليسرى في جميع أموره، ويجعل شرعه ودينه يسرا﴿ فَذَكِّرْ ﴾ بشرع الله وآياته ﴿ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ ما دامت الذكرى مقبولة، والموعظة مسموعة، سواء حصل من الذكرى جميع المقصود أو بعضه. ومفهوم الآية أنه إن لم تنفع الذكرى، بأن كان التذكير يزيد في الشر، أو ينقص من الخير، لم تكن الذكرى مأمورًا بها، بل منهيًا عنها، فالذكرى ينقسم الناس فيها قسمين: فالمنتفعون ذكرهم بقوله ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ الله تعالى مما يوجب للعبد الانكفاف عن المعاصي والسعي في الخيرات. وأما غير المنتفعين، فذكرهم بقوله ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى. الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴾ الموقدة ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا ﴾ يعذب عذابًا أليمًا، من غير راحة ولا استراحة، حتى إنهم يتمنون الموت فلا يحصل لهم ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ قد فاز وربح من طهر نفسه ونقاها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ اتصف بذكر الله، وانصبغ به قلبه، فأوجب له ذلك العمل بما يرضي الله خصوصًا الصلاة ميزان الإيمان ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ تقدمونها على الآخرة،

وتختارون نعيمها المنغص المكدر الزائل ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ من الدنيا لكونها دار خلد وبقاء وصفاء، والدنيا دار فناء، فحب الدنيا وإيثارها على الآخرة رأس كل خطيئة ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ المذكور لكم في هذه السورة المباركة، من الأوامر الحسنة، والأخبار المستحسنة ﴿ لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى. صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ فهذه أوامر في كل شريعة، لكونها عائدة إلى مصالح الدارين.

تم تفسير سورة الأعلى

ولله الحمد

مختصر تفسير سورة الغاشية

عدد آياتها 26

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 16 ﴾ ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ يوم القيامة تغشى الخلائق بشدائدها، فيجازون بأعمالهم، ويتميزون إلى فريقين. فقال في وصف أهل النار ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم القيامة ﴿ خَاشِعَةٌ ﴾ من الذل والخزي ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾ تاعبة في العذاب، تجر على وجوهها، وتغشى وجوههم النار ﴿ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴾ شديدًا حرها، تحيط بهم من كل مكان ﴿ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ حارة شديدة الحرارة ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ. لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ طعام في غاية المرارة والنتن والخسة نسأل الله العافية. وأما أهل الخير فـ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم القيامة ﴿ نَاعِمَةٌ ﴾ قد جرت عليهم نضرة النعيم ﴿ لِسَعْيِهَا ﴾ الذي قدمته في الدنيا من الأعمال الصالحة ﴿ رَاضِيَةٌ ﴾ إذ وجدت ثوابه مدخرًا مضاعفًا ﴿ فِي جَنَّةٍ ﴾ جامعة لأنواع النعيم ﴿ عَالِيَةٍ ﴾ في أعلى عليين، ومنازلها مساكن عالية ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ سهلة التناول، ينالونها على أي حال كانوا ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا ﴾ أي الجنة ﴿ لَاغِيَةً ﴾ أي كلمة لغو وباطل ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ وهذا اسم جنس أي فيها العيون الجارية التي يفجرونها ويصرفونها كيف شاءوا، وأنى أرادوا ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴾ مجالس مرتفعة في ذاتها، وبما عليها من الفرش اللينة الوطيئة ﴿ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ أوان ممتلئة من أنواع الأشربة اللذيذة، قد وضعت بين أيديهم ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ وسائد من صفت للجلوس والاتكاء عليها ﴿ وَزَرَابِيُّ ﴾ بسط حسان ﴿ مَبْثُوثَةٌ ﴾ مملوءة بها مجالسهم من كل جانب.

﴿ 17 - 26 ﴾ ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ألا ينظرون إلى خلقها البديع، وكيف سخرها الله للعباد، وذللها لمنافعهم ﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ بهيئة باهرة، حصل بها استقرار الأرض وثباتها عن

الاضطراب ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ مدت[1] مدًا واسعًا، ليستقر الخلائق على ظهرها، ويتمكنوا من حرثها وغراسها، والبنيان فيها ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ ولم تبعث مسيطرًا عليهم، مسلطًا موكلًا بأعمالهم، فإذا قمت بما عليك، فلا عليك بعد ذلك لوم ﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ لكن من تولى عن الطاعة وكفر بالله ﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ الشديد الدائم ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ رجوع الخليقة وجمعهم في يوم القيامة ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ فنحاسبهم على ما عملوا من خير وشر.

آخر تفسير سورة الغاشية

والحمد لله رب العالمين

---

[1] واعلم أن تسطيحها لا ينافي أنها كرة مستديرة، قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها، كما دل على ذلك النقل والعقل والحس والمشاهدة، كما هو مذكور معروف عند أكثر الناس، خصوصًا في هذه الأزمنة، التي وقف الناس على أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعيد، فإن التسطيح إنما ينافي كروية الجسم الصغير جدًا، الذي لو سطح لم يبق له استدارة تذكر.
وأما جسم الأرض الذي هو في غاية الكبر والسعة ، فيكون كرويًا مسطحًا، ولا يتنافى الأمران، كما يعرف ذلك أرباب الخبرة.

89

مختصر تفسير سورة الفجر

عدد آياتها 30

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 5 ﴾ ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾

﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ الظاهر أن المقسم به، هو المقسم عليه، وذلك جائز مستعمل، إذا كان أمرًا ظاهرًا مهمًا، وهو كذلك في هذا الموضع. فأقسم تعالى بالفجر، الذي هو آخر الليل ومقدمة النهار. ويقع في الفجر صلاة فاضلة معظمة، يحسن أن يقسم الله بها، ولهذا أقسم بعده ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ وهي ليالي عشر رمضان وفيها ليلة القدر، أو عشر ذي الحجة ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ الشفع يوم النحر لكونه العاشر، والوتر يوم عرفة لكونه التاسع ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ وقت سريانه وإرخائه ظلامه على العباد، فيسكنون ويستريحون ويطمئنون، رحمة منه تعالى وحكمة ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ ﴾ المذكور ﴿ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ أي لذي عقل؟ نعم، بعض ذلك يكفي، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

﴿ 6 - 14 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ بقلبك وبصيرتك ﴿ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ بهذه الأمم الطاغية وهي ﴿ إِرَمَ ﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ أي القوة الشديدة، والعتو والتجبر ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا ﴾ أي مثل عاد ﴿ فِي الْبِلَادِ ﴾ أي في جميع ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ أي وادي القرى، نحتوا بقوتهم الصخور، فاتخذوها مساكن ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ أي ذي الجنود الذين ثبتوا ملكه، كما تثبت الأوتاد ما يراد إمساكه بها ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴾ هذا الوصف عائد إلى عاد وثمود وفرعون ومن تبعهم، فإنهم طغوا في بلاد الله، وآذوا عباد الله، في دينهم ودنياهم، ولهذا قال ﴿ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ وهو العمل بالكفر وجميع أجناس المعاصي ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ لمن عصاه يمهله قليلًا، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

﴿ 15 - 20 ﴾ ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي * كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان يظن أن إكرام الله في الدنيا وإنعامه عليه يدل على كرامته عنده وقربه منه ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ أي ضيقه ﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي ﴾. فرد الله عليه هذا الحسبان بقوله ﴿ كَلَّا ﴾ أي ليس كل من نعمته في الدنيا فهو كريم علي، ولا كل من قدرت عليه رزقه فهو مهان لدي. وأيضًا فإن وقوف همة العبد عند مراد نفسه فقط من ضعف الهمة، ولهذا لامهم الله على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين ﴿ بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ وهذا يدل على عدم الرحمة في قلوبكم، وعدم الرغبة في الخير ﴿ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ لا يحض بعضكم بعضًا على إطعام المساكين والفقراء، وذلك لأجل الشح على الدنيا ومحبتها الشديدة المتمكنة من القلوب ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ ﴾ أي المال ﴿ أَكْلًا لَمًّا ﴾ أي ذريعًا، لا تبقون على شيء منه ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ أي كثيرًا شديدًا

﴿ 21 – 30 ﴾ ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ * يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾

﴿ كَلَّا ﴾ ليس كل ما أحببتم من الأموال، وتنافستم فيه من اللذات بباق لكم، بل أمامكم يوم عظيم ﴿ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ تدك فيه الأرض والجبال وما عليها ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ ويجيء الله تعالى لفصل القضاء بين عباده في ظلل من الغمام ﴿ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ وتجيء الملائكة الكرام، أهل السماوات كلهم، صفًا بعد صف، كل سماء يجيء ملائكتها صفا، يحيطون بمن دونهم من الخلق، وهذه الصفوف صفوف خضوع وذل للملك الجبار ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ تقودها الملائكة بالسلاسل. فإذا وقعت هذه الأمور فـ ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ ﴾ ما قدمه من خير وشر ﴿ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ فقد فات أوانها ﴿ يَقُولُ ﴾ متحسرًا على ما فرط في جنب الله ﴿ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ الدائمة الباقية، عملًا صالحًا. ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴾ لمن أهمل ذلك اليوم ونسي العمل له ﴿ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ فإنهم يقرنون بسلاسل من نار، ويسحبون على وجوههم في الحميم، فهذا جزاء المجرمين. وأما من اطمأن إلى الله وآمن به وصدق رسله، فيقال له ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ إلى ذكر الله التي قرت عينها بالله ﴿ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ ﴾ الذي رباك بنعمته، وأسدى عليك من إحسانه ما صرت به من أوليائه وأحبابه ﴿ رَاضِيَةً ﴾ عن الله، وعن ما أكرمها به من الثواب ﴿ مَرْضِيَّةً ﴾ والله قد رضي عنها ﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ وهذا تخاطب به الروح يوم القيامة، وتخاطب به حال الموت.

والحمد لله رب العالمين

90

مختصر تفسير سورة البلد

عدد آياتها 20

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 20 ﴾ ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ * أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا * أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ * أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴾

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ يقسم تعالى بِهَذَا الْبَلَدِ الأمين الذي هو مكة المكرمة، أفضل البلدان على الإطلاق، خصوصًا ﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ وقت حلول الرسول صلى الله عليه وسلم فيها ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ أي آدم وذريته. والمقسم عليه قوله ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ يحتمل أن المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشدائد في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد، وأنه ينبغي له أن يسعى في عمل يريحه من هذه الشدائد، ويوجب له الفرح والسرور الدائم. وإن لم يفعل، فإنه لا يزال يكابد العذاب الشديد أبد الآباد. ويحتمل أن المعنى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ومع ذلك، فإنه لم يشكر الله على هذه النعمة بل بطر بالعافية وحسب بجهله وظلمه أن هذه الحال ستدوم له، ولهذا قال تعالى ﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ ويطغى ويفتخر بما أنفق من الأموال على شهوات نفسه. فـ ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴾ أي كثيرًا، بعضه فوق بعض. وسمى الله تعالى الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكًا لأنه لا ينتفع المنفق بما أنفق ﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ أي أيحسب في فعله هذا، أن الله لا يراه ويحاسبه على الصغير والكبير؟ بل قد رآه الله، وحفظ عليه كل ما عمله من خير وشر ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ. وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ للجمال والبصر والنطق، وغير ذلك من المنافع الضرورية فيها، فهذه نعم الدنيا، ثم قال في نعم الدين ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ أي طريقي الخير والشر، بينا له الهدى من الضلال، والرشد من الغي. فهذه المنن الجزيلة تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله، ولكن هذا الإنسان لم يفعل ذلك ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ أي لم يقتحمها ويعبر عليها لأنه متبع لشهواته، شديدة عليه ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ إنّها ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ من الرق بعتقها أو مساعدتها على أداء كتابتها، ومن باب أولى فكاك الأسير المسلم عند الكفار ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ أي مجاعة شديدة، بأن يطعم وقت الحاجة أشد الناس حاجة ﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ أي يتيمًا فقيرًا ذا قرابة ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أي قد لزق بالتراب من الحاجة والضرورة ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ على طاعة الله وعن معصيته ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ للخلق والقيام بما يحتاجون إليه من جميع

الوجوه، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ لأنهم أدوا ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عباده ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ﴾ بأن نبذوا هذه الأمور وراء ظهورهم، فلم يصدقوا بالله ولا عملوا صالحًا ﴿ هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْئَمَة. عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴾ أي مغلقة.

91

مختصر تفسير سورة الشمس

عدد آياتها 15

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 15 ﴾ ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا[1] ﴾ أي نورها، ونفعها الصادر منها ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾ تبعها في المنازل والنور ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ جلى ما على وجه الأرض وأوضحه ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ يغشى وجه الأرض، فيكون ما عليها مظلمًا. فتعاقب الظلمة والضياء على هذا العالم بانتظام وإتقان وقيام لمصالح العباد، أكبر دليل على أن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ يحتمل أن "ما" موصولة، فيكون الإقسام بالسماء وبانيها، الذي هو الله تبارك وتعالى، ويحتمل أنها مصدرية، فيكون الإقسام بالسماء وبنيانها، الذي هو غاية ما يقدر من الإحكام والإتقان والإحسان ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ يحتمل أن المراد نفس سائر المخلوقات الحيوانية، كما يؤيد هذا العموم، ويحتمل أن المراد بالإقسام بنفس الإنسان المكلف، بدليل ما يأتي بعده. وعلى كل، فالنفس آية كبيرة من آياته ولولاها لكان البدن مجرد تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها على هذا الوجه آية من آيات الله العظيمة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ طهر نفسه من الذنوب وعلاها بالعلم النافع والعمل الصالح ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ بالرذائل والعيوب والذنوب ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ أي بسبب طغيانها وترفعها عن الحق، وعتوها على رسل الله ﴿ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ أي أشقى القبيلة، وهو "قدار بن سالف" لعقرها حين اتفقوا على ذلك، وأمروه فأتمر لهم ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ صالح عليه السلام محذرًا ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ احذروا عقر ناقة الله، التي جعلها لكم آية عظيمة، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بسقي لبنها أن تعقروها ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ فكذبوا نبيهم صالحًا ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ ﴾ أي دمر عليهم وعمهم بعقابه وأرسل عليهم الصيحة من فوقهم، والرجفة من تحتهم ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ عليهم أي سوى بينهم بالعقوبة ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ أي تبعتها.

تمت

ولله الحمد

---

[1] أقسم تعالى بهذه الآيات العظيمة، على النفس المفلحة، وغيرها من النفوس الفاجرة

92

مختصر تفسير سورة الليل

عدد آياتها 21

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 21 ﴾ ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى * إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى * فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى [1]﴾ أي يعم الخلق بظلامه ويستريح العباد من الكد والتعب ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ للخلق فاستضاءوا بنوره وانتشوا في مصالحهم. ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ إن كانت "ما" موصولة، كان إقسامًا بنفسه الكريمة الموصوفة، بأنه خالق الذكور والإناث. وإن كانت مصدرية، كان قسمًا بخلقه للذكر والأنثى، وكمال حكمته في ذلك أن خلق من كل صنف من الحيوانات التي يريد بقاءها ذكرًا وأنثى ليبقى النوع ولا يضمحل ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ هذا هو المقسم عليه أي إن سعيكم أيها المكلفون لمتفاوت تفاوتا كثيرًا، وذلك بحسب تفاوت الأعمال ومقدارها وبحسب الغاية المقصودة: هل هو وجه الله الأعلى الباقي؟ أم هي غاية مضمحلة فانية؟ ولهذا فصل الله تعالى العاملين ووصف أعمالهم ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى ﴾ ما أمر به من العبادات المالية والعبادات البدنية والمركبة منهما، كالحج والعمرة ﴿ وَاتَّقَى ﴾ ما نهي عنه من المحرمات والمعاصي ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ صدق بـ"لا إله إلا الله" وما دلت عليه من جميع العقائد الدينية ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ أتى بأسباب التيسير فيسر الله له كل خير وترك كل شر ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ ﴾ بما أمر به، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله ﴿ وَاسْتَغْنَى ﴾ عن الله، فترك عبوديته جانبًا ﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴾ أي بما أوجب الله على العباد التصديق به من العقائد الحسنة ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ أي للحالة العسرة، بأن يكون ميسرًا للشر أينما كان، نسأل الله العافية ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ ﴾ الذي أطغاه واستغنى به وبخل به ﴿ إِذَا تَرَدَّى ﴾ هلك ومات، بل يكون وبالًا عليه، إذ لم يقدم منه لآخرته شيئًا ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ أي إن الهدى يوصل إلى الله ويدني من رضاه، وأما طرق الضلال فمسدودة عن الله، لا توصل صاحبها إلا للعذاب الشديد ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴾ ملكًا وتصرفًا، ليس له فيهما مشارك ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴾ أي تستعر وتتوقد ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى. الَّذِي كَذَّبَ ﴾ بالخبر ﴿وَتَوَلَّى ﴾ عن الأمر ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى. الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ بأن يكون قصده به تزكية نفسه، وتطهيرها من الذنوب والعيوب، قاصدًا به وجه الله تعالى ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ

[1] هذا قسم من الله بالزمان الذي تقع فيه أفعال العباد على تفاوت أحوالهم

تُجْزَى ﴾ أي ليس لأحد من الخلق على هذا الأتقى نعمة تجزى إلا وقد كافأه بها ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى. وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ هذا الأتقى بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والمثوبات، والحمد لله رب العالمين.

93

مختصر تفسير سورة الضحى

عدد آياتها 11

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 11 ﴾ ﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾

﴿ وَالضُّحَى ﴾ أقسم تعالى بالنهار إذا انتشر ضياؤه بالضحى ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ وادلهمت ظلمته، على اعتناء الله برسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك ﴿ وَمَا قَلَى ﴾ ك الله أي ما أبغضك منذ أحبك، فإن نفي الضد دليل على ثبوت ضده، والنفي المحض لا يكون مدحًا، إلا إذا تضمن ثبوت كمال، فهذه حال الرسول صلى الله عليه وسلم الماضية والحاضرة، أكمل حال وأتمها، محبة الله له واستمرارها، وترقيته في درج الكمال، ودوام اعتناء الله به ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ أي كل حالة متأخرة من أحوالك، فإن لها الفضل على الحالة السابقة. فلم يزل صلى الله عليه وسلم يصعد في درج المعالي ويمكن له الله دينه، وينصره على أعدائه، ويسدد له أحواله، حتى مات، وقد وصل إلى حال لا يصل إليها الأولون والآخرون من الفضائل والنعم وقرة العين وسرور القلب ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه بغير هذه العبارة الجامعة الشاملة عن حاله في الآخرة ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ مات أبوه وأمه وهو لا يدبر نفسه، فآواه الله، وكفله جده عبد المطلب، ثم لما مات جده كفله الله عمه أبا طالب، حتى أيده بنصره وبالمؤمنين﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ أي وجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا ﴾ أي فقيرًا ﴿ فَأَغْنَى ﴾ بما فتح الله عليك من البلدان ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ فقابل نعمته بالشكران ولا تسيء معاملة اليتيم، ولا يضق صدرك عليه، ولا تنهره ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ أي أعطه ما تيسر عندك أو رده بمعروف وإحسان. وهذا يدخل فيه السائل للمال وللعلم ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ الدينية والدنيوية ﴿ فَحَدِّثْ ﴾ أي أثن على الله بها، وخصصها بالذكر إن كان هناك مصلحة. وإلا فحدث بنعم الله على الإطلاق، فإن التحدث بنعمة الله، داع لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن.

مختصر تفسير سورة الشرح

عدد آياتها 8

هي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 8 ﴾ ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ أي نوسعه لشرائع الدين والدعوة إلى الله فلم يكن ضيقًا حرجًا ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴾ أي ذنبك ﴿ الَّذِي أَنْقَضَ ﴾ أثقل ﴿ ظَهْرَكَ ﴾ وقد غفر تعالى مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالي، فلا يذكر الله إلا ذكر معه رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ بشارة عظيمة، أنه كلما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه. وتعريف "العسر" في الآيتين، يدل على أنه واحد، وتنكير "اليسر" يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين. وفي تعريفه بالألف واللام، الدالة على الاستغراق والعموم يدل على أن كل عسر –وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ– فإنه في آخره التيسير ملازم له. ثم أمر الله رسوله أصلًا، والمؤمنين تبعًا، بشكره والقيام بواجب نعمه، فقال ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴾ أي إذا تفرغت من أشغالك، ولم يبق في قلبك ما يعوقه، فاجتهد في العبادة والدعاء ﴿ وَإِلَى رَبِّكَ ﴾ وحده ﴿ فَارْغَبْ ﴾ أي أعظم الرغبة في إجابة دعائك وقبول عباداتك. ولا تكن ممن إذا فرغوا وتفرغوا لعبوا وأعرضوا عن ربهم وعن ذكره، فتكون من الخاسرين. وقد قيل: فإذا فرغت من الصلاة وأكملتها، فانصب في الدعاء، وإلى ربك فارغب في سؤال مطالبك.

والله أعلم بذلك

تمت ولله الحمد

95

مختصر تفسير سورة التين

عدد آياتها 8

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 – 8 ﴾ ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾

﴿ وَالتِّينِ ﴾ هو التين المعروف ﴿ وَالزَّيْتُونِ ﴾ أقسم بهاتين الشجرتين، لكثرة منافع شجرهما وثمرهما، ولأن سلطانهما في أرض الشام، محل نبوة عيسى ابن مريم عليه السلام ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ أي طور سيناء، محل نبوة موسى صلى الله عليه وسلم ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ وهي مكة المكرمة، محل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم. فأقسم تعالى بهذه المواضع المقدسة، التي اختارها وابتعث منها أفضل النبوات وأشرفها. والمقسم عليه قوله ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ أي تام الخلق، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهرًا أو باطنًا شيئًا ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ ومع هذه النعم العظيمة، التي ينبغي منه القيام بشكرها، فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم، فردهم الله في أسفل النار، موضع العصاة المتمردين على ربهم ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إلا من من الله عليه بالإيمان والعمل الصالح، والأخلاق الفاضلة العالية ﴿ فَلَهُمْ ﴾ بذلك المنازل العالية و﴿ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير مقطوع ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ أي شيء يكذبك أيها الإنسان بيوم الجزاء على الأعمال، وقد رأيت من آيات الله الكثيرة ما به يحصل لك اليقين، ومن نعمه ما يوجب عليك أن لا تكفر بشيء مما أخبرك به ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ فهل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدى؟ أم لا بد أن يعيدهم إلى دار مستقرهم وغايتهم.

تمت

ولله الحمد

مختصر تفسير سورة العلق

عدد آياتها 19

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 19 ﴾ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى * أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى * كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ[1]﴾ عموم الخلق ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ خص الإنسان، وذكر ابتداء خلقه. فالذي خلق الإنسان واعتنى بتدبيره، لا بد أن يدبره بالأمر والنهي، وذلك بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم، ولهذا ذكر بعد الأمر بالقراءة خلقه للإنسان ثم قال ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ أي كثير الكرم والإحسان واسع الجود ﴿ الَّذِي ﴾ من كرمه علم بالعلم و ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ الذي به تحفظ به العلوم، وتضبط الحقوق ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وعلمه ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ﴾ بغى وتجبر عن الهدى ﴿ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ إذا رأى نفسه غنيًا ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ ونسي أن إلى ربه الرجعى، ولم يخف الجزاء ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي ﴾ بل ربما وصلت به الحال أنه ﴿ يَنْهَى. عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ عن الصلاة التي هي أفضل أعمال الإيمان. يقول الله لهذا المتمرد العاتي ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ أيها الناهي للعبد إذا صلى ﴿ إِنْ كَانَ ﴾ العبد المصلي ﴿ عَلَى الْهُدَى ﴾ العلم بالحق والعمل به ﴿ أَوْ أَمَرَ ﴾ غيره ﴿ بِالتَّقْوَى ﴾ أليس نهيه من أعظم المحاربة للحق ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ ﴾ الناهي بالحق ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ عن الأمر، أما يخاف الله ويخشى عقابه ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ ما يعمل ويفعل ﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ ﴾ عما يقول ويفعل ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ أي لنأخذن بناصيته أخذًا عنيفًا، فإنها ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ ﴾ في قولها ﴿ خَاطِئَةٍ ﴾ في فعلها ﴿ فَلْيَدْعُ ﴾ هذا الذي حق عليه العقاب ﴿ نَادِيَهُ ﴾ أي أهل مجلسه وأصحابه ومن حوله ليعينوه على ما نزله به ﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ أي خزنة جهنم، لأخذه وعقوبته. وأما حالة المنهي، فأمره الله أن لا يصغى إلى هذا الناهي ولا ينقاد لنهيه فقال ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ ﴾ فإنه لا يأمر إلا بما فيه خسارة الدارين ﴿ وَاسْجُدْ ﴾ لربك ﴿ وَاقْتَرِبْ ﴾ منه في السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات، فإنها كلها تدني من رضاه وتقرب منه.

---

[1] هذه السورة أول السور القرآنية نزولًا على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإنها نزلت عليه في مبادئ النبوة، إذ كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام بالرسالة، وأمره أن يقرأ، فامتنع وقال {ما أنا بقارئ} فلم يزل به حتى قرأ. فأنزل الله عليه هذه السورة

وهذا عام لكل ناه عن الخير ومنهي عنه، وإن كانت نازلة في شأن أبي جهل حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة، وعبث به وآذاه.

تمت

ولله الحمد

97

مختصر تفسير سورة القدر

عدد آياتها 5

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 – 5 ﴾ ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ ابتدأ الله تعالى بإنزاله في رمضان في ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمة عامة، لا يقدر العباد لها شكرًا. وسميت ليلة القدر لعظم قدرها وفضلها عند الله، ولأنه يقدر فيها ما يكون في العام من الأجل والأرزاق والمقادير القدرية ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ فإن شأنها جليل ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ فالعمل الذي يقع فيها خير من العمل في ألف شهر ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ أي يكثر نزولهم فيها ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ. سَلَامٌ هِيَ ﴾ أي سالمة من كل آفة وشر، وذلك لكثرة خيرها ﴿ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ أي مبتداها من غروب الشمس ومنتهاها طلوع الفجر. وقد تواترت الأحاديث في فضلها، وأنها في رمضان، وفي العشر الأواخر منه، خصوصًا في أوتاره، وهي باقية في كل سنة إلى قيام الساعة. ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم، يعتكف، ويكثر من التعبد في العشر الأواخر من رمضان، رجاء ليلة القدر والله أعلم.

98

مختصر تفسير سورة البينة

عدد آياتها 8

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 – 8 ﴾ ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ * وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ أي من اليهود والنصارى ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ ﴾ من سائر أصناف الأمم ﴿ مُنْفَكِّينَ ﴾ عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه، أي لا يزالون في غيهم وضلالهم، لا يزيدهم مرور السنين إلا كفرًا ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ الواضحة ﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ أرسله الله يدعو الناس إلى الحق، وأنزل عليه كتابًا يتلوه ليعلم الناس الحكمة ويزكيهم ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ محفوظة عن قربان الشياطين لا يمسها إلا المطهرون ﴿فِيهَا ﴾ في تلك الصحف ﴿ كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ أخبار صادقة، وأوامر عادلة تهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ وإذا لم يؤمن أهل الكتاب لهذا الرسول وينقادوا له، فليس ذلك ببدع من ضلالهم وعنادهم، فإنهم ما تفرقوا واختلفوا وصاروا أحزابًا ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ التي توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق. ولكنهم لرداءتهم ونذالتهم، لم يزدهم الهدى إلا ضلالًا ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ مع أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد ودين واحد أي قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه ﴿ حُنَفَاءَ ﴾ أي معرضين عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد ﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وخص الصلاة والزكاة لفضلهما وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين ﴿ وَذَلِكَ ﴾ التوحيد والإخلاص في الدين هو ﴿ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ أي الدين المستقيم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ قد أحاط بهم عذابها ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ لا يفتر عنهم العذاب ﴿ أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ لأنهم عرفوا الحق وتركوه، وخسروا الدنيا والآخرة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ لأنهم عبدوا الله وعرفوه، وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ أي جنات إقامة ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ فرضي عنهم بما قاموا به من مراضيه، ورضوا عنه، بما أعد لهم من أنواع الكرامات وجزيل المثوبات ﴿ ذَلِكَ ﴾ الجزاء الحسن ﴿ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ أي لمن خاف الله فأحجم عن معاصيه وقام بواجباته.

تمت بحمد لله

99

مختصر تفسير سورة الزلزلة

عدد آياتها 8

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 8 ﴾ ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ يخبر تعالى عما يكون يوم القيامة، وأن الأرض تتزلزل وترجف وترتج، حتى يسقط ما عليها ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ أي ما في بطنها من الأموات والكنوز ﴿ وَقَالَ الْإِنْسَانُ ﴾ إذا رأى ما عراها من الأمر العظيم مستعظمًا لذلك ﴿ مَا لَهَا ﴾ أي أي شيء عرض لها ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ ﴾ الأرض ﴿ أَخْبَارَهَا ﴾ تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر، فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم، ذلك ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ أمرها أن تخبر بما عمل عليها، فلا تعصى لأمره ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ ﴾ من موقف القيامة، حين يقضي الله بينهم ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ فرقًا متفاوتين ﴿ لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ ليريهم الله ما عملوا من الحسنات والسيئات، ويريهم جزاءه موفرًا ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ وهذا شامل عام للخير والشر كله، لأنه إذا رأى مثقال الذرة التي هي أحقر الأشياء وجوزي عليها فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى. وهذه الآية فيها غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلًا، والترهيب من فعل الشر ولو حقيرًا.

100

مختصر تفسير سورة العاديات

عدد آياتها 11

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 11 ﴾ ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴾

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ العاديات عدوًا بليغًا قويًا يصدر عنه الضبح، وهو صوت نفسها في صدرها عند اشتداد العدو. أقسم الله تبارك وتعالى بالخيل، لما فيها من آيات الله الباهرة، وفي الحال التي لا يشاركها فيه غيرها من أنواع الحيوانات﴿ فَالْمُورِيَاتِ ﴾ بحوافرهن ما يطأن عليه من الأحجار ﴿ قَدْحًا ﴾ تقدح النار من صلابة حوافرهن وقوتهن إذا عدون ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ ﴾ على الأعداء﴿ صُبْحًا ﴾ وهذا أمر أغلبي، أن الغارة تكون صباحًا ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ ﴾ بعدوهن وغارتهن ﴿ نَقْعًا ﴾ غبارًا ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ ﴾ براكبهن ﴿ جَمْعًا ﴾ توسطن به جموع الأعداء الذين أغار عليهم. والمقسم عليه، قوله ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ لمنوع للخير الذي عليه لربه. فطبيعة الإنسان وجبلته، أن نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق، فتؤديها كاملة موفرة، بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليه من الحقوق المالية والبدنية، إلا من هداه الله وخرج عن هذا الوصف إلى وصف السماح بأداء الحقوق ﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ إن الإنسان على ما يعرف من نفسه من المنع والكند لشاهد بذلك، لا يجحده ولا ينكره، لأن ذلك أمر بين واضح. ويحتمل أن الضمير عائد إلى الله تعالى أي: إن العبد لربه لكنود، والله شهيد على ذلك، ففيه الوعيد، والتهديد الشديد، لمن هو لربه كنود، بأن الله عليه شهيد ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي الإنسان ﴿ لِحُبِّ الْخَيْرِ ﴾ أي المال ﴿ لَشَدِيدُ ﴾ أي كثير الحب للمال. وحبه لذلك هو الذي أوجب له ترك الحقوق الواجبة عليه. فقدم شهوة نفسه على حق ربه، وكل هذا لأنه قصر نظره على هذه الدار، وغفل عن الآخرة، ولهذا قال حاثًا له على خوف يوم الوعيد ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ ﴾ هلا يعلم هذا المغتر ﴿ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ أخرج الله الأموات من قبورهم، لحشرهم ونشورهم ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ ظهر وبان ما استتر في الصدور من كمائن الخير والشر، فصار السر علانية، والباطن ظاهرًا، وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴾ أي مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، ومجازيهم عليها. وخص خبره بذلك اليوم، مع أنه خبير بهم في كل وقت، لأن المراد بذلك، الجزاء بالأعمال الناشئ عن علم الله واطلاعه.

101

مختصر تفسير سورة القارعة

عدد آياتها 11

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 11 ﴾ ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ * فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾

﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك، لأنها تقرع الناس وتزعجهم بأهوالها. ولهذا عظم أمرها وفخمه بقوله ﴿ مَا الْقَارِعَةُ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ. يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ ﴾ من شدة الفزع والهول ﴿ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوث ﴾ المنتشر، يموج بعضه في بعض. إذا أوقد لها نار تهافتت إليها لضعف إدراكها. فهذه حال الناس أهل العقول ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ ﴾ الصم الصلاب فتكون ﴿ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ كالصوف المنفوش تطير به أدنى ريح ثم بعد ذلك تكون هباء منثورًا فتضمحل. فحينئذ تنصب الموازين، وينقسم الناس قسمين ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ رجحت حسناته على سيئاته ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ في جنات النعيم ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ بأن لم تكن له حسنات تقاوم سيئاته ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ مأواه ومسكنه النار، التي من أسمائها الهاوية، تكون له بمنزلة الأم الملازمة. وقيل إن معنى ذلك: فأم دماغه هاوية في النار، أي: يلقى في النار على رأسه ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ ﴾ وهذا تعظيم لأمرها، ثم فسرها بقوله هي ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ شديدة الحرارة، قد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا سبعين ضعفًا. نستجير بالله منها.

102

تفسير سورة التكاثر

عدد آياتها 8

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 8 ﴾ ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾

﴿ أَلْهَاكُمُ ﴾ يقول تعالى موبخًا عباده عن اشتغالهم عما خلقوا له من عبادته وحده لا شريك له، ومعرفته، والإنابة إليه، وتقديم محبته على كل شيء ﴿ التَّكَاثُرُ ﴾ ولم يذكر المتكاثر به، ليشمل ذلك التكاثر في الأموال والأولاد والأنصار والجنود والخدم والجاه وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر، وليس المقصود به الإخلاص لله تعالى. فاستمرت غفلتكم ولهوتكم وتشاغلكم ﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ فانكشف لكم حينئذ الغطاء، ولكن بعد ما تعذر عليكم استئنافه. ودل قوله هذا، أن البرزخ دار مقصود منها النفوذ إلى الدار الباقية، أن الله سماهم زائرين، ولم يسمهم مقيمين. فدل ذلك على البعث والجزاء بالأعمال في دار باقية غير فانية، ولهذا توعدهم بقوله ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ. كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ لو تعلمون ما أمامكم علمًا يصل إلى القلوب لما ألهاكم التكاثر، ولبادرتم إلى الأعمال الصالحة. ولكن عدم العلم الحقيقي، صيركم إلى ما ترون ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ لتردن القيامة، فلترون الجحيم التي أعدها الله للكافرين ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ رؤية بصرية ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ الذي تنعمتم به في دار الدنيا: هل قمتم بشكره وأديتم حق الله فيه، ولم تستعينوا به على معاصيه، فينعمكم نعيمًا أعلى منه وأفضل. أم اغتررتم به، ولم تقوموا بشكره؟ بل ربما استعنتم به على معاصي الله فيعاقبكم على ذلك.

103

مختصر تفسير سورة العصر

عدد آياتها 3

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 3 ﴾ ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾

﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ أقسم تعالى بالعصر وهو الليل والنهار، ومحل أفعال العباد وأعمالهم ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ كل إنسان خاسر. قد يكون خسارًا مطلقًا، كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم، واستحق الجحيم. وقد يكون خاسرًا من بعض الوجوه فقط. ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ﴾ اتصفوا بأربع صفات 1- ﴿ آمَنُوا ﴾ الإيمان بما أمر الله بالإيمان به. ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه لا يتم إلا به 2- ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وهذا شامل لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله وحق عباده ، الواجبة والمستحبة 3- ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ وهو الإيمان والعمل الصالح. يوصي بعضهم بعضاً بذلك، ويحثه عليه، ويرغبه فيه 4- ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة.

- ✓ بالأمرين الأولين يكمل الإنسان نفسه.
- ✓ بالأمرين الأخيرين يكمل غيره.
- ✓ بتكميل الأمور الأربعة، يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالربح العظيم.

104

مختصر تفسير سورة الهمزة

عدد آياتها 9

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 9 ﴾ ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾

﴿ وَيْلٌ ﴾ وعيد، ووبال، وشدة عذاب ﴿ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ الذي يهمز الناس بفعله، ويلمزهم بقوله. فالهماز: الذي يعيب الناس، ويطعن عليهم بالإشارة والفعل، واللماز: الذي يعيبهم بقوله ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴾ ومن صفة هذا الهماز اللماز، أنه لا هم له سوى جمع المال وتعديده والغبطة به، وليس له رغبة في إنفاقه في طرق الخيرات وصلة الأرحام، ونحو ذلك ﴿ يَحْسَبُ ﴾ بجهله ﴿ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ في الدنيا، فلذلك كان كده وسعيه كله في تنمية ماله، الذي يظن أنه ينمي عمره ﴿ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ ﴾ أي ليطرحن ﴿ فِي الْحُطَمَةِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴾ تعظيم لها، وتهويل لشأنها. ثم فسرها بقوله ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴾ التي وقودها الناس والحجارة ﴿ الَّتِي ﴾ من شدتها ﴿ تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾ تنفذ من الأجسام إلى القلوب. ومع هذه الحرارة البليغة هم محبوسون فيها، قد أيسوا من الخروج منها، ولهذا قال ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ﴾ مغلقة ﴿ فِي عَمَدٍ ﴾ من خلف الأبواب ﴿ مُمَدَّدَةٍ ﴾ لئلا يخرجوا منها.

نعوذ بالله من ذلك، ونسأله العفو والعافية.

105

مختصر تفسير سورة الفيل

عدد آياتها 5

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 5 ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أما رأيت من قدرة الله وعظيم شأنه، ورحمته بعباده، وأدلة توحيده، وصدق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ الذين كادوا بيته الحرام وأرادوا إخرابه، واستصحبوا معهم الفيلة لهدمه، وجاءوا بجمع لا قبل للعرب به من الحبشة واليمن. فلما انتهوا إلى قرب مكة ولم يكن بالعرب مدافعة وخرج أهل مكة من مكة خوفًا على أنفسهم منهم ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ أي: متفرقة ﴿ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ تحمل حجارة محماة من سجيل. فرمتهم بها، وتتبعت قاصيهم ودانيهم، فخمدوا وهمدوا ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ وكفى الله شرهم، ورد كيدهم في نحورهم. وكانت تلك السنة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصارت من جملة إرهاصات دعوته، ومقدمات رسالته، فلله الحمد والشكر.

106

مختصر تفسير سورة قريش

عدد آياتها 4

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 4 ﴾ ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ قال كثير من المفسرين: إن الجار والمجرور متعلق بالسورة التي قبلها أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل ﴿ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ لأجل قريش وأمنهم، واستقامة مصالحهم، وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن، والصيف للشام، لأجل التجارة والمكاسب. فأهلك الله من أرادهم بسوء، وعظم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب، حتى احترموهم، ولم يعترضوا لهم في أي سفر أرادوا، ولهذا أمرهم الله بالشكر، فقال ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ ليوحدوه ويخلصوا له العبادة ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ فرغد الرزق والأمن من المخاوف، من أكبر النعم الدنيوية، الموجبة لشكر الله تعالى.

فلك اللهم الحمد والشكر على نعمك الظاهرة والباطنة. وخص الله بالربوبية البيت لفضله وشرفه، وإلا فهو رب كل شيء.

107

مختصر تفسير سورة الماعون

عدد آياتها 7

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 – 7 ﴾ ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ بالبعث والجزاء، فلا يؤمن بما جاءت به الرسل. وفيها يذم تعالى من ترك حقوقه وحقوق عباده ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ يدفعه بعنف وشدة، ولا يرحمه لقساوة قلبه، ولأنه لا يرجو ثوابًا، ولا يخشى عقابًا ﴿ وَلَا يَحُضُّ ﴾ غيره ﴿ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ ومن باب أولى أنه بنفسه لا يطعم المسكين ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ الملتزمون لإقامة الصلاة، ولكنهم ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ مضيعون لها، تاركون لوقتها، مفوتون لأركانها. وهذا لعدم اهتمامهم بأمر الله حيث ضيعوا الصلاة، التي هي أهم الطاعات وأفضل القربات. والسهو عن الصلاة هو الذي يستحق صاحبه الذم واللوم. وأما السهو في الصلاة، فهذا يقع من كل أحد، حتى من النبي صلى الله عليه وسلم. ولهذا وصف الله هؤلاء بالرياء والقسوة وعدم الرحمة، فقال ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ يعملون الأعمال لأجل رئاء الناس ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾[1] يمنعون إعطاء الشيء، الذي لا يضر إعطاؤه على وجه العارية، أو الهبة، كالإناء والدلو والفأس، فكيف بما هو أكثر منه.

[1] وفي هذه السورة، الحث على إكرام اليتيم، والمساكين، والتحضيض على ذلك، ومراعاة الصلاة، والمحافظة عليها، وعلى الإخلاص فيها وفي جميع الأعمال. والحث على فعل المعروف وبذل الأموال الخفيفة، كعارية الإناء والدلو والكتاب، ونحو ذلك. لأن الله ذم من لم يفعل ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين.

108

مختصر تفسير سورة الكوثر

عدد آياتها 3

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 3 ﴾ ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ الخير الكثير، ومن جملته، ما يعطيه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة، من النهر الذي يقال له الكوثر. ومن الحوض طوله شهر، وعرضه شهر، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، آنيته كنجوم السماء في كثرتها واستنارته. من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ خص هاتين العبادتين بالذكر لأنهما من أفضل العبادات ولأن الصلاة تتضمن خضوع القلب والجوارح لله، وفي النحر تقرب إلى الله وإخراج للمال الذي جبلت النفوس على محبته والشح به ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾ أي مبغضك وذامك ومنتقصك ﴿ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ المقطوع من كل خير، مقطوع العمل، مقطوع الذكر. وأما محمد صلى الله عليه وسلم، فهو الكامل حقًّا، الذي له الكمال الممكن في حق المخلوق، من رفع الذكر وكثرة الأنصار والأتباع، صلى الله عليه وسلم.

109

مختصر تفسير سورة الكافرون

عدد آياتها 6

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 6 ﴾ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ معلنا ومصرحًا ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ تبرأ مما كانوا يعبدون من دون الله، ظاهرًا وباطنًا ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ لعدم إخلاصكم في عبادته، فعبادتكم له المقترنة بالشرك لا تسمى عبادة ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ثم كرر ذلك ليدل الأول على عدم وجود الفعل، والثاني على أن ذلك قد صار وصفًا لازمًا. ولهذا ميز بين الفريقين، وفصل بين الطائفتين، فقال ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾.

110

مختصر تفسير سورة النصر

عدد آياتها 3

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 3 ﴾ ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ في هذه السورة الكريمة بشارة وأمر لرسوله عند حصولها، وإشارة وتنبيه على ما يترتب على ذلك. فالبشارة هي البشارة بنصر الله لرسوله وفتحه مكة ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ ودخول الناس في دين الله أفواجًا. ليكون كثير منهم من أهله وأنصاره، بعد أن كانوا من أعدائه وقد وقع هذا المبشر به ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ فعليه بعد حصول النصر والفتح أن يشكر ربه على ذلك، ويسبح بحمده ويستغفره. وأما الإشارة، فهي إشارة لأن يستمر النصر لهذا الدين ويزداد عند حصول التسبيح بحمد الله واستغفاره من رسوله، فإن هذا من الشكر. ولم يزل نصر الله مستمرًا، حتى وصل الإسلام إلى ما لم يصل إليه دين من الأديان، ودخل فيه، ما لم يدخل في غيره. وذلك حتى حدث من الأمة من مخالفة أمر الله ما حدث، فابتلاهم الله بتفرق الكلمة، وتشتت الأمر، فحصل ما حصل. ومع هذا فلهذا الدين من رحمة الله ولطفه، ما لا يخطر بالبال. وإشارة أيضاً إلى أن أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قرب ودنا، ووجه ذلك أن عمره عمر فاضل أقسم الله به. وقد عهد أن الأمور الفاضلة تختم بالاستغفار، كالصلاة والحج، وغير ذلك. فأمر الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال، إشارة إلى أن أجله قد انتهى، فليستعد ويتهيأ للقاء ربه، ويختم عمره بأفضل ما يجده صلوات الله وسلامه عليه. فكان صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: "سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي".

111

مختصر تفسير سورة المسد

عدد آياتها 5

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 5 ﴾ ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ خسرت يداه، وشقى. وأبو لهب هو عم النبي صلى الله عليه وسلم، وكان شديد العداوة والأذية للنبي صلى الله عليه وسلم. فلا فيه دين، ولا حمية للقرابة -قبحه الله- فذمه الله بهذا الذم العظيم، الذي هو خزي عليه إلى يوم القيامة ﴿ وَتَبَّ ﴾ فلم يربح ﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ ﴾ الذي كان عنده وأطغاه ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ ولا ما كسبه فلم يرد عنه شيئًا من عذاب الله إذ نزل به ﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ ستحيط به النار من كل جانب، هو ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ وكانت أيضًا تتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول صلى الله عليه وسلم، وتجمع على ظهرها من الأوزار بمنزلة من يجمع حطبًا، قد أعد لها ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ من ليف. أو أنها تحمل في النار الحطب على زوجها، متقلدة في عنقها حبلًا من مسد. وعلى كل، ففي هذه السورة، آية باهرة من آيات الله، فإن الله أنزل هذه السورة، وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا بد. ومن لازم ذلك أنهما لا يُسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

112

مختصر تفسير سورة الإخلاص

عدد آياتها 4

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 4 ﴾ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ قولًا جازمًا به، معتقدًا له، عارفًا بمعناه ﴿ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، لا نظير له ولا مثيل ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ المقصود في جميع الحوائج. فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم، لأنه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الحليم الذي قد كمل في حلمه، الرحيم الذي كمل في رحمته الذي وسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ لكمال غناه ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى. فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات.

مختصر تفسير سورة الفلق

عدد آياتها 5

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ 1 - 5 ﴾ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾

﴿ قل أَعُوذُ ﴾ أي ألجأ وألوذ وأعتصم ﴿ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ فالق الحبّ والنوى وفالق الإصباح ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ يستعاذ بخالق جميع ما خلق الله من الشر االموجود في الإنس والجن والحيوانات ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ وهذا تخصيص بعد التعميم: من شر ما يكون في الليل، حين يغشى الناس ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ ومن شر السواحر اللاتي يستعن على سحرهن بالنفث في العقد، التي يعقدنها على السحر ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ الذي يحب زوال النعمة عن المحسود فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب. لذلك لابدّ من الاستعاذة بالله من شره لإبطال كيده. ويدخل في الحاسد العاين لأنّه لا تصدر العين إلا من حاسد شرير الطبع. فهذه السورة تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشرور عمومًا وخصوصًا. ودلت على أن السحر له حقيقة يخشى من ضرره، ويستعاذ بالله منه ومن أهله.

114

مختصر تفسير سورة الناس

عدد آياتها 6

وهي مدنيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ ﴾ وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة برب الناس ومالكهم وإلههم، من الشيطان الذي هو أصل الشرور كلها ومادتها ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ ﴾ ومن فتنته وشره ﴿ الْخَنَّاسِ ﴾ وهو دائمًا يوسوس ويخنس، أي يتأخر إذا ذكر العبد ربه واستعان على دفعه ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ أنه يوسوس في صدور الناس، فيُحسّن لهم الشر، ويريهم إياه في صورة حسنة، وينشط إرادتهم لفعله، ويقبح لهم الخير ويثبطهم عنه، ويريهم إياه في صورة غير صورته ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ والوسواس كما يكون من الجن يكون من الإنس. فينبغي للعبد أن يستعين ويستعيذ ويعتصم بربوبية الله للناس كلهم. وبألوهيته التي خلقهم لأجلها، فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم، الذي يريد أن يقتطعهم عنها ويحول بينهم وبينها، ويريد أن يجعلهم من حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

والحمد لله رب العالمين أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا.

ونسأله تعالى أن يتم نعمته،

وأن يعفو عنا ذنوبًا لنا حالت بيننا وبين كثير من بركاته،

وخطايا وشهوات ذهبت بقلوبنا عن تدبر آياته.

ونرجوه ونأمل منه أن لا يحرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا،

فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون،

ولا يقنط من رحمته إلا القوم الضالون.

وصلى الله وسلم على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،

صلاة وسلامًا دائمين متواصلين أبد الأوقات،

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تم تفسير كتاب الله بعونه وحسن توفيقه،

على يد جامعه وكاتبه، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله المعروف بابن سعدي، غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين،

وذلك في غرة ربيع الأول من سنة أربع وأربعين وثلثمائة وألف من هجرة محمدً صلى الله عليه وسلم

ووقع النقل في شعبان 1345

ربنا تقبل منا واعف إنك أنت الغفور الرحيم.

تم بحمد الله

لا تنسونا من دعوه بظهر الغيب